الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

المجلد الرابع

دار
إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

Marfat.com

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء السابع

عطیہ

برائے دار العلوم محمدیہ سیالکوٹ

از

برادرم محمد حسین صاحب . وزیر آبادی ضلع گوجرانوالہ حال مقیم

قصر مقام العین ابوظبی

محرم ۱۴۰۳ ہجری

اعاد طبعه

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

١٩٦٥

Marfat.com

فهرس الجزء السابع

تفسير سورة الأنعام

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب ... » الآية . بحث فى الكلام على «مفاتح الغيب » ، والمراد منها . حكم من أخبر بما يكون فى غد ، والكهانة والعرافة ، والمكاسب والمجتمع على تحريمها . الكلام على تفسير قوله « ويعلم ما فى البر والبحر ١

تفسير قوله تعالى : « وهو الذى يتوفاكم بالليل ... » الآية ٥

تفسير قوله تعالى : « وهو القاهر فوق عباده ... » الآية . المعنى المراد بالفوقية . الكلام على الحفظة . المعنى المراد بالتوفى ٦

تفسير قوله تعالى : « قل هو القادر على أن يبعث ... » الآية . اختلاف العلماء فى هذه الآية ، هل هى عامة فى المسلمين والكفار ، أم هى خاصة بالكفار ... ٩

تفسير قوله تعالى : « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا ... » الآية . اختلاف العلماء فى هذا الخطاب ، هل هو خاص بالنبى صلى الله عليه وسلم . فى الآية دليل على أن مجالسة أهل الكبائر لا تحل ، وفيها ردّ على من زعم أن الأئمة لهم أن يخالطوا الفاسقين ويصوّبوا آراءهم تقيّة . مذهب العلماء فى جواز النسيان على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم جوازه ١٢

تفسير قوله تعالى : «وما على الذين يتقون ...» الآية . الكلام فى نسخ هذه الآية . ١٤

تفسير قوله تعالى : « وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوًا ... » الآية . المعنى المراد بالدّين هنا . الكلام على معنى الإبسال ١٥

تفسير قوله تعالى : « قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ... » الآيات . قيل : إن الآية نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، كان يدعو أباه إلى الكفر، وأبواه يدعوانه إلى الإسلام . كلام العلماء عن النفخ فى الصور ١٧

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ... » الآية . اختلاف العلماء في اسم والد سيدنا إبراهيم عليه السلام ٢١

تفسير قوله تعالى : « وكذلك نُرِى إبراهيم ... » الآية . أقوال العلماء في معنى رؤية سيدنا إبراهيم ملكوت السموات ؛ وكيف وُلد ورُبِّيَ ٢٣

تفسير قوله تعالى : « فلما جَنّ عليه الليل ... » الآية . المدة التي قضاها سيدنا إبراهيم في السرب وهو طفل ؛ وبيان قوله « هذا ربي » ٢٥

تفسير قوله تعالى : « فلما رأى القمر بازغا ... » الآيات ٢٧

تفسير قوله تعالى : « إني وجهت وجهى ... » الآية . بيان كلام النحاة على لفظ «أنا» وما فيه من لغات ٢٨

تفسير قوله تعالى : « ووهبنا له إسحاق ويعقوب ... » الآيات . الكلام على رجوع الضمير في قوله «ومن ذريته» . بحث فيمن وقف وقفا على ولده وولد ولده ، هل يدخل فيه ولد ولده وولد بناته . بيان القراءات في قوله «والْيَسَع» ٣١

تفسير قوله تعالى : « أولئك الذين هدى الله » الآية . احتج بعض العلماء بهذه الآية على وجوب اتباع شرائع الأنبياء فيما عدم فيه النص . اختلاف القراء في قراءة « اقْتَدِهْ » ٣٥

تفسير قوله تعالى : « وما قَدَرُوا الله حق قَدْره » الآية . بيان المعنى المراد من هذه الآية وفيمن نزلت ٣٦

تفسير قوله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا » الآية . الكلام على من تنبأ وزعم أنه قد أوحى إليه . ارتداد عبد الله بن أبي سَرْح كاتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام ، وأَمْرُ الرسول بقتله ، وفراره إلى عثمان رضى الله عنه ، ثم إسلامه وتوليته مصر بعد ذلك في خلافة عثمان . بيان أن روح المؤمن تنشط للخروج للقاء ربه ، وروح الكافر تنتزع انتزاعا ٣٩

تفسير قوله تعالى : « ولقد جئتمونا فُرادَى ... » الآية . الكلام على معنى «فُرادَى» وما فيها من اللغات ٤٢

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « إن الله فالق الحبِّ والنَّوَى » الآية . بيان المراد من قوله « فالق الحب » ٤٤

تفسير قوله تعالى : « فالق الإصباح ... » الآية . وما فيها من القراءات ٤٤

تفسير قوله تعالى : « وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة » الآية . بيان أن المراد بالنفس آدم عليه السلام . معنى المستقَر والمستودَع ٤٦

تفسير قوله تعالى : « وهو الذى أنزل من السماء ماء » الآية . الكلام على ما فى « قنو » من اللغات . فى الآية دليل على أن ينظر الإنسان فى المخلوقات نظر اعتبار وتدبّر . بيان أسماء الثمر فى أطواره . معنى « اليَنْع » الذى يقف عليه جواز بيع الثمرة وبه يَطيب أكلها ، وفى أى وقت يكون . الكلام على بيع الثمر قبل أن يبدو صلاحه أو إذا أصابته جائحة ٤٧

تفسير قوله تعالى : « وجعلوا لله شركاء الجن ... » الآية . الكلام على سبب نزول الآية . ٥٢

تفسير قوله تعالى : « لا تدركه الأبصار ... » الآية . الكلام على معنى الإدراك . اختلاف السلف فى رؤية نبينا صلى الله عليه وسلم ربّه ٥٤

تفسير قوله تعالى : « وكذلك نصرّف الآيات ... » الآية . بيان اختلاف القرّاء فى قوله « دَرَسْتَ » ٥٨

تفسير قوله تعالى : « ولو شاء الله ما أشركوا » الآية . فى الآية نص على أن الشرك بمشيئة الله تعالى ٦٠

تفسير قوله تعالى : « ولا تَسُبُّوا الذين يدعون من دون الله » . الآية . بيان سبب نزول الآية ، وأن حكمها باق فى هذه الأمة . فى الآية ضرب من الموادعة ، وفيها دليل على أن المُحِق قد يَكُفّ عن حق له إذا أدّى إلى ضرر فى الدين ... ٦١

تفسير قوله تعالى : « وأقسموا بالله جَهْد أيمانهم » الآية . الكلام على سبب نزول الآية . معنى « جَهْد اليمين » وقول الرجل : الأيمان تلزمه إن كان كذا وكذا ؛ واختلاف الفقهاء فيما يلزمه إن حنث فيها . بحث فى « أنّ » قد تأتى بمعنى « لعل » والشاهد عليها ٦٢

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : «ونُقلِّب أفئدتهم وأبصارهم» الآية . بيان معنى التقليب ٦٥

تفسير قوله تعالى : « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ... » الآية . معنى « قُبُلا » ٦٦

تفسير قوله تعالى : «وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوًّا...» الآية . الكلام على أن لكل إنسان قرينا من الجن ٦٧

تفسير قوله تعالى : « ولِتَصغى إليه أفئدة الذين ... » الآية ٦٩

تفسير قوله تعالى : « أفغير الله أبتغى حَكَمًا ... » الآية . اختلاف العلماء فيمن أوتى الكتاب ؛ هل هم اليهود والنصارى ، أم رؤساء أصحاب محمد عليه السلام ٧٠

تفسير قوله تعالى : «وتمّت كلمة ربك صدقا ... » الآية . فى الآية دليل على وجوب اتباع دلالات القرآن ٧٠

تفسير قوله تعالى : «فكلوا مما ذُكر اسم الله عليه ...» الآية . بيان سبب نزول هذه الآية ، وأنها أمر بتسمية الله تعالى على الشراب والذبح وكل مطعوم ٧٢

تفسير قوله تعالى: «وما لكم ألا تأكلوا مما ذُكر اسم الله عليه...» الآية . بيان مشروعية الذبح فى محل مخصوص ٧٣

تفسير قوله تعالى : «وذَروا ظاهر الإثم وباطنه...» الآية . أقوال العلماء فى ظاهر الإثم وباطنه ٧٤

تفسير قوله تعالى : « ولا تأكلوا مما لم يُذكر اسم الله عليه ...» الآية . مخاصمة المشركين للمؤمنين فى أمر الذبح . اللفظ الوارد على سبب هل يُقصر عليه أم لا . كلام العلماء فى تارك التسمية على الذبيحة ٧٤

تفسير قوله تعالى : « أوَ مَن كان مَيْتًا فأحييناه ... » الآية . بيان أنها نزلت فى حمزة ابن عبد المطلب وأبى جهل ٧٨

تفسير قوله تعالى : « وكذلك جعلنا فى كل قرية ... » الآية . بيان المراد بالأكابر ٧٩

تفسير قوله تعالى : « وإذا جاءتهم آية قالوا ... » الآية . بيان امتناع المشركين من الإيمان حتى يوحى إليهم ٧٩

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « فمن يُرِد الله أن يهديه ... » الآيات . بيان المعانى اللغوية فى هذه الاية . بيان سُنة الله فيمن أراد هدايته ومن أراد إضلاله ٨٠

تفسير قوله تعالى : « ويوم يحشرهم جميعا ... » الآية . بيان تقريع الضالين والمضلين وتوبيخهم فى الآخرة . الكلام على الاستثناء فى قوله « إلا ما شاء الله » ٨٣

تفسير قوله تعالى : « وكذلك نُوَلّى بعض الظالمين بعضا ... » الآية . بيان أن الله إذا أراد بقوم شرًّا وَلى أمرهم شرارهم ٨٥

تفسير قوله تعالى : « يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم » الآية . كلام العلماء فى بعثة الرسل ٨٥

تفسير قوله تعالى : « ذلك أن لم يكن ربك مهْلِك القرى بظلم » الآية . بيان أن الله تعالى لا يعذب الأمم قبل إنذارهم ٨٧

تفسير قوله تعالى : « ولكل درجات مما عملوا ... » . فى الآية ما يدل على أن المطيع من الجن فى الجنة ، والعاصى منهم فى النار ٨٧

تفسير قوله تعالى : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث ... » الآية . بيان ما كان عليه المشركون من تخصص جزء من أموالهم لله وجزء للأصنام ٨٩

تفسير قوله تعالى : « وكذلك زَيّن لكثير من المشركين ... » الآية . اختلاف النحاة فى إعراب هذه الآية . بيان ما فعله المشركون من وَأد البنات ٩٠

تفسير قوله تعالى : « وقالوا هذه أنعام وحَرْث حِجر ... » الآية . بين الله تعالى نوعا آخر من جهالة المشركين ، وهو أنهم حَرّموا الأنعام والحرث وجعلوها لأصنامهم . بيان معنى الحِجْر لغة ٩٤

تفسير قوله تعالى : « وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام ... » الآية . بيان ما ابتدعه المشركون من جعل ما فى بطون الأنعام حلالا للرجال وحراما على الإناث . فى الآية دليل على أنه ينبغى للعالم أن يتعلّم قول من خالفه ليعرف فساد قوله ويردّ عليه ٩٥

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سَفَهًا ... » الآية . بيان أنه كان من العرب من يقتل ولده خشية الفقر ، ومنهم من يقتل بناته لأجل المَعَرّة ، ومنهم من يقول : الملائكة بنات الله ٩٦

تفسير قوله تعالى : « وهو الذى أنشأ جنات مَعْرُوشات ... » الآية . بيان أن الكفار لما افتروا على الله الكذب وأشركوا معه وحلّلوا وحرموا دلّهم على وحدانيته بأنه خالق الأشياء، وجعل هذه الأشياء أرزاقا لهم . معنى قوله « وآتوا حقه يوم حصاده » واختلاف العلماء فى تفسير هذا الحق ما هو . تعلّق أبو حنيفة بهذه الآية فى إيجاب الزكاة فى كل ما تنبت الأرض ، طعاما كان أو غيره . أقوال العلماء فى زكاة الزروع والثمار . اختلافهم فى وقت الوجوب ، وخلافهم فى القول بالخَرْص . بيان صفة الخرص وما يكفى فيه ، ومتى يكون . حكم الثمرة إذا أصابتها جائحة بعد الخرص . بيان أنه لا زكاة فى أقل من خمسة أوْسُق . إجماع العلماء على أنه لا يضاف التمر إلى البُرّ ولا البُرّ إلى الزبيب، ولا الإبل إلى البقر ، ولا البقر إلى الغنم فى تكملة نصاب الزكاة . واختلافهم فى ضم البر إلى الشعير والسّلت ٩٧

تفسير قوله تعالى: « ومن الأنعام حَمُولة وفرشا...» الآية . بيان معنى الحمولة والفرش ١١١

تفسير قوله تعالى : « ثمانية أزواج من الضأن اثنين ... » الآيات . بيان أن الآية نزلت فى مالك بن عوف وأصحابه ، وأنها احتجاج على المشركين فى أمر البَحِيرة وما ذكر معها . ودلّت على إثبات المناظرة فى العلم . وفيها إثبات القول بالنظر والقياس . وفيها دليل بأن القياس إذا ورد عليه النصّ بطل القول به ١١٣

تفسير قوله تعالى : « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما ... » الآية . اختلف العلماء فى حكم الآية وتأويلها على أقوال . الاختلاف فى لحوم السباع والحمر والبغال . النهى عن أكل كل ذى ناب من السباع . بيان ما يجوز أكله من الحيوان وما لا يجوز ١١٥

تفسير قوله تعالى : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ... » الآية . بيان ما حرمه الله على اليهود . فى الآية دليل على أن التحريم إنما يكون بذنب ١٢٤

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « سيقول الذين أشركوا ... » الآيات ١٢٨

تفسير قوله تعالى : « قل هلم شهداءكم الذين يشهدون ... » الآية . بحث فى «هلم» وما فيها من لغات ١٢٩

تفسير قوله تعالى : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم ... » الآيات . بحث فى قوله « تعالوا » . هذه الآية أمر من الله تعالى لنبيه عليه السلام بأن يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرم الله . وكذلك يجب على العلماء أن يبينوا للناس ما حرم عليهم مما حل . الأمر بالإحسان إلى الوالدين . النهى عن قتل الأولاد خشية الفقر . اختلاف العلماء فى الغزل . النهى عن إتيان الفواحش . النهى عن قتل النفس المحرمة ، مؤمنة كانت أو معاهدة إلا بالحق الذى يوجب قتلها . النهى عن التعرض لمال اليتيم إلا بالتى هى أحسن . بيان اختلاف العلماء فى بلوغ اليتيم أشدّه . الأمر بالاعتدال فى الأخذ والعطاء عند البيع والشراء . الكلام على تفسير قوله « وأن هذا صراطى مستقيما » أقوال السلف فى أهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ ١٣٠

تفسير قوله تعالى : « ثم آتينا موسى الكتاب تماما ... » الآيات ١٤٢

تفسير قوله تعالى : « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة ... » الآية . كلام العلماء فيما نسب إلى الله تعالى من الأفعال ، كالمجىء والإنزال ونحوه . أقوالهم فى الإيمان والتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها . معنى قوله : « او يأتى بعض آيات ربك » ١٤٤

تفسير قوله تعالى : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شِيَعًا ... » الآية . اختلاف العلماء فى هذه الآية ؛ هل هى خاصة أم عامة ١٤٩

تفسير قوله تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ... » الآية . بيان المراد بالحسنة فى هذه الآية ١٥٠

تفسير قوله تعالى : « قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ... » الآيات . اختلاف الأئمة رضوان الله عليهم فى الافتتاح فى الصلاة ١٥١

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « قل أغير الله أبغى ربا ... » الآية . بيان سبب نزول الآية . استدل بعض العلماء بقوله تعالى «ولا تكسب كل نفس إلا عليها» على أن بيع الفضولى لا يصح . بيان المراد فى هذه الآية هل هو فى الدنيا أم فى الآخرة ... ١٥٥

تفسير قوله تعالى : « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ... » الآية ١٥٨

سورة الأعراف

تفسير قوله تعالى : « المص كتاب أنزل إليك ... » الآية ١٦٠

تفسير قوله تعالى : « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ... » الآية . دلالة الآية على ترك اتباع الآراء مع وجود النص ١٦١

تفسير قوله تعالى : « وكم من قرية أهلكناها ... » الآيات ١٦٢

تفسير قوله تعالى : « فلنسئلن الذين أرسل إليهم ... » الآية . بيان أن الكفار يحاسبون وأن سؤالهم تقريروتوبيخ وإفضاح ، وسؤال الرسل سؤال استشهاد بهم وإفصاح ١٦٤

تفسير قوله تعالى : « والوزن يومئذ الحق ... » الآيات . الكلام على الميزان وكيف توزن أعمال العباد ١٦٤

تفسير قوله تعالى : « ولقد مكناكم فى الأرض ... » الآيات ١٦٧

تفسير قوله تعالى : « قال ما منعك ألا تسجد ... » الآيات . فى الآية دليل على أن الأمر يقتضى الوجوب بمطلقه من غير قرينة . تعليل إبليس بأن عنصره أشرف من عنصر آدم عليه السلام . بيان أن الطين أفضل من النار من وجوه أربعة الكلام على القياس وأنه أصل من أصول الدين ١٦٩

تفسير قوله تعالى : « قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم ... » الآيات مذهب أهل السنة أن الله أضل إبليس وخلق فيه الكفر ١٧٤

تفسير قوله تعالى : « ويا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة ... » الآيات . أمر آدم وزوجه بسكنى الجنة ووسوسة إبليس لهما . اختلاف العلماء فى تفضيل الملائكة

Marfat.com

صفحة

على جميع الخلق ، وبم فُضلوا . تغرير إبليس لآدم وحواء بحلفه . أكلهما
من الشجرة وظهور سوءاتهما . فى الآية دليل على قبح كشف العورة ١٧٧
تفسير قوله تعالى : « يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا ... » الآية . لاخلاف بين العلماء
فى وجوب ستر العورة ، واختلفوا فى العورة ماهى . اختلافهم فى المعنى المراد
من قوله « ولباس التقوى » ١٨٢
تفسير قوله تعالى : « يا بنى آدم لايفتننكم الشيطان ... » الآية . اختلاف العلماء
فى رؤية الجن ١٨٥
تفسير قوله تعالى : و إذا فعلوا فاحشة ... » الآيات احتجاج المشركين بأن الله أمرهم
بالفحشاء والردّ عليهم ١٨٧
تفسير قوله تعالى : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ... » الآية . كان
العرب فى الجاهلية يطوفون بالبيت عراة . اختلاف العلماء فى ستر العورة
فى الصلاة . هل هى فرض أم سنة . أحل الله الأكل والشرب مالم يكن زائدا
على قدر الحاجة . الاختلاف فى القدر الزائد هل هو حرام أم مكروه . بيان
أن الكافر يأكل فى سبعة أمعاء والمؤمن يأكل فى مِعًى واحد . الاختلاف
فى الأمعاء هل هى حقيقة أم لا . شىء من آداب الأكل ١٨٨
تفسير قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ... » الآية . بيان
الزينة هنا . دلالة الآية على لباس الرفيع من الثياب والتجمل بها فى الجمع
والأعياد . اختلاف العلماء فى ترك الطيبات والإعراض عن اللذات ١٩٥
تفسير قوله تعالى : « قل إنما حرم ربى الفواحش ... » الآية . بيان تحريم
الفواحش والبغى ٢٠٠
تفسير قوله تعالى : « ولكل أمة أجل ... » الآيات . بيان أن المقتول إنما يقتل بأجله ٢٠١
تفسير قوله تعالى : « ادخلوا فى أمم قد خلت ... » الآيات . بيان أن الأمة
التابعة تلعن المتبوعة ٢٠٤
تفسير قوله تعالى : « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح ... » الآيات
بيان أن أبواب السماء تفتح لأرواح المؤمنين دون الكافرين ٢٠٥

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « ونزعنا مافى صدورهم من غل ... » الآيات بيان أن مما ينعم به أهل الجنة نزع الغل من صدورهم ٢٠٨

تفسير قوله تعالى : « و بينهما حجاب وعلى الأعراف رجال ... » الآيات . كلام العلماء فى أصحاب الأعراف ٢١١

تفسير قوله تعالى : « ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ... » الآيات . فى الآية دليل على أن سقى الماء من أفضل الأعمال . وفيها دليل على أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه ، وأن له منعه ممن أراده ٢١٥

تفسير قوله تعالى : « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض ... » الآية . بيان معنى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وبيان الحكمة فى هذا . معنى استواء الله على العرش ، وكلام العلماء فيه . بحث فى قوله « ألا له الخلق والأمر » ... ٢١٨

تفسير قوله تعالى : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية ... » الآية . بيان أن الدعاء خُفية أفضل من الجهر . الاختلاف فى رفع اليدين فى الدعاء . معنى الاعتداء فى الدعاء ٢٢٣

تفسير قوله تعالى : « ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ...» الآية . بيان أن الله تعالى نهى عن الفساد وأمر بلزوم الشرائع بعد أن أصلحها ببعثة الرسل ؛ كما أمر أن يكون الإنسان فى حالة تخوف وتأميل لله عز وجل . الكلام على معنى « إن رحمة الله قريب » ٢٢٦

تفسير قوله تعالى : « وهو الذى يرسل الرياح نُشُرًا » الآيات . كلام العلماء فى قوله « بشرا » وما فيه من القراءات ٢٢٨

تفسير قوله تعالى : « لقد أرسلنا نوحا إلى قومه ... الآيات . بيان أقاصيص الأمم وما فيها من التحذير . الكلام على إرسال سيدنا نوح ، والاختلاف فى سنه ... ٢٣٢

تفسير قوله تعالى : « وإلى عاد أخاهم هُودًا ... » الايات . الكلام على إرسال سيدنا هود ، وذكر نسبه ، وفى أى مكان نزل قومه ٢٣٥

تفسير قوله تعالى : « وإلى ثمود أخاهم صالحا ... » الآيات . استدلّ من أجاز جواز البناء الرفيع كالقصور ونحوها بقوله تعالى : « تتخذون من سهولها قصورا » . الكلام على عقر الناقة والاختلاف فى العاقر لها ٢٣٨

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « ولوطا إذ قال لقومه ... » الآيات ذكر قصة قوم سيدنا لوط وما كانوا يفعلونه من إتيان الذكران . اختلاف العلماء فيما يجب على من فعل ذلك بعد إجماعهم على تحريمه . اختلافهم فيمن أتى بهيمة . ذكر هلاك قومه ٢٤٢

تفسير قوله تعالى : «وإلى مدين أخاهم شعيبا ...» الآيات . ذكر نسب سيدنا شعيب والاختلاف فيه . كلام العلماء فى معنى قعود قوم سيدنا شعيب على الطرق ٢٤٧

تفسير قوله تعالى : « وقال موسى يافرعون إنى رسول ... » الآيات . بيان الاختلاف فى عدد سحرة فرعون . موضع اجتماعهم . إيمان السحرة ومعاقبة فرعون لهم . الاختلاف فيما كان يعبده فرعون . بيان ما كانت تتيمن به العرب وتتشاءم . الكلام على « مهما » ٢٥٦

تفسير قوله تعالى : « فأرسلنا عليهم الطوفان ... » الآيات . بيان ما أخذ به فرعون وقومه من إرسال الطوفان والجراد والقمل والضفادع . اختلاف العلماء فى قتل الجراد إذا حلّ بأرض فأفسد . لم يختلف العلماء فى أكله على الجملة . وإنما اختلفوا هل يحتاج إلى سبب يموت به إذا صيد أم لا . النهى عن قتل الصُّرد والضفدع والنملة والهدهد ٢٦٧

تفسير قوله تعالى : « ولما وقع عليهم الرجز ... » الآيات . بيان الانتقام من فرعون وقومه بإغراقهم فى اليمّ ٢٧١

تفسير قوله تعالى : « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ... » الآيات . طلب بنو إسرائيل من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا وردّه عليهم ٢٧٣

تفسير قوله تعالى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ... » الآية . دلّت الآية على أن ضرب الأجل للمواعدة سنّة قديمة . ودلّت أيضا على أن التاريخ يكون بالليالى دون الأيام . استدلّ الروافض وسائر فرق الشّيعة بهذه الآية على أن النبى عليه السلام استخلف عليًا على جميع الأمة ٢٧٤

تفسير قوله تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا ... » الآية . تكليم الله تعالى لموسى عليه السلام وطلبه أن يرى ربّه ٢٧٨

Marfat.com

صـفحة

تفسير قوله تعـالى : « قال يا موسى إنى آصطفيتك ... » الآية . بيان آصطفاء الله تعـالى لموسى وتكليمه إياه ٢٨٠

تفسير قوله تعالى : « وكتبنا له فى الألواح من كل شىء » الآية . اختلاف العلماء فى عدد الألواح التى نزلت على سـيدنا موسى وفى جوهرها وفيمن كتبها ... ٢٨٠

تفسير قوله تعـالى : « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون ... » الآيات . بيـان أن الله تعالى صرف الكفار عن فهم آياته لتكبرهم ٢٨٢

تفسير قوله تعـالى : « وآتخـذ قوم موسى من بعـده ... » الآية . الكلام على بنى إسرائيل واتخاذهم العجل من حليهم بعد خروج سيدنا موسى إلى الطور لمناجاة ربه . الكلام على نسب السامرى ٢٨٤

تفسير قوله تعالى : « ولمـا رجع موسى إلى قومه غضبان ... » الآية . بيان رجوع موسى عليه السلام إلى قومه وغضبه عليهم ، وأنه كان أعظم النـاس غضبا . بيان ما يذهب الغضب . بيان المراد من إلقاء الألواح . استدلال بعض جهال الصوفية بهـذه الآية على جواز رمى الثياب إذا اشتد طربهم على المغنى . بيـان المراد من أخذ موسى برأس أخيه . كلام النحاة فى لفظة « آبن أم » ٢٨٦

تفسير قوله تعالى : « إن الذين اتخذوا العجل ... » الآيات ٢٩١

تفسير قوله تعـالى : « واختـار موسى قومه ... الآية . بيـان الرجفة التى أخذت قوم موسى ٢٩٣

تفسير قوله تعـالى : « واكتب لنـا فى هذه الدنيا حسنة ... » الآية . الكلام على من كتب لهم الرحمة ٢٩٦

تفسير قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ... الآية . بيان ما أنزله الله على موسى حينما اختار من قومه سبعين رجلا لميقات ربه ، وعناد قومه . معنى الرسالة والنبوة . معنى الأمى . ما ورد من صفات نبينـا صلى الله عليـه وسلم فى التوراة والإنجيل . الكلام على تحليل الطيبات وتحريم الخبائث ، وما معناهما . ما وضع عن بنى إسرائيل من الأعمال الثقيلة ٢٩٧

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم ... » الآية . فى الآية دليل على عموم بعثته صلى الله عليه وسلم ٣٠١

تفسير قوله تعالى : « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق ... » الآية . بيان أن من قوم موسى أمة تمسكت بشريعته، ثم آمنت بمحمد صلوات الله عليه وهم فى عُزلة عن الخلق ٣٠٢

تفسير قوله تعالى : « وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا ... » الآيات . بيان ما أعطاه الله لبنى إسرائيل من النعم . معنى السبط ٣٠٣

تفسير قوله تعالى : « وآسألهم عن القرية التى كانت ... » الآيات . أمر صلى الله عليه وسلم بسؤال اليهود عن أخبار أسلافهم وما مسخ الله منهم ، تقريعا لهم . اختلاف العلماء فى تعيين القرية . معاقبة اليهود بالمسخ لاعتدائهم فى يوم السبت وكيف كانوا يحتالون لصيد الحيتان ٣٠٤

تفسير قوله تعالى : « فلما نسوا ما ذُكِّروا به ... » الآية . بيان أن فى قوله « بعذاب بئيس » إحدى عشرة قراءة ٣٠٨

تفسير قوله تعالى : « فلما عتوا عما نهوا عنه ... » الآية . فى الآية دليل على أن المعاصى سبب النقمة ٣٠٩

تفسير قوله تعالى : « فخلف من بعدهم خلف ... » الآية . بيان معنى الخلف والعرض . ذم الرشا والمكاسب الخبيثة ٣١٠

تفسير قوله تعالى : « والذين يمسكون بالكتاب ... » الآية . مدح من تمسك بكتاب الله وبدينه ٣١٣

تفسير قوله تعالى : « وإذا أخذ ربك من بنى آدم ... » الآيات . اختلاف العلماء فى تأويل الآية وأحكامها . بيان أن الله تعالى أخرج ذرّية آدم من ظهره وأخذ الميثاق عليهم . اختلاف العلماء فى الموضع الذى أخذ فيه الميثاق . الاختلاف فى هذه الآية هل هى خاصة أم عامة . استدلّ بها من قال : إن من مات صغيرا دخل الجنة لإقراره فى الميثاق الأول، ومن بلغ التكليف لم يغنه الميثاق الأول ... ٣١٤

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى: « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا ... » الآية . الاختلاف فى تعيين الذى أوتى الآيات . الكلام على قصة بلعام ٣١٩

تفسير قوله تعالى : « ولو شئنا لرفعناه بها ... » الآية . بيان أن من أوتى القرآن ولم يعمل به مثله كمثل الكلب . الكلام على سبب لهاث الكلب . دلالة الآية على ألا يغتر أحد بعلمه ولا بعمله ، وعلى منع أخذ الرشوة لإبطال حق أو تغييره ، وعلى منع التقليد لعالم إلا بحجة يبينها ٣٢١

تفسير قوله تعالى : « من يهد الله فهو المهتدى ... » . فى الآية رد على من قال : إن الله تعالى هدى جميع المكلفين ولا يجوز أن يضلّ أحدا ٣٢٤

تفسير قوله تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا ... » الآية . بيان أن الله تعالى خلق للنار أهلا بعدله ؛ لأنهم كالأنعام لا يعقلون ثوابا ولا يخافون عقابا ٣٢٤

تفسير قوله تعالى : « ولله الأسماء الحسنى .. » الآية . سبب نزول الآية . الكلام على حديث «أن لله تسعة وتسعين اسما» . اختلاف العلماء فى الاسم والمسمى . إذا دعا الإنسان باسم من أسمائه تعالى فيطلب بكل اسم ما يليق به . بيان معنى الإلحاد فى أسمائه تعالى ٣٢٥

تفسير قوله تعالى : « وممن خلقنا أمة يهدون بالحق ... » . فى الآية دليل على أن الله تعالى لا يُخلِي الدنيا فى وقت من الأوقات من داع يدعو إلى الحق ٣٢٩

تفسير قوله تعالى : « والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم ...» الآية . معنى استدراج المكذبين بآيات الله إلى الهلاك ٣٢٩

تفسير قوله تعالى : « وأملى لهم إن كيدى متين ... » الآية . بيان أن الآية نزلت فى المستهزئين من قريش ٣٢٩

تفسير قوله تعالى : « أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جِنّة ... » . الكلام على سبب نزول الآية ٣٣٠

تفسير قوله تعالى : « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ... » الآية . التعجب من إعراض المشركين عن النظر فى آيات الله . استدل بهذه الآية من

Marfat.com

صفحة

قال بوجوب النظر فى آياته والاعتبار بمخلوقاته . اختلف فى أوّل الواجبات ، هل هو النظر والاستدلال ، أو الإيمان الذى هو التصديق الحاصل فى القلب . بيان أن النظر والاعتبار لا يكون فى الوجوه الحسان من المرد والنسوان ٣٣٠

تفسير قوله تعالى : « يسئلونك عن الساعة ... » الآية ٣٣٥

تفسير قوله تعالى : « قل لا أملك لنفسى نفعاً ... » الآية . بيان أن النبيّ صلوات الله عليه لا يعلم الغيب إلا أن يطلعه الله عليه ٣٣٦

تفسير قوله تعالى : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة ... » الآيات . بيان ما حصل من إبليس مع حوّاء حينما أحست بالحمل . الاختلاف فى تأويل الشرك المضاف إلى آدم وحوّاء . دلالة الآية على أن الحمل مرض من الأمراض . اختلف فى راكب البحر وقت الهَوْل ، هل حكمه حكم الصحيح أو الحامل ... ٣٣٧

تفسير قوله تعالى : « إن الذين تدعون من دون الله ... » الآيات ٣٤٢

تفسير قوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف ... » الآية . بيان أن هذه الآية مركبة من ثلاث كلمات ، وقد تضمنت قواعد الشريعة فى المأمورات والمنهيات » وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها ٣٤٤

تفسير قوله تعالى : « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ ... » الآيات . بيان الأمر بالاستعاذة من وسوسة الشيطان . بيان أن المؤمن إذا مسه طيف من الشيطان تنبه عن قرب ، وأما المشركون فيمدّهم الشيطان ٣٤٧

تفسير قوله تعالى : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له ... » الآية . الكلام على سبب نزول الآية ٣٥٣

تفسير قوله تعالى : « واذكر ربك فى نفسك ... » بيان المعنى المراد بالذكر هنا ٣٥٥

تفسير قوله تعالى : « إن الذين عند ربك لا يستكبرون ... » الآية . اختلاف العلماء فى عدد سجود القرآن ، وبيان سبب الخلاف . اختلافهم فى وجوب سجدة التلاوة . إجماعهم على أن هذا السجود يحتاج إلى ما تحتاج إليه الصلاة . الكلام على وقت السجود ، وعلى آية سجدة تقرأ فى الصلاة ٣٥٦

Marfat.com

ســورة الأنفـال

صفحة

تفسير قوله تعـالى : « يسئلونك عن الأنفال ... » الآية . بيان سبب نزول الآية . معنى النفل . آختلاف العلماء فى محل الأنفال ، وفى إغراء الإمام قبل القتال . الكلام على ما ينفله الإمام ٣٦٠

تفسير قوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله ... » الآيات . وجوب طاعة الرسول صلوات الله عليه فيما أمر به من قسمة الغنيمة . بيان صفات المؤمنين . ٣٦٥

تفسير قوله تعـالى : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ... » الآيات . الكلام على غزوة بدر . بيان أن الطاعات تتفاضل بتفضيل الشرع لها . خروج النبيّ صلى الله عليـه وسلم ليلقى العِـير دليل على جواز النفير للغنيمة . الدليل على أن الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف، و إنما هو آنقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته . تثبيت الملائكة للؤمنين فى القتال وضربهم أعناق الكافرين وأطرافهم. ٣٧٠

تفسير قوله تعـالى : « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا ... » الآيات . تحريم الفرار من الزحف يوم القتال . اختلاف العلماء هل الفرار يوم الزحف مخصوص بيوم بدر أو عام فى الزحوف كلهـا إلى يوم القيامة . وهل هو كبيرة أم لا ... ٣٨٠

تفسير قوله تعـالى : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ... » فى الآية ردٌّ على من يقول إن أفعال العباد خَلْق لهم . اختلاف العلماء فى الرمى ٣٨٤

تفسير قوله تعالى : « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ... » الآية . فى هذا الخطاب ثلاثة أقوال ٣٨٦

تفسـير قوله تعـالى : « ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا ... » الآيات . دلالة الآية على أن قول المؤمن « سمعت وأطعت » لا فائدة فيه ما لم يظهر أثر ذلك عليـه بامتثال فعـله ٣٨٨

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول ... » الآية . بيان أن الفعل الفرض أو القول الفرض إذا أتى به فى الصلاة لا تبطل ٣٨٩

Marfat.com

صفحة
تفسير قوله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ... » الآية .
بيان سبب نزول الآية ٣٩١
تفسير قوله تعالى : « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون ...» الآية . بيان وصف
حال المهاجرين قبل الهجرة وفى ابتداء الإسلام ٣٩٤
تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول ... » الآية . الاختلاف
فى سبب نزول هذه الآية ٣٩٤
تفسير قوله تعالى : « واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ... » الآيات ٣٩٦
تفسير قوله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ... » الآية . بيان ما اجتمع عليه
المشركون من المكر بالنبي صلى الله عليه وسلم فى دار الندوة ٣٩٧
تفسير قوله تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا ... » الآيات ٣٩٧
تفسير قوله تعالى : « وما كان صلاتهم عند البيت ... » الآيات . كان المشركون
يطوفون عراة يصفقون ويصفرون ويظنون أن ذلك عبادة . معنى المكاء
والتصدية لغة ٤٠٠
تفسير قوله تعالى : « قل للذين كفروا إن ينتهوا ... » الآيات . بيان أن الإسلام
يهدم ما كان قبله . الكلام على من طلق فى الشرك ثم أسلم ، وعلى من حلف
أو افترى على مسلم أو زنى ثم أسلم . المرتد إذا أسلم وقد فاتته صلوات ٤٠١

Marfat.com

بيان

تم تحقيق هـذا الجزء من تفسير القرطبي وهو السابع على الأصول الآتيـــة :

(١)	نسـخة	رقـم	٩٥	تفسـير	المـرموز	إليهـا	بحـرف	ا
(٢)	«	«	٢٦٨	«	«	«	«	ب
(٣)	«	«	٢٨٣	«	«	«	«	ج
(٤)	«	«	٢٨٤	«	«	«	«	هـ
(٥)	«	«	٩٢	«	«	«	«	و
(٦)	«	«	٢٥٨	بالمكتبة الأزهرية مرموز إليها بحرف				ز
(٧)	«	«	١	تفسير حليم مرموز إليها بحرف				ح
(٨)	«	«	٣٠٧	تفســير المـرموز إليهـا بحـــرف				ى
(٩)	«	«	٩٣	«	«	«	« «	ك
(١٠)	«	«	٩٤	«	«	«	« «	ل
(١١)	«	«	٢٧٦	«	«	«	« «	ع

وقد وصفت هذه النسخ جميعها فى مقدمة الجزء الثالث (الطبعة الثـانية)

صححه

أبو إسحاق إبراهيم اطفيش

صفـــر ١٣٨٠
أغسطس ١٩٦٠

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — جاء فى الخبر أن هذه الآية لما نزلت نزل معها اثنا عشر ألف مَلَك . وروى البخاريّ عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "مفاتح الغيب خمسٌ لا يعلمها إلا الله لا يعلم ما تَغِيض الأرحام إلا اللهُ ولا يعلم ما فى غدٍ إلا اللهُ ولا يعلم متى يأتى المطر إلا الله ولا تدرى نفس بأىّ أرض تموت إلا اللهُ ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله". وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون فى غدٍ فقد أعظم على الله الفِرْية ؛ والله تعالى يقول : « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ »(1) . ومفاتح جمع مَفْتَح ، هذه اللغة الفصيحة . ويقال : مفتاح ويجمع مفاتيح . وهى قراءة ابن السَّمَيْقَع « مفاتيح » . والمِفتح عبارة عن كل ما يَحُلّ غَلَقا ، محسوسا كان كالقُفْل على البيت أو معقولا كالنظر . وروى ابن ماجه فى سننه وأبو حاتم البُسْتيّ فى صحيحه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ من الناس مفاتيحَ للخير مَغَالِيق للشرّ وإن من الناس مفاتيحَ للشرّ مغاليق للخير فطُوبَى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه وويلٌ لمن جعل الله مفاتيح الشرّ على يديه" . وهو فى الآية استعارة عن التوصُّل إلى الغيوب كما يتوصّل فى الشاهد بالمفتاح إلى المغيب عن الإنسان ؛

---

(1) راجع جـ ١٣ ص ٢٢٥ .

Marfat.com

ولذلك قال بعضهم : هو مأخوذ من قول الناس افتح علىّ كذا ؛ أى أعطنى أو علّمنى ما أتوصل إليه به . فالله تعالى عنده علم الغيب ، وبيده الطرق الموصّلة إليه ، لا يملكها إلا هو ، فمن شاء إطلاعه عليها أطلعه ، ومن شاء حجبه عنها حجبه . ولا يكون ذلك من إفاضته إلا على رسله ؛ بدليل قوله تعالى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ » (١) وقال : « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ » (٢) . [الآية] (٣) وقيل : المراد بالمفاتح خزائن الرزق ؛ عن السُّدّى والحسن . مُقاتِل والضّحاك : خزائن الأرض . وهذا مجاز، عبّر عنها بما يتوصّل إليها به . وقيل : غير هذا مما يتضمنه معنى الحديث أى عنده الآجال ووقت انقضائها . وقيل : عواقب الأعمار وخواتم الأعمال ؛ إلى غير هذا من الأقوال . والأول المختار . والله أعلم .

الثانيـــة — قال علماؤنا : أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه فى غير ما آية من كتابه إلا من اصطفى من عباده (٤) . فمن قال : إنه ينزّل الغيْث غدا وجزم فهو كافر ، أخبر عنه بأمارة ادّعاها أم لا . وكذلك من قال : إنه يعلم ما فى الرّحِم فهو كافر؛ فإن لم يجزم وقال : إن النَّوْء (٥) ينزل الله به الماء عادة ، وأنه سبب الماء عادة ، وأنه سبب الماء على ما قدّره وسبق فى علمه لم يكفر؛ إلا أنه يستحب له ألا يتكلم به ، فإن فيه تشبيها بكلمة أهل الكفر، وجهلا بلطيف حكمته؛ لأنه ينزل متى شاء، مرّة بنَوْء كذا، ومرّة دون النَّوْء؛ قال الله تعالى (٦) : " أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر [بالكوكب] " على ما يأتى بيانه فى « الواقعة » (٧) إن شاء الله . قال ابن العربى : وكذلك قول الطبيب : إذا كان الثّدى الأيمن مسودّ الحَلَمة فهو ذكر، وإن كان فى الثدى الأيسر فهو أنثى ، وإن كانت المرأة تجد الجنب الأيمن أثقل فالولد أنثى ؛ وادّعى ذلك عادة لا واجبا فى الخلقة لم يكفر ولم يفسق . وأما من ادّعى الكسب فى مستقبل العمر فهو كافر . أو أخبر عن الكوائن المجملة أو المفصلة فى أن تكون قبل أن تكون فلا ريبة

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٨٨ . (٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٦ . (٣) من ك .
(٤) فى ك : من رسول . (٥) النوء : سقوط نجم من المنازل فى المغرب مع الفجر وطلوع آخر من المشرق يقابله من ساعته ؛ وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها .
(٦) أى فى الحديث القدسى . (٧) راجع جـ ١٧ ص ٢٢٨ فما بعد .

Marfat.com

فى كفره أيضا . فأمّا من أخبر عن كسوف الشمس والقمر فقد قال علماؤنا : يؤدّب ولا يسجن . أمّا عدم تكفيره فلأن جماعة قالوا : إنه أمر يُدرَك بالحساب وتقدير المنازل حسب ما أخبر الله عنه من قوله : «وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ»[1] . وأما أدبهم فلأنهم يُدخلون الشك على العامّة، إذ لا يدركون الفرق بين هذا وغيره؛ فيشوّشون عقائدهم و يتركون قواعدهم فى اليقين فأدِّبوا حتى يُسِرّوا[2] ذلك إذا عرفوه ولا يعلِنوا به .

قلت : ومن هذا الباب [أيضا[3]] ما جاء فى صحيح مسلم عن بعض أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من أتى عَرّافا [فسأله عن شىء[4]] لم تقبل له صلاة أربعين ليلة " . والعرّاف هو الحازر والمنجِّم الذى يدّعى علم الغيب . وهى من العِرافة وصاحبها عَرّاف، وهو الذى يستدل على الأمور بأسباب ومقدّمات يدّعى معرفتها . وقد يعتضد بعض أهل هذا الفن فى ذلك بالزَّجْر والطَرْق والنجوم ، وأسباب معتادة فى ذلك . وهذا الفنّ هو العِيافة (بالياء) . وكلّها ينطلق عليها آسم الكهانة؛ قاله القاضى عِياض . والكهانة : آدعاء علم الغيب . قال أبو عمر بن عبد البر فى [كتاب[3]] (الكافى) : من المكاسب المجتمعَ على تحريمها الربا ومهور البغايا والسُّحْت والرّشا وأخذ الأجرة على النياحة والغناء، وعلى الكهانة وآدعاء الغيب وأخبار السماء، وعلى الزمر واللّعب والباطل كله . قال علماؤنا : وقد آنقلبت الأحوال فى هذه الأزمان بإتيان المنجّمين والكُهّان لاسيّما بالديار المصرية؛ فقد شاع فى رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجِّمين ، بل ولقد آنخدع كثير من المنتسبين للفقه والدِّين فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرّافين فبَهْرَجوا عليهم بالمُحال ، واستخرجوا منهم الأموال فحصلوا من أقوالهم على السراب[5] والآل ، ومن أديانهم على الفساد والضلال . وكل ذلك من الكبائر؛ لقوله عليه السلام : " لم تقبل له صلاة أربعين ليلة " . فكيف بمن آتخذهم وأنفق عليهم معتمدا على أقوالهم . روى مسلم [رحمه[3] الله] عن عائشة [رضى[3] الله عنها] قالت : سأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أناسٌ[6] عن الكُهّان فقال : " إنهم ليسوا بشىء " فقالوا :

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٩ . (٢) فى ا وز : يستروا . (٣) من جـ وك وز . (٤) زيادة عن صحيح مسلم .
(٥) السراب : الذى يكون نصف النهار لاطئا بالأرض لاصقا بها كأنه ماء جار . والآل : الذى يكون بالضحى كالماء بين السماء والأرض يرفع الشخوص و يزهاها . (٦) التصحيح من ز .

Marfat.com

يا رسول الله، إنهم يحدثونا أحيانا بشيء فيكون حقًّا ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنيّ فيقُرّها (١) في أذن وليّه [قرّ الدجاجة (٢)] فيخلطون معها مائة كذبة ". قال الحُميديّ (٣) : ليس ليحيي بن عروة عن أبيه عن عائشة في الصحيح غير هذا وأخرجه البخاريّ [أيضاً (٤)] من حديث أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن عن عروة عن عائشة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الملائكة تنزل في العَنان وهو السحاب فتذكر الأمر قُضي في السماء فتَستَرِق الشياطينُ السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكُهّان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم ". وسيأتي هذا المعنى في « سبأ » إن شاء الله تعالى (٥).

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ خصّهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر، أي يعلم ما يهلك في البر والبحر . ويقال : يعلم ما في البر من النبات والحبّ والنوى، وما في البحر من الدواب ورزق ما فيها « وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا » روى يزيد بن هارون عن محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ما مِن زرع على الأرض ولا ثمار على الأشجار ولا حبة في ظلمات الأرض إلا عليها مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم رزق فلان بن فلان " وذلك قوله في محكم كتابه : ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ . وحكى النقّاش عن جعفر بن محمد أن الورقة يراد بها السّقط من أولاد بني آدم، والحبة يراد بها الذي ليس بسقط ، والرطب يراد به الحيّ، واليابس يراد به الميت . قال ابن عطية : وهذا قول جارٍ على طريقة الرموز، ولا يصح عن جعفر بن محمد ولا ينبغي أن يلتفت إليه . وقيل : المعنى « وما تسقط من ورقة » أي من ورقة الشجر إلا يعلم متى تسقط وأين تسقط وكم تدور في الهواء، ولا حبة إلا يعلم متى تنبت وكم تنبت ومن يأكلها، « وَظُلُمَاتِ ٱلْأَرْضِ » بطونها وهذا أصح؛ فإنه موافق للحديث وهو مقتضى الآية . والله الموفق للهداية . وقيل : « فِي ظُلُمَاتِ ٱلْأَرْضِ »

---

(١) القر : ترديدك الكلام في أذن المخاطب حتى يفهمه . (٢) الزيادة عن صحيح مسلم .
(٣) هو أحد رجال سند هذا الحديث . (٤) من ك . (٥) راجع جـ ١٤ ص ٢٧٨ فما بعد .

Marfat.com

يعني الصخرة التي هي أسفل الأرضين السابعة . « ولا رَطْبٍ ولا يابِسٍ » بالخفض عطفا على اللفظ . وقرأ ابن السَّمَيْقَع والحسن وغيرهما بالرفع فيهما عطفا على موضع « من ورقة » ؛ فـ« من » على هذا للتوكيد . ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ أي في اللوح المحفوظ لتعتبر الملائكة بذلك ، لا أنه سبحانه كتب ذلك لنسيانٍ يلحقه ، تعالى عن ذلك . وقيل : كتبه وهو يعلمه لتعظيم الأمر ، أي اعلموا أن هذا الذي ليس فيه ثواب ولا عقاب مكتوب ، فكيف بما فيه ثواب وعقاب .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ﴾ أي ينيمكم فيقبض نفوسكم التي بها تميزون ، وليس ذلك موتا حقيقة بل هو قبض الأرواح عن التصرف بالنوم كما يقبضها بالموت . والتَّوَفِّي استيفاء الشيء . وتُوُفِّيَ الميت استوفى عدد أيام عمره ، والذي ينام كأنه استوفى حركاته في اليقظة . والوفاة الموت . وأوفيتك المال ، وتوفيته [1] ، واستوفيته إذا أخذته أجمع . وقال الشاعر [2] :

إن بني الأَدْرَدِ ليسوا من أحدْ * ولا توفاهم قريشٌ في العَدَدْ

ويقال : إن الروح إذا خرج من البدن في المنام تبقى فيه الحياة ؛ ولهذا تكون فيه الحركة والتنفس ، فإذا انقضى عمره خرج روحه وتنقطع حياته ، وصار ميتا لا يتحرك ولا يتنفس . وقال بعضهم . لا تخرج منه الروح ، ولكن يخرج منه الذهن . ويقال : هذا أمر لا يعرف حقيقته إلا الله تعالى . وهذا أصح الأقاويل ، والله أعلم . ﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ أي في النهار ؛ ويعني اليقظة . ﴿ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ أي ليستوفى كل إنسان أجلا ضرب له . وقرأ أبو رَجاء وطلحة بن مصرِّف « ثم يبعثكم فيه ليقضي أجلا مسمى » أي عنده . و « جَرَحْتُمْ » كسبتم . وقد تقدّم في « المائدة [3] » . وفي الآية تقديم وتأخير ، والتقدير وهو الذي يتوفاكم

(١) في ز ، ل : توفيت الشيء . (٢) هو منظور الوبري . (٣) راجع جـ ٦ ص ٦٦ .

Marfat.com

الليل ثم يبعثكم بالنهار و يعلم ما جرحتم فيه ؛ فقدّم الأهم الذى من أجله وقع البعث فى النهار . وقال ابن جُريج : « ثم يبعثكم فِيهِ » أى فى المنام . ومعنى الآية : إن إمهاله تعالى للكفار ليس لغفلة عن كفرهم فإنه أحصى كل شىء عددا وعلمه وأثبته ، ولكن ليقضى أجلا مسمى من رزق وحياة ، ثم يرجعون إليه فيجازيهم . وقد دلّ على الحشر والنشر بالبعث ؛ لأن النشأة الثانية منزلتها بعد الأولى كمنزلة اليقظة بعد النوم فى أنّ من قدر على أحدهما فهو قادر على الآخر .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ يعنى فوقية المكانة والرتبة لا فوقية المكان والجهة ، على ما تقدّم بيانه أول السورة . ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ أى من الملائكة . والإرسال حقيقته إطلاق الشىء بما حمل من الرسالة ؛ فإرسال الملائكة بما حملوا من الحفظ الذى أمروا به ، كما قال : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ »[1] أى ملائكة تحفظ أعمال العباد وتحفظهم من الآفات . والحَفَظة جمع حافظ ، مثل الكتبة والكاتب . ويقال : إنهما مَلَكان بالليل ومَلَكان بالنهار ، يكتب أحدهما الخير والآخر الشر ، وإذا مشى الإنسان يكون أحدهما بين يديه والآخر وراءه ، وإذا جلس يكون أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ؛ لقوله تعالى : « عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ »[2] [الآية][3] . ويقال : لكل إنسان خمسة من الملائكة : اثنان بالليل ، واثنان بالنهار ، والخامس لا يفارقه ليلا ولا نهارا . والله أعلم . وقال عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][4] :

ومن النـاس مَن يعيش شقيًّا[5] • جاهـلَ القلب غافـل اليقظـه
فإذا كان ذا وفاء ورأي • حـذِر الموتَ واتقى الحفظـه
إنمـا النـاس راحل ومقـيم • فالذى بان للمقـيم عِظـه

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٤٥ . (٢) راجع جـ ١٧ ص ٨ . (٣) من ز .
(٤) من ز ، ع . (٥) فى ك : سفيها .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ يريد أسبابه ؛ كما تقدّم فى « البقرة »[(١)] . ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ على تأنيث الجماعة ؛ كما قال : « وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ »[(٢)] و « كُذِّبَتْ رُسُلٌ »[(٣)] . وقرأ حمزة « تَوَفَّاه رسلُنا » على تذكير الجمع . وقرأ الأعمش «تتوفاه رسلنا» بزيادة تاء والتذكير . والمراد أعوان ملك الموت ؛ قاله ابن عباس وغيره . ويروى أنهم يَسُلُّون الروح من الجسد حتى إذا كان عند قبضها قبضها ملك الموت . وقال الكَلْبِيّ : يقبِض ملك الموت الروح من الجسد ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة إن كان مؤمنا أو إلى ملائكة العذاب إن كان كافرا . ويقال : معه سبعة من ملائكة الرحمة وسبعة من ملائكة العذاب ؛ فإذا قبض نفسا مؤمنة دفعها إلى ملائكة الرحمة فيبشرونها بالثواب ويصعدون بها إلى السماء، وإذا قبض نفسا كافرة دفعها إلى ملائكة العذاب فيبشرونها بالعذاب ويفزعونها، ثم يصعدون بها إلى السماء ثم ترد إلى سِجِّين، وروح المؤمن إلى عِلِّيين . والتوفى تارة يضاف إلى ملك الموت ؛ كما قال : «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ»[(٣)] . وتارة إلى الملائكة لأنهم يتولون ذلك ؛ كما فى هذه الآية وغيرها . وتارة إلى الله وهو المُتَوَفِّى على الحقيقة ؛ كما قال : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا »[(٤)] «قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ»[(٥)] «الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ»[(٦)] . فكل مأمورٍ من الملائكة فإنما يفعل ما أُمِر به . ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أى لا يضيّعون ولا يقصّرون، أى يطيعون أمر الله . وأصله من التقدّم، كما تقدّم . فمعنى فرّط قدّم العجز . وقال أبو عبيدة : لا يتوانون . وقرأ عبيد بن عمير « لا يُفْرِطون » بالتخفيف، أى لا يجاوزون الحدّ فيما أمروا به من الإكرام والإهانة .

﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ أى ردّهم الله بالبعث للحساب . ﴿ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ أى خالقهم ورازقهم وباعثهم ومالكهم . « الحقّ » بالخفض قراءة الجمهور، على النعت والصفة لاسم الله تعالى . وقرأ الحسن « الحقَّ » بالنصب على إضمار أعنى، أو على المصدر، أى حقًّا . ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ أى اعلموا وقولوا : له الحكم وحده يوم القيامة، أى القضاء والفصل . ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ أى لا يحتاج إلى فِكرة ورويّة ولا عَقْد يد . وقد تقدّم[(٧)] .

(١) راجع جـ ٢ ص ١٣٧ . (٢) راجع جـ ٦ ص ٤١٦ . (٣) راجع جـ ١٤ ص ٩٢ . (٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٦٠ . (٥) راجع جـ ١٦ ص ١٧٢ . (٦) راجع جـ ١٨ ص ٢٠٦ . (٧) راجع جـ ٢ ص ٤٣٥ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أى شدائدهما؛ يقال : يوم مظلم أى شديد . قال النحاس : والعرب تقول : يومٌ مظلم إذا كان شديدا، فإن عظمت ذلك قالت : يوم ذو كواكب ؛ وأنشد سيبويه :

بَنِي أسدٍ هل تعلمون بلاءنا * إذا كان يومٌ ذو كواكب أشنَعَا

وجمع « الظلمات » على أنه يعنى ظلمة البرّ وظلمة البحر وظلمة الليل وظلمة الغيم ، أى إذا أخطأتم الطريق وخفتم الهلاك دعوتموه ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا[1] مِنْ هَـٰذِهِ﴾ أى من هـذه الشدائد ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى من الطائعين . فوبّخهم الله فى دعائهم إياه عند الشدائد ، وهم يدعون معه فى حالة الرخاء غيره بقوله : « ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ » . وقرأ الأعمش « وخِيفَة » من الخوف ، و[قـرأ[2]] أبو بكر عن عاصم «خِفية» بكسر الخاء، والباقون بضمها، لغتان . وزاد الفـراء خُفْوة وخِفْوة . قال : ونظيره حُبْيـة وحِبْية وحُبْوة وحِبْـوة . وقراءة الأعمش بعيـدة ؛ لأن معنى « تضرُّعا » أن تظهروا التذلل و « خفية » أن تُبطنوا مثل ذلك . وقرأ الكوفيون « لئن أنجانا » واتساق المعنى بالتاء ؛ كما قرأ أهل المدينة وأهل الشأم .

قوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ[1] مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ وقرأ الكوفيون «يُنَجِّيكُمْ» بالتشديد، الباقون بالتخفيف . قيل : معناهما واحد مثل نجا وأنجيته ونجّيته . وقيل : التشديد للتكثير . والكرب : الغم يأخذ بالنفس ؛ يقال منه : رجل مكروب . قال عنترة :

ومكروبٍ كشفتُ الكرب عنه * بطعنـةِ فَيْصَـلٍ لمـا دعانى

والكُرْبة مشتقة من ذلك .

قوله تعـالى : ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ تقريع وتوبيخ ؛ مثـل قوله فى أول السورة « ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ » . لأن الحجة إذا قامت بعـد المعرفة وجب الإخلاص ، وهم قد جعلوا

(١) قراءة نافع . (٢) من ك .

بدلا منـه وهو الإشراك ؛ فحسُن أن يُقرَّعـوا و يُوَبَّخُوا على هذه الجهة وإن كانوا مشركين قبل النجاة .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (٦٥)

أى القـادر على إنجائكم من الكرب ، قادر على تعـذيبكم . ومعنى ﴿ مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ الرجم بالحجارة والطوفان والصيحة والريح ؛ كما فعل بعادٍ وثمودَ وقومِ شعيبٍ وقومِ لوطٍ وقومِ نوحٍ ؛ عن مجاهد وابن جُبير وغيرِهما . ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ الخسْف والرّجفة ؛ كما فعل بقارون وأصحاب مَدْين . وقيـل : « من فوقكم » يعنى الأمراء الظلمة ، « ومن تحت أرجلكم » يعنى السّفِلة وعَبيد السّوء ؛ عن ابن عباس ومجاهد أيضا . ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾ وروى عن أبى عبد الله المدنىّ « أو يُلبسكم » بضم اليـاء ، أى يجلّلكم العذاب و يعمّكم به ، وهذا من اللُّبس بضم الأوّل ، وقراءة الفتـح من اللَّبْس . وهو موضـع مشكل والأعراب يبينـه . أى يَلبِس عليكم أمركم ، فحـذف أحد المفعولين وحرف الجـر ؛ كما قال : « وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ »(١) وهـذا اللَّبس بأن يخلط أمرهم فيجعلهم مختلفِى الأهواء ؛ عن ابن عبـاس . وقيـل : معنى « يلبسكم شـيعا » يقوّى عدوّكم حتى يخالطكم و إذا خالطكم فقـد لبسكم . ﴿ شِيَعًا ﴾ معناه فِرقًا . وقيل يجعلكم فرقا يقاتل بعضكم بعضا ؛ وذلك بتخليط أمرهم وافتراق أمرائهم(٢) على طلب الدنيا . وهو معنى [قوله] ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ أى بالحرب والقتـل فى الفتنة ؛ عن مجاهد . والآية عامّة فى المسلمين والكفار . وقيـل هى فى الكفار خاصّةً . وقال الحسن : هى فى أهل الصلاة .

قلت : وهو الصحيح ؛ فإنه المشاهد فى الوجود ، فقد لَبِسنا العدوّ فى ديارنا واستولى على أنفسنا وأموالنا ، مع الفتنـة المستولية علينا بقتل بعضنا بعضا وآستباحة بعضنا أموال بعض .

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٥٠ . (٢) فى ك : أهوائهم .

Marfat.com

نعوذ بالله من الفـتن ما ظهر منها وما بطن . وعن الحسن أيضا أنه تأول ذلك فيما جرى بين الصحابة رضى الله عنهـم . روى مسلم عن ثَوْبَانَ قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " إن الله زَوَى[(١)] لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها و إنّ أمتى سيبلغ مُلكها ما زُوِى لى منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض و إنى سألت ربى لأمّتى ألا يهلكها بسنَة عامّة وألّا يسلّط عليهم عدوًّا مِن سِوَى أنفسهم فيستبيح بَيْضَتهم و إنّ ربى قال : يا محمد إنى إذا قضيت قضاء فإنه لا يُرَدّ و إنى قد أعطيتك لأمتك ألّا أهلكهم بسنَة عامّة وألا أسلط عليهم عدوّا من سِوَى أنفسهم يستبيح بيضتهم[(٢)] ولو آجتمع عليهم من بأقطارها — أو قال من بين أقطارها — حتى يكون بعضهم يُهلك بعضًا ويَسْبِي بعضهم بعضا " . وروى النسائيّ عن خَبّاب بن الأَرَتّ، وكان قد شهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه راقب رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلةَ كلّها حتى كان مع الفجر، فلما سلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته جاءه خَبّاب فقال : يا رسول الله، بأبى أنت وأمى ! لقد صليتَ الليـلة صلاة ما رأيتك صَليتَ نحوها ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أجَلْ إنها صـلاة رَغَب ورَهَب سألتُ الله عز وجل فيها ثلاث خصال فأعطانى ثنتين ومنعنى واحدة سألت ربى عز وجل ألا يُهلكنا بما أهلك به الأمم فأعطانيها وسألت ربى عز وجل ألا يظهـر علينا عدوًّا مِن غيرنا فأعطانيها وسألت ربى عز وجل ألا يُلبسنا شِـيَعًا فمنعنيها " . وقـد أتينا على هـذه الأخبار فى كتاب (التـذكرة) والحمد لله . وروى أنه لـما نزلت هذه الآية قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لجبريل : "ياجبريل ما بقاء أمتى على ذلك " ؟ فقال له جبريل : " إنما أنا عبد مثلك فادع ربك وسله لأمتك" فقام رسول الله صلى الله عليه وسـلم فتوضأ وأسبغ الوضوء وصلى وأحسن الصـلاة ، ثم دعا فنزل جبريل وقال : " يا محمد إن الله تعالى سمع مقالتك وأجارهم من خصلتين وهو العذاب من فوقهـم ومن تحت أرجلهم " . فقال : " يا جبريل ما بقاء أمتى إذا كان فيهم أهـواء مختلفة ويذيق بعضهم بأس بعض " ؟ فنزل جبريل بهذه الآية : « الٓمٓ . أَحَسِبَ النَّاسُ

---

(١) زوى : جمع . (٢) أى مجتمعهم وموضع سلطانهم ومستقرّ دعوتهم .

Marfat.com

أَنْ يُشْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا [1] » الآية . وروى عمـرو بن دينار عن جابر بن عبـد الله قال : لمـا نزلت هـذه الآية « قُلْ هُوَ الْقَـادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ » قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " أعوذ بوجه الله " فلما نزلت « أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ » قال : "هاتان أهون" . وفى سنن ابن ماجه عن ابن عمر قال : "لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الكلمات حين يمسى وحين يصبح : اللّهُمّ إنى أسئلك العافية فى الدنيا والآخرة . اللّهُمّ إنى أسئلك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى . اللّهُمّ اسـتر عوراتى وآمن رَوْعاتى واحفظنى من بين يدىّ ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى وأعوذ بك أن أغتال مِن تحتى" . قال وكيع : يعنى الخَسْف .

قوله تعـالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَاتِ ﴾ أى نبيـن لهم الحجج والدلالات . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ يريد بطلان ما هم عليه من الشِّرْك والمعاصى .

قوله تعـالى : وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ ﴾ أى بالقرآن . وقرأ ابن أبى عَبْلَة «وكذبت» . بالتاء . ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ أى القصص الحق . ﴿ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ قال الحسن : لست بحافظ أعمالكم حتى أجازيكم عليها ، إنما أنا مُنذِر وقـد بلّغت ؛ نظيره « وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ [2] » أى أحفظ عليكم أعمالكم . ثم قيل : هذا منسوخ بآية القتال . وقيل : ليس بمنسوخ ، إذ لم يكن فى وُسعه إيمانهم . ﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾ لكل خبرٍ حقيقة ، أى لكلّ شىء وقتٌ يقع فيه من غير تقدّم وتأخر . وقيـل : أى لكل عمل جزاء . قال الحسن : هـذا وعيد من الله تعـالى للكفار ؛ لأنهم كانوا لا يُقِرّون بالبعث . الزجّاج : يجـوز أن يكون وعيدا بمـا ينزل بهـم فى الدنيا . [قال [3]] السُّدّى : آستقر يومَ بَدْر ما كان يَعِدُهم به من العذاب . وذكر الثَّعْلَبى أنه رأى فى بعض التفاسير أن هذه الآية نافعة من وجع الضرس إذا كتبت على كاغد ووضع على السِّنّ .

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٢٣ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٨٦ . (٣) من ك .

Marfat.com

قوله تعـالى : وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُـونَ فِي آيَاتِنَـا ﴾ بالتكذيب والردّ والاستهزاء ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ والخطاب مجرّد للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن المؤمنين داخلون فى الخطاب معه . وهو صحيح؛ فإن العلة سماع الخوض فى آيات الله، وذلك يشملهم وإياه . وقيل : المراد به النبيّ صلى الله عليه وسلم وحده؛ لأن قيامه عن المشركين كان يشق[1] عليهم، ولم يكن المؤمنون عندهم كذلك؛ فأمر أن ينابذهم بالقيام عنهم إذا استهزءوا وخاضوا ليتأدّبوا بذلك ويدَعُوا الخوض والاستهزاء . والخَـوْض أصله فى المـاء، ثم استعمل بعـدُ فى غَمَرات الأشـياء التى هى مجاهل، تشبيها بغَمَرات المـاء فاستعير من المحسوس للمعقول . وقيـل : هو مأخوذ من الخلط . وكل شيء خُضْتَه فقد خالطته؛ ومنه خاض المـاءَ بالعسل خالطه . فأدّب الله عز وجل نبيه [صلى الله عليه وسلّم][2] بهذه الآية؛ [لأنه][3] كان يقعد إلى قوم من المشركين يَعِظهم ويدعوهم فيستهزءون بالقرآن؛ فأمره الله أن يُعرض عنهم إعراض مُنْكِر . ودلّ بهذا على أن الرجل إذا علم من الآخر منكرًا وعلم أنه لا يقبل منه فعليه أن يُعرض عنـه إعراض منكر ولا يُقبل عليـه . وروى شِـبْل عن ابن أبى نَجيح عن مجاهد فى قوله : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا » قال : هم الذين يستهزءون بكتاب الله، نهـاه الله عن أن يجالس معهم إلّا أن ينسى فإذا ذَكَر قام . وروى وَرْقاء عن ابن أبى نَجيح عن مجاهـد قال : هم الذين يقولون فى القرآن غير الحق .

الثانيـــة — فى هذه الآية ردٌّ من كتاب الله عز وجل على من زعم أن الأئمة الذين هم حُجَجٌ وأتباعَهم لهم أن يخالطوا الفاسقين ويصوّبوا آراءهم تَقِيّة[4] . وذكر الطبريّ عن أبى جعفر محمد بن عليّ [رضى الله عنه][5] أنه قال : لا تجالسوا أهل الخصومات، فإنهم الذين يخوضون

(١) فى ك : أشق . (٢) من ك و ز . (٣) من ك . (٤) التقية والتقاة بمعنى واحد . يريد أنهم يتقون بعضهم بعضا ويظهرون الصلح والاتفاق، وباطنهم بخلاف ذلك . (٥) من ك، ع، ز .

Marfat.com

فى آيات الله . قال ابن العربى : وهذا دليل على أن مجالسة أهـل الكبائر لا تحلّ . قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : من خاض فى آيات الله تُركت مجالسته وهُجر، مؤمنـا كان أو كافرا . قال : وكذلك منع أصحابنـا الدخولَ إلى أرض العـدو ودخولَ كنائسهم والبِيَع ، ومجالســةَ الكفار وأهلِ البِدَع ، وألّا تُعتقد مودّتهـم ولا يُسمع كلامهم ولا مناظرتهم . وقد قال بعض أهـل البِدع لأبى عِمرانَ النَّخَعِىّ : اسمع منى كلمة ؛ فأعرض عنه وقال : ولا نصف كلمة . ومثله عن أيوب السِّختيانىّ . وقال الفُضيل بن عِيَاض : من أحبَّ صاحبَ بدعة أحبط الله عمله وأخرج نور الإسلام من قلبـه ، ومن زوّج كريمته من مُبْتَدِع فقـد قطع رَحِمَها ، ومن جلس مع صاحب بِدْعة لم يُعـط الحكمة ، و إذا عـلم الله عز وجل من رجل أنه مُبغِض لصاحب بِدْعة رجَوْتُ أن يغفر الله له . وروى أبو عبد الله الحاكم عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : "مَن وَقَّر صاحب بدعة فقد أعان على هـدم الإسلام" . فبطل بهذا كلِّه قولُ مَن زعم أن مجالستهم جائزة إذا صانوا أسماعهم .

قوله تعالى : ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْـدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ .

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ﴾ «إما» شرط ، فيلزمها النون الثقيلة فى الأغلب وقد لا تلزم ؛ كما قال :

إمّا يصِـبْك عدوّ فى مُنـاوَأة * يوما فقد كنت تَسْتَعْلِي وتنتصر

وقرأ ابن عبـاس وابن عامر «يُنَسِّينك» بتشديد السّـين على التكثير ؛ يقال : نَسَّى وأَنْسَى بمعنى واحد [لغتان](١) ؛ قال الشاعر :

قالت سُليمَى أتَسْرِى اليوم أم تَقِلِ * وقد يُنَسّيك بعضَ الحاجةِ الكسلُ(٢)

وقال امرؤ القيس :

* ... تُنَسِّــنِى إذا قمت سِرْبَالِي(٣) *

(١) فى ابن عطية : قرأ ابن عامر وحده . الخ وفى ك : قرأ ابن عباش وابن عامر وابن عمر . (٢) الشاهد فى «ينسيك» بالشد مع عدم النون الشديدة إلا أنه بدون إما . (٣) والبيت بتمـامه كما فى اللسان :

ومثلك بيضاء العـوارض طفلة * لعـوب تنسى إذا قمت سربالى

ورواية اللسان «تناسانى» بدل «تنسينى» .

Marfat.com

المعنى : يا محمد إن أنساك الشيطان أن تقوم عنهم بجالستهم بعد النّهى . ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى﴾ أى إذا ذكرت فلا تقعد ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعنى المشركين. والذّكرى اسم للتذكير.

الثانيـة — قيل : هذا خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ؛ ذهبوا إلى تبرئته عليه السلام من النسيان . وقيل : هو خاص به ، والنسيان جائز عليه . قال ابن العربيّ : وإن عذرنا أصحابنا فى [قولهم إن][1] قوله تعالى : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ »[2] خطاب للأمة باسم النبيّ صلى الله عليه وسلم لاستحالة الشّرك عليه ، فلا عُذر لهم فى هذا لجواز النسيان عليه . قال عليه السلام ، "نَسِيَ آدمُ فَنَسِيت ذرّيّته" خرّجه الترمذيّ وصحّحه . وقال مخبرا عن نفسه : "إنما أنا بشر مثلكم أَنْسَى كما تَنْسَوْن فإذا نسيت فذكّرونى" . خرّجه فى الصحيح ، فأضاف النسيان إليه . وقال وقدسمع قراءة رجل : "لقد أذكرنى آيةَ كذا وكذا كنتُ أنسيتها" . واختلفوا بعد جواز النسيان عليه ؛ هل يكون فيما طريقه البلاغ من الأفعال وأحكام الشرع أم لا ؟ فذهب إلى الأول — فيما ذكره القاضى عياض — عامّةُ العلماء والأئمةُ النُّظار ؛ كما هو ظاهر القرآن والأحاديث ، لكن شرط الأئمة أن الله تعالى ينبّهه على ذلك ولا يقرّه عليـه . ثم اختلفوا هل من شرط التنبيه اتصاله بالحادثة على الفَوْر ، وهو مذهب القاضى أبى بكر والأكثر من العلماء ، أو يجوز فى ذلك التّراخى ما لم يَنْخرِم عمره و ينقطع تبليغه ، و إليه نحا أبو المَعالى . ومنعت طائفة من العلماء السَّهوَ عليه فى الأفعال البلاغية والعبادات الشرعيّة ؛ كما منعوه اتفاقا فى الأقوال البلاغية ، واعتذروا عن الظواهر الواردة فى ذلك ؛ و إليه مال الأستاذ أبو إسحاق . وشذّت الباطنيّة وطائفة من أرباب علم القلوب فقالوا : لا يجوز النسيان عليه ، و إنما يَنْسى قصدًا و يتعمّد صورةَ النسيان ليَسُنّ . ونحـا إلى هذا عظيم من أئمة التحقيق وهو أبو المظفر الإسفرايِنِي فى كتابه (الأوسط) وهو منحًى غيرُ سديد ، و جمعُ الضد مع الضد مستحيل بعيد .

قوله تعالى : وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

(١) الزيادة من ابن العربى . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٦ .

قال ابن عباس : لما نزل لا تقعدوا مع المشركين وهو المراد بقوله : « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » قال المسلمون : لا يمكننا دخول المسجد والطواف؛ فنزلت هذه الآية . ﴿ وَلَٰكِنْ ذِكْرَىٰ ﴾ أى فإن قعدوا يعنى المؤمنين فليذكّروهم . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الله فى ترك ما هم فيه . ثم قيل : نسخ هذا بقوله : «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ»[(١)] . وإنما كانت الرخصة قبل الفتح وكان الوقت وقت تَقِيّة . وأشار بقوله : « وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ » إلى قوله : « وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا » . قال القُشَيْرِىّ : والأظهر أن الآية ليست منسوخة . والمعنى : ما عليكم شىء من حساب المشركين ، فعليكم بتذكيرهم وزجرهم فإن أبوا فحسابهم على الله . و «ذِكْرَىٰ» فى موضع نصب على المصدر ، ويجوز أن تكون فى موضع رفع ؛ أى ولكن الذى يفعلونه ذكرى ، أى ولكن عليهم ذكرى . وقال الكسائىّ : المعنى ولكن هذه ذكرى .

قوله تعالى : وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

أى لا تعلّق قلبك بهم فإنهم أهل تعنّت وإن كنت مأمورا بوعظهم . قال قتادة : هذا منسوخ، نسخه « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »[(٢)] . ومعنى ﴿ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ أى استهزاء بالدين الذى دعوتهم إليه . وقيل : استهزءوا بالدين الذى هم عليه فلم يعملوا به . والاستهزاء ليس مُسوّغا فى دين . وقيل : « لَعِبًا وَلَهْوًا » باطلا وفرحا، وقد تقدّم هذا[(٣)] . وجاء اللّعب مقدّما فى أربعة مواضع، وقد نُظمت .

(١) راجع جـ ٥ ص ٤١٧ . (٢) راجع جـ ٨ ص ٧١ . (٣) راجع جـ ٦ ص ٤١٣ فما بعده .

Marfat.com

إذا أتى لعب ولهـــو[1] * وكم من موضع هو فى القُرآن

لخرف فى الحديد وفى القتال * وفى الأنعـام منها موضعان

وقيل : المراد بالدِّين هنـا العِيدُ . قال الكلبيّ : إن الله تعـالى جعل لكل قوم عيـدا يعظمونه و يصلّون فيـه لله تعالى ، وكل قوم اتّخذوا عيدهم لعبـا ولهوا إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنهم اتخذوه صلاة وذكرا وحضورا بالصدقة ، مثل الجمعة والفطر والنحر .

قوله تعالى : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى لم يعلموا إلا ظاهرا من الحياة الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ ﴾ أى بالقرآن أو بالحساب . ﴿ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أى تُرْتَهن وتُسلم للهَلَكة ؛ عن مجاهد وقتادة والحسن وعِكْرِمة والسُّـدِّى . والإبسال : تسليم المرء للهلاك ؛ هذا هو المعروف فى اللغة . أبْسلتُ ولدى أرهنته ؛ قال عَوْف بن الأحوص آبن جعفر :

وإبسالِى بَنِيَّ بغـيرِ جُرْمٍ * بَعَوْناه ولا بِـدَمٍ مُرَاقِ

« بَعَوْناه » بالعين المهملة معناه جنيْناه . والبَعْوُ الجناية . وكان حَمَل عن غَنِيٍّ لبنى قُشَـيرٍ دمَ آبنى السَّجَيْفة[2] فقالوا : لا نرضى بك ؛ فرهنَهم بَنِيـه[3] طلبا للصلح . وأنشد النابغة [الجعدى] :

ونحن رَهنَّا بالأُفَاقَـة[4] عامرًا * بمـا كان فى الدَّرْدَاء رَهْنًا فأُبْسِلَا

الدرداء : كتيبة كانت لهم . ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ[5] وَلَا شَفِيعٌ[6] ﴾ تقدّم معناه .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ الآية . العدل الفدْية ، وقد تقدم فى « البقرة[6] » . والحَمِيم الماء الحارّ ؛ وفى التنزيل « يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ[7] » الآية . « يَطُوفُونَ

(١) هكذا الشطر فى الأصول ولعل الأصل : إذا سألت عن الخ . (٢) كذا فى ك . والذى فى اللسان وشرح القاموس : السجفية . والذى فى الجوهرى وفى ا و ب و جـ و ز : « السحفية » بالحاء المهملة بدل الجيم .

(٣) من جـ ، ع ، ك ، ز . (٤) الأفاقة (ككناسة) : موضع فى أرض الحزن قرب الكوفة . أو هو ماء لبنى يربوع ، و [illegible] الأفاقة من أيام العرب . (٥) راجع جـ ٣ ص ٢٨٣ وص ٢٧٣ وجـ ٤ ص ١٠٩ .

(٦) راجع جـ ١ ص [illegible] ٣٨ . (٧) راجع جـ ١٢ ص ٢٥ .

بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ »[1] . والآية منسوخة بآية القتال . وقيل : ليست بمنسوخة؛ لأن قوله : « وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ » تهديد؛ كقوله : « ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا »[2] . ومعناه لا تحزن عليهم؛ فإنما عليك التبليغ والتذكير بإبسال النفوس . فمن أبسل فقد أسلم وارتهن . وقيل : أصله التحريم، من قولهم : هـذا بَسْلٌ عليك أى حرام؛ فكأنهم حُرِموا الجنة وحُرِّمت عليهم الجنة . قال الشاعر[3] :

أجارتكم بَسْلٌ علينا مُحَـرَّمٌ * وجارتنـا حِلٌّ لكم وحَلِيلُها

والإبسال : التحريم .

قوله تعـالى : قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ (٧٣)

قوله تعـالى : ﴿ قُـلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا ﴾[4] أى ما لا ينفعنـا إن دعوناه . ﴿ وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ إن تركناه؛ يريد الأصنام . ﴿ وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ أى نرجع إلى الضلالة بعد الهدى . وواحد الأعقاب عقِب وهو مؤنث، وتصغيره عقيبة . يقال : رجع فلان على عقِبيه إذا أدبر . قال أبو عبيدة : يقال لمن ردّ عن حاجته ولم يظفر بها : قد ردّ على عقبيه . وقال المبرد : معناه تعقب بالشر بعد الخير . وأصله من العاقبة والعقبى وهما ما كان

---

(١) راجع ج١٧ ص١٧٥ . (٢) راجع ج١٠ ص٢ . (٣) هو الأعشى ميمون . (٤) فى ك : رجوناه .

Marfat.com

تاليا للشيء واجبا أن يتبعه؛ ومنه «والْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»[1]. ومنه عَقِب الرَّجل. ومنه العقوبة، لأنها تالية الذنب، وعنه تكون.

قوله تعـالى: ﴿كَالَّذِي﴾ الكاف فى موضع نصب نعت لمصدر محذوف. ﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ أى استغوته وزيّنت له هواه ودعته إليه. يقال: هَوَى يَهْوِى إلى الشيء أسرع إليه. وقال الزجاج: هو من هَوِىَ يَهْوَى، من هَوَى النفس؛ أى زيّن له الشيطان هواه. وقراءة الجماعة «استهوته» أى هوت به، على تأنيث الجماعة. وقرأ حمزة «استهواه الشـياطين» على تذكير الجمع. وروى عن ابن مسعود «استهواه الشـيطان»، وروى عن الحسن، وهو كذلك فى حرف أُبَىّ. ومعنى «آئتنا» تابعنا. وفى قراءة عبد الله أيضا «يَدْعُونه إلى الهُدَى بَيِّنا». وعن الحسن أيضا «استهوته الشياطون». «حَيْرَانَ» نصب على الحـال، ولم ينصرف لأن أنثاه حيرى كسكران وسكرى وغضبان وغضبى. والحَيْرانُ هو الذى لا يهتدى لجهة أمره. وقد حار يَحار حَيْرًا وحَيْرَة وحَيْرُورة[2]، أى تردّد. وبه سُمِّىَ المـاء المستنقع الذى لا منفـذ له حائرا، والجمع حُورَان[3]. والحائر الموضع [الذى] يتحير فيه المـاء. قال الشاعر:

تَخْطُو على بَرْدِيَّتَيْنِ غذاهما * غَدِقٌ بساحة حائرٍ يَعْبُوبُ[4]

قال ابن عباس: أى مَثَـل عابد الصنم مثل من دعاه الغُول فيتبعه فيُصبح وقد ألقتـه فى مَضَلَّة ومَهْلَكَة؛ فهو حائر فى تلك المَهامه. وقال فى رواية أبى صالح: نزلت فى عبد الرحمن آبن أبى بكر الصدّيق، كان يدعو أباه إلى الكفر وأبواه يدعوانه إلى الإسـلام والمسلمون؛ وهو معنى قوله: ﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُـدَى﴾ فيأبى. قال أبو عمر: أمّه أمّ رُومانَ بنت الحارث بن غَنْم الكنانية؛ فهو شقيق عائشة. وشهد عبد الرحمن بن أبى بكر بَدْرًا وأُحُدًا مع قومه وهو كافر، ودعا إلى البراز فقام إليه أبوه ليبارزه فذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) سيأتى فى ص ٢٦٣ من هذا الجزء.
(٢) لم نجد هذا المصدر فى كتب اللغة. وفى تفسير الفخر الرازى: «... وزاد الفراء حيرانا وحيرورة».
(٣) من ك.
(٤) اليعبوب: الطويل.

قال [له] (١) "مَتِّعْنِي بنفسك" . ثم أسلم وحسُن إسلامه ، وصحب النبي صلى الله عليه وسـلم في هُدْنَة الحُـدَيْبِيَة . هذا قول أهل السِّيَر . قالوا : كان ٱسمه عبدَ الكعبة فغيّر رسـول الله صلى الله عليه وسلم ٱسمَه عبد الرحمن، وكان أسنَّ ولد أبي بكر . ويقال : إنه لم يدرك النبيَّ صلى الله عليه وسلم أربعةٌ وِلاءً : أبٌ وبنوه إلا أبا قُحَـافة وابنَـه أبا بكر وٱبنَـه عبد الرحمن ٱبن أبي بكر وابنَـه أبا عتيق محمد بن عبد الرحمن . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ ﴾ اللام لام كي، أي أمرنا كي نسـلم وبأن أقيموا الصلاة؛ لأن حروف الإضافة يعطف بعضها على بعض . قال الفَـرّاء : المعنى أمرنا بأن نسلم؛ لأن العـرب تقول : أمرتك لتذهب ، وبأن تذهب بمعنًى . قال النحاس : سمعت أبا الحسن بن كَيْسان يقول هي لام الخفض، واللامات كلها ثلاث : لامُ خفضٍ ولامُ أمرٍ ولامُ توكيد ، لا يخرج شيء عنها . والإسـلام الإخلاص . وإقامة الصلاة الإتيان بهـا والدوام عليها . ويجوز أن يكون « وأن أقيموا الصلاة » عطفًا على المعنى، أي يدعونه إلى الهدى ويدعونه أن أقيموا الصلاة ؛ لأن معنى ٱئتنا أنِ ٱئتنا .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ابتداء وخبر وكذا ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أي فهو الذي يجب أن يُعبد لا الأصنام . ومعنى ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي بكلمة الحق . يعني قوله « كُنْ » .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أي وٱذكر يوم يقول كن . أو ٱتقوا يوم يقول كن . أو قَدِّر يوم يقول كن . وقيل : هو عطف على الهاء في قوله : « وٱتقوه » . قال الفراء : « كن فيكون » يقال : إنه للصُّور خاصّـة ؛ أي ويوم يقول للصُّور كن فيكون . وقيـل : المعنى فيكون جميع ما أراد من موت الناس وحياتهم . وعلى هذين التأويلين يكون ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ ﴾ ابتداءً وخبرًا . وقيـل : إن قوله تعالى : « قَـوْلُهُ » رفع بيكون ؛ أي فيكون ما يأمر به . و « الْحَـقُّ » من نعته . ويكون التمـام على هـذا « فيكون قوله الحق » . وقرأ ٱبن عامر

---

(١) من ع و ز و ك .

« فيكونَ » بالنصب[١]، وهو إشارة إلى سرعة الحساب والبعث . وقد تقـدّم فى « البقـرة » القول فيه مستوفى[٢] .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أى وله المُلْك يومَ ينفخ فى الصُّور . أو وله الحق يوم ينفخ فى الصور . وقيل : هو بدل من « يوم يقول » . والصُّور قَرْن من نُور يُنفخ فيه، النفخة الأولى للفناء والثانية للإنشاء . وليس جمع صُورة كما زعم بعضهم ؛ أى ينفخ فى صُوَر الموتى على ما نبيّنه . روى مُسْلم من حديث عبد الله بن عمـرو " ... ثم يُنفخ فى الصُّـور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لِيتًا[٣] ورَفع لِيتـًا[٤] — قال — وأول من يسمعه رجل يَلُوطُ[٥] حَوْض إبله — قال — فَيَصْعَق ويَصْعَق الناسُ ثم يرسل الله — أو قال ينزل الله — مطرا كأنه الطَّلُّ فتَنْبُتُ منه أجسادُ الناس ثم يُنفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون " وذكر الحديث . وكذا فى التنزيل « ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى[٦] » ولم يقل فيها ؛ فعلم أنه ليس جمع الصُّورة . والأمم مُجْمِعة على أن الذى يَنفخ فى الصُّور إسرافيلُ عليـه السلام . قال أبو الهَيْثَم : من أنكر أن يكون الصُّور قَرْنا فهو كمن يُنكر العرش والميزان والصراط ، وطلب لها تأويلات . قال ابن فارس : الصُّور الذى فى الحديث كالقَرْن يُنفخ فيـه ، والصُّور جمع صُورة . وقال الجوهرى : الصُّـور القَرْن . قال الراجـــز :

لقـــد نَطحناهم غَداةَ الجَمْعَـينْ * نَطْحًا شديدًا لا كنطح الصُّوَرَيْن

ومنه قوله : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ[٧] » . قال الكَلْبِىّ : لا أدرى ما هو الصُّور . ويقال : هو جمع صُورة مثل بُسْرَة وبُسْر ؛ أى يُنفخ فى صُوَر الموتى والأرواح . وقرأ الحسن « يومَ يُنْفَخُ

---

(١) فى ك . وفى شـواذ ابن خالويه : فيـكون بالنصب . الحسن . وفى الأصـول الأخرى : فنكون بالنون . وهو خطأ .
(٢) راجع جـ ٢ ص ٨٩ .
(٣) أصـغى : أمال .
(٤) الليت (بكسر اللام) : صفحة العنق .
(٥) أى يطينه و يصلحه .
(٦) راجع جـ ١٥ ص ١٧٧ .
(٧) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٩ .

Marfat.com

فى الصُّوَر » . والصِّور (بكسر الصاد) لغة فى الصُّور[1] جمع صُورة والجمع صِوار ، وصِيار (بالياء) لغة فيه . وقال عمرو بن عبيد : قرأ عِياض « يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّوَر » فهذا يعنى به الخلق . والله أعلم .

قلت : وممن قال إن المراد بالصُّور فى هذه الآية جمع صُورة أبو عبيدة . وهذا وإن كان محتملا فهو مردود بما ذكرناه من الكتاب والسُّنّة . وأيضا لا ينفخ فى الصور للبعث مرتين ؛ بل ينفخ فيه مرة واحدة ؛ فإسرافيل عليه الصلاة يَنفخ فى الصُّور الذى هو القَرْن والله عز وجل يُحيي الصُّوَر . [وفى التنزيل « فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا »[2]] .

قوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ برفع « عالم » صفة لـ « الذى » ؛ أى وهو الذى خلق السموات والأرض عالم الغيب . ويجوز أن يرتفع على إضمار المبتدأ . وقد رُوى عن بعضهم أنه قرأ « يَنْفُخ » فيجوز أن يكون الفاعل « عَالِمُ الغَيْبِ » ؛ لأنه إذا كان النفخ فيه بأمر الله عز وجل كان منسوبا إلى الله تعالى . ويجوز أن يكون ارتفع ﴿ عَالِمُ ﴾ حملا على المعنى ؛ كما أنشد سيبويه :

* لِيُبْكَ[3] يَزِيدُ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ *

وقرأ الحسن والأعمش « عالِم » بالخفض على البدل من الهاء [التى[4]] فى « له » .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾

---

(١) نقل المؤلف هنا ما فى الصحاح ، وقد حذف منه ما جعل المراد غير واضح . وعبارته : « ... وقرأ الحسن (يوم ينفخ فى الصور) والصور بكسر الصاد لغة فى الصور جمع صورة . وينشد هذا البيت على هذه اللغة يصف الجوارى :

أشبهن من بقر الخلصاء أعينها * وهن أحسن من صيرانها صورا

والصيران جمع صوار وهو القطيع من البقر . والصوار أيضا وعاء المسك ؛ وقد جمعهما الشاعر بقوله :

إذا لاح الصوار ذكرت ليلى * وأذكرها إذا نفح الصوار

والصيار لغة فيه » .

(٢) من ج و ك و ع . راجع جـ ١٨ ص ٢٠٣ .

(٣) هذا صدر بيت للحارث ابن نهيك ، وتمامه كما فى كتاب سيبويه : * ومختبط مما تطيح الطوائح * وصف أنه كان مقيما لحجة المظلوم ناصرا له . والمختبط : الطالب المعروف . وتطيح : تذهب وتهلك .

(٤) من ج و ك .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾ تكلّم العلماء فى هذا ؛ فقال أبو بكر محمد ابن محمد بن الحسن الجُوَيْني الشافعيّ الأشعرىّ فى النكت من التفسير له : وليس بين الناس اختلاف فى أن اسم والد إبراهيم تارَح (١) . والذى فى القرآن يدل على أن اسمه آزر . وقيل : آزر عندهم ذمٌّ فى لغتهم ؛ كأنه قال : وإذ قال لأبيه يامخطئ ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ وإذا كان كذلك فالاختيار الرفع . وقيل : آزر اسم صنم . وإذا كان كذلك فموضعه نصب على إضمار الفعل ؛ كأنه قال : وإذ قال إبراهيم لأبيه أتتخذ آزر إلها ، أتتخذ أصناما آلهة .

قلت : ما ادّعاه من الاتفاق ليس عليه وفاق ؛ فقد قال محمد بن إسحاق والكلبيّ (٢) والضحاك : إن آزر أبو إبراهيم عليه السلام وهو تارَخ ، مثل إسرائيل ويعقوب ؛ [قلت] فيكون له اسمان كما تقدم . وقال مقاتل : آزر لقب ، وتارَخ اسم : وحكاه الثعلبيّ عن ابن إسحاق القُشَيْرىّ . ويجوز أن يكون على العكس . قال الحسن : كان اسم أبيه آزر . وقال سليمان التَّيْمىّ : هو سَبٌّ وعَيْب ، ومعناه فى كلامهم : المُعْوَجّ . وروى المُعْتَمِر بن سليمان عن أبيه قال : بلغنى أنها أعوج ، وهى أشدّ كلمة قالها إبراهيم لأبيه . وقال الضحّاك : معنى آزر الشيخ الهِمّ (٣) بالفارسية . وقال الفرّاء : هى صفة ذمٍّ بلغتهم ؛ كأنه قال يامخطئ ؛ فيمن رفعه . أو كأنه قال : وإذ قال إبراهيم لأبيه المخطئ ؛ فيمن خفض . ولا ينصرف لأنه على أفعل ؛ قاله النحاس . وقال الجوهرى : آزر اسم أعجمى ، وهو مشتق من آزر فلان فلانا إذا عاونه ؛ فهو مُؤازِرٌ قومَه على عبادة الأصنام . وقيل : هو مشتق من القوّة ، والأزر القوّة ؛ عن ابن فارس . وقال مجاهد ويَمَان : آزر اسم صنم . وهو فى هذا التأويل فى موضع نصب ، التقدير : أتتخذ آزر إلها ، أتتخذ أصناما . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، التقدير : أتتخذ آزر أصناما .

قلت : فعلى هذا آزر اسم جنس . والله أعلم . وقال الثعلبيّ فى كتاب العرائس : إن اسم أبى إبراهيم الذى سمّاه به أبوه تارَح (٤) ، فلما صار مع النُّمروذ قَيِّما على خزانة آلهته سمّاه آزر . وقال مجاهد : إن آزر ليس باسم أبيه وإنما هو اسم صنم . وهو إبراهيم بن تارَح بن ناخور بن ساروع

(١) فى جـ و ك بالمعجمة ، وفى ع بالمهملة . وفى الجمل : ضبطه بعضهم بالحاء المهملة وبعضهم بالخاء المعجمة .
(٢) من جـ و ك و ع . (٣) الهم (بكسر الهاء) : الشيخ الفانى . وفى ك : الهرم ، وكذا قال الفرّاء .
(٤) لعل هذا هو الصحيح كما فى لغة الفينيقيين إزربعل : سادن الصنم بعل .

Marfat.com

ابن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام . و « آزر » فيه قراءات : « أإِزْرًا » بهمزتين، الأولى مفتوحة والثانيــة مكسورة ؛ عن ابن عباس . وعنه « أأَزْرا » بهمزتين مفتوحتين . وقرئ بالرفع، وروى ذلك عن ابن عباس . وعلى القراءتين الأُوليين عنه «تتخذ» بغير همزة. قال المَهْدَوِيّ : أإزرا؟ فقيل : إنه اسم صنم؛ فهو منصوب على تقدير أتتخــذ إزرا ، وكذلك أأزرًا . ويجــوز أن يجعل أإزرًا على أنه مشتق من الأزر وهو الظهر فيكون مفعولا من أجله ؛ كأنه قال : أللقوة تتخذ أصناما . ويجوز أن يكون إزر بمعنى وِزر ، أبدلت الواو همــزة . قال القُشَــيرِيّ : ذكر في الاحتجاج على المشركين قصة إبراهيم وردّه على أبيه في عبادة الأصنام . وأَوْلَى الناس بآتباع إبراهيم العرب ؛ فإنهم ذرّيته . أى وآذكر إذ قال إبراهيم . أو «وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ» وذكّر إذ قال إبراهيم . وقرئ « آزرُ » أى يا آزرُ ، على النــداء المفرد ، وهى قراءة أُبَيّ ويعقوب وغيرهما . وهو يقوى قول من يقول : إن آزر آسم أب إبراهيم . « أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً » مفعولان لـ[تتخــذ وهو استفهام] [1] فيه معنى الإنكار .

قوله تعـالى : وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى مُلك، وزيدت الواو والتاء للمبالغة فى الصفة . ومثله الرَّغَبُوت والرَّهَبُوت والجَبَرُوت. وقرأ أبو السَّمَّال [2] العَدَوِيّ « مَلْكوت » بإسكان اللام . ولا يجــوز عند سيبويه حذف الفتحة لخفّتها ، ولعلها لغــة . و « نُرِي » بمعــنى أرينا ؛ [فهو] [3] بمعنى المُضِيّ . فقيل : أراد به ما فى السموات من عبادة الملائكة والعجائب ومافى الأرض من عصيان بنى آدم؛ فكان يدعو على مَن يراه يَعصى فيُهلكه الله، فأوحى الله إليه يا إبراهيم أمسك عن عبادى ، أما علمت أن من أسمائى الصَّبور . روى معناه علىّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : كشف الله له عن السموات والأرض حتى

(١) من ك .　(٢) أبو السمال قعنب بن أبى قعنب العــدوى البصرى . كذا فى طبقات القراء والتاج . له قراءات شاذة عن العامة . وفى الميزان : أبو السماك معنب بن هلال العدوى البصرى له حروف شاذة لا يعتمد على نقله ولا يوثق به . وفى ب و جـ : ابن السماك .　(٣) من ك و جـ و ع .

Marfat.com

العرش وأسفل الأرضين . وروى ابن جُريج عن القاسم عن إبراهيم النَّخَعِيّ قال : فُرجت له السموات السبع فنظر إليهنّ حتى انتهى إلى العـرش ، وفُرجت له الأرضون فنظر إليهنّ ، ورأى مكانه في الجنـة ؛ فذلك قوله : « وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا »(١) ؛ عن السُّدّى . وقال الضّحاك : أراه من مَلكوت السماء ما قصّـه من الكواكب ، ومن ملكوت الأرض البحارَ والجبالَ والأشجارَ ، ونحو ذلك مما استدلّ به . وقال بنحـوه ابن عباس . وقال : جُعل حين وُلد في سَرَب(٢) وجُعل رزقه في أطراف أصابعه فكان يَمَصُّها ، وكان نُمْروذ اللّعـين رأى رؤيا فعبّرت له أنه يذهب ملكه على يَدَيْ مولود يُولد ؛ فأمر بعزل الرجال عن النساء . وقيـل : أمر بقتل كل مولود ذَكَر . وكان آزر من المقربين عند [الملك](٣) نُمْروذ فأرسله يوما في بعض حوائجه فواقع آمرأته فحملت بإبراهيم . وقيل : بل واقعها في بيت الأصنام فحملت وخرّت الأصنام على وجوهها حينئذ ؛ فحملها إلى بعض الشِّعاب حتى ولدت إبراهيم ، وحفر لإبراهيم سَرَبًا في الأرض ووَضع على بابه صخرة لئلا تفترسه السباع ؛ وكانت أُمُّه تختلف إليه فتُرضعه ، وكانت تجده يَمَصّ أصابعه ، من أحدها عسلٌ ومن الآخر ماءٌ ومن الآخر لبنٌ ، وشَبّ فكان على سَـنة مثلَ ابن ثلاث سنين . فلما أخرجه من السَّرَب توهّمه الناس أنه وُلد منذ سنين ؛ فقال لأمّه : مَن ربّي ؟ فقالت أنا . فقال : ومَن ربّك ؟ قالت أبوك . قال : ومَن ربّه ؟ قالت نُمروذ . قال : ومَن ربّه(٤) ؟ فلطَمَتـه ، وعلمت أنه الذي يَذهب مُلْكُهـم على يديه . والقَصَص في هذا تامٌّ في قِصص الأنبياء للكسائي ، وهو كتاب مما يُقتَدَى(٥) به . وقال بعضهم : كان مولده بحرّان ولكن أبوه نقله إلى أرض بابل . وقال عامّة السَّلَف من أهل العلم : وُلد إبراهيم في زمن النّمروذ بن كنعان بن سنجاريب بن كوش بن سام بن نوح . وقد مضى ذكره في « البقرة »(٦) . وكان بين الطوفان وبين مولد إبراهيم ألف ومائتا سنة وثلاث وستون سنة ؛ وذلك بعد خلق آدم بثلاث آلاف سنة وثلاثمائة سنة وثلاثين سنة .

قـوله تعـالى : ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ أي وليكون من الموقنين أريناه ذلك ؛ أي الملكوت .

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٣٣٩ (٢) السرب (بالتحريك) : حفير أو بيت تحت الأرض . (٣) من ك .
(٤) في ك : ومن رب نمروذ . (٥) في جـ و ز : كتاب حسن لطيف مما يفترى . (٦) راجع جـ ٢ ص ٢٨٣

Marfat.com

قوله تعالى : فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ أى ستره بظلمته ، ومنه الجَنّة والجِنّة والجُنّة والجَنين والمِجَنّ والجِنّ كلّه بمعنى السّتر . وجَنان الليل آدلهمامه وستره . قال الشاعر[1] :

ولولا جَنان الليل أدركَ رَكْضُنا * بذى الرِّمْث والأَرْطَى[2] عِياضَ بنَ ناشب

ويقال : جُنون الليل أيضا . ويقال : جَنّه الليل وأجَنّه الليل، لغتان . ﴿ رَأَى كَوْكَبًا ﴾ هذه قصّة أخرى ،غيرُ قصّة عرض المَلَكوت عليه . فقيل : رأى ذلك من شَقّ الصخرة الموضوعة على رأس السَّرَب . وقيل : لما أخرجه أبوه من السَّرَب وكان وقت غيبوبة الشمس فرأى الإبلَ والخيلَ والغَنم فقال : لابدّ لها من رَبّ . ورأى المُشْتَرِى أو الزُّهَرة ثم القمر ثم الشمس ، وكان هذا فى آخر الشهر . قال محمد بن إسحاق : وكان آبن خمسَ عشرة سنة . وقيل : آبن سبع سنين . وقيل : لما حاجّ نمروذا كان آبن سبع عشرة سنة .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ﴾ اختُلف فى معناه على أقوال؛ فقيل : كان هذا منه فى مُهْلة النظر وحال الطفُولِيّة وقبل قيام الحجة؛ وفى تلك الحال لا يكون كفر ولا إيمان . فاستدلّ قائلو هذه المقالة بما روى عن علىّ بن أبى طلحة عن آبن عباس قال : « فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّى » فعبده حتى غاب عنه ، وكذلك الشمس والقمر؛ فلما تمّ نظره قال : « إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ » . وآستدلّ بالأفول؛ لأنه أظهرُ الآيات على الحدوث . وقال قوم : هذا لا يصحّ؛ وقالوا : غير جائز أن يكون لله تعالى رسولٌ يأتى عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله تعالى مُوَحِّد وبه عارف، ومن كل معبود سواه برىء . قالوا : وكيف يصحّ أن يتوهّم هذا على مَن عصمه الله وآتاه رُشده من قبلُ ، وأراه مَلكوته ليكون من المُوقِنين ، ولا يجوز

(١) هو دريد بن الصمة ، وقيل : هو لخفاف بن ندبة (عن اللسان) . (٢) الرمث (بالكسر) : مرعى من مراعى الإبل ، واسم واد لبنى أسد . والأرطى (جمع أرطاة) : شجر ينبت بالرمل .

Marfat.com

أن يُوصف بالخُلُو عن المعرفة، بل عرف الربَّ أول النظر . قال الزجاج : هذا الجواب عندى خطأ وغلط ممن قاله ؛ وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم أنه قال : « وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ »[1] وقال جل وعز : « إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »[2] أى لم يُشرك به قطّ . قال : والجواب عندى أنه قال « هَذَا رَبِّي » على قولكم ؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر؛ ونظير هذا قوله تعالى : « أَيْنَ شُرَكَائِي »[3] وهو جل وعلا واحدٌ لا شريك له . والمعنى : أين شركائى على قولكم . وقيل : لما خرج إبراهيم من السَّرَب رأى ضوء الكوكب وهو طالب لربّه ؛ فظن أنه ضوءه قال : « هذا ربى » أى بأنه يتراءى لى نوره . ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ ﴾ علم أنه ليس بربّه . « فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا » ونظر إلى ضوئه « قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي » وليس هذا شركا . إنما نَسب ذلك الضوءَ إلى ربّه فلما رآه زائلا[4] دلّه العلم على أنه غير مستحقّ لذلك ؛ فنفاه بقلبه وعلم أنه مَرْبوب وليس بربّ . وقيل : إنما قال « هذا ربى » لتقرير الحجّة على قومه فأظهر موافقتهم؛ فلما أفَل النّجم قرّر الحجة وقال : ما تغيّر لا يجوز أن يكون رَبًّا . وكانوا يعظّمون النجوم ويعبدونها ويحكمون بها . وقال النحاس : ومن أحسن ما قيــل فى هذا ما صحّ عن ٱبن عباس أنه قال فى قول الله عز وجل : « نُورٌ عَلَى نُورٍ »[5] قال : كذلك قلب المؤمن يعــرف الله عز وجل ويستدلّ عليه بقلبــه ، فإذا عرفه ٱزداد نورا على نور ؛ وكذا إبراهيم عليه الســلام عرف الله عز وجل بقلبه واستدلّ عليه بدلائله ، فعلم أن له رَبًّا وخالقا . فلما عرّفه الله عز وجل بنفسه ازداد معرفة فقــال : « أَتُحَاجُّونِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ » . وقيــل : هو على معنى الٱستفهام والتوبيخ، مُنْكِرا لفعلهم . والمعــنى : أهذا ربى، أو مثل هذا يكون رَبًّا ؟ فحذف الهمزة . وفى التنزيل « أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ »[6] أى أفَهُم الخالدون . وقال الهُذَليّ[7] :

رَفَوْنِي وقالوا يا خُوَيْلِدُ لَا تُرَعْ * فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

(١) راجع ج ٩ ص ٣٦٧ . (٢) راجع ج ١٥ ص ٩١ . (٣) راجع ج ١٠ ص ٩٧ .
(٤) فى ك : آفلا . (٥) راجع ج ١٢ ص ٢٥٥ . (٦) راجع ج ١١ ص ٢٨٧ .
(٧) هو أبو خراش . رفوته سكنته من الرعب .

آخر[1] :

لَعَمْرُكَ ما أدْرِي وإنْ كنتُ دارِيًا * بسبعٍ رَمَيْنَ الجَمْرَ أمْ بثمانِ

وقيل : المعنى هذا ربي على زعمكم ؛ كما قال تعالى : « أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ »[2]. وقال : «ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ »[3] أي عند نفسك . وقيل : المعنى أي وأنتم تقولون هذا ربي ؛ فأضمر القول ، وإضماره في القرآن كثير . وقيل : المعنى في هذا ربي ؛ أي هذا دليل على ربي .

قوله تعالى : فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَآى الْقَمَرَ بَازِغًا ﴾ أي طالعا . يقال : بَزَغ القمر إذا ابتدأ في الطلوع ، والبَزْغ الشق ؛ كأنه يشق بنوره الظلمة ؛ ومنه بَزَغ البَيْطار الدابة إذا أسال دمها . ﴿ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي ﴾ أي لم يُثَبِّتني على الهداية . وقد كان مهتديا ؛ فيكون جرى هذا في مُهلة النظر ، أو سأل التثبيت لإمكان الجواز العقلي ؛ كما قال شعيب : « وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ »[4] . وفي التنزيل « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ »[5] أي ثبّتنا على الهداية . وقد تقدّم .

قوله تعالى : فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَآى الشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾ نصب على الحال ؛ لأن هذا من رؤية العين . بَزَغ يَبْزُغ بزوغا إذا طلع . وأفَل يأفِلُ أفولا إذا غاب . وقال : « هذا » والشمس مؤنثة ؛ لقوله : ﴿ فَلَمَّا أَفَلَتْ ﴾ . فقيل : إن تأنيث الشمس لتفخيمها وعظمها ؛ فهو كقولهم : رجل نسّابة وعلّامة . وإنما قال : « هَذَا رَبِّي » على معنى : هذا الطالعُ ربي ؛

---

(١) هو عمر بن أبي ربيعة . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٠٨ . (٣) راجع جـ ١٦ ص ١٥١ .
(٤) راجع ص ٢٥٠ من هذا الجزء . (٥) راجع جـ ١ ص ١٤٦ .

Marfat.com

قاله الكسائيّ والأخفش . وقال غيرهما : أي هذا الضوء . قال أبو الحسن عليّ بن سليمان : أي هذا الشخص ؛ كما قال الأعشى :

قامت تبكّيـه على قـبره * مَن لِيَ مِن بعدِك يا عامرُ
تركتَني في الدار ذا غُرْبةٍ * قـد ذَلّ من ليس له ناصرُ [1]

قوله تعـالى : إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾ أي قصدت بعبادتي وتوحيدي لله عز وجل وحده . وذَكَر الوجه لأنه أظهـر ما يعرف به [الإنسان][2] صاحبه . ﴿ حَنِيفًا ﴾ مائلا إلى الحـق . ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ اسم « ما » وخبرها . وإذا وقفت قلت : « أنا » زدت الألف لبيان الحركة، وهي اللغة الفصيحة . وقال الأخفش : ومن العرب من يقول : « أنَ » . وقال الكسائي : ومن العرب من يقول : « أنَهْ » . ثلاث لغات . وفي الوصل أيضا ثلاث لغات : أن تحذف الألف في الإدراج؛ لأنها زائدة لبيان الحـركة في الوقف . ومن العرب من يثبت الألف في الوصل؛ كما قال الشاعر :

* أنا سَيْف العشـيرة فآعرفوني *[3]

وهي لغـة بعض بني قيس وربيعة؛ عن الفـراء . ومن العـرب من يقول في الوصـل : آن فعلت، مثل عان فعلت؛ حكاه الكسائي عن بعض قُضَاعة .

قوله تعـالى : وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾

---

(١) الشاهد فيه قوله : « ذا غربة » أي شخصا ذا غربة . (٢) من ك .
(٣) هذا صدر بيت، وعجزه كما في اللسان مادة أنن : * جميعا قد تذريت السناما *

قوله تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ دليلٌ على الحِجَاج والجدال؛ حاجُّوه في توحيد الله . ﴿ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ ﴾ قرأ نافع بتخفيف النون، وشدّد النون الباقون . وفيه عن ابن عامر من رواية هشام عنه خلاف؛ فمن شدّد قال : الأصل فيه نونان، الأولى علامة الرفع والثانية فاصلة بين الفعل والياء؛ فلما اجتمع مِثلان في فعل وذلك ثقيل أدغم النون في الأخرى فوقع التشديد ولا بدّ من مدّ الواو لئلا يلتقِيَ الساكنان، الواو وأوّلُ المشدّد؛ فصارت المدّةُ فاصلةً بين الساكنين . ومن خفّف حذف النونَ الثانية استخفافا لاجتماع المِثْلين، ولم تُحذف الأولى لأنها علامةُ الرفع؛ فلو حُذفت لاشتبه المرفوع بالمجزوم والمنصوب . وحُكي عن أبي عمرو ابن العَلَاء أن هذه القراءة لَحْنٌ . وأجاز سيبويه ذلك فقال : استثقلوا التضعيف . وأنشد :

تراه كالثَّغَامِ يُعَلُّ مِسْكًا * يَسوء الفالياتِ إذا فَلَيْنِي (١)

قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦ ﴾ أي لأنه لا ينفع ولا يضر — وكانوا خوّفوه بكثرة آلهتهم — إلا أن يُحيِيَه [الله] (٢) ويُقدِره فيخاف ضرره حينئذٍ؛ وهو معنى قوله : ﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ﴾ أي إلا أن يشاء أن يلحقني شيء من المكروه بذنب عملتُه فتتم مشيئته . وهذا استثناء ليس من الأوّل . والهاء في « بِهِۦ » يحتمل أن تكون لله عز وجل ، ويجوز أن تكون للمعبود . وقال : « إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي » يعني أن الله تعالى لا يشاء أن أخافهم . ثم قال : ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ أي وسع علمه كل شيء . وقد تقدّم (٣) .

قوله تعالى : وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾

(١) البيت لعمرو بن معد يكرب، وصف شعره وأن الشيب قد شمله . والثغام : نبت له نور أبيض يشبه به الشيب . ويعل : يطيب شيئا بعد شيء؛ والعلل : الشرب بعد الشرب . (٢) من ك . (٣) راجع جـ ٢ ص ٨٤ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾ نفى « كيف » معنى الإنكار؛ أنكر عليهم تخويفهم إيّاه بالأصنام وهم لا يخافون الله عز وجل؛ أى كيف أخاف مواتا وأنتم لا تخافون الله القادر على كل شيء . ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ (١) أى حجة؛ وقد تقدّم . ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴾ أى من عذاب الله : الموحّد أم المشرك ؛ فقال الله قاضياً بينهم : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ أى بشرك ؛ قاله أبو بكر الصدّيق وعلى وسلمان وحُذيفة، رضى الله عنهم . وقال ابن عباس : هو من قول إبراهيم ؛ كما يسأل العالِمُ ويجيب نفسه . وقيل : هو من قول [قوم] (٢) إبراهيم ؛ أى أجابوا بما هو حجة عليهم؛ قاله ابن جُريج . وفى الصحيحين عن ابن مسعود لما نزلت « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ » شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : أيُّنا لم يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه « يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (٣) » " . ﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ أى فى الدنيا .

قوله تعالى : وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَٰهَا إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ [تلك] (٤) إشارة إلى جميع احتجاجاته حتى خاصمهم وغلبهم بالحجة . وقال مجاهد : هى قوله : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ » . وقيل : حجته عليهم أنهم لما قالوا له : أما تخاف (٥) أن تخبلك آلهتنا لسبّك إياها ؟ قال لهم : أفلا تخافون أنتم منها إذ سوّيتم بين الصغير والكبير فى العبادة والتعظيم ؛ فيغضب الكبير فيخبلكم ؟ . ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾ أى بالعلم والفهم والإمامة والملك . وقرأ الكوفيون « درجاتٍ » بالتنوين . ومثله فى « يوسف » (٦) أوقعوا الفعل على « مَن » لأنه المرفوع فى الحقيقة، التقدير : ونرفع من نشاء إلى درجات . ثم حذفت إلى . وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو بغير تنوين على الإضافة ، والفعل واقع على الدرجات ، و إذا رُفعت فقد رُفع

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٣ . (٢) من ب و جـ و ك . (٣) راجع جـ ١٤ ص ٦٢ .
(٤) من ك . (٥) فى ك : إنا نخاف . (٦) راجع جـ ٩ ص ٢٣٥ .

صاحبها . يقوّى هذه القراءة قوله تعالى : « رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ »(١) وقوله عليه السلام : " اللّهم ٱرفع درجتـه " . فأضاف الرفع إلى الدرجات . وهو لا إله إلا هو الرفيـع المتعالى فى شرفه وفضله . فالقراءتان متقاربتان ؛ لأن من رُفعت درجاته فقـد رُفع ، ومن رُفع فقـد رفعت درجاته، فٱعلم . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ يضع كل شيء موضعه .

قوله تعالى : وَوَهَبْنَا لَهُۥ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُـوبَ ﴾ أى جزاءً له على الاحتجاج فى الدّين وبذل النفس فيه . ﴿ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾ أى كل واحد منهـم مهتد . و « كُلًّا » نصب بـ « هـدينا » ﴿ وَنُوحًا ﴾ نصب بـ « هدينا » الثانى . ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ ﴾ أى ذرّية إبراهيم . وقيـل : من ذرية نوح ؛ قاله الفـرّاء وٱختاره الطَّبَرِىّ وغير واحد من المفسرين كالقُشيرىّ وابن عطيـة وغيرهما . والأول قاله الزجاج ، واعترض بأنه عُدّ من [هـذه](٢) الذرية يونس ولوط وما كانا من ذرّية إبراهيم . وكان لوطٌ ٱبن أخيـه . وقيل : ابنَ أختـه . وقال ابن عباس : هؤلاء الأنبياء جميعا مضافون إلى ذرّية إبراهيم ، وإن كان فيهم مَن لم تلحقه وِلادة من جهته من جهة أب ولا أمّ ؛ لأن لوطا ٱبن أخى إبراهيم . والعرب تجعل العَمّ أبًا كما أخبر الله عن ولد يعقوب أنهم قالوا : « نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ »(٣) . وإسماعيل عمٌّ يعقوب . وعدّ عيسى من ذرّية إبراهيم وإنما هو ٱبن البنت . فأولاد فاطمة رضى الله عنها ذرّية النبىّ صلى الله عليه وسلم . وبهذا تمسّك من رأى أن ولد البنات يدخلون فى اسم الولد وهى : —

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٩٨ . (٢) من ك وب وع . (٣) راجع جـ ٢ ص ١٣٧ .

Marfat.com

الثانيـــة ــ قال أبو حنيفة والشافعيّ : من وقَف وقفا على ولده وولد ولده أنه يدخل فيه ولد ولده و ولد بناته ما تناسلوا . وكذلك إذا أوصى لقرابتـه يدخل فيـه ولد البنات . والقرابة عنـد أبى حنيفة كلُّ ذى رَحِم مَحْرم . و يسـقط عنده آبن العَمّ والعمة وابن الخـال والخالة؛ لأنهم ليسو بمَحْرمين . وقال الشافعيّ : القرابة كلّ ذى رحم مَحْرَم وغيره . فلم يسقط عنـده ابن العمّ ولا غيره[١] . وقال مالك : لا يدخل فى ذلك ولد البنات . وقـوله : لقرابتى وعقبى كقوله : لولدى وولد ولدى . يدخل فى ذلك ولد البنين ومن يرجع إلى عَصَـبة الأب وصُلْبه ، ولا يدخل فى ذلك ولد البنات . وقد تقدّم نحو هذا عن الشافعيّ فى «آل عمران»[٢] . والحجة لها قوله سـبحانه : « يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِى أَوْلَادِكُمْ[٣] » فلم يَعقِـل المسلمون من ظاهر الآية إلا ولَدَ الصُّلْب وولد الآبن خاصّـةً . وقال تعالى : « وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى[٤] » فأعطى عليه السـلام القرابة منهم من أعمامه دون بنى أخواله . فكذلك ولد البنات لا ينتمون إليـه بالنسب، ولا يلتقون معه فى أب . قال ابن القصّار : وحجة من أدخل البنات فى الأقارب قولُه عليه السلام للحسن بن علىّ " إن آبنى هذا سيّد " . ولا نعلم أحدا يمتنع أن يقول فى ولد البنات إنهم ولد لأبى أمّهم . والمعنى يقتضى ذلك ؛ لأن الولد مشتق من التولُّد وهم متولدون عن أبى أمّهم لا محالة؛ والتولّد من جهة الأمّ كالتولّد من جهة الأب . وقد دلّ القرآن على ذلك، قال الله تعـالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ إلى قوله ﴿ مِنَ الصَّالِحِـينَ ﴾ فجعل عيسى من ذرّيته وهو آبن آبنته .

الثالثـــة ــ قد تقدّم فى « النساء[٣] » بيان ما لا ينصرف من هذه الأسماء . ولم ينصرف داود لأنه آسم أعجميّ، ولمـّا كان على فاعول لا يحسُن فيه الألف واللام لم ينصرف. و إلياس أعجميّ . قال الضحاك : كان إلياس من ولد إسماعيل . وذكر القُتَبى قال : كان من سِبط يُوشـع بن نون . وقرأ الأعرج والحسن وقتـادة « وآلياس » بوصـل الألف . وقرأ أهل الحَرَمين وأبو عمرو وعاصم « والْيَسع » بلام مخففة . وقرأ الكوفيون إلا عاصما « واللَّيْسع » .

(١) فى [illegible] ابن العمة .
(٢) راجع جـ ٤ ص ١٠٤ .
(٣) راجع جـ ٥ ص ٥٤ وص ١٥ جـ ٦
(٤) راجع جـ [illegible]

Marfat.com

وكذا قرأ الكسائيّ، وردّ قراءة من قرأ « والْيَسع » قال : لأنه لا يقال اليَفْعَل مثل اليَحْيَى . قال النحاس : وهذا الردّ لا يلزم ، والعرب تقول : اليَعْمَل واليَحْمَد، ولو نكّرت يحيى لقلت اليحيى . وردّ أبو حاتم على من قرأ « اللَّيْسع » وقال : لا يوجد لَيْسَع . وقال النحاس : وهذا الردّ لا يلزم، فقد جاء فى كلام العرب حَيْدَر وزَيْنب، والحقّ فى هذا أنه ٱسم أعجمىّ، والعُجْمة لا تؤخذ بالقياس إنما تؤخذ سماعا والعرب تغيّرها كثيرا، فلا يُنكر أن يأتى الاسم بلغتين . قال مَكّىّ : من قرأ بلامين فأصل الاسم لَيْسع، ثم دخلت الألف واللام للتعريف . ولو كان أصله يسع ما دخلته الألف واللام؛ إذ لا يدخلان على يزيد و يشكر : ٱسمين لرجلين؛ لأنهما معرفتان علمـان . فأما « ليسع » نكرة فتدخله الألف واللام للتعريف، والقراءة بلام واحدة أحبّ إلىّ؛ لأن أكثر القراء عليه . وقال المَهْدوِىّ : من قرأ « اليسع » بلام واحدة فالأسم يسع، ودخلت الألف واللام زائدتين، كزيادتهما فى نحو الخمسة عشر، وفى نحو قوله :

وجَدْنا اليَزِيدَ بنَ الوليد مباركًا * شديدا بأعبـاء الخلافة كاهِلُهْ[(١)]

وقد زادوها فى الفعل المضارع نحو قوله :

فيستخرج اليَرْبُوع من نافِقَـائه * ومن بيتـه بالشِّيخة اليَتَقَصَّعُ[(٢)]

يريد الذى يتقصّع . قال القُشَيْرى : قرئ بتخفيف اللام والتشديد . والمعنى واحد فى أنه ٱسم لنبىّ معروف؛ مثل إسماعيل و إبراهيم، ولكن خرج عما عليه الأسماء الأعجمية بإدخال الألف واللام . وتوهّم قوم أن اليسع [هو][(٣)] إلياس ، وليس كذلك ؛ لأن الله تعالى أفرد كل واحد بالذّكر[(٣)] . وقال وهب : اليسع [هو][(٣)] صاحب إلياس، وكانا قبل زكرياء و يحيى وعيسى . وقيل : إلياس هو إدريس [وهذا غير صحيح لأن إدريس][(٤)] جدّ نوح و إلياس من ذرّيته[(٥)] . وقيل : إلياس هو الخضر . وقيل : لا، بل الْيَسع هو الخضر . « واوطا » [اسم][(٦)] أعجمىّ انصرف لخفّته . وسيأتى اشتقاقه فى « الأعراف »[(٧)] .

(١) البيت لابن ميادة . (٢) البيت لذى الخرق الطهوى؛ كما فى شرح القاموس . النفقـة (كالهمزة) والنافقاء : جحر الضب واليربوع . وقيل : موضع يرققه اليربوع من جحره، فإذا أتى من قبل القاصعاء . (وهو جحره) ضرب النافقاء برأسه فخـرج . والشيخة : رملة بيضاء ببـلاد أسد و حنظلة . يروى : بجحـره . وفى الأصول : ذو الشيخة . (٣) من ك . (٤) من ع و ل . (٥) أى من ذرية نوح . (٦) من ع .
(٧) راجع ص ٢٤٣ من هذا الجزء .

Marfat.com

قوله تعالى : وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ « من » للتبعيض؛ أى هدينا بعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم . ﴿ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ ﴾ قال مجاهد : خلّصناهم، وهو عند أهل اللغة بمعنى اخترناهم؛ مشتق من جبيت الماء فى الحوض أى جمعته . فالاجتباء ضم الذى تجتبيه إلى خاصتك . قال الكسائى : وجبيت الماء فى الحوض جَبًا ، مقصور . والجابية الحوض . قال :

* كجابيةِ الشَّيخِ العراقىّ تَفْهَقُ[1] *

وقد تقدّم معنى الاصطفاء والهداية[2] .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا ﴾ أى لو عبدوا غيرى لحبطت أعمالهم ، ولكنى عصمتهم . والحبوط البطلان . وقد تقدّم فى « البقرة[3] » .

قوله تعالى : أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ ابتداء وخبر « والحكم » العلم والفقه . ﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا ﴾ أى بآياتنا . ﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ أى كفار عصرك يا محمد . ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا ﴾ جواب الشرط؛ أى وكلنا بالإيمان بها ﴿ قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ يريد

---

(١) هذا عجز بيت للأعشى ، وصدره كما فى الديوان :

* نفى الذم عن آل المحلق جفنة *

الجفنة : القصعة . والفهق : الامتلاء .

(٢) راجع جـ ١ ص ١٤٦ و جـ ٢ ص ١٣٢ — ١٣٣

(٣) راجع جـ ٣ ص ٤٦ .

الأنصار من أهل المدينة والمهاجرين من أهل مكة . وقال قتادة : يعني النبيّين الذين قصّ الله عز وجل . قال النحاس : وهذا القول أشبه بالمعنى؛ لأنه قال بعدُ : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ » . وقال أبو رجاء : هم الملائكة . وقيل : هو عام في كل مؤمن من الجن والإنس والملائكة . والباء في « بكافرين » زائدة [على جهة](1) التأكيد .

قوله تعالى : أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ الاقتداء طلب موافقة الغير في فعله . فقيل : المعنى ٱصبر كما صبروا . وقيل : معنى « فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ » التوحيد والشرائع مختلفة . وقد احتجّ بعض العلماء بهذه الآية على وجوب ٱتباع شرائع الأنبياء فيما عدم فيه النص؛ كما في صحيح مُسْلم وغيره : أن أخت الرُّبَيِّع(2) أم حارثة جرحت إنسانا فاختصموا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "القصاصَ القصاصَ" فقالت أم الرَّبيع : يارسول الله أيقتصّ من فلانة ؟ ! والله لا يقتص منها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سبحان الله يا أم الرَّبيع القصاصُ كتاب الله " . قالت : والله لا يقتص منها أبدا . قال : فما زالت(3) حتى قَبلوا الدِّية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن مِن عباد الله مَن لو أقسم على الله لأَبرّه ". فأحال رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوله : « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ(4) » الآية . وليس في كتاب الله تعالى نصّ على القصاص في السِّنّ إلا في هذه الآية؛ وهي خبر عن شرع التوراة ومع ذلك فحكم بها وأحال عليها . و إلى هذا ذهب مُعْظَم أصحاب مالك وأصحاب الشافعيّ، وأنه يجب العمل بما وجد منها . قال ابن بكير : وهو الذى تقتضيه أصول مالك

(1) من ك و ز .　(2) الربيع : بضم الراء وفتح الموحدة وتشديد التحتية المكسورة بعدها عين مهملة . أما أم الربيع فهي بفتح الراء وكسر الموحدة وتخفيف الياء . راجع شرح النووى على صحيح مسلم باب « إثبات القصاص في الأسنان وما في معناها » ففيه كلام طويل عن هذه القصة .　(3) في ك و ز . فما زالوا .
(4) راجع جـ ٦ ص ١٩١ .

Marfat.com

وخالف فى ذلك كثير من أصحاب مالك وأصحاب الشافعىّ والمعتزلة؛ لقوله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا »(١) . وهذا لا حجة فيه؛ لأنه يحتمل التقييد : إلا فيما قصّ عليكم من الأخبار عنهم مما لم يأت فى كتابكم . وفى صحيح البخارىّ عن العوّام قال : سألت مجاهدا عن سجدة « صٓ » فقال : سألت ٱبن عباس عن سجدة « صٓ » فقال : أوَ تقرأ « وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ » إلى قوله « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ »؟ وكان داود عليه السلام ممن أمر نبيّكم صلى الله عليه وسلم بالاقتداء به .

الثانيـــة — قرأ حمـزة والكسائىّ « اقتد قل » بغير هاء فى الوصل . وقرأ ابن عامر « اقْتَدِهِى قُلْ » . قال النحاس : وهذا لَحْنٌ ؛ لأن الهـاء لبيان الحركة فى الوقف وليست بهاء إضمار ولا بعدها واو ولا ياء، وكذلك أيضا لا يجوز « فبهداهم اقتد قل » . ومن اجتنب اللحن وٱتبع السّواد قرأ « فبهداهم ٱقْتَدِهْ » فوقف ولم يصل؛ لأنه إن وصل بالهـاء لحن وإن حذفها خالف السّواد . وقرأ الجمهور بالهاء فى الوصل على نية الوقف وعلى نية الإدراج ٱتباعا لثباتها فى الخطّ . وقرأ ابن عيّاش وهشام « اقْتَـدِهِ قُلْ » بكسر الهـاء ، وهو غلط لا يجوز فى العربيـــة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أى جُعْلًا على القرآن . ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أى القرآن . ﴿ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أى هو موعظة للخلق . وأضاف الهداية إليهم فقال : « فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ » لوقوع الهداية بهم . وقال : « ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ » لأنه الخالق للهداية .

قوله تعـالى : وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٠٩ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أى فيما وجب له وآستحال عليـه وجاز . قال آبن عباس : ما آمنوا أنه على كل شيء قدير . وقال الحسن : ما عظّموه حقّ عظمته . وهذا يكون من قولهم : لفلان قَدر . وشرحُ هذا أنهم لمـا قالوا : « مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ » نَسَبُوا الله عز وجل إلى أنه لا يقيم الحجة على عباده ، ولا يأمرهم بما لهم فيه الصلاح ؛ فلم يعظّموه حقّ عظمته ولا عرفوه حقّ معرفته . وقال أبو عبيدة : أى ما عرفوا الله حقّ معرفته . قال النحاس : وهذا معنى حسن ؛ لأن معنى قدرت الشيء وقدّرته عرفت مقداره . ويدلّ عليه قوله تعالى : « إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ » أى لم يعرفوه حق معرفته ؛ إذْ أنكروا أن يرسل رسولا . والمعنيان متقاربان . وقد قيل : وما قدروا نِعم الله حق تقديرها . وقرأ أبو حَيْوَة « وما قدروا الله حق قدَره » بفتح الدال ، وهى لغة .

﴿ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ قال آبن عباس وغيره : يعنى مشركى قريش . وقال الحسن وسعيد بن جبير : الذى قاله أحد اليهود ، قال : لم يُنزل الله كتابا من السماء . قال السُّدّى : اسمه فنحاص . وعن سعيد بن جُبير أيضا قال : هو مالك بن الصَّيف [(١)] ، جاء يخاصم النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أَنْشُدُك بالذى أنزل التوراة على موسى أما تجـد فى التوراة أن الله يبغض الحَـبْر السّمين " ؟ وكان حبرا سمينا . فغضب وقال : والله ما أنزل الله على بشرٍ من شيء . فقال له أصحابه الذين معه : ويحك ! ولا على موسى؟ فقال : والله ما أنزل الله على بَشَر من شيء ؛ فنزلت الآية . ثم قال نقضا لقولهم وردًّا عليهم : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُـدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ ــ أى فى قراطيس ــ يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ هذا لليهود الذين أخفَوْا صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم وغيرها من الأحكام . وقال مجاهد : قوله [تعالى] [(٢)] « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى » خطاب للشركين ، وقوله : « يجعلونه قراطيس » لليهود [وقوله] [(٢)] ﴿ وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ﴾ للسلمين . وهذا يصحّ على قراءة من قرأ « يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون » بالياء . والوجه على قراءة التاء أن يكون كله لليهود ، ويكون معنى «وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا»

---

(١) فى ك ، جـ : الضيف . بمعجمة وكلاهما أثبته الرواة .	(٢) من ك .

Marfat.com

أى وعلمتم ما لم تكونوا تعلمونه أنتم ولا آباؤكم، على وجه المنّ عليهم بإنزال التوراة. وجعلت التوراة صُحُفا فلذلك قال « قراطيس تبدونها » أى [تبدون](١) القراطيس . وهذا ذمّ لهم ؛ ولذلك كره العلماء كتب القرآن أجزاء . ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ أى قل يا محمد الله [الذى](٢) أنزل ذلك الكتاب على موسى وهذا الكتاب علىّ . أو قل الله علمكم الكتاب . ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أى لاعبين، ولو كان جوابا للأمر لقال يلعبوا . ومعنى الكلام التهديد . وقيل : هو من المنسوخ بالقتال ؛ ثم قيـل : « يجعلونه » فى موضع الصفة لقوله « نُورًا وَهُدًى » فيكون فى الصلة . و يحتمل أن يكون مستأنفا ، والتقدير : يجعلونه ذا قراطيس . وقوله : « يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا » يحتمل أن يكون صفة لقراطيس ؛ لأن النكرة توصف بالجُمَل . و يحتمل أن يكون مستأنفا حسبما تقدّم .

قوله تعالى : وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ ﴾ يعنى القرآن ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ صفة ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ أى بُورك فيه، والبركة الزيادة . و يجوز نصبه فى غير القرآن على الحـال . وكذا ﴿ مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى من الكتب المنزلة قبله ، فإنه يوافقها فى نفى الشرك و إثبات التوحيد. ﴿ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى ﴾ يريد مكة — وقد تقدّم معنى تسميتها بذلك(٣) — والمراد أهلها ، فحذف المضاف ؛ أى أنزلناه للبركة والإنذار . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يعنى جميع الآفاق . ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ يريد أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ؛ بدليل قوله : ﴿ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ و إيمـان من آمن بالآخرة ولم يؤمن بالنبىّ عليه السلام ولا بكتابه غير معتدّ به .

---

(١) من ك . (٢) من ك ، ز .
(٣) راجع ج ٤ ص ١٣٨ .

Marfat.com

قوله تعالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ابتداء وخبر، أى لا أحد أظلم . ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أى اختلق . ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ فزعم أنه نبيّ ﴿وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ . نزلت فى رحمان اليمامة والأسود العَنْسِيّ وسَجَاح زوج مسيْلِمَة ؛ كلهم تنبأ وزعم أن الله قد أوحى إليه . قال قتادة : بلغنا أن الله أنزل هذا فى مسيْلِمة ؛ وقاله ابن عباس .

قلت : ومن هذا النَّمَط من أعرض عن الفقه والسُّنَن وما كان عليه السلف من السنن فيقول : وقع فى خاطرى كذا ، أو أخبرنى قلبى بكذا ؛ فيحكمون بما يقع فى قلوبهم و يغلب عليهم من خواطرهم ، و يزعمون أن ذلك لصفائها من الأكدار وخلوّها عن الأغيار ، فتتجلّى لهم العلوم الإلٰهية والحقائق الربّانية ، فيقفون على أسرار الكلّيات و يعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات ، و يقولون : هذه الأحكام الشرعية العامة ، إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة ، وأما الأولياء وأهل الخصوص ، فلا يحتاجون لتلك النصوص . وقد جاء فيما ينقلون : استفت قلبك و إن أفتاك المُفْتُونُ[1] ؛ و يستدلّون على هذا بالخَضِر ، وأنه استغنى بما تجلّى له من تلك العلوم ، عما كان عند موسى من تلك الفهوم . وهذا القول زَنْدَقَةٌ وكفر ، يقتل قائله ولا يستتاب ، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب ؛ فإنه يلزم منه هدّ الأحكام و إثبات أنبياء بعد نبينا صلى الله عليه وسلم . وسيأتى لهذا المعنى فى « الكهف[2] » مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

(١) فى كشف الخفاء "استفت قلبك و إن أفتاك الناس وأفتوك" قال : رواه أحمد والطبرانى وأبو يعلى وأبو نعيم عن وابصة مرفوعا .
(٢) راجع جـ ١٠ ص ١٨ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ « مَن » فى موضع خفض؛ أى ومن أظلم ممن قال سأنزل ، والمراد عبد الله بن أبى سَرْح الذى كان يكتب الوَحْىَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم آرتدّ ولَحِق بالمشركين . وسبب ذلك فيما ذكر المفسرون أنه لمـا نزلت الآية التى فى « المؤمنون » : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ » (١) دعاه النبىّ صلى الله عليه وسلم فأملاها عليه ؛ فلما انتهى إلى قوله « ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ » عَجِب عبد الله فى تفصيل خلق الانسان فقال : «تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هكذا أنزلت علىّ " فشك عبد الله حينئذ وقال : لئن كان محمد صادقا لقد أوحِىَ إلىّ كما أوحى إليه ، ولئن كان كاذبا لقد قلتُ كما قال . فارتدّ عن الاسلام ولحق بالمشركين؛ فذلك قوله : « وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ » رواه الكلبى عن ابن عباس . وذكره محمد بن إسحاق قال حدّثنى شَرَحْبِيل قال : نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سرح « وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ » آرتدّ عن الإسلام، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أمر بقتله وقتل عبد الله بن خَطَل ومِقْيَس بن صُبَابة ولو وُجدوا تحت أستار الكعبة ؛ ففرّ عبد الله بن أبى سرح إلى عثمان رضى الله عنه، وكان أخاه من الرضاعة، أرضعت أُمُّه عثمانَ، فغيّبه عثمان حتى أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما آطمأن أهل مكة فاستأمنه له ؛ فصمَت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا ثم قال : "نعم" . فلما آنصرف عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ماصَمَتُّ إلا ليقوم إليه بعضُكم فيضربَ عُنُقَه". فقال رجل من الأنصار : فهلّا أَوْمأْتَ إلىّ يا رسول الله؟ فقال : "إن النبى لاينبغى أن تكون له خائنة الأعين" (٢). قال أبوعمر: وأسلم عبد الله بن سعد بن أبى سرح أيامَ الفتح فحَسُن إسلامه، ولم يظهر منه ما يُنكر عليه بعد ذلك . وهو أحد النُّجَباء العقلاء الكرماء من قريش، وفارسُ بنى عامر بن لُؤَىّ المعدودُ فيهم، ثم ولّاه عثمان بعد ذلك مصر سنة خمس وعشرين . وفتح على يديه إفريقيّة سنة سبع وعشرين، وغزا منها الأساود من أرض النُّوبَة سنة إحدى وثلاثين، وهو هادنهم الهُدْنة الباقية إلى اليوم.

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٠٨ .

(٢) أى يضمر فى نفسه غير ما يظهره ؛ فإذا كف لسانه وأومأ بعينه فقد خان .

Marfat.com

وغزا الصَّوارِى (١) من أرض الرُّوم سنة أربع وثلاثين؛ فلما رجع من وِفاداته منعه ابن أبى حُذيفة من دخول الفُسْطاط، فمضى إلى عَسْقلان، فأقام فيها حتى قُتِل عثمان رضى الله عنه. وقيل: بل أقام بالرَّمْلة حتى مات فارًّا من الفتنــة. ودعا ربه فقال: اللَّهُمّ ٱجعل خاتمة عملى صلاة الصبح؛ فتوضأ ثم صلّى فقرأ فى الركعة الأولى بأم القرآن والعاديات (٢)، وفى الثانية بأم القرآن وسورة؛ ثم سلّم عن يمينه، ثم ذهب يسلّم عن يساره فقبض الله روحه. ذكر ذلك كلّه يزيدُ ٱبن أبى حبيب وغيرُه. ولم يُبايع لعلىّ ولا لمعاوية [رضى الله عنهما] (٣). وكانت وفاته قبــل ٱجتماع النــاس على معاوية. وقيل: إنه تُوُفِّى بإفريقيّة. والصحيح أنه تُوُفِّى بعَسْقلان سنة ست أو سبع وثلاثين. وقيل: ســنة ست وثلاثين. وروى حفص بن عمر عن الحَكَم بن أبَان عن عكرمة أن هــذه الآية نزلت فى النّضر بن الحــارث؛ لأنه عارض القــرآن فقال: والطاحنات طحنا. والعاجنات عجنا. فالخابزات خبزا. فاللاقمات لقما.

قوله تعــالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَــرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ أى شــدائده وسكراته. والغَمْرة الشــدّة؛ وأصلها الشىء الذى يغمُر الأشياء فيُغطّيها. ومنه غَمْرة (٤) المــاء. ثم وُضعت فى معنى الشدائد والمكاره. ومنه غَمَرات الحرب. قال الجوهرى: والغَمْرة الشدة، والجمع غُمَر مثل نَوْبة ونُوَب. قال القُطَامِىّ يصف سفينة نوح عليه السلام:

* وحَانَ لِتالِكَ الغُمَرِ انْحِسَارُ *

وغَمَراتُ الموت شدائده. ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ﴾ ابتداء وخبر. والأصل باسطون. قيل: بالعذاب ومَطارق الحديد؛ عن الحسن والضحاك. وقيــل: لقبض أرواحهم؛ وفى التــنزيل: « وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٥) »

---

(١) قال ابن الأثير فى (الكامل): « ... وأما سبب هــذه الغزوة فإن المسلمين لما أصابوا من أهل إفريقية وقتلوهم وسبوهم خرج قسطنطين بن هرقل فى جمع له لم تجمع الروم مثله مذ كان الإســلام، فخرجوا فى خمسمائة مركب أو ستمائة وخرج المسلمون ... » الخ. وإنما سميت غزوة الصوارى لكثرة صوارى المراكب واجتماعها. راجع جـ ٣ ص ٩٠ طبع أوربا. والطبرى قسم أول ص ٢٨٦٥ طبع أوربا. (٢) فى ك: والصافات.
(٣) من ك وز. (٤) فى ك: غمرة. (٥) راجع جـ ٨ ص ٢٨.

بجمعت هذه الآية القوابين. يقال: بسط إليه يده بالمكروه. ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ أى خلصوها من العـذاب إن أمكنكم ، وهو توبيخ . وقيل : أخرجوها كرها ؛ لأن روح المؤمن تَنْشَط لخروج للقاء ربه ، وروح الكافر تُنْتَزع انتزاعا شديدا ، ويقال : أيتها النفس الخبيثة اخرجى ساخطة مسخوطا عليك إلى عذاب الله وهَوَانه ؛ كذا جاء فى حديث أبى هريرة وغيره . وقد أتينا عليـه فى كتاب « التذكرة » والحمد لله . وقيل : هو بمنزلة قول القائل لمن يعذبه : لأذيقنّك العـذاب ولأخرجنّ نفسك ؛ وذلك لأنهـم لا يخرجون أنفسهم بل يقبضها مَلَك الموت وأعوانه . وقيل : يقال هذا للكفار وهم فى النار . والجواب محذوف لعظم الأمر ؛ أى ولو رأيت الظالمين فى هذه الحـال لرأيت عذابا عظيما . والهـون والهوان سـواء . و ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى تتعظّمون وتأنفون عن قبول آياته .

قوله تعـالى : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٩٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ هذه عبارة عن الحشر . و « فُرَادَى » فى موضع نصب على الحال ، ولم ينصرف لأن فيه ألفَ تأنيث . وقرأ أبو حَيْوة «فراداً» بالتنوين وهى لغة تميم ، ولا يقولون فى موضع الرفع فُرَادٌ . وحكى أحمد بن يحيى « فُرَادَ » بلا تنوين ، قال : مثل ثلاث ورباع . و « فُرادى » جمع فُرْدان كسُكارى جمع سكران ، وكُسالى جمع كسلان . وقيل : واحده « فَرْد » بجزم الراء ، و « فرِد » بكسرها ، و « فرد » بفتحها ، و « فريد » . والمعنى : جئتمونا واحدا واحدا ، كل واحد منكم منفردا بلا أهل ولا مال ولا ولد ولا ناصر ممن كان يصاحبكم فى الغَىّ ، ولم ينفعكم ما عبدتم من دون الله . وقرأ الأعرج (١) «فَرْدَى» مثل سكرى وكسلى بغير ألف . ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى منفردين كما خُلقتم . وقيل : عُراة كما خرجتم

(١) فى ك : الأعمش . ولعل هذا سهو من الناسخ .

من بطون أمهاتكم حُفاة غُرْلًا بُهْمًا[1] ليس معهم شيء . وقال العلماء : يُحشر العبدُ غدًا وله من الأعضاء ما كان له يومَ وُلد ؛ فمن قُطع منه عضو يردّ في القيامة عليه . وهذا معنى قوله : « غُرْلا » أي غير مختونين ، أي يردّ عليهم ما قُطع منه عند الختان .

قوله تعالى : ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ أي أعطيناكم وملّكناكم . والخَوَل : ما أعطاه الله للإنسان من العبيد والنعم[2] . ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي خلفكم . ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ﴾ أي الذين عبدتموهم وجعلتموهم شركاء — يريد الأصنام — أي شركائي . وكان المشركون يقولون : الأصنام شركاء الله وشفعاؤنا عنده . ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قرأ نافع والكسائيّ وحَفْص بالنصب على الظرف ، على معنى لقد تقطعَ وصلُكم بينكم . ودلّ على حذف الوصل قوله « وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ » . فدلّ هذا على التقاطع والتهاجر بينهم وبين شركائهم : إذ تبرءوا منهم ولم يكونوا معهم . ومقاطعتهم لهم هو تركهم وصالهم لهم ؛ فحُسُن إضمار الوصل بعد « تقطّع » لدلالة الكلام عليه . وفي حرف ابن مسعود ما يدلّ على النصب فيه « لقد تقطّع ما بينكم » وهذا لايجوز فيه إلا النصب ، لأنك ذكرت المتقطّع وهو «ما» . كأنه قال : لقد تقطّع الوصل بينكم . وقيل : المعنى لقد تقطّع الأمر بينكم . والمعنى متقارب . وقرأ الباقون « بَيْنُكُمْ » بالرفع على أنه اسم غير ظرف ، فأسند الفعل إليه فرُفع . ويقوّى جعل « بين » آسمًا من جهة دخول حرف الجر عليه في قوله تعالى : « وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ »[3] و « هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ »[4] . ويجوز أن تكون قراءة النصب على معنى الرفع ، وإنما نصب لكثرة استعماله ظرفا منصوبا وهو في موضع رفع ، وهو مذهب الأخفش ؛ فالقراءتان على هذا بمعنى واحد ، فآقرأ بأيّهما شئت . ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ﴾ أي ذهب . ﴿مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي تكذّبون به في الدنيا . رُوي أن الآية نزلت في النضر بن الحارث . ورُوي أن عائشة رضي الله عنها قرأت قول الله تعالى : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » فقالت : يارسول الله ، وَاسَوْءتاه ! إن

(١) الغرل (جمع الأغرل) وهو الأقلف الذي لم يختن . والبهم (جمع بهيم) وهو في الأصل الذي لايخالط لونه لون سواه . يعني ليس فيهم شيء من العاهات والأعراض التي تكون في الدنيا كالعمى والعور والعرج ، وغير ذلك .

(٢) في ك ، ع ، ب : الغنم . (٣) راجع ١٥ ص ٣٣٩ . (٤) راجع جـ ١١ ص ٢٤ .

Marfat.com

الرجال والنساء يحشرون جميعا ، ينظر بعضهم إلى سَوْءة بعض؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لكل آمرئ منهم يومئذ شأنٌ يُغْنِيه لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شُغل بعضهم عن بعض" . وهذا حديث ثابت فى الصحيح أخرجه مسلم بمعناه .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ والنَّوَى﴾ عدّ من عجائب صنعه مايعجز عن أدنى شىء منه آلهتهم . والفَلْق : الشق ؛ أى يَشق النواة الميتةَ فيُخرج منها ورقا أخضر ، وكذلك الحبة . ويُخرج من الورق الأخضر نواة ميتة وحبّة ؛ وهذا معنى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؛ عن الحسن وقتادة . وقال ابن عباس والضحاك : معنى فالق خالق . وقال مجاهد : عُنى بالفالق الشق الذى فى الحبّ وفى النّوى . والنّوى جمع نواة ، ويجرى فى كل ماله نَجْمٌ كالمشمش والخوخ[1] . ﴿يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ﴾ يُخرج البشر الحىّ من النُّطفة الميتة ، والنطفةَ الميتةَ من البشر الحى ؛ عن ابن عباس . وقد تقدّم قول قتادة والحسن . وقد مضى ذلك فى «آل عمران»[2] . وفى صحيح مسلم عن علىّ : والذى فلق الحبة وبَرأ النَّسَمة[3] إنه لَعهد النبىّ الأمىّ صلى الله عليه وسلم إلىّ أن لا يحبنى إلا مؤمن ولا يبغضنى إلا منافق . ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ﴾ ابتداء وخبر . ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فمن أين تصرفون عن الحق مع ما ترون من قدرة الله جل وعز .

قوله تعالى : ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

قوله تعالى : ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ نعتٌ لأسم الله تعالى ، أى ذلكم الله ربكم فالق الإصباح . وقيل : المعنى إن الله فالق الإصباح . والصُّبح والصباح أوّلُ النهار ، وكذلك الإصباح ؛ أى

(١) كذا برح وجعفر . (٢) راجع جـ ٤ ص ٥٦ . (٣) فى ك : النسم .

Marfat.com

فالق الصبح كلّ يوم ، يريد الفجر . والإصباح مصدر أصبح . والمعنى : شاق الضياء عن الظلام وكاشفُه . وقال الضحاك : فالق الإصباح خالقُ النهار . وهو معرفة لا يجوز فيه التنوين عند أحد من النحويين . وقرأ الحسن وعيسى بن عمر « فالق الأَصْبَاحِ » بفتح الهمزة ، وهو جمع صبح . وروى الأعمش عن إبراهيم النَّخَعِيّ أنه قرأ « فلق الإصباحَ » على فَعَل ، والهمزة مكسورة والحاء منصوبة . وقرأ الحسن وعيسى بن عمر وحمزة والكسائيّ « وجعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا » بغير ألف . ونصب « الليل » حملا على معنى « فالق » في الموضعين؛ لأنه بمعنى فلق، لأنه أمرٌ قد كان فحُمِل على المعنى . وأيضا فإن بعده أفعالا ماضية وهو قوله : « جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ » . « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » . فحمل أول الكلام على آخره . يقوّى ذلك إجماعُهم على نصب الشمس والقمر على إضمار فعل ، ولم يحملوه على فاعل فيخفضوه ؛ قاله مكيّ رحمه الله . وقال النحاس : وقد قرأ يزيد بن قطيب السَّكُونى « وجاعِلُ الليلِ سكنا والشمسِ والقمرِ حُسبانا » بالخفض عطفا على اللفظ .

قلت : فيريد مكيّ والمَهْدَوِيّ وغيرهما إجماع القراء السبع . والله أعلم . وقرأ يعقوب في رواية رُوَيْس عنه « وجاعِلُ الليلِ ساكِنا » . وأهل المدينة « وجاعِلُ اللَّيلِ سَكَنا » أي محلا للسكون . وفي الموطأ عن يحيى بن سعيد أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو فيقول : " اللَّهُمَّ فالقَ الإصباح وجاعلَ الليل سَكَنا والشمسَ والقمرَ حُسبانا اقْضِ عني الدَّيْنَ وأغْنِنِي من الفقر وأمْتعني بسمعي وبصري وقوّتي في سبيلك " . فإن قيل : كيف قال "وأمتعني بسمعي وبصري" وفي كتاب النسائيّ والترمذيّ وغيرهما "واجعله الوارث منّي" وذلك يفنَى مع البدن ؟ قيل له : في الكلام تجوّزٌ، والمعنى : اللّهم لا تعدمه قبلي . وقد قيل : إن المراد بالسمع والبصر هنا أبو بكر وعمر؛ لقوله عليه السلام فيهما : "هما السمع والبصر". وهذا تأويل بعيد ، إنما المراد بهما الجارحتان . ومعنى ﴿ حُسْبَانًا ﴾ أي بحساب يتعلّق به مصالح العباد . وقال ابن عباس في قوله جل وعز : « وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا » أي بحساب . الأخفش : حُسْبان جمع حساب ؛ مثل شِهاب وشُهبان . وقال يعقوب : حُسبان مصدر

Marfat.com

حَسَبْت الشيء أحسُبه حُسبانا وحِسابا وحِسْبة ، والحساب الأسم . وقال غيره : جعل الله تعالى سير الشمس والقمر بحساب لا يزيد ولا ينقص؛ فدلّهم الله عز وجل بذلك على قدرته ووحدانيته . وقيل : « حُسْبانا » أى ضياء والحسبان : النار فى لغة؛ وقد قال الله تعالى : « وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ »[1] . قال ابن عباس : نارا . والحُسْبانة : الوسادة الصغيرة .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ ﴾ بين[2] كمال قدرته ، وفى النجوم منافع جمّة . ذكر فى هذه الآية بعض منافعها ، وهى التى ندب الشرع إلى معرفتها؛ وفى التنزيل : « وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ »[3] . « وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ »[4] . و « جعل » هنا بمعنى خلق . ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ ﴾ أى بيّناها مفصّلة لتكون أبلغ فى الاعتبار . ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ خصهم لأنهم المنتفعون بها[5] .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ يريد آدم عليه السلام . وقد تقدّم فى أوّل السورة[6] . ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ ﴾ قرأ ابن عباس وسعيد بن جُبير والحسن وأبو عمرو وعيسى والأعرج وشَيْبة والنَّخَعِىّ بكسر القاف ، والباقون بفتحها . وهى فى موضع رفع بالابتداء؛ إلا أن التقدير فيمن كسر القاف فمنها « مستقِر » والفتح بمعنى لها « مستقَر » . قال عبد الله بن مسعود : فلها مستقر فى الرَّحِم ومستودَع فى الأرض التى تموت فيها؛ وهذا التفسير يدلّ على الفتح . وقال الحسن : فمستقر فى القبر . وأكثر أهل التفسير يقولون : المستقرّ ما كان فى الرحم ، والمستودَع

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤٠٨ . (٢) فى ك : من كمال قدرته . (٣) راجع جـ ١٥ ص ٦٤ .
(٤) راجع جـ ١٨ ص ٢١٠ . (٥) فى ك : بذلك . (٦) راجع جـ ٦ ص ٣٨٧ .

Marfat.com

ما كان فى الصُّلْب ؛ رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس ، وقاله النَّخَعِىّ . وعن ابن عباس أيضا : مستقرّ فى الأرض، ومستودع فى الأصلاب . قال سعيد بن جبير : قال لى ابن عباس هل تزوّجت ؟ قلت لا ؛ فقال : إن الله عز وجل يستخرج من ظهرك ما استودعه فيه . وروى عن ابن عباس أيضا أن المستقر مَن خُلق، والمستوع من لم يخلق؛ ذكره المَاوَرْدِى . وعن ابن عباس أيضا : ومستودع عند الله .

قلت : وفى التنزيل « وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ » والاستيداع إشارة إلى كونهم فى القبر إلى أن يُبعثوا للحساب ؛ وقد تقدّم فى البقرة (١) . ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ قال قتادة : « فصلنا » بينا [وقررنا . والله أعلم] (٢) .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أى المطر . ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى كل صِنف من النبات . وقيل : رزق كل حيوان . ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ قال الأخفش : أى أخضر؛ كما تقول العرب : أرينها (٣) نمرة أرِكْها مِطرة . والخَضِر (٤) رطب

---

(١) راجع جـ١ ص٣٢١ . (٢) من ك . (٣) الهاء فى « أرنيها » للسحابة والنمر من السحاب الذى فيه آثار كآثار النمر . وقيل : هى قطع صغار متدان بعضها من بعض . وواحدتها نمرة . ومطرة : بمعنى ماطرة . أى إذا رأيت دليل الشىء علمت ما يتبعه . يضرب لأمر يتيقن وقوعه إذا لاحت مخايله وتباشيره . (عن فرائد اللآل جـ١ ص ٢٥٢ طبع بيروت) . (٤) الخضر : المادة الخضراء فى النبات وهى مادة الحياة . وهى من أسرار قدرة البارى سبحانه .

Marfat.com

البقول . وقال ابن عباس : يريد القمح والشـعير والسُّلت[1] والذّرة والأرز وسـائر الحبوب . ﴿ نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾ أى يُركّب بعضه على بعض كالسنبلة .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ ابتداء وخبر . وأجاز الفرّاء فى غير القرآن «قِنواناً دانيةً» على العطف على ما قبله . قال سيبويه : ومن العرب من يقول : قُنوان . قال الفرّاء : هذه لغة قيس ، وأهل الحجاز يقولون : قِنوان ، وتميم يقولون : قنيان ؛ ثم يجتمعون فى الواحد فيقولون : قِنْوٌ وقَنْوٌ . والطَّلع الكُفُرَّى قبـل أن ينشق عن الإغريض . والإغريض يسمى طلعا أيضا . والطلع ، ما يُرى من عِذْق النخلة . والقِنوان : جمع قِنو ، وتثنيته قِنْوان كصِنو وصِنوانِ (بكسر النون) . وجاء الجمع على لفظ الآثنين . قال الجوهرى وغيره : الاثنان صِنوانِ والجمع صِـنوانُ (برفع النون) . والقِنْو : العِـذْق والجمع القِنوان والأقناء ؛ قال :

* طويلة الأَقْناء والأثاكِلِ[2] *

غيره : « أقناء » جمع القلة . قال المهدوىّ : قرأ ابن هُرْمُز « قَنوان » بفتح القاف ، وروى عنه ضمها . فعلى الفتح هو اسم للجمع غير مُكسّر ، بمنزلة رَكب عنـد سيبويه ، و بمنزلة الباقِر والجَـامِل ؛ لأن فعلان ليس من أمثلة الجمـع ، وضمّ القاف على أنه جمع قِنو وهو العِـذق (بكسر العين) وهى الكِباسة ، وهى عنقود النخلة . والعَـذْق (بفتح العين) النخلة نفسُها . وقيل : القِنوان الجُمّـار . ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ قريبة ، ينالها القائم والقـاعد . عن ابن عباس والبَراء بن عازب وغيرهما . قال الزجاج : منها دانية ومنها بعيدة ؛ فحذف ؛ ومثله «سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ»[3] . وخصّ الدانيـة بالذكر ، لأن من الغرض فى الآية ذكر القـدرة والآمتنان بالنعمة ، والآمتنانُ فيما يقربُ متناوَلُه أكثر .

---

(١) السلت (بوزن القفل) : ضرب من الشعير أبيض لا قشر له .

(٢) الأثاكل : جمع الإثكال والأثكول (لغة فى العثكال والعثكول) وهو العـذق الذى تكون فيه الشماريخ . وهذا عجز بيت . وصدره كما فى اللسان : * قد أبصرت سعدى بها كتائل * والكتائل جمع كتيلة وهى النخلة الطويلة .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ١٥٩ .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ أى وأخرجنا جنات . وقرأ محمد ابن عبد الرحمن بن أبى ليلى والأعمش ، وهو الصحيح من قراءة عاصم « وجناتٌ » بالرفع . وأنكر هذه القراءةَ أبو عبيد وأبو حاتم ، حتى قال أبو حاتم : هى محال ؛ لأن الجنات لا تكون من النخل . قال النحاس : والقراءة جائزة ، وليس التأويل على هذا ، ولكنه رفع بالابتداء والخبرُ محذوف ؛ أى ولهم جنات . كما قرأ جماعة من القرّاء « وَحُورٌ عِينٌ »[1] . وأجاز مثل هذا سيبويه والكسائىّ والفرّاء ؛ ومثله كثير . وعلى هذا أيضا « وحُورًا عِينًا » حكاه سيبويه ، وأنشد :

جِئْنِى بمثلِ بنِى بَدْرٍ لقومهم * أو مثلَ أُسْرَةِ مَنْظُورِ بن سَيَّارِ[2]

وقيل : التقدير « وجنات من أعناب » أخرجناها ؛ كقولك : أكرمت عبد الله وأخوه ، أى وأخوه أكرمت أيضا . فأمّا الزيتون والرمّان فليس فيه إلا النصب للإجماع على ذلك . وقيل : « وجناتٌ » بالرفع عطف على « قِنوان » لفظا ، وإن لم تكن فى المعنى من جنسها . ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ أى متشابها فى الأوراق ؛ أى ورق الزيتون يُشبه ورق الرمان فى اشتماله على جميع الغُصْن وفى حجم الورق ، وغير متشابه فى الذَّوَاق ؛ عن قتادة وغيره . قال ابن جُرَيج : « مُتَشَابِهًا » فى النظر « وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ » فى الطعم ؛ مثل الرمانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف . وخصّ الرمان والزيتون بالذِّكر لقربهما منهم ومكانهما عندهم . وهو كقوله : « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ »[3] . ردّهم إلى الإبل لأنها أغلب ما يعرفونه .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ ٱنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ أى نظر الاعتبار لا نظر الإبصار المجرّد عن التفكّر . والثمر فى اللغة جَنَى الشجر . وقرأ حمزة والكسائىّ « ثُمُرِه » بضم الثاء والميم . والباقون بالفتح فيهما جمع ثَمَرة ، مثل بَقَرة وبقر وشجرة وشجر . قال مجاهد : الثُّمُر أصناف المال ، والثَّمَر ثمر النخل . وكأنّ المعنى على قول مجاهد : ٱنظروا إلى الأموال التى يتحصل منه

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٠٢ . (٢) البيت لجرير ، يخاطب الفرزدق فيفخر عليه بسادات قيس ؛ لأنهم أخواله ؛ وبنو بدر من فزارة وفيهم شرف قيس عيلان ؛ وبنو سيار من فزارة أيضا ؛ وفزارة من ذبيان من قيس . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) . (٣) راجع جـ ٢٠ ص ٣٤ .

Marfat.com

الثمر ؛ فالثُّمُر بضمتين جمع ثمار وهو المال المُثَمَّر . وروى عن الأعمش (١) « ثُمْره » بضم الثاء وسكون الميم ؛ حذفت الضمة لثقلها طلبا للخفة . ويجوز أن يكون ثُمْر جمع ثَمَرة مثل بَدَنة وبُدْن . ويجوز أن يكون ثُمُر جمع جمع ، فتقول : ثمرة وثمار وثمر مثل حمار وحمر . ويجوز أن يكون جمع ثمرة كخشبة وخُشُب لا جمع الجمع .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿وَيَنْعِهِ﴾ قرأ محمد بن السَّمَيْقَع « ويانعه » (٢) . وابن مُحَيْصِن وابن أبي إسحاق « ويُنْعِه » بضم الياء . قال الفرّاء : هي لغة بعض أهل نجد ؛ يقال : يَنَع الثمر يَيْنِع ، والثمر يانع . وأينع يونع [والثمر مُونِع] (٣) . والمعنى : ونُضْجه . يَنَع وأينع إذا نَضِج وأدرك . وقال الحجاج في خطبته : أرى رءوسا قد أَيْنَعَتْ وحان قِطافها . قال ابن الأنباري : اليَنْع جمع يانع ، كراكب ورَكْب ، وتاجر وتَجْر ، وهو المدرك البالغ . وقال الفرّاء : أَيْنَع أكثر من يَنَع ، ومعناه أحمر ؛ ومنه ما روى في حديث المُلَاعَنة " إن ولدته أحمر مثل اليَنَعة " وهي خرزة حمراء ، يقال : إنه العقيق أو نوع منه . فدلت الآية لمن تدبر ونظر ببصره وقلبه ، نظر من تفكّر ، أن المتغيّرات لا بدّ لها من مغيّر ؛ وذلك أنه تعالى قال : « ٱنظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ » . فتراه أوّلا طَلْعا ثم إغْرِيضا إذا انشق عنه الطَّلْعُ . والإغريض يُسَمّى ضَحْكًا أيضا ، ثم بلحا ، ثم سَيَابًا ، ثم جَدَالًا إذ اخضرّ واستدار قبل أن يشتدّ ، ثم بُسْرا إذا عظم ، ثم زَهْوًا إذا احمرّ ؛ يقال : أزهى يُزْهِي ، ثم مُوَكِّتا إذا بدت فيه نقط من الإرطاب . فإن كان ذلك من قِبَل الذَّنَب فهي مُذَنِّبة ، وهو التَّذْنُوب ، فإذا لانت فهي ثَعْدة ، فإذا بلغ الإرطاب نصفها فهي مُجَزِّعَة ، فإذا بلغ ثلثيها فهي حُلْقانة ، فإذا عمّها الإرطاب فهي مُنْسبِتة ؛ يقال : رطب مُنْسَبِت ، ثم ييبس فيصير تمرا . فنبّه الله تعالى بانتقالها من حال إلى حال وتغيّرها ووجودها بعد أن لم تكن على وحدانيته وكمال قدرته ، وأن لها صانعا قادرا عالما . ودلّ على جواز البعث ؛ لإيجاد النبات بعد الجفاف . قال الجَوْهَرِيّ : يَنَع الثمر يَيْنَع و يَيْنِع يَنْعًا ويُنْعًا ويُنُوعًا ، أي نَضِجَ .

السادسة — قال ابن العربيّ قال مالك : الإيناع الطِّيب بغير فساد ولا نقش . قال مالك : والنقش أن يَنْقُش أهلُ البصرة الثمرَ حتى يُرْطِب ؛ يريد يُثْقَب فيه بحيث يُسرِع دخولُ

(١) في ك : الأعرج . (٢) في شواذ ابن خالويه : « يانعه » ابن محيصن . (٣) من ج و هـ و ز و ك .

الهواء إليه فيرطب معجّلا . فليس ذلك اليَنْع المراد في القرآن، ولا هو الذى ربط به رسول الله صلى الله عليه وسلم البيع، وإنما [هو](١) ما يكون من ذاته بغير محاولة . وفى بعض بلاد التّين، وهى البلاد الباردة ، لا يَنْضَج حتى يُدخَل فى فمه عُود قد دُهن زيتا ، فإذا طاب حلّ بيعه؛ لأن ذلك ضرورة الهواء وعادةُ البلاد ، ولولا ذلك ما طاب فى وقت الطِّيب .

قلت : وهذا اليَنْع الذى يقف عليه جواز بيع التمر وبه يطيب أكلها ويأمن من العاهة، هو عند طلوع الثُّرَيّا بما أجرى الله سبحانه من العادة وأحكمه من العلم والقدرة . ذكر المُعَلَّى ابن أسد عن وهيب عن عِسْل بن سفيان عن عطاء عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا طلعت الثُّرَيّا صباحا رُفعت العاهة عن أهل البلد " . والثريا النجم ، لا خلاف فى ذلك . وطلوعها صباحا لاثنتى عشرة ليلة تمضى من شهر أيار ، وهو شهر مايه . وفى البخارى : وأخبرنى خارجة بن زيد بن ثابت أن زيد بن ثابت لم يكن يبيع ثمار أرضه حتى تطلع الثُّرَيّا فيتبين الأصفرُ من الأحمر .

السابعة — وقد استدلّ من أسقط الجوائح(٢) فى الثمار بهذه الآثار، وما كان مثلها من نهيه عليه السلام عن بيع الثمرة حتى يَبْدُوَ صلاحها، وعن بيع الثمار حتى تذهب العاهة . قال عثمان بن سُراقة : فسألت ابن عمر متى هذا ؟ فقال : طلوع الثريا . قال الشافعى : لم يثبت عندى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بوَضْع الجوائح ، ولو ثبت عندى لم أعْدُه ، والأصل المجتمَع عليه أن كل من ابتاع ما يجوز بيعه وقبضه كانت المصيبة منه ، قال : ولو كنت قائلا بوضع الجوائح لوضعتها فى القليل والكثير . وهو قول الثَّوْرى والكوفيين . وذهب مالك وأكثر أهل المدينة إلى وضعها؛ لحديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بوضع الجوائح . أخرجه مسلم . وبه كان يقضى عمر بن عبد العزيز، وهو قول أحمد بن حنبل وسائر أصحاب الحديث . وأهل الظاهر وضعوها عن المبتاع فى القليل والكثير على عموم الحديث؛ إلا أن مالكا وأصحابه اعتبروا أن تبلغ الجائحة ثلث الثمرة فصاعدا، وما كان دون الثلث ألغوه وجعلوه تَبَعا، إذ لا تخلو ثمرة من أن يتعذّر القليل من طيبها وأن يلحقها فى اليسير منها

(١) من ب وجوك وز ول . (٢) فى ز : أسقط بعض الجوائح .

فساد . وكان أصْبَغ وأشهب لا ينظران إلى الثمرة ولكن إلى القيمة، فإذا كانت القيمة الثلث فصاعدًا وضع عنه. والجائحة مالا يمكن دفعه عند ابن القاسم. وعليه فلا تكون السرقة جائحة، وكذا فى كتاب محمد. وفى الكتاب أنه جائحة، وروى عن ابن القاسم، وخالفه أصحابه والناس. وقال مُطَرِّف وابن الماجشون : «ما أصاب الثمـرة من السماء من عَفَن أو برد ، أو عطش أو حرّ أو كسر الشجر بما ليس بصنع آدمى فهو جائحة. واختُلف فى العطش؛ ففى رواية ابن القاسم هو جائحة.(١) والصحيح فى البقول أنها [فيها جائحة](٢) كالثمرة. ومن باع ثمرا قبل بَدْو صلاحه بشرط التبقية فُسخ بيعه وردّ؛ للنهى عنه، ولأنه من أكل المـال بالباطل؛ لقوله عليه السلام: "أرأيت إن منع الله الثمرة فبم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق"؟ هذا قول الجمهور، وصححه أبو حنيفة وأصحابه وحمـلوا النهى على الكراهة . وذهب الجمهـور إلى جواز بيعها قبـل بَدْو الصلاح بشرط القطع. ومنعه الثَّورِيّ وابن أبى لَيْلَى تمسُّكًا بالنهى الوارد فى ذلك. وخصّصه الجمهور بالقياس الجلىّ؛ لأنه مبيع معلوم يصحّ قبضه حالة العقد فصحّ بيعه كسائر المبيعات .

قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَٰتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ﴿١٠٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ هذا ذكر نوع آخر من جهالاتهم، أى فيهم من اعتقد لله شركاء من الجن . قال النحاس : « الجن » مفعول أول، و « شركاء » مفعول ثان؛ مثل « وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا »(٣). « وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا »(٤). وهو فى القرآن كثير . والتقدير: وجعلوا لله الجن شركاء . ويجوز أن يكون «الجن» بدلا من شركاء، والمفعول الثانى «لله» . وأجاز الكسائىّ رفع « الجن » بمعـنى هم الجن . ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾(٥) كذا قراءة الجماعة، أى خلق الجاعلين له شركاء . وقيل : خلق الجن الشركاء . وقرأ ابن مسعود « وهو خلقهم » بزيادة هو . وقرأ يحيى بن يَعْمَر « وخلْقهم » بسكون اللام، وقال : أى وجعلوا خلقهم لله شركاء؛ لأنهم كانوا يخلقون الشىء ثم يعبدونه . والآية نزلت فى مشركى العـرب . ومعنى إشراكهم

(١) كذا فى أ وج وك وزوع . وفى ب : العسكر . (٢) من ك . (٣) راجع جـ ٦ ص ١٢٣ .
(٤) راجع جـ ١٩ ص ٦٩ . (٥) فى ب وجوزوك : الجمهور .

Marfat.com

بالجن أنهم أطاعوهم كطاعة الله عز وجل ؛ رُوى ذلك عن الحسن وغيره . قال قَتادة والسُّدّى : هم الذين قالوا الملائكةُ بنات الله . وقال الكلبي : نزلت في الزنادقة ، قالوا : إن الله و إبليس أخوان ؛ فالله خالق الناس والدواب ، و إبليس خالق الجانّ[1] والسباع والعقارب . و يقرب من هذا قول المجوس ، فإنهم قالوا : للعالَم صانعان : إله قديم ، والثانى شيطان حادث من فكرة الإله القديم ؛ وزعموا أن صانع الشر حادث . وكذا الحائطية من المعتزلة من أصحاب أحمد ابن حائط ، زعموا أن للعالَم صانعين : الإله القديم ، والآخر محدث ، خلقه الله عز وجل أوّلا ثم فوّض إليه تدبير العالم ؛ وهو الذى يحاسب الخلق فى الآخرة . تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون عُلُوّا كبيرا . ﴿ وَخَرَّقُوا ﴾ قراءة نافع بالتشديد على التكثير ؛ لأن المشركين ٱدّعوا أن لله بناتٍ وهم الملائكة ، وسَمَّوهم جِنًّا لاجتنانهم . والنصارى ٱدّعت المسيح ٱبنَ الله . واليهود قالت : عزير ٱبن الله ، فكثُر ذلك من كفرهم[2] ؛ فشُدّد الفعل لمطابقة المعنى . تعالى الله عما يقولون . وقرأ الباقون بالتخفيف على التقليل . وسئل الحسن البصرى عن معنى « وخرّقوا له » بالتشديد فقال : إنما هو « وخَرَقوا » بالتخفيف ، كلمة عربية ، كان الرجل إذا كذب فى النادى قيل : خَرَقها وربِّ الكعبة . وقال أهل اللغة : معنى « خرَقوا » اختلقوا وافتعلوا «وخرّقوا» على التكثير . قال مجاهد وقتادة وابن زيد وابن جُريج : «خرقوا» كذبوا . ويقال : إن معنى خرق واخترق واختلق سواء ؛ أى أحدث :

قوله تعالى : بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى مبدعهما ؛ فكيف يجوز أن يكون له ولد . و « بَدِيعُ » خبر ابتداء مضمر أى هو بديع . وأجاز الكسائى خفضه على النعت لله عز وجل ، ونصبه بمعنى بديعا السموات والأرض . وذا خطأ عند البصريين لأنه لما مضى[2] .

(١) فى ب وج وز وك : الحيات . (٢) فى ج وك : من فعلهم . (٣) اسم الفاعل يعمل عمل فعله إن كان صلة لأل مطلقا ؛ فإن لم يكن صلة لأل عمل بشرطين عند البصريين : أن يكون بمعنى الحال أو الاستقبال . وأجاز الكسائى عمله إذا كان للماضى .

Marfat.com

﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ أى من أين يكون له ولد . وولد كل شىء شبيهه ، ولا شـبيه له .
﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ﴾ أى زوجة . ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ عموم معناه الخصوص ؛ أى خلق العالم .
ولا يدخل فى ذلك كلامه ولا غيره من صفات ذاته . ومثـله « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ »[1]
ولم تسع إبليس ولا من مات كافرا . ومثله « تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ »[2] ولم تدمر السموات والأرض .

قوله تعـالى : ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢)

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ « ذلكم » فى موضع رفع بالآبتـداء .
« اللَّهُ رَبُّكُمْ » على البدل . ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ خبر الأبتداء . ويجوز أن يكون « ربكم »
الخبر ، و « خالق » خبرا ثانيـا ، أو على إضمار مبتـدأ ، أى هو خالق . وأجاز الكسائى
والفراء فيه النصب .

قوله تعـالى : لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ (١٠٣)

قوله تعـالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ بيّن سبحانه أنه منزه عن سمات الحدوث ، ومنها
الإدراك بمعنى الإحاطة والتحديد ، كما تدرك سائر المخلوقات ، والرؤية ثابتة . فقال الزجاج :
أى لا يبلغ كُنْه حقيقته ؛ كما تقول : أدركت كذا وكذا ؛ لأنه قد صحّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم
الأحاديث فى الرؤية يوم القيامة . وقال ابن عباس : « لا تدركه الأبصار » فى الدنيا ،
ويراه المؤمنون فى الآخرة ؛ لإخبار الله بها فى قوله : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ »[3] .
وقاله السُّدّى . وهو أحسن ما قيـل لدلالة التنزيل والأخبار الواردة برؤية الله فى الجنـة .
وسيأتى بيانه فى « يونس »[4] . وقيـل : « لا تدركه الأبصار » لا تحيط به وهو يحيط بهـا ؛

(١) راجع ص ٢٩٦ من هذا الجزء .
(٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٠٥ .
(٣) راجع جـ ١٩ ص ١٠٥ .
(٤) راجع جـ ٨ ص ٣٣٠ .

Marfat.com

عن ٱبن عباس أيضا . وقيل : المعنى لا تدركه أبصار القلوب ، أى لا تدركه العقول فتتوهمه ؛ إذ « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »(١) . وقيل : المعنى لا تدركه الأبصار المخلوقة فى الدنيا ، لكنه يخلق لمن يريد كرامته بصرا و إدراكا يراه به كمحمد عليه السلام ؛ إذ رؤيته تعالى فى الدنيا جائزةٌ عقلا ، إذ لو لم تكن جائزةً لكان سؤال موسى عليه السلام مستحيلا ، ومحالٌ أن يجهل نبيّ مايجوز على الله وما لا يجوز ؛ بل لم يسأل إلا جائزا غير مستحيل . وٱختلف السلف فى رؤية نبينا عليه السلام ربّه ، ففى صحيح مسلم عن مسروق قال : كنت متكئا عند عائشة ، فقالت : يا أبا عائشة(٢) ، ثلاثٌ من تكلّم بواحدة منهنّ فقد أعظم على الله الفِرْية . قلت : ماهنّ ؟ قالت : من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفِرية . قال : وكنت متكئا فجلست فقلت : يا أمّ المؤمنين ، أَنظِريني ولا تُعجِليني ، ألم يَقُلِ الله عز وجل « وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ »(٣) . « وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى »(٤) ؟ فقالت : أنا أوّل هذه الأمة [من](٥) سأل عن ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إنما هو جبريل لم أره على صورته التى خلق عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطا من السماء سادا عِظَم خلقه ما بين السماء والأرض " . فقالت : أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » ؟ أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول : « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا — إلى قوله — عَلِيٌّ حَكِيمٌ »(١) ؟ قالت : ومن زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتم شيئا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفِرْية ، والله تعالى يقول : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ »(٦) قالت : ومن زَعم أنه يُخبر بما يكون فى غدٍ فقد أعظم على الله الفِرْية ، والله تعالى يقول : « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ »(٧) .

وإلى ما ذهبت إليه عائشة رضى الله عنها من عدم الرؤية ، وأنه إنما رأى جبريل : ٱبن مسعود ، ومثله عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وأنه إنما رأى جبريل ، وٱختلف عنهما .

(١) راجع جـ ١٦ ص ٧ وص ٥٢ . (٢) أبو عائشة : كنية الإمام مسروق .
(٣) راجع جـ ١٩ ص ٢٣٩ . (٤) راجع جـ ١٧ ص ٩٢ . (٥) من ك .
(٦) راجع جـ ٦ ص ٢٤٢ . (٧) راجع جـ ١٣ ص ٢٢٥ .

Marfat.com

وقال بإنكار هذا وآمتناع رؤيته جماعةٌ من المحدّثين والفقهاء والمتكلّمين . وعن آبن عباس أنه رآه بعينيه؛ هذا هو المشهور عنه . وحجته قوله تعالى : « مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَى »[(١)] . وقال عبد الله بن الحارث : آجتمع آبن عباس وأُبَيّ بن كعب، فقال آبن عباس : أما نحن بنو هاشم[(٢)] فنقول إن محمدا رأى ربّه مرتين . ثم قال آبن عبـاس : أتعجبون أن الخلّة تكون لإبراهيم والكلام لموسى ، والرؤية لمحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين . قال : فكبّر كعب حتى جاوبته الجبال، ثم قال : إن الله قسّم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى عليهما السلام ، فكلّم موسى ورآه محمد صلى الله عليه وسلم . وحكى عبد الرزّاق أن الحسن كان يحلف بالله لقد رأى محمد ربّه . وحكاه أبو عمر الطَّلَمَنْكِيّ عن عِكرمة، وحكاه بعض المتكلمين عن آبن مسعود، والأوّل عنه أشهر . وحكى آبن إسحاق أن مروان سأل أبا هريرة : هل رأى محمد ربّه ؟ فقال : نعم . وحكى النقاش عن أحمد بن حنبل أنه قال : أنا أقول بحديث آبن عباس : بعينه رآه رآه ! حتى آنقطع نفسه، يعني نفس أحمد . وإلى هذا ذهب الشيخ أبو الحسن الأشعريّ وجماعة من أصحابه [أن محمدا[(٣)] صلى الله عليه وسلم] رأى الله ببصره وعيني رأسه . وقاله أنس وآبن عباس وعكرمة والربيع والحسن . وكان الحسن يحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقـد رأى محمد ربّه . وقال جماعة منهم أبو العالية والقُرَظِيّ والربيع بن أنس : إنه إنمـا رأى ربّه بقلبه وفؤاده؛ وحكى عن آبن عباس أيضا وعكرمة . وقال أبو عمر : قال أحمد بن حنبل رآه بقلبه، وجَبُنَ عن القول برؤيته في الدنيا بالأبصار . وعن مالك بن أنس قال : لم يُرَ في الدنيـا؛ لأنه باق ولا يُرَى الباقي بالفاني، فإذا كان في الآخرة ورُزقوا أبصارا باقية رأوا الباقي بالباقي . قال القاضي عِياض : وهذا كلام حسن مليح، وليس فيه دليل على الآستحالة إلا من حيث ضعف القدرة؛ فإذا قوّى الله تعالى من شاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم يمتنع في حقّه . وسيأتي شيء من هذا في حق موسى عليه السلام في « الأعراف[(٤)] » إن شاء الله .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ ﴾ أي لا يخفى عليه شيء إلا يراه ويعلمه . وإنما خصّ « الأبصار » لتجنيس الكلام . وقال الزجاج : وفي هذا الكلام دليل على أن الخلق لا يُدركون

(١) راجع جـ ١٧ ص ٩٢ . (٢) كذا في كل الأصول ، وهو منصوب على الاختصاص .
(٣) من ع . (٤) راجع ص ٢٧٨ من هذا الجزء .

Marfat.com

الأبصار؛ أى لا يعرفون كيفية حقيقةِ البصر، وما الشيء الذى صار به الإنسان يُبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه . ثم قال : ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ أى الرفيق بعباده ؛ يقال : لَطَف فلان بفلان يَلْطُف ، أى رفق به . واللطف فى الفعل الرِّفْقُ فيـه . واللُّطف من الله تعالى التوفيق والعِصمة . وألطفه بكذا ، أى بَرّه به . والاسم اللَّطَف بالتحريك . يقال : جاءتنا من فلان لَطَفة ؛ أى هَدِيّة . والملاطفة المبارّة ؛ عن الجوهرى وٱبنِ فارس . قال أبو العالية : المعنى لطيف باستخراج الأشياء خبيرٌ بمكانها . وقال الجُنَيد : اللّطيف من نوّر قلبك بالهـدى ، وربّى جسمك بالغذا ، وجعل لك الولاية فى البَلْوَى ، ويحرسُك وأنت فى لظى ، ويدخلك جنة المأْوى . وقيل غير هذا ، ممـا معناه راجع إلى معنى الرفق وغيره . وسيأتى ما للعلماء من الأقوال فى ذلك فى « الشُّورَى »[(1)] إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى آيات وبراهين يُبْصَر بها ويُستدَلّ ؛ جمع بصيرة وهى الدّلالة . قال الشاعر :

جاءوا بصـائرُهُم على أكتافهـم ✽ وبصيرتى يَعْدُو بها عَتَـدٌ وَآى[(2)]

يعنى بالبصيرة الحجـة البينة الظاهرة . ووصف الدلالة بالمجىء لتفخيم شأنها ؛ إذ كانت بمنزلة الغائب المتوقع حضوره للنفس ؛ كما يقال : جاءت العافية وقد ٱنصرف المرض ، وأقبل السعود وأدبر النحوس . ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ﴾ الإبصار : هو الإدراك بحاسة البصر ؛ أى فمن ٱستدل وتعرّف فنفسه نفع . ﴿ وَمَنْ عَمِيَ ﴾ لم يستدل ، فصار بمنزلة الأعمى ؛ فعلى نفسه يعود ضرر

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٦ . (٢) الذى فى كتب اللغة : « راحوا ... الخ » وأن هذا البيت للأسعر الجعفى . يقول : إنهم تركوا دم أبيهم وجعلوه خلفهم ؛ أى لم يثأروا به وأنا طالبت ثأرى . والعتد (بفتح التاء وكسرها) : الفرس التام الخلق السريع الوثبـة معدّ للجرى ليس فيه اضطراب ولا رخاوة . والوآى (بفتح الواو والمد) : الفرس السريع المقتدر الخلق .

Marfat.com

عماه . ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أى لم أومر بحفظكم على أن تهلكوا أنفسكم . وقيل : أى لا أحفظكم من عذاب الله . وقيل : « بِحَفِيظٍ » برقيب، أحصى عليكم أعمالكم، وإنما أنا رسول أبلغكم رسالات ربى، وهو الحفيظ عليكم لا يخفى عليه شىء من أفعالكم . قال الزجاج: نزل هذا قبل فرض القتال، ثم أمر أن يمنعهم بالسيف من عبادة الأوثان .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ الكاف [في كذلك][1] في موضع نصب؛ أى نصرف الآيات مثل ما تلونا عليك . أى كما صرفنا الآيات في الوعد والوعيد والوعظ والتنبيه في هذه السورة نصرف في غيرها . ﴿ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ ﴾ الواو للعطف على مضمر؛ أى نصرف الآيات لتقوم الحجة وليقولوا درست . وقيل : أى « وليقولوا درست » صرفناها؛ فهى لام الصيرورة . وقال الزجاج : هـذا كما تقول كتب فلان هـذا الكتاب لحتفه ؛ أى آل أمره إلى ذلك . وكذا لما صرفت الآيات آل أمرهم إلى أن قالوا : درست وتعلمت من جَبْر ويَسَار، وكانا غلامين نصرانيين بمكة، فقال أهل مكة : إنما يتعلم منهما . قال النحاس : وفى المعنى قول آخر حسن، وهو أن يكون معنى « نُصَرِّفُ الْآيَاتِ » نأتى بها آية بعد آية ليقولوا درست علينا؛ فيذكرون[2] الأول بالآخر . فهذا حقيقة، والذى قاله أبو إسحاق مجاز .

وفى « دَرَسْتَ » سبع قراءات . قرأ أبو عمرو وابن كثير « دارست » بالألف بين الدال والراء، كفاعلت . وهى قراءة علىّ وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وأهل مكة . قال ابن عباس : معنى « دَارَسْتَ » تاليت . وقرأ ابن عامر « دَرَسَتْ » بفتح السين وإسكان التاء من غير ألف ؛ كخرجت . وهى قراءة الحسن . وقرأ الباقون « دَرَسْتَ » كخرجتَ . فعلى الأولى : دارست أهلَ الكتاب ودارسوك؛ أى ذاكرتهم وذاكروك؛ قاله سعيد بن جبير . ودلّ على هذا المعنى قوله تعالى إخبارا عنهم : « وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ[3] » أى أعان اليهودُ النبيّ

(١) من ك . (٢) فى ك : فيلحقون . (٣) راجع جـ ١٣ ص ٣ .

صلى الله عليـه وسلم على القرآن وذاكروه فيـه . وهذا كلّه قول المشركين . ومثـله قولهم : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا »(١) . « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ »(٢) . وقيل : المعنى دارستنا؛ فيكون معناه كمعنى درست؛ ذكره النحاس واختاره، والأوّل ذكره مكيّ . وزعم النحاس أنه مجاز؛ كما قال :

* فللموتِ ما تَلد الوالدهْ(٣) *

ومن قرأ « دَرستْ » فأحسن ما قيل في قراءته أن المعنى : ولئلا يقولوا انقطعت وآمّحت ، وليس يأتي محمد صلى الله عليه وسلم بغيرها . وقرأ قتادة « دُرِست » أي قرئت . وروى سفيان ابن عُيينة عن عمرو بن عبيد عن الحسن أنه قرأ «دارستْ» . وكان أبو حاتم يذهب إلى أن هذه القراءة لا تجوز؛ قال : لأن الآيات لا تدارِس . وقال غيره : القراءة بهذا تجوز، وليس المعنى على ما ذهب إليه أبو حاتم ، ولكن معناه دارستْ أمّتُك؛ أي دارستك أمّتك ، وإن كان لم يتقدّم لها ذكر؛ مثل قوله : «حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ»(٤) . وحكى الأخفش « وَلِيَقُولُوا دُرُسَتْ » وهو بمعنى «دَرستْ» إلا أنه أبلغ . وحكى أبو العباس أنه قرئ « ولْيقولوا درست » بإسكان اللام على الأمر . وفيه معنى التهديد؛ أي فليقولوا بما شاءوا فإن الحق بيّن؛ كما قال عز وجل «فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا»(٥) . فأمّا من كسر اللام فإنها عنده لام كي . وهذه القراءات كلها يرجع اشتقاقها إلى شيءٍ واحد ، إلى التليين والتذليل . و « دَرَسْتَ » من دَرَس يدرُس دِراسة، وهي القراءة على الغير . وقيل : درسته أي ذللته بكثرة القراءة؛ وأصله درَس الطعامَ أي داسـه . والدِّياس الدّراس بلغة أهل الشام . وقيل : أصله من درسْتُ الثوبَ أَدْرُسه درسا أي أخلقته . وقـد دَرَس الثوبُ دَرْسا أي أخلق . ويرجع هـذا إلى التذلل أيضا . ويقال : سُمِّيَ إدريس لكثرة دراسته لكتاب الله . ودارست الكتب وتدارستها وآدّارستها أي درستها . ودَرستُ الكتاب دَرْسا ودِراسة . ودرَستِ المرأة درسا أي حاضت . ويقال :

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٩٥ . (٣) هذا عجز بيت ، وصدره كما في المغني (حرف اللام) :
* فإن يكن الموت أفناهم *
(٤) راجع جـ ١٥ ص ١٩٥ . (٥) راجع جـ ٨ ص ٢١٦ .

Marfat.com

إن فرج المرأة يُكْنَى أبا أَدْراس ؛ وهو من الحيض . والدَّرْسُ أيضـا : الطريق الخفِيّ . وحكى الأصمعيّ : بَعير لم يُدَرَّس أى لم يركب ، ودَرَست من درس المنزلُ إذا عَفَا . وقرأ ابن مسعود وأصحـابه وأُبَيّ وطلحة والأعمش « وليقولوا درس » أى درس محمد الآيات . ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُ ﴾ يعنى القول والتصريف ، أو القرآن ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

قوله تعـالى : ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ يعنى القرآن ؛ أى لا تشغل قلبك وخاطرك بهم ، بل اشتغل بعبادة الله . ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ منسوخ .

قوله تعـالى : وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾ نصّ على أن الشرك بمشيئته ، وهو إبطال لمذهب القدرية كما تقدّم . ﴿ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أى لا يمكنك حفظهم من عذاب الله . ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أى قَيِّم بأمورهم فى مصالحهم لدينهم أو دنياهم ، حتى تلطف لهم فى تناول ما يجب لهم ؛ فلست بحفيظ فى ذلك ولا وكيل فى هـذا ، إنما أنت مُبَلِّغ . وهذا قبل أن يؤمر بالقتال .

قوله تعـالى : وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

Marfat.com

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ نهى . ﴿ فَيَسُبُّوا اللَّهَ ﴾ جواب النهى . فنهى سبحانه المؤمنين أن يَسُبُّوا أوثانهم ؛ لأنه علم إذا سبّوها نفر الكفار وآزدادوا كُفرا . قال ابن عباس : قالت كفار قريش لأبى طالب إمّا أن تنهى محمدا وأصحابه عن سب آلهتنا والغض منها و إما أن نَسُبّ إلٰهه ونهجوه ؛ فنزلت الآية .

الثانيـــة — قال العلمـاء : حكمها باقٍ فى هذه الأمة على كل حال ؛ فمتى كان الكافر فى مَنَعة وخِيف أن يَسُبَّ الإسلام أو النبىّ عليه السلام أو الله عز وجل، فلا يحلّ لمسلم أن يَسُبَّ صلبانهم ولا دينهم ولا كنائسهم ، ولا يتعرض إلى ما يؤدّى إلى ذلك ؛ لأنه بمنزلة البعث على المعصية . وعبر عن الأصنام وهى لا تعقل بـ « الذين » على معتقد الكفرة فيها .

الثالثـــة — فى هـذه الآية أيضا ضَرْبٌ من الموادعة ، ودليلٌ على وجوب الحكم بسدّ الذرائع ، حسب ما تقدّم . فى « البقرة » وفيها دليل على أن المحقّ قد يكفّ عن حق له إذا أدّى إلى ضرر يكون فى الدِّين . ومن هذا المعنى ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : لا تبتّوا الحكم بين ذوى القرابات مخافة القطيعة . قال ابن العربىّ : إن كان الحق واجبا فيأخذه بكل حال و إن كان جائزا ففيه يكون هذا القول .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ عَدْوًا ﴾ أى جهلا وآعتداء . و روى عن أهل مكة أنهم قرءوا « عُدُوًّا » بضم العين والدال وتشديد الواو، وهى قراءة الحسن وأبى رجاء وقَتادة، وهى راجعة إلى القراءة الأولى، وهما جميعا بمعنى الظلم . وقرأ أهل مكة أيضا « عَدُوًّا » بفتح العين وضم الدال بمعنى عدو . وهو واحد يؤدّى عن جمع ؛ كما قال : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ » (١) . وقال تعالى : « هُمُ الْعَدُوُّ » (٢) وهو منصوب على المصدر أو على المفعول من أجله .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ أى كما زيّنا لهؤلاء أعمالهم كذلك زينا لكل أمة عملهم . قال ابن عباس . زيّنا لأهل الطاعةِ الطاعةَ ، ولأهل الكفرِ

(١) راجع جـ ١٣ ص ١١٠ . (٢) راجع جـ ١٨ ص ١٢٥ .

Marfat.com

الكفرَ ؛ وهو كقوله : « يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ »[1] . وفى هـذا ردٌّ على القـــدرية .

قوله تعـالى : وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى :﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا ﴾ أى حلفوا . وجَهْدُ اليمين أشدّها ، وهو بالله . فقوله : « جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ » أى غاية أيمانهم التى بلغها علمهم ، وانتهت إليها قدرتهم . وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن الله هو الإله الأعظم ، وأن هذه الآلهة إنما يعبدونها ظنًّا منهم أنها تقربهم إلى الله زلفى ؛ كما أخبر عنهم بقوله تعالى : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى »[2] . وكانوا يحلفون بآبائهم وبالأصنام وبغير ذلك ، وكانوا يحلفون بالله تعالى وكانوا يُسَمّونه جَهْد اليمين إذا كانت اليمين بالله . « جَهْدَ » منصوب على المصدر والعامل فيه « أقسموا » على مذهب سيبويه ؛ لأنه فى معناه . والجَهْد (بفتح الجيم) : المشقّة ؛ يقال : فعلت ذلك بجَهْد . والجُهْد (بضمها) : الطاقة يقال : هذا جُهْدى ، أى طاقتى . ومنهم من يجعلهما واحدا ، ويحتج بقوله « وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ »[3] . وقرئ « جَهْدهم » بالفتح ؛ عن ابن قتيبة . وسبب الآية فيما ذكر المفسرون : القُرَظِىّ والكَلْبى وغيرهما ، أن قريشا قالت : يامحمد ، تُخبرنا بأن موسى ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عَيْنًا ، وأن عيسى كان يُحيى الموتى ، وأن ثمود كانت لهم ناقة ، فأتنا ببعض هذه الآيات حتى نصدّقك . فقال : " أىّ شىء تحبّون " ؟ قالوا : اجعل لنا الصَّفا ذهبا ، فوالله إن فعلته لنتبعنّك أجمعون . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ؛ فجاءه جبريل عليه السلام فقال : " إن شئت أصبح [الصَّفا][4] ذهبا ، ولئن أرسـل الله آية ولم يصدّقوا عندها ليعذبنّهم فاتركهم حتى يتوب تائبهم " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٧٢ . (٢) راجع جـ ١٥ ص ١٢٣ . (٣) راجع جـ ٨ ص ٢١٥
(٤) من ك .

Marfat.com

"بل يتوب تائبهم" فنزلت هذه الآية . وبيّن الرب(١) بأن من سبق العلم الأزلىّ بأنه لا يؤمن فإنه لا يؤمن وإن أقسم ليؤمنَنّ .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ قيل : معناه بأغلظ الأيمان عندهم . وتعرِض هنا مسألةٌ من الأحكام عُظْمَى ، وهى قول الرجل : الأيمان تلزمه إن كان كذا وكذا . قال ابن العربىّ : وقد كانت هذه اليمين فى صدر الإسلام معروفةً بغير هذه الصورة ، كانوا يقولون : علىّ أشدّ ما أخذه أحدٌ على أحد ؛ فقال مالك : تَطْلُق نساؤه . ثم تكاثرت الصُّوَر حتى آلت بين الناس إلى صورةٍ هذه أُمُّها . وكان شيخنا الفِهْرِىّ الطَّرَسُوسِىّ يقول : يلزمه إطعام ثلاثين مسكينا إذا حنِث فيها ؛ لأن قوله « الأيمان » جمع يمين ، وهو لوقال علىّ يمين وحنِث ألزمناه كفارةً . ولوقال : علىّ يمينان للزمته(٢) كفارتان إذا حنِث . والأيمانُ جمع يمين فيلزمه فيها ثلاث كفارات .

قلت : وذكر أحمد بن محمد بن مغيث فى وثائقه : اختلف شيوخ القَيْرَوان فيها ؛ فقال أبو محمد بن أبى زيد : يلزمه فى زوجته ثلاث تطليقات ، والمشى إلى مكة ، وتفريقُ ثلث ماله ، وكفارةُ يمين ، وعتق رقبة . قال ابن مغيث : وبه قال ابن أرنع رأسه وابن بدر من فقهاء طُلَيْطُلة . وقال الشيخ أبو عمران الفاسى وأبو الحسن القابِسىّ وأبو بكر بن عبد الرحمن القَرَوِىّ : تلزمه طلقة واحدة إذا لم تكن له نيّـة . ومن حجتهـم فى ذلك رواية ابن الحسن فى سماعه من ابن وهب فى قوله : « وأشدّ ما أخذه أحد على أحد أن عليـه فى ذلك كفارةَ يمين » . قال ابن مغيث : فجعل(٣) مَن سَمّيناه على القائل : « الأيمان تلزمه » طلقةً واحدة ؛ لأنه لا يكون أسوأ حالا من قوله : أشدّ ما أخذه أحد على أحد أن عليه كفارة يمين ، [قال](٤) وبه نقول . قال : واحتجّ الأوّلون بقول ابن القاسم فيمن قال : علىّ عهد الله وغليظُ ميثاقه وكفالته وأشدّ ما أخذه أحدٌ على أحد على أمر ألّا يفعله ثم فعله ؛ فقال : إن لم يُرِد الطلاق ولا العتاق وعزلهما عن ذلك فلتكن ثلاث كفارات . فإن لم تكن له نيـة حين حلف فليكفّر كفارتين فى قوله : علىّ عهد الله وغليظ ميثاقه . ويعتق رقبة وتَطْلُق نساؤه، ويمشى إلى مكة

(١) فى ك : بين الله .
(٢) فى ك ، ز : ألزمناه كفارتين .
(٣) فى ك : لحمل .
(٤) من ز .

Marfat.com

ويتصدّق بثلث ماله فى قوله : وأشدّ ما أخذه أحد على أحد . قال آبن العربيّ : أمّا طريق الأدلّة فإن الألف واللام فى الأيمان لا تخلو أن يراد بها الجنس أو العهد ؛ فإن دخلت للعهد فالمعهود قولك «بالله» فيكون ما قاله الفِهْرِيّ. فإن دخلت للجنس فالطلاق جنس فيدخل فيها ولا يُستوفَى عدده ، فإن الذى يكفى أن يدخل فى كل جنس معنى واحد ؛ فإنه لو دخل فى الجنس المعنى كلُّه للزمه أن يتصدّق بجميع ماله ؛ إذ قد تكون الصدقة بالمال يميناً . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى قل يا محمد : الله القادر على الإتيان بها ، وإنما يأتى بها إذا شاء . ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ أى وما يُدريكم أيمانكم ؛ فحذف المفعول. ثم آستأنف فقال : ﴿ إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بكسر إن ، وهى قراءة مجاهد وأبى عمرو وابن كثير . ويشهد لهذا قراءة آبن مسعود «وما يشعركم إذا جاءت لا يؤمنون» . وقال مجاهد وابن زيد : المخاطَب بهذا المشركون، وتمّ الكلام . حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون، وقد أعلمنا فى الآية بعد هذه أنهم لا يؤمنون . وهـذا التأويل يشـبه قراءة من قرأ « تؤمنون » بالتاء . وقال الفرّاء وغيره ؛ الخطاب للؤمنين ؛ لأن المؤمنين قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، لو نزلت الاية لعلهم يؤمنون ؛ فقال الله تعالى : « وَمَا يُشْعِرُكُمْ » أى يعلمكم ويدريكم أيها المؤمنون . «أنها» بالفتح ، وهى قراءة أهل المدينة والأعمش وحمزة ، أى لعلّها إذا جاءت لا يؤمنون. قال الخليل : «أنها» بمعنى لعلّها ؛ حكاه عنه سيبويه . وفى التنزيل : « وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى »[1] أى أنه يزَّكَّى . وحُكى عن العرب : آيت السوق أنّك تشترى لنا شيئا ، أى لعلّك . وقال أبو النَّجْم :

قلت لشَيْبَان آدنُ من لقائهْ • أنّ تُغَدِّى القومَ من شِوَائهْ

وقال عدىّ بن زيد :

أعاذلَ ما يُدريك أنّ منيّتى • إلى ساعةٍ فى اليوم أو فى ضُحَى الغَدِ

أى لعلّ . وقال دُرَيد بن الصِّمَّة[2] :

أرِينى جوادًا مات هَزْلا لأنّنى • أرى ما تَرَيْنَ أو بخيلا مُخَلَّدَا

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢١١ .

(٢) الصحيح أنه حاتم طى . كما فى الصحاح للجوهرى ، وديوانه . ويروى : لعلنى : فلا شاهد .

Marfat.com

أى لعلّى[(١)] . وهو فى كلام العرب كثير « أنّ » بمعنى لعل . وحكى الكسائى أنه كذلك فى مصحف أُبَىّ بن كعب «وما أدراكم لعلها» . وقال الكسائى والفرّاء : أن « لا » زائدة ، والمعنى : وما يشعركم أنها — أى الآيات — إذا جاءت المشركين يؤمنون ، فزيدت « لا » ؛ كما زيدت « لا » فى قوله تعالى : « وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ[(٢)] » . لأن المعنى : وحرام على قرية مُهْلَكة رجوعُهم . وفى قوله : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ[(٣)] » . والمعنى : ما منعك أن تسجد . وضعّف الزّجاج والنّحاس وغيرهما زيادة « لا » وقالوا : هو غلط وخطأ ؛ لأنها إنما تزاد فيما لا يُشْكِل . وقيل : فى الكلام حذف ، والمعنى : وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون ، ثم حذف هذا لعلم السامع ؛ ذكره النحاس وغيره .

قوله تعالى : وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

هذه آية مُشْكِلة ، ولا سيّما وفيها « وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » . قيل : المعنى ونقلب أفئدتهم وأنظارهم يوم القيامة على لهب النار وحرّ الجمر ؛ كما لم يؤمنوا فى الدنيا . « وَنَذَرُهُمْ » فى الدنيا ، أى نمهلهم ولا نعاقبهم ؛ فبعض الآية فى الآخرة ، وبعضها فى الدنيا . ونظيرها « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ[(٤)] » فهذا فى الآخرة . « عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ » فى الدنيا . وقيل : ونقلب فى الدنيا ؛ أى نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية ، كما حُلنا بينهم وبين الإيمان أوّل مرة ؛ لمّا دعوتَهم وأظهرتَ المعجزة . وفى التنزيل : « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ[(٣)] » . والمعنى : كان ينبغى أن يؤمنوا إذا جاءتهم الآية فرأوها بأبصارهم وعرفوها بقلوبهم ؛ فإذا لم يؤمنوا كان ذلك بتقليب الله قلوبهم وأبصارهم . ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ودخلت الكاف على محذوف ، أى فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أوّل مرة ؛ أى أوّل مرة أتتهم الآيات التى عجزوا عن معارضتها مثل القرآن وغيره . وقيل : ونقلّب أفئدة هؤلاء كيلا

(١) فى ه نخ ب ، وز مانصه : ذرينى أطوف فى البلاد لأننى الخ . (٢) راجع جـ ١١ ص ٣٤٠ .
(٣) راجع ص ١٦٩ ، وص ٣٩٠ من هذا الجزء . (٤) راجع جـ ٢٠ ص ٢٦ .

يؤمنوا ؛ كما لم تؤمن كفار الأمم السالفة لما رأوا ما ٱقترحوا من الآيات . وقيل: فى الكلام تقديم وتأخير؛ أى أنها إذا جاءت لا يؤمنون كما لم يؤمنوا أوّل مرة ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم. ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرون . وقد مضى فى « البقرة »(١) .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ فرأوهم عِياناً . ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾ بإحيائنا إياهم . ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ سألوه من الآيات . ﴿قِبَلًا﴾ مُقابلة ؛ عن ٱبن عباس وقتادة وٱبن زيد . وهى قراءة نافع وٱبن عامر . وقيل : معاينة ، لمَا آمنوا . وقال محمد بن يزيد : يكون «قِبلا» بمعنى ناحية ؛ كما تقول : لى قِبَل فلان مالٌ ؛ فقِبَلا نصب على الظرف . وقرأ الباقون «قُبُلًا» بضم القاف والباء ، ومعناه ضُمَناء ؛ فيكون جمع قبيل بمعنى كفيل ، نحو رغيف ورُغُف ؛ كما قال : « أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا »(٢) ؛ أى يضمنون ذلك ؛ عن الفراء . وقال الأخفش : هو بمعنى قَبِيل قَبِيل ؛ أى جماعة جماعة ، وقاله مجاهد ، وهو نصب على الحال على القولين . وقال محمد بن يزيد « قُبُلا » أى مقابلة ؛ ومنه « وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ »(٣) . ومنه قُبُل الرجل ودُبُره لما كان من بين يديه ومن ورائه . ومنه قُبُل الحيض . حكى أبو زيد : لقيت فلانا قُبُلا ومقابلة وقَبَلا وقِبَلا ، كله بمعنى المواجهة ؛ فيكون الضم كالكسر فى المعنى وتستوى القراءتان ؛ قاله مَكّيّ . وقرأ الحسن «قُبْلًا» حذف الضمة من الباء لثقلها . وعلى قول الفراء يكون فيه نطق ما لا ينطق ، وفى كفالة ما لا يعقل آية عظيمة لهم . وعلى قول الأخفش يكون فيه اجتماع الأجناس الذى ليس بمعهود . والحشر الجمع . ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ « أن » فى موضع استثناء ليس من الأوّل ؛ أى لكن إن شاء ذلك لهم . وقيل :

(١) راجع جـ ١ ص ٢٠٩ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٧ (٣) راجع جـ ٩ ص ١٧٢ .

Marfat.com

الآستثناء لأهل السعادة الذين سبق لهم فى علم الله الإيمان . وفى هذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ أى يجهلون الحق . وقيل : يجهلون أنه لا يجوز اقتراح الآيات بعد أن رأوا آية واحدة .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ ﴾ يُعَزِّى نبيّه و يسلّيه ، أى كما ابتليناك بهؤلاء القوم فكذلك جعلنا لكل نبى قَبْلك ﴿ عَدُوًّا ﴾ أى أعداء . ثم نعتهم فقال ﴿ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ حكى سيبويه جعل بمعنى وصف . « عَدُوًّا » مفعول أول . « لِكُلِّ نَبِيٍّ » فى موضع المفعول الثانى . « شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » بدل من عدو . و يجوز أن يكون « شياطين » مفعولا أول ، « عدوا » مفعولا ثانيا ؛ كأنه قيل : جعلنا شياطين الإنس والجن عدوا . وقرأ الأعمش : « شياطين الجن والإنس » بتقديم الجن . والمعنى واحد . ﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ عبارة عما يوسوس به شياطين الجن إلى شياطين الإنس . وسُمِّىَ وَحْياً لأنه إنما يكون خفية ، وجعل تمويههم زخرفا لتزيينهم إياه ؛ ومنه سمى الذهب زخرفا . وكل شىء حسن مُمَوَّه فهو زُخْرُف . والمزخرَف المزيّن . وزخارف الماء طرائقه . و « غُرُوراً » نصب على المصدر ، لأن معنى « يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ » يغرونهم بذلك غرورا . و يجوز أن يكون فى موضع الحال . والغرور الباطل . قال النحاس : ورُوى عن آبن عباس بإسناد ضعيف أنه قال فى قول الله عز وجل « يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ » قال : مع كل جنى شيطان ، ومع كل إنسىّ شيطان ، فيلقى أحدهما الآخر فيقول : إنى قد أضللت صاحبى بكذا فاضل صاحبك بمثله . ويقول الآخر مثل ذلك ؛ فهذا وحى بعضهم إلى بعض . وقاله عكرمة والضحاك

Marfat.com

والسُّدّى والكلبى . قال النحاس : والقول الأوّل يدل عليـه « وإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ »(١) ؛ فهذا يبيّن معنى ذلك .

قلت : ويدلّ عليه من صحيح السنة قوله عليه السلام : " ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قَرِينُه من الجن " قيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : " ولا أنا إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير" . روى " فأسلم" برفع الميم ونصبها . فالرفع على معنى فأسلم من شره . والنصب على معنى فأسـلم هو . فقـال : " ما منكم من أحد " ولم يقل ولا من الشياطين ؛ إلا أنه يحتمل أن يكون نبّه على أحد الجنسين بالآخر؛ فيكون من باب « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ »(٢) وفيه بُعْدٌ ، والله أعلم . وروى عَوف بن مالك عن أبى ذَرٍّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا أبا ذَرّ هل تعوّذت بالله من شرّ شياطين الإنس والجن "؟ قال قلت : يا رسول الله، وهل للإنس من شياطين؟ قال : "نعم هم شرٌّ من شياطين الجن" . وقال مالك بن دينار: إن شيطان الإنس أشدّ علىّ من شيطان الجن ، وذلك أنى إذا تعوّذت بالله ذهب عنى شيطان الجن ، وشيطان الإنس يجيئنى فيجرّنى إلى المعاصى عِيانا(٣) . وسَمِع عمر بن الخطاب [رضى الله عنه] آمرأة تنشد :

إن النساء رَياحين خلقن لكم * وكلُّكم يشتهى شـمّ الرياحين

فأجابها عمر رضى الله عنه :

إن النساء شياطين خُلقن لنـا * نعوذ بالله من شـر الشياطين

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أى ما فعلوا إيحاء القول بالغرور . ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أمْرٌ فيه معنى التهديد . قال سيبويه : ولا يقال وَذَر ولا وَدَع، استغنَوْا عنهما بترك(٤) .

قلت: هذا إنما خرج على الأكثر . وفى التنزيل : « وَذَرِ الَّذِينَ »(٥) و« ذَرْهم » و« مَاوَدَعَكَ »(٦) . وفى السنة " لينتهِيَنّ أقوام عن وَدْعِهم الجُمُعات ". وقوله : " إذا فعلوا — يريد المعاصى —

(١) ص ٧٤ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١٠ ص ١٥٩ . (٣) من ك، ع ، جـ . والذى يعـرف أن البيت لأحد أدباء البصرة رأى جماعة من النساء فأعجبه حالهن فقال : إن النساء شـياطين . البيت فأجابته إحداهن : إن النساء رياحين . البيت . (٤) من ب . (٥) يلاحظ أن الفعل فى « وذر الذين » و « ذرهم » أمر ، ولا يتجـه بهما قول المؤلف . فلعل فى الكلام سهوا ؛ والعصمة لله .
(٦) « ودعك » بالتخفيف قراءة رويت عن النبى صلى الله عليه وسلم . غير سبعية .

Marfat.com

فقد تُوُدِّع منهم ". قال الزجاج : الواو ثقيلة؛ فلما كان «ترك» ليس فيه واو بمعنى ما فيه الواو تُرِك ما فيه الواو . وهذا معنى قوله وليس بنصّه .

قوله تعالى : وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ﴾ تصغى تميل؛ يقال : صغوت أَصْغُو صَغْوًا وصُغُوًّا، وصَغَيت أصغى، وصَغِيت بالكسر أيضا . يقال منه : صغِى يَصْغَى صغًى وصُغِيًّا، وأصغيت إليه إصغاء بمعنًى . قال الشاعر :

تَرَى السَّفيهَ به عن كلّ مُحْكَمَةٍ[(١)] * زَيْغٌ وفيه إلى التشبيه إصغاءُ

ويقال : أصغيت الإناء إذا أملته ليجتمع ما فيه . وأصله الميل إلى الشيء لغرض من الأغراض . ومنه صَغَت النجوم : مالت للغروب . وفى التنزيل : « فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا[(٢)] » . قال أبو زيد : [يقال[(٣)]] صَغْوُه معك وصِغْوُه، وصَغاه معك، أى ميله . وفى الحديث "فأَصْغَى لها الإناء" يعنى للهرة . وأكرموا فلانا فى صاغِيته، أى فى قرابته الذين يميلون إليه ويطلبون ما عنده . وأصغت الناقة إذا أمالت رأسها إلى الرجل كأنها تستمع شيئا حين يَشُدّ عليها الرَّحْل . قال ذو الرُّمّة :

تُصْغِى إذا شدّها بالكُورِ جانحةً * حتى إذا ما استوى فى غَرْزِها تَثِبُ[(٤)]

واللام فى « ولِتَصْغَى » لام كَىْ، والعامل فيها « يوحِى » تقديره : يُوحِى بعضهم إلى بعض ليغروهم ولتصغى . وزعم بعضهم أنها لام الأمر، وهو غلط؛ لأنه كان يجب « ولْتصغ إليه » بحذف الألف، وإنما هى لام كى . وكذلك ﴿ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ﴾ إلا أن الحسن قرأ «ولْيرضوه

---

(١) من ا ، ب ، ز ، ك وفى اللسان : مكرمة . (٢) راجع ج ١٨ ص ١٨٨ .
(٣) من ب ، ز ، ك . (٤) الكور (بالضم) : رحل الناقة بأداته ؛ وهو كالسرج وآلته للفرس قال ابن سيده : وكثير من الناس يفتح الكاف وهو خطأ وجانحة : مائلة لاصقة . والغرز : سير كالركاب توضع فيه الرجل عند الركوب . وصف ناقته بالفطانة وسرعة الحركة .

Marfat.com

وليقترفوا » بإسكان اللام ، جعلها لام أمر فيه معنى التهديد ؛ كما يقال : افعل ماشئت . ومعنى ﴿ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾ أى وليكتسبوا ؛ عن ابن عباس والسدّى وابن زيد . يقال : خرج يقترف أهله أى يكتسب لهم . وقارف فلان هذا الأمر إذا واقعه وعمله . وقرفتنى بما ادّعيت علىّ ، أى رميتنى بالرّيبة . وقرف القُرحة إذا قشر منها . واقترف كذبًا . قال رُؤْبة :

أعيا اقترافُ الكذب المقروفِ * تقـوى التّقِى وعفّـةُ العفيفِ (١)

وأصله اقتطاع قطعة من الشىء .

قوله تعـالى : أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾ «غير» نصب بـ«أبتغى» . «حكمًا» نصب على البيان ، وإن شئت على الحال . والمعنى : أفغير الله أطلب لكم حاكمًا وهو الذى كفاكم مئونة المسألة فى الآيات بما أنزله إليكم من الكتاب المفصّل ، أى المبين . ثم قيل : الحَكَم أبلغ من الحاكم ؛ إذ لا يستحق التسمية بحَكَم إلا من يحكم بالحق ، لأنها صفة تعظيم فى مدح . والحاكم صفة جارية على الفعل ، فقد يُسمَّى بها من يحكم بغير الحق . ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ يريد اليهود والنصارى . وقيل : من أسلم منهم كسلمان وصُهيب وعبد الله بن سلام . ﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ ﴾ أى القرآن . ﴿ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى أنّ كلّ مافيه من الوعد والوعيد لحقّ ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ أى من الشاكين فى أنهم يعلمون أنه منزّل من عند الله . وقال عطاء : الذين آتيناهم الكتاب وهم رؤساء أصحاب محمد عليه السلام : أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ رضى الله عنهم .

قوله تعـالى : وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

(١) فى ع : العفيف . وفى ا و ب و ج و ك و ز : الضعيف .

قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ ﴾ قراءة أهل الكوفة بالتوحيد، والباقون بالجمع. قال ابن عباس : مواعيد ربك، فلا مغيّر لها . والكلمات ترجع إلى العبارات أو إلى المتعلقات من الوعد والوعيد وغيرهما . قال قتادة : الكلمات هى القرآن لا مبدل له ، لا يزيد فيه المفترون ولا ينقصون . ﴿ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ أى فيما وعد وحكم ، لا رادّ لقضائه ولا خُلْف فى وعده . وحكى الرمّانى عن قتادة : لا مبدّل لها فيما حكم به ، أى إنه و إن أمكنه التغيير والتبديل فى الألفاظ كما غيّر أهل الكتاب التوراةَ والإنجيل فإنه لا يعتدّ بذلك . ودلّت الآية على وجوب اتباع دلالات القرآن؛ لأنه حق لا يمكن تبديله بما يناقضه، لأنه من عند حكيم لا يخفى عليه شىء من الأمور [كلها[(١)]] .

قوله تعالى : وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِى الْأَرْضِ ﴾ أى الكفار . ﴿ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ أى عن الطريق التى تؤدّى إلى ثواب الله . ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ « إِنْ » بمعنى «ما»، وكذلك ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أى يَحْدِسُون و يقدرون؛ ومنه الخَرْص، وأصله القطع . قال الشاعر :

ترى قِصَد المُرّان فينا كأنه * تَذَرُّعُ خِرصان بأيدى الشّواطِبِ[(٢)]

يعنى جريدا يُقطع طولا و يتخذ منه الحَصْر . وهو جمع الخرص؛ ومنه خَرَص يَخْرُص النخل خَرْصا إذا حزره ليأخذ الخَرَاج منه . فالخارص يقطع بما لا يجوز القطع به؛ إذ لا يقين معه .

---

(١) من ك .

(٢) البيت لقيس بن الخطيم . والقصد (بكسر القاف وفتح الصاد جمع قصدة) : القطعة مما يكسر . والمرّان : نبات الرماح . أو الرماح الصلبة اللدنة . والتذرع : تقدير الشىء بذراع اليد . والخرصان : القضبان من الجريد . والشواطب (جمع الشاطبة) وهى المرأة التى تقشر العسيب ثم تلقيه إلى المنقية فتأخذ كل ما عليه بسكينها حتى تتركه رقيقا ثم تلقيه المنقية إلى الشاطبة ثانية فتشطبه على ذراعها وتتذرعه . وقوله : « فينا كأنه » عبارة الأصول . والذى فى اللسان « تلق كأنه » وفى ديوانه : « تهوى كأنها » .

Marfat.com

وسيأتى لهذا مزيد بيان فى « الذاريات »[(١)] إن شاء الله تعالى . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ ﴾ قال بعض الناس : إن « اعلم » هنا بمعنى يعلم ؛ وأنشد قول حاتم الطائى :

تحالفَتْ طيئٌ من دوننا حَلِفًا * والله أعلم ما كنا لهم خُذُلًا[(٢)]

وقول الخنساء :

الله[(٣)] أعلم أن جفنته * تغدو غداة الريح أو تسرى

وهذا لا حجة فيه ؛ لأنه لا يطابق « وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » . ولأنه يحتمل أن يكون على أصله . ﴿ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ « من » بمعنى أىّ ؛ فهو فى محل رفع والرافع له « يضل » . وقيل : فى محل نصب بأعلم ؛ أى إن ربّك أعلم أىّ الناس يضل عن سبيله . وقيل : فى محل نصب بنزع الخافض ؛ أى بمن يضل . قاله بعض البصريين ، وهو حَسَن ؛ لقوله : ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ وقوله فى آخر النحل : « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ »[(٤)] . وقرئ « يُضِلّ » وهذا على حذف المفعول ، والأول أحسن ؛ لأنه قال : «وهو أعلم بالمهتدين» . فلو كان من الإضلال لقال وهو أعلم بالهادين .

قوله تعالى : فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ نزلت بسبب أناس أتوا النبىّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله ، إنا نأكل ما نقتل ولا نأكل ما قتل الله ؟ فنزلت « فَكُلُوا — إلى قوله — وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ » خرجه الترمذىّ وغيره . قال عطاء[(٥)] : هذه الآية أمرٌ بذكر ٱسم الله على الشّراب والذبح وكلّ مطعوم . وقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى بأحكامه وأوامره آخذين ؛ فإن الإيمان بها يتضمّن و يقتضى الأخذ بها والانقياد لها .

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ٣٣ . (٢) فى الأصول : « تحالفت » و « خولا » بالواو بدل الذال . والتصويب عن تفسير الطبرى . والخذل : جمع خذول . (٣) فى ب و جـ و ك و ز و ى : القوم . (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٠ . (٥) فى ك : قتادة .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ (١١٩)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ : المعنى ما المانع لكم من أكل ما سميتم عليه ربكم وإن قتلتموه بأيديكم . ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ ﴾ أي بين لكم الحلال من الحرام، وأزيل عنكم اللبس والشك . فـ « ما » استفهام يتضمن التقرير . وتقدير الكلام : وأي شيء لكم في ألا تأكلوا . فـ « أن » في موضع خفض بتقدير حرف الجر . ويصح أن تكون في موضع نصب على ألا يقدر حرف جر ، ويكون الناصب معنى الفعل الذي في قوله « مَا لَكُمْ » تقديره أي ما يمنعكم . ثم استثنى فقال ﴿ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ يريد من جميع ما حرم كالميتة وغيرها كما تقدم في « البقرة »(١) . وهو استثناء منقطع . وقرأ نافع ويعقوب « وقد فَصَّل لكم ما حَرَّم » بفتح الفعلين . وقرأ أبو عمرو وابن عامر وابن كثير بالضم فيهما، والكوفيون « فَصَّل » بالفتح « حُرِّم » بالضم . وقرأ عطية العوفي « فَصَلَ » بالتخفيف . ومعناه أبان وظهر ؛ كما قرئ « الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِلَتْ »(٢) أي استبانت . واختار أبو عبيدة قراءة أهل المدينة . وقيل : « فصل » أي بين، وهو ما ذكره في سورة « المائدة » من قوله : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ »(٣) الآية .

قلت : هذا فيه نظر؛ فإن « الأنعام » مكية والمائدة مدنية فكيف يحيل بالبيان على ما لم ينزل بعد، إلا أن يكون فصل بمعنى يفصل . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيَضِلُّونَ ﴾(٤) وقرأ الكوفيون « يُضلون » من أضل . ﴿ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يعني المشركين حيث قالوا : ما ذبح الله بسكينه خير مما ذبحتم بسكاكينكم « بِغَيْرِ عِلْمٍ » أي بغير علم يعلمونه في أمر الذبح ؛ إذ الحكمة فيه إخراج ما حرمه الله علينا من الدم بخلاف ما مات حتف أنفه ؛ ولذلك شرع الذكاة في محل مخصوص ليكون الذبح فيه سببا لجذب كل دم في الحيوان بخلاف غيره من الأعضاء . والله أعلم .

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٢٤ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢ . (٣) راجع جـ ٦ ص ٤٧ . (٤) قراءة نافع .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ للعلماء فيه أقوال كثيرة . وحاصلها راجع إلى أن الظاهر ما كان عملا بالبدن مما نهى الله عنه ، و باطنه ما عُقِد بالقلب من مخالفة أمر الله فيما أمر ونهى ؛ وهذه المرتبة لا يبلغها إلا من اتقى وأحسن ؛ كما قال : « ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا »(١) . وهى المرتبة الثالثة حسب ما تقدّم بيانه فى « المائدة » . وقيل : هو ما كان عليه الجاهلية من الزنا الظاهر واتخاذ الحلائل فى الباطن . وما قدّمنا جامع لكل إثم [وموجب لكل أمر](٢) .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — روى أبو داود قال : جاءت اليهود إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله عن وجل « وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ » إلى آخر الآية . وروى النّسائى عن ابن عباس فى قوله تعـالى : « وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ » قال : خاصمهم(٣) المشركون فقالوا : ما ذبح الله فلا تأكلوه وما ذبحتم أنتم أكلتموه؛ فقال الله سبحانه لهم : لا تأكلوا ؛ فإنكم لم تذكروا اسم الله عليها . وتنشأ هنا مسألة أصولية ، وهى :

الثانيـــة — وذلك أن اللفظ الوارد على سبب هل يُقصر عليه أم لا ؛ فقال علماؤنا : لا إشكال فى صحة دعوى العموم فيما يذكره الشارع ابتداء من صِيَغ ألفاظ العموم . أما ماذكره

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٩٣ . (٢) من ك . (٣) أى خاصم المؤمنين المشركون .

Marfat.com

جوابا لسؤال ففيه تفصيل، على ما هو معروف فى أصول الفقه؛ إلا أنه إن أتى بلفظ مستقل دون السؤال لَحِق بالأوّل فى صحة القصد إلى التعميم . فقوله : « لا تأكلوا » ظاهر فى تناول الميتة، ويدخل فيه ما ذُكر عليه غير آسم الله بعموم أنه لم يذكر عليه آسم الله، وبزيادة ذكر غير اسم الله سبحانه عليه الذى يقتضى تحريمه نصًّا بقوله : « وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ ٱللَّهِ » (١) . وهل يدخل فيه ما ترك المسلم التسمية عمدا عليه من الذبح، وعند إرسال الصيد . اختلف العلماء فى ذلك على أقوال خمسة، وهى [المسألة] (٢) : —

الثالثـة — [القول] (٢) الأوّل — إن تركها سهوًا أُكلا جميعا؛ وهو قول إسحاق ورواية عن أحمد بن حنبل . فإن تركها عمدا لم يؤكلا ؛ وقاله فى الكتاب مالكٌ وابن القاسم ، وهو قول أبى حنيفة وأصحابه والثورىّ والحسن بن حىّ وعيسى وأَصْبَغ ، وقاله سعيد بن جُبير وعطاء، وآختاره النحاس وقال : هذا أحسن؛ لأنه لا يُسَمَّى فاسقا إذا كان ناسيا .

الثـانى — إن تركها عامدا أو ناسيا يأكلهما . وهو قول الشافعى والحسن، وروى ذلك عن ابن عباس وأبى هريرة وعطاء وسعيد بن المسيّب وجابر بن زيد وعكرمة وأبى عياض وأبى رافع وطاوس وإبراهيم النَّخَعِىّ وعبد الرحمن بن أبى لَيْلى وقتادة . وحكى الزَّهْرَاوِىّ عن مالك بن أنس أنه قال : تؤكل الذبيحة التى تركت التسمية عليها عمدا أو نسيانا . و[روى] (٢) عن ربيعة أيضا . قال عبد الوهاب : التسمية سنة ؛ فإذا تركها الذابح ناسيا أكلت الذبيحة فى قول مالك وأصحابه .

الثـالث — إن تركها عامدا أو ساهيا (٣) حَرُم أكلها ؛ قاله محمد بن سيرين وعبد الله بن عياش بن أبى ربيعة وعبد الله بن عمر ونافع وعبد الله بن زيد الخَطْمِىّ والشعبىّ ؛ وبه قال أبو ثور وداود بن علىّ وأحمد فى رواية .

الرابـع — إن تركها عامدًا كُره أكلها ؛ قاله القاضى أبو الحسن والشيخ أبو بكر من علمائنا .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢١٦ .	(٢) من ك .	(٣) فى ك : ناسيا .

Marfat.com

الخامس — قال أشهب : تؤكل ذبيحة تارك التسمية عمدًا إلا أن يكون مستخفًا ، وقال نحوه الطبرى . [أدلة[١]] قال الله تعالى : « فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ » وقال : « وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ » فبيّن الحالين وأوضح الحكمين . فقوله : « لا تأكلوا» نهيٌ على التحريم لا يجوز حمله على الكراهة، لتناوله فى بعض مقتضياته الحرام المحض، ولا يجوز أن يتبعّض ، أى يراد به التحريم والكراهة معًا ؛ وهذا من نفيس الأصول . وأما النّاسى فلا خطاب توجّه إليه إذ يستحيل خطابه ؛ فالشرط ليس بواجب عليه . وأما التارك للتسمية عمدا فلا يخلو من ثلاثة أحوال : إما أن يتركها إذا أضجع الذبيحة ويقول : قلبى مملوء من أسماء الله تعالى وتوحيده فلا أفتقر إلى ذكرٍ بلسانى ؛ فذلك يجزئه لأنه ذكر الله جلّ جلاله وعظمه . أو يقول : إن هـذا ليس بموضع تسْمية صريحة، إذ ليست بقربة ؛ فهـذا أيضا يجزئه . أو يقول : لا أسمى، وأىّ قدر للتسمية ؛ فهـذا متهاون فاسـق لا تؤكل ذبيحته . قال ابن العـربىّ : وأعجب لرأس المحققين إمام الحرمين حيث قال : ذِكر الله تعالى إنما شُرع فى القُرَب، والذّبح ليس بقُرْبة . وهذا يعارض القرآن والسنة؛ قال صلى الله عليه وسلم فى الصحيح : "ما أنهر الدّمَ وذُكر آسم الله عليـه فَكُلْ" . فإن قيل : المراد بذكر آسم الله بالقلب ؛ لأن الذكر يضادّ النسيان ومحل النسيان القلب فمحل الذكر القلب، وقد روى البَرَاء ابن عازب : آسم الله على قلب كل مؤمن سَمَّى أو لم يسمّ . قلنا : الذكر باللسان و بالقلب، والذى كانت العرب تفعله تسمية الأصنام والنُّصُب باللسان، فنسخ الله ذلك بذكره فى الألسنة، وآشتهر ذلك فى الشريعة حتى قيل لمالك : هل يُسَمِّى الله تعـالى إذا توضأ فقال : أيريد أن يذبح . وأما الحديث الذى تعلّقوا به من قوله : «آسم الله على قلب كل مؤمن » فحديث ضعيف . وقد استدلّ جماعة من أهل العلم على أن التسمية على الذبيحة ليست بواجبة؛ لقوله عليه السلام لأناس سألوه، قالوا : يا رسول الله، إنّ قومًا يأتوننا باللّحم لاندرى أذكروا آسم الله عليه أم لا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سَمّوا الله عليه وكلوا". أخرجه الدّارقطنىّ عن عائشة ومالك مرسلا عن هشام بن عروة عن أبيـه، لم يُختلف عليـه فى إرساله ،

(١) من ب وجوك وع وى .

Marfat.com

وتأوله بأن قال في آخره : وذلك في أول الإسلام . يريد قبل أن ينزل عليه « وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ » . قال أبو عمر : وهذا ضعيف ، وفي الحديث نفسه ما يردّه ، وذلك أنه أمرهم فيه بتسمية الله على الأكل ؛ فدلّ على أن الآية قد كانت نزلت عليه . ومما يدلّ على صحة ما قلناه أن هذا الحديث كان بالمدينة ، ولا يختلف العلماء أن قوله تعالى : « وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ » نزل في سورة « الأنعام » بمكة . ومعنى ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ أي لمعصية؛ عن ابن عباس . والفِسْق : الخروج ؛ وقد تقدّم (١) .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ أي يوسوسون فيُلقون في قلوبهم الجدال بالباطل . روى أبو داود عن ابن عباس في قوله : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » يقولون : ما ذبح الله فلا تأكلوه ، وما ذبحتم أنتم فكُلُوه ، فأنزل الله « وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ » قال عِكرمة : عنى بالشياطين في هذه الآية مَرَدة الإنس من مَجُوس فارس . وقال ابن عباس وعبد الله بن كثير : بل الشياطين الجنّ ، وكفرة الجن أولياء قريش . ورُوى عن عبد الله بن الزبير أنه قيل له : إن المختار يقول : يُوحَى إليّ فقال : صدق ، إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم . [وقوله (٢) :] « ليجادلوكم » . يريد [قولهم (٢)] : ما قتل الله لم تأكلوه وما قتلتموه أكلتموه . والمجادلة : دفع القول على طريق الحجة بالقوة ؛ مأخوذ من الأجدل ، طائر قوِيّ . وقيل : هو مأخوذ من الجَدالة ، وهي الأرض؛ فكأنه يغلبه بالحجة ويقهره حتى يصير كالمجدول بالأرض . وقيل : هو مأخوذ من الجَدْل ، وهو شدّة الفَتْل ؛ فكأن كلّ واحد منهما يفتِل (٣) حجة صاحبه حتى يقطعها ، وتكون حقا في نصرة الحق وباطلا في نصرة الباطل .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ أي في تحليل الميتة ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ . فدلّت الآية على أن من استحلّ شيئا مما حرّم الله تعالى صار به مُشركًا . وقد حرّم الله سبحانه الميتة نصًّا؛ فإذا قَبل تحليلها من غيره فقد أشرك . قال ابن العربيّ : إنما يكون المؤمن بطاعة

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٤٤ . (٢) من ك . (٣) في ك : يعطلها .

Marfat.com

المشرك مشركا إذا أطاعه فى الاعتقاد؛ فأما إذا أطاعه فى الفعل وعقده سليم مستمر على التوحيد والتصديق فهو عاص؛ فافهموه . وقد مضى فى « المـائدة »(١) .

قوله تعـالى : أَوَ مَن كَانَ مَيْتًـا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّـاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَـا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)

قوله تعـالى : ﴿ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ قرأ الجمهور بفتح الواو ، دخلت عليها همزة الاستفهام . وروى المُسَيَّبِي عن نافع بن أبى نعيم « أَوْ مَنْ كَانَ » بإسكان الواو . قال النحاس : يجوز أن يكون محمولا على المعنى ، أى انظروا وتدبروا أغير الله أبتغى حكما . « أَوْ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاه » قيل : معناه كان ميتا حين كان نطفة فأحييناه بنفخ الروح فيه؛ حكاه ابن بحر . وقال ابن عباس : أو من كان كافرا فهديناه . نزلت فى حمزة بن عبد المطلب وأبى جهل . وقال زيد بن أسلم والسدى : « فَأَحْيَيْنَاهُ » عمر [رضى الله عنه](٢) . « كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ » أبو جهل لعنه الله(٢) . والصحيح أنهـا عامة فى كل مؤمن وكافر . وقيل : كان ميتا بالجهل فأحييناه بالعلم . وأنشد بعض أهل العلم مايدل على صحة هذا التأويل لبعض شعراء [البصرة](٣) :

وفى الجهل قبل الموت موتٌ لأهله * فأجسامهم قبل القبور قبورُ
وإن آمرأ لم يَحْىَ بالعلم ميّتٌ * فليس له حتى النشور نشورُ

والنور عبارة عن الهُدَى والإيمان . وقال الحسن : القرآن . وقيل : الحكمة . وقيل : هو النور المذكور فى قوله : « يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ »(٤) ، وقوله : « انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ »(٤) . ﴿ يَمْشِى بِهِ ﴾ أى بالنور ﴿ فِى النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ ﴾ أى كمن هو؛ فمثل زائدة . تقول : أنا أكرم مثلك؛ أى أكرمك . ومثله « فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ »(٥) ،

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٥٤ وص ٣٠١ . (٢) من ع . (٣) من جـ وك و ى وع وز . وفى ا و ب : العرب . (٤) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٢ وص ٢٤٥ . (٥) راجع جـ ٦ ص ٣٠٦

Marfat.com

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »(١) . وقيل : المعنى كمن مَثَله مَثَل من هو فى الظلمات . والمَثَل والمِثل واحد . ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى زين لهم الشيطان عبادة الأصنام، وأوهمهم أنهم أفضل من المسلمين .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ المعنى : وكما زينا للكافرين ما كانوا يعملون كذلك جعلنا فى كل قرية . ﴿ مُجْرِمِيهَا ﴾ مفعول أول لجعل ﴿ أَكَابِرَ ﴾ مفعول ثانى على التقديم والتأخير . وجعل بمعنى صير . والأكابر جمع الأكبر . قال مجاهد : يريد العظماء(٢) . وقيل : الرؤساء والعظماء . وخصهم بالذكر لأنهم أقدر على الفساد . والمكر الحيلة فى مخالفة الاستقامة ، وأصله الفتل ؛ فالماكر يَفْتِل عن الاستقامة أى يصرف عنها . قال مجاهد : كانوا يجلسون على كل عَقَبَةٍ أربعةً ينفرون الناس عن اتباع النبى صلى الله عليه وسلم ؛ كما فعل من قبلهم من الأمم السالفة بأنبيائهم . ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ أى وبال مكرهم راجعٌ إليهم . وهو من الله عز وجل الجزاء على مكر الماكرين بالعذاب الأليم . ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ فى الحال ؛ لفرط جهلهم أن وبال مكرهم عائد إليهم .

قوله تعالى : وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ ﴾ بيّن شيئا آخر من جهلهم ، وهو أنهم قالوا لن نؤمن حتى نكون أنبياء ، فنؤتَى مثل ما أوتى موسى وعيسى من الآيات ؛ ونظيره

(١) راجع جـ ١٦ ص ٧ . (٢) فى الأصول العلماء . والتصويب من الطبرى عن مجاهد .

«بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً»(١). والكناية فى «جاءتهم» ترجع إلى الأكابر الذين جرى ذكرهم . قال الوليد بن المغيرة : لو كانت النبوّة حقًّا لكنت أَوْلَى بها منك؛ لأنى أكبر منك سِنًّا، وأكثر منك مالا . وقال أبو جهل : والله لا نرضى به ولا نتبعه أبدا، إلا أن يأتينا وَحْيٌ كما يأتيه؛ فنزلت الآية . وقيل : لم يطلبوا النبوّة ولكن قالوا لا نصدّقك حتى يأتينا جبريل والملائكة يخبروننا بصدقك . والأوّل أصح؛ لأن الله تعالى قال : «ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ»(٢) أى بمن هو مأمون عليها وموضع لها . و «حيث» ليس ظرفا هنا، بل هو ٱسم نُصب نَصب المفعول به على الاتساع؛ أى اللهُ أعلم أهلَ الرسالة . وكان الأصل الله أعلم بمواضع رسالته، ثم حذف الحرف، ولا يجوز أن يعمل «أعلم» فى «حيث» ويكون ظرفا، لأن المعنى يكون على ذلك الله أعلم فى هذا الموضع، وذلك لا يجوز أن يوصف به البارى تعالى، وإنما موضعها نصب بفعل مضمر دلّ عليه «أعلم» . وهى اسم كما ذكرنا . والصَّغار : الضَّيم والذل والهوان، وكذلك الصُّغر (بالضم) . والمصدر الصَّغَر (بالتحريك) . وأصله من الصِّغَر دون الكبر؛ فكأن الذل يصغّر إلى المرء نفسه، وقيل : أصله من الصَّغَر وهو الرضا بالذل؛ يقال منه : صَغَر يَصْغُر بفتح الغين فى الماضى وضمها فى المستقبل . وصَغِر بالكسر يصْغَر بالفتح لغتان، صَغَرًا وصَغارا، واسم الفاعل صاغر وصغير . والصاغر : الراضى بالضيم . والمَصْغُوراء الصَّغار . وأرض مُصْغِرَة : نبتها لم يطل(٣)؛ عن ٱبن السِّكّيت . ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أى من عند الله، فحذف . وقيل : فيه تقديم وتأخير، أى سيصيب الذين أجرموا عند الله صغار . الفراء : سيصيب الذين أجرموا صغار من الله . وقيل : المعنى سيصيب الذين أجرموا صغار ثابت عند الله . قال النحاس : وهذا أحسن الأقوال؛ لأن «عند» فى موضعها.

قوله تعالى : فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ٨٨ . (٢) قراءة نافع . (٣) فى اللسان : نبتها صغير لم يطل .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ أى يوسعه له ، و يوفقه ويزين عنده ثوابه . ويقال : شرح شق ، وأصله التوسعة . وشرح الله صدره وسّعه بالبيان لذلك . وشرحت الأمر: بيّنته وأوضحته. وكانت قريش تَشْرَح النساء شَرْحا، وهو مما تقدّم: من التوسعة والبَسْط ، وهو وَطْءُ المرأة مستلقِيَةً على قفاها . فالشّرح : الكشف ؛ تقول: شرحت الغامض ؛ ومنه تشريح اللحم . قال الراجز :

كَمْ قد أكلتُ كَبِدًا و إنْفَحَهْ ＊ ثم ٱدّخَرتُ إلْيَـةً مُشَرَّحَهْ

والقطعة منه شَريحة . وكل سمين من اللحم ممتدّ فهو شريحة . ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ ﴾ يغويه ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ وهذا ردّ على القـدرية . ونظير هذه الآية من السُّنّة قوله عليه السـلام : "مَنْ يُرِدِ ٱللّه به خيرا يفقهه فى الدّين" أخرجه الصحيحان . ولا يكون ذلك إلا بشرح الصدر وتنويره . والدين العبادات ؛ كما قال : « إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ »(١) . ودليل خطابه أن مَن لم يُرد الله به خيرا ضيّق صدره، وأبعد فهمه فلم يفقهه . والله أعلم . وروى أن عبد الله بن مسعود قال : يا رسول الله ، وهل ينشرح الصدر ؟ فقال : "نعم يدخل القلبَ نورٌ" فقال : وهل لذلك من علامة ؟ فقال صلى ٱلله عليـه وسلم : "التّجَافِى عن دار الغُرور والإنابةُ إلى دار الخـلود والاستعدادُ للموت قبل نزول الموت" . وقـرأ ابن كثير « ضَيْقًا » بالتخفيف ؛ مثـل هَيْن(٢) ولَيْن لغتان . ونافع وأبو بكر « حَرِجًا » بالكسر ، ومعناه الضيق . كرر(٣) المعنى ، وحسن ذلك لٱختلاف اللفـظ . والباقون بالفتح . جمـع حرجة ؛ وهـو شدّة الضيق أيضا ، والحَرجَة الغَيْضَة(٤) ؛ والجمع حَرَج وحَرَجات . ومنه فلان يتحرّج أى يضيّق على نفسه فى تركه هواه للمعاصى ؛ قاله الهَرَوِىّ . وقال ٱبن عباس : الحَرَج موضع الشجر الملتف ؛ فكأنّ قلب الكافر لا تصل إليـه الحكمة كما لا تصل الراعية إلى الموضع الذى ٱلتفّ شجره . ورُوى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه هذا المعنى ؛ ذكره مكىّ والثعلبى وغيرهما . وكل ضيق حَرِجٌ وحَرَج . قال الجوهَرى : مكان حرِج وحَرَج أى ضـيق كثير الشجر لا تصل إليـه

(١) راجع جـ ٤ ص ٤٣ . (٢) فى ك : عين . (٣) الأولى أن يكون حرجا : المتزايد فى الضيق فيكون أخص من الأوّل . (٤) الشجر الملتف .

الراعية . وقرئ «يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا» و «حَرِجًا» . وهو بمنزلة الوَحَد والوَحِد والفَرَد والفَرِد والدَّنَف والدَّنِف ؛ فى معنًى واحد ، وحكاه غيره عن الفراء . وقد حَرِج صدره يَحْرَج حرجا . والحَرَج الإثم . والحرج أيضا : الناقة الضامرة . ويقال : الطويلة على وجه الأرض ؛ عن أبى زيد ، فهو لفظ مشترك . والحَرَج : خشب يُشَدّ بعضه إلى بعض يُحمل فيه الموتى ؛ عن الأصمعى . وهو قول آمرئ القيس :

فإمّا تَرَيْــنِى فى رِحالة جابرٍ * على حَرَج كالقَرّ تَخفُق أكفانى[1]

وربمـا وضع فوق نعش النساء ؛ قال عنترة يصف ظليما :

يَتْبَعْن قُــلَّةَ رأسِــه وكأنّه * حَرَج على نَعْش لهنّ مُخَــيِّم[2]

وقال الزجاج : الحَرَج : أضيق الضِّيق . فإذا قيل . فلان حَرَج الصــدر ، فالمعنى ذو حَرَج فى صدره . فإذا قيل : حَرِج فهو فاعل . قال النحاس : حرِج آسم الفاعل ، وحَرَج مصدر وُصف به ؛ كما يقال : رجل عَدْلٌ ورِضًا .

قوله تعـالى : ﴿ كَأَنَّمَـا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ ﴾ قرأه آبن كثير بإسكان الصـاد مخففًا ، من الصعود وهو الطلوع . شـبه الله الكافر فى نفوره من الإيمـان وثقله عليه بمنزلة من تكلّف ما لا يُطيقه ؛ كما أن صعود السماء لا يطاق . وكذلك يَصّاعد وأصله يتَصاعد ، أدغمت التاء فى الصاد ، وهى قراءة أبى بكر والنخَعى ؛ إلا أن فيه معنى فعلِ شىء بعد شىء ، وذلك أثقل على فاعله . وقرأ الباقون بالتشديد من غير ألف ، وهو كالذى قبله . معناه يتكلف مالا يطيق شيئا بعد شىء ؛ كقولك : يتجرّع و يتفوّق[3] . وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ «كأنمـا يتَصَعَّد» . قال النحاس : ومعنى هذه القراءة وقراءة من قرأ يَصّعد و يصّاعد واحد . والمعنى فيهما أن الكافر من ضـيق صدره كأنه يريد أن يصعد إلى السماء وهــو لا يقدِر على ذلك ؛

---

(١) أراد بالرحالة الخشب الذى يحمل عليه فى مرضه . وأراد بالأكفان ثيابه التى عليه ؛ لأنه قدر أنها ثيابه التى يدفن فيها . وخفقتها ضرب الريح لهـا . وأراد بجابر جابر بن حُنَىّ التغلبى ، وكان معــه فى بلاد الروم ، فلما اشتدت علته صنع له من الخشب شيئا كالقَرّ يحمل فيه ، والقر : مركب من مراكب الرجال بين الرحل والسرج . (عن اللسان مادة حرج) .

(٢) وصف نعامة يتبعها رئالهـا وهو يبسط جناحيه و يجعلها تحته .

(٣) تفوق شرابه : شربه شيئا بعد شىء .

فكأنه يستدعى ذلك . وقيل : المعنى كاد قلبه يصعد إلى السماء نبوًّا عن الإسلام . ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ ﴾ عليهم؛ بجعله ضيق الصدر فى أجسادهم . وأصل الرِّجس فى اللغة النتن . قال ابن زيد : هو العذاب . وقال ابن عباس : [الرِّجس هو](١) الشيطان؛ أى يسلطه عليهم . وقال مجاهد : الرِّجس ما لا خير فيه . وكذلك الرجس عند أهل اللغة هو النتن . فمعنى الآية والله أعلم : ويجعل اللعنة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ﴿ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾ أى هذا الذى أنت عليه يا محمد والمؤمنون دين ربك لا اعوجاج فيه . ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ ﴾ أى بيناها ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ ﴾ أى للمتذكرين . ﴿ دَارُ السَّلَامِ ﴾ أى الجنة، فالجنة دار الله؛ كما يقال : الكعبة بيت الله . ويجوز أن يكون المعنى دار السلامة، أى التى يسلم فيها من الآفات . ومعنى ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أى مضمونة لهم عنده يوصلهم إليها بفضله . ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ ﴾ أى ناصرهم ومعينهم .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾

(١) من ج، ز، ك .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾(١) نصب على الفعل المحذوف، أى ويوم نحشرهم نقول . ﴿ جَمِيعًا ﴾ نصب على الحال . والمراد حشر جميع الخلق فى موقف القيامة . ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ ﴾ نداء مضاف . ﴿ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ أى من الاستمتاع بالإنس؛ فحذف المصدر المضاف إلى المفعول، وحرف الجر؛ يدل على ذلك قوله : ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ وهذا يردّ قول من قال : إن الجن هم الذين استمتعوا من الإنس؛ لأن الإنس قبلوا منهم . والصحيح أن كل واحد مستمتع بصاحبه . والتقدير فى العربية : استمتع بعضنا بعضا ؛ فاستمتاع الجن من الإنس أنهم تلذّذوا بطاعة الإنس إياهم، وتلذّذ الإنس بقبولهم من الجن حتى زنَوْا وشربوا الخمور بإغواء الجن إياهم(٢) . وقيل : كان الرجل إذا مرّ بوادٍ فى سفره وخاف على نفسه قال : أعوذ برب هـذا الوادى من جميع ما أحذر . وفى التنزيل « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا »(٣) . فهذا استمتاع الإنس بالجنّ . وأما استمتاع الجنّ بالإنس فما كانوا يُلقون إليهم من الأراجيف والكهانة والسِّحر . وقيل : استمتاع الجن بالإنس أنهم يعترفون أن الجنّ يقدرون أن يدفعوا عنهم ما يحذرون . ومعنى الآية تقريع الضالين والمضلين وتوبيخهم فى الآخرة على أعين العالمين . ﴿ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ يعنى الموت والقبر، ووافينا نادمين . ﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ ﴾ أى موضع مقامكم . والمَثْوى المُقام . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ استثناء ليس من الأوّل . قال الزجاج : يرجع إلى يوم القيامة، أى خالدين فى النار إلا ماشاء الله من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدتهم فى الحساب؛ فالاستثناء منقطع . وقيل : يرجع الاستثناء إلى النـار، أى إلا ماشاء الله من تعـذيبكم بغير النـار فى بعض الأوقات . وقال ابن عباس : الاستثناء لأهل الإيمـان . فـ«ما» على هذا بمعنى مَن . وعنه أيضا أنه قال : هذه الآية توجب الوقف فى جميع الكفار . ومعنى ذلك أنها توجب الوقف فيمن لم يمت، إذ قد يُسلم . وقيل : «إلا ماشاء الله» من كونهم فى الدنيا بغير عذاب . ومعنى هذه الآية معنى الاية التى فى «هود»(٤) . قوله : «فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ» وهناك يأتى مستوفًى إن شاء الله . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ أى فى عقوبتهم وفى جميع أفعاله ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمقدار مجازاتهم .

(١) نحشرهم بالنون قراءة نافع كما فى الأصول .
(٢) فى ك : بزعم .
(٣) راجع جـ ١٩ ص ٨ .
(٤) راجع جـ ٩ ص ٩٩ .

Marfat.com

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ﴾ المعنى وكما فعلنا بهؤلاء مما وصفناه لكم من آستمتاع بعضهم ببعض أجعل بعض الظالمين أولياء بعض، ثم يتبرأ بعضهم من بعض غدًا . ومعنى « نُوَلِّي » على هذا نجعل وليًّا . قال ابن زيد : نسلّط ظلمة الجنّ على ظلمة الإنس . وعنه أيضا : نسلّط بعض الظلمة على بعض فيهلكه ويذلّه . وهذا تهديد للظالم إن لم يمتنع من ظلمه سلّط الله عليه ظالمـا آخر . ويدخل في الآية جميعُ من يظلم [نفسه][1] أو يظلم الرعية ، أو التاجر يظلم الناس في تجارته أو السارق وغيرهم . وقال فُضيل بن عِياض : إذا رأيت ظالمـا ينتقم من ظالم فقِف، وآنظر فيه متعجِّبًا . وقال آبن عباس : إذا رضى الله عن قوم ولّى أمرهم خيارَهم، وإذا سخِط الله على قوم ولّى أمرهم شرارهم . وفي الخبر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من أعان ظالمـا سلّطه الله عليه " . وقيل : المعنى نَكِل بعضهم إلى بعض فيما يختارونه من الكفر، كما نَكِلهم غدًا إلى رؤسائهم الذين لا يقدرون على تخليصهم من العذاب . أى كما نفعل بهم ذلك في الآخرة كذلك نفعل بهم في الدنيا . وقد قيل في قوله تعالى « نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ »[2] : نَكِله إلى ما وَكَل إليـه نفسه . قال ابن عباس : تفسيرها هو أن الله إذا أراد بقوم شرًّا[3] وَلَّى أمرَهم شرارَهم . يدل عليه قوله تعالى : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ »[4] .

قوله تعالى : يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ أى يوم نحشرهم نقول [لهم][5] ألم يأتكم رسل، فحذف؛ فيعترفون بما فيه افتضاحهم . ومعنى « منكم » في الخلق والتكليف والمخاطبة .

(١) من ك .	(٢) راجع جـ ٥ ص ٣٨٥ .	(٣) في ك : سوءا .
(٤) راجع جـ ١٦ ص ٣٠ .	(٥) من ك .

Marfat.com

ولما كانت الجن ممن يُخاطب ويعقل قال : « منكم » وإن كانت الرسل من الإنس وغلّب الإنس فى الخطاب كما يُغلّب المذكر على المؤنث . وقال ابن عباس : رسل الجن هم الذين بلّغوا قومَهم ماسمعوه من الوحى؛ كما قال : « وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ[1] » . وقال مُقاتِل والضّحاك : أرسل الله رسلا من الجن كما أرسل من الإنس . وقال مجاهد : الرسل من الإنس ، والنُّذُر من الجن؛ ثم قرأ « إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ[1] » . وهو معنى قولِ ابن عباس ، وهو الصحيح على ما يأتى بيانه فى « الأحقاف[1] » . وقال الكلبيّ[2] : كانت الرســل قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم يُبعثون إلى الإنس والجن جميعا .

قلت : وهذا لا يصحّ ، بل فى صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله الأنصاريّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعطيتُ خمسا لم يُعطهُنّ نبيّ قبلى كان كلّ نبيّ يُبعث إلى قومه خاصّةً وبُعثتُ إلى كل أحمرَ وأسوَد " الحديث . على ما يأتى بيانه فى « الأحقاف[1] » . وقال ابن عباس : كانت الرسل تُبعث إلى الإنس وإن محمدا صلى الله عليه وسلم بُعث إلى الجن والإنس؛ ذكره أبو الليث السَّمَرْقَنديّ . وقيــل : كان قوم من الجن آستمعوا إلى الأنبيــاء ثم عادوا إلى قومهم وأخبروهم؛ كالحال مع نبينا عليه السلام . فيقال لهم رســل الله ، وإن لم يُنَصّ على إرسـالهم . وفى التنزيل : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ[3] » أى من أحدهما ، وإنمـا يخرج من المِلح دون العَذْب ، فكذلك الرسل من الإنس دون الجن؛ فمعنى « منكم » أى من أحدكم . وكان هــذا جائزا ؛ لأن ذكرهما سبق . وقيل : إنمـا صيّر الرسل فى مخرج اللفظ من الجميع لأن الثَّقَلين قد ضمّتهما عَرْصة القيامة ، والحساب عليهم دون الخــلق ؛ فلما صاروا فى تلك العَرْصــة فى حساب واحد فى شأن الثــواب والعقاب خوطبوا يومئذ بمخاطبة واحدة كأنهم جماعة واحدة؛ لأن بدء خلقهم للعبودية ، والثوابُ والعقاب على العبودية ، ولأن الجن أصلهم من مارج من نار ، وأصلنا من تراب؛ وخلقهم غير خلقنا؛ فمنهم مؤمن وكافر .

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢١٠ . (٢) فى ك : قال مقاتل : وهو معنى الخ .
(٣) راجع جـ ١٧ ص ١٦١ .

Marfat.com

وعدوّنا إبليس عدوّ لهم، يعادى مؤمنهم و يُوالى كافرهم . وفيهم أهواء : شيعةٌ وقدريّة ومُرجئة يتلون كتابنا . وقد وصف الله عنهم فى سورة « الجن » من قوله : وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ » . « وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١) » على ما يأتى بيانه هناك . ﴿ يَقُصُّونَ ﴾ فى موضع رفع نعت لرسل . ﴿ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾ أى شهدنا أنهم بلّغوا . ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ قيل : هذا خطاب من الله للؤمنين؛ أى أن هؤلاء قد غرّتهم الحياة الدنيا، أى خدعتهم وظنّوا أنها تدوم، وخافوا زوالها عنهم إن آمنوا . ﴿ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى آعترفوا بكفرهم . قال مُقاتل : هذا حين شهدت عليهم الجوارح بالشرك [و بما كانوا يعملون (٢)] .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ﴾ فى موضع رفع عند سيبو يه؛ أى الأمر ذلك . و « أنْ » مخفّفة من الثقيلة؛ أى إنما فعلنا هذا بهم لأنى لم أكن أهلك القرى بظلمهم؛ أى بشركهم قبل إرسال الرسل إليهم فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير . وقيل : لم أكن أهلك القرى بشرك من أشرك منهم؛ فهو مثل : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣) » . ولو أهلكهم قبل بعثة الرسل فله أن يفعل ما يريد . وقد قال عيسى : « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ (٤) » وقد تقدّم . وأجاز الفراء أن يكون « ذلك » فى موضع نصب، المعنى : فعل ذلك بهم؛ لأنه لم يكن يهلك القرى بظلم .

قوله تعالى : وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ أى من الجن والإنس؛ كما قال فى آية أخرى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ » ثم قال : « وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥) » . وفى هذا ما يدل على أن المطيع من الجن فى الجنة، والعاصى منهم فى النار؛ كالإنس سواء . وهو أصح

(١) راجع جـ ١٩ ص ١٤ . (٢) من ك . (٣) راجع جـ ٧ ص ١٥٧ .
(٤) راجع جـ ٦ ص ٣٧٧ . (٥) راجع جـ ١٦ ص ١٩٦ .

Marfat.com

ما قيـل فى ذلك فاعلمـه . ومعـنى « ولِكلٍّ درجاتٌ » أى ولكل عامل بطـاعة درجاتٌ فى الثـواب . ولكلّ عاملٍ بمعصية دركاتٌ فى العقاب . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ ﴾ أى ليس بلاهٍ ولا ساهٍ . والغفلة أن يذهب الشيء عنك لاشتغالك بغيره . ﴿ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ قرأه ابن عامر بالتاء، الباقون بالياء .

قوله تعـالى : وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ﴾ أى عن خلقه وعن أعمالهم . ﴿ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ أى بأوليائه وأهل طاعته . ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ بالإماتة والاستئصال بالعذاب . ﴿ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ ﴾ أى خلقا آخر أمثل منكم وأطوع . ﴿ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ والكاف فى موضـع نصب ، أى يستخلف من بعـدكم ما يشاء استخلافا مثـل ما أنشأكم ، ونظيره « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ »(١) . « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ »(٢) . فالمعنى يبدّل غيركم مكانكم، كما تقول : أعطيتك من دينارك ثوبا .

قوله تعـالى : إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾ يحتمل أن يكون من « أوعدت » فى الشرّ، والمصدر الإيعاد . والمراد عذاب الآخرة . ويحتمل أن يكون من « وعدت » على أن يكون المـراد الساعة التى فى مجيئها الخير والشر فغلّب الخير . روى معناه عن الحسن . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى فائتين؛ يقال : أعجزنى فلان، أى فاتنى وغلبنى .

قوله تعـالى : قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٤٠٩ . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٥٧ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَاقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ وقرأ أبو بكر بالجمع « مكاناتكم » . والمكانة الطريقة . والمعنى : ٱثبتوا على ما أنتم عليه فأنا أثبت على ما أنا عليه . فإن قيل : كيف يجوز أن يؤمروا بالثبات على ما هم عليه وهم كفار . فالجواب أن هذا تهديد ؛ كما قال عز وجل : « فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا »(١) . ودلّ عليه « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ » أى العاقبة المحمودة التى يحمد صاحبها عليها ، أى من له النصر فى دار الإسلام ، ومن له وراثة الأرض ، ومن له الدار الآخرة ، أى الجنة . قال الزجاج : « مكانتكم » تمكّنكم فى الدنيا . ٱبن عباس والحسن والنخعى : على ناحيتكم . القُتَبى : على موضعكم . ﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ على مكانتى ، فحذف لدلالة الحال عليه . « ومَنْ » من قوله « مَنْ تكونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ » فى موضع نصب بمعنى الذى ؛ لوقوع العلم عليه . ويجوز أن تكون فى موضع رفع ؛ لأن الآستفهام لا يعمل فيه ما قبله فيكون الفعل معلقا . أى تعلمون أيّنا تكون له عاقبة الدّار ؛ كقوله : « لِنَعْلَمَ أَىُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصَى »(٢) وقرأ حمزة والكسائى « من يكون » باليـاء .

قوله تعـالى : وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ فيه مسألة واحدة .

ويقال : ذرأ يذرأ ذرءا ، أى خلق . وفى الكلام حذف وٱختصار(٣) ، وهو وجعلوا لأصنامهم نصيبا ؛ دلّ عليه ما بعده . وكان هذا مما زيّنه الشيطان وسوّله لهم ، [حتى](٤) صرفوا من مالهم طائفة إلى الله بزعمهم وطائفة إلى أصنامهم ؛ قاله ٱبن عباس والحسن ومجاهد وقتادة . والمعنى متقارب . جعلوا لله جزءا ولشركائهم جزءا ، فإذا ذهب ما لشركائهم بالإنفاق عليها وعلى سدنتها عوّضوا منه ما لله ، وإذا ذهب ما لله بالإنفاق على الضِّيفان والمساكين لم يعوّضوا منه شيئا ، وقالوا :

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٢١٦ .	(٢) راجع جـ ١٠ ص ٦٤	(٣) فى ك : إضمار .	(٤) من ك .

Marfat.com

الله مُستغن عنه وشركاؤنا فقراء . وكان هذا من جهالاتهم و بزعمهم . والزعم الكذب . قال شُريح القاضى : إن لكل شيء كُنْية وكُنْيةُ الكذب زعموا . وكانوا يكذبون فى هذه الأشياء لأنه لم ينزل بذلك شرع . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : من أراد أن يعلم جهل العرب فليقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام إلى قوله : « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » . قال ابن العربى : وهذا الذى قاله كلام صحيح ، فإنها تصرفت بعقولها العاجزة فى تنويع الحلال والحرام سفاهةً بغير معرفة ولا عدل ، والذى تصرّفت بالجهل فيه من اتخاذ الآلهة أعظمُ جهلا وأكبرُ جُرْما ؛ فإن الاعتداء على الله تعالى أعظمُ من الاعتداء على المخلوقات . والدليـل فى أن الله واحد فى ذاته واحد فى صفاته واحد فى مخلوقاته أبينُ وأوضحُ من الدليل على أن هذا حلال وهذا حرام . وقد رُوى أن رجلا قال لعمرو بن العاص : إنكم على كمال عقولكم ووفور أحلامكم عبدتم الحجر ! فقال عمرو : تلك عقول كادها باريها . فهذا الذى أخبر الله سبحانه من سخافة العرب وجهلها أمر أذهبه الإسلام ، وأبطله الله ببعثه الرسول عليه السلام . فكان من الظاهر لنـا أن نميته حتى لا يَظهر ، وننساه حتى لا يُذكر ؛ إلا أن ربنا تبارك وتعالى ذكره بنصه وأورده بشرحه ، كما ذكر كفر الكافرين به . وكانت الحكمة فى ذلك — والله أعلم — أن قضاءه قد سبق ، وحكمه قد نفذ بأن الكفر والتخليط لا ينقطعان إلى يوم القيامة . وقرأ يحيى بن وثاب والسُّلَمى والأعمش والكسائى « بزُعمهم » بضمه الزاى . والباقون بفتحها ، وهما لغتان . ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى إلى المساكين . ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى ساء الحُكْمُ حكمهم . قال ابن زيد : كانوا إذا ذبحوا ما لله ذكروا عليه اسم الأوثان ، وإذا ذبحوا ما لأوثانهم لم يذكروا عليه اسم الله ، فهذا معنى « فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ » . فكان تركهم لذكر الله مذموما منهم وكان داخلا فى ترك أكل مالم يذكر اسمُ الله عليه .

قوله تعـالى : وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ المعنى : فكما زَيّن لهؤلاء أن جعلوا لله نصيبا ولأصنامهم نصيبا كذلك زَيّن لكثير من المشركين قَتلَ أولادِهم شركاؤُهم . قال مجاهد وغيره : زيّنت لهم قتل البنات مخافة العَيْلَة . قال الفراء والزجاج : شركاؤهم ها هنا هم الذين كانوا يخدُمون الأوثان . وقيل : هم الغُوَاة من الناس . وقيل : هم الشياطين . وأشار بهذا إلى الوَأد الخفيّ(١) وهو دفن البنت حية مخافة السِّبَاء والحاجة، وعدمِ ما حُرِمْن من النصرة . وسمّى الشياطين شركاء لأنهم أطاعوهم في معصية الله فأشركوهم مع الله في وجوب طاعتهم . وقيل : كان الرجل في الجاهلية يحلف بالله لئن وُلِد له كذا وكذا غلاما لينحرَنّ أحدهم ؛ كما فعله عبد المطلب حين نذر ذبح ولده عبد الله . ثم قيل : في الآية أربع قراءات ، أصحها قراءة الجمهور : «وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ» وهذه قراءة أهل الحرمين وأهل الكوفة وأهل البصرة . «شركاؤهم» رفع بـ«زين» ؛ لأنهم زَيّنوا ولم يقتلوا . «قَتْل» نصب بـ«زين» و «أولادهم» مضاف إلى المفعول ، والأصل في المصدر أن يضاف إلى الفاعل ؛ لأنه أحدثه ولأنه لا يستغني عنه ويستغني عن المفعول؛ فهو هنا مضاف إلى المفعول لفظا مضافٌ إلى الفاعل معنًى ؛ لأن التقدير زَيّن لكثير من المشركين قتلهم أولادهم شركاؤهم ، ثم حذف المضاف وهو الفاعل كما حذف من قوله تعالى : «لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ»(٢) أي من دعائه الخير. فالهاء فاعلة الدعاء ، أي لا يسأم الإنسان من أن يدعو بالخير . وكذا قوله : زيّن لكثير من المشركين في أن يقتلوا أولادهم شركاؤهم . قال مكيّ : وهذه القراءة هي الاختيار؛ لصحة الإعراب فيها ولأن عليها الجماعة . القراءة الثانية «زُيّن»(بضم الزاى) . «لكثير من المشركين قتلُ»(بالرفع) . «أولادِهم» بالخفض . «شركاؤهم» (بالرفع) قراءة الحسن . ابنُ عامر وأهل الشام «زُيِّنَ» بضم الزاى «لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم برفع «قتل» ونصب «أولادهم» . «شركائهم» بالخفض فيما حكى أبو عبيد ؛ وحكى غيره عن أهل الشام أنهم قرءوا «وكذلك زُيِّنَ» بضم الزاى «لكثير من المشركين قتلُ»

(١) كذا في كل الأصول ، والمعروف أن الوأد الخفي هو العزل كما صح في الحديث .
(٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٧٢ .

Marfat.com

بالرفع « أولادِهم » بالخفض « شركائهـم » بالخفض أيضا . فالقراءة الثـانية قراءة الحسن جائزة ، يكون «قتل» اسم ما لم يُسم فاعله ، «شركاؤهم» ، رفع بإضمار فعل يدل عليه «زَيّنَ» ، أى زيّنه شركاؤهم . و يجوز على هذا ضُرِب زيدٌ عمرُو ، بمعنى ضربه عمرو ، وأنشد سيبويه :

* لِيُبْكَ يَزِيدُ ضارعٌ لخصومةٍ *

أى يبكيه ضارع . وقرأ ابن عامر وعاصم من رواية أبى بكر « يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ »[1] التقدير يسبحه رجال . وقرأ إبراهيم بن أبى عَبْلة « قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارُ ذَاتُ الْوَقُودِ »[2] بمعنى قتلهم النار . قال النحاس : وأما ما حكاه أبو عبيد عن ابن عامر وأهل الشام فلا يجوز فى كلام ولا فى شعر ، و إنمّـا أجاز النحويون التفريق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف لأنه لا يَفصل ، فأما بالأسماء غير الظروف فلَحْنٌ . قال مكّىّ : وهــذه القراءة فيها ضعف للتفريق[3] بين المضاف والمضاف إليه ؛ لأنه إنمـا يجوز مثل هــذا التفريق فى الشعر مع الظروف لاتساعهم فيها وهو فى المفعول به فى الشعر بعيــد ، فإجازته فى القراءة[4] أبعــد . وقال المهدوىّ : قراءة ابن عامر هذه على التفرقة بين المضاف والمضاف إليــه ، ومثله قول الشــاعر :

فــزَجَجْتُهـا بمِزَجَّــة * زَجَّ القَلوصَ أبى مَزادة[5]

يريد : زجّ أبى مزادة القَلوصَ . وأنشد :

تَمُـرّ على ما تستمر وقــد شفت * غلائلَ عبدُ القيس منها صُدُورِها

يريد شفت عبدُ القيس غلائل صدورها . وقال أبو غانم أحمــد بن حمدان النحوى : قراءة ابن عامر لا تجوز فى العربية ؛ وهى زلّة عالم ، وإذا زل العالم لم يجز اتباعه ، ورُدّ قوله إلى الإجماع ، وكذلك يجب أن يُرَدّ من زلّ منهم أو سها إلى الإجمـاع ؛ فهو أولى من الإصرار

(١) راجع ج ١٢ ص ٢٦٤ . (٢) راجع ج ١٩ ص ٢٨٤ . (٣) فى ك : لأنه لا يفصل بين المضاف والمضاف إليه . (٤) فى ك ، ز : القرآن . (٥) ذكر الأخفش هذا البيت ولم يعزه إلى أحد . والزج ها هنا الطعن ، والمزجة بكسر الميم : رمح قصير كالمزاريق . والقلوص بفتح القاف : الفتية من النوق . يخبر أنه زج امرأته بالمزجة كما زج أبو مزادة القلوص . وأبو مزادة كنية رجل . راجع شرح الشواهد الكبرى للعينى فى باب الإضافة .

Marfat.com

على غير الصواب . وإنما أجازوا فى الضرورة للشاعر أن يفرق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف ؛ لأنه لا يفصل . كما قال :

كما خُـطَّ الكتاب بكفِّ يومًا * يَهــودِىٍّ يُقارِبُ أو يُزِيـلُ (١)

وقال آخر :

كأنّ أصواتَ مِن إيغالهن بنـا * أواخرِ المَيْسِ أصواتُ الفَرارِيج (٢)

وقال آخر :

لمّـا رأت سَاتيـدَما ٱستعبَرَتْ * للهِ دَرُّ اليــومَ مَنْ لَامَها (٣)

وقال القشيرى : وقال قوم هذا قبيح، وهـذا محال ، لأنه إذا ثبتت [القراءة] (٤) بالتواتر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فهو الفصيح لا القبيح . وقد ورد ذلك فى كلام العرب وفى مصحف عثمان « شركائهــم » بالياء وهذا يدل على قراءة ابن عامر . وأضيف القتل فى هـذه القراءة إلى الشركاء ؛ لأن الشركاء هم الذين زيّنوا ذلك ودَعَوْا إليــه ؛ فالفعل مضاف إلى فاعله على ما يجب فى الأصل ، لكنه فرق بين المضاف والمضاف إليه ، وقدّم المفعول وتركه منصوبا على حاله ؛ إذْ كان متأخرا فى المعنى، وأخر المضاف وتركه مخفوضا على حاله ؛ إذْ كان متقدّما بعد القتل . والتقدير : وكذلك زُيّن لكثير من المشركين قَتْلُ شركائهم أولادَهم . أى أنْ قتلَ شركاؤهم أولادَهم . قال النحاس : فأما ما حكاه غير أبى عبيــد (وهى القراءة الرابعة) فهو جائز . على أن تبدل شركاءهم من أولادهم ؛ لأنهم شركاؤهم فى النسب والميراث . ﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾

(١) البيت لأبى حية النميرى . والشاهد فيه إضافة الكف إلى اليهودى مع الفصل بالظرف . وصف رسوم الدار فشبهها بالكتاب فى دقتها والاستدلال بها ، وخص اليهود لأنهم أهل كتاب . وجعــل كتابته بعضها متقارب وبعضها مفترق متباين لاقتضاء آثار الديار تلك الصفة والحال . (عن شرح الشواهد) .

(٢) البيت لذى الرمة . والشاهد فيــه إضافة الأصوات إلى أواخر الميس مع فصله بالمجرور ضرورة . والميس : شجر تعمل منه الرحال . والإيغال : سرعة السير . يقول : كأن أصوات أواخر الميس من شدة سير الإبل بنا واضطراب رحالها عليها أصوات الفراريج (عن شرح الشواهد) .

(٣) البيت لعمرو بن قميئة . والشاهد فيــه إضافة الدر إلى من مع جواز الفصل بالظارف ضرورة إذ لم يمكنه إضافة الدر إليه . وصف امرأة نظرت إلى « ساتيدما » وهو جبل بعينه بعيد من ديارها ؛ فذكرت به بلادها فاستعبرت شوقا إليها (عن شرح الشواهد للشنتمرى) .

(٤) من ك .

Marfat.com

اللام لام كي . والإرداء الإهلاك . ﴿ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ الذى ٱرتضى لهم . أى يأمرونهم بالباطل ويشككونهم فى دينهم . وكانوا على دين إسماعيل ، وما كان فيـه[1] قتل الولد ؛ فيصير الحق مغطّى عليه ؛ فبهـذا يلبسون . ﴿ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ بيّن [تعـالى[1]] أن كفرهم بمشيئة الله . وهو ردّ على القدرية . ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ يريد قولهم إن لله شركاء .

قوله تعـالى : وَقَالُوا هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾

ذكر [تعـالى[1]] نوعا آخر من جهالتهم . وقرأ أبان بن عثمان « حُجُر » بضم الحاء والجيم . وقرأ الحسن وقتادة « حَجْر » بفتح الحـاء وإسكان الجيم ، لغتان بمعنًى . وعن الحسن أيضا « حُجْر » بضم الحاء . قال أبو عبيد عن هارون قال : كان الحسن يضم الحـاء فى « حِجر » فى جميع القرآن إلا فى قوله : « بَرْزَخًا وَحِجْـرًا مَحْجُورًا[2] » فإنه كان يكسرها هاهنا . ورُوى عن ٱبن عباس وٱبن الزبير « وَحَرْثٌ حِرْج » الراء قبل الجيم ؛ وكذا فى مصحف أُبَيّ ؛ وفيه قولان : أحدهما أنه مثل جبَذ وجذب . والقول الآخر ـــ وهو أصح ـــ أنه من الحِرج ؛ فإن الحِرج (بكسر الحاء) لغة فى الحَرَج (بفتح الحاء) وهو الضيق والإثم ؛ فيكون معناه الحرام . ومنـه فلان يتحرّج أى يضيق على نفسه الدخولَ فيما يشتبه عليـه من الحرام . والحِجر : لفظ مشترك . وهو هنا بمعنى الحرام ، وأصله المنع . وسُمِّيَ العقل حجرا لمنعه عن القبائح . وفلان فى حِجْـر القاضى أى منعه . حجـرت على الصبيّ حَجْـرًا . والحِجر العقل ؛ قال الله تعـالى : « هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ[3] » والحِجر الفرس الأنثى . والحِجر القرابة . قال :

يريدون أن يُقصُـوه عنّى و إنه * لَذُو حَسَبٍ دانٍ إلىّ وذو حِجْرِ

وحِجـر الإنسان وحَجره لغتان ، والفتح أكثر . أى حرّموا أنعاما وحَرْثًا وجعلوها لأصـنامهم وقالوا : ﴿ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ ﴾ وهم خدّام الأصـنام . ثم بيّن أن هـذا تحكّم لم يَرِد به

(١) فى ك : فيهم . (٢) راجع ج ١٣ ص ٥٨ . (٣) راجع ج ٢٠ ص ٤٢ .

Marfat.com

شرع؛ ولهذا قال : « بِزَعْمِهِمْ » . ﴿ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ يريد ما يسيّبونه لآلهتهم على ماتقدّم من النصيب . وقال مجاهد : المراد البَحِيرة والوصِيلة والحام (١) . ﴿ وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ يعنى ما ذبحوه لآلهتهـم . قال أبو وائل : لا يحجّون عليهـا . ﴿ ٱفْتِرَاءً ﴾ أى للافتراء ﴿ عَلَى ٱللَّهِ ﴾؛ لأنهم كانوا يقولون : الله أمرنا بهذا . فهو نصبٌ على المفعول له . وقيل : أى يفترون ٱفتراء ، وانتصابه لكونه مصدرا .

قوله تعـالى : وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩)

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾ هـذا نوع آخر من جهلهم . قال ابن عباس : هو اللبن ، جعلوه حلالا للذكور وحراما على الإناث . وقيـل : الأجنّة؛ قالوا : إنها لذكورنا . ثم إنْ مات منها شيء أكله الرجال والنساء . والهاء فى «خالصة» للمبالغة فى الخلوص ؛ ومثله رجل علامة ونسابة ؛ عن الكِسائىّ والأخفش . و « خالصةٌ » بالرفع خبر المبتدإ الذى هو « ما » . وقال الفراء : تأنيثها لتأنيث الأنعام . وهذا القول عند قوم خطأ؛ لأن ما فى بطونها ليس منهـا؛ فلا يشبه [قوله] (٢) « يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » (٣) لأن بعض السَّيارة سَيّارة، وهذا لا يلزم [قال] (٢) الفراء : فإن ما فى بطون الأنعام أنعام مثلها، فأنّث لتأنيثها، أى الأنعام التى فى بطون الأنعام خالصة لذكورنا . وقيل : أى جماعة ما فى البطون . وقيل : إن « ما » ترجع إلى الألبان أو الأجنّة ؛ فجاء التأنيث على المعنى والتذكير على اللفظ .

---

(١) البحيرة : الناقة التى نتجت خمسة أبطن ، وكان آخرها ذكرا بحروا أذنها (أى شقوها) وأعفوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح ؛ ولا تجلى (تطرد) عن ماء ترده ، ولا تمنع من مرعى ، وإذا لقيها المُعيي المنقطع به لم يركبها .

والوصيلة ، الناقة : التى وصلت بين عشرة أبطن . ومن الشاه التى وصلت سبعة أبطن ، عناقين ، فإن ولدت فى السابعة عناقا وجديا قيل : وصلت أخاها ؛ فلا يشرب لبن الأم إلا الرجال دون النساء .

والحامى : الفحل من الإبل يضرب الضراب المعدود ، قيل عشرة أبطن ؛ فإذا بلغ ذلك قالوا : هذا حام . أى حمى ظهره فيترك ، فلا ينتفع منه بشىء ولا يمنع من ماء ولا مرعى . راجع جـ ٦ ص ٣٣٥ فا بعدها .

(٢) من ك . (٣) راجع جـ ٩ ص ١٣٣ .

Marfat.com

ولهذا قال : « وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا » على اللفظ . ولو راعى المعنى لقال ومحرّمة . و يَعْضُد هذا قراءةُ الأعمش « خالِص » بغير هاء . قال الكسائى : معنى خالص وخالصة واحد، إلا أن الهاء للبالغة، كما يقال : رجل داهية وعلامة؛ كما تقدّم . وقرأ قَتادة « خالِصةً » بالنصب على الحال من الضمير فى الظرف الذى هو صـلة لـ « ما » . وخبر المبتدأ محذوف ، كقولك : الذى فى الدار قائما زيد . هذا مذهب البصريين . وآنتصب عند الفرّاء على القطع . وكذا القول فى قراءة سعيد بن جبير « خالِصًا » . وقرأ ابن عباس « خالِصةُ » على الإضافة فيكون ابتداء ثانيا، والخبر « لذكورنا » والجملة خبر « ما » . ويجوز أن يكون « خالِصه » بدلا من « ما » . فهذه خمس قراءات . ﴿ وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا ﴾ أى بناتنا؛ عن آبن زيد . وغيره : نساؤهم . ﴿ وإِنْ يَكُنْ مَيْتَـةً ﴾ قرئ[1] باليـاء والتاء ؛ أى إن يكن ما فى بطون الأنعام ميتة ﴿ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ﴾ أى الرجال والنساء . وقال « فيه » لأن المراد بالميتة الحيوان، وهى تقوّى قراءة الياء، ولم يقل فيها . « مَيْتَةٌ » بالرفع بمعنى تقع أو تحدث . « ميتةً » بالنصب؛ أى وإن تكن النَّسمة ميتة . ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أى كذبهم وآفتراءهم ؛ أى يعذبهـم على ذلك . وانتصب « وَصْفَهُمْ » بنزع الخافض؛ أى بوصفهم . وفى الآية دليل على أن العالم ينبغى له أن يتعلّم قول من خالفه و إن لم يأخذ به ، حتى يعرف فساد قوله ، و يعلم كيف يردّ عليه؛ لأن الله تعالى أعلم النبيّ صلى الله عليـه وسلم وأصحابه قول من خالفهم من [أهل[2]] زمانهم ؛ ليعرفوا فساد قولهم .

قوله تعـالى : قَـدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا أَوْلَـٰدَهُمْ سَـفَهًۢا بِغَـيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

أخبر بخسرانهم لِوَأْدِهم البنات وتحريمهم البَحِيرة وغيرها بعقولهم؛ فقتلوا أولادهم سَفَهًا خوف الإملاق، وحجروا على أنفسهم فى أموالهم ولم يخشَوا الإملاق؛ فأبان ذلك عن تناقض رأيهم .

قلت : إنه كان من العرب من يقتل ولده خَشْية الإملاق؛ كما ذكر الله عز وجل فى غير هـذا الموضع . وكان منهم من يقتله سَفَهًا بغير حجة منهم فى قتلهم؛ وهم ربيعة ومُضَر، كانوا

(١) من ك . (٢) من ك و ع .

Marfat.com

يقتلون بناتهم لأجل الحَمِيّة . ومنهم من يقول : الملائكة بنات الله ؛ فألحقوا البنات بالبنات . ورُوِى أن رجلا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم كان لا يزال مغتما بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مالك تكون محزونا" ؟ فقال : يارسول الله ، إنى أذنبت ذنبا فى الجاهلية فأخاف ألّا يغفره الله [لى] (١) و إن أسلمت ! فقال له : "أخبرنى عن ذنبك" . فقال : يارسول الله ، إنى كنت من الذين يقتلون بناتهم ، فوُلِدَت لى بنت فتشفّعتْ إلىّ امرأتى أن أتركها فتركتها حتى كبِرتْ وأدركتْ ، وصارت من أجمل النساء فخطبوها ؛ فدخلتنى الحَمِيّة ولم يحتمل قلبى أن أزوجها أو أتركها فى البيت بغير زوج ، فقلت للمرأة : إنى أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا فى زيارة أقربائى فآبعثيها معى ، فسُرّت بذلك وزينتها بالثياب والحُلِىّ ، وأخذت علىّ المواثيق بألّا أخونها ، فذهبتُ بها إلى رأس بئر فنظرت فى البئر ففطنت الجارية أنى أريد أن ألقيها فى البئر ؛ فالتزمتنى وجعلت تبكى وتقول : يا أبت ! أيْش (٢) تريد أن تفعل بى ! فرحمتها ، ثم نظرتُ فى البئر فدخلت علىّ الحمية ، ثم التزمتنى وجعلت تقول : يا أبت لا تضيّع أمانة أمّى ؛ فجعلتُ مرةً أنظر فى البئر ومرّة أنظر إليها فأرحمها ، حتى غلبنى الشيطان فأخذتها وألقيتها فى البئر منكوسةً ، وهى تنادى فى البئر : يا أبت ، قتلتنى . فمكثتُ (٣) هناك حتى آنقطع صوتُها فرجعتُ . فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقال : " لو أُمِرْتُ أن أعاقب أحدا بما فعل فى الجاهلية لعاقبتك "

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٤١)

(١) من ب . (٢) فى ك : أى شىء . (٣) فى ب : فكنت .

فيه ثلاث وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿أَنْشَأَ﴾ أى خلق . ﴿جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾ أى بساتين ممسوكات[1] مرفوعات . ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ غير مرفوعات . قال آبن عباس : «مَعْرُوشَاتٍ» ما آنبسط على الأرض مما يَفْرِشُ مثل الكروم والزروع والبَطِّيخ . «وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ» ما قام على ساق مثل النخل وسائر الأشجار . وقيل : المعروشات ما آرتفعت أشجارها . وأصل التعريش الرفع . وعن آبن عباس أيضا : المعروشات ما أثبته ورفعه الناس . وغير المعروشات ما خرج فى البرارى والجبال من الثمـار . يدل عليه قراءة علىّ رضى الله عنه «مَغْرُوسَاتٍ وَغَيْرَ مَغْرُوسَاتٍ» بالغين المعجمة والسين المهملة .

الثانيـة — قوله تعـالى : ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ﴾ أفردهما بالذكر وهما داخلان فى الجنات لمـا فيهما من الفضيلة؛ على ماتقدم بيانه فى «البقرة» عند قوله : «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ»[2] الآية . ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ يعنى طعمه منه الجيّد والدُّون . وسمّاه أكلا لأنه يؤكل . و «أُكُلُهُ» مرفوع بالابتداء . و «مُخْتَلِفًا» نعته؛ ولكنه لمـا تقدم عليـه ووَلِي منصوبا نُصب . كما تقول : عندى طباخا غلام . قال :

الشَّرُّ مُنْتَشِرٌ يلقاك عن عُرُض • والصالحاتُ عليهـا مُغلقاً بابُ

وقيل : «مُخْتَلِفًا» نصب على الحال . قال أبو إسحاق الزجاج : وهذه مسألة مُشْكِلة من النحو؛ لأنه يقال : قد أنشأها ولم يختلف أكلها وهو ثمرها؛ فالجواب أن الله سبحانه أنشأها بقوله : «خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» فأعلم أنه أنشأها مختلفا أكلها؛ أى أنه[3] أنشأها مقدرا فيه الاختلاف؛ وقد بيّن هذا سيبويه بقوله : مررت برجل معه صَقْرٌ صائدا به غدا؛ على الحال؛ كما تقول : لتدخلُنّ الدار آكلين شاربين؛ أى مقدّرين ذلك . جواب ثالث — أى لمـا أنشأه كان مختلفا أكله؛ على معنى أنه لو كان له أُكُلٌ لكان مختلفا أكله . ولم يقل أكلهما؛ لأنه اكتفى بإعادة الذكر على أحدهما؛ كقوله : «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا»[4] أى إليهما . وقد تقدّم هذا المعنى .

(١) كذا فى ا وك وجـ . لعل الأصـل : مسموكات . فى البحر : عرشت الكرم إذا جعلت له دعائم وسمكا ينعطف عليه القضبان . (٢) راجع جـ ٢ ص ٣٦ . (٣) كذا فى الأصول والمتبادر أن العبارة : أو أنه أنشأها الخ فيكون هذا جوابا ثان كما يستفاد من العبارة الآتية والنحاس . (٤) راجع جـ ١٨ ص ١٠٩ .

Marfat.com

الثالثة — قوله تعالى: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ عطف عليه ﴿مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ نصب على الحال، وقد تقدم القول فيه . وفي هذه أدلة ثلاثة ؛ أحدها ماتقدم من قيام الدليل على أن المتغيرات لا بدّ لها من مغيّر . الثاني على المِنّة منه سبحانه علينا؛ فلوشاء إذ خلقنا ألّا يخلق لنا غذاء، و إذا خلقه ألّا يكون جميل المَنْظر طيّب الطعم، و إذْ خلقه كذلك ألّا يكون سهل الجَنْي؛ فلم يكن عليه أن يفعل ذلك ابتداء؛ لأنه لايجب عليه شيء. الثالث على القدرة في أن يكون الماء الذي من شأنه الرسوب يصعَد بقدرة الله الواحد علّام الغيوب من أسافل الشجرة إلى أعاليها، حتى إذا انتهى إلى آخرها نشأ فيها أوراقٌ ليست من جنسها، وثمرٌ خارج من صفته الجِرْم الوافر، واللون الزاهر، والجَنَى الجديد، والطعم اللذيذ؛ فأين الطبائع وأجناسها، وأين الفلاسفة وأُناسُها، هل في قدرة الطبيعة أن تتقن هذا الإتقان، أو ترتّب هذا الترتيب العجيب ! كلا ! لا يتم ذلك في العقول إلا لِحَيّ عالِم قديرٍ مُريدٍ. فسبحان من له في كل شيء آية ونهاية !

ووجه اتّصال هذا بما قبله أن الكفار لما افترَوْا على الله الكذب وأشركوا معه وحلّلوا وحرّموا دَلّهُم على وحدانيته بأنه خالق الأشياء، وأنه جعل هذه الأشياء أرزاقا لهم .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ فهذان بناءان جاءا بصيغة افْعَلْ؛ أحدهما مباح كقوله : «فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ»(١) والثاني واجب . وليس يمتنع في الشريعة اقتران المباح والواجب ، و بدأ بذكر نعمة الأكل قبل الأمر بإيتاء الحق ليبيّن أن الابتداء بالنعمة كان من فضله قبل التكليف .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ اختلف الناس في تفسير هذا الحق ما هو ؛ فقال أنس بن مالك وابن عباس وطاوس والحسن وابن زيد وابن الحنفية والضّحاك وسعيد بن المسيب : هي الزكاة المفروضة ، العُشْر ونِصْفُ العُشْر . ورواه ابن وَهْب وابن القاسم عن مالك في تفسير الآية ، و به قال بعض أصحاب الشافعي . وحكى الزجاج أن هذه الآيةَ قيل فيها أنها نزلت بالمدينة . وقال عليّ بن الحسين وعطاء والحَكَم وحمّاد وسعيد بن جُبير ومجاهد : هو حقٌّ في المال سوى الزكاة(٢) ، أمر الله به نَدْبًا . وروى عن

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٠٨ . (٢) وذلك قوله تعالى : «وفي أموالهم حق للسائل والمحروم» فإنها مكية .

Marfat.com

ابن عمر ومحمد بن الحنفية أيضا ، ورواه أبو سعيد الخُدْرِيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال مجاهد: إذا حَصَدت فحضرك المساكين فآطرح لهم من السُّنْبل ، و إذا جَذَذت فالق لهم من الشماريخ ، و إذا درسته [ودسته](١) وذَرّيته فآطرح لهم منه ، و إذا عرفت(٢) كيله فأخرج منه زكاته . وقول ثالث هو منسوخ بالزكاة؛ لأن هذه السورة مكية وآية الزكاة لم تنزل إلا بالمدينة: « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً(٣) » ، «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ(٤)» . روى عن آبن عباس وآبن الحنفية والحسن وعطية العَوْفي والنَّخَعِيّ وسعيد بن جبير . وقال سفيان : سألت السُّدّى عن هذه الآية فقال . نسخها العُشْر ونصف العُشر . فقلت عمّن؟ فقال عن العلماء .

السادســة — وقد تعلّق أبو حنيفة بهذه الآية و بعموم ما فى قوله عليه السلام : "فيما سَقَتِ السماءُ العُشْر وفيما سُقِيَ بنَضْح(٥) أودالية نصفُ العُشْر" فى إيجاب الزكاة فى كل ما تُنْبت الأرض طعاما كان أوغيره . وقال أبو يوسف عنه : إلا الحطب والحشيش والقَضْب والتّين والسعف(٦) وقصَب الذريرة(٧) وقصب السكر. وأباه الجمهور ، معوّلين على أن المقصود من الحديث بيان ما يؤخذ منه العشر وما يؤخذ منه نصف العشر . قال أبو عمر : لا آختلاف بين العلماء فيما علمت أن الزكاة واجبة فى الحنطة والشعير والتمر والزبيب(٨) . وقالت طائفة : لا زكاة فى غيرها . رُوِى ذلك عن الحسن وآبن سِيرين والشَّعْبيّ . وقال به من الكوفيين آبن أبي لَيْلَى والثّوريّ والحسن آبن صالح وآبن المبارك ويحيى بن آدم ، و إليه ذهب أبو عبيد . ورُوِى ذلك عن أبى موسى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهو مذهب أبى موسى ، فإنه كان لا يأخذ الزكاة إلا من الحنطة والشعير والتمر والزبيب ؛ ذكره وَكيع عن طلحة بن يحيى عن أبى بُرْدة عن أبيه . وقال مالك وأصحابه : الزكاة واجبة فى كل مُقتات مدخر ؛ و به قال الشافعيّ . وقال الشافعيّ . إنما تجب الزكاة فيما يَيْبس ويُدَّخر ويقتات مأكولا . ولا شيء فى الزيتــون لأنه إدام . وقال أبو ثور مثــله . وقال أحمــد أقوالا أظهرها أن الزكاة إنما تجب فى كل ما قاله أبو حنيفة إذا كان

---

(١) من ك ، ز . (٢) فى ع : و إذا عزمت على كيله فأخرج لهم زكاته . (٣) راجع جـ ٨ ص ٢٤٤ .
(٤) راجع جـ ١ ص ٣٤٣ . (٥) النضح : سق الزرع وغيره بالسانية ، وهى الناقة يستق عليها .
(٦) فى ك : الشعف : هو قشر شجر الغاف . (٧) الذريرة : قصب يجاء به من الهند ، كقصب النشاب أحمر يتداوى به . (٨) يعنى الحبوب السنة أى والذرة والسلت فإنه لاخلاف بينهم فى زكاتها .

يوسق ؛ فأوجبها فى اللَّوْز لأنه مكيل دون الجَوْز لأنه معدود . وآحتج بقوله عليه السلام : " ليس فيما دون خمسة أَوْسُق من تمر أو حب صدقة " قال : فبيّن النبيّ صلى الله عليه وسلم أن محل الواجب هو الوَسْق ، و بيّن المقدار الذى يجب إخراج الحق منه . وذهب النَّخَعِيّ إلى أن الزكاة واجبة فى كل ما أخرجته الأرض ، حتى فى عشر دَسَاتِج(١) من بقل دستجةُ بقل . وقد آختلف عنه فى ذلك ، وهو قول عمر بن عبد العزيز فإنه كتب أن يؤخذ مما تنبت الأرض من قليل أو كثير العُشْر ؛ ذكره عبد الرازق عن مَعْمَر عن سِماك بن الفضل ، قال : كتب [عمر](٢) ... ؛ فذكره . وهو قول حماد بن أبى سليمان وتلميذه أبى حنيفة . و إلى هـذا مال آبن العربيّ فى أحكامه فقال : وأما أبو حنيفة فجعل الآية مرآته فأبصر الحق ، وأخذ يَعْضُد مذهب الحنفيّ و يقوّيه . وقال فى كتاب (القبس بمـا عليه الإمام مالك بن أنس) فقال : قال الله تعـالى : « وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ » . وآختلف الناس فى وجوب الزكاة فى جميع ما تضمنته أو بعضه ، وقد بيّنـا ذلك ، فى (الأحكام) لُبَـابُه ، أن الزكاة إنمـا تتعلق بالمقتات كما بيّنا دون الخضراوات ؛ وقد كان بالطائف الرمان والفِرسِك(٣) والأُتْرُجّ فمـا آعترضه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ذكره ولا أحد من خلفائه .

قلت : هذا و إن لم يذكره فى الأحكام هو الصحيح فى المسألة ، وأن الخضراوات ليس فيها شيء . وأما الآية فقد آختلف فيها ، هل هى محكمة أو منسوخة أو محمولة على النَّدْب . ولا قاطع يبين أحد مَحَامِلها(٤) ، بل القاطع المعلوم ما ذكره ابن بكير فى أحكامه : أن الكوفـة آفتتحت بعـد موت النبيّ صلى الله عليه وسلم و بعـد آستقرار الأحكام فى المدينة ، أفيجوز أن يتوهّم متوهِّمٌ أو من له أدنى بصيرة أن تكون شريعة مثل هـذه عُطِّلت فلم يُعمل بها فى دار الهجرة ومُستَقر الوحى ولا فى خلافة أبى بكر ، حتى عمل بذلك الكوفيون؟ . إن هذه لمصيبة فيمن ظن هذا وقال به ! .

قلت : ومما يدلّ على هذا من معنى التنزيل قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ(٥) » أتراه يكتم شيئا أُمِر بتبليغه أو ببيانه ؟ حاشاه عن ذلك

(١) الدستجة : الحزمة . تعليق الحكم بالوسق لا يتسق مع هذه الرواية لتخصيصها ولكن مع رواية البخارى « ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة » فتأمل . (٢) من ك . (٣) الفرسك (كزبرج) : الخوخ أو ضرب منه أجرد أحمر ، أو ما ينفلق عن نواة . (٤) فى ك : محتملاتها . (٥) راجع جـ ٦ ص ٢٤٢ .

Marfat.com

وقال تعالى : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي »(١) ومن كمال الدين كونه لم يأخذ من الخضراوات شيئا . وقال جابر بن عبد الله فيما رواه الدّارَقُطْنِيّ : إن المقاثئ(٢) كانت تكون عندنا تُخرج عشرة آلاف فلا يكون فيها شيء . وقال الزُّهْرِيّ والحسن : تُزكى أثمان الخضر إذا بيعت(٣) وبلغ الثمن مائتي درهم ؛ وقاله الأوزاعيّ في ثمن الفواكه . ولا حجة في قولهما لما ذكرنا . وقد روى الترمذيّ عن معاذ أنه كتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن الخضراوات وهي البقول فقال : " ليس فيها شيء " . وقد رُوي هذا المعنى عن جابر وأنس وعليّ ومحمد بن عبد الله بن جحش وأبي موسى وعائشة . ذكر أحاديثهم الدّارَقُطْنِيّ رحمه الله . قال الترمذيّ : ليس يصح في هذا الباب عن النبي صلى الله عليه وسلم شيء . واحتج بعض أصحاب أبي حنيفة بحديث صالح بن موسى عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فيما أنبتت الأرض من الخضر زكاة " . قال أبو عمر : وهذا حديث لم يروه من ثقات أصحاب منصور أحد هكذا ، وإنما هو من قول إبراهيم .

قلت : وإذا سقط الاستدلال من جهة السُّنّة لضعف أسانيدها فلم يبق إلا ما ذكرناه من تخصيص عموم الآية ، وعموم قوله عليه السلام : " فيما سقت السماء العُشْر " بما ذكرنا . وقال أبو يوسف ومحمد : ليس في شيء من الخضر زكاة إلا ما كانت له ثمرة باقية ، سوى الزعفران ونحوه مما يوزن ففيه الزكاة . وكان محمد يعتبر في العُصْفر والكَتّان البزر ، فإذا بلغ بزرهما من القرطم والكتّان خمسة أوسق كان العُصْفر والكتان تبعًا للبزر ، وأخذ منه العشر أو نصف العشر . وأما القطن فليس [فيه](٤) عنده دون خمسة أحمال شيء ؛ والحمل ثلثمائة مَنّ بالعراقيّ . والوَرْس والزعفران ليس فيما دون خمسة أمْنان منها شيء . فإذا بلغ أحدهما خمسة أمنان كانت فيه الصدقة ، عُشْرا أو نصف العشر . وقال أبو يوسف : وكذلك قصب السكر الذي يكون منه السكر ، ويكون في أرض العُشْر دون أرض الخَرَاج ، فيه ما في الزعفران . وأوجب عبد الملك بن الماجِشُون الزكاة في أصول الثمار دون البقول . وهذا خلاف

(١) راجع جـ ٦ ص ٦١ . (٢) المقاثئ . (جمع مقثأة بفتح الثاء وضمها) : موضع القثاء .
(٣) كذا في جـ و ك و ز : وفي ا و ب : أينعت . (٤) من ك .

Marfat.com

ما عليه مالك وأصحابه، لا زكاة عندهم لا في اللّوز ولا في الجَوْز ولا في الجُلَّوْز (١) وما كان مثلها، وإن كان ذلك يدّخر. كما أنه لا زكاة عندهم في الإجّاص (٢) ولا في التفاح ولا في الكُمَّثْرَى، ولا ما كان مثل ذلك كله مما لا ييبس ولا يُدّخر. واختلفوا في التين؛ والأشهر عند أهل المغرب ممن يذهب مذهب مالك أنه لا زكاة عندهم في التين. إلا عبد الملك بن حبيب فإنه كان يرى فيه الزكاة على مذهب مالك، قياسًا على التمر والزبيب. وإلى هذا ذهب جماعة من أهل العلم البغداديين المالكيين، إسماعيل بن إسحاق ومن اتبعه. قال مالك في الموطّأ: السنّة التي لا اختلاف فيها عندنا، والذي سمعته من أهل العلم، أنه ليس في شيء من الفواكه كلها صدقة: الرمّان والفِرْسِك والتين وما أشبه ذلك. وما لم يشبهه إذا كان من الفواكه. قال أبو عمر: فأدخل التين في هذا الباب، وأظنه (والله أعلم) لم يعلم بأنه يَيْبَس ويُدّخر ويُقتات، ولو علم ذلك ما أدخله في هذا الباب؛ لأنه أشبه بالتمر والزبيب منه بالرمان. وقد بلغني عن الأبْهَرِيّ وجماعة من أصحابه أنهم كانوا يُفتون بالزكاة فيه، ويرونه مذهب مالك على أصوله عندهم. والتين مكيل يراعى فيه الخمسة الأوْسُق وما كان مثلها وَزْنًا، ويُحكم في التين عندهم بحكم التمر والزبيب المجتمع عليهما. وقال الشافعيّ: لا زكاة في شيء من الثمار غير التمر والعنب؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ الصدقة منهما وكانا قوتا بالحجاز يدّخر. قال: وقد يدخر الجوز واللوز ولا زكاة فيهما؛ لأنهما لم يكونا بالحجاز قوتا فيما علمت، وإنما كانا فاكهة. ولا زكاة في الزيتون؛ لقوله تعالى: «وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ». فقرنه مع الرمان، ولا زكاة فيه. وأيضا فإن التين أنفع منه في القوت ولا زكاة فيه. وللشافعيّ قول بزكاة الزيتون قاله بالعراق، والأوّل (٣) قاله بمصر؛ فاضطرب قول الشافعيّ في الزيتون، ولم يختلف فيه قول مالك. فدلّ على أن الآية محكمة عندهما غير منسوخة. واتفقا جميعا (٤) على أن لا زكاة في الرمان، وكان يلزمهما إيجاب الزكاة فيه. قال أبو عمر: فإن كان الرمان خرج باتفاق فقد بان بذلك المراد بأن الآية ليست على عمومها، وكان الضمير عائدا على بعض المذكور دون بعض. والله أعلم.

(١) الجلوز: البندق.　(٢) الإجاص: شجر معروف، واحدته إجاصة. ثمره حلو لذيذ.
(٣) في ك: والأولى ما قاله بمصر.　(٤) في ك: والفقهاء جميعا.

Marfat.com

قلت : بهذا استدل من أوجب العشر فى الخضراوات فإنه تعالى قال : « وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ » والمذكور قبله الزيتون والرمان ، والمذكور عقيب جملة ينصرف إلى الأخير بلا خلاف ؛ قاله الكِيَا الطبرى . وروى عن ابن عباس أنه قال : ما لَقِحت رمّانة قط إلا بقطرة من ماء الجنة . وروى عن علىّ كرّم الله وجهه أنه قال : إذا أكلتم الرمانة فكلوها بشحمها فإنه دباغ المعدة . وذكر ابن عساكر فى تاريخ دمشق عن ابن عباس قال : لا تكسروا الرمانة من رأسها فإن فيها دُودةً يعترى منها الجُذام . وسيأتى منافع زيت الزيتون فى سورة « المؤمنون »(1) إن شاء الله تعالى . وممن قال بوجوب زكاة الزيتون الزُّهْرِى والأوزاعىّ والليث والثورىّ وأبو حنيفة وأصحابُه وأبو ثور . قال الزهرىّ والأوزاعىّ والليث : يُخْرَصُ(2) زيتونا ويؤخذ زيتا صافيا . وقال مالك : لا يخرص ، ولكن يؤخذ العُشر بعد أن يُعصر ويبلُغ كيله خمسة أوسق . وقال أبو حنيفة والثورىّ : يؤخذ من حبه .

السابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ يَوْمَ حِصَادِهِ ﴾ قـرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم « حَصَادِهِ » بفتح الحاء ، والباقون بكسرها ، وهما لغتان مشهورتان ؛ ومثله الصِّرام والصَّرام والجَذاذ والجِذاذ والقَطاف والقِطاف . واختلف العلماء فى وقت الوجوب على ثلاثة أقوال :

الأول — أنه وقت الجذاذ ؛ قاله محمد بن مَسْلمة ؛ لقـوله تعالى : « يَوْمَ حَصَادِهِ » .

الثـانى — يوم الطِّيب ؛ لأن ما قبل الطيب يكون عَلَفا لا قُوتا ولا طعاما ؛ فإذا طاب وحان(3) الأكل الذى أنعم الله به وجب الحقّ الذى أمر الله به ، إذ بتمـام النعمة يجب شكر النعمة ، ويكون الإيتاء وقت الحصاد لمـا قد وجب يوم الطِّيب .

الثـالث — أنه يكون بعد تمـام الخَرْص ؛ لأنه حينئذ يتحقق الواجب فيه من الزكاة فيكون شرطا لوجوبها . أصله مجىء الساعى فى الغنم ؛ وبه قال المُغيرة . والصحيح الأوّل لنص التنزيل . والمشهور من المذهب الثانى ، وبه قال الشافعى . وفائدة الخلاف إذا مات بعد الطِّيب

(1) راجع جـ ١٢ ص ١١٤ .
(2) ستأتى معانى الخرص فى المسئلة التاسعة .
(3) فى كـ و ز و ى : وكان .

Marfat.com

زكّيت على ملكه، أوقبل الخَرْص على ورثته . وقال محمد بن مسلمة : إنما قدّم الخرص توسعةً على أرباب الثمار، ولو قدّم رجل زكاته بعد الخَرْص وقبل الجذاذ لم يُجْزه؛ لأنه أخرجها قبل وجوبها . وقد آختلف العلماء فى القول بالخرص وهى : —

الثامنة — فكرهه الثورى ولم يُجِزْه بحال، وقال : الخرص غير مستعمل . قال : وإنما على ربّ الحائط أن يؤدّىَ عشر ما يصير فى يده للمساكين إذا بلغ خمسة أوْسُق . وروى الشيبانى عن الشعبى أنه قال : الخرص اليومَ بدعةٌ . والجمهور على خلاف هذا، ثم آختلفوا فالمعظم على جوازه فى النخل والعنب؛ لحديث عَتَّاب بن أَسيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه وأمره أن يَخْرُص العنب كما يَخْرُص النخل وتؤخذ زكاته زبيبا كما تؤخذ زكاة النخل تمرا . رواه أبو داود . وقال داود بن على : الخرص للزكاة جائز فى النخل، وغير جائز فى العنب؛ ودفع حديث عتّاب بن أَسيد لأنه منقطع ولا يتّصل من طريق صحيح، قاله أبو محمد عبد الحق .

التاسعة — وصفة الخرص أن يُقَدّر ما على نخله رطبا ويقدّر ما ينقص لو يتمّر[(١)]، ثم يعتدّ بما بقى بعد النقص ويضيف بعض ذلك إلى بعض حتى يكمل الحائط[(٢)]، وكذلك فى العنب [فى كل دالية[(٣)]] .

العاشرة — ويكفى فى الخرص الواحدُ كالحاكم . فإذا كان فى التمر زيادة على ما خرص لم يلزم ربَّ الحائط الإخراجُ عنه، لأنه حكمٌ قد نفذ؛ قاله عبد الوهاب . وكذلك إذا نقص لم تنقص الزكاة . قال الحسن : كان المسلمون يُخْرَص عليهم ثم يؤخذ منهم على ذلك الخرص .

الحادية عشرة — فإن استكثر ربّ الحائط الخرص خيّره الخارص فى أن يعطيَه ما خَرص وأخذ خرصه؛ ذكره عبد الرزاق أخبرنا ابن جُريج عن أبى الزبير[(٤)] أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : خَرَص آبن رواحة أربعين ألف وَسْق، وزعم أن اليهود لما خيّرهم أخذوا التمر وأعطوه عشرين ألف وَسْق . قال ابن جريج فقلت لعطاء : فحقّ على الخارص إذا استكثر سيّدُ المال

(١) فى ك : تمر . أى صار تمرا بتيبيسه . (٢) الحائط . البستان . (٣) من ك .
(٤) فى ك : ابن الزبير .

Marfat.com

الخَرص أن يخيّره كما خيّر ابنُ رواحة اليهودَ ؟ قال : أى لعمرى ! وأىّ سُنّة خيرٌ من سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثانية عشرة — ولا يكون الخرص إلا بعد الطّيب، لحديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث ابن رواحة إلى اليهود فيَخرُص عليهم النخلَ حين تطيب أول الثمرة قبل أن يؤكل منها، ثم يخيّر يهودًا يأخذونها بذلك الخرص أو يدفعونها إليه . و إنما كان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخرص لكى تحصى الزكاة قبل أن تؤكل الثمار وتُفرّق . أخرجه الدّارَقُطْنىّ من حديث ابن جريج عن الزهرىّ عن عروة عن عائشة . قال : ورواه صالح بن أبى الأخضر عن الزهرىّ عن ابن المسيِّب عن أبى هريرة ، وأرسله مالك ومَعْمر وعقيل عن الزهرىّ عن سعيد عن النبىّ صلى الله عليه وسلم .

الثالثة عشرة — فإذا خَرص الخارص فحكمه أن يُسقط من خرصه مقدارًا ما ؛ لما رواه أبو داود والترمذىّ والبُسْتىّ[1] فى صحيحه عن سهل بن أبى حَثْمة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يقول : "إذا خرصتم فخذوا ودَعُوا الثلث فإن لم تدَعوا الثلث فدعوا الرّبع" . لفظ الترمذى . قال أبو داود: الخارص يدع الثلث للخُرْفة . وكذا قال يحيى القَطّان . وقال أبو حاتم البُسْتىّ : لهذا الخبر صفتان : أحدهما أن يترك الثلث أو الربع من العشر، والثانى أن يترك ذلك من نفس التمر قبل أن يُعشر، إذا كان ذلك حائطا كبيرا يحتمله . الخُرْفة بضم الخاء : ما يُخْتَرف من النخل حين يُدرِك ثمره، أى يُجْتَنَى . يقال : التمر خرفةُ الصائم ؛ عن الجوهرىّ والهَروىّ . والمشهور من مذهب مالك أنه لا يَترك الخارصُ شيئا فى حين خَرصه من تمر النخل والعنب إلا خَرصه . وقد روى بعض المدنيين أنه يخفف فى الخرص و يترك للعرايا[2] والصّلة ونحوها .

الرابعة عشرة — فإن لَحِقت الثمرة جائحةٌ بعد الخرص وقبل الجذاذ سقطت الزكاة عنه بإجماع من أهل العلم ، إلا أن يكون فيما بقى منه خمسة أوْسق فصاعدًا .

---

(١) فى ك ، النسائى . (٢) العرايا (واحدة عرية) وهى النخلة يعريها صاحبها رجلا محتاجا . والإعراء أن يجعل له ثمرة عامها .

الخامسة عشرة — ولا زكاة فى أقل من خمسة أوْسق، كذا جاء مبيَّنًا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . وهو فى الكتاب مُجْمَل، قال الله تعالى : «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ»(١) . وقال تعالى : «وَآتُوا حَقَّهُ» . ثم وقع البيان بالعُشر ونصف العُشر . ثم لما كان المقدار الذى إذا بلغه المال أخذ منه الحق مُجملًا بيّنه أيضا فقال : "ليس فيما دون خمسة أوْسق من تمر أو حب صدقة" وهو ينفى الصدقة فى الخضراوات، إذ ليست مما يُوسق؛ فمن حصل له خمسة أوْسق فى نصيبه من تمر أو حب وجبت عليه الزكاة، وكذلك من زبيب؛ وهو المسمّى بالنصاب عند العلماء. يقال : وِسْق ووَسْق (بكسر الواو وفتحها) وهو ستون صاعا، والصاع أربعة أمداد، والمد رطل وثلث بالبغدادىّ(٢) ومبلغ الخمسة الأوْسق من الأمداد ألف مدّ ومائتا مدّ، وهى بالوزن ألف رطل وستمائة رطل

السادسة عشرة — ومن حصل له من تمر وزبيب معًا خمسةُ أوْسُق لم تلزمه الزكاة [إجماعا](٣)؛ لأنهما صنفان مختلفان . وكذلك أجمعوا على أنه لا يضاف التمر إلى البُرّ ولا البر إلى الزبيب؛ ولا الإبل إلى البقر، ولا البقر إلى الغنم . ويضاف الضأن إلى المَعْز بإجماع . واختلفوا فى ضم البُرّ إلى الشعير والسُّلْت وهى : —

السابعة عشرة — فأجازه مالك فى هذه الثلاثة خاصّةً فقط؛ لأنها فى معنى الصّنف الواحد لتقاربها فى المنفعة واجتماعها فى المنبت والمحصد، وافتراقها فى الاسم لا يوجب افتراقها فى الحكم كالجواميس والبقر، والمعز والغنم . وقال الشافعىّ وغيره : لا يجمع بينها؛ لأنها أصناف مختلفة، وصفاتها متباينة، وأسماؤها متغايرة، وطعمها مختلف؛ وذلك يوجب افتراقها . والله أعلم . قال مالك : والقَطانىّ كلها صِنف واحد، يُضَمّ بعضها إلى بعض . وقال الشافعىّ : لا تُضم حبة عُرفت باسم منفرد دون صاحبتها، وهى خلافها مباينة فى الخلقة والطعم إلى غيرها . ويُضَمُّ كل صنف بعضه إلى بعض، رَديئُه إلى جَيّده؛ كالتمر وأنواعه، والزبيب أسودِه وأحمره، والحنطةِ وأنواعها من السمراء وغيرها . وهو قول الثّوْرىّ

---

(١) راجع ج ٣ ص ٣٢٠ .　　(٢) فى المصباح : الرطل بالبغدادى اثنا عشر أوقية والأوقية أستار وثلثا أستار والأستار أربعة مثاقيل ونصف مثقال والمثقال درهم وثلاثة أسباع درهم والدرهم ستة دوانق والدانق ثمان حبات وخمسا حبة . وعلى هذا فالرطل تسعون مثقالا . وهى مائة درهم وثمانية وعشرون درهما وأربعة أسباع درهم .
(٣) من ب و ز و ك .

Marfat.com

وأبى حنيفـة وصاحبيه أبى يوسف ومحمد وأبى ثور . وقال الليث : تُضم الحبوب كلها : القُطنية(١) وغيرها بعضها إلى بعض فى الزكاة . وكان أحمد بن حنبل يَجْبُن عن ضم الذهب إلى الوَرِق، وضم الحبوب بعضها إلى بعض ، ثم كان فى آخر أمره يقول فيها بقول الشافعىّ .

الثامنة عشرة — قال مالك : وما استهلكه منه ربُّه بعد بُدُوّ صلاحه أو بعد ما أفرك حسب عليه ، وما أعطاه ربُّه منه فى حصاده وجذاذه ، ومن الزيتون فى التقاطه ، تَحَرَّى ذلك وحُسب عليه . وأكثر الفقهاء يخالفونه فى ذلك ، ولا يوجبون الزكاة إلا فيما حصل فى يده بعد الدَّرْس . قال الليث فى زكاة الحبوب : يُبدأ بها قبل النفقة ، وما أكل من فريك هو وأهله فلا يحسب عليه ، بمنزلة الرطب الذى يترك لأهل الحائط يأكلونه فلا يُخْرَص عليهم . وقال الشافعىّ : يترك الخارصُ لربّ الحائط ما يأكله هو وأهله رطبا ، لا يَخْرُصه عليهم . وما أكله وهو رطب لم يُحسب عليه . قال أبو عمر : آحتج الشافعىّ ومن وافقه بقول الله تعالى : «كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ» . وآستدلّوا على أنه لا يُحتسب بالمأكول قبل الحصاد بهذه الآية . وآحتجوا بقوله عليه السلام : " إذا خرصتم فدعوا الثلث فإن لم تدعوا الثلث فدعوا الربع " . وما أكلت الدواب والبقر منه عند الدَّرس لم يُحسب منه شىء على صاحبه عند مالك وغيره .

التاسعة عشرة — وما بيع من الفول والحِمّص والجُلُبان أخضر، تحرّى مقدار ذلك يابسا وأخرجت زكاته حبًّا . وكذا ما بيع من الثمر أخضر آعتبر وتُوُخِّى وخُرِص يابسا وأخرجت زكاته على ذلك الخرص زبيبا وتمرا . وقيل : يخرج من ثمنه .

الموفية عشرين — وأما ما لا يتتمّر من ثمـر النخل ولا يتزبّب من العنب كعنب مصر [وبلحها](٢) ، وكذلك زيتونها الذى لا يُعصر ، فقال مالك : تخرج زكاته من ثمنه ، لا يكلّف غير ذلك صاحبه ، ولا يراعَى فيه بلوغ ثمنه عشرين مثقالا أو مائتى درهم ، وإنما ينظر إلى ما يرى أنه يبلغه خمسة أوسق فأكثر . وقال الشافعىّ : [يخـرج(٢)] عشره أو نصف عشره من وسطه تمرا إذا أكله أهله رطبا أو أطعموه .

(١) القطنية (بضم القاف وكسرها) : ما كان سوى الحنطة والشعير والزبيب والتمر . فى التهذيب : القطنية اسم جامع للحبوب التى تطبخ مثل العدس والبقلاء واللوبيا والحمص ... الخ . (٢) من ك . وفى ا و ب : نخلها .

Marfat.com

الحادية والعشرون — روى أبو داود عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فيما سقت السماء والأنهار والعيون أو كان بَعْلًا العشر[١]، وفيما سُقِي بالسوانى[٢] أو النَّضْح نصف العشر وكذلك إن كان يشرب سَيْحا فيه العشر" . وهو الماء الجارى على وجه الأرض؛ قاله ابن السِّكِّيت . ولفظ السَّيْح مذكور فى الحديث، خرّجه النَّسائى[٣] . فإن كان يشرب بالسَّيح لكن ربّ الأرض لا يملك ماء وإنما يكتريه له فهو كالسماء؛ على المشهور من المذهب . ورأى أبو الحسن اللخمى أنه كالنضح؛ فلو سُقِى مرّة بماء السماء ومرّة بدالِية؛ فقال مالك : يُنظر إلى ما تمّ به الزرع وحيي وكان أكثر؛ فيتعلّق الحكم عليه . هذه رواية ابن القاسم عنه . وروى عنه ابن وهب : إذا سُقِى نصف سنة بالعيون ثم انقطع فسُقِى بقيّة السنة بالناضح فإنّ عليه نصف زكاته عشرا، والنصف الآخر نصف العشر . وقال مرّة : زكاته بالذى تمت به حياته . وقال الشافعى : يُزَكَّى كلُّ واحد منهما بحسابه . مثاله أن يشرب شهرين بالنضح وأربعة بالسماء؛ فيكون فيه ثلثا العشر لماء السماء وسدس العشر للنضح ! وهكذا ما زاد ونقص بحسابه . وبهذا كان يفتِي بكّار بن قتيبة . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف : يُنظر إلى الأغلب فيزكّى، ولا يلتفت إلى ما سوى ذلك . وروى عن الشافعى . قال الطحاوى : قد اتفق الجميع على أنه لو سقاه بماء المطر يوما أو يومين أنه لا اعتبار به، ولا يجعل لذلك حصّة؛ فدلّ على أن الاعتبار بالأغلب، والله أعلم .

قلت : فهذه جملة من أحكام هذه الآية، ولعلّ غيرنا يأتى بأكثرَ منها على ما يفتح الله له . وقد مضى فى « البقرة »[٤] جملة من معنى هذه الآية، والحمد لله .

الثانية والعشرون — وأمّا قوله صلى الله عليه وسلم : "ليس فى حب ولا تمر صدقة[٥]" خرّجه النَّسائى . قال حمزة الكنانى : لم يذكر فى هذا الحديث "فى حب" غير إسماعيل بن أميّة، وهو ثقة قرشى من ولد سعيد بن العاص . قال : وهذه السنّة لم يروها أحد عن النبى

(١) البعل : هو ما ينبت من النخيل فى أرض يقرب ماؤها، فرسخت عروقها فى الماء واستغنت عن ماء السماء والأنهار . ويروى : أو كان عثريا . وهو البعلى .　(٢) السوانى : جمع سانية، وهى الناقة التى يستنى عليها .
(٣) لم نجد فى النسائى هذه الزيادة . والله أعلم .　(٤) راجع ج ٣ ص ٣٢١ .
(٥) بقيته : "حتى تبلغ خمسة أوسق" الحديث .

صلى الله عليـه وسلم من أصحابه غير أبى سـعيد الخُدْرِىّ . قال أبو عمر : هو كما قال حمزة، وهذه سنة جليلة تلقاها الجميع بالقبول ، ولم يروها أحد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من وجه ثابت محفوظ غيرُ أبى سعيد . وقد روى جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مثل ذلك، ولكنه غريب ، وقد وجدناه من حديث أبى هريرة بإسناد حسن .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ الإسراف فى اللغة الخطأ . وقال أعرابى أراد قوما : طلبتكم فَسَرِفْتكم ؛ أى أخطأت موضعكم . وقال الشاعر :

وقال قائلهم والخيلُ تخبِطُهم * أسرفـتم فأجبنا أننـا سَرَف

والإسراف فى النفقة : التبذير . ومُسرف لقب مسـلم بن عُقْبَة المُرِّى صاحب وقعة الحَرَّة[(١)] ؛ لأنه قد أسرف فيها . قال علىّ بن عبد الله بن العباس :

هُمُ منعوا ذِماري يوم جاءت * كتائبُ مُسْرِفٍ وبنى اللَّكيعهْ[(٢)]

والمعنى المقصود من الآية : لا تأخذوا الشيء بغير حقه ثم تضعوه فى غير حقه ؛ قاله أَصْبَغ ٱبن الفرج . ونحوه قول إياس بن معاوية : ما جاوزتَ به أمر الله فهـو سَرَف و إسراف . وقال ٱبن زيد : هو خطاب للوُلاة، يقول : لا تأخذوا فوق حقكم وما لا يجب على الناس . والمعنيان يحتملهما قوله عليه السلام : "المُعْتَدِى فى الصدقة كمانعها" . وقال مجاهد : لو كان أبو قُبيس ذهبا لرجل فأنفقه فى طاعة الله لم يكن مُسْرفا، ولو أنفق درهما أو مُدًّا فى معصية الله كان مسرفا . وفى هـذا المعنى قيل لحاتم : لا خير فى السَّرف ؛ فقال : لا سَرَف فى الخير .

قلت : وهذا ضعيف؛ يردّه ما رَوى ٱبن عباس أن ثابت بن قيس بن شَمّـاس عَمَد إلى خمسمائة نخـلة فجذّها ثم قسّمها فى يوم واحد ولم يترك لأهله شيئا؛ فنزلت : « وَلَا تُسْرِفُوا » أى لا تعطوا كلّه . وروى عبد الرزاق عن ٱبن جريج قال : جَذَّ معاذ بن جبل نخـله فلم يزل يتصدّق حتى لم يبق منه شيء : فنزل « ولا تسرفوا » . قال السدّى : « ولا تسرفوا » أى لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء . ورُوى عن معاوية بن أبى سفيان أنه سئل عن قوله تعالى : « وَلَا تُسْرِفُوا » قال : الإسراف ما قصّرتَ[(٣)] عن حق الله تعالى .

---

(١) بظاهر المدينة المنورة فى عهد يزيد بن معاوية . (٢) فى اللسان : بنـو اللكيعة . معطوف على فاعل جاءت . فى س ر ف . وفى ل ك ع بنى . (٣) فى ك : ما يصرف .

قلت : فعلى هذا تكون الصدقة بجميع المال ومنع إخراج حقّ المساكين داخلين فى حكم السرف ، والعدل خلاف هذا ؛ فيتصدق ويُبقى كما قال عليه السلام : " خير الصدقة ما كان عن ظَهْرِ غِنًى (١) " إلا أن يكون قوىّ النفس غنياً بالله متوكّلا عليه منفردا لا عيال له ، فله أن يتصدّق بجميع ماله ، وكذلك يخرج الحق الواجب عليه من زكاة وما يَعُنّ فى بعض الأحوال من الحقوق المتعيّنة فى المال . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الإسراف ما لم يقدر على ردّه إلى الصلاح . والسَّرَف ما يقدر على ردّه إلى الصلاح . وقال النَّضْر بن شُميل : الإسراف التبذير والإفراط ، والسرف الغفلة والجهل . قال جرير :

أَعْطَوْا هُنيدةَ يحدُوها ثمانيةٌ * ما فى عطائِهم مَنٌّ ولا سَرَفُ

أى إغفال ، ويقال : خطأ . ورجلٌ سَرِف الفؤاد ، أى مخطئ الفؤاد غافله . قال طَرَفة :

إنّ آمرأً سَرِفَ الفُؤاد يرى * عَسَلاً بماء سحابة شَتْمِى

قوله تعالى : وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢)

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾ عطف [على ما تقدّم] (٢) . أى وأنشأ حمولة وفرشا من الأنعام . وللعلماء فى الأنعام ثلاثة أقوال : أحدها — أن الأنعام الإبل خاصّة ؛ وسيأتى فى « النحل » (٣) بيانه . الثانى — أن الأنعام الإبل وحدها ، وإذا كان معها بقر وغنم فهى أنعام أيضا . الثالث — وهو أصحها قاله أحمد بن يحيى : الأنعام كل ما أحله الله عز وجل من الحيوان . ويدلّ على صحة هذا قوله تعالى : « أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ (٤) » وقد تقدّم . والحَمُولة ما أطاق الحِمْل والعمل ؛ عن ابن مسعود وغيره ثم قيل : يختص اللفظ بالإبل . وقيل : كل ما آحتمل عليه الحىّ من حمار أو بغل أو بعير ؛ عن أبى زيد ، سواء كانت عليه الأحمال أو لم تكن .

---

(١) أى ما كان عفوا قد فضل عن غنى . وقيل : أراد ما فضل عن العيال . والظهر قد يراد فى مثل هذا إشباعا للكلام وتمكينا ؛ كأن صدقته مستندة إلى ظهر قوى من المال (من ابن الأثير) . (٢) من ك .
(٣) راجع ج ١٠ ص ٦٨ . (٤) راجع ج ٦ ص ٣٣ .

Marfat.com

قال عنـــترة :

ما رَاعــــنِى إلا حَمــولةُ أهلِهــا ٭ وسْطَ الدِّيارِ تَسُــفُّ حَبَّ الخِمْخِمِ (١)

وفَعولة بفتح الفاء إذا كانت بمعنى الفاعل آستوى فيهـا المؤنّث والمذكر ؛ نحو قولك : رجل فَروقة وآمرأة فَروقة للجبان والخائف . ورجل صَرورة وآمرأة صرورة إذا لم يَحُجَّا ؛ ولا جمع له . فإذا كانت بمعنى المفعول فرق بين المذكر والمؤنث بالهـاء كالحَلوبة والرَّكوبة . والحُمولة (بضم الحاء) : الأحمال . وأما الحُمول (بالضم بلا هاء) فهى الإبل التى عليها الهوادج ، كان فيها نساء أو لم يكن ؛ عن أبى زيد . «وفَرْشًا» قال الضحاك : الحمولة من الإبل والبقر . والفرش : الغنم . النحاس : وآستشهد لصاحب هذا القول بقوله : «ثَمَـانِيَةَ أَزْوَاجٍ» قال : فـ«ثَمَانِيَةَ» بدل من قوله : «حَمُولَةً وَفَرْشًا» . وقال الحسن : الحَمولة الإبل . والفَرْش : الغنم . وقال آبن عباس : الحمولة كل ما حَمل من الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير . والفَرْش : الغنم . وقال آبن زيد : الحمولة ما يركب ، والفرش ما يؤكل لحمه ويحلب ؛ مثـل الغنم والفصـلان والعجاجيل ؛ سُمِّيت فَرْشا للطافة أجسامها وقربهـا من الفرش ، وهى الأرض المستوية التى يتوطأها الناس . قال الراجز :

أورثنى حَمـولة وفَـرْشا ٭ أَمُشُّهـا فى كلّ يـومٍ مَشّـا (٢)

وقال آخر :

وَحَوَيْنَا الفَرْشَ مِن أنعامكم ٭ والحَمُــولات ورَبَّات الحَجَـل

قال الأصمعى : لم أسمع له بجمع . قال : ويحتمل أن يكون مصـدرا سُمِّىَ به ؛ من قولهم : فرشها الله فرشا ، أى بَثّها بَثًّا . والفَرْش : المفروش من متاع البيت . والفَرْش : الزرع إذا فرش . والفرش : الفضاء الواسع . والفَرْش فى رجل البعير : آتّساع قليل ، وهو محمود . وآفترش الشيءُ آنبسط ؛ فهو لفظ مشترك . وقد يرجع قوله تعالى : «وَفَرْشًا» إلى هـذا . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فيهما أن الحمولة المسخرة المذلّلة للحمل . والفَرْش ما خلقه الله عز وجل من الجلود والصّوف ممـا يُجلس عليه ويُتَمَهّد . وباقى الآية قد تقدّم .

(١) الخمخم (بكسر الخاء المهملة ويقال بالخاء) : نبات تعلف حبه الإبل . (٢) مش الناقة يمشها مشا : حلبها .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ « ثمانيةَ » منصوب بفعل مضمر ، أى وأنشأ « ثمانية أزواج » ؛ عن الكسائى . وقال الأخفش سعيد : هو منصوب على البدل من « حَمُولَةً وَفَرْشًا » .

وقال الأخفش علىّ بن سليمان : يكون منصوبا بـ«كُلُوا» ؛ أى كلوا لحم ثمانية أزواج . ويجوز أن يكون منصوبا على البدل من « ما » على الموضع . ويجوز أن يكون منصوبا بمعنى كلوا المباح « ثمانية أزواج من الضأن آثنين » . ونزلت الآية فى مالك بن عوف وأصحابه حيث قالوا : « ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا » فنبّه الله عز وجل نبيّه والمؤمنين بهذه الآية على ما أحلّه لهم ؛ لئلا يكونوا بمنزلة من حرّم ما أحله الله تعالى . والزوج خلاف الفَرْد ؛ يقال : زَوْج أو فَرْد . كما يقال : خَسًا أو زَكًا ، شفع أو وتر.(١) فقوله : « ثمانية أزواج » يعنى ثمانية أفراد . وكل فَرْد عند العرب يحتاج إلى آخر يُسَمَّى زوجا ، فيقال للذكر زوج وللأنثى زوج . ويقع لفظ الزوج للواحد وللاثنين ؛ يقال هما زوجان ، وهما زوج ؛ كما يقال : هما سيّان وهما سواء . وتقول : آشتريت زَوْجى حمام . وأنت تعنى ذكرا وأنثى .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ مِنَ الضَّأْنِ آثْنَيْنِ ﴾ أى الذكر والأنثى . والضأن : ذوات الصّوف من الغنم ، وهى جمع ضائن . والأنثى ضائنة ، والجمع ضوائن . وقيل : هو جمعٌ

(١) فى ك : لشفع أو وتر .

Marfat.com

لا واحد له . وقيل فى جمعه : ضئين؛ كعَبْد وعَبِيد . و يقال فيه : ضِئين . كما يقال فى شَعير: شِـعير، كسرت الضاد آتباعا . وقـرأ طلحة بن مُصَرِّف « من الضَّأَنِ آثنين » بفتح الهمزة ، وهى لغة مَسموعة عنـد البصريين . وهو مطّرد عند الكوفيين فى كل ما ثانيه حرفُ حلق . وكذلك الفتح والإسكان فى المعز . وقرأ أبَان بن عثمان « مِن الضَّأْن آثْنَانِ ومن المعز آثنان » رفعا بالابتداء . وفى حرف أُبَىّ . « وَمِنَ المَعْز آثنان » (١) وهى قراءة الأكثر . وقرأ آبن عامر وأبو عمرو بالفتح . قال النحاس : الأكثر فى كلام العرب المَعْز والضَّأْن بالإسكان . ويدل على هذا قولهم فى الجمع : معيز؛ فهذا جمع مَعْز . كما يقال : عبد وعبيد . قال آمرؤ القيس:

ويَمْنَحُها بنو شَمَجَى بن جَرْم * مَعِـيزَهُمُ حَنانَك ذا الحنَان

ومثـله ضأن وضئين . والمعز من الغنم خلاف الضأن ، وهى ذوات الأشعار والأذناب القصار ، وهو آسم جنس ، وكذلك المَعَز والمعيزُ والأُمْعُوز والمِعزى . وواحد المَعْز ماعز ؛ مثل صاحب وصَحْب وتاجر وتَجْر . والأنثى ماعزة وهى العَنز ، والجمع مواعز . وأمعز القومُ كثرت معزاهم . والمَعَّاز صاحب المعزى . قال أبو محمـد الفَقْعسِىّ يصف إبلاً بكثرة اللبن و يفضلها على الغنم فى شدة الزمان :

يَكِلْنَ كَيْلًا ليس بالمَمْحُوقِ * إذْ رَضِىَ المعَّـاز باللعُوق

والمَعَز الصلابة من الأرض . والأمْعَز : المكان الصُّلب الكثير الحصى ؛ والمَعْـزَاء أيضا . واستمعز الرجل فى أمره : جَدّ . ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ﴾ منصوب بـ « حرّم » . ﴿أَمِ الأُنْثَيَيْنِ﴾ عطف عليـه . وكذا ﴿أَمَّا آشْتَمَلَتْ﴾ . وزيدت مع ألف الوصل مَدّة للفرق بين الاستفهام والخبر . و يجوز حذف الهمزة لأن « أم » تدل على الاستفهام . كما قال :

* تَرُوحُ من الحَىِّ أم تَبْتَكِرْ *

الثالثـــة — قال العلماء : الآية آحتجاج على المشركين فى أمر البَحِيرة وما ذُكر معها . وقولهم : «مَا فِى بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا» . فدلّت على إثبات المناظرة فى العلم ؛ لأن الله تعالى أمر نبيّه عليه السلام بأن يناظرهم ، و يبيّن لهم فساد قولهم. وفيها إثبات القول بالنظر والقياس . وفيها دليل بأن القياس إذا ورد عليه النص بطل القول به .

(١) كذا فى الأصول . والذى فى شواذ ابن خالويه : من المعزى . أبى . وهو الصواب كما فى البحر . وروح المعانى . وقراءة أبى : من المعزى اثنين . فيما يتبادر . وقوله : وهى قراءة الأكثر راجع إلى الإسكان فى المعز .

ويروى : « إذا ورد عليه النقض » ؛ لأن الله تعالى أمرهم بالمقايسة الصحيحة ، وأمرهم بطرد علتهم . والمعنى : قل لهم إن كان حرّم الذكور فكل ذكر حرام . و إن كان حرم الإناث فكل أنثى حرام . و إن كان حرّم ما آشتملت عليه أرحام الأنثيين ، يعنى من الضأن والمعز ، فكل مولود حرام ، ذكرا كان أو أنثى . وكلها مولود فكلها إذًا حرام لوجود العـلة فيها [(١)] ، فبـين آنتقاض علّتهـم وفساد قولهم ؛ فأعلم الله سبحانه أن ما فعلوه من ذلك آفتراء عليـه ﴿ نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ ﴾ أى بعـلم إن كان عندكم ، مِن أين هـذا التحريم الذى افتعلتموه ؟ ولا علم عندهم ؛ لأنهـم لا يقرءون الكتب . والقول فى : ﴿ وَمِنَ الْإِبِلِ آثْنَيْنِ ﴾ وما بعده كما سبق ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ ﴾ أى [هل] [(٢)] شاهدتم الله قد حرّم هذا . ولمّا لزمتهم الحجة أخذوا فى الآفتراء فقالوا : كذا أمر الله . فقال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ آفْتَرَى عَلَى آللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بيّن أنهم كذبوا ؛ إذ قالوا ما لم يقم عليه دليل .

قوله تعـالى : قُلْ لَآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥)

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً ﴾ أعلم الله عز وجل فى هذه الآية بمـا حرم . والمعـنى : قل يا محمد لا أجـد فيما أوحى إلىّ محـرّما إلا هذه الأشـياء ، لا ماتحرمونه بشهوتكم . والآية مكية . ولم يكن فى الشريعـة فى ذلك الوقت محرم غير هـذه الأشـياء ، ثم نزلت سـورة « المـائدة » بالمدينة . وزيد فى المحرمات كالمنخنقة والمَوْقُوذة [(٣)] وَالْمُتَرَدِّيَة وَالنَّطِيحَة والخمر وغير ذلك . وحرّم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة أكل كلّ ذى ناب من السباع وكلّ ذى مخلب من الطير .

(١) فى ك : فيكون .　(٢) من ك ، ع .　(٣) الموقوذة : الشاة المضروبة حتى تموت ولم تذك . والمتردية : التى تقع من جبل ، أو تطيح فى بئر ، أو تسقط من موضع مشرف فتموت .

Marfat.com

وقد اختلف العلماء فى حكم هذه الآية وتأويلها على أقوال : الأول — ما أشرنا إليه من أن هذه الآية مكية ، وكلّ محرّم حرّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم أو جاء فى الكتاب مضموم إليها؛ فهو زيادة حكم من الله عز وجل على لسان نبيه عليه السلام . على هذا أكثر أهل العلم من [أهل][1] النظر ، والفقه والأثر . ونظيره نكاح[2] المرأة على عمتها وعلى خالتها مع قوله : « وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ[3] » وكحكمه باليمين مع الشاهد مع قوله : «فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ[4]» وقد تقدم . وقد قيل : إنها منسوخة بقوله عليه السلام "أكْلُ كلِّ ذى ناب من السباع حرام" أخرجه مالك ، وهو حديث صحيح . وقيل : الآية مُحكَمة ولا يحرم إلا ما فيها . وهو قول يُرْوى عن ابن عباس وابن عمر وعائشة ، وروى عنهم خلافه . قال مالك : لا حرام بيّنٌ إلا ما ذُكر فى هذه الآية . وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : تضمنت هذه الآية تحليلَ كلِّ شىء من الحيوان وغيره إلا ما استثنى فى الآية من الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير . ولهذا قلنا : إن لحوم السباع وسائر الحيوان ما سوى الإنسان والخنزير مباح . وقال الكِيَا الطبرى : وعليها بنى الشافعى تحليل كلّ مسكوت عنه؛ أخْذًا من هذه الآية؛ إلا ما دلّ عليه الدليل . وقيل : إن الآية جواب لمن سأل عن شىء بعينه فوقع الجواب مخصوصا . وهذا مذهب الشافعى . وقد روى الشافعى عن سعيد بن جُبير أنه قال : فى هذه الآية أشياء سألوا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابهم عن المحرمات من تلك الأشياء . وقيل : أى لا أجد فيما أوحى إلىّ أى فى هذه الحال حال الوحى ووقت نزوله ، ثم لا يمتنع حدوث وَحْىٍ بعد ذلك بتحريم أشياء أخر . وزعم ابن العربى أن هذه الآية مدنية [وهى[5]] مكية فى قول الأكثرين ، نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم يوم نزل عليه « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ[6] » ولم ينزل بعدها ناسخ فهى مُحْكَمة ، فلا مُحَرَّم إلا ما فيها ، وإليه أميل .

قلت : وهذا ما رأيته قاله غيره . وقد ذكر أبو عمر بن عبد البر الإجماعَ فى أن سورة « الأنعام » مكية إلا قوله تعالى : «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ» الثلاث الآيات ، وقد

---

(١) من ع . (٢) أى تحريمه . (٣) راجع جـ ٥ ص ١٢٤ .
(٤) راجع جـ ٣ ص ٣٩١ . (٥) من ك . (٦) راجع جـ ٦ ص ٤٧ .

Marfat.com

نزل بعدها قرآن كثير وسُنَن جمّة ، فنزل تحريم الخمر بالمدينة فى « المائدة » . وأجمعوا على أن نهيه عليه السلام عن أكل كلّ ذى ناب من السباع إنما كان منه بالمدينة . قال إسماعيل ابن إسحاق : وهذا كله يدل على أنه أمرٌ كان بالمدينة بعد نزول قوله : « قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا » لأن ذلك مكىّ .

قلت : وهذا هو مَثار الخلاف بين العلماء . فعدل جماعة عن ظاهر الأحاديث الواردة بالنهى عن أكل كل ذى ناب من السباع ؛ لأنها متأخرة عنها والحصر فيها ظاهر فالأخذ بها أولى؛ لأنها إما ناسخة لما تقدمها أو راجحة على تلك الأحاديث . وأما القائلون بالتحريم فظهر لهم وثبت عندهم أن سورة « الأنعام » مكية ؛ نزلت قبل الهجرة ، وأن هذه الآية قصد بها الرد على الجاهلية فى تحريم البحيرة والسائبة والوَصِيلة والحامى ، ثم بعد ذلك حرّم أمورا كثيرة كالحُمُر الإنسية ولحوم البغال وغيرها ، وكل ذى ناب من السباع وكلّ ذى مخلب من الطير . قال أبو عمر : ويلزم على قول من قال : « لا محرم إلا مافيها » ألا يحرّم مالم يذكر آسم الله عليه عمدا ، وتُستحلّ الخمر المحرمة عند جماعة المسلمين . وفى إجماع المسلمين على تحريم خمر العنب دليل واضح على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وجد فيما أوحىَ إليه محرما غير ما فى سورة « الأنعام » مما[1] قد نزل بعدها من القرآن . وقد اختلفت الرواية عن مالك فى لحوم السباع والحمير والبغال فقال [مرّة[2]] : هى محرمة ؛ لما ورد من نهيه عليه السلام عن ذلك ، وهو الصحيح من قوله على مافى الموطأ . وقال مرّة : هى مكروهة ، وهو ظاهر المدوّنة ؛ لظاهر الآية ؛ ولما روى عن آبن عباس وابن عمر وعائشة من إباحة أكلها ، وهو قول الأوزاعىّ . روى البخارى من رواية عمرو بن دينار قال : قلت لجابر بن زيد إنهم يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحُمُر الأهلية ؟ فقال : قد كان يقول ذلك الحكَم بن عمرو الغفارىّ عندنا بالبصرة ، ولكن أبى ذلك البحرُ آبن عباس ، وقرأ « قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا » . وروى عن ابن عمر أنه سئل عن لحوم السباع فقال : لا بأس بها . فقيل له : حديث[3] أبى ثعلبة الخُشَنى

---

(١) فى ك : فيا .		(٢) من ك .		(٣) حديث أبى ثعلبة : أنه روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أكل كل ذى ناب من السباع حرام » .

Marfat.com

فقال : لا ندع كتاب الله ربّنا لحديث أعرابي[1] يبول على ساقيه . وسئل الشعبي عن لحم الفيل والأسد فتلا هذه الآية : وقال القاسم : كانت عائشة تقول لما سمعت الناس يقولون حرّم كل ذى ناب من السباع : ذلك حلال ، وتتلوا هذه الآية « قُل لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا » ثم قالت : أن كانت البُرْمة ليكون ماؤها أصفر من الدم ثم يراها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يحرّمها . والصحيح فى هذا الباب ما بدأنا بذكره ، وأن ما ورد من المحرمات بعد الآية مضموم إليها معطوف عليها . وقد أشار القاضى أبو بكر بن العربي إلى هذا فى قبسه خلاف ما ذكر فى أحكامه قال : رُوى عن ابن عباس أن هذه الآية من آخر ما نزل ؛ فقال البغداديون من أصحابنا : إن كل ما عداها حلال ، لكنه يكره أكل السباع . وعند فقهاء الأمصار منهم مالك والشافعى وأبو حنيفة وعبد الملك أن أكل كل ذى ناب من السباع حرام ، وليس يمتنع أن تقع الزيادة بعد قوله : « قُل لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا » بما يَرِدُ من الدليل فيها ؛ كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : "لا يحل دم آمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث" فذكر الكفر والزنى والقتل . ثم قال علماؤنا : إن أسباب القتل عشرة بما ورد من الأدلة ، إذ النبى صلى الله عليه وسلم إنما يخبر بما وصل إليه من العلم عن البارى تعالى ؛ وهو يمحُو ما يشاء ويُثبت ويَنْسخ ويقدّر . وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أكل كل ذى ناب من السباع حرام" وقد رُوى أنه نهى عن أكل كلّ ذى ناب من السباع وذى مخلب من الطير . وروى مسلم عن مَعْنٍ عن مالك : « نُهِىَ عن أكل كل ذى مخلب من الطير » والأول أصح وتحريم كل ذى ناب من السباع هو صريح المذهب وبه ترجم مالك فى الموطأ حين قال : تحريم أكل كلّ ذى ناب من السباع . ثم ذكر الحديث وعقبه بعد ذلك بأن قال : وهو الأمر عندنا . فأخبر أن العمل اطرد مع الأثر . قال القشيري : فقول مالك « هذه الآية من أواخر ما نزل » لا يمنعنا من[2] أن نقول : ثبت تحريم بعض هذه الأشياء بعد هذه الآية ، وقد أحل الله الطيبات وحرّم الخبائث ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كلّ ذى ناب من السباع ، وعن أكل كلّ ذى مخلب من الطير ، ونهى عن لحوم الحمُر الأهلية

(١) فى جـ و ى و ك و ب : لقول .   (٢) فى ك : بل نقول ثبت الخ .

عام خَيْبَر . والذى يدل على صحة هذا التأويل الإجماعُ على تحريم العَذِرة والبَوْل والحشرات المستقْذرة والحُمُر مما ليس مذكورا فى هذه الآية .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ مُحَرَّمًا ﴾ قال ابن عطية : لفظة التحريم إذا وردت على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها صالحة أن تنتهى بالشىء المذكور غاية الحظْر والمنع ، وصالحة [أيضا](١) بحسب اللغة أن تقف دون الغاية فى حيّز الكراهة ونحوها ؛ فما اقترنت به قرينة التسليم من الصحابة المتأولين وأجمع الكل منهم ولم تضطرب فيه ألفاظ الأحاديث وجب بالشرع أن يكون تحريمه قد وصل الغاية من الحظر والمنع ، ولحِق بالخنزير والميتة والدّم ، وهذه صفة تحريم الخمر . وما اقترنت به قرينة اضطراب ألفاظ الأحاديث واختلفت الأئمة فيه مع علمهم بالأحاديث كقوله عليه السلام : "أكل كلّ ذى ناب من السباع حرام" . وقد ورد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذى ناب من السباع ، ثم اختلفت الصحابة ومن بعدهم فى تحريم ذلك ، فجاز لهذه الوجوه لمن ينظر أن يحمل لفظ التحريم على المنع الذى هو الكراهة ونحوها . وما اقترنت به قرينة التأويل كتحريمه عليه السلام لحوم الحمر الإنسية فتأول بعض الصحابة الحاضرين ذلك لأنه نَجَس ، وتأول بعضهم ذلك لئلا تفنى حَمولة الناس ، وتأول بعضهم التحريم المحض . وثبت فى الأمة الاختلاف فى تحريم لحمها ؛ فجائز لمن ينظر من العلماء أن يحمل لفظ التحريم [على المنع الذى هو الكراهة ونحوها](١) بحسب اجتهاده وقياسه .

قلت : وهذا عقد حَسَن فى هذا الباب وفى سبب الخلاف على ما تقدم . وقد قيل : إن الحمار لا يؤكل ، لأنه أبدى جوهره الخبيث حيث نزا على ذكر وتلوط ؛ فسمّى رِجْسا . قال محمد بن سيرين : ليس شىء من الدواب يعمل عمل قوم لوط إلا الخنزير والحمار ؛ ذكره الترمذىّ فى نوادر الأصول .

الثالثة — روى عمرو بن دينار عن أبى الشَّعثاء عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء ، فبعث الله نبيه عليه السلام وأنزل كتابه وأحلّ حلاله وحرّم حرامه ؛ فما أحلّ فهو حلال وما حرّم فهو حرام وما سكت عنه فهو عَفْوٌ ، وتلا هذه الآية

(١) من ك .

Marfat.com

« قُلْ لَا أَجِدُ » الآية . يعني ما لم يبيّن تحريمه فهو مباح بظاهر هذه الآية . وروى الزُّهرِيّ عن عبيد الله بن عبد الله بن عباس أنه قرأ « قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا » قال : إنما حرّم من الميتة أكلها ، ما يؤكل منها وهو اللحم ؛ فأما الجلد والعظم والصوف والشعر فحلال . وروى أبو داود عن مِلْقام بن تَلِب عن أبيه قال : صحبت النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم أسمع لحشَرة الأرض تحريما . الحشَرة : صغار دواب الأرض كاليَرابيع والضِّباب والقنافذ . ونحوها ؛ قال الشاعر :

أكلنا الرُّبَى[1] يا أمَّ عمرو ومن يكُنْ * غَريبا لَدَيْكم يأكُلِ الحشرات

أى مادبّ ودَرج . والرُّبَى جمع رُبْيَة وهى الفارة . قال الخطابي : وليس فى قوله « لم أسمع لها تحريما » دليل على أنها مباحة ؛ لجواز أن يكون غيره قد سمعه . وقد اختلف الناس فى اليَرْبوع والوَبْر[2] والجمع وِبَارٌ ونحوهما من الحشرات ؛ فرخص فى اليَرْبُوع عروةُ وعطاء والشافعيّ وأبو ثور . قال الشافعي : لا بأس بالوَبْر وكرهه ابن سيرين والحَكَم وحمّاد وأصحاب الرأى . وكره أصحاب الرأى القُنْفذ . وسئل عنه مالك بن أنس فقال : لا أدرى . وحكى أبو عمرو : وقال مالك لا بأس بأكل القنفذ . وكان أبو ثَوْر لا يرى به بأسا ؛ وحكاه عن الشافعيّ . وسئل عنه ابن عمر فتلا « قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا » الآية ؛ فقال شيخ عنده سمعت أبا هريرة يقول : ذُكر عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " خبيثة من الخبائث " . فقال ابن عمر : إن كان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هـذا فهو كما قال . ذكره أبو داود . وقال مالك : لا بأس بأكل الضبّ واليربوع والوَرَل[3] . وجائز عنده أكل الحيات إذا ذُكّيت ؛ وهو قول ابن أبى ليلى والأوزاعيّ . وكذلك الأفاعى والعقارب والفار والعَظَاية[4] والقُنْفُذ والضِّفْدِع . وقال ابن القاسم : ولا بأس بأكل خشاش الأرض وعقاربها ودودها فى قول مالك ؛ لأنه قال : موته فى المـاء لا يفسده . وقال مالك : لا بأس بأكل فراخ النحل ودود الجبن والتمر ونحوه .

(١) فى ك : الدبى . ولعل قول المؤلف : مادب ودرج يدل على هذا لكن البيت : الربا . كما فى باقى الأصول واللسان والتاج ، وفيهما : غريبا بأرض . (٢) الوبر (بالتسكين) : دويبة على قدر السنور غبراء أو بيضاء من دواب الصحراء حسنة العينين شديدة الحياء تكون بالغور . (٣) الورل : دابة على خلقة الضب إلا أنه أعظم منه ، يكون فى الرمال والصحارى . (٤) العظاية : دويبة كسام أبرص .

Marfat.com

والحجة له حديث مِلْقام بن تَلِب[(١)] ، وقول ابن عباس وأبى الدرداء : ما أحل الله فهو حلال وما حرّم فهو حرام وما سكت عنه فهو عَفْو . وقالت عائشة فى الفارة : ما هى بحرام ، وقرأت « قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرما » . ومن علماء أهل المدينة جماعةٌ لا يجيزون أكل كل شىء من خِشاش الأرض وهَوَامّها ؛ مثل الحيات والأوزاغ والفار وما أشبهه . وكل ما يجوز قتله فلا يجوز عنـد هؤلاء أكله ، ولا تعمَل الذكاة عندهم فيـه . وهو قول ابن شهاب وعُروة والشافعىّ وأبى حنيفة وأصحابِه وغيرهم . ولا يؤكل عند مالك وأصحابِه شىء من سباع الوحش كلّها ، ولا الهِرّ الأهلى ولا الوحشى لأنه سَبُع . وقال : ولا يؤكل الضبع ولا الثعاب ، ولا بأس بأكل سباع الطير كلها : الرخم والنُّسور والعِقبان وغيرها ، ما أكل الجيف منها وما لم يأكل . وقال الأوزاعى الطير كله حلال ، إلا أنهم يكرهون الرَّخم . وحجة مالك أنه لم يجد أحدا من أهل العلم يكره أكل سباع الطير ، وأنكر الحديث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم "أنه نهى عن أكل كلّ ذى مخلب من الطير" . ورُوى عن أشهب أنه قال : لا بأس بأكل الفيل إذا ذُكِّىَ ؛ وهو قول الشَّعْبىّ ، ومنع منه الشافعى . وكره النعمان وأصحابُه أكل الضَّبُع والثعلب . ورخّص فى ذلك الشافعىّ ، ورُوى عن سعد بن أبى وَقّاص أنه كان يأكل الضِّباع . وحجة مالكٍ عموم النهى عن أكل كل ذى ناب من السـباع ، ولم يخص سَبُعا من سَبُع . وليس حديث الضّبع الذى خرّجه النّسائى فى إباحة أكلها ممـا يعارض به حديث النهى ؛ لأنه حديث انفـرد به عبد الرحمن بن أبى عمّـار ، وليس مشهورا بنقل العـلم ، ولا ممن يحتج به إذا خالفه من هو أثبت منه . قال أبو عمر : وقد رُوى النهى عن أكل كل ذى ناب من السـباع من طرق متواترة . وروى ذلك جمـاعة من الأئمة الثقات الأثبات ، ومُحالٌ أن يعارَضوا بمثل حديث ابن أبى عمار . قال أبو عمر : أجمع المسلمون على أنه لا يجوز أكل القرد لنهى رسـول الله صلى الله عليه وسلم عن أكله ، ولا يجوز بيعه لأنه لا منفعة فيه . قال : وما علمت أحدا رخّص فى أكله إلا ما ذكره عبد الرزاق عن مَعمر عن أيوب . سئل مجاهد عن أكل القرد فقال : ليس من بهيمة الأنعام .

(١) فى التهذيب : ابن التلب .

Marfat.com

قلت : ذكر ابن المنـذر أنه قال : روينا عن عطاء أنه سئل عن القرد يُقتل فى الحَرَم فقال : يحكم به ذوا عَدْل . قال : فعلى مذهب عطاء يجوز أكل لحمه ؛ لأن الجزاء لا يجب على من قتل غير الصّيد . وفى (بحر المذهب) للرُّويانِى على مذهب الإمام الشافعى : وقال الشافعىّ يجوز بيـع القرد لأنه يُعلَّم و ينتفع به لحفظ المتاع . وحكى الكَشْفَلِىّ عن ابن شريح يجوز بيعه لأنه ينتفع به . فقيل له : وما وجه الانتفاع به؟ قال تفرح به الصبيان . قال أبو عمر : والكلب والفيـل وذو الناب كله عندى مثل القِرد . والحجة فى قول رسول الله صلى الله عليه وسـلم لا فى قول غيره . وقد زعم ناس أنه لم يكن فى العرب من يأكل لحم الكلب إلا قوم من فَقْعَس . وروى أبو داود عن ابن عمر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل الجَلَّالة وألبانها . فى رواية : عن الجَلَّالة فى الإبل أن يُركب عليها أو يُشرب من ألبانها . قال الحَلِيمىّ أبو عبد الله : فأما الجَلَّالة فهى التى تأكل العذِرة من الدواب والدَّجاج المُخَـلَّاة . ونهى النبىّ صلى الله عليه وسلم عن لحومها . وقال العلماء : كل ما ظهر منها ريح العَذِرة فى لحمه أو طعمه فهو حرام ، وما لم يظهر فهو حلال . وقال الخَطّابىّ : هـذا نَهْىُ تَنَزُّه وتَنَظُّف ، وذلك أنها إذا اغتذت الجِلّة وهى العذرة وُجد نتن رائحتها فى لحومها ، وهذا إذا كان غالب علفها منها ؛ فأما إذا رعت الكلأ واعتلفت الحَبّ وكانت تنال مع ذلك شيئا من الجلة فليست بجلَّالة ؛ وإنمـا هى كالدّجاج المُخَلَّاة ، ونحوها من الحيوان الذى ربما نال الشىء منها وغالب غذائه وعلفه من غيره فلا يكره أكلها . وقال أصحاب الرأى والشافعى وأحمد : لا تؤكل حتى تُحبس أياما وتعلف عَلَفًا غيرها ؛ فإذا طاب لحمها أكلت . وقد روى فى حديث "أن البقر تُعلف أربعين يوما ثم يؤكل لحمهـا" . وكان ابن عمر يحبس الدجاج ثلاثا ثم يذبح . وقال إسحاق : لا بأس بأكلها بعـد أن يغسل لحمها غسلا جيدا . وكان الحسن لا يرى بأسا بأكل لحم الجلَّالة ؛ وكذلك مالك بن أنس . ومن هـذا الباب نُهى أن تلقى فى الأرض العـذرة . روى عن بعضهم قال: كنّا نَكْرى أرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشترط على من يكريها ألا يلقى فيها العذرة . وعن ابن عمر أنه كان يكرى أرضه و يشترط ألا تُدْمَن(1) بالعذرة . وروى أن رجلا كان يزرع أرضه بالعـذرة فقال له عمر : أنت الذى تطعم الناس ما يخرج منهم .

(1) دمن الأرض (من باب نصر) : أصلحها بالسرجين . وهو السماد . وفى ب و ك : تدنس .

وآختلفوا فى أكل الخيل ؛ فأباحها الشافعيّ، وهو الصحيح ، وكرهها مالك . وأما البغل فهو متولّد من بين الحمار والفرس ، وأحدهما مأكول أو مكروه وهو الفرس ، والآخر محرّم وهو الحمار ؛ فغلّب حكم التحريم ؛ لأن التحليل والتحريم إذا اجتمعا فى عين واحدة غلّب حكم التحريم . وسيأتى بيان هذه المسألة فى « النحل »[1] إن شاء الله بأوعب من هذا . وسيأتى حكم الجراد فى « الأعراف »[2] . والجمهور من الخلف والسلف على جواز أكل الأرنب . وقد حكى عن عبد الله بن عمرو بن العاص تحريمه . وعن ابن أبى ليلى كراهته . قال عبد الله ابن عمرو : جيء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا جالس فلم يأكلها ولم ينه عن أكلها . وزعم أنها تحيض . ذكره أبو داود . وروى النسائى مُرْسلا عن موسى بن طلحة قال : أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم بأرنب قد شواها رجل وقال : يا رسول الله ، إنى رأيت بها دما ؛ فتركها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يأكلها ، وقال لمن عنده : "كُلُوا فإنى لو آشتهيتها أكلتها" .

قلت : وليس فى هذا ما يدل على تحريمه ، وإنما هو نحوٌ من قوله عليه السلام : "إنه لم يكن بأرض قومى فأجدنى أعافه" . وقد روى مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك قال : مررنا بمَرّ الظهران فاستنفجنا[3] أرنبا فسعَوْا عليه فَلَغبوا[4] . قال : فسعيت حتى أدركتها ، فأتيت بها أبا طلحة فذبحها ، فبعث بوركها وفخذها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتيت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبله .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ أى آكل يأكله . وروى عن ابن عامر أنه قرأ « أَوْحى » بفتح الهمزة . وقرأ على بن أبى طالب « يَطَّعِمه » مثقل الطاء ، أراد يتطعمه فادغم . وقرأت عائشة ومحمد بن الحنفية « على طاعم طعمه » بفعل ماض ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ قرئ بالياء والتاء ؛ أى إلا أن تكون العين أو الجثة أو النفس ميتةً . وقرئ « يكون » بالياء « ميتة » بالرفع بمعنى تقع وتحدث ميتة . والمسفوح : الجارى الذى يسيل

(١) راجع جـ ١٠ ص ٧٣ فما بعد . (٢) راجع ص ٢٦٨ فما بعد من هذا الجزء .
(٣) قال النووى : معنى استنفجنا : أثرنا ونفرنا . ومر الظهران (بفتح الميم والظاء) : موضع قريب من مكة .
(٤) فلغبوا : أى أعيوا وعجزوا عن أخذها .

Marfat.com

وهو المحرّم . وغيره مَعْفُوٌّ عنه . وحكى الماوردى أنّ الدم غير المسفوح أنه إن كان ذا عروق يجمُد عليها كالكبد والطحال فهو حلال ؛ لقوله عليه السلام : "أحلّت لنا ميتتان ودمان" الحديثَ . وإن كان غير ذى عروق يجمد عليها ، وإنما هو مع اللحم ففى تحريمه قولان : أحدهما أنه حرام ؛ لأنه من جملة المسفوح أو بعضه . وإنما ذكر المسفوح لاستثناء الكبد والطحال منه . والثانى أنه لا يحرم ؛ لتخصيص التحريم بالمسفوح .

قلت : وهو الصحيح . قال عمران بن حُدير : سألت أبا مِجْلَز عما يتلطخ من اللحم بالدم، وعن القِدر تعلوها الحمرة من الدم فقال : لا بأس به ، إنما حرّم الله المسفوح . وقالت نحوه عائشة وغيرُها ، وعليه إجماع العلماء . وقال عكرمة : لولا هذه الآية لاتّبع المسلمون من العروق ما تتبع اليهود . وقال إبراهيم النَّخَعِىّ : لا بأس بالدم فى عرق أو مخ . وقد تقدّم هذا وحكم المضطر فى « البقرة »(1) [والله أعلم(2)] .

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ لما ذكر الله عز وجل ما حرّم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم عقّب ذلك بذكر ما حرّم على اليهود ؛ لما فى ذلك من تكذيبهم فى قولهم : إن الله لم يحرّم علينا شيئا ، وإنما نحن حرمنا على أنفسنا ما حرّمه إسرائيل على نفسه . وقد تقدّم فى «البقرة» معنى «هادوا»(3) . وهذا التحريم على الذين هادوا إنما هو تكليف بَلْوَى وعقوبة . فأوّل ما ذكر من المحرّمات عليهم كلّ ذى ظُفر . وقرأ الحسن «ظُفْر» بإسكان الفاء . وقرأ أبو السَّمّال «ظِفْر» بكسر الظاء وإسكان الفاء . وأنكر أبو حاتم كسر

(1) راجع جـ ٢ ص ٢١٦ وما بعدها . (2) فى جـ ، وفى ز : يتلوه . (3) راجع جـ ١ ص ٤٣٢ .

Marfat.com

الظاء وإسكان الفاء، ولم يذكر هذه القراءة وهى لغة. «وظِفِر» بكسرهما. والجمع أظفار وأظفور وأظافير؛ قاله الجوهري. وزاد النحاس عن الفراء أظافير وأظافرة (١)؛ قال ابن السِّكِّيت: يقال رجل أظفر بين الظَّفَر إذا كان طويل الأظفار؛ كما يقال: رجل أشعر للطويل الشعر. قال مجاهد وقتادة: «ذِي ظُفُرٍ» ماليس بمنفرج الأصابع من البهائم والطير؛ مثل الإبل والنَّعام والإوَزّ والبَطّ. وقال ابن زيد: الإبل فقط. وقال ابن عباس: «ذِي ظُفُرٍ» البعير والنعامة؛ لأن النعامة ذات ظفر كالإبل. وقيل: يعني كل ذي مخلب من الطير وذي حافر من الدواب. ويسمى الحافر ظفرا استعارة. وقال الترمذي الحكيم: الحافر ظفر، والمخلب ظفر؛ إلا أن هذا على قدره، وذاك على قدره وليس ههنا استعارة؛ ألا ترى أن كليهما يُقَص ويؤخذ منهما وكلاهما جنس واحد: عَظْمٌ لَيِّن رِخْوٌ. أصله من غذاء ينبت فيُقَصّ مثل ظفر الإنسان، وإنما سمى حافرا لأنه يحفر الأرض بوقعه عليها. وسُمّي مِخلبا لأنه يخلب الطير برءوس تلك الإبر منها. وسمي ظُفْرا لأنه يأخذ الأشياء بظفره، أي يظفر به الآدمي والطير.

الثانيــة — قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ قال قتادة: يعني الثُّرُوب وشحم الكُلْيَتَيْن؛ وقاله السدي. والثُّرُوب جمع الثَّرْب، وهو الشحم الرقيق الذي يكون على الكَرِش. قال ابن جريج: حرم عليهم كل شحم غير مختلط بعظم أو على عظم، وأحل لهم شحم الجنب والأَلْيَة؛ لأنه على العُصْعُص.

الثالثــة — قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ «ما» فى موضع نصب على الاستثناء «ظُهُورُهُمَا» رفع بـ«حَمَلَتْ». ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَا﴾ فى موضع رفع عطف على الظهور أى أو حملت حواياهما، والألف واللام بدل من الإضافة. وعلى هذا تكون الحوايا من جملة ما أحل. ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ «ما» فى موضع نصب عطف على «مَا حَمَلَتْ» أيضا هذا أصح ما قيل فيه. وهو قول الكسائي والفراء وأحمد بن يحيى. والنظر يوجب أن يعطف

(١) فى الأصول: «... أظافر وأظافرة؛ مثل ضاربة وضوارب ...» فقوله: مثل ضاربة وضوارب خطأ من النساخ.

Marfat.com

الشيء على ما يليـه ، إلا ألّا يصح معناه أو يدل دليل على غير ذلك . وقيـل : إن الاستثناء في التحليل إنما هو ما حملت الظهور خاصّةً، وقوله : «أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ» معطوف على المحرم . والمعنى: حرمت عليهم شحومهما أو الحوايا أو ما آختلط بعظم؛ إلا ما حملت الظهور فإنه غير محرم . وقد آحتج الشافعيّ بهذه الآية في أن من حلف ألّا يأكل الشحم حنث بأكل شحم الظهور ؛ لآستثناء الله عزّ وجل ما على ظهورهما من جملة الشحم .

الرابعــة ــ قوله تعالى : « أَوِ الْحَوَايَا » : الحوايا : هي المباعر، عن آبن عباس وغيره . وهو جمع مَبْعَر ، سمي بذلك لآجتماع البَعْر فيه . وهو الزبل . وواحد الحوايا حاوِياء؛ مثل قاصِعاء وقواصع . وقيل : حاوية مثل ضاربة وضوارب . وقيل : حَوِيَّة مثلُ سفينة وسفائن . قال أبو عبيدة : الحوايا ما تَحوّى من البطن أي آستدار. وهي مُتَحوِّية أي مستديرة. وقيل : الحوايا خزائن اللبن ، وهو يتصل بالمباعر وهي المصارين . وقيل : الحَوَايا الأمْعاء التي عليها الشحوم . والحوايا في غير هذا الموضع : كساء يحوّى حول سنام البعير . قال آمرؤ القيس .

جعلْنَ حَــوَايَا واقْتَعَدْنَ قعائدًا * وخفّفن من حَوْك العراق المُنَمَّق

فأخبر الله سبحانه أنه كتب عليهم تحريم هذا في التوراة ردًّا لكذبهم . ونصُّه فيها : «حرمت عليكم » الميتــة والدم ولحم الخنزير وكلّ دابّة ليست مشــقوقة الحافر وكلّ حوت ليس فيــه سفاسق (١) » أي بياض . ثم نسخ الله ذلك كلّه بشريعة محمد صلى الله عليــه وسلم . وأباح لهم ما كان محرما عليهم من الحيوان ، وأزال الحرج بمحمد عليه السلام ، وألزم الخليقة دين الإسلام بحلّه وحِرْمه وأمره ونَهْيه .

الخامســـة ــ لو ذَبحوا أنعامهم فأكلوا ما أحلّ الله لهم في التوراة وتركوا ما حَرّم [عليهم] (٢) فهل يحلّ لنــا ؟ قال مالك في كتاب محمد : هي محرّمة . وقال في سماع المبسوط : هي محللة وبه قال آبن نافع . وقال آبن القاسم : أكرهه . وجه الأول أنهم يدينون بتحريمها ولا يقصدونها عند الذكاة ، فكانت محرّمة كالدم . ووجه الثاني وهو الصحيح أن الله عزّ وجل رفع ذلك التحريم بالإسلام ، وآعتقادُهم فيــه لا يؤثّر ؛ لأنه آعتقاد فاسد ؛ قاله آبن العــربي .

(١) كذا في ز . ولعل المراد الطرائق . وفي ك : شفاشق . وفي ى : شناشق . (٢) من ك .

Marfat.com

قلت : ويدلّ على صحته ما رواه الصحيحان عن عبد الله بن مُغَفَّل قال : كنا محاصرين قصر خَيْبَر ، فرمى إنسان بجراب فيه شحم فنَزَوْتُ(١) لآخذه فالتفتُّ فإذا النبيّ صلى الله عليه وسلم فاستحيَيْت منه . لفظ البخاريّ . ولفظ مسلم : قال عبد الله بن مُغَفَّل : أصبت جرابا من شحم يومَ خَيْبر ، قال فالتزمته وقلت : لا أعطِى اليوم أحدا من هذا شيئا ، قال : فالتفتُّ فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متبسما . قال علماؤنا : تبسّمه عليه السلام إنما كان لما رأى من شدة حرص ٱبن مُغَفَّل على أخذ الجراب ومن ضنته به ، ولم يأمره بطرحه ولا نهاه . وعلى جواز الأكل مذهب أبى حنيفة والشافعيّ وعامة العلماء ؛ غير أن مالكا كرهه لخلاف فيه . وحكى ٱبن المنذر عن مالك تحريمها ؛ وإليه ذهب كبراء أصحاب مالك . ومُتَمَسَّكهم ما تقدم ، والحديثُ حجةٌ عليهم ؛ فلو ذبحوا كلّ ذى ظفر قال أَصْبَغ : ما كان محرما فى كتاب الله من ذبائحهم فلا يحلّ أكله ؛ لأنهم يدينون بتحريمها . وقاله أشهب وٱبن القاسم ، وأجازه ٱبن وهب . وقال ٱبن حبيب : ما كان محرما عليهم ، وعلمنا ذلك من كتابنا فلا يحلّ لنا من ذبائحهم ، وما لم نعلم تحريمه إلا من أقوالهم وٱجتهادهم فهو غير محرم علينا من ذبائحهم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى ذلك التحريم . فذلك فى موضع رفع ، أى الأمر ذلك . ﴿ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ﴾ أى بظلمهم ، عقوبة لهم لقتلهم الأنبياء وصدّهم عن سبيل الله ، وأخذهم الربا واستحلالهم أموال الناس بالباطل . وفى هذا دليل على أن التحريم إنما يكون بذنب ؛ لأنه ضيق فلا يُعْدَل عن السَّعة إليه إلا عند المؤاخذة . ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فى إخبارنا عن هؤلاء اليهود عما حرّمنا عليهم من اللحوم والشحوم .

قوله تعالى : فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

(١) النزو : الوثب

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ ﴾ شرط ، والجواب ﴿ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾ أى من سعة رحمته حَلُم عنكم فلم يعاقبكم فى الدنيا . ثم أخبر بما أعدّه لهم فى الآخرة من العذاب فقال : ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ وقيل : المعنى ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين إذا أراد حلوله فى الدنيا .

قوله تعـالى : سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ قال مجاهد : يعنى كفار قريش . [قالوا][(1)] : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ يريد البَحِيرة والسَّائبة والوصيلة . أخبر الله عز وجل بالغيب عما سيقولونه ؛ وظنوا أن هذا[(1)] متمسَّكٌ لهم لمـا لزمتهم الحجة وتيقَّنوا باطل ما كانوا عليـه . والمعنى : لو شاء الله لأرسل إلى آبائنا رسـولا فنهاهم عن الشِّرك وعن تحريم ما أحلّ [لهم][(1)] فينتهوا فأتبعناهم على ذلك . فردّ الله عليهم ذلك فقال : ﴿ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ أى أعندكم دليل على أن هذا كذا ؟ : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ فى هـذا القول . ﴿ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ لتوهموا ضعفتكم أن لكم حجّة . [وقوله][(1)] « وَلَا آبَاؤُنَا » عطف على النون فى « أَشْرَكْنَا » . ولم يقل نحن ولا آباؤنا ؛ لأن قوله « ولا » قام مقام توكيد المضمر ؛ ولهذا حسن أن يقال : ما قمت ولا زيد .

قوله تعـالى : قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ أى التى تقطع عذر المحجوج ، وتزيل الشك عمن نظر فيها . فحجّته البالغة على هذا تبيينه أنه الواحد ، وإرسالُه الرسل والأنبياء ؛ فبيّن التوحيد بالنظر فى المخلوقات ، وأيد الرسـل بالمعجزات ، ولزم أمره كلّ مكلَّف . فأما علمه وإرادته

(1) من ك .

وكلامه فغيب لا يطّلع عليه العبد، إلا من ٱرتضى من رسول . ويكفى فى التكليف أن يكون العبد بحيث لو أراد أن يفعل ما أُمر به لأمكنه . وقد لبّست المعتزلة بقوله : « لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا » فقالوا : قد ذم الله هؤلاء الذين جعلوا شركهم عن مشيئته . وتعلّقهم بذلك باطل؛ لأن الله تعالى إنما ذمّهم على ترك ٱجتهادهم فى طلب الحق . وإنما قالوا ذلك على جهة الهزء واللعب . نظيره « وَقَالُوا لَوْ شَاءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ »(١) . ولو قالوه على جهة التعظيم والإجلال والمعرفة به لما عابهم؛ لأن الله تعالى يقول : « وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا أَشْرَكُوا »(٢) . و « مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ »(٢) . « وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ »(٣) . ومثله كثير . فالمؤمنون يقولونه لعلم منهم بالله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ ﴾ أى قل لهؤلاء المشركين أحضروا شهداءكم على أن الله حرّم ما حرّمتم . و « هَلُمَّ » كلمة دعوة إلى شىء، ويستوى فيه الواحد والجماعة والذكر والأنثى عند أهل الحجاز، إلا فى لغة نجد فإنهم يقولون : هَلُمَّا هَلُمُّوا هَلْمُمِّى، يأتون بالعلامة كما تكون فى سائر الأفعال . وعلى لغة [أهل](٤) الحجاز جاء القرآن، قال الله تعالى : « وَٱلْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا »(٥) يقول : هَلُمّ أى أحضر أوٱدن . وَهَلُمّ الطعام، أى هاتِ الطعام . والمعنى هاهنا : هاتوا شهداءكم، وفتحت الميم لٱلتقاء الساكنين، كما تقول: ردّ ياهذا، ولا يجوز ضمها ولا كسرها . والأصل عند الخليل « ها » ضُمّت إليها « لُمّ » ثم حذفت الألف لكثرة الاستعمال . وقال غيره . الأصل « هل » زيدت عليها « لُمّ » . وقيل : هى على لفظها تدل على معنى هات . وفى كتاب العَيْن للخليل : أصلها هل أؤمّ، أى هل أقصدك، ثم كَثُر استعمالهم

(١) راجع جـ ١٦ ص ٧٣ .　(٢) راجع ص ٦٠ و ٦٦ من هذا الجزء .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٨١ .　(٤) من ك .　(٥) راجع جـ ١٤ ص ١٥١ .

Marfat.com

إياها حتى صار المقصود بقولها [احضر[1]] كما أن [تعال[1]] أصلها أن يقولها المتعالى للمتسافل؛ فكثر آستعمالهم إياها حتى صار المتسافل يقول للمتعالى تعال .

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ أى شهد بعضهم لبعض ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أى فلا تصدق أداء الشهادة إلا من كتاب أو على لسان نبي، وليس معهم شيء من ذلك .

قوله تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

فيه أربع عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾ أى تقدّموا وآقرءوا حقًّا يقينا كما أوحى إلىّ ربّى، لا ظنًّا ولا كذبا كما زعمتم . ثم بيّن ذلك فقال : «أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» يقال للرجل : تعالَ، أى تقدّم، وللمرأة تعالَىْ، وللاثنين والآثنتين تعاليا، ولجماعة الرجال تعالَوْا ، ولجماعة النساء تعالَيْن؛ قال الله تعالى : «فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ[2]» . وجعلوا التقدّم ضربا من التعالى

(١) من ب و ك . (٢) راجع جـ ١٤ ص ١٧٠ .

والآرتفاع ؛ لأن المأمور بالتقدّم فى أصل وضع هذا الفعل كأنه كان قاعدا فقيل له تعال ، أى آرفع شخصك بالقيام وتقدّم ؛ وآتسعوا فيه حتى جعلوه للواقف والماشى ؛ قاله ابن الشَّجرى.

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ مَا حَرَّمَ ﴾ الوجه فى « ما » أن تكون خبرية فى موضع نصب بـ « أَتْلُ » والمعنى : تعالوا أتل الذى حرّم ربكم عليكم ؛ فإن علّقت « عليكم » بـ « حرّم » فهو الوجه ؛ لأنه الأقرب وهو اختيار البصريين . وإن علقته بـ « أتل » فجيّد لأنه الأسبق ؛ وهو اختيار الكوفيين ؛ فالتقدير فى هذا القول أتل عليكم الذى حرم ربكم . ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا ﴾ فى موضع نصب بتقدير فعل من لفظ الأوّل ، أى أتل عليكم ألا تشركوا ؛ أى أتل عليكم تحريم الإشراك ، ويحتمل أن يكون منصوبا بما فى « عليكم » من الإغراء ، وتكون « عليكم » منقطعة مما قبلها ؛ أى عليكم ترك الإشراك ، وعليكم إحسانا بالوالدين ، وألّا تقتلوا أولادكم وألا تقربوا الفواحش . كما تقول : عليك شأنك ؛ أى آلزم شأنك . وكما قال : « عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ »[(١)] قال جميعه ابن الشَّجرى . وقال النحاس : يجوز أن تكون « أن » فى موضع نصب بدلا من « ما » ؛ أى أتل عليكم تحريم الإشراك . واختار الفرّاء أن تكون « لا » للنهى ؛ لأن بعده « ولا » .

الثالثـة — هذه الآية أمر من الله تعالى لنبيّه عليه السلام بأن يَدْعُوَ جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرّم الله . وهكذا يجب على مَن بعده من العلماء أن يبلّغوا الناس ويبيّنوا لهم ما حرّم الله عليهم مما حلّ . قال الله تعالى : « لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ »[(٢)] . وذكر ابن المبارك : أخبرنا عيسى بن عمر عن عمرو بن مُرة أنه حدّثهم قال : قال ربيع بن خُثيم[(٣)] لجليس له : أيسرّك أن تؤتى بصحيفة من النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يُفَكّ خاتمها ؟ قال نعم . قال فآقرأ « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ » فقرأ إلى آخر الثلاث الآيات . وقال كعب الأحبار : هذه الآية مفتتح التوراة[(٤)] : « بسم الله الرحمن الرحيم قل تعالوا أتل ما حرم

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٤٢ . (٢) راجع جـ ٤ ص ٣٠٤ . (٣) قال فى التقريب : (الربيع بن خثيم) بضم المعجمة وفتح المثلثة ، ولكن فى الخلاصة : بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة . تهذيب .
(٤) تقدّم عن كعب أيضا أوّل السورة أن أوّل الأنعام مفتتح التوراة .

Marfat.com

ربكم عليكم " الآية . وقال ابن عباس : هــذه الآيات المحكمات التى ذكرها الله فى ســورة « آل عمران » [١] أجمعت عليها شرائع الخلق، ولم تنسخ قط فى مِلّة . وقد قيــل : إنها العشر كلمات المنزّلة على موسى .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الإحسان إلى الوالدين بِرُّهما وحفظهما وصيانتهما وامتثال أمرهما وإزالة الرِّق عنهما وترك السّلطنة عليهما . و « إحسانا » نصب على المصدر، وناصبه فعل مضمر من لفظه؛ تقديره وأحسنوا بالوالدين إحسانا .

الخامســـة — قوله تعــالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ الإملاق الفقر : أى لا تَئِدوا — من الموءودة [٢] — بناتكم خشية العَيْلة، فإنى رازقكم وإياهم . وقد كان منهم من يفعل ذلك بالإناث والذكور خشــية الفقر، كما هو ظاهر الآية . أملق أى افتقر . وأملقه أى أفقره؛ فهو لازم ومتعد . وحكى النقاش عن مُؤَرِّج أنه قال : الإملاق الجوع بلغة لَخْم . وذكر منذر بن سعيد أن الإملاق الإنفاق؛ يقال : أملق ماله بمعنى أنفقه . وذُكر أن عليًّا [رضى الله عنــه] [٣] قال لامرأته : أمْلِقى من مالك ماشئت . ورجل مَلِق يُعطى بلسانه ما ليس فى قلبه . فالمَلَق لفظ مشترك [يأتى] [٤] بيانه فى موضعه .

السادســـة — وقد يستدلّ بهذا من يمنع العَــزْل؛ لأن الوَأْد يرفع الموجود والنَّسْل؛ والعزل منع أصل النسل فتشابها؛ إلا أن قتل النفس أعظم وِزرا وأقبح فعلا؛ ولذلك قال بعض علمائنا : إنه يُفهم من قوله عليه السلام فى العزل : "ذلك الوأد الخفى" الكراهة لا التحريم . وقال به جماعة من الصحابة وغيرهم . وقال بإباحته أيضا جماعةٌ من الصحابة والتابعين والفقهاء؛ لقوله عليه السلام : " لا عليكم ألّا تفعلوا فإنما هو القَدَر" أى ليس عليكم جناح فى ألّا تفعلوا . وقد فَهِم منه الحسن ومحمد بن المُثنَّى النَّهْىَ والزَّجْرَ عن العزل . والتأويل الأوّل أوْلى؛ لقوله عليه الســلام : " وإذا أراد الله خلق شىء لم يمنعه شىء " . قال مالك والشافعى : لا يجوز العزل عن الحرّة إلا بإذْنها [٥] . وكأنهم رأوا الإنزال من تمام لذتها، ومن حقها فى الولد، ولم يروا ذلك فى الموطوءة بملك اليمين، إذ له أن يعزل عنها بغير إذنها، إذ لا حق لها فى شىء مما ذُكر .

(١) كذا فى ز و ك و ى ، وفى ب الأنعام . (٢) فى ك : من الوأد . (٣) من ع .
(٤) من ك . (٥) فى ك : ولا بإذنها .

Marfat.com

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ نظيره « وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ »(١) . فقوله : « مَا ظَهَرَ » نهى عن جميع أنواع الفواحش وهى المعاصى . « وَمَا بَطَنَ » ما عقد عليه القلب من المخالفة . وظهر و بطن حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له من الأشياء . و « ما ظهر » نصب على البدل من « الفواحش » . « وما بطن » عطف عليه .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ الألف واللام فى « النفس » لتعريف الجنس؛ كقولهم : أهلك الناسَ حُبُّ الدرهم والدينار . ومثله « إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً »(٢) ألا ترى قوله سبحانه : « إِلَّا الْمُصَلِّينَ »؟ وكذلك قوله : « وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ »(٣) لأنه قال : « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا » . وهذه الآية نهى عن قتل النفس المحرّمة ، مؤمنةً كانت أو معاهدة إلا بالحق الذى يوجب قتلها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عَصَمَ مالَه ونفسه إلا بحقّه وحسابُهم على الله " . وهذا الحق أمور : منها منع الزكاة وترك الصلاة؛ وقد قاتل الصدّيق مانعِي الزكاة . وفى التنزيل « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ »(٤) وهذا بيّن . وقال صلى الله عليه وسلم : " لا يَحِلّ دَمُ آمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة " . وقال عليه السلام : " إذا بُويع لخليفتين فآقتلوا الآخرَ منهما "(٥) . أخرجه مسلم . وروى أبو داود عن آبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به " . وسيأتى بيان هذا فى « الأعراف »(١) . وفى التنزيل : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا »(٦) [الآية](٧) . وقال : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا »(٨) الآية . وكذلك من شقّ عصا المسلمين وخالف إمامَ جماعتهم وفرّق كلمتهم وسعى فى الأرض فسادا بانتهاب الأهل والمال والبَغْيِ على السلطان والامتناع من حكمه يُقْتَل . فهذا معنى قوله : « إِلَّا بِالْحَقِّ » .

(١) راجع ص ٧٤ وص ٢٤٣ من هذا الجزء . (٢) راجع ج ١٨ ص ٢٨٩ . (٣) راجع ج ٢٠ ص ١٧٨ . (٤) راجع ج ٨ ص ٧١ . (٥) أى فادفعوا الآخر بالقتل إذا لم يمكن دفعه بدونه . (٦) راجع ج ٦ ص ١٤٧ . (٧) من ك . (٨) راجع ج ١٦ ص ٣١٥ .

Marfat.com

وقال عليه السلام : "المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم لا يُقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد فى عهده ولا يتوارث أهل ملّتين". وروى أبو داود والنّسائى عن أبى بَكْرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من قتل مُعاهدا فى غير كُنْهِه[١] حرّم الله عليه الجنة". وفى رواية أخرى لأبى داود قال : " مَن قتل رجلا من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عاما". فى البخارى فى هذا الحديث " وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما " . خرّجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ إشارة إلى هذه المحرمات . والكاف والميم للخطاب، ولاحظّ لهما من الإعراب . ﴿وَصَّاكُم بِهِ﴾ الوصيّة الأمر المؤكّد المقدور . والكاف والميم محله النصب؛ لأنه ضمير موضوع للمخاطبة . وفى وَصّى ضمير فاعل يعود على الله . وروى مطر الوَرّاق عن نافع عن ابن عمر أن عثمان بن عفان رضى الله عنه أشرف على أصحابه فقال: عَلَامَ تقتلونى ! فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا يحل دَمُ آمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث رجل زنى بعد حصانة[٢] فعليه الرجم أو قتل عمدا فعليه القوَد أو آرتدّ بعد إسلامه[٣] فعليه القتل" فوالله ما زنيتُ فى جاهلية ولا إسلام، ولا قتلتُ أحدا فأقيد نفسى به، ولا آرتددت منذ أسلمت، إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، ذلكم الذى ذكرت لكم وصّاكم به لعلكم تعقلون !

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أى بما فيه صلاحه وتثميره[٤]، وذلك بحفظ أصوله وتثمير فروعه. وهذا أحسن الأقوال فى هذا؛ فإنه جامع . قال مجاهد : « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » بالتجارة فيه ، ولا تشترى منه ولا تستقرض .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ يعنى قوته ، وقد تكون فى البدن ، وقد تكون فى المعرفة بالتجربة ، ولا بُدّ من حصول الوجهين؛ فإن الأَشُدّ وقعت هنا مطلقة.

---

(١) كنه الأمر: حقيقته. وقيل: وقته وقدره. وقيل: غايته؛ يعنى من قتله فى غير وقته أو غاية أمره الذى يجوز فيه قتله. (عن النهاية). (٢) فى ب وجـ و ك: إحصانه. (٣) فى ك: منه. (٤) فى جـ: تدبيره.

Marfat.com

وقد جاء بيان حال اليتيم فى سورة « النساء » مقيدة، فقال : « وَٱبْتَلُوا ٱلْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا »(١) فجمع بين قوة البدن وهو بلوغ النكاح، و بين قوة المعرفة وهو إيناس الرشد؛ فلو مُكِّن اليتيم من ماله قبل حصول المعرفة و بعد حصول القوة لأذهبه فى شهواته و بَقِيَ صُعْلوكا لا مال له . وخصّ اليتيم بهذا الشرط لغفلة الناس عنه وٱفتقاد الآباء لأبنائهم فكان الاهتبال(٢) بفقيد الأب أولى. وليس بلوغ الأشُدّ مما يبيح قُرْب ماله بغير الأحسن؛ لأن الحرمة فى حق البالغ ثابتة . وخصّ اليتيم بالذكر لأن خصمه الله . والمعنى : ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن على الأبد حتى يبلغ أشده . وفى الكلام حذف؛ فإذا بلغ أشده وأونس منه الرشد فادفعوا إليه ماله . وٱختلف العلماء فى أشُدّ اليتيم؛ فقال ابن زيد : بلوغه. وقال أهل المدينة . بلوغه و إيناس رشده . وعند أبى حنيفة : خمس وعشرون سنة . قال ابن العربى : وعجبا من أبى حنيفة، فإنه يرى أن المقدّرات لا تثبت قياسا ولا نظرا و إنما تثبت نقلا، وهو يثبتها بالأحاديث الضعيفة، ولكنه سكن دار الضَّرْب فكثر عنده المُدَلَّس، ولو سكن المعدن كما قيض الله لمالك لما صدر عنه إلا إبريز الدِّين(٣) . وقد قيل : إن انتهاء الكهولة فيها مُجْتَمع الأشُدّ ؛ كما قال سُحَيم بن وَثِيل :

أخُو خمسين مُجْتَمِعٌ أشُدِّى * ونَجَّذَنِى مُدَاوَرَةُ الشُّئُونِ(٤)

يروى « نجذنى » بالدال والذال . والأشُدّ واحد لا جمع له؛ بمنزلة الآنُك وهو الرّصاص . وقد قيل : واحده شدّ؛ كفَلْس وأفْلُس . وأصله من شدّ النهار أى ٱرتفع؛ يقال : أتيته شدّ النهار ومدّ النهار . وكان محمد بن محمد الضَّبى ينشدُ بيت عنترة :

عَهْدِى به شَدَّ النهار كأنما * خُضِبَ اللَّبَانُ ورأسُه بالعِظْلِمِ(٥)

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٣ .

(٢) الاهتبال : اغتنام الفرصة وابتغاؤها ، وتكسبها : أى الاشتغال بشأن اليتيم أولى .

(٣) فى ك : المذهب ، وفى ز : الذهب . يريد بدار الضرب : بغداد . والمعدن : معدن الشريعة ومنجمها وهى المدينة المنورة .

(٤) رجل منجد (بالدال والذال) : جرب الأمور وعرفها وأحكمها . ومداورة الشئون : مداولة الأمور ومعالجتها .

(٥) اللبان (بفتح اللام) : الصدر . وفى ع : «البنان» وهى رواية . والعظلم (بكسر العين واللام وسكون الظاء) : صبغ أحمر ، وقيل : هو الوسمة ، شجر له ورق يختضب به .

Marfat.com

[وقال][(١)] آخـــر :

أُطيف به شَـــدّ النهار ظَعينةٌ * طويلةُ أنقاء اليدَيْن سَحُوق[(٢)]

وكان سيبويه يقول : واحده شِـدّة . قال الجوهرى : وهو حَسَن فى المعنى ؛ لأنه يقال : بلغ الغلام شِدّته ، ولكن لاتجمع فِعْلة على أفْعُل ، وأما أنْعُم فإنما هو جمع نُعْم ؛ من قولهم : يوم بُؤْس ويوم نُعْم . وأما قول من قال : واحده شَدّ ؛ مثلُ كَلْب وأكلُب ، وشِدّ مثـل ذئب وأذؤب فإنمـا هو قياس . كما يقولون فى واحد الأبابيل : إبَّوْل ، قياسا على عِجَّوْل ، وليس هو شيئا سُمِع من العرب . قال أبو زيد : أصابتنى شُدَّى على فُعْلَى ؛ أى شِدّة . وأشدّ الرجل إذا كانت معه دابة شديدة .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ أى بالاعتدال فى الأخذ والعطاء عنـد البيع والشراء . والقسط : العدل . ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أى طاقتها فى إيفاء الكيل والوزن . وهـذا يقتضى أن هذه الأوامر إنمـا هى فيما يقع تحت قُدرة البشر من التحفّظ والتحـرّز . وما لا يمكن الاحتراز عنـه من تفاوت ما بين الكَيْلين ، ولا يدخل تحت قُدرة البشر فمعفوٌّ عنه . وقيـل : الكيل بمعنى المِكْيَال . يقال : هذا كذا وكذا كَيْلا ؛ ولهـذا عطف عليه بالميزان . وقال بعض العلماء : لمـا علم الله سبحانه من عبـاده أن كثيرا منهم تَضيق نفسُه عن أن تَطيب للغير بما لا يجب عليها له أمر المعطى بإيفاء ربّ الحق حقه الذى هو له ، ولم يكلفه الزيادةَ ؛ لمـا فى الزيادة عليه من ضيق نفســه بها . وأمر صاحبَ الحقّ بأخذ حقه ولم يكلفه الرضا بأقلّ منـه ؛ لمـَا فى النقصان من ضيق نفسه . وفى موطأ مالك عن يحيى بن سعيد أنه بلغه عن عبد الله بن عباس أنه قال : ما ظهر الغُلُول فى قوم قطُّ إلا ألقى الله فى قلوبهم الرّعب ، ولا فشا الزنى فى قوم إلا كَثُر فيهـم الموت ، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق ، ولا حَكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهـم الدّم ، ولا خَتر[(٣)] قوم بالعهد إلا سلط الله عليهم العدو[(٤)] . وقال ابن عباس أيضا : إنكم معشر الأعاجم قد وُلِّيتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم [الكيل والميزان[(٥)]] .

(١) من ك . (٢) السحوق : المرأة الطويلة . (٣) الختر : الغدر . وفى ك : غدر .
(٤) رواه الطبرانى حديثا عن ابن عباس . (٥) من ك .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾ يتضمن الأحكام والشهادات . ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ أى ولو كان الحق على مثل قراباتكم ؛ كما تقدّم فى «النساء»(١) . ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ عامّ فى جميع ما عهده الله إلى عباده . ويحتمل أن يراد به جميع ما انعقد بين إنسانين . وأضيف ذلك العهد إلى الله من حيث أمر بحفظه والوفاء به ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ تتّعظون .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدّم ؛ فإنه لما نهى وأمر حذّر هنا عن اتباع غير سبيله ، فأمر فيها باتباع طريقه على ما نبينه بالأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف . « وأنّ » فى موضع نصب ، أى وأتل أن هذا صراطى ؛ عن الفراء والكسائى . قال الفراء : ويجوز أن يكون خفضا ، أى وصّاكم به وبأن هذا صراطى . وتقديرها عند الخليل وسيبويه : ولأن هذا صراطى ؛ كما قال : « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ »(٢) وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى « وإنّ هذا » بكسر الهمزة على الاستئناف ؛ أى الذى ذكر فى هذه الآيات(٣) صراطى مستقيما . وقرأ ابن أبى إسحاق ويعقوب « وأنْ هذا » بالتخفيف . والمخففة مثلُ المشدّدة ، إلا أن فيه ضمير القصة والشان ؛ أى وأنه هذا . فهى فى موضع رفع . ويجوز النصب . ويجوز أن تكون زائدة للتوكيد ؛ كما قال عز وجل : « فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ »(٤) . والصراط : الطريق الذى هو دين الإسلام . ﴿ مُسْتَقِيمًا ﴾ نصب على الحال ، ومعناه مستويا قويما لا اعوجاج فيه . فأمر باتباع طريقه الذى طرّقه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه ونهايتُه الجنة . وتشعّبت منه طرق فمن سلك الجادّة نجا ، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى تميل . روى الدّارمىّ أبو محمد فى مسنده بإسناد صحيح : أخبرنا عفان حدّثنا حماد بن زيد حدّثنا عاصم بن بَهْدَلة عن أبى وائل عن عبد الله بن مسعود قال : خطّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا ، ثم قال : " هذا سبيل الله " ثم خطّ خطوطا عن يمينه وخطوطا عن يساره ثم قال " هذه سُبُلٌ على كل سبيل

(١) راجع جـ ٥ ص ٤١٠ . (٢) راجع جـ ١٩ ص ١٩ . (٣) من ب ، جـ ، ز ، ك .
(٤) راجع جـ ٩ ص ٢٥٩ .

Marfat.com

منها شيطان يدعو إليها " ثم قرأ هذه الاية . وأخرجه ابن ماجه فى سننه عن جابر بن عبد الله قال : كنا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فخط خطًّا ، وخطّ خطّين عن يمينه ، وخط خطين عن يساره، ثم وضع يده فى الخط الأوسط فقال : " هذا سبيل الله — ثم تلا هذه الآية — "وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ " . وهذه السُّبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ فى الفروع، وغير ذلك من أهل التعمّق فى الجدل والخوض فى الكلام . هذه كلّها عرضة للزلل ، ومظنة لسوء المعتقد ؛ قاله ابن عطية .

قلت : وهو الصحيح . ذكر الطبرى فى كتاب آداب النفوس : حدّثنا محمد بن عبد الأعلى الصّنعانى قال حدّثنا محمد بن ثور عن مَعْمَر عن أبَان أن رجلا قال لابن مسعود : ما الصراط المستقيم ؟ قال : تركنا محمد صلى الله عليه وسلم فى أدناه وطرفُه فى الجنة ، وعن يمينه جوادّ(1) وعن يساره جوادّ، وثَمّ رجال يدعون من مرّ بهم فمن أخذ فى تلك الجوادّ انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا » الآية . وقال عبد الله بن مسعود : تعلّموا العلم قبل أن يُقبض ، وقبضه أن يذهب أهله ، ألا و إياكم والتنطّع والتعمّق والبدع(2)، وعليكم بالعتيق(3) . أخرجه الدّارِميّ . وقال مجاهد فى قوله : «وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ » قال : البدع . قال ابن شهاب : وهذا كقوله تعالى : «إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا(4) » الآية . فالهَرَبَ الهربَ، والنَّجاةَ النجاةَ ! والتمسّك بالطريق المستقيم والسّنن القويم، الذى سلكه السلف الصالح، وفيه المتجر الرابح . روى الأئمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أمرتكم به فخذوه وما نهيتكم عنه فانتهوا " . وروى ابن ماجه وغيره عن العِرْباض بن سَارِية قال : وعَظَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذَرَفت

(1) الجواد (بتشديد الدال) : الطرق ، واحدها جادّة ، وهى سواء الطريق . وقيل : معظمه . وقيل : وسطه .

(2) عرف الراغب البدعة بقوله : البدعة فى المذهب إيراد قول لم يستن قائلها وفاعلها فيه بصاحب الشريعة وأماثلها المتقدمة وأصولها المتقنة .

(3) العتيق : القديم الأول .

(4) راجع ص ١٤٩ من هذا الجزء .

منها العيون، ووَجِلَت منها القلوب؛ فقلنا : يا رسول الله، إن هذه لموعظةُ مودّع، فما تعهد إلينا؟ فقال : "قد تركتكم على البيضاء[1] ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بما عرفتم من سنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين بعدى عَضُّوا عليها بالنواجذ وإياكم والأمورَ المحدَثات فإن كلّ بدعة ضلالة وعليكم بالطاعة وإنْ عبدًا حبشيًّا فإنما المؤمن كالجمَل الأَنِف[2] حيثما قيد آنقاد" أخرجه الترمذى بمعناه وصححه.

وروى أبو داود قال حدّثنا آبن كَثير قال أخبرنا سفيان قال: كتب رجل إلى عمر بن عبد العزيز يسأله عن القدر؛ فكتب [إليه][3] : أما بعد، فإنى أوصيك بتقوى الله والاقتصاد فى أمره وآتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وترك ما أحدث المحدِثون بعد ما جرت به سنّته، وكُفُوا مؤونتــه، فعليك بلزوم الجماعة فإنها لك بإذن الله عصمة، ثم آعلم أنه لم يبتدع الناس بدعةً إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها أو عبرةٌ فيها؛ فإن السنة إنما سنّها من قد علم ما فى خلافها من الخطأ والزلل، والحمق والتعمق؛ فارض لنفسك مارضى به القوم لأنفسهم؛ فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وإنهــم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيــه أولى، فإن كان الهُدَى ما أنتم عليه فقد سبقتموهم إليه، ولئن قلتم إنما حدث بعدهم فما أحدثه إلا من آتبع غير سبيلهم ورَغِب بنفسه عنهم؛ فإنهم هم السابقون، قد تكلّموا فيه بما يكفى ووصفوا مايَشْفِى؛ فما دونَهم من مقصر، وما فوقهم من محسر، وقد قصر قوم دونهم فجَفَوْا، وطَمَح عنهم أقوام فغَلَوْا وإنهم مــع ذلك لَعَلَى[4] هُدًى مستقيم . وذكر الحديث . وقال سهل ابن عبد الله التُّسْتَرِى : عليكم بالاقتداء بالأثر والسنة، فإنى أخاف أنه سيأتى عن قليل زمانٌ إذا ذَكر إنسانٌ النبىّ صلى الله عليه وسلم والاقتداءَ به فى جميع أحواله ذَمّوه ونفروا عنه وتبرءوا منه وأذلّوه وأهانوه . قال سهل : إنما ظهرت البدعة على يدى أهل السنة لأنهم ظاهروهم وقاولوهم[5]؛ فظهرت أقاويلهــم وفَشَت فى العــامّة فَسمِعه من لم يكن يسـمعه، فلو تركوهم

(١) البيضاء : يريد صلى الله عليه وسلم الملة والحجة الواضحة التى لا تقبل الشبه أصلا .
(٢) الأنف (ككتف) : المأنوف، وهو الذى عقر الخشاش أنفه؛ فهو لا يمتنع على قائده للوجع الذى به . وقيل : الأنف الذلول .
(٣) من ك وز .
(٤) فى ك : بين .
(٥) فى ك وع : ناولوهم .

Marfat.com

ولم يكلموهم لمات كل واحد منهم على ما فى صدره ولم يظهر منه شىء وحمله معه إلى قبره . وقال سهل : لايُحدث أحدكم بدعةً حتى يُحدث له إبليس عبادة فيتعبّد بها ثم يُحدث له بدعة، فإذا نطق بالبـدعة ودعا الناس إليها نزع منـه تلك الخَدْمة(١) . قال سهل : لا أعلم حديثا جاء فى المبتدعة أشدّ من هذا الحديث: "حجب الله الجنة عن صاحب البدعة" . قال: فاليهودىّ والنصرانىّ أرجى منهـم . قال سهـل : من أراد أن يكرم دينـه فلا يدخل على السلطان ، ولا يخـلُوَن بالنسوان ، ولا يخاصمنّ أهل الأهواء . وقال أيضا : اتبعوا ولا تبتدعوا، فقـد كُفيتم . وفى مسند الدارمىّ : أن أبا موسى الأشعرى جاء إلى عبـد الله بن مسعود فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إنى رأيت فى المسجد آنفا شيئا أنكرته ولم أر والحمـد لله إلا خيرا! قال : فما هو ؟ قال : إن عشت فستراه ، قال : رأيتُ فى المسجد قوما حِلَقًا حِلَقًا جلوسا ينتظرون الصـلاة ؛ فى كل حَلْقة رجل وفى أيديهم حَصًى فيقول لهم : كَبّروا مائة ؛ فيكبرون مائة . فيقول : هَلّلوا مائة ؛ فيهلّلون مائة . ويقول : سبّحوا مائة ؛ فيسبحون مائة . قال : فماذا قلتَ لهم ؟ قال : ما قلتُ لهم شيئا ؛ انتظارَ رأيك وانتظار أمرك . قال أفلا أمرتَهم أن يَعُدّوا سيئاتهم وضَمِنت لهم ألّا يضيع من حسناتهم . ثم مضى ومضينا معـه حتى أتى حَلْقة من تلك الحِلَق ، فوقف عليهم فقال : ما هذا الذى [أراكم](٢) تصنعون؟ قالوا : يا أبا عبد الرحمن، حَصًى نعدّ به التكبير والتهليل [والتسبيح](٢) . قال : فعُـدّوا سيئاتكم وأنا ضامن لكم ألّا يضيع من حسناتكم شىء، ويحكم يا أمة محمد! ما أسرعَ هَلَكتكم . أوَ مُفْتَتِحى(٣) باب ضلالة! قالوا : والله يا أبا عبد الرحمن ، ما أردنا إلا الخير . فقـال : وكم من مريد للخير لن يصيبه . وعن عمـر ابن عبد العزيز وسأله رجل عن شىء من أهل الأهواء والبدع؛ فقال: عليك بدين الأعْراب والغـلام فى الكُتّاب ، والْهُ عمّا سِوَى ذلك . وقال الأوزاعى : قال إبليس لأوليائه مِن أىّ شىء تأتون بنى آدم؟ فقالوا : من كل شىء . قال : فهل تأتونهم من قبل الاستغفار؟ قالوا :

(١) كذا فى ب ، وفى جـ و ك : الخدمة . (٢) عن ك ، وسنن الدارمى . (٣) كذا فى الأصول . والذى فى سنن الدرامى المطبوعة والمخطوطة : « ... ما أسرع هلكتكم . هؤلاء صحابة نبيكم صلى الله عليه وسلم متوافرون ، وهذه ثيابه لم تبل ، وآنيته لم تكسر . والذى نفسى بيده إنكم لعلى ملة هى أهدى ، من ملة محمد . أو مفتتحى باب ... » الخ فى نخ ط دمشق : أو مفتتحوا . على هامش المطبوع : « أو مفتتح » بغير ياء . راجع جـ ١ ص ٦٨ ط الشام .

Marfat.com

هيهات ! ذلك شيء قُرن بالتوحيد . قال : لأَبثّن فيهم شيئا لا يستغفرون الله منه . قال : فبثّ فيهم الأهواء . وقال مجاهد : ولا أدرى أىّ النعمتين علىّ أعظم أن هدانى للإسلام، أو عافانى من هذه الأهواء . وقال الشعبى : إنما سُمّوا أصحاب الأهواء لأنهم يهْوُون فى النار. كله عن الدارمىّ . وسئل سهل بن عبدالله عن الصلاة خلف المعتزلة والنكاح منهم وتزويجهم . فقال : لا، ولا كرامة ! هم كفار(١)، كيف يؤمن من يقول : القرآن مخلوق، ولا جنة مخلوقة ولا نار مخلوقة، ولا لله صراط ولا شفاعة، ولا أحد من المؤمنين يدخل النار ولا يخرج من النار من مذنبى أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولا عذاب القبر ولا منكر ولا نكير، ولا رؤية لربنا فى الآخرة ولا زيادة، وأنّ علم الله مخلوق، ولا يرون السلطان ولا جمعة، ويكفّرون من يؤمن بهذا . وقال الفُضيل بن عِياض : من أحبّ صاحب بدعة أحبط الله عمله، وأخرج نور الإسلام من قلبه . وقد تقدّم هذا من كلامه وزيادة . وقال سفيان الثّورى : البدعة أحبّ إلى إبليس من المعصية؛ المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها . وقال ابن عباس : النظر إلى الرجل من أهل السنة يدعو إلى السُّنّة وينهى عن البدعة، عبادةٌ . وقال أبو العالية : عليكم بالأمر الأوّل الذى كانوا عليه قبل أن يفترقوا . قال عاصم الأحْوَل : فحدّثت به الحسن فقال : قد نصحك والله وصدَقك . وقد مضى فى « آل عمران » معنى قوله عليه السلام : "تفترقت بنو إسرائيل على ثنتين وسبعين فرقة وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين". الحديث(٢) . وقد قال بعض العلماء العارفين : هذه الفرقة التى زادت فى فرق أمة محمد صلى الله عليه وسلم هم قوم يعادون العلماء ويبغضون الفقهاء، ولم يكن ذلك قطّ فى الأمم السالفة . وقد روى رافع بن خَديج أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يكون فى أمتى قوم يكفرون بالله وبالقرآن وهم لا يشعرون كما كفرت اليهود والنصارى " . قال فقلت : جُعلت فداك يارسول الله ! كيف ذاك ؟ قال : " يُقِرّون ببعض ويكفرون ببعض " . قال قلت : جُعلت فداك يارسول الله ! وكيف يقولون؟ قال : "يجعلون إبليس عدلًا لله فى خلقه

(١) ليس من أصول أهل السنة تكفير أهل القبلة بخطإ فى التأويل . فليتأمل .
(٢) راجع جـ ٤ ص ١٥٩ .

Marfat.com

وقوته ورزقه ويقولون الخير من الله والشر من إبليس " . قال : فيكفرون بالله ثم يقرءون على ذلك كتاب الله، فيكفرون بالقرآن بعد الإيمان والمعرفة ؟ قال : " فما تلقى أمتي منهم من العداوة والبغضاء والجدال أولئك زنادقة هذه الأمة " . وذكر الحديث . ومضى في «النساء» وهذه السورة النَّهْيُ عن مجالسة أهل البدع والأهواء، وأن من جالسهم حكمه حكمهم فقال : «وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا»(١) الآية . ثم بيّن في سورة «النساء» وهي مدنية عقوبة من فعل ذلك وخالف ما أمر الله به فقال : «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ»(٢) الآية . فألحق من جالسهم بهم . وقد ذهب إلى هذا جماعة من أئمة هذه الأمة وحكم بموجب هذه الآيات في مُجالس(٣) أهل البدع على المعاشرة والمخالطة منهم أحمد بن حنبل والأوزاعي وابن المبارك فإنهم قالوا في رجل شأنه مجالسة أهل البدع قالوا: يُنْهى عن مجالستهم، فإن انتهى وإلا أُلْحِق بهم ، يعنون في الحكم . وقد حمل عمر بن عبد العزيز الحدّ على مُجالس شَرَبة الخمر ، وتلا(٤) «إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ» . قيل له(٤) : فإنه يقول إني أجالسهم لأباينهم وأرد عليهم . قال يُنْهى عن مجالستهم ، فإن لم ينته أُلْحِق بهم .

قوله تعالى : ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ مفعولان . ﴿ تَمَامًا ﴾ مفعول من أجله أو مصدر . ﴿ عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ قرئ بالنصب والرفع . فمن رفع — وهي قراءة يحيى بن يَعْمَر وابن أبي إسحاق — فعلى تقدير: تماما على الذي هو أحسنُ . قال المهدويّ: وفيه بُعْدٌ من أجل حذف المبتدأ العائد على الذي، وحكى سيبويه عن الخليل أنه سمع «ما أنا بالذي قائلٌ لك شيئا» . ومن نصب فعلى أنه فعل ماض داخل في الصِّلة؛ هذا قول البصريين . وأجاز الكسائي والفرّاء

(١) راجع ص ١٢ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٥ ص ٤١٧ . (٣) في ك : مجالسة .
(٤) كذا في ك . وفي ب وجـ وز وى : قيل لهم . قالوا .

Marfat.com

أن يكون اسما نعتا للذى . وأجازا « مررت بالذى أخيك » ينعتان الذى بالمعرفة وما قاربها . قال النحاس : وهذا محال عند البصريين ؛ لأنه نعت للاسم قبل أن يتم ، والمعنى عندهم : على المحسن . قال مجاهد : تماما على المحسن المؤمن . وقال الحسن فى معنى قوله : « تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ » كان فيهم محسن وغير محسن ؛ فأنزل الله الكتاب تماما على المحسنين . والدليل على صحة هذا القول أن ابن مسعود قرأ : « تماما على الذين أحسنوا » . وقيل : المعنى أعطينا موسى التوراة زيادة على ما كان يُحسنه موسى مما كان علّمه الله قبل نزول التوراة عليه . قال محمد بن يزيد : فالمعنى « تماما على الذى أحسن » أى تماما على الذى أحسنه الله عز وجل إلى موسى عليه السلام من الرسالة وغيرها . وقال عبد الله بن زيد : معناه على إحسان الله تعالى إلى أنبيائه عليهم السلام [من الرسالة[(١)] وغيرها] . وقال الربيع بن أنس : تماما على إحسان موسى من طاعته لله عز وجل؛ وقاله الفراء . ثم قيل : « ثُمَّ » يدلّ على أن الثانى بعد الأول، وقصة موسى صلى الله عليه وسلم وإتيانه الكتاب قبل هذا؛ فقيل : « ثم » بمعنى الواو ؛ أى وآتينا موسى الكتاب ، لأنهما حرفا عطف . وقيل : تقدير الكلام ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : المعنى قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ، ثم أتل ما آتينا موسى تماما . ﴿ وَتَفْصِيلًا ﴾ عطف عليه . وكذا « وَهُدًى وَرَحْمَةً » . ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ نعت ؛ أى كثير الخيرات . ويجوز فى غير القرآن « مباركا » على الحال . ﴿ فَاتَّبِعُوهُ ﴾ أى اعملوا بما فيه . ﴿ وَاتَّقُوا ﴾ أى اتقوا تحريفه . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أى لتكونوا راجين للرحمة فلا تُعذّبون .

قوله تعالى : أَن تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

(١) من ب و ج و ك .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولُوا ﴾ فى موضع نصب . قال الكوفيون . لئلا تقولوا . وقال البصريون : أنزلناه كراهية أن تقولوا . وقال الفراء والكسائى : المعنى فاتقوا أن تقولوا يأهل مكة . ﴿ إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ ﴾ أى التوراة والإنجيل . ﴿ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ أى على اليهود والنصارى ، ولم ينزل علينا كتاب . ﴿ وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴾ أى عن تلاوة كتبهم وعن لغاتهم . ولم يقل عن دراستهما ؛ لأن كل طائفة جماعة . ﴿ أَوْ تَقُولُوا ﴾ عطف على « أَنْ تَقُولُوا » . ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى قد زال العذر بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم . والبينة والبيان واحد ، والمراد محمد صلى الله عليه وسلم ، سماه سبحانه بينة . ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ أى لمن اتبعه . ثم قال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أى فإن كذبتم فلا أحد أظلم منكم . ﴿ صَدَفَ ﴾ أعرض ، و ﴿ يَصْدِفُونَ ﴾ يعرضون . وقد تقدم.[1]

قوله تعالى : هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ معناه أقمت عليهم الحجة وأنزلت عليهم الكتاب فلم يؤمنوا ، فماذا ينتظرون . ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ أى عند الموت لقبض أرواحهم . ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ قال ابن عباس والضحاك : أمرُ ربّك فيهم بالقتل أو غيره ، وقد يذكر المضاف إليه والمراد به المضاف ، كقوله تعالى : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ »[2] يعنى أهل القرية . وقوله : « وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ »[3] أى حُبّ العجل . كذلك هنا : يأتى أمر ربك ، أى عقوبة ربك ، أو عذاب ربّك . ويقال : هذا من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله . وقد تقدم القول

(١) راجع جـ ... ٨ ... (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٤٥ .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٣١

فى مثاله فى « البقرة » وغيرها . ﴿ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ قيل : هو طلوع الشمس من مغربها . بيّن بهذا أنهم يُمْهلون فى الدنيا فإذا ظهرت الساعة فلا إمهال . وقيل : إتيانُ الله تعالى مجيئُه لفصل القضاء بين خلقه فى موقف القيامة ، كما قال تعالى : «وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا» (١) . وليس مجيئه تعالى حركة ولا انتقالا ولا زوالا ؛ لأن ذلك إنما يكون إذا كان الجائى جسما أو جوهرا . والذى عليه جمهور أئمة أهل السنة أنهم يقولون : يجىء وينزل ويأتى . ولا يُكَيِّفون ؛ لأنه « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » (٢) . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث إذا خرجْنَ لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أوكسبت فى إيمانها خيرا : طلوع الشمس من مغربها والدّجالُ ودابّةُ الأرض " . وعن صَفْوان بن عَسّال المُرَادِىّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن بالمغرب بابا مفتوحًا للتوبة مسيرة سبعين سنة لا يُغْلَق حتى تطلع الشمس من نحوه ". أخرجه الدَّارَقُطْنِىّ [والدارمىّ] (٣) والترمذىّ وقال : هذا حديث حسن صحيح . وقال سفيان (٤) : قِبل الشام ، خلقه الله يوم خلق السموات والأرض . "مفتوحا" يعنى للتوبة لا يُغلق حتى تطلع الشمس منه . قال : حديث حسن صحيح .

قلت : وكذّب بهذا كله الخوارجُ (٥) والمعتزلة كما تقدم . وروى ابن عباس قال : سمعت عمر بن الخطاب فقال : أيها الناس ، إن الرَّجْم (٦) حق فلا تُخْدَعُنّ عنه ، وإن آية ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رَجَم ، وأن أبا بكر قد رَجَم ، وأنّا قد رجمنا بعدهما ، وسيكون قوم من هذه الأمة يكذّبون بالرَّجْم ، ويكذّبون بالدّجال ، ويكذّبون بطلوع الشمس من مغربها ، ويكذّبون بعذاب القبر ، ويكذبون بالشفاعة ، ويكذبون بقوم يخرجون من النار بعد ما آمْتَحَشُوا (٧) . ذكره أبو عمر . وذكر الثعلبىّ فى حديث فيه طول عن أبى هريرة عن النبى صلى الله

---

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٥٥ .   (٢) راجع جـ ١٦ ص ٧ .   (٣) من ك .

(٤) سفيان : أحد رجال سند هذا الحديث .   (٥) إن أراد الإباضية كزعمه فإن الرجم عندهم حكم ثابت إلى يوم القيامة لكن من السنة كما صح فى مسند الربيع عن أبى الشعثاء جابر بن زيد ، لا من القرآن . ولم يزالوا يرجمون فى أمامتهم ، ولا أنكروا طلوع الشمس من مغربها ولا خروج الدجال .   (٦) كذا فى الأصول إلا فى ك : يقول . والذى فى الدر المنثور : « ... خطبنا عمر فقال ... » .   (٧) امتحشوا : احترقوا . والمحش : احتراق الجلد وظهور العظم . ويروى : « آمتحشوا » على ما لم يسم فاعله .

Marfat.com

عليه وسلم ما معناه : أن الشمس تُحبس عن الناس – حين تكثر المعاصى فى الأرض ، و يذهب المعروف فلا يأمر به أحد ، و يفشو المنكر فلا يُنْهى عنه – مقدار ليلة تحت العرش ، كلما سجدتْ واستأذنت ربّها تعالى من أين تطلع لم يجىء(١) لها جواب حتى يوافيها القمر فيسجد معها ، و يستأذن من أين يطلع فلا يُجاء(٢) إليهما جواب حتى يُحبسا مقدارَ ثلاث ليال للشمس وليلتين للقمر ؛ فلا يعرف طول تلك الليلة إلا المتهجدون فى الأرض ، وهم يومئذ عصابة قليلة فى كل بلدة من بلاد المسلمين . فإذا تمّ لها مقدار ثلاث ليال أرسل الله تعالى إليهما جبريل عليه السلام فيقول : " إن الربّ سبحانه وتعالى يأمركما أن ترجعا إلى مغاربكما فتطلعا منه ، وأنه لا ضوء لكما عندنا ولا نور" فيطلعان من مغاربهما أسودين ، لاضوء للشمس ولا نور للقمر ، مثلهما فى كسوفهما قبل ذلك . فذلك قوله [تعالى](٣) : « وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ »(٤) وقوله : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ »(٤) فيرتفعان كذلك مثل البعيرين المقرونين ؛ فإذا مابلغ الشمس والقمر سُرَّةَ السماء وهى منصفها جاءهما جبريل [عليه السلام](٣) فأخذ بقرونهما وردّهما إلى المغرب ، فلا يغربهما من مغاربهما ولكن يغربهما من باب التوبة ثم يردّ المصراعين ، ثم يلتئم ما بينهما فيصير كأنه لم يكن بينهما صَدْع . فإذا أغلق باب التوبة لم تقبل لعبْد بعد ذلك توبة ، ولم تنفعه بعد ذلك حسنة يعملها ؛ إلا من كان قبل ذلك محسنا فإنه يجرى عليه ما كان عليه قبل ذلك اليوم ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ . ثم إن الشمس والقمر يُكسيان بعد ذلك الضوء والنور ، ثم يطلعان على الناس و يغربان كما(٥) كانا قبل ذلك يطلعان و يغربان . قال العلماء : و إنما لا ينفع نفسا إيمانُها عند طلوعها من مغربها ؛ لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تُخْمَدُ معه كلّ شهوة من شهوات النفس ، وتَفْتُرُ كلّ قوة من قوى البدن ؛ فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدُنُوّ القيامة فى حال من حضره الموت فى آنقطاع الدّواعى إلى أنواع المعاصى عنهم ، و بطلانها من أبدانهم ؛ فمن تاب فى مثل هذه الحال لم تُقبل توبته ، كما لا تُقبل توبة من حضره الموت . قال صلى الله عليه وسلم : " إن الله يقبل توبة

(١) فى ز : يخرج . وفى ب : فلا يجار إليها . (٢) فى ز : يجاب . وفى ب ، ك : يحار .
(٣) من ز ، ك . (٤) راجع جـ ١٩ ص ٩٤ ، ص ٢٢٥ . (٥) فى ز : على ما .

Marfat.com

العبد مالم يُغَرْغِر " أى تبلغ روحه رأس حلقه، وذلك وقت المعاينة الذى يرى فيه مقعده من الجنة أو مقعده من النار؛ فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله . وعلى هذا ينبغى أن تكون توبة كل من شاهد ذلك أو كان كالمشاهد له مردودة ما عاش؛ لأن علمه بالله تعالى وبنبيه صلى الله عليه وسلم وبوعده(1) قد صار ضرورة . فإن امتدت أيام الدنيا إلى أن ينسى الناس من هذا الأمر العظيم ما كان، ولا يتحدثوا عنه إلا قليلا، فيصير الخبر عنه خاصًا وينقطع التواتر عنه؛ فمن أسلم فى ذلك الوقت أو تاب قُبِل منه . والله أعلم . وفى صحيح مسلم عن عبد الله قال : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا لم أنسه بعد، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أول الآيات خروجًا طلوعُ الشمس من مغربها وخروجُ الدابة على الناس ضُحًى وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبا " . وفيه عن حذيفة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غرفة ونحن أسفلَ منه، فاطلع إلينا فقال : " ما تذكرون " ؟ قلنا : الساعة . قال : " إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات . خَسْفٌ بالمشرق وخَسْفٌ بالمغرب وخَسْفٌ فى جزيرة العرب والدخان والدجال ودابةُ الأرض ويأجوجُ ومأجوج وطلوعُ الشمس من مغربها ونارٌ تخرج من قعر عَدَنٍ تُرَحِّل الناس " . قال شعبة : وحدثنى عبد العزيز بن رُفَيع عن أبى الطفيل عن أبى سَرِيحة مثلَ ذلك، لا يذكر النبىَّ صلى الله عليه وسلم . وقال أحدهما فى العاشرة : ونزول عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم . وقال الآخر : وريحٌ تُلْقِى الناس فى البحر .

قلت : وهذا حديث متقن(2) فى ترتيب العلامات . وقد وقع بعضها وهى الخسوفات على ما ذكر أبو الفرج الجَوْزى من وقوعها بعراق العجم والمغرب، وهلك بسببها خلق كثير؛ ذكره فى كتاب فهوم الآثار وغيره . ويأتى ذكر الدابة فى « النمل(3) » . ويأجوج ومأجوج فى « الكهف(4) » . ويقال : إن الآيات تتابع كالنظم فى الخيط عامًا فعامًا . وقيل : إن الحكمة فى طلوع الشمس من مغربها أن إبراهيم عليه السلام قال لنمروذ : « فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا

(1) فى ك : توعده . (2) كذا فى أ ول . وفى ب وج وك وى : منفق . وفى ز : متفق عليه .
(3) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٤ . (4) راجع جـ ١١ ص ٥٥ .

Marfat.com

مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ»[١] وأن المُلحِدة والمُنَجِّمة عن آخرهم ينكرون ذلك و يقولون : هو غير كائن؛ فيُطْلِعها الله تعالى يوما من المغرب ليُرِىَ المنكرين قدرته أن الشمس فى مُلْكه، إن شاء أطلعها من المشرق و إن شاء أطلعها من المغرب . وعلى هذا يحتمل أن يكون ردّ التو بة والإيمانِ على من آمن وتاب من المنكرين لذلك المكذبين لخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بطلوعها، وأما المصدِّقون لذلك فإنه تُقبَل تو بتهم و ينفعهم إيمانهم قبل ذلك . ورُوى عن عبد الله ابن عباس أنه قال : لا يقبل من كافر عملٌ ولا تو بةٌ[٢] إذا أسلم حين يراها، إلا من كان صغيرا يومئذ؛ فإنه لو أسلم بعد ذلك قُبل ذلك منه . ومن كان مؤمنا مذنبا فتاب من الذنب قُبل منه . ورُوى عن عِمران بن حُصين أنه قال : إنما لم تقبل [تو بته][٣] وقت طلوع [الشمس][٣] حين تكون صيحةٌ فيهلك فيها كثير من النـاس ؛ فمن أسلم أو تاب فى ذلك الوقت وهلك لم تقبل تو بته ، ومن تاب بعـد ذلك قبلت تو بته؛ ذكره أبو الليث السَّمَرْقَنْدِىّ فى تفسيره . وقال عبد الله بن عمر : يبقى الناس بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة حتى يَغْرِسوا النخل . والله بغيبه أعلم . وقرأ ابن عمر وٱبن الزبير[٤] «يوم تأتى» بالتاء؛ مثل «تَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ»[٥] . وذهبتْ بعض أصابعه . وقال جرير :

لمّـا أتى خبرُ الزّبـير تواضعتْ * سُـورُ المدينة والجبالُ الخُشَّعُ[٦]

قال المبرد : التأنيث على المجاورة لمؤنث لا على الأصل . وقرأ ابن سيرين «لا تنفع» بالتاء . قال أبو حاتم : يذكرون أن هـذا غلط من ٱبن سيرين . قال النحاس : فى هذا شىء دقيق من النحو ذكره سيبويه ، وذلك أن الإيمان والنفس كلّ واحد منهما مشتمل على الآخر فأنّث الإيمـان إذ هو من النفس وبها؛ وأنشد سيبويه :

مَشَيْنَ كما ٱهـتزّتْ رماحٌ تَسفّهتْ * أعاليَهـا مَرُّ الرياح النّـواسِمِ[٧]

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٨٣ . (٢) فى ك : إيمانه ولا توبته ولا عمل .
(٣) من ك . (٤) فى ك : ابن مسعود . (٥) راجع جـ ٩ ص ١٣١ .
(٦) وصف مقتل الزبير بن العوام صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف يوم الجمل وقتل فى الطريق غيلة . (٧) البيت لذى الرمة . وصف نساء ، فيقول : إذا مشين اهتززن فى مشيهن وتثنين فكأنهن رماح نصبت فمرت عليها الرياح فاهتزت وتثنت .

Marfat.com

قال المهدوي : وكثيرا ما يؤنثون فعل المضاف المذكر إذا كانت إضافته إلى مؤنث، وكان المضاف بعض المضاف إليه أو منه أو به؛ وعليه قول ذي الرمة :

* مشين ... * البيت

فأنث المر لإضافته إلى الرياح وهي مؤنثة، إذ كان المر من الرياح . قال النحاس : وفيه قول آخر وهو أن يؤنث الإيمان لأنه مصدر كما يذكر المصدر المؤنث؛ مثل « فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ » (١) وكما قال : (٢)

* فقد عذرتنا في صحابته العذر *

ففي أحد الأقوال أنث العذر لأنه بمعنى المعذرة . ﴿ قُلِ ٱنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ بكم العذاب .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ قرأه حمزة والكسائي [فارقوا] (٣) بالألف، وهي قراءة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه؛ من المفارقة والفراق . على معنى أنهم تركوا دينهم وخرجوا عنه . وكان علي يقول : والله ما فرقوه ولكن فارقوه . وقرأ الباقون بالتشديد؛ إلا النخعي فإنه قرأ « فَرَقوا » مخففا؛ أي آمنوا ببعض وكفروا ببعض . والمراد اليهود والنصارى في قول مجاهد وقتادة والسدي والضحاك . وقد وصفوا بالتفرق؛ قال الله تعالى : «وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة» (٤) . وقال : « ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله » (٥) . وقيل : عنى المشركين، عبد بعضهم الصنم وبعضهم الملائكة . وقيل : الآية عامة في جميع الكفار . وكل من ابتدع وجاء بما لم يأمر الله عز وجل به فقد فرق دينه . وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية « إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ » هم أهل البدع والشبهات، وأهل الضلالة من هذه الأمة . وروى بقية بن الوليد

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٥٩ . (٢) البيت لحاتم، وهو في ديوانه واللسان :

أماوي قد طال التجنب والهجر * وقد عذرتني في طلابكم العذر

(٣) من لـ . (٤) راجع جـ ٢٠ ص ١٤٣ . (٥) راجع جـ ٦ ص ٥ .

Marfat.com

حدّثنا شعبة بن الحجاج حدّثنا مُجالد عن الشَّعْبِيّ عن شُريح عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة : " إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا إنمـا هم أصحابُ البِدَع وأصحابُ الأهواء وأصحـاب الضلالة من هـذه الأمة ، يا عائشة إن لكل صاحب ذنب توبة غير أصحاب البـدع وأصحاب الأهواء ليس لهم توبة وأنا برىء منهم وهم منا برآء " . وروى ليث بن أبى سليم عن طاوس عن أبى هريرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قرأ « إِنَّ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ » . ومعنى ﴿ شِيَعًا ﴾ فِرقا وأحزابا . وكل قوم أمْرُهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض فهم شِيَع . ﴿ لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ فأوجب براءته منهـم ؛ وهو كقوله عليه السلام : " مَن غَشّنا فليس منا " أى نحن برآء منه . وقال الشاعر :

إذا حاولتَ فى أَسَـد فُجُـورًا ٭ فإنى لستُ منـك ولستَ مِنّى (١)

أى أنا أبرأ منك . وموضع « فِي شَيْءٍ » نصب على الحال من المضمر الذى فى الخبر ؛ قاله أبو علىّ . وقال الفراء : هو على حذف مضاف ، المعنى لست من عقابهم فى شىء ، وإنما عليك الإنذار (٢) . ﴿ إِنَّمَـا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ﴾ تعزية للنبىّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعـالى : مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ﴾ ابتداء ، وهو شرط ، والجواب ﴿ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَـا ﴾ أى فله عشر حسنات أمثالهـا ، فحذفت الحسنات وأقيمت الأمثال التى هى صفتها مقامها ؛ جمع مِثْـل . وحكى سيبويه : عندى عشرة نسّابات ، أى عنـدى عشرة رجال نسّابات . وقال أبو علىّ : حَسُن التأنيث فى « عَشْرُ أَمْثَالِهَـا » لمـا كان الأمثـال مضافا إلى مؤنّث ، والإضافة إلى المؤنث إذا كان إياه فى المعنى يحسن فيه ذلك ؛ نحو « تَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » .

(١) البيت للنابغة الذبيانى . يقول هـذا لعيينة بن حصن الفزارى . وكان قد دعاه وقومه إلى مقاطعة بنى أسـد ونقض حلفهم فأبى عليه وتوعده بهم . وأراد بالفجور نقض الحلف (عن شرح الشواهد) .

(٢) فى ز : البلاغ .

Marfat.com

وذهبت بعض أصابعه[1] . وقرأ الحسن وسعيد بن جُبير والأعمش « فله عَشْرٌ أمثالُها » . والتقدير : فله عشر حسنات أمثالها . أى له من الجزاء عشرة أضعاف مما يجب له . ويجوز أن يكون له مثل ، ويضاعف المثل فيصير عشرة . والحسنة هنا : الإيمان . أى من جاء بشهادة أن لا إله إلا الله فله بكل عملٍ عمِله فى الدنيا من الخير عشرة أمثاله من الثواب . ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ يعنى الشرك ﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهو الخلود فى النار؛ لأن الشرك أعظم الذنوب ، والنار أعظم العقوبة؛ فذلك قوله تعالى : « جَزَاءً وِفَاقًا[2] » يعنى جزاء وافق العمل . وأما الحسنة فبخلاف ذلك؛ لنص الله تعالى على ذلك . وفى الخبر " الحسنة بعشر أمثالها وأَزيد والسيئة واحدة وأغفر فالويل لمن غلبت آحادُه أعشارَه " . وروى الأعمش عن أبى صالح قال : الحسنة لا إله إلا الله والسيئة الشرك . ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أى لا ينقص ثواب أعمالهم . وقد مضى فى « البقرة[3] » بيان هذه الآية ، وأنها مخالفة للإنفاق فى سبيل الله؛ ولهذا قال بعض العلماء : العشر لسائر الحسنات؛ والسبعمائة للنفقة فى سبيل الله ، والخاص والعام فيه سواء . وقال بعضهم : يكون للعوام عشرة وللخواص سبعمائة وأكثر إلى ما لا يحصى؛ وهذا يحتاج إلى توقيف . والأول أصح؛ لحديث خُريم بن فاتك عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وفيه : " وأما حسنة بعشر فمن عَمِل حسنة فله عشر أمثالها وأما حسنة بسبعمائة فالنفقة فى سبيل الله " .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

---

(١) فى ك : بعض أصحابه . (٢) راجع جـ ١٩ ص ١٧٩ .

(٣) راجع جـ ٣ ص ٢٤٠ ، ٣٠٥ .

Marfat.com

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ لما بيّن تعالى أن الكفار تفرقوا بيّن أن الله هداه إلى الدّين المستقيم وهو دين إبراهيم ﴿ دِينًا ﴾ نصب على الحال؛ عن قُطْرُب . وقيل : نصب بـ « هَدَانِي » عن الأخفش. [قال](١) غيره : انتصب حملا على المعنى ؛ لأن معنى هداني عرّفني دينا . ويجوز أن يكون بدلا من الصراط ، أي هداني صراطا مستقيما دينا . وقيل : منصوب بإضمار فعل ؛ فكأنه قال : اتبعوا دينا، واعرفوا دينا . ﴿ قِيَمًا ﴾ قرأه الكوفيون وابن عامر(٢) بكسر القاف والتخفيف وفتح الياء ، مصدر كالشبع فوصف به . والباقون بفتح القاف وكسر الياء وشدّها ، وهما لغتان . وأصل الياء الواو « قيوِم » ثم أدغمت الواو فى الياء كميت . ومعناه دينا مستقيما لا عِوج فيه ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ بدل ﴿ حَنِيفًا ﴾ قال الزجاج : هو حال من إبراهيم . وقال عليّ بن سليمان : هو نصب بإضمار أعنى .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ قد تقدّم اشتقاق لفظ الصلاة(٣) . وقيل : المراد بها هنا صلاة الليل . وقيل : صلاة العيد . والنّسك جمع نسيكة، وهى الذّبيحة، وكذلك قال مجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وغيرهم . والمعنى : ذَبْحِى فى الحج والعمرة . وقال الحسن : نسكى دينى . وقال الزجاج : عبادتى ؛ ومنه الناسك الذى يتقرب إلى الله بالعبادة . وقال قوم : النسك فى هذه الآية جميع أعمال [البِرّ](٤) والطاعات ؛ من قولك نسك فلان فهو ناسك، إذا تعبّد . ﴿ وَمَحْيَايَ ﴾ أى ما أعمله فى حياتى ﴿ وَمَمَاتِي ﴾ أى ما أوصى به بعد وفاتى . ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى أفرده بالتقرّب بها إليه . وقيل : « وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ » أى حياتى وموتى له . وقرأ الحسن : « نُسْكِى » بإسكان السين . وأهل المدينة «ومحيايْ» بسكون الياء فى الإدراج . والعامة بفتحها ؛ لأنه يجتمع ساكنان . قال النحاس : لم يُجِزه أحد من النحويين إلا يونس ، و إنما أجازه لأن قبله ألفا ، والألف المدّة التى فيها تقوم مقام الحركة . وأجاز يونس اضربانْ زيدا ، و إنما منع النحويون هـذا لأنه جمع بين ساكنين وليس فى الثانى

(١) من ك . (٢) فى ك : والكسائى . لكن فى البحر . وقرأ باقى السبعة : « قيما » كسيد .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٦٨ . (٤) من ك .

إدغام، ومن قرأ بقراءة أهل المدينة وأراد أن يَسْلَم من اللحن وقف على « محياى » فيكون غير لاحنٍ عند جميع النحويين . وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وعاصم الجَحْدريّ « وَمَحْيَيّ » بتشديد الياء الثانية من غير ألف، وهي لغة عُلْيَا مُضَر يقولون : قَفَيّ وعَصَيّ . وأنشد أهل اللغة :

* سَبَقوا هَوَيّ وأَعْنَقُوا لهواهم (١) *

وقد تقدّم .

الثالثة — قال الكِيَا الطبريّ : قوله تعالى : « قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » إلى قوله « قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » استدلّ به الشافعيّ على افتتاح الصلاة بهذا الذكر؛ فإن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم وأنزله في كتابه، ثم ذكر حديث عليّ رضي الله عنه : أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا افتتح الصلاة قال : "وَجَّهتُ وَجْهِيَ للذي فَطَر السمواتِ والأرض حَنيفًا وما أنا من المشركين . إنّ صلاتي ونُسُكي ومَحْيَاي ومماتي لله ربّ العالمين — إلى قوله — وأنا من المسلمين" .

قلت : روى مسلم في صحيحه عن عليّ بن أبي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : "وجهت وجهي للذي فطر السمواتِ والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . إنّ صلاتِي ونسكي ومحياي ومماتِي لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمِرت وأنا أوّل المسلمين . اللّهمّ أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربّي وأنا عبدُك ظلمتُ نفسي واعترفتُ بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا إنه لا يغفر الذّنوب إلا أنت واهدني لأحسنِ الأخلاق لايَهْدِي لأحسنها إلا أنت واصرف عنّي سيئَها لا يصرف عني سيئها إلا أنت لبّيك وسَعْدَيْكَ والخيرُ كلُّه في يديك والشرليس إليك . تباركت وتعاليت . أستغفرك وأتوب إليك". الحديث . وأخرجه الدَّارَقُطْنِيّ وقال في آخره : بَلَغَنَا عن النَّضْر بن شُمَيل وكان من العلماء باللغة وغيرها قال : معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "والشر ليس إليك" الشر ليس مما

(١) هذا صدر بيت لأبي ذؤيب . وعجزه كما في جـ ١ ص ٣٢٨ .

* فتخرموا ولكل جنب مصرع *

Marfat.com

يُتقرب به إليك . قال مالك : ليس التوجيه فى الصلاة بواجب على الناس، والواجب عليهم التكبير ثم القراءة . قال ابن القاسم : لم ير مالك هذا الذى يقوله الناس قبل القراءة : سبحانك اللهم وبحمدك . وفى مختصر ما ليس فى المختصر : أن مالكا كان يقوله فى خاصة نفسه؛ لصحة الحديث به، وكان لا يراه للناس مخافة أن يعتقدوا وجوبه . قال أبو الفرج الجَوْزِىّ : وكنت أصلى وراء شيخنا أبى بكر الدِّينَوَرِىّ الفقيه فى زمان الصِّبا ، فرآنى مرّة أفعل هـذا فقال : يا بنىّ . إن الفقهاء قد اختلفوا فى وجوب قراءة الفاتحة خلف الإمام، ولم يختلفوا أن الافتتاح سُنّة، فاشتغل بالواجب ودَع السُّنن . والحجة لمالك قولُه صلى الله عليه وسلم للأعرابىّ الذى علّمه الصلاة : " إذا قمت إلى الصلاة فكبِّر ثم ٱقرأ " ولم يقل له سبح كما يقول أبو حنيفة ، ولا قل وجهت وجهى ، كما يقول الشافعىّ . وقال لأُبىّ : " كيف تقرأ إذا ٱفتتحت الصلاة " ؟ قال : قلت الله أكبر ، الحمـد لله ربّ العالمين . فلم يذكر توْجيها ولا تسبيحا . فإن قيل : فإن عليا قد أخبر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يقوله . قلنا : يحتمل أن يكون قاله قبل التكبير ثم كبّر ، وذلك حَسَن عندنا . فإن قيل : فقد روى النَّسائىّ والدَّارَقُطْنِى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا ٱفتتح[(1)] الصلاة كبر ثم يقول: "إن صلاتى ونُسُكى " الحديث قلنا : هـذا نحمله على النافلة فى صلاة الليل ؛ كما جاء فى كتاب النَّسائىّ عن أبى سعيد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ٱفتتح[(2)] الصلاة بالليل قال : " سبحانك اللّهُمّ وبحمـدك تبارك ٱسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك " . أو فى النافلة مطلقا ؛ فإن النافلة أخفّ من الفرض ؛ لأنه يجوز أن يُصلّيها قائمـا وقاعدا وراكبا ، وإلى القبلة وغيرها فى السفر ، فأمْرُها أيسر . وقد روى النَّسائىّ عن محمـد بن مَسْلَمة أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم كان إذا قام يصلّى تطوُّعا قال : " الله أكبر . وجَّهتُ وجْهِىَ للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . إن صلاتى ونُسُكى ومَحياى ومماتى لله رب العالمين . لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين . اللّهُمّ أنت الملك لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك " . ثم يقرأ . وهذا نصٌّ فى التطوع لا فى الواجب . وإن صح أن ذلك كان فى الفريضة بعـد التكبير، فيحمل

(١) فى ك وى استفتح . (٢) فى ك و ز و ب : استفتح .

على الجواز والاستحباب ، وأما المسنون فالقراءة بعد التكبير ، والله بحقائق الأمور عليم .
ثم إذا قاله فلا يقل : « وأنا أول المسلمين » . وهي :

الرابعة — إذ ليس أحدهم بأولهم إلا محمدا صلى الله عليه وسلم . فإن قيل : أو ليس إبراهيم والنبيّون قبله ؟ قلنا عنه ثلاثة أجوبة : الأوّل — أنه أول الخلق أجمع معنًى ؛ كما في حديث أبي هريرة من قوله عليه السلام : "نحن الآخِرون الأوّلون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة" . وفي حديث حُذيفة "نحن الآخِرون من أهل الدنيا والأوّلون يوم القيامة المَقْضِيّ لهم قبل الخلائق" . الثاني — أنه أوّلهم لكونه مقدّما في الخلق عليهم ؛ قال الله تعالى : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ »(١) . قال قتادة : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كنت أوّل الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث"(٢) . فلذلك وقع ذكره هنا مقدّما قبل نوح وغيره . الثالث — أول المسلمين من أهل مِلّته ؛ قاله ابن العربيّ ، وهو قول قتادة وغيره . وقد اختلفت الروايات في « أول » ففي بعضها ثبوتُها وفي بعضها لا ، على ما ذكرنا . وروى عِمران بن حُصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا فاطمة قومي فاشهدي أُضحيتَك فإنه يغفر لك في أول قَطْرة من دمها كلَّ ذنب عملتيه ثم قولي : « إن صلاتي ونُسُكي ومَحْيَاي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين »" . قال عمران : يا رسول الله ، هذا لك ولأهل بيتك خاصة أم للمسلمين عامّةً ؟ قال : "بل للمسلمين عامّة" .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي مالكه . روى أن الكفار قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ارجع يا محمد إلى ديننا ، واعبد آلهتنا ، واترك ما أنت

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٢٦ .
(٢) الحديث في كشف الخفا : « كنت أول النبيين » الحديث وفيه بحث فيم . جـ ٢ ص ١٢٩ .

Marfat.com

عليه ، ونحن نتكفّل لك بكل تباعة نتوقعها فى دنياك وآخرتك ؛ فنزلت الآية . وهى استفهام يقتضى التقرير والتوبيخ . و « غير » نصب بـ « أبغى » و « ربًّا » تمييز .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : « وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا » أى لا ينفعنى فى ابتغاء ربٍّ غير الله كونكم على ذلك ؛ إذ لا تكسب كل نفس إلا عليها ؛ أى لا يؤخذ بما أتت من المعصية، وركبت من الخطيئة سواها .

الثانيـة — وقد استدلّ بعض العلماء من المخالفين بهذه الآية على أن بيع الفُضُولىّ لا يصح ، وهو قول الشافعىّ . وقال علماؤنا : المراد من الآية تحمل الثواب والعقاب دون أحكام الدنيا ؛ بدليل قوله تعالى : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » على ما يأتى . وبيع الفُضُولىّ عندنا موقوف على إجازة المالك ، فإن أجازه جاز . هذا عُرْوة البارقىّ قد باع للنبىّ صلى الله عليه وسلم واشترى وتصرّف بغير أمره ، فأجازه النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ وبه قال أبو حنيفة . وروى البُخارىّ والدَّارَقُطْنِىّ عن عُروة بن أبى الجَعْد قال : عرض للنبىّ صلى الله عليه وسلم جَلَب[(١)] فأعطانى دينارا وقال : " أىْ عُرْوة آيت الجَلَب فاشتر لنا شاة بهذا الدينار " فأتيتُ الجَلَب فساومتُ فآشتريت شاتين بدينار ، فجئت أسوقهما — أو قال أقودهما — فلقينى رجل فى الطريق فساومنى فبعته إحدى الشاتين بدينار ، وجئت بالشاة الأخرى وبدينار ، فقلت : يا رسول الله ، هذه الشاة وهذا ديناركم . قال : " كيف صنعت " ؟ فحدثته الحديث . قال : " اللّهمّ بارك له فى صفقة يمينه " . قال : فلقد رأيتُنى أقف فى كُناسة الكوفة[(٢)] فأربح أربعين ألفا قبل أن أصل إلى أهلى . لفظ الدَّارَقُطْنِىّ . قال أبو عمر : وهو حديث جيّد ، وفيه صحة[(٣)] ثبوت النبىّ صلى الله عليه وسلم للشاتين[(٤)] ، ولولا ذلك ما أخذ منه الدينار ولا أمضى له البيع .

وفيه دليل على جواز الوكالة ، ولا خلاف فيها بين العلماء . فإذا قال الموكل لوكيله : آشتر كذا ؛ فاشترى زيادةً على ما وُكّل به فهل يلزم ذلك الآمر أم لا ؟ . كرجل قال لرجل : آشتر بهذا

(١) الجلب (بالتحريك) : ما جلب القوم من غنم وغيره . (٢) محلة بالكوفة يشبه أن تكون سوقا .
(٣) فى جـ : فى صحته ثبوت . (٤) فى ك : للشارين .

Marfat.com

الدرهم رطل لحم، صفته كذا؛ فاشترى له أربعة أرطال من تلك الصفة بذلك الدرهم . فالذى عليه مالك وأصحابه أن الجميع يلزمه إذا وافق الصفة ومن جنسها ؛ لأنه مُحسِن . وهو قول أبى يوسف ومحمد بن الحسن . وقال أبو حنيفة : الزيادة للمشترى . وهذا الحديث حُجّة عليه.

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ أى لا تحمل حاملةٌ ثِقْل أخرى ، أى لا تؤخذ نفس بذنب غيرها . بل كل نفس مأخوذة بجُرْمها ومعاقبة بإثمها . وأصل الوِزْر الثِّقْل ؛ ومنه قوله تعالى : « وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ »[1] . وهو هنا الذنب ؛ كما قال تعالى : « وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ »[2] . وقد تقدّم . قال الأخفش : يقال وَزِر يوزَر، ووَزَر يزِر، ووُزِرَ يُوزَر وِزرا . ويجوز إزْرًا ، كما يقال : إسادة[3] . والآية نزلت فى الوليد بن المغيرة ، كان يقول : اتبعوا سبيلى أحمل أوزاركم ؛ ذكره ابن عباس . وقيل : إنها نزلت ردًّا على العرب فى الجاهلية من مؤاخذة الرجل بأبيه وبابنه وبجريرة حليفه .

قلت : ويحتمل أن يكون المراد بهذه الآية فى الآخرة، وكذلك التى قبلها ؛ فأما [التى][4] فى الدنيا فقد يؤاخذ فيها بعضهم بجُرْم بعض ، لا سيّما إذا لم ينْه الطائعون العاصين، كما تقدّم فى حديث أبى بكر فى قوله : « عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ »[5] . وقال تعالى : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً »[6] . « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » . وقالت زينب بنت جحش : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : "نعم إذا كثُر الخبَث" . قال العلماء : معناه أولاد الزنى . والخَبَث (بفتح الباء) اسم للزنى . فأوجب الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم دِيَة الخطأ على العاقلة حتى لا يُطَلّ[7] دَمُ الحُرّ[8] المسلم تعظيما للدّماء . وأجمع أهل العلم على ذلك من غير خلاف بينهم فى ذلك ؛ فدلّ على ما قلناه . وقد يحتمل أن يكون هذا فى الدنيا ، فى ألّا يؤاخذ زيد بفعل عمرو، وأن كل مباشر لجريمة فعليه مَغَبّتها . وروى أبو داود عن أبى رِمْثة قال : انطلقت مع أبى نحو النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم إن النبىّ

---

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٠٥ . (٢) راجع جـ ٦ ص ٤١٣ وص ٣٤٢ .
(٣) فى قولهم : وسادة . (٤) من ز . (٥) راجع ص ٣٩١ من هذا الجزء .
(٦) راجع جـ ٩ ص ٢٩١ . (٧) طل دمه : ذهب هدرا . (٨) فى ك : المرء .

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم قال لأبي: "ابنك هذا"؟ قال: إي وربِّ الكعبة. قال: "حقا". قال: أشهد به. قال: فتبسم النبيّ صلى الله عليه وسلم ضاحكا من ثبت شَبَهي في أبي[(١)]، ومن حَلِف أبي عليّ. ثم قال: "أمَا إنه لا يَجْني عليك ولا تَجْني عليه". وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى». ولا يعارض ما قلناه أوّلا بقوله: «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ»[(٢)]؛ فإن هذا مبيَّن في الآية الأخرى قوله: «لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ»[(٣)]. فمن كان إماما في الضلالة ودَعَا إليها واتُّبع عليها فإنه يحمل وِزْر من أضلّه من غير أن ينقص من وزر المُضَل[(٤)] شيء، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ «خلائف» جمع خليفة، ككرائم جمع كريمة. وكل من جاء بعد من مضى فهو خليفة. أي جعلكم خَلَفا للأمم الماضية والقرون السالفة. قال الشَّمَّاخ:

تُصيبهمُ وتخطئني المنايا ... وأخلُف في رُبوعٍ عن رُبوعِ

﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ في الخلق والرزق والقوة والبَسْطة والفضل والعلم. ﴿ دَرَجَاتٍ ﴾ نصب بإسقاط الخافض، أي إلى درجات. ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ نصب بلام كَيْ. والابتلاء الاختبار؛ أي ليظهر منكم ما يكون غايته الثواب والعقاب. ولم يزل بعلمه غنيًّا؛ فٱبتلى الموسِر بالغنى وطلب منه الشكر، وٱبتلى المعسر بالفقر وطلب منه الصبر. ويقال: «ليبلوكم» أي بعضكم ببعض. كما قال: «وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً»[(٢)] على ما يأتي بيانه. ثم خوّفهم

(١) كذا في الأصول أي استقراره، وفي سنن أبي داود: بين. (٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٣٠ وص ١٢.
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٩٦. (٤) في ك: المضلين.

فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾ لمن عصاه . ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لمن أطاعه . وقال : « سَرِيعُ الْعِقَابِ » مع وصفه سبحانه بالإمهال ، ومع أن عقاب النار فى الآخرة ؛ لأن كل آت قريب ؛ فهو سريع على هذا . كما قال تعالى : « وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ »[1] . وقال : « يَرَوْنَهُ بَعِيدًا . وَنَرَاهُ قَرِيبًا »[2] . ويكون أيضا سريع العقاب لمن استحقه فى دار الدنيا ؛ فيكون تحذيرا لمواقع[3] الخطيئة على هذه الجهة . والله أعلم .

[تمت سورة الأنعام بحمد الله تعالى وصلواته على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا][4] .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٥٠ . (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٨٣ .
(٣) فى ز : لموافقة . (٤) من ك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفســير ســورة الأعراف

وهى مكية ، إلا ثمـان آيات ، وهى قوله تعالى : « وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ » إلى قوله : « وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ »[1] . و روى النسائى عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ فى صلاة المغرب بسورة الأعراف ، فرقها فى ركعتين . صححه أبو محمد عبد الحق .

قوله تعـالى : الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ تقدّم فى أوّل «البقرة»[2] وموضعه رفع بالابتداء . و﴿ كِتَابٌ ﴾ خـبره . كأنه قال : « المص » حروف ﴿ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ . وقال الكسائى : أى هذا كتاب .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَكُنْ فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ حَرَجٌ ﴾ أى ضيق ؛ أى لا يضيق صدرك بالإبلاغ ؛ لأنه رُوى عنه عليه السـلام أنه قال : " إنى أخاف أن يَثْلَغُوا[3] رأسى فيدعوه خُبْزَة " الحديث . خرّجه مسـلم . قال الكِيَا : فظاهره النهى ، ومعنـاه نفى الحرج عنـه ؛ أى لا يضـيق صدرك ألّا يؤمنوا به ، فإنما عليك البلاغ ، وليس عليك سوى الإنذار به من شىء من إيمانهم

(١) راجع ص ٣٠٤ فما بعد . (٢) راجع جـ ١ ص ١٥٤ .

(٣) كذا فى الأصول . والذى فى صحيح مسلم : «إذا يثلغوا رأسى» . راجع صحيح مسلم . كتاب الجنة ، باب الصفات التى يعرف بها أهل الجنة وأهل النار . والثلغ : الشدخ . وقيـل : هو ضربك الشىء الرطب بالشىء اليابس حتى ينشدخ . وفى النهاية : إذن يثلغوا رأسى كما تثلغ الخبزة .

Marfat.com

أو كفرهم، ومثله قوله تعالى: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ» (١) الآية . وقال : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » (٢) . ومذهب مجاهد وقتادة أن الحرج هنا الشك، وليس هذا شك الكفر إنما هو شك الضيق . وكذلك قوله تعالى : « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ » (١) . وقيل : الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمّته . وفيه بعدٌ . والهاء في « مِنْهُ » للقرآن . وقيل للإنذار؛ أي أنزل إليك الكتاب لتنذر به فلا يكن في صدرك حرج منه . فالكلام فيه تقديم وتأخير . وقيل للتكذيب الذي يعطيه قوّة الكلام. أي فلا يكن في صدرك ضيق من تكذيب المكذبين له .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَذِكْرَى ﴾ يجوز أن يكون في موضع رفع ونصب وخفض . فالرفع من وجهين؛ قال البصريون : هي رفع على إضمار مبتدأ . وقال الكسائيّ : عطف على «كتاب» . والنصب من وجهين؛ على المصدر، أي وذكّر به ذكرى؛ قاله البصريون . وقال الكسائي : عطف على الهاء في « أنزلناه » (٣) . والخفض حملا على موضع « لِتُنْذِرَ بِهِ » . والإنذار للكافرين، والذكرى للؤمنين؛ لأنهم المنتفعون به .

قوله تعالى : ٱتَّبِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يعني الكتاب والسنة . قال الله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » (٤) . وقالت فرقة : هذا أمر يعمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وأمّته . والظاهر أنه أمرٌ لجميع الناس دونه . أي ٱتبعوا ملّة الإسلام والقرآن، وأحلوا حلاله وحرّموا حرامه، وٱمتثلوا أمره، وٱجتنبوا نهيه . ودلّت الآية على ترك ٱتباع الآراء مع وجود النصّ .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٥٣ وص ٦٣ . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٨٩ . (٣) كذا في الأصول . وفي السمين : إنها حال من الضمير في أنزل . وقال : هذا سهو . (٤) راجع جـ ١٨ ص ١٧ .

Marfat.com

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ «مِنْ دُونِهِ» من غيره . والهاء تعود على الرب سبحانه ، والمعنى : لا تعبدوا معه غيره ، ولا تتخذوا مَن عدلَ عن دين الله وليا . وكل من رضى مذهبا فاهـل ذلك المذهب أولياؤه . وروى عن مالك بن دينـار أنه قرأ «وَلَا تَبْتَغُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ» أى ولا تطلبوا . ولم ينصرف «أولياء» لأن فيه ألف التأنيث . وقيل : تعود على « ما » من قوله : « ٱتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ » . ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ « ما » زائدة . وقيل : تكون مع الفعل مصدرا .

قوله تعـالى : وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ « كم » للتكثير ، كما أن «رُبَّ» للتقليل . وهى فى موضع رفع بالابتداء ، و « أهلكنا » الخبر . أى وكثير من القرى — وهى مواضع اجتماع الناس — أهلكناها . ويجوز النصب بإضمار فعل بعدها ، ولا يقدّر قبلها ؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله . ويقوّى الأول قوله : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ »[(١)] . ولولا اشتغال « أَهْلَكْنَا » بالضمير لانتصب به موضع « كم » . ويجوز أن يكون «أَهْلَكْنَا» صفة للقرية ، و « كم » فى المعنى هى القرية ؛ فإذا وصفت القـرية فكأنك قد وصفت كم . يدل على ذلك قوله تعـالى : « وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمٰوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا »[(٢)] فعاد الضمير على « كم » على المعـنى ؛ إذ كانت الملائكة فى المعنى . فلا يصح على هـذا التقدير أن يكون « كم » فى موضع نصب بإضمار فعل بعدها . ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ فيه إشكال للعطف بالفاء . فقال الفرّاء : الفاء بمعنى الواو ، فلا يلزم الترتيب . وقيل : أى وكم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا ؛ كقوله : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ »[(٣)] . وقيل : إن

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٥ ، وص ١٧٤ . (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٠٣ .

Marfat.com

الهلاك واقع ببعض القوم؛ فيكون التقدير : وكم من قرية أهلكنا بعضها فجاءها بأسنا فأهلكنا الجميع . وقيل : المعنى وكم من قرية أهلكناها فى حكمنا فجاءها بأسنا . وقيل : أهلكناها بإرسالنا ملائكة العذاب إليها ، فجاءها بأسنا وهو الاستئصال . والبأس : العذاب الآتى على النفس . وقيل : المعنى أهلكناها فكان إهلاكنا إياهم فى وقت كذا ؛ فمجىء البأس على هذا هو الإهلاك . وقيل : البأس غير الإهلاك ؛ كما ذكرنا . وحكى الفرّاء أيضا أنه إذا كان معنى الفعلين واحدا أو كالواحد قدّمت أيهما شئت ؛ فيكون المعنى وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها ؛ مثل دَنَا فقرُب ، وقَرُب فدنا ، وشتمنى فأساء ، وأساء فشتمنى ؛ لأن الإساءة والشتم شىء واحد . وكذلك قوله : « ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ الْقَمَرُ »[1] . المعنى — والله أعلم — آنشق القمر فاقتربت الساعة . والمعنى واحد . ﴿ بَيَاتاً ﴾ أى ليلا ؛ ومنه البيت ، لأنه يبات فيه . يقال : بات يبيت بيتا و بياتا . ﴿ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ أى أو وهم قائلون ، فآستثقلوا فحذفوا الواو ؛ قاله الفرّاء . وقال الزجاج : هذا خطأ ، إذا عاد الذكر آستُغْنِىَ عن الواو ، تقول : جاءنى زيد راكبا أو هو ماش ، ولا يحتاج إلى الواو . قال المهدوىّ : ولم يقل بياتا أو وهم قائلون لأن فى الجملة ضميرا يرجع إلى الأوّل فآستغنى عن الواو . وهو معنى قول الزجاج سواء ، وليس أو للشك بل للتفصيل ؛ كقولك : لأكرِمنّك منصفا لى أو ظالما . وهذه الواو تسمى عند النحويين واو الوقت . و « قَائِلُونَ » من القائلة وهى القيلولة ؛ وهى نوم نصف النهار . وقيل : الاستراحة نصفَ النهار إذا اشتدّ الحرّ و إن لم يكن معها نوم . والمعنى : جاءهم عذابنا وهم غافلون إمّا ليلا و إمّا نهارا . والدعوى الدعاء ؛ ومنه قوله : « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ »[2] . وحكى النحويون : اللهم أشركنا فى صالح دعوى من دعاك . وقد تكون الدّعوى بمعنى الآدّعاء . والمعنى : أنهم لم يخلصوا عند الإهلاك إلا على الإقرار بأنهم كانوا ظالمين . و ﴿ دَعْوَاهُمْ ﴾ فى موضع نصب خبر كان ، وآسمها ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا ﴾ . نظيره « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا »[3]

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٢٥ .   (٢) راجع جـ ٨ ص ٣١٣ .   (٣) راجع جـ ١٣ ص ٢١٩ .

Marfat.com

ويجوز أن تكون الدعوى رفعا، و « أَنْ قَالُوا » نصبا؛ كقوله تعالى : « لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا »[1] برفع « البر » وقوله : « ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا »[2] برفع « عاقبة » .

قوله تعالى : فَلَنَسْئَلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ دليل على أن الكفار يحاسبون . وفى التنزيل « ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ »[3] . وفى سورة القصص « وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ »[4] يعنى إذا استقروا فى العذاب . والآخرة مَواطنُ : موطن يسألون فيـه للحساب . وموطن لا يسألون فيه . وسؤالهم سؤال تقرير وتوبيخ وإفضاح . وسؤال الرسل سؤال آستشهاد بهم وإفصاح؛ أى عن جواب القوم لهم . وهو معنى قوله : « لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ »[2] على ما يأتى . وقيل : المعنى « فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ » أى الأنبياء « وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ » أى الملائكة الذين أرسلوا إليهم . واللام فى « فلنسألنّ » لام القسم وحقيقتها التوكيد . وكذا ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ ﴾ . قال ابن عباس : ينطق عليهم[5] . ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ أى كنا شاهدين لأعمالهم . ودلت الآية على أن الله تعالى عالمٌ بعلم .

قوله تعالى : وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾ ابتداء وخبر . ويجوز أن يكون « الْحَقُّ » نعته، والخبر « يَوْمَئِذٍ » . ويجوز نصب « الحق » على المصدر . والمراد بالوزن وزن أعمال العباد

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٣٧ . (٢) راجع جـ ١٤ ص ٩ وص ١٢٩ . (٣) راجع جـ ٢٠ ص ٣٧ .
(٤) راجع جـ ١٣ ص ٣١٥ . (٥) عبارة الطبرى : « ينطق لهم كتاب عملهم عليهم بأعمالهم » .

Marfat.com

بالميزان . قال ابن عمر : توزن صحائف أعمال العباد . وهذا هو الصحيح، وهو الذى ورد به الخبر على ما يأتى . وقيل : الميزان الكتاب الذى فيه أعمال الخلق . وقال مجاهد : الميزان الحسنات والسيئات بأعيانها . وعنه أيضا والضحاك والأعمش : الوزن والميزان بمعنى العدل والقضاء ، وذكر الوزن ضربُ مثلٍ ؛ كما تقول : هذا الكلام فى وزن هذا وفى وزانه ، أى يعادله ويساويه وإن لم يكن هناك وَزْنٌ . قال الزجاج : هذا سائغٌ من جهة اللسان ، والأولى أن يتبع ما جاء فى الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان . قال القشيرى : وقد أحسن فيما قال ، إذ لو حمل الميزان على هذا فليحمل الصراط على الدّين الحق ، والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد ، والشياطينُ والجن على الأخلاق المذمومة ، والملائكة على القوى المحمودة . وقد أجمعت الأمة فى الصدر الأوّل على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل . وإذا أجمعوا على منع التأويل وجب الأخذ بالظاهر ، وصارت هذه الظواهر نصوصا . قال ابن فُورَك : وقد أنكرت المعتزلة[1] الميزان بناءً منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها ، إذ لا تقوم بأنفسها . ومن المتكلّمين من يقول : إن الله تعالى يقلب الأعراض أجساما فيزنها يوم القيامة . وهذا ليس بصحيح عندنا ، والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب التى فيها الأعمال مكتوبة ، وبها تخف . وقد روى فى الخبر ما يحقّق ذلك ، وهو أنه روى "أن ميزان بعض بنى آدم كاد يخف بالحسنات فيوضع فيه رق مكتوب فيه «لا إله إلا الله» فيثقل" . فقد عُلِمَ أن ذلك يرجع إلى وزن ما كتب فيه الأعمال لا نفس الأعمال ، وأن الله سبحانه يخفّف الميزان إذا أراد ، ويثقله إذا أراد بما يُوضع فى كفتيه من الصحف التى فيها الأعمال .

وفى صحيح مسلم عن صَفْوان بن مُحْرِز قال قال رجل لابن عمر : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النَّجْوَى[2] ؟ قال سمعته يقول : "يُدْنَى المؤمن من ربه يوم القيامة حتى يضع عليه كَنَفَه فيُقَرِّره بذنوبه فيقول هل تعرف فيقول أى ربِّ أعرف قال فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم فيُعْطَى صحيفة حسناته وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رءوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله" . فقوله : "فيعطى صحيفة حسناته"

(١) فى ز : الإمامية . (٢) يريد مناجاة الله تعالى للعبد يوم القيامة .

Marfat.com

دليل على أن الأعمال تكتب فى الصحف وتوزن . وروى ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يُصاح برجل من أمتى يوم القيامة على رءوس الخلائق فينشر عليه تسعة وتسعون سجلًا كل سجل مدّ البصر ثم يقول الله تبارك وتعالى هل تنكر من هـذا شيئا فيقول لا يارب فيقول أظَلَمَتْك كَتَبَتى الحافظون فيقول لا ثم يقول ألك عذر ألك حسنة فيهاب الرجل فيقول لا فيقول بلى إن لك عندنا حسنات وإنه لا ظلم عليك اليوم فتُخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبـده ورسوله فيقول يارب ما هـذه البطاقة مع هذه السِّجلّات فيقول إنك لا تظلم فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة" . زاد الترمذى "فلا يثقل مع اسم الله شىء" وقال : حديث حسن غريب . وسيأتى لهـذا الباب مزيد بيان فى «الكهف(١) والأنبياء(٢)» إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ «مَوَازِينُهُ» جمع ميزان، وأصله موزان، قلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها . وقيل : يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد يوزن بكل ميزان منها صنف من أعماله . ويمكن أن يكون ذلك ميزانا واحدا عُبِّر عنه بلفظ الجمع ؛ كما تقـول : خرج فلان إلى مكة على البغال ، وخرج إلى البصرة فى السفن . وفى التنزيل : «كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ» . «كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ» . وإنما هو رسول واحد فى أحد التأويلين . وقيل : الموازين جمع موزون، لا جمع ميزان . أراد بالموازين الأعمال الموزونة . «وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ» مثـله . وقال ابن عباس : توزن الحسنات والسيئات فى ميزان له لسان وكفّتان؛ فأما المؤمن فيؤتى بعمله فى أحسن صورة فيوضع فى كفة الميزان فتثقل حسناته على سيئاته؛ فذلك قوله : «فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» ويؤتى بعمل الكافر فى أقبح صـورة فيوضع فى كِفّة الميزان فيخف وزنه حتى يقع فى النـار . وما أشار إليـه

(١) راجع جـ ١١ ص ٦٦ وص ٢٩٣ . (٢) راجع جـ ١٣ ص ١١٨ وص ١٢٢ .

ابن عباس قريب مما قيل : يخلق الله تعالى كل جزء من أعمال العباد جوهرا فيقع الوزن على تلك الجواهر . ورده ابن فُورك وغيره . وفى الخبر "إذا خفت حسنات المؤمن أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بطاقة كالأنملة فيلقيها فى كِفّة الميزان اليمنى التى فيها حسناته فترجح الحسنات فيقول ذلك العبد المؤمن للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأبى أنت وأمى ! ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك فمن أنت ؟ فيقول أنا محمد نبيك وهذه صلواتك التى كنت تصلى علىّ قد وفيتك أحوج ما تكون إليها" . ذكره القشيريّ فى تفسيره . وذكر أن البطاقة (بكسر الباء) رُقعة فيها رقم المتاع بلغة أهل مصر . وقال ابن ماجه : قال محمد بن يحيى : البِطاقة الرُّقعة ، وأهل مصر يقولون للرُّقعة بطاقة . وقال حذيفة : صاحب الموازين يوم القيامة جبريل عليه السلام ، يقول الله تعالى : "يا جبريل زِنْ بينهم فرُدّ من بعض على بعض" . قال : وليس ثمّ ذهب ولا فضة ؛ فإن كان للظالم حسنات أُخِذ من حسناته فردّ على المظلوم ، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فتحمل على الظالم ؛ فيرجع الرجل وعليه مثل الجبال . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أن الله تعالى يقول يوم القيامة يا آدم ابرز إلى جانب الكرسى عند الميزان وانظر ما يرفع إليك من أعمال بنيك فمن رجح خيرُه على شره مثقالَ حبّة فله الجنة ومن رجح شره على خيره مثقال حبة فله النار حتى تعلم أنى لا أعذب إلا ظالما" .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

أى جعلناها لكم قرارا ومهادا ، وهيأنا لكم فيها أسباب المعيشة . والمَعايش جمع مَعيشة ، أى ما يُتعيَّش به من المطعم والمشرب وما تكون به الحياة . يقال : عاش يَعيش عَيْشا ومَعاشا ومَعيشا ومَعيشة وعِيشَة . وقال الزجاج : المَعيشة ما يُتوصّل به إلى العيش . ومعيشة فى قول الأخفش وكثيرٍ من النحويين مَفْعِلة . وقرأ الأعرج : « مَعَائِش » بالهمز . وكذا روى خارجة ابن مُصْعَب عن نافع . قال النحاس : والهمز لحن لا يجوز ؛ لأن الواحدة معيشة ، أصلها معيِشة ، فزيدت ألف الوصل وهى ساكنة والياء ساكنة ، فلا بدّ من تحريك إذ لا سبيل

Marfat.com

إلى الحذف، والألف لا تحرك فحركت الياء بما كان يجب لها فى الواحد . ونظيره من الواو منارة ومناور ، ومَقام ومَقاوِم؛ كما قال الشاعر :

وإنّى لقَـوّامٌ مقاوِمُ لم يكن • جرير ولا مَوْلَى جرير يقُومها

وكذا مصيبة ومَصَاوِب . هذا الجيد، ولغة شاذّة مصائب . قال الأخفش : إنما جاز مصائب لأن الواحدة مُعْتَلّة . قال الزجاج : هذا خطأ يلزمه عليه أن يقول مقائم . ولكن القول أنه مثل وِسادة وإسادة . وقيل : لم يجز الهمز فى مَعايش لأن المعيشة مَفْعِلة ؛ فالياء أصلية ، وإنما يهمز إذا كانت الياء زائدة مثل مدينة ومدائن ، وصحيفة وصحائف ، وكريمة وكرائم ، ووظيفة ووظائف، وشبهه .

قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ لما ذكر نعمه ذكر ابتداء خلقه . وقد تقدم معنى الخلق فى غير موضع (١) . «ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ» أى خلقناكم نُطَفا ثم صورناكم ، ثم إنا نخبركم أنا قلنا للملائكة آسجدوا لآدم . وعن ابن عباس والضحاك وغيرهما : المعنى خلقنا آدم ثم صورناكم فى ظهره . وقال الأخفش : «ثم» بمعنى الواو . وقيل : المعنى «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ» يعنى آدم عليه السلام، ثم قلنا للملائكة آسجدوا لآدم ، ثم صورناكم ؛ على التقديم والتأخير . وقيل : «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ» يعنى آدم ؛ ذكر بلفظ الجمع لأنه أبو البشر . «ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ» راجع إليه أيضا . كما يقال : نحن قتلناكم ؛ أى قتلنا سيدكم . ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ وعلى هذا لا تقديم ولا تأخير ؛ عن ابن عباس أيضا . وقيل : المعنى ولقد خلقناكم ، يريد آدم وحواء ؛ فآدم من التراب وحواء من ضلع من أضلاعه ، ثم وقع التصوير بعد ذلك . فالمعنى : ولقد خلقنا أبوَيْكم ثم صوّرناهما ؛ قاله الحسن . وقيل : المعنى خلقناكم فى ظهر آدم

(١) راجع جـ ١ ص ٢٢٦ ، ٢٥١

ثم صوّرناكم حين أخذنا عليكم الميثاق. هذا قول مجاهد، رواه عنه ابن جريج وابن أبي نجيح. قال النحاس : وهذا أحسن الأقوال . يذهب مجاهد إلى أنه خلقهم في ظهر آدم، ثم صوّرهم حين أخذ عليهم الميثاق، ثم كان السجود بعد . ويقوّي هذا « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ »[(١)] . والحديث " أنه أخرجهم أمثال الذَّرّ فأخذ عليهم الميثاق" . وقيل : « ثم » للإخبار ، أي ولقد خلقناكم يعني في ظهر آدم صلى الله عليه وسلم، ثم صوّرناكم أي في الأرحام . قال النحاس : هذا صحيح عن ابن عباس .

قلت : كل هذه الأقوال محتمل ، والصحيح منها ما يَعْضُده التنزيل ؛ قال الله تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ »[(٢)] يعني آدم . وقال : « وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا »[(٣)] . ثم قال : « جَعَلْنَاهُ » أي جعلنا نسله وذريته « نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ » الآية[(٢)] . فآدم خُلِق من طين ثم صوّر وأكرم بالسجود ، وذريته صُوّروا في أرحام الأمهات بعد أن خُلقوا فيها وفي أصلاب الآباء . وقد تقدّم في أوّل سورة « الأنعام »[(٤)] أن كل إنسان مخلوق من نطفة وتُرْبة؛ فتأمله . وقال هنا : « خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ » وقال في آخر الحشر : « هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ »[(٥)] . فذكر التصوير بعد البرء . وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى . وقيل : معنى « وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ » أي خلقنا الأرواح أوّلا ثم صوّرنا الأشباح آخرا .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ استثناء من غير الجنس . وقيل : من الجنس . وقد اختلف العلماء : هل كان من الملائكة أم لا ؛ كما سبق بيانه في « البقرة »[(٦)] .

قوله تعالى : قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾

---

(١) راجع ص ٣١٣ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٠٨ . (٣) راجع جـ ٥ ص ١ .
(٤) راجع جـ ٦ ص ٣٨٨ . (٥) راجع جـ ١٨ ص ٤٨ . (٦) راجع جـ ١ ص ٢٩٤ .

Marfat.com

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾ « ما » فى موضع رفع بالابتداء؛ أى أى شىء منعك . وهذا سؤال توبيخ . ﴿ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ فى موضع نصب، أى من أن تسجد . و « لا » زائدة . وفى ص « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ »(١) وقال الشاعر :

أبى جُودُه لا البخلَ فاستعجلت به * نَعَمْ من فتًى لا يمنع الجودَ نائلُه

أراد أبى جوده البخل ، فزاد « لا » . وقيل : ليست بزائدة ؛ فإن المنع فيه طرف من القول والدعاء، فكأنه قال : من قال لك ألّا تسجد؟ أو من دعاك إلى ألّا تسجد؟ كما تقول : قد قلت لك ألّا تفعل كذا . وقيل : فى الكلام حذف، والتقدير : ما منعك من الطاعة وأحوجك إلى ألّا تسجد . قال العلماء : الذى أحوجه إلى ترك السجود هو الكبر والحسد؛ وكان أضمر ذلك فى نفسه إذا أمر بذلك . وكان أمره من قبل خلق آدم؛ يقول الله تعالى : « إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ »(١) . فكأنه دخله أمر عظيم من قوله « فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » . فإن فى الوقوع توضيع الواقع وتشريفا لمن وقع له ؛ فأضمر فى نفسه ألّا يسجد إذا أمره فى ذلك الوقت . فلما نفخ فيه الروح وقعت الملائكة سُجَّدًا ، وبَقِىَ هو قائما بين أظهرهم ؛ فأظهر بقيامه وترك السجود ما فى ضميره . فقال الله تعالى : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ » أى ما منعك من الانقياد لأمرى ؛ فأخرج سِرّ ضميره فقال : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ » .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ يدل على ما يقوله الفقهاء من أن الأمر يقتضى الوجوب بمطلقه من غير قرينة؛ لأن الذّمّ عُلّق على ترك الأمر المطلق الذى هو قوله عز وجل للملائكة : « اسْجُدُوا لِآدَمَ » وهذا بيّن .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ أى منعنى من السجود فضلى عليه ؛ فهذا من إبليس جواب على المعنى . كما تقول : لمن هذه الدار ؟ فيقول المخاطَب : مالكها

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٢٨ وص ٢٢٧ .

Marfat.com

زيد . فليس هذا عين الجواب ، بل هو كلام يرجع إلى معنى الجواب . ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ فرأى أن النار أشرف من الطين؛ لعلوها وصعودها وخفتها، ولأنها جوهر مضيء . قال ابن عباس والحسن وابن سيرين : أول من قاس إبليس فأخطأ القياس . فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس . قال ابن سيرين : وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس . وقالت الحكماء : أخطأ عدوّ الله من حيث فضل النار على الطين، وإن كانا في درجة واحدة من حيث هي جماد مخلوق . فإن الطين أفضل من النار من وجوه أربعة :

أحدها — أن من جوهر الطين الرزانة والسكون، والوقار والأناة، والحلم ، والحياء، والصبر . وذلك هو الداعي لآدم عليه السلام بعد السعادة التي سبقت له إلى التوبة والتواضع والتضرع، فأورثه المغفرة والاجتباء والهداية . ومن جوهر النار الخفة، والطيش ، والحدة، والارتفاع، والاضطراب . وذلك هو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار؛ فأورثه الهلاك والعذاب واللعنة والشقاء؛ قاله القفّال .

الثاني — إن الخبر ناطق بأن تراب الجنة مِسك أذفر، ولم ينطق الخبر بأن في الجنة نارا وأن في النار ترابا .

الثالث — أن النار سبب العذاب ، وهي عذاب الله لأعدائه ؛ وليس التراب سببا للعذاب .

الرابع — أن الطين مستغنٍ عن النار، والنار محتاجة إلى المكان ومكانها التراب .

قلت — ويحتمل قولا خامسا وهو أن التراب مسجد وطهور، كما جاء في صحيح الحديث . والنار تخويف وعذاب، كما قال تعالى : «ذَلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ»(١) . وقال ابن عباس : كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس فعصى ربه ، وهو أول من قاس برأيه . والقياس في مخالفة النصّ مردود .

الرابعة — واختلف الناس في القياس إلى قائل به، ورادٍّ له ؛ فأما القائلون به فهم الصحابة والتابعون، وجمهور من بعدهم، وأن التعبد به جائز عقلا واقع شرعا، وهو الصحيح .

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٣ .

Marfat.com

وذهب القفّال من الشافعية ،أبو الحسين البصرى إلى وجوب التعبّد به عقلا . وذهب النظّام إلى أنه يستحيل التعبد به عقلا وشرعا؛ وردّه بعض أهل الظاهر . والأول الصحيح . قال البخارى فى (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة) : المعنى لا عصمة لأحد إلا فى كتاب الله أو سنة نبيه أو فى إجماع العلماء إذا وُجد فيها الحكمُ فإن لم يوجد فالقياس . وقد ترجم على هذا (باب من شبّه أصلا معلوما بأصل مبيَّن قد بين الله حكمها ليفهم السائل) . وترجم بعد هذا (باب الأحكام التى تعرف بالدلائل وكيف معنى الدلالة وتفسيرها) . وقال الطبرى : الاجتهاد والاستنباط من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وإجماع الأمة هو الحق الواجب ، والفرض اللازم لأهل العلم . وبذلك جاءت الأخبار عن النبى صلى الله عليه وسلم ،وعن جماعة الصحابة والتابعين . وقال أبو تمام المالكى : أجمعت الأمة على القياس؛ فمن ذلك أنهم أجمعوا على قياس الذهب والوَرِق فى الزكاة . وقال أبو بكر : أقيلونى بيعتى . فقال علىّ : والله لا نقيلك ولا نستقيلك ، رضيك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاك لدنيانا؟ فقاس الإمامة على الصلاة . وقاس الصدّيقُ الزكاة على الصلاة وقال : والله لا أفرق بين ما جمع الله . وصرح علىّ بالقياس فى شارب الخمر بمحضر من الصحابة وقال : إنه إذا سكر هَذَى ، وإذا هَذَى افترى؛ فحدّه حدّ القاذف . وكتب عمر إلى أبى موسى الأشعرى كتابا فيه : الفَهْمَ الفَهْمَ فيما يختلِجُ فى صدرك مما لم يبلغك فى الكتاب والسنة ، اعرف الأمثال والأشباه ، ثم قِس الأمور عند ذلك ، فاعمد إلى أحبِّها إلى الله تعالى وأشبهها بالحق فيما ترى . الحديثَ بطوله ذكره الدارقطنى . وقد قال أبو عبيدة لعمر [رضى الله عنهما](1) فى حديث الوَبَاء ، حين رجع عمر من سَرْغ(2) : نَفِرّ من قَدَر الله ؟ فقال عمر : نعم ! نفِرّ من قَدَر الله إلى قَدَر الله . ثم قال له عمر : أرأيت ... فقايسه وناظره بما يشبه من مسألته بمحضر المهاجرين والأنصار(3) ، وحسبُك . وأما الآثار وآى القرآن فى هذا المعنى فكثير . وهو يدل على أن القياس أصل من أصول الدين ، وعصمة من عِصم المسلمين ، يرجع إليه المجتهدون ، ويفزع إليه العلماء العاملون ، فيستنبطون

(١) من ع . (٢) موضع قرب الشام بين المغيثة وتبوك .
(٣) راجع الموطأ : « باب ما جاء فى الطاعون » .

Marfat.com

به الأحكام . وهذا قول الجماعة الذين هم الحجة ، ولا يلتفت إلى من شـذّ عنها . وأما الرأى المذموم والقياس المتكلّف[(١)] المنهى عنه فهو ما لم يكن على هـذه الأصول المذكورة ؛ لأن ذلك ظنٌّ ونزغٌ[(٢)] من الشيطان؛ قال الله تعالى : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ[(٣)] » . وكل ما يورده المخالف من الأحاديث الضعيفة والأخبار الواهية فى ذمّ القياس فهى محمولة على هذا النوع من القياس المذموم ، الذى ليس له فى الشرع أصل معلوم . وتتميم هذا الباب فى كتب الأصول .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴾ أى من السماء . ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ لأن أهلها الملائكة المتواضعون . ﴿ فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّاغِرِينَ ﴾ أى من الأذلين . ودل هذا أن من عصى مولاه فهو ذليل . وقال أبو رَوْق والبَجَلِيّ : « فَٱهْبِطْ مِنْهَا » أى من صورتك التى أنت فيها ؛ لأنه افتخر بأنه من النار فشوّهت صورته بالإظلام وزوال إشراقه . وقيل : « فَاهْبِطْ مِنْهَا » أى انتقل من الأرض إلى جزائر البحار ؛ كما يقال : هبطنا أرض كذا أى انتقلنا إليها من مكان آخر ، فكأنه أخرج من الأرض إلى جزائر البحار فسلطانه فيها ، فلا يدخل الأرض إلا كهيئة السارق[(٤)] يخاف فيها حتى يخرج منها . والقول الأوّل أظهر . وقد تقدم فى « البقرة[(٥)] » .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

سأل النظرة والإمهال إلى يوم البعث والحساب . طلب ألّا يموت لأن يوم البعث لا موت بعده؛ فقال الله تعالى : « إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنْظَرِينَ » . قال ابن عباس والسدّى وغيرهما :

---

(١) فى ع : المشكل . (٢) فى ع : وغرور . وفى ب : نغز . وهو الإغراء .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٥٧ . (٤) فى ب : « السارى » بالياء . (٥) راجع جـ ١ ص ٣٢٧ .

Marfat.com

أنظره إلى النفخة الأولى حيث يموت الخلق كلهم . وكان طلب الإنظار إلى النفخة الثانيــة حيث يقوم الناس لرب العالمين ؛ فأبى الله ذلك عليه . وقال : « إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » ولم يتقدّم ذِكْرُ من يبعث ؛ لأن القصة فى آدم وذريته ، فدلّت القرينةُ على أنهم هم المبعوثون .

قوله تعـالى : قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ الإغواء إيقاعُ الغيّ فى القلب ؛ أى فبما أوقعتَ فى قلبى من الغيّ والعِناد والاستكبار . وهــذا لأن كفر إبليسَ ليس كفرَ جهل ، بل هو كفر عناد واستكبار . وقد تقدّم فى « البقرة »(١) . قيل : معنى الكلام القَسَمُ ، أى فبإغوائك إياى لأقعدنّ لهم على صراطك ، أو فى صراطك ؛ فحذف . دليل هــذا القول قوله فى (صٓ) : « فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ »(٢) فكأنّ إبليسَ أعظمَ قدرَ إغواءِ الله إيّاه لِمـا فيــه من التسليط على العباد ، فأقسم به إعظاما لقدره عنده . وقيل : الباء بمعنى اللام ، كأنه قال : فلإغوائك إياى . وقيل : هى بمعنى مع ، والمعنى فمع إغوائك إياى . وقيل : هو استفهام ، كأنه سأل بأيّ شيء أغواه؟ . وكان ينبغى على هذا أن يكون : فبِمَ أغويتنى ؟ . وقيل : المعنى فبما أهلكتنى بلعنك إياى . والإغواء الإهلاك ، قال الله تعالى : « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا »(٣) أى هلاكا . وقيل : فبما أضللتنى . والإغواء : الإضلال والإبعاد ؛ قاله ابن عباس . وقيل : خيّبتنى من رحمتك ؛ ومنه قول الشاعر(٤) :

* وَمَنْ يَغْوَ لا يَعْدَم على الغَيّ لائمـا *

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩٥ . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٢٨ . (٣) راجع جـ ١١ ص ١٢٥ .
(٤) هذا عجز بيت للمرقش ، وصدره كما فى اللسان مادة غوى :
* فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره *

Marfat.com

أى من يخب . وقال ابن الأعرابى : يقال غَوَى الرجل [يَغوِى](١) غيًّا إذا فسد عليه أمره ، أو فسد هو فى نفسه . وهو أحد معانى قوله تعالى : « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى »(٢) أى فسد عيشه فى الجنة . ويقال : غوِى الفصيل إذا لم يدرّ لبن أمه .

الثانيــة — مذهب أهل السنة أن الله تعالى أضلّه وخلق فيه الكفر ؛ ولذلك نسب الإغواء فى هذا إلى الله تعالى . وهو الحقيقة، فلا شىء فى الوجود إلا وهو مخلوق له ، صادر عن إرادته تعالى . وخالف الإمامية والقدرية وغيرهما شيخهم إبليسَ الذى طاوعوه فى كل ما زينّه لهم، ولم يطاوعوه فى هــذه المسألة ويقولون : أخطأ إبليسُ، وهو أهل للخطأ حيث نسب الغواية إلى ربه، تعالى الله عن ذلك . فيقال لهم : وإبليس وإن كان أهلا للخطأ فما تصنعون فى نبىّ مكرم معصوم،وهو نوح عليه السلام حيث قال لقومه: « وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِى إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »(٣) وقد روى أن طاوسا جاءه رجل فى المسجد الحرام،وكان متّهما بالقدر، وكان من الفقهاء الكبار؛ فجلس إليه فقال له طاوس : تقوم أو تُقام ؟ فقيل لطاوس : تقول هذا لرجل فقيه ! فقال : إبليس أفقه منه، يقول إبليس : ربِّ بما أغويتنى . ويقول هذا : أنا أُغوِى نفسى .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أى بالصّدّ عنه، وتزيين الباطل حتى يهلكوا كما هلك، أو يضلوا كما ضل، أو يُخَيَّبوا كما خُيِّب ؛ حسب ما تقدم من المعانى الثلاثة فى «أَغْوَيْتَنِى» . والصراط المستقيم هو الطريق الموصل إلى الجنة . و«صِرَاطَكَ» منصوب على حذف « على » أو « فى » من قوله : « صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ » ؛ كما حكى سيبويه « ضرب زيد الظهر والبطن » . وأنشد :

لَدْنٌ بِهَزِّ الكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُه * فيه كما عَسَلَ الطريقَ الثعلبُ(٤)

---

(١) من ج . (٢) راجع ج ١١ ص ٢٥٥ . (٣) راجع ج ٩ ص ٢٨ .

(٤) البيت لساعدة بن جؤية . يريد فى الطريق . وصف فى البيت رمحا لين الهز؛ فشبه اضطرابه فى نفسه أو فى حال هزه بعسلان الثعلب فى سيره . والعسل العسلان (بالتحريك) : سير سريع فى اضطراب . واللدن : الناعم اللين . (عن شرح الشواهد) .

Marfat.com

ومن أحسن ما قيل في تأويل ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ أى لأصدّنّهم(١) عن الحق، وأرغبنهم فى الدنيا، وأشككهم فى الآخرة. وهذا غاية فى الضلالة. كما قال: «وَلَأُضِلَّنَّهُمْ»(٢) حسب ما تقدّم. وروى سفيان عن منصور عن الحكم بن عُتَيْبَة قال: «مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» من دنياهم. «وَمِنْ خَلْفِهِمْ» من آخرتهم. «وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ» يعنى حسناتهم. «وَعَن شَمَائِلِهِمْ» يعنى سيئاتهم. قال النحاس: وهذا قول حسن وشرحه: أن معنى «ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» من دنياهم، حتى يكذّبوا بما فيها(٣) من الآيات وأخبار الأمم السالفة «وَمِنْ خَلْفِهِمْ» من آخرتهم حتى يكذّبوا بها. «وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ» من حسناتهم وأمور دينهم. ويدل على هذا قوله: «إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ». «وَعَن شَمَائِلِهِمْ» يعنى سيئاتهم، أى يتبعون الشهوات؛ لأنه يزينها لهم. ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ أى موحّدين طائعين مظهرين الشكر.

قوله تعالى: قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)

قوله تعالى: ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا ﴾ أى من الجنة. ﴿ مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾. «مَذْءُومًا» أى مذموما. والذَّأْمُ: العيب، بتخفيف(٤) الميم. قال ابن زيد: مذءوما ومذموما سواء؛ يقال: ذأمته وذَمَمته وذِمته بمعنًى واحد. وقرأ الأعمش «مَذُوما». والمعنى واحد؛ إلا أنه خفّف الهمزة. وقال مجاهد: المذءوم المنفيّ. والمعنيان متقاربان. والمدحور: المبعَد المطرود؛ عن مجاهد وغيره. وأصله الدفع. ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ اللام لام القسم، والجواب «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ». وقيل: «لَّمَن تَبِعَكَ» لام توكيد. «لَأَمْلَأَنَّ» لام قسم. والدليل على هذا أنه يجوز فى غير القراءة حذف اللام الأولى، ولا يجوز

(١) فى ج: لأضلنهم. (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٨٩. (٣) راجع جـ ١٥ ص ٧٣.
(٤) فى ج: بما قبلها. (٥) لا حاجة لهذا القيد؛ فإن الهمز كاف للفرق بينه وبين الذم.

Marfat.com

حذف الثانية . وفى الكلام معنى الشرط والمجازاة ؛ أى من تبعك عذبته . ولو قلت : من تبعك أعذبه لم يجز ؛ إلا أن تريد لأعذبه . وقرأ عاصم من رواية أبى بكر بن عيّاش « لِمن تبِعك منهم » بكسر اللام . وأنكره بعض النحويين . قال النحاس : وتقديره — والله أعلم — من أجل من تبعك . كما يقال : أكرمت فلانا لك . وقد يكون المعنى : الدّحر لمن تبعك . ومعنى ﴿ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى منكم ومن بنى آدم ؛ لأن ذكرهم قد جرى إذ قال : « وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ » خاطب ولد آدم .

قوله تعالى : وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾

قال لآدم بعد إخراج إبليس من موضعه من السماء : آسكن أنت وحوّاء الجنة . وقد تقدّم فى البقرة(١) معنى الإسكان، فأغنى عن إعادته . وقد تقدّم معنى « وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ »(١) هناك . والحمد لله .

قوله تعالى : فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ أى إليهما . قيل : داخل الجنة بإدخال الحية إياه . وقيل : من خارج ، بالسّلْطنة(٢) التى جعلت له . وقد مضى هذا فى « البقرة » . والوسوسة : الصوت الخفىّ . والوَسْوَسَةُ : حديث النفس ؛ يقال : وسوست إليه نفسُه وَسوسة ووِسواسا (بكسر الواو) . والوَسواس (بالفتح) : آسم ، مثل الزّلزال . ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحلى : وَسْوَاس . قال الأعشى :

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩٨ وص ٢٠٤ .

(٢) فى جـ : بالشيطنة .

Marfat.com

تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْوَاسًا إِذَا ٱنْصَرَفَتْ * كَمَا ٱسْتَعَانَ بِرِيحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ[١]

والوسواس: اسم الشيطان؛ قال الله تعالى: «مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ»[٢]. ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ أى ليظهر لهما. واللام لام العاقبة؛ كما قال: «لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا»[٣]. وقيل: لام كى. و﴿وُورِيَ﴾ أى سُتر وغُطى عنهما. ويجوز فى غير القرآن أُورِيَ، مثل أُقِّتَتْ و﴿مِنْ سَوْءَاتِهِمَا﴾[٤] [من عوراتهما] وسمى الفرج عورة لأن إظهاره يسوء صاحبه، ودل هذا على قبح كشفها فقيل: إنما بدت سوءاتهما لهما لا لغيرهما؛ كان عليهما نَوْرٌ[٥] لا ترى عوراتهما فزال النور. وقيل: ثوب؛ فتهافت[٦]، والله أعلم. ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ «أن» فى موضع نصب، بمعنى إلا، كراهيةَ أن؛ فحذف المضاف. هذا قول البصريين. والكوفيون يقولون: لئلا تكونا. وقيل: أى إلا ألّا تكونا ملكين تعلمان الخير والشر. وقيل: طمع آدم فى الخلود؛ لأنه علم أن الملائكة لا يموتون إلى يوم القيامة. قال النحاس: وبيّن الله عز وجل فضل الملائكة على جميع الخلق فى غير موضع من القرآن؛ فمنها هذا، وهو «إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ». ومنه «وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ»[٧]. ومنه «وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ»[٨]. وقال الحسن: فضل الله الملائكة بالصور والأجنحة والكرامة. وقال غيره: فضلهم جل وعز بالطاعة وترك المعصية؛ فلهذا يقع التفضيل فى كل شىء. وقال ٱبن فُورك. لا حجة فى هذه الآية؛ لأنه يحتمل أن يريد ملَكين فى ألّا يكون لهما شهوة فى طعام. وٱختيار ٱبن عباس والزجاج وكثير من العلماء تفضيل المؤمنين على الملائكة؛ وقد مضى فى «البقرة»[٩]. وقال الكلبيّ: فضلوا على الخلائق كلهم، غير طائفة من الملائكة: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت؛ لأنهم من جملة رُسُل الله. وتمسّك كل فريق بظواهر من الشريعة، والفضل بيد الله. وقرأ ابن عباس «مَلِكين» بكسر اللام، وهى قراءة يحيي بن أبى كثير والضحاك[١٠]. وأنكر

---

(١) العشرق (كزبرج): شجر قدر ذراع له حب صغار إذا جف صوّت بمرّ الريح.

(٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢٦١. (٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٥٢. (٤) من جـ وك وى.

(٥) النور (بفتح النون): الزهر. (٦) تهافت: تساقط. (٧) راجع جـ ٩ ص ٢٥.

(٨) راجع جـ ٦ ص ٢٦. (٩) راجع جـ ١ ص ٢٨٩. (١٠) من ب وع وز.

Marfat.com

أبو عمرو بن العلاء كسر اللام وقال : لم يكن قبل آدم صلى الله عليه وسلم ملك فيصيرا ملكين . قال النحاس : ويجوز على هذه القراءة إسكان اللام ، ولا يجوز على القراءة الأولى لخفة الفتحة . قال ابن عباس : أتاهما الملعون من جهة الملك ؛ ولهذا قال « هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى »[١] . وزعم أبو عبيد أن احتجاج يحيى بن أبي كثير بقوله : « وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى » حجة بينة ، ولكن الناس على تركها فلهذا تركناها . قال النحاس : « إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلِكَيْنِ » قراءة شاذة . وقد أنكر على أبي عبيد هذا الكلام، وجعل من الخطأ الفاحش . وهل يجوز أن يتوهم آدم عليه السلام أنه يصل إلى أكثر من ملك الجنة؛ وهي غاية الطالبين . وإنما معنى « وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى » المقام في ملك الجنة ، والخلود فيه .

قوله تعالى : وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١)

قوله تعالى : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا ﴾ أي حلف لهما . يقال : أقسم إقساما ؛ أي حلف . قال الشاعر :

وقاسمها بالله جهدا لأنتم * ألذّ من السلوى إذا ما نشورها[٢]

وجاء « فاعلت » من واحد . وهو يرد على من قال : إن المفاعلة لا تكون إلا من اثنين . وقد تقدم في « المائدة » . ﴿ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ ليس « لكما » داخلا في الصلة . والتقدير : إني ناصح لكما لمن الناصحين ؛ قاله هشام النحوي . وقد تقدم مثله في « البقرة » . ومعنى الكلام : اتبعاني أرشدكما؛ ذكره قتادة .

قوله تعالى : فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥٤ .

(٢) السلوى : العسل . وشار العسل : اجتناه وأخذه من موضعه .

Marfat.com

ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾
قَالَ ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ
إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَدَلَّٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ أوقعهما فى الهلاك . قال ابن عباس : غرّهما باليمين . وكان يظن آدم أنه لا يحلف أحد بالله كاذبا ، فغرّهما بوسوسته وقسمه لهما . وقال قتادة : حلف بالله لهما حتى خدعهما . وقد يخدع المؤمن بالله . كان بعض العلماء يقول : من خادعنا بالله خَدَعنا . وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : " المؤمن غِرٌّ (١) كريم والفاجر خَبٌّ لئيم (١) " . وأنشد نفطويه :

إنّ الكريم إذا تَشاءُ خَدَعتَه * وترى اللئيمَ مُجَرِّبا لا يُخْدَعُ

﴿ فَدَلَّٰهُمَا ﴾ يقال : أدلَى دَلْوَه : أرسلها . ودلّاها : أخرجها . وقيل : « دَلَّاهُمَا » أى دلّلهما ؛ من الدّالة وهى الجُرْأة . أى جرّأهما على المعصية فخرجا من الجنة .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ ﴾ أى أكلا منها . وقد مضى فى « البقرة » الخلاف فى هذه الشجرة (٢) ، وكيف أكل آدم منها . ﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ أكلت حوّاء أوّلا فلم يصبها شىء ؛ فلما أكل آدم حلّت العقوبة ؛ لأن النهى ورد عليهما كما تقدّم فى « البقرة » (٢) . قال ابن عباس : تقلّص النورُ الذى كان لباسهما فصار أظفارا فى الأيدى والأرجل .

الثانية — ﴿ وَطَفِقَا ﴾ ويجوز إسكان الفاء (٣) . وحكى الأخفش طَفَق يَطْفِق ؛ مثل ضرب يضرب . يقال : طفِق، أى أخذ فى الفعل . ﴿ يَخْصِفَانِ ﴾ وقرأ الحسن بكسر الخاء

(١) الغر : الذى لا يفطن للشر . والخب (بكسر الخاء وفتحها) : ضد الغر ، وهو الخداع المفسد . الرواية الثابتة عن أحمد عن أبى هريرة : " والمنافق خب لئيم " بدل الفاجر .
(٢) راجع جـ ١ ص ٣٠٤ .
(٣) كذا فى الأصول . والمتبادر أنه يريد المصدر على لغة ضرب ضربا لأن طفق كفرح .

Marfat.com

وشدّ الصاد . والأصل « يَخْتَصِفَانِ » فأدغم، وكسر الخاء لالتقاء الساكنين . وقرأ ابن بريدة ويعقوب بفتح الخاء، ألقيا حركة التاء عليها . ويجوز « يُخَصِّفَانِ » بضم الياء، من خَصَّف يخصِّف . وقرأ الزهري « يُخْصِفَانِ » من أَخْصَف . وكلاهما منقول بالهمزة أو التضعيف والمعنى : يقطعان الورق ويلزقانه ليستترا به، ومنه خَصَف النعل . والخصَّاف الذي يرقِّعها . والمِخْصف المِثْقب . قال ابن عباس : هو ورق التين . ويروى أن آدم عليه السلام لما بدت سوأته وظهرت عورته طاف على أشجار الجنة يَسُلُّ[1] منها ورقة يغطي بها عورته ؛ فزجرته أشجار الجنة حتى رحمته شجرة التين فأعطته ورقة . فـ « طَفِقَا » يعني آدم وحواء « يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ » فكافأ الله التين بأن سوّى ظاهره وباطنه في الحلاوة والمنفعة، وأعطاه ثمرتين في عام واحد مرتين .

الثالثة — وفي الآية دليل على قبح كشف العورة ، وأن الله أوجب عليهما الستر ؛ ولذلك ابتدرا إلى سترها، ولا يمتنع أن يؤمرا بذلك في الجنة ؛ كما قيل لهما : « وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ » . وقد حكى صاحب البيان عن الشافعي أن من لم يجد ما يستر به عورته إلا ورق الشجر لزمه أن يستتر بذلك ؛ لأنه سترة ظاهرة يمكنه التستر بها ؛ كما فعل آدم في الجنة . والله أعلم .

قوله تعالى[2] : ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ . قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي قال لهما : ألم أنهكما . قَالَا رَبَّنَا نداء مضاف . والأصل يا ربنا . وقيل : إن في حذف « يا » معنى التعظيم . فاعترفا بالخطيئة وتابا [صلى الله عليهما وسلم][3] وقد مضى في « البقرة »[4] . ومعنى قوله : ﴿ قَالَ اهْبِطُوا ﴾ تقدم أيضا إلى آخر الآية .

قوله تعالى : قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

الضمائر كلها للأرض . ولم يذكر الواو في « قال » ، ولو ذكرها لجاز[5] أيضا . وهو كقولك : قال زيد لعمرو كذا قال له كذا .

---

(١) في ك : يسأل . (٢) في ع وزوك : الثالثة قوله تعالى : «وناداهما» الآية . (٣) من ع .
(٤) راجع جـ ١ ص ٣٢٤ وص ٣١٩ . (٥) أي في مثل هذا التركيب في غير القرآن .

Marfat.com

قوله تعالى : يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ ﴾ قال كثير من العلماء : هذه الآية دليل على وجوب ستر العورة ؛ لأنه قال : « يُوَارِي سَوْآتِكُمْ » . وقال قوم : إنه ليس فيها دليل على ما ذكروه، بل فيها دلالة على الإنعام فقط .

قلت : القول الأول أصح . ومن جملة الإنعام ستر العورة ؛ فبين أنه [سبحانه وتعالى](١) جعل لذريته ما يسترون به عوراتهم ، ودل على الأمر بالتستر . ولا خلاف بين العلماء في وجوب ستر العورة عن أعين الناس . واختلفوا في العورة ما هي ؟ فقال ابن أبي ذئب : هي من الرجل الفرج نفسه ، القبل والدبر دون غيرهما . وهو قول داود وأهل الظاهر وابن أبي عبلة(٢) والطبري ؛ لقوله تعالى : « لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ » ، « بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا » ، « لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا » . وفي البخاري عن أنس : « فأجرى(٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم في زقاق خيبر — وفيه — ثم حسر الإزار عن فخذه حتى إني أنظر إلى بياض فخذ نبي الله صلى الله عليه وسلم(٤) » . وقال مالك : السرة ليست بعورة ، وأكره للرجل أن يكشف فخذه بحضرة زوجته . وقال أبو حنيفة : الركبة عورة . وهو قول عطاء . وقال الشافعي : ليست السرة ولا الركبتان من العورة على الصحيح . وحكى أبو حامد الترمذي أن للشافعي في السرة قولين . وحجة مالك قوله عليه السلام لجرهد : " غط فخذك فإن الفخذ عورة " . خرجه البخاري تعليقا وقال : حديث أنس أسند(٥) ، وحديث جرهد أحوط حتى يخرج من اختلافهم . وحديث جرهد هذا

(١) من ع . (٢) في ع وز : « وابن عطية » . (٣) أي أجرى دابته .

(٤) أي عند سوق مركوبه ليتمكن من ذلك . وراجع شرح القسطلاني (كتاب الصلاة — باب ما يذكر في الفخذ)

(٥) أي أقوى وأحسن سندا من حديث جرهد .

ما هي العورة؟ عورة الرجل

يدل على خلاف ما قال أبو حنيفة . وروى أن أبا هريرة قبّل سُرّة الحسن بن علىّ وقال : أقبّل منك ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل منك . فلو كانت السرة عورة ما قبلها أبو هريرة، ولا مكّنه الحسن منها . وأما المرأة الحرة فعورة كلها إلا الوجه والكفين . على هذا أكثر أهل العلم . وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من أراد أن يتزوج امرأة فلينظر إلى وجهها وكفيْها " . ولأن ذلك واجب كشفه فى الإحرام . وقال أبو بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام : كل شىء من المرأة عورة حتى ظفرها . وروى عن أحمد بن حنبل نحوه . وأما أمّ الولد فقال الأثْرَم : سمعته — يعنى أحمد بن حنبل — يسأل عن أم الولد كيف تصلّ ؟ فقال : تغطّى رأسها وقدميها ؛ لأنها لا تباع ، وتصلى كما تصلى الحرة . وأما الأمَة فالعورة منها ما تحت ثديها، ولها أن تبدى رأسها ومعصميها . وقيل : حكمها حكم الرجل . وقيل : يكره لها كشف رأسها وصدرها . وكان عمر رضى الله عنه يضرب الإماء على تغطيتهن رءوسهن و يقول : لا تَشبَّهن بالحرائر . وقال أصبغ : إن انكشف فخذها أعادت الصلاة فى الوقت . وقال أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام : كل شىء من الأمَة عورة حتى ظفرها . وهذا خارج عن أقوال الفقهاء، لإجماعهم على أن المرأة الحرة لها أن تصلى المكتوبة و يداها ووجهها مكشوف ذلك كله ، تباشر الأرض به . فالأمَة أولى، وأمُّ الولد أغلظ حالا من الأمة . والصبىُّ الصغير لا حرمة لعورته . فإذا بلغت الجارية إلى حَدّ تأخذها العين وتُشْتَهَى سترت عورتها . وحجة أبى بكر بن عبد الرحمن قوله تعالى : « يَأَيُّهَا النَّبِيّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ » (١) . وحديث أم سلمة أنها سئلت : ماذا تصلى فيه المرأة من الثياب ؟ فقالت : تصلى فى الدرع والخمار السابغ الذى يغيّب ظهور قدميها . وقد رُوى مرفوعا . والذين أوقفوه على أمّ سَلَمة أكثر وأحفظ ، منهم مالك وابن إسحاق وغيرهما . قال أبو داود : و رفعه عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن محمد بن زَيْد عن أمّه (٢) عن أم سلمة أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٤١ .

(٢) فى ب : عن أبيه . وقد روى عن أبيه وأمه .

عورة المرأة

عورة الأمة

Marfat.com

قال أبو عمر : عبد الرحمن هـذا ضعيف عندهم ؛ إلا أنه قد خرّج البخارى بعض حديثه . والإجماع فى هذا الباب أقوى من الخبر .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا ﴾ يعنى المطر الذى ينبت القطن والكتّان ، ويُقيم البهائم الذى[(١)] منها الأصواف والأوبار والأشعار ؛ فهو مجاز مثل « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ[(٢)] » على ما يأتى . وقيل : هذا الإنزال إنزال شىء من اللباس مع آدم وحوّاء ، ليكون مثالا لغيره . وقال سعيد بن جبير : « أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ » [أى][(٣)] خلقنا لكم ؛ كقوله : « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ » أى خلق . على ما يأتى . وقيل : ألهمناكم كيفية صنعته .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَرِيشًا ﴾ قرأ أبو عبد الرحمن والحسن وعاصم من رواية المفضّـل الضبّى ، وأبو عمـرو من رواية الحسين بن على الجُعْفِىّ « ورياشا » . ولم يحكه أبو عبيد[(٤)] إلا عن الحسن ، ولم يفسر معناه . وهو جمع ريش . وهو ما كان من المال واللباس . وقال الفرّاء : رِيشٌ ورياش ، كما يقال : لِبس ولبـاس . وريش الطائر ماستره الله به . وقيل : هو الخصب ورفاهية العيش . والذى عليه أكثر أهل اللغة أن الريش ما ستر من لباس أو معيشة . وأنشد سيبويه :

فريشِى منكم وهَواىَ معْـكم * وإنْ كانت زيارتُـكم لِمَـاما

وحكى أبو حاتم عن أبى عبيدة : وهبت له دابة بريشها ؛ أى بكسوتها وما عليها من اللباس .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ بين أن التقوى خير لباس ؛ كما قال :

إذا المرءُ لم يلبسْ ثياباً من التُّقَى * تقلّب عريانا وإن كان كاسيا

وخيرُ لبـاس المـرء طاعةُ ربه * ولا خيرَ فيمن كان لله عاصيا

وروى قاسم بن مالك عن عوف عن مَعْبَـد الجُهَنِىّ قال : « لِبَـاسُ التَّقْوَى » الحيَـاء . وقال ابن عباس : « لِبَـاسُ التَّقْوَى » هو العمل الصالح . وعنـه أيضا : السَّمْت الحسَن

(١) كذا فى الأصول . ولعل الصواب : التى . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٣٤ .
(٣) من ك . (٤) فى ك : أبو عبد الرحمن .

Marfat.com

فى الوجه . وقيل : ما علّمه عز وجل وهدى به . وقيل : « لِبَاسُ التَّقْوَى » لبس الصوف والخشن من الثياب، ممـا يُتواضع به لله تعالى و يتعبَّد له خيرٌ من غيره . وقال زيد بن على : « لِبَـاسُ التَّقْوَى » الدّرع والمِغْفَر ؛ والساعدان ، والساقان ، يُتّقى بهما فى الحرب . وقال عروة بن الزبير : هو الخشية لله . وقيل : هو آستشعار تقوى الله تعالى فيما أمر به ونهى عنه .

قلت : وهو الصحيح، و إليه يرجع قول آبن عباس وعروة. وقول زيد بن على حَسَنٌ، فإنه حَضّ على الجهاد . وقال ابن زيد : هو ستر العورة . وهذا فيه تكرار ؛ إذ قال أولا : «قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ» . ومن قال : إنه لبس الخشن من الثياب فإنه أقرب إلى التواضـع وترك الرعونات فدَعْوَى ؛ فقـد كان الفضلاء من العلمـاء يلبسون الرفيع من الثياب مع حصول التقوى، على ما يأتى مبينا إن شاء الله تعالى . وقرأ أهل المدينة والكسائى «لِبَاسَ» بالنصب عطفا على « لِبَـاسًا » الأول . وقيـل : انتصب بفعل مضمـر ؛ أى وأنزلنا لباس التقوى . والباقون بالرفع على الابتداء . و « ذَلِكَ » نعته و « خَيْرٌ » خبر الابتداء . والمعنى : ولباس التقوى المشار إليه ، الذى علمتموه ، خير لكم من لبس الثياب التى تُوارى سوءاتكم، ومن الرّياش الذى أنزلنا إليكم؛ فآلبسوه. وقيل : آرتفع بإضمار هو؛ أى وهو لباس التقوى ؛ أى هو ستر العورة . وعليـه يخرج قول ابن زيد . وقيل : المعنى ولباس التقوى هو خير؛ فـ« ـذلك » بمعـنى هو . والإعراب الأوّل أحسنُ ما قيل فيـه . وقرأ الأعمش «ولباسُ التقوى خيرٌ» ولم يقرأ « ذَلِكَ » . وهو خلاف المصحف .﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ ٱللَّهِ﴾ أى مما يدل على أن له خالقا . و « ذلك » رفع على الصفة، أو على البدل، أو عطف بيان .

قوله تعـالى : ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾

Marfat.com

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ﴾ أى لا يصرفنّكم الشيطان عن الدِّين ؛ كما فتن أبو يكم بالإخراج من الجنة . « أَبٌّ » للذكر، و « أبة » للؤنث . فعلى هذا قيل : أبوان . ﴿ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾ فى موضـع نصب على الحال . ويكون مسـتأنفًا فيوقف على « مِنَ الْجَنَّةِ » . ﴿ لِيُرِيَهُمَا ﴾ نصب بلام كىْ . ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ الأصل «يرءاكم» ثم خفّفت الهمزة . « وَقَبِيـلُهُ » عطف على المضمر وهو توكيد ليحسن العطف؛ كقوله : « ٱسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ » . وهـذا يدل على أنه يقبح رأيتك وعمرو ، وأن المضمر كالمظهر . وفى هذا أيضا دليل على وجوب ستر العورة؛ لقوله : « يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا » . قال الآخرون : إنما فيه التحذير من زوال النعمة ؛ كما نزل بآدم صلى الله عليه وسلم . هذا أن لو ثبت أن شرع آدم يلزمنا ، والأمر بخلاف ذلك .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ « قَبِيلُهُ » جنوده . قال مجاهد : يعنى الجن والشياطين . ابن زيد : «قبيله» نسله . وقيل : جيله . ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ قال بعض العلماء : فى هذا دليل على أن الجنّ لا يُرَوْن ؛ لقوله : « مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ » . وقيـل : جائز أن يُرَوْا ؛ لأن الله تعـالى إذا أراد أن يُريهـم كشف أجسامهم حتى تُرى . قال النحاس : « مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُـمْ » يدل على أن الجن لا يُرَوْن إلا فى وقت نبىّ ؛ ليكون ذلك دلالة على نبوّته ؛ لأن الله جل وعز خلقهـم خلقا لا يُرَوْن فيه ، وإنمـا يرون إذا نقلوا عن صـورهم . وذلك من المعجزات التى لا تكون إلا فى وقت الأنبيـاء صلوات الله وسلامه عليهم . قال القشيرىّ : أجرى الله العادة بأن بنى آدم لا يرون الشياطين اليوم . وفى الخبر "إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم". وقال تعالى : «الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ» [1] . وقال عليه السلام : "إن للملك لمة وللشيطان لَمّة — أى بالقلب — فأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق وأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق" . وقد تقـدم

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٢٦٣ .

فى «البقرة»(١) . وقد جاء فى رؤيتهم أخبار صحيحة . وقد خرّج البخارىّ عن أبى هريرة قال : وكّلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان ، وذكر قصة طويلة ، ذكر فيها أنه أخذ الجِنّىّ الذى كان يأخذ التمر ، وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال له : " ما فعل أسيرك البارحة " . وقد تقدّم فى « البقرة » . وفى صحيح مسلم أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " والله لولا دعوة أخى سليمان لأصبح مُوثَقا يلعب به وِلدان أهل المدينة " — فى العِفريت الذى تَفَلَّتَ(٢) عليه . وسيأتى فى « صٓ »(٣) إن شاء الله تعالى . ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى زيادة فى عقوبتهم وسوّينا بينهم فى الذهاب عن الحق .

قوله تعالى : وَإِذَا فَعَلُوا فَـٰحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

الفاحشة هنا فى قول أكثر المفسرين طوافهم بالبيت عُراةً . وقال الحسن : هى الشرك والكفر . واحتجوا على ذلك بتقليدهم أسلافهم ، وبأن الله أمرهم بها . وقال الحسن : « وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا » قالوا : لو كره الله ما نحن عليه لنقلنا عنه . ﴿ قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ بيّن أنهم متحكّمون ، ولا دليل لهم على أن الله أمرهم بما ادّعوا . وقد مضى ذمّ التقليد وذمّ كثير من جهالاتهم . وهذا منها .

قوله تعالى : قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٢٩ ، وص ٢٦٩ .		(٢) أى تعرض بغتة .
(٣) فى قوله تعالى : « قال رب اغفر لى وهب لى ... » جـ ١٥ ص ٢٠٤ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ قال ابن عبـاس : لا إله إلا الله . وقيل : القسط العـدل ؛ أى أمر بالعـدل فأطيعوه . ففى الكلام حذف . ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ أى توجهوا إليه فى كل صـلاة إلى القبلة . ﴿ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ أى فى أى مسجد كنتم . ﴿ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أى وحّدوه ولا تشركوا به . ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ نظـيره « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ »[1] وقد تقـدم . والكاف فى موضع نصب ؛ أى تعودون كما بدأكم ؛ أى كما خلقكم أول مرة يعيدكم . وقال الزجاج : هو متعلق بما قبله . أى ومنها تخرجون كما بدأكم تعودون. ﴿ فَرِيقًا هَدَى ﴾ «فريقا» نصب على الحال من المضمر فى « تَعُودُونَ » أى تعودون فريقين : سـعداء ، وأشقياء . يقوّى هذا قراءة أُبَيّ « تعودون فريقين فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة » ؛ عن الكسائى. وقال [محمد بن][2] كعب القرظى فى قوله تعالى : «فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ» قال : من ابتدأ الله خلقه للضلالة صيّره إلى الضلالة، وإن عمل بأعمال أهـل الهدى . ومن ابتدأ الله خلقه على الهـدى صيره إلى الهدى ، وإن عمل بأعمال الضلالة . ابتدأ الله خلق إبليس على الضلالة، وعمل بأعمال السعادة مع الملائكة، ثم ردّه الله إلى ما ابتدأ عليه خلقه . قال : « وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » .

وفى هذا رد واضح على القدرية ومن تابعهم . وقيل : « فَرِيقًا » نصب بـ « هَدَى » ؛ « وَفَرِيقًا » الثانى نصب بإضمار فعل ؛ أى وأضل فريقا . وأنشد سيبويه :

أصبحتُ لا أحمل السِّلاحَ ولا • أملك رأسَ البعـير إن نَفَـرا

والذِّئبُ أخشاه إن مررتُ به • وحدى وأخشى الرياحَ والمطرا[3]

قال الفرّاء : ولو كان مرفوعا لجاز[4] . ﴿ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وقرأ عيسى ابن عمر : « أنهم » بفتح الهمزة ، يعنى لأنهم .

قوله تعـالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

---

(١) راجع ص ٤٢ من هذا الجزء . (٢) من البحر . (٣) البيتان للربيع بن ضبع الفزارى . وصف فيهما انتهاء شبيبته وذهاب قوته . (٤) أى فى مثل هذا التركيب فى غير كلام الله .

Marfat.com

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ هو خطاب لجميع العالم ، و إن كان المقصود بها من كان يطوف من العرب بالبيت عريانا ؛ فإنه عامٌّ فى كل مسجد للصلاة . لأن العبرة للعُموم لا للسّبب . ومن العلماء من أنكر أن يكون المراد به الطواف ؛ لأن الطواف لا يكون إلا فى مسجد واحد ، والذى يعم كل مسجد هو الصلاة . وهذا قول مَن خفى عليه مقاصد الشريعة . وفى صحيح مسلم عن ابن عباس قال : كانت المرأة تطوف بالبيت وهى عريانة وتقول : من يُعيرُنى تِطْوَافا[(1)] ؟ تجعله على فرجها . وتقول :

اليومَ يَبْدُو بعضُه أو كلّه * وما بَدَا منـه فلا أحلّه

فنزلت هذه الآية : «خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ» . التطْواف (بكسر التاء) . وهذه المرأة هى ضُباعة بنت عامر بن قُرْط ؛ قاله القاضى عياض . وفى صحيح مسلم أيضا عن هشام بن عروة عن أبيه قال : كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحُمْس[(2)] ، والحُمْسُ قريش وما ولدت ، كانوا يطوفون بالبيت عُراةً إلا أن تعطيهم الحُمْسُ ثيابا فيعطى الرجالُ الرجالَ والنساءُ النساءَ . وكانت الحمس لا يخرجون من المُزْدلِفة ، وكان الناس كلهم يقفون بعرفات[(3)] . فى غير مسلم : ويقولون نحن أهل الحَرَم ، فلا ينبغى لأحد من العرب أن يطوف إلا فى ثيابنا ، ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا . فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يُعيره ثوبا ولا يَسارٌ يستأجره به كان بين أحد أمرين : إما أن يطوف بالبيت عُريانا ، و إما أن يطوف فى ثيابه ؛ فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه فلم يمسه أحد . وكان ذلك الثوب يسمى اللَّقَى ؛ قال قائل من العرب :

كفَى حَزَنا كَرِّىَ عليـه كأنه * لَقًى بين أيدى الطائفين حَرِيمُ

فكانوا على تلك الجهالة والبدعة والضلالة حتى بعث الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ فأنزل الله تعالى : « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ » الآية[(4)] . وأذّن مؤذّن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألَا لا يطوف بالبيت عُرْيان .

---

(١) الثوب الذى يطاف به . على وزن تفعال بالفتح و بالكسر . (٢) الحمس سموا بهذا لأنهم تحمسوا فى دينهم أى تشددوا والحماسة الشجاعة . (٣) فى صحيح مسلم : « يبلغون عرفات » . (٤) من ع .

Marfat.com

قلت : ومن قال بأن المراد الصلاة فزينتها النعال؛ لمـا رواه كُرْز بن وَبْرَة عن عطاء عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال ذات يوم : "خذوا زينة الصلاة" قيل : وما زينة الصلاة ؟ قال : "البسوا نعالكم فصَلّوا فيها" .

الثانيـــة — دلت الآية على وجوب ستر العورة كما تقدّم . وذهب جمهور أهل العلم إلى أنها فرض من فروض الصـلاة . وقال الأبهريّ هي فرض في الجملة، وعلى الإنسان أن يسترها عن أعين الناس في الصـلاة وغيرها . وهو الصحيح ؛ لقوله عليه السلام لِلْمِسْوَر بن مَخْرَمَة : "ارجع إلى ثوبك فخذه ولا تمشوا عُراة" . أخرجه مسلم . وذهب إسماعيل القاضي إلى أن ستر العورة من سُنَن الصـلاة ، واحتج بأنه لو كان فرضا في الصـلاة لكان العُريان لا يجوز له أن يصلي ؛ لأن كل شيء من فروض الصـلاة يجب الإتيان به مع القدرة عليه ، أو بدله مع عدمه ، أو تسقط الصلاة جملة ، وليس كذلك . قال ابن العربيّ : وإذا قلنا أن ستر العورة فرض في الصلاة فسقط ثوب إمام فانكشف دُبُره وهو راكع فرفع رأسه فغطّاه أجزاه ؛ قاله ابن القاسم . وقال سُحْنون : وكل من نظر إليـه من المأمومين أعاد . وروى عن سحنون أيضا : أنه يعيد ويعيدون؛ لأن ستر العورة شرط من شروط الصلاة، فإذا ظهرت بطلت الصلاة . أصله الطهارة . قال القاضي ابن العربيّ : أما من قال إن صلاتهم لا تبطل فإنهم لم يفقدوا شرطا ، وأما من قال إنْ أخذه مكانه صَحّت صـلاته وتبطل صلاة من نظر إليه فصحيفة يجب محوها ولا يجوز الاشتغال بها . وفي البخاريّ والنسائيّ عن عمرو بن سلمة قال : لمـا رجع قومي من عند النبيّ صلى الله عليه وسلم قالوا قال : "ليؤمكم أكثركم قراءة للقـرآن" . قال : فدعوني فعلّموني الركوع والسجود ؛ فكنت أصلّي بهـم وكانت عليّ بردة مفتوقة، وكانوا يقولون لأبي : ألا تُغَطّي عنا آستَ آبنك . لفظ النسائيّ . وثبت عن سهل بن سـعد قال : لقد كانت الرجال عاقدي أُزُرِهم في أعناقهم من ضيق الأُزُر خلف رسول الله صلى الله عليه وسـلم في الصلاة كأمثال الصبيان ؛ فقال قائل : يا معشر النساء، لا ترفعن رءوسكن حتى ترفع الرجال . أخرجه البخاريّ والنسائيّ وأبو داود .

Marfat.com

الثالثة — وآختلفوا إذا رأى عورة نفسه ؛ فقال الشافعي : إذا كان الثوب ضيقا يزرّه أو يخلّله بشيء لئلا يتجافى القميص فترى من الجيب العورة ، فإن لم يفعل ورأى عورة نفسه أعاد الصلاة . وهو قول أحمد . ورخّص مالك في الصلاة في القميص محلول الأزرار ، ليس عليه سراويل . وهو قول أبي حنيفة وأبي ثور . وكان سالم يصلي محلول الأزرار . وقال داود الطائي : إذا كان عظيم اللحية فلا بأس به . وحكى معناه الأثرم عن أحمد . فإن كان إماما فلا يصلي إلا بردائه ؛ لأنه من الزينة . وقيل : من الزينة الصلاة في النعلين ؛ رواه أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصحّ . وقيل : زينة الصلاة رفع الأيدي في الركوع وفي الرفع منه . قال أبو عمر : لكل شيء زينة وزينة الصلاة التكبير ورفع الأيدي . وقال عمر رضي الله عنه : إذا وسّع الله عليكم فأوسعوا على أنفسكم ، جمع رجل عليه ثيابه ، صلى في إزار ورداء[(١)] ، في إزار وقميص ، في إزار وقباء ، في سراويل ورداء ، في سراويل وقميص ، في سراويل وقباء[(٢)] — وأحسبه قال : في تبّان[(٣)] وقميص — في تبّان ورداء ، في تبّان وقباء . رواه البخاري والدارقطني .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ قال ابن عباس : أحل الله في هذه الآية الأكل والشرب ما لم يكن سرفا أو مخيلة[(٤)] . فأمّا ماتدعو الحاجة إليه ، وهو ماسدّ الجوعة وسكّن الظمأ ، فمندوب إليه عقلا وشرعا ، لما فيه من حفظ النفس وحراسة الحواس ؛ ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال ؛ لأنه يضعف الجسد ويميت النفس ، ويضعف عن العبادة ، وذلك يمنع منه الشرع ويدفعه العقل . وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظّ من برّ ولا نصيب من زهد ؛ لأن ما حرمها من فعل الطاعة بالعجز والضعف أكثر ثوابا وأعظم أجرا . وقد آختلف في الزائد على قدر الحاجة على قولين : فقيل حرام ، وقيل مكروه . قال ابن العربي : وهو الصحيح ؛ فإن قدر الشبع يختلف باختلاف البلدان والأزمان

---

(١) الإزار : ما يؤتزر به في النصف الأسفل . والرداء للنصف الأعلى . (٢) القباء (بالفتح) : ثوب يلبس فوق الثياب . وقيل : يلبس فوق القميص ويتمنطق عليه . (٣) التبان (بضم المثناة وتشديد الموحدة) سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة فقط . (٤) المخيلة : الكبر .

Marfat.com

والأسنان والطّحال . ثم قيـل : فى قِلّة الأكل منافع كثيرة؛ منها أن يكون الرجل أصح جسما وأجـود حفظا وأزكى فهما وأقل نوما وأخف نفسا . وفى كثرة الأكل كَظّ المعـدة ونتن التُّخمة[1]، ويتولّد منـه الأمراض المختلفة، فيحتاج من العـلاج أكثر ممـا يحتاج إليه القليل الأكل . وقال بعض الحكماء : أكبر الدواء تقدير الغذاء . وقد بين النبى صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بيانا شافيا يُغنِى عن كلام الأطباء فقال : " ماملأ آدمىٌّ وعاء شرا من بطن بحسْب آبن آدم لُقيمات يقِمْن صُلْبَه فإن كان لا محالة فثلثٌ لطعامه وثلثٌ لشرابه وثلث لنفَسه " . خرّجه الترمذىّ من حديث المِقْدام بن مَعْـدِى كرِب . قال علماؤنا : لو سمع بُقراط هـذه القسمة لعجب من هذه الحكمة . ويذكر أن الرشيد كان له طبيب نصرانىّ حاذق فقال لعلىّ آبن الحسين : ليس فى كتابكم من علم الطب شىء، والعلم علمان : علم الأديان وعلم الأبدان . فقال له علىّ : قد جمع الله الطب كله فى نصف آية من كتابنا . فقال له : ماهى ؟ قال قوله عزّ وجل : « وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا » . فقال النصرانىّ : ولا يؤثر عن رسولكم شىء من الطب . فقال علىّ : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطب فى ألفاظ يسيرة[2] . قال : ماهى؟ قال : " المعدة بيت الأدواء والحِمْيَةُ رأسُ كلّ دواء وأعط كل جسد ما عوّدته " . فقال النصرانىّ : ماترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبًّا .

قلت : ويقال إن معالجة المريض نصفان : نصفٌ دواءٌ ونصف حِمْية . فإن آجتمعا فكأنك بالمريض قد برأ وصحّ ، وإلّا فالحِمية به أولى؛ إذ لا ينفع دواء مع ترك الحِمية . ولقد تنفع الحِمية مع ترك الدواء . ولقد قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " أصل كل دواء الحِمية " . والمعنىّ بها — والله أعلم — أنها تغنى عن كلّ دواء؛ ولذلك يقال : إن الهند جُلّ معالجتهم الحِمية، يمتنع المريض عن الأكل والشرب والكلام عدّةَ أيام فيبرأ ويصح .

الخامسـة — روى مسلم عن آبن عمر قال : سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : " الكافر يأكل فى سبعة أمعاء والمؤمن يأكل فى مِعًى واحد " . وهذا منه صلى الله

(١) فى ع : نتن للنفحة . قال الجوهرى : الأنفحة هى الكرش .
(٢) فى ع : المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء . هكذا فى الرواية المشهورة وليس بحديث بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب راجع كشف الخفاء جـ ٢ ص ٢١٤ ففيه بحث قيم فى هذا الحديث .

Marfat.com

عليه وسلم حضَّ على التقليل من الدنيا والزهد فيها والقناعة بالبُلْغَة . وقد كانت العرب تمتدح بقلة الأكل وتذم بكثرته . كما قال قائلهم :

تكفيه فلْذة كِبْد إن أَلمّ بها * من الشِّواء ويُرْوى شُرْبَهُ الغُمَرُ[1]

وقالت أمُّ زَرْع في آبن أبي زرع : ويُشبعه ذراعُ[2] الجفْرة[3] . وقال حاتم الطائي يذم بكثرة الأكل :

فإنك إن أعطيتَ بطنك سُؤْلَه * وفرجَك نالا مُنتهى الذَّم أجمعا[4]

وقال الخطّابيّ : معنى قوله [صلى الله عليه وسلم][5] : " المؤمنُ يأكل في مِعًى واحد " أنه يتناول دون شبعه ، ويؤثِر على نفسه ويُبقِي من زاده لغيره ؛ فيقنعه ما أكل . والتأويل الأوّل أولى والله أعلم . وقيل في قوله عليه السلام : " والكافر يأكل في سبعة أمعاء " ليس على عمومه ؛ لأن المشاهدة تدفعه ، فإنه قد يوجد كافر أقلّ أكلاً من مؤمن ، ويُسلم الكافرُ فلا يَقِلّ أكله ولا يزيد . وقيل : هو إشارة إلى معيَّن . ضاف النبيّ صلى الله عليه وسلم ضيفٌ كافر يقال : إنه الجَهْجَاه الغِفارِيّ . وقيل : ثُمَامة بن أثَال . وقيل : نَضْلة بن عمرو الغِفَاريّ . وقيل : بَصْرة بن أبي بصرة الغِفاريّ . فشرب حِلاَب سبع شياهٍ ، ثم إنه أصبح فأسلم فشرب حلاب شاةٍ فلم يَستتمّه ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك . فكأنه قال : هذا الكافر . والله أعلم . وقيل : إن القلب لما تنور بنور التوحيد نظر إلى الطعام بعين التقوّي على الطاعة ، فأخذ منه قدر الحاجة ، وحين كان مُظلِما بالكفر كان أكله كالبهيمة ترتع حتى تَثْلِط[6] .

واختلف في هذه الأمعاء ، هل هي حقيقة أم لا ؟ فقيل : حقيقة ، ولها أسماء معروفة عند أهل العلم بالطب والتشريح . وقيل : هي كنايات عن أسباب سبعة يأكل بها النَّهِم : يأكل للحاجة والخبر[7] والشم والنظر واللمس والذوق ويزيد استغناما[8] . وقيل : المعنى أن يأكل أكل من له سبعة أمعاء . والمؤمن بخفة أكله يأكل أكل من ليس له إلا مِعًى واحد ؛

(١) البيت لأعشى باهلة ، يرثي أخاه المنتشر بن وهب الباهلي . ورواية اللسان : يكفيه حزة فلذ ... والمعنى واحد . والغمر (بضم الأوّل وفتح الثاني) : القدح الصغير . (٢) في ع : ابنة . تشبعها (٣) الجفرة : الصغيرة من ولد المعزى إذا بلغ أربعة أشهر . (٤) الذي في ديوانه : * وإنك مهما تعط ... * الخ . (٥) من ع . (٦) الثلط : الرقيق من الروث . (٧) يريد شهوة الأذن . (٨) في ع : استنعاما .

Marfat.com

فيشارك الكافر بجزء من أجزاء أكله، ويزيد الكافر عليه بسبعة أمثاله . والمِعَى فى هذا الحديث هو المعدة .

السادســـة — وإذا تقرّر هـذا فآعلم أنه يستحب للإنسان غسلُ اليد قبـل الطعام وبعده؛ لقوله عليه السلام : "الوضوء قبل الطعام وبعــده بركة" . وكذا فى التوراة . رواه زَاذَان عن سَلْمان . وكان مالك يكره غسل اليد النظيفة . والاقتداء بالحديث أولى . ولا يأكل طعاما حتى يعرف أحارّا هو أم باردا ؟ فإنه إن كان حاراً فقد يتأذّى . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أَبْرِدُوا بالطعام فإن الحارّ غيرُ ذى بركة" حديث صحيح . وقد تقدّم فى « البقرة » . ولا يشمّه فإن ذلك من عمل البهائم ، بل إن آشتهاه أكله ، وإن كرهه تركه ، ويصغّر اللقمة ويكثر مضغها لئلا يُعَـدّ شَرِها . ويُسمّى الله تعـالى فى أوله ويحمده فى آخره . ولا ينبغى أن يرفع صوته بالحمد إلا أن يكون جلساؤه قد فرغوا من الأكل؛ لأن فى رفـع الصوت منعًا لهم من الأكل . وآداب الأكل كثيرة ، هـذه جملة منهـا . وسيأتى بعضها فى سورة « هود »(١) إن شاء الله تعـالى . وللشراب أيضا آداب معروفة ، تركنا ذكرها لشهرتها . وفى صحيح مسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله" .

السابعــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ أى فى كثرة الأكل ، وعنـه يكون كثرة الشُّرب ، وذلك يثقل المعدة ، ويثبّط الإنسان عن خدمة ربّه ، والأخذ بحظه من نوافل الخير . فإن تعدّى ذلك إلى ما فوقه مما يمنعه القيام بالواجب عليه حُرِم عليه ، وكان قد أسرف فى مطعمه ومشربه . روى أسـد بن موسى من حديث عون بن أبى جُحَيْفَة عن أبيـه قال : أكلت ثريدا بلحم سمين ، فأتيت النبىّ صلى الله عليه وسلم وأنا أتجشّى(٢)؛ فقال : "اكفف عليك من جُشائك أبا جحيفة فإن أكثر الناس شِبَعًا فى الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة" . فـا أكل أبو جحيفة بملء بطنه حتى فارق الدنيا ، وكان إذا تغدّى لا يتعشى ، وإذا تعشّى لا يتغدّى .

(١) راجع ج ٩ ص ٦٤ .   (٢) التجشؤ : تنفس المعدة عند الامتلاء . فى ى و ع و ز : ثريد بر .

قلت : وقد يكون هـذا معنى قوله عليه السـلام : " المؤمن يأكل فى معًى واحد " أى التام الإيمان؛ لأن من حسن إسلامه وكمل إيمانه كأبى جحيفة تفكر فيما يصير إليه من أمر الموت وما بعده؛ فيمنعه الخوف والإشفاق من تلك الأهوال من استيفاء شهواته . والله أعلم . وقال ابن زيد : معنى « وَلَا تُسْرِفُوا » لا تأكلوا حراما . وقيل : " من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت " . رواه أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم ، خرّجه ابن ماجه فى سننه . وقيل : من الإسراف الأكل بعد الشبع . وكل ذلك محظور . وقال لقمان لابنه : يا بنيّ لا تأكل شبعا فوق شبع ، فإنك إن تنبـذه[(١)] للكلب خير من أن تأكله . وسأل سَمُـرة ابن جُنْدُب عن ابنه ما فعل ؟ قالوا : بَشِم البارحة . قال : بَشِم ! فقالوا : نعم . قال : أما إنه لو مات ما صليت عليه . وقيل : إن العرب فى الجاهلية كانوا لا يأكلون دسما فى أيام حجهم، ويكتفون باليسير من الطعام، ويطوفون عراة . فقيل لهم : « خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا » أى لا تسرفوا فى تحريم ما لم يحرم عليكم .

قوله تعـالى : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ ﴾ بيّن أنهم حرّموا من تلقاء أنفسهم ما لم يحرمه الله عليهم . والزينة هنا الملبس الحسن، إذا قدر عليه صاحبه . وقيل : جميع الثياب؛ كما روى عن عمر : إذا وسّع الله عليكم فأوسعوا . وقد تقدّم . وروى عن عليّ بن الحسين ابن عليّ بن أبى طالب شيخ مالك رضى الله عنهـم أنه كان يلبس كساء خَزٍّ بخمسين دينارا ، يلبسه فى الشتاء، فإذا كان فى الصيف تصدّق به، أو باعه فتصدّق بثمنه، وكان يلبس فى الصيف

(١) فى ج : تنشره .

Marfat.com

ثوبين من متاع مصر مُمَشَّقَيْن[١] و يقول : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » .

الثانيـــة ــ و إذا كان هذا فقد دلّت الآية على لباس الرفيع من الثياب، والتجمّل بها فى الجُمَع والأعياد، وعنـد لقاء الناس ومزاورة الإخوان . قال أبو العالية : كان المسلمون إذا تزاوروا تجمّلوا . وفى صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب أنه رأى حُلّةَ سِيَرَاءَ[٢] تباع عند باب المسجد، فقال : يا رسول الله، لو اشتريتها ليوم الجمعة وللوفود إذا قدِموا عليك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنمـا يلبس هذا من لا خلاق له فى الآخرة " . فما أنكر عليه ذكر التجمّل ، و إنمـا أنكر عليه كونها سِيَرَاءَ . وقد اشترى تميم الدّارى حُلّة بألف درهم كان يصلى فيها . وكان مالك بن دِينار يلبس الثياب العدَنية الجياد . وكان ثوب أحمد بن حنبل يشترى بنحو الدينار . أين هذا ممن يرغب عنه و يؤثر لباس الخشن من الكّتان والصوف من الثياب . و يقول : « وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ » هيهات ! أترى من ذكرنا تركوا لباس التقوى، لا والله ! بل هم أهل التقوى وأولو المعرفة والنُّهَى ، وغيرهم أهل دَعْوَى، وقلوبهم خالية من التقوى . قال خالد بن شَوْذَب : شهدت الحسن وأتاه فَرْقَد، فأخذه الحسن بكسائه فمدّه إليه وقال : يا فُرَيْقد، يابن أمّ فريقد، إن البِرّ ليس فى هذا الكساء، إنمـا البِرّ ما وَقَر فى الصدر وصدّقه العمل . ودخل أبو محمد ابن أخى معروف الكرخىّ على أبى الحسن بن يَسَار[٣] وعليه جبة صوف ، فقال له أبو الحسن : يا أبا محمد ، صوّفت قلبك أو جسمك ؟ صوّف قلبك والبس القُوهِىّ على القُوهِىّ[٤] . وقال رجل للشِّبْلىّ : قد ورد جماعة من أصحابك وهم فى الجامع، فمضى فرأى عليهم المرقّعات والفُوَط ، فأنشأ يقول :

أمّا الخيام فإنهـا كخيامهم ❊ وأرى نساء الحىّ غير نسائه

---

(١) ثوب ممشق وممشوق : مصبوغ بالمشق، وهو صبغ أحمر . (٢) سيراء (بسين مهملة مكسورة ثم ياء مثناة مفتوحة ثم ألف ممدودة) : نوع من البرود فيه خطوط صفر، أو يخالطه حرير. وضبطوا «الحلة» هنا بالتنوين، على أن سيراء صـفة ، وبغير تنوين على الإضافة . وهما وجهان مشهوران . (٣) فى ج و ع و ك و هـ : « بشار » . (٤) القوهى : ضرب من الثياب بيض فارسى منسوبة إلى قهستان .

Marfat.com

قال أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله : وأنا أكره لبس الفُوَط والمرقّعات لأربعة أوجه : أحدها — أنه ليس من لبس السلف، وإنما كانوا يرقعون ضرورة . والثاني — أنه يتضمن ادّعاء الفقر، وقد أمر الإنسان أن يظهر أثر نِعَم(١) الله عليه . والثالث — إظهار التزهد ؛ وقد امرنا بستره . والرابع — أنه تشبه بهؤلاء المتزحزحين عن الشريعة . ومن تشبه بقوم فهو منهم . وقال الطبريّ : ولقد أخطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتّان مع وجود السبيل إليه من حلّه . ومَن أكل البقول والعدس وآختاره على خبز البر . ومن ترك أكل اللحم خوفا من عارض شهوة النساء . وسئل بِشْر بن الحارث عن لبس الصوف، فشق عليه وتبينت الكراهة في وجهه ثم قال : لبس الخَزّ والمُعَصْفَر أحب إليّ من لبس الصوف في الأمصار . وقال ابو الفرج : وقد كان السلف يلبسون الثياب المتوسطة، لا المترفعة ولا الدون، ويتخيّرون أجودها للجمعة والعيد وللقاء الإخوان، ولم يكن تخيّر الأجود عندهم قبيحا . وأما اللباس الذي يزري بصاحبه فإنه يتضمن إظهار الزهد وإظهار الفقر، وكأنه لسان شكوى من الله تعالى، ويوجب احتقار اللابس؛ وكل ذلك مكروه مَنْهِيّ عنه . فإن قال قائل : تجويد اللباس هَوَى النفس وقد أمرنا بمجاهدتها ، وتزيّن للخلق وقد أمرنا أن تكون أفعالنا لله لا للخلق . فالجواب ليس كل ماتهواه النفس يُذَمّ، وليس كل مايُتَزَيَّن به للناس يُكره، وإنما يُنْهَى عن ذلك إذا كان الشرع قد نهى عنه أو على وجه الرياء في باب الدِّين . فإن الإنسان يحب أن يُرى جميلا . وذلك حظ للنفس لا يُلام فيه . ولهذا يسرح شعره وينظر في المرآة ويسوّى عمامته ويلبس بطانة الثوب الخشنة إلى داخل وظهارته الحسنة إلى خارج . وليس في شيء من هذا ما يكره ولا يُذَم . وقد روى مَكْحول عن عائشة قالت : كان نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه على الباب، فخرج يريدهم، وفي الدار رَكْوة فيها ماء؛ فجعل ينظر في الماء ويسوّى لحيته وشعره . فقلت : يا رسول الله، وأنت تفعل هذا ؟ قال : "نعم إذا خرج الرجل إلى إخوانه فلْيُهَيِّئ من نفسه فإن الله جميل يحب الجمال" . وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذَرّة من كِبر" .

(١) في جـ و ك : نعمة . وفي الحديث « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » رواه الترمذي .

Marfat.com

فقـال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة . قال : " إن الله جميل يحب الجمال الكبر بَطَر الحق وغَمْط الناس " . والأحاديث فى هـذا المعنى كثيرة ، تدل كلها على النظافة وحسن الهيئة . وقد روى محمد بن سعد أخبرنا الفضل بن دُكَين قال حدّثنا مَنْدل عن ثور عن خالد بن معدان قال : كان رسـول الله صلى الله عليه وسلم يسافر بالمشط والمرآة والدهن والسواك والكحل . وعن ابن جريج : مشط عاج يمتشط به . قال ابن سعد : وأخبرنا قَبِيصة بن عقبة قال حدّثنا سفيان عن ربيـع بن صَبيح عن يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر دهن رأسه ويسرّح لحيته بالماء . أخبرنا يزيد ابن هارون حدّثنا عبّاد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس قال : كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم مُكْحُلة يكتحل بها عند النوم ثلاثا فى كل عين .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ الطيبات اسم عامٌّ لمـا طاب كَسْبًا وطَعْمًا . قال ابن عباس وقتادة : يعنى بالطيبات من الرزق ما حرّم أهل الجاهلية من البحائر والسوائب والوصائل والحوامى . وقيل : هى كل مستلَذّ من الطعام . وقد ٱختلف فى ترك الطيبات والإعراض عن اللذات ؛ فقال قوم : ليس ذلك من القُربات ، والفعل والترك يستوى فى المباحات . وقال آخرون : ليس قُرْبة فى ذاته ، وإنما هو سبيل إلى الزهد فى الدنيا ، وقصر الأمل فيها ، وترك التكلف لأجلها ؛ وذلك مندوب إليه ، والمندوب قُربة . وقال آخرون : ونقل عن عمر بن الخطاب رضى الله عنـه قوله : لو شئنا لٱتخذنا صِلاءً وصَلائقَ وصِنَابًا ، ولكنى سمعت الله تعالى يذم أقواما فقال : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا »(١) . وروى « صَرائق » بالراء ، وهما جميعا الجرادق(٢) . والصَّلائق (باللام) : ما يلصق من اللحوم والبقول . والصِّلاء (بكسر الصاد والمد) : الشّواء . والصِّناب : الخردل بالزبيب . وفرق آخرون بين حضور ذلك كله بكُلْفَة وبغير كلفة . قال أبو الحسن على بن المفضل المقدسى شيخ أشياخنا : وهو الصحيح إن شاء الله عز وجل ؛ فإنه لم ينقل عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ٱمتنع من

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٩٩ . (٢) الجرادق : جمع جردقة ، وهى الرغيف .

Marfat.com

طعام لأجل طيبه قطُّ ، بل كان يأكل الحلوى والعسل والبِطِّيخ والرطب ، وإنما يكره التكلّف لما فيه من التشاغل بشهوات الدنيا عن مهمات الآخرة . والله تعالى أعلم .

قلت : وقد كره بعض الصوفية أكل الطيبات ، واحتج بقول عمر رضى الله عنه : إياكم واللحم فإن له ضَرَاوَة كضَرَاوَة الخمر (١) . والجواب أن هذا من عمر قول خرج على من خشى منه إيثار التنعم فى الدنيا ، والمداومة على الشهوات ، وشفاء النفس من اللذات ، ونسيان الآخرة والإقبال على الدنيا ، ولذلك كان يكتب عمر إلى عماله : إياكم والتنعمَ وزِىَّ أهل العجم ، وٱخْشَوْشِنوا . ولم يرد رضى الله عنه تحريم شىء أحله الله ، ولا تحظير ما أباحه الله تبارك ٱسمه . وقول الله عز وجل أولى ما ٱمتثل وٱعتمد عليه . قال الله تعالى : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » . وقال عليه السلام : " سيِّد إدامِ الدنيا والآخرة اللحم " . وقد روى هِشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأكل الطِّبِّيخ بالرطب ويقول : " يكسر حر هذا برد هذا وبرد هذا حر هذا " . والطِّبِّيخ لغة فى البِطِّيخ ، وهو من المقلوب . وقد مضى فى « المائدة » (٢) الردُّ على من آثر أكل الخشن من الطعام . وهذه الآية تردّ عليه وغيرها : والحمد لله .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يعنى بحقها من توحيد الله تعالى والتصديق له ؛ فإن الله ينعم ويرزق ، فإن وحّده المنعَمُ عليه وصدّقه فقد قام بحق النعمة ، وإن كفر فقد أمكن الشيطان من نفسه . وفى صحيح الحديث " لا أحد أصبر على أذى من الله يعافيهم ويرزقهم وهم يدعون له الصاحبة والولد " . وتَمّ الكلام على « الحياة الدنيا » . ثم قال « خَالِصَةٌ » بالرفع » وهى قراءة ابن عباس ونافع . ﴿ خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى يُخلص الله الطيبات فى الآخرة للذين آمنوا ، وليس للمشركين فيها شىء كما كان لهم فى الدنيا من الاشتراك فيها . ومجاز الآية : قل هى للذين آمنوا مشتركة فى الدنيا مع غيرهم ، وهى للمؤمنين

---

(١) أى أن له عادة ينزع إليها كعادة الخمر . أى عادة طلابة لأكله وتسمى القرم وهى شدة شهوة اللحم .

(٢) راجع جـ ٦ ص ٢٦٠ فما بعد .

Marfat.com

خالصةٌ يوم القيامة . نخالصةٌ مستأنف على خبر مبتدأ مضمر . وهذا قول ابن عباس والضحاك والحسن وقتادة والسدّى وابن جريج وابن زيد . وقيل : المعنى أن هذه الطيبات الموجودات فى الدنيا هى خالصةٌ يوم القيامة ، للؤمنين فى الدنيا ؛ وخلوصها أنهم لا يعاقبون عليها ولا يعذبون فقوله : « فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » متعلق « بِآمَنُوا » . وإلى هذا يشير تفسير سعيد بن جبير . وقرأ الباقون بالنصب على الحال والقطع ؛ لأن الكلام قد تمّ دونه . ولا يجوز الوقف على هذه القراءة على « الدُّنْيَا » ؛ لأن ما بعده متعلق بقوله : « لِلَّذِينَ آمَنُوا » حالا منه ؛ بتقدير قل هى ثابتة للذين آمنوا فى الحياة الدنيا فى حال خلوصها لهم يوم القيامة ؛ قاله أبو علىّ . وخبر الابتداء « لِلَّذِينَ آمَنُوا » . والعامل فى الحال ما فى اللام من معنى الفعل فى قوله : « لِلَّذِينَ » واختار سيبويه النصب لتقدم الظرف . ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ أى كالذى فصّلت لكم الحلال والحرام أفصّل لكم ما تحتاجون إليه .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

فيــه مسألة واحدة :

قال الكلبي : لمـا لبس المسلمون الثياب وطافوا بالبيت عيّرهم المشركون ؛ فنزلت هــذه الآية . والفواحش : الأعمال المُفْرِطة فى القبح ، ماظهر منها وما بطن . وروى رَوح بن عُبادة عن زكريا بن إسحاق عن ابن أبى نَجيح عن مجاهد قال : « مَا ظَهَرَ مِنْهَا » نكاح الأمهات فى الجاهلية . « وَمَا بَطَنَ » الزنى . وقال قتادة : سرّها وعلانيتها . وهذا فيه نظر؛ فإنه ذكر الإثم والبغى فدلّ أن المراد بالفواحش بعضها ، وإذا كان كذلك فالظاهر من الفواحش الزنى . والله أعلم . ﴿ وَالْإِثْمَ ﴾ قال الحسن : الخمر . قال الشاعر :

شربتُ الإثمَ حتى ضلّ عقلى * كذاك الإثمُ تذهبُ بالعقول

Marfat.com

وقال آخر :

نشرب الإثم بالصُّوَاع جِهارا * وترى المسك بيننـا مُستعارا[(١)]

﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ الظلم وتجاوز الحدّ فيه . وقد تقدّم . وقال ثعلب : البغى أن يقع الرجل فى الرجل فيتكلم فيـه ، ويبغى عليـه بغير الحـق ؛ إلا أن ينتصر منـه بحق . وأخرج الإثم والبغى من الفواحش وهما منـه لعظمهما وفحشهما ؛ فنصّ على ذكرهما تأكيدا لأمرهما وقصدا للزجر عنهما . وكذا ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا﴾ ﴿وَأَنْ تَقُـولُوا﴾ وهما فى موضع نصب عطفا على ما قبـلُ . وقد أنكر جماعة أن يكون الإثم بمعنى الخمر . قال الفرّاء : الإثم ما دون الحدّ والاستطالة على النـاس . قال النحاس : فأما أن يكون الإثم الخمر فلا يعرف ذلك ، وحقيقة الإثم أنه جميع المعاصى ؛ كما قال الشاعر :

إنى وجدتُ الأمرَ أرشَـدُه * تقــوَى الإله وشرُّه الإثْمُ

قلت : وأنكره ٱبن العربىّ أيضا وقال : « ولا حجة فى البيت[(٢)] ؛ لأنه لو قال : شربت الذنب أو شربت الوِزر لكان كذلك ، ولم يوجب قوله أن يكون الذنب والوزر ٱسما من أسماء الخمر كذلك الإثم . والذى أوجب التكلم بمثل هذا الجهلُ باللغة وبطريق الأدلة فى المعانى » .

قلت : وقـد ذكرناه عن الحسن . وقال الجوهرىّ فى الصحاح : وقـد يسمى الخمر إثمـا ، وأنشد :

* شربت الإثم ... ... * البيت

وأنشده الهروىّ فى غريبَيْه ، على أن الخمر الإثم . فلا يبعد أن يكون الإثم يقع على جميع المعاصى وعلى الخمر أيضا لغةً ، فلا تناقض . والبغى : التجاوز فى الظلم ، وقيل : الفساد .

قوله تعالى : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

فيــه مسألة واحدة :

---

(١) الصواع : إناء يشرب فيه . ومستعار : متداول . أى نتعاوره بأيدينا نشمه .

(٢) يريد به البيت الأول .

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أى وقت مؤقت . ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾ أى الوقت المعلوم عنـد الله عز وجل . وقرأ ابن سيرين « جاء آجالهم » بالجمع ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ عنـه ساعة ولا أقل من ساعة ؛ إلا أن الساعة خصت بالذكر لأنها أقل أسماء الأوقات ، وهى ظرف زمان . ﴿ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ فدل بهذا على أن المقتول إنمـا يقتل بأجله . وأجل الموت هو وقت الموت ؛ كما أن أجل الدَّين هو وقت حلوله . وكل شىء وُقِّت به شىء فهو أجل له . وأجل الإنسان هو الوقت الذى يعـلم الله أنه يموتُ[1] الحىّ فيـه لا محالة . وهو وقت لا يجوز تأخير موته عنه ، لا من حيث إنه ليس مقدورًا تأخيرُه . وقال كثير من المعتزلة إلا من شذّ منهم : إن المقتول مات بغير أجله الذى ضُرب له ، وأنه لو لم يقتل لحيِيَ . وهذا غلط ، لأن المقتول لم يمت من أجل قتل غيره له ، بل من أجل ما فعـله الله من إزهاق نفسه عند الضرب له . فإن قيل : فإن مات بأجله فلم تقتلون ضارِبه وتقتصون منه ؟ . قيل له : نقتله لتعدّيه وتصرفه فيما ليس له أن يتصرف فيه ، لا لموته وخروج الروح إذ ليس ذلك من فعله . ولو ترك الناس والتعدّى من غير قصاص لأدّى ذلك إلى الفساد ودَمار العباد . وهذا واضح .

قوله تعالى : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ شرط . ودخلت النـون توكيدا لدخول « ما » . وقيل : ما صلة ، أى إن يأتكم . أخبر أنه يرسل إليهم الرسل منهم لتكون إجابتهم أقرب . والقصص إتباع الحديث بعضه بعضا . ﴿ آيَاتِي ﴾ أى فرائضى وأحكامى.

﴿ فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ ﴾ شرط ، وما بعـده جوابه ، وهو جواب الأول . أى وأصلح منكم ما بينى و بينه . ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ دليل على أن المؤمنين يوم القيامة لا يخافون ولا يحزنون ، ولا يلحقهم رعب ولا فزع . وقيل : قد يلحقهم أهوال يوم القيامة ، ولكن

(١) ف ك : يميت .

مآلهم الأمن . وقيل : جواب « إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ » ما دلّ عليه الكلام ، أي فأطيعوهم " فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ " والقول الأول قول الزجاج .

قوله تعالى : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ المعنى أي ظلم أشنع من الافتراء على الله تعالى والتكذيب بآياته . ثم قال : ﴿ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أي ما كتب لهم من رزق وعمر وعمل ؛ عن ابن زيد . ابن جُبَير : من شقاء وسعادة . ابن عباس : من خير وشر . الحسن وأبو صالح : من العذاب بقدر كفرهم . واختيار الطبري أن يكون المعنى: ما كتب لهم ، أي ما قدر لهم من خير وشر ورزق وعمل وأجل ؛ على ما تقدم عن ابن زيد وابن عباس وابن جبير . قال : ألا ترى أنه أتبع ذلك بقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ يعني رسل ملك الموت . وقيل: « الْكِتَاب » هنا القرآن ؛ لأن عذاب الكفار مذكور فيه . وقيل: « الكتاب » اللوح المحفوظ . ذكر الحسن بن عليّ الحُلْوَانِيّ قال : أملى عليّ عليُّ بن المدِيني قال : سألت عبد الرحمن بن مَهْدِيّ عن القَدَر فقال لي : كل شيء بقدر ، والطاعة والمعصية بقدر ، وقد أعظم الفِرية من قال : إن المعاصي ليست بقدر . قال عليّ وقال لي عبد الرحمن بن مهدي : العلم والقدر والكتاب سواء . ثم عرضت كلام عبد الرحمن بن مَهدِيّ على يحيى بن سعيد فقال : لم يبق بعد هذا قليل ولا كثير . وروى يحيى ابن مَعين حدّثنا مَرْوَان الفزارِيّ حدّثنا إسماعيل بن سميع عن بُكير الطويل عن مجاهد عن ابن عباس «أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ» قال: قوم يعملون أعمالا لا بدّ لهم من أن يعملوها . و « حَتَّى » ليست غاية ، بل هي ابتداء خبر عنهم . قال الخليل وسيبويه : حتى وإمّا وألا

Marfat.com

لا يُمَلْنَ لأنهن حروف فَتُفَرَّقُ بينها و بين الأسماء نحو حُبْلَى وسَكْرَى . قال الزجاج : تكتب حتى بالياء لأنها أشبهت سكرى ، ولو كتبت ألا بالياء لأشبهت إلَى . ولم تكتب إمّا باليـاء لأنها « إنْ » ضُمت إليهـا ما . ﴿ قَالُوا أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ سؤال توبيخ . ومعنى « تَدْعُونَ » تعبدون . ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ أى بطلوا وذهبوا . قيل : يكون هذا فى الآخرة . ﴿ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ أى أقروا بالكفر على أنفسهم .

قوله تعـالى : قَالَ ٱدْخُلُوا فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِى النَّارِ ﴾ أى مع أُمَمٍ ، فـ«فِى» بمعنى مع . وهذا لا يمتنع ؛ لأن قولك : زيد فى القوم ، أى مع القوم . وقيل : هى على بابها ، أى ٱدخلوا فى جملتهم . والقائل قيل : هو الله عز وجل ، أى قال ٱلله ٱدخلوا . وقيل : هو مالك خازن النار . ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ أى التى سبقتها إلى النار ، وهى أختها فى الدين والملة . ﴿ حَتَّى إِذَا ٱدَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا ﴾ أى اجتمعوا . وقـرأ الأعمش « تداركوا » وهو الأصـل ، ثم وقع الإدغام فاحْتِيج إلى ألف الوصـل . وحكاها المهدوى عن ٱبن مسعود . النحاس : وقرأ ابن مسعود «حتى إذا ٱدّركوا» أى أدرك بعضهم بعضا . وعِصْمَةُ عن أبى عمرو «حتى إذا ٱداركوا» بإثبات الألف على الجمع بين الساكنين . وحكى : هذان عبدا الله . وله ثلثا المـال . وعن أبى عمرو أيضا : « إذا إدّاركوا » بقطع ألف

Marfat.com

الوصل ؛ فكأنه سكت على « إذا » للتذكُّر ، فلما طال سكوته قطع ألف الوصل كالمبتدئ بها . وقد جاء فى الشعر قطع ألف الوصل نحو قوله :

يا نفسُ صبرًا كلُّ حىٍّ لاقِ * وكل إثنين إلى آفتراق

وعن مجاهد وحُميد بن قيس « حتى إذِ آدركوا » بحذف ألف « إذا » لالتقاء الساكنين ، وحذف الألف التى بعد الدال . « جَمِيعًا » نصب على الحال . ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ ﴾ أى آخرهم دخولا وهم الأتباع لأولاهم وهم القادة . ﴿ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ ﴾ فاللام فى « لأولاهم » لام أجل ؛ لأنهم لم يخاطبوا أولاهم ولكن قالوا فى حق أولاهم ربنا هؤلاء أضلونا . والضِّعف المثل الزائد على مثله مرة أو مرات . وعن ابن مسعود أن الضِّعف ها هنا الأفاعى والحيات . ونظير هذه الآية « رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا »(١) . وهناك يأتى ذكر الضِّعف بأشبع من هذا وما يترتب عليه من الأحكام، إن شاء الله تعالى . ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ أى للتابع والمتبوع . ﴿ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ على قراءة من قرأ بالياء ؛ أى لا يعلم كل فريق ما بالفريق الآخر ، إذ لو علم بعض من فى النار أن عذاب أحد فوق عذابه لكان نوع سلوة له . وقيل : المعنى « وَلَٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ » بالتاء ، أى ولكن لا تعلمون أيها المخاطبون ما يجدون من العذاب . ويجوز أن يكون المعنى ولكن لا تعلمون يا أهل الدنيا مقدار ما هم فيه من العذاب . ﴿ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ أى قد كفرتم وفعلتم كما فعلنا ، فليس تستحقون تخفيفا من العذاب ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٤٩ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾ أى لأرواحهم . جاءت بذلك أخبار صحاح ذكرناها فى كتاب (التذكرة) . منها حديث البراء ابن عازب، وفيه فى قبض روح الكافر قال : ويخرج منها ريح كأنتن جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرّون على ملإ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة . فيقولون فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون فلا يفتح لهم، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ » الآية . وقيل : لا تفتح لهم أبواب السماء إذا دعوا ؛ قاله مجاهد والنخعي . وقيل : المعنى لا تفتح لهم أبواب الجنة ؛ لأن الجنة فى السماء . ودلّ على ذلك قوله : ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ والجمل لا يلج فلا يدخلونها أَلْبَتَّةَ . وهذا دليل قطعي لا يجوز العفو عنهم . وعلى هذا أجمع المسلمون الذين لا يجوز عليهم الخطأ أن الله سبحانه وتعالى لا يغفر لهم ولا لأحد منهم . قال القاضى أبو بكر بن الطيب : فإن قال قائل كيف يكون هذا إجماعا من الأمة ؟ وقد زعم قوم من المتكلمين بأن مقلِّدة اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر ليسوا فى النار . قيل له : هؤلاء قوم أنكروا أن يكون المقلِّد كافرا لشبهة دخلت عليهم ، ولم يزعموا أن المقلد كافر وأنه مع ذلك ليس فى النار ، والعلم بأن المقلد كافر أو غير كافر طريقه النظر دون التوقيف والخبر . وقرأ حمزة والكسائي « لَا يُفْتَحُ » بالياء مضمومة على تذكير الجمع . وقرأ الباقون بالتاء على تأنيث الجماعة ؛ كما قال : « مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ »(١) فأنث . ولما كان التأنيث فى الأبواب غير حقيقى جاز تذكير الجمع . وهى قراءة ابن عباس بالياء . وخفّف أبو عمرو وحمزة والكسائي ، على معنى أن التخفيف يكون للقليل والكثير ، والتشديد للتكثير والتكرير مرة بعد مرة لا غير ، والتشديد هنا أولى لأنه على الكثير أدل . والجَمَلُ من الإبل . قال الفرّاء : الجمل زوج الناقة . وكذا قال عبد الله بن مسعود لما سئل عن الجمل فقال : هو زوج الناقة ؛ كأنه استجهل من سأله عما يعرفه الناس جميعا . والجمع

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢١٩ .

Marfat.com

جِمَالٌ وأجمال وجمالات وجمائل . وإنما يُسمى جملا إذا أربَع . وفى قراءة عبد الله : «حتى يلج الجمل الأصفر فى سم الخياط » . ذكره أبو بكر الأنبارى حدثنا أبى حدثنا نصر بن داود حدثنا أبو عبيد حدثنا حجاج عن ابن جريج عن ابن كثير عن مجاهد قال فى قراءة عبد الله ... ؛ فذكره . وقرأ ابن عباس « الجمَّل » بضم الجيم وفتح الميم وتشديدها . وهو حبل السفينة الذى يقال له القلْس ، وهو حبال مجموعة ، جمع جملة ؛ قاله أحمد بن يحيى ثعلب . وقيل : الحبل الغليظ من القُنَّب . وقيل : الحبل الذى يصعد به فى النخل . وروى عنه أيضا وعن سعيد بن جبير : « الجمل » بضم الجيم وتخفيف الميم هو القلْس أيضا والحبل ، على ما ذكرنا آنفا . وروى عنه أيضا « الجُمُل » بضمتين جمع جمل ؛ كأسَد وأُسُد ، والجُمْل مثل أَسَد وأُسْد . وعن أبى السمال « الجَمْل » بفتح الجيم وسكون الميم ، تخفيف « جمل » . وسَمّ الخياط : ثقب الإبرة ؛ عن ابن عباس وغيره . وكل ثقب لطيف فى البدن يسمى سَمّا وسُمّا وجمعه سُموم . وجمع السمّ القاتل سِمَام . وقرأ ابن سيرين « فى سُمّ » بضم السين . والخياط : ما يخاط به ؛ يقال : خِياط ومِخْيَط ؛ مثل إزار ومئزر وقِناع ومِقْنع . والمِهَادُ : الفراش . وغوَاش جمع غاشية ، أى نيران تغشاهم . ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ ﴾ يعنى الكفار . والله أعلم .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ كلام معترض ، أى والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . ومعنى « لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » أى أنه لم يكلف أحدا من نفقات الزوجات إلا ما وجد وتمكن منه ، دون ما لا تناله يده ، ولم يرد إثبات الاستطاعة قبل الفعل ؛ قاله ابن الطيب . نظيره « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا[1] » .

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٧٠ .

Marfat.com

قوله تعالى : وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

ذكر الله عز وجل فيما ينعم به على أهل الجنة نزع الغل من صدورهم . والنزع : الاستخراج . والغل : الحقد الكامن فى الصدر . والجمع غلال . أى أذهبنا فى الجنة ما كان فى قلوبهم من الغل فى الدنيا . قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " الغل على باب الجنة كمبارك الإبل قد نزعه الله من قلوب المؤمنين " . وروى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم : « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ » . وقيل : نزع الغل فى الجنة ألّا يحسد بعضهم بعضا فى تفاضل منازلهم . وقد قيل : إن ذلك يكون عن شراب الجنة ، ولهذا قال : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا »[1] أى يطهر الأوضار من الصدور ، على ما يأتى بيانه فى سورة « الإنسان » و « الزمر »[2] إن شاء الله تعالى .

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ﴾ [أى لهذا[3]] الثواب ؛ بأن أرشدنا وخلق لنا الهداية . وهذا ردّ على القدرية . ﴿ وَمَا كُنَّا ﴾ قراءة ابن عامر بإسقاط الواو . والباقون بإثباتها . ﴿ لِنَهْتَدِيَ ﴾ لام كى . ﴿ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ فى موضع رفع . ﴿ وَنُودُوا ﴾ أصله . نوديوا ﴿ أَنْ ﴾ فى موضع نصب مخففة من الثقيلة ؛ أى بأنه ﴿ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ ﴾ . وقد تكون تفسيرا لما نودوا به ؛ لأن النداء قول ؛ فلا يكون لها موضع . أى قيل لهم : « تِلْكُمُ الْجَنَّةُ » لأنهم وعدوا بها فى الدنيا ؛ أى قيل لهم : هذه تلكم الجنة التى وعدتم بها ، أو يقال لهم ذلك قبل الدخول حين عاينوها من بعد . وقيل : « تِلْكُم » بمعنى هذه . ومعنى ﴿ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى ورثتم منازلها بعملكم ، ودخولكم إياها برحمة الله وفضله . كما قال : « ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ »[4] .

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ١٤١ . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٨٤ .
(٣) من ع . (٤) راجع جـ ٥ ص ٢٧١ .

Marfat.com

وقال : « فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ »[(١)] . وفى صحيح مسلم : "لن يُدخل أحدًا منكم عَمَلُه الجنة" قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : "ولا أنا إلا أن يتغمّدنى الله برحمة منه وفضل". وفى غير الصحيح : ليس من كافر ولا مؤمن إلا وله فى الجنة والنـار منزل؛ فإذا دخل أهل الجنة الجنةَ وأهلُ النـار النـارَ رُفعت[(٢)] الجنة لأهل النـار فنظروا إلى منازلهم فيها ، فقيل لهم : هذه منازلكم لو عملـتم بطاعة الله . ثم يقال : يأهل الجنـة رِثُوهم بما كنتم تعملون ؛ فتقسم بين أهل الجنة منازلهم .

قلت : وفى صحيح مسلم : "لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه فى النـار يهوديا أو نصرانيا". فهذا أيضا ميراث؛ نَعّم بفضله من شاء وعذّب بعدله من شاء . وبالجملة فالجنة ومنازلهـا لا تُنال إلا برحمته ؛ فإذا دخلوها بأعمالهم فقد ورثوها برحمته ، ودخلوها برحمتـه ؛ إذ أعمالهم رحمة منـه لهم وتفضّل عليهم . وقُرِئ «أُورِثْتُمُوهَا» من غير إدغام . وقرئ بإدغام التـاء فى الثـاء .

قوله تعـالى : وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ هذا سؤال تقريع وتعيير . ﴿ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا ﴾ مثل «أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ» أى أنه قد وجدنا . وقيل : هو نفس النداء . ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ ﴾ أى نادى وصوّت ؛ يعنى من الملائكة . «بَيْنَهُمْ» ظرف ؛ كما تقول : أعْلَم وسطهم . وقرأ الأعمش والكسائى : «نَعِم» بكسر العين . وتجوز على هذه اللغـة بإسكان العين . قال مكّى : من قال «نعِم» بكسر العين أراد أن يفرق بين « نَعَم » التى هى جواب و بين « نعم » التى هى آسم للإبل والبقر والغنم . وقد روى عن عمر إنكار « نَعَم» بفتح العين فى الجواب، وقال : قل

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٧ .   (٢) فى ك : فينظرون .

Marfat.com

نَعِم . ونَعَم ونَعِم، لغتان بمعنى العِدَة والتصديق. فالعِدة إذا آستفهمت عن موجب نحو قولك: أيقوم زيد؟ فيقول نعم . والتصديق إذا أخبرت عما وقع، تقول : قد كان كذا وكذا، فيقول نعم . فإذا آستفهمت عن منفيّ فالجواب بلى نحو قولك ألم أكرمك، فيقول بلى. فنعم، لجواب الاستفهام الداخل على الإيجاب كما في هذه الآية. وبلى، لجواب الآستفهام الداخل على النفي؛ كما قال تعالى : «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ»(١). وقرأ البَزّى وابن عامر وحمزة والكِسائيّ «أنّ لعنة الله» وهو الأصل . وقرأ البـاقون بتخفيف «أن» ورفع اللعنة على الابتـداء . فـ «أن» فى موضع نصب على القراءتين على إسقاط الخافض . ويجوز فى المخفّفة ألّا يكون لهـا موضع من الإعراب ، وتكون مفسّرة كما تقدّم . وحكى عن الأعمش أنه قرأ «إنّ لعنة الله» بكسر الهمزة؛ فهذا على إضمار القول كما قرأ الكوفيون(٢) «فَنَادَاهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ إِنَّ اللَّهَ» ويُروى أن طاوسا دخل على هشام بن عبـد الملك فقال له : آتق الله وآحذر يوم الأذان . فقال : وما يوم الأذان؟ قال : قوله تعـالى «فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» فصعِق هشام . فقال طاوس : هذا ذُلّ الصّفة فكيف ذُلّ المعاينة .

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فى موضع خفض لـ«لظالمين» على النعت . ويجوز الرفع والنصب على إضمارهم أو أعنى . أى الذين كانوا يصـدون فى الدنيا الناس عن الإسلام . فهو من الصدّ الذى هو المنع . أو يصدون بأنفسهم عن سبيل الله أى يعرضون . وهذا من الصدود . ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يطلبون آعوجاجها ويذمّونها فلا يؤمنون بها . وقد مضى هذا المعنى(٣) . ﴿وَهُمْ بِٱلْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ أى وكانوا بها كافرين ، فحذف وهـو كثير فى الكلام

(١) راجع ص ٣١٣ من هذا الجزء . (٢) كذا فى الأصول . وتقدم فى جـ ٤ ص ٧٤ أنها قراءة حمزة والكسائى فيكون الصواب : الكوفيان . وفى الشواذ هى قراءة ابن مسعود . (٣) راجع جـ ٤ ص ١٥٤ .

Marfat.com

قوله تعالى : وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ أي بين النار والجنة — لأنه جرى ذكرهما — حاجز ؛ أي سُورٌ . وهو السور الذي ذكره الله في قوله : « فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ »[1] . ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ أي على أعراف السور ؛ وهي شُرَفُه . ومنه عُرف الفرس وعُرف الديك . روى عبد الله بن أبي يزيد[2] عن ابن عباس أنه قال : الأعراف الشيء المُشْرِف . وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال : الأعراف سور له عُرف كعُرْف الديك . والأعراف في اللغة : المكان المُشْرف ؛ جمع عُرْف . قال يحيى بن آدم : سألت الكسائيّ عن واحد الأعراف فسكت ، فقلت : حدثنا إسرائيل عن جابر عن مجاهد عن ابن عباس قال : الأعراف سور له عرف كعرف الديك . فقال : نعم والله ، واحده يعني ، وجماعته أعراف ، ياغلام ، هات القرطاس ؛ فكتبه . وهذا الكلام خرج مخرج المدح ؛ كما قال فيه : « رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ »[2] وقد تكلم العلماء في أصحاب الأعراف على عشرة أقوال : فقال عبد الله ابن مسعود وحُذيفة بن اليمان وابن عباس والشعبيّ والضحاك وابن جُبير : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم . قال ابن عطية : وفي مسند خيثمة بن سليمان (في آخر الجزء الخامس عشر) حديث عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تُوضع الموازين يوم القيامة فتُوزن الحسنات والسيئات فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صُؤابة[3] دخل الجنة ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار" . قيل : يا رسول الله ، فمن استوت حسناته وسيئاته ؟ قال : "أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون" . وقال مجاهد : هم قوم صالحون فقهاء علماء . وقيل : هم الشهداء ؛ ذكره المَهْدويّ . وقال القشيريّ : وقيل هم فضلاء المؤمنين والشهداء ، فرغوا من شغل أنفسهم ، وتفرغوا لمطالعة حال الناس ؛ فإذا

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٥ .

(٢) كذا في أ و جـ و ك . وفي ز : ابن أبي زيد . والظاهر : ابن زيد . راجع جـ ١٢ ص ٢٦٤

(٣) الصؤابة : بيضة القملة .

رأوا أصحاب النـار تعوذوا بالله أن يُرَدّوا إلى النـار ، فإن فى قـدرة الله كلّ شىء، وخلاف المعلوم مقدور . فإذا رأوا أهل الجنة وهم لم يدخلوها بعدُ يرجون لهم دخولها . وقال شَرَحْبيل ابن سعد : هم المستشهدون فى سبيل الله الذين خرجوا عصاة لآبائهم . وذكر الطبرى فى ذلك حديثا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وأنه تعادل عُقوقهم واستشهادهم . وذكر الثعلبىّ بإسناده عن ابن عباس فى قوله عز وجل : « وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ » قال : الأعراف موضع عالٍ على الصراط ، عليه العباس وحمزة وعلىّ بن أبى طالب وجعفر ذو الجناحين ، رضى الله عنهم ، يعرفون محبّيهم ببياض الوجوه ومُبْغضيهم بسواد الوجوه . وحكى الزَّهْرَاوِىّ أنهم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم ، وهم فى كل أمة . وآختار هذا القول النحاس ، وقال : وهو من أحسن ما قيل فيه ؛ فهم على السور بين الجنة والنـار . وقال الزجاج : هم قوم أنبياء . وقيـل : هم قوم كانت لهم صغائر لم تكفر عنهم بالآلام والمصائب فى الدنيا وليست لهم كبائر فيحبسون عن الجنـة لينالهم بذلك غَمّ فيقع فى مقابلة صغائرهم . وتمنّى سالم مولى أبى حُذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف؛ لأن مذهبه أنهم مذنبون . وقيل : هم أولاد الزِّنى[1]؛ ذكره القُشَيرىّ عن ابن عباس . وقيـل : هم ملائكة موكّلون بهذا السور، يميِّزون الكافرين من المؤمنين قبـل إدخالهم الجنة والنـار ؛ ذكره أبو مِجْلَز . فقيل له : لا يقال للملائكة رجال ؟ فقال : إنهم ذكور وليسوا بإناث ، فلا يبـعد إيقاع لفظ الرجال عليهم ؛ كما أوقع على الجنّ فى قوله : « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ[2] » . فهؤلاء الملائكة يعرفون المؤمنين بعلاماتهم والكفار بعلاماتهم ؛ فيبشّرون المؤمنين قبل دخولهم الجنة وهم لم يدخلوها بعـدُ فيطمعون فيها . و إذا رأوا أهل النـار دَعَوْا لأنفسهم بالسلامة من العذاب . قال ابن عطية : واللازم من الآية أن على الأعراف رجالا من أهل الجنة يتأخر دخولهم و يقع لهم ما وُصف من الاعتبار فى الفريقين . و ﴿ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ﴾ أى بعلاماتهم ، وهى بياض الوجوه وحسنُها فى أهل الجنـة ، وسوادُها وقبحُها فى أهل النـار ، إلى غير ذلك من معـرفة حَيِّز هؤلاء ، وحيز هؤلاء .

(١) فى ع : الزناة .
(٢) راجع جـ ١٩ ص ٨ .

Marfat.com

قلت : فوقف عن التعيين لاضطراب الأثر والتفصيل ، والله بحقائق الأمور عليم .

ثم قيل : الأعراف جمع عُرْف وهو كل عالٍ مرتفع ؛ لأنه بظهوره أعرف من المنخفض . قال ابن عباس : الأعراف شُرَف الصراط . وقيل : هو جبل أُحُد يوضع هناك . قال ابن عطية : وذكر الزَّهْرَاوِيّ حديثا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أُحُدًا جبل يُحبُّنا ونُحبّه وإنه يوم القيامة يمثّل بين الجنة والنار يُحبس عليه أقوام يعرفون كلًّا بسيماهم هُمْ إن شاء الله من أهل الجنة " . وذكر حديثا آخر عن صَفْوان بن سُلَيم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن أُحُدًا على ركن من أركان الجنة " .

قلت : وذكر أبو عمر عن أنس بن مالك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أُحد جبل يحبنا ونحبه وإنه لعلى تُرْعة من تُرع الجنة " .

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ أى نادى أصحابُ الأعراف أصحابَ الجنة . ﴿ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى قالوا لهم سلام عليكم . وقيل : المعنى سلمتم من العقوبة . ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ أى لم يدخل الجنة أصحاب الأعراف ، أى لم يدخلوها بعدُ . « وَهُمْ يَطْمَعُونَ » على هذا التأويل بمعنى وهم يعلمون أنهم يدخلونها . وذلك معروف فى اللغة أن يكون طَمِع بمعنى عَلِم ؛ ذكره النحاس . وهذا قول ابن مسعود وابن عباس وغيرهما ، أن المراد أصحاب الأعراف . وقال أبو مِجْلَز : هم أهل الجنة ، أى قال لهم أصحاب الأعراف سلام عليكم وأهل الجنة لم يدخلوا الجنة بعدُ وهم يطمعون فى دخولها للمؤمنين المارِّين على أصحاب الأعراف . والوقف على قوله : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » . وعلى قوله : « لَمْ يَدْخُلُوهَا » . ثم يبتدئ « وَهُمْ يَطْمَعُونَ » على معنى وهم يطمعون فى دخولها . ويجوز أن يكون « وَهُمْ يَطْمَعُونَ » حالا ، ويكون المعنى : لم يدخلها المؤمنون المارّون على أصحاب الأعراف طامعين ، وإنما دخلوها غير طامعين فى دخولها ؛ فلا يوقف على « لم يدخلوها » .

قوله تعالى : وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ أى جهة اللقاء وهى جهة المقابلة . ولم يأت مصدر على تِفْعَال غير حرفين (١) : تِلقاء وتِبيان . والباقى بالفتح ؛ مثل تَسْيار وتَهمام وتَذكار . وأما الاسم بالكسر فيــه فكثير ؛ مثل تِقصار وتِمثال . ﴿ قَالُوا ﴾ أى قال أصحاب الأعراف . ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ سالوا الله ألا يجعلهم معهم، وقد علموا أنه لا يجعلهم معهم . فهذا على سبيل التذلّل ؛ كما يقول أهل الجنة : «رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا (٢)» ويقولون : الحمد لله . على سبيل الشكر لله عز وجل . ولهم فى ذلك لَذَّةٌ .

قوله تعالى : وَنَادَىٰ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ أى من أهل النار . ﴿ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى للدنيـا وآسـتكبارُكم عن الإيمان . ﴿ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ ﴾ إشارة إلى قــوم من المؤمنين الفقراء ؛ كبلال وسَلْمــان وخَبّاب وغيرهم . ﴿ أَقْسَمْتُمْ ﴾ فى الدنيا . ﴿ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ ﴾ فى الآخرة . ﴿ بِرَحْمَةٍ ﴾ يوبخونهم بذلك . وزيدوا غمّا وحسرة بأن قالوا لهم ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ . وقرأ عكرمة « دخلوا الجنة » بغــير ألف والدال مفتوحة . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « أُدخِلوا الجنة » بكسر الخاء على أنه فعل ماض (٣) .

ودلّت الآية على أن أصحاب الأعراف ملائكة أو أنبياء؛ فإن قولهم ذلك إخبار عن الله تعالى ومن جعل أصحاب الأعراف المذنبين كان آخر قولهم لأصحاب النار « وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ » ، ويكون «أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ» إلى آخر الآية من قول الله تعالى لأهل النار توبيخا لهم على ما كان من قولهم فى الدنيا . وروى عن ابن عباس، والأول عن الحسن . وقيل : هو من كلام الملائكة

(١) الذى فى المصباح : قالوا ولم يجىء بالكسر إلا تِبيان وتِلقاء والتِنضال . قلت : فى هذه الصيغة خلاف .
(٢) راجع جـ ١٨ ص ١٩٧ . (٣) فعل ماض مبنى للمجهول كما فى أبى حيان .

Marfat.com

الموكلين بأصحاب الأعراف ؛ فإن أهل النار يحلفون أن أصحاب الأعراف يدخلون معهم النار فتقول الملائكة لأصحاب الأعراف : « ٱدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ » .

قوله تعالى : وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى ﴾ قيل : إذا صار أهل الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار فقالوا : ياربّنا إن لنا قرابات فى الجنة فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم . وأهل الجنة لا يعرفونهم لسواد وجوههم، فيقولون : ﴿ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ فبيّن أن ابن آدم لا يستغنى عن الطعام والشراب وإن كان فى العذاب . ﴿ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ يعنى طعام الجنة وشرابها . والإفاضة التوسعة ؛ يقال : أفاض عليه نعمه .

الثانيــة — فى هذه الآية دليل على أن سقى الماء من أفضل الأعمال . وقد سئل ابن عباس : أى الصدقة أفضل ؟ فقال : الماء، ألم تروا إلى أهل النار حين استغاثوا بأهل الجنة « أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » ؟ . وروى أبو داود أن سعدا أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : أىّ الصدقة[1] أعجب إليك ؟ قال : " الماء " . وفى رواية : فحفر بئرا فقال " هذه لأمّ سعد " . وعن أنس قال قال سعد : يارسول الله ، إن أمّ سعد كانت تحب الصدقة ، أفينفعها أن أتصدّق عنها ؟ قال : " نعم وعليك بالماء ". وفى رواية أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر سعد بن عُبادة أن يسقى عنها الماء . فدلّ على أن سقى الماء من أعظم القُرُبات عند الله تعالى . وقد قال بعض التابعين : من كثرت ذنوبه فعليه بسقى الماء . وقد غفر الله ذنوب الذى سقى الكلب ، فكيف بمن سقى رجلا مؤمنا موحدا وأحياه . روى

(١) فى ك : أى الأعمال .

Marfat.com

البخاري عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بينا رجل يمشى بطريق آشتدّ عليه العطش فنزل بئرا فشرب منها ثم خرج فإذا كلب يأكل الثَّرى من العطش فقال لقد بلغ هـذا الكلبَ مثلُ الذى بلغ بى فملأ خفّه ثم أمسكه بفيه ثم رَقِيَ فسقى الكلب فشكر اللهُ[1] له فغفر له " . قالوا : يارسول الله، وإن لنا فى البهائم لأجرا ؟ قال : " فى كل ذات كبد رَطْبة[2] أجر" . وعكس هـذا ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " عُذّبت آمرأة فى هِرّة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار لاهى أطعمتها وسقتها إذ هى حبستها ولا هى تركتها تأكل من خشاش[3] الأرض " . وفى حديث عائشة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم " ومن سَقَى مسلما شَربة من ماء حيث يوجد المـاء فكأنما أعتق رقبة ومن سقى مسلما شربة من ماء حيث لا يوجد المـاء فكأنما أحياها ". خرّجه ابن ماجه فى السُّنَن

الثالثــة — وقد آستدلّ بهذه الآية من قال : إن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه ، وأن له منعه ممن أراده؛ لأن معنى قول أهل الجنة : « إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ » لا حق لكم فيها . وقد بوّب البخاري رحمه الله على هذا المعنى : (باب من رأى أن صاحب الحوض والقربة أحق بمـائه) وأدخل فى الباب عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : والذى نفسى بيــده لأذودنّ رجالا عن حوضى كما تذاد الغريبة من الإبل عن الحوض " . قال المهلّب : لا خلاف أن صاحب الحوض أحق بمـائه؛ لقوله عليه السلام : " لأذودنّ رجالا عن حوضى "

قوله تعـالى : ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

« الَّذِينَ » فى موضع خفض نعت للكافرين . وقد يكون رفعا ونصبا بإضمار . قيل : هو من قول أهل الجـنة . ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ ﴾ أى نتركهم فى النار . ﴿ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ

(١) أى أثنى عليه ، أو قبل عمله ذلك ، أو أظهر ما جازاه به عند ملائكته . (عن شرح القسطلانى) .
(٢) رواية البخارى وأحمد وابن ماجه " فى كل ذات كبد حراء أجر " .
(٣) خشاش الأرض (مثلثة الخاء) : هوامها وحشراتها .

هَذَا ﴾ أى تركوا العمل به وكذبوا به . و« ما » مصدرية ، أى كنسيهم . ﴿ وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ عطف عليه ، أى وجحدهم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ فَصَّلْنَاهُ ﴾ أى بيناه حتى يعرفه من تدبره . وقيل : « فَصَّلْنَاهُ » أنزلناه متفرقا . ﴿ عَلَى عِلْمٍ ﴾ منا به ، لم يقع فيه سهو ولا غلط . ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ قال الزجاج : أى هاديا وذا رحمة ، فجعله حالا من الهاء التى فى « فصلناه » . قال الزجاج : ويجوز هدًى ورحمةٌ ، بمعنى هو هدى ورحمة . وقيل : يجوز هدى ورحمةٍ بالخفض على البدل من كتاب . وقال الكسائى والفراء : ويجوز هدى ورحمةٍ بالخفض على النعت لكتاب . قال الفراء : مثل « وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ »[1] . ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ خص المؤمنون لأنهم المنتفعون به .

قوله تعالى : هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ بالهمز ، من آل . وأهل المدينة يخففون الهمزة . والنظر : الانتظار ، أى هل ينتظرون إلا ما وعدوا به فى القرآن من العقاب والحساب . وقيل : « ينظرون » من النظر إلى يوم القيامة . فالكناية فى « تأويله » ترجع إلى الكتاب ، وعاقبة[2] الكتاب ما وعد الله فيه من البعث والحساب . وقال مجاهد : « تأويله »

(١) راجع ص ١٤٢ من هذا الجزء . (٢) كذا فى الأصول ولعله بعد قول قتادة الآتى .

Marfat.com

جزاؤه ، أى جزاء تكذيبهم بالكتاب . قال قتـادة : « تأويله » عاقبته . والمعنى متقارب . ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ أى تبدو عواقبه يوم القيامة . و « يوم » منصوب بيقول، أى يقول الذين نسوه من قبل يوم يأتى تأويله . ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ ﴾ استفهام فيـه معنى التمنى . ﴿ فَيَشْفَعُوا ﴾ نصب لأنه جواب الأستفهام . ﴿ لَنَا أَوْ نُرَدُّ ﴾ قال الفـرّاء : المعنى أو هل نرَدّ . ﴿ فَنَعْمَـلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ قال الزجاج : نردّ عطف على المعنى، أى هل يشفع لنا أحد أو نردّ. وقرأ ابن إسحاق « أو نرد فنعمل » بالنصب فيهما. والمعنى إلا أن نرد ؛ كما قال[1] :

فقلتُ له لا تَبْكِ عينُك إنمـا * نحاول مُلْكًا أو نموتَ فنُعْذَرَا

وقرأ الحسن « أو نرد فنعمل » برفعهما جميعا . ﴿ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ أى فلم ينتفعوا بها ، وكل من لم ينتفع بنفسه فقد خسِرها . وقيل : خسروا النّعم وحَظّ أنفسهم منها . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى بطل ما كانوا يقولون من أنّ مع الله إلها آخر .

قوله تعـالى : إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ بيّن أنه المنفرد بقدرة الإيجاد ، فهو الذى يجب أن يعبد . وأصل « ستة » سدسة ، فأرادوا إدغام الدال فى السين فآلتقيا عند مخرج التـاء فغلبت عليهما . وإن شئت قلت : أبدل من إحدى السينين تاء وأدغم فى الدال ؛ لأنك تقول فى تصغيرها : سديسة ، وفى الجمع أسداس، والجمع والتصغير يردّان الأسماء إلى أصولها . ويقولون : جاء فلان سادسا وسادتا وساتا؛ فمن قال :

---

(١) هو امرؤ القيس .

سادتا أبدل من السين تاء . واليوم : من طلوع الشمس إلى غروبها . فإن لم يكن شمس فلا يوم ؛ قاله القشيري . وقال : ومعنى « فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » أى من أيام الآخرة ، كل يوم ألف سنة ؛ لتفخيم خلق السموات والأرض . وقيل : من أيام الدنيا . قال مجاهد وغيره : أولها الأحد وآخرها الجمعة . وذكر هذه المدّة ولو أراد خلقها فى لحظة لفعل ؛ إذ هو القادر على أن يقول لها كونى فتكون . ولكنه أراد أن يعلم العباد الرفق والتثبت فى الأمور، ولتظهر قدرته للملائكة شيئا بعد شىء . وهذا عند من يقول : خلق الملائكة قبل خلق السموات والأرض . وحكمة أخرى — خلقها فى ستة أيام لأن لكل شىء عنده أجلا . وبين بهذا ترك معاجلة العصاة بالعقاب ؛ لأن لكل شىء عنده أجلا . وهذا كقوله : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ . فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ »(1) . بعد أن قال : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا » .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ هذه مسألة الاستواء ؛ وللعلماء فيها كلام وإجراء . وقد بينا أقوال العلماء فيها فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلى) وذكرنا فيها هناك أربعة عشر قولا . والأكثر من المتقدّمين والمتأخرين أنه إذا وجب تنزيه البارى سبحانه عن الجهة والتحيز فمن ضرورة ذلك ولواحقه اللازمة عليه عند عامة العلماء المتقدّمين وقادتهم من المتأخرين تنزيهه تبارك وتعالى عن الجهة ، فليس بجهة فوق عندهم ؛ لأنه يلزم من ذلك عندهم متى اختص بجهة أن يكون فى مكان أو حيز ، ويلزم على المكان والحيز الحركة والسكون للتحيز ، والتغير والحدوث . هذا قول المتكلمين . وقد كان السلف الأوّل رضى الله عنهم لا يقولون بنفى الجهة ولا ينطقون بذلك ، بل نطقوا هم والكافّة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله . ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة . وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته ، وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته . قال مالك رحمه الله : الاستواء معلوم — يعنى فى اللغة — والكيف

(1) راجع جـ ١٧ ص ٢٢ فما بعد .

Marfat.com

مجهول ، والسؤال عن هذا بدعة . وكذا قالت أم سلمة رضى الله عنها . وهذا القدر كاف ، ومن أراد زيادة عليه فليقف عليه فى موضعه من كتب العلماء . والاستواء فى كلام العرب هو العلو والاستقرار . قال الجوهرى : وآستوى من آعوجاج ، وآستوى على ظهر دابته ؛ أى آستقر . وآستوى إلى السماء أى قصد . وآستوى أى آستولى وظهر . قال :

قد آستوى بِشْرٌ على العِـراق * من غير سـيف ودمٍ مهـراق

واستوى الرجل أى آنتهى شـبابه . واستوى الشىء إذا اعتدل . وحكى أبو عمر بن عبد البر عن أبى عبيدة فى قوله تعالى : « الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ »(١) قال : علا . وقال الشاعر :

فأوردتهـم ماء بِفَيْفَاء قَفْـرَةٍ * وقد حَلَّق النجمُ اليمانىّ فاستوى

أى علا وارتفع .

قلت : فعلو الله تعالى وآرتفاعه عبارة عن علو مجده وصفاته وملكوته . أى ليس فوقه فيما يجب له من معانى الجـلال أحد ، ولا معه من يكون العـلو مشتركا بينه و بينه ؛ لكنه العلىّ بالإطلاق سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ لفظ مشترك يطلق على أكثر من واحد . قال الجوهرى وغيره : العرش سرير الملك . وفى التنزيل « نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا »(٢) ، « وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ »(٣) . والعرش : سقف البيت . وعرش القـدم : ما نتأ فى ظهرها وفيـه الأصابع . وعرش السِّماك : أربعة كواكب صغار أسفل من العَوّاء(٤) ، يقال : إنها عَجُز الأسد . وعرش البئر : طيُّها بالخشب ، بعد أن يُطْوَى أسفلها بالحجارة قدر قامة؛ فذلك الخشب هو العرش ، والجمع عروش . والعرش اسم لمكّة . والعرش الملك والسـلطان . يقال : ثُلّ عرش فـلان إذا ذهب ملكه وسلطانه وعزّه . قال زهير :

تداركتما عَبْسًا وقد ثُلَّ عَرْشُها * وذُبْيَانُ إذ ذَلَّتْ بأقدامها النَّعْلُ

(١) راجع ج ١١ ص ١٦٩ . (٢) راجع ج ١٣ ص ٢٠٧ . (٣) راجع ج ٩ ص ٢٦٤ .
(٤) العـواء : خمسة كواكب على خط معقف الطرف . وقال ابن سيده : العواء منزل من منازل القمر ، يمد و يقصر ، والألف فى آخره للتأنيث .

Marfat.com

وقد يؤوّل العرش فى الآية بمعنى المُلك ، أى ما ٱستوى المُلك إلا له جل وعز . وهو قول حَسَن وفيه نظر، وقد بيّناه فى جملة الأقوال فى كتابنا . والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ أى يجعله كالغشاء، أى يذهب نور النهار ليتم قوام الحياة فى الدنيا بمجىء الليل . فالليل للسكون، والنهار للعاش . وقرئ « يغشى » بالتشديد؛ ومثله فى « الرعد »[(١)] . وهى قراءة أبى بكر عن عاصم وحمزة والكسائى . وخفّف الباقون . وهما لغتان أغشى وغشّى . وقد أجمعوا على « فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى »[(٢)] مشدّدا . وأجمعوا على « فَأَغْشَيْنَاهُمْ »[(٣)] فالقراءتان متساويتان . وفى التشديد معنى التكرير والتكثير . والتغشية والإغشاء: إلباس الشيء الشيء . ولم يذكر فى هذه الآية دخول النهار على الليل ، فاكتفى بأحدهما عن الآخر؛ مثل « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ »[(٤)] . « بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ »[(٥)] . وقرأ حُميد بن قيس « يغشى الليلَ النهارُ » ومعناه أن النهار يغشى الليل ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ أى يطلبه دائما من غير فتور . و « يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ » فى موضع نصب على الحال . والتقدير : ٱستوى على العرش مغشيا الليل النهار . وكذا « يَطْلُبُهُ حَثِيثًا » حال من الليل ؛ أى يغشى الليل النهار طالبا له . ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة ليست بحال . « حَثِيثًا » بدل من طالب المقدّر أو نعت له ، أو نعت لمصدر محذوف ؛ أى يطلبه طلبا سريعا . والحث : الإعجال والسرعة . وولّى حثيثا أى مسرعا . ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ قال الأخفش : هى معطوفة على السموات ؛ أى وخلق الشمس . وروى عن عبد الله بن عامر بالرفع فيها كلها على الابتداء والخبر .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — صدق الله فى خبره ، فله الخلق وله الأمر، خلقهم وأمرهم بما أحب . وهذا الأمر يقتضى النهى . قال ابن عيينة : فرق بين الخلق والأمر ؛ فمن جمع بينهما فقد كفر .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٨٠ .　(٢) راجع جـ ١٧ ص ١٢١ .　(٣) راجع جـ ١٥ ص ٩ .
(٤) راجع جـ ١٠ ص ١٥٩ .　(٥) راجع جـ ٤ ص ٥١ .

Marfat.com

فالخلق المخلوق ، والأمر كلامه الذى هو غير مخلوق وهو قوله : « كُنْ » . « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »(1) . وفى تفرقته بين الخلق والأمر دليل بيّن على فساد قول من قال بخلق القرآن؛ إذ لو كان كلامه الذى هو أمر مخلوقا لكان قـد قال : ألا له الخلق والخلق . وذلك عِيٌّ من الكلام ومستهجَن ومستَغَثّ . والله يتعالى عن التكلم بما لا فائدة فيه. ويدل عليـه قوله سبحانه . « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ »(2) . « وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ »(3) . فأخبر سبحانه أن المخلوقات قائمة بأمره؛ فلو كان الأمر مخلوقا لافتقر إلى أمر آخر يقوم به، وذلك الأمر إلى أمر آخر إلى ما لا نهاية له . وذلك محال. فثبت أن أمره الذى هو كلامه قديم أزلى غير مخلوق؛ ليصح قيام المخلوقات به . ويدل عليه أيضا قوله تعالى : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ »(3) . وأخبر تعالى أنه خلقهما بالحق، يعنى القول وهو قوله للمكوَّنات : « كن » . فلو كان الحق مخلوقا لمـا صح أن يخلق به المخلوقات؛ لأن الخلق لا يخلق بالمخلوق . يدل عليه « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ »(1) . « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ »(4) . « وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي »(2) . وهذا كله إشارة إلى السبق فى القول فى القِدَم(5) ، وذلك يوجب الأزل فى الوجود . وهذه النكتة كافية فى الرّد عليهم . ولهم آيات احتجوا بها على مذهبهم مثل قوله تعالى : « مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ »(4) الآية . ومثل قوله تعالى : « وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا »(2) . و « مفعولا » وما كان مثـله . قال القاضى أبو بكر : معنى « مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ »(4) أى من وعظ من النبى صلى الله عليه وسـلم ووعدٍ وتخويف « إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ »؛ لأن وعظ الرسـل صلوات الله عليهم وسلامه وتحذيرهم ذكر. قال الله تعالى : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ »(6) . ويقال: فلان فى مجلس الذكر . ومعنى « وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا » و « مفعولا » أراد سبحانه

(1) راجع جـ ١٥ ص ٦٠ وص ١٣٩ . (2) راجع جـ ١٤ ص ١٩ وص ٩٦٥ . ١٨٨ .
(3) راجع جـ ١٠ ص ٨٣ وص ٥٣ . (4) راجع جـ ١١ ص ٣٤٥ وص ٢٦٦ .
(5) فى جـ : القديم . (6) راجع جـ ٢٠ ص ٣٧ .

Marfat.com

عقابه وانتقامه من الكافرين ونصره للؤمنين وما حكم به وقدّره من أفعاله . ومن ذلك قوله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا »(١) وقال عز وجل : « وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ » يعنى به شأنه وأفعاله وطرائقه . قال الشاعر :

لهـا أمرُها حتى إذا ما تبوّأت * بأخفافها مَرْعًى تبـوّأ مضجَعا

الثانيــة — وإذا تقرّر هذا فٱعلم أن الأمر ليس من الإرادة فى شىء . والمعتزلة تقول : الأمر نفس الإرادة . وليس بصحيح ، بل يأمر بما لا يريد وينهى عما يريد . ألا ترى أنه أمر إبراهيمَ بذبح ولده ولم يُرِده منـه ، وأمر نبيه أن يصلّىَ مع أُمّتـه خمسين صلاة ، ولم يرد منه إلا خمس صلوات . وقد أراد شهادة حمزة حيث يقول : « وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ »(٢) . وقد نهى الكفار عن قتله ولم يأمرهم به . وهذا صحيح نفيس فى بابه ؛ فتأمله .

قوله تعـالى : ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ « تبارك » تفاعل ، من البركة وهى الكثرة والاتّساع . يقال : بورك الشىء وبورك فيه ؛ قاله ابن عرفة . وقال الأزهرى : «تبارك» تعـالى وتعاظم وٱرتفع . وقيـل : إن باسمه يُتَبَرَّك ويُتَيَمَّن . وقـد مضى فى الفاتحة معنى « رَبِّ الْعَالَمِينَ »(٣) .

قوله تعـالى : ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ ﴾ هذا أمرٌ بالدعاء وتعبُّد به . ثم قرن جلّ وعز بالأمر صفاتٍ تحسُن معه ، وهى الخشوع والاستكانة والتضرع . ومعنى « خُفْيَةً » أى سرا فى النفس ليبعد عن الرياء ؛ وبذلك أثنى على نبيه زكريا عليه السـلام إذ قال مخبرا عنـه : « إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا »(٤) . ونحوه قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : "خيرُ الذكر الخفىُّ وخيرُ الرزق مايكفِى" . والشريعة مقرّرة أن السر فيما لم يعترض من أعمال البر أعظم أجرا من الجهر .

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٣ وص ٩٣ . (٢) راجع جـ ٤ ص ٢١٨ .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٣٦ . (٤) راجع جـ ١١ ص ٧٦ .

Marfat.com

وقد تقدّم هذا المعنى فى «البقرة»[١]. قال الحسن بن أبى الحسن : لقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض عمل يقدرون على أن يكون سرا فيكون جهرا أبدا. ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء فلا يسمع لهم صوت ، إن هو إلا الهمس بينهم و بين ربهم . وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ . وذكر عبدا صالحا رضى فعله فقال : « إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا » . وقد استدل أصحاب أبى حنيفة بهذا على أن إخفاء « آمين » أولى من الجهر بها؛ لأنه دعاء . وقد مضى القول فيه فى « الفاتحة »[٢] . وروى مسلم عن أبى موسى قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى سفر — وفى رواية فى غزاة — فجعل الناس يجهرون بالتكبير — وفى رواية فجعل رجل كلما علا ثنية قال : لا إله إلا الله — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أيها الناس ٱرْبَعُوا[٣] على أنفسكم إنكم لستم تدعون أصمّ ولا غائبا إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم " . الحديث .

الثانيـــة — وٱختلف العلماء فى رفع اليدين فى الدعاء؛ فكرهه طائفة منهم جُبير بن مُطْعِم وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير . ورأى شُريح رجلا رافعا يديه فقال : من تتناول بهما، لا أمّ لك ! وقال مسروق لقوم رفعوا أيديهم : قطعها الله . وٱختاروا إذا دعا الله فى حاجة أن يشير بأصبعه السبابة . و يقولون : ذلك الإخلاص . وكان قتادة يشـير بأصبعه ولا يرفع يديه . وكره رفع الأيدى عطاء وطاوس ومجاهد وغيرهم . وروى جواز الرفع عن جماعة من الصحابة والتابعين ، وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم؛ ذكره البخاريّ . قال أبو موسى الأشعريّ : دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم رفع يديه ورأيت بياض إبطيه . ومثله عن أنس . وقال ابن عمر: رفع النبيّ صلى الله عليه وسلم يديه وقال : " اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد[٤] " . وفى صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بَدْر نظر رسول الله صلى الله

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٣٢ (٢) راجع جـ ١ ص ١٢٧ (٣) أى ٱرفقوا بها ولا تبالغوا فى الجهد . (٤) هو خالد بن الوليد ، بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى بنى جذيمة داعيا إلى الإسـلام ؛ فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا بجعل خالد يقتل منهم و يأسر . فنقم النبي صلى الله عليـه وسلم على خالد استعجاله فى شأنهم وترك التثبت فى أمرهم . راجع كتاب المغازى فى صحيح البخارى .

Marfat.com

عليه وسلم إلى المشركين ، وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وسبعة عشر[1] رجلا ، فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة مادًا يديه ، فجعل يهتف بربه ؛ وذكر الحديث . وروى الترمذي عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع يديه لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه . قال : هذا حديث صحيح غريب . وروى ابن ماجه عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن ربكم حيّ كريم يستحيي من عبده أن يرفع يديه إليه فيردّهما صَفْرًا [أو قال][2] خائبتين". احتج الأولون بما رواه مسلم عن عمارة بن رُوَيبة ورأى بِشْر بن مَرْوان على المنبر رافعا يديه فقال : قبّح الله هاتين اليدين ، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يزيد على أن يقول بيده هكذا ؛ وأشار بأصبعه المسبِّحة . وبما روى سعيد بن أبي عَروبة عن قتادة أن أنس ابن مالك حدّثه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا عند الاستسقاء فإنه كان يرفعهما حتى يُرَى بياضُ إبطيْه . والأول أصح طُرُقا وأثبت من حديث سعيد بن أبي عَروبة ؛ فإن سعيدا كان قد تغير عقله في آخر عمره . وقد خالفه شعبة في روايته عن قتادة عن أنس [بن مالك][3] فقال فيه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع يديه حتى يُرى بياض إبطيْه . وقد قيل : إنه إذا نزلت بالمسلمين نازلة أن الرفع عند ذلك جميل حسن ؛ كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في الاستسقاء ويوم بَدْر .

قلت : والدعاء حَسَن كيفما تيسر، وهو المطلوب من الإنسان لإظهار موضع الفقر والحاجة إلى الله عز وجل ، والتذلل له والخضوع . فإن شاء آستقبل القبلة ورفع يديه فحسن ، وإن شاء فلا ؛ فقد فعل ذلك النبي صلى الله عليه وسلم حسبما ورد في الأحاديث . وقد قال تعالى : « ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً »[4] . ولم يرد صفة من رفع يدين وغيرها . وقال : « ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا »[5] فمدحهم ولم يشترط حالة غير ما ذكر . وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته يوم الجمعة وهو غير مستقبل القبلة .

(١) تقدم في جـ ٣ ص ٢٥٥ أن أهل بدر كأصحاب طالوت وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر . وهذا هو المشهور . فليراجع . (٢) الزيادة عن سنن ابن ماجة . (٣) من جـ . (٤) في ع : ولم ترد صفة .
(٥) راجع جـ ٤ ص ٣٠٥ .

Marfat.com

الثالثــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ يريد فى الدعاء وإن كان اللفظ عاما [إلى هذا هى الإشارة[1]] . والمعتدى هو المجاوز للحدّ ومرتكب الحظر . وقد يتفاضل بحسب ما ٱعتدى فيه . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "سيكون قوم يعتدون فى الدعاء" . أخرجه ٱبن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة . حدّثنا عفّان حدّثنا حماد بن سلمة أخبرنا سعيد الجُرَيرِىّ عن أبى نعامة أن عبد الله بن مغفّل سمع ٱبنه يقول: اللهم إنى أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها . فقال : أى بنىّ ، سَلِ الله الجنة وعُذْ به من النار؛ فإنى سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : "سيكون قوم يعتـدون فى الدعاء" . والاعتداء فى الدعاء على وجوه : منهـا الجهر الكثير والصياح؛ كما تقدم . ومنهـا أن يدعو الإنسان فى أن تكون له منزلة نبىّ ، أو يدعو فى محال ؛ ونحو هـذا من الشطط . ومنها أن يدعو طالبا معصية وغير ذلك . ومنها أن يدعو بمـا ليس فى الكتاب والسنة ؛ فيتخير ألفاظا مفقرة[2] وكلمات مسجّعة قد وجدها فى كراريس لا أصل لها ولا معوّل عليها ، فيجعلها شعاره ويترك ما دعا به رسولُه عليه السلام . وكل هذا يمنع من استجابة الدعاء؛ كما تقدم فى « البقرة » بيانه[3] .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ فيه مسألة واحدة ـــ وهو أنه سبحانه نهى عن كل فساد قلّ أو كثر بعد صلاح قلّ أو كثر . فهو على العموم على الصحيح من الأقوال . وقال الضحاك : معنـاه لا تُعَوِّروا[4] المـاء المَعِين ، ولا تقطعوا الشجر المثمر ضِرارا . وقد ورد : قطع الدنانير من الفساد فى الأرض . وقد قيل : تجارة الحكام من الفساد فى الأرض . وقال القُشَيرىّ : المراد ولا تشركوا؛ فهو نهى عن الشرك وسفك الدماء والهرْج فى الأرض ، وأمر بلزوم الشرائع بعد إصلاحها ، بعد أن أصلحها الله ببعثه الرسل ، وتقرير[5]

(١) ما بين المربعات هكذا ورد فى نسخ الأصل ، ولعله زيادة من الناسخ . (٢) فى ع : مقفاة .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٣٠٨ . (٤) عوّرت عيون المياه : إذا دفنتها وسددتها . (٥) فى ز : تقدير .

الشرائع ووضوح مِلّة محمد صلى الله عليه وسلم . قال ٱبن عطية : وقائل هذه المقالة قصد إلى أكبر فساد بعد أعظم صلاح فخصه بالذكر .

قلت : وأما ما ذكره الضحاك فليس على عمومه ، وإنما ذلك إذا كان فيه ضرر على المؤمن ، وأما ما يعود ضرره على المشركين فذلك جائز ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد عَوّر ماء قَلِيب(١) بدر وقطع شجر الكافرين . وسيأتي الكلام في قطع الدنانير في « هود »(٢) إن شاء الله تعالى .

﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقب وتخوف وتأميل لله عز وجل ، حتى يكون الرجاء والخوف للإنسان كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامته ، وإن ٱنفرد أحدهما هلك الإنسان ، قال الله تعالى : « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ »(٣) . فرجّى وخوّف . فيدعو الإنسان خوفا من عقابه وطمعا في ثوابه ؛ قال الله تعالى : « وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا »(٤) . وسيأتي القول فيه . والخوف : الانزعاج لما لا يؤمن من المضار . والطمع : توقع المحبوب ؛ قاله القشيريّ . وقال بعض أهل العلم : ينبغي أن يغلب(٥) الخوف الرجاء طول الحياة ، فإذا جاء الموت غلب الرجاء . قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظنّ بالله " . صحيح أخرجه مسلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ولم يقل قريبة . ففيه سبعة أوجه : أولها أن الرَّحْمة والرُّحْم واحد ، وهي بمعنى العفو والغفران ؛ قاله الزجاج وٱختاره النحاس . وقال النَّضْر بن شُمَيْل : الرحمة مصدر ، وحقّ المصدر التذكير ؛ كقوله : « فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ »(٦) . وهذا قريب من قول الزجاج ؛ لأن الموعظة بمعنى الوعظ . وقيل : أراد بالرحمة الإحسان ؛

---

(١) القليب (بفتح القاف) : البئر العادية القديمة التي لا يعلم لها رب ولا حافر ، تكون في البراري .

(٢) راجع جـ ٩ ص ٨٤ .　　(٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٤ .　　(٤) راجع جـ ١١ ص ٣٣٦ .

(٥) هذا يخالف ما ورد عنه عليه الصلاة والسلام " لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه بميزان تريص ما زاد أحدهما على الآخر " ، وفي رواية " لاعتدلا " . وورد عن حذيفة رضي الله عنه حين احتضر : اللهم إنك أمرتنا أن نعدل بين الخوف والرجاء والآن الرجاء فيك أمثل .　　(٦) راجع جـ ٣ ص ٣٤٧ .

Marfat.com

ولأن ما لا يكون تأنيثه حقيقيا جاز تذكيره ؛ ذكره الجوهريّ . وقيل : أراد بالرحمـة هنا المطر ؛ قاله الأخفش . قال : ويجوز أن يذكّر كما يذكّر بعض المؤنث . وأنشد :

فلا مُزْنَةٌ وَدَقَت وَدْقَها * ولا أرضَ أبْقَلَ إبقالَها[1]

وقال أبو عبيدة : ذُكّر « قَرِيبٌ » على تذكير المكان، أى مكانا قريبا . قال علىّ بن سليمان : وهذا خطأ، ولو كان كما قال لكان « قَرِيبٌ » منصوبا فى القرآن؛ كما تقول : إن زيدا قريبا منك . وقيل : ذكّر على النسب ؛ كأنه قال : إن رحمة الله ذات قُرْب ؛ كما تقول : آمرأة طالق وحائض . وقال الفَرّاء : إذا كان القريب فى معنى المسافة يذكّر و يؤنّث، وإن كان فى معنى النَّسب يؤنث بلا آختلاف بينهم . تقول : هـذه المرأة قريبتى، أى ذات قرابتى ؛ ذكره الجوهرىّ . وذكر غيره عن الفرّاء : يقال فى النسب قريبة فلان، وفى غير النسب يجوز التذكير والتأنيث؛ يقال : دارك منّا قريبٌ، وفلانة منا قريب؛ قال الله تعالى : « وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا »[2] . وقال من آحتج له : كذا كلام العرب؛ كما قال آمرؤ القيس :

له الوَيْلُ إن أمْسَى ولا أمُّ هاشم * قريبٌ ولا البَسْبَاسَةُ آبنـةُ يَشْكُرا

قال الزجاج : وهذا خطأ ؛ لأن سبيل المذكر والمؤنث أن يجريا على أفعالها .

قوله تعـالى : وَهُـوَ ٱلَّذِى يُرْسِـلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ﴾ عطف على قوله : « يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ » . ذكر شيئا آخر من نعمه، ودل على وحدانيته وثبوت إلهيّته . وقد مضى الكلام

(١) البيت لعامر بن جوين الطائى . وصف أرضا مخصبة لكثرة ما نزل بهـا من الغيث . والودق : المطـر . والمزنة : السحابة . (عن شرح الشواهد) . (٢) راجع جـ ١٤ ص ٢٤٨ .

Marfat.com

فى الريح فى « البقرة »[١] . ورياح جمع كثرة، وأرواح جمع قلة . وأصل ريح روح . وقد خطئ من قال فى جمع القلة أرياح . ﴿ بُشْرًا ﴾ فيه سبع قراءات : قرأ أهل الحرمين وأبو عمرو « نُشُرًا » بضم النون والشين جمع ناشر على معنى النسب، أى ذات نشر؛ فهو مثلُ شاهد وشُهُد . ويجوز أن يكون جمع نَشُور كَرَسُول ورُسُل . يقال : ريح النشور إذا أتت من هاهنا وهاهنا . والنَّشُور بمعنى المنشـور؛ كالركوب بمعنى المركوب . أى وهو الذى يرسل الرياح منشرة . وقرأ الحسن وقتادة « نُشْرًا » بضم النون وإسكان الشين مخفَّفا من نُشُر ؛ كما يقال : كُتْب ورُسْل . وقرأ الأعمش وحمزة « نَشْرًا » بفتح النون وإسكان الشين على المصدر ، أعمل فيه معنى ما قبـله ؛ كأنه قال : وهو الذى ينشر الرياح نشْرا . نشرت الشىء فانتشر ، فكأنها كانت مطوية فنُشرت عند الهُبُوب . ويجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال من الرياح؛ كأنه قال يرسل الرياح مُنْشِرة، أى مُحيِية؛ من أنْشَر الله الميتَ فنَشَر، كما تقول أتانا ركضا، أى راكضا . وقد قيل : إن نَشْرا (بالفتح) من النَّشْر الذى هو خلاف الطى على ما ذكرنا . كأن الريح فى سكونها كالمطوية ثم ترسل من طَيِّها ذلك فتصير كالمنفتحة . وقد فسره أبو عبيد بمعنى متفرِّقة فى وجوهها، على معنى ينشرها هاهنا وهاهنا . وقرأ عاصم : « بُشْرًا » بالباء وإسكان الشين والتنوين جمع بشير، أى الرياح تبشر بالمطر . وشاهده قوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ »[٢] . وأصل الشين الضم، لكن سكِّنت تخفيفا كرُسُل ورُسْل . وروى عنه « بَشْرًا » بفتح الباء . قال النحاس : ويقرأ « بُشُرًا » و « بَشْر مصدر بَشَرَه يبشره بمعنى بشَّره » فهذه خمس قراءات . وقرأ محمد اليمـانى « بُشْرَى » على وزن حُبْلَى . وقراءة سـابعة « بُشُرَى » بضم البـاء والشين .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ السحاب يذكَّر ويؤنَّث . وكذا كل جمع بينه وبين واحدته هاء . ويجوز نعته بواحد فتقول : سحاب ثقيل وثقيلة . والمعنى : حملت الريح سَحابا ثِقَالا بالمـاء، أى أثقلت بحمله . يقال : أقلّ فلان الشىء أى حمله . ﴿ سُقْنَاهُ ﴾

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٧ .	(٢) راجع جـ ١٤ ص ٤٣ .

Marfat.com

أى السحاب . ﴿ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ أى ليس فيه نبات . يقال : سقته لبلد كذا وإلى بلد كذا . وقيـل : لأجل بلد ميت ؛ فاللام لام أجل . والبلد كل موضع من الأرض عامر أو غير عامر خالٍ أو مسكون . والبلدة والبلد واحد البلاد والبُلدان . والبَـلَد الأثر وجمعه أبلاد . قال الشاعر :

* مِن بعـد ما شمل البِلَى أبلادَها [(١)] *

والبـلد : أُدْحِيّ [(٢)] النَّعام . يقال : هو أذلّ من بَيْضَة البلد ، أى من بيضة النعام التى يتركها . والبلدة الأرض ؛ يقال : هذه بلدتنا كما يقال بَحْرَتُنَا . والبَلْدَة من منازل القمر ، وهى ستّة أنجم من القوس تنزلها الشمس فى أقصر يوم فى السنة . والبلدة الصّدر ؛ يقال : فلان واسع البلدة أى واسع الصدر . قال الشاعر :

أُنِيخَتْ فألقتْ بَلْدَةً فـوقَ بلدة [(٣)] * قليـلٌ بها الأصواتُ إلّا بُغَامُها

يقول : بركت الناقة فألقت صدرها على الأرض . والبُلدة (بفتح الباء وضمها) : نقاوة ما بين الحاجبين ؛ فهما من الألفاظ المشتركة . ﴿ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ ﴾ أى بالبـلد . وقيل : أنزلنا بالسحاب المـاء ؛ لأن السحاب آلة لإنزال المـاء . ويحتمل أن يكون المعنى فأنزلنا منه المـاء ؛ كقوله : « يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ [(٤)] » أى منها . ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ الكاف فى موضع نصب . أى مثل ذلك الإخراج نحيي الموتى . وخرج البيهقى وغيره عن أبى رَزِين العقيلى قال : قلت يا رسول الله ، كيف يعيد الله الخلق ، وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : " أمَا مَرِرت بوادى قومك جَدْبًا ثم مَررت به يهتز خَضِرا " قال : نعم ، قال : " فتلك آية الله فى خلقه " . وقيل : وجه التشبيه أن إحياءهم من قبورهم يكون بمطر يبعثه الله على قبورهم ، فتنشق عنهم القبور ، ثم تعود إليهم الأرواح . وفى صحيح

---

(١) هذا عجز بيت لابن الرقاع . وصدره : * عرف الديار توهما فاعتادها * (٢) الأدحى (بضم الهمزة وكسرها) : مبيض النعام فى الرمل ؛ لأن النعام تبيض فيه وليس للنعام عش . (٣) فى الأصول : «بدء» . والتصويب عن اللسان وديوان ذى الرمة . أراد بالبلدة الأولى ما يقع على الأرض من صدرها . وبالثانية الفلاة التى أناخ ناقته فيها . والبغام : صوت الناقة ، وأصله للظبى فاستعاره للناقة . (٤) راجع جـ ١٩ ص ١٢٢ .

Marfat.com

مسلم من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم " ثم يرسل الله — أو قال ينزل الله — مطرا كأنه الطَّلُّ فتنبت منه أجساد الناس ثم يقال يأيها الناس هلموا إلى ربكم وقفوهم إنهم مسئولون " . وذكر الحديث . وقد ذكرناه بكماله فى كتاب (التذكرة) والحمد لله . فدل على البعث والنشور، وإلى الله ترجع الأمور .

قوله تعالى : وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدا ﴾ أى التُّربة الطيبة . والخَبِيثُ الذى فى تربته حجارة أو شوك ؛ عن الحسن . وقيل : معناه التشبيه ، شبهٌ تعالى السريعَ الفهم بالبلد الطيب ، والبَلِيدَ بالذى خَبُثَ ؛ عن النحاس . وقيل : هذا مثل للقلوب ؛ فقلب يقبل الوعظ والذِّكرى ، وقلب فاسق يَنْبُو عن ذلك ؛ قاله الحسن أيضا . وقال قتادة : مَثَلُ للؤمن يعمل محتسبا متطوعا، والمنافق غير محتسب ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسى بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عظما سمينا أو مِرْماتَيْن(١) حسَنَتَين لشهد العِشاء " . ﴿ نَكِدًا ﴾ نصب على الحال ، وهو العَسِر الممتنع من إعطاء الخير . وهذا تمثيل . قال مجاهد : يعنى أن فى بنى آدم الطيب والخبيث . وقرأ طلحة « إلّا نَكْدًا » حذف الكسرة لثقلها . وقرأ ابن القَعْقاع « نَكَدًا » بفتح الكاف ، فهو مصدر بمعنى ذا نكد . كما قال :

* فإنّما هِىَ إِقْبالٌ وإِدْبار(٢) *

وقيل : « نَكِدًا » بنصب الكاف وخفضها بمعنًى ؛ كالدَّنَف والدَّنِف، لغتان . ﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ أى كما صرفنا من الآيات ، وهى الحُجج والدّلالات ، فى إبطال الشرك ؛ كذلك نصرف الايات فى كل ما يحتاج إليه الناس . ﴿ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ وخصّ الشاكرين لأنهم المنتفعون بذلك .

(١) المرماة (بكسر الميم وفتحها) : ظلف الشاة . وقيل : ما بين ظلفيها .
(٢) البيت للخنساء . وصدره : ترتع ما رتعت حتى إذا أدّكرت . الخزانة ج ١ ص ٢٠٧ .

Marfat.com

قوله تعـالى : لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾

قوله تعـالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ لمـا بيّن أنه الخالق القادر على الكمال ذكر أقاصيص الأمم وما فيها من تحذير الكفار . واللام فى « لقد » للتأكيد المنبّه على القسم . والفاء دالة على أن الثانى بعـد الأول . ﴿يَا قَوْمِ﴾ نداء مضاف . ويجوز «يا قومى» على الأصل . ونوح أوّل الرسل إلى الأرض بعد آدم عليهما السلام بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات . قال النحاس : وانصرف لأنه على ثلاثة أحرف . وقد يجوز أن يشتق من ناح ينوح ؛ وقد تقدّم فى « آل عمران[1] » هذا المعنى وغيره فأغنى عن إعادته . قال ابن العربى : ومن قال إن إدْرِيسَ كان قبله من المؤرّخين فقد وَهِم . والدليل على صحة وهمه الحديث الصحيح فى الإسراء حين لقى النبىّ صلى الله عليه وسلم آدم و إدريس فقال له آدم : " مرحبا بالنبىّ الصالح والابن الصالح " . وقال له إدْرِيسُ : " مَرْحَبًا بالنبى الصالح والأخ الصالح ". فلو كان إدريس أبا لنوح لقال مرحبا بالنبىّ الصالح والابن الصالح . فلما قال له والأخ الصالح دَلّ ذلك على أنه يجتمع معه فى نوح ، صلوات الله عليهم أجمعين . ولا كلام لمنصف بعد هذا . قال القاضى عِياض : وجاء جواب الآباء هاهنا كنوح و إبراهيم وآدم " مرحبا بالابن الصالح " . وقال عن إدريس " بالأخ الصالح " كما ذكر عن موسى وعيسى و يوسف وهارون ويحيى ممن ليس بأب بٱتفاق للنبىّ صلى الله عليه وسلم . وقال المـازرىّ : قد ذكر المؤرّخون أن إدريس جدّ نوح عليهما السلام . فإن قام الدليل على أنّ إدريس بُعِثَ أيضا لم يصح قول النسابين أنه قبل نوح ؛ لمـا أخبر عليه السلام من قول آدم أن نوحا أوّل رسول بعث ، و إن لم يقم دليل جاز ما قالوا : وصح أن يحمل أن إدريس كان نبيا غير مرسل . قال القاضى عِياض : قد يجمع بين هذا بأن يقال : اختص بعث نوح لأهل الأرض — كما قال فى الحديث — كافّة كنبينا عليه السلام . و يكون إدريس لقومه كموسى وهود وصالح ولوط وغيرهم . وقد استدل

(١) راجع جـ ٤ ص ٦٢ .

Marfat.com

بعضهم على هذا بقوله تعالى : « وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ »[(١)] . وقد قيل : إن إلياس هو إدريس . وقد قرئ « سلام على إِدْرَاسِين » . قال القاضي عياض : وقد رأيت أبا الحسن بن بَطّال ذهب إلى أن آدم ليس برسول ؛ ليسلم من هذا الاعتراض . وحديث أبي ذَرّ الطويل يدل على أن آدم وإدريس رسولان . قال ابن عطية : ويجمع ذلك بأن تكون بعثة نوح مشهورة لإصلاح الناس وحملهم بالعذاب والإهلاك على الإيمان؛ فالمراد أنه أول نبي بُعث على هذه الصفة . والله أعلم . وروى عن ابن عباس أن نوحا عليه السلام بعث وهو ابن أربعين سنة . قال الكلبي : بعد آدم بثمانمائة سنة . وقال ابن عباس : وبقي في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاما ؛ كما أخبر التنزيل . ثم عاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثُر الناس وفَشَوْا . وقال وهب : بعث نوح وهو ابن خمسين سنة . وقال عَوْن ابن شدّاد : بعث نوح وهو ابن ثلثمائة وخمسين سنة . وفي كثير من كتب الحديث : الترمذي وغيره أن جميع الخلق الآن من ذرية نوح عليه السلام . وذكر النقّاش عن سليمان بن أَرْقَم عن الزهري : أن العرب وفارس والروم وأهل الشام وأهل اليمن من ولد سَامِ بن نوح . والسند والهند والزّنج والحبشة والزُّطّ والنُّوبة، وكُلُّ جلد أسود من ولد حَامِ بن نوح . والترك وبَرْبَرْ ووراء الصين ويأجوج ومأجوج والصقالبة كلهم من ولد يَافِثَ بن نوح . والخلق كلهم ذرية نوح .

قوله تعالى : ﴿ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ برفع « غَيْرُهُ » قراءة نافع وأبي عمرو وعاصم وحمزة . أي مالكم إله غيره . نعت على الموضع . وقيل : « غير » بمعنى إلا ؛ أي مالكم من إله إلا الله . قال أبو عمرو : ما أعرف الجر ولا النصب . وقرأ الكسائي بالخفض على الموضع . ويجوز النصب على الاستثناء ، وليس بكثير ؛ غير أن الكسائي والفراء أجازا نصب « غير » في كل موضع يحسن فيه « إلا » تمّ الكلام أو لم يتم . فأجازا : ما جاءني غيرك . قال الفراء : هي لغة بعض بني أَسَد وقُضَاعَة . وأنشد :

(١) راجع جـ ١٥ ص ١١٥ .

Marfat.com

لم يَمْنَعِ الشُّرْبَ منها غيرَ أن هتفَتْ حمامةٌ فى سَحُوق ذاتِ أوْقالِ (١)

قال الكسائىّ : ولا يجوز جاءنى غيرك ، فى الإيجاب ؛ لأن إلا لا تقع ها هنا . قال النحاس : لايجوز عند البصريين نصب «غير» إذا لم يتم الكلام . وذلك عندهم من أقبح اللحن.

قوله تعالى : قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

« المَـلَأُ » أشراف القوم ورؤساؤهم . وقد تقدّم بيانه فى «البقرة» (٢) . والضَّلَالُ والضَّلَالَةُ : العدول عن طريق الحق، والذهاب عنه . أى إنا لنراك فى دعائنا إلى إله واحد فى ضلال عن الحق . ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ بالتشديد من التبليغ، وبالتخفيف من الإبلاغ . وقيل: هما بمعنًى واحد لغتان ؛ مثل كَرَّمه وأكرمه . ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ النُّصح : إخلاص النيـة من شوائب الفساد فى المعـاملة ، بخلاف الغشّ . يقال : نصحته ونصحت له نَصيحةً ونَصاحة ونُصْحا . وهو باللام أفصح . قال الله تعـالى : « وَأَنْصَحُ لَـكُمْ » والاسم النصيحة . والنَّصِيح الناصحُ ، وقوم نُصحاء . ورجل ناصح الجَيْب أى نقىّ القلب . قال الأصمعىّ : الناصح الخالص من العسل وغيره . مثـلُ الناصع . وكل شىء خَلَص فقد نَصَح . وانْتَصَح فلان أقبـل على النصيحة . يقال : انْتَصِحْنى إننى لك ناصح . والناصح الخياط . والنِّصاح السلك يُخاط به . والنِّصاحات أيضا الجلود . قال الأعشى :

فترى الشُّرْبَ تَشَـاوَى كلُّهم مثـل ما مُدَّتْ نِصاحاتُ الرُّبَحْ

الرُّبَحُ لغة فى الرُّبَع ، وهو الفَصِيل . والرُّبَح أيضا طائر . وسيأتى لهذا زيادة معنًى فى « براءة » (٣) إن شاء الله تعالى .

---

(١) البيت لأبى قيس بن الأسلت . السحوق : ماطال من الدوم . وفى الخزانة : فى غصون . وأوقاله ثماره . خ ج ٢ ص ٤٥ . (٢) راجع ج ٣ ص ٢٤٣ . (٣) راجع ج ٨ ص ٢٢٦ .

Marfat.com

قوله تعالى : أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ فتحت الواو لأنها واو عطف، دخلت عليها ألف الاستفهام للتقرير. وسبيل الواو أن تدخل على حروف الاستفهام إلا الألف لقوتها. ﴿أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ أى وعظ من ربكم . ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ أى على لسان رجل . وقيل : «على» بمعنى «مع» ، أى مع رجل . وقيل : المعنى أن جاءكم ذكر من ربكم مُنَزَّل على رجل منكم ، أى تعرفون نسبه . أى على رجل من جنسكم . ولو كان مَلَكا فربما كان فى اختلاف الجنس تنافر الطبع . و «الْفُلْك» يكون واحدا ويكون جمعا . وقد تقدّم فى «البقرة»(1) . و ﴿عَمِينَ﴾ أى عن الحق؛ قاله قتادة . وقيل : عن معرفة الله تعالى وقدرته ، يقال : رجلٌ عَمٍ بكذا ، أى جاهل .

قوله تعالى : وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أى وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودا . قال ابن عباس : أى ابن أبيهم . وقيل : أخاهم فى القبيلة . وقيل : أى بشرا من بنى أبيهم آدم .

---

(1) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ .

Marfat.com

وفى مصنف أبى داود أن أخاهم هودا أى صاحبهم . وعاد من ولد سام بن نوح . قال ابن إسحاق : وعاد هو ابن عوص بن إرم بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام . وهود هو هود بن عبد الله بن رباح بن الجلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح . بعثه الله إلى عاد نبيا . وكان من أوسطهم نسبا وأفضلهم حسبا . و « عاد » من لم يصرفه جعله اسما للقبيلة ، ومن صرفه جعله اسما للحى . قال أبو حاتم : وفى حرف أبى وابن مسعود « عاد الأولى »[1] بغير ألف . و « هود » أعجمى ، وانصرف لخفته ؛ لأنه على ثلاثة أحرف . وقد يجوز أن يكون عربيا مشتقا من هاد يهود . والنصب على البدل . وكان بين هود ونوح فيما ذكر المفسرون سبعة آباء . وكانت عاد فيما رُوى ثلاث عشرة قبيلة ، ينزلون الرمال ، رمل عالج . وكانوا أهل بساتين وزروع وعمارة ، وكانت بلادهم أخصب البلاد ، فسخط الله عليهم بجعلها مفاوز ، وكانت فيما روى بنواحى حضرموت إلى اليمن ، وكانوا يعبدون الأصنام . ولحق هود حين أهلك قومه بمن آمن معه بمكة ، فلم يزالوا بها حتى ماتوا . ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى سَفَاهَةٍ ﴾ أى فى حمق وخفة عقل . قال[2] :

مَشَيْنَ كما اهتزّتْ رِماحٌ تسفّهتْ * أعاليَها مَرُّ الرياح النَّواسِمِ

وقد تقدم هذا المعنى فى « البقرة »[3] . والرؤية هنا وفى قصة نوح قيل : هى من رؤية البصر . وقيل : يجوز أن يراد بها الرأى الذى هو أغلب الظن .

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ « خلفاء » جمع خليفة على التذكير والمعنى ، وخلائف على اللفظ . منّ عليهم بأن جعلهم سُكّان الأرض بعد قوم نوح . ﴿ وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾ ويجوز « بصطة » بالصاد لأن بعدها طاء ؛ أى طولا فى الخلق وعظم الجسم . قال ابن عباس : كان أطولهم مائة ذراع ، وأقصرهم ستين ذراعا . وهذه الزيادة كانت على خلق آبائهم . وقيل : على خلق قوم نوح . قال وهب : كان رأس أحدهم

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ١١٨ .

(٢) هو ذو الرمة . يصف نسوة .

مثل قبة عظيمة ، وكان عين الرجل يفرخ فيها السباع ، وكذلك مناخرهم . وروى شهر ابن حوشب عن أبي هريرة قال : أن كان الرجل من قوم عاد تخذ المصراعين من حجارة لو اجتمع عليها خمسمائة رجل من هذه الأمة لم يطيقوه ، وأن كان أحدهم ليغمز برجله الأرض فتدخل فيها . ﴿ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ ﴾ أي نعم الله ، واحدها إِلًى وإِلْيٌ وأَلْوٌ وأَلًى . كالآناء واحدها إِنًى وإِنْيٌ وإِنْوٌ وأَنًى . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ تقدم[1] .

قوله تعالى : قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

طلبوا العذاب الذي خوفهم به وحذرهم منه فقال لهم : ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ ﴾ . ومعنى وقع أي وجب . يقال : وقع القول والحكم أي وجب ، ومثله : « وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ[2] » . أي نزل بهم . « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ[3] » . والرِّجْسُ العذابُ وقيل : عُنِي بالرجس الرَّين على القلب بزيادة الكفر . ﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ ﴾ يعني الأصنام التي عبدوها ، وكان لها أسماء مختلفة . ﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي من حجة لكم في عبادتها . فالاسم هنا بمعنى المسمّى . نظيره « مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا[4] » . وهذه الأسماء مثل العُزَّى من العِزّ والأعز واللّات ، وليس لها من العز والإلهية شيء . ﴿ دَابِرَ ﴾ آخر . وقد تقدّم[5] . أي لم يبق لهم بقية .

(١) راجع جـ ١ ص ١٨١ . (٢) راجع ص ٢٧١ من هذا الجزء .
(٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٣ . (٤) راجع جـ ٩ ص ١٩٢ . (٥) راجع جـ ٦ ص ٤٢٥ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

وهو ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح . وهو أخو جديس ، وكانوا فى سعة من معايشهم؛ فخالفوا أمر الله وعبدوا غيره ، وأفسدوا فى الأرض . فبعث الله إليهم صالحا نبيًّا ، وهو صالح بن عبيد بن آسف بن كاشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود . وكانوا قوما عُرْبًا . وكان صالح من أوسطهم نَسَبًا وأفضلهم حَسَبًا فدعاهم إلى الله تعالى حتى شَمِط (١) ولا يتبعه منهم إلا قليل مستضعَفون . ولم ينصرف « ثمود » لأنه جُعل آسما للقبيلة . وقال أبو حاتم : لم ينصرف لأنه آسم أعجمىّ . قال النحاس : وهذا غلط ؛ لأنه مشتق من الثَّمْد وهو الماء القليل . وقد قرأ القراء « أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ » (٢) على أنه آسم للحىّ . وكانت مساكن ثمود الحِجر بين الحجاز والشام إلى وادى القرى . وهم من ولد سام بن نوح . وسميت ثمود لقلة مائها . وسيأتى بيانه فى « الحِجْر » (٣) إن شاء الله تعالى .

﴿ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ أخرج لهم الناقة حين سألوه من حجر صَلْد ؛ فكان لها يوم تشرب فيه ماء الوادى كله ، وتسقيهم مثله لبنا لم يشرب قط ألذ وأحلى منه . وكان بقدر حاجتهم على كثرتهم؛ قال الله تعالى : « لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ » (٤) . وأضيفت الناقة إلى الله عز وجل على جهة إضافة الخلق إلى الخالق . وفيه معنى التشريف والتخصيص.

﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ﴾ أى ليس عليكم رزقها ومؤونتها .

---

(١) الشمط ، (بفتح الميم) : شيب اللحية . وقيل : بياض شعر الرأس يخالط سواده .

(٢) راجع جـ ٩ ص ٥٩ . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٤٥ فما بعد .

(٤) راجع جـ ١٣ ص ١٢٧ .

Marfat.com

قوله تعالى : وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ فيه محذوف، أى وبوأكم فى الأرض منازل. ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أى تبنون القصور بكل موضع . ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ اتخذوا البيوت فى الجبال لطول أعمارهم؛ فإن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم . وقرأ الحسن بفتح الحاء، وهى لغة . وفيه حرف من حروف الحلق ؛ فلذلك جاء على فعل يفعل .

الثانيــة — استدل بهــذه الآية من أجاز[1] البناء الرفيع كالقصـور ونحوها ، وبقوله : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ »[2] . ذُكر أن ابنا لمحمد بن سيرين بنى دارا وأنفق فيها مالا كثيرا؛ فذُكر ذلك لمحمد بن سيرين فقال : ما أرى بأسا أن يبنى الرجل بناء ينفعه . وروى أنه عليه السلام قال : " إذا أنعم الله على عبد أحبّ أن يُرى أثر النعمة عليه " . ومن آثار النعمة البناء الحسن ، والثياب الحسنة . ألا ترى أنه و اشترى جارية جميلة بمال عظيم فإنه يجوز وقد يكفيه دون ذلك ؛ فكذلك البناء . وكره ذلك آخرون، منهم الحسن البصرى وغيره . واحتجوا بقوله عليه السلام : " إذا أراد الله بعبد شرا أهلك ماله فى الطين واللّبِن " . وفى خبر آخر عنه أنه عليه السلام قال : " من بَنَى فوق ما يكفيه جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه " .

قلت : بهــذا أقول ؛ لقوله عليه السلام : " وما أنفق المؤمن من نفقة فإن خلفها على الله عز وجل إلا ما كان فى بنيان أو معصية " . رواه جابر بن عبد الله وخرجه الدَّارَقُطْنِيّ .

---

(١) كذا فى ك وفى جـ : اختار جواز البناء . وفى ب و ى : أجاز جواز .

(٢) راجع ص ١٩٥ من هذا الجزء .

Marfat.com

وقوله عليه السلام : " ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال بيت يسكنه وثوب يواري عورته وجِلْف الخبز والماء " أخرجه الترمذي(١) .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ ﴾ أي نعمه . وهذا يدل على ان الكفار منعم عليهم . وقد مضى في « آل عمران »(٢) القول فيه . ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ تقدّم في « البقرة »(٣) . والعِثِيّ والعُتُوّ لغتان . وقرأ الأعمش « تعثوا » بكسر التاء أخذه من عَثِي يَعْثَى لا من عثا يعثو .

قوله تعالى : قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ الثاني بدل من الأول ، لأن المستضعفين هم المؤمنون . وهو بدل البعض من الكل .

قوله تعالى : فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴾ العَقْر الجرح . وقيل : قطع عضو يؤثر في النفس . وعقرت الفرس : إذا ضربت قوائمه بالسيف . وخيل عَقْرى . وعقرت ظهر الدابة : إذا أدبرته .

(١) الجلف (بالكسر) : الخبز وحده لا أدم معه . وقيل : الخبز الغليظ اليابس .
(٢) راجع جـ ٤ ص ٣٣٠ . (٣) راجع جـ ١ ص ٤٢١ .

Marfat.com

قال آمرؤ القيس :

تقولُ وقد مالَ الغَبِيطُ بنا معًا * عَقَرْتَ بعيرى يا آمرأ القيس فآنْزِلِ

أى جَرَحتَه وأدْبَرتَه . قال القشيرى : العقر كشف عُرقوب البعير[1] ؛ ثم قيل للنحر عقر ؛ لأن العقر سبب النحر فى الغالب . وقد آختلف فى عاقر الناقة على أقوال . أصحها ما فى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن زَمْعَة قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الناقة وذكر الذى عقرها فقال : " إذ آنبعث أشقاها آنبعث لها رجل عزيز عارِم[2] منيع فى رَهْطِه[3] مثل أبى زَمْعة " وذكر الحديث . وقيل فى آسمه : قُدار بن سالف . وقيل : إن ملكهم كان إلى آمرأة يقال لها ملكى ، فحسدت صالحا لمّا مال إليه الناس ، وقالت لآمرأتين كان لهما خليلان يعشقانهما : لا تطيعاهما وآسألاهما عقر الناقة ؛ ففعلتا . وخرج الرجلان وألجآ الناقة إلى مَضيق ورماها أحدهما بسهم وقتلاها . وجاء السَّقْبُ وهو ولدها إلى الصخرة التى خرجت الناقة منها فَرَغَا ثلاثا وآنفجرت الصخرة فدخل فيها . ويقال : إنه الدّابة التى تخرج فى آخر الزمان على الناس ؛ على ما يأتى بيانه فى « النمل »[4] . وقال آبن إسحاق : أتْبع السَّقْبَ اربعةُ نفر ممن كان عقر الناقة ، مِصْدَع وأخوه ذُؤَاب[5] . فرماه مصدع بسهم فآنتظم[6] قلبه ، ثم جرّه برجله فألحقه بأمّه ، وأكلوه معها . والأول أصح ؛ فإن صالحا قال لهم : إنه بَقِىَ من عمركم ثلاثة أيام ، ولهذا رَغَا ثلاثا . وقيل : عقرها عاقرها ومعه ثمانية رجال ، وهم الذين قال الله فيهم : « وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ »[4] على ما يأتى بيانه فى « النمل » . وهو معنى قوله « فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ »[7] . وكانوا يشربون فأعوزهم الماء ليمزجوا شرابهم ، وكان يوم لبن الناقة ، فقام أحدهم وترصد الناس وقال : لأريحنّ الناس منها ؛ فعقرها .

قوله تعالى : ﴿ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أى آستكبروا . عَتَا يَعْتُو عُتُوًّا أى آستكبر . وتَعَتَّى فلان إذا لم يُطِع . والليل العاتى : الشديد الظلمة ؛ عن الخليل .

---

(١) فى جـ وك : كسر . (٢) عارم : أى خبيث شرير . (٣) فى جـ : أهله .
(٤) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٤ وص ٢١٥ . (٥) كذا فى الأصول . (٦) انتظم الصيد : إذا طعنه أو رماه حتى ينفذه . (٧) راجع جـ ١٧ ص ١٤٠ .

﴿ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ أى من العذاب . ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ أى الزلزلة الشديدة . وقيل : كانت صيحة شديدة خلعت[1] قلوبهم؛ كما [فى قصة ثمود][2] فى سورة «هود»[3] فى قصة ثمود فأخذتهم الصيحة . يقال : رَجَف الشيء يَرْجُف رَجْفًا ورَجَفَانًا . وأرجفت الريحُ الشجرَ حرّكته . وأصله حركة مع صوت؛ ومنه قوله تعالى « يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ »[4] قال الشاعر :

ولما رأيت الحج قـد آنَ وَقتُـه ✽ وظلت مطايا القوم بالقوم تَرْجُفُ

﴿ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ ﴾ أى بلدهم . وقيل : وُحِّد على طريق الجنس، والمعنى : فى دورهم . وقال فى موضع آخر : « فِى دِيَارِهِمْ »[5] أى فى منازلهم . ﴿ جَاثِمِينَ ﴾ أى لاصقين بالأرض على رُكَبهم ووجوههم؛ كما يجثم الطائر . أى صاروا خامدين من شدّة العذاب . وأصل الجُثُوم للأرنب وشبهها، والموضع مَجْثِم . قال زهير :

بها العِينُ والآرَامُ يَمْشِين خِلْفَـةً ✽ وأطلاؤها يَنْهَضْن من كل مَجْثِمِ[5]

وقيل : احترقوا بالصاعقة فأصبحوا ميّتين، إلا رجلا واحدا كان فى حرم الله؛ فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه . ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ أى عند اليأس منهم . ﴿ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ يحتمل أنه قال ذلك قبل موتهم . ويحتمل أنه قاله بعد موتهم؛ كقوله عليه السلام لِقتْلَى بَدْر : "هل وجدتم ما وعد ربكم حقا" فقيل : أتكلم هؤلاء الجيَف؟ فقال : "ما أنتم بأسمعَ منهم ولكنهم لا يقـدرون على الجواب" . والأوّل أظهر . يدل عليه ﴿ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ أى لم تقبلوا نُصْحى .

قوله تعالى : وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾

فيه أربع مسائل :

---

(١) فى ب : تقطعت . (٢) من جـ وز وك وى . (٣) راجع جـ ٩ ص ٥٩ .
(٤) راجع جـ ١٩ ص ١٨٨ . (٥) العين (بكسر أوله) : البقر واحدها أعين وعيناء . والآرام : الظباء . والأطلاء : أولادها؛ الواحد طلا . وخلفة : فوج بعد فوج . وقيل : مختلفة؛ هذه مقبلة وهذه مدبرة، وهذه صاعدة وهذه نازلة . (عن شرح المعلقات) .

Marfat.com

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ قال الفرّاء : لوط مشتق من قولهم : هـذا أَلْيَطُ بقلبي ، أى ألصق . وقال النحاس : قال الزجاج زعم بعض النحويين — يعني الفرّاء — أن لوطا يجوز أن يكون مشتقا من لُطْتُ الحوض إذا ملسته بالطين . قال : وهذا غلط ؛ لأن الأسماء الأعجمية لا تشتقّ كإسحاق ، فلا يقال : إنه من السُّحق وهو البُعد . وإنما صرف لوط [لخفّته] [1] لأنه على ثلاثة أحرف وهو ساكن الوسط . قال النقاش : لوط من الأسماء الأعجمية وليس من العربية . فأما لُطْتُ الحوض ، وهذا أَلْيَطُ بقلبي من هذا ، فصحيح . ولكن الاسم أعجميّ كإبراهيم وإسحاق . قال سيبويه : نُوحٌ ولُوطٌ أسماء أعجمية ، إلا أنها خفيفة فلذلك صرفت . بعثه الله تعالى إلى أمة تسمى سدوم ، وكان ابن أخي إبراهيم . ونَصْبُه إما بـ « أَرْسَلْنَا » المتقدّمة فيكون معطوفا . ويجوز أن يكون منصوبا بمعنى واذكر .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ يعني إتيان الذكور . ذكرها الله باسم الفاحشة ليبيّن أنها زِنًى ؛ كما قال تعالى : « وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً » [2] .

واختلف العلماء فيما يجب على من فعل ذلك بعد إجماعهم على تحريمه ؛ فقال مالك : يُرْجَم ؛ أُحصِن أو لم يُحصَن . وكذلك يرجم المفعول به إن كان محتلما . وروى عنه أيضا : يرجم إن كان مُحْصَنا ، ويحبس ويؤدّب إن كان غير محصن . وهو مذهب عطاء والنخعيّ وابن المسيب وغيرهم . وقال أبو حنيفة : يُعزَّر المحصن وغيره ؛ وروى عن مالك . وقال الشافعيّ : يحدّ حدّ الزِّنَى قياسا عليه . احتج مالك بقوله تعالى : « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ » [2] . فكان ذلك عقوبة لهم وجزاء على فعلهم . فإن قيل : لا حجة فيها لوجهين ؛ أحدهما — أن قوم لوط إنما عوقبوا على الكفر والتكذيب كسائر الأمم . الثاني — أن صغيرهم وكبيرهم دخل فيها ؛ فدلّ على خروجها من باب الحدود . قيل : أمّا الأوّل فغلط ؛ فإن الله سبحانه أخبر عنهم أنهم كانوا على معاصي فأخذهم بها ؛ منها هذه . وأمّا الثاني فكان منهم فاعل وكان منهم راضٍ ، فعُوقب الجميع لسكوت الجماهير عليه . وهي حكمة الله وسنته في عباده .

---

(١) من ب و جـ و ك و ى و ز .　(٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٥٣ و ص ٤٢ و جـ ٩ ص ٨١ .

Marfat.com

ـه احكام القرآن، لابن العربي ج ٢ ص ٧٨٦ — ٧٨٨ —

وبقى أمرُ العقوبة على الفاعلين مستمرا . والله أعلم . وقد رَوَى أبو داود وابن ماجه والترمذى والنسائى والدّارَقُطْنِى أن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم قال : " من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به". لفظ أبى داود وابن ماجه . وعند الترمذى " أحصنا أو لم يحصنا " . وروى أبو داود والدارقطنى عن ابن عباس فى البِكر يوجد على اللُّوطية قال: يرجم . وقد رُوى عن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه أنه حرّق رجلا يُسمّى الفُجاءة حين عمل عمل قوم لوط بالنار . وهو رأى علىّ بن أبى طالب ؛ فإنه لما كتب خالد بن الوليد إلى أبى بكر فى ذلك جمـع أبو بكر أصحاب النبى صلى الله عليه وسـلم واستشارهم فيه ؛ فقال علىّ : إن هذا الذنب لم تَعصِ به أمّةٌ من الأمم إلا أمّة واحدة صنع الله بها ما علمتم ، أرى أن يُحرق بالنار . فاجتمع رأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحرق بالنار . فكتب أبو بكر إلى خالد ابن الوليد أن يحرقه بالنار فأحرقه . ثم أحرقهم ابن الزبير فى زمانه . ثم أحرقهم هشام بن الوليد . ثم أحرقهم خالد القَسْرى بالعراق . ورُوى أن سبعة أُخذوا فى زمن ابن الزبير فى لِوَاط ؛ فسأل عنهم فوجد أربعة قد أُحصِنوا فأمر بهم فخرجوا [بهم](١) من الحرم فرُجِموا بالحجارة حتى ماتوا ، وحدّ الثلاثة ؛ وعنده ابن عباس وابن عمر فلم ينكرا عليه . وإلى هـذا ذهب الشافعى . قال ابن العربى : والذى صار إليه مالك أحقُّ ، فهو أصحّ سندا وأقوى معتَمَدا . وتعلّق الحنفيون بأن قالوا : عقوبة الزِّنَى معلومة ؛ فلما كانت هذه المعصية غيرها وجب ألّا يشاركها فى حدّها . ويأثرون(٢) فى هذا حديثا : " مَن وضع حدّا فى غير حَدٍّ فقد تعدّى وظَلَمَ " . وأيضا فإنه وطء فى فرج لا يتعلّق به إحلالٌ ولا إحصان ، ولا وجوبُ مهر ولا ثبوتُ نسب ؛ فلم يتعلق به حدّ .

الثالثـــة — فإن أتى بهيمة فقد قيل : لا يقتل هو ولا البهيمة . وقيل : يقتلان ؛ حكاه ابن المنـذر عن أبى سـلمة بن عبد الرحمن . وفى البـاب حديث رواه أبو داود والدّارقطنى عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من وقع على بهيمة فاقتلوه واقتلوا البهيمة معه " . فقلنـا لابن عباس : ما شان البهيمة ؟ قال : ما أراه قال ذلك ، إلا أنه كره أن يؤكل لحمها وقد عمل بها ذلك العمل(٣) . قال ابن المنذر : إن يَكُ الحديث ثابتا فالقول به

(١) كذا فى ب و جـ و ك . وفى ز : فأخرجوا بهم . (٢) فى ز : يروون . (٣) فى جـ و ز : فالعمل .

Marfat.com

يجب، وإن لم يثبت فليستغفر الله من فعل ذلك كثيرا، وإن عزّره الحاكم كان حسنا . والله أعلم . وقد قيل : إن قتل البهيمة لئلا تُلْقِي خَلْقا مُشَوَّها ، فيكون قتلها مصلحة لهذا المعنى مع ما جاء من السنة . والله أعلم . وقد روى أبو داود عن ابن عباس قال : ليس على الذى زنى بالبهيمة حد . قال أبو داود : وكذا قال عطاء . وقال الحكَم : أرى أن يجلد ولا يبلغ به الحدّ . وقال الحسن : هو بمنزلة الزانى . وقال الزهرى : يجلد مائة أحصن أو لم يحصن . وقال مالك والثّورى وأحمد وأصحاب الرأى يعزّر . ورُوى عن عطاء والنّخعى والحكَم . وٱختلفت الرواية[1] عن الشافعى، وهذا أشبه على مذهبه فى هذا الباب . وقال جابر بن زيد : يقام عليه الحدّ، إلا أن تكون البهيمة له .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ « مِن » لاستغراق الجنس، أى لم يكن اللّواط فى أمة[2] قبل قوم لوط . والملحدون يزعمون أن ذلك كان قبلهم . والصدق ما ورد به القرآن . وحكى النقاش أن إبليس كان أصْلَ عملهم بأن دعاهم إلى نفسه لعنه الله ، فكان يُنكح بعضهم بعضا . قال الحسن : كانوا يفعلون ذلك بالغُرَباء ، ولم يكن يفعله بعضهم ببعض . وروى ابن ماجه عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أخوف ما أخاف على أمّتى عمل قوم لوط " . وقال محمد بن سيرين : ليس شىء من الدواب يعمل عمل قوم لوط إلا الخنزير والحمار .

قوله تعالى : إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ قرأ نافع وحفص على الخبر بهمزة واحدة مكسورة، تفسيرا للفاحشة المذكورة، فلم يحسن إدخال الاستفهام عليه لأنه يقطع ما بعده مما قبله . وقرأ الباقون بهمزتين على لفظ الاستفهام الذى معناه التوبيخ[3] ، وحسُن ذلك لأن ما قبله وبعده كلام مستقل . واختار الأول أبو عبيد والكسائى وغيرهما ؛ وٱحتجوا بقوله عز وجل : « أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ

(١) فى ب وجـ وز وك : الروايات . (٢) فى جـ : غير . (٣) كذا فى الأصول والعبارة غير واضحة .

Marfat.com

الخَالِدُونَ»[(١)] ولم يقل أفهم . وقال : «أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ»[(٢)] ولم يقل أنقلبتم. وهذا من أقبح الغلط لأنهما شبّها شيئين بما لا يشتبهان؛ لأن الشرط وجوابه بمنزلة شيء واحد كالمبتدأ والخبر؛ فلا يجوز أن يكون فيهما استفهامان . فلا يجوز : أفإن مِت أفهم ، كما لا يجوز أزيد أمنطلق . وقصة لوط عليه السلام فيها جملتان ، فلك أن تستفهم عن كل واحدة منهما . هذا قول الخليل وسيبويه ، واختاره النحاس ومكّي وغيرهما ﴿ شَهْوَةً ﴾ نصب على المصدر، أي تشتهونهم شهوة . ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال . ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ نظيره « بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ »[(٣)] في جمعكم إلى الشرك هذه الفاحشة .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ﴾ أي لوطا وأتباعه . ومعنى ﴿ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ عن الإتيان في هــذا المأتى . يقال : تطهّر الرجل أي تنزّه عن الإثم . قال قتادة : عابوهم والله بغير عَيْب . ﴿ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أي الباقين في عذاب الله؛ قاله ابن عباس وقتادة . غَبر الشيء إذا مَضَى، وغبر إذا بَقِيَ . وهو من الأضداد . وقال قوم : الماضي عابر بالعين غير معجمة . والباقي غابر بالغين معجمة . حكاه ابن فارس [في المجمل][(٤)] . وقال الزجاج : « مِنَ الْغَابِرِينَ » أي من الغائبين عن النجاة وقيل : لطول عمرها . قال النحاس : وأبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى من المعمَّرين ؛ أي أنها قد هرِمت . والأكثر في اللغة أن يكون الغابر الباقي ؛ قال الراجز :

فما وَنَى محمدٌ مذ أن غَفَرْ * له الإلهُ ما مضى وما غَبَرْ

قوله تعالى : وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

(١) راجع ج ١١ ص ٢٨٧ . (٢) راجع ج ٤ ص ٢٢٦ . (٣) راجع ج ١٣ ص ١٣٢ .
(٤) من ب وج وز وك.

Marfat.com

سَرَى لُوطٌ بأهله كما وصف الله «بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ»(١) ثم أمر جبريل عليه السلام فأدخل جناحه تحت مدائنهم فاقتلعها ورفعها حتى سمع أهل السماء صياح الدِّيَكَة ونباح الكلاب، ثم جعل عاليها سافلها، وأمطرت عليهم حجارة من سِجِّيل، قيل: على من غاب منهم. وأدرك آمرأةَ لوط، وكانت معه حجرٌ فقتلها. وكانت فيما ذُكر أربع قُرًى. وقيل: خمس فيها أربعمائة ألف. وسيأتي في سورة «هود»(١) قصة لوط بأبين من هذا، إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَٱصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ قيل في مَدْيَن: آسم بلد وقُطْر. وقيل: اسم قبيلة كما يقال: بَكْر وتَمِيم. وقيل: هم من ولد مَدْيَن بن إبراهيم الخليل عليه السلام. فمن رأى أن مدين آسم رجل لم يصرفه لأنه معرفة أعجمي. ومن رآه اسما للقبيلة أو الأرض فهو أحرى بألّا يصرفه. قال المهدوي: ويروى أنه كان ابن بنت لوط. وقال مكي: كان زوج بنت لوط. وآختلف في نسبه؛ فقال عطاء وابن إسحاق وغيرهما: وشعيب هو آبن ميكيل بن يشجر

(١) راجع جـ ٩ ص ٨٤ فما بعد.

ابن مدين بن إبراهيم عليه السلام . وكان اسمه بالسريانية بَيْرُوت . وأمه ميكائيل بنت لوط . وزعم الشرقيّ بن القُطَاميّ أن شعيبا بن عَيْفَاء بن يَوْبَبَ بن مدين بن إبراهيم . وزعم ابن سَمْعَان أن شعيبا بن جزى بن يشجر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم . وشُعَيْب تصغير شَعْب أو شِعْب [(١)] . وقال قتادة : هو شعيب بن يَوْبَبَ [(٢)] . وقيل : شعيب بن صفوان بن عيفاء بن ثابت بن مدين بن إبراهيم [(٣)] . والله أعلم . وكان أعمى [(٤)] ؛ ولذلك قال قومه : « وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا [(٥)] » . وكان يقال له : خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه . وكان قومه أهل كفر بالله وبخس للمكيال والميزان .

﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى بيان ، وهو مجيء شعيب بالرسالة . ولم يذكر له معجزة في القرآن . وقيل : معجزته فيما ذكر الكسائى في قصص الأنبياء .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ البخس النقص . وهو يكون في السِّلعة بالتعييب والتزهيد فيها ، أو المخادعة عن القيمة ، والاحتيال في التزيّد في الكيل والنقصان منه . وكل ذلك من أكل المال بالباطل ، وذلك مَنْهِىٌّ عنه في الأمم المتقدّمة والسالفة على ألسنة الرسل [صلوات الله وسلامه على جميعهم [(٦)]] وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ عطف على « وَلَا تَبْخَسُوا » . وهو لفظ يعمّ دقيق الفساد وجليله . قال ابن عباس : كانت الأرض قبل أن يبعث الله شعيبا رسولا يُعمل فيها بالمعاصى وتُسْتَحَلّ فيها المحارم وتُسفك فيها الدماء . قال : فذلك فسادها . فلما بعث الله شعيبا ودعاهم إلى الله صلحت الأرض . وكل نبىّ بعث إلى قومه فهو صلاحهم .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ ﴾ نهاهم عن القعود بالطرق والصدّ عن الطريق الذى يؤدّى إلى طاعة الله ، وكانوا يوعدون العذاب من آمن . واختلف العلماء

(١) فى شرح القاموس : « تصغير شعب أو أشعب : كما قالوا فى تصغير أسود سويد » . (٢) فى ع : نويب . (٣) وردت هذه الأسماء مضطربة فى نسخ الأصل وفى المصادر التى بين أيدينا . ولم نوفق لضبطها . (٤) ليس رسول من الله أعمى وإنما شعيب الرجل الصالح صاحب موسى هو فيما قيل أعمى وبينهما ثلاثمائة سنة إذ عصمة الأنبياء تنافى ما ينفر من الصفات . مصححه . (٥) راجع جـ ٩ ص ٨٤ . (٦) من ع .

فى معنى قعودهم على الطرق على ثلاثة معان ؛ قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدى : كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجىء إليه ويصدونه ويقولون : إنه كذاب فلا تذهب إليه ؛ كما كانت قريش تفعله مع النبي صلى الله عليه وسلم. وهذا ظاهر الآية . وقال أبو هريرة : هذا نهى عن قطع الطريق (١) ، وأخذ السَّلب ؛ وكان ذلك من فعلهم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " رأيت ليلة أسرى بى خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ولا شىء إلا خرقته فقلت ما هذا يا جبريل قال هذا مَثَلُ لقوم من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه — ثم تلا — "وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ" الآية . وقد مضى القول فى اللصوص والمحاربين (٢) ، والحمد لله . وقال السدى أيضا : كانوا عشّارين متقبلين . ومثلهم اليوم هؤلاء المكّاسون الذين يأخذون من الناس مالا يلزمهم شرعا من الوظائف المالية بالقهر والجَبْر ؛ فضمَّنوا مالا يجوز ضمان أصله من الزكاة والمواريث والملاهى . والمترتبون فى الطرق إلى غير ذلك مما قد كثر فى الوجود وعمل به فى سائر البلاد . وهو من أعظم الذنوب وأكبرها وأفحشها ؛ فإنه غَصْب وظُلْم وعَسْف على الناس وإذاعة للمنكر وعمل به ودوام عليه وإقرار له ، وأعظمه تضمين الشرع والحكم للقضاء ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ! لم يبق من الإسلام إلا رسْمه ، ولا من الدين إلا اسمه . يَعْضُد هذا التأويل ما تقدّم من النهى فى شأن المال فى الموازين والأكيال والبخس .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ آمَنَ بِهِ ﴾ الضمير فى « به » يحتمل أن يعود على اسم الله تعالى ، وأن يعود إلى شعيب فى قول من رأى القعود على الطريق للصد ، وأن يعود على السبيل .

﴿ عِوَجًا ﴾ قال أبو عبيدة والزجاج : كسر العين فى المعانى . وفتحها فى الأجرام .

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾ أى كثّر عددكم ، أو كثّركم بالغنى بعد الفقر . أى كنتم فقراء فأغناكم . « فَاصْبِرُوا » ليس هذا أمرا بالمقام على الكفر ، ولكنه وعيد وتهديد . وقال : ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ﴾ (٣) فذكّر على المعنى ، ولو راعى اللفظ قال : كانت .

(١) فى ب و ج و ك : الطرق . (٢) راجع ج ٦ ص ١٤٧ فما بعد . (٣) الأولى : روعى لقيل .

Marfat.com

قوله تعالى : قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْلَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ تقدّم معناه . ومعنى « أَوْلَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا » أي لتصيرُنّ إلى ملتنا . وقيل : كان أتباع شعيب قبل الإيمان به على الكفر ، أي لتعودُنّ إلينا كما كنتم من قبل . قال الزجاج : يجوز أن يكون العود بمعنى الابتداء ؛ يقال : عاد إليّ من فلان مكروه ، أي صار ، وإن لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك ، أي لحقني ذلك منه . فقال لهم شعيب : ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ أي ولو كنا كارهين تجبروننا عليه ، أي على الخروج من الوطن أو العود في ملتكم . أي إن فعلتم هذا أتيتم عظيما .

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ إياس من العود إلى ملتهم . ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ قال أبو إسحاق الزجاج : أي إلا بمشيئة الله عز وجل ، قال : وهذا قول أهل السنة ؛ أي وما يقع منا العود إلى الكفر إلا أن يشاء الله ذلك . فالاستثناء منقطع . وقيل : الاستثناء هنا على جهة التسليم لله عز وجل ؛ كما قال : « وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ »[1] . والدليل على هذا أن بعده « وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا » . وقيل : هو كقولك لا أكلمك حتى يبيض الغراب ، وحتى يلج الجمل في سم الخياط . والغراب لا يبيض أبدا ، والجمل لا يلج [في سم الخياط[2]] .

(١) راجع ج ٩ ص ٨٤ . (٢) من ز .

قوله تعالى : ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أى علم ما كان وما يكون . « عِلْمًا » نصب على التمييز . وقيل : المعنى « وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا » أى فى القرية بعد أن كرهتم مجاورتنا ، بل نخرج من قريتكم مهاجرين إلى غيرها . « إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » ردّنا إليها . وفيه بعد ؛ لأنه يقال : عاد للقرية ولا يقال عاد فى القرية .

قوله تعالى : ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أى آعتمدنا . وقد تقدّم فى غير موضع[1] . ﴿رَبَّنَا آفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ قال قتادة : بعثه الله إلى أمتين : أهل مدين ، وأصحاب الأيكة[2] . قال آبن عباس : وكان شعيب كثير الصلاة ، فلما [طال][3] تمادى قومه فى كفرهم وغيهم ، ويئس من صلاحهم ، دعا عليهم فقال : « رَبَّنَا آفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ[4] » . فآستجاب الله دعاءه فأهلكهم بالرجفة .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أى قالوا لمن دونهم . ﴿لَئِنِ آتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ أى هالكون . ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أى الزلزلة . وقيل : الصيحة . وأصحاب الأيكة أهلكوا بالظُّلّة[5] ، على ما يأتى .

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ قال الجرجانىّ : قيل هذا كلام مستأنف ؛ أى الذين كذبوا شعيبا صاروا كأنهم لم يزالوا موتى . و « يَغْنَوْا » يقيموا ؛ يقال :

---

(١) راجع جـ ٤ ص ١٨٩ . (٢) الأيكة : الشجر الكثير الملتف .
(٣) من ب وجـ وك . (٤) قال الفراء : فتح بمعنى حكم بلغة أهل عُمان : الطبرى .
(٥) الظلة : سحابة فيها نار أمطرتهم بها . وقيل : سموم . راجع جـ ١٣ ص ١٣٥ .

Marfat.com

غَنِيت بالمكان إذا أقمت به . وغنِي القوم فى دارهم أى طال مُقامهم فيها . والمَغْنَى: المنزل؛ والجمع المغَانِى . قال لَبِيد :

وغَنِيت سِتًّا قبلَ مَجْرَى دَاحِسٍ * لو كان للنفس اللَّجُـــوج خُلود

وقال حاتم طىّ :

غنِينا زمانا بالتَّصَعْلُك والغِـــنَى * [كما الدهرُ فى أيامه العسرُ واليسرُ] (١)

[كسبنا صُروفَ الدَّهْرِ لِينًا وغِلظة] (١) * وكلًّا ســـقاناه بكأسيهما الدهرُ

فما زادنا بَغْيًا على ذِى قـــرابة * غِنَـانَا ولا أَزْرَى بأحسابنا الفَقْرُ

﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُـعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ ابتداء خطاب ، وهـو مبالغة فى الذم والتوبيخ وإعادة لتعظيم الأمر وتفخيمه . ولما قالوا : من آتبـع شعيبا خاسر قال الله الخاسرون هم الذين قالوا هـذا القول . ﴿ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ أى أحزن . أسيت على الشىء آسَى [أسىً] (٢) ، وأنا آسٍ .

قوله تعـالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ ﴾ فيـه إضمار ، وهو فكذب أهلها إلا أخذناهم . ﴿ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُـمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ تقدّم القول فيـه (٣) . ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ ﴾ أى أبدلناهم بالجدب خِصبا . ﴿ حَتَّى عَفَوْا ﴾ أى كثروا؛ عن آبن عباس . وقال ابن زيد : كثرت أموالهم وأولادهم . وعفا : من الأضداد . عفا : كثر . وعفا: درس . أعلم الله تعالى أنه أخذهم بالشدّة والرخاء فلم يزدجروا ولم يشكروا . ﴿ وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ ﴾ فنحن مثلهم . ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ أى فجأة ليكون أكثر حسرة .

(١) التكلة عن ديوان حاتم . (٢) من ب وجـ وك . (٣) راجع جـ ٢ ص ٢٤٣

Marfat.com

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ﴾ يقال للمدينة قرية لاجتماع الناس فيها . من قريت الماء إذا جمعته . وقد مضى فى «البقرة»[(١)] مستوفى . ﴿ آمَنُوا ﴾ أى صدقوا . ﴿ وَٱتَّقَوْا ﴾ أى الشرك . ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ يعنى المطر والنبات . وهذا فى أقوام على الخصوص جرى ذكرهم . إذ قد يمتحن المؤمنون بضيق العيش و يكون تكفيرا لذنوبهم . ألا ترى أنه أخبر عن نوح إذ قال لقومه « اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا[(٢)] » . وعن هود « ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا[(٣)] » . فوعدهم المطر والخصب على التخصيص . يدل عليه ﴿ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى كذبوا الرسل . والمؤمنون صدّقوا ولم يكذبوا .

قوله تعالى : أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى ﴾ الاستفهام للإنكار، والفاء للعطف . نظيره : « أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ[(٤)] » . والمراد بالقرى مكة وما حولها؛ لأنهم كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم . وقيل : هو عام فى جميع القرى . ﴿ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ﴾ أى عذابنا . ﴿ بَيَاتًا ﴾ أى ليلا ﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ ﴿ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ﴾ قرأه الحرميان وابن عامر بإسكان الواو للعطف، على معنى الإباحة؛ مثل « وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا[(٥)] » . جالس الحسن أو ابن سيرين . والمعنى : أو أمنوا هذه الضروب من العقوبات . أى إن أمنتم ضربا منها لم تأمنوا الآخر .

(١) راجع جـ ١ ص ٤٩ . (٢) راجع جـ ١٨ ص ٣٠١ . (٣) راجع جـ ٩ ص ٥٠ .
(٤) راجع ٦ ص ٢١٤ . (٥) راجع ١٩ ص ١٤٦ .

Marfat.com

ويجوز أن يكون « أو » لأحد الشيئين ، كقولك : ضربت زيدا أو عمرا . وقرأ البـاقون بفتحها بهمزة بعـدها . جعلها واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام ؛ نظيره « أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا »(1) . ومعنى ﴿ ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أى وهم فيما لا يجدى عليهم ؛ يقال لكل من كان فيما يضره ولا يجدى عليه لاعب ، ذكره النحاس . وفى الصحاح . اللَّعِب معروف ، واللَّعْب مثله . وقد لعِب يلعَب . وتَلَعَّبَ : [لَعِبَ](2) مرة بعد أخرى . ورجل تِلْعَابَة : كثير اللَّعِب ، والتلعاب(3) (بالفتح) المصدر . وجارية لَعُوبٌ .

قوله تعـالى : أَفَأَمِنُوا مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴾ أى عذابه وجزاءه على مكرهم . وقيل : مكره استدراجه بالنعمة والصحة .

قوله تعـالى : أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْـدِ ﴾ أى يُبيِّن . ﴿ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ ﴾ يريد كفار مكة ومن حولهم . ﴿ أَصَبْنَاهُمْ ﴾ أى أخذناهم ﴿ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أى بكفرهم وتكذيبهم . ﴿ وَنَطْبَعُ ﴾ أى ونحن نطبع؛ فهو مستأنف . وقيـل : هو معطوف على أصبنا ، أى نصيبهـم ونطبع ؛ فوقع المـاضى موقع المستقبل .

قوله تعـالى : تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾

---

(1) راجع جـ ٢ ص ٣٩ . (2) زيادة عن كتب اللغة . (3) فى ب : تلعابة .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْقُرَى ﴾ أى هذه القرى التى أهلكناها ؛ وهى قُرَى نُوحٍ وعَادٍ[1] ولُوطٍ وهُودٍ وشُعَيْب المتقدّمة الذكر . ﴿ نَقُصُّ ﴾ أى نتلو . ﴿ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا ﴾ أى من أخبارها . وهى تسلية للنبيّ عليه السلام والمسلمين . ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ أى فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا بعد هلاكهم لو أحييناهم ؛ قاله مجاهد . نظيره « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا »[2] . وقال ابن عباس والربيع : كان فى علم الله تعالى يوم أخذ عليهم الميثاق أنهم لا يؤمنون بالرسل . ﴿ بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ يريد يوم الميثاق حين أخرجهم من ظهر آدم فآمنوا كرها لا طوعا . قال السدى : آمنوا يوم أخذ عليهم الميثاق كرها فلم يكونوا ليؤمنوا الآن حقيقة . وقيل : سألوا المعجزات ، فلما رأوها ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل رؤية المعجزة[3] . نظيره « كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ »[4] . ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ أى مثل طبعه على قلوب هؤلاء المذكورين كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين بمحمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ﴾ :

« مِن » زائدة ، وهى تدل على معنى الجنس ؛ ولولا « مِن » لجاز أن يتوهم أنه واحد فى المعنى . قال ابن عباس : يريد العهد المأخوذ عليهم وقت الذَّرّ ، ومن نقض العهد قيل له إنه لا عهد له ، أى كأنه لم يعهد . وقال الحسن : العهد الذى عهد إليهم مع الأنبياء أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . وقيل : أراد أن الكفار منقسمون ؛ فالأكثرون منهم من لا أمانة له ولا وفاء ، ومنهم من له أمانة مع كفره وإن قلّوا ؛ روى عن أبى عبيدة .

قوله تعالى : ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِۦ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾

(١) فى ج : نوح وعاد ولوط وشعيب .
(٢) راجع ج ٦ ص ٤١٠ .
(٣) فى ب و ج و ك : المعجزات .
(٤) راجع ص ٦٥ من هذا الجزء .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم ﴾ أى من بعد نوح وهود(١) وصالح ولوط وشعيب . ﴿ مُوسَى ﴾ أى موسى بن عمران . ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ أى بمعجزاتنا . ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أى كفروا ولم يصدّقوا بالآيات . والظلم : وضع الشىء فى غير موضعه .

قوله تعالى : ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أى آخر أمرهم .

قوله تعالى : وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾
حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ
إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾
وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ
إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾

﴿ حَقِيقٌ عَلَىَّ(٢) ﴾ أى واجب . ومن قرأ « عَلَىَّ أَلَّا » فالمعنى حريص على ألا أقول . وفى قراءة عبد الله « حقيق ألا أقول » بإسقاط « على » . وقيل : « على » بمعنى الباء ، أى حقيق بألا أقول . وكذا فى قراءة أُبَىّ والأعمش « بألا أقول » . كما تقول : رميت بالقوس وعلى القوس . فـ « حَقِيقٌ » على هذا بمعنى محقوق . ومعنى « فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِى إِسْرَائِيلَ » أى خلّهم . وكان يستعملهم(٣) فى الأعمال الشاقة . ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ ﴾ يستعمل فى الأجسام [illegible] . وقد تقدّم(٤) . والثعبان : الحية الضخم الذكر ، وهو أعظم الحيات . ﴿ مُبِينٌ ﴾

(١) كذا فى [illegible] الأصول : ثمود . (٢) قراءة نافع . (٣) فى ع : يشغلهم .
(٤) راجع جـ ٤ ص ٢٢١ .

أى حيّة لا لبْس فيها . ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ أى أخرجها وأظهرها . قيل : من جيبه أو من جناحه؛ كما فى التنزيل « وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ » (١) أى من غير برَص . وكان موسى أسمر شديد السُّمرة، ثم أعاد يده إلى جيبه فعادت إلى لونها الأول . قال ابن عباس : كان لِيَدِه نور ساطع يضىء ما بين السماء والأرض . وقيل : كانت تخرج يده بيضاء كالثلج تَلُوح ، فإذا ردّها عادت إلى مثل سائر بدنه . ومعنى ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أى بالسحر . ﴿ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾ أى من مُلْكِكم معاشِرَ القبط ، بتقديمه بنى إسرائيل عليكم . ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ أى قال فرعون : فماذا تأمرون . وقيل : هو من قول الملأ ؛ أى قالوا لفرعون وحده : فماذا تأمرون . كما يخاطب الجبّارون والرؤساء : ما تَرَوْن فى كذا . ويجوز أن يكون قالوا له ولأصحابه . و «ما» فى موضع رفع ، على أن «ذا» بمعنى الذى . وفى موضع نصب ، على أن «ما» و «ذا» شىء واحد . ﴿ قَالُوا أَرْجِهِ ﴾ قرأ أهل المدينة وعاصم والكسائىّ بغير همز ؛ إلا أنّ وَرْشًا والكسائىّ أَشْبعا كسرة الهاء . وقرأ أبو عمرو بهمزة ساكنة والهاء مضمومة . وهما لغتان ؛ يقال : أرجأته وأرجيته ، أى أخرته . وكذلك قرأ ابن كَثير وابن مُحَيْصن وهِشام ؛ إلا أنهم أشبعوا ضمّة الهاء . وقرأ سائر أهلِ الكوفة «أرْجِهْ» بإسكان الهاء . قال الفرّاء : هى لغة للعرب ، يقفون على الهاء المكنىّ عنها فى الوصل إذا تحرّك ما قبلها ، وكذا هَـذِهْ طلحةُ قد أقبلت . وأنكر البصريون هذا . قال قتادة : معنى « أرْجِهِ » احبسه . وقال ابن عباس : أخّره . وقيل : « أرجه » مأخوذ من رجا يرجو ؛ أى أطْمِعه ودَعْه يرجو ؛ حكاه النحاس عن محمد ابن يزيد . وكسرُ الهاء على الإتباع . ويجوز ضمّها على الأصل . وإسكانها لحْنٌ (٢) لا يجوز إلا فى شذوذ من الشعر . ﴿ وَأَخَاهُ ﴾ عطف على الهاء . ﴿ حَاشِرِينَ ﴾ نصب على الحال . ﴿ يَأْتُوكَ ﴾ جزم؛ لأنه جواب الأمر ولذلك حذفت منه النون . قرأ أهل الكوفة إلا عاصما «بِكُلِّ سَحَّارٍ» وقرأ سائر الناس « ساحِرٍ » وهما متقاربان ؛ إلا أنّ فعّالا أشدّ مبالغة .

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٥٦ .

(٢) كذا فى الأصول وإعراب القرآن للنحاس . ويلاحظ أنها قراءة أهل الكوفة .

Marfat.com

قوله تعـالى : وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ وحُذف ذكر الإرسال لعلم السامع . قال ابن عبـد الحكم : كانوا اثنى عشر نَقيبا ، مع كل نَقيب عشرون عَريفا ، تحت يدى كل عريف ألفُ ساحرٍ . وكان رئيسهم شمعون فى قول مقاتل بن سليمان . وقال ابن جُريج : كانوا تسعمائة من العَريش والفيّوم والإسكندرية أثلاثا . وقال ابن إسحاق : كانوا خمسة عشر ألف ساحر ؛ وروى عن وهب . وقيل : كانوا آثنى عشر ألفا . وقال آبن المنكدر : ثمانين ألفا . وقيل : أربعـة عشر ألفا . وقيل : كانوا ثلثمائة ألف ساحر من الرِّيف ، وثلثمائة ألف ساحر من الصعيد ، وثلثمائة ألف ساحر من الفيُّوم وما والاها . وقيل : كانوا سبعين رجلا . وقيل : ثلاثة وسبعين ؛ فآلله أعلم . وكان معهم فيما رُوى حِبالٌ وعِصِىّ يحملها ثلثمائة بعـير . فآلتقمت الحيّة ذلك كلّه . قال آبن عباس والسُّـدّى : كانت إذا فتحت فاها صار شِدْقُها ثمانين ذراعا ، واضعة فكّها الأسفل على الأرض ، وفكّها الأعلى على سُور القصر . وقيل : كان سعة فمها أربعين ذراعا ؛ فآلله أعلم . فقصدت فرعونَ لتبتلعه ، فوثب من سريره فهرب منهـا واستغاث بموسى ؛ فأخذها فإذا هى عَصًا كما كانت . قال وهب : مات من خوف العَصَا خمسة وعشرون ألفـا . ﴿ قَالُوٓا أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ أى جائزة ومالا . ولم يقـل فقالوا بالفاء ؛ لأنه أراد لمـا جاءوا قالوا . وقرئ « إِنَّ لَنَآ » على الخبر . وهى قراءة نافع وابن كَثير . ألزموا فرعونَ أن يجعل لهم مالا إن غَلَبُوا ؛ فقـال لهم فرعون : ﴿ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ أى لَمِن أهل المنزلة الرفيعة لدينا ؛ فزادهم على ما طلبوا . وقيل : إنهم إنما قطعوا ذلك لأنفسهم فى حكمهم إن غلبوا . أى قالوا : يجب لنـا الآجر إن غلبنا . وقرأ الباقون بالآستفهام على جهة الآستخبار . استخبروا فرعون : هل يجعل لهم أجرا إن غَلَبوا أولا ؛ فلم يقطعوا على فرعون بذلك ، إنما استخبروه هل يفعل ذلك ؛ فقال لهم « نعم » لكم الأجر والقُرْب إن غَلبتم .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَـٰمُوسَىٰ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّآ أَلْقَوْا سَحَرُوٓا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾

تأدّبوا مع موسى عليه السلام فكان ذلك سبب إيمانهم . و « أن » فى موضع نصب عند الكسائى والفراء ، على معنى إما أن تفعل الإلقاء . ومثلُه قول الشاعر :

* قالوا الرُّكوبَ فقلنا تلك عادتنا (١) *

﴿ قَالَ أَلْقُوا ﴾ قال الفراء : فى الكلام حذف . والمعنى : قال لهم موسى إنكم لن تَغْلِبوا ربّكم ولن تُبطلوا آياته . وهذا من معجز القرآن الذى لا يأتى مثله فى كلام الناس ، ولا يقدرون عليه . يأتى اللفظ اليسير بجمع المعانى الكثيرة . وقيل : هو تهديد . أى ابتدئوا بالإلقاء ، فسترون ما يحلّ بكم من الافتضاح ؛ إذ لا يجوز على موسى أن يأمرهم بالسحر . وقيل : أمرهم بذلك ليبيّن كذبهم وتمويههم . ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا ﴾ أى الحبال والعِصِىّ . ﴿ سَحَرُوٓا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ أى خَيّلوا لهم وقَلبوها عن صحة إدراكها ، بما يُتخيّل من التّمويه الذى جرى مجرى الشّعوذة وخفة اليد ؛ كما تقدّم فى « البقرة » (٢) بيانه . ومعنى ﴿ عَظِيمٍ ﴾ أى عندهم ؛ لأنه كان كثيرا وليس بعظيم على الحقيقة . قال ابن زيد : كان الاجتماع بالإسكندرية فبلغ ذَنَب الحيّة وراء البحيرة . وقال غيره : وفتحت فَاهَا بجعلت تلقف — أى تلتقم — ما ألقَوْا من حبالهم وعِصيّهم . وقيل : كان ما ألقوا حبالا من أَدَم فيها زئبق فتحركت وقالوا هذه حيّات . وقرأ حَفْص « تَلْقف » بإسكان اللام والتخفيف . جعله مستقبل لَقِف يَلْقَف . قال النحاس : ويجوز على هذه القراءة «تِلْقَف» لأنه من لَقِف . وقرأ الباقون بالتشديد وفتح اللام ، وجعلوه مستقبل تَلَقّف ؛ فهى تَتَلَقّف . يقال : لقِفت الشيء وتلقّفته إذا أخذته أو بلعته . تَلْقَف وتَلْقَم

(١) هذا صدر بيت وتمامه : أو النزول فإنا معشر نزل . فى ب : فقلت تلك .
(٢) راجع جـ ٢ ص ٤٣ .

Marfat.com

وتلّهم بمعنًى واحد . قال أبو حاتم : وبلغنى فى بعض القراءات « تَلَقَّم » بالميم والتشديد .
قال الشاعر :

أنت عَصَا موسى التى لم تزلْ * تَلْقَـمُ ما يأفِكُهُ السـاحرُ

ويروى : تلقف . ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أى ما يكذبون، لأنهم جاءوا بحبال وجعلوا فيها زِئبقا حتى تحركت .

قوله تعـالى : فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ ﴾ قال مجاهد : فظهر الحق . ﴿ وَٱنْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ نصب على الحال . والفعل منه صَغِر يَصْغَر صَغَرًا وصِغَرًا وصَغارا[1] . أى ٱنقلب قوم فرعونَ وفرعونُ معهم أذِلّاء مَقْهورين مغلوبين . فأما السحرة فقد آمنوا .

قوله تعـالى : قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ إنكار منه عليهم . ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَـا أَهْلَهَا ﴾ أى جرت بينكم وبينه مُواطاة فى هذا لتستولوا على مصر، أى كان هـذا منكم فى مدينة مصر قبـل أن تبرزوا إلى هـذه الصحراء

(١) هو من باب فرح وكرم .

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تهديد لهم . قال ابن عباس : كان فرعون أوّلَ من صَلَب ، وقَطَع الأيدى والأرْجُل من خلاف ، الرجل اليُمْنَى واليد اليسرى ، واليد اليمنى والرجل اليسرى ، عن الحسن .
﴿ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾ قرأ الحسن بفتح القاف . قال الأخفش : هى لغة يقال : نَقِمت الأمر ونَقَمته أنكرته ، أى لست تكره منا سوى أن آمنا بالله وهو الحق .
﴿ لَمَّا جَاءَتْنَا ﴾ آياته و بيناته . ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ الإفراغ الصَّبّ ، أى اصببه علينا عند القطع والصلب . ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ فقيل : إن فرعون أخذ السحرة وقطعهم على شاطئ النهر، وإنه آمن بموسى عند إيمان السحرة ستمائة ألف .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى بإيقاع الفرقة وتشتيت الشَّمل . ﴿ وَيَذَرَكَ ﴾ بنصب الراء جواب الاستفهام ، والواو نائبة عن الفاء . ﴿ وَآلِهَتَكَ ﴾ قال الحسن : كان فرعون يعبد الأصنام ، فكان يَعْبُد و يُعْبَد . قال سليمان التيمى : بلغنى أن فرعون كان يعبد البقر . قال التيمى : فقلت للحسن هل كان فرعون يعبد شيئا ؟ قال نعم ، إنه كان يعبد[1] شيئا كان قد جعله فى عنقه . وقيل : معنى « وآلهتك » أى وطاعتك ، كما قيل فى قوله تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ »[2] لأنهم ما عبدوهم ولكن أطاعوهم ؛ فصار تمثيلا . وقرأ نُعيم بن ميسرة « وَيَذَرُكَ » بالرفع على تقدير وهو يَذَرُكَ . وقرأ الأَشْهَب العقيلى « وَيَذْرك » مجزوما مخفف يذرُك لثقل الضمة . وقرأ أنس

(١) فى زوك : أن كان ليعبد . (٢) راجع جـ ٨ ص ١٩٩ .

Marfat.com

آبن مالك « ونذرك » بالرفع والنون . أخبروا عن أنفسهم أنهم يتركون عبادته إن ترك موسى حيًّا . وقرأ عليّ بن أبي طالب وابن عباس والضحّاك « و إلاهتك » ومعناه وعبادتك . وعلى هذه القراءة كان يُعْبَد ولا يَعْبُد، أي و يترك عبادته لك . قال أبو بكر الأنباريّ : فمن مذهب أصحاب هذه القراءة أن فرعون لما قال « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى »[1] و « مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي »[2] نفى أن يكون له رب و إلاهة . فقيل له : و يذرك و إلاهتك؛ بمعنى و يتركك وعبادة الناس لك. وقراءة العامة « وَآلِهَتَكَ » كما تقدّم ، وهي مبنية على أن فرعون آدّعى الرُّبُوبيّة في ظاهر أمره وكان يعلم أنه مَرْبُوب . ودليـل هذا قولُه عند حضور الحِمام « آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ »[3] فلم يُقْبل هذا القول منه[لما أتى به][4]بعد إغلاق[باب][4] التوبة . وكان قبل هذه الحال له إله يعبده سِرًّا دون رب العالمين جل وعز؛ قاله الحسن وغيره . وفي حرف أُبَيّ « أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وقد تَرَكُوكَ أن يَعْبُدُوك » . وقيل : « و إلاهتك » قيل : كان يعبد بقرة، وكان إذا آستحسن بقرة أمر بعبادتها، وقال : أنا ربّكم وربّ هذه . ولهذا قال : « فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا »[5] . ذكره ابن عباس والسُّدّى . قال الزجاج : كان له أصنام صغار يعبدها قومُه تقربا إليه فنُسبت إليه؛ ولهـذا قال : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » . قال إسماعيـل ابن إسحاق : قول فرعون « أنا ربُّكُم الأَعْلَى » . يدل على أنهم كانوا يعبدون شيئا غيره . وقد قيل : إن المراد بالإلاهة على قراءة ابن عباس البقرة التي كان يعبدها . وقيـل : أرادوا بها الشمس وكانوا يعبدونها . قال الشاعر :

* وأَعْجَلْنَا الإلاهةَ أن تَؤُوبَا *

ثم آنس قومه فقال : ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ بالتخفيف، قراءة نافع وابن كثير . والباقون بالتشديد على التكثير . ﴿ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ أي لا تخافوا جانبهم . ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ آنسهم بهذا الكلام . ولم يقل سَنقتل موسى لعلمه أنه لا يقدر عليه . وعن سـعيد بن جُبير قال : كان فرعون قد مُلِيء من موسى رُعْبًا؛ فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار . ولما بلغ قوم

(١) راجع جـ ١٩ ص ١٩٨ . (٢) راجع جـ ١٤ ص ٢٨٨ . (٣) راجع جـ ٨ ص ٣٣٧ .
(٤) من ب و جـ و ز و ك . (٥) راجع جـ ١١ ص ٢٣٢ . يلاحظ أن الآية في السامري .

Marfat.com

موسى من فرعون هذا قال لهم موسى : ﴿ ٱسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَٱصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ ﴾ أطمعهم فى أن يورثهم الله أرض مصر. ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أى الجنة لمن اتقى . وعاقبة كل شىء : آخره، ولكنها إذا أُطْلقت فقيل : العاقبة لفلان فُهِم منه فى العُرْف الخير.

قوله تعالى : قَالُوٓا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا ﴾ أى فى ابتداء ولادتك بقتل الأبناء وآسترقاق النساء . ﴿ وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ أى والآن أعيد علينا ذلك ؛ يعنون الوعيد الذى كان من فرعون . وقيل : الأذى من قبلُ تسخيرهم لبنى إسرائيل فى أعمالهم إلى نصف النهار، وإرسالهم بقيته ليكتسبوا لأنفسهم . والأذى من بعدُ : تسخيرُهم جميع النهار كله بلا طعام ولا شراب؛ قاله جُوَيْبر . وقال الحسن : الأذى من قبلُ ومن بعدُ واحد، وهو أخذ الجزية . ﴿ قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ « عسى » من الله واجب؛ جدّد(١) لهم الوعد وحقّقه . وقد آستُخلِفوا فى مصر فى زمان داود وسليمان عليهما السلام ، وفتحوا بيت المقدس مع يُوشَع بن نون ؛ كما تقدّم . ورُوى أنهم قالوا ذلك حين خرج بهم موسى وتبعهم فرعون فكان وراءهم والبحر أمامهم ، فحقّق الله الوعيد بأن غرّق فرعون وقومه وأنجاهم . ﴿ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ تقدّم نظائره . أى يرى ذلك العمل الذى يجب به الجزاء؛ لأن الله لا يجازيهم على ما يعلمه منهم ، إنما يجازيهم على ما يقع منهم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ﴾ يعنى الجدوب . وهذا معروف فى اللغة؛ يقال : أصابتهم سَنَة، أى جَدْب . وتقديره جَدْبُ سنة . وفى الحديث : " اللّهمّ

(١) فى ب وج وز وك : حدد . بالمهملة .

اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف ". ومن العرب من يُعرب النون فى السنين ، وأنشد الفراء :

أرى مرّ السنين أخذْنَ منّى * كما أخذ السِّرار من الهلال [١]

قال النحاس : وأنشد سيبويه هذا البيت بفتح النون ، ولكن أنشد [٢] فى هذا ما لا يجوز غيره ، وهو قوله :

* وقد جاوزتُ رأس الأربعين *

وحكى الفراء عن بنى عامر أنهم يقولون : أقمتُ عنده سنينًا يا هذا ، مصروفا . قال : وبنو تميم لا يصرفون ويقولون : مضت له سنينُ يا هذا . وسنينُ جمع سنة ، والسنة هنا بمعنى الجدب لا بمعنى الحَوْل . ومنه أسْنَتَ القوم أى أجدبوا . قال عبد الله بن الزِّبَعْرى :

عَمْرو العُلا هَشَمَ الثَّريد لقومه * ورجالُ مكةَ مُسنِتُون عِجافُ [٣]

﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أى ليتعظوا وترق قلوبهم .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ ﴾ أى الخصب والسعة . ﴿ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ ﴾ أعطيناها باستحقاق ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أى قحط ومرض ، وهى المسألة : —

الثانية — ﴿ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ ﴾ أى يتشاءموا به . نظيره « وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ » [٤] . والأصل «يتطيروا» أدغمت التاء فى الطاء . وقرأ طلحة : « تطيّروا » على أنه فعل ماض . والأصل فى هذا من الطِّيَرة وزَجْر الطَّير ، ثم كثُر استعمالهم حتى قيل لكل

---

(١) السرار والسرر (بفتح السين وكسرها فيهما) : الليلة التى يستسر فيها القمر آخر الشهر .

(٢) فى ع : أنشدوا .

(٣) يريد به هاشم بن عبد مناف أبا عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان يسمى عمرا .

(٤) راجع جـ ٥ ص ٢٨٢ .

Marfat.com

من تشاءم : تَطَيَّرَ. وكانت العرب تتيمّن بالسّانح : وهو الذى يأتى من ناحية اليمين . وتتشاءم بالبارح : وهو الذى يأتى من ناحية الشمال. وكانوا يتطيرون أيضا بصوت الغراب؛ ويتأولونه البَيْن . وكانوا يستدلون بمجاوبات الطيور بعضها بعضا على أمور ، وبأصواتها فى غير أوقاتها المعهودة على مثل ذلك . وهكذا الظّباء إذا مضت سانحة أو بارحة ، ويقولون إذا بَرَحت : « مَن لِى بالسّانح بعد البارح » (١) . إلا أنّ أقوى ما عندهم كان يقع فى جميع الطير ؛ فسمَّوْا الجميع تَطَيُّرًا من هذا الوجه . وتطيّر الأعاجمُ إذا رأوا صبيًّا يذهب به إلى المُعَلِّم بالغداة ، ويتيمّنون برؤية صبيّ يرجع من عند المعلم إلى بيته ، ويتشاءمون برؤية السّقاء على ظهره قِربة مملوءةً مشدودة ، ويتيمّنون برؤية فارغ السّقاء مفتوحة [قربته] (٢) ؛ ويتشاءمون بالحمّال المثقل بالحِمْل ، والدابة المُوقَرة (٣) ، ويتيمنون بالحمّال الذى وضع حِمله ، وبالدابة يُحَطّ عنها ثِقْلها . فجاء الإسلام بالنّهى عن التّطيّر والتشاؤم بما يُسمع من صوتِ طائرٍ ما كان ، وعلى أىّ حال كان ؛ فقال عليه السلام : "أقِرّوا الطير على مَكِناتها" (٤) . وذلك إن كثيرا من أهل الجاهلية كان إذا أراد الحاجة أتى الطير فى وَكْرها فنفّرها ؛ فإذا أخذت ذات اليمين مضى لحاجته ، وهذا هو السانح عندهم . وإن أخذت ذات الشمال رجع ، وهذا هو البارح عندهم . فنهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن هذا بقوله : "أَقِرّوا الطير على مَكِناتها" هكذا فى الحديث . وأهل العربية يقولون : "وُكُناتها" قال امرؤ القيس :

* وقد أغتَدِى والطّيْر فى وُكُناتها *

والوُكْنة : اسم لكلّ وكْر وعُشّ . والوكن : موضع الطائر الذى يبيض فيه ويُفْرِخ، وهو الخرق فى الحيطان والشجر . ويقال : وَكَن الطائر يَكِن وُكونا إذا حضن بيضه . وكان أيضا من العرب من لا يرى التطيّر شيئا ، ويمدحون من كذّب به . قال المُرَقِّش :

---

(١) هذا مثل يضرب للرجل يسىء الرجل ؛ فيقال له : إنه سوف يحسن إليك . وأصل ذلك أن رجلا مرت به ظباء بارحة فقيل له سوف تسنح لك ؛ فقال : من لى ... الخ . (٢) من ع .

(٣) الدابة الموقرة : التى عليها حمل ثقيل ، والموقرة أيضا : التى أصابتها الوقرة ، وهى صدع فى الساق .

(٤) مكناتها (بكسر الكاف وقد تفتح) : أى بيضها . وهى فى الأصل بيض الضباب . وقيل : على أمكنتها ومساكنها . قال شمر : والصحيح فى قوله « على مكناتها » أنها جمع المكنة ، والمكنة : التمكن . وقال الزمخشرى : ويروى : «مكناتها» جمع مكن ، ومكن جمع مكان .

Marfat.com

ولقد غَدَوْتُ وكنتُ لا * أغـــدُو على وَاقٍ وحاتم (١)

فإذا الأشـائِمُ كالأيا * مِنِ والأيامِنُ كالأشائم

وقال عكرمة : كنت عند آبن عباس فمرّ طائر يصيح ؛ فقال رجل من القوم : خير ، خير . فقـال آبن عباس : ما عند هـذا لا خير ولا شر . قال علماؤنا : وأما أقوال الطير فلا تعلّق لها بمـا يجعل دلالة عليـه ، ولا لهـا علم بكائن فضـلاً عن مسـتقبل فتُخبِر به ، ولا في الناس من يعلم منطق الطير ؛ إلا ما كان الله تعالى خصّ به سليمان صلى الله عليه وسلم من ذلك ، فآلتحق التطيّر بجملة الباطل . والله أعلم . وقال صلى الله عليه وسلم : " ليس منّا من تحلّم (٢) أو تكهّن أو ردّه عن سـفره تطيّر " . وروى أبو داود عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " الطِّيَرة شرك — ثلاثا — وما منا إلّا (٣) ولكنّ الله يذهبه بالتوكّل " . وروى عبد الله بن عمـرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : " مَن رجّعته الطِّيرة عن حاجته فقد أشرك " . قيل : وما كفارة ذلك يا رسـول الله ؟ قال : " أن يقول أحدهم اللّهُمّ لا طَيْرَ إلا طَيْرُكَ ولا خَيْرَ إلّا خَيْرُكَ ولا إله غيرُك ثم يمضى لحاجته " . وفي خبر آخر : " إذا وجد ذلك أحدكم فليقل اللّهُمّ لا يأتى بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت لا حـول ولا قوة إلا بك " . ثم يذهب متوكّلا على الله ؛ فإن الله يكفيه ما وجد في نفسه من ذلك ، وكفاه الله تعالى ما يُهِمّه . وقد تقدم في « المـائدة » الفرق بين الفأل والطيرة (٤) . ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ وقرأ الحسن « طَيْرُهم » جمع طائر . أى ما قُدِّر لهم

(١) الواق (بكسر القاف) : الصرد ، وهو طائر أبقع ضخم الرأس يكون في الشجر ، نصفه أبيض ونصفه أسود . والحاتم : الغراب الأسود . (٢) تحلم : إذا ادعى الرؤيا كاذبا . (٣) كذا في مسند أبي داود وبعض نسخ الأصل . قال ابن الأثير : « هكذا جاء في الحـديث مقطوعا ، ولم يذكر المستثنى . أى إلا وقد يعتريه التطير ، وتسبق إلى قلبه الكراهة ؛ فحذف اختصار واعتمادا على فهم السـامع ... وقوله : "ولكن الله يذهبه بالتوكل" معناه أنه إذا خطر له عارض التطير فتوكل على الله وسلم إليه ولم يعمل بذلك الخاطر غفره الله له ولم يؤاخذه به» . وفي ب : « ... وما منا إلا من تطير ... » الخ . (٤) راجع جـ ٦ ص ٥٩ .

Marfat.com

وعليهم . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن ما لحقهم من القحط والشدائد إنما هو من عند الله عز وجل بذنوبهم لا من عند موسى وقومه .

قوله تعالى : وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ ﴾ أى قال قوم فرعون لموسى « مهما » . قال الخليل : الأصل ما ، ما ؛ الأولى للشرط ، والثانية زائدة توكيد للجزاء ؛ كما تزاد فى سائر الحروف ، مثلُ إمّا وحيثما وأينما وكيفما . فكرهوا حرفين لفظهما واحد ؛ فأبدلوا من الألف الأولى هاء فقالوا مهما . وقال الكسائى : أصله مَهْ ؛ أى اكفف ، ما تأتنا به من آية . وقيل : هى كلمة مفردة ، يجازى بها ليُجزم ما بعدها على تقدير إنْ . والجواب « فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ » ﴿ لِتَسْحَرَنَا ﴾ لتصرفنا عما نحن عليه . وقد مضى فى « البقرة »[(١)] بيان هذه اللفظة . قيل : بقِى موسى فى القبط بعد إلقاء السحرة سُجّدا عشرين سنة يريهم الآيات إلى أن أغرق الله فرعون ، فكان هذا قولهم .

قوله تعالى : فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — روى إسرائيل عن سِمَاك عن نَوْف الشامى قال : مكث موسى صلى الله عليه وسلم فى آل فرعون بعد ما غلب السحرةَ أربعين عاما . وقال محمد بن عثمان بن أبى شيبة عن مِنجاب : عشرين سنة ، يريهم الآيات : الجراد والقُمَّل والضفادع والدم .

الثانيــة قوله تعالى : ﴿ الطُّوفَانَ ﴾ أى المطر الشديد حتى عامُوا فيه . وقال مجاهد وعطاء : الطوفان الموت قال الأخفش : واحدته طوفانة . وقيل : هو مصدر كالرُّجحان

---

(١) راجع ج ٢ ص ٢٠٠ .

Marfat.com

والنُّقصان ؛ فلا يطلب له واحد . قال النحاس : الطوفان في اللغة ما كان مُهْلِكًا من موت أو سَيْل ؛ أي ما يطيف بهم فيهلكهم . وقال السُّدّى : ولم يُصب بني إسرائيل قطرةٌ من ماء، بل دخل بيوتَ القبط حتى قاموا في الماء إلى تَرَاقيهم (١) ، ودام عليهم سبعةَ أيام . وقيل : أربعين يوما . فقالوا : آدع لنا ربك يكشف عنا فنؤمن بك ؛ فدعا ربه فرفع عنهم الطوفان فلم يؤمنوا . فأنبت الله لهم في تلك السنة مالم يُنْبِته قبل ذلك من الكلإ والزرع . فقالوا : كان ذلك الماء نعمة ؛ فبعث الله عليهم الجراد وهو الحيوان المعروف، جمع جرادة في المذكر والمؤنث . فإن أردت الفصل نعتَّ فقلت رأيت جرادة ذكرا — فأكل زروعهم وثمارهم حتى أنها كانت تأكل السقوف والأبواب حتى تنهدم ديارهم . ولم يدخل دُور بني إسرائيل منها شيء .

الثالثة — وآختلف العلماء في قتل الجراد إذا حَلّ بأرض فأفسد؛ فقيل : لا يقتل . وقال أهل الفقه كلهم : يُقتل . آحتج الأوّلون بأنه خَلْق عظيم من خلق الله يأكل من رزق الله ولا يَجْرِي عليه القلم . وبما روى "لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظمُ" . وآحتج الجمهور بأن في تركها فساد الأموال، وقد رخص النبيّ صلى الله عليه وسلم بقتال المسلم إذا أراد أخذ ماله ؛ فالجراد إذا أرادت فساد الأموال كانت أولى أن يجوز قتلها . ألا ترى أنهم قد آتفقوا على أنه يجوز قتل الحية والعقرب ؟ لأنهما يؤذيان الناس فكذلك الجراد . روى آبن ماجه عن جابر وأنس بن مالك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا دعا على الجراد قال : "اللّهُمّ أهلك كباره وآقتل صغاره وأفسد بيضه وآقطع دابره وخُذْ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا إنك سميع الدعاء" . قال رجل : يا رسول الله، كيف تدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره ؟ قال : "إن الجراد نَثْرة (٢) الحوت في البحر" .

الرابعة — ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن أبي أَوْفَى قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات كنا نأكل الجراد معه . ولم يختلف العلماء في أكله على الجملة،

(١) التراقى : جمع الترقوة ، وهى عظم وصل بين ثغرة النحر والعاتق من الجانبين. (٢) النثرة : شبه العطسة

Marfat.com

وأنه إذا أخذ حيًّا وقطعت رأسه أنه حلال باتفاق . وأن ذلك يتنزل منه منزلة الذكاة فيه . وإنما اختلفوا هل يحتاج إلى سبب يموت به إذا صِيد أم لا ؛ فعامّتهم على أنه لا يحتاج إلى ذلك، ويؤكل كيفما مات . وحكمه عندهم حكم الحِيتان، وإليه ذهب ابن نافع ومُطَرِّف وذهب مالك إلى أنه لا بُدّ له من سبب يموت به ؛ كقطع رءوسه أو أرجله أو أجنحته إذا مات من ذلك، أو يُصْلق أو يطرح فى النار؛ لأنه عنده من حيوان البر فَمَيْتَتُه محرّمة . وكان الليث يكره أكل ميت الجراد، إلا ما أخذ حيًّا ثم مات فإن أخذه ذكاة . وإليه ذهب سعيد بن المُسَيِّب . وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أحِلّ لنا ميتتان الحُوت والجراد ودمان الكَبِد والطِّحال" . وقال ابن ماجه : حدّثنا أحمد ابن مَنِيع حدّثنا سفيان بن عُيينة عن أبى سعيد سمع أنس بن مالك يقول : كُنّ أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم يتهادَيْن الجراد على الأطباق . ذكره ابن المنذر أيضا .

الخامســة — روى محمد بن المُنكَدِر عن جابر بن عبد الله عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله تعالى خلق ألف أُمّة ستمائة منها فى البحر وأربعمائة فى البر وإن أوّل هلاك هذه الأمم الجراد فإذا هلكت الجراد تتابعت الأمم مثل نظام السِّلك إذا انقطع" . ذكره الترمذيّ الحكيم فى (نوادر الأصول) وقال : وإنما صار الجراد أوّل هــذه الأمم هلاكا لأنه خُلق من الطينة التى فَضَلت من طينة آدم . وإنما تهلك الأمم لهلاك الآدميّين لأنها مسخرة لهم .

رجعنا إلى قصة القبط — فما هدوا موسى أن يؤمنوا لو كُشف عنهم الجراد، فدعا فكُشف وكان قد بَقِيَ من زروعهم شىء فقالوا : يكفينا ما بَقِيَ ؛ ولم يؤمنوا فبعث الله عليهم القُمّل ، وهو صغار الدَّبَى؛ قاله قَتادة . والدَّبَى : الجراد قبل أن يطير، الواحدة دَباة . وأرض مَدْبِيَة إذا أكل الدَّبَى نباتها . وقال ابن عباس : القُمّل السُّوس الذى فى الحِنطة . وقال ابن زيد : البراغيث . وقال الحسن : دوابّ سود صغار . وقال أبو عبيدة : الحَمْنَان، وهو ضرب من القُرَاد، واحدها حَمْنانة . فأكلت دوابّهم وزروعهم ، ولزمت جلودهم كأنها الجُدَرِيّ عليهم،

Marfat.com

ومنعهم النومَ والقرار. وقال حبيب بن[أبى][1] ثابت: القُمَّل الجعلان[2]. والقُمّل عند أهـل اللغة ضرب من القِردان. قال أبو الحسن الأعرابيّ العـدوىّ: القُمّل دواب صغار من جنس القردان؛ إلا أنها أصغر منها، واحدتها قُمّلة. قال النحاس: وليس هذا بناقض لمـا قاله أهل التفسير؛ لأنه يجوز أن تكون هذه الأشياء كلّها أرسلت عليهم، وهى أنها كلها تجتمع فى أنها تؤذيهم. وذكر بعض المفسرين أنه كان «بعَيْن شمس»[3] كَثِيب من رمل فضربه موسى بعصاه فصار قَمّـلًا. وواحد القَمْل قَمْلة. وقيل: القُمّلُ القَمْلُ؛ قاله عطاء الخُراسانيّ. وفى قراءة الحسن «والقَمْل» بفتح القاف وإسكان الميم. فتضرّعوا فلما كُشف عنهم لم يؤمنوا؛ فأرسل الله عليهم الضفادع، جمع ضِفْدِع[4] وهى المعروفة التى تكون فى المـاء، [وفيه مسألة واحدة وهى أن][5] النهى ورد عن قتلها؛ أخرجه أبو داود وابن ماجه بإسناد صحيح. أخرجه أبو داود عن أحمد بن حنبل عن عبد الرزاق وابن ماجه عن محمد بن يحيى النيسابورىّ الذُّهْلىّ عن أبى هريرة قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الصُّرَد والضِّفْدع والنّملة والهُدهد. وخرج النسائىّ عن عبد الرحمن آبن عثمان أن طبيبا ذكر ضِفْدعا فى دواء عند النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ فنهاه النبى صلى الله عليه وسلم عن قتله. صححه أبو محمد عبد الحق. وعن أبى هريرة قال: الصُّرَد أوّل طير صام. ولـمّا خرج إبراهيم عليه السلام من الشام إلى الحرم فى بناء البيت كانت السَّكينة[6] معه والصرد؛ فكان الصُّرد دليلَه إلى الموضع، والسّكينة مقداره. فلما صار إلى البقعة وقعت السَّكينة على موضع البيت ونادت: آبْنِ يا إبراهيم على مقدار ظِلّى؛ فنهى النبىّ صلى الله عليه وسلم عن قتل الصَرد لأنه كان دليل إبراهيم على البيت، وعن الضفدع لأنها كانت تصبّ المـاء على نار إبراهيم. ولـمّا تسلّطت على فرعون جاءت فأخذت الأمكنة كلها، فلما صارت إلى التَّنُّور وَثَبَتْ فيها وهى نار تسعر، طاعة لله. فجعل [الله][7] نقيقها تسبيحا. يقال: إنها أكثر الدواب تسبيحا. قال عبد الله بن عمرو: لا تقتلوا الضّفدع فإن نقيقه الذى تسمعون تسبيح. فرُوى أنها ملأت

---

(١) من ب وج وك. والتهذيب. (٢) الجعلان (بكسر الجيم جمع جعل كصرد) وهو دابة سوداء من دواب الأرض. (٣) عاصمة مصر يومئذ. (٤) الضفدع: بفتح الضاد والدال وبكسرهما وسكون الفاء. (٥) من ج وك. (٦) السكينة: ريح خجوج، أى سريعة المر. (٧) من ع.

فرشهم وأوعيتهم وطعامهم وشرابهم؛ فكان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ، وإذا تكلم وثب الضفدع في فيه . فشكوا إلى موسى وقالوا : نتوب؛ فكشف الله عنهم ذلك فعادوا إلى كفرهم؛ فأرسل الله عليهم الدّم فسال النيل [عليهم](١) دمًا . وكان الإسرائيلي يغترف منه الماء، والقبطيّ الدّم . وكان الإسرائيلي يصبّ الماء في فم القبطي فيصير دمًا، والقبطيّ يصب الدم في فم الإسرائيلي فيصير ماء زلالا . ﴿ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ ﴾ أي مبيّنات ظاهرات؛ عن مجاهد . قال الزجاج : «آيات مفصّلات» نصب على الحال . ويروى أنه كان بين الآية والآية ثمانية أيام . وقيل : أربعون يوما . وقيل : شهر؛ فلهذا قال « مفصلات » . ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ أي ترفّعوا عن الإيمان بالله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ ﴾ أي العذاب . وقرئ بضم الراء، لغتان . قال ابن جبير : كان طاعونا مات به من القبط في يوم واحد سبعون(٢) ألفا . وقيل : المراد بالرجز ما تقدم ذكره من الآيات . ﴿ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾ « ما » بمعنى الذي ، أي بما استودعك من العلم، أو بما اختصّك به فنبأك . وقيل : هذا قسم ، أي بعهده عندك إلّا مادعوت لنا ؛ ف « بما » صلة(٣) . ﴿ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ ﴾ أي بدعائك لإلهك حتى يكشف عنا . ﴿ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ﴾ أي نصدقك بما جئت به . ﴿ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وكانوا يستخدمونهم؛ على ماتقدم . ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ ﴾ يعني أجلهم الذي ضرب لهم في التغريق . ﴿ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ أي ينقضون ما عقدوه

(١) من ب وج وك وى .　(٢) في ع : تسعون .　(٣) كذا في جميع نسخ الأصل ، وظاهر أنها مصدرية .

Marfat.com

على أنفسهم . ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ والْيَمّ البحر . « وَكَانُوا عَنْهَا » أى النقمة . دلّ عليها « فَانْتَقَمْنَا » . وقيل : عن الآيات أى لم يعتبروا بها حتى صاروا كالغافلين عنها .

قوله تعالى : وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ ﴾ يريد بنى إسرائيل . ﴿ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ أى يُسْتَذَلُّون بالخدمة . ﴿ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ﴾ زعم الكسائى والفرّاء أن الأصل « فى مشارق الأرض ومغاربها » ثم حُذِفَ « فى » فنصب . والظاهر أنهم وَرِثوا أرض القبط . فهما نصبٌ على المفعول الصريح ؛ يقال : وَرِثت المال وأورثته المال ؛ فلما تعدّى الفعل بالهمزة نصب مفعولين . والأرض هى أرض الشام ومصر . ومشارقها ومغاربها جهاتُ الشرق والغرب بها ؛ فالأرض مخصوصة ، عن الحسن وقتادة وغيرهما . وقيل : أراد جميع الأرض ؛ لأن من بنى إسرائيل داود وسليمان وقد ملكا الأرض . ﴿ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ أى بإخراج الزروع والثمار والأنهار . ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ هى قوله : « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ »[1] . ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى بصبرهم على أذى فرعون ، وعلى أمر الله بعد أن آمنوا بموسى . ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ يقال : عَرَش يَعْرِش إذا بنَى . قال ابن عباس ومجاهد : أى ما كانوا يبنون من القصور وغيرها . وقال الحسن : هو تعريش الكَرْم . وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم « يَعْرُشون » بضم الراء . قال الكسائىّ : هى لغة تميم . وقرأ إبراهيم بن أبى عَبْلَة « يُعرِّشون » بتشديد الراء وضم الياء .

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٤٧ .

Marfat.com

قوله تعالى : وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر الكاف ، والباقون بضمها . يقال : عَكَف يَعْكِف ويَعْكُف بمعنى أقام على الشيء ولزمه . والمصدر منهما على فُعول . قال قتادة : كان أولئك القوم من لَخْم ، وكانوا نزولا بالرَّقة . وقيل : كانت أصنامهم تماثيلَ بقر ؛ ولهذا أخرج لهم السامريّ عجلا . ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ٱجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ نظيره قول جُهّال الأعراب وقد رأوا شجرة خضراء للكفار تُسَمَّى ذاتَ أنْوَاط[(١)] يعظّمونها في كل سنة يوما : يا رسول الله ، ٱجعل لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط . فقال عليه الصلاة والسلام : " الله أكبر . قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى "ٱجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ" لتركَبُنّ سَنن مَن قبلكم حَذْوَ القُذّة بالقُذّة[(٢)] حتى إنهم لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتموه " . وكان هذا في مَخْرجه إلى حُنَين ، على ما يأتى بيانه في « براءة »[(٣)] إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ﴾ أى مُهْلَك ، والتَّبار : الهلاك . وكل إناء مكسر مُتَبَّرٌ . وأمر مُتَبَّر . أى إن العابد والمعبود مهلكان . وقوله : ﴿وَبَاطِلٌ﴾ أى ذاهب

(١) ينوطون بها سلاحهم ، أى يعلقونه .

(٢) القذة ريش السهم . قال ابن الأثير : يضرب مثلا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان .

(٣) راجع جـ ٨ ص ٩٧ .

Marfat.com

مضمحلّ . ﴿مَا كَانُوا يَعْمَـلُونَ﴾ « كَانُوا » صلة زائدة . ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا﴾ أى أطلب لكم إلها غير الله تعـالى . يقال : بغيته و بغيت له . ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أى على عالَمى زمانكم . وقيـل : فضلهم بإهلاك عدوّهم ، و بمـا خصهم به من الآيات .

قوله تعـالى : وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَـآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِـيمٌ ﴿١٤١﴾

ذكّرهم مِنّته . وقيل : هو خطاب ليهود عصر النبيّ صلى الله عليه وسلم . أى وآذكروا إذا أنجينا أسلافكم ، حسب ما تقدّم بيانه فى سورة « البقرة »[1] .

قوله تعـالى : وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِـعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ ذكر أن ممـا كرّم [الله][2] به موسى صلى الله عليه وسلم هذا . فكان وعده المناجاة إكراما له . ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ قال آبن عباس ومجاهد ومسروق رضى الله عنهم : هى ذو القعـدة وعشر من ذى الحجـة . أمره أن يصوم الشهر و ينفرد فيه بالعبادة ؛ فلما صامه أنكر خُلُوف فمه فآستاك . قيل : بعود خَرْنُوب ؛ فقالت الملائكة : إنا كنا نستنشق من فيك رائحة المسـك فأفسدته بالسّواك . فزيد عليه عشرُ ليالٍ من ذى الحجة . وقيل : إن الله تعالى أوحى إليه لمـا آستاك : " ياموسى لا أكلمك حتى يعود

(١) راجع جـ ١ ص ٣٨١ . (٢) من ع .

فُوك إلى ما كان عليه قبلُ ، أما علمت أن رائحة الصائم أحبّ إليّ من ريح المسك " .
وأمره بصيام عشرة أيام . وكان كلام الله تعالى لموسى [صلى الله عليه وسلم](١) غداة النحر حين فَدَى إسماعيل من الذبح ، وأكمل لمحمد صلى الله عليه وسلم الحج . وحذفت الهاء من عشر لأن المعدود مؤنث . والفائدة في قوله : ﴿ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ وقد علم أن ثلاثين وعشرة أربعون ، لئلا يتوهم أن المراد أتممنا الثلاثين بعشر منها ؛ فبين أن العشر سوى الثلاثين . فإن قيل : فقد قال في البقرة أربعين وقال هنا ثلاثين ؛ فيكون ذلك من البداء . قيل : ليس كذلك ؛ فقد قال : « وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ » والأربعون، والثلاثون والعشرة قول واحد ليس بمختلف . وإنما قال القولين على تفصيل وتأليف ؛ قال أربعين في قول مؤلف ، وقال ثلاثين ، يعني شهرا متتابعا وعشرا . وكل ذلك أربعون ؛ كما قال الشاعر :

« عشر وأربع ... »

يعني أربع عشرة ، ليلة البدر . وهذا جائز في كلام العرب .

الثانية — قال علماؤنا : دلّت هذه الآية على أن ضَرْب الأجل للمواعَدة سُنَّة ماضية ، ومعنى قديم أسّسه الله تعالى في القضايا ، وحكم به للأمم ، وعرّفهم به مقادير التأنّي في الأعمال . وأول أجل ضربه الله تعالى الأيام الستة التي خلق فيها جميع المخلوقات ، « وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ »(٢) . وقد بينا معناه فيما تقدّم في هذه السورة من قوله : « إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ »(٣) . قال ابن العربي : فإذا ضُرِب الأجلُ لمعنًى يحاوَل فيه تحصيلُ المؤجّل فجاء الأجل ولم يتيسّر زِيد فيه تبصرةً ومعذرةً . وقد بيّن الله تعالى ذلك لموسى عليه السلام فضرب له أجلا ثلاثين ثم زاده عشرا تتمة أربعين . وأبطأ موسى عليه السلام في هذه العشر على قومه ؛ فما عقلوا جواز التأنّي والتأخر حتى قالوا : إن موسى ضَلَّ أو نَسِيَ ، ونكثوا عهده وبدّلوا بعده ، وعبدوا إلها غير الله . قال ابن عباس : إن موسى قال لقومه : إنّ ربي وعدني ثلاثين ليلة أن ألقاه ، وأخلف فيكم

(١) من ع . (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٣ . (٣) راجع ص ٢١٨ من هذا الجزء .

Marfat.com

هارون ، فلما فَصَل(١) موسى إلى ربه زاده الله عشرا ؛ فكانت فتنتهم في العشر الذي زاده الله بما فعلوه من عبادة العجل، على ما يأتي بيانه . ثم الزيادة التي تكون على الأجل تكون مقدّرة، كما أن الأجل مقدّر . ولا يكون إلا بآجتهاد من الحاكم بعد النظر إلى المعاني المتعلقة بالأمر : من وقت وحال وعمل ، فيكون مثل ثلث المدّة السالفة ؛ كما أجل الله لموسى . فإن رأى الحاكم أن يجمع له الأصل في الأجل والزيادة في مدّة واحدة جاز ، ولكن لا بدّ من التربّص بعدها لما يطرأ من العذر على البشر، قاله آبن العربيّ . روى البخاريّ عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أعْذَر الله إلى آمرئ أخر أجله حتى بلَغ ستين سنة "(٢) .

قلت : وهذا أيضا أصلٌ لإعذار الحُكّام إلى المحكوم عليه مرة بعد أخرى . وكان هذا لُطْفًا بالخلق ، ولينفّذ القُيَّام عليهم بالحق . يقال : أعْذَرَ في الأمر أي بالغ فيه ؛ أي أعذر غاية الإعذار الذي لا إعذار بعده . وأ كبر الإعذار إلى بني آدم بعثة الرسل إليهم لتتم حجته عليهم ، « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا »(٣) . وقال : « وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ »(٤) قيل : هم الرسل . ابن عباس : هو الشيب . فإنه يأتي في سِنّ الاكتهال، فهو علامة لمفارقة سِنّ الصِّبا . وجعل الستين غاية الإعذار لأن الستين قريب من معترَك العبّاد، وهو سنّ الإنابة والخشوع والاستسلام لله، وترقب المنية ولقاء الله؛ ففيه إعذار بعد إعذار(٥) . الأوّل بالنبيّ عليه السلام، والثاني بالشيب ؛ وذلك عند كمال الأربعين ؛ قال الله تعالى : « وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ »(٦) . فذكر عز وجل أن من بلغ أربعين فقد آن له أن يعلم مقدار نِعم الله عليه وعلى والديه ويشكرها(٧) . قال مالك : أدركت أهل العلم ببلدنا ، وهم يطلبون الدنيا ويخالطون الناس حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة ؛ فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس .

الثالثة — ودلت الآية أيضا على أن التاريخ يكون بالليالي دون الأيام ؛ لقوله تعالى : « ثَلَاثِينَ لَيْلَةً » لأن الليالي أوائل الشهور . وبها كانت الصحابة رضي الله عنهم تخبر عن

(١) فصل : خرج . (٢) أي لم يبق فيه موضعا للاعتذار حيث أمهله طول هذه المدة ولم يعتذر.
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٣١ . (٤) راجع جـ ١٤ ص ٣٥١ . (٥) في ب : وإنذار بعد إنذار.
(٦) راجع جـ ١٦ ص ١٩٤ . (٧) كذا في جـ وك وهو الصواب . وفي ا و ب وز وى يشكرها.

الأيام ؛ حتى روى عنها أنها كانت تقول : صمنا خمسا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . والعجم تخالف فى ذلك ، فتحسب بالأيام لأن معولها على الشمس . ابن العربى : وحساب الشمس للمنافع، وحساب القمر للناسك ؛ ولهذا قال : « وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً » . فيقال : أرّخت تاريخا ، وورّخت توريخا ؛ لغتان .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ ﴾ المعنى : وقال موسى حين أراد المضى للمناجاة والمغيب فيها لأخيه هارون : كن خليفتى ؛ فدلّ على النيابة . وفى صحيح مسلم عن سعد بن أبى وقّاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلىّ حين خلّفه فى بعض مغازيه : " أما تَرْضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبىّ بعدى " . فاستدلّ بهذا الروافضُ والإمامية وسائر فِرَقِ الشّيعة على أن النبىّ صلى الله عليه وسلم استخلف عليا على جميع الأمة ؛ حتى كفر الصحابةَ الإماميةُ — قبحهم الله — لأنهم عندهم تركوا العمل الذى هو النص على استخلاف علىّ وآستخلفوا غيره بالاجتهاد منهم . ومنهم من كفّر عَلِيًّا إذ لم يقم بطلب حقه . وهؤلاء لا شك فى كفرهم وكفر من تبعهم على مقالتهم ، ولم يعلموا أن هذا آستخلاف فى حياةٍ كالوكالة التى تنقضى بعزل الموكّل أو بموته ، لا يقتضى أنه متمادٍ بعد وفاته ؛ فينْحَلّ على هذا ما تعلق به الإمامية وغيرهم . وقد آستخلف النبىّ صلى الله عليه وسلم على المدينة آبن أمّ مكتوم وغيره ، ولم يلزم من ذلك آستخلافه دائما بالآتفاق . على أنه قد كان هارون شُرِّك مع موسى فى أصل الرسالة ، فلا يكون لهم فيه على ما راموه دِلالة . والله الموفق للهداية .

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْلِحْ ﴾ أمرٌ بالإصلاح . قال آبن جريج : كان من الإصلاح أن يزجر السامرىّ ويغيّر عليه . وقيل : أى آرفق بهم ، وأصلح أمرهم ، وأصلح نفسك ؛ أى كن مصلحا . ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أى لا تسلك سبيل العاصين، ولا تكن عونا للظالمين .

Marfat.com

قوله تعالى : وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا ﴾ أى فى الوقت الموعود . ﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ أى أسمعه كلامه من غير واسطة . ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ سأل النظر إليه ، وآشتاق إلى رؤيته لما أسمعه كلامه . ف ﴿ قَالَ لَنْ تَرَانِى ﴾ أى فى الدنيا . ولا يجوز الحمل على أنه أراد : أرنى آية عظيمة لأنظر إلى قدرتك ؛ لأنه قال « إِلَيْكَ » و « قَالَ لَنْ تَرَانِى » . ولو سأل آية لأعطاه الله ما سأل ، كما أعطاه سائر الآيات . وقد كان لموسى عليه السلام فيها مَقْنع عن طلب آية أخرى ؛ فبطل هذا التأويل . ﴿ وَلَكِنِ ٱنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى ﴾ ضرب له مثالا مما هو أقوى من بِنْيته وأثبت . أى فإن ثبت الجبل وسكن فسوف ترانى ، وإن لم يسكن فإنك لا تطيق رؤيتى ، كما أن الجبل لا يطيق رؤيتى . وذكر القاضى عياض عن القاضى أبى بكر بن الطّيب ما معناه : أن موسى عليه السلام رأى الله فلذلك خرّ صعقا ، وأن الجبل رأى ربّه فصار دَكًّا بإدراك خلقه الله له . وآستنبط ذلك من قوله : « وَلَكِنِ ٱنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى » . ثم قال : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ وتجلّى معناه ظهر ؛ من قولك : جَلَوْت العروس أى أبرزتها . وجَلَوْت السيف أبرزته من الصّدإ ؛ جِلاءً فيهما . وتجلّى الشىء آنكشف . وقيل : تجلّى أمره وقدرته ؛ قاله قُطْرُب وغيره . وقراءة أهل المدينة وأهل البصرة « دَكًّا » ؛ يدل على صحتها « دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا »[1] وأن الجبل مذكّر . وقرأ[2] أهل الكوفة «دَكَّاءَ» أى جعله مثل أرض دكّاء ، وهى الناتئة لا تبلغ أن تكون جبلا . والمذكّر أدكّ[3] ، وجمع دكّاء دكّاوات

(١) راجع ج ٢٠ ص ٥٤ . (٢) فى ب و ج : قراءة .
(٣) الذى فى مفردات الراغب : أرض دكاء مسواة .

ودُكٌّ ، مثل حَمْراوات وحُمْرٌ . قال الكسائى : الدَّكُّ من الجبال : العِراض ، واحدها أَدَكُّ . غيره : والدَّكَّاوات جمع دَكَّاء : رَوَابٍ من طين ليست بالغِلاظ . والدَّكْداكُ كذلك من الرمل : ما التبد بالأرض فلم يرتفع . وناقة دَكَّاء لا سَنام لها . وفى التفسير : فساخ الجبل فى الأرض ، فهو يذهب فيها حتى الآن . وقال ابن عباس : جعله ترابا . عَطِيَّة العَوْفى : رملا هائلا . ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ أى مغشيًّا عليه ؛ عن ابن عباس والحسن وقتادة . وقيل: ميتا ؛ يقال : صَعِق الرجل فهو صَعِق . وصُعِق فهو مصعوق . وقال قتادة والكَلْبىّ : خَرّ موسى صعقا يومَ الخميس يوم عَرَفة ، وأعطى التوراة يوم الجمعة يوم النّحر . ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ قال مجاهد : من مسألة الرؤية فى الدنيا . وقيل : سأل من غير آستئذان ؛ فلذلك تاب . وقيل : قاله على جهة الإنابة إلى الله والخشوع له عند ظهور الآيات . وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية ؛ فإن الأنبياء معصومون . وأيضا عند أهل السنة والجماعة الرؤيةُ جائزةٌ . وعند المبتدعة سأل لأجل القوم ليبيّن لهم أنها غير جائزة ، وهذا لا يقتضى التوبة . فقيل : أى تبت إليك من قتل القبطى ؛ ذكره القُشَيْرِىّ . وقد مضى فى « الأنعام »(١) بيان أن الرؤية جائزة . قال علىّ بن مهدىّ الطبرىّ : لو كان سؤال موسى مستحيلا ما أقدم عليه مع معرفته بالله ؛ كما لم يجز أن يقول له يا ربّ ألك صاحبة وولد . وسيأتى فى « القيامة »(٢) مذهب المعتزلة والردّ عليهم ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : من قومى . وقيل : من بنى إسرائيل فى هذا العصر . وقيل : بأنك لا تُرى فى الدنيا لوعدك السابق فى ذلك . وفى الحديث الصحيح من حديث أبى هريرة وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تُخَيِّروا بين الأنبياء فإن الناس يَصعَقون يوم القيامة فأرفع رأسى فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أصعق فيمن صعق فأفاق قبلى أو حُوسب بصعقته الأولى " . أو قال " كفته صعقته الأولى " . وذكر أبو بكر بن أبى شيبة عن كعب قال : إن الله تبارك وتعالى قسّم

(١) راجع ص ٥٤ من هذا الجزء .   (٢) راجع جـ ١٩ ص ١٠٥ .

Marfat.com

كلامه ورؤيته بين محمد وموسى صلى الله وسلم عليهما ؛ فكلمه موسى مرتين ، ورآه محمد صلى الله عليه وسلم مرتين .

قوله تعالى : قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِى وَبِكَلَامِى﴾ الاصطفاء: الاجتباء ؛ أى فضلتك . ولم يقل على الخلق ؛ لأن من هـذا الاصطفاء أنه كلمه وقد كلم الملائكة ، وأرسله وأرسل غيره . فالمراد « عَلَى النَّاسِ » المرسل إليهم . وقرأ « بِرِسَالَتِى » على الإفراد نافع وابن كثير . والباقون بالجمع . والرسالة مصدر ، فيجوز إفرادها . ومن جمع على أنه أرسل بضروب من الرسالة فاختلفت أنواعها ، فجمع المصدر لاختلاف أنواعه ؛ كما قال : « إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ »[(1)] . فجمع لاختلاف أجناس الأصوات واختلاف المصوتين . ووحد فى قوله « لَصَـوْتُ » لما أراد به جنسا واحدا من الأصوات . ودل هذا على أن قومه لم يشاركه فى التكليم ولا واحد من السبعين ؛ كما بيناه فى « البقرة »[(2)] .

قوله تعالى : ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ إشارة إلى القناعة ؛ أى اقنع بما أعطيتك . ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى من المظهرين لإحسانى إليك وفضلى عليك ؛ يقال : دابة شكور إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تُعطى من العلف . والشاكر معرض للمزيد كما قال : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ »[(3)] . ويروى أن موسى عليه السلام مكث بعد أن كلمه الله تعالى أربعين ليلة لا يراه أحد إلا مات من نور الله عز وجل .

قوله تعالى : وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

---

(1) راجع جـ ١٤ ص ٧١ . (2) راجع جـ ١ ص ٤٠٣ . (3) راجع جـ ٩ ص ٣٤٢ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يريد التوراة . وروى فى الخبر أنه قبض عليه جبريلُ عليه السلام بجناحه فمر به فى العُلَا حتى أدناه حتى سَمِع صَرير القلم حين كتب الله له الألواح ؛ ذكره التِّرمِذيّ الحكيم . وقال مجاهـد : كانت الألواح من زُمُرُّدة خضراء . ابن جُبير : من ياقوتة حمراء . أبو العالية : من زَبَرْجَد . الحسن : من خشب ؛ نزلت من السماء . وقيل : من صخرة صمّاء، لَيّنها الله لموسى عليه السلام فقطعها بيده ثم شقّها بأصابعه ؛ فأطاعته كالحديد لداود . قال مقاتل : أى كتبنا [له][1] فى الألواح كنقش الخاتم . ربيع بن أنس : نزلت التوراة وهى سبعون وِقْر[2] بعير . وأضاف الكتابة إلى نفسه على جهة التشريف ؛ إذ هى مكتوبة بأمره كتبها جبريل بالقلم الذى كتب به الذّكر . واستُمِدّ من نهر النور . وقيل : هى كتابة أظهرها الله وخلقها فى الألواح . وأصل اللّوح : [لَوْح][3] (بفتح اللام) ؛ قال الله تعالى : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ[4] » . فكأن اللّوح تلوح فيه المعانى . ويروى أنها لوحان ، وجاء بالجمع لأن الأثنين جمع . ويقال : رجل عظيم الألواح إذا كان كبيرَ عظم اليدين والرجلين . ابن عباس : وتكسّرت الألواح حين ألقاها فرفعت إلا سُدُسَها . وقيل : بقى سُبُعُها ورفعت ستّة أسباعها . فكان فى الذى رفع تفصيل كل شىء ، وفى الذى بقِى الهدى والرحمة . وأسـند أبو نعيم الحافظ عن عمرو بن دِينـار قال : بلغنى أن موسى بن عِمران نبيّ الله صلى الله عليه وسلم صام أربعين ليـلة ؛ فلما ألقى الألواح تكسّرت فصام مثلَها فردّت إليه . ومعنى « مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » مما يحتاج إليه فى دينه من الأحكام وتبيين الحلال والحرام ؛ عن الثّوريّ وغيره . وقيـل : هو لفظ يُذكر تفخيما ولا يراد به التعميم ؛ تقول : دخلت السّوق فاشتريت كل شىء . وعند فلان كلّ شىء . و « تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ[5] » . « وأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ[6] » . وقد تقدّم . ﴿ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى لكل شىء أمِروا به من الأحكام؛ فإنه لم يكن عندهم اجتهاد، وإنما خصّ بذلك أمة محمد صلى الله عليه وسلم. ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ فى الكلام حذف ، أى فقلنا له : خذها بقوّة ؛ أى بجدّ ونشاط . نظيره

(١) من ب ، ع .　　(٢) الوقر (بكسر الواو) : الحمل الثقيل . وعم بعضهم به الثقيل والخفيف وما بينهما .
(٣) من ع . وهو الصواب . والذى فى ب ، ى ، ا ، ك : الاسم . وليست بشىء . بدليل الآية الشاهد .
(٤) راجع جـ ١٩ ص ٢٩٦ .　　(٥) راجع جـ ١٦ ص ٢٠٦ .　　(٦) راجع جـ ١٣ ص ١٨٤ .

Marfat.com

« خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ » وقد تقدّم[١] . ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ أى يعملوا بالأوامر ويتركوا النواهى ، ويتدبّروا الأمثال والمواعظ . نظيره « وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ[٢] » . وقال : « فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ[٢] » . والعفوُ أحسنُ من الاقتصاص . والصبر أحسن من الانتصار . وقيل : أحسنها الفرائض والنوافل ، وأدْوَنُها المباح . ﴿ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ قال الكلبى : « دَارَ الْفَاسِقِينَ » ما مَرّوا عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود، والقرون التى أهلكوا . وقيل : هى جهنم[٣] ؛ عن الحسن ومجاهد . أى فلتكن منكم على ذُكْر، فاحْذَرُوا أن تكونوا منها . وقيل : أراد بها مصر ؛ أى سأريكم ديار القِبط ومساكن فرعون خاليـة عنهم ؛ عن ابن جُبير . قتادة : المعنى سأريكم منازل الكفار التى سكنوها قبلكم من الجبابرة والعمالقة لتعتبروا بها ؛ يعنى الشأم . وهـذان القولان يدل عليهما « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ[٤] » الآية . « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ[٥] » الآية ، وقـد تقدّم . وقـرأ ابن عباس وقَسَامة بن زهير « سأورثكم » من ورّث . وهذا ظاهر . وقيل : الدار الهلاك، وجمعه أدوار . وذلك أن الله تعالى لمـا أغرق فرعون أوحى إلى البحر أن اقذف بأجسادهم إلى الساحل ، قال : ففعل ؛ فنظر إليهم بنو إسرائيل فأراهم هلاك الفاسقين .

قوله تعـالى : سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٧ . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٠ ، ص ٢٤٣ . (٣) فى جـ و ك : الذين . (٤) راجع ص ٢٧٢ من هذا الجزء . (٥) راجع جـ ١٣ ص ٢٤٧ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ قال قتادة : سأمنعهم فَهْمَ كتابي . وقاله سفيان بن عُيينة . وقيل : سأصرفهم عن الإيمان بها . وقيل : سأصرفهم عن نفعها ؛ وذلك مجازاة على تكبّرهم . نظيره : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ »(١) . والآيات على هذا المعجزاتُ أو الكتُب المنزَّلة . وقيل : خَلْقُ السموات والأرض . أى أصرفهم عن الاعتبار بها . ﴿ يَتَكَبَّرُونَ ﴾ يَرَوْن أنهم أفضل الخلق . وهذا ظنّ باطل ؛ فلهذا قال : ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ فَلَا يتبعون نَبِيًّا ولا يَصْغون إليه لتكبّرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ يعنى هؤلاء المتكبرون . أخبر عنهم أنهم يتركون طريق الرشاد ويتّبعون سبيل الغيّ والضلال ؛ أى الكفر يتخذوه دِينا . ثم علّل فقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أى ذلك الفعل الذى فعلته بهم بتكذيبهم . ﴿ وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ أى كانوا فى تركهم تدبّر الحق كالغافلين . ويحتمل أن يكونوا غافلين عما يُجازون به ؛ كما يقال : ما أغفل فلان عما يراد به ؛ وقرأ مالك بن دِينار «وإن يُروا» بضم الياء فى الحرفين ؛ أى يفعل ذلك بهم . وقرأ أهل المدينة وأهل البصرة « سَبِيلَ الرُّشْدِ » بضم الراء وإسكان الشين . وأهل الكوفة إلا عاصما « الرَّشَد » بفتح الراء والشين . قال أبو عبيد : فرّق أبو عمرو بين الرُّشْد والرَّشَد فقال : الرُّشْد فى الصلاح . والرَّشَد فى الدِّين . قال النحاس : « سيبويه يذهب إلى أن الرُّشْد والرَّشَد مثل السُّخْط والسَّخَط ، وكذا قال الكسائى . والصحيح عن أبى عمرو غيرُ ما قال أبو عبيد . قال إسماعيل بن إسحاق : حدّثنا نصر بن علىّ عن أبيه عن أبى عمرو بن العلاء قال : إذا كان الرُّشْد وسَط الآية فهو مسكَّن ، وإذا كان رأس الآية فهو محرَّك . قال النحاس : يعنى برأس الآية نحو « وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا »(٢) فهما عنده لغتان بمعنًى واحد ؛ إلا أنه فتح هذا لتتفق الآيات . ويقال : رَشَد يَرْشُد ، ورَشُد يَرْشُد . وحكى سيبويه رَشِد يَرْشَد . وحقيقة الرُّشد والرَّشَد فى اللغة أن يظفر الإنسان بما يريد ، وهو ضدّ الخيبة » .

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٨٢ .   (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٥٨ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى من بعد خروجه إلى الطُّور . ﴿ مِنْ حُلِيِّهِمْ ﴾ هذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما « من حِلِيِّهِمْ » بكسر الحاء . وقرأ يعقوب « من حَلْيِهِم » بفتح الحاء والتخفيف . قال النحاس : جمع حَلْي حُلِيٌّ وحِلِيٌّ ، مثل ثَدْى وثُدِىّ وثِدِىّ . والأصل «حلُوى» ثم أدغمت الواو فى الياء فانكسرت اللام لمجاورتها اليـاء ، وتكسر الحاء لكسرة اللام . وضمها على الأصل . ﴿ عِجْلًا ﴾ مفعول . ﴿ جَسَدًا ﴾ نعت أو بدل . ﴿ لَهُ خُوَارٌ ﴾ رفع بالابتداء . يقال : خار يَخُور خُوارًا إذا صاح . وكذلك جَار يَجْأَر جُؤارا . ويقال : خَوِر يَخْوَر خَوَرا إذا جَبُن وضَعُف . ورُوى فى قصص العجل : أن السَّامِرِىّ ، واسمه موسى بن ظفر، ينسب إلى قرية تدعى سَامِرة . وُلد عام قَتْل الأبناء ، وأخفته أمه فى كهف جبل فغذّاه جبريل فعرفه لذلك ؛ فأخذ حين عبر البحر على فرس وَدِيق[(١)] ليتقدّم فرعونَ فى البحر — قبضةً من أثر حافر الفرس . وهو معنى قوله «فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ[(٢)]» . وكان موسى وعد قومه ثلاثين يوما ، فلما أبطأ فى العشر الزائد ومضت ثلاثون ليلة قال لبنى إسرائيل وكان مطاعا فيهم : إن معكم حُلِيًّا من حُلِىّ آل فرعون ، وكان لهم عيد يتزينون فيه ويستعيرون من القبط الحُلِىّ فاستعاروا لذلك اليوم ؛ فلما أخرجهم الله من مصر وغرّق القبط بَقِىَ ذلك الحلىّ فى أيديهم ، فقال لهم السَّامِرِىّ : إنه حرام عليكم ، فهاتوا ما عندكم فنحرقه . وقيل : هذا الحلىّ ما أخذه بنو إسرائيل من قوم فرعون بعد الغرق ، وأن هارون قال لهم : إن الحُلِىّ غنيمة ، وهى لا تَحِلّ لكم ؛ فجمعها فى حُفْرة حَفَرها فأخذها السَّامِرِىّ . وقيل : استعاروا الحلىّ ليلةَ أرادوا الخروج من مصر ، وأوهموا القبط أن لهم عرسا أو مجتمعًا ،

(١) أى تشتهى الفحل . (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٣٨ .

وكان السّامِرِيّ سمع قولهم «ٱجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ»(١). وكانت تلك الآلهة على مثال البقر؛ فصاغ لهم عجلا جسدا، أى مُصْمَتًا؛ غير أنهم كانوا يسمعون منه خُوارا. وقيل: قلبه الله لحما ودما. وقيل: إنه لما ألقى تلك القبضة من التراب فى النار على الحُلِيّ صار عجلا له خُوار؛ فخار خَوْرَة واحدة ولم يُثَنّ ثم قال للقوم: «هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ»(٢). يقول: نَسِيَه ها هنا وذهب يطلبه فضلّ عنه — فتعالَوْا نعبد هـذا العجل. فقال الله لموسى وهو يناجيه: «فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ». فقال موسى: يارب، هذا السّامرىّ أخرج لهم عجلا من حليّهم، فمن جعل له جسـدا؟ — يريد اللحم والدم — ومن جعـل له خوارا؟ فقال الله سبحانه: أنا فقال: وعِزّتك وجلالك ما أضلّهم غيرُك. قال صـدقت يا حكيم الحكماء. وهو معنى قوله: «إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ»(٢). وقال القفّال: كان السامرىّ احتال بأن جوّف العجل، وكان قابل به الريح، حتى جاء من ذلك ما يُحاكى الخُوار، وأوهمهم أن ذلك إنما صار كذلك لما طرح فى الجسد من التراب الذى كان أخذه من تراب قوائم فرس جبريل. وهذا كلام فيه تهافت(٣)؛ قاله القُشَيرِىّ.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ بيّن أن المعبود يجب أن يتّصف بالكلام. ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ أى طريقا إلى حجـة. ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ أى إلهـا. ﴿وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ﴾ أى لأنفسهم فيما فعلوا من ٱتخاذه(٤). وقيل: وصاروا ظالمين أى مشركين لجعلهم العجل إلهاً.

قوله تعالى: وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ أى بعد عَوْدِ موسى من الميقات. يقال للنادم المتحيّر: قد سقط فى يده. قال الأخفش: يقال سُقط فى يده، وأُسقط. ومن قال: سَقَطَ فى أيديهم على بناء الفاعل؛ فالمعنى عنده: سَقط الندم؛ قاله الأزهرىّ والنحاس وغيرهما.

---

(١) راجع ص ٢٧٣ من هـذا الجزء. (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٣٢ وص ٢٩٤ من هذا الجزء.
(٣) فى ب و ى: متهافت. (٤) فى ز: اتخاذهم.

Marfat.com

والندم يكون فى القلب، ولكنه ذكر اليد لأنه يقال لمن تحصّل على شيء : قد حصل فى يده أمر كذا ؛ لأن مباشرة الأشياء فى الغالب باليد ؛ قال الله تعالى : « ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ »(١) . وأيضا : الندم و إن حَلّ فى القلب فأثره يظهر فى البـدن ؛ لأن النادم يعضّ يده ، و يضرب إحدى يديه على الأخرى ؛ قال الله تعالى : « فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا »(٢) أى ندم . « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ »(٣) أى من الندم . والنادم يضع ذقنه فى يده . وقيل : أصله من الاستئسار ، وهو أن يضرب الرجلُ الرجلَ أو يصرَعه فيرمىَ به من يديه إلى الأرض ليأسره أو يكتفه ؛ فالمرمى مسقوط به فى يد الساقط . ﴿ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ﴾(٤) أى انقلبوا بمعصية الله . ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أخذوا فى الإقرار بالعبودية والاستغفار . وقرأ حمزة والكسائىّ « لئن لم ترحمنا ربّنا وتغفر لنا » بالتاء على الخطاب . وفيه معنى الاستغاثة والتضرّع والابتهال فى السؤال والدعاء . « ربّنا » بالنصب على حذف النداء . وهو أيضا أبلغ فى الدعاء والخضوع . فقراءتهما أبلغ فى الاستكانة والتضرع ، فهى أولى .

قوله تعـالى : وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ لم ينصرف « غضبانَ » لأن مؤنثه غَضْبَى ، ولأن الألف والنون فيـه بمنزلة ألفى التأنيث فى قولك حمراء . وهـو نصب على الحال . و « أسِفًا » شديد الغضب . قال أبو الدّرداء : الأسف منزلةٌ وراء الغضب أشد من ذلك . وهو أسِف وأسِيف وأسْفان وأَسُوف . والأسيف أيضا الحزين . ابن عبـاس

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٥ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٤٠٩ . (٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٥ .
(٤) فى ب و ى : ابتلوا .

Marfat.com

والسُّدّى : رجع حزينا من صنيع قومه . وقال الطبري : أخبره الله عز وجل قبل رجوعه أنهم قد فُتِنوا بالعجل ؛ فلذلك رجع وهو غضبان . ابن العربي : وكان موسى عليه السلام من أعظم الناس غضبا ، لكنه كان سريع الفِيئة (١) ؛ فتلك بتلك . قال ابن القاسم : سمعت مالكا يقول : كان موسى عليه السلام إذا غَضِب طلع الدُّخَان من قَلَنْسُوَته ، ورفع شعرُ بدنه جُبَّته . وذلك أن الغضب جَمْرة تتوقّد فى القلب . ولأجله أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم مَن غَضب أن يضطجع . فإن لم يذهب غضبُه آغتسل ؛ فيُخْمِدها اضطجاعُه و يطفئها اغتساله . وسُرْعةُ غضبه كان سببا لصَكّه مَلَكَ الموت ففقأ عينَه . وقد تقدم فى « المائدة » (٢) ما للعلماء فى هذا . وقال الترمذيّ الحكيم : و إنما آستجاز موسى عليه السلام ذلك لأنه كليم الله ؛ كأنه رأى أن من آجترأ عليه أو مدّ إليه يدا بأذًى فقد عَظُم الخطب فيه . ألا ترى أنه آحتجّ عليه فقال : من أين تنزع روحى ؟ أمن فِمى وقد ناجيت به ربى ! أمْ مِن سمعى وقد سمعت به كلام رَبِّى ! أم مِن يدى وقد قبضت منه (٣) الألواح ! أم مِن قدمى وقد قمتُ بين يديه أكلمه بالطُّور ! أمْ مِن عينى وقد أشرق وجهى لنوره . فرجع إلى ربه مُفْحَمًا . وفى مُصَنَّف أبى داود عن أبى ذرّ قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا : " إذا غَضِب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب و إلا فلْيضطجع " . وروى أيضا عن أبى وائل القاصّ قال : دخلنا على عروة بن محمد السّعدىّ فكلمه رجل فأغضبه ؛ فقام ثم رجع وقد توضأ ، فقال : حدّثنى أبى عن جدّى عطيّة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ الغضب من الشيطان و إنّ الشيطان خُلق من النار و إنما تُطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ " .

قوله تعالى : ﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنْ بَعْدِى ﴾ ذَمٌّ منه لهم ؛ أى بئس العملُ عملتم (٤) بعدى . يقال : خَلَفه ؛ بما يكره . و يقال فى الخير أيضا . يقال منه : خَلَفَه بخير أو بشر فى أهله وقومه

---

(١) الفيئة (بفتح الفاء وكسرها) : الحالة من الرجوع عن الشيء الذى يكون قد لابسه الإنسان و باشره .

(٢) راجع جـ ٦ ص ١٢٢ . (٣) فى جـ : به . (٤) فى ب : عملكم .

Marfat.com

بعـد شخوصه . ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ أى سبقتموه . والعجلة : التقدّم بالشيء قبل وقته ، وهى مذمومة . والسرعة : عمل الشيء فى أول أوقاته ، وهى محمودة . قال يعقوب : يقال عجلت الشيء سبقته . وأعجلت الرجل استعجلته ، أى حملته على العجلة . ومعنى « أَمْرَ رَبِّكُمْ » أى ميعاد ربكم ، أى وعد أربعين ليلة . وقيل : أى تعجّلتم سخط ربكم . وقيل : أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمرٌ من ربكم .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ﴾ أى ممـا آعتراه من الغضب والأسف حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل، وعلى أخيه فى إهمـال أمرهم ؛ قاله سعيد ابن جُبير . ولهذا قيل : ليس الخبر كالمعاينة . ولا التفات لمـا رُوى عن قتادة إن صح عنه ، ولا يصح، أنّ إلقاءه الألواح إنمـا كان لمـا رأى فيها من فضيلة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولم يكن ذلك لأمّته . وهذا قول رديء لا ينبغى أن يضاف إلى موسى صلى الله عليه وسلم . وقد تقدّم عن آبن عباس رضى الله عنه أن الألواح تكسّرت ، وأنه رفع منها التفصيل وَبَقِيَ [فيها][1] الهدى والرحمة .

الثانيــــة — وقد آستدلّ بعض جُهّال المتصوّفة بهذا على جواز رَمْى الثياب إذا آشتد طربهم على المَغْنَى . ثم منهم من يرمى بها صحاحا، ومنهم من يَخْرقها ثم يرمى بها . قال : هؤلاء فى غيبــة فلا يُلامون ؛ فإن موسى عليه السلام لمـا غلب عليه الغم بعبادة قومه العجلَ، رمى الألواح فكسرها ، ولم يدر ما صنع . قال أبو الفرج الجَوْزِىّ : من يصحّح عن موسى عليه السلام أنه رماها رَمْى كاسر؟ والذى ذُكر فى القرآن ألقاها، فمن أين لنا أنها تكسرت؟ ثم لو قيل : تكسرت فمن أين لنا أنه قصد كسرها ؟ ثم لو صححنا ذلك عنه قلنا كان فى غيبة، حتى لو كان بين يديه بحر من نار لخاضه . ومن يصحّح لهؤلاء غيبتهم وهم يعرفون المغنى من غيره ، ويحذرون من بئر لو كانت عندهم . ثم كيف تقاس أحوال الأنبياء على أحوال هؤلاء السفهاء . وقد سئل ابن عقيل عن تواجدهم وتخريق ثيابهم فقال : خطأ وحرام ؛ وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المـال . فقال له قائل : فإنهم لا يعقلون ما يفعلون . فقال :

(١) من ب .

Marfat.com

إن حضروا هذه الأمكنة مع علمهم أن الطَّرب يغلِب عليهم فيزيل عقولهم أثموا بمـا أدخلوه على أنفسهم من التخريق وغيره مما أفسدوا، ولا يسقط عنهم خطاب الشرع؛ لأنهم مخاطبون قبل الحضور بتجنّب هذا الموضع الذى يُفضِى إلى ذلك . كما هم منهيُّون عن شرب المسكر، كذلك هذا الطَّرَب الذى يسمّيه أهل التصوف وَجْدًا إن صدقوا أن فيــه سُكْرَ طبع ، و إن كذبوا أفسدوا مع الصَّحْو، فلا سلامة فيه مع الحالين، وتجنّب مواضع الرِّيَب واجبٌ .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ أى بلحيته وذؤابته . وكان هارون أكبر من موسى — صلوات الله وسلامه عليهما — بثلاث سنين ، وأحبّ إلى بنى إسرائيل من موسى؛ لأنه كان ليّن الغضب .

وللعلماء فى أخذ موسى برأس أخيه أربع تأويلات :

الأوّل — أن ذلك كان متعارَفًا عندهم؛ كما كانت العرب تفعله من قبض الرجل على لحية أخيه وصاحبه إكراما وتعظيما، فلم يكن ذلك على طريق الإذلال .

الثـانى — أن ذلك إنمـا كان ليُسِرّ إليه نزول الألواح عليه ؛ لأنها نزلت عليه فى هذه المناجاة وأراد أن يُخفيَها عن بنى إسرائيل قبل التوراة . فقـال له هارون : لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى؛ لئلا يشتبه سِرارُه على بنى إسرائيل بإذلاله .

الثـالث — إنمـا فعل ذلك به لأنه وقع فى نفسه أنـ هارون مائلٌ مع بنى إسرائيل فيما فعلوه من أمر العجل . ومثل هذا لا يجوز على الأنبياء .

الرابع — ضَمّ إليه أخاه ليعلم ما لديه ؛ فكره ذلك هارون لئلا يظن بنو إسرائيل أنه أهانه ؛ فبيّن له أخوه أنهم استضعفوه، يعنى عبَدَة العجل، وكادوا يقتلونه أى قاربوا . فلما سمع عذره قال : رب ٱغفرلى ولأخى؛ أى ٱغفر لى ما كان من الغضب الذى ألقيت من أجله الألواح، ولأخى لأنه ظنّه مقصِّرا فى الإنكار عليهم و إن لم يقع منه تقصير ؛ أى ٱغفر لأخى إن قصّر . قال الحسن : عبد كلّهم العجل غير هارون، إذ لو كان ثَمَّ مؤمن غير موسى وهارون لَمـا ٱقتصر على قوله : رب ٱغفرلى ولأخى، ولدَعَا لذلك المؤمن أيضا . وقيل : استغفر لنفسه من فعله بأخيه،

فعل ذلك لمَوْجِدته عليه ؛ إذ لم يلحق به فيعرّفه ما جرى ليرجع فيتلافاهم ؛ ولهذا قال : « يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا . أَلَّا تَتَّبِعَنِ » (١) الآية . فبيّن هارون أنه إنما أقام خوفا على نفسه من القتل . فدلّت الآية على أن لمن خشى القتل على نفسه عند تغيير المنكر أن يَسْكُت . وقد تقدّم بيان هــذا فى « آل عمران » (٢) . ابنُ العربىّ : وفيهــا دليل على أن الغضب لا يغيّر الأحكام كما زعم بعض النــاس ؛ فإن موسى عليه السلام لم يغيّر غضبُه شــيئا من أفعاله ، بل آطردت على مجراها من إلقاء لوح وعتابِ أخ وصكّ مَلَك . المَهْدَوِىّ : لأن غضبه كان لله عز وجل ، وسكوته عن بنى إسرائيل خوفا أن يتحار بوا و يتفرّقوا .

قوله تعــالى : ﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ ﴾ وكان آبنَ أمّــه وأبيه . ولكنها كلمةُ لين وعطف . قال الزّجاج : قيل كان هارون أخا موسى لأمه لا لأبيه . وقُرئ بفتح الميم وكسرها ؛ فمن فتح جعل « آبن أم » آسما واحدا كخمسةَ عشر ؛ فصار كقولك : يا خمسة عشر أقبلوا . ومن كسر الميم جعله مضافا إلى ضمير المتكلم ثم حذف ياء الإضافة ؛ لأن مبنى النداء على الحــذف ، وأبقى الكسرة فى الميم لتدُلّ على الإضافة ؛ كقوله : « يَا عِبَادِ » (٣) . يدلّ عليه قراءة ابن السَّمَيْقَع « يابنَ أمّى » بإثبات الياء على الأصــل . وقال الكسائى والفرّاء وأبو عبيد : « يابن أمَّ » بالفتح ، تقديره يابن أمّاه . وقال البصريون : هذا القول خطأ ؛ لأن الألف خفيفة لا تحذف ، ولكن جعل الاسمين آسمــا واحدا . وقال الأخفش وأبو حاتم : « يابن أمِّ » بالكسر كما تقــول : ياغلام غلامِ أقبل ، وهى لغة شاذّة والقراءة بها بعيدة . و إنما هذا فيما يكون مضافا إليك ؛ فأما المضاف إلى مضاف إليك فالوجه أن تقول : ياغلام غلامى ، و يابن أخى . وجوّزوا يابن أمَّ ، يابن عمَّ ، لكثرتها فى الكلام . قال الزجاج والنحاس : ولكن لها وجه حسن جيّد ، يجعل الآبن مع الأم ومع العمّ آسما واحدا ؛ بمنزلة قولك : يا خمسة عشر أقبلوا ، فحذفت الياء كما حذفت من ياغلام ﴿ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى ﴾ استذلّونى وعدّونى ضعيفا . ﴿ وَكَادُوا ﴾ أى قار بوا . ﴿ يَقْتُلُونَنِى ﴾ بنونين ؛ لأنه فعل مستقبل . و يجــوز الإدغام فى غير القرآن (٤) . ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَاءَ ﴾

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٣٦ . (٢) راجع جـ ٤ ص ٤٧ . (٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٣ .
(٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٦ ففيه خلاف هذا .

Marfat.com

أى لا تَسُرّهم . والشماتة : السرور بما يصيب أخاك من المصائب فى الدِّين والدنيا . وهى محرمة مَنْهِىٌّ عنها . وفى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا تظهر الشماتةَ بأخيك فيعافيه الله ويبتليك " . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوّذ منها ويقول : " اللّهُمّ إنى أعوذ بك من سوء القضاء ودَرْك الشقاء وشماتة الأعداء " . أخرجه البخاريّ وغيره . وقال الشاعر :

إذا ما الدّهرُ جرّ على أُناسٍ * كَلاكِلَه أناخَ بآخرينا

فقل للشّامتين بنا أَفيقوا * سَيَلْقَى الشامتون كما لَقِينا

وقرأ مجاهد ومالك بن دِينار « تَشْمَت » بالنصب فى التاء وفتح الميم ، « الأعداءُ » بالرفع . والمعنى : لا تفعل بى ما تشمت من أجله الأعداء ، أى لا يكون ذلك منهم لفعل تفعله أنت بى . وعن مجاهد أيضا « تَشْمَتْ » بالفتح فيهما « الأعداءَ » بالنصب .قال ابن جِنّى : المعنى فلا تشمت بى أنت يارب . وجاز هذا كما قال : « اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ »[(١)] ونحوه . ثم عاد إلى المراد فأضمر فعلا نصب به الأعداء ؛ كأنه قال : ولا تشمت بى، الأعداءَ . قال أبو عبيد : وحكيت عن حُميد : « فلا تشمِت » بكسر الميم . قال النحاس : ولا وجه لهذه القراءة ؛ لأنه إن كان من شَمِت وجب أن يقول تَشْمَت . وإن كان من أشمت وجب أن يقول تشمت . وقوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ قال مجاهد : يعنى الذين عبدوا العجل . ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[(٢)] تقدّم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ الغضب من الله العقوبة . ﴿ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ لأنهم أُمِروا بقتل بعضهم بعضا . وقيل : الذّلة الجزية .

(١) راجع جـ ١ ص ٢٠٧ . (٢) راجع جـ ٣ ص ٤٣١ .

Marfat.com

وفيه بعد؛ لأن الجزية لم تؤخذ منهم و إنما أخذت من ذرياتهم . ثم قيل : هذا من تمام كلام موسى عليه السلام؛ أخبر الله عز وجل به عنه، وتم الكلام . ثم قال الله تعالى : « وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ » . وكان هذا القول من موسى عليه السلام قبل أن يتوب القوم بقتلهم أنفسهم، فإنهم لما تابوا وعفا الله عنهم بعد أن جرى القتل العظيم — كما تقدم بيانه في « البقرة»[1] — أخبرهم أن من مات منهم قتيلا فهو شهيد، ومن بقي حيا فهو مغفور له . وقيل : كان ثَمّ طائفة أُشْرِبوا في قلوبهم العجل، أي حُبّه، فلم يتوبوا؛ فهم المعنيون بقوله : « إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ » . وقيل : أراد من مات منهم قبل رجوع موسى من الميقات . وقيل : أراد أولادهم . وهو ما جرى على قُرَيظة والنضير؛ أي سينال أولادهم . والله أعلم . ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ أي مثل ما فعلنا بهؤلاء نفعل بالمفترين . وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه : ما من مُبْتَدِع إلا وتجد فوق رأسه ذِلّة، ثم قرأ « إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ — حتى قال — وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ » أي المبتدعين . وقيل : إن موسى أمر بذبح العجل، فجرى منه دَمٌ وبَرَدَه بالمِبْرد وألقاه مع الدم في اليَمّ وأمرهم بالشرب من ذلك الماء؛ فمن عبد ذلك العجل وأُشْرِبه[2] ظهر ذلك على أطراف فمه؛ فبذلك عرف عبدة العجل . وقد مضى هذا في « البقرة»[3] ثم أخبر الله تعالى أن الله يقبل توبة التائب من الشرك وغيره . وقد مضى هذا في غير موضع . ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أي الكفر والمعاصي . ﴿ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد فعلها . ﴿ وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد التوبة ﴿ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ ﴾ أي سكن . وكذلك قرأها معاوية ابن قُرّة « سكن » بالنون . وأصل السكوت السكون والإمساك؛ يقال : جرى الوادي ثلاثا

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٠١ .

(٢) في ك : وشربه . ولعل أصل العبارة : أشربه وظهر . الخ . راجع جـ ٢ ص ٣١ .

ثم سكن، أي أمسك عن الجَرْى . وقال عِكْرِمة : سكت موسى عن الغضب ؛ فهو من المقلوب . كقولك : أدخلت الأصبع فى الخاتم ، وأدخلت الخاتم فى الأصبع . وأدخلت القَلَنْسُوَة فى رأسى ، وأدخلت رأسى فى القلنسوة . ﴿ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ﴾ التى ألقاها . ﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ أى « هُدًى » من الضلالة ؛ « وَرَحْمَةٌ » أى من العذاب . والنسخ : نقل ما فى كتاب إلى كتاب آخر . ويقال للأصل الذى كتبتَ منه : نسخة ، وللفرع نسخة . فقيل : لما تكسّرت الألواح صام موسى أربعين يوما ، فرُدّت عليه وأعيدت له تلك الألواح فى لوحين ، ولم يفقد منها شيئا ؛ ذكره ابن عباس . قال القُشَيْرِىّ : فعلى هذا « وَفِى نُسْخَتِهَا » أى وفيما نسخ من الألواح المتكسّرة ونُقل إلى الألواح الجديدة هدًى ورحمةٌ . وقال عطاء : وفيما بقى منها . وذلك أنه لم يبق منها إلا سبعها ، وذهب ستّة أسباعها . ولكن لم يذهب من الحدود والأحكام شىء . وقيل : المعنى « وَفِى نُسْخَتِهَا » أى وفيما نُسخ له منها من اللوح المحفوظ هُدًى . وقيل : المعنى وفيما كتب له فيها هدى ورحمة ، فلا يحتاج إلى أصل ينقل عنه . وهذا كما يقال : انسخْ ما يقول فلان ، أى أثبته فى كتابك .

قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ أى يخافون . وفى اللام ثلاثة أقوال : قول الكوفيين هى زائدة . قال الكِسائىّ : حدّثنى من سمع الفرزدق يقول : نقدت لها مائة درهم ، بمعنى نقدتها . وقيل : هى لام أَجْل ؛ المعنى : والذين هم من أجل ربّهم يرهبون لا رياء ولا سمعة ؛ عن الأخفش . وقال محمد بن يزيد : هى متعلقة بمصدر ؛ المعنى : للذين هم رهبتهم لربهم . وقيل : لما تقدّم المفعول حسن دخول اللام ؛ كقوله : « إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ »[1] . فلما تقدّم المعمول وهو المفعول ضَعُف عملُ الفعل فصار بمنزلة ما لا يتعدّى .

قوله تعالى : وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا

---

(١) راجع جـ ٩ ص ١٩٨ .

Marfat.com

بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ﴾ مفعولان، أحدهما حذفت منه مِنْ ؛ وأنشد سيبويه :

مِنّا الذى ٱختير الرجالَ سَماحةً * وبرًّا إذا هَبّ الرِّياح الزَّعازِعُ[1]

وقال الراعى يمدح رجلا :

ٱخترتُك الناسَ إذ رَثّت خلائقُهم * وٱختلّ[2] مَن كان يُرجَى عنده السُّولُ

يريد : اخترتك من الناس . وأصل ٱختار ٱختير ؛ فلما تحركت الياء وقبلها فتحة قلبت ألفا، نحو قال وباع .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ أى ماتوا . والرجفة فى اللغـة الزلزلة الشديدة . ويروى أنهم زلزلوا حتى ماتوا .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْـلُ وَإِيَّاىَ ﴾ أى أمتّهم ؛ كما قال عز وجل : « إِنِ ٱمْرُؤٌ هَلَكَ[3] » . « وإِيَّاىَ » عطف . والمعنى : لو شئت أمتّنا من قبل أن نخرج إلى الميقات بمحضر بنى إسرائيل حتى لا يتهمونى . أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا يحيى ابن سعيد القَطّان عن سفيان عن أبى إسحاق عن عمارة بن عبد عن علىّ رضى الله عنه قال : ٱنطلق موسى وهارون صلى الله عليهما وٱنطلق شَبّر وشَبير — هما ٱبنا هارون — فانتهَوْا إلى جبل فيه سرير، فقام عليه هارون فقُبض روحه . فرجع موسى إلى قومه، فقالوا : أنت قتلته، حسدتنا[4] على لِينه وعلى خُلُقه ، أو كلمة نحوها ، الشك من سفيان، فقال : كيف أقتله ومعى ٱبناه! قال: فاختاروا من شئتم؛ فاختاروا من كل سِبْط عشرة . قال : فذلك قوله : « وَٱخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا » فانتهوا إليه؛ فقالوا : مَن قتلك ياهارون ؟ قال : ماقتلنى

(١) البيت للفرزدق؛ كما فى شواهد سيبويه . فى ديوانه : وخيرا . (٢) اختل : افتقر .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٢٨ . (٤) فى ك : حسدا .

Marfat.com

أحد ولكن الله توفانى . قالوا : يا موسى ، ما تُعْصَى[1] . فأخذتهم الرجفة ، فجعلوا يتردّدون[2] يمينا وشمالا ، ويقول : ﴿ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ . قال : فدعا الله فأحياهم وجعلهم أنبياء كلهم . وقيل : أخذتهم الرجفة لقولهم : أرنا الله جهرة ؛ كما قال الله تعالى : « وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ » . على ما تقدّم بيانه فى « البقرة »[3] . وقال ابن عباس : إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهَوْا مَن عبد العجل ، ولم يرضَوْا عبادته . وقيل : هؤلاء السبعون غيرُ من قالوا أرنا الله جهرة . وقال وهب : ما ماتوا ، ولكن أخذتهم الرجفة من الهيبة حتى كادت أن تَبِين مفاصلُهم ، وخاف موسى عليهم الموت . وقد تقدّم فى « البقرة » عن وهب أنهم ماتوا يوما وليلة . وقيل غير هذا فى معنى سبب أخذهم بالرجفة . والله أعلم بصحة ذلك .

ومقصود الاستفهام فى قوله : « أَتُهْلِكُنَا » الجَحْد ؛ أى لست تفعل ذلك . وهو كثير فى كلام العرب . وإذا كان نَفْيًا كان بمعنى الإيجاب ؛ كما قال :

ألستم خيرَ مَنْ ركب المطايا * وأنْدَى العالمين بُطونَ راحِ[4]

وقيل : معناه الدعاء والطلب ، أى لا تهلكنا ؛ وأضاف إلى نفسه . والمراد القوم الذين ماتوا من الرجفة . وقال المبرّد : المراد بالاستفهام استفهامُ استعظامٍ ؛ كأنه يقول : لا تهلكنا ، وقد علم موسى أن الله لا يهلك أحدا بذنب غيره ، ولكنه كقول عيسى : « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ »[5] . وقيل : المراد بالسفهاء السبعون . والمعنى : أتهلك بنى إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء فى قولهم « أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً » . « إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ » أى ما هذا إلا اختبارك وامتحانك . وأضاف الفتنة إلى الله عز وجل ولم يضفها إلى نفسه ؛ كما قال إبراهيم : « وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ »[6] فأضاف المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى . وقال يُوشع : « وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ »[7] . وإنما استفاد ذلك موسى عليه السلام من قوله تعالى له :

---

(١) فى ع : ما تقضى . (٢) ع : يتردون . (٣) راجع جـ ١ ص ٤٠٣ .
(٤) الراح : جمع راحة ، وهى الكف . (٥) راجع جـ ٦ ص ٣٧٧ .
(٦) راجع جـ ١٣ ص ١١٠ . (٧) راجع جـ ١١ ص ١٢ .

Marfat.com

« فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ »(١) . فلمـا رجع إلى قومه ورأى العجل منصو با للعبادة وله خُوار قال : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَـا ﴾ أى بالفتنة . ﴿ مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ وهذا رَدٌّ على القدرية .

قوله تعـالى : وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَـا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أى وفّقنا للأعمال الصالحة التى تكتب لنـا بها الحسنات . ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ أى جزاء عليها . ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى تُبْنا ؛ قاله مجاهد وأبو العالية وقَتادة . والهَوْد : التو بة ؛ وقد تقدّم فى « البقرة »(٢) .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾ أى المستحقّين له ، أى هذه الرجفة والصاعقة عذاب مِنّى أصيب به من أشاء . وقيل : المعنى « من أشاء » أى من أشاء أن أضلّه .

قوله : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ عموم ، أى لا نهاية لها ، أى من دخل فيها لم تعجز عنه . وقيـل : وسعت كل شىء من الخلق حتى إن البهيمة لها رحمـة وعطف على ولدها . قال بعض المفسرين : طمِـع فى هذه الآية كل شىء حتى إبليس ، فقال : أنا شىء ؛ فقال الله تعـالى : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ فقالت اليهود والنصارى : نحن متقون ؛ فقال الله تعالى : « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ » الآية . فخرجت الآية عن العموم ، والحمد لله . روى حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : كتبها الله عز وجل لهذه الأمة .

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٣٢ . (٢) راجع جـ ١ ص ٤٣٢ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — روى يحيى بن أبى كثير عن نَوْف البِكَالِىّ الحِمْيَرِىّ : لما ٱختار موسى قومه سبعين رجلا لميقات ربه قال الله تعالى لموسى : أن أجعل لكم الأرض مسجدا وطَهورا تصلون حيث أدركتكم الصلاة إلا عند مِرحاض أو حمّام أو قبر، وأجعل السكينة فى قلوبكم، وأجعلكم تقرءون التوراة عن ظهر قلوبكم ، يقرأها الرجل منكم والمرأة والحر والعبد والصغير والكبير . فقال ذلك موسى لقومه ، فقالوا : لا نريد أن نصلى إلا فى الكنائس، ولا نستطيع حمل السكينة فى قلوبنا، و نريد أن تكون كما كانت فى التابوت، ولا نستطيع أن نقرأ التوراة عن ظهر قلوبنا، ولا نريد أن نقرأها إلا نظرا . فقال الله تعالى : « فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ — إلى قوله — المُفْلِحُونَ » . فجعلها لهذه الأمة . فقال موسى : يارب ، ٱجعلنى نبيّهم . فقال : نبيّهم منهم . قال : رب ٱجعلنى منهم[1] . قال : إنك لن تدركهم . فقال موسى : يارب ، أتيتك بوفد بنى إسرائيل ، فجعلت وفادتنا لغيرنا . فأنزل الله عز وجل : « وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ[2] » . فرضى موسى . قال نَوْف : فٱحمدوا الله الذى جعل وفادة بنى إسرائيل لكم . وذكر أبو نعيم أيضا هذه القصة من حديث الأوزاعىّ قال : حدّثنا يحيى بن أبى عمرو السَّيْبانِىّ[3] قال حدثنى نَوْف البِكالِىّ[4] إذا افتتح موعظة قال : ألا تحمدون ربكم الذى حفظ غيبتكم وأخذ لكم بعد سهمكم وجعل وفادة القوم لكم . وذلك أن موسى عليه السلام

(١) فى ج : أخرنى حتى تجعلنى منهم . (٢) راجع ص ٣٠٢ من هذا الجزء .
(٣) السيبانى فى التقريب : بفتح المهملة وسكون التحتانية بعدها موحدة ، وسيبان بطن من حمير . ه التهذيب .
(٤) فى ج و ز و ك و ى : قال كان أبو عمرو البكالى إذا افتتح . الخ وأبو عمرو كنية نوف ولعله يحدث عن نفسه .

Marfat.com

وفد بنى إسرائيل فقال [الله][١] لهم : إنى قد جعلت لكم الأرض مسجدا حيثما صليتم فيها تقبلت صلاتكم إلا فى ثلاثة مواطن من صلّى فيهن لم أقبل صلاته المقبرة والحمام والمرحاض . قالوا : لا ، إلا فى الكنيسة . قال : وجعلت لكم التراب طهورا إذا لم تجدوا الماء . قالوا : لا ، إلا بالماء . قال : وجعلت لكم حيثما صلى الرجل فكان وحده تقبلت صلاته . قالوا : لا ، إلا فى جماعة .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ هذه الألفاظ كما ذكرنا أخرجت اليهود والنصارى من الاشـتراك الذى يظهر فى قوله : « فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ» وخلصت هـذه العِدة لأمة محمد صلى الله عليـه وسلم ؛ قاله ابن عباس وابن جبير وغيرهما . و« يَتَّبِعُونَ » يعنى فى شرعه ودينه وما جاء به . والرسول والنبيّ اسمان لمعنيين ؛ فإن الرسول أخصّ من النبيّ . وقدّم الرسول اهتماما بمعنى الرسالة ، وإلّا فمعنى النبوّة هو المتقدّم ؛ ولذلك ردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على البَرَاء حين قال : وبرسولك الذى أرسلت . فقال له : " قل آمنت بنبيك الذى أرسلت " خرّجه فى الصحيح . وأيضا فإن فى قوله : « وبرسولك الذى أرسلت » تكرير الرسالة ؛ وهو معنى واحد فيكون كالحشو الذى لا فائدة فيه . بخلاف قوله : « ونبيك الذى أرسلت » فإنهما لا تكرار فيهما . وعلى هذا فكل رسول نبيّ ، وليس كل نبيّ رسولا ؛ لأن الرسول والنبيّ قد اشتركا فى أمر عام وهو النبأ ، وافترقا فى أمر [خاصّ][٢] وهى الرسالة . فإذا قلت : محمد رسول من عند الله تضمّن ذلك أنه نبيّ ورسول الله . وكذلك غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ الْأُمِّيَّ ﴾ هو منسوب إلى الأمة الأمية ، التى هى على أصل ولادتها ، لم تتعلم الكتابة ولا قـراءتها ؛ قاله ابن عزيز[٣] . وقال ابن عباس رضى الله عنـه : كان نبيكم صلى الله عليه وسلم أميّا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب ؛ قال الله تعالى : « وَمَا كُنْتَ تَتْـلُو مِنْ قَبْـلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ[٤] » . وروى فى الصحيح عن ابن عمر عن النبيّ

(١) من ج و ز ى . (٢) من ك . (٣) من ا و ب و ج و ح و ز و ى . وابن عزيز أو عزير من علماء المالكية . وفى ل : ابن جرير . وفى ك : ابن العربى . (٤) راجع جـ ١٣ ص ٣٥١ .

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم قال : " إنّا أمّةٌ أمّيّة لا نكتب ولا نحسُب " . الحديثَ . وقيل : نسب النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى مكة أمّ القرى ؛ ذكره النحاس .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ روى البخاريّ قال : حدّثنا محمد بن سِنان قال حدّثنا فُلَيح قال حدّثنا هلال عن عطاء بن يَسار لقِيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت : أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة . فقال : أجَلْ ، والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : «يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا» (١) وحِرْزًا للأمّيين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكّل ، ليس بفظّ ولا غليظ ولا صَخّاب (٢) فى الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو و يغفر ، ولن يقبضه الله تعالى حتى يُقيم به المِلّة العَوْجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح بها أعْيُنًا عُمْيًا ، وآذانا صُمًّا ، وقلوبا غُلْفًا . [فى غير البخارى] (٣) قال عطاء : ثم لقِيت كَعْبًا فسألته عن ذلك فما ٱختلفا حرفا ؛ إلا أن كعبا قال بلغته : قلوبا غُلُوفيا وآذانا صموميا وأعينا عموميا . قال ابن عطية : وأظنّ هذا وهما أو عُجمة . وقد روى عن كعب أنه قالها : قلوبا غلوفا وآذانا صموما وأعينا عموميا . قال الطبرى : هى لغة حِميَرية . وزاد كعب فى صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : مولده بمكة ، وهجرته بطابة (٤) ، وملكه بالشأم ، وأمّته الحامدون ، يحمدون الله على كل حال وفى كل منزل ، يُوضِئون أطرافهم و يأْتَزِرون إلى أنصاف ساقهم ، رعاة الشمس ، يصلّون الصلوات حيثما أدركتهم ولو على ظهر الكُناسة (٥) ، صفّهم (٦) فى القتال مثل صفهم فى الصلاة . ثم قرأ « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ » (٧) .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ قال عطاء : « يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ » بخلع الأنداد ، ومكارم الأخلاق ، وصلة الأرحام . « وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ » عبادة الأصنام ، وقطع الأرحام .

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٩٩ . (٢) فى ع ، هـ : سخاب . بمهملة لغة فى صخاب . (٣) من ب وجـ و ك و ى . (٤) طابة : طيبة وهى المدينة المنورة . (٥) كذا فى كل الأصول . والكناسة : القمامة ومكانها . والصلاة لا تجوز على المزبلة . فتأمل . (٦) فى جـ . كصفهم . (٧) راجع جـ ١٨ ص ٨١ .

Marfat.com

السادســة — قوله تعالى : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ﴾ مذهب مالك أن الطيبات هى المحلّلات ؛ فكأنه وصفها بالطيب ؛ إذ هى لفظة تتضمن مدحا وتشريفا . وبحسب هذا نقول فى الخبائث : إنها المحرمات ؛ ولذلك قال ابن عباس : الخبائث هى لحم الخنزير والرِّبا وغيره . وعلى هذا حلّل مالك المتقذرات كالحيات والعقارب والخنافس ونحوها . ومذهب الشافعيّ رحمه الله أن الطيبات هى من جهة الطعم ؛ إلا أن اللفظة عنـده ليست على عمومها ؛ لأن عمومها بهذا الوجه من الطعم يقتضى تحليل الخمر والخنزير ؛ بل يراها مختصة فيما حالله الشرع . ويرى الخبائث لفظا عاما فى المحرمات بالشرع وفى المتقذرات ؛ فيحرم العقارب والخنافس والوزغ وما جرى هـذا المجرى . والناس على هـذين القولين ، وقد تقـدّم فى « البقرة »[1] هذا المعنى .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ الإصر : الثقل ؛ قاله مجاهد وقتادة وابن جبير . والإصر أيضا : العهد ؛ قاله ابن عباس والضحاك والحسن . وقد جمعت هذه الآية المعنيين ، فإن بنى إسرائيل قد كان أخذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثقال ؛ فوضع عنهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ذلك العهـد وثقل تلك الأعمال ؛ كغسل البول ، وتحليل الغنائم ، ومجالسة الحائض ومؤاكلتها ومضاجعتها ؛ فإنهم كانوا إذا أصاب ثوب أحدهم بول قرضه . وروى : جلد أحدهم . وإذا جمعوا الغنائم نزلت نار من السماء فأكلتها ، وإذا حاضت المرأة لم يقربوها ، إلى غير ذلك مما ثبت فى [الحديث[2]] الصحيح وغيره .

الثامنــة — قوله تعالى : ﴿ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ فالأغلال عبارة مستعارة لتلك الأثقال . ومن الأثقال ترك الاشتغال يوم السبت ؛ فإنه يروى أن موسى عليه السلام رأى يوم السبت رجلا يحمـل قصبا فضرب عنقه . هـذا قول جمهور المفسرين . ولم يكن فيهم الدية ، وإنمـا كان القصاص . وأمروا بقتل أنفسهم علامة لتوبتهم ، إلى غير ذلك . فشبه ذلك بالأغلال ، كما قال الشاعر :

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٠٧ . (٢) من ع .

فليس كعهــد الدّار يا أم مالك * ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

وعادَ الفــتى كالكَهْل ليس بقائل * سوى العدل شيئا فآستراح العواذل

فشبه حدود الإســلام وموانعه عن التخطّى إلى المحظورات بالســلاسل المحيطات بالرقاب . ومن هذا المعنى قول أبى أحمد بن جحش لأبى سفيان :

اِذهب بها اِذهب بهـا * طُوِّقتهـا طوقَ الحمـامه

أى لزمك عارها . يقال : طوّق فلان كذا إذا لزمه .

التاســعة — إن قيل : كيف عطف الأغلال وهو جمع على الإصر وهو مفرد ؛ فالجواب أن الإصر مصدر يقع على الكثرة . وقرأ ابن عامر « آصارهم » بالجمع ؛ مثل أعمالهم . فجمعه لآختلاف ضروب المآثم . والباقون بالتوحيد ؛ لأنه مصدر يقع على القليل والكثير من جنسه مع إفراد لفظه . وقد أجمعوا على التوحيد فى قوله : « وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا »[1] . وهكذا كلما يرد عليك من هــذا المعنى ؛ مثل « وَعَلَى سَمْعِهِمْ »[1] . « لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُــمْ »[2] . و « مِنْ طَرْفٍ خَــفِيٍّ »[3] . كله بمعنى الجمع .

العاشــرة — قوله تعـالى : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ ﴾ أى وقّروه ونصروه . قال الأخفش : وقرأ الجحدرى وعيسى « وعَزَرُوه » بالتخفيف . وكذا « وَعَزَرْتُمُوهُمْ »[4] . يقال : عَزَرَه يَعْزِره ويَعْزُره . و ﴿ النُّورَ ﴾ القرآن و « الفَلَاحُ » الظفَر بالمطلوب . وقد تقدّم [هذا][5] .

قوله تعـالى : قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٣٠ وجـ ١ ص ١٨٥ و ١٨١ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٧٧ .
(٣) راجع جـ ١٦ ص ٤٥ . (٤) راجع جـ ٦ ص ١١٤ . (٥) من جـ و ك .

Marfat.com

ذكر أن موسى بَشَّر به ، وأن عيسى بَشَّر به . ثم أمره أن يقول بنفسه " إنى رسول الله إليكم جميعا " . و ﴿ كَلِمَاتِهِ ﴾ كلمات الله تعالى كتبه من التوراة والإنجيل والقرآن .

قوله تعـالى : وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

أى يدعون الناس إلى الهداية . و ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ معناه فى الحكم . وفى التفسير : إن هؤلاء قوم من وراء الصين ، من وراء نهر الرمل ، يعبدون الله بالحق والعدل ، آمنوا بمحمد وتركوا السبت ، يستقبلون قبلتنا ، لا يصل إلينا منهم أحد ، ولا منا إليهم أحد . فروى أنه لمـا وقع الاختلاف بعد موسى كانت منهم أمة يهدون بالحق ، ولم يقـدروا أن يكونوا بين ظهرانى بنى إسرائيل حتى أخرجهم الله إلى ناحية من أرضـه فى عزلة من الخلق ، فصار لهم سَرَب فى الأرض ، فمشوا فيه سنة ونصف سنة حتى خرجوا وراء الصين ؛ فهم على الحق إلى الآن . وبين الناس وبينهم بحر لا يوصل إليهم بسببه . ذهب جبريل بالنبيّ صلى الله عليه وسلم إليهم ليلة المعراج فآمنوا به وعلّمهم سورا من القرآن وقال لهم : هل لكم مكيال وميزان ؟ قالوا : لا ، قال : فمن أين معاشكم ؟ قالوا : نخرج إلى البرية فنزرع ، فإذا حصدنا وضعناه هناك ، فإذا احتاج أحدنا إليه يأخذ حاجته . قال : فأين نساؤكم ؟ قالوا : فى ناحيـة منا ، فإذا احتاج أحدنا لزوجته صار إليها فى وقت الحاجة . قال : فيكذب أحدكم فى حديثه؟ قالوا : لو فعل ذلك أحدنا أخذته لظى ، إن النار تنزل فتحرقه . قال : فمـا بال بيوتكم مستوية ؟ قالوا لئلا يعلو بعضنا على بعض . قال : فمـا بال قبوركم على أبوابكم ؟ قالوا : لئلا نغفل عن ذكر الموت . ثم لمـا رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الدنيا ليلة الإسراء أنزل عليه : « وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ (١) » يعنى أمة محمد عليه السلام . يعلمه أن الذى أعطيت موسى فى قومه أعطيتك فى أمتك . وقيل : هم الذين آمنوا بنبينا محمد عليه السلام من أهل الكتاب . وقيل : هم قوم من بنى إسرائيل تمسكوا بشرع موسى قبل نسخه ، ولم يبدّلوا ولم يقتلوا الأنبياء .

---

(١) راجع ص ٣٢٩ من هذا الجزء . تأمل هذا مع كون الآية مدنية بالإجماع .

Marfat.com

قوله تعالى : وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ (١٦٢)

قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ عدّد نعمه على بنى إسرائيل ، وجعلهم أسباطا ليكون أمر كل سبط معروفا من جهة رئيسهم ؛ فيخف الأمر على موسى . وفى التنزيل : « وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا » وقد تقدّم (١) . وقوله : « ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ » والسبط مذكر لأن بعده « أُمَمًا » فذهب التأنيث إلى الأمم . ولو قال : آثنى عشر لتذكير السبط جاز ؛ عن الفراء . وقيل : أراد بالأسباط القبائل والفرق ؛ فلذلك أنث العدد . قال الشاعر :

وإن قريشا كلها عشرُ أبْطُن * وأنت بريء من قبائلها العَشر

فذهب بالبَطْن إلى القَبِيلة والفَصيلة ؛ فلذلك أنثها . والبَطن مذكّر ؛ كما أن الأسباط جمع مذكّر . الزجاج : المعنى قطعناهم آثنتى عشرة فرقة . ﴿ أَسْبَاطًا ﴾ بدل من آثنتى عشرة ﴿ أُمَمًا ﴾ نَعتٌ للأسباط . وروى المفضّل عن عاصم « وقَطَعناهم » مخفّفا . « أَسْبَاطًا » الأسباط فى ولد إسحاق بمنزلة القبائل فى ولد إسماعيل عليهما السلام . والأسباط مأخوذ من السبط وهو شجر تعلفه الإبل . وقد مضى فى « البقرة » (٢) مستوفى . وروى مَعْمَر عن همّام بن مُنَبِّه

(١) راجع ج ٦ ص ١١٢ . (٢) راجع ج ٢ ص ١٤٠ .

Marfat.com

عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله عز وجل : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ قالوا : حَبَّة في شعرة . وقيل لهم : « ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا » فدخلوا متورِّكين على أستاهِهم . ﴿ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ مرفوع ؛ لأنه فعل مستقبل وموضعه نصب . و « ما » بمعنى المصدر، أى بظلمهم . وقد مضى فى « البقرة » ما فى هذه الآية من المعانى والأحكام(١) . والحمد لله .

قوله تعالى : وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ ﴾ أى عن أهل القرية ؛ فعبّر عنهم بها لما كانت مستقرا لهم أو سبب اجتماعهم . نظيره « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا »(٢) . وقوله عليه السلام : "اهتز العرش لموت سعد بن معاذ" يعنى أهل العرش من الملائكة، فرحا واستبشارا(٣) بقدومه، رضى الله عنه . أى واسأل اليهود الذين هم جيرانك عن أخبار أسلافهم وما مسخ الله منهم قردة وخنازير . وهذا سؤال تقرير وتوبيخ . وكان ذلك علامة لصدق النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ إذ أطلعه الله على تلك الأمور من غير تعلم . وكانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه، لأنا من سِبط خليله إبراهيم، ومن سِبط إسرائيل وهم بكر الله(٤)، ومن سبط موسى كليم الله ؛ ومن سبط ولده عزير، فنحن من أولادهم . فقال الله عز وجل لنبيه : سلهم يا محمد عن القرية، أما عذبتهم بذنوبهم ؛ وذلك بتغيير فرع من فروع الشريعة .

(١) راجع جـ ١ ص ٤٠٩ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٤٥ . (٣) فى جـ و ك وع و هـ : استبشارا به أى بقدومه . (٤) زعمت اليهود أن الله عز وجل أوحى إلى إسرائيل أن ولدك بكرى من الولد . راجع جـ ٦ ص ١٢٠ .

Marfat.com

وآختُلف فى تعيين هذه القرية ؛ فقال ابن عباس وعِكرمة والسُّدِّى : هى أَيْلة . وعن آبن عباس أيضا أنها مَدْيَن بين أيلة والطور . الزُّهْرِى: طَبَرِيّة . قتادة وزيد بن أسلم: هى ساحل من سواحل الشأم، بين مَدْين وعَيْنون، يقال لها: مقناة . وكان اليهود يكتمون هذه القصة لما فيها من السُّبّة عليهم . ﴿ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾(١) أى كانت بقرب البحر، تقول : كنت بحضرة الدار أى بقربها . ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ ﴾ أى يصيدون الحيتان، وقد نُهوا عنه ؛ يقال : سَبَتَ اليهودُ ؛ تركوا العمل فى سبتهم . وسُبِت الرجل للمفعول سُباتا أخذه ذلك ؛ مثل الخرس . وأسبت سكن فلم يتحرك . والقوم صاروا فى السبت . واليهود دخلوا فى السبت، وهو اليوم المعروف. وهو من الراحة والقَطْع . ويجمع أَسْبُت وسُبُوت وأسبات . وفى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "من آحتجم يوم السبت فأصابه بَرَص فلا يلومنّ إلا نفسه" . قال علماؤنا : وذلك لأن الدم يجمد يوم السبت، فإذا مددته لتستخرجه لم يَجرِ وعاد بَرَصًا . وقراءة الجماعة «يَعْدُون» . وقرأ أبو نَهِيك «يُعِدّون» بضم الياء وكسر العين وشد الدال . الأولى من الاعتداء والثانية من الإعداد؛ أى يهيئون الآلة لأخذها . وقرأ ابن السَّمَيْقَع «فى الأسبات» على جمع السبت . ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ ﴾ وقرئ «أسباتهم» . ﴿ شُرَّعًا ﴾ أى شوارع ظاهرة على الماء كثيرة . وقال اللّيث : حيتان شُرّع رافعة رءوسها . وقيل : معناه أن حيتان البحر كانت ترِد يوم السبت عُنُقًا(٢) من البحر فتزاحم أَيْلة . ألهمها الله تعالى أنها لا تُصاد يوم السبت ؛ لنَهْيه تعالى اليهودَ عن صيدها . وقيل : إنها كانت تشرع على أبوابهم ؛ كالكِباش البيض رافعةً رءوسها . حكاه بعض المتأخرين ؛ فتعدّوا فأخذوها فى السبت ؛ قاله الحسن . وقيل : يوم الأحد ، وهو الأصح على ما يأتى بيانه . ﴿ وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ﴾ أى لا يفعلون السبت ؛ يقال : سبت يسبِت إذا عظّم السبت . وقرأ الحسن «يُسْبِتون» بضم الياء ، أى يدخلون فى السبت ؛ كما يقال : أجمعنا وأظهرنا وأشهرنا ، أى دخلنا فى الجمعة والظهر والشهر . ﴿ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ أى حيتانهم . ﴿ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ ﴾ أى نشدّد

(١) حاضرة البحر فيه معنى التعظيم . قال أبو حيان فى البحر : يحتمل أن يريد معنى الحاضرة على جهة التعظيم لها أى هى الحاضرة فى قرى البحر الخ . (٢) أى طوائف ؛ يقال : جاء القوم عنقا عنقا ، أى قطيعا قطيعا .

Marfat.com

عليهم في العبادة ونختبرهم . والكاف في موضع نصب . ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بفسقهم. وسئل الحسين بن الفضل : هل تجد في كتاب الله الحلال لا يأتيك إلا قوتا ، والحرام يأتيك جزفا جزفا؟ قال : نعم، في قصة داود وأيلة « إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ » . ورُوى في قصص هذه الآية أنها كانت في زمن داود عليه السلام، وأن إبليس أوحى إليهم فقال : إنما نُهيتم عن أخذها يوم السبت، فاتخذوا الحياض ؛ فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها ، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء، فيأخذونها يوم الأحد . وروى أشهب عن مالك قال . زعم ابن رُومان أنهم كانوا يأخذ الرجل خيطا ويضع فيه وَهَقة[1] ، وألقاها في ذنب الحوت، وفي الطرف الآخر من الخيط وتد وتركه كذلك إلى الأحد، ثم تطرق الناس حين رأوا من صنع هذا لا يُبتَلى حتى كثر صيد الحوت، ومُشى به في الأسواق، وأعلن الفسقة بصيده ؛ فقامت فرقة من بني إسرائيل ونهت، وجاهرت بالنهي واعتزلت . وقيل[2] : إن الناهين قالوا : لا نساكنكم ؛ فقسموا القرية بجدار . فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد ، فقالوا : إن للناس لشأنا ؛ فعلوا على الجدار فنظروا فإذا هم قِردة ؛ ففتحوا الباب ودخلوا عليهم ، فعرفت القردة أنسابها من الإنس ، ولم تعرف الإنس أنسابهم من القردة ؛ فجعلت القردة تأتي نسيبها من الإنس فتَشَمّ ثيابه وتبكي ؛ فيقول : ألم أنهكم ! فتقول برأسها نعم . قال قتادة : صار الشبان قردةً والشيوخ خنازير، فما نجا إلا الذين نَهَوْا وهلك سائرهم . فعلى هذا القول إن بني إسرائيل لم تفترق إلا فرقتين . ويكون المعنى في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي قال الفاعلون للواعظين حين وعظوهم : إذا علمتم أن الله مهلكنا فلم تعظوننا؟ فمسخهم الله قردة . ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي قال الواعظون: موعظتنا إياكم معذرةٌ [إلى ربكم][3] ؛ أي إنما يجب علينا أن نعظكم لعلكم تتقون . أسند

(١) الوهق (بالتحريك وتسكن الهاء) : الحبل في طرفيه أنشوطة يطرح في عنق الدابة والإنسان حتى تؤخذ . والأنشوطة : عقدة يسهل انحلالها ، إذا أخذ بأحد طرفيها انفتحت كعقدة التكة .

وقد وردت هذه الكلمة محرفة في الجزء الأول ص ٤٤٠ .

(٢) في ب وج وع وى : ويقال . (٣) من ب وج وك وى .

Marfat.com

هذا القول الطبري عن ابن الكلبي . وقال جمهور المفسرين : إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فرق، وهو الظاهر من الضمائر في الآية . فرقة عصت وصادت، وكانوا نحوًا من سبعين ألفا . وفرقة نهت واعتزلت ، وكانوا اثني عشر ألفا . وفرقة اعتزلت ولم تنه ولم تعص ، وأن هذه الطائفة قالت للناهية : لم تعظون قوما — تريد العاصية — الله مهلكهم أو معذبهم على غلبة الظن ، وما عهد من فعل الله تعالى حينئذ بالأمم العاصية . فقالت الناهية : موعظتنا معذرةٌ إلى الله لعلهم يتقون . ولو كانوا فرقتين لقالت الناهية للعاصية : ولعلكم تتقون، بالكاف . ثم اختلف بعد هذا؛ فقالت فرقة: إن الطائفة التي لم تنه ولم تعص هلكت مع العاصية عقوبةً على ترك النهي ؛ قاله ابن عباس . وقال أيضا : ما أدري ما فعل بهم ؛ وهو الظاهر من الآية . وقال عكرمة : قلت لابن عباس لما قال ما أدري ما فعل بهم : ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم فقالوا : لم تعظون قوما الله مهلكهم؟ فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا ؛ فكساني حلة . وهذا مذهب الحسن . ومما يدل على أنه إنما هلكت الفرقة العادية لا غير قوله : «وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا» . وقوله : «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ»(1) الآية . وقرأ عيسى وطلحة «معذرةً» بالنصب . ونصبه عند الكسائي من وجهين : أحدهما على المصدر . والثاني على تقدير فعلنا ذلك معذرة . وهي قراءة حفص عن عاصم . والباقون بالرفع : وهو الاختيار؛ لأنهم لم يريدوا أن يعتذروا اعتذارًا مستأنفًا من أمر ليموا عليه، ولكنهم قيل لهم : لم تعظون؟ فقالوا : موعظتنا معذرة . ولو قال رجل لرجل : معذرةً إلى الله وإليك من كذا، يريد اعتذارا؛ لنصب . هذا قول سيبويه . ودلت الآية على القول بسد الذرائع . وقد مضى في «البقرة» . ومضى فيها الكلام في الممسوخ هل ينسل أم لا، مبينا(1) . والحمد لله . ومضى في «آل عمران» و «المائدة»(2) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ومضى في «النساء»(3) اعتزال أهل الفساد ومجانبتهم ، وأن من جالسهم كان مثلهم ؛ فلا معنى للإعادة .

---

(1) راجع جـ ١ ص ٤٣٩ فما بعد .
(2) راجع جـ ٤ ص ٤٦ و جـ ٦ ص ٢٥٣
(3) راجع جـ ٥ ص ٤١٧ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾

والنسيان يطلق على الساهي . والعامد : التارك ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ ﴾ أى تركوه عن قصد ؛ ومنه « نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ »(١) . ومعنى ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ أى شديد . وفيه إحدى عشرة قراءة : الأولى — قراءة أبى عمرو وحمزة والكسائى « بئيس » على وزن فعيل . الثانية — قراءة أهل مكة « بِئيس » بكسر الباء والوزن واحد . والثالثة — قراءة أهل المدينة « بِيْس » الباء مكسورة بعـدها ياء ساكنة بعـدها سين مكسورة منوّنة ، وفيها(٢) قولان . قال الكسائى : الأصل فيه « بِيئِس » خفيفة الهمزة ، فالتقت ياءان فحذفت إحداهما وكسر أوله ؛ كما يقال : رَغِيف وشِهيد . وقيل : أراد « بِئْس » على وزن فِعل ؛ فكسر أوله وخفف الهمزة وحذف الكسرة ؛ كما يقـال : رَحِم ورِحْم . الرابعـة — قراءة الحسن ، الباء مكسورة بعدها همزة ساكنة بعدها سين مفتوحة . الخامسة — قرأ أبو عبد الرحمن المقرئ « بَئِس » الباء مفتوحة والهمزة مكسورة والسين مكسورة منوّنة . السادسة — قال يعقوب القارئ : وجاء عن بعض القراء « بعذاب بَئِسَ » البـاء مفتوحة والهمزة مكسورة والسين مفتوحة . السابعة — قراءة الأعمش « بَيْئِس » على وزن فيعل . وروى عنـه « بَيْأَس » على وزن فيعل . وروى عنه « بَئِّس » بباء مفتوحة وهمزة مشددة مكسورة ، والسين فى كله مكسورة منوّنة ، أعنى قراءة الأعمش . العاشرة — قراءة نصر بن عاصم(٣) « بعذاب بَيَّس » الباء مفتوحة والياء مشدّدة بغير همز . قال يعقوب القارئ : وجاء عن بعض القراء « بِئْيَس » الباء مكسورة بعدها همزة ساكنة بعدها ياء مفتوحة . فهذه إحدى عشرة قراءة ذكرها النحاس .

قال علىّ بن سليمان : العرب تقول جاء ببنات بِيْس أى بشىء ردىء . فمعنى « بعذابٍ بِيْس » بعذاب ردىء . وأما قراءة الحسن فزعم أبو حاتم أنه لا وجه لها ، قال : لأنه لا يقال مررت برجل بِئْس ، حتى يقال : بِئْس الرجل ، أو بِئْس رجلا . قال النحاس : وهذا مردود من

---

(١) راجع جـ ٨ ص ١٩٩ . (٢) فى جـ : وقيل فيها قولان . (٣) نصر بن عاصم الليثى البصرى .

Marfat.com

كلام أبي حاتم ؛ حكى النحويون : إن فعلت كذا وكذا فبِهَا ونِعْمَتْ . يريدون فبها ونعمت الخصلة . والتقدير على قراءة الحسن : بعذاب بئس العذاب .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ ﴾ أي فلما تجاوزوا في معصية الله . ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ يقال : خسأته خسأ ؛ أي باعدته وطردته . وقد تقدّم في « البقرة »[(1)] . ودلّ على أن المعاصي سبب[(2)] النقمة : وهذا لا خفاء به . فقيل : قال لهم ذلك بكلام يُسمع ، فكانوا كذلك . وقيل : المعنى كوّناهم قردة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾

أي أعلم أسلافهم أنهم إن غيّروا ولم يؤمنوا بالنبيّ الأميّ بعث الله عليهم من يعذّبهم . وقال أبو عليّ : « آذن » بالمد ، أعلم . و « أذّن » بالتشديد ، نادى . وقال قوم : آذن وأذّن بمعنى أعلم ؛ كما يقال : أيقن وتيقّن . قال زهير :

فقلتُ تَعَلَّمْ إن للصيد غرّةً * فإلّا تُضَيّعها فإنك قاتِلُهْ

وقال آخر :

تعلّم إن شر الناس حيّ * يُنَادَى في شِعارهم يَسار

أي اعلم[(3)] . ومعنى ﴿ يَسُومُهُمْ ﴾ يذيقهم ؛ وقد تقدّم في « البقرة »[(4)] . قيل : المراد بُخْتَنَصّر . وقيل : العرب . وقيل : أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وهو أظهر ؛ فإنهم الباقون إلى يوم القيامة . والله أعلم . قال ابن عباس : « سُوءَ الْعَذَابِ » هنا أخذ الجِزْية . فإن قيل : فقد

(١) راجع جـ ١ ص ٤٤٣ . (٢) في ع : تسبب .
(٣) قال أبو حيان في البحر : أجرى مجرى فعل القسم ولذلك أجيب بما يجاب به القسم . وكذا قال الزمخشري .
(٤) راجع جـ ١ ص ٣٨٤ .

Marfat.com

مُسخوا ، فكيف تؤخذ منهم الجزية ؟ فالجواب أنها تؤخذ من أبنائهم وأولادهم ، وهم أذل قوم ، وهم اليهود . وعن سعيد بن جبير « سُوءَ الْعَذَابِ » قال : الخَراج ، ولم يَجْبِ نبيّ قطّ الخَراج ، إلا موسى عليه السلام هو أوّل من وضع الخراج ، فجباه ثلاث عشرة سنة ، ثم أمسك ، ونبينا عليه السلام .

قوله تعالى : وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ أى فرّقناهم فى البلاد . أراد به تشتيت أمرهم ، فلم تُجمع لهم كلمة . ﴿ مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ ﴾ رفع على الابتداء . والمراد من آمن بمحمد عليه السلام ، ومن لم يبدّل منهم ومات قبل نسخ شرع موسى . أوهم الذين وراء الصين ؛ كما سبق . ﴿ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ منصوب على الظرف . قال النحاس : ولا نعلم أحدا رفعه . والمراد الكفار منهم . ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ ﴾ أى اختبرناهم . ﴿ بِالْحَسَنَاتِ ﴾ أى بالخصْب والعافية . ﴿ وَالسَّيِّئَاتِ ﴾ أى الجدب والشدائد . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ليرجعوا عن كفرهم .

قوله تعالى : فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ يعنى أولاد الذين فرّقهم فى الأرض . قال أبو حاتم : « الخَلْف » بسكون اللام : الأولاد ، الواحد والجميع فيه سواء . و « الخلَف » بفتح اللام البَدَل ، ولدًا كان أو غريبًا . وقال ابن الأعرابيّ : « الخَلَفُ » بالفتح الصالح ، وبالجزم الطالح . قال لَبِيد :

ذهبَ الذين يُعاشُ فى أكنافهم * وبقيتُ فى خَلْف كجِلْد الأجْرَبِ

Marfat.com

ومنه قيل للرديء من الكلام : خَلْف . ومنه المثل السائر « سَكَتَ أَلْفًا ونطق خَلْفًا » . فخلفٌ في الذّمّ بالإسكان ، وخَلَفٌ بالفتح في المدح . هذا هو المستعمل المشهور . قال صلى الله عليه وسلم : " يَحمِل هـذا العلم مِن كل خَلَف عدولُه " . وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر . قال حسان بن ثابت :

لنـا القَدَمُ الأولَى إليك وخَلْفُنا * لأوّلنـا فى طاعــة الله تابــع

وقال آخر .

إنا وجدنا خَلَفًا بئس الخَلَفْ * أغــلق عنا بابَه ثم حلف [(١)]

لا يُدخل البوابُ إلا مَن عرفْ * عبــدا إذا ما ناء بالحِمـل وَقَفْ

ويروى : خَضَف ؛ أى رَدَم [(٢)] . والمقصود من الآية الذّم . ﴿ وَرِثُوا الْكِتَابَ ﴾ قال المفسرون : هم اليهـود ، ورِثوا كتاب الله فقرءوه وعلموه ، وخالفوا حكمه وأتَوْا محارمه مع دراستهم له . فكان هـذا توبيخا لهم وتقريعا . ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا الْأَدْنَىٰ ﴾ ثم أخبر عنهم أنهـم يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدّة حرصهم ونهمهم . ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ وهم لا يتوبون . ودلّ على أنهم لا يتوبون .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْـلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ والعَرَض : متـاع الدنيا ، بفتح الراء . وبإسكانها ما كان من المـال سوى الدراهم والدنانير . والإشارة فى هذه الآية إلى الرِّشا والمكاسب الخبيثة . ثم ذمّهم باغترارهم فى قولهم « سَيُغْفَرُ لَنَا » وأنهم بحال إذا أمكنتهم ثانية ارتكبوها ، فقطعوا باغترارهم بالمغفرة وهم مصرّون ، وإنما يقول سيغفر لنا من أقلَع وندم .

قلت : وهذا الوصف الذى ذمّ الله تعالى به هؤلاء موجود فينا . أسند الدارميّ أبو محمد : حدّثنا محمد بن المبارك حدّثنا صدقة بن خالد عن ابن جابر عن شيخ يُكْنَى أبا عمرو عن معاذ

(١) كذا وردت هذه الأبيات فى الأصول . والذى فى اللسان « مادة خضف » .

إنا وجدنا خلفـا بئس الخلف * عبدا إذا ما ناء بالحمـل خضف

أغــــلق عنـا بابه ثم حلف * لا يدخل البوّاب إلا من عرف

(٢) الردم : الضراط .

Marfat.com

ابن جبل رضى الله عنه قال : سَيَبْلَى القرآنُ فى صدور أقوام كما يَبْلَى الثّوب فيتهافَت، يقرءونه لا يجدون له شهوة ولا لذة ، يَلْبَسون جلود الضأن على قلوب الذئاب، أعمالُهم طمع لا يخالطه خوف ، إن قصّروا قالوا سنبلغ ، وإن أساءوا قالوا سيغفر لنا ، إنا لا نشرك بالله شيئا .
وقيل : إن الضمير فى « يَأْتِهِـمْ » ليهود المدينة ؛ أى وإن يأت يهودَ يثْرِبَ الذين كانوا على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم عَرَضٌ مثلُه يأخذوه كما أخذه أسلافهم .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فيه مسألتان .

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَـاقُ الْكِتَابِ ﴾ يريد التوراة . وهـذا تشديد فى لزوم قول الحق فى الشرع والأحكام ، وألّا يميل الحكام بالرُّشَا إلى الباطل .

قلت : وهذا الذى لزم هؤلاء وأُخذ عليهم به الميثاق فى قول الحق ، لازم لنـا على لسان نبيّنا صلى الله عليـه وسلم وكتابِ ربِّنا، على ما تقدّم بيـانه فى « النساء »[1] . ولا خلاف فيـه فى جميع الشرائع ، والحمد لله .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ﴾ أى قرءوه ، وهم قريبُو عهد به . وقرأ أبو عبد الرحمن « وآدّارسوا ما فيه » فأدغم[2] التاء فى الدال . قال ٱبن زيد : كان يأتيهم المحِقّ برِشوة فيُخرجون له كتاب الله فيحكمون له به ، فإذا جاء المبطل أخذوا منه الرشوة وأخرجوا له كتابهم الذى كتبوه بأيديهم وحكموا له . وقال ٱبن عباس : «أَلَّا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ» وقد قالوا ٱلباطل فى غُفران ذنوبهم الذى يوجبونه ويقطعون به . وقال ابن زيد : يعنى فى الأحكام التى يحكمون بها ؛ كما ذكرنا . وقال بعض العلماء : إن معنى « وَدَرَسُوا مَا فِيهِ » أى محَوْه بترك العمـل به والفَهْم له ؛ من قولك : درستِ الريح الآثار ، إذا محَتْهـا . وخط دارس وربْع دارس ، إذا ٱمّحى وعفا أثره . وهـذا المعنى مواطئ — أى موافق — لقوله

(١) راجع جـ ٦ ص ٧ فما بعدها . (٢) كذا فى الأصول ، والعبارة كما فى البحر : أصله تدارسوا ، أى فأدغم .

تعالى : « نَبَـذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ »(١) الآية . وقوله : « فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ »(٢) حسب ما تقدّم بيانه فى « البقرة » .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ (١٧٠)

قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ ﴾ أى بالتوراة، أى بالعمل بهـا ؛ يقال : مسك به وتمسك به أى آستمسك به . وقرأ أبو العالية وعاصم فى رواية أبى بكر « يُمْسِكُونَ » بالتخفيف من أمسك يمسك . والقراءة الأولى أولى ؛ لأن فيها معنى التكرير والتكثير للتمسك بكتاب الله تعـالى وبدينه فبذلك يُمدحون . فالتمسك بكتاب الله والدِّين يحتاج إلى الملازمة والتكرير لفعل ذلك . وقال كعب بن زهير :

فـا تَمَسَّكُ بالعهد الذى زعمتْ * إلّا كما تُمسك المـاءَ الغرابيـلُ

فجاء به على طبعه يذم بكثرة نقض العهد .

قوله تعـالى : وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ ﴾ « نتقنا » معناه رفعنا . وقد تقدّم بيانه فى «البقرة»(٣) . ﴿ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ أى كأنه لارتفاعه سحابة تُظلّ . ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ أى بجِدّ . وقد مضى فى « البقرة »(٣) إلى آخر الآية .

قوله تعـالى : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ

(١) راجع جـ ٢ ص ٤١ . (٢) راجع جـ ٤ ص ٣٠٤ . (٣) راجع جـ ١ ص ٤٣٦ .

Marfat.com

ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾ أى وآذكر لهم مع ما سبق من تذكير المواثيق فى كتابهم ما أخذتُ من المواثيق من العباد يوم الذّر . وهذه آية مشكلة ، وقد تكلم العلماء فى تأويلها وأحكامها ، فنذكر ما ذكروه من ذلك حسب ما وقفنا عليه . فقال قوم : معنى الآية أن الله تعالى أخرج من ظهور بنى آدم بعضهم من بعض . قالوا : ومعنى « أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ » دلّهم بخلقه على توحيده ؛ لأن كل بالغ يعلم ضرورةً أن له ربًّا واحدا . ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ أى قال . فقام ذلك مقام الإشهاد عليهم، والإقرار منهم ؛ كما قال تعالى فى السموات والأرض : « قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ »(١) . ذهب إلى هذا القَفّالُ وأطنب . وقيل : إنه سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد ، وأنه جعل فيها من المَعْرفة ما علمت به ما خاطبها .

قلت : وفى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم غيرُ هذين القولين ، وأنه تعالى أخرج الأشباح فيها الأرواح من ظهر آدم عليه السلام . وروى مالك فى موطّئه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سئل عن هذه الآية « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ » فقال عمر رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل عنها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذُرِّية فقال خلقت

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٤ .

Marfat.com

هؤلاء للجنة و بعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فآستخرج منه ذُرِّية فقال خلقتُ هؤلاء للنار و بعمل أهل النار يعملون ". فقال رجل : ففيم العمل ؟ قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله إذا خلق العبد للجنة آستعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيُدخلَه الجنة و إذا خلق العبد للنار آستعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخلَه الله النار" . قال أبو عمر : هذا حديث منقطع الإسناد؛ لأن مسلم بن يسار لم يَلْق عُمر . وقال فيه يحيي بن مَعين : مسلم بن يسار لا يُعرف[1] ، بينه و بين عمر نعيمُ بن ربيعة ، ذكره النسائيّ ، ونعيم غير معروف بحمل العلم . لكن معنى هذا الحديث قد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة كثيرة من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعبدِ الله بن مسعود وعليّ بن أبي طالب وأبى هريرة رضى الله عنهم أجمعين وغيرهم . روى الترمذيّ وصححه عن أبي هريرة قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لمّا خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كلُّ نَسَمة هو خالقها [من ذُرِّيته][2] إلى يوم القيامة وجعل بين عَيْنَيْ كلِّ رجل منهم وَبِيصًا من نُور ثم عرضهم على آدم فقال يا ربّ مَن هؤلاء قال هؤلاء ذُرِّيتك فرأى رجلا منهم فأعجبه وَبِيصُ ما بين عينيه فقال أىْ ربِّ من هذا؟ فقال هذا رجل من آخر الأمم من ذُرِّيتك يقال له داود فقال ربِّ كم جعلت عُمْرَه قال ستّين سنة قال أىْ رَبِّ زِدْه من عُمْرِى أربعين سنةً فلما آنقضى عُمْر آدم عليه السلام جاءه مَلَك الموت فقال أو لم يبق من عُمْرى أربعون سنةً قال أوَ لم تُعْطِها آبنك داود قال فجَحَد آدم فجحدت ذرّيته ونسى آدم فنسيت ذرّيته" . فى غير التّرمذيّ : فحينئذ أمر بالكُتّاب والشهود . فى رواية : فرأى فيهم الضعيف والغنيّ والفقير [والذليل][3] والمبتلى والصحيح . فقال [له][3] آدم : يا ربّ ، ماهذا؟ ألا سوّيت بينهم ! قال : أردت أن أشكر . وروى عبد الله بن عمرو عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس" . وجعل الله لهم عقولا كنملة سليمان ، وأخذ عليهم العهد بأنه ربّهم وأن لا إله غيره . فأقرّوا بذلك وآلتزموه ، وأعلمهم

(١) فى ك : مسلم بن يسار يعرف . لعله الصواب . (٢) الزيادة عن صحيح الترمذى . (٣) من ج .

Marfat.com

بأنه سيبعث إليهم الرسـل ؛ فشهد بعضهم على بعض . قال أُبَيّ بن كعب : وأشهد عليهم السموات السّبع ، فليس من أحد يُولد إلى يوم القيامة إلا وقد أُخذ عليه العهد .

واختُلف فى الموضع الذى أخذ فيه الميثاق حين أخرجوا على أربعة أقوال ؛ فقال ابن عباس : ببطن نَعْمان ، وادٍ إلى جنب عَرفة . و[روى] (١) عنه أن ذلك بِرَهْبَا — أرض بالهند — الذى هبط فيه آدم عليه السلام . وقال يحيى بن سلام قال ابن عباس فى هذه الآية : أهبط الله آدم بالهند ، ثم مسح على ظهره فأخرج منه كلّ نَسَمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، ثم قال : « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا » قال يحيى قال الحسن : ثم أعادهم فى صُلب آدم عليه السلام . وقال الكلْبيّ : بين مكة والطائف . وقال السُّدّيّ : فى السماء الدنيا حين أهبط من الجنة إليها مسح على ظهره فأخرج من صفحة ظهره اليمنى ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ ، فقال لهم ادخلوا الجنة برحمتى . وأخرج من صفحة ظهره اليسرى ذرية سـوداء وقال لهم ادخلوا النـار ولا أبالى . قال ابن جُريج : خرجت كلّ نفس مخلوقة للجنة بيضاء ، وكل نفس مخلوقة للنار سوداء .

الثانيـــة — قال ابن العربيّ [رحمـه الله] (٢) : « فإن قيـل فكيف يجوز أن يُعـذّب الخلق وهم لم يُذنبوا ، أو يُعاقبهم على ما أراده منهم وكتبه عليهم وساقهم إليه ، قلنا : ومن أين يمتنع ذلك ، أعقلا أم شرعا ؟ فإن قيـل : لأن الرحيم الحكيم منا لا يجوز أن يفعـل ذلك . قلنـا : لأن فوقه آمرا يأمره وناهيًا ينهاه ، وربنا تعـالى لا يُسأل عما يفعل وهم يُسئلون ، ولا يجوز أن يقاس الخـلق بالخالق ، ولا تُحمل أفعـال العباد على أفعـال الإله ، وبالحقيقة الأفعال كلّها لله جل جلاله ، والخلقُ بأجمعهم له ، صَرّفهم كيف شاء ، وحَكَمَ بينهم بمـا أراد (٣) ، وهـذا الذى يجده الآدمى إنمـا تبعث عليه رقّة الجِبِلّة وشفقة الجنسيّة وحبُّ الثناء والمدح ؛ لمـا يتوقّع فى ذلك من الانتفاع ، والبارى تعالى متقدّس عن ذلك كله ، فلا يجوز أن يعتبر به » .

الثالثـــة — واختلف فى هذه الآية ، هل هى خاصّة أو عامّة . فقيل : الآية خاصة ؛ لأنه تعالى قال : ﴿ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ فخرج من هذا [الحديث] (٤) من كان من ولد آدم لصُلْبه . وقال جل وعز : ﴿ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ فخرج منها كلُّ مَن لم يكن له آباء مشركون .

(١) من ك . (٢) من ع . (٣) فى ى : وحكم فيهم كما أراد . (٤) من جـ .

Marfat.com

وقيل : هى مخصوصة فيمن أخذ عليه العهد على ألسنة الأنبياء . وقيل : بل هى عامة لجميع الناس ، لأن كلّ أحد يعلم أنه كان طفلا فغُذّى ورُبّى ، وأن له مُدَبِّرا وخالقا . فهذا معنى « وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ » . ومعنى ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ أى إن ذلك واجب عليهم . فلما آعترف الخلق لله سبحانه بأنه الربّ ثم ذَهلوا عنه ذكّرهم بأنبيائه وختم الذِّكر بأفضل أصفيائه لتقوم حجته عليهم فقال له : «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ»[(1)] . ثم مكّنه من الصيطرة ، وأتاه السلطنة ، ومكّن له دينه فى الأرض . قال الطَّرْطوشى[(2)] : إن هذا العهد يلزم البشر وإن كانوا لا يذكرونه فى هذه الحياة ، كما يلزم الطلاقُ مَن شُهد عليه به وقد نَسِيَه »

الرابعــة ــ وقد استدلّ بهذه الآية من قال : إن من مات صغيرا دخل الجنة لإقراره فى الميثاق الأوّل . ومن بلغ العقل لم يغنه الميثاق الأوّل . وهذا القائل يقول : أطفال المشركين فى الجنة ، وهو الصحيح فى الباب . وهذه المسألة اختُلف فيها لاختلاف الآثار ، والصحيح ما ذكرناه . وسيأتى الكلام فى هذا فى «الرُّوم»[(3)] إن شاء الله . وقد أتينا عليها فى كتاب «التذكرة» والحمــد لله .

الخامســة ــ قوله تعالى : ﴿ مِنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ بدل آشتمال من قوله « مِنْ بَنِى آدَمَ » . وألفاظ الآية تقتضى أن الأخذ إنمـا كان من بنى آدم ، وليس لآدم فى الآية ذكْر بحسب اللفظ . ووجه النظم على هذا : وإذ أخذ ربُّك من ظهور بنى آدم ذريتهم . وإنما لم يذكر ظهر آدم لأن المعـلوم أنهم كلّهم بَنُوه ، وأنهم أخرجوا يوم الميثاق من ظهره . فاستغنى عن ذكره لقوله : «مِنْ بَنِى آدَمَ» . ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ قرأ الكوفيون وابن كثير بالتوحيد وفتح التاء ، وهى تقع للواحد والجمع ؛ قال الله تعالى : « هَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً »[(4)] فهذا للواحد ؛ لأنه إنما سأل هبة ولد فَبُشّر بيحيى . وأجمع القراء على التوحيد فى قوله : « مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ »[(5)] ولا شىء أكثر من ذرية آدم . وقال : « وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ » فهذا للجمع . وقرأ الباقون

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٣٧ . (٢) فى ى « الطرطوسى » بالسين المهملة . (٣) راجع جـ ١٤ ص ٢٤ فما بعد . (٤) راجع جـ ٤ ص ٦٩ فما بعد . (٥) راجع جـ ١١ ص ١٢٠ .

Marfat.com

« ذُرِّيَّاتِهِمْ » بالجمع، لأن الذرية لما كانت تقع للواحد أتى بلفظ لا يقع للواحد بجمع لتخلص الكلمة إلى معناها المقصود إليه لا يُشركها فيه شيء وهو الجمع ؛ لأن ظهور بنى آدم استخرج منها ذريات كثيرة متناسبة، أعقاب بعد أعقاب، لا يعلم عددهم إلا الله ؛ بجمع لهذا المعنى.

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ بَلَى ﴾ تقدّم القول فيها فى « البقرة » عند قوله : « بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً » مستوفى، فتأمله هنـاك[1]. ﴿ أَنْ يَقُولُوا ﴾ « أَوْ يَقُولُوا » قرأ أبو عمرو باليـاء فيهما . ردّهما على لفظ الغَيْبة المتكرر قبله ، وهو قوله : « مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ » . وقوله : « قَالُوا بَلَى » أيضا لفظ غيبة . وكذا «وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ» « وَلَعَلَّهُمْ » لحمله على ما قبله وما بعده من لفظ الغيبة . وقرأ الباقون بالتاء فيهما ؛ ردّوه على لفظ الخطاب المتقدّم فى قوله : «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى» . ويكون «شَهِدْنَا» من قول الملائكة . لما قالوا «بَلَى» قالت الملائكة : «شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا» «أَوْ تَقُولُوا» أى لئلا تقولوا . وقيل : معنى ذلك أنهم لما قالوا بلى، فأقرّوا له بالربوبيّة ، قال الله تعالى للملائكة : اشهدوا قالوا شهدنا بإقراركم لئلا تقولوا أو تقولوا . وهذا قول مجاهد والضحاك والسُّدّى . وقال ابن عباس وأُبَىّ بن كعب : قوله « شَهِدْنَا » هو من قول بنى آدم » والمعنى : شهدنا أنك ربُّنا وإلهُنا ، وقال ابن عباس : أشهد بعضهم على بعض ؛ فالمعنى على هـذا قالوا بلى شهـد بعضنا على بعض ؛ فإذا كان ذلك من قول الملائكة فيوقف على « بلى » ولا يحسن الوقف عليـه إذا كان من قول بنى آدم ؛ لأن « أن » متعلقة بما قبل بلى، من قوله : «وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ » لئلا يقولوا . وقد روى مجاهد[2] عن ابن عمر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم ألست بربكم قالوا بلى قالت الملائكة شهدنا أن تقولوا" . أى شهدنا عليكم بالإقرار بالرُّبوبية لئلا تقولوا . فهذا يدلّ على التاء . قال مكّىّ : وهو الاختيار لصحة معناه ، ولأن الجماعة عليه . وقد قيل : إن قوله « شَهِدْنَا » من قول الله تعالى والملائكة . والمعنى : فشهدنا على إقراركم ؛ قاله أبو مالك ، وروى عن السُّدّى أيضا.

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١١ . (٢) فى ع : من مجاهد .

﴿ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى اقتدينا بهم . ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ بمعنى : لست تفعل هذا . ولا عذر للقلّد فى التوحيد .

قوله تعالى : وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾

ذكر أهل الكتاب قصة عرفوها فى التوراة . واختُلف فى تعيين الذى أوتى الآيات . فقال ابن مسعود وابن عباس : هو بَلْعَامُ بن باعُوراء، ويقال ناعم[(١)]، من بنى إسرائيل فى زمن موسى عليه السلام، وكان بحيث إذا نظر رأى العرش . وهو المعنِىّ بقوله « وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا » ولم يقل آية، وكان فى مجلسه اثنتا عشرة ألف محْبرة للتعلمين الذين يكتبون عنه . ثم صار بحيث [أنه][(٢)] كان أوّل من صنّف كتابا [فى][(٢)] أن « ليس للعالَم صانع » . قال مالك ابن دينار : بُعث بلعام بن باعوراء إلى مَلِك مَدْيَن ليدعوه إلى الإيمان؛ فأعطاه وأقطعه فاتبع دينه وترك دين موسى؛ ففيه نزلت هذه الآيات . [روى][(٢)] المُعْتَمِر بْنُ سليمان عن أبيه قال : كان بلعام قد أوتى النُّبوّة[(٣)]، وكان مجابَ الدّعوة، فلما أقبل موسى فى بنى إسرائيل يريد قتال الجبّارين، سأل الجبارون بلعام بن باعوراء أن يدعُوَ على موسى فقام ليدعُوَ فتحوّل لسانه بالدعاء على أصحابه . فقيل له فى ذلك؛ فقال : لا أقدر على أكثر مما تسمعون؛ واندلع لسانه على صدره . فقال : قد ذهَبَتْ منى الآن الدنيا والآخرة، فلم يبق إلا المكر والخديعة والحيلة، وسأمكر لكم، فإنى أرى أن تُخرجوا إليهم فتَيَاتكم فإن الله يبغض الزِّنَى، فإن وقعوا فيه هلكوا؛ ففعلوا فوقع بنو إسرائيل فى الزنى، فأرسل الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفا . وقد ذكر هذا الخبر بكماله الثّعلبىّ وغيره . ورُوى أن بلعام بن باعوراء دعا ألّا يدخل موسى مدينة الجبارين، فاستُجيب له وبق فى التِّيه[(٤)] . فقال موسى : يارِبّ، بأى ذنب بقينا فى التِّيه . فقال : بدعاء بلعام . قال : فكما سمعت دعاءه علىّ فاسمع دعائى عليه . فدعا موسى أن ينزع الله عنه الاسم الأعظم؛

---

(١) فى ع وز و ى : بلم . وفى ز : و يقال : باعم وفى ع : و يقال : بلعم . وفى ى : و يقال : باعر .

(٢) من ع .　　(٣) قوله : أوتى النبوّة . فليتأمل كيف يؤتى النبوّة ثم يضل فإنه مناف لعصمة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .　　(٤) التيه : موضع بين مصر والعقبة .

Marfat.com

فسلخه الله ما كان عليه ، وقال أبو حامد فى [آخر][1] كتاب منهاج العارفين له : وسمعت بعض العارفين يقول إن بعض الأنبياء سأل الله تعالى عن أمر بلعام وطرده بعد تلك الآيات والكرامات ، فقال الله تعالى : لم يشكرنى يوما من الأيام على ما أعطيته ، ولو شكرنى على ذلك مرّة لما سلبته . وقال عِكرمة : كان بلعام نبيًّا وأوتى كتابا . وقال مجاهد : إنه أوتى النبوّة ، فرشاه قومه على أن يسكت ففعل وتركهم على ماهم عليه . قال الماوردىّ : وهذا غير صحيح ؛ لأن الله تعالى لا يصطفى لنبوّته إلا من علم أنه لا يخرج عن طاعته إلى معصيته . وقال عبد الله ابن عمرو بن العاص وزيد بن أسلم : نزلت فى أميّة بن أبى الصّلْت الثقفىّ ، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولا فى ذلك الوقت ، وتمنّى أن يكون هو ذلك الرسول ، فلما أرسل الله محمدا صلى الله عليه وسلم حسده وكفر به . وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : "آمن شِعْره وكَفَر قلبه" . وقال سعيد بن المُسَيَّب : نزلت فى أبى عامر بن صَيْفى ، وكان يَلبس المُسُوح فى الجاهلية ، فكفَر بالنبىّ صلى الله عليه وسلم . وذلك أنه دخل على النبىّ صلى الله عليه وسلم المدينة فقال : يا محمد ، ما هذا الذى جئتَ به ؟ قال : "جئتُ بالحنيفيّة دينِ إبراهيم" . قال : فإنى عليها . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لستَ عليها لأنك أدخلت فيها ما ليس منها" . فقال أبو عامر : أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "نعم أمات الله الكاذب منا كذلك" وإنما قال هذا يُعرّض برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث خرج من مكة . فخرج أبو عامر إلى الشأم ومرّ إلى قَيْصر وكتب إلى المنافقين : آستعدّوا فإنى آتيكم من عند قَيْصر بجند لنُخرج محمدا من المدينة ؛ فمات بالشأم وحيدا . وفيه نزل : « وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ »[2] وسيأتى فى براءة[2] . وقال ابن عباس فى رواية : نزلت فى رجل كان له ثلاث دعوات يُستجاب له فيها ، وكانت له آمرأة يقال لها « البَسُوس » فكان له منها ولد ، فقالت : آجعل لى منها دعوة واحدة . فقال : لك واحدة ، فما تأمرين ؟ قالت : آدع الله أن يجعلنى أجمل آمرأة

(١) من جـ و ك و هـ و ز . (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٥٢ فما بعد .

فى بنى إسرائيل . فلما علمت أنه ليس فيهم مثلها رغبت عنه ؛ فدعا الله عليها أن يجعلها كلبة نباحة . فذهب فيها دعوتان؛ فجاء بنوها وقالوا : لا صبر لنا عن هذا ، وقد صارت أمنا كلبة يعيّرنا الناس بها ، فآدع الله أن يردّها كما كانت؛ فدعا فعادت إلى ما كانت ، وذهبت الدعوات فيها . والقول الأول أشهر وعليه الأكثر . قال عبادة بن الصامت : نزلت فى قريش ، آتاهم الله آياته التى أنزلها الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم فآنسلخوا منها ولم يقبلوها . قال آبن عباس : كان بلعام من مدينة الجبارين . وقيل : كان من اليمن . ﴿ فَٱنْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ أى من معرفة الله تعالى، أى نزع منه العلم الذى كان يعلمه . وفى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " العلم علمان علم فى القلب فذلك العلم النافع وعلم على اللسان فذلك حجة الله تعالى على آبن آدم " . فهذا مثل علم بَلْعَام وأشباهه ، نعوذ بالله منه ؛ ونسأله التوفيق والممات على التحقيق . والآنسلاخ : الخروج؛ يقال : آنسلخت الحية من جلدها أى خرجت منه . وقيل : هذا من المقلوب، أى انسلخت الآيات منه . ﴿ فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ أى لحق به ؛ يقال : أتبعت القوم أى لحقتهم . وقيل : نزلت فى اليهود والنصارى ، آنتظروا خروج محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به .

قوله تعالى : وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ ﴾ يريد بلعام . أى لو شئنا لأمتناه قبل أن يعصى فرفعناه الى الجنة . ﴿ بِهَا ﴾ أى بالعمل بها . ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أى ركن اليها ؛ عن

Marfat.com

ابن جبير والسدى . مجاهد : سكن إليها ؛ أى سكن إلى لذاتها . وأصل الإخلاد اللزوم .
يقال : أخلد فلان بالمكان إذا أقام به ولزمه . قال زهير :

لمن الديار غشيتَها بالغَـرْقَد * كالوَحْيِ فى حجرِ المسِيل المخلِد (١)

يعنى المقيم ؛ فكأن المعنى لزم لذّات الأرض فعبر عنهـا بالأرض ، لأن متاع الدنيا على وجه الأرض . ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ أى ما زيّن له الشيطان . وقيل : كان هواه مع الكفار . وقيل : اتبع رِضا زوجته ، وكانت رغِبت فى أموالٍ حتى حملته على الدعاء على موسى . ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْـهِ يَلْهَثْ ﴾ شرط وجوابه . وهو فى موضع الحال ، أى فمثـله كمثل الكلب لاهثا . والمعنى : أنه على شىء واحد لا يرْعَوِى عن المعصية ؛ كمثل الكلب الذى هذه حالته . فالمعنى : أنه لاهث على كل حال ، طردته أو لم تطرده . قال ابن جُرَيْج : الكلب منقطع الفؤاد ، لا فؤاد له ، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ؛ كذلك الذى يترك الهدى لا فؤاد له ، وإنمـا فؤاده منقطع . قال القتبى : كل شىء يلهث فإنمـا يلهث من إعياء أو عطش ، إلا الكلب فإنه يلهث فى حال الكَلال وحال الراحة وحال المرض وحال الصحة وحال الرى وحال العطش . فضربه الله مثـلا لمن كذب بآياته فقال : إن وعظته ضَلّ وإن تركته ضلّ ؛ فهو كالكلب إن تركته لهث وإن طردته لهث ؛ كقوله تعالى : « وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُـدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَـوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ » (٢) . قال الجوهرى : لهث الكلب (بالفتح) يلهَث لهْثا ولُهاثا (بالضم) إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش ؛ وكذلك الرجل إذا أعْيى . وقوله : « إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْـهِ يَلْهَثْ » لأنك إذا حملت على الكلب نبح وولّى هاربا ، وإذا تركته شدّ عليك ونبح ؛ فيتعب نفسه مقبلا عليك ومدبرا عنك فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عنـد العطش من إخراج اللسان . قال الترمذىّ الحكيم [فى نوادر الأصـول] (٣) :

(١) الغرقد : هو بقيـع الغرقد ، مقابر بالمدينـة . والذى فى ديوانه « بالقدفد » وهو الموضع الذى فيـه غلظ وارتفاع . الوحى : الكتاب ؛ وإنمـا جعله فى حجر المسيل لأنه أصلب . عن شرح الديوان .

(٢) راجع ص ٣٤١ من هذا الجزء . (٣) من ز .

إنما شبهه بالكلب من بين السباع لأن الكلب ميت الفؤاد ، وإنما لهاثه لموت فؤاده. وسائر السباع ليست كذلك فلذلك لا يلهثن . وإنما صار الكلب كذلك لأنه لما نزل آدم صلى الله عليه وسلم إلى الأرض شمِت به العدوّ، فذهب إلى السباع فأشلاهم[(١)] على آدم، فكان الكلب من أشدّهم طلبا . فنزل جبريل بالعصا التى صرفت إلى موسى بمَدْيَن وجعلها آية له إلى فرعون وملئه ، وجعل فيها سلطانا عظيما وكانت من آس الجنة ؛ فأعطاها آدم [صلى الله عليه وسلم يومئذ[(٢)]] ليطرد بها السباع عن نفسه ، وأمره فيما روى أن يدنو من الكلب ويضع يده على رأسه ، فمن ذلك ألِفه الكلب ومات الفؤاد منه لسلطان العصا ، وألِف به وبولده إلى يومنا هذا ، لوضع يده على رأسه ، وصار حارسا من حُرّاس ولده . وإذا أُدِّب وعلم الاصطياد تأدّب وقبل التعليم[(٣)] ؛ وذلك قوله : «تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ[(٤)]» . السّدى : كان بلعام بعد ذلك يلهث كما يلهث الكلب . وهذا المثل فى قول كثير من أهل العلم بالتأويل عامٌّ فى كل من أوتى القرآن فلم يعمل به . وقيل : هو فى كل منافق . والأوّل أصح . قال مجاهد فى قوله تعالى : «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ» أى إن تحمل عليه بدابتك أو برجلك يلهث أو تتركه يلهث. وكذلك من يقرأ الكتاب ولا يعمل بما فيه. وقال غيره : هذا شرُّ تمثيل؛ لأنه مثّله فى أنه قد غلَب عليه هواه حتى صار لا يملك لنفسه ضرّا ولا نفعا بكلب لاهث أبدا ، حُمِل عليه أو لم يحمل عليه ؛ فهو لا يملك لنفسه ترك اللّهثان . وقيل : من أخلاق الكلب الوقوع بمن لم يَخفه على جهة الابتداء بالجفاء ، ثم تهدأ طائشته بنيل كل عِوض[(٥)] خسيس . ضربه الله مثلا للذى قَبِل الرِّشوة فى الدِّين حتى انسلخ من آيات ربِّه . فدلّت الآية لمن تدبّرها على ألّا يغترّ أحد بعمله ولا بعلمه ؛ إذ لا يدرى بما يُختم له. ودلّت على منع أخذ الرشوة لإبطال حقّ أو تغييره . وقد مضى بيانه فى «المائدة[(٤)]» . ودلت أيضا على منع التقليد لعالم إلا بحجة يبينها ؛ لأن الله تعالى أخبر أنه أعطى هذا آياته فانسلخ منها فوجب أن يخاف مثل هذا على غيره وألّا يقبل منه إلا بحجة .

---

(١) الإشلاء : الإغراء .	(٢) من ع ، ى .	(٣) فى ع : وصار ذا أدب وعلم .
(٤) راجع جـ ٦ ص ٦٥ وص ١٨٣ .	(٥) فى ع : غرض .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ أى هو مثل جميع الكفار . وقوله : « سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ » يقال : ساء الشيءُ قَبُح ، فهو لازم ، وساء يسوء مَساءة ، فهو متعدٍّ ؛ أى قَبُح مَثَلُهم . وتقديره : ساء مَثَلًا مَثَلُ القوم؛ فحذف المضاف، ونصب «مثلا» على التمييز . قال الأخفش : فجُعِل المثلُ القومَ مجازا . والقوم مرفوع بالابتداء أو على إضمار مبتدأ . التقدير : ساء المثل مثلا هو مثل القوم . وقدّره أبو عليّ : ساء مثلاً مثلُ القوم . وقرأ عاصم الجَحْدَرِيّ والأعمش « ساء مثل القوم » رفع مثلا بساء .

قوله تعالى : مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

تقدّم معناه فى غير موضع . وهذه الآية تَرُدّ على القدرية كما سبق، وترُدّ على من قال إن الله تعالى هدى جميع المكلفين ولا يجوز أن يُضِلّ أحدا .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾

أخبر تعالى أنه خلق للنار أهلا بعدله ، ثم وصفهم فقال : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ أى بمنزلة من لا يفقه؛ لأنهم لا ينتفعون بها ، ولا يعقلون ثوابا ولا يخافون عقابا . و ﴿ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ الهدى . و ﴿ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ المواعظ . وليس الغرض نفى الإدراكات عن حواسهم جملة كما بيناه فى «البقرة»(1) . ﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ لأنهم لا يهتدون إلى ثواب، فهم كالأنعام؛ أى هِمّتهم الأكل والشرب، وهم أضل لأن الأنعام تُبصر منافعها

(1) راجع جـ ١ ص ٢١٤ .

Marfat.com

ومضارها وتتبع مالكها ، وهم بخلاف ذلك . وقال عطاء : الأنعام تعرف الله ، والكافر لا يعرفه . وقيل : الأنعام مطيعة لله تعالى ، والكافر غير مطيع . ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ أى تركوا التدبر وأعرضوا عن الجنة والنار .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ أمر بإخلاص العبادة لله ، ومجانبة المشركين والملحدين . قال مقاتل وغيره من المفسرين : نزلت الآية فى رجل من المسلمين ، كان يقول فى صلاته : يا رحمن يا رحيم . فقال رجل من مشركى مكة : أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربا واحدا ، فما بال هذا يدعو ربين اثنين ؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى « وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا » .

الثانية — جاء فى كتاب الترمذى وسنن ابن ماجه وغيرهما حديث عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم نص فيه [أن لله] تسعة وتسعين اسما ؛ فى أحدهما ماليس فى الآخر . وقد بينا ذلك فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) . قال ابن عطية — وذكر حديث الترمذى — وذلك الحديث ليس بالمتواتر ، وإن كان قد قال فيه أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صَفْوَان بن صالح ، وهو ثقة عند أهل الحديث . وإنما المتواتر منه قوله صلى الله عليه وسلم : " إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة " . ومعنى « أحصاها » عدها وحفظها . وقيل غير هذا مما بيناه فى كتابنا . وذكرنا هناك تصحيح حديث الترمذى ، وذكرنا من الأسماء ما اجتمع عليه وما اختُلف فيه مما وقفنا عليه فى كتب أئمتنا ما يُنَيِّف على مائتى اسم . وذكرنا قبل تعيينها فى مقدمة الكتاب اثنين وثلاثين فصلا فيما يتعلق بأحكامها ، فمن أراده وقف عليه هناك وفى غيره من الكتب الموضوعة فى هذا الباب . والله الموفق [للصواب][1] ، لا رب سواه .

(١) من ب و ك .

Marfat.com

الثالثـــة — واختلف العلماء من هذا الباب فى الاسم والمسمى، وقد ذكرنا ما للعلماء من ذلك فى (الكتاب الأسنى) . قال ابن الحصار : وفى هـــذه الآية وقوع الاسم على المسمى ووقوعه على التسمية، فقوله : «وَلِلَّهِ» وقع على المسمى، وقوله : «الْأَسْمَاءُ» وهو جمع اسم واقع على التسميات. يدل على صحة ما قلناه قوله : « فَادْعُوهُ بِهَا »، والهاء فى قوله : « فَادْعُوهُ » تعود على المسمى سبحانه وتعالى، فهو المدعو. والهاء فى قوله «بِهَا» تعود على الأسماء، وهى التسميات التى يدعى بها لا بغيرها. هذا الذى يقتضيه لسان العرب . ومثل ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لى خمسة أسماء أنا محمد وأحمد " الحديث (١) . وقد تقدم فى « البقرة » شىء من هذا . والذى يذهب إليه أهل الحق أن الاسم هو المسمى، أو صفة له تتعلق به، وأنه غير التسمية. قال ابن العربى عند كلامه على قوله تعالى « وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى » : فيه ثلاثة أقوال . قال بعض علمائنا : فى ذلك دليل على أن الاسم المسمى؛ لأنه لو كان غيره لوجب أن تكون الأسماء لغير الله تعالى . الثانى — قال آخرون : المراد به التسميات ؛ لأنه سبحانه واحد والأسماء جمع .

قلت — ذكر ابن عطية فى تفسيره أن الأسماء فى الآية بمعنى التسميات إجماعا من المتأولين لا يجوز غيره . وقال القاضى أبو بكر فى كتاب التمهيد: وتأويل قول النبى صلى الله عليه وسلم : " لله تسعة وتسعون اسما من أحصاها دخل الجنة " أى أن له تسعة وتسعين تسمية بلا خلاف، وهى عبارات عن كون الله تعالى على أوصاف شتى، منها ما يستحقه لنفسه ومنها ما يستحقه لصفة تتعلق به ، وأسماؤه العائدة إلى نفسه هى هو ، وما تعلق بصفة له فهى أسماء له . ومنها صفات لذاته . ومنها صفات أفعال . وهذا هو تأويل قوله تعالى: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا » أى التسميات الحسنى . الثالث — قال آخرون منهم : ولله الصفات .

الرابعـــة — سمى الله سبحانه أسماءه بالحسنى لأنها حسنة فى الأسماع والقلوب؛ فإنها تدل على توحيده وكرمه وجوده ورحمته وإفضاله . والحسنى مصدر وصف به . ويجوز أن يقدر

---

(١) راجع المسألة الثانية جـ ١ ص ٢٨١ .

Marfat.com

« الحُسْنَى » فُعْلَى، مؤنث الأحسن ؛ كالكبرى تأنيث الأكبر، والجمع الكُبَر والحُسَن . وعلى الأوّل أفرد كما أفرد وصف ما لا يعقل ؛ كما قال تعالى : « مَآرِبُ أُخْرَى »(١) و « يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ »(٢) .

الخامســة ــ قوله تعالى : ﴿ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ أى اطلبوا منه بأسمائه؛ فيطلب بكل اسم ما يليق به، تقول : يارحيم ارحمنى ، ياحكيم احكم لى، يارازق ارزقنى، ياهادى اهدنى ، يافتاح افتح لى ، ياتواب تب علىّ؛ هكذا . فإن دعوت باسم عام قلت : يا مالك ارحمنى ، ياعزيز احكم لى، يا لطيف ارزقنى . وإن دعوت بالأعم الأعظم فقلت : يا ألله؛ فهو متضمن لكل اسم . ولا تقول : يارزاق اهدنى؛ إلا أن تريد يارزاق ارزقنى الخير . قال ابن العربىّ : وهكذا ، رتب دعاءك تكن من المخلصين . وقد تقدّم فى « البقرة »(٣) شرائط الدعاء، وفى هذه السورة أيضا(٤) . والحمد لله .

السادســة ــ أدخل القاضى أبو بكر بن العربىّ عدّة من الأسماء فى أسمائه سبحانه ، مثل متم نوره، وخير الوارثين، وخير الماكرين ، ورابع ثلاثة، وسادس خمسة، والطيّب ، والمعلِّم ؛ وأمثال ذلك . قال ابن الحصار : واقتدى فى ذلك بابن بَرَّجان(٥) ، إذ ذكر فى الأسماء « النظيف » وغير ذلك مما لم يرد فى كتاب ولا سنة .

قلت : أمّا ما ذكر من قوله « مما لم يرد فى كتاب ولا سنة » فقد جاء فى صحيح مسلم «الطيب» . وخرج الترمذىّ « النظيف » . وخرج عن ابن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دعائه : رب أعنى ولا تعن علىّ وانصرنى ولا تنصر علىّ وامكر لى ولا تمكر علىّ" الحديث . وقال فيه : حديث حسن صحيح . فعلى هذا جائز أن يقال : ياخير الماكرين امكر لى ولا تمكر علىّ . والله أعلم . وقد ذكرنا « الطيب، والنظيف » فى كتابنا وغيره مما جاء

(١) راجع جـ ١١ ص ١٨٥ .   (٢) راجع جـ ١٤ ص ٢٦٤ .   (٣) راجع جـ ٢ ص ٣٠٨ .
(٤) راجع ص ٢٢٣ من هذا الجزء .   (٥) برجان (بفتح الباء وتشديد الراء) : هو عبد السلام ابن عبد الرحمن بن أبى الرجال محمد بن عبد الرحمن أبو الحكم اللخمى الأفريقى ثم الأشبيلى الصوفى المفسر. مات بمراكش سنة ٥٣٦ (عن طبقات المفسرين) .

Marfat.com

ذكره فى الأخبار ، وعن السلف الأخيار ، وما يجوز أن يسمى به ويدعى ، وما يجوز أن يسمى به ولا يدعى ، وما لا يجوز أن يسمى به ولا يدعى . حسب ما ذكره الشيخ أبو الحسن الأشعرىّ . وهناك يتبين لك ذلك إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : « يُلْحِدُونَ » الإلحاد : الميل وترك القصد ؛ يقال : ألحد الرجل فى الدين . وألحد إذا مال . ومنه اللحد فى القبر ؛ لأنه فى ناحيته . وقرئ « يَلْحَدُونَ » لغتان والإلحاد يكون بثلاثة أوجه : أحدها بالتغيير فيها كما فعله المشركون ، وذلك أنهم عدلوا بها عما هى عليه فسمّوا بها أوثانهم ؛ فاشتقوا اللاتَ من الله ، والعزى من العزيز ، ومَنَاةَ من المنان قاله ابن عباس وقتادة . الثانى — بالزيادة فيها . الثالث — بالنقصان منها ؛ كما يفعله الجهال الذين يخترعون أدعية يسمون فيها الله تعالى بغير أسمائه ، ويذكرونه بغير ما يذكر من أفعاله ؛ إلى غير ذلك مما لا يليق به . قال ابن العربىّ : « فَحَذَارِ منها ، ولا يدعونّ أحدكم إلا بما فى كتاب الله والكتب الخمسة ؛ وهى البخارىّ ومسلم والترمذىّ وأبو داود والنسائى . فهذه الكتب التى يدور الإسلام عليها ، وقد دخل فيها ما فى الموطأ الذى هو أصل التصانيف ، وذَرُوا ما سواها ، ولا يقولنّ أحدكم أختار دعاء كذا وكذا ؛ فإن الله قد اختار له وأرسل بذلك إلى الخلق رسوله صلى الله عليه وسلم .

الثانيــة — معنى الزيادة فى الأسماء التشبيه ، والنقصان التعطيل . فإن المشبهة وصفوه بما لم يأذن فيه ، والمعطلة سلبوه ما اتصف به ؛ ولذلك قال أهل الحق : إن ديننا طريق بين طريقين ، لا بتشبيه ولا بتعطيل . وسئل الشيخ أبو الحسن البوشَنْجِىّ عن التوحيد فقال : إثبات ذات غير مشبَّهة بالذوات ، ولا معطلة من الصفات . وقد قيل فى قوله تعالى : « وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ » معناه اتركوهم ولا تحاجّوهم ولا تعرضوا لهم . فالآية على هذا منسوخة بالقتال ؛ قاله ابن زيد . وقيل : معناه الوعيد ؛ كقوله تعالى : « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ

وَحِيدًا[1] » وقوله : « ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا[2] » . وهو الظاهر من الآية ؛ لقوله تعالى : « سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . والله أعلم .

قوله تعالى : وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

فى الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "هم هذه الأمة" . وروى أنه قال : "هذه لكم وقد أعطى الله قوم موسى مثلها" . وقرأ هذه الآية وقال : "إنّ من أمتى قوما على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم" . فدلّت الآية على أن الله عز وجل لا يُخْلِى الدنيا فى وقت من الأوقات من داعٍ يدعو إلى الحق .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾

أخبر تعالى عمن كذّب بآياته أنه سيستدرجهم . قال ابن عباس : هم أهل مكة . والاستدراج هو الأخذ بالتدريج، منزلة بعد منزلة . والدّرج : لَفُّ الشيء؛ يقال : أدرجته ودرّجته . ومنه أدرج الميت فى أكفانه . وقيل : هو من الدّرجة ؛ فالاستدراج أن يُحَطّ درجة بعد درجة إلى المقصود . قال الضحاك : كلما جدّدوا لنا معصية جدّدنا لهم نعمة . وقيل لذى النون : ما أقصى ما يخدع به العبد ؟ قال : بالألطاف والكرامات ؛ لذلك قال سبحانه : «سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ» نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر؛ وأنشدوا :

أحسنتَ ظنّك بالأيام إذ حَسُنَتْ * ولم تَخَفْ سوءَ ما يأتى به القَدَرُ
وسالمتْكَ اللّيالِى فاغتررْتَ بها * وعند صَفْوِ الليالى يحدثُ الكَدَرُ

قوله تعالى : وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ أى أطيل لهم المدة وأمهلهم وأؤخّر عقوبتهم. ﴿إِنَّ كَيْدِى﴾ أى مكرى . ﴿مَتِينٌ﴾ أى شديد قوىّ . وأصله من المتن، وهو اللحم الغليظ الذى عن جانب

(١) راجع جـ ١٩ ص ٦٩ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢

Marfat.com

الصلب . قيل : نزلت فى المستهزئين من قريش ، قتلهم الله فى ليلة واحدة بعد أن أمهلهم مدّة . نظيره « حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً »(١) . وقد تقدّم .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ أى فيما جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم . والوقف على « يتفكّروا » حسن . ثم قال : ﴿ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾ ردّ لقولهم : « يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ »(٢) . وقيل : نزلت بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام ليلة على الصّفا يدعو قريشا ، فخذا فخذا ؛ فيقول : "يا بنى فلان" . يحذرهم بأس الله وعقابه . فقال قائلهم : إن صاحبهم هذا لمجنون ، بات يصوّت حتى الصباح .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا ﴾ عجب من إعراضهم عن النظر فى آياته ؛ ليعرفوا كمال قدرته ، حسب ما بيناه فى سورة « البقرة »(٣) . والملكوت من أبنية المبالغة ، ومعناه الملك العظيم . وقد تقدّم(٤) .

الثانيــة — استدل بهذه الآية — وما كان مثلها من قوله تعالى : « قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ »(٥) وقوله تعالى : «أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا»(٦) وقوله :

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٢٥ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٤ . (٣) راجع جـ ١ ص ١٨٥
(٤) راجع ص ٢٣ من هذا الجزء . (٥) راجع جـ ٨ ص ٣٨٦ . (٦) راجع جـ ١٧ ص ٥ .

Marfat.com

« أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ »[1] الآية . وقوله : « وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ »[2] — من قال بوجوب النظر فى آياته والاعتبار بمخلوقاته . قالوا : وقـد ذم الله تعالى من لم ينظر ، وسلبهم الانتفاع بحواسهم فقال : « لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا » الآية .

وقد اختلف العلماء فى أوّل الواجبات ، هل هو النظر والاستدلال ، أو الإيمان الذى هو التصديق الحاصل فى القلب الذى ليس من شرط صحته المعرفة . فذهب القاضى وغيره إلى أن أوّل الواجبات النظر والاستدلال ؛ لأن الله تبارك وتعالى لا يعلم ضرورة ، و إنما يعلم بالنظر والاستدلال بالأدلة التى نصبها لمعرفته . و إلى هـذا ذهب البخارىّ رحمـه الله حيث بوّب فى كتابه (باب العلم قبل القول والعمل لقول الله عز وجل : « فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ »[3]) . قال القـاضى : من لم يكن عالمـا بالله فهو جاهل ، والجاهل به كافر . قال ابن رشـد فى مقدماته : وليس هذا بالبيّن ؛ لأن الإيمان يصح باليقين الذى قد يحصل لمن هداه الله بالتقليد ، و بأوّل وهلة من الاعتبار بما أرشد الله إلى الاعتبار به فى غير ما آية . قال : وقد استدل الباجىّ على من قال إن النظر والاستدلال أوّل الواجبات بإجماع المسلمين فى جميع الأعصار على تسمية العامة والمقـلّد مؤمنين . قال : فلو كان ما ذهبوا إليه صحيحا لمـا صح أن يسمى مؤمنا إلا من عنده علم بالنظر والاستدلال . قال : وأيضا فلو كان الإيمـان لا يصح إلا بعد النظر والاستدلال لجـاز للكفار إذا غاب عليهم المسلمون أن يقولوا لهم : لا يحل لكم قتلنا ؛ لأن من دينكم أن الإيمان لا يصح إلا بعد النظر والاستدلال فأخرونا حتى ننظر ونستدل . قال : وهذا يؤدّى إلى تركهم على كفرهم ، وألا يقتلوا حتى ينظروا ويستدلوا .

قلت : هذا هو الصحيح فى الباب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله و يؤمنوا بى و بما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله " . وترجم ابن المنذر فى كتاب الأشراف (ذكر صفة كمال الإيمان) أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن الكافر إذا قال : أشهد أن

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٣٤ . (٢) راجع جـ ١٧ ص ٤٠ . (٣) راجع جـ ١٦ ص ٢٤١ .

Marfat.com

لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وأن كل ما جاء به محمد حق، وأبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام — وهو بالغ صحيح العقل — أنه مسلم . وإن رجع بعـد ذلك وأظهر الكفر كان مرتدا يجب عليـه ما يجب على المرتدّ . وقال أبو حفص الزنجانيّ وكان شيخنا القاضى أبو جعفر أحمد بن محمد السِّمنانيّ يقول : أوّل الواجبات الإيمان بالله وبرسوله وبجميع ماجاء به، ثم النظر والاستدلال المؤدّيان إلى معرفة الله تعـالى؛ فيتقدم وجوب الإيمان بالله تعالى عنده على المعرفة بالله . قال : وهذا أقرب إلى الصواب وأرفق بالخلق؛ لأن أكثرهم لا يعرفون حقيقة المعرفة والنظر والاستدلال . فلو قلنا : إن أوّل الواجبات المعرفة بالله لأدّى إلى تكفير الجمّ الغفير والعدد الكثير، وألا يدخل الجنة إلا آحاد الناس، وذلك بعيد؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قطع بأن أكثر أهل الجنة أمّته، وأن أمم الأنبياء كلهم صف واحد وأمته ثمـانون صفا . وهذا بيّن لا إشكال فيه . والحمـد لله .

الثالثـــة — ذهب بعض المتأخرين والمتقـدّمين من المتكلمين إلى أن من لم يعرف الله تعـالى بالطرق التى طرقوها والأبحاث التى حرروها لم يصح إيمـانه وهو كافر؛ فيلزم على هذا تكفير أكثر المسلمين، وأوّل من يبدأ بتكفيره آباؤه وأسلافه وجيرانه . وقد أورد على بعضهم هذا فقال : لا تشنّع علىّ بكثرة أهل النار . أو كما قال —

قلت : وهذا القول لا يصدر إلا من جاهل بكتاب الله وسنة نبيه؛ لأنه ضيق رحمة الله الواسعة على شِرذِمة يسيرة من المتكلمين ، واقتحموا فى تكفير عامة المسلمين . أين هذا من قول الأعرابى الذى كشف عن فرجه ليبول، وانتهره أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم : اللهم ارحمنى ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لقد حجرت واسعا". خرّجه البخاريّ والترمذيّ وغيرهما من الأئمة . أترى هذا الأعرابيّ عرف الله بالدليل والبرهان والحجة والبيان ؟ وأن رحمته وسعت كل شىء ، وكم من مثله محكوم له بالإيمان . بل اكتفى صلى الله عليه وسلم من كثير ممن أسلم بالنطق بالشهادتين، وحتى إنه اكتفى بالإشارة فى ذلك . ألا تراه لما قال للسوداء : "أين الله" ؟ قالت : فى السماء . قال : "من أنا" ؟ قالت :

Marfat.com

أنت رسول الله . قال : "أعتقها فإنها مؤمنة" . ولم يكن هناك نظر ولا استدلال، بل حكم بإيمانهم من أول وهلة، و إن كان هناك عن النظر والمعرفة غفلة . والله أعلم .

الرابعــة — ولا يكون النظر أيضا والاعتبار فى الوجوه الحِسان من المُرد والنِّسوان . قال أبو الفرج الجوزى : قال أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبرى بلغنى عن هذه الطائفة التى تسمع السماع أنها تضيف إليه النظر إلى وجه الأمرد، وربمـا زينته بالحلى والمصبغات من الثياب ، وتزعم أنها تقصد به الازدياد فى الإيمـان بالنظر والاعتبار والاستدلال بالصنعة على الصانع . وهــذه النهاية فى متابعة الهوى ومخادعة العقل ومخالفة العلم . قال أبو الفرج : وقال الإمام أبو الوفاء بن عقيل لم يُحِلّ الله النظر إلا على صورةٍ لا ميل للنفس إليها، ولا حظ للهوى فيها ؛ بل عبرة لا يمازجها شهوة، ولا يقارنها لذّة . ولذلك ما بعث الله سبحانه آمرأة بالرسالة، ولا جعلها قاضيا ولا إماما ولا مؤذنا ؛ كل ذلك لأنها محل شهوة وفتنة . فمن قال : أنا أجد[1] من الصور المستحسنة عبرا كذّبناه . وكل من ميّز نفســه بطبيعة تخرجه عن طباعنا كذبناه، و إنما هذه خُدَع الشيطان للمدّعين . وقال بعض الحكماء : كل شيء فى العالم الكبير له نظير فى العالم الصغير، ولذلك قال تعالى : «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ»[2] وقال : «وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ»[3] . وقد بيّنا وجه التمثيل فى أول «الأنعام»[4] . فعلى العاقل أن ينظر إلى نفسه و يتفكر فى خلقه من حين كونه ماء دافقا إلى كونه خلقا سَوِيًّا، يُعان بالأغذية ويُربَّى بالرفق ، ويُحفظ باللّين حتى يكتسب القُوَى ويبلغ الأشدّ . و إذا هو قد قال : أنا ، وأنا ، ونسى حين أتى عليه حِين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا، وسيعود مقبورا؛ فياويحه إن كان محسورا . قال الله تعالى : «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ — إلى قوله — تُبْعَثُونَ»[5] فينظر أنه عبد مربوب مكلف، مخوّف بالعذاب إن قصر، مرتجيا[6] بالثواب إن آئتمر[7]، فيقبِل على عبادة مولاه [فإنه][8] وإن كان لا يراه يراه و [لا][7] يخشى الناس

(١) فى ى : آخذ		(٢) راجع جـ ٢٠ ص ١١٣ .		(٣) راجع جـ ١٧ ص ٤٠ .
(٤) راجع جـ ٦ ص ٣٨٧		(٥) راجع جـ ١٢ ص ١٠٨ .		(٦) من ز . وفى ى : فرحا .
(٧) فى ع : إن شمر .		(٨) من ع

Marfat.com

والله أحق أن يخشاه ، ولا يتكبر على أحد من عباد الله ؛ فإنه مؤلف من أقذار ، [مشحون من أوضار[١]] ، صائر إلى جنـة إن أطاع أو إلى نار . وقال ابن العربى : وكان شيوخنا يستحبون أن ينظر المرء فى الأبيات الحكمية التى جمعت هذه الأوصاف العلمية :

كيف يَزْهُو مَن رجيعه[٢] * أبـدَ الدهر ضجيعُــه
فهـــو منـــه وإليـــه * وأخـــوه ورضـــيعُه
وهو يدعـــوه إلى الحشّ * ـس بصُــغر[٣] فيطيعُـــه

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ معطوف على ما قبله ؛ أى وفيا خلق الله من الأشـياء . ﴿ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ أى وفى آجالهم التى عسى أن تكون قد قربت ؛ فهو فى موضع خفض معطوف على ما قبـله . وقال ابن عباس : أراد بٱقتراب الأجل يوم بَدْر ويوم أُحُد . ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْـدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى بأىّ قرآن غير ما جاء به محمد [صلى الله عليه وسلم[٤]] يصدقون . وقيل : الهـاء للأجل ، على معنى بأىّ حديث بعـد الأجل يؤمنون حين لا ينفع الإيمان ؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف .

قوله تعـالى : مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

بيّن أن إعراضهم لأن الله أضلّهم . وهـذا ردّ على القدرية . ﴿ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ ﴾ بالرفع على الأستئناف . وقرئ بالجزم حمـلا على موضع الفـاء وما بعدها . ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أى يتحيّرون . وقيل : يتردّدون . وقد مضى فى أوّل « البقرة[٥] » مستوفى .

---

(١) الزيادة عن ابن العربى . والأوضار : الأوساخ . (٢) الرجيع : العذرة والروث .
(٣) الحش (بالتثليث) : النخل المجتمع ، ويكنى به عن بيت الخلاء ؛ لما كان من عادتهم التغوط فى البساتين . فى ع : بعلم . وفى ى : بحصر . (٤) من ع . (٥) راجع جـ ١ ص ٢٠٩

Marfat.com

قوله تعالى : يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ « أَيَّانَ » سؤال عن الزمان؛ مثل متى . قال الراجز :

أيّان تقضي حاجتي أيّان * أما تَرى لِنجحِها أوانَا

وكانت اليهود تقول للنبي صلى الله عليه وسلم : إن كنت نبيا فأخبرنا عن الساعة متى تقوم . وروى أن المشركين قالوا ذلك لفرط الإنكار . و « مُرْسَاهَا » في موضع رفع بالابتداء عند سيبويه؛ والخبر « أيان » . وهو ظرف مبني على الفتح؛ بني لأن فيه معنى الاستفهام . و « مُرْسَاهَا » بضم الميم ؛ من أرساها الله؛ أي أثبتها ، أي متى مُثْبِتُها؛ أي متى وقوعها . وبفتح الميم من رَسَتْ ؛ أي ثبتت ووقفت ؛ ومنه « وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ »(١) . قال قتادة : أي ثابتات . ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ ابتداء وخبر ، أي لم يبينها لأحد ؛ حتى يكون العبد أبدا على حذر ﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾ أي لا يظهرها . ﴿لِوَقْتِهَا﴾ أي في وقتها ﴿إِلَّا هُوَ﴾ . والتجلية : إظهار الشيء؛ يقال : جلا لي فلان الخبر إذا أظهره وأوضحه . ومعنى ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خفي علمها على أهل السموات والأرض . وكل ما خفي علمه فهو ثقيل على الفؤاد. وقيل : كبر مجيئها على أهل السموات والأرض؛ عن الحسن وغيره . ابن جريج والسدي : عظم وصفها(٢) على أهل السموات والأرض . وقال قتادة وغيره : المعنى لا تطيقها السموات والأرض لعظمها : لأن السماء تنشق والنجوم تتناثر والبحار تنضب . وقيل : المعنى ثقلت المسألة عنها(٣) . ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ أي فجأة ، مصدر في موضع الحال ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٧٦ . (٢) في ع : وقعها . (٣) في ز : عنم .

Marfat.com

عَنْهَا ﴾ أى عالم بها كثير السؤال عنها . قال ابن فارس : الحَفِيّ العالِم بالشيء . والحَفِيّ : المستقصي فى السؤال . قال الأعشى :

فإن تسألي عنّي فيارب سائلٍ * حَفِيٍّ عن الأعشى به حيث أصعدا

يقال : أحفى فى المسألة وفى الطلب، فهو مُحفٍ وحفِي على التكثير، مثل مخصب وخصيب . قال محمد بن يزيد : المعنى يسألونك كأنك حفِي بالمسألة عنها، أى مُلِحٌّ . يذهب إلى أنه ليس فى الكلام تقديم وتأخير . وقال ابن عباس وغيره : هو على التقديم والتأخير، والمعنى : يسئلونك عنها كأنك حفِيّ بهم أى حفى ببرهم وفرِح بسؤالهم . وذلك لأنهم قالوا : بيننا وبينك قرابة فأسِرّ إلينا بوقت الساعة . ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ليس هذا تكريرا، ولكن أحد العلمين لوقوعها والآخر لكنهها .

قوله تعالى : قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ أى لا أملك أن أجلب إلى نفسى خيرا ولا أدفع عنها شرا؛ فكيف أملك عِلم الساعة . وقيل : لا أملك لنفسى الهدى والضلال . ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ فى موضع نصب بالاستثناء . والمعنى : إلا ما شاء الله أن يملكنى ويمكننى منه . وأنشد سيبويه :

* مهما شاء بالناس يفعل[(١)] *

﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ﴾ المعنى لو كنت أعلم ما يريد الله عز وجل منى من قبل أن يعرِّفنيه لفعلته . وقيل : لو كنت أعلم متى يكون لى النصر فى الحرب لقاتلت فلم أغلب . وقال ابن عباس : لو كنت أعلم سنة الجدب لهيأت لها فى زمن الخصب ما يكفينى . وقيل : المعنى لو كنت أعلم التجارة التى تنفق لاشتريتها وقت كسادها . وقيل :

(١) عجز بيت للأسود بن يعفر : والبيت : ألا هل لهذا الدهر من متعلل * عن الناس مهما ... الخ .

المعنى لو كنت أعلم متى أموت لاستكثرت من العمل الصالح ؛ عن الحسن وابن جُريج . وقيل : المعنى لو كنت أعلم الغيب لأَجَبْتُ عن كل ما أُسألُ عنه . وكله مراد ، والله أعلم . ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ هذا استئناف كلام ، أى ليس بى جنون ؛ لأنهم نسبوه إلى الجنون . وقيل : هو متصل ، والمعنى لو علمتُ الغيب لما مسّنى سوءٌ ولحذِرت ، [ودل على هذا قوله تعالى : إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١)] .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ قال جمهور المفسرين : المراد بالنفس الواحدة آدم . ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ يعنى حوّاء . ﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ ليأنس بها ويطمئن ، وكان هذا كله فى الجنة . ثم ابتدأ بحالة أخرى هى فى الدنيا بعد هبوطهما فقال : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ كناية عن الوِقاع . ﴿ حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا ﴾ كلّ ما كان فى بطن أو على رأس شجرة فهو حَمْلٌ بالفتح . وإذا كان على ظهر أو على رأس فهو حِمل بالكسر . وقد حكى يعقوب فى حِمل النخلة الكَسْر . وقال أبو سعيد السيرافىّ : يقال فى حمل المرأة حَمل وحِمل ، يشبه مرّة لاستبطانه بحَمل المرأة ، ومرّة لبُروزه وظهوره بحِمل الدّابّة . والحَمْل أيضا مصدر حَمَل عليه يحمِل حَملا إذا صال . ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ يعنى المنىّ ؛ أى استمرت بذلك الحمل الخفيف . يقول : تقوم وتقعد وتَقلّب ، ولا تكترث بحمله إلى أن ثقل ؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما . وقيل :

(١) من ج . وفى ب : إن أنا إلا نذير وبشير .

Marfat.com

المعـنى فاستمر بها الحمل، فهو من المقلوب؛ كما تقول : أدخلت القَلَنْسوة فى رأسى . وقـرأ عبد الله بن عمر « فَمَارَتْ بِهِ » بالألف والتخفيف؛ من مَار يَمُور إذا ذهب وجاء وتصرّف . وقـرأ ابن عباس ويحيى بن يَعْمَر « فَمَرَتْ بِهِ » خفيفة من المِرْيَة، أى شكّت فيما أصابها؛ هل هو حمل أو مرض ، أو نحو ذلك .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ﴾ صارت ذات ثِقل؛ كما تقول : أثمر النخل . وقيل : دخلت فى الثقل؛ كما تقول : أصبح وأمسى . ﴿ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا ﴾ الضمير فى « دَعَوَا » عائد على آدم وحوّاء . وعلى هـذا القول ما رُوى فى قصص هذه الآية أن حوّاء لـما حملت أوّل حمل لم تدرِ ما هو . وهذا يقوّى قراءة من قرأ « فَمَرَتْ بِهِ » بالتخفيف . فجزعت لذلك ، فوجد إبليس السبيل إليها . قال الكلبىّ : إن إبليس أتى حوّاء فى صورة رجل لـما أثقلت فى أوّل ما حملت فقال : ما هذا الذى فى بطنك ؟ قالت : ما أدرى ! قال : إنى أخاف أن يكون بهيمة . فقالت ذلك لآدم عليه السلام . فلم يزالا فى همّ من ذلك . ثم عاد إليها فقال : هو من الله بمنزلة ، فإن دعوتُ الله فولدتِ إنسانا أفتسمينه(١) بى ؟ قالت نعم . قال : فإنى أدعو الله . فأتاها وقد ولدت فقال : سمِّيه باسمى . فقالت : وما اسمك ؟ قال : الحارث — ولو سمّى لها نفسه لعرفته — فسمته عبد الحارث . ونحو هذا مذكور من ضعيف الحديث، فى الترمذىّ وغيره . وفى الإسرائيليات كثير ليس لـها ثبات ؛ فلا يعوّل عليها من له قلْب ، فإن آدم وحوّاء عليهما السلام وإن غرّهما بالله الغَـرُور فلا يُلدغ المؤمن من جُحْـر مرّتين ، على أنه قد سُطّر وكُتب . قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خدعهما مرتين [خدعهما] فى الجنة وخدعهما فى الأرض " . وعُضد هذا بقراءة السلمىّ « أتشركون » بالتاء . ومعنى ﴿ صَالِحًا ﴾ يريد ولدا سويا . ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ واختلف العلماء فى تأويل الشرك المضاف إلى آدم وحواء، وهى : —

الثالثـــة — قال المفسرون : كان شِرْكا فى التسمية والصفة، لا فى العبادة والربوبية . وقال أهل المعـانى : إنهما لم يذهبا إلى أن الحارث ربهما بتسميتهما ولدهما عبد الحارث ،

(١) فى الأصول « فتسميه » .

لكنهما قصدا إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد فسمّياه به كما يسمّى الرجل نفسه عبد ضيفه على جهة الخضوع له ، لا على أن الضيف ربُّه ؛ كما قال حاتم :

وإنى لعَبــد الضّيف ما دام ثاوِياً * وما فىّ إلاّ تيــكَ من شِيمة العبـدِ

وقال قوم : إن هذا راجع إلى جنس الآدميين والتبيين عن حال المشركين من ذرّية آدم عليه السلام، وهو الذى يُعوَّل عليه . فقوله : « جَعَلَا لَهُ » يعنى الذكر والأنثى الكافرين، ويُعنى به الجنسان . ودلّ على هذا ﴿ فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ولم يقل يشركان . وهذا قولٌ حسنٌ . وقيل : المعنى « هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ » من هيئة واحدة وشكل واحد « وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا » أى من جنسها « فَلَمَّا تَغَشَّاهَا » يعنى الجنسين . وعلى هذا القول لا يكون لآدم وحوّاء ذكر فى الآية ؛ فإذا آتاهما الولد صالحا سالما سويا كما أراداه صرفاه عن الفطرة إلى الشرك، فهذا فعل المشركين . قال صلى الله عليه وسلم : "ما من مولود إلا يولد على الفطرة — فى رواية [على هذه] (١) الملة — أبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه" . قال عكرمة : لم يخص بها آدم ، ولكن جعلها عامة لجميع الخلق بعد آدم . وقال الحسين بن الفضل : وهذا أعجب إلى أهل النظر ؛ لما فى القول الأول من المضاف من العظائم بنبىّ الله آدم . وقرأ أهل المدينة وعاصم « شِرْكًا » على التوحيد . وأبو عمرو وسائر أهل الكوفة بالجمع، على مثل فُعَلاء، جمع شريك . وأنكر الأخفش سعيد القراءة الأولى ، وهى صحيحة على حذف المضاف ، أى جعلا له ذا شرك ؛ مثل « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » فيرجع المعنى إلى أنهم جعلوا له شركاء .

الرابعة — ودلّت الآية على أن الحمل مرض من الأمراض . روى ابن القاسم ويحيى عن مالك قال : أوّل الحمل يُسْرٌ (٢) وسرور، وآخره مرض من الأمراض . وهذا الذى قاله مالك : « إنه مرض من الأمراض » يعطيه ظاهر قوله : « دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا » وهذه الحالة مشاهدة فى الحُمّال (٣) ، ولأجل عظم الأمر وشدّة الخطب جُعل موتُها شهادةً ؛ كما ورد فى الحديث .

---

(١) من هـ وى . (٢) فى جـ و ا و ل و ز : بشر . (٣) فى قوله صلى الله عليه وسلم : "الشهادة سبع سوى القتل فى سبيل الله : المطعون شهيد والغريق شهيد وصاحب ذات الجنب شهيد والمبطون شهيد وصاحب الحريق شهيد والذى يموت تحت الهدم شهيد والمرأة تموت بجمع شهيدة" أى تموت وفى بطنها ولد . رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحكم .

Marfat.com

وإذا ثبت هذا من ظاهر الآية فحال الحامل حال المريض فى أفعاله . ولا خلاف بين علماء الأمصار أن فعل المريض فيما يهب ويحابى فى ثلثه . وقال أبو حنيفة والشافعىّ : إنما يكون ذلك فى الحامل بحال الطّلْق ، فأما قبـل ذلك فلا . واحتجّوا بأن الحمل عادةٌ والغالب فيـه السلامة . قلنا : كذلك أكثر الأمراض غالبه السلامة ، وقد يموت من لم يمرَض .

الخامســـة ــ قال مالك : إذا مضت للحامل ستة أشهر من يوم حملت لم يجز لها قضاء فى مالها إلا فى الثلث . ومن طلّق زوجته وهى حامل طلاقا بائنا فلمـا أتى عليها ستةُ أشهر فأراد ارتجاعها لم يكن له ذلك ؛ لأنها مريضة ونكاح المريضة لا يصح .

السادســـة ــ قال يحيى : وسمعت مالكا يقول فى الرجل يحضر القتال : إنه إذا زحف فى الصف للقتال لم يجز له أن يقضى فى ماله شيئا إلا فى الثلث ، وإنه بمنزلة الحامل والمريض المخوف عليه ما كان بتلك الحال . ويلتحق بهذا المحبوس للقتل فى قصاص . وخالف فى هذا أبو حنيفة والشافعىّ وغيرهما . قال ابن العربىّ : وإذا استوعبت النظر لم تَرْتَب فى أن المحبوس على القتل أشـدّ حالا من المريض ، وإنكار ذلك غفلة فى النظر ؛ فإن سبب الموت موجود عندهما ، كما أن المرض سبب الموت ، قال الله تعالى : « وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » . وقال رُوَيْشِد الطائىّ :

يأيها الراكبُ المُزْجِى مَطِيَّتَـه * سائِل بنى أسَد ما هـذه الصَّوْتُ (٢)
وقل لهم بادروا بالعُـذْر والتمسوا * قـولا يُبَرِّئُكم إنى أنا المَـوْتُ

ومـما يدل على هذا قوله تعالى : « إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ (٣) » . فكيف يقول الشافعىّ وأبو حنيفة : الحـال الشديدة إنمـا هى المبارزة ؛ وقد أخبر الله عز وجل عن مقاومة (٤) العـدو وتدانى الفريقين بهذه الحالة العظمى من بلوغ القلوب الحناجر ، ومن سوء الظنون بالله ، ومن زلزلة القلوب واضطرابها ؛

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٢٠ . (٢) الصوت : الجرس ؛ مذكر . وإنما أنثه هنا لأنه أراد به الضوضاء والجلبة ؛ على معنى الصيحة أو الاستغاثة . (٣) راجع جـ ١٤ ص ١٤٤ . (٤) فى جـ : مقاربة .

Marfat.com

هل هذه حالة ترى على المريض أم لا ؟ هذا ما لا يشك فيه منصف ، وهذا لمن ثبت في اعتقاده، وجاهد في الله حق جهاده، وشاهد الرسول وآياته ؛ فكيف بنا ؟ .

السابعة ــ وقد اختلف علماؤنا في راكب البحر وقت الهَوْل ؛ هل حكمه حكم الصحيح أو الحامل . فقال ابن القاسم : حكمه حكم الصحيح . وقال ابن وهب وأشهب : حكمه حكم الحامل إذا بلغت ستة أشهر . قال القاضي أبو محمد : وقولهما أقيس ؛ لأنها حالة خوف على النفس كإثقال الحمل . قال ابن العربي : وابن القاسم لم يركب البحر، ولا رأى دودا على عود . ومن أراد أن يوقن بالله أنه الفاعل وحده لا فاعل معه ، وأن الأسباب ضعيفة لا تعلق لموقن بها ، ويتحقق التوكل والتفويض فليركب البحر .

قوله تعالى : أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ﴾ أي أيعبدون ما لا يقدر على خلق شيء . ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أي الأصنام مخلوقة . وقال : « يُخْلَقُونَ » بالواو والنون لأنهم اعتقدوا أن الأصنام تضر وتنفع ، فأجريت مجرى الناس ؛ كقوله : « فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ »(1) . وقوله : « يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ »(2) . ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ أي إن الأصنام، لا تنصر ولا تنتصر .

قوله تعالى : وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ قال الأخفش : أي وإن تدعو الأصنام إلى الهدى لا يتبعوكم . ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾ قال أحمد

---

(1) راجع جـ ١١ ص ٢٨٦ ، وجـ ١٥ ص ٣٢ . (2) راجع جـ ١٣ ص ١٦٩ .

Marfat.com

ابن يحيى : لأنه رأس آية . يريد أنه قال : « أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ » ولم يقـل أم صمـتم . وصامتون وصمتم عند سيبويه واحد . وقيل : المراد من سبق فى علم الله أنه لا يؤمن . وقرئ « لَا يَتَّبِعُوكُمْ » مشدّدا ومخفّفا » لغتان بمعنًى. وقال بعض أهل اللغة : « أَتْبَعَهُ » — مخففا — إذا مضى خلفه ولم يدركه . و « ٱتَّبَعَهُ » — مشدّدا — إذا مضى خلفه فأدركه .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ حاجّهم فى عبادة الأصنام. « تَدْعُونَ » تعبدون . وقيل : تدعونها آلهة . « مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى من غير الله . وسميت الأوثان عبادا لأنها مملوكة لله مسخّرة.الحسن: المعنى أن الأصنام مخلوقة أمثالكم.ولما اعتقد المشركون أن الأصنام تضر وتنفع أجراها مجرى الناس فقال :﴿ فَادْعُوهُمْ ﴾ ولم يقل فادعوهن. وقال : « عِبَادٌ »، وقال: « إِنَّ الَّذِينَ » ولم يقل إنّ التى . ومعنى « فَادْعُوهُمْ » أى فاطلبوا[1] منهم النفع والضر . ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أن عبادة الأصنام تنفع . وقال ابن عباس : معنى فادعوهم فاعبدوهم . ثم وبّخهم الله تعالى وسفّه عقولهم فقال : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾الآية. أى أنتم أفضل منهم فكيف تعبدونهم.والغرض بيان جهلهم؛ لأنّ المعبود يتصف بالجوارح. وقرأ سعيد بن جبير : «إنِ الذين تدعون من دون الله عبادًا أمثالَكم» بتخفيف «إن» وكسرها لالتقاء الساكنين، ونصب « عبادًا » بالتنوين، « أمثالَكم » بالنصب . والمعنى: ما الذين تدعون من دون الله عبادا أمثالكم،أى هى حجارة وخشب ؛ فأنتم تعبدون ما أنتم أشرف منه.

(١) من ج .

Marfat.com

قال النحاس : وهذه قراءة لا ينبغي أن يقرأ بها من ثلاث جهات : أحدها — أنها مخالفة للسّواد . والثانية — أن سيبويه يختار الرفع في خبر إنْ إذا كانت بمعنى «ما»، فيقول : إنْ زيد منطلق؛ لأن عمل «ما» ضعيف، و«إنْ» بمعناها فهي أضعف منها . والثالثة — إن الكسائيّ زعم أن «إنْ» لاتكاد تأتي في كلام العرب بمعنى «ما»، إلا أن يكون بعدها إيجاب؛ كما قال عز وجل : « إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ »[1] . « فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ » الأصل أن تكون اللام مكسورة، فحذفت الكسرة لثقلها . ثم قيل : في الكلام حذف، المعنى : فادعوهم إلى أن يتّبعوكم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين أنهم آلهة . وقرأ أبو جعفر وشيبة ﴿ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطُشُونَ بِهَا ﴾ بضم الطاء، وهي لغة . واليد والرجل والأذن مؤنثات يُصَغَّرْن بالهاء . وتزاد في اليد ياء في التصغير، تردّ إلى أصلها فيقال : يُدَيَّة بالتشديد لاجتماع الياءين .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ أي الأصنام . ﴿ ثُمَّ كِيدُونِ ﴾ أنتم وهي . ﴿ فَلَا تُنْظِرُونِ ﴾ أي فلا تؤخرون . والأصل « كِيدُونِي » حذفت الياء لأن الكسرة تدل عليها . وكذا « فَلَا تُنْظِرُونِ » . والكيد المكر . والكيد الحرب ؛ يقال : غزا فلم يلق كيدا . ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ﴾ أي الذي يتولّى نصري وحفظي اللهُ . ووليُّ الشيء: الذي يحفظه ويمنع عنه الضرر . والكتاب : القرآن . ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ أي يحفظهم . وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جهارا غير سر يقول : " ألا إنّ آل أبي — يعني فلانا[2] — ليسوا لي بأولياء إنما وَلِيِّيَ اللهُ وصالحُ المؤمنين". وقال الأخفش : وقرئ « إنّ وليَّ اللهِ الذي نزّل الكتابَ » يعني جبريل . النحاس . هي قراءة عاصم الجَحْدَرِيّ . والقراءة الأولى أبين؛ لقوله : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ .

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢١٨ .

(٢) في شرح النووي على صحيح مسلم : «هذه الكناية بقوله : يعني فلانا، هي من بعض الرواة خشي أن يسميه فيترتب عليه مفسدة وفتنة ؛ إما في حق نفسه ، وإما في حقه وحق غيره فكنى عنه ... قال القاضي عياض رضي الله عنه قيل : إن المكنى عنه ها هنا هو الحكم بن أبي العاص والله أعلم » .

Marfat.com

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ كرره ليبين أن ما يعبدونه لاينفع ولا يضر. ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى ﴾ شرط ، والجواب ﴿ لَا يَسْمَعُوا ﴾ . ﴿ وَتَرَاهُمْ ﴾ مستأنف . ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ في موضع الحال . يعني الأصنام . ومعنى النظر فتح العينين إلى المنظور إليه؛ أي وتراهم كالناظرين إليك . وخبّر عنهم بالواو وهي جماد لا تبصر؛ لأن الخبر جرى على فعل مَن يعقل . وقيل : كانت لهم أعين من جواهر مصنوعة فلذلك قال «وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ» . وقيل : المراد بذلك المشركون، أخبر عنهم بأنهم لا يبصرون حين لم ينتفعوا بأبصارهم .

قوله تعالى : خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ هذه الآية من ثلاث كلمات ، تضمّنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات . فقوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين ، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين . ودخل في قوله : ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ صلةُ الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغَضّ الأبصار، والاستعداد لدار القرار . وفي قوله : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ الحَضُّ على التعلّق بالعلم ، والإعراض عن أهل الظلم ، والتنزّه عن منازعة السفهاء ، ومساواة الجهلة الأغبياء ، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة .

قلت : هذه الخصال تحتاج إلى بسط ، وقد جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر ابن سليم . قال جابر بن سليم أبو جُرَيّ : ركبت قَعودي ثم أتيت إلى مكة فطلبت رسول الله

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم، فأنخت قعودى بباب المسجد، فدلُّونى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا هو جالس عليه بُرْد من صوف فيه طرائقُ حُمر؛ فقلت : السلام عليك يا رسول الله . فقال : "وعليك السلام" . فقلت : إنّا معشر أهل البادية، قوم فينا الجفاء؛ فعلِّمنى كلماتٍ ينفعنى الله بها . قال : "آدْنُ" ثلاثا، فدنَوْت فقال : "أعِد علىّ" فأعدت عليه فقال : "آتق الله ولا تحقرنّ من المعروف شيئا وأن تلقى أخاك بوجه منبسط وأن تُفرِغ من دَلْوك فى إناء المستسق وإن آمرؤ سبّك بما لا يعلم منك فلا تسُبّه بما تعلم فيه فإن الله جاعل لك أجرا وعليه وِزْرا ولا تسبّن شيئا مما خوّلك الله تعالى" . قال أبو جُرَىّ : فوالذى نفسى بيده، ما سببْت بعده شاة ولا بعيرا . أخرجه أبو بكر البزار فى مسنده بمعناه . وروى أبو سعيد المَقْبُرِىّ عن أبيه عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق" . وقال ابن الزبير: ما أنزل الله هذه الآية إلا فى أخلاق الناس . وروى البخارىّ من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير فى قوله : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ » قال : ما أنزل الله هذه الآية إلا فى أخلاق الناس . وروى سفيان بن عُيَيْنَة عن الشعبىّ أنه قال : إن جبريل نزل على النبىّ صلى الله عليه وسلم، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : "ما هذا يا جبريل" ؟ فقال : "لا أدرى حتى أسأل العالِم" فى رواية "لا أدرى حتى أسأل ربى" فذهب فمكث ساعة ثم رجع فقال : "إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك وتصل من قطعك" . فنظمه بعض الشعراء فقال :

مكارمُ الأخلاقِ فى ثلاثةٍ　*　من كَمُلَتْ فيه فذلك الفتى(1)
إعطاءُ مَن تحرِمه ووَصلُ مَن　*　تَقْطَعُه والعفوُ عمّن آعتدَى

وقال جعفر الصادق : أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق فى هذه الآية، وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية . وقال صلى الله عليه وسلم : "بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق" . وقال الشاعر :

(1) فى ك، ع، ه : الفتى . وفى ا، ز : الغنى .

Marfat.com

كلُّ الأمور تزول عنك وتنقضي * إلّا الثناء فإنـه لك باقِ
ولو أنني خُـيِّرتُ كلّ فضيلة * ما اخترت غير مكارم الأخلاق

وقال سهل بن عبد الله : كلّم الله موسى بطُور سَيْنَاء ، قيل له : بأيّ شيء أوصاك ؟ قال : بتسعة أشياء ، الخشية في السر والعلانية ، وكلمة الحق في الرضا والغضب ، والقصد في الفقر والغِنَى ، وأمرني أن أصل من قطعني ، وأعطي من حرمني ، وأعفو عمن ظلمني ، وأن يكون نطقي ذكرا ، وصَمتي فِكْرا ، ونظري عبرة .

قلت : وقد روى عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال ، "أمرني ربي بتسع الإخلاص في السر والعلانية والعدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر وأن أعفو عمن ظلمني وأصل من قطعني وأعطي من حرمني وأن يكون نطقي ذكرا وصمتي فكرا ونظري عبرة" . وقيل : المراد بقوله : « خُذِ الْعَفْوَ » أي الزكاة ؛ لأنها يسير من كثير . وفيه بعدٌ ؛ لأنه من عفا إذا دَرَس . وقد يقال : خذ العفو منه ، أي لا تنقص عليه وسامحه . وسبب النزول يردّه ، والله أعلم . فإنه لما أمره بمحاجّة المشركين دلّه على مكارم الأخلاق ، فإنها سَبَب جرّ المشركين إلى الإيمان . أي اقبل من الناس ما عفا لك من أخلاقهم وتيسر ؛ تقول : أخذت حقي عَفْوًا صَفْوًا ، أي سهلا .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ أي بالمعروف . وقرأ عيسى بن عمر « العُرُف » بضمتين ؛ مثل الحُلُم ؛ وهما لغتان . والعُرْف والمَعْرُوف والعَارِفَة : كل خصلة حسنة ترتضيها العقول ، وتطمئن إليها النفوس .

قال الشاعر :

من يفعل الخير لا يَعْـدَم جَوازِيَه * لا يذهب العُرْف بين الله والناس

وقال عطاء : « وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ » يعني بلا إله إلا الله .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي إذا أقمت عليهم الحجة وأمرتهم بالمعروف فجهلوا عليك فأعرض عنهم ؛ صيانة له عليهم ورفعا لقدره عن مجاوبتهم . وهذا وإن

كان خطابا لنبيه عليه السلام فهو تأديب لجميع خلقه . وقال ابن زيد وعطاء : هى منسوخة بآية السيف . وقال مجاهد وقتادة : هى مُحْكَمة؛ وهو الصحيح لما رواه البخارى عن عبد الله ابن عباس قال : قدم عُيَيْنة بن حِصن بن حذيفة بن بَدْر فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس ابن حِصن، وكان من النفر الذين يُدنيهم عُمَرُ، وكان القراءُ أصحابَ مجالس عمر ومشاورته، كُهولا كانوا أو شُبّانا . فقال عُيَيْنة لابن أخيه : يابن أخى، هل لك وجه عند هذا الأمير، فتستأذن لى عليه . قال : سأستأذن لك عليه؛ فآستأذن لعُيَيْنة . فلما دخل قال : يابن الخطاب، والله ما تعطينا الجَزْل ، ولا تحكم بيننا بالعدل ! قال : فغضب عمر حتى همّ بأن يقع به . فقال الحُرّ: يا أمير المؤمنين، إن الله قال لنبيه عليه السلام «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ» و إن هذا من الجاهلين . فوالله ما جاوزها عمرُ حين تلاها عليه، وكان وقّافا (١) عند كتاب الله عز وجل .

قلت : فاستعمال عمر رضى الله عنه لهذه الآية واستدلال الحر بها يدل على أنها مُحْكَمة لا منسوخة . وكذلك استعملها الحسن بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما ؛ على ما يأتى بيانه . و إذا كان الجفاء على السلطان تعمّدا واستخفافا بحقه فله تعزيره . و إذا كان غير ذلك فالإعراض والصّفح والعفو ؛ كما فعل الخليفة العدل .

قوله تعالى : وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

فيه مسألتان :

الأولى — لما نزل قوله تعالى : ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال عليه السلام : "كيف يا رب والغضب"؟ فنزلت : ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾ ونزغ الشيطان : وساوسه . وفيه لغتان : نزغ ونغز، يقال : إياك والنّزاغ والنّغاز، وهم المُوَرِّشُون (٢) . الزجاج : النّزغ أدنى حركة تكون ، ومن

(١) أى لا يجاوز حكمه . (٢) التوريش : التحريش؛ يقال : ورش بين القوم وأرّش .

الشيطان أدنى وَسْوَسَة . قال سعيد بن المسيب : شهدت عثمان وعليا وكان بينهما نَزْغٌ من الشيطان فما أبقى واحدٌ منهما لصاحبه شيئا ، ثم لم يَبْرَحَا حتى استغفر كل واحد منهما لصاحبه . ومعنى ﴿ يَنْزَغَنَّكَ ﴾ : يصيبنّك و يعرض لك عند الغضب وسوسةٌ بما لا يحل . ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ أى آطلب النجاة من ذلك بالله . فأمَر تعالى أن يدفع الوسوسة بالآلتجاء إليه والآستعاذة به ؛ ولله المثل الأعلى . فلا يستعاذ من الكلاب إلا بربِّ الكلاب . وقد حكى عن بعض السلف أنه قال لتلميذه : ما تصنع بالشيطان إذا سوّل لك الخطايا؟ قال : أجاهده . قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده . قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده . قال : هذا يطول ، أرأيت لو مررت بغنم فنبحك كلبها ومنع من العبور ما تصنع؟ قال : أكابده وأردّه جهدى . قال : هذا يطول عليك ، ولكن استغث بصاحب الغنم يكفّه عنك .

الثانيـــة ــ النَّزْغُ والنَّزْغ والهَمْز والوَسْوَسَة سواء؛ قال الله تعالى : «وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ» (١) وقال : « مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ » (٢) . وأصل النزغ الفساد؛ يقال : نَزَغ بيننا؛ أى أفسد . ومنه قوله : « نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي » (٣) أى أفسد . وقيل : النزغ الإغواء والإغراء؛ والمعنى متقارب .

قلت : ونظير هــذه الآية ما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يأتى الشيطان أحدكم فيقول له من خلق كذا وكذا حتى يقول له من خلق ربك فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولْيَنْتَهِ" . وفيه عن عبد الله قال : سُئل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة قال : "تلك مَحْضُ الإيمـان" . وفى حديث أبى هريرة : "ذلك صَرِيح الإيمـان" والصريح الخالص . وهذا ليس على ظاهره؛ إذ لا يصح أن تكون الوسوسة نفسها هى الإيمان، لأن الإيمـان اليقين، و إنمـا الإشارة إلى ما وجدوه من الخوف من الله تعالى أن يعاقبوا على ما وقع فى أنفسهم . فكأنّه قال جَزَعُكم من هذا هو محض الإيمان وخالصه؛ لصحة إيمانكم، وعلمكم بفسادها . فسمّى الوسوسة إيمـانا لمـا كان دفعها والإعراض عنها والردّ لهـا وعدم قبولهـا

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٤٨ . (٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢٦١ . (٣) راجع جـ ٩ ص ٢٦٤ .

Marfat.com

والجزعُ منها صادرا عن الإيمان . وأما أمره بالاستعاذة فلكون تلك الوساوس من آثار الشيطان . وأما الأمر بالانتهاء فعن الركون إليها والالتفات نحوها . فمن كان صحيحَ الإيمان واستعمل ما أمره به ربه ونبيه نفعه وانتفع به . وأما من خالجته الشبهة وغلب عليه الحس ولم يقدر على الانفكاك عنها فلا بُدّ من مشافهته بالدليل العقلي ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم للذى خالطته شبهةُ الإبل الجُرْب حين قال النبي صلى الله عليه وسلم : "لا عَدْوَى" . وقال أعرابى : فما بال الإبل تكون فى الرمل كأنها الظباء فإذا دخل فيها البعير الأجرب أجربها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : "فمن أعدى الأول" فاستأصل الشبهة من أصلها . فلما يئس الشيطان من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بالإغراء والإضلال أخذ يشوّش عليهم أوقاتهم بتلك الألْقيات . والوساوسُ : التُّرَّهَات ؛ فنفرت عنها قلوبهم وعظم عليهم وقوعُها عندهم فجاءوا — كما فى الصحيح — فقالوا : يا رسول الله ، إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدُنا أن يتكلم به قال : "أو قد وجدتموه" ؟ قالوا : نعم . قال : "ذلك صريح الإيمان رَغْمًا للشيطان حسب ما نطق به القرآن فى قوله : « إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ »[(1)]" . فالخواطر التى ليست بمستقرة ولا اجْتَلَبَتْهَا الشبهةُ فهى التى تُدفَع بالإعراض عنها ؛ وعلى مثلها يطلق اسم الوسوسة . والله أعلم . وقد مضى فى آخر « البقرة »[(2)] هذا المعنى ، والحمد لله .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا ﴾ يريد الشرك والمعاصى . ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ هذه قراءة أهل البصرة وأهل مكة . وقراءة أهل المدينة وأهل الكوفة « طَائِفٌ » . وروى عن سعيد بن جبير « طَيِّفٌ » بتشديد الياء . قال النحاس : كلام العرب فى مثل هذا « طَيْفٌ » بالتخفيف ؛ على أنه مصدر من طاف يَطِيفُ . قال الكسائى :

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٨ وص ٢٨ فما بعدها .   (٢) راجع جـ ٣ ص ٤٢٨ فما بعد .

Marfat.com

هو مخفف من « طَيِّف » مثـل مَيْتٌ ومَيِّتٌ . قال النحاس : ومعنى « طَيْف » فى اللغـة ما يُتخيلّ فى القلب أو يُرَى فى النوم ؛ وكذا معنى طائف . وقال أبو حاتم : سألت الأصمعيّ عن طَيِّف ؛ فقال : ليس فى المصادر فيعل . قال النحاس : ليس هو بمصدر ، ولكن يكون بمعنى طائف . والمعنى : إن الذين آتقوا المعاصى إذا لحقهم شىء تفكروا فى قدرة الله عز وجل وفى إنعامه عليهم فتركوا المعصية ؛ وقيـل : الطَّيْفُ والطَّائِفُ معنيان مختلفان . فالأول — التخيّل . والثانى — الشيطان نفسه . فالأول مصدر طاف الخيال يَطُوف طَيْفا ؛ ولم يقولوا من هذا طائف فى اسم الفاعل . قال السهيليّ : لأنه تخيُّل لا حقيقة له . فأما قوله : « فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ »[(1)] فلا يقال فيه : طَيْفٌ ؛ لأنه اسم فاعل حقيقة ، ويقال : إنه جبريل . قال الزجاج : طفت عليهم أطوف ، وطاف الخيال يَطيف . وقال حسان :

فَدَعْ هذا ولكن مَن لِطَيْف * يُؤَرِّقُنى إذا ذهب العِشَاء

مجـاهد : الطَّيْف الغضب . ويسمى الجنون والغضب والوسوسة طَيْفا ؛ لأنه لَمَّةٌ من الشيطان تُشَبَّه بلَمَّة[(2)] الخيال . ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ أى منتهون . وقيل : فإذا هم على بصيرة . وقرأ سعيد بن جبير : « تَذَّكَّرُوا » بتشديد الذال . ولا وجه له فى العربية ؛ ذكره النحاس .

الثانيـــة — قال عِصام بن المُصْطَلِق : دخلت المدينـة فرأيت الحسن بن علىّ عليهما السلام ، فأعجبنى سَمْتُه وحُسن رُوائه ؛ فأثار منّى الحسد ما كان يُجِنّه صدرى لأبيه من البُغْض ؛ فقلت : أنت آبن أبى طالب ! قال نعم . فبالغت فى شتمه وشتم أبيه ؛ فنظر إلىّ نظـرة عاطف رَءُوف ، ثم قال : أعوذ بالله من الشـيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم « خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » فقرأ إلى قوله : « فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » ثم قال لى : خفِّض عليـك ، أستغفر الله لى ولك ، إنك لو استعنتنا أعنّاك ، ولو اسـترفدتنا أرفدناك ،

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٣٨ فما بعد .

(٢) اللـة الخطرة بالقلب .

ولو استرشدتنا أرشدناك . فتوسّم فيّ الندمَ على ما فرَط منّي فقال : « لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ »(1) أمن أهل الشام أنت ؟ قلت نعم . فقال :

* شِنْشِنَةٌ أعرِفُها من أَخْزَمِ(2) *

حيّاك الله وبيّاك(3)، وعافاك ، وآداك(4) ؛ انبسط إلينا في حوائجك وما يعرض لك ، تجدنا عند أفضل ظنك ، إن شاء الله . قال عصام : فضاقت عليّ الأرض بما رَحُبَت ، ووددت أنها ساخت بي ؛ ثم تسلّلتُ منه لِواذا(5) ، وما على وجه الأرض أحبُّ إليّ منه ومن أبيه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ قيل : المعنى وإخوان الشياطين وهم الفجّار من ضُلّال الإنس تمدّهم الشياطين في الغيّ . وقيل للفجار إخوان الشياطين لأنهم يقبلون منهم . وقد سبق في هذه الآية ذكر الشيطان . هذا أحسن ما قيل فيه ؛ وهو قول قتادة والحسن والضحاك . ومعنى « لَا يُقْصِرُونَ » أي لا يتوبون ولا يرجعون . وقال الزجاج : في الكلام تقديم وتأخير ؛ والمعنى : والذين تدعون من دونه لا يستطيعون لكم نصرا ولا أنفسهم ينصرون ، وإخوانهم يمدّونهم في الغيّ ؛ لأن الكفار إخوان الشياطين . ومعنى الآية : إن المؤمن إذا مسّه طَيْف من الشيطان تنبّه عن قُرْب ؛ فأما المشركون فيمدّهم الشيطان . و « لَا يُقْصِرُونَ » قيل : يرجع إلى الكفار على القولين جميعا . وقيل : يجوز أن يرجع إلى الشيطان . قال قتادة : المعنى ثم لا يُقصِرون عنهم ولا يرحمونهم . والإقصار : الانتهاء عن الشيء ، أي لا تقصر الشياطين في مدّهم الكفار بالغيّ . وقوله : ﴿ فِي الْغَيِّ ﴾ يجوز أن يكون متصلا بقوله :

---

(1) راجع جـ ٩ ص ٢٥٥ فما بعد . (2) الشنشنة (بكسر الشين) : العادة والطبيعة . قال الأصمعي : وهذا بيت رجز تمثل به لأبي أخزم الطائي وهو :

* إن بني زملوني بالدم * شنشنة أعرفها من أخزم * من يلق آساد الرجال يكلم *

قال ابن بري : وكان أخزم عاقا لأبيه ، فمات وترك بنين عقوا جدّهم وضربوه وأدموه ، فقال ذلك ، أي إنهم أشبهوا أباهم في العقوق . (3) قوله : حياك الله وبياك ، أي ملكك واعتمدك بالتحية . وبياك : معناه وبوّأك منزلا ؛ إلا أنها لما جاءت مع حياك تركت همزتها وقلبت واوها ياء . وآداك : قوّاك وأعانك .

(4) الانبساط : ترك الاحتشام . (5) اللواذ : الاستتار .

« يَمُدُّونَهُمْ » ويجوز أن يكون متصلا بالإخوان . والغيّ : الجهل . وقرأ نافع « يُمِدُّونَهُمْ » بضم الياء وكسر الميم . والباقون بفتح الياء وضم الميم . وهما لغتان مَدّ وأَمَدّ . ومَدّ أكثر، بغير الألف ؛ قاله مكيّ . النحاس : وجماعة من أهل العربية ينكرون قراءة أهل المدينة ؛ منهم أبو حاتم وأبو عبيد، قال أبو حاتم : لا أعرف لها وجها، إلا أن يكون المعنى يزيدونهم في الغيّ . وحكى جماعة من أهل اللغة منهم أبو عبيد أنه يقال إذا كثر شيء شيئا بنفسه مدّه(1)، وإذا كثّره بغيره قيل أَمدّه؛ نحو « يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ »(2) . وحكى عن محمد ابن يزيد أنه احتج لقراءة أهل المدينة قال : يقال مددت له في كذا أي زينته له واستدعيته أن يفعله . وأمددته في كذا أي أعنته برأي أو غير ذلك . قال مكيّ : والاختيار الفتح ؛ لأنه يقال : مددت في الشر، وأمددت في الخير؛ قال الله تعالى : « وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ »(3) . فهذا يدل على قوّة الفتح في هذا الحرف؛ لأنه في الشر، والغيّ هو الشر، ولأن الجماعة عليه . وقرأ عاصم الجحدريّ « يُمَادُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ » . وقرأ عيسى بن عمر « يَقْصُرُونَ » بفتح الياء وضم الصاد وتخفيف القاف . الباقون « يُقْصِرُونَ » بضدّه، وهما لغتان . قال امرؤ القيس :

* سَمَالك شَوْقٌ بعد ما كان أقْصَرَا *

قوله تعالى : وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ ﴾ أي تقرؤها عليهم . ﴿ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ لولا بمعنى هلّا، ولا يليها على هذا المعنى إلا الفعل ظاهرا أو مضمرا ، وقد تقدّم القول فيها في « البقرة » مستوفى(4) . ومعنى « اجْتَبَيْتَهَا » اختلقتها من نفسك . فأعلمهم أن الآيات من قبل الله

---

(1) في الأصول : « مدّه » .
(2) راجع جـ ٤ ص ١٩٠ .
(3) راجع جـ ١ ص ٢٠٧ .
(4) راجع جـ ٢ ص ٩١ .

Marfat.com

عز وجل، وأنه لا يقرأ عليهم إلا ما أنزله عليه . يقال : اجْتَبَيْتُ الكلام أى ٱرتجلته وٱختلقته وٱخترعته إذا جئت به من عند نفسك . ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ﴾ أى من عند الله لا من عند نفسى . ﴿ هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يعنى القرآن، جمع بصيرة، هى الدلالة والعبرة . أى هذا الذى دللتكم به على أن الله عز وجل واحدٌ بَصَائِرُ، أى يُستبصر بها . وقال الزجاج : « بَصَائِرُ » أى طُرُقٌ . والبصائر طُرُقُ الدِّين . قال الجُعْفِيّ :

راحوا بصائرُهم على أكتافهم * وبصيرتى يَعْدُو بها عَتِدٌ وَأَى (١)

﴿ وَهُدًى ﴾ رشد وبيان . ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ أى ونعمة .

قوله تعالى : وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ قيل : إن هذا نزل فى الصلاة، رُوى عن ابن مسعود وأبى هريرة وجابر والزُّهْرِىّ وعبيد الله بن عمير وعطاء بن أبى رَباح وسعيد بن المسيِّب . قال سعيد : كان المشركون يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلّى؛ فيقول بعضهم لبعض بمكة : « لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ » (٢) . فأنزل الله جل وعز جوابا لهم « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا » . وقيل : إنها نزلت فى الخطبة؛ قاله سعيد بن جُبير ومجاهد وعطاء وعمرو بن دينار وزيد ابن أسلم والقاسم بن مُخَيْمِرة ومسلم بن يَسار وشَهر بن حَوْشَب وعبد الله بن المبارك . وهذا ضعيف؛ لأن القرآن فيها قليل، والإنصات يجب فى جميعها؛ قاله ابن العربىّ . النقاش : والآية مكية، ولم يكن بمكة خطبة ولا جمعة . وذكر الطبرىّ عن سعيد بن جبير أيضا أن هذا فى الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة، وفيما يَجْهَر به الإمام فهو عام . وهو الصحيح

(١) راجع ص ٥٧ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٥ .

Marfat.com

لأنه يجمع جميع ما أوجبته هذه الآية وغيرها من السُّنّة فى الإنصات . قال النقاش : أجمع أهل التفسير أن هذا الاستماع فى الصلاة المكتوبة وغير المكتوبة . النحاس : وفى اللغة يجب أن يكون فى كل شىء، إلا أن يدل دليلٌ على اختصاص شىء . وقال الزجاج : يجوز أن يكون « فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا » اعملوا بما فيه ولا تجاوزوه . والإنصات : السكوت للاستماع والإصغاء والمراعاة . أنصَت يُنصت إنصاتا ، ونَصَت أيضا ؛ قال الشاعر :

قال الإمامُ عليكم أمرَ سيّدكم * فلم نُخالف وأنصتنا كما قالا

ويقال : أنصتوه وأنصتوا له ؛ قال الشاعر :

إذا قالتْ حَذامِ فأنصِتوها * فإنّ القولَ ما قالت حَذامِ

وقال بعضهم فى قوله « فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا » : كان هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصا لِيَعِيَه عنه أصحابه .

قلت : هذا فيه بعدٌ، والصحيح القول بالعموم، لقوله : « لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » والتخصيص يحتاج إلى دليل . وقال عبد الجبار بن أحمد فى فوائد القرآن له : إن المشركين كانوا يكثرون اللغط والشغب تَعنُّتاً وعنادا ، على ما حكاه الله عنهم : «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ » . فأمر الله المسلمين حالة أداء الوحى أن يكونوا على خلاف هذه الحالة وأن يستمعوا ، ومدح الجنّ على ذلك فقال : « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ» الآية[1] . وقال محمد بن كعب القُرَظىّ : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ فى الصلاة أجابه مَن وراءه ؛ إذا قال : بسم الله الرحمن الرحيم ، قالوا مثل قوله ، حتى يقضىَ فاتحة الكتاب والسُّورة . فلبث بذلك ما شاء الله أن يلبث ؛ فنزل : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » فأنصَتُوا . وهذا يدل على أن المعنى بالإنصات تركُ الجهر على ما كانوا يفعلون من مجاوبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال قتادة فى هذه الآية : كان الرجل يأتى وهم فى الصلاة فيسألهم كم صليتم ، كم بَقِى ؛ فأنزل الله تعالى : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ

(١) راجع ج ١٦ ص ٢١٠ .

Marfat.com

وأنصتوا » . وعن مجاهد أيضا : كانوا يتكلمون فى الصلاة بحاجتهم ؛ فنزل قوله تعالى : « لعلكم ترحمون » . وقد مضى فى الفاتحة الاختلاف فى قراءة المأموم خلف الإمام . ويأتى فى « الجمعة »(١) حكم الخطبة ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ نظيره « ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً »(٢) وقد تقدّم . قال أبو جعفر النحاس : ولم يختلف فى معنى « وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ » أنه فى الدعاء .

قلت : قد رُوى عن ابن عباس أنه يعنى بالذكر القراءةَ فى الصلاة . وقيل : المعنى اقرأ القرآن بتأمل وتدبُّر . « تَضَرُّعًا » مصدر ، وقد يكون فى موضع الحال . « وَخِيفَةً » معطوف عليه . وجمع خيفة خِوَف ؛ لأنه بمعنى الخوف ؛ ذكره النحاس . وأصل خيفة خِوْفَة ، قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها . خاف الرجل يخاف خوفا وخيفة ومخافة ، فهو خائف ، وقوم خُوَّف على الأصل ، وخُيَّف على اللفظ . وحكى الفراء أنه يقال أيضا فى جمع خيفة خِيَف . قال الجوهرى : والخِيفة الخوف ، والجمع خِيَف ، وأصله الواو . ﴿ وَدُونَ ٱلْجَهْرِ ﴾ أى دون الرفع فى القول . أى أسمع نفسك ؛ كما قال : « وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا »(٣) أى بين الجهر والمخافتة . ودلّ هذا على أن رفع الصوت بالذكر ممنوع ؛ على ما تقدم فى غير موضع . ﴿ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ قال قتادة وابن زيد : الآصال العَشِيَّات . والغدو جمع غُدْوة . وقرأ أبو مِجْلَز « بِالْغُدُوِّ وَالْإِيصالِ » وهو مصدر آصلنا ، أى دخلنا فى العَشِىّ . والآصال جمع أُصُل ؛ مثل طُنُب وأطناب ؛ فهو جمع الجمع ، والواحد أصيل ، جُمع على أُصُل ؛ عن الزجاج .

(١) راجع جـ ١٨ ص ٩٧ فما بعد . (٢) راجع ص ٢٢٣ من هذا الجزء .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٤٢ فما بعد .

Marfat.com

الأخفش : الآصال جمع أَصِيل ؛ مثلُ يَمِين وأَيْمَـان . الفراء : أُصُل جمع أصيل، وقد يكون أُصُل واحدا، كما قال الشاعر :

* ولا بأحسن منها إذ دَنَا الأُصُلُ *

الجوهري : الأَصِيل الوقت بعد العصر إلى المغرب ، وجمعه أُصُل وآصال وأصائل ؛ كأنه جمع أَصِيلة ؛ قال الشاعر :

لعمـرِى لأنتَ البيْتُ أكرِمُ أهلَه * وأقعـد فى أفيـائه بالأصـائل

ويجمع أيضا على أُصْلان ؛ مثل بَعِير وبُعْران ؛ ثم صغّروا الجمع فقالوا أُصَيْلاَن ، ثم أبدلوا من النون لامًا فقالوا أُصَيْلال ؛ ومنه قول النابغة :

وقفتُ فيهـا أُصَـيْلاَلاً أسائلها * عَيَّتْ جوابا وما بالرَّبْع من أحدِ

وحكى اللِّحْيانِيّ : لقيته أُصَيْلاَلا . ﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ أى عن الذكر .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ عِنـدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

فيـــه ثمـان مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ يعنى الملائكة بإجماع . وقال « عِنْدَ رَبِّكَ » والله تعالى بكل مكان لأنهم قريبون من رحمته ، وكل قريب من رحمة الله عز وجل فهو عنـده ؛ عن الزجاج . وقال غيره : لأنهم فى موضع لا ينفذ فيه إلا حكم الله . وقيل : لأنهم رُسُل الله ؛ كما يقال : عند الخليفة جيش كثير . وقيل : هذا على جهة التشريف لهم ، وأنهـم بالمكان المكرم ؛ فهو عبارة عن قربهم فى الكرامه لا فى المسافة . ﴿ وَيُسَبِّحُونَهُ ﴾ أى ويعظمونه وينزهونه عن كل سوء . ﴿ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ قيل : يصلون . وقيل : يذِلّون ، خلاف أهل المعـاصى .

Marfat.com

الثانيـة ـــ والجمهور من العلماء فى أن هذا موضعُ سجود للقارئ . وقد اختلفوا فى عدد سجود القرآن؛ فأقصى ما قيل : خمس عشرة . أولها خاتمة الأعراف، وآخرها خاتمة العَلَق . وهو قول ابن حبيب وابن وهب ـــ فى رواية ـــ و إسحاق . ومن العلماء من زاد سجدة الحِجْر قوله تعالى : « وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ » على ما يأتى بيانه (١) إن شاء الله تعالى . فعلى هذا تكون ست عشرة . وقيـل : أربع عشرة؛ قاله ابن وهب فى الرواية الأخرى عنـه . فأسقط ثانية الحج . وهو قول أصحاب الرأى، والصحيح سـقوطها ؛ لأن الحديث لم يصح بثبوتها . ورواه ابن ماجه وأبو داود فى سننهما عن عبد الله بن مُنين من بنى عبد كُلال عن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأه خمس عشرة سجدة فى القرآن؛ منها ثلاث فى المفصّل، وفى الحج سجدتان . وعبد الله بن مُنين لا يحتج به؛ قاله أبو محمد عبد الحق . وذكر أبو داود أيضا من حديث عقبة بن عامر قال قلت : يارسول الله، أفى سورة الحج سجدتان ؟ . قال : "نعم ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما" . فى إسناده عبـد الله بن لَهِيعة ، وهو ضعيف جدا . وأثبتهما الشافعى وأسقط سجدة ص . وقيل : إحدى عشرة سجدة، وأسقط آخرة الحج وثلاث المفصل . وهو مشهور مذهب مالك . وروى عن ابن عباس وابن عمر وغيرهم . وفى سنن ابن ماجه عن أبى الدرداء قال : سجـدت مع النبى صلى الله عليـه وسلم إحدى عشرة سجدة ليس فيهـا من المفصل شىء ، الأعراف والرعد والنحل و بنى إسرائيـل ومريم والحج سجدة والفرقان وسليمان سورة النمل والسجدة وصّ وسجدة الحواميم . وقيل : عشر، وأسقط آخرة الحج وصّ وثلاث المفصـل؛ ذُكر عن ابن عباس . وقيل : إنهـا أربع ، سجدة آلم تنزيل وحم تنزيل والنجم والعلق . وسبب الخـلاف اختلاف النقل فى الأحاديث والعمل ، واختلافهم فى الأمر المجرد بالسجود فى القرآن، هل المراد به سجود التلاوة أو سجود الفرض فى الصلاة ؟

الثالثـة ـــ واختلفوا فى وجوب سجود التلاوة؛ فقال مالك والشافعى : ليس بواجب . وقال أبو حنيفة : هو واجب . وتعـلّق بأن مطلق الأمر بالسجود على الوجوب، و بقوله عليه السلام : "إذا قرأ ابن آدم سجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى يقول ياوَيْلَه" . وفى رواية

(١) راجع جـ ١٠ ص ٦٣ .

Marfat.com

أبي كُرَيب " يا ويلِي " ، وبقوله عليه السـلام إخبارا عن إبليس لعنه الله : " أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار " . أخرجه مسلم . ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يحافظ عليه . وعوّل علماؤنا على حديث عمر الثابت ـ خرّجه البخاري ـ أنه قرأ آية سجدة على المنبر [فنزل[1]] فسجد وسجد الناس معه ، ثم قرأها في الجمعة الأخرى فتهيأ الناس للسجود، فقال: "أيها الناس على رِسْلكم ! إن الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء" . وذلك بمحضر الصحابة [رضي الله عنهم أجمعين[2]] من الأنصار والمهاجرين . فلم ينكر عليه أحد فثبت الإجماع به في ذلك . وأما قوله : "أُمِر ابن آدم بالسجود" فإخبار عن السجود الواجب . ومواظبة النبيّ صلى الله عليه وسلم تدل على الآستحباب ! والله أعلم .

الرابعـــة ــ ولا خلاف في أن سجود القرآن يحتاج إلى ما تحتاج إليه الصلاة من طهارة حَدَث ونجَس ونيةٍ واستقبالِ قبلةٍ ووقت . إلا ما ذكر البخاري عن ابن عمر أنه كان يسجد على غير طهارة . وذكره ابن المنذر عن الشعبيّ . وعلى قول الجمهور هل يحتاج إلى تحريم ورفع يدين عنده وتكبير وتسليم ؟ اختلفوا في ذلك ؛ فذهب الشافعيّ وأحمد وإسحاق إلى أنه يكبر ويرفع للتكبير لهـا . وقد روى في الأثر عن ابن عمر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا سجد كبّر، وكذلك إذا رفع كبّر . ومشهور مذهب مالك أنه يكبر لها في الخفض والرفع في الصلاة . وآختلف عنه في التكبير لها في غير الصـلاة ؛ وبالتكبير لذلك قال عامة الفقهاء، ولا سلام لها عنـد الجمهور . وذهب جماعة من السلف وإسحاق إلى أنه يسلم منها . وعلى هـذا المذهب يتحقق أن التكبير في أولهـا للإحرام . وعلى قول من لا يسـلم يكون للسجود فحسب . والأول أولى؛ لقوله عليه السلام : " مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم" وهذه عبادة لها تكبير، فكان لهـا تحليل كصلاة الجنازة بل أولى، لأنها فعل وصلاة الجنازة قول . وهذا اختيار ابن العربيّ .

الخامسة ــ وأما وقته فقيل : يسجد في سائر الأوقات مطلقا؛ لأنهـا صلاة لسبب . وهو قول الشافعيّ وجماعة . وقيل : ما لم يُسفِر الصبح[3]، أو ما لم تصفرّ الشمس بعد العصر .

---

(١) من ابن العربيّ . (٢) من ك . (٣) من ك وع . وفي هـ : بعد الصبح . وهو خطأ ناسخ .

Marfat.com

وقيـل : لا يسجد بعد الصبح ولا بعد العصر . وقيل : يسجد بعـد الصبح ولا يسجد بعد العصر . وهذه الثلاثة الأقوال فى مذهبنا . وسبب الخلاف معارضة ما يقتضيه سبب قراءة السجدة من السجود المرتّب عليهـا لعموم النهى عن الصلاة بعد العصر و بعد الصبح . وآختلافهم فى المعنى الذى لأجله نُهى عن الصلاة فى هذين الوقتين، والله أعلم .

السادســة — فإذا سجد يقول فى سجوده : اللّهُمّ احطط عنى بها وِزْراً، وا كتب لى بها أجرا، واجعلها لى عندك ذخرا . رواه ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ ذكره ابن ماجه .

السابعـة — فإن قرأها فى صلاة ، فإن كان فى نافلة سجد إن كان منفردا أو فى جماعة وأمن التخليط فيهـا . و إن كان فى جماعة لا يأمن ذلك فيها فالمنصوص جوازه . وقيـل : لا يسجد . وأما فى الفريضة فالمشهور عن مالك النّهىُ عنـه فيها ، سواء كانت صـلاة سر أو جهر، جماعة أو فرادى . وهو معلّل بكونها زيادة فى أعداد سجود الفريضة . وقيـل : معلّل بخوف التخليط على الجماعة ؛ وهـذا أشبه . وعلى هذا لا يمنع منه الفرادى ولا الجماعة التى يأمن فيها التخليط .

الثامنـة — روى البخارىّ عن أبى رافع قال : صلّيت مع أبى هريرة العَتَمة ، فقرأ « إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ » فسجد ؛ فقلت : ما هـذه ؟ قال : سجدت بهـا خلف أبى القاسم صلى الله عليه وسلم، فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه . انفرد بإخراجه . وفيه : « وقيل لعمران ابن حُصين : الرجل يسمع السجدة ولم يجلس لها ؟ قال : أرأيت لو قعد لها ! كأنه لا يوجبه عليه . وقال سَلْمان : ما لهذا غدونا (١) . وقال عثمان (٢) : إنمـا السجدة على من آستمعها . وقال الزُّهرىّ : لا يسجد إلا أن يكون طاهرا، فإذا سجدت وأنت فى حَضَر فاستقبل القبـلة ، فإن كنت را كبا فلا عليك حيث كان وجهك . وكان السائب لا يسجد لسجود القـاص (٣) » والله أعلم .

---

(١) فى ك و هـ : عدرنا . (٢) فى ك : « عمر » (٣) القاص (بتشديد الصاد المهملة) : الذى يقرأ القصص والأخبار والمواعظ ؛ لكونه ليس قاصدا لتلاوة القرآن . وفى ع : القصاص .

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنفال

مدنيّة بدريّة فى قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء . وقال ابن عباس : هى مدنية إلا سبع آيات ، من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[1] إلى آخر السبع آيات .

قوله تعالى : يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١)

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ روى عُبادة بن الصّامت قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر فلقُوا العدوّ ، فلما هزمهم الله اتّبعتهم طائفة من المسلمين يقتلونهم ، وأحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستولت طائفة على العسكر والنهب ؛ فلما نفى الله العدوّ ورجع الذين طلبوهم قالوا : لنا النفل ، نحن الذين طلبنا العدوّ وبنا نفاهم الله وهزمهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنتم أحقّ به منا ، بل هو لنا ، نحن أحدقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا ينال العدوّ منه غِرّة . وقال الذين استلوا على العسكر والنهب : ما أنتم بأحقّ منا ، هو لنا ، نحن حَوَيْناه واستولينا عليه ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ . فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فُوَاقٍ بينهم . قال أبو عمر : قال أهل العلم بلسان العرب : استَلَوْا أطافوا وأحاطوا ؛ يقال : الموت مُستَلٍ على العباد . وقوله : « فقسمه عن فُواق » يعنى عن سرعة . قالوا : والفُوَاق ما بين حَلْبَتَى الناقة . يقال : انتظره فُواقَ ناقة ، أى هذا

(١) راجع ص ٣٩٧ من هذا الجزء .

Marfat.com

المقدار . ويقولونها بالضم والفتح : فُواق وفَواق . وكانَ هذا قبل أن ينزل : « وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ » الآية . وكأنّ المعنى عند العلماء : أى إلى الله و إلى الرسـول الحكم فيها والعملُ بها بما يقرب من الله تعالى . وذكر محمد بن إسحاق قال : حدّثنى عبد الرحمن ابن الحارث وغيره من أصحابنا عن سليمان بن موسى الأشْدَق عن مكحول عن أبى أمامة الباهلىّ قال : سألت عُبادة بن الصّامت عن الأنفال فقال : فينا معشر أصحاب بدرٍ نزلت حين اختلفنا فى النّفَل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى الرسول ، فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بَواء . يقول : على السَّوَاء . فكان ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وصلاح ذات البَيْن . ورُوى فى الصحيح عن سعد بن أبى وَقّاص قال : آغتنم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة عظيمة ، فإذا فيها سيف ، فأخذتُه فأتيت به النبىّ صلى الله عليه وسلم فقلت : نَفِّلنى هذا السيف ، فأنا من قد علمتَ حاله . قال : " ردّه من حيث أخذته " فانطلقت حتى أردت أن ألقيَه فى القَبَض (١) لامتنى نفسى فرجعت إليـه فقلت : أعطنيـه . قال : فشـدّ لى صوته " ردّه من حيث أخذته " فآنطلقت حتى أردت أن ألقيَه فى القبَض لامتنى نفسى فرجعت إليه فقلت : أعطنيه ، قال : فشدّ لى صوته " ردّه من حيث أخذته " فأنزل الله « يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنْفَالِ » . لفظ مسلم . والروايات كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية ، والله الموفق للهداية .

الثانيـــة — الأنفال واحدها نَفَل بتحريك الفاء ؛ قال (٢) :

إنّ تقْـوَى رَبِّنا خَـيرُ نَفَـل　　*　　وبإذن الله رَيْثِى والعَجَـلْ

أى خير غنيمة . والنَّفْل : اليمين ، ومنه الحديث " فتبرئكم يهود بنَفْل خمسين منهم " . والنَّفْل الآنتفاء ، ومنه الحديث " فآنتفل من ولدها " . والنَّفَل : نبت معروف . والنَّفْل : الزيادة على الواجب ، وهو التطوع . وولد الولد نافلة ؛ لأنه زيادة على الولد . والغنيمة نافلة ؛ لأنها

(١) القبض (بالتحريك) بمعنى المقبوض ، وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم .

(٢) القائل هو لبيد ؛ كما فى اللسان (مادة نفل) .

Marfat.com

زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة مما كان محرما على غيرها . قال صلى الله عليه وسلم : " فُضِّلت على الأنبياء بست — وفيها — وأُحِلّت لِيَ الغنائم " . والأنفال : الغنائم أنفسها . قال عنترة :

إنّا إذا آحمـر الوَغَى نُروِى القنا * ونَعِف عنـــد مقاسم الأنفال

أى الغنائم .

الثالثــة — وآختلف العلماء فى محـل الأنفال على أربعة أقوال : الأوّل — محلها فيما شذ عن الكافرين إلى المسلمين أو أخذ بغير حرب . الثـانى — محلها الخمس . الثالث — خمس الخمس . الرابع — رأس الغنيمة ؛ حسب ما يراه الإمام . ومذهب مالك رحمه الله أن الأنفال مواهب الإمام من الخمس، على ما يرى من الاجتهاد، وليس فى الأربعة الأخماس نفل ، وإنما لم ير النفل من رأس الغنيمة لأن أهلها معيّنون وهم المُوجِفون،(١) والخمس مردود قسمه إلى آجتهاد الإمام . وأهلُه غير معيّنين . قال صلى الله عليه وسلم : " مالى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم " . فلم يمكن بعد هذا أن يكون النفل من حق أحد ، وإنما يكون من حق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الخمس . هذا هو المعروف من مذهبه وقد روى عنه أن ذلك من خمس الخمس . وهو قول ابن المسيِّب والشافعيّ وأبى حنيفة . وسبب الخلاف حديثُ ابن عمر، رواه مالك قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سَرِيّة قِبَل نَجْد فغنموا إبلا كثيرة، وكانت سُهْمانهم آثنَىْ عشر بعيرا أو أحد عشر بعيرا ؛ ونُفِّلوا بعيرًا بعيرًا . هكذا رواه مالك على الشك فى رواية يحيى عنه ، وتابعـه على ذلك جماعة رواة الموطأ إلا الوليد بن مسلم فإنه رواه عن مالك عن نافع عن ابن عمر ، فقال فيـه : فكانت سُهْمانهم آثنى عشر بعيرا، ونُفِّلوا بعيرا بعيرا . ولم يشُــك . وذكر الوليد بن مسـلم والحكم بن نافع عن شعيب بن أبى حمزة عن نافع عن آبن عمر قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جيش قبل نجـد — فى رواية الوليد : أربعة آلاف — وآنبعثت سرية من الجيش — فى رواية الوليد : فكنت ممن خرج فيها — فكان سهمان الجيش آثنى عشر بعيرا، آثنى عشر بعيرا؛ ونفل أهل السرية بعيرا بعيرا ؛ فكان سهمانهم ثلاثة عشر بعيرا ؛ ذكره أبو داود . فآحتج بهذا من

(١) الموجفون : المحصلون بخيل وركاب . والإيجاف : سرعة السير .

يقول : إن النَّفل إنما يكون من جملة الخمس . وبيانه أن هذه السرية لو نزلت على أن أهلها كانوا عشرةً مثلا أصابوا فى غنيمتهم مائة وخمسين ، أخرج منها خمسها ثلاثين وصار لهم مائة وعشرون، قُسِّمت على عشرة وجب لكل واحد آثنا عشر بعيرا، اثنا عشر بعيرا، ثم أعطى القوم من الخمس بعيرا بعيرا؛ لأن خمس الثلاثين لا يكون فيه عشرة أبعرة. فإذا عرفت ما للعشرة عرفت ما للمائة والألف وأزيد . واحتج من قال: إن ذلك كان من خمس الخمس بأن قال : جائز أن يكون هناك ثياب تباع ومتاع غير الإبل ، فأعطى من لم يبلغه البعير قيمة البعير من تلك العُرُوض . ومما يعضد هذا ما روى مسلم فى بعض طرق هذا الحديث : فأصبنا إبلا وغنما؛ الحديثَ . وذكر محمد بن إسحاق فى هذا الحديث أن الأمير نفّلهم قبل القسم ، وهذا يوجب أن يكون النفل من رأس الغنيمة ، وهو خلاف قول مالك . وقول من روى خلافه أولى لأنهم حفّاظ ؛ قاله أبو عمر رحمه الله . وقال مكحول والأوزاعيّ : لا ينفَّل بأكثر من الثلث ؛ وهو قول الجمهور من العلماء . قال الأوزاعيّ : فإن زادهم فَلْيف لهم ويجعل ذلك من الخمس . وقال الشافعيّ : ليس فى النَّفَل حدّ لا يتجاوزه الإمام .

الرابعة — ودلّ حديث ابن عمر على ماذكره الوليد والحكَم عن شعيب عن نافع أن السريّة إذا خرجت من العسكر فغَنِمت أن العسكر شركاؤهم . وهذه مسألة وحُكم لم يذكره فى الحديث غير شعيب عن نافع، ولم يختلف العلماء فيه ، والحمد لله .

الخامسة — واختلف العلماء فى الإمام يقول قبل القتال : مَن هدم كذا من الحِصْن فله كذا، ومن بلغ إلى موضع كذا فله كذا ، ومن جاء برأس فله كذا ، ومن جاء بأسير فله كذا ؛ يُضَرِّيهم[(1)] . فرُوِى عن مالك أنه كرهه . وقال : هو قتال على الدنيا . وكان لا يجيزه . قال الثَّورِيّ : ذلك جائز ولا بأس به .

قلت : وقد جاء هذا المعنى مرفوعا من حديث ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: ” من قتل قتيلا فله كذا ومن أسر أسيرا فله كذا “ . الحديث بطوله .

---

(١) التضرية : الإغراء .

Marfat.com

وفى رواية عكرمة عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : "من فعل كذا وكذا وأتى مكان كذا وكذا فله كذا" . فتسارع الشُّبان وثبت الشيوخ مع الرايات ؛ فلما فُتح لهم جاء الشبان يطلبون ما جُعل لهم فقال لهم الأشياخ : لا تذهبون به دوننا ، فقد كنا رِدْءًا لكم ؛ فأنزل الله تعالى : « وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ » ذكره إسماعيل بن إسحاق أيضا . ورُوى عن عمر بن الخطاب أنه قال لجرير بن عبد الله البَجَلى لما قدم عليه فى قومه وهو يريد الشام : هل لك أن تأتى الكوفة ولك الثلث بعد الخمس من كل أرض وسَبْى؟ . وقال بهذا جماعة فقهاء الشام : الأوزاعى ومكحول وابن حَيْوَة وغيرهم . ورأوا الخمس من جملة الغنيمة ، والنفل بعد الخمس ثم الغنيمة بين أهل العسكر ؛ وبه قال إسحاق وأحمد وأبو عبيد . قال أبو عبيد : والناس اليوم على أن لا نفل من جهة الغنيمة حتى تخمس . وقال مالك : لا يجوز أن يقول الإمام لسرية : ما أخذتم فلكم ثلثه . قال سُحْنُون : يريد ابتداء . فإن نزل(1) مضى ، ولهم أنصباؤهم فى الباقى . وقال سحنون : إذا قال الإمام لسرية ما أخذتم فلا خمس عليكم فيه ؛ فهذا لا يجوز ، فإن نزل(1) رددته ؛ لأن هذا حكم شاذّ لا يجوز ولا يمضى .

السادسة — واستحب مالك رحمه الله ألّا ينفّل الإمام إلا ما يظهر كالعمامة والفرس والسيف . ومنع بعض العلماء أن ينفل الإمام ذهبا أو فضة أو لؤلؤا ونحوه . وقال بعضهم : النفل جائز من كل شىء . وهو الصحيح لقول عمر ومقتضى الآية ، والله أعلم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أمر بالتقوى والإصلاح ، أى كونوا مجتمعين على أمر الله فى الدعاء : اللَّهمّ أصلح ذات البَيْن ، أى الحال التى يقع بها الاجتماع . فدل هذا على التصريح بأنه تشجر بينهم اختلاف ، أو مالت النفوس إلى التشاحّ ؛ كما هو منصوص فى الحديث . وتقدم معنى التقوى(2) ، أى اتقوا الله فى أقوالكم ، وأفعالكم ، وأصلحوا ذات بينكم . ﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فى الغنائم ونحوها . ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى إن سبيل المؤمن أن يمتثل ما ذكرنا . وقيل : « إنْ » بمعنى « إذْ » .

---

(1) فى نزول : ترك . (2) راجع جـ ١ ص ١٦١ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال العلماء : هذه الآية تحريض على إلزام طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أمر به من قسمة تلك الغنيمة . والوجل : الخوف . وفى مستقبله أربع لغات : وَجِل يَوْجَل و يَاجَل و يَيْجَل و يِيجَل ، حكاه سيبويه . والمصدر وَجِل وَجَلا ومَوْجِلا ؛ بالفتح . وهذا مَوْجِله (بالكسر) للموضع والاسم . فمن قال : ياجَل فى المستقبل جعل الواو ألفا لفتحة ما قبلها . ولغة القرآن الواو « قَالُوا لَا تَوْجَلْ »[(١)] . ومن قال : « يِيجَل » بكسر الياء فهى على لغة بنى أسد ، فإنهم يقولون : أنا إِيجَل ، ونحن نِيجَل ، وأنت تِيجَل ؛ كلها بالكسر . ومن قال : « يَيْجَل» بناه على هذه اللغة ، ولكنه فتح الياء كما فتحوها فى يَعلم ، ولم تكسر الياء فى يعلم لاستثقالهم الكسر على الياء . وكسرت فى « يِيجَل » لتقوّى إحدى الياءين بالأخرى . والأمر منه «إيجَلْ» صارت الواو ياء لكسرة ماقبلها . وتقول : إنّى منه لأَوْجَل . ولا يقال فى المؤنث : وَجْلاء : ولكن وَجِلة . وروى سفيان عن السدّى فى قوله جل وعز : «الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » قال : إذا أراد أن يظلم مظلمة قيل له : اتق الله ، كَفّ ووَجِل قلبه .

الثانيــة — وصف الله تعالى المؤمنين فى هذه الآية بالخوف والوَجَل عند ذكره . وذلك لقوة إيمانهم ومراعاتهم لربّهم ، وكأنهم بين يديه . ونظير هذه الآية « وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ . الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ »[(٢)] . وقال : «وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ»[(٣)] . فهذا يرجع إلى كمال

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٤ . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٥٨ فما بعد .
(٣) راجع جـ ٩ ص ٣١٤ فما بعد .

Marfat.com

المعرفة وثقة القلب . والوَجَل : الفزع من عذاب الله ؛ فلا تناقض . وقد جمع الله بين المعنيين في قوله : «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ»(١) . أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله وإن كانوا يخافون الله . فهذه حالة العارفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته ؛ لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطَّغَام(٢) من الزَّعيق والزَّئير ومن النُّهاق الذى يشبه نُهاق الحمير . فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وَجْدٌ وخشوع : لم تبلغ أن تساوى حال الرسول ولا حال أصحابه فى المعرفة بالله ، والخوف منه ، والتعظيم لجلاله ؛ ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهمَ عن الله والبكاءَ خوفا من الله . ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال : «وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ»(٣) . فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم . ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم ؛ فمن كان مُسْتَنًّا فليستَنّ ، ومن تعاطى أحوال المجانين والجُنُون فهو من أخسّهم حالا ؛ والجنون فنون . روى مسلم عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبى صلى الله عليه وسلم حتى أَحْفَوْه(٤) فى المسألة ، فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال : " سَلُونِى لا تسألونى عن شيء إلا بينته لكم ما دمتُ فى مقامى هذا ". فلما سمع ذلك القومُ أَرَمُّوا(٥) ورهبوا أن يكون بين [يدَىْ(٦)] أمرٍ قد حضر . قال أنس : فجعلت ألتفت يمينا وشمالا فإذا كل إنسان لافٌّ رأسه فى ثوبه يبكى . وذكر الحديث . وروى التِّرمذِىّ وصححه عن العِرْباض بن سارِيَة قال : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة ذَرَفت منها العيون ، ووَجِلت منها القلوب . الحديث . ولم يقل : زَعَقْنا ولا رَقَصْنا ولا زَفَنَّا(٧) ولا قُمنا .

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٨ .
(٢) الطغام والطغامة : أرذال الناس وأوغادهم .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٢٥٨ .
(٤) أى أكثروا عليه . وأحفى فى السؤال وألحف بمعنى ألح .
(٥) أرم الرجل إرماما : إذا سكت فهو مرم .
(٦) زيادة عن صحيح مسلم .
(٧) زفن (من باب ضرب) : رقص ؛ وأصله الدفع الشديد والضرب بالرجل : كما يفعل الراقص .

Marfat.com

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ أى تصديقا . فإن إيمان هذه الساعة زيادةٌ على إيمان أمس ؛ فمن صدّق ثانيا وثالثا فهو زيادة تصديق بالنسبة إلى ما تقدّم . وقيل : هو زيادة انشراح الصدر بكثرة الآيات والأدلة ؛ وقد مضى هذا المعنى فى « آل عمران »(١) . ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ تقدّم معنى التوكل فى « آل عمران »(١) أيضا . ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ تقدّم فى أوّل سورة « البقرة »(٢) . ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أى الذى استوى فى الإيمان ظاهرُهم وباطنهم . ودلّ هذا على أن لكل حق حقيقة ؛ وقد قال عليه السلام لحارثة : "إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك" ؟ الحديث . وسأل رجل الحسن فقال : يا أبا سعيد ، أمؤمن أنت ؟ فقال له : الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألنى عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا به مؤمن . وإن كنت تسألنى عن قول الله تبارك وتعالى : «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ — إلى قوله — أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا» فوالله ما أدرى أنا منهم أم لا . وقال أبو بكر الواسطىّ : من قال أنا مؤمن بالله حقا ، قيل له : الحقيقة تشير إلى إشراف واطلاع وإحاطة ؛ فمن فقده بطل دعواه فيها . يريد بذلك ما قاله أهل السنة : إنّ المؤمن الحقيق من كان محكوما له بالجنة ، فمن لم يعلم ذلك من سرّ حكمته تعالى فدعواه بأنه مؤمن حقا غير صحيح .

قوله تعالى : كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ قال الزجاج : الكاف فى موضع نصب ؛ أى الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق . أى مثل إخراجك ربّك من بيتك بالحق . والمعنى : امض لأمرك فى الغنائم ونفّل من شئت وإن كرهوا ؛ لأن بعض

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٨٠ و ١٨٩ .
(٢) راجع جـ ١ ص ١٦٤ .

Marfat.com

الصحابة قال لرسول الله صلى الله عليه وسـلم حين جعل لكل من أتى بأسير شيئا قال : يبق أكثر الناس بغـير شيء . فموضع الكاف فى «كما» نَصْبٌ كما ذكرنا . وقاله الفـراء أيضا . قال أبو عبيدة : هو قَسَم، أى والذى أخرجك؛ فالكاف بمعنى الواو، وما بمعنى الذى. وقال سعيد بن مَسْعَدة : المعنى أولئك هم المؤمنون حقا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق . قال : وقال بعض العلماء «كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ» فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ. وقال عكرمة : المعنى أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك . وقيل : «كَمَا أَخْرَجَكَ» متعلق بقوله «لَهُمْ دَرَجَاتٌ» المعنى : لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم . أى هذا الوعد للؤمنين حق فى الآخرة كما أخرجك ربك من بيتك بالحق الواجب له؛ فأنجزك وعدك وأظفرك بعدوّك وأوْفَى لك؛ لأنه قال عز وجل : «وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ». فكما أنجز هذا الوعد فى الدنيا كذا يُنْجِزكم ما وعدكم به فى الآخرة. وهذا قول حسن ذكره النحاس واختاره . وقيل : الكاف فى «كما» كافُ التشبيه، ومخرجه على سبيل المجازاة؛ كقول القائل لعبده : كما وجّهتك إلى أعدائى فآستضعفوك وسألت مَدَدا فأمددتك وقوّيتـك وأزحت علتـك ، فخذهم الآن فعاقبهم بكذا . وكما كسوتك وأجريت عليك الرزق فاعمل كذا وكذا. وكما أحسنت إليك فآشكرنى عليه . فقال : كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وغشّاكم النُّعاس أَمَنَةً منه — يعنى به إياه ومن معـه — وأنزل من السماء ماء ليطهركم به ، وأنزل عليكم من السماء ملائكة مُرْدِفين؛ فاضربوا فوق الأعناق وآضربوا منهم كل بنان . كأنه يقول : قد أزحت عللكم، وأمددتكم بالملائكة فاضربوا منهم هـذه المواضع، وهو المَقْتَل؛ لتبلغوا مراد الله فى إحقاق الحق و إبطال البـاطل . والله أعلم . ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ أى لكارهون ترك مكة وترك أموالهم وديارهم .

قوله تعـالى : يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْـدَ مَا تَبَـيَّنَ كَأَنَّمَـا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ مجادلتهم : قولهم لما ندبهم إلى العِير وفات العِير وأمرهم بالقتال ولم يكن معهم كبير أُهْبَة شقّ ذلك عليهم وقالوا : لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدّة . ومعنى « فِي الْحَقِّ » أى فى القتال . « بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ » لهم أنك لا تأمر بشىء إلا بإذن الله . وقيل : بعد ما تبيّن لهم أن الله وعدهم إما الظَّفَر بالعِير أو بأهل مكة ، وإذ فات العير فلا بدّ من أهل مكة والظَّفَر بهم . فمعنى الكلام الإنكارُ لمجادلتهم . ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ ﴾ كراهة للقاء القوم . ﴿ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ أى يعلمون أن ذلك واقع بهم ؛ قال الله تعالى : « يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ »(١) أى يعلم .

قوله تعالى : وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ « إِحْدَى » فى موضع نصب مفعول ثان . « أَنَّهَا لَكُمْ » فى موضع نصب أيضا بدلا من « إحدى » . ﴿ وَتَوَدُّونَ ﴾ أى تحبون . ﴿ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ قال أبو عبيدة : أى غير ذات الحدّ . والشوكة : السلاح . والشوك : النبت الذى له حَدّ ؛ ومنه رجل شائك السلاح ، أى حديد السلاح . ثم يقلب فيقال : شاكِى السلاح . أى تودّون أن تظفروا بالطائفة التى ليس معها سلاح ولا فيها حرب ؛ عن الزجاج . ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى أن يظهر الإسلام . والحقُّ حَقّ أبدا ، ولكن إظهاره تحقيق له من حيث إنه إذا لم يظهر أشبه الباطل . « بِكَلِمَاتِهِ » أى بوعده ؛ فإنه وعد نبيّه ذلك فى سورة « الدخان » فقال : « يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ »(٢) أى من أبى جَهْل وأصحابه . وقال : « لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ »(٣) . وقيل : « بِكَلِمَاتِهِ » أى

(١) راجع جـ ١٩ ص ١٨٣ . (٢) راجع جـ ١٦ ص ١٣٣ . (٣) راجع جـ ٨ ص ١٢١ فما بعد .

Marfat.com

بأمره، إياكم أن تجاهدوهم . ﴿ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى يستأصلهم بالهلاك . ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ أى يظهر دين الإسلام و يُعِزّه[1] . ﴿ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ﴾ أى الكفر . وإبطاله إعدامه ؛ كما أن إحقاق الحق إظهاره « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ[2] » . ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ الاستغاثة : طلب الغَوْث والنصر . غوّث الرجل قال : واغوثاه[3] . والاسم الغَوث والغُوَاث والغَوَاث . واستغاثنى فلان فأغثته ؛ والاسم الغِياث ؛ عن الجوهرى . وروى مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وسبعة[4] عشر رجلا ؛ فاستقبل نبىّ الله صلى الله عليه وسلم القبلة ، ثم مدّ يديه ، فجعل يهتف بربه : "اللهم أنجز لى ما وعدتنى . اللهم آتنى ما وعدتنى . اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض" . فما زال يهتف بربه مادّا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه . فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبىّ الله ، كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله تعالى : « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ » فأمدّه الله بالملائكة . وذكر الحديث . ﴿ مُرْدَفِينَ ﴾ بفتح الدال قراءة نافع . والباقون بالكسر اسم فاعل ، أى متتابعين ، تأتى فرقة بعد فرقة ، وذلك أهيب فى العيون . و « مُرْدَفين » بفتح الدال على ما لم يسم فاعله ؛ لأن الناس الذين قاتلوا يوم بدر أردفوا بألف من الملائكة ، أى أنزلوا إليهم لمعونتهم على

(١) فى ج : دين الله . (٢) راجع ج ١١ ص ٢٧٧ . (٣) صارت الواو ياء لكسرة ماقبلها .
(٤) الذى فى صحيح مسلم : « ... تسعة عشر ... » والمشهور : ثلاثمائة وثلاثة عشر كما يأتى .

Marfat.com

الكفار . فمردَفين بفتح الدال نعت لألف . وقيل : هو حال من الضمير المنصوب في « مُمِدُّكُم » . أي ممدّكم في حال إردافكم بألف من الملائكة؛ وهذا مذهب مجاهد . وحكى أبو عبيدة أنّ رَدِفني وأردفني واحد . وأنكر أبو عبيد أن يكون أردف بمعنى ردِف ؛ قال لقول الله عز وجل : « تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ »(١) ولم يقل المُرْدِفَةُ . قال النحاس ومكّيّ وغيرهما : وقراءة كسر الدال أولى ؛ لأن أهل التأويل على هذه القراءة يفسرون . أي أردف بعضهم بعضا، ولأن فيها معنى الفتح على ما حكى أبو عبيدة، ولأن عليه أكثر القراء . قال سيبويه : وقرأ بعضهم « مُرَدِّفين » بفتح الراء وشدّ الدال . و بعضهم « مُرِدِّفين » بكسر الراء . و بعضهم « مُرُدِّفين » بضم الراء . والدال مكسورة مشددة في القراءات الثلاث . فالقراءة الأولى تقديرها عند سيبويه مرتدفين ، ثم أدغم التاء في الدال ، وألقى حركتها على الراء لئلا يلتقي ساكنان . والثانية كسرت فيها الراء لالتقاء الساكنين . وضمت الراء في الثالثة إتباعا لضمة الميم ؛ كما تقول : [ردّ وردُّ وردِّ](٢) يا هذا . وقرأ جعفر بن محمد وعاصم الجحدري : « بآلف » جمع ألف ؛ مثل فلس وأفلس . وعنهما أيضا « بألف » . وقد مضى في آل عمران » ذكر نزول الملائكة وسيماهم وقتالهم . وتقدّم فيها القول في معنى قوله : « وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى »(٣) . والمراد الإمداد . و يجوز أن يكون الإرداف . ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ نبه على أن النصر من عنده جل وعز لا من الملائكة ؛ أي لولا نصره لما انتفع بكثرة العدد بالملائكة . والنصر من عند الله يكون بالسيف و يكون بالحجة .

قوله تعالى : إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿إِذْ يُغْشِيكُمُ النُّعَاسَ﴾(٤) مفعولان . وهي قراءة أهل المدينة، وهي حسنة لإضافة الفعل إلى الله عز وجل لتقدم ذكره في قوله : « وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ » .

(١) راجع جـ ١٩ ص ١٩٢ .　　(٢) من ك ، هـ ، جـ .
(٣) راجع جـ ٤ ص ١٩٠ وص ١٩٨ .　　(٤) هي قراءة نافع .

Marfat.com

ولأن بعده « وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ » فأضاف الفعـل إلى الله عز وجل . فكذلك الإغشاء يضاف إلى الله عز وجل ليتشاكل الكلام . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « يَغْشَاكُمُ النعاسُ » بإضافة الفعل إلى النعاس . دليله « أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى »(١) فى قراءة من قرأ باليـاء أو بالتاء ؛ فأضاف الفعل إلى النعاس أو إلى الأَمَنَـة . والأمنة هى النعاس ؛ فأخبر أن النعاس هو الذى يغشى القوم . وقرأ الباقون « يُغَشِّيكُم » بفتح الغين وشـدّ الشين . « النعاسَ » بالنصب على معنى قراءة نافع ، لغتان بمعنى غَشَّى وأَغْشَى ؛ قال الله تعالى : « فَأَغْشَيْنَاهُمْ »(٢) . وقال : « فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى »(٣) . وقال : « كَأَنَّمَـا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ »(٤) . قال مكىّ : والاختيار ضم الياء والتشديد ونصب النعاس ؛ لأن بعده « أَمَنَةً مِنْهُ » والهـاء فى « منه » لله ، فهو الذى يغشيهم النعاس ، ولأن الأكثر عليه . وقيل : أمنـة من العدو . و ﴿ أَمَنَـةً ﴾ مفعول من أجله أو مصدر ؛ يقال : أمِن أَمَنَة وأَمْنا وأَمَانا ؛ كلها سواء . والنعاس حالة الآمن الذى لا يخاف . وكان هذا النعاس فى الليلة التى كان القتال من غدها ؛ فكان النوم عجيبا مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهمّ ، ولكن الله ربط جأشهم . وعن علىّ رضى الله عنـه قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المِقْدَاد على فرس أَبْلَق ، ولقـد رأيتنـا وما فينا إلا نائم إلا رسـول الله صلى الله عليه وسـلم تحت شجـرة يصلى ويبكى حتى أصبح ؛ ذكره البيهقى . المـاوردىّ(٥) : وفى آمتنان الله عليهـم بالنوم فى هـذه الليلة وجهان : — أحدهمـا أن قوّاهم بالاسـتراحة على القتال من الغـد . الثـانى — أن أمّنهم بزوال الرعب من قلوبهم ؛ كما يقال : الأمنُ مُنِيم ، والخوف مُسْهِر . وقيل : غشّاهم فى حال التقاء الصفين . وقد مضى مثل هذا فى يوم أُحُد فى « آل عمران » .

قوله تعـالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ ظاهر القرآن يدل على أن النعاس كان قبل المطر . وقال ابن أبى نَجِيح : كان المطر قبل النعاس . وحكى الزجاج : أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر فنزلوا عليه ، وبقى المؤمنون لا ماء لهم ، فوجست(٦) نفوسهم وعطشوا وأجنبوا وصلّوا

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٤١ . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٩ . (٣) راجع جـ ١٧ ص ١١٨ .
(٤) راجع جـ ٨ ص ٣٣٢ . (٥) فى ك ، ى : والمـاوردى . (٦) وجست : وقع فى نفوسهم الفزع .

Marfat.com

كذلك ؛ فقال بعضهم فى نفوسهم بإلقاء الشيطان إليهم : نزعم أنا أولياء الله وفينا رسوله وحالنا هذه والمشركون على الماء . فأنزل الله المطر ليلة بدر السابعة عشرة من رمضان حتى سالت الأودية ؛ فشربوا وتطهروا وسقوا الظَّهْر(١) وتلبَّدت السبخة(٢) التى كانت بينهم و بين المشركين حتى ثبتت فيها أقدام المسلمين وقت القتال . وقد قيل : إن هذه الأحوال كانت قبل وصولهم إلى بَدْر ؛ وهو أصحّ ، وهو الذى ذكره ابن إسحاق فى سيرته وغيره . وهذا اختصاره : قال ابن عباس لما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى سفيان أنه مقبل من الشأم ندب المسلمين إليهم وقال : "هذه عِير قريش فيها الأموال فاخرجوا إليهم لعل الله أن يُنَفِّلكموها" قال : فانبعث معه من خفّ؛ وثقل قوم وكرِهوا الخروج، وأسرع رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يَلْوِى(٣) على من تعذّر، ولا ينتظر من غاب ظهره، فسار فى ثلثمائة وثلاثة عشر من أصحابه من مهاجرىّ وأنصارىّ . وفى البخارىّ عن البراء بن عازب قال : كان المهاجرون يوم بدر نيفا وثمانين، وكان الأنصار نيفا وأربعين ومائتين . وخرج أيضا عنه قال : كنا نتحدّث أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا ثلثمائة و بضعة عشر، على عدد أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوز معه إلا مؤمن . وذكر البيهقىّ عن أبى أيوب الأنصارى قال : خرجنا — يعنى إلى بدر — فلما سِرنا يوما أو يومين أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتعادّ، ففعلنا فإذا نحن ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا ، فأخبرنا النبىّ صلى الله عليه وسلم بعدّتنا، فسرّ بذلك وحمد الله وقال : "عِدّة أصحاب طالوت" . قال ابن إسحاق : وقد ظن الناس بأجمعهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يَلْقَى حَرْبًا فلم يكثر استعدادهم . وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار و يسأل من لقى من الركبان تخوّفا على أموال الناس ، حتى أصاب خبرا من بعض الركبان أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استنفر لكم الناس ؛ فحذِر عند ذلك واستأجر ضَمْضَم بن عمرو الغِفارىّ و بعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتى قريشا

---

(١) الظهر : الإبل التى يحمل عليها و يركب .
(٢) السبخة (محركة) : أرض ذات ملح ونز . والمراد بها هنا الأرض التى تسوخ فيها الأرجل .
(٣) لا يلوى : لا يقف ولا ينتظر .

يستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد عرض لها فى أصحابه ؛ ففعل ضَمْضَمَ . فخرج أهـل مكة فى ألف رجل أو نحـو ذلك ، وخرج النبيّ صلى الله عليه وسـلم فى أصحابه ، وأتاه الخبر عن قريش بخروجهم ليمنعوا عِيرهم ؛ فاستشار النبيّ صلى الله عليه وسلم الناس ، فقام أبو بكر فقال فأحسن ، وقام عمر فقال فأحسن ، ثم قام المِقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ، آمض لما أمرك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول كما قالت بنـو إسرائيل « فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ » ولكن آذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون ، والذى بعثـك بالحق لو سرت إلى برك الغِماد — يعنى مدينة الحبشة — لجالدنا معك من دونه(١) ؛ فسر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له بخير . ثم قال : " أشيروا علىّ أيها الناس " يريد الأنصار . وذلك أنهم عدد الناس ، وكانوا حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسـول ، إنا برآء من ذِمامك حتى تصـل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذِممنا ، نمنعك مما نمنع منـه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا . فكان رسول الله صلى الله عليـه وسلم يتخوف ألا تكون الأنصار ترى أن عليها نصرته إلا بالمدينة ، وأنه ليس عليهم أن يسير بهـم إلى عدو بغـير بلادهم . فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمه سـعد بن معاذ — وقيل سعد بن عبادة ، ويمكن أنهما تكلما جميعا فى ذلك اليوم — فقال : يا رسول الله ، كأنك تريدنا معشر الأنصار ؟ فقال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : " أجل " فقال : إنا قد آمنا بك وآتبعناك ، فآمض لما أمرك الله ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لخضناه معك . فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " امضوا على بركة الله فكأنى أنظر إلى مصارع القوم " . فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبق قريشا إلى ماء بدر . ومنع قريشا من السبق إليـه مطر عظيم أنزله الله عليهم ، ولم يصب منـه المسلمين إلا ما شـدّ لهم دَهْس الوادى وأعانهم على المسير . والدّهس : الرمل اللين الذى تسوخ فيـه الأرجل . فنزل رسـول الله صلى الله عليه وسلم على أدنى ماء من ميـاه بدر إلى المدينة ، فأشار عليه الحُبَاب

(١) فى جـ : من دونها .

ابن المنذر بن عمرو بن الجموح بغير ذلك وقال له : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال عليه السلام : "بل هو الرأى والحرب والمكيدة" . فقال : يا رسول الله، إن هذا ليس لك بمنزل، فانهض بنا إلى أدنى ماء من القوم فننزله ونعور(١) ما وراءه من القُلُب(٢)، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه فنشرب ولا يشربون . فاستحسن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك من رأيه ، وفعله . ثم التقوْا فنصر الله نبيه والمسلمين، فقتل من المشركين سبعين وأسر منهم سبعين ، وانتقم منهم للمؤمنين ، وشفى الله صدر رسوله عليه السلام وصدور أصحابه من غيظهم . وفى ذلك يقول حسان :

عَرفتُ ديار زينب بالكثيب * كخطّ الوحىِ(٣) فى الورَق القشيبِ
تداولها الرياح وكلّ جَوْنٍ(٤) * من الوَسْمِىّ منهمرٍ سَكوبِ
فأمسى رَبْعها خلقا وأمست * يبابا(٥) بعد ساكنها الحبيب
فدع عنك التذكّر كلّ يوم * وردّ حرارة الصدر الكئيب(٦)
وخبِّرْ بالذى لا عيب فيه * بصدق غيرِ إخبارِ الكذوبِ
بما صنع الإله غداة بدرٍ * لنا فى المشركين من النصيب
غداة كأن جمعهم حِراءٌ * بدت أركانه جُنْحَ الغروب
فلاقيناهمُ منّا بجمع * كأسد الغاب مردانٍ وشيبِ
أمام محمد قد وازَرُوه * على الأعداء فى لَفْحِ الحروب
بأيديهم صوارِم مرهفات * وكلّ مجربٍ خاظى الكُعُوب(٧)

(١) عوّر عيون المياه : إذادفنها وسدها .
(٢) القلب : جمع قليب ، وهى البئر العادية القديمة التى لا يعلم لها رب ولا حافر تكون فى البرارى .
(٣) الوحى : الكتابة . والقشيب : الجديد .
(٤) الجون : السحاب . والوسمى : المطر الذى يأتى فى الربيع .
(٥) اليباب : الخراب .
(٦) الكئيب : الحزين .
(٧) الخاظى : الكثير اللحم ، والمراد الضخم العظيم ، أو ذو الشرف والمجد .

Marfat.com

بنـو الأوس الغطارِفُ وازرتْها * بنـو النجار فى الدِّين الصليب (١)
فغـادرْنا أبا جهـل صـريعا * وعتبـةَ قـد تركنا بالجَبُـوب (٢)
وشـيبةَ قـد تركنا فى رجال * ذوى نسب إذا نسبوا حسيب
يناديهـم رسـول الله لمـا * قذفناهـم كَبَاكِبَ فى القليب (٣)
ألم تجـدوا كلامى كان حقا * وأمرُ الله يأخـذ بالقـلوب
فما نطقوا، ولو نطقـوا لقـالوا * أصـبتَ وكنتَ ذا رأى مصـيب

وهنا ثلاث مسائل :

الأولى — قال مالك : بلغنى أن جبريل عليه السـلام قال للنبيّ صلى الله عليه وسـلم : "كيف أهل بدر فيكم" ؟ قال : "خيارنا" فقال : "إنهم كذلك فينا" . فدل هذا على أن شرف المخلوقات ليس بالذوات ، و إنما هو بالأفعال . فللملائكة أفعالها الشريفة من المواظبة على التسبيح الدائم . ولنـا أفعالنا بالإخلاص بالطاعة . وتتفاضل الطاعات بتفضيل الشرع لهـا ، وأفضلها الجهاد ، وأفضل الجهاد يوم بدر ؛ لأن بناء الإسلام كان عليه .

الثانيــة — ودل خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلقى العِير على جواز النفير للغنيمة لأنها كسب حلال . وهو يردّ ما كرِه مالك من ذلك ؛ إذ قال : ذلك قتـال على الدنيا، وما جاء أن من قاتل لتكون كلمـة الله هى العليا فهو فى سبيل الله دون من يقاتل للغنيمة ، يراد به إذا كان قصده وحده وليس للدين فيـه حظ . وروى عِكرمة عن ابن عباس قال : قالوا للنبيّ صلى الله عليـه وسلم حين فرغ من بدر : عليك بالعير ، ليس دونها شىء . فناداه العباس وهو فى الأَسْرى : لا يصلح هـذا . فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ولِمَ" ؟ قال : لأن الله وعدك إحدى الطائفتين ، وقد أعطاك الله ما وعدك . فقال النبيّ صلى الله عليـه وسلم .

(١) الغطارف : جمع الغطريف ، وهو السيد الشريف السخى . والصليب : الشديد المتين .
(٢) الجبوب : وجه الأرض . (٣) كباكب : جمع كبكبة وهى الجماعة الكثيرة . والقليب : البئر .

Marfat.com

"صدقت". وعلم ذلك العباس بحديث أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وبما كان من شأن بَدْر، فسمع ذلك فى أثناء الحديث .

الثالثة — روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك قتلى بدر ثلاثا ، ثم قام عليهم فناداهم فقال : "يا أبا جهل بن هشام يا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا" . فسمع عمر قول النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، كيف يسمعون ، وأنى يجيبون وقد جَيَّفُوا ؟ قال : "والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا" . ثم أمر بهم فسُحِبوا فألقوا فى القليب ، قليب بدر . « جيفوا » بفتح الجيم والياء، ومعناه أنتنوا فصاروا جيفا . وقول عمر : « يسمعون » استبعاد على ما جرت به [حكم](1) العادة . فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم يسمعون كسمع الأحياء . وفى هذا ما يدل على أن الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف ، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته، وحيلولة بينهما، وتبدّل حالٍ وانتقال من دار إلى دار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الميت إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم" الحديث . أخرجه الصحيح .

قوله تعالى : ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ الضمير فى « بِهِ » عائد على الماء الذى شدّ دهس الوادى ، كما تقدّم . وقيل : هو عائد على ربط القلوب ؛ فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة فى موطن الحرب .

قوله تعالى : إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾

(1) من ج ، ك ، هـ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ العـامل فى « إذ ، يثبت » أى يثبت به الأقدام ذلك الوقت . وقيل : العامل « ليربط » أى وليربط إذ يوحى . وقد يكون التقدير : اذكر « إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ » فى موضع نصب، والمعنى : بأنى معكم ، أى بالنصر والمعونة . « معكم » بفتح العين ظرف ، ومن أسكنها فهى عنـده حرف . ﴿فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى بشروهم بالنصر أو القتال معهم أو الحضور معهم من غير قتال؛ فكان الملك يسـير أمام الصف فى صـورة الرجل ويقول : سيروا فإن الله ناصركم . و يظن المسلمون أنه منهم ؛ وقـد تقدّم فى «آل عمران»[1] أن الملائكة قاتلت ذلك اليوم . فكانوا يرون رءوسا تنـدر[2] عن الأعناق من غير ضارب يرونه . وسمـع بعضهم قائلا يسمع قوله ولا يرى شخصه : أقدم حيزوم[3] . وقيل : كان هـذا التثبيت ذِكرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم للؤمنين نزول الملائكة مددا .

قوله تعـالى : ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ﴾ تقدّم فى «آل عمران» بيانه . ﴿فَٱضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ هـذا أمر للملائكة . وقيل : للؤمنين ، أى اضربوا الأعنـاق ، و «فوق» زائدة؛ قاله الأخفش والضحاك وعطية . وقد روى المسعودى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنى لم أبعث لأعذب بعذاب الله وإنمـا بعثت بضرب الرقاب وشدّ الوثاق" . وقال محمد بن يزيد : هـذا خطأ ؛ لأن « فوق » تفيد معـنى فلا يجوز زيادتها ، ولكن المعنى أنهـم أبيح لهم ضرب الوجوه وما قرب منهـا . وقال ابن عبـاس : كل هام وجُمْجُمة . وقيل : أى ما فوق الأعناق ، وهو الرءوس ؛ قاله عكرمة . والضرب على الرأس أبلغ ؛ لأن أدنى شىء يؤثر فى الدماغ . وقـد مضى شىء من هـذا المعنى فى « النساء » وأن « فوق » ليست بزائدة ، عنـد قوله : « فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ »[4] . ﴿وَٱضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال الزجاج : واحد البنان بنانة ، وهى هنـا الأصابع وغيرها من الأعضاء . والبنان مشتق من

(١) راجع جـ ٤ ص ١٩٠ ، ص ٢٣٢ .
(٢) ندر : سقط .
(٣) حيزوم : اسم فرس من خيل الملائكة .
(٤) راجع جـ ٥ ص ٦٣ .

Marfat.com

قولهم : أَبَنّ الرجل بالمكان إذا أقام به . فالبنان يُعتمل به ما يكون للإقامة والحياة . وقيل : المراد بالبنان هنا أطراف الأصابع من اليدين والرجلين . وهو عبارة عن الثبات فى الحرب وموضع الضرب ؛ فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء . قال عنترة :

وكان فَتَى الهَيْجاء يحمِى ذِمَارها * و يضرب عند الكَرْب كلّ بَنَانِ

ومما جاء أن البنان الأصابع قول عنترة أيضا :

وأنّ المـوت طوع يدى إذا ما * وصلت بَنانَها بالهِنْدُوانِى

وهو كثير فى أشعار العرب ، البنان : الأصابع . قال ابن فارس : البنان الأصابع ، ويقال : الأطراف . وذكر بعضهم أنها سميت بنانا لأن بهـا صلاح الأحوال التى بها يستقرّ الإنسان ويبِنّ (١) . وقال الضحاك : البنان كل مفصل .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ﴾ «ذلك» فى موضع رفع على الابتداء، والتقدير : ذلك الأمر ، أو الأمر ذلك . « شَاقُّوا ٱللَّهَ » أى أولياءه . والشقاق : أن يصير كل واحد فى شِق . وقد تقدّم (٢) . ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ قال الزجاج : «ذلكم» رفع بإضمار الأمر أو القصة ، أى الأمر ذلكم فذوقوه . و يجوز أن يكون فى موضع نصب بـ«ذُوقُوا» ، كقولك : زيدا فاضربه . ومعنى الكلام التوبيخ للكافرين . «وأنّ» فى موضع رفع عطف على ذلكم . قال الفرّاء : و يجوز أن يكون فى موضع نصب بمعنى و بأن للكافرين . قال : و يجوز أن يضمر واعلموا أن . الزجاج : لو جاز إضمار واعلموا لجاز زيد منطلق

(١) بن بالمكان : أقام . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٤٣ .

Marfat.com

وعمرا جالسا ، بل كان يجوز فى الابتداء زيدا منطلقا ؛ لأن المخبر معلم، وهذا لا يقوله أحد من النحويين .

قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿زَحْفًا﴾ الزحف الدنو قليلا قليلا . وأصله الاندفاع على الألية ؛ ثم سُمى كل ماشٍ فى الحرب إلى آخر زاحفا . والتزاحف : التدانى والتقارب ؛ يقال : زحف إلى العدو زحفا . وازدحف القوم ، أى مشى بعضهم إلى بعض . ومنه زحاف الشعر ، وهو أن يسقط بين الحرفين حرف فيزحف أحدهما إلى الآخر . يقول : إذا تدانيتم وتعاينتم فلا تفروا عنهم ولا تعطوهم أدباركم . حرّم الله ذلك على المؤمنين حين فرض عليهم الجهاد وقتال الكفار . قال ابن عطية : والأدبار جمع دُبُر . والعبارة بالدبر فى هذه الآية متمكنة الفصاحة ؛ لأنها بشعة على الفار ، ذامة له .

الثانيـة — أمر الله عز وجل فى هذه الآية ألا يولى المؤمنون أمام الكفار . وهذا الأمر مقيّد بالشريطة المنصوصة فى مِثْلَى المؤمنين ؛ فإذا لقيت فئة من المؤمنين فئة هى ضعف المؤمنين[1] من المشركين فالفرض ألا يفروا أمامهم . فمن فر من اثنين فهو فار من الزحف . ومن فر من ثلاثة فليس بفار من الزحف ، ولا يتوجّه عليه الوعيد . والفرار كبيرة مُوبِقة بظاهر القرآن وإجماع الأكثر من الأئمة . وقالت فرقة منهم ابن الماجشون فى الواضحة : إنه يراعى الضعف والقوة والعدّة ؛ فيجوز على قولهم أن يفر مائة فارس من[2] مائة فارس إذا علموا أن ما عند المشركين من النجدة والبسالة ضعفُ ما عندهم . وأما على قول الجمهور فلا يحل فرار مائة إلا

(١) فى ب ، ج ، هـ ، ك : مؤمنة . (٢) فى ج ، هـ : أمام .

Marfat.com

مما زاد على المائتين؛ فهما كان فى مقابلة مسلم أكثر من آثنين فيجوز الآنهزام ، والصبر أحسن . وقد وقف جيش مُؤْتَة وهم ثلاثة آلاف فى مقابلة مائتى ألف ، منهم مائة ألف من الروم ، ومائة ألف من المستعربة من لَخْم وجُذَام .

قلت : ووقع فى تاريخ فتح الأندلس ، أن طارقا مولى موسى بن نصير سار فى ألف وسبعمائة رجل إلى الأندلس ، وذلك فى رجب سنة ثلاث وتسعين من الهجرة ؛ فالتقى وملك الأندلس لذريق وكان فى سبعين ألف عِنان ؛ فزحف إليه طارق وصبر له فهزم الله الطاغية لذريق ، وكان الفتح . قال ابن وهب : سمعت مالكا يسأل عن القوم يلقون العدوّ أو يكونون فى محرس يحرسون فيأتيهم العدو وهم يسير ، أيقاتلون أو ينصرفون فيؤذنون أصحابهم ؟ قال : إن كانوا يقوون على قتالهم قاتلوهم ، وإلا انصرفوا إلى أصحابهم فآذنوهم .

الثالثة — واختلف الناس هل الفرار يوم الزحف مخصوص بيوم بدر أم عام فى الزحوف كلها إلى يوم القيامة ؟ فروى عن أبى سعيد الخدرىّ أن ذلك مخصوص بيوم بدر ، وبه قال نافع والحسن وقتادة ويزيد بن أبى حبيب والضحاك ، وبه قال أبو حنيفة . وأن ذلك خاص بأهل بدر فلم يكن لهم أن يتحازوا ، ولو آنحازوا لآنحازوا للشركين ، ولم يكن فى الأرض يومئذ مسلمون غيرهم ، ولا للسلمين فئة إلا النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئة لبعض . قال الكِيا : وهذا فيه نظر ؛ لأنه كان بالمدينة خلق كثير من الأنصار لم يأمرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالخروج ولم يكونوا يرون أنه قتال ، وإنما ظنوا أنها العير ؛ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن خف معه . ويروى عن ابن عباس وسائر العلماء أن الآية باقية إلى يوم القيامة . آحتج الأوّلون بما ذكرنا ، وبقوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ » فقالوا : هو إشارة إلى يوم بدر ، وأنه نسخ حكم الآية بآية الضعف ، وبقى حكم الفِرار من الزحف ليس بكبيرة . وقد فرّ الناس يوم أحد فعفا الله عنهم ، وقال الله فيهم يوم حنين « ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ »[1] ولم يقع على ذلك تعنيف . وقال الجمهور من العلماء : إنما ذلك إشارة

(١) راجع جـ ٨ ص ٩٦ .

إلى يوم الزحف الذى يتضمنه قوله تعالى : « إِذَا لَقِيتُمُ » . وحكم الآية باقٍ إلى يوم القيامة بشرط الضعف الذى بينه الله تعالى فى آية أخرى ، وليس فى الآية نسخ . والدليل عليه أن الآية نزلت بعد القتال وانقضاء الحرب وذهاب اليوم بما فيه . وإلى هذا ذهب مالك والشافعى وأكثر العلمــاء . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وســلم قال : " اجتنبوا السبع الموبقات — وفيه — والتولى يوم الزحف " وهذا نص فى المسألة . وأما يوم أُحُد فإنمــا فرّ النــاس من أكثر من ضعفهم ومع ذلك عنفوا . وأما يوم حنين فكذلك من فرّ إنمــا انكشف عن الكثرة ، على ما يأتى بيانه .

الرابعـــة — قال ابن القاسم : لا تجوز شهادة من فرّ من الزحف ، ولا يجوز لهم الفرار وإن فرّ إمامهم ؛ لقوله عز وجل : « وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ » الآية . قال : ويجوز الفِرار من أكثر من ضعفهم ، وهذا ما لم يبلغ عدد المسلمين آثنى عشر ألفا ؛ فإن بلغ اثنى عشر ألفا لم يحل لهم الفِرار وإن زاد عدد المشركين على الضعف ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ولن يغلب آثنا عشر ألفا من قِلة " فإن أكثر أهل العلم خصّصوا هذا العدد بهذا الحديث من عموم الآية .

قلت — رواه أبو بشر وأبو ســلمة العاملى ، وهو الحكم بن عبــد الله بن خُطّاف وهو متروك . قالا : حدّثنــا الزهرى عن أنس بن مالك عن رسول الله صــلى الله عليه وسلم قال : " يا أكثم بن الجَــوْن آغز مع غير قومك يحسن خلقك وتكرم على رفقائك . يا أكثم ابن الجون خير الرفقاء أربعة وخير الطلائع أربعون وخير السرايا أربعمائة وخير الجيوش أربعة آلاف ولن يؤتى آثنا عشر ألفا من قِلة " . وروى عن مالك ما يدل على ذلك من مذهبه وهو قوله للعُمَرِى[(١)] العابد إذ سأله هل لك سعة فى ترك مجاهدة من غيّر الأحكام وبدّلها؟ فقال : إن كان معك آثنا عشر ألفا فلا سعة لك فى ذلك .

---

(١) العمرى (بضم العين وفتح الميم) وهو عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، كان من أزهد أهل زمانه . مات سنة ١٨٤ هـ (عن أنساب السمعانى) .

Marfat.com

الخامسة — فإن فرّ فليستغفر الله عز وجل . روى الترمذيّ عن بلال بن يسار بن زيد قال : حدّثني أبي عن جدّي سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيّ القيوم وأتوب إليه غفر الله له وإن كان قد فرّ من الزحف " . قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ ﴾ التحرف : الزوال عن جهة الآستواء . فالمتحرف من جانب، إلى جانب لمكايد الحرب غير منهزم؛ وكذلك المتحيز إذا نوى التحيز إلى فئة من المسلمين ليستعين بهم فيرجع إلى القتال غير منهزم أيضا . روى أبو داود عن عبد الله بن عمر أنه كان في سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فحاص[1] الناس حيصة ، فكنت فيمن حاص ، قال : فلما برزنا قلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب . فقلنا : ندخل المدينة فنتثبت فيها ونذهب ولا يرانا أحد . قال : فدخلنا فقلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كانت لنا توبة أقمنا ، وإن كان غير ذلك ذهبنا . قال : فجلسنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل صلاة الفجر، فلما خرج قمنا إليه فقلنا : نحن الفرّارون؛ فأقبل إلينا فقال : " لا بل أنتم العكّارون " قال : فدنونا فقبلنا يده . فقال : " أنا فئة المسلمين " . قال ثعلب : العكارون هم العطافون . وقال غيره : يقال للرجل الذي يولّي عند الحرب ثم يكر راجعا : عَكَر وآعتكر . وروى جرير عن منصور عن إبراهيم قال : آنهزم رجل من القادسية فأتى المدينة إلى عمر فقال : يا أمير المؤمنين ، هلكت ! فررت من الزحف . فقال عمر : أنا فئتك . وقال محمد بن سيرين : لما قتل أبو عبيدة جاء الخبر إلى عمر فقال: لو انحاز إليّ لكنت له فئة، فأنا فئة كل مسلم . وعلى هذه الأحاديث لا يكون الفرار كبيرة ؛ لأن الفئة هنا المدينة والإمام وجماعة المسلمين حيث كانوا . وعلى القول الآخر يكون كبيرة ؛ لأن الفئة هناك الجماعة من الناس الحاضرة للحرب . هذا على قول الجمهور أن الفرار من الزحف كبيرة . قالوا : وإنما كان ذلك القول

(١) حاص : جال ؛ أي جالوا جولة يطلبون الفرار .

Marfat.com

من النبيّ صـلى الله عليه وسلم وعمر على جهـة الحيطة على المؤمنين، إذ كانوا فى ذلك الزمان ثبتون لأضعافهم مرارا . والله أعلم . وفى قوله " والتولى يوم الزحف " ما يكفى .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى استحق الغضب . وأصل « باء » رجع . وقد تقدّم [(1)] . ﴿ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ﴾ أى مقامه . وهذا لا يدل على الخلود؛ كما تقدّم فى غير موضع . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " من قال أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحىّ القيوم غفر له وإن كان قد فرّ من الزحف " .

قوله تعالى : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ أى يوم بدر . روى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صدروا عن بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل : قتلت كذا، فعلت كذا؛ فجاء من ذلك تفاخر [(2)] ونحو ذلك . فنزلت الآية إعلاما بأن الله تعالى هو المميت والمقدّر لجميع الأشياء، وأن العبد إنما يشارك بتكسبه وقصده . وهذه الآية تردّ على من يقول بأن أفعال العباد خلق [(3)] لهم . فقيل : المعنى فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم بسوقهم إليكم حتى أمكنكم منهم . وقيل : ولكن الله قتلهم بالملائكة الذين أمدكم بهم . ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ مثله ، ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ . واختلف العلماء فى هذا الرمى على أربعة أقوال :

الأوّل — إن هذا الرمى إنما كان فى حَصْب [(4)] رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ؛ رواه ابن وهب عن مالك . قال مالك : ولم يبق فى ذلك اليوم أحد إلا وقد أصابه ذلك . وكذلك روى عنه ابن القاسم أيضا .

---

(1) راجع جـ ١ ص ٤٣٠ . (2) فى هـ : مفاخر . (3) فى ى : من خلق لهم .
(4) أى رمى فى وجه العدو بالحصى .

Marfat.com

الثانى — أن هذا كان يوم أُحُد حين رمى أُبَىّ بن خلف بالحربة فى عنقه ؛ فكرّ أُبَىّ منهزما . فقال له المشركون : والله ما بك من بأس . فقال : والله لو بصق علىّ لقتلنى . أليس قد قال : بل أنا أقتله . وكان قد أوعد أُبَىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتل بمكة ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بل أنا أقتلك" فمات عدوّ الله من ضربة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرجعه إلى مكة ، بموضع يقال له « سَرِف »(١) . قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب : لما كان يوم أُحُد أقبل أُبَىّ مقنعا فى الحديد على فرسه يقول : لانجوتُ إن نجا محمد ؛ فحمل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد قتله . قال موسى بن عقبة قال سعيد بن المسيب : فاعترض له رجال من المؤمنين ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خلّوا طريقه ؛ فاستقبله مصعب بن عمير يَقِى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقُتل مصعب ابن عمير ، وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم تَرْقُوة أُبَىّ بن خلف من فُرجة بين سابغة البَيْضة والدّرع ؛ فطعنه بحربته فوقع أُبَىّ عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم . قال سعيد : فكسر ضِلعا من أضلاعه ؛ فقال : ففى ذلك نزل «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ» . وهذا ضعيف ؛ لأن الآية نزلت عقيب بدر .

الثالث — أن المراد السّهم الذى رمى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حِصن خَيْبر ، فسار فى الهواء حتى أصاب ٱبن أبى الحُقَيق وهو على فراشه . وهذا أيضا فاسد ، وخَيْبَرُ وفتحُها أبعد من أُحُد بكثير . والصحيح فى صورة قتل ابن أبى الحُقَيق غير هذا .

الرابع — أنها كانت يوم بدر ؛ قاله ابن إسحاق . وهو أصح ؛ لأن السورة بدرية ، وذلك أن جبريل عليه السلام قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم : "خذ قبضة من التراب" فأخذ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم فما من المشركين من أحد إلا وأصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة ؛ وقاله ابن عباس ، وسيأتى . قال ثعلب : المعنى «وَمَا رَمَيْتَ» الفزع والرعب فى قلوبهم « إِذْ رَمَيْتَ » بالحصباء فانهزموا « وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ » أى أعانك وأظفرك . والعرب تقول : رمى الله لك ، أى أعانك وأظفرك وصنع لك . حكى هذا أبوعبيدة

(١) سرف : موضع قريب من التنعيم وبه تزوج رسول الله أم المؤمنين ميمونة الهلالية وبه توفيت ودفنت رضى الله عنها .

Marfat.com

فى كتاب المجاز . وقال محمد بن يزيد : وما رميت بقوتك إذ رميت، ولكنّك بقوة الله رميت .

﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ﴾ البلاء ها هنا النعمة . واللام تتعلق بمحذوف ؛ أى وليبلى المؤمنين فعل ذلك . ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ قراءة أهل الحرمين وأبى عمرو . وقراءة أهل الكوفة ﴿مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِينَ﴾ . وفى التشديد معنى المبالغة . وروى عن الحسن « مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِينَ » بالإضافة والتخفيف[1] . والمعنى : أن الله عز وجل يلقى فى قلوبهم الرعب حتى يتشتتوا ويتفرق جمعهم فيضعفوا . والكيد : المكر . وقد تقدّم[2] .

قوله تعالى : إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ شرطٌ وجوابه . وفيه ثلاثة أقوال : يكون خطابا للكفار؛ لأنهم استفتحوا فقالوا : اللهمّ أقطعنا للرحم وأظلمنا لصاحبه فانصره عليه ؛ قاله الحسن ومجاهد وغيرهما . وكان هذا القول منهم وقت خروجهم لنُصرة العير . وقيل : قاله أبو جهل وقت القتال . وقال النّضر بن الحارث ؛ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو آئتنا بعذاب أليم . وهو ممن قتل ببدر . والاستفتاح : طلب النصر ؛ أى قد جاءكم الفتح ولكنه كان للمسلمين عليكم . أى فقد جاءكم ما بان به الأمر، وانكشف لكم الحق . ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ [أى][3] عن الكفر ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ . ﴿ وَإِنْ تَعُودُوا ﴾ أى إلى هذا القول وقتال محمد . ﴿ نَعُدْ ﴾ إلى نصر المؤمنين . ﴿ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ ﴾ أى [عن][4] جماعتكم ﴿ شَيْئًا ﴾ . ﴿ وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ أى فى العدد .

الثانى — يكون خطابا للمؤمنين ؛ أى إن تستنصروا فقد جاءكم النصر . وإن «تَنْتَهُوا» أى عن مثل مافعلتموه من أخذ الغنائم والأسرى قبل الإذن؛ «فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» . «وَإِنْ تَعُودُوا» أى إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم . كما قال : « لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ » الآية[5] .

(١) هذه القراءة هى قراءة عاصم رواية حفص . قال فى البحر : وقرأ باقى السبعة والحسن وأبو رجاء والأعمش وابن محيصن من أوهن وأضافه حفص . (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٨٠ . (٣) من هـ و جـ و ب .
(٤) من جـ . (٥) راجع جـ ٨ ص ٥٠ .

Marfat.com

والقول الثالث — أن يكون « إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ » خطابا للمؤمنين، وما بعده للكفار. أى وإن تعودوا إلى القتال نعد إلى مثل وقعة بدر. القشيرى : والصحيح أنه خطاب للكفار؛ فإنهم لما نفروا إلى نصرة العير تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أهدى الطائفتين، وأفضل الدينين. المهدوى : وروى أن المشركين خرجوا معهم بأستار الكعبة يستفتحون بها، أى يستنصرون.

قلت : ولا تعارض لاحتمال أن يكونوا فعلوا الحالتين. ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بكسر الألف على الاستئناف، وبفتحها عطف على قوله : « وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ». أو على قوله : « أَنِّي مَعَكُمْ ». والمعنى : ولأن الله؛ والتقدير لكثرتها وأن الله. أى من كان الله فى نصره لم تغلبه فئة وإن كثرت.

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الخطاب للمؤمنين المصدقين. أفردهم بالخطاب دون المنافقين إجلالا لهم. جدد الله عليهم الأمر بطاعة الله والرسول، ونهاهم عن التولى عنه. هذا قول الجمهور. وقالت فرقة : الخطاب بهذه الآية إنما هو للمنافقين. والمعنى : يأيها الذين آمنوا بألسنتهم فقط. قال ابن عطية : وهذا وإن كان محتملا على بعد فهو ضعيف جدا؛ لأن[1] الله تعالى وصف من خاطب فى هذه الآية بالإيمان. والإيمان التصديق، والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشىء. وأبعد من هذا من قال : إن الخطاب لبنى إسرائيل، فإنه أجنبى من[2] الآية.

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ التولى الإعراض. وقال « عنه » ولم يقل عنهما لأن طاعة الرسول طاعته؛ وهو كقوله تعالى : « وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ »[3]. ﴿ وَأَنْتُمْ

(١) فى ب وجـ وهـ : لأجل.	(٢) فى ى : فى الآية.	(٣) راجع جـ ٨ ص ١٩٣ فما بعد.

Marfat.com

تَسْمَعُونَ ﴾ ابتداء وخبر فى موضع الحال . والمعنى : وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين فى القرآن .

قوله تعـالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا ﴾ أى كاليهود أو المنافقين أو المشركين . وهو من سماع الأذن . ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أى لا يتدبرون ما سمعوا ، ولا يفكّرون فيه ؛ فهم بمنزلة من لم يسمع وأعرض عن الحق . نهى المؤمنين أن يكونوا مثلهم . فدلّت الآية على أن قول المؤمن : سمعت وأطعت ، لا فائدة فيـه ما لم يظهر أثر ذلك عليه بامتثال فعله . فإذا قصر فى الأوامر فلم يأتها ، واعتمد النواهى فاقتحمها فأى سمع عنـده وأى طاعة ! وإنمـا يكون حينئذ بمنزلة المنافق الذى يظهر الإيمان ، ويسر الكفر ؛ وذلك هو المراد بقوله : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَـا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ » . يعنى بذلك المنافقين ، أو اليهـود أو المشركين ، على ما تقدّم . ثم أخبر تعالى أن الكفار شرٌّ ما دبَّ على الأرض . وفى البخارى عن ابن عباس « إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ » قال : هم نفر من بنى عبد الدار . والأصل أشرّ ، حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال . وكذا خير ؛ الأصل أخير .

قوله تعـالى : وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ قيل : الحجج والبراهين ؛ إسماع تفهّم . ولكن سبق علمـه بشقاوتهم ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ أى لو أفهمهم لمـا آمنوا بعـد علمه الأزلىّ بكفرهم . وقيل : المعنى لأسمعهم كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم ؛ لأنهم طلبوا إحياء قُصَىّ ابن كلاب وغيره ليشهدوا بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم . الزجاج : لأسمعهم جواب كل ماسألوا عنه . ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ إذ سبق فى علمه أنهم لا يؤمنون .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ هذا الخطاب للؤمنين المصدّقين بلا خلاف . والاستجابة : الإجابة . و﴿ يُحْيِيكُمْ ﴾ أصله يحييكم ، حذفت الضمة من الياء لثقلها . ولا يجوز الإدغام . قال أبو عبيدة : معنى « اسْتَجِيبُوا » أجيبوا ؛ ولكن عُرْف الكلام أن يتعدّى استجاب بلام ، ويتعدّى أجاب دون لام . قال الله تعالى : «يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ »(1) . وقد يتعدّى استجاب بغير لام ؛ والشاهد له قول الشاعر(2) :

وداعٍ دعا يا مَنْ يُجيب إلى النّدى * فلم يَستجبْه عند ذاك مُجيبُ

تقول : أجابه وأجاب عن سؤاله . والمصدر الإجابة . والأسم الجابة ؛ بمنزلة الطاقة والطاعة . تقول : أساء سَمْعًا فأساء جابة(3) . هكذا يتكلم بهذا الحرف . والمجاوبة والتجاوب : التحاور . وتقول : إنه لحَسن الجيبة (بالكسر) أي الجواب . ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ متعلق بقوله : « استجيبوا » . المعنى : استجيبوا لما يحييكم إذا دعاكم . وقيل : اللام بمعنى إلى ، أي إلى ما يحييكم ، أي يُحيي دينكم ويعلمكم . وقيل : أي إلى ما يحيي به قلوبكم فتوحّدوه ، وهذا إحياء مستعار ؛ لأنه من موت الكفر والجهل . وقال مجاهد والجمهور : المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهي ؛ ففيه الحياة الأبدية ، والنعمة السرمدية ، وقيل : المراد بقوله « لِمَا يحييكم » الجهاد ، فإنه سبب الحياة في الظاهر ، لأن العدو إذا لم

(1) راجع جـ ١٦ ص ٢١٧ .　　(2) هو كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه أبا المغوار .

(3) أصل هذا المثل على ما ذكر الزبير بن بكار أنه كان لسهل بن عمرو بن مضعوف فقال له إنسان : أين أمك (بفتح الهمزة وتشديد الميم المضمومة) أي أين قصدك ؛ فظن أنه يقول له : أين أمك ؛ (بضم الهمزة والميم) فقال : ذهبت تشتري دقيقا . فقال أبوه : أساء سمعا ... الخ . (عن اللسان) .

Marfat.com

يُغـز غَزا ؛ وفى غزوه الموت ، والموت فى الجهاد الحياةُ الأبدية ؛ قال الله عز وجل : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ » (١) والصحيح العموم كما قال الجمهور .

الثانيـــة ــ روى البخاري عن أبى سـعيد بن المُعَلَّى قال : كنت أصلى فى المسـجد فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسـلم فلم أُجبه ، ثم أتيته فقلت : يا رسول الله ، إنى كنت أصلّى . فقال : " ألم يقل الله عز وجل « ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ » " وذكر الحديث . وقد تقدّم فى الفاتحة (٢) . وقال الشافعي رحمه الله : هذا دليل على أن الفعل الفرضَ أو القول الفرضَ إذا أتى به فى الصلاة لا تبطل؛ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإجابة و إن كان فى الصلاة .

قلت : وفيه حجـة لقول الأوزاعى : لو أن رجلا يصلى فأبصر غلاما يريد أن يسـقط فى بئر فصاح به وانصرف إليه وانتهره لم يكن بذلك بأس . والله أعلم .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ قيل : إنه يقتضى النص منه على خلقه تعالى الكفر والإيمان فيحول بين المرء الكافر و بين الإيمان الذى أمره به ، فلا يكتسبه إذا لم يُقدره عليــه بل أقدره على ضـدّه وهو الكفر . وهكذا المؤمن يحول بينه و بين الكفر . فبَانَ بهذا النص أنه تعالى خالق لجميع اكتساب (٣) العباد خيرها وشرها . وهذا معنى قوله عليه السلام : " لا ، ومُقَلِّب القلوب " . وكان فعل الله تعـالى ذلك عدلا فيمن أضله وخذله ؛ إذ لم يمنعهم حقا وجب عليه فتزول صفة العدل ، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهـم لا ما وجب لهم . قال السُّـدّى : يحول بين المرء وقلبه فـلا يستطيع أن يؤمن إلا بإذنه ، ولا يكفر أيضا إلا بإذنه ؛ أى بمشيئته . والقلب موضع الفكر . وقد تقدّم فى « البقرة » (٤) بيانه . وهو بيد الله ، متى شاء حال بين العبد و بينه بمرض أو آفة كيلا يعقل . أى بادروا إلى الاستجابة قبل ألّا تتمكنوا منها بزوال العقل . وقال مجاهد : المعنى يحول بين المرء

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٦٨ . (٢) راجع جـ ١ ص ١٠٨ .
(٣) أى أفعالهم إذ هى مخلوقة له سبحانه والاكتساب للعبد . (٤) راجع جـ ١ ص ١٨٧ .

Marfat.com

وعقله حتى لا يدرى ما يصنع . وفى التنزيل : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ »[1] أى عقل . وقيل : يحول بينه و بينه بالموت ، فلا يمكنه آستدراك ما فات . وقيل : خاف المسلمون يوم بَدْر كثرة العدو فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدّلهم بعد الخوف أَمْنًا، ويبدّل عدوّهم من الأمن خوفا . وقيل : المعنى يقلّب الأمور من حال إلى حال؛ وهذا جامع . واختيار الطبرى أن يكون ذلك إخبارا من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب العباد منهم، وأنه يحول بينهم و بينها إذا شاء؛ حتى لا يدرك الإنسان شيئا إلا بمشيئة الله عز وجل . ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ عطف . قال الفرّاء : ولو استأنفت فكسرت ، « وأنه » كان صوابا .

قوله تعالى : وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين ألا يُقِرّوا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب . وكذلك تأوّل فيها الزبير بن العوّام فإنه قال يوم الجمل ، وكان سنة ست وثلاثين : ما علمت أنا أُرِدنا بهذه الآية إلا اليوم، وما كنت أظنها إلا فيمن خوطب ذلك الوقت . وكذلك تأوّل الحسن البصرى والسدّى وغيرهما . قال السدّى : نزلت [الآية][2] فى أهل بدر خاصة ؛ فأصابتهم الفتنة يوم الجمل فاقتتلوا . وقال ابن عباس رضى الله عنه : نزلت هذه الآية فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : وقال : أمر الله المؤمنين ألا يقرّوا المنكر فيما بينهم فيعمهم الله بالعذاب . وعن حُذيفة بن اليَمَان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يكون بين ناس من أصحابى فتنة يغفرها الله لهم بصحبتهم إياى يستنّ بهم فيها ناس بعدهم يدخلهم الله بها النار" .

قلت : وهذه التأويلات هى التى تعضدها الأحاديث الصحيحة ؛ ففى صحيح مسلم عن زينب بنت جحش أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : يارسول الله، أنهلك وفينا

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٢ . (٢) من جـ .

Marfat.com

الصالحون ؟ قال : " نعم إذا كثر الخبث " . وفى صحيح الترمذى : " إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده " وقد تقدّمت هذه الأحاديث . وفى صحيح البخارى والترمذى عن النعمان بن بشير عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " مَثَل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قومٍ استَهَموا (١) على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسـفلها إذا اسْتَقَوْا من المـاء مرّوا على مَن فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا و إن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعا ". ففى هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب الخاصة . وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . قال علماؤنا : فالفتنة إذا عُملت هلك الكل . وذلك عند ظهور المعاصى وانتشار المنكر وعدم التغيير ، و إذا لم تُغيَّر وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هِجران تلك البلدة والهرب منهـا . وهكذا كان الحكم فيمن كان قبلنـا من الأمم ؛ كما فى قصة السَّبْت حين هجروا العاصين وقالوا لا نساكنكم . و بهذا قال السلف رضى الله عنهـم . روى آبن وهب عن مالك أنه قال : تُهجر الأرض التى يصنع فيهـا المنكر جهارا ولا يستقر فيها . واحتج بصنيع أبى الدرداء فى خروجه عن أرض معاوية حين أعلن بالربا ، فأجاز بيع سقاية الذهب بأكثر من وزنها . خرّجه الصحيح . و روى البخارى عن آبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا أنزل الله بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بُعثوا على أعمالهم " . فهذا يدل على أن الهلاك العام منه ما يكون طُهرة للؤمنين ومنه ما يكون نِقمة للفاسقين . و روى مسلم عن عبد الله بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها قالت : عَبِث (٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه ، فقلت : يا رسول الله ، صنعتَ شيئا فى منامك لم تكن تفعله ؟ فقال : " العجبُ ، إن ناسا من أمتى يَؤُمّون هـذا البيت برجل من قريش قد لجـأ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خُسف بهم " . فقلنا : يا رسـول الله ، إن الطريق

(١) استهموا : اقترعوا .

(٢) عبث : معناه اضطرب بجسمه . وقيل : حرك أطرافه كن يأخذ شيئا أو يدفعه .

قد يجمع الناس . قال : " نعم، فيهم المستبصر (١) والمجبور وابن السبيل يهلكون مهلكا واحدا ويصدرون مصادر شتّى يبعثهم الله تعالى على نياتهم " . فإن قيل : فقد قال الله تعالى « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٢) » . « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣) » . « لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ (٤) » . وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب . فالجواب أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره؛ فإذا سكت (٥) عليه فكلهم عاص . هذا بفعله وهذا برضاه . وقد جعل الله في حُكمه وحكمته الراضي بمنزلة العامل؛ فانتظم في العقوبة (٦)؛ قاله ابن العربي . وهو مضمون الأحاديث كما ذكرنا . ومقصود الآية : واتقوا فتنة تتعدّى الظالم، فتصيب الصالح والطالح .

الثانية — واختلف النحاة في دخول النون في « لَا تُصِيبَنَّ » . قال الفراء : هو بمنزلة قولك : انزل عن الدابة لا تطرحنّك؛ فهو جواب الأمر بلفظ النهي؛ أي إن تنزل عنها لا تطرحنّك . ومثله قوله تعالى : « ٱدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ (٧) » . أي إن تدخلوا لا يحطمنكم؛ فدخلت النون لما فيه من معنى الجزاء . وقيل : لأنه خرج مخرج القَسَم ، والنون لا تدخل إلا على فعل النهي أو جواب القَسَم . وقال أبو العباس المبرّد : إنه نهي بعد أمر، والمعنى النهيُ للظالمين؛ أي لا تقربن الظلم . وحكى سيبويه : لا أرينّك ها هنا؛ أي لا تكن ها هنا؛ فإنه من كان ها هنا رأيته . وقال الجُرْجانيّ : المعنى اتقوا فتنة تصيب الذين ظلموا خاصة . فقوله « لَا تُصِيبَنَّ » نهي في موضع وصف النكرة؛ وتأويله الإخبار بإصابتها الذين ظلموا . وقرأ عليّ وزيد بن ثابت وأُبيّ وابن مسعود « لتصيبن » بلا ألف . قال المهدويّ : من قرأ « لتصيبن » جاز أن يكون مقصورا من « لا تصيبن » حذفت الألف كما حذفت من « ما » وهي أخت « لا » في نحو أمَ والله لأفعلنّ ، وشبهه . ويجوز أن تكون مخالفة لقراءة الجماعة؛ فيكون المعنى أنها تصيب الظالم خاصة .

---

(١) المستبصر : هو المستبين للأمر، القاصد لذلك عمدا . والمجبور : المكره .

(٢) راجع جـ ٧ ص ١٥٥ فما بعد . وجـ ١٠ ص ٢٣٠ وجـ ١٧ ص ١١٣ (٣) راجع جـ ١٩ ص ٨٢ فما بعد .

(٤) راجع جـ ٣ ص ٤٢٤ فما بعد . (٥) كذا في ب وجـ وهـ وك وى . وفي ز : سكتوا .

(٦) عبارة ابن العربي : « فانتظم الذنب بالعقوبة » . (٧) راجع جـ ١٣ ص ١٦٩ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢٦)

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ ﴾ قال الكلبي : نزلت فى المهاجرين؛ يعنى وصف حالهم قبل الهجرة وفى ابتداء الإسلام . ﴿ مُسْتَضْعَفُونَ ﴾ نعت . ﴿ فِى الْأَرْضِ ﴾ أى أرض مكة . ﴿ تَخَافُونَ ﴾ نعت . ﴿ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ ﴾ فى موضع نصب . والخطف : الأخذ بسرعة . ﴿ النَّاسُ ﴾ رفع على الفاعل . قتادة وعكرمة : هم مشركو قريش . وهب بن منبه : فارس والروم . ﴿ فَآوَاكُمْ ﴾ قال ابن عباس : إلى الأنصار . السدّى : إلى المدينة ؛ والمعنى واحد . آوى إليه (بالمد) : ضمّ إليه . وأوى إليه (بالقصر) : انضمّ إليه . ﴿ وَأَيَّدَكُمْ ﴾ قوّاكم . ﴿ بِنَصْرِهِ ﴾ أى بعونه . وقيل : بالأنصار . وقيل : بالملائكة يوم بدر[1] . ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أى الغنائم[2] . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ قد تقدّم معناه .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٧)

روى أنها نزلت فى أبى لُبابة بن عبد المنذر حين أشار إلى بنى قُريظة بالذبح . قال أبو لُبابة : والله ما زالت قدماى حتى علمت أنى قد خنت الله ورسوله ؛ فنزلت هذه الآية . فلما نزلت شدّ نفسه إلى سارية من سوارى المسجد، وقال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت، أو يتوب الله علىّ . الخبر مشهور[3] . وعن عكرمة قال : لما كان شأن قريظة بعث النبىّ صلى الله عليه وسلم عليًّا رضى الله عنه فيمن كان عنده من الناس ؛ فلما انتهى إليهم وقعوا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء جبريل عليه السلام على فرس أبلق فقالت عائشة رضى الله عنها : فلكأنى أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح الغبار عن وجه

(١) فى ج وك وه وى : بقوته . (٢) راجع ج ١ ص ٣٩٧ . (٣) راجع ج ٨ ص ٢٤٢ .

Marfat.com

جبريل عليهما السلام؛ فقلت : هذا دِحية يارسول الله؟ فقال : "هذا جبريل عليه السلام". قال : "يارسول الله ما يمنعك من بنى قُريظة أن تأتيهم"؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فكيف لى بحصنهم"؟ فقال جبريل : "فإنى أدخل فرسى هذا عليهم". فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا مُعْرَوْرًى(١)؛ فلما رآه علىّ رضى الله عنه قال : يا رسول الله، لا عليك ألّا تأتيهم، فإنهم يشتمونك . فقال : "كلا إنها ستكون تحية". فأتاهم النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : "يا إخوة القردة والخنازير" فقالوا : يا أبا القاسم، ما كنت فحاشا! فقالوا : لاننزل على حكم محمد، ولكنا ننزل على حكم سعد بن معاذ؛ فنزل . فحكم فيهم أن تقتل مقاتِلتهم وتُسْبَى ذراريهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بذلك طرقنى المَلَك سَحَرًا" فنزل فيهم « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » . نزلت فى أبى لُبابة، أشار إلى بنى قُريظة حين قالوا : ننزل على حكم سعد بن معاذ، لا تفعلوا فإنه الذبح، وأشار إلى حلقه . وقيل : نزلت الآية فى أنهم كانوا يسمعون الشىء من النبىّ صلى الله عليه وسلم فيُلقونه إلى المشركين ويُفشونه . وقيل : المعنى بغلول الغنائم . ونسبتها إلى الله؛ لأنه [هو](٢) الذى أمر بقسمتها . وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنه المؤدّى عن الله عز وجل والقَيِّم بها . والخيانة : الغدر وإخفاء الشىء؛ ومنه : «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ»(٣) وكان عليه السلام يقول : "اللهم إنى أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ومن الخيانة فإنها بئست البِطانة". خرّجه النسائى عن أبى هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ...؛ فذكره .

﴿ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ فى موضع جزم، نسقا على الأوّل . وقد يكون على الجواب؛ كما يقال : لا تأكل السمك وتشرب اللبن . والأمانات : الأعمال التى ائتمن الله عليها العباد . وسميت أمانة لأنها يُؤمَن معها من منع الحق؛ مأخوذة من الأمن . وقد تقدّم فى « النساء » القول فى أداء الأمانات والودائع(٤) وغير ذلك . ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى ما فى الخيانة من القبح والعار . وقيل : تعلمون أنها أمانة .

(١) عريانا .		(٢) من ج .		(٣) راجع ج ١٥ ص ٣٠١ فما بعد .
(٤) راجع ج ٥ ص ٢٥٥ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢٨)

قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ كان لأبى لبابة أموال وأولاد فى بنى قُريظة : وهو الذى حمله على ملاينتهم؛ فهذا إشارة إلى ذلك . ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ أى آختبار؛ آمتحنهم بها . ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ فآثروا حقه على حقكم .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (٢٩)

قد تقـدّم معنى « التقوى » . وكان الله عالمـا بأنهم يتقون أم لا يتقون . فذكر بلفظ الشرط؛ لأنه خاطب العباد بما يخاطِب بعضهم بعضا . فإذا آتقى العبد ربّه ــ وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيـه ــ وترَك الشبهات مخافة الوقوع فى المحرّمات ، وشحن قلبـه بالنية الخالصة ، وجوارحه بالأعمـال الصالحة ، وتحفّظ من شوائب الشرك الخفىّ والظاهر بمراعاة غير الله فى الأعمال ، والركون إلى الدنيا بالعفة عن المـال ، جعل له بين الحق والباطل فرقانا ، ورزقه فيما يريد من الخير إمكانا . قال ابن وهب : سألت مالكا عن قوله سبحانه وتعالى : « إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا » قال : مخرجا ، ثم قرأ « وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا »[1] . وحكى ابن القاسم وأشهب عن مالك مثله سواء ، وقاله مجاهد قبله . وقال الشاعر :

مَالكَ من طُـول الأسَى فُـرقان * بعــد قَطِــينٍ رَحَـلوا وبَانُوا

وقال آخر :

وكيف أرَجّى الخلد والموت طالبى * وما لى من كأس المنيـة فرقانُ

ابن إسحاق : « فُرْقَانًا » فَصْلا بين الحق والباطل؛ وقاله ابن زيد . السدىّ : نجاة . الفرّاء : فتحا ونصرا . وقيل : فى الآخرة ، فيدخلكم الجنة ويدخل الكفار النار .

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٥٧ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

هذا إخبار بما اجتمع عليه المشركون من المكر بالنبيّ صلى الله عليه وسلم فى دار النَّدْوة ؛ فآجتمع رأيهم على قتله فبيّتوه ، و رصدوه على باب منزله طول ليلتهم ليقتلوه إذا خرج ؛ فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم على بن طالب أن ينام على فراشه ، ودعا الله عز وجل أن يُعمى عليهم أثره ، فطمس الله على أبصارهم ، فخرج وقد غَشِيَهم النوم ، فوضع على رءوسهم ترابا ونهض . فلما أصبحوا خرج عليهم علىٌّ فأخبرهم أن ليس فى الدار أحد ، فعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فات ونجا . الخبر مشهور فى السيرة وغيرها . ومعنى « لِيُثْبِتُوكَ » ليحبسوك ؛ يقال : أثبتّه إذا حبسته . وقال قتادة : « لِيُثْبِتُوكَ » وَثاقا . وعنه أيضا وعبدِ الله بن كَثير : ليسجنوك . وقال أبَان بن تَغْلِب وأبو حاتم : ليثخنوك بالجراحات والضرب الشديد . قال الشاعر :

فقلتُ ويحكما ما فى صحيفتكم * قالوا الخليفة أمسى مُثبَتًا وجعا

﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ عطف . ﴿ وَيَمْكُرُونَ ﴾ مستأنف . والمكر : التدبير فى الأمر فى خفية . ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ ٱبتداء وخبر . والمكر من الله هو جزاؤهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

نزلت فى النَّضر بن الحارث ؛ كان خرج إلى الحِيرة فى التجارة فاشترى أحاديث كَلِيلة ودِمنة ، وكِسرى وقيصر ؛ فلما قصّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار من مضى قال النضر : لو شئت لقلت مثل هذا . وكان هذا وَقاحة وكذبا . وقيل : إنهم توهموا أنهم

Marfat.com

يأتون بمثله ، كما توهمت سحرة موسى ، ثم راموا ذلك فعجزوا عنـه وقالوا عنادا : إن هـذا إلا أساطير الأولين . وقد تقدّم[1] .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

القراء على نصب « الحقّ » على خبر « كان » . ودخلت « هو » للفصل . ويجوز « هو الحق » بالرفع . ﴿ مِنْ عِندِكَ ﴾ قال الزجاج : ولا أعلم أحدا قرأ بهـا ، ولا اختلاف بين النحويين فى إجازتها ، ولكن القراءة سنة ، لا يقرأ فيهـا إلا بقراءة مرضية . واختلف فيمن قال هـذه المقالة ؛ فقال مجاهد وابن جُبير : قائل هـذا هو النضر بن الحارث . أنس ابن مالك : قائله أبو جهل ؛ رواه البخارىّ ومسلم . ثم يجوز أن يقال : قالوه لشبهة كانت فى صدورهم ، أو على وجه العناد والإبهام على النـاس أنهم على بصيرة ، ثم حلّ بهم يوم بدر ما سألوا . حُكى أن آبن عباس لقيَه رجل من اليهود ؛ فقال اليهودىّ : ممن أنت ؟ قال : من قريش . فقال : أنت من القوم الذين قالوا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ » الآية . فهلّا عليهم أن يقولوا : إن كان هذا هو الحقّ من عندك فاهدنا له ! إنّ هؤلاء قوم يجهلون . قال ابن عبـاس : وأنت يا إسرائيلىّ ، من القوم الذين لم تَجِفّ أرجلهـم من بلل البحر الذى أغرق فيه فرعون وقومه ، وأنجى موسى وقومه ؛ حتى قالوا : « ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَـةٌ[2] » فقال لهم موسى : « إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » فاطرق اليهودىّ مفحما . ﴿ فَأَمْطِرْ ﴾ أمطر فى العذاب . ومطر فى الرحمة ؛ عن أبى عبيدة . وقد تقدّم .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٠٤ . (٢) راجع ص ٢٧٣ من هذا الجزء .

Marfat.com

لما قال أبو جهل : «اللَّهُمَّ إن كان هذا هو الحقَّ مِن عِندك» الآية ، نزلت « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » كذا فى صحيح مسلم . وقال ابن عباس : لم يعذب أهل قرية حتى يخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم منها والمؤمنون ؛ ويلحقوا بحيث أُمروا . ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ابن عباس : كانوا يقولون فى الطواف : غفرانك . والاستغفار وإن وقع من الفجار يُدفع به ضرب من الشرور والإضرار . وقيل : إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم . أى وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين ؛ فلما خرجوا عذبهم الله يوم بدر وغيره ؛ . قاله الضحاك وغيره . وقيل : إن الاستغفار هنا يراد به الإسلام . أى «وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» أى يسلمون ؛ قاله مجاهد وعكرمة . وقيل : « وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » أى فى أصلابهم مَن يستغفر الله . رُوى عن مجاهد أيضا . وقيل : معنى « يَسْتَغْفِرُونَ » لو استغفروا . أى لو استغفروا لم يعذبوا . استدعاهم إلى الاستغفار ؛ قاله قتادة وابن زيد . وقال المدائنى عن بعض العلماء قال : كان رجل من العرب فى زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم مُسْرفا على نفسه ، لم يكن يتحرج ؛ فلما أن تُوُفّىَ النبيّ صلى الله عليه وسلم لبس الصوف ورجع عما كان عليه ، وأظهر الدين والنسك . فقيل له : لو فعلت هذا والنبيّ صلى الله عليه وسلم حىّ لفرح بك . قال : كان لى أمانان ، فمضى واحد وبقى الآخر ؛ قال اللهُ تبارك وتعالى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » فهذا أمان . والثانى « وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » .

قوله تعالى : وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾ المعنى : وما يمنعهم من أن يعذبوا . أى إنهم مستحقون العذاب لما ارتكبوا من القبائح والأسباب ، ولكن لكل أجل كتاب ؛ فعذبهم الله

Marfat.com

بالسيف بعد خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم . وفى ذلك نزلت : «سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ»[١]
وقال الأخفش : إنّ « أنْ » زائدة . قال النحاس : لو كان كما قال لرفع « يعذبهم » .
﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى إن المتقين أولياؤه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

قال ابن عباس : كانت قريش تطوف بالبيت عُراة ، يصفّقون ويصفّرون ؛ فكان ذلك عبادة فى ظنهم . والمُكاء : الصّفير . والتصدية : التصفيق ؛ قاله مجاهد والسدّيّ وابن عمر رضى الله عنهم . ومنه قول عنترة :

وحَليلِ غانيةٍ تركت مُجَدَّلًا * تَمْكُو فريصتُه كشِدْق الأعْلَمِ[٢]

أى تصوّت . ومنه مكَتِ آستُ الدابة إذا نفخت بالريح . قال السُّدّى : المُكَاء الصفير، على لحن[٣] طائر أبيض بالحجاز يقال له المكاء . قال الشاعر :

إذا غَرّد المُكّاء فى غير رَوْضة * فوَيْلٌ لأهل الشّاءِ والحُمُرات

قتادة : المُكَاء ضرب بالأيدى ، والتّصدية صياح . وعلى التفسيرين ففيه ردّ على الجهال من الصوفية الذين يَرقُصون ويُصَفّقون [ويصعقون][٤] . وذلك كله منكر يتنزّه عن مثله العقلاء، ويتشبّه فاعله بالمشركين فيما كانوا يفعلونه عند البيت . وروى ابن جُريج وابن أبى نَجيح عن مجاهد أنه

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٧٨ . (٢) الحليل : الزوج . ويروى : وخليل بالخاء المعجمة . الفريصة : الموضع الذى يرعد من الدابة والإنسان إذا خاف . والأعلم : المشقوق الشفة العليا . (٣) من جـ وهـ وك وزوى . وفى ب : نحو . (٤) من ب وجـ وهـ وز وك وى .

قال : المُكَاء إدخالهم أصابعهم فى أفواههم . والتّصدية : الصّفير، يريدون أن يُشغلوا بذلك محمدا صلى الله عليه وسلم عن الصلاة . قال النحاس : المعروف فى اللغة ما رُوى عن ابن عمر . حكى أبو عبيد وغيره أنه يقال : مَكَا يَمْكُو مَكْوًا ومُكاء إذا صَفَر . وصَدّى يُصدّى تصدية إذا صفق ؛ ومنه قول عمرو بن الإطنابة (١) :

وظلّوا جميعا لهم ضجّة　*　مُكاء لدى البيت بالتّصديهْ

أى بالتصفيق . سعيد بنُ جبير وابن زيد : معنى التّصدية صدّهم عن البيت ؛ فالأصل على هذا تصددة ، فأبدل من أحد الدالين ياء . ومعنى ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أى المؤمن من الكافر . وقيل : هو عام فى كل شيء ، من الأعمال والنفقات وغير ذلك .

قوله تعالى : ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار هذا المعنى ، وسواء قاله بهذه العبارة أو غيرها . قال ابن عطية : ولو كان كما ذكر الكسائيّ أنه فى مصحف عبد الله بن مسعود « قل للذين كفروا إن تنتهوا يغفر لكم » لما تأدّت الرسالة إلا بتلك الألفاظ بعينها ؛ هذا بحسب ما تقتضيه الألفاظ .

الثانية — قوله تعالى : ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ يريد عن الكفر . قال ابن عطية : ولا بُدّ ؛ والحامل على ذلك جواب الشرط « يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ » ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لِمُنْتَهٍ عن الكفر . ولقد أحسن القائل أبو سعيد أحمد بن محمد الزبيرى :

يستوجبُ العفوَ الفتى إذا اعترفْ　*　ثم انتهى عما أتاه واقترفْ

لقوله سبحانه فى المعترفْ　*　إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سَلَفْ

(١) فى القاموس وشرحه : « والإطنابة امرأة من بنى كنانة بن القين بن جسر بن قضاعة ، وعمرو ابنها شاعر مشهور ، واسم أبيه زيد مناة » .

Marfat.com

روى مسلم عن أبي شُماسة المهريّ قال : حضرنا عمرو بنَ العاص وهو في سِياقة الموت يبكي طويلا . الحديث . وفيه : فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أما علمت أن الإسلام يَهدِم ما كان قبله وأن الهجرة تَهدِم ما كان قبلها وأن الحج يهـدِم ما كان قبله " الحديث . قال ابن العربيّ : هذه لطيفة من الله سبحانه منّ بهـا على الخلق ؛ وذلك أن الكفار يقتحمون الكفر والجرائم ، ويرتكبون المعاصي والمآثم ؛ فلوكان ذلك يوجب مؤاخذة لهم لمـا استدركوا أبدا توبة ، ولا نالتهم مغفرة . فيسّر الله تعالى عليهم قبول التوبة عند الإنابة ، وبذل المغفرة بالإسلام ، وهدم جميع ما تقدم ؛ ليكون ذلك أقربَ لدخولهم في الدين ، وأدعى إلى قبولهم لكلمة المسلمين ، ولو علموا أنهم يؤاخذون لمـا تابوا ولا أسلموا . وفي صحيح مسلم : أن رجلا فيمن كان قبلكم قتل تسعة وتسعين نفسا ثم سأل هل له من توبة فجاء عابدا فسأله هل له من توبة فقال : لا توبة لك فقتله فكمّل به مائة ؛ الحديث . فآنظروا إلى قول العابد : لا توبة لك ؛ فلمـا علم أنه قد أيئسه قتـله ، فِعْلَ الآيس من الرحمة . فالتنفير مفسدة للخليقة ، والتيسـير مصلحة لهم . وروى عن ابن عبـاس رضي الله عنهما أنه كان إذا جاء إليه رجل لم يقتـل فسأله : هل لقاتلٍ من توبة ؟ فيقول : لا توبة ؛ تخويفا وتحذيرا . فإذا جاءه مَن قتل فسأله : هل لقاتل من توبة ؟ قال له : لك توبة ؛ تيسيرا وتأليفا . وقد تقدّم .

الثالثـــة — قال ابن القاسم وابن وهب عن مالك فيمن طلّق في الشرك ثم أسـلم : فلا طلاق له . وكذلك من حلف فأسلم فلا حنث عليه . وكذا من وجبت عليه هذه الأشياء ؛ فذلك مغفورله . فأما من آفترى على مسلم ثم أسلم أو سَرق ثم أسلم أقيم عليه الحدّ للفرية والسرقة . ولو زنى وأسلم ، أو آغتصب مسلمة ثم أسلم سقط عنه الحدّ . وروى أشهب عن مالك أنه قال : إنما يعني الله عز وجل ماقد مضى قبل الإسلام ، من مال أو دم أو شيء . قال ابن العربيّ : وهذا هو الصواب ؛ لمـا قدّمناه من عموم قوله تعالى : « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ » ، وقوله : " الإسلام يهدِم ما قبله " ، وما بيناه من المعنى من التيسير وعدم التنفير .

قلت : أما الكافر الحربيّ فلا خلاف في إسقاط ما فعله في حال كفره في دار الحرب . وأما إن دخل إلينا بأمان فقذف مسلما فإنه يحدّ ، وإن سرق قطع . وكذلك الذّميّ إذا قذف

Marfat.com

حدّ ثمانين ، وإذا سرق قطع ، وإن قتل قتل . ولا يُسقط الإسلام ذلك عنه لنقضه العهد حال كفره؛ على رواية ابن القاسم وغيره . قال ابن المنذر : واختلفوا في النصراني يزني ثم يسلم، وقد شهدت عليه بينة من المسلمين ؛ فحكي عن الشافعيّ رضي الله عنه إذ هو بالعراق لا حدّ عليه ولا تغريب؛ لقول الله عز وجل : « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ » . قال ابن المنذر : وهذا موافق لما روى عن مالك . وقال أبو ثور : إذا أقرّ وهو مسلم أنه زنى وهو كافر أقيم عليه الحدّ . وحكى عن الكوفي أنه قال : لا يحدّ .

الرابعة — فأما المرتد إذا أسلم وقد فاتته صلوات، وأصاب جنايات وأتلف أموالا ؛ فقيل : حكمه حكم الكافر الأصلي إذا أسلم ؛ لا يؤخذ بشيء مما أحدثه في حال ارتداده . وقال الشافعيّ في أحد قوليه : يلزمه كل حق لله عز وجل وللآدمي ؛ بدليل أن حقوق الآدميين تلزمه فوجب أن تلزمه حقوق الله تعالى . وقال أبو حنيفة : ما كان لله يسقط ، وما كان للآدمي لا يسقط . قال ابن العربيّ : وهو قول علمائنا ؛ لأن الله تعالى مستغنٍ عن حقه ، والآدميّ مفتقر إليه . ألا ترى أن حقوق الله عز وجل لا تجب على الصبي وتلزمه حقوق الآدميين . قالوا : وقوله تعالى: « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ » عام في الحقوق لله تعالى .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَعُودُوا ﴾ يريد إلى القتال ؛ لأن لفظة « عاد » إذا جاءت مطلقة فإنما تتضمن الرجوع إلى حالة كان الإنسان عليها ثم انتقل عنها . قال ابن عطية : ولسنا نجد في هذه الآية لهؤلاء الكفار حالة تشبه ما ذكرنا إلا القتال . ولا يجوز أن يتأول إلى الكفر؛ لأنهم لم ينفصلوا عنه، وإنما قلنا ذلك في « عاد » إذا كانت مطلقة لأنها قد تجيء في كلام العرب داخلة على الابتداء والخبر، فيكون معناها معنى صار؛ كما تقول : عاد زيد ملكا؛ يريد صار . ومنه قول [أمية بن] أبي الصلت :

تلك المكارمُ لا قَعبانِ من لبن * شِيبَا بماء فعادا بعدُ أبوالَا

وهذه لا تتضمن الرجوع إلى حالة قد كان العائد عليها قبل . فهي مقيدة بخبرها لا يجوز الاقتصار دونها؛ فحكمها حكم صار .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ عبارة تجمع الوعيد والتهديد والتمثيل بمن هلك من الأمم فى سالف الدهر بعذاب الله .

قوله تعالى : وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أى كفر . إلى آخر الآية تقدّم معناها وتفسير ألفاظها فى « البقرة »[1] وغيرها والحمد لله .

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٥٣ .

مصـــححه

أبو إسحاق إبراهيم أطفيش

تم الجزء السابع من تفسير القرطبى

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثامن، وأوّله قوله تعالى :

« واعلموا أنما غنمتم من شىء »

بعون الله و جميل توفيقه قد تم طبع الجزء السابع من "تفسير القرطبى"

Marfat.com

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الثامن

اعاد طبعه
دار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان
١٩٦٦

Marfat.com

بيان

تم تحقيق هذا الجزء من تفسير القرطبي وهو الثامن على الأصول الآتيـة :

(١)	نسـخة	رقـم	٩٥	تفسير المرموز إليها بحرف					ا
(٢)	»	»	٢٦٨	»	»	»	»	»	ب
(٣)	»	»	٢٨٣	»	»	»	»	»	ج
(٤)	»	»	٢٨٤	»	»	»	»	»	هـ
(٥)	»	»	٩٢	»	»	»	»	»	و
(٦)	»	»	٢٥٨	بالمكتبة الأزهرية مرموز إليها بحرف					ز
(٧)	»	»	١	تفسير حليم مرموز إليها بحرف					ح
(٨)	»	»	٣٠٧	تفسير المرموز إليها بحرف					ى
(٩)	»	»	٩٣	»	»	»	»	»	ك
(١٠)	»	»	٩٤	»	»	»	»	»	ل
(١١)	»	»	٢٧٦	»	»	»	»	»	ع

وقد وصفت هذه النسخ جميعها فى مقدمة الجزء الثالث (الطبعة الثانية)

حققه

أبو إسحاق إبراهيم اطفيش

Marfat.com

فهـــــرس الجـزء الثـامن

تفســـــير ســـورة الأنفــال

صـفحة

تفسير قوله تعـالى : « واعلموا أنمـا غنمتم ... » الآية فيه ست وعشرون مسألة : بيان معنى الغنيمة والفىء لغة وشرعا . الكلام على نسخ هذه الآية لأول السورة . اختلاف العلماء فى سلب القتيل ، هل هو للقاتل أو للإمام . اختلافهم فى تخميسه . الجمهور من العلماء على أنه لا يعطى للقاتل إلا أن يقيم البينة على قتله . الاختلاف فى السلب ما هو . اختلاف العلماء فى كيفية قسم الخمس . بيان أن الصدقة لا تحل لآل محمد . الاختلاف فى ذوى قربى النبيّ صلى الله عليه وسلم . الكلام على قسمة الأربعة الأخماس . سهم الفارس والراجل . هل يفاضل بين الفارس والراجل بأكثر من فرس واحد . ما يسهم للأجراء والصناع الذين يصحبون الجيش للمعاش . هل يسهم للعبيد والنساء والصبيان . أقوال العلماء فى الكافر إذا حضر بإذن الإمام وقاتل . سبب استحقاق السهم شهود الوقعة لنصرة المسلمين . هل يسهم لمن خرج لشهود الوقعة فمنعه العذر منه . لم يسهم النبيّ صلى الله عليه وسلم لغائب قط إلا يوم خيبر ... ... من ١–٢٠

تفسير قوله تعالى : « إذ أنتم بالعدوة الدنيا ... » الآية . بيان معنى «العدوة» ٢١

تفسير قوله تعالى : « إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ... » الآيات ٢٢

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئـة ... » الآية . الأمر بالثبات وذكر الله عند قتال المشركين ٢٣

تفسير قوله تعـالى : « وأطيعـوا الله ورسوله ... » الآية . سبب نزولها اختلاف المسلمين يوم بدر وتنازعهم ٢٤

تفسير قوله تعـالى : « ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطـرا ... » الآية . نزلت فى أبى جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر لنصرة العير . معنى «البطر» ... ٢٥

تفسير قوله تعالى : « وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ... » الآية . بيان أن الشيطان تمثل للمسلمين يوم بدر فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم وما قال للمشركين . أمدّ الله نبيه صلى الله عليه وسـلم والمؤمنين يوم بدر بألف من الملائكة ٢٦

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وإذ يقول المنافقون ... » الاية . المراد بالمنافقين، والذين في قلوبهم مرض ٢٧

تفسير قوله تعالى : « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا ... » الآية ٢٨

تفسير قوله تعالى : « كدأب آل فرعون والذين من قبلهم ... » الآيات . بيان معنى « الدأب » والمراد به . معنى نعمة الله على قريش ٢٩

تفسير قوله تعالى : « إن شر الدواب عند الله ... » الآيات ٣٠

تفسير قوله تعالى : « وإما تخافن من قوم خيانة ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : نزلت هذه الآية في بني قريظة وبني النضير . الأمر بنقض عهد من خيفت خيانته . النهي عن الغدر . هل يجاهد مع الامام الغادر ٣١

تفسير قوله تعالى : «ولا يحسبن الذين كفروا ...» الآية ٣٣

تفسير قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم ... » الآية . فيه ست مسائل الأمر بإعداد القوة لإرهاب الأعداء . ما جاء في فضل الرمي ورباط الخيل . في الآية دليل على جواز وقف الخيل والسلاح واتخاذ الخزائن عدة للأعداء . اختلاف العلماء في جواز وقف الحيوان كالخيل والإبل ٣٥

تفسير قوله تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ... » الآية . فيه مسألتان : الأمر بالجنوح إلى مسالمة الذين نبذ إليهم عهدهم إن مالوا إليه ، معنى السلم . الاختلاف في هذه الآية هل هي منسوخة أم لا ٣٩

تفسير قوله تعالى : « وإن يريدوا أن يخدعوك ... » الآيات ٤٢

تفسير قوله تعالى : « يأيها النبي حسبك الله ... » الآية . قيل إن الآية نزلت في إسلام عمر رضي الله عنه ... ...

تفسير قوله تعالى : « يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال ... » الآيات . أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بتحريض المؤمنين على القتال ٤٤

تفسير قوله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى ... » الآية . فيه خمس مسائل : معاتبة الله جل شانه لأصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم في شأن

Marfat.com

صفحة

أسارى بدر . اختلاف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في أسارى بدر، ورد النبي عليهما وأخذه بقول أبي بكر . الاختلاف في وقت إسلام العباس 45

تفسير قوله تعالى : « لولا كتاب من الله سبق ... » الآية . فيه مسألتان : الاختلاف في كتاب الله السابق . في الآية دليل على أن العبد إذا اقتحم ما يعتقده حراما مما هو في علم الله حلال له لا عقوبة عليه 50

تفسير قوله تعالى : « يأيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى ... » الآيات . فيه ثلاث مسائل : قيل : إن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقيل له وحده . ما جاء في فداء الأسرى وفداء العباس . فداء زينب ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لزوجها أبي العاص، وقصتها في ذلك . إذا تكلم الكافر بالإيمان في قلبه وبلسانه ولم يمض فيه عزيمة فهو كافر، وإذا وجد مثل ذلك من المؤمن كان كافرا؛ إلا ما كان من الوسوسة التي لا يقدر على دفعها فإن الله قد عفا عنها وأسقطها 51

تفسير قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وهاجروا ... » الآيات . فيه سبع مسائل : الموالاة بين المهاجرين والأنصار وتوارث بعضهم بعضا ونسخ هذا التوارث . فرض على المؤمنين أن يعينوا إخوانهم الذين لم يهاجروا من أرض الحرب إن طلبوا نصرتهم، إلا أن يستنصروهم على قوم كفار بينهم وبينهم ميثاق . قطع الولاية بين الكفار والمؤمنين . الاختلاف في الضمير الواقع في قوله تعالى : « إلا تفعلوه » هل عائد على الموارثة، أو على التناصر والمعاونة، أو على حفظ العهد والميثاق . المراد بأولى الأرحام، الاختلاف في توريث ذوى الأرحام ... 55

سورة براءة

تفسير قوله تعالى : « براءة من الله ورسوله إلى الذين ... » الآية . فيه خمس مسائل : بيان أسمائها . اختلاف العلماء في سبب سقوط البسملة من أولها . في هذه السورة دليل على أن القياس أصل في الدين . إذا عقد الأمام أمرا ألزم جميع الرعايا 61

تفسير قوله تعالى : « فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : معنى السيح . اختلاف العلماء في كيفية التأجيل . الكلام على مخالفة

Marfat.com

صفحة

خزاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وبنى بكر لقريش حينما صالح الرسول قريشا عام الحديبية . ذكر بعض مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قدوم كعب ابن زهير إلى الرسول وامتداحه الأنصار . إرسال النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله عنه أميرا للحج، وبعثه على بن أبى طالب ليؤذن فى الناس بصدر براءة . العلماء على أن جواز قطع العهد بيننا وبين المشركين مشروط بشرطين ٦٤

تفسير قوله تعالى : «وأذان من الله ورسوله ...» الآية . فيه ثلاث مسائل : اختلاف العلماء فى الحج الأكبر . أوجه الأعراب فى قوله «أن الله برئ من المشركين ورسوله» ٦٩

تفسير قوله تعالى : « إلا الذين عاهدتم من المشركين ... » الآية . الأمر بالوفاء لمن بقى على عهده إلى مدته، ونقض عهد من نكث ٧١

تفسير قوله تعالى : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم ... » الآية . فيه ست مسائل : أقوال العلماء فى الأشهر الحرم . الأمر بقتال المشركين . فى الآية دليل على جواز اغتيال المشركين قبل الدعوة . القول بأن مجرد التوبة يقتضى زوال القتل . اختلاف العلماء فى قتل تارك الصلاة . الآية دالة على أن من قال قد تبت أنه لا يجتزأ بقوله حتى ينضاف إلى ذلك أفعاله المحققة للتوبة ٧٢

تفسير قوله تعالى : « وإن أحد من المشركين استجارك ... » الآية . فيه أربع مسائل : المشرك إذا طلب الأمان . أمان السلطان جائز من غير خلاف . اختلافهم فى أمان غير الخليفة ٧٥

تفسير قوله تعالى : « كيف يكون للمشركين عهد ... » الآيات . بيان أن الكفار لا عهد لهم، وأنهم لا يرقبون فى المؤمنين قرابة ولا ذمة ٧٧

تفسير قوله تعالى : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة ... » الآية . فى الآية دليل على تحريم دماء أهل القبلة، وأن الصلاة لا تقبل إلا بالزكاة ٨٠

تفسير قوله تعالى : « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ... » الآية . فيه سبع مسائل : معنى النكث والطعن . وجوب قتل كل من طعن فى الدين، أو سب النبى صلى الله عليه وسلم . أقوال الفقهاء فى الذمى إذا طعن فى الدين هل ينقض عهده أم لا . الذمى إذا حارب نقض عهده وكان ماله وولده فيئا معه . اختلاف

Marfat.com

صـفحة

العلمـاء فى الذمى إذا سب الرسول صلوات الله عليه ثم أسلم تقية من القتل .
المراد بأئمة الكفر ٨١
تفسير قوله تعـالى : « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمـانهم ... » الآيات . تحريض
المؤمنين على قتل من نكثوا أيمـانهم وأخرجوا الرسول من المدينـة فقال أهل
مكة . ما حصل بين بنى بكر وخزاعة ٨٦
تفسير قوله تعـالى : « أم حسبتم أن تتركوا ... » الآية . توبيخ من ظن أنه يترك
دون ابتلاء . معنى الوليجة ٨٨
تفسير قوله تعـالى : « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله ... » الآية . اختلاف
العلماء فى تأويل هذه الآية ٨٩
تفسير قوله تعـالى : « إنما يعمر مساجد الله من آمن ... » الآية . فى الآية دليـل
على أن الشهادة لعمار المساجد بالإيمان صحيحة ٩٠
تفسير قوله تعـالى : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحـرام ... » الآية .
إبطال قول من افتخر من المشركين بسـقاية الحاج وعمـارة المسجد الحرام .
القول بأن الآية نزلت عنـد اختلاف المسلمين فى أى الأعمال أفضل ٩١
تفسير قوله تعـالى : «الذين آمنوا وهاجروا ...» الآيات . تفضيل المؤمنين على من
افتخروا بالسق والعمارة ٩٣
تفسير قوله تعـالى : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم و إخوانكم أولياء » الآية .
بيان أن الآية خطاب لجميع المؤمنين فى قطع الولاية بينهم و بين الكافرين ...
تفسير قوله تعـالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم و إخوانكم ... » الآية . نزلت
هـذه الآية فى الذين تخلفوا عن الهجرة من مكة إلى المدينـة . فى الآية دليل
على وجوب حب الله ورسوله . وفيها أيضا دليل على فضل الجهاد ٩٤
تفسير قوله تعـالى : « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ... » الآيات . فيه ثمـان
مسائل : الكلام على غزوة حنين . جواز استعارة السلاح، واستلاف الإمام
المـال عند الحاجة إلى ذلك ورده إلى صاحبه . الدليل على أن السبى يقطع
العصمة . بيّن الله فى هذه الآية أن الغلبة إنمـا تكون بنصر الله لا بالكثرة .

Marfat.com

صفحة

إنزال السكينة على الرسول وعلى المؤمنين و إنزال الملائكة لنصرتهم . قدوم وفد
هوازن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ٩٦
تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ... » الآية . فيه سبع
مسائل : اختلف العلماء فى معنى وصف المشرك بالنجس . واختلافهم
فى إيجاب الغسل عليه إذا أسلم . أقوال العلماء فى دخول الكفار المساجد
والمسجد الحرام . معنى قوله : « وإن خفتم عيلة » . فى الآية دليل على أن
تعلق القلب بالأسباب فى الرزق جائز وليس ذلك بمناف للتوكل . الأسباب
التى يطلب بها الرزق ستة أنواع . الدليل على أن الرزق ليس بالاجتهاد ... ١٠٣
تفسير قوله تعالى : «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ... » الآية . فيه خمس عشرة مسألة :
الأمر بقتال أهل الكتاب حتى يقبلوا دفع الجزية . اختلاف العلماء فيمن تؤخذ
منه الجزية ، واختلافهم فى مقدارها . إذ أعطى أهل الجزية الجزية لم يؤخذ
منهم شيء من ثمارهم ولا تجارتهم ولا زروعهم ، وخلى بينهم وبين أموالهم
كلها ، ولا يعترض لهم فى أحكامهم . اختلف العلماء فيما وجبت الجزية عنه .
لو عاهدهم الإمام ثم نقضوا عهدهم وجب على المسلمين غزوهم ١٠٩
تفسير قوله تعالى : « وقالت اليهود عزير ابن الله ... » الآية : فيه سبع مسائل :
ادعاء اليهود أن عزيرا ابن الله . وادعاء النصارى أن المسيح ابن الله ، وهل هذا
بنوة نسل أو بنوة رحمة وحنو . فى الآية دليل على أن من أخبر عن كفر غيره
الذى لا يجوز لأحد أن يبتدئ به لا حرج عليه . قول أهل اللغة فى معنى
« يضاهئون » . قال ابن عباس كل شيء فى القرآن قتل فهو لعن ١١٦
تفسير قوله تعالى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم ... » الآيات . اتخاذ اليهود
والنصارى أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، أحلوا لهم الحرام فاستحلوه ،
وحرموا عليهم الحلال فحرموه ١١٩
تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار ... » فيه إحدى عشرة
مسألة : بيان أن الأحبار والرهبان كانوا يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب
وفروضا باسم الكنائس ويحجبون تلك الأموال ، و يأخذونها رشوة لأحكامهم .

Marfat.com

صفحة

الكلام على معنى قوله : «والذين يكنزون الذهب والفضة» واختلاف الصحابة في هذه الآية . بيان أن هذه الآية تضمنت زكاة العين ، وهي تجب بأربعة شروط . اختلف العلماء في المال الذي أديت زكاته هل يسمى كنزا أم لا . واختلافهم في زكاة الحلي ١٢٢

تفسير قوله تعالى : « يوم يحمى عليها في نار جهنم ... » الآية . فيه اربع مسائل : عقوبة من يكنز الذهب والفضة . الاختلاف في كيفية الكي ١٢٩

تفسير قوله تعالى : « إن عدة الشهور عند الله ... » الآية . فيه سبع مسائل : بيان أن لفظة « الشهور » تطلق على الحول . الآية تدل على أن الواجب تعليق الأحكام من العبادات وغيرها إنما يكون بالشهور العربية . الكلام على الأشهر الحرم . اختلاف العلماء فيمن قتل في الشهر الحرام خطأ هل تغلظ عليه الدية أم لا . لم خص الله تعالى الأربعة الأشهر الحرم بالذكر . الحض على قتال المشركين والتحزب عليهم ١٣٢

تفسير قوله تعالى : « إنما النسيء زيادة في الكفر ... » الآية . الكلام على النسيء عند العرب . بيان أن العرب جمعت أنواع الكفر ١٣٦

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم ... » الآية . فيه مسألتان : نزلت الآية عتابا على تخلف من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، وهي توبيخ على ترك الجهاد وعتاب على التقاعد عن المبادرة إلى الخروج ١٤٠

تفسير قوله تعالى : « إلا تنفروا يعذبكم ... » الآية . بيان أن الأمر إذا ورد فليس في وروده أكثر من اقتضاء الفعل . المراد بهذه الآية وجوب النفير عند الحاجة واشتداد شوكة الكفرة ١٤١

تفسير قوله تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله ... » الآية . فيه إحدى عشرة مسألة : معاتبة الله تعالى لأصحاب رسوله بعد انصرافه من غزوة تبوك . عزم قريش على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخروجه عليه السلام مع أبي بكر نحو غار ثور ، واستئجارهما عبد الله بن أرقط — وكان كافرا — ليدل بهما إلى المدينة . في الآية دليل على ائتمان أهل الشرك على السر والمال إذا علم منهم وفاء ومروءة . وفيها دليل على جواز الفرار بالدين خوفا من العدو . فضائل أبي بكر

Marfat.com

صفحة

رضى الله عنه. الرد على الإمامية فى قولهم : حزن أبى بكر فى الغار دليل على جهله وضعف قلبه . فى الآية ما يدل على أن الخليفة بعد النبى صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق . المفاضلة بين الصحابة رضوان الله عليهم ١٤٣

تفسير قوله تعالى : « انفروا خفافا وثقالا ... » الآية . فيه سبع مسائل : الكلام على معنى قوله : «خفافا وثقالا» . الاختلاف فى نسخ هذه الآية . إذا تعين الجهاد وجب على الجميع أن ينفروا ويخرجوا . أقسام الجهاد ١٤٩

تفسير قوله تعالى : « لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا ... » الآية . الكلام على من تخلف من المنافقين فى غزوة تبوك ١٥٣

تفسير قوله تعالى : « عفا الله عنك لم أذنت لهم ... » الآية . التلطف فى معاتبة النبىّ صلى الله عليه وسلم لأذنه لطائفة من المنافقين فى التخلف عنه من غير وحى نزل فيه . ١٥٤

تفسير قوله تعالى : « لا يستئذنك الذين يؤمنون بالله ... » الآيات . الكلام على أن المخلصين من المؤمنين لا يستئذنون الرسول صلوات الله عليه فى التخلف عنه . ١٥٥

تفسير قوله تعالى : « ولو أرادوا الخروج لأعدّوا ... » الآيات . بيان أن الله ثبط المتخلفين لكراهيته خروجهم، وأن الحكمة فى تثبيطهم ألا يوقعوا الفتنة فى المؤمنين ١٥٦

تفسير قوله تعالى : « ومنهم من يقول ائذن لى ... » الآيات . بيان أن الآية نزلت فى الجد بن قيس لما أراد التخلف ١٥٨

تفسير قوله تعالى : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ... » الآية . الكلام على أن كل شىء بقضاء وقدر ١٥٩

تفسير قوله تعالى : « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ... » الآية . المراد بالحسنيين الغنيمة والشهادة ١٦٠

تفسير قوله تعالى : « قل أنفقوا طوعا أو كرها ... » الآية . فيه أربع مسائل : سبب نزول الآية . الدليل على أن أفعال الكافر إذا كانت برا كصلة القرابة وإغاثة الملهوف لا يثاب عليها ولا ينتفع بها فى الآخرة ١٦١

تفسير قوله تعالى : « وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : بيان أن النفاق يورث الكسل فى العبادة، وأن النفقة لاتقبل من الكافر ١٦٣

صفحة

تفسير قوله تعـالى : « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ... » الآيات ١٦٤

تفسير قوله تعـالى : « ومنهم من يلمزك فى الصدقات ... » الآية . وصف الله قوما من المنافقين بأنهم عابوا على النبيّ عليــه السلام فى توزيع الصدقات . يقال إن الآية نزلت فى حرقوص أصـل الخوارج ١٦٤

تفسير قوله تعـالى : « إنما الصدقات للفقراء ... » الآية . فيه ثلاثون مسألة : بيان أن الله خص بعض الناس بالأموال دون بعض نعمة منــه عليهم ، وجعل شكر ذلك منهم إخراج سهم يؤدّونه إلى من لا مال له . بيـان مصارف الصدقات والمحل . اختلاف علماء اللغة وأهل الفقه فى الفرق بين الفقير والمسكين . اختلف فى حد الفقر الذى يجوز معــه الأخذ ، واختلف فى نقل الزكاة عن موضعها . الكلام على من أعطى فقيرا مسلما فتبين أنه أعطى عبدا أو كافرا أو غنيا . هل للمالك أن يتولى صرف الزكاة بنفسه ، أم الإمام هو الذى يتولى ذلك . اختلاف العلماء فى المقدار الذى يأخذه على العامل . الكلام على المؤلفة قلوبهم ومن هم ، والاختلاف فى بقائهم . الكلام على فك الرقاب . اختلف هل يعان من الصدقة المكاتَب وتفك الأسارى أم لا . الكلام على قوله : « والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » . بحث فيمن جاء وادعى وصفا من الأوصاف السابقة هل يقبل قوله أم لا . لا يجوز للرجل أن يتولى إعطاء الزكاة من تلزمه نفقة ، ويجوز لمن لا تلزمه . اختلاف العلماء فى القدر المعطى ، وفى جواز صدقة التطوّع لبنى هاشم ١٧٦

تفسير قوله تعـالى : « ومنهم الذين يؤذون النبيّ ... » الآية . بيان ما كان المنافقون يقولونه على النبيّ صلى الله عليه وسلم ١٩٢

تفسير قوله تعـالى : « يحلفون بالله لكم ليرضوكم ... » الآية . تضمنت هـذه الآية قبول يمين الحالف و إن لم يلزم المحلوف له الرضا . كما تضمنت أن تكون اليمين بالله تعالى ١٩٣

تفسير قوله تعـالى : « ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله ... » الآية ١٩٤

تفسير قوله تعـالى : « يحذر المنافقون أن تنزل عليهم ... » الآية . حذر المنافقون من أن تنزل ســورة فى حقهم ١٩٥

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : بيان أن الآية نزلت فى غزوة تبوك . الكلام على أن الجد والاستهزاء فى إظهار الكفر سواء . اختلاف العلماء فى الهزل فى الأحكام كالبيع والنكاح والطلاق ١٩٦

تفسير قوله تعالى : « لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ... » الآية . الاختلاف فى اسم الرجل الذى عفى عنه ١٩٨

تفسير قوله تعالى : « المنافقون والمنافقات ... » الآية . بيان ما كان عليه المنافقون ١٩٩

تفسير قوله تعالى : « كالذين من قبلكم ... » الآيات ٢٠٠

تفسير قوله تعالى : « يأيها النبىّ جاهد الكفار ... » الآية . فيه مسألتان : بيان أن الخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم وتدخل فيه أمته من بعده . وأن الآية نسخت كل شىء من العقود والصفح والصلح ٢٠٤

تفسير قوله تعالى : « يحلفون بالله ما قالوا ... » الآية . فيه ست مسائل : بيان أن الآية نزلت فى الجلاس بن سويد ووديعة بن ثابت، وقد كانا وقعا فى النبىّ صلى الله عليه وسلم . كلمة الكفر هى سب النبىّ صلى الله عليه وسلم . دلت الآية على أن الكفر يكون بكل ما يناقض التصديق والمعرفة . الكلام على الزنديق وتوبته

تفسير قوله تعالى : « ومنهم من عاهد الله ... » الآيات . فيه ثمان مسائل : بيان أن الآية نزلت فى رجل من الأنصار . بيان أن العهد والطلاق وكل حكم ينفرد به المرء ولا يفتقر إلى غيره فيه، فإنه يلزمه منه ما يلزمه بقصده وإن لم يلفظ به . الوفاء بالنذر واجب وتركه معصية . اختلف فيمن قال : إن ملكت كذا وكذا فهو صدقة ؛ هل يلزمه أم لا . النفاق إذا كان فى القلب فهو الكفر ؛ أما إذا كان فى الأعمال فهو معصية ٢٠٨

تفسير قوله تعالى : « الذين يلمزون المطوعين ... » الآيات ٢١٤

تفسير قوله تعالى : « ولا تصل على أحد منهم ... » الآية . فيه إحدى عشرة مسألة : بيان أن الآية نزلت فى عبد الله بن أبىّ بن سلول وصلاة النبى صلى الله عليه وسلم عليه . اختلاف العلماء فى تأويل قوله « استغفر لهم » هل هو إياس أو تخيير .

Marfat.com

صفحة

اختلف فى إعطاء النبي عليه السلام قميصه لعبد الله . فى الآية نص فى الامتناع من الصلاة على الكفار . أحكام فى صلاة الجنازة ٢١٨

تفسير قوله تعالى : « ولا تعجبك أموالهم وأولادهم ... » الآيات ٢٢٣

تفسير قوله تعالى : « وجاء المعذرون من الأعراب ... » الآية ٢٢٤

تفسير قوله تعالى : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ... » الآيات . فيه ست مسائل : بينت هذه الآية أنه لا حرج على المعذورين . معنى النصح لله ورسوله . الكلام على قوله تعالى : « ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم » واختلاف العلماء فيهم . لا يجب الغزو على من لم يجد ما ينفقه فى غزوه ٢٢٥

تفسير قوله تعالى : « إنما السبيل على الذين يستئذنونك ... » الآيات ٢٣٠

تفسير قوله تعالى : « الأعراب أشد كفرا ... » الآيات . الكلام على كون الأعراب أشد كفرا ، ولم سمى العرب عربا ٢٣١

تفسير قوله تعالى : « والسابقون الأولون ... » الآية . فيه سبع مسائل : الكلام على المهاجرين والأنصار ، والاختلاف فى عدد طبقاتهم وأصنافهم . معنى الصحابى . الكلام على التابعين ، و بيان مراتبهم ٢٣٥

تفسير قوله تعالى : « وممن حولكم من الأعراب منافقون ... » الآية ٢٤٠

تفسير قوله تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم ... » الآية . الجمهور من العلماء على أن الآية نزلت فى شأن المتخلفين عن غزوة تبوك ، وكانوا ربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد ٢٤١

تفسير قوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة ... » الآية . فيه سبع مسائل : الاختلاف فى الصدقة المأمور بها . بحث فى الزكاة . بيان أن الأصل فى فعل كل إمام يأخذ الصدقة أن يدعو للتصدق بالبركة ٢٤٤

تفسير قوله تعالى : « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة ... » الآيات ٢٥٠

تفسير قوله تعالى : « والذين اتخذوا مسجدا ضرارا ... » الآية . فيه عشر مسائل : بيان قصة أبى عامر الراهب . معنى « الضرار » . حكم بناء المساجد . من أدخل على أخيه ضررا منع منه ٢٥٢

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : «لا تقم فيه أبدا ... » الآية . فيه إحدى عشرة مسألة : اختلاف العلماء فى المسجد الذى أسس على التقوى . ثناء الله عز وجل على من أحب الطهارة وآثر النظافة . بيان أن اللازم من نجاسة المخرج التخفيف ، وفى نجاسة البدن والثوب التطهير . اختلاف العلماء فى إزالة النجاسة من الأبدان والثياب ٢٥٨

تفسير قوله تعالى : « أفمن أسس بنيانه ... » الآيات ٢٦٣

تفسير قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ... » الآية . فيه ثمان مسائل : بيان أن الآية نزلت فى بيعة العقبة الكبرى . فى الآية دليل على جواز معاملة السيد مع عبده ٢٦٦

تفسير قوله تعالى : «التائبون العابدون الحامدون ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : معنى ألفاظ الآية . اختلف أهل التأويل فيها هل هى متصلة بما قبل أو منفصلة ٢٦٩

تفسير قوله تعالى : « ما كان للنبي والذين آمنوا ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : النهى عن الاستغفار للمشركين . تضمنت الآية قطع موالاة الكفار حيهم وميتهم ٢٧٢

تفسير قوله تعالى : « وما كان الله ليضل قوما ... » الآيات ٢٧٦

تفسير قوله تعالى : « لقد تاب الله على النبي ... » الآية . قصة كعب بن مالك وتخلفه عن غزوة تبوك . اختلاف العلماء فى هذه التوبة . بيان المراد بقوله « فى ساعة العسرة » ٢٧٧

تفسير قوله تعالى : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا ... » الآية . بيان أن الآية نزلت فى كعب بن مالك ، ومرارة بن ربيعة العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى ، وقد تخلفوا عن غزوة تبوك ٢٨١

تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ... » الآية . اختلف فى المراد هنا بالمؤمنين والصادقين ٢٨٨

تفسير قوله تعالى : « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم ... » الآيات . فيه ست مسائل : بيان أن هذه معاتبة للمؤمنين من أهل يثرب وقبائل العرب المجاورة لها على التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك . استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الغنيمة تستحق بالإدراب والكون فى بلاد العدو . بيان أن هذه الآية منسوخة ، وأن حكمها كان حين كان المسلمون فى قلة ... ٢٩٠

Marfat.com

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا ... » الآية . فيه ست مسائل : بيان أن الجهاد ليس على الأعيان وأنه فرض كفاية . هذه الآية أصل فى وجوب طلب العلم، وأنه ينقسم قسمين : فرض على الأعيان وفرض على الكفاية ... ٢٩٣

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ... » ٢٩٧

تفسير قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ... » الآيتين . بيان ما ورد فى فضلهما، وأنهما آخر ما نزل من القرآن ٣٠١

تفسير سورة يونس عليه السلام

تفسير قوله تعالى : « الر تلك آيات الكتاب ... » الآيات ٣٠٤

تفسير قوله تعالى : « إن ربكم الله الذى خلق السموات ... » الآيات ٣٠٧

تفسير قوله تعالى : « هو الذى جعل الشمس ضياء ... » الآيات ٣٠٩

تفسير قوله تعالى : « دعواهم فيها سبحانك اللهم ... » الآية ٣١٣

تفسير قوله تعالى : « ولو يعجل الله للناس الشر ... » الآية . فيه ثلاثة مسائل : الكلام على سبب نزول هذه الآية . الاختلاف فى إجابة هذا الدعاء ٣١٥

تفسير قوله تعالى : «و إذا مس الإنسان الضر...» الآية . بيان المراد بالإنسان فى هذه الآية ٣١٧

تفسير قوله تعالى : «ولقد أهلكنا القرون من قبلكم ...» الآية . هذه الآية ترد على أهل الضلال القائلين بخلق الهدى والإيمان ... ...

تفسير قوله تعالى : « و إذا تتلى عليهم آياتنا ... » الآيات ٣١٨

تفسير قوله تعالى : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء ... » الآية ٣٢٦

تفسير قوله تعالى : « والله يدعو إلى دار السلام ... » الآية ٣٢٨

تفسير قوله تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ... » الآية . بيان كلام العلماء فى معنى الزيادة ٣٣٠

تفسير قوله تعالى : « ويوم نحشرهم جميعا ... » الآيات ٣٣٣

تفسير قوله تعالى : « فذلكم الله ربكم الحق ... » الآية . فيه ثمان مسائل : الكلام على معنى الضلال . اختلاف العلماء فى جواز اللعب بالشطرنج والنرد إذا لم يكن على وجه القمار، وهل هما من الضلال ٣٣٥

Marfat.com

صفحة
تفسير قوله تعالى : « كذلك حقت كلمة ربك ... » الآيات ٣٤٠
تفسير قوله تعالى : « قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ... » الآية . بيان ما فيها من القراءات ٣٤١
تفسير قوله تعالى : « وما كان هذا القرآن أن يفترى ... » الآيات ٣٤٣
تفسير قوله تعالى : « ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا ... » الآيات ٣٤٧
تفسير قوله تعالى : « قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا ... » الآيات ٣٤٩
تفسير قوله تعالى : « ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض ... » الآيات ... ٣٥٢
تفسير قوله تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ... » الآيات ٣٥٧
تفسير قوله تعالى : « ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض ... » الآيات ... ٣٦٠
تفسير قوله تعالى : « واتل عليهم نبأ نوح ... » الآيات ٣٦٢
تفسير قوله تعالى : « فلما جاءهم الحق من عندنا ... » الآيات ٣٦٦
تفسير قوله تعالى : « فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ... » الآيات ٣٦٩
تفسير قوله تعالى : « وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا ... » الآية . فيه خمس مسائل : بيان ما أمر الله به قوم موسى من اتخاذهم بيوتهم مساجد يصلون فيها . الكلام على أن صلاة النافلة فى البيت أفضل . اختلف فى قيام رمضان، هل إيقاعه فى البيت أفضل أو فى المسجد ٣٧١
تفسير قوله تعالى : « وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون ... » الآية . بيان ما دعا به موسى على فرعون وقومه ٣٧٣
تفسير قوله تعالى : « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ... » الآية . الكلام على فرعون وغرقه ٣٧٧
تفسير قوله تعالى : « فاليوم ننجيك ببدنك ... » الآية . بيان ما فيها من القراءات ٣٧٩
تفسير قوله تعالى : « ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق ... » إلى آخر السورة ... ٣٨١

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير بقية سورة الأنفال

قوله تعالى : وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ . فيه ست (١) وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ الغنيمة فى اللغة ما يناله الرجل أو الجماعة بسَعْيٍ؛ ومن ذلك قول الشاعر :

وقد طوّفت فى الآفاق حتى * رضيت من الغنيمة بالإياب

وقال آخــر :

ومُطْعَم الغُنْم يوم الغنم مُطْعَمُه * أنَّى توجّه والمحروم محــروم

والمغنم والغنيمة بمعنًى؛ يقال : غَنِمَ القوم غُنْمًا . وٱعلم أن الاتفاق حاصل على أن المراد بقوله تعالى : « غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ » مال الكفار إذا ظفر به المسلمون على وجه الغَلَبة والقَهْر . ولا تقتضى اللغة هذا التخصيص على ما بيّناه (٢) ، ولكن عُرف الشرع قيّد اللفظ بهذا النوع . وسمّى الشرعُ الواصلَ من الكفار إلينا من الأموال بٱسمين : غنيمة وفَيْئًا . فالشيء الذى يناله المسلمــون من عدوّهم بالسعى وإيجاف (٣) الخيل والركاب يُسَمى غنيمة . ولزم هذا الٱسم هذا

---

(١) يلاحظ أن المسائل خمس وعشرون مسألة . (٢) فى ز : قدمناه . (٣) الإيجاف : سرعة السير؛ أى لم يعدّوا فى تحصيله خيلا ولا إبلا ، بل حصل بلا قتال . والركاب : الإبل التى يسافر عليها ؛ لا واحد لها من لفظها .

Marfat.com

المعنى حتى صار عُرفا . والفَيْء مأخوذ من فاء يفيء إذا رجع ،وهو كل مال دخل على المسلمين من غير حرب ولا إيجـاف . كخراج الأرضين وجزية الجماجم وخمس الغنـائم . ونحو هـذا قال سفيان الثَّوْرِىّ وعطاء بن السائب . وقيل : إنهما واحد ، وفيهما الخمس ؛ قاله قتادة . وقيل : الفيء عبارة عن كل ما صار للسلمين من الأموال بغير قهر . والمعنى متقارب .

الثانيــة — هـذه الآية ناسخة لأول السورة؛ عنـد الجمهور . وقد ادّعى ابن عبد البر الإجمـاعَ على أن هذه الآية نزلت بعد قوله : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ » وأن أربعة أخماس الغنيمة مقسومةٌ على الغانمين؛ على ما يأتى بيانه . وأن قوله : «يَسْأَلُونَكَ عنِ الْأَنْفَالِ» نزلت فى حين تشاجر أهل بدر فى غنائم بدر؛ على ما تقدّم أوّل السورة .

قلت : ومما يدلّ على صحة هـذا ما ذكره إسماعيل بن إسحاق قال : حدّثنا محمد بن كثير قال حدّثنا سفيان قال حدثنى محمد بن السائب عن أبى صالح عن ابن عباس قال : لمـا كان يوم بدر قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " من قتل قتيلا فله كذا ومن أَسَر أسيرا فله كذا " وكانوا قتلوا سبعين، وأسروا سبعين، فجاء أبو اليَسَر بن عمرو بأسيرين ؛ فقال : يا رسول الله ، إنك وعدتنا مَن قتل قتيلا فله كذا، وقد جئتُ بأسيرين . فقام سعد فقال: يا رسول الله، إنا لم يمنعنا زيادةٌ فى الأجر ولاجُبن عن العدوّ ولكنا قمنا هذا المُقام خشية أن يعطف المشركون،فإنك إن تُعطى هؤلاء لا يبقى لأصحـابك شىء . قال : وجعـل هؤلاء يقولون وهؤلاء يقولون فنزلت « يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ » فسلّموا الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم نزلت «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ» الآية .وقد قيل: إنها مُحكَمة غيرُ منسوخة، وأن الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم،وليست مقسومة بين الغانمين؛ وكذلك لمن بعـده من الأئمة . كذا حكاه المـازَرِىّ عن كثير من أصحابنا، رضى الله عنهم، وأن للإمام أن يخرجها عنهـم . واحتجّوا بفتح مكة وقصة حُنين . وكان أبو عبيد يقول : افتتح رسـول الله صلى الله عليه وسلم مكة عَنْوة ومنّ على أهلها فردّها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها عليهم فَيْئاً . ورأى بعض الناس أن هذا جائز للأئمة بعده .

Marfat.com

قلت : وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: «وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ» والأربعة الأخماس للإمام، إن شاء حبسها و إن شاء قسمها بين الغانمين . وهذا ليس بشيء؛ لما ذكرناه، ولأن الله سبحانه أضاف الغنيمة للغانمين فقال : «وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ» ثم عين الخمس لمن سمّى فى كتابه ، وسكت عن الأربعة الأخماس؛ كما سكت عن الثلثين فى قوله : « وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ »[1] فكان للأب الثلثان اتفاقا . وكذا الأربعة الأخماس للغانمين إجماعا ؛ على ما ذكره ابن المنذر وابن عبد البر والداوُدى والمازَرى أيضا والقاضى عِياض وابن العربى . والأخبار بهذا المعنى متظاهرة، وسيأتى بعضها . ويكون معنى قوله : «يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ» الآية، ما ينفّله الإمام لمن شاء لما يراه من المصلحة قبل القسمة . وقال عطاء والحسن : هى مخصوصة بما شذّ من المشركين إلى المسلمين، من عبد أو أَمَة أو دابة ؛ يقضى فيها الإمام بما أحب . وقيل: المراد بها أنفال السرايا أى غنائمها، إن شاء خمّسها الإمام، و إن شاء نفّلها كلها . وقال إبراهيم النَّخَعى فى الإمام يبعث السَّرِيّة فيصيبون المغنم : إن شاء الإمام نفّله كله، و إن شاء خمّسه . وحكاه أبو عمر عن مكحول وعطاء . قال علىّ بن ثابت: سألت مكحولا وعطاء عن الإمام ينفّل القوم ما أصابوا؛ قال : ذلك لهم . قال أبو عمر : من ذهب إلى هذا تأوّل قول الله عز وجل : «يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ» أن ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم يضعها حيث شاء . ولم ير أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : «وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ» . وقيل : غير هذا مما قد أتينا عليه فى كتاب (القبس فى شرح مُوَطّأ مالك بن أنس) . ولم يقل أحد من العلماء فيما أعلم أن قوله تعالى « يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ »الآية، ناسخ لقوله : «وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ » بل قال الجمهور على ما ذكرنا : إن قوله : « مَا غَنِمْتُمْ » ناسخ، وهم الذين لا يجوز عليهم التحريف ولا التبديل لكتاب الله تعالى . وأما قصة فتح مكة فلا حجة فيها لاختلاف العلماء فى فتحها . وقد قال أبو عبيد : ولا نعلم مكة يشبهها شيء من البلدان من جهتين : إحداهما أن رسول

(١) راجع جـ ٥ ص ٧١ .

Marfat.com

الله صلى الله عليه وسلم كان الله قد خصّه من الأنفال والغنائم ما لم يجعله لغيره؛ وذلك لقوله : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ » الآية؛ فنرى أن هذا كان خاصًّا له . والجهة الأخرى أنه سنّ لمكة سُنَنًا ليست لشيء من البلاد . وأما قصة حُنين فقد عوّض الأنصار لمّا قالوا : يعطي الغنائم قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ! فقال لهم : " أما تَرضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيوتكم " . خرّجه مسلم وغيره . وليس لغيره أن يقول هذا القول، مع أن ذلك خاص به على ما قاله بعض علمائنا . والله أعلم .

الثالثــة — لم يختلف العلماء أن قوله : «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ» ليس على عمومه، وأنه يدخله الخصوص؛ فمما خصّصوه بإجماع أن قالوا : سَلَبُ المقتول لقاتله إذا نادى به الإمام . وكذلك الرقاب؛ أعني الأسارى، الخيرة فيها إلى الإمام بلا خلاف، على ما يأتي بيانه . ومما خُصّ به أيضا الأرض . والمعنى : ما غنمتم من ذهب وفضة وسائر الأمتعة والسَّبْي . وأما الأرض فغير داخلة في عموم هذه الآية؛ لما روى أبو داود عن عمر بن الخطاب أنه قال : لولا آخر الناس ما فتحتُ قريةً إلا قسمتها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خَيْبر . ومما يصحح هذا المذهب ما رواه الصحيح عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " مَنَعَتِ العراقُ قفيزها ودرهمها ومَنَعت الشام مُدْها ودينارها " الحديث . قال الطحاويّ : « منعت » بمعنى ستمنع؛ فدلّ ذلك على أنها لا تكون للغانمين؛ لأن ما ملكه الغانمون لا يكون فيه قفيز ولا درهم، ولو كانت الأرض تقسم ما بقي لمن جاء بعد الغانمين شيء . والله تعالى يقول : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ » (1) بالعطف على قوله : « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ » . قال : وإنما يقسم ما ينقل من موضع إلى موضع . وقال الشافعيّ : كل ما حصل من الغنائم من أهل دار الحرب من شيء قلّ أو كثُر من دار أو أرض أو متاع أو غير ذلك قسم؛ إلا الرجالَ البالغين فإن الإمام فيهم مخيَّر أن يَمُنّ أو يقتل أو يَسْبِي . وسبيل ما أخذ منهم وسُبي سبيلُ الغنيمة . واحتج بعموم الآية . قال : والأرض مغنومة لا محالة؛ فوجب أن تقسم كسائر الغنائم . وقد قسم

(1) راجع جـ ١٨ ص ٣١ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ما آفتتح عَنوة من خَيْبر . قالوا : ولو جاز أن يدّعى الخصوص فى الأرض جاز أن يدّعى فى غير الأرض فيبطل حكم الآية . وأما آية « الحشر » فلا حجة فيها؛ لأن ذلك إنما هو فى الفيء لا فى الغنيمة . وقوله : «وَٱلَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» استئناف كلام بالدعاء لمن سبقهم بالإيمان لا لغير ذلك . قالوا : وليس يخلو فعل عمر فى توقيفه الأرض من أحد وجهين : إما أن تكون غنيمة آستطاب أنفسَ أهلها، وطابت بذلك فوقفها . وكذلك روى جَرير أن عمر آستطاب أنفسَ أهلها . وكذلك صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سَبْي هَوَازِن، لما أتَوْه آستطابَ أنفس أصحابه عما كان فى أيديهم . وإما أن يكون ما وقفه عمر فَيْئًا فلم يحتج إلى مُراضاة أحد . وذهب الكوفيون إلى تخيير الإمام فى قَسْمها أو إقرارها وتوظيف الخراج عليها ، وتصير ملكا لهم كأرض الصلح : قال شيخنا أبو العباس رضى الله عنه : وكأن هذا جمع بين الدليلين ووسط بين المذهبين، وهو الذى فهمه عمر رضى الله عنه قطعا؛ ولذلك قال : لولا آخر الناس ؛ فلم يخبر بنسخ فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا بتخصيصه بهم، غير أن الكوفيين زادوا على ما فعل عمر، فإن عمر إنما وقفها على مصالح المسلمين ولم يملّكها لأهل الصلح، وهم الذين قالوا للإمام أن يملكها لأهل الصلح .

الرابعة ــ ذهب مالك وأبو حنيفة والثَّورِيّ إلى أن السلب ليس للقاتل، وأن حكمه حكم الغنيمة؛ إلا أن يقول الأمير : من قتل قتيلا فله سلبه؛ فيكون حينئذ له . وقال الليث والأوزاعيّ والشافعيّ و إسحاق وأبو ثور وأبو عبيد والطبريّ وابن المنذر : السلب للقاتل على كل حال؛ قاله الإمام أو لم يقله . إلا أن الشافعيّ رضى الله عنه قال : إنما يكون السلب للقاتل إذا قتل قتيلا مقبلا عليه : وأما إذا قتله مدبرا عنه فلا . قال أبو العباس بن سُرَيج من أصحاب الشافعى : ليس الحديث " من قتل قتيلا فله سلبه " على عمومه؛ لإجماع العلماء على أن من قتل أسيرا أو امرأة أو شيخا أنه ليس له سلبُ واحدٍ منهم. وكذلك من ذَفّف[(1)] على جريح، ومن قَتَل من قُطعت يداه ورجلاه . قال : وكذلك المنهزم لا يمتنع فى آنهزامه ؛ وهو

(١) تذفيف الجريح : الإجهاز عليه .

كالمكتوف[1] . قال : فعُلم بذلك أن الحديث إنما جعل السلب لمن لقتله معنًى زائد، أو لمن في قتـله فضيلةٌ، وهو القاتل في الإقبال؛ لما في ذلك من المؤنة . وأما من أثخن[2] فلا .

وقال الطبري : السلب للقاتل، مقبلا قتله أو مدبرا ، هاربا أو مبارزا إذا كان في المعركة .

وهذا يردّه ما ذكره عبد الرزاق ومحمد بن بكر عن ابن جُريج قال سمعت نافعا مولى ابن عمر يقول : لم نزل نسمع إذا التقى المسلمون والكفار فقتل رجل من المسلمين رجلا من الكفار فإن سلبه له ، إلا أن يكون في مَعْمَعةِ القتال؛ لأنه حينئذ لا يُدْرَى من قتل قتيلا . فظاهر هذا يردّ قول الطبري لاشتراطه في السلب القتلَ في المعركة خاصة . وقال أبو ثور وابن المنذر: السلب للقاتل في معركة كان أو غير معركة ، في الإقبال والإدبار والهروب والانتهار ، على كل الوجوه؛ لعموم قوله صلى الله عليه وسلم : " من قتل قتيلا فله سلبه " .

قلت : روى مسلم عن سلمة بن الأكوع قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هـوازن فبينا نحن نتضحّى[3] مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم إذ جاء رجل على جمل أحمـر فأناخه، ثم انتزع طَلَقًا[4] من حَقَبِه فقيّد به الجمل، ثم تقدّم يتغدّى مع القوم وجعل ينظر، وفينا ضَعْفة ورِقّة في الظَّهر[5]، وبعضنا مُشاةٌ؛ إذ خرج يشتدّ[6]، فأتى جمله فأطلق قيده ثم أناخه وقعد عليه فأثاره فاشتدّ به الجمل؛ فاتبعه رجل على ناقة وَرْقاء[7] . قال سلمة: وخرجت أشتدّ فكنت عند وَرِك الناقة ، ثم تقدمت حتى كنت عند ورك الجمـل ، ثم تقدمت حتى أخذت بخطام الجمل فأنختـه ، فلما وضع ركبته في الأرض اخترطتُ سيفي فضربت رأس الرجل فنَـدَر[8] ، ثم جئت بالجمل أقوده ، عليه رحله وسلاحه ؛ فاستقبلني رسول الله صلى الله عليه وسـلم والناس معه فقال : "من قتل الرجل"؟ قالوا : ابن الأكوع . قال : "له سلبه أجمع" . فهذا سلمة قتله هاربا غير مقبل ، وأعطاه سلبه . وفيه حجة لمالك من أن السلب لا يستحقه القـاتل

(١) في ز : المكفوف . (٢) أي أثقل بالجراح . (٣) أي نتغدى .
(٤) الطلق (بالتحريك): قيد من جلود . والحقب : الحبل المشدود على حقو البعير أو من حقيبته ، وهي الزيادة التي تجعل في مؤخر القتب ، والوعاء الذي يجعل الرجل فيـه زاده . (عن ابن الأثير) . (٥) أي حالة ضعف وهزال في الإبل . (٦) أي خرج مسرعا . (٧) الأورق من الإبل : الذي في لونه بياض إلى سواد .
(٨) ندر : سقط .

Marfat.com

إلا بإذن الإمام ، إذ لو كان واجبا له بنفس القتل لما احتاج إلى تكرير هذا القول . ومن حجته أيضا ما ذكره أبو بكر بن أبي شيبة قال: حدثنا أبو الأحوص عن الأسود بن قيس عن بشر بن علقمة قال : بارزت رجلا يوم القادسية فقتلته وأخذت سلبه ، فأتيت سعدا فخطب سعد أصحابه ثم قال : هذا سلب بشر بن علقمة، فهو خير من آثني عشر ألف درهم، وإنا قد نفّلناه إياه. فلو كان السلب للقاتل قضاءً من النبي صلى الله عليه وسلم ما احتاج الأمر أن يضيفوا ذلك إلى أنفسهم باجتهادهم ، ولأخذه القاتل دون أمرهم . والله أعلم . وفي الصحيح أن معاذ بن عمرو بن الجَموح ومعاذ بن عَفراء ضربا أبا جهل بسيفيهما حتى قتلاه ، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " أيكما قتله " ؟ فقال كل واحد منهما : أنا قتلته . فنظر في السيفين فقال : " كِلَاكما قتله " وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح . وهذا نص على أن السلب ليس للقاتل ، إذ لو كان له لقسمه النبي صلى الله عليه وسلم بينهما . وفي الصحيح أيضا عن عوف بن مالك قال : خرجت مع من خرج مع زيد بن حارثة في غزوة مُؤْتة ، ورافقني مَدَدِيّ(1) من اليمن . وساق الحديث ، وفيه : فقال عوف : ياخالد ، أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بالسلب للقاتل؟ قال : بلى ، ولكني استكثرته . وأخرجه أبو بكر البَرْقاني بإسناده الذي أخرجه به مسلم ، وزاد فيه بيانا أن عوف بن مالك قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يخمّس السلب ، وإنّ مَدَدِيّا كان رفيقا لهم في غزوة مُؤْتة في طرف من الشام ، قال : فجعل رُوميّ منهم يشتدّ على المسلمين وهو على فرس أشقر وسرج مذهب ومِنطقة ملطخة وسيف محلًّى بذهب . قال : فيُغْرِي بهم ، قال : فتلطف له المددِيّ حتى مرّ به فضرب عُرقوب فرسه فوقع ، وعلاه بالسيف فقتله وأخذ سلاحه . قال : فأعطاه خالد بن الوليد وحبس منه ، قال عوف : فقلت له أعطه كلّه ، أليس قد سمعتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " السلب للقاتل " ! قال : بلى ، ولكنّي استكثرته . قال عوف : وكان بيني وبينه كلام ، فقلت له : لأُخبرن رسول الله صلى الله

(1) أي رجل من المدد الذين جاءوا يمدّون جيش مؤتة ويساعدونهم .

Marfat.com

عليه وسلم . قال عوف : فلما اجتمعنا عنـد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عوف ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لخالد : "لِمَ لَمْ تعطه" ؟ قال فقال : استكثرته . قال: "فادفعه إليه" فقلت له : ألم أنجـز لك ما وعدتك ؟ قال : فغضب رسول الله صـلى الله عليه وسـلم وقال : "يا خالد لا تدفعه إليه هل أنتم تاركون لى أمرائى"(1) . فهذا يدلّ دلالة واضحة على أن السلب لا يستحقه القاتل بنفس القتل بل برأى الإمام ونظره . وقال أحمـد ابن حنبل : لا يكون السلب للقاتل إلا فى المبارزة خاصة .

الخامســة ــ اختلف العلمـاء فى تخميس السلب ؛ فقال الشافعىّ : لا يخمّس . وقال إسحاق : إن كان السلب يسيرا فهو للقاتل، وإن كان كثيرا خُمّس . وفعله عمر بن الخطاب مع البَرَاء بن مالك حين بارز المَرْزُبان فقتله ،فكانت قيمة منطقته وسواريه ثلاثين ألفا فخمّس ذلك . أنس عن البَرَاء بن مالك أنه قتل من المشركين مائة رجل إلا رجلا مبارزة ؛ وأنهـم لمـا غَزَوا الزَّارَة(2) خرج دهقان الزارة فقـال : رجل ورجل؛ فبرز البراء فاختلفا بسـيفيهما ثم اعتنقا فتورّكه البراء فقعد على كبده، ثم أخذ السيف فذبحه ، وأخذ سلاحه ومنطقته وأتى به عمر ؛ فنفّله السلاح وقوّم المنطقة بثلاثين ألفا فخمّسها، وقال : إنها مال . وقال الأوزاعىّ ومكحول : السلب مغنم وفيه الخمس . ورُوى نحـوه عن عمر بن الخطاب . والحجة للشافعىّ ما رواه أبو داود عن عوف بن مالك الأشجعىّ وخالد بن الوليد أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قضى فى السلب للقاتل ولم يخمّس السلب .

السادســة ــ ذهب جمهور العلماء إلى أن السلب لايعطى للقاتل إلا أن يُقيم البيّنة على قتله . قال أكثرهم : ويجزئ شاهد واحد؛ على حديث أبى قَتادة . وقيل: شاهدان أو شاهد ويمين . وقال الأوزاعىّ : يُعطاه بمجرد دعواه، وليست البينة شرطا فى الاستحقاق ، بل إن اتفق ذلك فهو الأَوْلى دفعا للمنازعة . ألا ترى أن النبىّ صـلى الله عليه وسـلم أعطى أبا قتادة سلب مقتوله من غير شهادة ولا يمين . ولا تكفى شهادة واحد، ولا يُناط بها حكم بمجردها . وبه قال الليث بن سعد .

(1) فى ب ، ز : أمراى . (2) الزارة : قرية بالبحرين .

قلت : سمعت شيخنا الحافظ المنذرى الشافعى أبا محمد عبد العظيم يقول : إنما أعطاه النبى صلى الله عليه وسلم السلب بشهادة الأسود بن خزاعى وعبد الله بن أنيس . وعلى هذا يندفع النزاع ويزول الإشكال ، ويطّرد الحكم . وأما المالكية فيخرّج على قولهم أنه لا يحتاج الإمام فيه إلى بينة ؛ لأنه من الإمام ابتداءً عطيةً ، فإنْ شرط الشهادة كان له ، وإن لم يشترط جاز أن يعطيَه من غير شهادة .

السابعة — واختلفوا فى السلب ما هو ؛ فأما السلاح وكل ما يحتاج للقتال فلا خلاف أنه من السلب ، وفرسه إن قاتل عليه وصُرع عنه . وقال أحمد فى الفرس : ليس من السلب . وكذلك إن كان فى هِمْيانه (١) وفى مِنطقته دنانير أو جواهر أو نحو هذا ، فلا خلاف أنه ليس من السلب . واختلفوا فيما يتزيّن به للحرب ؛ فقال الأوزاعى : ذلك كله من السلب . وقالت فرقة : ليس من السلب . وهذا مروِى عن سُحنون رحمه الله ؛ إلا المِنطقة فإنها عنده من السلب . وقال ابن حبيب فى الواضحة : والسّواران من السلب .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ قال أبو عبيد : هذا ناسخ لقوله عز وجل فى أول السورة «قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ» ولم يخمّس رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم بدر ، فنسخ حكمه فى ترك التخميس بهذا . إلا أنه يظهر من قول علىّ رضى الله عنه فى صحيح مسلم « كان لى شارف (٢) من نصيبى من المغنَم يوم بَدْر ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطانى شارِفا من الخمس يومئذ » الحديث — أنه خمّس ؛ فإن كان هذا فقولُ أبى عبيد مردودٌ . قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون الخمس الذى ذكر علىّ من إحدى الغزوات التى كانت بين بدر وأُحد ؛ فقد كانت غزوة بنى سُليم (٣) وغزوة بنى المُصْطَلِق وغزوة ذى أَمَر وغزوة بُحران ، ولم يُحفظ فيها قتال ، ولكن يمكن أن غُنمت غنائم . والله أعلم .

قلت : وهذا التأويل يرده قول علىّ يومئذ ، وذلك إشارة إلى يوم قسم غنائم بدر ؛ إلا أنه يحتمل أن يكون من الخمس إن كان لم يقع فى بدر تخميس ، من خمس سَرِيّة عبد الله بن جَحْش

(١) الهميان : الذى تجعل فيه النفقة . وشداد السراويل . (٢) الشارف : الناقة المسنة .
(٣) فى شرح المواهب أن غزوة بنى سليم هى غزوة البحران .

Marfat.com

فإنها أول غنيمة غنمت فى الإسلام، وأول خمس كان فى الإسلام؛ ثم نزل القرآن « وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ » . وهذا أولى من التأويل الأوّل . والله أعلم .

التاســـعة — « ما » فى قوله : « مَا غَنِمْتُمْ » بمعنى الذى ، والهـاء محذوفة ؛ أى الذى غنمتموه . ودخلت الفاء لأن فى الكلام معنى المجازاة . و« أنَّ » الثانية توكيد للأولى ، ويجوز كسرها، ورُوى عن أبى عمرو . قال الحسن[1] : هذا مفتاح كلام[2] ، الدنيا والآخرة لله؛ ذكره النَّسائى . واستفتح عز وجل الكلام فى الفىء والخُمْس بذكر نفسه؛ لأنهما أشرف الكسب، ولم ينسب الصدقه إليه لأنها أوساخ الناس .

العاشـــرة — واختلف العلماء فى كيفية قسم الخُمُس على أقوال ستة :

الأوّل — قالت طائفة : يقسم الخمس على ستة ؛ فيُجعل السدس للكعبة، وهو الذى لله . والثانى لرسول الله صلى الله عليه وسلم . والثالث لذوى القربى . والرابع لليتامى . والخامس للمساكين . والسادس لابن السبيل . وقال بعض أصحاب هـذا القول : يُرد السهم الذى لله على ذوى الحاجة .

الثـانى — قال أبو العالية والربيع : تقسم الغنيمة على خمسة، فيعزل منها سهم واحد، وتقسم الأربعة على الناس ، ثم يضرب بيده على السهم الذى عزله فما قبض عليه من شىء جعله للكعبة، ثم يَقسم بقيّة السهم الذى عزله على خمسة ، سهم للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، وسهم لذوى القُرْبَى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل .

الثـالث — قال المنهال بن عمرو : سألت عبد الله بن محمد بن علىّ وعلىّ بن الحسين عن الخمس فقال : هو لنا . قلت لعلىّ : إن الله تعالى يقول : «وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ السَّبِيلِ» فقال : أيتامنا ومساكيننا .

الرابـــع — قال الشافعىّ : يقسم على خمسة . ورأى أن سهم الله ورسوله واحد، وأنه يصرف فى مصالح المؤمنين، والأربعة الأخماس على الأربعة الأصناف المذكورين فى الآية .

---

(١) هو الحسن بن محمد بن على المعروف بابن الحنفية .

(٢) أى قوله تعالى : « فأن لله خمسه » راجع الحديث فى كتاب قسم الفىء فى سنن النسائى .

Marfat.com

الخامس — قال أبو حنيفـة : يقسم على ثلاثة : اليتـامى والمساكين وآبن السبيل . وارتفع عنده حكم قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بموته ؛ كما ارتفع حكم سهمه . قالوا : ويبدأ من الخمس بإصـلاح القناطر ، وبناء المساجد ، وأرزاق القضاة والجند . وروى نحو هذا عن الشافعي أيضا .

السـادس — قال مالك : هو موكول إلى نظر الإمام واجتهاده ؛ فيأخذ منـه من غير تقدير ، ويعطى منه القرابة بآجتهاد ، ويصرف الباقى فى مصالح المسلمين . وبه قال الخلفـاء الأربعة ، وبه عملوا . وعليه يدلّ قوله صلى الله عليه وسلم : " مالى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليـكم " . فإنه لم يَقسمه أخماسا ولا أثلاثا ، وإنمـا ذكر فى الآية من ذكر على وجه التنبيه عليهم ؛ لأنهم من أهمّ مَن يدفع إليـه . قال الزجاج محتجًّا لمـالك : قال الله عز وجل : «يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ السَّبِيلِ»(١) وللرجل جائز بإجماع أن ينفق فى غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك . وذكر النّسائى عن عطاء قال : خمُس الله وخمس رسوله واحد ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل منه ويعطى منه ويضعه حيث شاء ويصنع به ما شاء .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿وَلِذِى الْقُرْبَى﴾ ليست اللام لبيان الاستحقاق والملك ، وإنمـا هى لبيان المَصرف والمحل . والدليل عليه ما رواه مسلم أن الفضل بن عباس وربيعة ابن عبد المطلب أتيا النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فتكلم أحدهما فقال : يارسول الله ، أنت أبرّ النـاس ، وأوصل الناس ، وقد بلغنا النكاح فجئنا لتؤمرنا على بعض هذه الصدقات ، فنؤدّى إليك كما يؤدّى الناس ، ونصيبَ كما يصيبون . فسكت طويلا حتى أردنا أن نكلّمه ، قال : وجعلت زينب تُلْمِـع(٢) إلينا من وراء الحجاب ألّا تكلّماه ، قال : ثم قال : " إن الصدقة لاتحل لآل محمد إنمـا هى أوساخ الناس آدعُوا لِى مَحْمِيَةَ(٣) — وكان على الخُمُس — ونَوفَل بنَ الحارث بن

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٦ . (٢) يقال : ألمع ولمع ، إذا أشار بثوبه أو بيده .

(٣) هو محمية بن جزء ، رجل من بنى أسد .

Marfat.com

عبد المطلب " قال : بجاءاه فقال لمحمية : " أنكح هذا الغلام آبنتك " — للفضل بن عباس — فأنكحه . وقال لنوفل بن الحارث : " أنكح هذا العلامَ آبنتك " يعنى ربيعة بن عبد المطلب. وقال لمحمية : " أصدِق عنهما من الخمس كذا وكذا ". وقال صلى الله عليه وسلم : " مالى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم " . وقد أعطى جميعه وبعضه ، وأعطى منه المؤلفة قلوبهم ، وليس ممن ذكرهم الله فى التقسيم ؛ فدلّ على ما ذكرناه ، والموفق الإله .

الثانية عشرة — واختلف العلماء فى ذوى القربى على ثلاثة أقوال : قريش كلها ؛ قاله بعض السلف ، لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما صعد الصّفا جعل يهتف : " يابنى فلان يابنى عبد مناف يابنى عبد المطلب يابنى كعب يابنى مُرّة يابنى عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار " الحديث . وسيأتى فى « الشعراء » (1) . وقال الشافعيّ وأحمد وأبو ثَوْر ومجاهد وقتادة وابن جُريج ومسلم بن خالد : بنو هاشم وبنو عبد المطلب ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما قسم سهم ذوى القُرْبى بين بنى هاشم وبنى عبد المطلب قال : " إنهم لم يفارقونى فى جاهلية ولا إسلام إنما بنو هاشم وبنو المطّلب شىء واحد " وشبّك بين أصابعه ؛ أخرجه النسائىّ والبخارىّ . قال البخارىّ : قال الليث حدثنى يونس ، وزاد : ولم يَقْسم النبيّ صلى الله عليه وسلم لبنى عبد شمس ولا لبنى نَوْفل شيئا . قال ابن إسحاق : وعبد شمس وهاشم والمطّلب إخوةٌ لأمّ، وأمّهم عاتكة بنت مُرّة . وكان نوفل أخاهم لأبيهم . قال النّسائىّ : وأسهم النبيّ صلى الله عليه وسلم لذوى القربى ، وهم بنو هاشم وبنو المطلب، بينهم الغنى والفقير . وقد قيل : إنه للفقير منهم دون الغنيّ؛ كاليتامى وابن السبيل — وهو أشبه القولين بالصواب عندى . والله أعلم — والصغير والكبير والذكر والأنثى سواء؛ لأن الله تعالى جعل ذلك لهم ، وقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم . وليس فى الحديث أنه فضّل بعضهم على بعض .

الثالث — بنو هاشم خاصة؛ قاله مجاهد وعليّ بن الحسين . وهو قول مالك والثّورىّ والأوزاعيّ وغيرهم .

(1) راجع جـ ١٣ ص ١٤٣ .

الثالثة عشرة — لما بيّن الله عز وجل حكم الخمس وسكت عن الأربعة الأخماس، دلّ ذلك على أنها ملك للغانمين. وبيّن النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: "وأيّما قرية عصت الله ورسوله فإن خمسها لله ورسوله ثم هي لكم". وهذا ما لاخلاف فيه بين الأمة ولا بين الأئمة؛ على ما حكاه ابن العربي في (أحكامه) وغيره. بَيْدَ أن الإمام إن رأى أن يَمُنّ على الأسارى بالإطلاق فعل، وبطلت حقوق الغانمين فيهم؛ كما فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم بثُمامة بن أُثال وغيره، وقال: "لو كان المُطْعِم بن عديّ حيًّا ثم كلمني في هؤلاء النَّتْنَى (١) — يعني أسارى بدر — لتركتهم له" أخرجه البخاريّ. مكافأةً له لقيامه في شأن [نَقْض] (٢) الصحيفة. وله أن يقتل جميعَهم؛ وقد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم عُقْبة ابن أبي مُعَيط من بين الأسرى صَبْرًا (٣)، وكذلك النضر بن الحارث قتله بالصفراء (٤) صَبْرًا، وهذا ما لاخلاف فيه. وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سهم كسهم الغانمين، حضر أو غاب. وسهم الصَّفِيّ، يصطفي سيفا أو سهما أو خادما أو دابة. وكانت صَفِيَّة بنت حُيَيّ من الصَّفِيّ من غنائم خَيْبر. وكذلك ذو الفَقَار (٥) كان من الصَّفِيّ. وقد انقطع بموته؛ إلا عند أبي ثَوْر فإنه رآه باقيا للإمام يجعله مجعل سهم النبيّ صلى الله عليه وسلم. وكانت الحكمة في ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يرون للرئيس ربع الغنيمة. قال شاعرهم:

لك المِرْباع منها والصّفايا * وحُكْمُك والنّشيطةُ والفُضول (٦)

وقال آخر:

مِنّا الذي رَبَع الجيوش، لِصُلبه * عشرون وهو يُعَدّ في الأحياء

(١) النتنى: جمع نتن؛ كزمنى وزمن. (٢) أي الصحيفة التي كتبتها قريش في ألا يبايعوا الهاشمية ولا المطلبية ولا يناكحوهم. وهو مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف؛ مات كافرا في صفر قبل وقعة بدر بنحو سبعة أشهر. (عن شرح القسطلاني). (٣) صبر الإنسان وغيره على القتل: حبسه ورماه حتى يموت.
(٤) موضع قرب بدر. (٥) ذو الفقار: اسم سيف النبيّ عليه السلام، وسمى به لأنه كانت فيه حفر صغار حسان؛ ويقال للحفرة فقرة. (٦) البيت لعبد الله بن عنمة الضبي، يخاطب بسطام بن قيس. والنشيطة: ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصير إلى مجتمع الحي. والفضول: ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة، كالبعير والفرس ونحوهما (عن اللسان).

Marfat.com

يقال : رَبَع الجيشَ يَرْبَعه رَباعة إذا أخذ رُبع الغنيمة . قال الأصمعيّ : رَبَع فى الجاهلية وخَمَس فى الإسلام؛ فكان يأخذ بغير شرع ولا دِين الربع من الغنيمة، ويصطفى منها، ثم يتحكّم بعدَ الصَّفِيّ فى أى شىء أراد، وكان ما شذّ منها وما فضل من خُرْثِيّ(١) ومتاع له . فأحكم الله سبحانه الدِّين بقوله : « وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ » . وأبقى سهم الصَّفِيّ لنبيّه صلى الله عليـه وسلم وأسقط حكم الجاهلية . وقال عامر الشَّعْبِيّ : كان لرسول الله صلى الله عليـه وسلم سهم يُدعَى الصَّفِيّ إن شاء عبدا أو أَمَة أو فرسا يختاره قبل الخمس؛ أخرجه أبو داود . وفى حديث أبى هريرة قال : فيلقى العبد فيقول : "أىْ فُلْ(٢) ألم أكرِمْكَ وأُسوِّدك وأزوّجْك وأسخّرْ لك الخيل والإبل وأَذَرْك تَرْأَس وتَرْبَع" الحديث . أخرجه مسلم . « تربع » بالبـاء الموحّدة من تحتها : تأخذ المِرباع ، أى الربع مما يحصل لقومك من الغنائم والكسب . وقد ذهب بعض أصحاب الشافعيّ رضى الله عنـه إلى أن خمس الخمس كان للنبيّ صلى الله عليـه وسلم يصرفه فى كفاية أولاده ونسائه ، ويدّخر من ذلك قوت سنته ، ويصرف البـاقى فى الكُرَاع(٣) والسلاح . وهـذا يردّه ما رواه عمر قال : كانت أموال بنى النَّضير ممـا أفاء الله على رسوله ممـا لم يُوجِف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، فكانت للنبيّ صلى الله عليه وسلم خاصّــة ، فكان ينفق على نفسه منهـا قوت سنة(٤) ، وما بقى جعـله فى الكُرَاع والسلاح عدّة فى سبيل الله . أخرجه مسلم . وقال : " والخمس مردود عليكم " .

الرابعة عشرة — ليس فى كتاب(٥) الله تعـالى دلالة(٦) على تفضيل الفارس على الراجل ، بل فيه أنهم سواء ؛ لأن الله تعـالى جعل الأربعة أخماس لهم ولم يَخُص راجلا من فارس . ولولا الأخبار الواردة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم لكان الفارس كالراجل ، والعبد كالحرّ ، والصبيّ كالبالغ . وقـد اختلف العلماء فى قسمة الأربعة الأخماس ؛ فالذى عليه عامّة أهل

---

(١) الخرثى (بالضم) : أثاث البيت أو أردأ المتاع والغنائم . (٢) الحديث أورده مسلم فى كتاب الزهد . قال النووى : بضم الفاء وسكون اللام ؛ ومعناه يا فلان ، وهو ترخيم على خلاف القياس . وقيل هى لغة بمعنى فلان وقال صاحب المرقاة بسكون اللام وتفتح وتضم . (٣) الكراع (بالضم) : الخيل . (٤) الذى فى صحيح مسلم : « ... فكان ينفق على أهله نفقة سنة ... » الخ . (٥) فى ز : ليس فى الآية . (٦) فى ك : ما يدل .

Marfat.com

العلم فيما ذكر ابن المنذر أنه يُسْهِم للفارس سهمان، وللراجل سهم . وممن قال ذلك مالك ابن أنس ومن تبعه من أهل المدينة . وكذلك قال الأوزاعيّ ومن وافقه من أهل الشام . وكذلك قال الثَّورِيّ ومن وافقه من أهل العِراق . وهو قول اللّيث بن سعد ومن تبعه من أهل مصر . وكذلك قال الشافعيّ رضى الله عنه وأصحابه . وبه قال أحمد بن حنبل وإسحاق وأبو ثور ويعقوب ومحمد . قال ابن المنذر : ولا نعلم أحدًا خالف فى ذلك إلا النعمان فإنه خالف فيه السنَن وما عليه جُلّ أهل العلم فى القديم والحديث . قال : لا يُسْهَم للفارس إلا سهم واحد .

قلت : ولعله شُبِّه عليه بحديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل للفارس سهمين ، وللراجل سهما . خرّجه الدَّارَقُطْنِيّ وقال : قال الرمادِيّ كذا يقول ابن نمير قال لنا النيسابورى : هذا عندى وَهَم من ابن أبى شيبة أو من الرمادى ؛ لأن أحمد بن حنبل وعبد الرحمن بن بِشْر وغيرهما رَوَوه عن ابن عمر (١) [رضى الله عنهما] بخلاف هذا ، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسهم للرجل ولفرسه ثلاثة أسهم ، سهما له وسهمين لفرسه ؛ هكذا رواه عبد الرحمن ابن بشر عن عبد الله بن نمير عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر؛ وذكر الحديث . وفى صحيح البخاريّ عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل للفرس سهمين ولصاحبه سهما . وهذا نَصّ . وقد روى الدَّارَقُطْنِيّ عن الزبير قال : أعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أسهم يوم بدر ، سهمين لفرسى وسهما لى وسهما لأمّى من ذوى القرابة . وفى رواية : وسهما لأمّه سهم ذوى القربى . وخرّج عن بشير بن عمرو ابن محصن قال : أسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لفرسيّ أربعة أسهم ، ولى سهما ؛ فأخذت خمسة أسهم . وقيل : إن ذلك راجع إلى اجتهاد الإمام ، فينفذ ما رأى . والله أعلم .

الخامسة عشرة — لا يفاضل بين الفارس والراجل بأكثر من فرس واحد ؛ وبه قال الشافعيّ . وقال أبو حنيفة : يُسْهِم لأكثر من فرس واحد ؛ لأنه أكثر عناء وأعظم منفعة ؛

(١) الذى فى نسخة الدارقطنى : « عن ابن نمير » .

Marfat.com

و به قال ٱبن الجَهْم من أصحابنا، ورواه سُحنون عن ٱبن وهب . ودليلنا أنه لم ترد رواية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يُسهم لأكثر من فرس واحد ، وكذلك الأئمة بعده، ولأن العدو لا يمكن أن يقاتل إلا على فرس واحد ، وما زاد على ذلك فرفاهية وزيادة عُدّة ؛ وذلك لا يؤثر فى زيادة السُّهمان ، كالذى معه زيادة سيوف أو رماح ، واعتبارا بالثالث والرابع . وقد رُوى عن سليمان بن موسى أنه يُسهم لمن كان عنده أفراس ، لكلّ فرس سهم .

السادسة عشرة — لا يسهم إلا للعتاق من الخيل ؛ لما فيها من الكرّ والفر ، وما كان من البَراذين والهُجْن بمثابتها فى ذلك . وما لم يكن كذلك لم يسهم له . وقيـل : إن أجازها الإمام أسهم لها ؛ لأن الانتفاع بهـا يختلف بحسب الموضع ، فالهجن والبراذين تصلح للمواضع المتوعّرة كالشعاب والجبال ، والعِتـاق تصلح للمواضـع التى يتأتى فيهـا الكر والفر ؛ فكان ذلك متعلقا برأى الإمام . والعتاق : خيل العرب . والهجن والبراذين : خيل الروم .

السابعة عشرة — وٱختلف علماؤنا فى الفـرس الضعيف ؛ فقـال أشهب وٱبن نافع : لا يُسْهم له ؛ لأنه لا يمكن القتال عليـه فأشبه الكسير . وقيـل : يسهم له لأنه يرجى برؤه . ولا يسهم للأعجف إذا كان فى حيّز ما لا يُنتفع به ، كما لا يسهم للكسير . فأمّا المريض مرضا خفيفا مثل الرَّهِيص [(١)] ، وما يجرى مجراه مما لا يمنعه المرض عن حصول المنفعة المقصودة منه فإنه يسهم له . و يعطى الفرس المستعار والمستأجَر ، وكذلك المغصوب ؛ وسهمه لصاحبه . و يستحق السهم للخيـل و إن كانت فى السفن ووقعت الغنيمة فى البحر ؛ لأنهـا معدّة للنزول إلى البر .

الثامنة عشرة — لا حق فى الغنـائم للحُشْوة [(٢)] كالأجراء والصناع الذين يصحبون الجيش للمعاش ؛ لأنهم لم يقصدوا قتـالا ولا خرجوا مجاهدين . وقيل : يُسهم لهم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " الغنيمة لمن شهد الوقعة " . أخرجه البخارىّ . وهذا لا حجة فيه لأنه جاء بيانا

(١) الرهيص : الذى أصابته الرهصة ، وهى وقرة — صدع — تصيب باطن حافر الفرس توهنه .

(٢) الحشوة (بضم الحاء وكسرها) رذالة الناس .

Marfat.com

لمن باشر الحرب وخرج إليه، وكفى ببيان الله عز وجل المقاتلين وأهل المعاش من المسلمين حيث جعلهم فرقتين متميزتين ، لكل واحدة حالها فى حكمها ، فقال : « عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ »[(١)] . إلا أن هؤلاء إذا قاتلوا لا يضرهم كونهم على معاشهم ؛ لأن سبب الاستحقاق قد وُجد منهم . وقال أشهب : لا يستحق أحد منهم وإن قاتل ، وبه قال ابن القصّار فى الأجير : لا يسهم له وإن قاتل . وهذا يردّه حديث سلمة بن الأكوع قال : كنت تَبِيعا لطلحة بن عبيد الله أسق فرسه وأحُسُّه[(٢)] وأخدمه وآكل من طعامه ، الحديث . وفيه : ثم أعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم سهمين، سهمَ الفارس وسهمَ الراجل، فجمعهما لى . خرّجه مسلم . وآحتج آبن القصّار ومن قال بقوله بحديث عبد الرحمن بن عوف، ذكره عبد الرزاق ؛ وفيه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن : " هذه الثلاثة الدنانير حظه[(٣)] ونصيبه من غزوته فى أمر دنياه وآخرته " .

التاسعة عشرة — فأما العبيد والنساء فمذهب الكتّاب أنه لا يُسْهم لهم ولا يُرْضَخ[(٤)] . وقيل : يرضخ لهم ؛ وبه قال جمهور العلماء . وقال الأوزاعىّ : إن قاتلت المرأة أسهم لها . وزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسهم للنساء يوم خَيْبر . قال : وأخذ المسلمون بذلك عندنا . وإلى هذا القول مال آبن حبيب من أصحابنا . خرّج مسلم عن آبن عباس أنه كان فى كتابه إلى نَجْدة[(٥)] : تسألنى هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو بالنساء ؟ وقد كان يغزو بهنّ فَيُداوِين الجرحى ويُحْذَيْن[(٦)] من الغنيمة ، وأما بِسهم فلم يَضرب لهن . وأما الصبيان فإن كان مطيقا للقتال ففيه عندنا ثلاثة أقوال : الإسهام ونَفْيه حتى يبلغ ، لحديث آبن عمر ، وبه قال أبو حنيفة والشافعىّ . والتفرقة بين أن يقاتل فيُسهم له أو لا يقاتل فلا يسهم له . والصحيح

(١) راجع جـ ١٩ ص ٥٤ .   (٢) أحسه : أزيل التراب عنه بالمحسة .   (٣) فى ز : حصنه .
(٤) الرضخ : العطاء ليس بالكثير .   (٥) هو نجدة بن عامر الحنفى ؛ كان من رؤساء الخوارج .
(٦) يحذين : يعطين الحذوة (بكسر الحاء وضمها) وهى العطية .

Marfat.com

الأوّل ؛ لأمر رســـول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى قُريظة أن يقتل منهم من أنبت ويُخْلَى منهم من لم ينبت . وهذه مراعاة لإطاقة القتال لا للبلوغ . وقد روى أبو عمر فى الاستيعاب عن سَمُرَة بن جُنْدُب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعرض عليه الغلمان من الأنصار فيلحق من أدرك منهم ؛ فعُرضت عليه عاما فألحق غلامًا وردّنى ، فقلت : يارســـول الله ، ألحقتَــه ورددتنى ، ولو صارعنى صرعتــه قال : فصارعنى فصرعته فألحقنى . وأما العبيــد فلا يُسْهم لهم أيضا ويُرْضخ لهم .

الموفيــة عشرين — الكافر إذا حضر بإذن الإمام وقاتل ففى الإسهام له عندنا ثلاثة أقوال : الإسهام ونفيه ؛ وبه قال مالك وآبن القاسم . زاد آبن حبيب : ولا نصيب لهم . ويفرق فى الثالث — وهو لسُحْنون — بين أن يستقل المســـلمون بأنفسهم فلا يُسهم له ، أو لا يستقلوا ويفتقروا إلى معونته فيسهم له . فإن لم يقاتل فلا يستحق شيئا . وكذلك العبيد مع الأحرار . وقال الثَّوْرِىّ والأوزاعىّ : إذا آسْتُعين بأهل الذمة أسهم لهم . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا يسهم لهم، ولكن يُرضخ لهم . وقال الشافعىّ رضى الله عنه : يستأجرهم الإمام من مال لا مالك له بعينه . فإن لم يفعل أعطاهم سهم النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقال فى موضع آخر : يُرضخ للشركين إذا قاتلوا مع المسلمين . قال أبو عمر : آتفق الجميع أن العبد، وهو ممن(١) يجوز أمانه، إذا قاتل لم يسهم له ولكن يرضخ؛ فالكافر بذلك أولى ألّا يسهم له .

الحادية والعشرون — لو خرج العبد وأهل الذّمة لصوصا وأخذوا مال أهل الحرب فهو لهم ولا يخمّس ؛ لأنه لم يدخل فى عموم قـوله عز وجل : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ أحدٌ منهم ولا من النساء . فأما الكفار فلا مدخل لهم من غير خلاف . وقال سُحنون . لا يخمّسماينوب العبدَ . وقال آبن القاسم : يخمس ؛ لأنه يجوز أن يأذن له سيّده فى القتال ويقاتل على الدِّين ؛ بخلاف الكافر . وقال أشهب فى كتاب محمد : إذا خرج العبد والذمىّ من الجيش وغنما فالغنيمة للجيش دونهم .

---

(١) فى ب : وهو مؤمن يجوز . الخ .

الثانية والعشرون — سبب استحقاق السهم شهود الوقعة لنصر المسلمين، على ما تقدم. فلو شهد آخر الوقعة آستحق. ولو حضر بعد آنقضاء القتال فلا. ولو غاب بانهزام فكذلك. فإن كان قصد التحيز إلى فئة فلا يسقط استحقاقه. روى البخاري وأبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبان بن سعيد على سَرِيّة من المدينة قِبل نَجْد، فقدم أبان بن سعيد وأصحابه على رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر بعد أن فتحها، وإن حُزُم خيلهم ليف، فقال أبان: أقسِم لنا يا رسول الله. قال أبو هريرة: [فقلت][(1)] لا تَقسم لهم يا رسول الله. فقال أبان: أنت بها يا وَبْرُ[(2)] تَحَدّر علينا من رأس ضَالٍ[(2)]. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اجلس يا أبان" ولم يقسم لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الثالثة والعشرون — وآختلف العلماء فيمن خرج لشهود الوقعة فمنعه العذر منه كمرض؛ ففي ثبوت الإسهام له ونفيه ثلاثة أقوال: يفرق في الثالث، وهو المشهور، فيثبته إن كان الضلال قبل القتال وبعد الإدراب[(3)]، وهو الأصح؛ قاله آبن العربي. وينفيه إن كان قبله. وكمن بعثه الأمير من الجيش في أمر من مصلحة الجيش فشغله ذلك عن شهود الوقعة فإنه يسهم له؛ قاله آبن المَوّاز، ورواه آبن وهب وآبن نافع عن مالك. وروى لا يسهم له بل يُرْضَخ له لعدم السبب الذي يستحق به السّهم، والله أعلم. وقال أشهب: يُسْهم للأسير وإن كان في الحديد. والصحيح أنه لا يُسهم له؛ لأنه ملك مستحَق بالقتال؛ فمن غاب أو حضر مريضا كمن لم يحضر.

الرابعة والعشرون — الغائب المطلق لا يُسْهم له، ولم يُسهِم رسول الله صلى الله عليه وسلم لغائب قطّ إلا يوم خيبر؛ فإنه أسهم لأهل الحُدَيْبِية مَن حضر منهم ومَن غاب؛ لقول الله عز وجل: « وَعَدَكُمُ اللّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا[(4)] »؛ قاله موسى بن عقبة. ورُوى ذلك عن جماعة من السلف. وقسم يوم بدر لعثمان ولسعيد بن زيد وطلحة، وكانوا غائبين؛ فهم

---

(١) من ج، ز، ك.　　(٢) الوبر: دويبة على قدر السنور غبراء أو بيضاء حسنة العينين شديدة الحياء. والضال: شجر السدر من شجر الشوك، وفي ب تدلى علينا من قدوم ضال.　　(٣) أدرب القوم: إذا دخلوا أرض العدو.　　(٤) راجع ج ١٦ ص ٢٧٨.

Marfat.com

يكن حضرها إن شاء الله تعالى . فأما عثمان فإنه تخلّف على رُقَية بنت رسـول الله صلى الله عليه وسلم بأمره من أجل مرضها . فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره ؛ فكان كمن شهدها(١) . وأما طلحة بن عبيد الله فكان بالشام فى تجارة فضرب له رسـول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره ؛ فيعدّ لذلك فى أهل بدر . وأما سعيد بن زيد فكان غائبا بالشام أيضا فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره . فهو معدود فى البدريّين . قال ابن العربى : أما أهل الحديبية فكان ميعادا من الله اختص به أولئك النفر فلا يشاركهم فيه غيرهم . وأما عثمان وسـعيد وطلحة فيحتمل أن يكون أسهم لهم من الخمس ؛ لأن الأمة مجمعة على أن من بقى لعذر فلا يُسهم له .

قلت : الظاهر أن ذلك مخصوص بعثمان وطلحة وسـعيد فلا يقاس عليهم غيرهم . وأن سهمهم كان من صلب الغنيمة كسائر من حضرها لا من الخمس . هذا الظاهر من الأحاديث والله أعلم . وقد روى البخارى عن ابن عمر قال : لما تغيّب عثمان عن بدر فإنه كان تحته ابنة رسـول الله صلى الله عليه وسـلم وكانت مريضة ، فقال له النبى صلى الله عليه وسـلم : " إن لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه " .

الخامسة والعشرون — قوله تعـالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ قال الزجاج عن فرقة : المعـنى فاعلموا أن الله مولاكم إن كنـتم ؛ ف « إنْ » متعلقة بهـذا الوعد . وقالت فرقة : إن « إن » متعلقة بقـوله « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ » . قال ابن عطية : وهذا هو الصحيح ؛ لأن قـوله « وَاعْلَمُوا » يتضمن الأمر بالانقياد والتسليم لأمر الله فى الغنائم ؛ فعلّق « إنْ » بقوله : « واعلموا » على هـذا المعنى ؛ أى إن كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وسلموا لأمر الله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْـدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾(٢) « ما » فى موضع خفض عطف على اسم الله « يَوْمَ الْفُرْقَانِ » أى اليوم الذى فرقت فيه بين الحق والباطل ، وهو يوم بدر . ﴿ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ حزب الله وحزب الشيطان . ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

(١) فى ب : فيعد لذلك فى أهل بدر .
(٢) المتبادر أن المسألة السادسة والعشرين هى هذه الآية لأنها من تمام الكلام .

Marfat.com

قوله تعالى : إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾ أى أنزلنا إذ أنتم على هذه الصفة . أو يكون المعنى : واذكروا إذ أنتم . والعُدْوة : جانب الوادى . وقرئ بضم العين وكسرها ؛ فعلى الضم يكون الجمع عُدًى ، وعلى الكسر عِدى ، مثل لحية ولِحًى ، وفرية وفِرًى . والدنيا : تأنيث الأدنى . والقصوى : تأنيث الأقصى . من دنا يدنو ، وقَصَا يقصو . ويقال : القصيا ، والأصل الواو ، وهى لغة أهل الحجاز قصوى . فالدّنيا كانت مما يلى المدينة ، والقصوى مما يلى مكة . أى إذ أنتم نزول بشفير الوادى بالجانب الأدنى إلى المدينة ، وعدوكم بالجانب الأقصى . ﴿ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ يعنى ركب أبى سفيان وغيره . كانوا فى موضع أسفل منهم إلى ساحل البحر فيه الأمتعة . وقيل : هى الإبل التى كانت تحمل أمتعتهم ، وكانت فى موضع يأمنون عليها توفيقا من الله عز وجل لهم ، فذكّرهم نعمه عليهم . «الركب» ابتداء « أسفل منكم » ظرف فى موضع الخبر . أى مكانا أسفل منكم . وأجاز الأخفش والكسائى والفراء « والركبُ أسفلُ منكم » أى أشد تسفلا منكم . والرَّكْبُ جمع راكب . ولا تقول العرب : رَكْب إلا للجماعة الراكبى الإبل . وحكى ابن السِّكِّيت وأكثر أهل اللغة أنه لا يقال راكب وركب إلا للذى على الإبل ، ولا يقال لمن كان على فرس أو غيرها راكب . والرَّكْب والأرْكُب والرُّكبان والراكبون لا يكونون إلا على جمال ؛ عن ابن فارس . ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِى الْمِيعَادِ ﴾(١) أى لم يكن يقع الاتفاق لكثرتهم وقلتكم ؛ فإنكم لو عرفتم كثرتهم لتأخرتم فوفق الله عز وجل لكم . ﴿ لِيَقْضِىَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ من نصر المؤمنين وإظهار الدِّين . واللام فى « لِيَقْضِىَ» متعلقة بمحذوف . والمعنى : جمعهم ليقضى الله ، ثم كررها فقال : ﴿ لِيَهْلِكَ ﴾

(١) فى جـ : لتخلفتم .

Marfat.com

أى جمعهم هنالك ليقضى أمرا . ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ ﴾ « مَن » فى موضع رفع . « ويَحْيَا » فى موضع نصب عطف على ليهلك . والبينة إقامة الحجة والبرهان . أى ليموت من يموت عن بينــة رآها وعبرة عاينها ، فقامت عليــه الحجة . وكذلك حيــاة من يحيا . وقال ابن إسحاق : ليكفر من كفر بعــد حجة قامت عليه وقطعت عذره ، و يؤمن من آمن على ذلك . وقــرئ « من حيي » بيائين على الأصل . وبياء واحدة مشدّدة ، الأولى قراءة أهل المدينة والبَزّى وأبي بكر . والثانية قراءة الباقين ، وهى اختيار أبي عبيد؛ لأنها كذلك وقعت فى المصحف .

قوله تعـالى : إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾

قال مجاهــد : رآهم النبي صلى الله عليه وسلم فى منامه قليلا ، فقص ذلك على أصحابه ؛ فثبّتهم الله بذلك . وقيل : عنى بالمنام محل النوم وهو العين ؛ أى فى موضع منامك ، فحذف ؛ عن الحسن . قال الزجاج : وهــذا مذهبٌ حسنٌ ، ولكن الأولى أسْوَغ فى العربية ؛ لأنه قــد جاء « وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيــلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ » فدلّ بهذا على أن هــذه رؤية الالتقاء ، وأن تلك رؤية النوم . ومعنى ﴿ لَفَشِلْتُمْ ﴾ لجَبُنتم عن الحــرب . ﴿ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ ﴾ اختلفتم . ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾ أى سلّمكم من المخالفة . ابن عباس : من الفشل . ويحتمل منهما . وقيل : سلم أى أتم أمر المسلمين بالظفر .

قوله تعـالى : وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾ هذا فى اليقظة . و يجوز حمل الأولى على اليقظة أيضا إذا قلت : المنام موضع النوم ، وهو العين ؛ فتكون الأولى على هذا خاصةً بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهذه للجميع . قال ابن مسعود : قلت لإنسان كان بجانبي

Marfat.com

يوم بدر : أتراهم سبعين؟ فقال : هم نحو المائة . فأسرنا رجلا فقلنا : كم كنتم ؟ فقال : كنا ألفا . ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ كان هذا فى ابتداء القتال حتى قال أبو جهل فى ذلك اليوم : إنما هم أكلة جزور(١)، خذوهم أخذا وآربطوهم بالحبال . فلما أخذوا فى القتال عظم المسلمون فى أعينهم فكثروا؛ كما قال : « يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ » حسب ما تقدم فى « آل عمران(٢)» بيانه . ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ تكرر هذا ؛ لأن المعنى فى الأول من اللقاء ، وفى الثانى من قتل المشركين وإعزاز الدين ، وهو إتمام النعمة على المسلمين . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أى مصيرها ومردها إليه .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴾ أى جماعة ﴿ فَاثْبُتُوا ﴾ أمر بالثبات عند قتال الكفار ، كما فى الآية قبلها النهى عن الفرار عنهم ، فالتقى الأمر والنهى على سواء . وهذا تأكيد على الوقوف للعدو والتجلد له .

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ للعلماء فى هذا الذكر ثلاثة أقوال : الأول — آذكروا الله عند جزع قلوبكم؛ فإن ذكره يعين على الثبات فى الشدائد . الثانى — اثبتوا بقلوبكم ، واذكروه بألسنتكم ؛ فإن القلب لا يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان؛ فأمر بالذكر حتى يثبت القلب على اليقين، ويثبت اللسان على الذكر، ويقول ما قاله أصحاب طالوت: « رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(٣)» . وهذه الحالة لا تكون إلا عن قوة المعرفة، واتقاد البصيرة، وهى الشجاعة المحمودة فى الناس . الثالث — آذكروا ما عندكم من وعد الله لكم فى آبتياعه أنفسكم ومثامنته لكم .

---

(١) أى هم قليل ، يشبعهم لحم ناقة . (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٥ . (٣) راجع جـ ٣ ص ٢٥٦ .

Marfat.com

قلت : والأظهر أنه ذكرُ اللسان الموافقُ للجَنان . قال محمد بن كعب القُرَظيّ : لو رُخِّص لأحد فى ترك الذكر لرُخِّص لزكريا؛ يقول الله عز وجل : «أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا(١)» . ولرُخِّص للرجل يكون فى الحرب؛ يقول الله عز وجل : «إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا» . وقال قتادة : افترض الله جل وعز ذكرَه على عباده، أشغلَ ما يكونون عند الضِّراب(٢) بالسيوف . وحكم هـذا الذكر أن يكون خفيا ؛ لأن رفع الصوت فى مواطن القتـال ردىء مكروه إذا كان الذاكر واحدا(٣) . فأما إذا كان من الجميع عند الحملة فحسن؛ لأنه يَفُتّ فى أعضاد العدوّ . وروى أبو داود عن قيس بن عُباد قال : كان أصحاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم يكرهون الصوت عند القتال . وروى أبو بُرْدة عن أبيـه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مثل ذلك . قال ابن عباس : يكره التلثّم عند القتال . قال ابن عطية : وبهذا والله أعلم استنّ(٤) المرابطون بطَرْحه عند القتال على صيانتهم به .

قوله تعـالى : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا﴾ هذا استمرار على الوصية لهم، والأخذ على أيديهم فى اختلافهم فى أمر بَدْر وتنازعهم . ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ نصب بالفاء فى جواب النهى . ولا يُجيز سيبويه حذف الفاء والجزم وأجازه الكسائيّ . وقرئ « تَفْشِلوا » بكسر الشـين . وهو غير معـروف . ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أى قوتكم ونصركم ؛ كما تقول : الريح لفلان ، إذا كان غالبا فى الأمر . قال الشاعر :

إذا هبّت رياحك فاغتنمـها ❊ فإن لكل خافقـة سكون(٥)

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٨٠ . (٢) فى ب وجـ وك وز والبحر : الضراب والسيوف . (٣) اختلفت الأصول فى هذه الجملة ؛ ففى جـ : « ... إذا كان ألفاظا ... » وفى ب وك وابن عطية : « ... إذا كان ألفاظا فأما ... » وفى ز و ل : العائط واحدا . وكلها ذات معان . (٤) فى تفسـير ابن عطية « تمين » والظاهر أنه يريد أن المرابطين آثروا التبرك بطرح التلثم عملا بما ورد عن ابن عباس على الصيانة به . (٥) القافية مرفوعة ، واسم « إنّ » ها هنا ضمير الشان . وقوله « لكل خافقة سكون » خبرها . وفى جـ و هـ : عاصفة . وهى رواية . ومن هذه القصيدة :

ولا تغفل عن الإحسان فيها ❊ فما تدرى السكون متى يكون

Marfat.com

وقال قتادة وابن زيد : إنه لم يكن نصر قطّ إلا بريح تهبّ فتضرب فى وجوه الكفار . ومنه قوله عليه السلام : "نُصرتُ بالصَّبا وأهلكت عاد بالدَّبور"(١) . قال الحكم : « وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » يعنى الصَّبا ؛ إذ بها نصر محمد عليه الصلاة والسلام وأمّتهُ . وقال مجاهد : وذهبت ريح أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين نازعوه يوم أُحُد .

قوله تعالى : ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أمر بالصبر، وهو محمود فى كل المواطن وخاصّةً موطن الحرب ؛ كما قال : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا » .

قوله تعالى : وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

يعنى أبا جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر لنُصرة العِير . خرجوا بالقِيان(٢) والمغنياتِ والمعازف؛ فلما وردوا الجُحْفة بعث خُفافُ الكنانيّ — وكان صديقا لأبى جهل — بهدايا إليه مع ابن له ، وقال : إن شئت أمددتك بالرجال ، وإن شئت أمددتك بنفسى مع من خفّ من قومى . فقال أبو جهل : إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد ، فوالله ما لنا بالله من طاقة . وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوّة ، والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نَرِد بدرا فنشربَ فيها الخمور، وتعزف علينا القِيان ؛ فإن بدرا موسم من مواسم العرب، وسوق من أسواقهم، حتى تسمع العرب بمخرجنا فتهابنا آخر الأبد . فوَرَدُوا بدرا و[لكن](٣) جرى ما جرى من هلاكهم . والبَطَر فى اللغة . التقوية بنعم الله عز وجل وما ألبسه من العافية على المعاصى . وهو مصدر فى موضع الحال . أى خرجوا بَطِرِين مُراءين صادّين . وصدُّهم إضلالُ الناس .

---

(١) الصبا (بالفتح) : الريح الشرقية . والدّبور : الغربية . (٢) القيان : جمع قينة ، وهى الأمة مغنية كانت أو غير مغنية . والمعازف : الملاهى . (٣) من جـ وك وى .

Marfat.com

قوله تعالى : وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾

روى أن الشيطان تمثّل لهم يومئذ فى صورة سُراقة بن مالك بن جُعْشم، وهو من بنى بكر بن كنانة، وكانت قريش تخاف من بنى بكر أن يأتوهم من ورائهم؛ لأنهم قتلوا رجلا منهم . فلما تمثّل لهم قال ما أخبر الله به عنه . وقال الضحاك : جاءهم إبليس يوم بدر برايتـه وجنوده ، وألقى فى قلوبهم أنهم لن يهزموا وهم يقاتلون على دين آبائهم . وعن ابن عباس قال : أمدّ الله نبيّه محمدا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بألف من الملائكة؛ فكان جبريل عليه السلام فى خمسمائة من الملائكة مُجَنِّبة(١)، وميكائيل فى خمسمائة من الملائكة مُجَنِّبة . وجاء إبليس فى جند من الشياطين ومعه راية فى صورة رجال من بنى مُدْلج، والشيطان فى صورة سراقة بن مالك بن جُعْشم. فقال الشيطان للمشركين : لاغالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم؛ فلمـا اصطفّ القوم قال أبو جهل : اللّهمّ أَوْلانا بالحق فانصره . ورفع رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يده فقال : يا ربّ إنك إن تُهلك هـذه العصابةُ فلن تُعبد فى الأرض أبدا ". فقال، جبريل : " خذ قبضة من التراب " فأخذ قبضة من التراب فرمى بهـا وجوههم ؛ فـما من المشركين من أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه . فولّوا مدبرين، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس فلما رآه كانت يده فى يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده ثم ولى مدبرا وشيعته؛ فقال له الرجل: ياسُراقة، ألم تزعم أنك لنا جارٌ؛ قال: إنى برىء منكم إنى أرى ما لاترون. ذكره البيهقى وغيره. وفى مُوطّأ مالك عن إبراهيم بن أبى عَبْلة عن طلحة بن عبيدالله بن كَرِيز أن رسول الله صلى الله

---

(١) مجنبة الجيش : هى التى تكون فى الميمنة والميسرة، وهما مجنبتان ، والنون مكسورة . وقيل : هى الكتيبة التى تأخذ إحدى ناحيتى الطريق .

Marfat.com

عليه وسلم قال : " ما رأى الشيطان نفسه يوما هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة وما ذاك إلا لمـا رأى من تنزّل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر" . قيل : وما رأى يوم بدر يا رسول الله؟ قال " أمَا إنه رأى جبريل يزع الملائكة (١) " . ومعنى نكص : رجع بلغة سليم ؛ عن مؤرّج (٢) وغيره . وقال الشاعر :

ليس النكُوصُ على الأدبار مَكرمةً * إن المكارمَ إقدامٌ على الأَسَل (٣)

وقال آخر :

وما ينفع المستأخرين نكوصُهم * ولا ضرّ أهل السابقات التقدّمُ

وليس (٤) ها هنا قهقرى بل هو فرار ؛ كما قال : " إذا سَمِع الأذانَ أدبر وله ضراط " . ﴿ إِنِّى أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾ قيل : خاف إبليس أن يكون يوم بدر اليوم الذى أُنظِر إليه . وقيل : كذب إبليس فى قوله : « إنى أخاف الله » ولكن علم أنه لا قوة له . ويجمع جار على أجوار وجيران، وفى القليل جيرة .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

قيل : المنافقون : الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر . والذين فى قلوبهم مرض : الشاكّون، وهم دون المنافقين؛ لأنهم حديثو عهد بالإسلام، وفيهم بعض ضعف نية . قالوا عند الخروج إلى القتال وعند التقاء الصفّين : غرّ هؤلاء دينهم . وقيل : هما واحد ؛ وهو أولى . ألَا ترى إلى قوله عز وجل : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » ثم قال « وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ (٥) » وهما لواحد .

---

(١) يزع الملائكة : أى يرتبهم ويسوّيهم ويصفهم للحرب .

(٢) هو مؤرج بن عمرو السدوسى يكنى أبا فيد، مات سنة ١٩٥ هـ .

(٣) الأسل : الرماح والنبل .

(٤) كذا فى الأصول . ما عدا ع ز فيها : وليس التقدم هاهنا الخ ولعل الصواب : وليس النكوص .

(٥) راجع جـ ١ ص ١٦٢ .

Marfat.com

قوله تعالى : وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

قيل : أراد من بقي ولم يُقتل يوم بدر . وقيل : هي فيمن قُتل ببدر . وجواب « لو » محذوف ، تقديره : لرأيت أمرا عظيما . ﴿ يَضْرِبُونَ ﴾ في موضع الحال . ﴿ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ أي أستاههم ، كنى عنها بالأدبار ؛ قاله مجاهد وسعيد بن جُبير . الحسن : ظهورهم ، وقال : إن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يارسول الله ، إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشراك[1] ؟ قال : " ذلك ضرب الملائكة " . وقيل : هذا الضرب يكون عند الموت . وقد يكون يوم القيامة حين يصيرون بهم إلى النار . ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ قال الفراء : المعنى ويقولون ذوقوا ؛ فحذف . وقال الحسن : هذا يوم القيامة ، تقول لهم خزنة جهنم : ذوقوا عذاب الحريق . وروى أن في بعض التفاسير أنه كان مع الملائكة مقامعُ من حديد ، كلما ضربوا التهبت النار في الجراحات ؛ فذلك قوله : « وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » . والذوق يكون محسوسا ومعنًى . وقد يوضع موضع الابتلاء والاختبار ؛ تقول : اركب هذا الفرس فذقه . وانظر فلانا فذق ما عنده . قال الشمّاخ يصف فرسا :

فذاق فأعطتْه من اللّين جانبـا * كفَى ولها أن يُغرِقَ السهمَ حاجزُ[2]

وأصله من الذّوق بالفم . ﴿ ذَلِكَ ﴾ في موضع رفع ؛ أي الأمر ذلك . أو « ذلك » جزاؤكم . ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي اكتسبتم من الآثام . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ إذ قد أوضح السبيل وبعث الرسل ، فلم خالفتم ؟ . « وأنّ » في موضع خفض عطف على « ما » وإن شئت نصبت ، بمعنى وبأنّ ، وحذفت الباء . أو بمعنى : وذلك أن الله . ويجوز أن يكون في موضع رفع نسقا على ذلك .

---

(١) الشراك : سير النعل . (٢) في اللسان : أي لها حاجز يمنع من إغراق . أي فيها لين وشدة .

قوله تعالى : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾

الدأب العادة . وقد تقدّم فى « آل عمران »[1] . أى العادة فى تعذيبهم عند قبض الأرواح وفى القبور كعادة آل فرعون . وقيل : المعنى جُوزى هؤلاء بالقتل والسبى كما جُوزى آل فرعون بالغرق . أى دأبهم كدأب آل فرعون .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

تعليل . أى هذا العقاب ؛ لأنهم غيروا و بدّلوا ، ونعمة الله على قريش الخصب والسَّعة ، والأمن والعافيــة . « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ »[2] الآية . وقال السدّى : نعمة الله عليهم محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به ، فنقل إلى المدينــة وحلّ بالمشركين العقاب .

قوله تعالى : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

ليس هـذا بتكرير ؛ لأن الأوّل للعادة فى التكذيب ، والثـانى للعادة فى التغيير ، و باقى الآية بين .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٢ .		(٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٦٣ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ ٱللَّهِ ﴾ أى من يدبّ على وجه الأرض فى علم الله وحكمه . ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ نظيره « الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ »(1) . ثم وصفهم فقال : ﴿ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ أى لا يخافون الانتقام . « ومن » فى قوله « منهم » للتبعيض ؛ لأن العهد إنما كان يجرى مع أشرافهم ثم ينقضونه . والمعنيُّ بهـم قُريظة والنضير ؛ فى قول مجاهد وغيره . نقضوا العهـد فأعانوا مشركى مكة بالسلاح ، ثم اعتذروا فقالوا : نسينا ؛ فعاهدهم عليه السلام ثانية فنقضوا يوم الخنـدق .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

شرطٌ وجوابه . ودخلت النون توكيدا لمـا دخلت ما ؛ هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : تدخل النون الثقيلة والخفيفة مع « إمّا » فى المجازاة للفرق بين المجازاة والتخيير . ومعنى « تَثْقَفَنَّهُمْ » تأسرهم وتجعلهم فى ثِقاف ، أو تلقاهم بحال ضعف ، تقدر عليهم فيهـا وتغلبهم . وهذا لازم من اللفظ؛ لقوله «فِي الْحَرْبِ» . وقال بعض الناس: تصادفنهم وتلقاهم . يقال : ثقفته أثقفه ثَقْفـا ، أى وجدته . وفلان ثَقِف لَقِف أى سريع الوجود لمـا يحاوله ويطلبه . وثَقْف لَقْف . وامرأة ثَقاف . والقول الأول أَوْلى ؛ لارتبـاطه بالآية كما بيّنا . والمصادف قد يغلب فيمكن التشريد به ، وقد لا يغلب . والثقاف فى اللغة : ما يُشدّ به القناة ونحوها . ومنه قول النابغة :

تدعو قُعَينا وقد عَضّ الحديد بها * عَضّ الثّقاف على صُمّ الأنابيبِ(2)

﴿ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ ﴾ قال سعيد بن جُبير : المعنى أنذر بهم مَن خلفهم . قال أبو عبيد : هى لغة قريش ، شرّد بهم سمّع بهم . وقال الضحاك : نَكِّل بهم . الزجاج : افعل بهم فعلا

(1) راجع جـ ٧ ص ٣٨٨ . (2) القعن (بالتحريك) : قصر فى الأنف فاحش . وقعين : حى مشتق منه ؛ وهما قعينان : قعين فى بنى أسد وقعين فى قيس عيلان . والأنابيب : جمع أنبوبة ؛ وهى كعب القصبة والرمح .

من القتل تفرّق به من خلفهم . والتشريد فى اللغة : التبديد والتفريق ؛ يقال : شرّدت بنى فلان قلعتهم عن مواضعهم وطردتهم عنها حتى فارقوها . وكذلك الواحد، تقول : تركته شريدا عن وطنه وأهله . قال الشاعر من هُذيل :

أُطَوِّف فى الأباطح كل يوم * مخافة أن يشرد بى حكيم

ومنه شَرَد البعير والدابة إذا فارق صاحبه . و « مَن » بمعنى الذى، قاله الكسائى . وروى عن ابن مسعود « فشرذ » بالذال المعجمة ، وهما لغتان . وقال قُطْرُب : التشريذ (بالذال المعجمة) التنكيل . و بالدال المهملة التفريق ؛ حكاه الثعلبى . وقال المَهْدَوِى : الذال لا وجه لها، إلا أن تكون بدلا من الدال المهملة لتقاربهما، ولا يعرف فى اللغة « فشرذ » . وقرئ « مِن خلفهم » بكسر الميم والفاء . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أى يتذكرون بوعدك إياهم . وقيل : هذا يرجع إلى من خلفهم ، [لأن من قتل لا يتذكر أى شرد بهم مَن خلفهم][1] مَن عمل بمثل عملهم .

قوله تعالى : وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ أى غِشًّا ونقضا للعهد ﴿ فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ وهذه الآية نزلت فى بنى قُريظة و بنى النَّضير . وحكاه الطبرى عن مجاهد . قال ابن عطية : والذى يظهر من ألفاظ القرآن أن أمر بنى قريظة انقضى عند قوله « فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ » ثم ابتدأ تبارك وتعالى فى هذه الآية بأمره فيما يصنعه فى المستقبل مع من يخاف منه خيانة ؛ فتترتب فيهم هذه الآية . [وبنو قريظة لم يكونوا فى حدّ من تخاف خيانته]، و إنما كانت خيانتهم ظاهرة [مشهورة][2] .

الثانية — قال ابن العربى : فإن قيل كيف يجوز نقض العهد مع خوف الخيانة ، والخوف ظنّ لا يقين معه ، فكيف يسقط يقين العهد مع ظن الخيانة . فالجواب من

(١) من ج ، ك ، ز ، ى . (٢) التكملة عن تفسير ابن عطية .

Marfat.com

وجهين : أحدهما — أن الخوف قـد يأتى بمعنى اليقين ، كما قـد يأتى الرجاء بمعنى العلم ؛ قال الله تعالى : « مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا »(١) . الثانى — إذا ظهرت آثار الخيانة وثبتت دلائلها ، وجب نبـذ العهد لئلا يوقع التمادى عليـه فى الهلكة ، وجاز إسقاط اليقين هنا ضرورة . وأما إذا عُلم اليقين فيستغنى عن نبذ العهد إليهم ، وقد سار النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة عام الفتح ؛ لمـا اشتهر منهم نقض العهد من غير أن ينبِذ إليهم عهدهم . والنبذ : الرمى والرفض . وقال الأزهرىّ : معنـاه إذا عاهدت قوما فعلمت منهم النقض بالعهـد فلا تُوقع بهـم سابقا إلى النقض حتى تلقى إليهم أنك قـد نقضت العهد والموادعة ؛ فيكونوا فى علم النقض مستويين ، ثم أوقع بهم . قال النحاس : هذا من معجز ما جاء فى القرآن مما لا يوجد فى الكلام مثـله على اختصاره وكثرة معانيـه . والمعنى : وإما تخافنّ من قوم بينك وبينهم عهدٌ خيانةً فآنبذ إليهم العهد ، أى قل لهم قـد نبذت إليكم عهدكم ، وأنا مقاتلكم ؛ ليعلموا ذلك فيكونوا معك فى العلم سواء ، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك ؛ فيكون ذلك خيانة وغدرا . ثم بيّن هذا بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ .

قلت : ما ذكره الأزهرىّ والنحاس من إنبـاذ العهد مع العـلم بنقضه يردّه فعل النبىّ صلى الله عليه وسلم فى فتح مكة ؛ فإنهم لمـا نقضوا لم يوجِّه إليهم بل قال : " اللَّهُمَّ اقطع خبر عنهم " وغزاهم . وهو أيضا معنى الآية ؛ لأن فى قطع العهد منهم ونكثه مع العلم به حصول نقض عهدهم والآستواء معهم . فأما مع غير العـلم بنقض العهد منهـم فلا يحل ولا يجوز . روى الترمذىّ وأبو داود عن سليم بن عامر قال : كان بين معاوية والروم عهد وكان يسير نحو بلادهم ليقـرُب حتى إذا آنقضى العهـد غزاهم ؛ فجاءه رجل على فرس أو بِرذون وهو يقول : الله أكبر ، الله أكبر ، [وفاء لا غَدر](٢) ؛ فنظروا فإذا هو عمرو بن عنبسة ، فأرسل إليه معاوية فسأله فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشدّ عقدة ولا يحلّها حتى ينقضى أمدُها أو ينبِذ إليهم على سواء " فرجع معاوية بالنـاس . قال الترمذىّ : هـذا حديث حسن صحيح . والسواء : المساواة والاعتـدال .

(١) راجع جـ ١٨ ص ٣٠٣ .
(٢) زيادة عن سنن الترمذى وأبى داود .

Marfat.com

وقال الراجز :

فاضربْ وجوه الغُدَّر الأعداء * حتى يجيبوك إلى السَّوَاء

قال الكسائيّ : السواء العَدل . وقد يكون بمعنى الوسط ؛ ومنه قوله تعالى : « فِى سَوَاءِ الْجَحِيمِ »(١) . ومنه قول حسان :

يا وَيْحَ أصحابِ النبيّ ورهطِه * بعد المغيَّبِ فى سواء المُلْحَد

الفرّاء : ويقال « فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ » جهراً لا سِرًّا .

الثالثة — روى مسلم عن أبى سعيد الخُدرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لكل غادر لواءٌ يوم القيامة يُرفع له بقدر غدْره ألَا ولا غادِرَ أعظم غدرا من أمير عامّة " . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : إنما كان الغدر فى حق الإمام أعظم وأفحش منه فى غيره لما فى ذلك من المفسدة ؛ فإنهم إذا غدَروا وعُلم ذلك منهم ولم ينبِذوا بالعهد لم يأمنهم العدوّ على عهد ولا صلح ، فتشتد شوكته و يعظم ضرره ، و يكون ذلك منفِّرا عن الدخول فى الدِّين ، وموجبا لذمّ أئمة المسلمين . فأما إذا لم يكن للعدوّ عهد فينبغى أن يتحيّل عليه بكل حيلة ، وتدار عليه كل خديعة . وعليه يحمل قوله صلى الله عليه وسلم : " الحرب خَدْعة "(٢) . وقد آختلف العلماء هل يجاهَد مع الإمام الغادر(٣) ؛ على قولين . فذهب أكثرهم إلى أنه لا يقاتل معه ، بخلاف الخائن والفاسق . وذهب بعضهم إلى الجهاد معه . والقولان فى مذهبنا .

قوله تعالى : وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوٓا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ﴾ أى من أفلت من وقعة بدر سبق إلى الحياة . ثم استأنف فقال : ﴿ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ أى فى الدنيا حتى يظفرك الله بهم . وقيل : يعنى فى الآخرة . وهو قول الحسن . وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة « يحسبن » بالياء والباقون بالتاء ، على أن يكون فى الفعل ضمير الفاعل . و « الَّذِينَ كَفَرُوا » مفعول أوّل . و « سَبَقُوا » مفعول ثان . وأما قراءة الياء فزعم جماعة من النحويين منهم أبو حاتم

(١) راجع جـ ١٥ ص ٨٣ . (٢) فى كشف الخفا : مثلث الخاء والفتح أشهر والدال ساكنة فيهن قالوا : أفصحها الفتح مع سكون الدال وهى لغة النبيّ صلى الله عليه وسلم . (٣) العدو اليوم لا يعتد بعهد ولا ذمة فقاجأته من ضروب الفن الحربى .

Marfat.com

أن هذا لحن لا تحل القراءة به ، ولا تسع لمن عَرَفَ الإعراب أو عُرِّفه . قال أبو حاتم : لأنه لم يأت لـ « يحسبن » بمفعول وهو يحتاج إلى مفعولين . قال النحاس : وهذا تحامل شديد ، والقراءة تجوز ويكون المعنى : ولا يحسبن مَن خلفهم الذين كفروا سبقوا ؛ فيكون الضمير يعود على ما تقدّم، إلا أن القراءة بالتاء أبين . المَهْدوِيّ : ومن قرأ بالياء احتمل أن يكون في الفعل ضمير النبيّ صلى الله عليه وسلم، ويكون « الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا » المفعولين . ويجوز أن يكون « الَّذِينَ كَفَرُوا » فاعلا، والمفعول الأول محذوف؛ المعنى : ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا . مَكّيّ : ويجوز أن يضمر مع سبقوا أنْ، فيسدّ مسدّ المفعولين والتقدير : ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا ؛ فهو مثل « أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا »[(1)] في سد أنْ مسدّ المفعولين . وقرأ ابن عامر « أنّهم لا يُعجزون » بفتح الهمزة . واستبعد هذه القراءةَ أبو حاتم وأبو عُبيد . قال أبو عبيد : وإنما يجوز على أن يكون المعنى : ولا تحسبن الذين كفروا أنهم لا يعجزون . قال النحاس : الذى ذكره أبو عبيد لا يجوز عند النحويين البصريين ، [لا يجوز][(2)] حسبت زيدا أنه خارج، إلا بكسر الألف، وإنما لم يجز لأنه في موضع المبتدأ، كما تقول : حسبت زيدا [أبوه خارج ، ولو فتحت لصار المعنى حسبت زيدا][(2)] خروجَه . وهذا محال، وفيه أيضا من البعد أنه لا وجه لما قاله يصحّ به معنًى؛ إلا أن يجعل « لا » زائدة، ولا وجه لتوجيه حرف في كتاب الله عز وجل إلى التطول بغير حجة يجب التسليم لها . والقراءة جيدة على أن يكون المعنى : لأنهم لا يعجزون . مَكّيّ : فالمعنى لا يحسبن الكفار أنفسهم فاتوا لأنهم لا يعجزون ، أى لا يفوتون . فـ « أنّ » في موضع نصب بحذف اللام، أو في موضع خفض على إعمال اللام لكثرة حذفها مع « أنّ » ، وهو يُرْوَى عن الخليل والكسائيّ . وقرأ الباقون بكسر « إن » على الاستئناف والقطع مما قبله ، وهو الاختيار، لما فيه من معنى التأكيد، ولأن الجماعة عليه . ورُوى عن ابن مُحَيْصن أنه قرأ « لا يعجّزونِ » بالتشديد وكسر النون . النحاس : وهذا خطأ من وجهين : أحدهما —

(1) راجع جـ ١٣ ص ٣٢٣ .
(2) زيادة عن إعراب القرآن للنحاس يقتضيها السياق .

Marfat.com

أن معنى عجّزه ضعّفه وضعّف أمره . والآخر — أنه كان يجب أن يكون بنونين . ومعنى أعجزه سبقه وفاته حتى لم يقدر عليه .

قوله تعالى : وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ ﴾ أمر الله سبحانه المؤمنين بإعداد القوّة للأعداء بعد أن أكّد تقدمة التقوى . فإن الله سبحانه لو شاء لهزمهم بالكلام والتّفل فى وجوههم وبحفنة من تراب، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكنه أراد أن يبتلى بعض الناس ببعض بعلمه السابق وقضائه النافذ . وكلما تعدّه لصديقك من خير أو لعدوّك من شر فهو داخل فى عدّتك . قال ابن عباس : القوّة هاهنا السلاح والقِسِىّ . وفى صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول : "وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ألَا إن القوة الرمىُ ألَا إن القوة الرمىُ ألَا إن القوة الرمى". وهذا نصّ رواه عن عقبة أبو علىّ ثمامةُ بن شُفَىٍّ الهَمْدانىّ، وليس له فى الصحيح غيره . وحديث آخر فى الرمى عن عقبة أيضا قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ستفتح عليكم أرَضُون ويكفيكم الله فلا يَعْجَزْ أحدكم أن يَلْهُوَ بأسهمه " . وقال صلى الله عليه وسلم : "كلُّ شىء يَلْهُو به الرجل باطل إلا رَمْيَه بقوسه وتأديبَه فرسَه وملاعبته أهلَه فإنه من الحق " . ومعنى هذا والله أعلم : أن كل ما يتلهّى به الرجل مما لا يفيده فى العاجل ولا فى الآجل فائدةً فهو باطل، والإعراض عنه أولى . وهذه الأمور الثلاثة فإنه وإن كان يفعلها على أنه يتلهّى بها ويَنْشَط ، فإنها حق لاتصالها بما قد يفيد ، فإن الرمى بالقوس وتأديب الفرس جميعا من مَعاوِن[1] القتال . وملاعبة

(١) من ج و ك و ز . وهو جمع معونة . وفى ا و ب : تعاون .

الأهل قد تؤدّى إلى مايكون عنه ولد يوحّد الله و يعبده؛ فلهذا كانت هذه الثلاثة من الحق . وفى سنن أبى داود والترمذىّ والنّسائىّ عن عقبة بن عامر عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم : "إن الله يدخل ثلاثة نفر الجنة بسهم واحد صانعه يحتسب فى صنعته الخير والرامى ومُنْبِلَه". وفضل الرمى عظيم ومنفعته عظيمة للسلمين، ونكايته شـديدة على الكافرين . قال صلى الله عليه وسلم : "يا بنى إسماعيل آرْمُوا فإن أباكم كان راميا". وتعلّم الفروسيّة واستعمالُ الأسلحة فرض كفاية . وقد يتعيّن .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْـلِ ﴾ وقرأ الحسن وعمـرو بن دينار وأبو حَيْوَة «ومن رُبُط الخيل» بضم الراء والباء، جمع رباط؛ ككتاب وكُتُب . قال أبو حاتم عن آبن زيد : الرباط من الخيـل الخمس فما فوقها ، وجماعته رُبُط . وهى التى ترتبط ؛ يقال منه : رَبط يرْبِط رَبْطا . وارتبط يرتبط آرتباطا . ومربط الخيل ومرابطها وهى ارتباطها بإزاء العدو . قال الشاعر :

أمر الإلهُ بَرَبْطهـا لعـــدوه * فى الحرب إنّ الله خير موفِّق

وقال مكحول بن عبد الله :

تلوم على رَبْط الجياد وحَبْسِها * وأوْصَى بهـا اللهُ النبىَّ محمدَا

ورباط الخيل فضل عظيم ومنزلة شريفة . وكان لعُروة البارقىّ سـبعون فرسا معدّة للجهاد . والمستحب منها الإناث؛ قاله عكرمة وجمـاعة . وهو صحيح؛ فإن الأنثى بطنها كنز وظهـرها عزّ وفرس جبريل كان أنثى . وروى الأئمة عن أبى هريرة أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : "الخيل ثلاثة لرجل أجر ولرجل سـتر ولرجل وِزر" الحديث . ولم يخص ذكرا من أنثى . وأجودها أعظمها أجرا وأكثرها نفعا . وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أىّ الرقاب أفضـلُ ؟ فقال : "أغلاها ثمنـا وأنفسها عنـد أهلها" . وروى النّسائىّ عن أبى وهب الجُشَمِىّ — وكانت له صحبة — قال قال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم : "تسمّوا بأسماء الأنبياء وأحبُّ الأسماء إلى الله عز وجل عبد الله وعبد الرحمن وآرتبطوا الخيل

وآمسحوا بنواصيها وأكفالها وقلّدوها ولا تقلّدوها الأوتار(١) وعليكم بكل كُمَيت(٢) أغرّ مُحَجَّل أو أشقر أغرّ محجّل أو أدهم أغر محجل ". وروى الترمذي عن أبي قتادة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " خير الخيل الأدهمُ الأقرحُ الأرْثَم(٣) [ثم الأقرح(٤) المحجَّل] طَلْق اليمين(٥) فإن لم يكن أدْهَمَ فكُميت على هذه الشِّيَة ". ورواه الدارميّ عن أبي قتادة أيضا، أن رجلا قال: يارسول الله، إني أريد أن أشتري فرسا، فأيّها أشتري؟ قال: " آشتر أدهمَ أرْثم محجّلا طَلْق اليد اليمنى أو من الكُميت على هذه الشِّيَة تَغْنم وتسلم ". وكان صلى الله عليه وسلم يكره الشِّكال من الخيل. والشكال: أن يكون الفرس في رجله اليمنى بياض وفي يده اليسرى، أو في يده اليمنى ورجله اليسرى. خرّجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه. ويذكر أن الفرس الذي قُتل عليه الحسين بن عليّ رضي الله عنهما كان أشكل.

الثالثة — فإن قيل: إن قوله « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » كان يكفي؛ فلِمَ خص الرمي والخيل بالذكر؟ قيل له: إن الخيل لما كانت أصل الحروب وأوزارها(٦) التي عُقِد الخير في نواصيها، وهي أقوى القوّة وأشد العُدّة وحصون الفرسان، وبها يجال في الميدان، خصّها بالذكر تشريفا، وأقسم بغبارها تكريما. فقال: « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً(٧) » الآية. ولما كانت السّهام من أنجع ما يُتعاطى في الحروب والنِّكاية في العدو وأقربها تناولا للأرواح، خصّها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذكر لها والتنبيه عليها. ونظير هذا في التنزيل؛ « وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ(٨) » ومثلُه كثير.

الرابعة — وقد آستدلّ بعض علمائنا بهذه الآية على جواز وقف الخيل والسلاح، واتخاذ الخزائن والخزان لها عُدّة للأعداء. وقد آختلف العلماء(٩) في جواز وقف الحيوان

(١) الأوتار: جمع وتر (بالكسر) وهو الدّم. والمعنى: لا تطلبوا عليها الأوتار والذحول التي وترتم بها في الجاهلية. وقيل: جمع وتر القوس؛ فإنهم كانوا يعلقونها بأعناق الدواب لدفع العين. وهو من شعار الجاهلية؛ فكره ذلك.

(٢) كميت (بالتصغير): هو الذي لونه بين السواد والحمرة؛ يستوي فيه المذكر والمؤنث. والأغر: هو الذي في وجهه بياض. والمحجل: هو الذي في قوائمه بياض.

(٣) الأرثم: الذي أنفه أبيض وشفته العليا.

(٤) الأقرح: هو ما كان في جبهته قرحة، وهي بياض يسير في وجه الفرس دون الغرّة.

(٥) أي مطلقها ليس فيها تحجيل.

(٦) أوزار الحرب: أثقالها من آلة حرب وسلاح وغيره.

(٧) راجع جـ ٢٠ ص ١٥٣.

(٨) راجع جـ ٢ ص ٣٦.

(٩) في جـ و ز و هـ: عن مالك.

Marfat.com

كالخيـل والإبل على قولين : المنع ، وبه قال أبو حنيفة . والصحة ، وبه قال الشـافعي رضى الله عنـه . وهو أصح ؛ لهـذه الآية ، ولحديث آبن عمـر فى الفرس الذى حمل عليـه فى سبيل الله وقوله عليـه السلام فى حق خالد : "وأما خالد فإنكم تظلمون خالدا فإنه قـد احتبس أدراعه وأعتاده[1] فى سبيل الله" الحديث . وما رُوى أن آمرأة جعلت بعيرا فى سبيل الله ، فأراد زوجها الحج ، فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "آدفعيه إليه ليحُج عليه فإن الحج من سبيل الله" . ولأنه مال يُنتفع به فى وجه قُربة ؛ فجاز أن يوقف كالرِّباع . وقد ذكر السُّهيلي فى هـذه الآية تسمية خيل النبي صلى الله عليه وسلم ، وآلة حربه . من أرادها وجدها فى كتاب الأعلام[2] .

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[3] يعنى تُخيفون به [عدوّ الله و] عدوّكم من اليهود وقريش وكفار العرب . ﴿وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ يعنى فارس والروم ؛ قاله السُّدّى . وقيل : الجنّ . وهو آختيار الطبرى . وقيل : المراد بذلك كُلّ من لا تُعرف عداوته . قال السُّهيلي : قيل هم قُريظة . وقيـل : هم من الجنّ . وقيـل غير ذلك . ولا ينبغى أن يقال فيهم شىء ؛ لأن الله سبحانه قال : ﴿وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ ؛ فكيف يدّعى أحد علما بهم ، إلا أن يصح حديث جاء فى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قوله فى هـذه الآية : "هم الجنّ" . ثم قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : "إن الشيطان لا يخبِلُ أحدا فى دار فيها فرس عتيق" وإنما سُمّى عتيقا لأنه قد تخلّص من الهِجانة . وهذا الحديث أسنده الحارث بن أبى أسامة عن آبن المُلَيْكى عن أبيه عن جدّه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى : أن الجنّ لا تقرب دارا فيها فرس ، وأنها تنفِر من صَهيل الخيل .

السادســـة ــ قوله تعالى : ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ﴾ أى تتصدّقوا . وقيل : تنفقوه على أنفسكم أو خيلكم . ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ فى الآخرة ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة [ضعف][4] ، إلى أضعاف كثيرة . ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ .

---

(١) الأعتاد : آلات الحرب من السلاح والدواب وغيرها . راجع الحديث وشرحه فى صحيح مسلم ، كتاب الزكاة .
(٢) هو كتاب التعريف والإعلام فيما أبهم فى القرآن من الأسماء الأعلام . وهو كتاب مخطوط محفوظ بدار الكتب تحت رقم ٢٣٢ و ٤٣٩ تفسير .
(٣) من ج ، ه ، ز ، ك .
(٤) من ج ، ه ، ز .

قوله تعالى : وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ إنما قال « لها » لأن السلم مؤنثة . ويجوز أن يكون التأنيث للفعلة . والجنوح الميل . يقول : إن مالوا — يعنى الذين نبذ إليهم عهدهم — إلى المسالمة، أى الصلح، فمِلْ إليها . وجنح الرجل إلى الآخر : مال إليه ؛ ومنه قيل للأضلاع جوانح، لأنها مالت على الحُشْوة[(١)] . وجنحت الإبل : إذا مالت أعناقها فى السير . وقال ذو الرُّمة :

إذا مات فوق الرَّحْل أحييتُ روحَه * بذكراكِ والعِيسُ المراسيل جُنَّحُ[(٢)]

وقال النابغة[(٣)] :

جوانحُ قد أيقنّ أن قَبِيلَه * إذا ما التقى الجمعان أوّلُ غالبِ

يعنى الطير . وجنح الليل إذا أقبل وأمال أطنابه على الأرض . والسَّلم والسلام هو الصلح . وقرأ الأعمش وأبو بكر وابن مُحَيْصِن والمفضّل « لِلسِّلْم » بكسر السين . الباقون بالفتح . وقد تقدّم معنى ذلك فى « البقرة » مستوفًى[(٤)] . وقد يكون السلام من التسليم . وقرأ الجمهور «فآجنح» بفتح النون، وهى لغة تميم . وقرأ الأشهب العقيلى «فآجنُح» بضم النون، وهى لغة قيس . قال آبن جنى : وهذه اللغة هى القياس .

الثانيــة — وقد آختُلف فى هذه الآية : هل هى منسوخة أم لا . فقال قتادة وعكرمة : نسخها «فَٱقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ[(٥)]» . « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً » وقالا : نسخت براءة كلَّ موادعة، حتى يقولوا لا إله إلا الله . آبن عباس : الناسخ لها « فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى

(١) الحشوة (بالضم والكسر) : الأمعاء . (٢) العيس : الإبل البيض . والمراسيل : سهلة السير ، وهى التى تعطيك ما عندها عفوا . وجنح : مائلة صدورها إلى الأرض . وقيل : مائلة فى سيرها من النشاط .

(٣) فى الأصول : « وقال عنترة » والتصويب عن كتاب البحر لأبى حيان وديوان النابغة .

(٤) راجع جـ ٣ ص ٢٢ . (٥) راجع ص ٧٢ و ص ١٣٦ من هذا الجزء .

Marfat.com

السَّــلْمِ[(١)] » . وقيل : ليست بمنسوخة ، بل أراد قبول الجزية من أهـل الجزية . وقد صالح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومَن بعده من الأئمة كثيرا من بلاد العجم ؛ على ما أخذوه منهم ، وتركوهم على ما هم فيه ، وهم قادرون على استئصالهم . وكذلك صالح رسول الله صلى الله عليـه وسلم كثيرا من أهل البـلاد على مال يؤدونه ؛ من ذلك خَيْبر، ردّ أهلَها إليها بعد الغلبة على أن يعملوا و يؤدّوا النّصف . قال آبن إسحاق : قال مجاهد عنى بهذه الآية قريظة ؛ لأن الجزية تقبل منهم ،فأما المشركون فلا يقبل منهم شيء . وقال السُّدّى وابن زيد : معنى الآية إن دعوك إلى الصلح فأجبهم . ولا نسخ فيها . قال ابن العربى : وبهذا يختلف الجواب عنه ؛ وقـد قال الله عز وجل : « فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ[(١)] » . فإذا كان المسلمون على عِزّة وقُوّة ومَنَعة ، و جماعة عديدة، وشدّة شديدة فلا صلح ؛ كما قال :

فلا صلحَ حتى تُطعن الخيلُ بالقَنا ٭ وتُضرب بالبِيض الرقاق الجماجمُ

و إن كان للسلمين مصلحة فى الصلح ، لنفعٍ يجتلبونه ، أو ضرر يدفعونه ، فلا بأس أن يبتدئ المسلمون [به[(٢)]] إذا احتاجوا إليه . وقد صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل خيبر على شروط نقضوها فنقض صلحهم . وقد صالح الضَّمْرِىّ[(٣)] وأُكَيْدِرَ دُومَة وأهلَ نجران ، وقد هادن قريشا لعشرة أعوام حتى نقضوا عهده . وما زالت الخلفاء والصحابة على هذه السبيل التى شرعناها سالكةً ، و بالوجوه التى شرحناها عاملة . قال القُشَيرى : إذا كانت القوة للسلمين فينبغى ألّا تبلغ الهُدْنة سنة . و إذا كانت القوة للكفار جاز مهادنتهم عشر سنين ، ولا تجوز الزيادة . وقد هادن رسول الله صلى الله عليه وسـلم أهل مكة عشر سنين . قال آبن المنـذر : اختلف العلماء فى المدة التى كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين أهل مكة عام الحُدَيْبِية ؛ فقال عروة : كانت أربع سنين . وقال آبن جريج : كانت ثلاث سنين . وقال آبن إسحاق : كانت

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٥٥ . (٢) من ك و ز و ى و هـ . (٣) الضمرى : هو مخشى بن عمرو الضمرى ؛ من بنى ضمرة بن بكر . وكان هذا فى غزوة الأبواء . وأكيدر : هو أكيدر بن عبد الملك : رجل من كندة . ودومة : هى دومة الجندل ، مدينة قريبة من دمشق .

Marfat.com

عشر سنين . وقال الشافعي رحمه الله : لا تجوز مهادنة المشركين أكثر من عشر سنين، على ما فعل النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية؛ فإن هودن المشركون أكثر من ذلك فهي منتقضة، لأن الأصل فرض قتال المشركين حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية . وقال ابن حبيب عن مالك رضي الله عنه : تجوز مهادنة المشركين السنة والسنتين والثلاث، وإلى غير مدة . قال المهلب : إنما قاضاهم النبي صلى الله عليه وسلم هذه القضية التي ظاهرها الوهن على المسلمين؛ لسبب حبس الله ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مكة، حين توجه إليها فبركت . وقال : "حبسها حابس الفيل" . على ما خرجه البخاري من حديث المِسْوَر بن مَخْرَمة . ودلّ على جواز صلح المشركين ومهادنتهم دون مال يؤخذ منهم، إذا رأى ذلك الإمام وجهًا . ويجوز عند الحاجة للمسلمين عقد الصلح بمال يبذلونه للعدو، لموادعة النبي صلى الله عليه وسلم عُيينة بن حِصْن الفَزَارِي، والحارث بن عوف المُرّي[1] يوم الأحزاب، على أن يعطيهما ثلث ثمر المدينة، وينصرفا بمن معهما من غطفان ويخذلا قريشا، ويرجعا بقومهما عنهم . وكانت هذه المقالة مراوضة[2] ولم تكن عقدا . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهما أنهما قد أنابا ورضيا استشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة؛ فقالا : يا رسول الله، هذا أمر تحبه فنصنعه لك، أو شيء أمرك الله به فنسمع له ونطيع؛ أو أمر تصنعه لنا ؟ فقال : "بل أمر أصنعه لكم فإن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة"؛ فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله؛ والله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وما طمعوا قطّ أن ينالوا منا ثمرة، إلا شراء أو قِرًى؛ فحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له وأعزّنا بك، نعطيهم أموالنا ! والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم . فسُرّ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : "أنتم وذاك" . وقال لعُيينة والحارث : "انصرفا فليس لكما عندنا إلا السيف" . وتناول سعد الصحيفة، وليس فيها شهادة [أن لا إله إلا الله][3] فمحاها .

(١) فى الأصول : « ... بن نوفل » والتصويب عن كتب السيرة .

(٢) المراوضة : المداراة والمخاتلة . (٣) من ز .

Marfat.com

قوله تعالى : وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ ﴾ أى بأن يُظهروا لك السلم ، ويُبطنوا الغدر والخيانة ، فاجنح فما عليك من نياتهم الفاسدة . ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ ﴾ كافيك الله ؛ أى يتولى كفايتك وحياطتك . قال الشاعر :

إذا كانت الهيجاءُ وانشقّتِ العصا * فحسبُكَ والضّحاكَ سيفٌ مُهنّـدُ

أى كافيك وكافى الضحاك سيفٌ .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ ﴾ أى قوّاك بنصره . يريد يوم بدر . ﴿ وبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال النعمان بن بشير : نزلت فى الأنصار . ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ أى جمع بين قلوب الأوْس والخَزْرج . وكان تألّف القلوب مع العَصبية الشديدة فى العرب من آيات النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعجزاته ؛ لأن أحدهم كان يُلطَم اللطمة فيقاتل عنهـا حتى يستقيدها . وكانوا أشدّ خلق الله حَمِيّة ، فألّف الله بالإيمان بينهم ، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدّين . وقيل : أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار . والمعنى متقارب .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾

ليس هذا تكريرا ؛ فإنه قال فيما سبق : « وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ » وهذه كفاية خاصة . وفى قوله : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ » أراد التعميم ؛ أى حسبك الله فى كل حال . وقال ٱبن عباس : نزلت فى إسلام عمر ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان أسلم معه ثلاثة وثلاثون رجلا وستُّ نسوة ؛ فأسـلم عمر وصاروا أربعين . والآية مكية ، كُتبت بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سورة مدنيّة ؛ ذكره القُشيرىّ .

Marfat.com

قلت : ماذكره من إسلام عمر رضى الله عنه عن ٱبن عباس ؛ فقد وقع فى السيرة خلافه . عن عبد الله بن مسعود قال : ما كنا نقدر على أن نُصلِّىَ عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه . وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة . قال ٱبن إسحاق : وكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين ، سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا أو ولدوا بها ، ثلاثةً وثمانين رجلا ، إن كان عمّار بن ياسر منهم . وهو يُشَكّ فيه . وقال الكَلْبىّ : نزلت الآية بالبَيْداء فى غزوة بدر قبل القتال .

قوله تعالى : ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل : المعنى حسبك الله ، وحسبك المهاجرون والأنصار . وقيل : المعنى كافيك ٱلله ، وكافِى من تبعك ؛ قاله الشَّعْبىّ وٱبن زيد . والأوّل عن الحسن ، وٱختاره النحاس وغيره . فـ « مَن » على القول الأوّل فى موضع رفع ، عطفا على ٱسم الله تعالى . على معنى : فإن حسبك الله وأتباعك من المؤمنين . وعلى الثانى على إضمار . ومثلُه قوله صلى الله عليه وسلم : " يَكْفِينِيه اللهُ وأبناء قَيْلَةَ "(1) . وقيل : يجوز أن يكون [المعنى](2) « وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » حسبهم الله ؛ فيضمر الخبر . ويجوز أن يكون « مَن » فى موضع نصب ، على معنى : يكفيك الله ويكفى من ٱتبعك(3) .

---

(١) يريد الأوس والخزرج ، قبيلتى الأنصار . وقيلة اسم أمّ لهم قديمة ، وهى قيلة بنت كاهل .

(٢) من جـ و ك و هـ .		(٣) اضطربت عبارة الأصول هنا . والذى فى إعراب القرآن للنحاس : « يأيها النبيّ حسبك الله » . ابتداء وخبر ؛ أى كافيك الله . ويقال : أحسبه إذا كفاه . « ومن ٱتبعك » فى موضع نصب معطوف على الكاف فى التأويل ؛ أى يكفيك الله عز وجل ويكفى من ٱتبعك ؛ كما قال :

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا * فحسبك والضحاك سيف مهند

ويجوز أن « من اتبعك » فى موضع رفع . وللنحويين فيه ثلاثة أقوال : قال أبو جعفر : سمعت على بن سليمان يقول : يكون عطفا على اسم الله جل وعز ؛ أى حسبك الله ومن ٱتبعك . قال : ومثله قول النبى عليه السلام : " يكفينيه الله عز وجل وأبناء قيلة " .

والقول الثانى — أن يكون التقدير : ومن ٱتبعك من المؤمنين كذلك ؛ على الأبتداء والخبر ؛ كما قال الفرزدق :

وعض زمان يابن مروان لم يدع * من المال إلا مسحتا أو مجلف

والقول الثالث أحسنها — أنه يكون على إضمار ، بمعنى وحسبك من ٱتبعك . وهكذا الحديث على إضمار . وتركنا القول الأول ؛ لأنه قد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يقال : ما شاء الله وشئت . والثانى — فالشاعر مضطر ؛ إذ كانت القصيدة مرفوعة . وإن كان فيه غير هذا .

Marfat.com

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ أى حُثّهم وحُضّهم. يقال: حارض على الأمر وواظب وواصب وأكبّ بمعنى واحد . والحارض: الذى قد قارب الهلاك؛ ومنه قوله عز وجل : «حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا»[(١)] أى تذوب غمًّا، فتقارب الهلاك فتكون من الهالكين ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ لفظُ خبر، ضمّنه وعدٌ بشرط؛ لأن معناه إن يصبر منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . وعشرون وثلاثون وأربعون كل واحد منها اسم موضوع على صورة الجمع لهذا العدد. ويجرى هذا الاسم مجرى فلسطين . فإن قال قائل: لم كُسر أول عشرين وفُتح أول ثلاثين وما بعده إلى الثمانين إلا ستّين ؟ فالجواب عند سيبويه أن عشرين من عشرة بمنزلة اثنين من واحد؛ فكسر أول عشرين كما كسر اثنان . والدليل على هذا قولهم : ستون وتسعون؛ كما قيل : ستة وتسعة . وروى أبو داود عن ابن عباس قال : نزلت «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ» فشقّ ذلك على المسلمين، حين فرض الله عليهم ألا يفرّ واحد من عشرة ، ثم إنه جاء التخفيف فقال : ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ﴾ [قرأ أبو توبة[(٢)]] إلى قوله : ﴿ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ . قال : فلما خفف الله تعالى عنهم من العدد نقص من الصبر بقدر ما خفّف عنهم . وقال ابن العربي : قال قوم إن هذا كان يوم بدر ونُسخ . وهذا خطأ من قائله . ولم يُنقل قطُّ أن المشركين صافوا المسلمين

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٤٩ فما بعد . (٢) من ب و جـ و ز و هـ و ك .

عليها ، ولكن البارى جل وعز فرض ذلك عليهم أولا ، وعلق[1] ذلك بأنكم تفقهون ماتقاتلون عليه ، وهو الثواب . وهم لا يعلمون ما يقاتلون عليه .

قلت : وحديث ابن عباس يدلّ على أن ذلك فرض . ثم لما شقّ ذلك عليهم حطّ الفرض إلى ثبوت الواحد للاثنين ؛ فخفّف عنهم وكتب عليهم ألّا يفر مائة من مائتين ؛ فهو على هذا القول تخفيف لا نسخ . وهذا حسن . وقد ذكر القاضى ابن الطيّب أن الحكم إذا نُسخ بعضُه أو بعضُ أوصافه ، أو غُيّر عدده فجائز أن يقال إنه نسخ ؛ لأنه حينئذ ليس بالأول ، بل هو غيره . وذكر فى ذلك خلافا .

قوله تعالى : مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَسْرَى ﴾ جمع أَسِير ؛ مثل قتيل وقتْلَى وجَرِيح وجَرْحَى . ويقال فى جمع أسير أيضا : أُسارَى (بضم الهمزة) وأَسارَى (بفتحها) وليست بالعالية . وكانوا يَشُدّون الأسير بالقِدّ وهو الإسار ؛ فسُمِّىَ كل أخِيذ وإن لم يُؤسر أسيرا . قال الأعشى :

وقَيَّدنِى الشّعر فى بيتِه ... كما قَيّد الآسراتُ الحِمارا

وقد مضى هذا فى سورة « البقرة »[2] . وقال أبو عمرو بن العلاء : الأسرى هم غير الموثقين عند ما يؤخذون ، والأسارى هم الموثقون رَبْطًا . وحكى أبو حاتم أنه سمع هذا من العرب .

الثانيــة — هذه الآية نزلت يوم بدر ، عتابا من الله عز وجل لأصحاب نبيّه صلى الله عليه وسلم . والمعنى : ما كان ينبغى لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذى أوجب أن يكون للنبىّ

---

(١) هكذا فى نسخ الأصل ، والذى فى ابن العربى : « وعلله بأنكم ... الخ » .

(٢) راجع جـ ٢ ص ٢١ .

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم أسرى قبل الإثخان (١) . ولهم هذا الإخبارُ بقوله « تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا » .
والنبيّ صلى الله عليه وسلم لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب؛ ولا أراد قطّ عرض الدنيا،
وإنما فعله جمهور مباشري الحرب؛ فالتوبيخ والعتاب إنما كان متوجها بسبب من أشار على
النبيّ صلى الله عليه وسلم بأخذ الفدية . هذا قول أكثر المفسرين، وهو الذى لا يصح غيره .
وجاء ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فى الآية حين لم يَنْهَه عنه حين رآه من العَرِيش وإذ كره سعد
ابن معاذ وعمر بن الخطاب وعبد الله بن رواحة، ولكنه عليه السلام شغَله بَغْتُ الأمر ونزولُ
النصر فترك النَّهى عن الاستبقاء ؛ ولذلك بكى هو وأبو بكر حين نزلت الآيات . والله أعلم .
روى مسلم من حديث عمر بن الخطاب ، وقد تقدّم أوّله فى « آل عمران (٢) » وهذا تمامه .
قال أبو زُمَيْل : قال ابن عباس فلما أسروا الأُسارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لأبى بكر وعمر : " ما ترون فى هؤلاء الأسارى " ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله، هم بنو العم
والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فِديةً ، فتكون لنا قوة على الكفار ، فعسى الله أن يهديهم
للإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما ترى يابن الخطاب " ؟ قلت : لا والله
يا رسول الله ، ما أرى الذى رأى أبو بكر، ولكنى أرى أن تمكّنا فنضرب أعناقهم ، فتُمَكِّن
عَلِيًّا من عَقِيل فيضرب عنقه ، وتمكِّنِّى من فلان (نَسِيبًا لعمر) فأضرب عنقه ؛ فإن هؤلاء أئمة
الكفر وصناديدُها . فهَوِىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يَهْوَ ما قلتُ ؛ فلما
كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعِدَيْن يبكيان ؛ فقلت :
يارسول الله ، أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبُك ؛ فإن وجدتُ بكاء بكيتُ ، وإن لم أجد
بكاء تباكيت لبكائكما . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أَبْكى للذى عَرض علىّ أصحابُك من
أخذهم الفداء لقد عُرِض علىّ عذابُهم أدنى من هذه الشجرة " (شجرةٌ قريبةٌ كانت من نبىّ الله
صلى الله عليه وسلم) وأنزل الله عز وجل « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ »
إلى قوله تعالى : « فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا » فأحلّ الله الغنيمة لهم . وروى يزيد بن هارون

(١) الإثخان فى الشىء : المبالغة فيه والإكثار منه ، والمراد به هنا : المبالغة فى قتل الكفار .
(٢) راجع ج ٤ ص ١٩٣ .

Marfat.com

قال : أخبرنا يحيى قال حدّثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مُرة عن أبي عبيدة عن عبد الله قال : لما كان يوم بدر جيء بالأسارى وفيهم العباس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما ترون في هؤلاء الأسارى" فقال أبو بكر : يا رسول الله قومُك وأهلُك، آستبقهم لعلّ الله أن يتوب عليهم . وقال عمر : كذّبوك وأخرجوك وقاتلوك، قدّمهم فآضرب أعناقهم . وقال عبد الله بن رواحة : آنظر واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم . فقال العباس وهو يسمع : قطعتَ رحِمك . قال : فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يردّ عليهم شيئا . فقال أناس : يأخذ بقول أبي بكر رضي الله عنه . وقال أناس : يأخذ بقول عمر . وقال أناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "إن الله ليُلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ويُشدّد قلوب رجال فيه حتى تكون أشدّ من الحجارة . مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال «فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»[1] ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى إذ قال «إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»[2] . ومثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام إذ قال «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً»[3] . ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال «رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ»[4] أنتم عالة فلا ينفلتنّ أحد إلا بفداء أو ضربة عنق" . فقال عبد الله : إلا سُهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فما رأيتني أخوف أن تقع عليّ الحجارة من السماء منّي في ذلك اليوم . فأنزل الله عز وجل : «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ» إلى آخر الآيتين . في رواية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن كاد ليصيبنا في خلاف آبن الخطاب عذاب ولو نزل عذاب ما أفلت إلا عُمر" . وروى أبو داود عن عمر قال : لما كان يوم بدر وأخذ — يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم — الفداء، أنزل الله عز وجل «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ» إلى قوله «لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ — من الفداء — عَذَابٌ عَظِيمٌ» . ثم أحل الغنائم . وذكر القُشيري أن سعد بن معاذ قال : يا رسول الله، إنه أول وقعة لنا مع المشركين

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٦٨ .
(٢) راجع جـ ٦ ص ٣٧٧ .
(٣) راجع جـ ١٨ ص ٣١٢ .
(٤) راجع جـ ٨ ص ٣٧٤ .

Marfat.com

فكان الإثخان أحبّ إليّ . والإثخان : كثرة القتل ؛ عن مجاهد وغيره . أى يبالغ فى قتل المشركين . تقول العرب : أثخن فلان فى هـذا الأمر أى بالغ . وقال بعضهم : حتى يُقهِر ويَقْتُل . وأنشد المفضّل :

تصـلّى الضحى ما دهرها بتعبّـد * وقد أثخنت فرعون فى كفره كفرا

وقيل : « حَتَّى يُثْخِنَ » يتمكّن . وقيل : الإثخان القوة والشدّة . فأعلم الله سبحانه وتعـالى أن قتل الأسرى الذين فُودُوا ببـدر كان أولى من فدائهم . وقال ابن عباس رضى الله عنه : كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليـل ، فلما كثروا واشتدّ سـلطانهم أنزل الله عز وجل هـذا فى الأسارى : « فَإِمَّا مَنًّا بَعْـدُ وَإِمَّا فِدَاءً »[1] على ما يأتى بيانه فى سورة « القتال » إن شاء الله تعالى . وقد قيل : إنمـا عُوتبوا لأن قضية بدر كانت عظيمة الموقع والتصريف فى صناديد قريش وأشرافهم وساداتهم وأموالهم بالقتل والاسترقاق والتملّك . وذلك كلّه عظيم الموقع ، فكان حقهم أن ينتظروا الوَحْىَ ولا يستعجلوا ؛ فلما آستعجلوا ولم ينتظروا توجّه عليهم ما توجّه . والله أعلم .

الثالثـــة — أسند الطبرىّ وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للناس : " إن شئتم أخذتم فداء الأسارى ويُقتل منكم فى الحرب سبعون على عددهم وإن شئتم قُتلوا وسَلِمتم " . فقالوا : نأخذ الفداء ويستشهد منا سبعون . وذكر عبد بن حُميد بسنده أن جبريل عليه السلام نزل على النبىّ صـلى الله عليه وسـلم بتخيير الناس هكذا . وقد مضى فى « آل عمران »[2] القول فى هـذا . وقال عَبيدة السَّلْمَانِىّ : طلبوا الخيرتين كلتيهما ؛ فقتل منهم يوم أُحُد سـبعون . وينشأ هنا إشكال وهى : —

الرابعـــة — وهو أن يقال : إذا كان التخيير فكيف وقع التوبيخ بقوله « لَمَسَّكُمْ » . فالجواب — أن التوبيخ وقع أوّلا لحرصهم على أخذ الفداء ، ثم وقع التخيير بعد ذلك . ومما يدلّ على ذلك أن المقداد قال حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل عُقبة بن أبى مُعَيط : أسيرى يا رسول الله . وقال مُصعب بن عُمير للذى أسر أخاه : شُـدّ عليه يدك ، فإن له أمّا

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٢٦ . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٩٣ .

Marfat.com

ميسرة . إلى غير ذلك من قصصهم وحرصهم على أخذ الفداء . فلما تحصّل الأسارى وسيقوا إلى المدينة وأنفذ رسول الله صلى الله عليه وسلم القتل فى النّضر وعقبة وغيرهما وجعل يرتئى فى سائرهم نزل التخيير من الله عز وجل؛ فآستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه حينئذ، فمرّ عمر على أوّل رأيه فى القتل، ورأى أبو بكر المصلحة فى قوة المسلمين بمال الفداء . ومال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رأى أبى بكر . وكلا الرأيين آجتهاد بعد تخيير . فلم ينزل بعدُ على هذا شيء من تعنيت[(١)] . والله أعلم .

الخامسة — قال ابن وهب : قال مالك كان ببدر أسارى مشركون فأنزل الله « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ » . وكانوا يومئذ مشركين وفادَوْا ورجعوا، ولو كانوا مسلمين لأقاموا ولم يرجعوا . وكان عِدّة من قُتل منهم أربعة وأربعين رجلا؛ ومثلهم أسروا . وكان الشهداء قليلا . وقال عمرو بن العلاء : إن القتلى كانوا سبعين، والأسرى كذلك . وكذلك قال ابن عباس وابن المسيِّب وغيرهم . وهو الصحيح كما فى صحيح مسلم؛ فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين . وذكر البَيْهَقِيّ قالوا : فجيء بالأسارى وعليهم شُقْران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم تسعة وأربعون رجلا الذين أُحصوا، وهم سبعون فى الأصل، مُجْتَمَع عليه لا شك فيه . قال ابن العربيّ : إنما قال مالك « وكانوا مشركين » لأن المفسرين رووا أن العباس قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إنى مسلم . وفى رواية أن الأسارى قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : آمنا بك . وهذا كله ضعّفه مالك، واحتج على إبطاله بما ذكر من رجوعهم وزيادة عليه أنهم غزوه فى أُحُد . قال أبو عمر بن عبد البر : اختلفوا فى وقت إسلام العباس؛ فقيل : أسلم قبل يوم بدر؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : "من لَقِيَ العباس فلا يقتله فإنما أخرج كرها" . وعن آبن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر : "إن أناسا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقى منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله ومن لِقِيَ أبا الْبَخْتَرِيّ فلا يقتله ومن لقى العباس فلا يقتله فإنه إنما أخرج مستكرها" وذكر الحديث . وذكر أنه أسلم حين أسر يوم بدر . وذكر أنه أسلم عام خيبر، وكان يكتب

(١) كذا فى جـ ، ك ، هـ . وفى ا ، ب : تعنيه . وفى ى : تعييب .

Marfat.com

لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأخبار المشركين، وكان يحب أن يهاجر فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " آمكث بمكة فمقامك بها أنفع لنا " .

قوله تعـالى : ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ ﴾ فى أنه لا يعذّب قوما حتى يبيّن لهم ما يتقون . وآختلف النـاس فى كتاب الله السابق على أقوال؛ أصحها ما سبق من إحلال الغنائم ، فإنها كانت محرّمة على مَن قبلنا . فلما كان يوم بدر ، أسرع الناس إلى الغنائم فأنزل الله عز وجل « لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ » أى بتحليل الغنائم . وروى أبو داود الطّيالسِىّ فى مسنده : حدّثنا سلام عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : لمـا كان يوم بدر تعجّل الناس إلى الغنائم فأصابوها؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الغنيمة لا تحِلّ لأحد سود الرءوس غيركم " . فكان النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه إذا غنموا الغنيمة جمعوها ونزلت نار من السماء فأكلتها (١) ؛ فأنزل الله تعـالى : « لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ » إلى آخر الآيتين . وأخرجه الترمذىّ وقال : حديث حسن صحيح ، وقاله مجاهـد والحسن . وعنهما أيضا وسعيد بن جبير : الكتاب السابق هو مغفرة الله لأهل بدر ، ما تقدّم أو تأخر من ذنوبهم . وقالت فرقة : الكتاب السابق هو عفو الله عنهم فى هذا الذنب، معيّنا . والعموم أصح ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر فى أهل بدر : " وما يُدْرِيك لعلّ الله آطّلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " . خرّجه مسلم . وقيل : الكتاب السابق هو ألّا يعذّبهم ومحمد عليه السـلام فيهم . وقيل : الكتاب السابق هو ألّا يعذب أحدا بذنب أتاه جاهلا حتى يتقدّم إليه . وقالت فرقة : الكتاب السابق هو مما قضى الله من محو الصغائر بآجتناب الكبائر . وذهب الطبرىّ إلى أن هذه المعانى كلّها داخلة تحت اللفظ وأنه يعمّها، ونَكّب عن تخصيص معنًى دون معنًى .

(١) المشهور أن هذا كان فى الأمم السالفة فليتأمل .

Marfat.com

الثانية — ٱبن العربي : وفي الآية دليل على أن العبد إذا ٱقتحم ما يعتقده حراما مما هو في علم الله حلال له لا عقوبة عليه؛ كالصائم إذا قال : هذا يوم نوبي[(١)] فأفطر الآن . أو تقول المرأة : هذا يوم حيضتي فأفطر، ففعلا ذلك، وكان النوب والحيض الموجبان للفطر، ففي المشهور من المذهب فيه الكفارة، وبه قال الشافعي . وقال أبو حنيفة : لا كفارة عليه، وهي الرواية الأخرى . وجه الرواية الأولى أن طرق الإباحة لا يثبت عذرا في عقوبة التحريم عند الهتك؛ كما لو وطئ ٱمرأة ثم نكحها . وجه الرواية الثانية أن حرمة اليوم ساقطة عند الله عز وجل فصادف الهتك محلا لا حرمة له في علم الله؛ فكان بمنزلة ما لو قصد وطء ٱمرأة قد زُفّت إليه وهو يعتقدها أنها ليست بزوجته فإذا هي زوجته . وهذا أصح . والتعليل الأول لا يلزم؛ لأن علم الله سبحانه وتعالى مع علمنا قد استوى في مسئلة التحريم، وفي مسئلتنا ٱختلف فيها علمنا وعلمُ الله فكان المعوّل على علم الله . كما قال : « لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » .

قوله تعالى : فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾

يقتضي ظاهره أن تكون الغنيمة كلّها للغانمين، وأن يكونوا مشتركين فيها على السواء؛ إلّا أن قوله تعالى : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ » بيّن وجوب إخراج الخمس منه وصرفه إلى الوجوه المذكورة . وقد تقدّم القول في هذا مستوفًى .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

فيه ثلاث مسائل :

(١) النوب : ما كان منك مسيرة يوم وليلة ، وقيل : على ثلاثة أيام . وقيل : ما كان على فرسخين أو ثلاثة .

Marfat.com

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ ﴾ قيل : الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وقيل : له وحده . وقال ابن عباس رضى الله عنه : الأسرى فى هذه الآية عباس وأصحابه . قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : آمنا بما جئت به ، ونشهد أنك رسولُ الله، لننصحَنّ لك على قومك؛ فنزلت هذه الآية . وقد تقدّم بطلان هذا من قول مالك . وفى مصنَّف أبى داود عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة . وعن ابن إسحاق : بعثت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فداء أسراهم ، فَفَدى كلّ قوم أسيرهم بما رضوا . وقال العباس : يا رسول الله ، إنى قد كنت مسلما . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فالله يَجزيك بذلك فأمّا ظاهر أمرك فكان علينا فافد نفسك وابنى أخويك نوفلَ بن الحارث بن عبد المطلب وعَقيل بن أبى طالب وحليفَك عتبة بن عمرو أخا بنى الحارث بن فهر " . وقال : ما ذاك عندى يا رسول الله . قال : " فأين المال الذى دفنته أنت وأمّ الفضل فقلتَ لها إن أصبتُ فى سفرى هذا فهذا المال لبنى الفضل وعبد الله وقُثَم " ؟ فقال : يا رسول الله، إنى لأعلم أنك رسولُ الله، إن هذا لشىء ما علمه غيرى وغير أمّ الفضل ، فاحْسُب لى يا رسول الله ما أصبتم منّى عشرين أوقية من مال كان معى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا . ذاك شىء أعطانا الله منك " . ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه ، وأنزل الله فيه : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ » الآية . قال ابن إسحاق: وكان أكثر الأسارى فداءً العباس بن عبد المطلب ؛ لأنه كان رجلا موسرا ، فافتدى نفسه بمائة أوقيّة من ذهب . وفى البخاريّ : وقال موسى بن عقبة قال ابن شهاب : حدّثنى أنس بن مالك أن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله، ائذن لنا فلْنترك لابن أختنا عباس فداءه . فقال : " لا والله لا تذرون درهما " . وذكر النقاش وغيره أن فداء كلّ واحد من الأسارى كان أربعين أوقية، إلا العباس فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أضعفوا الفداء على العباس " وكلّفه أن يَفدى ابنى أخويه عقيل بن أبى طالب ونوفل

ابن الحارث فأدّى عنهما ثمانين أوقية، وعن نفسه ثمانين أوقية وأخذ منه عشرون [أوقية] (1) وقت الحرب . وذلك أنه كان أحدَ العشرة الذين ضَمِنوا الإطعام لأهل بدر، فبلغت النَّوبة إليه يوم بَدْر فاقتتلوا قبل أن يُطعم ، و بقيت العشرون معه فأخذت منه وقت الحرب، فأخذ منه يومئذ مائة أوقيّة وثمانون أوقية . فقال العباس للنبيّ صلى الله عليه وسلم : لقد تركتني ما حييتُ أسأل قريشا بكَفّي . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أين الذهب الذى تركته عند امرأتك أمّ الفضل" ؟ فقال العباس : أيّ ذهب ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنك قلتَ لها لا أدرى ما يصيبني في وجهي هذا فإن حدث بي حدث فهو لك ولولدك" فقال : يابن أخي ، من أخبرك بهذا ؟ قال : "الله أخبرني" . قال العباس : أشهد أنك صادق ، وما علمت أنك رسول الله قطّ إلا اليوم ، وقد علمت أنه لم يطلعك عليه إلا عالم السرائر، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله ، وكفَرتُ بما سواه . وأمر ابني أخويه فأسلما ؛ ففيهما نزلت «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى» . وكان الذى أسر العباسَ أبا اليَسَر كعب بن عمرو أخا بني سَلِمة ، وكان رجلا قصيرا ، وكان العباس ضخما طويلا ؛ فلما جاء به إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له : "لقد أعانك عليه مَلَك" .

الثانيـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا ﴾ أى إسلاما . ﴿ يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ ﴾ أى من الفدية . قيل في الدنيا . وقيل في الآخرة . وفي صحيح مسلم أنه لما قدم على النبيّ صلى الله عليه وسلم مال من البحرين قال له العباس : إني فاديت نفسي وفاديت عقيلا . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خذ" فبسط ثوبه وأخذ ما استطاع أن يحمله . مختصر . في غير الصحيح : فقال له العباس هذا خير مما أُخذ منّي ، وأنا بعدُ أرجو أن يغفر الله لي . قال العباس : وأعطاني زمزم ، وما أُحبّ أن لي بها جميعَ أموال أهل مكة . وأسند الطبريّ إلى العباس أنه قال : فيّ نزلت حين أعلمت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بإسلامي ، وسألته أن يحاسبني بالعشرين أوقيّة التى أُخذت منّي قبل المفاداة فأبى . وقال : "ذلك فَيْءٌ" فأبدلني الله من ذلك عشرين عبدا كلهم تاجر بمالي . وفي مصنف أبي داود عن

(1) من ح و هـ . والجمل عن القرطبي .

Marfat.com

عائشة رضي الله عنها قالت : لمـا بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب في فداء أبي العاص بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة أدخلتها بها على أبي العاص . قالت : فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رَقّ لها رِقّةً شديدة وقال : "إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها وتردّوا عليها الذى لها"؟ فقالوا : نعم . وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم أخـذ عليه أوْ وعده أن يُخلّي سبيل زينب إليه . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار فقال : "كونا ببطن يأجج[1] حتى تمرّ بكما زينب فتصحباها حتى تأتيا بها" . قال ابن إسحاق : وذلك بعد بَدْر بشهر . قال عبد الله بن أبي بكر : حدّثت عن زينب بنت رسـول الله صلى الله عليه وسلم أنها قالت : لمـا قدم أبو العاص مكة قال لي : تجهّزي ، فآلحقي بأبيك . قالت : فخرجت أتجهز فلقيتني هند بنت عتبة فقالت : يابنت محمد، ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك؟ فقلت لها : ما أردت ذلك . فقالت؛ أيْ بنت عمّ، لا تفعلي، إني آمرأة مُوسرة وعندي سِلَع من حاجتك ، فإن أردتِ سلْعة بعتُكَهَا ، أو قَرْضا من نفقة أقرضتك ؛ فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال . قالت : فوالله ما أُراها قالت ذلك إلا لتفعل؛ فخفتها فكتمتها وقلت : ما أريد ذلك . فلما فرغت زينب من جهازها آرتحلت وخرج بها حَمُوها يقود بها نهارا كِنانةُ بن الربيع . وتسامع بذلك أهل مكة، وخرج في طلبها هَبّار بن الأسود ونافع بن عبد القيس الفِهري؛ وكان أوّل من سبق إليها هبّار فروّعها بالرمح وهي في هَوْدجها . وبرك كِنانة ونثر نَبْله ، ثم أخذ قوسه وقال : والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهما . وأقبل أبو سفيان في أشراف قريش فقال : يا هذا، أَمسك عنّا نَبْلك حتى نكلمك؛ فوقف عليه أبو سفيان وقال : إنك لم تصنع شـيئا ، خرجت بالمرأة على رءوس الناس ، وقد عرفتَ مصيبتنا التى أصابتنا ببـدْر فتظن العرب وتُحدث أن هـذا وَهْن منا وضعف خروجك إليه بآبنتـه على رءوس الناس من بين أظهرنا . آرجع بالمرأة فأقم بها أياما، ثم سُلّها سَلّا[2] رفيقا في الليل فألحقها بأبيها؛ فلعمري مالنا

(١) يأجج (كيسمع وينصر ويضرب) : موضع بمكة . (٢) انطلق بها في استخفاء .

بحبسها عن أبيها من حاجة، وما لنا فى ذلك الآن من ثُؤرة[1] فيما أصاب منا؛ ففعل . فلما مر به يومان أو ثلاثة سلّها؛ فانطلقت حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذكروا أنها قد كانت ألقت — للروعة التى أصابتها حين روعها هبّار بن أم درهم — ما فى بطنها .

الثالثة — قال ابن العربى : « لما أسر مَن أسر من المشركين تكلم قوم منهم بالإسلام ولم يمضوا فيه عزيمة ولا اعترفوا به اعترافا جازما . ويشبه أنهم أرادوا أن يقربوا من المسلمين ولا يبعدوا من المشركين . قال علماؤنا : إن تكلم الكافر بالإيمان فى قلبه وبلسانه ولم يمض فيه عزيمة لم يكن مؤمنا . وإذا وُجد مثل ذلك من المؤمن كان كافرا ؛ إلا ما كان من الوسوسة التى لا يقدر على دفعها فإن الله قد عفا عنها وأسقطها . وقد بيّن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم الحقيقة فقال : « وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ » أى إن كان هذا القول منهم خيانة ومكرا « فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ » بكفرهم ومكرهم بك وقتالهم لك . وإن كان هذا القول منهم خيرا ويعلمه الله فيقبل منهم ذلك ويعوضهم خيرا مما خرج عنهم ويغفر لهم ما تقدم من كفرهم وخيانتهم ومكرهم » . وجمع خيانة خيائن ، وكان يجب أن يقال : خوائن لأنه من ذوات الواو، إلا أنهم فرقوا بينه وبين جمع خائنة . ويقال : خائن وخُوّان وخَوَنة وخانة .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ

(١) الثؤرة (بالضم) : الثأر .

Marfat.com

إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن
بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ
أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

فيـه سـبع مسـائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ختم السورة بذكر الموالاة ليعلم كل فريق وليّه الذي يستعين به . وقد تقدّم معنى الهجرة والجهاد لغةً ومعنًى (١) . ﴿ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا ﴾ معطوف عليه . وهم الأنصار الذين تبوّءوا الدار والإيمـان من قبلهم، وآنضوى إليهم النبيّ صـلى الله عليه وسـلم والمهاجرون . ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ رفع بالابتداء . ﴿ بَعْضُهُمْ ﴾ ابتـداء ثان ﴿ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ خبره، والجميع خبر « إنّ » . قال آبن عباس : « أولياء بعض » في الميراث؛ فكانوا يتوارثون بالهجرة، وكان لا يرث من آمن ولم يهاجر مَن هاجر فنسخ الله ذلك بقوله : « وَأُولُو الْأَرْحَامِ » الآية . أخرجه أبو داود . وصار الميراث لذوى الأرحام من المؤمنين . ولا يتوارث أهل ملّتين شيئا . ثم جاء قوله عليه السـلام : " ألحقوا الفرائض بأهلها " على ما تقدّم بيانه في آية المواريث . وقيـل : ليس هنا نسخ، وإنمـا معناه في النصرة والمعونة؛ كما تقدّم في « النساء » (٢) . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ابتداء والخبر ﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة « من وِلايتهم » بكسر الواو . وقيل هي لغة . وقيل : هي من وليت الشيء؛ يقال : وليٌّ بيّن الوَلاية . ووالٍ بيّن الوِلاية . والفتح في هذا أبين وأحسن؛ لأنه بمعنى النصرة والنسب . وقد تطلق الوِلاية والوَلاية بمعنى الإمارة .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٩ . (٢) راجع جـ ٥ ص ٨٠ .

Marfat.com

الثانية — قوله تعالى : ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ يريد إن دعوا هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا من أرض الحرب عونكم بنفير أو مال لاستنقاذهم فأعينوهم ، فذلك فرض عليكم فلا تخذلوهم . إلا أن يستنصروكم على قوم كفار بينكم وبينهم ميثاق فلا تنصروهم عليهم ، ولا تنقضوا العهد حتى تتم مدته . ابن العربي : إلا أن يكونوا [أسراء][1] مستضعفين فإن الولاية معهم قائمة والنصرة لهم واجبة ، حتى لا نبقي منا عين تطرف حتى تخرج إلى استنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك ، أو نبذل جميع أموالنا في استخراجهم حتى لا يبقى لأحد درهم . كذلك قال مالك وجميع العلماء ؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون ، على ما حل بالخلق في تركهم إخوانهم في أسر العدو وبأيديهم خزائن الأموال ، وفضول الأحوال والقدرة والعدد والقوة والجلد . الزجاج : ويجوز « فعليكم النصر » بالنصب على الإغراء .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ قطع الله الولاية بين الكفار والمؤمنين ؛ فجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، والكفار بعضهم أولياء بعض ، يتناصرون بدينهم ويتعاملون باعتقادهم . قال علماؤنا في الكافرة يكون لها الأخ المسلم : لا يزوجها ، إذ لا ولاية بينهما ، ويزوجها أهل ملتها . فكما لا يزوج المسلمةَ إلا مسلم فكذلك الكافرة لا يزوجها إلا كافر قريب لها ، أو أسقف ، ولو من مسلم ؛ إلا أن تكون معتقة ؛ فإن عُقد على غير المعتقة فُسخ إن كان لمسلم ، ولا يعرض للنصراني . وقال أَصْبَغ : لا يفسخ ، عقدُ المسلم أولى وأفضل .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ الضمير عائد على الموارثة والتزامها . المعنى : إلا تتركوهم يتوارثون كما كانوا يتوارثون ؛ قاله ابن زيد . وقيل : هي عائدة على التناصر والمؤازرة والمعاونة واتصال الأيدي . ابن جُريج وغيره : وهذا إن لم يفعل تقع الفتنة عنه عن قريب ؛ فهو آكد من الأول . وذكر الترمذي عن عبد الله بن مسلم بن هُرْمُز عن محمد وسعد ابني عبيد عن أبي حاتم المزني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا جاءكم من ترضون

(١) زيادة عن ابن العربي .

Marfat.com

دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير" . قالوا : يا رسول الله، وإن كان فيــه ؟ قال : " إذا جاءكم من ترضون دينــه وخلقه فأنكحوه " ثلاث مرات . قال : حديث غريب . وقيل : يعود على حفظ العهد والميثاق الذى تضمنه قوله : « إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ » . وهذا وإن لم يفعل فهو الفتنة نفسها . وقيل : يعود على النصر للمسلمين فى الدين . وهو معنى القول الثانى . قال ابن إسحاق : جعل الله المهاجرين والأنصار أهل ولايته فى الدين دون من سواهم ، وجعل الكافرين بعضهم أوليـاء بعض . ثم قال : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ ﴾ وهو أن يتولى المؤمنُ الكافرَ دون المؤمنين . ﴿ تَكُنْ فِتْنَةٌ ﴾ أى محنة بالحرب، وما انجر معها من الغارات والجلاء والأسر . والفسادُ الكبير : ظهور الشرك . قال الكسائىّ : ويجوز النصب فى قوله : « تَكُنْ فِتْنَةً » على معنى تكن فعلتكم فتنــة وفسادا كبيرا . ﴿ حَقًّا ﴾ مصـدر ، أى حققوا إيمـانهم بالهجرة والنصرة . وحقق الله إيمـانهم بالبشارة فى قــوله : « لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » أى ثواب عظيم فى الجنة .

الخامســة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا ﴾ يريد من بعد الحديبية وبيعة الرضوان . وذلك أن الهجرة من بعد ذلك كانت أقل رتبــة من الهجرة الأولى . والهجرة الثانية هى التى وقع فيها الصلح ، ووضعت الحرب أوزارها نحو عامين ثم كان فتح مكة . ولهذا قال عليه السلام : " لا هجرة بعد الفتــح " . فبيّن أن من آمن وهاجر من بعدُ يلتحق بهم . ومعنى « منكم » أى مثلكم فى النّصر والموالاة .

السادسة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ ﴾ ابتداء . والواحد ذو، والرّحِم مؤنثة، والجمع أرحام . والمراد بها هاهنا العصبات دون المولود بالرحم . وممـا يبيّن أن المراد بالرحم العصبات قول العرب : وَصَلَتْكَ رَحِم . لا يريدون قرابة الأمّ . قالت قُتيلة بنت الحارث ــ أخت النضر بن الحارث ــ كذا قال ابن هشام . قال السهيلىّ : الصحيح أنهـا بنت النضر لا أخته ، كذا وقع فى كتاب الدلائل ــ ترثى أباها حين قتله النبىّ صلى الله عليه وسلم صَبْرًا ــ بالصفراء[1] :

(١) بقعة بين مكة والمدينة وتسمى وادى الصفراء .

Marfat.com

يا راكبًا إن الأُثيل مظنّةٌ * من صُبح خامسةٍ وأنت مُوَفَّقُ
أبلغ بها مَيْتًا بأن تحيّة * ما إن تزال بها النجائب تخفِقُ
منّى إليك وعبرةً مسفوحةً * جادت بواكفها وأخرى تخنُقُ
هل يسمعَنّى النضْرُ إن ناديتُه * أم كيف يسمع ميّت لا ينطق
أمحمدٌ يا خيرَ ضِنْءِ(١) كريمةٍ * فى قومها والفحلُ فحلٌ مُعرِق
ما كان ضرّك لو مننتَ وربما * منّ الفتى وهو المَغيظ المُحْنَق
لو كنتَ قابلَ فديةٍ لفديتُه * بأعزّ ما يُفْدى به ما يُنْفِق
فالنضرُ أقربُ مَن أسرتَ قرابةً * وأحقُّهم إن كان عِتق يُعتَق
ظلّت سيوفُ بنى أبيه تنوشُه * لله أرحام هناك تُشَقَّق
صَبْرًا يُقاد إلى المنيّة مُتْعَبًا * رَسْفَ المُقيَّد وهو عانٍ مُوثَق

السابعة — واختلف السلف ومَن بعدهم فى توريث ذوى الأرحام — وهو من لا سهم له فى الكتاب — من قرابة الميت وليس بعصبة؛ كأولاد البنات، وأولاد الأخوات، وبنات الأخ، والعمة والخالة، والعمّ أخ الأب للأم، والجدّ أبى الأم، والجدة أم الأم، ومن أدْلَى بهم. فقال قوم: لا يرث من لا فرض له من ذوى الأرحام. ورُوى عن أبى بكر الصديق وزيد بن ثابت وابن عمر، ورواية عن علىّ، وهو قول أهل المدينة، ورُوى عن مكحول والأوزاعى، وبه قال الشافعىّ رضى الله عنه. وقال بتوريثهم: عمر بن الخطاب وابن مسعود ومعاذ وأبو الدَّرْداء وعائشة وعلىّ فى رواية عنه، وهو قول الكوفيين وأحمد وإسحاق. واحتجّوا بالآية، وقالوا: وقد اجتمع فى ذوى الأرحام سببان القرابة والإسلام؛ فهم أولى ممن له سبب واحد وهو الإسلام. أجاب الأولون فقالوا: هذه آية مجملة جامعة، والظاهر بكل رحم قَرُب أو بَعُد، وآيات المواريث مفسَّرة والمفسّر قاضٍ على المجمل ومبيّن. قالوا: وقد جعل النبىّ صلى الله عليه وسلم الوَلاء سببا ثابتا، أقام

(١) الضن، (بالكسر): الأصل.

Marfat.com

المَوْلَى فيه مُقام العصبة فقال : " الولاء لمن أعتق " . ونهى عن بيع الولاء وعن هبتـه . آحتـج الآخرون بمـا روى أبو داود والدَّارَقُطْنِيّ عن المِقدام قال قال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم : " من ترك كَلًّا فإليّ — وربمـا قال فإلى الله وإلى رسوله — ومن ترك مالاً فلورثته فأنا وارث من لا وارث له أعقِل عنـه وأرثه والخال وارث من لا وارث له يَعقِل عنه ويرثه " . وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن طاوس قال قالت عائشة رضى الله عنها : " الله مَوْلَى من لا مَوْلَى له ، والخال وارث من لا وارث له " . موقوفٌ . ورُوى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الخال وارث " . ورُوى عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسـلم عن ميراث العمة والخالة فقـال " لا أدرى حتى يأتينى جبريل " ثم قال : " أين السائل عن ميراث العمة والخـالة " ؟ قال : فأتى الرجل فقـال : " ســارّنى جبريل أنه لا شىء لهما " . قال الدّارقطنيّ : لم يسـنده غير مَسعدة عن محمد بن عمرو وهو ضعيف ، والصواب مرسل . ورُوى عن الشّعبى قال قال زياد بن أبى سفيان لجليسه : هل تدرى كيف قضى عمر فى العمة والخالة ؟ قال لا . قال : إنى لأعلم خلق الله كيف قضى فيهما عمر، جعل الخالة بمنزلة الأم، والعمة بمنزلة الأب .

Marfat.com

تفسير سورة براءة

مدنية باتفاق

قوله تعالى : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (١)

فيه خمس مسائل :

الأولى — فى أسمائها . قال سعيد بن جُبير: سألت ٱبن عباس رضى الله عنه عن سورة براءة فقال : تلك الفاضحة، ما زال ينزل : ومنهم ومنهم، حتى خِفنا ألّا تدع أحدا . قال القُشيرِىّ أبو نصر عبد الرحم : هذه السورة نزلت فى غزوة تَبُوك، ونزلت بعدها . وفى أوّلها نبذُ عهودِ الكفار إليهم . وفى السورة كشف أسرار المنافقين . وتسمّى الفاضحة والبحُوث؛ لأنها تبحث عن أسرار المنافقين . وتسمّى المبعثرة والبعثرة : البحث .

الثانيـة — وٱختلف العلماء فى سبب سقوط البسملة من أوّل هذه السورة على أقوال خمسة : الأوّل — أنه قيل كان من شأن العرب فى زمانها فى الجاهلية، إذا كان بينهم وبين قوم عهد فإذا أرادوا نقضه كتبوا إليهم كتابا ولم يكتبوا فيه بسملة؛ فلما نزلت سورة براءة بنقض العهد الذى كان بين النبىّ صلى الله عليه وسلم والمشركين بعث بها النبىّ صلى الله عليه وسلم علىّ ٱبن أبى طالب رضى الله عنه؛ فقرأها عليهم فى الموسم ، ولم يُبسمل فى ذلك على ما جرت به عادتهم فى نقض العهد من ترك البسملة . وقول ثان — روى النَّسائىّ قال حدّثنا أحمد قال حدّثنا محمد بن المثنّى عن يحيى بن سعيد قال حدّثنا عوف قال حدّثنا يزيد الرّقاشى (١) قال قال

---

(١) فى ب و ج و ك و ز و هـ : «الرواسى» . والذى فى صحيح الترمذى : «الفارسى» . قال الترمذى تعقيبا عليه : «... حسن صحيح ، لا نعرفه إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسى عن ابن عباس . ويزيد الفارسى قد روى عن ٱبن عباس غير حديث . ويقال : هو يزيد بن هرمز ، ويزيد الرقاشى هو يزيد بن أبان الرقاشى ، ولم يدرك ٱبن عباس ، إنما روى عن أنس بن مالك ، وكلاهما من البصرة . ويزيد الفارسى أقدم من يزيد الرقاشى » .

Marfat.com

لنا آبن عباس : قلت لعثمان ما حملكم إلى أن عمدتم إلى « الأنفال » وهى من المثانى، و إلى « براءة » وهى من المِئين فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتموها فى السبع الطُّوَل[1]؛ فما حملكم على ذلك؟ قال عثمان : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول: "ضعوا هذا فى السورة التى فيها كذا وكذا". وتنزل عليه الآيات فيقول: "ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا". وكانت « الأنفال » من أوائل ما أُنزل[2]، و « براءة » من آخر القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وقُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبيّن لنا أنها منها فظننت أنها منها ؛ فمن ثمّ قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم . وخرّجه أبو عيسى الترمذيّ وقال : هذا حديث حَسَن . وقول ثالث — رُوى عن عثمان أيضا . وقال مالك فيما رواه آبن وهب وابن القاسم وابن عبد الحكم : إنه لما سقط أوّلها سقط بسم الله الرحمن الرحيم معه . ورُوى ذلك عن آبن عجلان أنه بلغه أن سورة « براءة » كانت تعدل البقرة أو قربها، فذهب منها ؛ فلذلك لم يكتب بينهما بسم الله الرحمن الرحيم . وقال سعيد بن جُبير : كانت مثلَ سورة البقرة . وقول رابع — قاله خارجة وأبو عصمة وغيرهما . قالوا : لما كتبوا المصحف فى خلافة عثمان اختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال بعضهم: براءة والأنفال سورة واحدة . وقال بعضهم : هما سورتان . فتُركت بينهما فرجة لقول من قال إنهما سورتان ، وتركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال هما سورة واحدة؛ فرضِيَ الفريقان معاً، وثبتت حجتاهما فى المصحف . وقول خامس — قال عبد الله بن عباس . سألت عليّ بن أبى طالب لِمَ لَمْ يُكتب فى براءة بسم الله الرحمن الرحيم؟ قال : لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان؛ وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان . وروى معناه عن المبرد قال : ولذلك لم يجمع بينهما ؛ فإن بسم الله الرحمن الرحيم رحمة ، وبراءة نزلت سخطة[3] . ومثله عن سفيان . قال سفيان بن عُيينة : إنما لم

(١) السبع الطول : سبع سور، وهى سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف فهذه ست سور متواليات . واختلفوا فى السابعة ؛ فمنهم من قال : السابعة الأنفال وبراءة؛ وعدهما سورة واحدة . ومنهم من يجعل السابعة سورة يونس .

(٢) أى بعد الهجرة .

(٣) فى الجمل عن القرطبي : بسخطه .

تكتب فى صدر هذه السورة بسم الله الرحمن الرحيم لأن التسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت فى المنافقين وبالسيف ، ولا أمان للمنافقين . والصحيح أن التسمية لم تكتب ؛ لأن جبريل عليه السلام ما نزل بها فى هذه السورة؛ قاله القشيرى . وفى قول عثمان : قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبيّن لنا أنها منها ، دليل على أن السور كلها آنتظمت بقوله وتبيينه ، وأن براءة وحدها ضُمّت إلى الأنفال من غير عهدٍ من النبى صلى الله عليه وسلم؛ لما عاجله من الحِمام قبل تبيينه ذلك . وكانتا تُدعيان القرينتين، فوجب أن تُجمعا وتضم إحداهما إلى الأخرى ؛ للوصف الذى لزمهما من الآفتران ورسول الله صلى الله عليه وسلم حى .

الثالثة — قال آبن العربى : هـذا دليل على أن القياس أصلٌ فى الدين ، ألا ترى إلى عثمان وأعيانِ الصحابة كيف لجئوا إلى قياس الشّبه عند عدم النّص، ورأوا أن قصة « براءة » شبيهة بقصة « الأنفال » فألحقوها بها ؟ فإذا كان الله تعالى قد بيّن دخول القياس فى تأليف القرآن فما ظنّك بسائر الأحكام .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ ﴾ تقول: برِئتُ من الشىء أبرأ براءة فأنا منه برىء ، إذا أزلته عن نفسك ، وقطعت سبب ما بينك وبينه . و « بَرَاءَةٌ » رفع على خبر آبتداء مضمر، تقديره هذه براءة . ويصح أن ترفع بالابتداء . والخبر فى قوله : « إِلَى الَّذِينَ » . وجاز الآبتداء بالنكرة لأنها موصوفة فتعرّفت تعريفا مّا وجاز الإخبار عنها . وقرأ عيسى آبن عمر « براءةً » بالنصب ، على تقدير التزموا براءة ، ففيها معنى الإغراء . وهى مصدر على فَعالة ؛ كالشّناءة والدنّاءة .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ يعنى إلى الذين عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه كان المتولّى للعقود ، وأصحابُه بذلك كلهم راضون ، فكأنهم عاقدوا وعاهدوا فنُسب العقد إليهم . وكذلك ما عقده أئمة الكفر على قومهم منسوبٌ إليهم محسوبٌ عليهم يؤاخَذون به ، إذ لا يمكن غير ذلك ؛ فإن تحصيل الرضا من الجميع متعذّر ، فإذا عقد الإمام لما يراه من المصلحة أمرًا لزم جميع الرعايا .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ فَسِيحُوا فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (٢)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ فَسِيحُوا ﴾ رجع من الخبر إلى الخطاب، أى قُل لهم سِيحُوا أى سيروا فى الأرض مقبلين ومدبرين، آمنين غير خائفين أحدا من المسلمين بحرب ولا سلب ولا قتل ولا أسر . يقال ، ساح فلان فى الأرض يسيح سِياحة وسُيُوحا وسيحانا ؛ ومنه السيح فى المـاء الجارى المنبسط ؛ ومنه قول طَرَفَة بن العبد :

لو خفتُ هذا منك ما نِلْتَنِى * حتى ترى خيلا أمامى تَسِيحْ

الثانيـــة ــ وٱختلف العلماء فى كيفية هــذا التأجيل، وفى هؤلاء الذين بَرِئَ الله منهم ورسولُه . فقال محمد بن إسحاق وغيره : هما صنفان من المشركين ، أحدهما كانت مدّة عهده أقل من أربعــة أشهر فأُمهل تمـام أربعة أشهر ، والآخر كانت مدّة عهده بغير أجل محدود فقُصر به على أربعة أشهر ليرتاد لنفسه . ثم هو حَرْب بعد ذلك لله ولرسوله وللؤمنين ، يُقتل حيث ما أُدرك ويُؤسر إلا أن يتوب . وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر، وٱنقضاؤه إلى عشر من شهر ربيع الآخر . فأمّا من لم يكن له عهد فإنمـا أجله انسلاخ الأربعة الأشهر الحُرُم . وذلك خمسون يوما : عشرون من ذى الحجـة والمحرّم . وقال الكَلْبِيّ : إنمـا كانت الأربعة الأشهر لمن كان بينــه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهــد دون أربعة أشهر ؛ ومَن كان عهده أكثر من أربعة أشهر فهو الذى أمر الله أن يُتمّ له عهده بقوله « فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ » وهــذا ٱختيار الطبرى وغيره . وذكر محمد بن إسحاق ومجاهد وغيرهما : أن هذه الآية نزلت فى أهل مكة . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح قريشا عام الحُدَيْبِيَة، على أن يضعوا الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس ويكفّ بعضهم عن بعض ، فدخلت خُزاعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل بنو بكر فى عهد قريش ، فعَدَت

Marfat.com

بنو بكر على خُزاعة ونقضوا عهدهم . وكان سبب ذلك دمًا كان لبنى بكر عند خزاعة قبل الإسلام بمدة؛ فلما كانت الهُدْنة المنعقدة يوم الحديبية ، أمِن الناس بعضهم بعضا؛ فاغتنم بنو الدِّيل من بنى بكر — وهم الذين كان الدم لهم — تلك الفرصةَ وغفلةَ خزاعة ، وأرادوا إدراكَ ثأر بنى الأسود بن رزن (١)، الذين قتلهم خزاعة، فخرج نوفل بن معاوية الدِّيلى فيمن أطاعه من بنى بكر بن عبد مَناة، حتى بيّتوا (٢) خزاعة واقتتلوا، وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح، وقوم من قريش أعانوهم بأنفسهم؛ فانهزمت خزاعة إلى الحَرَم على ماهو مشهور مسطور (٣)؛ فكان ذلك نقضا للصلح الواقع يوم الحديبية، فخرج عمرو بن سالم الخزاعى وبُديل بن ورْقاء الخزاعى وقوم من خزاعة، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم مستغيثين به فيما أصابهم به بنو بكر وقريش، وأنشده عمرو بن سالم فقال :

يا ربّ إنى ناشِدٌ محمّدا * حِلْفَ أبينا وأبيه الأتْلَدا
كنتَ لنا أبًا وكنّا وَلَدا * ثُمّتَ أسلمنا ولم ننزِع يدا
فانصرْ هداكَ الله نصرًا عَتَدا * وادْعُ عبادَ الله يأتوا مَدَدا
فيهم رسولُ الله قد تجرّدا * أبيضُ مثل الشمس يَنْمُو صُعُدا
إن سِيمَ خَسْفًا وجهُه تَربّدا * فى فيْلَق كالبحر يجرى مُزْبِدا
إنّ قريشا أخلفوك الموعِدا * ونقضوا ميثاقَك المؤكّدا
وزعموا أن لستَ تدعو أحدًا * وهم أذلُّ وأقلُّ عددا
هم بيّتونا بالوَتِير (٤) هُجّدا * وقتلونا ركّعًا وسُجّدا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا نُصرتُ إن لم أنصر بنى كعب " . ثم نظر إلى سحابة فقال : " إنها لتستهِلّ لنصر بنى كعب " يعنى خُزاعة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) فى هامش تاريخ الطبرى طبع أوربا قسم ١ ص ١٦١٩ : « رزين » .
(٢) بيت القوم والعدو أوقع بهم ليلا .
(٣) راجع تاريخ الطبرى وسيرة ابن هشام فى فتح مكة .
(٤) فى الأصول : « الحطيم » . والتصويب عن سيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى ومعجم ياقوت وكتب الصحابه فى ترجمة « عمرو بن سالم الخزاعى » . والوتير : اسم ماء بأسفل مكة لخزاعة .

Marfat.com

لبديل بن وَرْقاء ومن معه : " إن أبا سفيان سيأتى لَيَشُدّ العقد ويزيدَ فى الصلح[1] وسينصرف بغير حاجة " . فندمت قريش على مافعلت ، فخرج أبو سفيان إلى المدينة ليستديم العقد ويزيد فى الصلح ، فرجع بغير حاجة كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ماهو معروف من خبره . وتجهّز رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ففتحها الله ، وذلك فى سنة ثمان من الهجرة . فلما بلغ هوازنَ فتحُ مكة جمعهم مالك بن عَوْف النَّصْرى ، على ماهو معروف مشهور من غَزاة حُنَيْن . وسيأتى بعضها . وكان الظَّفَر والنصر للمسلمين على الكافرين . وكانت وقعة هوازن يوم حنين فى أوّل شوّال من السنة الثامنة من الهجرة . وترك رسول الله صلى الله عليه وسلم قَسْم الغنائم من الأموال والنساء ، فلم يقسمها حتى أتى الطائف ، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعا وعشرين ليلة . وقيل غير ذلك . ونصب عليهم المَنْجَنِيق ورماهم به ، على ماهو معروف من تلك الغَزاة . ثم آنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجعرانة ، وقَسَم غنائم حُنين ، على ماهو مشهور من أمرها وخبرها . ثم آنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرّقوا ، وأقام الحج للناس عَتّاب بن أَسِيد فى تلك السنة . وهو أوّل أمير أقام الحج فى الإسلام . وحج المشركون على مشاعرهم . وكان عتّاب بن أسيد خيّرا فاضلا ورِعا . وقدم كعب بن زُهير بن أبى سُلْمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمتدحه ، وأقام على رأسه بقصيدته التى أوّلها :

* بانت سُعاد فقلبى اليومَ متبولُ *

وأنشدها إلى آخرها ، وذكر فيها المهاجرين فأثنى عليهم — وكان قبل ذلك قد حُفظ له هجاء فى النبيّ صلى الله عليه وسلم — فعاب عليه الأنصار إذ لم يذكرهم ؛ فغدا على النبيّ صلى الله عليه وسلم بقصيدة يمتدح فيها الأنصار فقال :

من سَرّه كرم الحياة فلا يزل * فى مِقْنَب[2] من صالحى الأنصارِ
وَرِثوا المكارم كابرًا عن كابرٍ * إنّ الخيار هُمُ بنو الأخيار
المكرِهين السَّمهرِىُّ[3] بأذرع * كسوافل الهِنْدِى غيرِ قِصار

(١) فى ابن هشام : « فى المدة » . (٢) المقنب : الجماعة من الفوارس .
(٣) السمهرى : الرمح . وسافلة القناة : أعظمها وأقصرها كعوبا . والهندى : الرماح .

والناظرين بأعينٍ محمرّة * كالجمر غيرِ كَليلة الأبصار
والبائعين نفوسَهم لنبيّهم * للموت يوم تَعانُقٍ وكِرار
يتطهّرون يرونه نُسكًا لهم * بدماءِ مَن عَلِقوا من الكفّار
دَرِبوا كما دَرِبت ببطنِ خَفِيّةٍ (١) * غُلْبُ الرّقابِ من الأسود ضَوارِ
وإذا حَلَلتَ ليمنعوك إليهمُ (٢) * أصبحتَ عند معاقل الأغفار
ضربوا عليًّا يوم بدرٍ ضربةً (٣) * دانت لوقعتها جميعُ نِزار
لو يعلم الأقوامُ عِلْمِيَ كلَّه * فيهم لَصَدّقنى الذين أمارِى
قومٌ إذا خَوَت (٤) النجوم فإنهم * للطارقين النازلين مَقَارِى

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد انصرافه من الطائف ذا الحجة والمُحرّم وصفر وربيع الأوّل وربيع الآخر وجمادى الأولى وجمادى الآخرة، وخرج فى رجب من سنة تسع بالمسلمين إلى غزوة الروم، غزوة تَبُوك . وهى آخر غزوة غزاها . قال ابن جريج عن مجاهد : لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من تَبُوك أراد الحج ثم قال : "إنه يحضر البيتَ عُراةٌ مشركون يطوفون بالبيت فلا أحبّ أن أحج حتى لا يكون ذلك" . فأرسل أبا بكر أميرا على الحج، وبعث معه بأربعين آية من صدر «براءة» ليقرأها على أهل المَوْسم . فلما خرج دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم عليًّا وقال : "اخرج بهذه القصة من صدر براءة فأذّن بذلك فى الناس إذا اجتمعوا" . فخرج علىّ على ناقة النبيّ صلى الله عليه وسلم العَضْباء حتى أدرك أبا بكر الصدّيق رضى الله عنهما بذى الحُليفة . فقال له أبو بكر لما رآه : أميرٌ أو مأمور؟ فقال: بل مأمور ثم نهضا، فأقام أبو بكر للناس الحج على منازلهم التى كانوا عليها فى الجاهلية . فى كتاب النّسائىّ عن جابر : وأن عليًّا قرأ على الناس «براءة» حتى ختمها قبل يوم التّروِيَة بيوم .

---

(١) دربوا : اعتادوا . وخفية : موضع كثير الأسد . والغلب : الغلاظ الرقاب . والضوارى : اللواتى قد ضرين بأكل لحوم الناس ؛ الواحد ضار . (٢) المعاقل : الحصون . والأغفار : أولاد الأروية (الوعل) واحدها غفر .

(٣) على : هو على بن بكر بن وائل . ويقال : هو على أخو عبد مناة بن خزيمة من أمه . وقالوا : هو على بن مسعود بن مازن . (٤) خوت : إذا لم يكن لها مطر . والمقارى : جمع مقرى ، الذى يقرى الضيف .

Marfat.com

وفى يوم عرفة وفى يوم النَّحر عند ٱنقضاء خطبة أبى بكر فى الثلاثة الأيام . فلما كان يوم النَّفْر الأوّل قام أبو بكر فخطب الناس، فحدّثهم كيف يَنفِرون وكيف يَرْمُون، يعلّمهم مناسكهم . فلما فرغ قام علىّ فقرأ على الناس « براءة » حتى ختمها . وقال سليمان بن موسى : لمـا خطب أبو بكر بعرفة قال : قُمْ ياعلىّ فأدّ رسالة رسـولِ الله صلى الله عليه وسـلم، فقام علىّ ففعل . قال : ثم وقع فى نفسى أن جميع الناس لم يشاهدوا خطبة أبى بكر، فجعلت أتتبّع الفساطيط يوم النحر . وروى التِّرمذىّ عن زيد بن يُثَيْع قال : سألت عليّـا بأىّ شىء بُعثت فى الحج ؟ قال : بعثت بأربع : ألّا يطوف بالبيت عُريان، ومن كان بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدّته، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا . قال : هذا حديث حسن صحيح . وأخرجه النَّسائىّ وقال : فكنت أنادى حتى صَحِل صوتى (١) . قال أبو عمر : بُعث علىّ لِيَنبِذ إلى كل ذى عهد عهده، ويَعْهَد إليهم ألّا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان . وأقام الحجَّ فى ذلك العام سنة تسع أبو بكر . ثم حجّ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قابلٍ حَجّته التى لم يحج غيرها من المدينة، فوقعت حجّته فى ذى الحجة . فقال: " إن الزمان قد ٱستدار " الحديث، على ما يأتى فى آية النَّسِىء بيـانه (٢) . وثبت الحج فى ذى الحجـة إلى يوم القيامة . وذكر مجاهد : أن أبا بكر حج فى ذى القَعدة من سنة تسع . ٱبن العَرَبىّ : وكانت الحكمة فى إعطاء « براءة » لعلىّ أن براءة تضمّنت نقض العهد الذى كان عقده النبىّ صلى الله عليه وسـلم، وكانت سيرة العرب ألّا يَحُلّ العقد إلا الذى عقده، أو رجل من أهل بيته؛ فأراد النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يقطع ألسنة العرب بالحجـة ، ويرسل ٱبن عمـه الهاشمىّ من بيتـه ينقض العهد ، حتى لا يبقى لهم متكلّم . قال معناه الزجاج .

الثالثـــة — قال العلماء : وتضمّنت الآية جواز قطع العهد بيننا وبين المشركين . ولذلك حالتان : حالة تنقضى المدّةُ بيننـا وبينهم فنؤذنهم بالحرب . والإيذان اختيـار .

(١) الصحل : حدة الصوت مع بحح . (٢) راجع ص ١٣٦ من هذا الجزء .

Marfat.com

والثانية ــ أن نخاف منهم غدرا ، فننبذ إليهم عهدهم كما سبق . ابن عباس : والآية منسوخة ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم عاهد ثم نبذ العهد لمّا أمر بالقتال .

قوله تعالى : ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٣)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَأَذَانٌ ﴾ الأذان : الإعلام لغةً من غير خلاف . وهو عطف على « براءة » . ﴿ إِلَى النَّاسِ ﴾ الناسُ هنا جميع الخلق . ﴿ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ﴾ ظرف ، والعامل فيه « أذان » . وإن كان قد وصف بقوله : « مِنَ اللَّهِ » ؛ فإن رائحة الفعل فيه باقية ، وهى عاملة فى الظروف . وقيل : العامل فيه « مُخْزِى » . ولا يصح عمل « أذان » ؛ لأنه قد وصف فخرج عن حكم الفعل .

الثانيـــة ــ واختلف العلماء فى الحج الأكبر ؛ فقيل : يوم عرفة . رُوى عن عمر وعثمان وابن عباس وطاوس ومجاهد . وهو مذهب أبى حنيفة ، وبه قال الشافعيّ . وعن علىّ وابن عباس أيضا وابن مسعود وابن أبى أَوْفَى والمُغيرة بن شعبة أنه يوم النَّحر . واختاره الطبرى . وروى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر فى الحَجّة التى حج فيها فقال : "أىّ يوم هذا" فقالوا : يوم النحر . فقال : هذا يوم الحج الأكبر" . أخرجه أبو داود . وخرّج البخاريّ عن أبى هريرة قال : بعثنى أبو بكر الصديقُ رضى الله عنه فيمن يؤذّن يوم النحر بمِنًى : لا يحجُّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . ويومُ الحج الأكبر يومُ النحر . وإنما قيل الأكبر من أجل قول النـاس : الحج الأصغر . فنبذ أبو بكر إلى الناس فى ذلك العام ؛ فلم يحج عامَ حَجّة الوداع الذى حج فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم مشرك . وقال ابن أبى أَوْفَى : يومُ النحر يوم الحج الأكبر ، يهراق فيه الدم ، ويوضع فيه الشَّعْر ، ويُلقى فيه التفث ،

Marfat.com

وتَحِلّ فيه الحُـرَم . وهذا مذهب مالك؛ لأن يوم النحر فيه الحج كله؛ لأن الوقوف إنمـا هو فى ليلته، والرَّمْىُ والنحـرُ والحَلْق والطوافُ فى صبيحته . احتجّ الأولون بحديث مَخْرَمة أن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال : "يومُ الحج الأكبر يومُ عرفة" . رواه إسماعيل القـاضى . وقال الثّورىّ وابن جُريج : الحج الأكبر أيامُ مِنًى كلُّها . وهـذا كما يقال : يوم صِفِّين ويوم الجَمَل ويوم بُعاث(١)؛ فيراد به الحين والزمان لا نفس اليوم . ورُوى عن مجاهد : الحج الأكبر القِران(٢)، والأصغر الإفراد . وهـذا ليس من الآية فى شىء . وعنه وعن عَطاء : الحج الأكبر الذى فيه الوقوف بعرفة، والأصغر العُمْرة . وعن مجاهد أيضا : أيامُ الحج كلُّها . وقال الحسن وعبدالله بن الحارث بن نَوفل : إنمـا سُمِّى يومُ الحج الأكبر لأنه حج ذلك العامَ المسلمون والمشركون، وآتفقت فيه يومئذ أعياد المِلَل : اليهود والنصارى والمجوس . قال آبن عطية : وهذا ضعيف أن يصفه الله عز وجل فى كتابه بالأكبر لهذا . وعن الحسن أيضا : إنمـا سمىَ الأكبر لأنه حجّ فيه أبو بكر ونُبذت فيه العهود . وهذا الذى يشبه نظر الحسن . وقال آبن سيرين : يوم الحج الأكبر العامُ الذى حج فيه النبىّ صلى الله عليه وسلم حَجة الوداع ، وحجّت معه فيه الأمم .

الثالثــة ــ قوله تعـالى : ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ « أن » بالفتح فى موضع نصب . والتقدير بأن الله . ومن قرأ بالكسر قدّره بمعنى قال إن الله . « بَرِيءٌ » خبر أنّ . « وَرَسُولُهُ » عطف على الموضع، وإن شئت على المضمر المرفوع فى « برىء » . كلاهما حسن؛ لأنه قد طال الكلام . وإن شئت على الابتداء والخبر محذوف؛ التقدير : ورسوله برىء منهم . ومن قرأ « ورسولَه » بالنصب ــ وهو الحسن وغيره ــ عطفه على اسم الله عز وجل

(١) صفين (بكسرتين وتشديد الفاء) : موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات . كان فيه وقعة بين على رضى الله عنه ومعاوية فى سنة ٣٧ هـ .

ويوم الجمل كان فيـه وقعة بين على وعائشـة أم المؤمنين رضى الله عنهما ؛ قتـل فيه عدة من الصحابة وغيرهم . وكان فى سنة ٣٦ هـ .

يوم بعاث (بضم أوله والعـين المهملة ، وحكاه بعضهم بالغين المعجمة) : موضع من المدينـة على ليلتين . كانت به وقائع بين الأوس والخزرج فى الجاهلية .

(٢) القران (بالكسر) : الجمع بين الحج والعمرة . والإفراد : هو أن يحرم بالحج وحده .

Marfat.com

على اللفظ . وفى الشواذ « ورسـولِهِ » بالخفض على القسم ، أى وحقّ رسـوله ؛ ورُويت عن الحسن . وقد تقدمت قصـة عمر فيهـا أوّل الكتاب (١) . ﴿ فَإِنْ تُبْتُمْ ﴾ أى عن الشرك . ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أى أنفـع لكم . ﴿ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أى عن الإيمـان . ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ أى فائتيه ؛ فإنه محيط بكم ومنزل عقابه عليكم .

قوله تعـالى : إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فى موضع نصب بالاستثناء المتصل؛ المعـنى : أن الله برىء من المشركين إلا من المعاهدين فى مدة عهدهم . وقيـل : الاستثناء منقطع ؛ أى أن الله برىء منهم ولكن الذين عاهدتم فثبتوا على العهد فأتمّوا إليهم عهدهم . وقوله : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ ﴾ يدل على أنه كان من أهل العهد مَن خَاس (٢) بعهده ومنهم من ثبت على الوفاء؛ فأذِن الله سبحانه لنبيّه صلى الله عليه وسلم فى نقض عهد من خاس، وأمر بالوفاء لمن بقى على عهده إلى مدّته . ومعنى « لَمْ يَنْقُصُوكُمْ » أى من شروط العهد شيئا . ﴿ وَلَمْ يُظَاهِرُوا ﴾ لم يعاونوا . وقرأ عِكرمة وعطاء بن يَسار « ثم لم ينقضوكم » بالضاد معجمة على حذف مضاف؛ التقدير ثم لم ينقضوا عهدهم (٣) . يقال : إن هذا مخصوص يراد به بنو ضَمْرة خاصّةً . ثم قال : ﴿ فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ ﴾ أى وإن كانت أكثر من أربعة أشهر .

قوله تعـالى : فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

فيه ست مسائل :

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٤ . (٢) خاس عهده وبعهده : نقضه . (٣) فى ج وك وز : عهدكم .

Marfat.com

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾ أى خرج . وسلختُ الشهرَ إذا صِرت فى أواخر أيامه ، تَسْلَخه سلخا وسلوخا بمعنى خرجت منه . وقال الشاعر :

إذا ما سلختُ الشهرَ أهللتُ قبلَه(١) * كفى قاتلا سلخى الشهور و إهلالى

وآنسلخ الشهر وآنسلخ النهار من الليل المقبل . وسلخت المرأة درعها نزعته . وفى التنزيل : « وَآيَةٌ لَهُمُ ٱللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ(٢) » . ونخلة مِسلاخ ، وهى التى ينتثر بُسْرها أخضر .

والأشهر الحرم فيها للعلماء قولان : قيل هى الأشهر المعروفة ، ثلاثةٌ سَرْدٌ وواحد فَرْد . قال الأصم : أريد به من لا عَقد له من المشركين ؛ فأوجب أن يمسك عن قتالهم حتى ينسلخ الحُرُم ؛ وهو مدة خمسين يوما على ما ذكره آبن عباس ؛ لأن النداء كان بذلك يوم النحر . وقد تقدم هذا . وقيل : شهور العهد أربعة ؛ قاله مجاهد وابن إسحاق وابن زيد وعمرو بن شعيب . وقيل لهـا حُرُم لأن الله حرّم على المؤمنين فيهـا دماءَ المشركين والتعرض لهم إلا على سبيل الخير .

الثانيــة ــ قوله تعـالى : ﴿ فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ عامٌّ فى كل مشرك ، لكن السُّـنّة خصّت منه ما تقدم بيانه فى سورة « البقرة(٣) » من آمرأة وراهب وصبيّ وغيرهم . وقال الله تعالى فى أهـل الكتاب : « حَتَّى يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ(٤) » . إلا أنه يجوز أن يكون لفـظ المشركين لا يتناول أهل الكتاب(٥) ، ويقتضى ذلك منع أخذ الجزية من عبدة الأوثان وغيرهم ، على ما يأتى بيانه . وآعلم أن مطلق قوله : « ٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ » يقتضى جـواز قتالهم بأىّ وجه كان ؛ إلا أن الأخبار وردت بالنهى عن المثلة . ومع هذا فيجوز أن يكون الصدّيق رضى الله عنه حين قتل أهل الردة بالإحراق بالنار ، وبالحجارة وبالرمى من رءوس الجبال ، والتنكيس فى الآبار ، تعلّق بعموم الآية . وكذلك إحراق علىّ رضى الله عنه قوما من أهل الردة يجوز أن يكون ميلا إلى هذا المذهب ، وآعتمادا على عموم اللفظ . والله أعلم .

---

(١) فى اللسان والبحر المحيط : « أهللت مثله » .
(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٦ .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٣٤٨ .
(٤) راجع ص ١٠٩ فما بعد من هذا الجزء .
(٥) فى ب و جـ و ز و ك و هـ : الكتابين .

Marfat.com

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ عامٌّ فى كل موضع . وخصَّ أبو حنيفة رضى الله عنه المسجد الحرام ؛ كما سبق فى سورة « البقرة »(١) . ثم اختلفوا ؛ فقال الحسين بن الفضل : نسخت هذه كلَّ آية فى القرآن فيها ذكر الإعراض والصبر على أذى الأعداء . وقال الضحاك والسدّى وعطاء : هى منسوخة بقوله : « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً »(٢) . وأنه لا يُقتل أسير صَبْرا ، إما أن يمنّ عليه وإما أن يُفادى . وقال مجاهد وقتادة : بل هى ناسخة لقوله تعالى : « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » وأنه لا يجوز فى الأسارى من المشركين إلا القتل. وقال ابن زيد : الآيتان محكمتان . وهو الصحيح ، لأن المَنّ والقتل والفداء لم يزل من حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم من أوّل حرب حاربهم، وهو يوم بدر كما سبق . وقوله : ﴿ وَخُذُوهُمْ ﴾ يدل عليه . والأخذ هو الأسر . والأسر إنما يكون للقتل أو الفداء أو المنّ على ما يراه الإمام . ومعنى ﴿ ٱحْصُرُوهُمْ ﴾ يريد عن التصرف إلى بلادكم والدخول إليكم ؛ إلا أن تأذنوا لهم فيدخلوا إليكم بأمان .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَٱقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ المرصد : الموضع الذى يُرقب فيه العدوّ ؛ يقال : رصدت فلانا أرْصُده ، أى رَقَبْته . أى اقعدوا لهم فى مواضع الغِرّة حيث يُرصَدون . قال عامر بن الطُّفَيل :

ولقد علمت وما إخالك ناسيا * أن المنيّة للفتى بالمَرْصَد

وقال عدىّ(٣) :

أعاذل إن الجهل من لذة الفتى * وإن المنايا للنفوس بمرصد

وفى هذا دليل على جواز اغتيالهم قبل الدعوة . ونصب « كلّ » على الظرف ، وهو اختيار الزجاج ؛ ويقال : ذهبت طريقا وذهبت كلَّ طريق . أو بإسقاط الخافض؛ التقدير : فى كل مَرْصد وعلى كلّ مرصد ؛ فيُجعل المرصد اسما للطريق . وخطّأ أبو علىّ الزجاج

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٥١ . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٢٥ .

(٣) فى الأصول : « النابغة » والتصويب عن اللسان .

Marfat.com

فى جعله الطريق ظرفا وقال : الطريق مكان مخصوص كالبيت والمسجد ؛ فلا يجوز حذف حرف الجر منه إلا فيما ورد فيه الحذف سماعا ؛ كما حكى سيبويه : دخلت الشام ودخلت البيت ؛ وكما قيل :

* كما عَسَل الطريقَ الثعلبُ (١) *

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا ﴾ أى من الشرك . ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ هذه الآية فيها تأمل؛ وذلك أن الله تعالى علّق القتل على الشرك ، ثم قال : « فَإِنْ تَابُوا » . والأصل أن القتل متى كان للشرك يزول بزواله ؛ وذلك يقتضى زوال القتل بمجرّد التوبة ، من غير اعتبار إقامة الصلاة وإيتـاء الزكاة؛ ولذلك سقط القتـل بمجرد التوبة قبل وقت الصلاة والزكاة . وهذا بيّن فى هذا المعنى؛ غير أن الله تعالى ذكر التوبة وذكر معها شرطين آخرين، فلا سبيل إلى إلغائهما . نظيره قوله صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عَصَموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله " . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : والله لأقاتلنّ من فرق بين الصلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حق المـال . وقال ابن عباس : رحم الله أبا بكر ما كان أفقهه . وقال ابن العربىّ : فآنتظم القرآن والسنة وآطّردا . ولا خلاف بين المسلمين أن من ترك الصلاة وسائر الفرائض مستحِلًّا كفر، ومن ترك السُّنَن متهاونا فسَق ، ومن ترك النوافل لم يَحْرَج؛ إلا أن يجحد فضلها فيكفر، لأنه يصير رادًّا على الرسول عليه السلام ما جاء به وأخبر عنــه . وآختلفوا فيمن ترك الصلاة من غير جَحْد لهـا ولا استحلال ؛ فروى يونس ابن عبد الأعلى قال : سمعت ابن وهب يقول قال مالك : من آمن بالله وصدّق المرسلين وأبى أن يصلّى قُتل ؛ وبه قال أبو ثور وجميع أصحاب الشافعىّ . وهو قول حماد بن زيد ومكحول ووكيع . وقال أبو حنيفة : يسجن ويضرب ولا يقتل؛ وهو قول ابن شهاب وبه يقول داود ابن علىّ . ومن حجتهم قوله صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن أقاتلَ الناس حتى يقولوا لا إله

(١) القائل هو ساعدة بن جؤية : وتمامه كما فى اللسان وكتاب سيبويه :

لدنٌ بهز الكف يعسل متنه * فيه كما عسل ... ...

Marfat.com

إلا الله فإذا قالوا ذلك عَصَموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقّها " . وقالوا : حقّها الثلاث التى قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا يحلّ دم آمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث كُفْرٌ بعد إيمان أو زِنًى بعد إحصان أو قتل نفس بغير نفس " . وذهبت جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن من ترك صلاة واحدة متعمّدا حتى يخرج وقتها لغير عذر، وأبى من أدائها وقضائها وقال لا أصلى فإنه كافر ، ودَمُه ومالُه حلالان ، ولا يرثه ورثته من المسلمين ، ويستتاب ؛ فإن تاب وإلا قُتل، وحُكْمُ ماله كحكم مال المرتدّ ؛ وهو قول إسحاق . قال إسحاق : وكذلك كان رأى أهل العلم من لَدُن النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى زماننا هذا . وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : واختلف أصحابنا متى يُقتل تارك الصلاة؛ فقال بعضهم فى آخر الوقت المختار ، وقال بعضهم آخر وقت الضرورة، وهو الصحيح من ذلك . وذلك أن يبقى من وقت العصر[(١)] أربع ركعات إلى مغيب الشمس ، ومن الليل أربع ركعات لوقت العشاء ، ومن الصبح ركعتان قبل طلوع الشمس . وقال إسحاق : وذهاب الوقت أن يؤخر الظُّهر إلى غروب الشمس ، والمغرب إلى طلوع الفجر .

السادسة — هذه الآية دالّة على أن من قال : قد تبت أنه لا يجتزأ بقوله حتى ينضاف إلى ذلك أفعاله المحقِّقة للتوبة ، لأن الله عز وجل شرط هنا مع التوبة إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ليحقّق بهما التوبة . وقال فى آية الربا : « وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ »[(٢)] . وقال : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا »[(٣)] وقد تقدّم معنى هذا فى سورة البقرة .

قوله تعالى : وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى من الذين أمرتُك بقتالهم . ﴿ ٱسْتَجَارَكَ ﴾ أى سأل جِوارك؛ أى أمانك وذمامك، فاعطه إيّاه ليسمع القرآن؛ أى يفهم

(١) فى ب : من وقت الصلاة . (٢) راجع ج ٣ ص ٣٦٥ . (٣) راجع ج ٢ ص ١٨٧ .

Marfat.com

أحكامه وأوامره ونواهيه . فإن قَبِل أمرا فحسن ، وإن أبَى فردّه إلى مأمنه . وهذا ما لاخلاف فيه، والله أعلم.(١) قال مالك : إذا وُجد الحربيّ فى طريق بلاد المسلمين فقال : جئت أطلب الأمان . قال مالك : هـذه أمور مشتبهة، وأرى أن يُرَدّ إلى مأمنـه . وقال ابن القـاسم : وكذلك الذى يوجد وقـد نزل تاجرا بساحلنا فيقول : ظننت ألّا تعرضوا لمن جاء تاجرا حتى يبيـع . وظاهر الآية إنمـا هى فيمن يريد سماع القرآن والنظر فى الإسلام؛ فأما الإجارة لغير ذلك فإنمـا هى لمصلحة المسلمين والنّظر فيما تعود عليهم به منفعته .

الثانيــة ــ ولا خلاف بين كافة العلمـاء أن أمان السلطان جائز؛ لأنه مقـدّم للنظر والمصلحة ، نائبٌ عن الجميع فى جلب المنـافع ودفع المضارّ . وآختلفوا فى أمان غير الخليفة؛ فالحرّ يمضى أمانه عند كافة العلماء . إلا أن آبن حبيب قال : ينظر الإمام فيه . وأما العبد فله الأمان فى مشهور المذهب ؛ وبه قال الشافعيّ وأصحابه وأحمد وإسحاق والأوزاعيّ والثوريّ وأبو ثور وداود ومحمد بن الحسن . وقال أبو حنيفة : لا أمان له ؛ وهو القول الثانى لعلمائنا . والأوّل أصح؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم" . قالوا : فلما قال "أدناهم" جاز أمان العبد، وكانت المرأة الحُرّة أحْرَى بذلك، ولا اعتبار بعلّة "لا يسهم له" . وقال عبد الملك بن المـاجِشُون : لا يجوز أمان المرأة إلا أن يجيزه الإمام، فشذّ بقوله عن الجمهور . وأما الصبيّ فإذا أطاق القتال جاز أمانُه ؛ لأنه من جملة المقاتلة ، ودخل فى الفئة الحامية . وقد ذهب الضّحاك والسُّدّيّ إلى أن هـذه الآية منسوخة بقوله : « فَاقْتُـلُوا الْمُشْرِكِينَ » . وقال الحسن : هى مُحْكَمَة سُنّة(٢) إلى يوم القيامة؛ وقاله مجاهد . وقيل : هذه الآية إنمـا كان حكمها باقيا مدّة الأربعة الأشهر التى ضُربت لهم أجلا ، وليس بشىء . وقال سـعيد بن جُبير : جاء رجل من المشركين إلى علىّ بن أبى طالب فقـال : إن أراد الرجل منا أن يأتى محمدا بعد انقضاء الأربعة الأشهر فيسمع كلام الله أو يأتيه بحاجة قُتل !

---

(١) فى جـ و ك و هـ و ى : والحمد لله .

(٢) كذا فى الأصـول وتفسير ابن عطية . إلا ب ، ففيها : محكمة مثبتة . ولا وجود لهذه الكلمة فى قول الحسن فى المراجع .

Marfat.com

فقال عليّ بن أبي طالب : لا، لأن الله تبـارك وتعالى يقول : « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ » . وهذا هو الصحيح . والآية مُحْكَمة .

الثالثـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ ﴾ « أَحَدٌ » مرفوع بإضمار فعل كالذى بعده . وهذا حَسَن فى « إنْ » وقبيح فى أخواتها . ومذهب سيبويه فى الفرق بين « إن » وأخواتها ، أنها لمـا كانت أمّ حروف الشرط خُصّت بهذا ، ولأنها لا تكون فى غيره . وقال محمد بن يزيد : أما قوله : « لأنها لا تكون فى غيره » فغلط ؛ لأنهـا تكون بمعنى (ما) ومخففة من الثقيلة ولكنها مبهمة ، وليس كذا غيرها . وأنشد سيبويه :

لا تَجْـــزِعى إن مُنْفِسًا أهلكْتُه　＊　وإذا هلكتُ فعنــد ذلك فَاجْزَعى[(١)]

الرابعـــة ــ قال العلماء : فى قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ دليلٌ على أن كلام الله عز وجل مسموع عند قراءة القارئ؛ قاله الشيخ أبو الحسن والقاضى أبو بكر وأبو العباس القلانسى وابن مجاهد وأبو إسحاق الإسْفرايِنى وغيرهم؛ لقوله تعالى : « حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ » . فنصّ على أن كلامه مسموع عند قراءة القارئ لكلامه . ويدلّ عليه إجماع المسلمين على أن القارئ إذا قرأ فاتحة الكتاب أو سورة قالوا : سمعنا كلام الله . وفرّقوا بين أن يُقرأ كلام الله تعالى وبين أن يُقرأ شعر آمرئ القيس . وقد مضى فى سورة « البقرة »[(٢)] معنى كلام الله تعالى، وأنه ليس بحرف ولا صوت، والحمد لله .

قوله تعـالى : كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

---

(١) البيت للنمر بن تولب . وصف أن امرأته لامته على إتلاف ماله جزعا من الفقر؛ فقال لها : لا تجزعى من إهلاكى لنفيس المـال ، فإنى كفيل بإخلافه بعــد التلف ؛ وإذا هلكت فاجزعى فلا خاف لك منى . (عن شرح الشواهد) .　　(٢) راجع جـ ٢ ص ١ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ كيف هنـا للتعجب ، كما تقول : كيف يسـبقنى فلان ، أى لا ينبغى أن يسبقنى . و « عهـد » اسم يكون . وفى الآية إضمـار ، أى كيف يكون للشركين عهد مع إضمار الغدر، كما قال :

وخبّرتمـانى إنمـا الموت بالقُرى * فكيف وهَاتَا هَضْبةٌ وكَثِيبُ[1]

التقدير : فكيف مات ، عن الزجاج . وقيـل : المعنى كيف يكون للشركين عهد عند الله يأمنون به عذابه غدا ، وكيف يكون لهم عند رسوله عهد يأمنون به عذاب الدنيا . ثم استثنى فقـال : « إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْـدَ الْمَسْجِدِ الْحَـرَامِ » . قال محمـد بن إسحاق : هم بنو بكر ؛ أى ليس العهد إلا لهؤلاء الذين لم ينقضوا ولم ينكثوا .

قوله تعـالى : ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾ أى فما أقاموا على الوفاء بعهدكم فأقيموا لهم على مثل ذلك . ابن زيد : فلم يستقيموا فضرب لهم أجلا أربعة أشهر . فأما من لا عهد له فقاتلوه حيث وجدتموه إلّا أن يتوب .

ع

قوله تعـالى : كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ أعاد التعجب من أن يكون لهم عهـد مع خُبث أعمالهم ؛ أى كيف يكون لهم عهد وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلًّا ولا ذمّة . يقال : ظهرتُ على فلان أى غلبته ،وظهرت البيت علوته ؛ومنه « فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ »[2] أى يعلو عليه .

(١) كذا فى الأصول والبحر . والذى فى شـواهد سيبويه و جمهرة أشعار العرب : « وقليب » قال الشنتمرى : « وأراد بالقليب القبر ، وأصله البئر . كأنه حذر من وباء الأمصار وهى القرى ، فخرج إلى البادية فرأى قبرا فعلم أن الموت لا ينجى منه ، فقال هذا منكرا على من حذره من الإقامة بالقرى » .

(٢) راجع جـ ١١ ص ٦٢ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ « يرقبوا » يحافظوا . والرقيب الحافظ . وقد تقدم[(١)]. « إلًّا » عهدا؛ عن مجاهد وابن زيد . وعن مجاهد أيضا : هو اسم من أسماء الله عز وجل . ابن عباس والضحاك : قرابة . الحسن : جِوارا . قتادة : حِلفا، و « ذِمَّةً » عهدا . أبو عبيدة : يمينا . وعنه أيضا : إلًّا العهد ، والذمة التذمم . الأزهرى : آسم الله بالعبرانية؛ وأصله من الأليل وهو البريق ؛ يقال ألّ لونه يَؤُلُّ أَلًّا، أى صَفَا ولَمَعَ . وقيل : أصله من الحدّة؛ ومنه الألّة للحربة؛ ومنه أُذُن مُؤَلَّلة أى محدّدة . ومنه قول طَرفة بن العبد يصف أذنى ناقته بالحدّة والانتصاب .

مُؤَلَّلتان تعرف العِتْق فيهما * كسامِعَتَىْ شاةٍ بحَوْمَل مُفْرَدِ[(٢)]

فإذا قيــل للعهد والجوار والقرابة « إلّ » فمعناه أن الأُذُن تُصرف إلى تلك الجهة ؛ أى تحدّد لها . والعهد يسمّى « إلًّا » لصفائه وظهوره . ويجمع فى القلة آلال . وفى الكثرة إلَالٌ . وقال الجوهرى وغيره : الإلّ بالكسر هو الله عز وجل، والإلّ أيضا العهد والقرابة . قال حسان :

لعمرُك إنّ إلَّك من قريش * كإلّ السَّقْب من رَأْل النَّعام[(٣)]

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا ذِمَّةً ﴾ أى عهدا . وهى كلّ حُرمة يلزمك إذا ضيّعتها ذنب . قال آبن عباس والضحاك وابن زيد : الذِّمة العهد . ومن جعل الإلّ العهـد فالتكرير لاختلاف اللفظين . وقال أبو عبيدة مَعْمَر : الذمة التـذمم . وقال أبو عبيد : الذمة الأمان فى قـوله عليه السـلام : " ويسعى بذمتهم أدناهم " . وجمع ذِمّة ذِمم . وبئر ذَمّـة (بفتح الذال) قليلة المـاء، وجمعها ذِمام . قال ذو الرُّمّة :

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٨ . (٢) السامعتان : الأذنان . والمراد بالشاة هنـا : الثور الوحشى . وحومل : اسم رملة . شـبه أذنيها بأذنى ثور وحشى لتحديدهما وصدق سمعهما ؛ وأذن الوحشى أصدق من عينيه . وجعله « مفردا » لأنه أشدّ لسمعه وارتياعه . (عن شرح الديوان) .

(٣) السقب : ولد الناقة . والرأل : ولد النعام .

Marfat.com

على حِمْـيَرِيَّات كأنّ عيونَها * ذِمامُ الرّكايا أنكزتها المَواتحُ[1]

أنكزتها أذهبت ماءها . وأهل الذمة أهل العقد .

قوله تعـالى : ﴿ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أى يقولون بألسنتهم ما يُرضى[2] ظاهره . ﴿ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِـقُونَ ﴾ أى ناقضون العهد . وكل كافر فاسـق ، ولكنه أراد ها هنـا المجاهرين بالقبائح ونقض العهد .

قوله تعـالى : ٱشْتَرَوْا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَـبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾

يعنى المشركين فى نقضهم العهود بأكلة أطعمهم إياها أبو سفيان ؛ قاله مجاهد . وقيل : إنهم استبدلوا بالقرآن متاع الدنيـا . ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى أعرضوا ؛ من الصدود . أو منعوا عن سبيل الله ؛ من الصّدّ .

قوله تعـالى : لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَـدُونَ ﴿١٠﴾

قال النحاس : ليس هذا تكريرا ، ولكن الأوّل لجميع المشركين والثانى لليهود خاصّة . والدليل على هذا « ٱشْـتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًـا قَلِيلًا » يعنى اليهود ، باعوا حجج الله عز وجل وبيانه بطلب الرياسة وطمعٍ فى شىء . ﴿ وَأُولَٰئِـكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ أى المجاوزون الحـلال إلى الحرام بنقض العهد .

قوله تعـالى : فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

---

(١) الحميريات : إبل منسوبة إلى حمير ، وهى قبيلة من اليمن . والذمام : القليلة الماء . والركايا : جمع ركية ، وهى البئر . أنكزتها — بزاى — يقال : نكزت الركية قل ماؤها . والمواتح : جمع ماتح ، وهو الذى يستق من البئر . وصف إبلا غارت عيونها من الكلال .

(٢) فى الأصول : « ما لا يرضى » وهو تحريف .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا ﴾ أى عن الشرك والتزموا أحكام الإسلام . ﴿ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ أى فهم إخوانكم ﴿ فِي الدِّينِ ﴾ . قال آبن عباس : حرّمت هذه دماءَ أهل القبلة . وقد تقدّم هذا المعنى . وقال آبن زيد : آفترض الله الصـلاة والزكاة وأَبَى أن يفرّق بينهما ، وأبى أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة. وقال آبن مسعود: أُمِرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يزك فلا صلاة له. وفى حديثٍ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من فرّق بين ثلاث فرّق الله بينه و بين رحمته يوم القيامة من قال أطيع الله ولا أطيع الرســول والله تعـالى يقول : « أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُــولَ » ومن قال أقيم الصـلاة ولا أوتى الزكاة والله تعـالى يقول : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ » ومن فـرّق بين شكر الله وشكر والديه والله عز وجل يقول : « أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ » " .

قوله تعـالى : ﴿ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ أى نبيّنهـا . ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ خصّهم لأنّهـم هم المنتفعون بها . والله أعلم .

قوله تعـالى : وَإِن نَّكَثُوٓا أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا ﴾ النّكث النقض ، وأصله فى كل ما فُتِل ثم حُلّ . فهى فى الأيمـان والعهود مستعارة . قال :

وإن حَلَفَتْ لا ينقض النّأىُ عهدها * فليس لمخضُوب البنَان يَمِـينُ

أى عهـد . وقوله : ﴿ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ أى بالاستنقاض والحرب وغير ذلك ممـا يفعله المشرك . يقال : طعَنه بالرمح وطعن بالقول السيء فيه يطعُن ، بضم العين فيهما . وقيــل : يَطْعُن بالرمح (بالضم) ويَطْعَن بالقول (بالفتح) . وهى هنـا آستعارة ، ومنه قوله صلى الله

Marfat.com

عليه وسـلم حين أمّر أُسامة : " إن تَطْعنوا فى إمارته فقـد طَعنتم فى إمارة أبيه من قبـلُ وآيْمُ الله إن كان لخليقا للإمارة " . خرّجه الصحيح[1] .

الثانيـــة ــ آستدلّ بعض العلماء بهذه الآية على وجوب قتل كلّ من طعن فى الدِّين؛ إذ هو كافر . والطعن أن ينسب إليه ما لا يليق به ، أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من الدين ؛ لمـا ثبت من الدليل القطعى على صحة أصوله وآستقامة فروعه . وقال آبن المنـذر : أجمع عامّة أهل العـلم على أن من سبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم عليه القتل . وممن قال ذلك مالك والليث وأحمد وإسحاق ، وهو مذهب الشافعيّ . وقد حُـكى عن النعمان أنه قال : لا يُقتل مَن سبّ النبيّ صلى الله عليه وسـلم من أهل الذّمة ، على ما يأتى . ورُوى أن رجلا قال فى مجلس علىّ : ما قُتل كعب بن الأشرف إلا غدرا ؛ فأمر علىّ بضرب عنقه . وقاله آخر فى مجلس معـاوية فقام محمد بن مسـلمة فقال : أيقال هـذا فى مجلسك وتسكت ! والله لا أساكنك تحت سقف[2] أبدا ، ولئن خلوتُ به لأقتلنّـه . قال علمـاؤنا : هذا يقتـل ولا يستتاب إن نسب الغدر للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وهو الذى فهمه علىّ ومحمد بن مسلمة رضوان الله عليهما من قائل ذلك ، لأن ذلك زَنْدَقَةٌ . فأمّا إن نسـبه للباشرين لقتله بحيث يقول : إنهم أمّنوه ثم غدروه لكانت هذه النسبة كذبا محضا ؛ فإنه ليس فى كلامهم معه ما يدل على أنهـم أمّنوه ولا صرّحوا له بذلك ، ولو فعـلوا ذلك لمـا كان أمَانًا ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم إنمـا وجّههم لقتله لا لتأمينه ، وأذن لمحمد بن مسـلمة فى أن يقول . وعلى هـذا فيكون فى قتـل من نسب ذلك لهم نظر وتردّد . وسببه هل يلزم من نسبة الغـدر لهم نسبتُه للنبيّ صلى الله عليه وسـلم ؛ لأنه قد صوّب فعلهم ورضى به فيلزم منه أنه قد رضى بالغـدر ومن صرّح بذلك قتل ، أو لا يلزم من نسبة الغدر لهم نسبته للنبيّ صلى الله عليه وسلم فلا يُقتل . وإذا قلنـا لا يقتل ، فلا بُدّ من تنكيل ذلك القائل وعقوبتـه بالسجن ، والضرب الشـديد والإهانة العظيمة .

---

(١) راجع صحيح مسلم (كتاب الفضائل) . (٢) فى ب : سقيفة .

الثالثـــة — فأما الذمى إذا طعن فى الدين ٱنتقض عهده فى المشهور من مذهب مالك ؛ لقـوله : « وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَـانَهُمْ » الآية . فأمر بقتلهم وقتالهم . وهو مذهب الشافعى رحمه الله . وقال أبو حنيفة فى هـذا : إنه يستتاب ، وإن مجرّد الطعن لا ينقض به العهـد إلا مع وجود النَّكْث ؛ لأن الله عز وجل إنمـا أمر بقتلهم بشرطين : أحدهما نقضهم العهد ، والثانى طعنهم فى الدين . قلنا : إن عملوا بمـا يخالف العهد انتقض عهدهم ، وذِكر الأمرين لا يقتضى توقّف قتـاله على وجودهما ؛ فإن النكث يبيح لهم ذلك بانفراده عقـلا وشرعا . وتقـدير الآية عندنا : فإن نكثوا عهـدهم حلّ قتالهم ، وإن لم ينكثوا بل طعنوا فى الدِّين مع الوفاء بالعهد حلّ قتالهم . وقد رُوى أن عمر رُفع إليه : ذِمّى نخس دابة عليها ٱمرأة مسلمة فرَمَحت فأسقطتها فانكشف بعض عورتها ؛ فأمر بصلبه فى الموضع .

الرابعـــة — إذا حارب الذمّى نُقض عهـده وكان مالُه وولده فَيْئًا معه . وقال محمد ابن مسلمة : لا يؤاخذ ولده به ؛ لأنه نقض وحده . وقال : أمّا مالُه فيؤخذ . وهذا تعارض لا يشبه منصب محمد بن مسلمة ؛ لأن عهده هو الذى حمى ماله وولده ؛ فإذا ذهب عنه ماله ذهب عنه ولده . وقال أشهب : إذا نقض الذمى العهد فهو على عهده ولا يعود فى الرق أبدا . وهذا من العجب ؛ وكأنه رأى العهد معنًى محسوسا . وإنما العهد حكم اقتضاه النظر ، والتزمه المسلمون له ، فإذا نقضه انتقض كسائر العقود .

الخامســـة — أكثر العلماء على أن مَن سبّ النبىّ صلى الله عليه وسلم من أهل الذمة ، أو عَرّض أو استخفّ[1] بقدره أو وصفه بغير الوجه الذى كفر به فإنه يقتل ؛ فإنا[2] لم نعطه الذِّمة أو العهد على هذا . إلا أبا حنيفة والثّورىّ وأتباعَهما من أهل الكوفة فإنهم قالوا : لا يقتل ، ما هو عليه من الشرك أعظم ، ولكن يؤدَّب ويُعزّر . والحجة عليه قوله تعالى : « وَإِنْ نَكَثُوا » الآية . واستدلّ عليه بعضهم بأمره صلى الله عليه وسلم بقتل كعب بن الأشرف وكان معاهَدا . وتغيّظ أبو بكر على رجل من أصحابه فقال أبو بَرزة : ألَا أضرب عنقه ! . فقال : ما كانت لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى الدَّارَقُطْنِى عن ابن عباس : أن رجلا أعمى كانت له

(١) فى ب : فاستخف . (٢) فى ى : لأنا .

Marfat.com

أم ولد ، له منها ابنان مثل اللؤلؤتين ، فكانت تشتُم النبيّ صلى الله عليه وسلم وتقع فيه ، فينهاها فلم تنته ، ويزجرها فلم تنزجر ، فلما كان ذات ليلة ذكرت النبيّ صلى الله عليه وسلم فما صبر سيدها أن قام إلى معْوَل فوضعه في بطنها ، ثم اتكأ عليها حتى أنفذه . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ألَا اشهدوا إن دمها هَدَر " . وفي رواية عن ابن عباس : فقتلها ، فلما أصبح قيل ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقام الأعمى فقال : يا رسول الله ، أنا صاحبها ، كانت تشتمك وتقع فيك[1] فأنهاها فلا تنتهي ، وأزجرها فلا تنزجر ، ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين ، وكانت بي رفيقة ، فلما كان البارحة جعلتْ تشتمك وتقع فيك فقتلتها ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ألَا اشهدوا إن دمها هَدَر " .

السادسة — واختلفوا إذا سبّه ثم أسلم تقيّة من القتل ؛ فقيل : يُسقط إسلامُه قتلَه ؛ وهو المشهور من المذهب ؛ لأن الإسلام يَجُبّ ما قبله . بخلاف المسلم إذا سبّه ثم تاب ؛ قال الله عز وجل : « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ »[2] . وقيل : لا يُسقط الإسلامُ قتلَه ؛ قاله في العُتْبِية ؛ لأنه حقّ للنبيّ صلى الله عليه وسلم وجب لانتهاكه حرمته وقصده إلحاق النقيصة والمعرّة به ، فلم يكن رجوعه إلى الإسلام بالذي يسقطه ، ولا يكون أحسنَ حالا من المسلم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾ « أئمة » جمع إمام ، والمراد صناديد قريش — في قول بعض العلماء — كأبي جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف . وهذا بعيد ؛ فإن الآية في سورة « براءة » وحين نزلت وقُرئت على الناس كان الله قد استأصل شأفة قريش فلم يبق إلا مسلم أو مسالم ؛ فيحتمل أن يكون المراد « فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ »[3] . أي من أقدم على نكث العهد والطعن في الدين يكون أصلا ورأسا في الكفر ؛ فهو من أئمة الكفر على هذا . ويحتمل أن يعني به المتقدمون والرؤساء منهم ، وأن قتالهم قتالٌ لأتباعهم وأنهم لا حُرْمة لهم . والأصل أأْمِمَة كمثال وأمثلة ، ثم أدغمت الميم في الميم وقُلبت الحركة على الهمزة فاجتمعت

(١) في ج : في حقك . (٢) راجع جـ ٧ ص ٤٠١ . (٣) في ب وجـ : وكأن يكون المراد بقاتلوا ... أن من أقدم ... الخ .

Marfat.com

همزتان ، فأبدلت من الثانية ياء . وزعم الأخفش أنك تقول : هذا أيَمّ من هذا ؛ بالياء . وقال المـازنيّ : أوَمّ من هذا ، بالواو . وقرأ حمزة « أئمة » . وأكثر النحويين يذهب إلى أن هذا لحن[1] ؛ لأنه جمع بين همزتين في كلمة واحدة . ﴿ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَـانَ لَهُمْ ﴾ أي لا عهود لهم ؛ أي ليست عهودهم صادقةً يُوفون بهـا . وقرأ ابن عامر « لا إيمـان لهم » بكسر الهمزة من الإيمـان ؛ أي لا إسلام لهم . ويحتمل أن يكون مصدر آمنته إيمانا ، من الأمن الذي ضدّه الخوف ، أي لا يؤمنون ؛ من آمنته إيمانا أي أجرته ؛ فلهذا قال : « فَقَاتِلُوا أَئِمَّـةَ الْكُفْرِ » . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ أي عن الشرك . قال الكَلْبِيّ : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم وادع أهل مكة سنةً وهو بالحُدَيْبِيَة فحبسوه عن البيت ، ثم صالحوه على أن يرجع فمكثوا ما شاء الله ، ثم قاتل حلفاءُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من خُزاعة حلفاءَ بني أُميّة من كِنانة ، وأمدّت بنو أمية حلفاءهم بالسلاح والطعام ، فآستعانت[2] خُزاعة برسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعين حلفاءه كما سبق . وفي البخاريّ عن زيد بن وهب قال : كنا عند حُذيفة فقال ما بقي من أصحاب هذه الآية — يعني « فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَـانَ لَهُمْ » — إلا ثلاثة ، ولا بقي من المنافقين إلا أربعة . فقال أعرابيّ : إنكم أصحابَ محمد تخبرون أخبارا لا ندري ما هي ! تزعمون ألّا منافق إلا أربعة ، فمـا بال هؤلاء الذين يبقرون[3] بيوتنا ويسرقون أعلاقنا[4] . قال : أولئك الفسّاق . أجل لم يبق منهم إلا أربعـة ؛ أحدهم شيخ كبير لو شرب المـاء البارد لمـا وجد برده[5] .

---

(١) قال الزمخشري في كشافه : « فإن قلت كيف لفظ أئمة ؟ قلت : همزة بعدها همزة بين بين ؛ أي بين مخرج الهمزة والياء ، وتحقيق الهمزتين قراءة مشهورة وإن لم تكن مقبولة عند البصريين . وأما التصريح بالياء فليس بقراءة ، ولا يجوز أن تكون قراءة ، ومن صرح بها فهو لاحن محرّف » .

وعقب على هـذا أبو حيان في البحر بقوله : « وذلك دأبه في تلحين المقرئين ، وكيف يكون ذلك لحنا وقد قرأ به رأس البصريين النحاة أبو عمرو بن العلاء ، وقارئ مكة ابن كثير ، وقارئ مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم نافع » . وقال الألوسي في روح المعـاني : « ... وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمـرو (أئمة) بهمزتين ثانيتهما بين بين ، أي بين مخرج الهمزة والياء ، والألف بينهما . والكوفيون وابن ذكوان عن ابن عامر بتحقيقهما من غير إدخال ألف ، وهشام كذلك إلا أنه أدخل بينهما الألف . هذا هو المشهور عن القراء السبعة ... » .

(٢) في ج و ز : استغاثه . (٣) بقره شقه وفتحه . (٤) الأعلاق : نفائس الأموال .

(٥) قال القسطلاني : « لذهاب شهوته وفساد معدته بسبب عقوبة الله له في الدنيا ، فلا يفرق بين الأشياء » .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ أى عن كفرهم و باطلهم وأذيتهم للسلمين . وذلك يقتضى أن يكون الغرض من قتالهم دفع ضررهم لينتهوا عن مقاتلتنا و يدخلوا فى ديننا .

قوله تعالى : أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ ﴾ تو بيخ وفيه معنى التحضيض . نزلت فى كفار مكة كما ذكرنا آنفا . ﴿ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ﴾ أى كان منهم سبب الخروج ، فأضيف الإخراج إليهم . وقيل : أخرجوا الرسول عليه السلام من المدينة لقتال أهل مكة للنكث الذى كان منهم ؛ عن الحسن . ﴿ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ ﴾ بالقتال . ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى نقضوا العهد وأعانوا بنو بَكْر على خُزاعة . وقيل : بدءوكم بالقتال يوم بدر؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج للعير ولما أحرزوا عِيرهم كان يمكنهم الانصراف ، فأبَوْا إلّا الوصول إلى بدر وشُرب الخمر بها ؛ كما تقدم . ﴿ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ ﴾ أى تخافوا عقابه فى ترك قتالهم ، من أن تخافوا أن ينالكم فى قتالهم مكروه . وقيل : إخراجهم الرسـول منعُهم إياه من الحج والعُمْرة والطّواف ، وهـو ابتداؤهم . والله أعلم .

قوله تعالى : قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ ﴾ أمر . ﴿ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ ﴾ جـوابه . وهو جزم بمعنى المجازاة . والتقـدير : إن تقاتلوهم يعـذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويَشْفِ صـدور قوم مؤمنين . ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ دليـل على أن غيظهم كان قد اشتدّ . وقال مجاهد :

Marfat.com

يعني خُزاعة حلفاءَ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكلّه عطف، ويجوز فيه كله الرفع على القطع من الأول . ويجوز النصب على إضمار (أن) وهو الصرف عند الكوفيين؛ كما قال :

فإن يَهْلِك أبو قابوس يَهلِكْ * ربيعُ النـاس والشهرُ الحرامُ
ونأخـذَ بعــده بِذناب عيش (١) * أَجَبَّ الظّهر ليس له سَــنام

وإن شئت رفعت (ونأخذ) وإن شئت نصبته . والمراد بقـوله : ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ بنو خُزاعة؛ على ما ذكرنا عن مجاهد . فإن قريشا أعانت بني بكر عليهم، وكانت خزاعة حلفاء النبيّ صلى الله عليه وسلم . فأنشد رجل من بني بكر هجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له بعض خزاعة : لئن أعدته لأكسرنّ فَمَك؛ فأعاده فكسرفاه وثار بينهم قتال؛ فقتلوا من الخزاعيّين أقواما، فخرج عمرو بن سالم الخزاعيّ في نفر إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وأخبره به، فدخل مـنزل ميمونة وقال : " اسكبوا إليّ ماء " فجعـل يغتسل وهو يقول : " لانُصِرتُ إن لم أَنصر بني كعب (٢) " . ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتجهّز والخروج إلى مكة فكان الفتح .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ القراءة بالرفع على الاسـتئناف؛ لأنه ليس من جنس الأول . ولهذا لم يقل « ويَتُبْ » بالجزم؛ لأن القتال غير موجب لهم التوبة من الله جل وعز . وهو موجب لهم العذاب والخزى، وشفاء صدور المؤمنين وذهاب غيظ قلوبهم ونظيره : « فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ » تم الكلام . ثم قال : « وَيَمْحُو اللهُ الْبَاطِلَ (٣) » . والذين تاب الله عليهم مثـل أبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسليم بن أبي عمرو؛ فإنهـم أسلموا . وقرأ ابن أبي إسحاق « وَيَتُوبَ » بالنصب . وكذا رُوى عن عيسى الثّقفي والأعرج؛ وعليه فتكون التوبة داخلة في جـواب الشرط؛ لأن المعنى : إن تقاتلوهم يعذبهم الله .

(١) الذناب (بكسر الذال) : عقب كل شيء ومؤخره . والأجب : الجمـل المقطوع السنام . والبيتان للنابغة الذبياني . وصف مرض النعمان بن المنذر، وأنه إن هلك صار الناس بعده في أسوأ حال وأضيق عيش وتمسكوا منه بمثل ذنب بعير أجب . وفي البيت شاهد آخر . راجع خزانة الأدب للبغدادي في الشاهد السادس والخمسين بعد السبعمائة وشواهد سيبويه جـ ١ ص ١٠٠ طبع بولاق . (٢) بنو كعب في خزاعة وهم قوم عمرو . (٣) راجع جـ ١٦ ص ٢٤ فما بعد .

وكذلك ما عطف عليــه . ثم قال : « وَيَتُوبُ اللَّهُ » أى إن تقاتلوهم . فجمع بين تعــذيبهم بأيديكم وشــفاء صدوركم وإذهاب غيظ قلوبكم والتوبة عليكم . والرفع أحسن ؛ لأن التوبة لا يكون سببها القتال ؛ إذ قد تُوجد بغير قتال لمن شاء الله أن يتوب عليه فى كل حال .

قوله تعـالى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ خروجٌ من شىء إلى شىء . ﴿ أَن تُتْرَكُوا ﴾ فى موضـع المفعولين على قول سيبويه . وعند المبرّد أنه قد حذف الثانى . ومعنى الكلام : أم حسبتم أن تتركوا من غير أن تُبتلوا بمـا يظهر به المؤمن والمنافق الظهور الذى يستحق به الثواب والعقاب . وقـد تقدّم هـذا المعنى فى غير موضع . ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ ﴾ جزم بلمّـا وإن كانت ما زائدة؛ فإنها تكون عند سيبويه جوابا لقولك : قد فعل ؛ كما تقدّم[١] . وكسرت الميم لالتقاء الساكنين . ﴿ وَلِيجَةً ﴾ بطانة ومداخلة؛ من الولوج وهو الدخول، ومنه سُمّى الكِنَاس[٢] الذى تلج فيه الوحوش تَوْلَجًـا . ولَجَ يَلِجُ وُلُوجا إذا دخل . والمعنى : دخيلَة مودّة من دون الله ورسوله . وقال أبو عبيدة : كل شىء أدخلته فى شىء ليس منه فهو وَلِيجة ، والرجل يكون فى القوم وليس منهم وَلِيجة . وقال ابن زيد : الوليجة الدخيلة، والوُلجاء الدُّخلاء؛ فوَلِيجة الرجل من يختص بدُخْلَة أمره دون الناس . تقول : هو وليجتى وهم وليجتى؛ الواحد والجمع فيه سواء . قال أَبَان بن تَغْلِب رحمه الله :

فبئس الـــوليجة للهاربين • والمعتدين وأهـــل الرِّيَب

وقيل : وليجة بطانة، والمعنى واحد؛ نظيره « لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ »[١] . وقال الفرّاء : وليجة بطانة من المشركين يتخذونهم ويُفشون إليهم أسرارهم ويُعْلمونهم أمورهم .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٢٠ وص ١٧٨ . (٢) مكانها فى الأدغال .

قوله تعالى : مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ ﴾ الجملة من « أَنْ يَعْمُرُوا » فى موضع رفع آسم كان . « شَاهِدِينَ » على الحال . واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية؛ فقيل : أراد ليس لهم الحج بعد ما نُودى فيهم بالمنع عن المسجد الحرام ، وكانت أمور البيت كالسِّدانة والسِّقاية والرِّفادة إلى المشركين؛ فبيّن أنهم ليسوا أهلا لذلك ، بل أهله المؤمنون . وقيل : إن العباس لما أُسِر وعُيِّر بالكفر وقطيعة الرحم قال : تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا . فقال علىّ : ألكم محاسن ؟ قال : نعم ، إنا لنَعْمُر المسجد الحرام ، ونَحْجُب الكعبة ، ونَسْقِى الحاج ، ونَفُكّ العَانِىَ . فنزلت هذه الآية ردًّا عليه . فيجب إذًا على المسلمين تولّى أحكام المساجد ومنع المشركين من دخولها . وقراءة العامة « يَعْمُر » بفتح الياء وضم الميم؛ من عَمَرَ يَعْمُر . وقرأ ابن السَّمَيْقَع بضم الياء وكسر الميم؛ أى يجعلوه عامرا أو يعينوا على عمارته . وقرئ « مسجد الله » على التوحيد؛ أى المسجد الحرام . وهى قراءة ابن عباس وسعيد بن جُبير وعطاء بن أبى رباح ومجاهد وابن كثير وأبى عمرو وابن مُحَيْصِن ويعقوب . والباقون « مساجد » على التعميم . وهو اختيار أبى عبيد؛ لأنه أعم والخاص يدخل تحت العام . وقد يحتمل أن يراد بقراءة الجمع المسجد الحرام خاصّة . وهذا جائز فيما كان من أسماء الجنس؛ كما يقال : فلان يركب الخيل وإن لم يركب إلا فرسا . والقراءة « مساجد » أصوب؛ لأنه يحتمل المعنيين . وقد أجمعوا على قراءة قوله : « إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ » على الجمع؛ قاله النحاس . وقال الحسن : إنما قال مساجد وهو المسجد الحرام؛ لأنه قِبلة المساجد كلّها وإمامُها .

قوله تعالى : ﴿ شَاهِدِينَ ﴾ . قيل : أراد وهم شاهدون فلما طُرِح (وهم) نصب . قال ابن عباس : شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودُهم لأصنامهم ، وإقرارهم أنها مخلوقة .

Marfat.com

وقال السـدّى : شهادتهم بالكفر هو أن النصرانىّ تقول له[1]: ما دينـك ؟ فيقول نصرانىّ ، واليهودىّ فيقول يهودى والصّابىء فيقول صابىء . ويقال للشرك ما دينك فيقول مشرك . ﴿ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ تقدّم معناه .

قوله تعـالى : إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُولَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾ دليل على أن الشهادة لعُمّار المساجد بالإيمـان صحيحة ؛ لأن الله سبحانه ربطه بها وأخبر عنه بملازمتها . وقد قال بعض السلف : إذا رأيتم الرجل يعمر المسـجد فحسّنوا به الظن . وروى الترمذى عن أبى سـعيد الخُدْرىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال " إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فآشهدوا له بالإيمـان " قال الله تعـالى : « إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » . وفى رواية : "يتعاهد المسجد" . قال : حديث حسن غريب . قال آبن العربى : وهذا فى ظاهر الصلاح ليس فى مقاطع الشهادات ، فإن الشهادات لهـا أحوال عند العارفين بهـا ؛ فإن منهم الذكىّ الفَطِن المحصل لمـا يعلم اعتقادا و إخبارا ، ومنهم المغفل ، وكل واحد ينزل على منزلته و يقدّر على صفته .

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ إن قيل : مامن مؤمن إلا وقد خشى غيرَ الله ، وما زال المؤمنون والأنبيـاء[2] يخشون الأعداء من غيرهم . قيل له : المعنى ولم يخش إلا الله ممـا يعبد : فإن المشركين كانوا يعبدون الأوثان و يخشونها و يرجونها . جواب ثان ــ أى لم يخف فى باب الدّين إلا الله .

الثالثـــة ــ فإن قيل : فقد أثبت الإيمان فى الآية لمن عمر المساجد بالصلاة فيها ، وتنظيفها و إصلاح ما وَهَى منها ، وآمن بالله . ولم يذكر الإيمـان بالرسول فيها ولا إيمـان لمن لم يؤمن

(١) فى ب و ك : يسأل ، وفى ب و ى : تسأله .   (٢) فى ك : الأولياء .

Marfat.com

بالرسول : قيل له : دلّ على الرسول ما ذُكر من إقامة الصلاة وغيرها لأنه مما جاء به ؛ فإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة إنمـا يصح من المؤمن بالرسول ، فلهذا لم يُفرده بالذكر . و « عسى » من الله واجبة؛ عن ابن عباس وغيره . وقيل : عسى بمعنى خليق ؛ أى لخليق ﴿أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ .

قوله تعـالى : أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾

فيه مسألتان(١) :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ التقدير فى العربية : أجعلتم أصحاب سقاية الحاج، أو أهل سقاية الحاج، مثلَ من آمن بالله وجاهد فى سبيله . ويصح أن يقدّر الحذف فى « من آمن » أى أجعلتم عمل سق الحاج كعمل من آمن . وقيل : التقدير كإيمان من آمن . والسِّقَاية مصدر كالسِّعاية والحِماية . فجعل الأسم بموضع المصـدر إذ عُلم معناه ؛ مثل إنمـا السخاء حاتم، وإنمـا الشِّعر زُهير . وعمارة المسجد الحرام مثل « وَٱسْأَلِ الْقَرْيَةَ » . وقرأ أبو وَجْزة(٢) « أجعلتم سُقاةَ الحاج وعَمَرة المسجِد الحرامِ » سُقَاة جمع ساقٍ والأصل سُقْيَة على فُعْلَة ؛ كذا يجمع المعتلّ من هذا ، نحو قاض وقُضَاة وناسٍ ونُسَاة . فإن لم يكن معتلاّ جمع على فَعَلَة نحو ناسئ ونَسَأة، للذين كانوا ينسئون الشهور . وكذا قرأ ابن الزبير وسعيد بن جبير « سُقاة وعَمَرة » ، إلا أن ابن جُبير نصب « المسجد » على إرادة التنوين فى « عَمَرة » . وقال الضحاك : سُقاية بضم السين، وهى لغة . والحَاجُّ اسم جنس الحُجّاج . وعمارة المسجد الحرام: معاهدته والقيام بمصالحه . وظاهر هذه الآية أنها مبطلة قول من افتخر من المشركين بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، كما ذكره السُّدّى . قال : افتخر عَبّاس بالسقاية، وشيبةُ بالعمارة، وعلىٌّ بالإسلام والجهاد؛ فصدّق الله عليًّا وكذبهما ، وأخبر أن العمارة لا تكون بالكفر ،

(١) كذا فى جميع الأصول . (٢) فى نسخ الأصل : « ابن أبى وجزة » إلا ى : وجزة . وهو تحريف .

Marfat.com

و إنما تكون بالإيمان والعبادة وأداء الطاعة . وهذا بيّن لا غُبار عليه . و يقال : إن المشركين سألوا اليهود وقالوا : نحن سُقاة الحاج وعمّار المسجد الحرام، أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه ؟ فقالت لهم اليهود عنادا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنتم أفضل . وقد اعترض هنا إشكال، وهو ما جاء فى صحيح مسلم عن النُّعمان بن بَشير قال : كنت عنـد منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل : ما أبالى ألّا أعمل عملا بعد الإســلام إلا أن أسقى الحاجّ . وقال آخر : ما أبالى ألّا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أعمُر المسجد الحرام . وقال آخر: الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم . فزجرهم عمر وقال : لاترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو يوم الجمعة — ولكن إذا صُلّيت الجمعة دخلتُ واستفتيتُه فيما اختلفتم فيـه . فأنزل الله عز وجل : « أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» إلى آخر الآية . وهذا المساق يقتضى أنها إنما نزلت عند اختلاف المسلمين فى الأفضل من هذه الأعمال . وحينئذ لا يليق أن يقال لهم فى آخر الآية : وَاللّهُ لَا يَهْـدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » فتعين الإشكال . و إزالته بأن يقال : إن بعض الرواة تسامح فى قوله ؛ فأنزل الله الآية . و إنما قرأ النبى صلى الله عليه وســلم الآية على عمر حين سأله فظن الراوى أنهـا نزلت حينئذ . واستدلّ بها النبى صلى الله عليه وسلم على أن الجهاد أفضل ممـا قال أولئك الذين سمعهم عمر؛ فاستفتى لهم فتلا عليه ما قد كان أنزل عليه، لا أنها نزلت فى هؤلاء . والله أعلم . فإن قيل : فعلى هذا يجوز الاستدلال على المسلمين بما أنزل فى الكافرين، ومعلوم أن أحكامهم مختلفة . قيل له : لا يُستبعد أن يُنتزع مما أنزل الله فى المشركين أحكام تليق بالمسلمين . وقد قال عمر: إنا لو شئنا لاتخذنا سَلَائق (1) وشواء وتُوضع صحفة وتُرفع أخرى، ولكنا سمعنا قول الله تعالى: «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَـا» (2) . وهذه الآية نص فى الكفار، ومع ذلك ففهم منهـا عمرُ الزجر عما يناسب أحوالهم بعض المناسبة، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة . فيمكن أن تكون هذه الآية من هذا النوع . وهذا نفيس و به يزول الإشكال و يرتفع الإبهام، والله أعلم .

---

(1) سلائق : الحملان المشوية و يروى بالصاد .

(2) راجع ج ١٦ ص ١٩٩ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ في موضع رفع بالابتداء . وخبره ﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾ . و « درجةً » نصب على البيان ؛ أى من الذين افتخروا بالسّقى والعمارة . وليس للكافرين درجة عنـد الله حتى يقال : المؤمن أعظم درجة . والمراد أنهـم قدّروا لأنفسهم الدرجة بالعمارة والسّقى ؛ فخاطبهم على ما قدّروه فى أنفسهم وإن كان التقـدير خطأً ؛ كقوله تعـالى : « أَصْحَابُ الْجَنَّـةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا »(١) . وقيـل : « أعظم درجة » من كل ذى درجة ؛ أى لهم المزية والمرتبة العلية . ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ بذلك .

قوله تعـالى : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أى يعلمهم فى الدنيا ما لهم فى الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم المقـيم . والنعيم : لين العيش ورغده . ﴿ خَالِدِينَ ﴾ نصب على الحال . والخـلود الإقامة . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أى أعدّ لهم فى دار كرامته ذلك الثواب .

قوله تعـالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوٓا ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

ظاهر هذه الآية أنهـا خطاب لجميع المؤمنين كافّة ، وهى باقية الحكم إلى يوم القيامة فى قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين . وروَت فرقة أن هذه الآية إنمـا نزلت فى الحضّ على الهجرة ورفض بلاد الكفرة . فالمخاطبة على هذا إنما هى للمؤمنين الذين كانوا بمكة وغيرها

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢١ فـا بعد .

Marfat.com

من بلاد العرب ، خُوطبوا بألّا يوالوا الآباء والإخوة فيكونوا لهم تبعا فى سكنى بلاد الكفر .
﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا﴾ أى أحبُّوا ، كما يقال : استجاب بمعنى أجاب . أى لا تطيعوهم ولا تخصوهم .
وخصَّ الله سبحانه الآباء والإخوة إذ لا قرابة أقرب منهــا . فنفى الموالاة بينهم كما نفاها بين الناس بقوله تعالى : « يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ»[1] ليبيّن أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان . وفى مثله تنشد الصوفية :

يقولون لى دار الأحبّة قد دنتْ * وأنت كئيبٌ إنّ ذا لعجيب
فقلت وما تغــنى ديارٌ قريبــة * إذا لم يكن بين القــلوب قريب
فكم من بعيد الدار نال مُرادَه * وآخرجارُ الجُنْب مات كئيب

ولم يذكر الأبناء فى هذه الآية ؛ إذ الأغلب من البشر أن الأبناء هم التُّبع للآباء . والإحسان والهبة مستثناة من الولاية . قالت أسمــاء : يا رسول الله ، إن أمى قدمت علىّ راغبةً وهى مشركة أفأصلها ؟ قال : " صِلِي أمَّك " خرّجه البخارى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ ﴾ قال ابن عباس : هو مشرك مثلهم ؛ لأن مَن رضى بالشرك فهو مشرك .

قوله تعـالى : قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

لمــا أمر رسولُ الله صلى الله عليــه وسلم بالهجرة من مكة إلى المدينة جعل الرجل يقول لأبيه والأبُ لابنه والأخُ لأخيه والرجل لزوجته : إنا قــد أُمرنا بالهجرة ؛ فمنهم من تسارع

(١) راجع جـ ٦ ص ٢١٦ .

لذلك ، ومنهم من أبى أن يهاجر ، فيقول : والله لئن لم تخرجوا إلى دار الهجرة لا أنفعكم ولا أنفق عليكم شيئا أبدا . ومنهم من تتعلق به امرأته وولده ويقولون له : أنشدك بالله ألا تخرج فنضيع بعدك ؛ فمنهم من يرق فيدع الهجرة ويقيم معهم ؛ فنزلت « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ » . يقول : [إن اختاروا] الإقامة على الكفر بمكة على الإيمان بالله والهجرة إلى المدينة . « وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ » بعد نزول الآية « فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » . ثم نزل فى الذين تخلفوا ولم يهاجروا : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ وهى الجماعة التى ترجع إلى عقد واحد كعقد العشرة فما زاد ؛ ومنه المعاشرة وهى الاجتماع على الشيء . ﴿ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ يقول : اكتسبتموها بمكة . وأصل الاقتراف اقتطاع الشيء من مكانه إلى غيره . ﴿ وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ قال ابن المبارك : هى البنات والأخوات إذا كسدن فى البيت لا يجدن لهن خاطبا . قال الشاعر :

كَسَدْن من الفقـر فى قومهنّ * وقـد زادهنّ مقامى كُسودا

﴿ وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا ﴾ يقول : ومنازل تعجبكم الإقامة فيها . ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ ﴾ من أن تهاجروا إلى الله ورسوله بالمدينـة . « وأحبّ » خبر كان . ويجوز فى غير القرآن رفع « أحب » على الابتداء والخبر ، واسم كان مضمر فيها . وأنشد سيبويه :

إذا مِتُّ كان الناسُ صِنفانِ : شامِتٌ * وآخَرُ مُثْنٍ بالذى كنتُ أصنَع (١)

وأنشـد :

هى الشفاء لدائى لو ظفِرتُ بها * وليس منهـا شفاءُ الداءِ مبذول (٢)

وفى الآية دليـل على وجوب حبّ الله ورسوله ، ولا خلاف فى ذلك بين الأمة ، وأن ذلك مقدّم على كل محبوب . وقـد مضى فى « آل عمران (٣) » معنى محبة الله تعالى ومحبة رسوله . ﴿ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ صيغته صيغة أمر ومعناه التهديد . يقول : انتظروا . ﴿ حَتَّى

---

(١) البيت للعجير السلولى . (٢) البيت لهشام أخى ذى الرمة . (عن كتاب سيبويه) .

(٣) راجع جـ ٤ ص ٥٩ .

Marfat.com

يأتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ يعنى بالقتال وفتح مكة ؛ عن مجاهد. الحسن : بعقوبة آجلة أو عاجلة . وفى قوله : « وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ » دليلٌ على فضل الجهاد، و إيثاره على راحة النفس وعلائقها بالأهل والمـال . وسيأتى فضل الجهاد فى آخر السورة . وقد مضى من أحكام الهجرة فى « النساء » ما فيه كفاية(١)، والحمد لله . وفى الحديث الصحيح " إن الشيطان قَعَد لابن آدم ثلاثَ مقاعد قعـد له فى طريق الإسلام فقـال لِمَ تَذَر دينَـك ودينَ آبائك فخالفه وأسلم وقعد له فى طريق الهجرة فقال له أتذر مالك وأهلك فخالفه وهاجر ثم قعـد فى طريق الجهاد فقال له تجاهد فتُقتل فينُكح أهلك ويُقسم مالك فخالَفه وجاهد فحقّ على الله أن يدخله الجنة ". وأخرجه النَّسائىّ من حديث سَبْرة بن أبى فاكِه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الشيطان ... " فذكره . قال البخارىّ : « ابن الفاكه » ولم يذكر فيه اختلافا . وقال ابن أبى عَدِىّ : يقال ابن الفاكه وابن أبى الفاكه . انتهى .

قوله تعـالى : لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾

فيه ثمـان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ لمـا بلغ هوازنَ فتحُ مكة جمعهم مالك بن عَوف النّصرىّ من بنى نصر بن مالك ، وكانت الرياسة فى جميع العسكر إليه،

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٠٨ ، ٣٥٠

وساق مع الكفار أموالهم ومواشيهم ونساءهم وأولادهم، وزعم أن ذلك يحمى به نفوسهم وتشتد في القتال عند ذلك شوكتهم . وكانوا ثمانية آلاف في قول الحسن ومجاهد . وقيل : أربعة آلاف من هَوَازن وثَقيف . وعلى هوازن مالك بن عوف، وعلى ثَقيف كِنانة بن عبد ، فنزلوا بأَوْطاس[(١)] . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي حَدْرَد الأسلميّ عَيْنًا ، فأتاه وأخبره بما شاهد منهم ، فعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على قصدهم، واستعار من صَفْوان ابن أُميّة بن خلف الجُمَحيّ دروعا . قيل : مائة درع . وقيل : أربعمائة درع . واستسلف من ربيعة المخزوميّ ثلاثين ألفا أو أربعين ألفا ؛ فلما قَدِم قضاه إياها . ثم قال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " بارك الله لك في أهلك ومالك إنما جزاء السّلف الوفاء والحمد " خرّجه ابن ماجة في السّنن . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في اثني عشر ألفا من المسلمين ؛ منهم عشرة آلاف صحبوه من المدينة ، وألفان من مُسْلِمة الفتح وهم الطلقاء إلى من انضاف إليه من الأعراب ؛ من سُليم وبني كِلاب وعَبْس وذُبيان . واستعمل على مكة عتّاب بن أَسِيد . وفي مخرجه هذا رأى جهال الأعراب شجرة خضراء ، وكان لهم في الجاهلية شجرة معروفة تُسَمّى ذاتَ أَنْواط ، يخرج إليها الكفار يوما معلوما في السنة يعظمونها ؛ فقالوا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال عليه السلام : " الله أكبر قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون لتركبنّ سَنَن مَن قبلكم حَذْوَ القُذّة بالقُذّة حتى أنهم لو دخلوا جُحْر ضَبّ لدخلتموه " . فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى وادي حُنين ، وهو من أودية تهامة ، وكانت هوازن قد كَمَنت في جَنَبَتي الوادي وذلك في غَبش الصبح فحملت على المسلمين حملة رجل واحد ، فانهزم جمهور المسلمين ولم يَلْوِ[(٢)] أحد على أحد، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت معه أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته عليّ والعباس وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابنه جعفر ، وأسامة بن زيد ؛ وأَيْمَن بن عبيد — وهو أيمن بن أمّ أيمن قُتل يومئذ بحُنين — وربيعة

---

(١) أوطاس : واد في ديار هوازن ، فيه كانت وقعة حنين .

(٢) أي لم يلتفت ولم يعطف .

Marfat.com

ابن الحارث ، والفضل بن عباس ، وقيل فى موضع جعفر بن أبى سفيان : قُثَم بن العباس . فهؤلاء عشرة رجال ؛ ولهذا قال العباس :

نصرْنا رسولَ الله فى الحرب تسعةً (١) • وقد فـرّ من قد فـرّ عنه وأقشعوا

وعاشرُنا لاقَى الحمام بنفســه • بما مَسّــه فى الله لا يتوجّع

وثبتت أم سُليم فى جملة من ثبت ، مُحْتزِمةً ممسكةً بعيرا لأبى طلحة وفى يدها خَنْجر . ولم ينهزم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من هؤلاء ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته الشّهباء واسمها دُلْدُل . وفى صحيح مسلم عن أنس قال عباس (٢) : وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أَكُفُّها إرادةَ ألّا تسرع ، وأبو سفيان آخذ بركاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أىْ عباسُ نادِ أصحابَ السَّمُرة (٣)" . فقال عباس — وكان رجلا صَيِّتا . ويروى من شدّة صوته أنه أغير يوما على مكة فنادى واصباحاه ! فأسقطت كلُّ حامل سمعت صوته جَنِينَها — : فقلت بأعلى صوتى : أين أصحاب السَّمُرة ؟ قال : فوالله لكأنّ عَطْفتهم حين سمعوا صـوتى عَطْفَةُ البقر على أولادها . فقالوا : يا لَبَّيْكَ يا لبيك . قال : فاقتتلوا والكفار ... الحديث . وفيـه : « قال ثم أخذ رسـول الله صلى الله عليه وسـلم حَصَياتٍ فرمَى بهنّ وجوه الكفار » . ثم قال : "انهزَموا وربِّ محمد" . قال فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى . قال : فوالله ما هو إلا أن رماهم بحَصَـياته ؛ فمـا زلت أرى حَدَّهم كَلِيلا وأمْرَهم مُدْبِرا . قال أبو عمر : رَوينـا من وجوه عن بعض من أسلم من المشركين ممن شهد حُنينا أنه قال — وقد سئل عن يوم حُنين — : لقينا المسلمين فمـا لبثنا أن هزمناهم وأتبعناهم حتى أتهينا إلى رجل راكب على بغلة بيضاء ، فلما رآنا زجرنا زجرة وانتهرنا ، وأخذ بكفه حَصًى (٤) وترابا فرمَى به وقال : "شَاهَتِ الوجوهُ" فـلم تبق عين إلا دخلها من ذلك ، وما ملكْنا أنفسنا أن رجعنا على أعقابنا . وقال سعيد بن جُبير : حدّثنا

(١) فى الأصول : «منهم» والتصويب عن المواهب اللدنية .

(٢) فى ا ، جـ ، حـ ، ل ، هـ ، ز . قال ابن عباس : والصـواب ما أثبتناه من ك ، ب ، ى .

(٣) أى أصحاب الشجرة المسماة بالسمرة ، وهى الشجرة التى كانت عندها بيعة الرضوان عام الحديبية .

(٤) فى ب و جـ : أو ترابا .

Marfat.com

رجل من المشركين ، يوم حُنين قال : لما التقينا مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقفوا لنا حَلْب شاة، حتى إذا انتهينا إلى صاحب البغلة الشّهباء — يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم — تَلَقّانا رجال بيض الوجوه حِسان ؛ فقالوا لنا : شاهت الوجوه ، ارجعوا ؛ فرجعنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها . يعنى الملائكة .

قلت : ولا تعارض ؛ فإنه يحتمل أن يكون شاهت الوجوه من قوله صلى الله عليه وسلم ومن قول الملائكة معًا ، ويدلّ على أن الملائكة قاتلت يوم حنين . والله أعلم . وقتل علىّ رضى الله عنه يوم حنين أربعين رجلا بيده . وسَبَى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة آلاف رأس . وقيل : ستة آلاف ، واثنتى عشرة ألف ناقة سوى ما لا يعلم من الغنائم .

الثانيـــة — قال العلماء فى هذه الغَزاة : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "من قتل قتيلا له عليه بيّنة فله سَـلَبه" . وقد مضى فى « الأنفال »(١) بيانه . قال ابن العربىّ : ولهذه النكتة وغيرها أدخل الأحكاميُّون هذه الآيةَ فى الأحكام .

قلت : وفيه أيضا جواز استعارة السلاح وجواز الاستمتاع بما استُعير إذا كان على المعهود مما يستعار له مثله ، وجواز استلاف الإمام المالَ عند الحاجة إلى ذلك ورده إلى صاحبه . وحديث صَفْوان أصلٌ فى هـذا الباب . وفى هـذه الغَزاة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم "ألا تُوطأ حامل حتى تَضع ولا حائل حتى تحيض حيضة". وهو يدلّ على أن السَّبْىَ يقطع العِصمة . وقد مضى بيانه فى سورة « النساء » مستوفًى(٢) . وفى حديث مالك أن صفوان خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كافر، فشهد حُنينا والطائف وآمرأتُه مسلمة . الحديث . قال مالك : ولم يكن ذلك بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أرى أن يُستعان بالمشركين على المشركين إلا أن يكونوا خَدَمًا أو نَواتيّة . وقال أبو حنيفة والشافعىّ والثورىّ والأوزاعىّ :

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٦٣ .
(٢) راجع جـ ٥ ص ١٢١ .

Marfat.com

لا بأس بذلك إذا كان حكم الإسـلام هو الغالب ، و إنمـا تكره الاستعانة بهم إذا كان حكم الشرك هو الظاهر . وقد مضى القول فى الإسهام لهم فى « الأنفال »[١] .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ « حُنين » وادٍ بين مكة والطائف ، وٱنصرف لأنه ٱسم مذكّر ، وهى لغة القرآن . ومن العرب من لا يصرفه ، يجعله ٱسما للبُقْعة . وأنشد :

نصرُوا نَبِيَّهـم وشدّوا أزره * بحُنينَ يوم تواكُلِ الأبطال[٢]

« و يوم » ظرف ، وانتصب هنا على معنى : ونصركم يوم حنين . وقال الفرّاء : لم تنصرف « مواطن » لأنه ليس لهـا نظير فى المفرد وليس لهـا جماع ؛ إلا أن الشاعر ربمـا اضطر لجمع ، وليس يجوز فى الكلام كما يجوز فى الشعر . وأنشد :

* فهنّ يَعْلُكْنَ حَدائداتها *

وقال النحاس : رأيت أبا إسحاق يتعجب من هـذا قال : أخذ قول الخليـل وأخطأ فيه ؛ لأن الخليل يقول فيـه : لم ينصرف لأنه جَمْعٌ لا نظير له فى الواحد ، ولا يجمع جمع التكسير ، وأما بالألف والتاء فلا يمتنع .

الرابعـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ قيـل : كانوا اثنى عشر ألفا . وقيل : أحد عشر ألفا وخمسمائة . وقيل : ستة عشر ألفا . فقال بعضهم : لن نُغلب اليوم عن قِلّة . فَوُكِلُوا إلى هذه الكلمة ؛ فكان ما ذكرناه من الهزيمة فى الابتداء إلى أن تراجعوا ، فكان النصر والظفر للسلمين ببركة سـيد المرسلين صلى الله عليه وسـلم . فبيّن الله عز وجل فى هـذه الآية أن الغلبة إنمـا تكون بنصر الله لا بالكثرة . وقد قال : « وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ »[٣] .

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أى من الخوف ؛ كما قال :

كأنّ بلادَ الله وهى عريضـةٌ * على الخائف المطلوب كِفّةُ حابِلِ[٤]

---

(١) راجع المسألة الموفية العشرين ص ١٨ من هذا الجزء . (٢) البيت لحسان بن ثابت .

(٣) راجع جـ ٤ ص ٢٥٣ فـا بعد (٤) الكفة (بالكسر) : حبالة الصائد . والحابل : الذى ينصب الحبالة .

Marfat.com

والرُّحب (بضم الراء) السَّـعة . تقول منه : فلان رُحْب الصدر . والرحب (بالفتح) : الواســع . تقول منه : بلد رَحْب ، وأرض رَحْبـة . وقد رَحُبت تَرحُب رُحبـا ورَحابة . وقيل : البـاء بمعنى مع ؛ أى مع رحبها . وقيل : بمعنى على ، أى على رحبها . وقيل : المعنى برحبها ؛ فـ « ـما » مصدرية .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾ روى مسلم عن أبى إسحـاق قال : جاء رجل إلى البراء فقال : أكنتم ولّيتم يوم حُنين يا أبا عُمارة . فقـال : أشهد على نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ما وَلّى ، ولكنه ٱنطلق أَخِفَّاءُ[1] من الناس ، وحُسَّرٌ إلى هـذا الحيّ من هوازن . وهم قوم رُماة فرمَوْهم بِرِشْق من نَبْل كأنها رِجْل من جراد فانكشفوا ؛ فأقبل القوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو سفيان يقود به بغلته ، فنزل ودعا وٱستنصر وهو يقول : " أنا النبيّ لا كذب . أنا ابن عبد المطلب . اللَّهمّ نزّل نصرك " . قال البراء : كنا والله إذا ٱحمرّ البأس نتّقِي به ، و إن الشجاع منا للّذى يُحاذِى به ؛ يعنى النبيّ صلى الله عليه وسلم .

السابعــــة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى أنزل عليهم ما يُسكنهم و يذهب خوفهم ، حتى اجترءوا على قتال المشركين بعد أن ولّوا . ﴿ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ وهم الملائكة ؛ يقوّون المؤمنين بما يلقون فى قلوبهم من الخواطر والتثبيت ، ويُضعفون الكافرين بالتّجبِين لهم من حيث لا يرونهم ومن غير قتال ؛ لأن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بَدْر . ورُوى أن رجلا من بنى نصر قال للمؤمنين بعد القتـال : أين الخيـل البُلْق ، والرجالُ الذين كانوا عليها بيض ، ما كنا فيهم إلا كهيئة الشّامَة ، وما كان قتلنا إلا بأيديهم . أخبروا النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : " تلك الملائكة " . ﴿ وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

---

(١) أخفاء : جمع خفيف كطبيب وأطباء . وأراد بهم المتعجلين . والحسر : جمع حاسر ؛ كساجد وسجـد . وهو من لادرع له ولا مغفر . أى ليس عليهم سلاح . والرشق (بالكسر) : ٱسم للسهام التى ترميها الجماعة دفعة واحدة . والرجل (بالكسر) : القطعة . وقوله « احمرّ البأس » أى اشـتدّ الحرب . (راجع شرح النووى على صحيح مسـلم كتاب المغازى) .

Marfat.com

أى بأسيافكم. ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أى على من انهزم فيهديه إلى الإسلام . كمالك بن عوف النَّصْرِى رئيس حُنين ومن أسلم معه من قومه .

الثامنـــة — ولمـا قسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائمَ حُنين بالجِعْرانة (١) ، أتاه وفد هوازن مسلمين راغبين فى العطف عليهم والإحسان إليهـم ، وقالوا : يا رسول الله ، إنك خير الناس وأبر الناس ، وقد أخذت أبناءنا ونساءنا وأموالنا . فقال لهم : "إنى قد كنت آستأنيت بكم وقد وقعت المقاسم وعندى من ترون و إنّ خير القول أصدقُه فاختاروا إما ذراريكم و إما أموالكم" . فقالوا : لا نعدل بالأنساب شيئا . فقام خطيبا وقال : " هؤلاء جاءونا مسلمين وقد خيرناهم فلم يعدلوا بالأنساب فرضوا بردّ الذرّية وما كان لى ولبنى عبد المطلب و بنى هاشم فهو لهم " . وقال المهاجرون والأنصار : أمّا ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وآمتنع الأقرع بن حابس وعُيينـة بن حِصْن فى قومهما من أن يردّوا عليهم شيئا ممـا وقع لهم فى سهامهم . وآمتنع العباس بن مِرْدَاس السُّلَمِى كذلك ، وطمِـع أن يساعده قومُه كما ساعد الأقرعَ وعُيينةَ قومُهما . فأبت بنو سُليم وقالوا : بل ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ ضَنّ منكم بما فى يديه فإنا نعوّضه منه " . فردّ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءهم وأولادهم ، وعوّض من لم تَطِب نفسُه بترك نصيبه أعواضا رضوا بها . وقال قتادة : ذكر لنا أن ظِئْر النبىّ صلى الله عليه وسلم التى أرضعته من بنى سعد ، أتته يوم حنين فسألته سَبَايا حُنين . فقال صلى الله عليه وسلم : "إنى لا أملك إلا ما يصيبنى منهم ولكـن ايتينى غدًا فآسألينى والناس عندى فإذا أعطيتك حصتى أعطاك الناس " . فجاءت الغد فبسط لها ثو به فأقعدها عليه . ثم سألته فأعطاها نصيبه ؛ فلمـا رأى ذلك الناس أعطَوْها أنصباءهم . وكان عدد سَبْى هوزان فى قول سعيد بن المسيّب ستة آلاف رأس . وقيل : أربعة آلاف . قال أبو عمر : فيهن الشَّيماء أخت النبىّ صـلى الله عليه وسلم من الرّضاعة ، وهى بنت الحـارث بن عبـد العُزّى من بنى سـعد بن بكر [و بنت] حليمة السعدية ؛ فأكرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاها وأحسن إليها ، ورجعت مسرورة

(١) الجعرانة : موضع على سبعة أميال من مكة إلى الطائف .

إلى بلادها بدينها و بما أفاء الله عليها . قال آبن عباس : رأى رسول الله صلى الله عليـه وسلم يوم أوطاس آمرأة تعدو وتصيح ولا تستقر، فسأل عنها فقيل : فقدت بُنَيًّا لها . ثم رآها وقد وجدت آبنها وهى تقبله وتدنيه، فدعاها وقال لأصحابه : " أطارحة هذه ولدها فى النار "؟ قالوا : لا . قال : "لِمَ" ؟ قالوا : لشفقتها . قال : "الله أرحم بكم منها" . وخرّجه مسلم بمعناه، والحمد لله .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ ابتداء وخبر . واختلف العلماء فى معنى وصف المشرك بالنّجس ؛ فقال قَتادة ومَعْمر بن راشد وغيرهما : لأنه جُنُب ؛ إذ غسله من الجنابة ليس بغسـل . وقال ابن عباس وغيره : بل معنى الشرك هو الذى نجسـه . قال الحسن البصرىّ من صافح مشركا فليتوضأ . والمـذهب كله على إيجاب الغسل على الكافر إذا أسـلم ؛ إلا آبن عبد الحكم فإنه قال : ليس بواجب ؛ لأن الإسلام يهدم ما كان قبله . و بوجوب الغسل عليه قال أبو ثور وأحمد . وأسقطه الشافعىّ وقال : أحبّ إلىّ أن يغتسل . ونحوه لابن القاسم . ولمـالك قول : إنه لا يعرف الغسل؛ رواه عنه ابن وهب وابن أبى أويس . وحديث ثمـامة وقيس بن عاصم يردّ هذه الأقوال . رواهما أبو حاتم البستىّ فى صحيح مسنده . وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم مرّ بثُمامة يوما فأسلم، فبعث به إلى حائط (١) أبى طلحة فأمره أن يغتسل، فاغتسل وصلّى ركعتين . فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد حَسُن إسلامُ صاحبكم " وأخرجه مسلم بمعناه . وفيه : أن ثمامة

(١) الحائط : البستان .

Marfat.com

لما منّ عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم انطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل . وأمر قيس ابن عاصم أن يغتسل بماء وسدر . فإن كان إسلامه قُبيل احتلامه فغسله مستحب . ومتى أسلم بعد بلوغه لزمه أن ينوى بغسله الجنابة . هذا قول علمائنا ، وهو تحصيل المذهب . وقد أجاز ابن القاسم للكافر أن يغتسل قبل إظهاره للشهادة بلسانه ، إذا اعتقد الإسلام بقلبه ؛ وهو قول ضعيف فى النظر مخالف للأثر . وذلك أن أحدا لا يكون بالنيّة مسلما دون القول. هذا قول جماعة أهل السنة فى الإيمان : إنه قول باللسان وتصديق بالقلب ، ويزكو بالعمل . قال الله تعالى : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ »(١) .

ايمان

الثانية — قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ «فَلَا يَقْرَبُوا» نهى ؛ ولذلك حذفت منه النون . «المسجد الحرام» هذا اللفظ يطلق على جميع الحرَم ، وهو مذهب عطاء ؛ فإذًا يحرُم تمكين المشرك من دخول الحَرَم أجمع . فإذا جاءنا رسول منهم خرج الإمام إلى الحِل ليسمع ما يقول . ولو دخل مشرك الحَرَم مستورا ومات نُبش قبره وأخرجت عظامه . فليس لهم الآستيطان ولا الآجتياز . وأما جزيرة العرب ، وهى مكة والمدينة واليمامة واليمن ومخاليفها(٢) ، فقال مالك : يخرج من هذه المواضع كلّ من كان على غير الإسلام ، ولا يمنعون من التردد بها مسافرين . وكذلك قال الشافعيّ رحمه الله ؛ غير أنه آستثنى من ذلك اليمَن . ويُضرب لهم أجل ثلاثة أيام كما ضربه لهم عمر رضى الله عنه حين أجلاهم . ولا يدفنون فيها ويلجئون إلى الحل .

جزيرة العرب

الثالثة — واختلف العلماء فى دخول الكفار المساجد والمسجد الحرام على خمسة أقوال ؛ فقال أهل المدينة : الآية عامّة فى سائر المشركين وسائر المساجد . وبذلك كتب عمر ابن عبد العزيز إلى عمّاله ونزع فى كتابه بهذه الآية . ويؤيّد ذلك قوله تعالى : « فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ »(٣) . ودخول الكفار فيها مناقض لترفيعها . وفى صحيح مسلم وغيره : "إن هذه المساجد لا تصلح لشىء من البول والقذر" . الحديث . والكافر لا يخلو عن

مذهب اہل مدینہ

(١) راجع ج ١٤ ص ٣٢٨ .
(٢) مخاليف جمع مخلاف ، وهى قرى اليمن .
(٣) راجع ج ١٢ ص ٢٦٤ .

Marfat.com

ذلك . وقال صلى الله عليه وسلم : " لا أحلّ المسجد لحائض ولا لجُنُب " والكافر جُنُب . وقوله تعـالى : « إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ » فسمّاه الله تعـالى نجسا . فلا يخلو أن يكون نجس العين أو مبعدا من طريق الحكم . وأيّ ذلك كان فمنعه من المسجد واجب؛ لأن العلة وهي النجاسة موجودة فيهم، والحرمة موجودة في المسجد . يقال : رجل نَجَس، وآمرأة نَجَس، ورجلان نَجَس ، وآمرأتان نَجَس ، ورجال نَجَس ، ونساء نَجَس ؛ لا يُثَنَّى ولا يُجمع لأنه مصدر . فأما النِّجْس (بكسر النون وجزم الجيم) فلا يقال إلا إذا قيل معه رِجْس . فإذا أفرد قيل نَجِس (بفتح النون وكسر الجيم) ونَجُس (بضم الجيم) . وقال الشافعي رحمه الله : الآية عامةٌ في سائر المشركين، خاصةٌ في المسجد الحرام، ولا يمنعون من دخول غيره ؛ فأباح دخول اليهودي والنصراني في سائر المساجد . قال ابن العربي : وهذا جمود منه على الظاهر؛ لأن قوله عز وجل : « إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ » تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة . فإن قيل : فقد ربط النبي صلى الله عليه وسلم ثُمَـامة في المسجد وهو مشرك . قيل له : أجاب علماؤنا عن هذا الحديث — وإن كان صحيحا — بأجوبة : أحدها — أنه كان متقدّما على نزول الآية .

الثـاني — أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد علم بإسلامه فلذلك ربطه .

الثـالث — أن ذلك قضيّة في عَيْن فلا ينبغي أن تُدفع بها الأدلة التي ذكرناها ؛ لكونها مقيِّدة حكم القاعدة الكلية . وقد يمكن أن يقال : إنمـا ربطه في المسجد لينظر حُسْن صلاة المسلمين وآجتماعهم عليها ، وحسنَ آدابهم في جلوسهم في المسجد؛ فيستأنس بذلك ويُسلم ؛ وكذلك كان . ويمكن أن يقال : إنهم لم يكن لهم موضع يربطونه فيه إلا في المسجد ، والله أعلم . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا يُمنع اليهود والنصارى من دخول المسجد الحـرام ولا غيره ، ولا يُمنع دخول المسجد الحرام إلا المشركون وأهل الأوثان . وهذا قول يردّه كل ماذكرناه من الآية وغيرها . قال الكِيَا الطبري : ويجـوز للذمي دخول سـائر المساجد عند أبي حنيفة من غير حاجة . وقال الشافعي : تعتبر الحاجة، ومع الحاجة لا يجوز دخول المسجد الحرام . وقال عطاء بن أبي رَباح : الحَـرَم كله قِبلةٌ ومسجدٌ، فينبغي أن يمنعوا من دخول

الحَرَم؛ لقوله تعالى : « سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » (١) . و إنما رفع من بيت أم هانئ . وقال قتادة : لا يقرب المسجد الحرام مشرك؛ إلا أن يكون صاحب جزية ، أو عبدا كافرا لمسلم . وروى إسماعيل بن إسحاق حدثنا يحيى بن عبد الحميد قال حدثنا شُريك عن أشعث عن الحسن عن جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا يقرب المسجد مشرك إلا أن يكون عبدا أو أَمَة فيدخله لحاجة " . وبهذا قال جابر بن عبد الله؛ فإنه قال : العموم يمنع المشرك عن قربان المسجد الحرام ، وهو مخصوص فى العبد والأمة .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ فيه قولان : أحدهما — أنه سنة تسع التى حجّ فيها أبو بكر . الثانى — سنة عشر؛ قاله قتادة . آبن العربيّ : « وهو الصحيح الذى يعطيه مقتضى اللفظ ، و إن من العجب أن يقال : إنه سنة تسع ، وهو العامُ الذى وقع فيه الأذان . ولو دخل غلامُ رجلٍ داره يوما فقال له مولاه : لا تدخل هذه الدار بعد يومك ، لم يكن المراد اليوم الذى دخل فيه » .

الخامســة — قوله تعــالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ قال عمــرو بن فائد : المعنى و إذ خفتم . وهذه عُجمة ، والمعنى بارع بـ « إن » . وكان المسلمون لمــا منعوا المشركين من الموسم ، وهم كانوا يجلبون الأطعمة والتجارات ، قذف الشيطان فى قلوبهم الخوف من الفقر وقالوا : من أين نعيش . فوعدهم الله أن يغنيهم من فضله . قال الضحاك : ففتح الله عليهم باب الجـزية من أهل الذمة بقـوله عز وجل : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ » الآية . وقال عِكْرِمة : أغناهم الله بإدرار المطر والنبات وخصب الأرض . فأخصبت تَبالة (٢) وجُرَش ، وحملوا إلى مكة الطعام والوَدَك (٣) وكثر الخير . وأسلمت العرب : أهل نجد وصنعاء وغيرهم ؛ فتمادى حجهم وتَجْرهم . وأغنى الله من فضلـه بالجهاد والظهور على الأمم . والعَيْلة : الفقر . يقال : عال الرجل يعيل إذا افتقر (٤) . قال الشاعر :

وما يَدرِى الفقــير متى غِنَـاه * وما يدرى الغنىّ متى يَعيـلُ

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٤ . (٢) تبالة : بلد باليمن خصبة . وجرش كزفر من مخاليف اليمن .
(٣) الودك : هو دسم اللحم ودهنه الذى يستخرج منه . (٤) هو أجيحة ؛ كما فى اللسان .

Marfat.com

وقرأ علقمة وغيره من أصحاب ابن مسعود « عائلة » وهو مصدر ؛ كالقائلة من قال يقيل . وكالعافية . ويحتمل أن يكون نعتا لمحذوف تقديره : حالا عائلة ، ومعناه خصلة شاقة . يقال منه : عالنى الأمر يَعُولنى : أى شقّ علىّ وٱشتد . وحكى الطّبرى أنه يقال : عال يعول إذا افتقر .

اسباب الرزق اور توکل

السادسة — فى هذه الآية دليل على أن تعلق القلب بالأسباب فى الرزق جائز وليس ذلك بمنافٍ للتوكل ؛ وإن كان الرزق مقدّرا ، وأمر الله وقسمه مفعولا ، ولكنه علّقه بالأسباب حكمةً ؛ ليعلم القلوبَ التى تتعلّق بالأسباب من القلوب التى تتوكل على رب الأرباب . وقد تقدم أن السبب لا ينافى التوكل . قال صلى الله عليه وسلم : " لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تَغْدُو خِمَاصًا وتروح بِطانا (١) " . أخرجه البخارىّ . فأخبر أن التوكل الحقيقىّ لا يضادّه الغدو والرواح فى طلب الرزق . ابن العربى : « ولكن شيوخ الصوفية قالوا : إنما يغدو ويروح فى الطاعات ؛ فهو [السبب] (٢) الذى يجلب الرزق » . قالوا : والدليل عليه أمران : أحدهما — قوله تعالى : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ (٣) » . الثانى — قوله تعالى : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ (٤) » . فليس يُنزل الرزقَ من محله وهو السماء ، إلا ما يصعد وهو الذكر الطيب والعمل الصالح ، وليس بالسعى فى الأرض ؛ فإنه ليس فيها رزق . والصحيح ما أحكمته السنة عند فقهاء الظاهر ، وهو العمل بالأسباب الدنيوية ؛ من الحرث والتجارة فى الأسواق ، والعمارة للأموال وغرس الثمار . وقد كانت الصحابة تفعل ذلك والنبىّ صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم . قال أبو الحسن بن بَطّال : أمر الله سبحانه عباده بالإنفاق من طيبات ما كسبوا ، إلى غير ذلك من الآى . وقال : « فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ (٥) » . فأحل للمضطر

(١) الخمص والمخمصة : الجوع . والبطنة : امتلاء البطن من الطعام . أى تغدو بكرة وهى جياع ، وتروح عشية وهى ممتلئة الأجواف . (٢) زيادة عن ابن العربى . (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٦٣ .
(٤) راجع ص ١٠٤ من هذا الجزء . (٥) راجع جـ ٢ ص ٢١٦ .

Marfat.com

ما كان حُرِّم عليه عند عدمه للغذاء الذى أمره باكتسابه والاغتذاء به، ولم يأمره بانتظار طعام ينزل عليه من السماء، ولو ترك السعى فى ترك ما يتغذّى به لكان لنفسه قاتلا . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوى من الجوع ما يجد ما يأكله، ولم ينزل عليه طعام من السماء، وكان يدّخر لأهله قوت سنته حتى فتح الله عليه الفتوح . وقد روى أنس بن مالك أن رجلا أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم ببعير فقال : يارسول الله ، أعقله وأتوكّل أو أطلقه وأتوكّل ؟ قال : " اعقله وتوكّل " .

قلت : ولا حجة لهم فى أهل الصُّفَّة؛ فإنهم كانوا فقراء يقعدون فى المسجد ما يحرثون ولا يتّجرون، ليس لهم كسب ولا مال، إنما هم أضياف الإسلام عند ضيق البلدان، ومع ذلك فإنهم كانوا يحتطبون بالنهار و يسوقون الماء إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، و يقرءون القرآن بالليل و يصلّون . هكذا وصفهم البخارى وغيره . فكانوا يتسبّبون . وكان صلى الله عليه وسلم إذا جاءته هدية أكلها معهم ، وإن كانت صدقة خصّهم بها؛ فلما كثر الفتح وانتشر الإسلام خرجوا وتأمّروا — كأبى هريرة وغيره — وما قعدوا . ثم قيل : الأسباب التى يُطلب بها الرزق ستة أنواع : أسباب الرزق

أعلاها كسب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ قال : " جعل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذلة والصَّغار على من خالف أمرى " . خرّجه الترمذىّ وصححه . فجعل الله رزق نبيّه صلى الله عليه وسلم فى كسبه لفضله ، وخصّه بأفضل أنواع الكسب؛ وهو أخذ الغلبة والقهر لشرفه .

الثانى — أكل الرجل من عمل يده؛ قال صلى الله عليه وسلم : " إنّ أطيب ما أكل الرجل من عمل يده و إن نبيّ الله داود كان يأكل من عمل يده " خرّجه البخارى . وفى التنزيل « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ »(١) ، ورُوى أن عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل أمه .

الثالث — التجارة ، وهى كانت عمل جُلّ الصحابة رضوان الله عليهم ، وخاصّة المهاجرين؛ وقد دلّ عليها التنزيل فى غير موضع .

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٢٠ .

Marfat.com

الرابـــع — الحرث والغرس . وقد بيناه فى سورة « البقرة » (١) .

الخامس — إقراء القرآن وتعليمه والرُّقْيَة ، وقد مضى فى الفاتحة (٢) .

السادس — يأخذ بنيّـة الأداء إذا ٱحتاج؛ قال صلى الله عليه وسلم : " من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله " . خرّجه البخاريّ . رواه أبو هريرة رضى الله عنه .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ إِنْ شَاءَ ﴾ دليل على أن الرزق ليس بالآجتهاد ، وإنمـا هو من فضل الله تولّى قسمته بين عبـاده ؛ وذلك بيّنٌ فى قوله تعـالى : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَـا (٣) » الآية .

قوله تعـالى : قَـٰتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

فيه خمس عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ لمـا حرّم الله تعالى على الكفار أن يقربوا المسجد الحرام ، وجد المسلمون فى أنفسهم بمـا قُطع عنهـم من التجارة التى كان المشركون يوافون بهـا ؛ قال الله عز وجل : « وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً » الآية . على ما تقدّم . ثم أحلّ فى هــذه الآية الجِزْية وكانت لم تؤخذ قبل ذلك ؛ فجعلها عوضا ممـا منعهم من موافاة المشركين بتجارتهم . فقــال الله عز وجل : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ » الآية . فأمر سبحانه وتعـالى بمقاتلة جميع الكفار لإصفاقهم (٤) على هــذا الوصف ، وخص أهل الكتاب بالذكر إكراما لكتابهم ، ولكونهم عالمين بالتوحيد والرسل

---

(١) راجع جـ ٣ ص ١٧ . (٢) راجع جـ ١ ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٣) راجع جـ ١٦ ص ٨٢ . (٤) أصفق القوم على أمر واحد : أجمعوا عليه .

Marfat.com

والشرائع والملل، وخصوصا ذكر محمد صلى الله عليه وسلم وملّته وأمّته . فلما أنكروه تأكدت عليهم الحجة وعظُمت منهم الجريمة؛ فنبّه على محلهم ثم جعل للقتال غاية، وهى إعطاء الجزية بدلًا عن القتل . وهو الصحيح . قال ابن العربيّ : سمعت أبا الوفاء عليّ بن عقيل فى مجلس النظر يتلوها ويحتجّ بها . فقال : « قَاتِلُوا » وذلك أمر بالعقوبة . ثم قال : « الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » وذلك بيان للذنب الذى أوجب العقوبة ؛ وقوله : « وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ » تأكيد للذنب فى جانب الاعتقاد . ثم قال : ﴿ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ زيادة للذنب فى مخالفة الأعمال . ثم قال : ﴿ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ ﴾ إشارة إلى تأكيد المعصية بالآنحراف والمعاندة والأنفة عن الآستسلام . ثم قال : ﴿ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ تأكيد للحجة؛ لأنهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل . ثم قال : ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ ﴾ فبيّن الغاية التى تمتدّ إليها العقوبة ، وعيّن البدل الذى ترتفع به .

الثانيـــة — وقد آختلف العلماء فيمن تؤخذ منـه الجزية ؛ قال الشافعيّ رحمه الله : لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب خاصّةً، عربا كانوا أو عجما لهذه الآية ؛ فإنهم هم الذين خُصّوا بالذكر فتوجّه الحكم إليهم دون من سواهم؛ لقوله عز وجل : « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »[1] . ولم يقل : حتى يعطوا الجزية كما قال فى أهل الكتاب . وقال : وتقبل من المَجُوس بالسُّنّة[2]، وبه قال أحمد وأبو ثَوْر . وهو مذهب الثَّوريّ وأبى حنيفة وأصحابه . وقال الأوْزاعيّ : تؤخذ الجزية من كل عابد وَثَن أو نار أو جاحد أو مكذّب . وكذلك مذهب مالك ؛ فإنه رأى أن الجزية تؤخذ من جميع أجناس الشرك والجحد، عربيا أو عجميا، تَغْلَبِيًّا أو قرشيا، كائنا من كان؛ إلا المرتدّ . وقال ابن القاسم وأشهب وسُحنون : تؤخذ الجزية من مجوس العرب والأمم كلها . وأما عَبَدة الأوثان من العرب فلم يستنّ الله فيهم جزية ، ولا يبقى على الأرض منهم أحد، وإنما لهم القتال أو الإسلام . ويوجد لابن القاسم : أن الجزية تؤخذ منهم؛ كما يقول مالك . وذلك فى التفريع لآبن الجلّاب ، وهو آحتمال لا نصّ . وقال ابن وهب :

---

(١) راجع ص ٧٢ من هذا الجزء. (٢) لقوله عليه الصلاة والسلام : "سنوا بهم سنة أهل الكتاب".

Marfat.com

لا تقبل الجزية من مجوس العرب وتقبل من غيرهم . قال : لأنه ليس فى العرب مجوسىّ إلا وجميعهم أسلم، فمن وُجد منهم بخلاف الإسلام فهو مرتد، يقتل بكل حال إن لم يسلم، ولا تقبل منهم جزية . وقال ابن الجَهْم : تقبل الجزية من كل مَن دان بغير الإسلام؛ إلا ما أجمع عليه من كفار قريش . وذكر فى تعليل ذلك أنه إكرام لهم عن الذلة والصغار، لمكانهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال غيره : إنما ذلك لأن جميعهم أسلم يوم فتح مكة . والله أعلم .

الثالثة — وأما المجوس فقال ابن المنذر : لا أعلم خلافا أن الجزية تؤخذ منهم . وفى الموطّأ : مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر أمر المجوس فقال : ما أدرى كيف أصنع فى أمرهم . فقال عبد الرحمن بن عَوف : أشهدُ لسمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "سُنُّوا بهم سُنّة أهل الكتاب" . قال أبو عمر : يعنى فى الجزية خاصّة . وفى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سُنّوا بهم سنة أهل الكتاب" دليل على أنهم ليسوا أهل كتاب . وعلى هذا جمهور الفقهاء . وقد رُوى عن الشافعىّ أنهم كانوا أهل كتاب فبدّلوا . وأظنه ذهب فى ذلك إلى شىء رُوى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه من وجه فيه ضعف، يدور على أبى سعيد البَقّال؛ ذكره عبد الرزاق وغيره . قال ابن عطية : وروى أنه قد كان بُعث فى المجوس نبىّ اسمه زرادشت . والله أعلم .

الرابعة — لم يذكر الله سبحانه وتعالى فى كتابه مقدارا للجزية المأخوذة منهم . وقد اختلف العلماء فى مقدار الجزية المأخوذة منهم؛ فقال عطاء بن أبى رَباح : لا توقيت فيها، وإنما هو على ما صُولحوا عليه . وكذلك قال يحيى بن آدم وأبو عبيد والطبرىّ؛ إلا أن الطبرى قال : أقلّه دينار وأكثره لا حدّ له . واحتجوا بما رواه أهل الصحيح عن عمرو بن عوف : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح أهل البَحْرَيْن على الجزية . وقال الشافعىّ : دينار على الغنى والفقير من الأحرار البالغين لا يُنقص منه شىء؛ واحتج بما رواه أبو داود وغيره عن معاذ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه إلى اليمن، وأمره أن يأخذ من كل حالم

Marfat.com

دينارا فى الجزية . قال الشافعىّ : وهو المبيّن عن الله تعالى مراده . وهو قول أبى ثَور . قال الشافعىّ : وإن صُولحوا على أكثر من دينـار جاز ، وإن زادوا وطابت بذلك أنفسهم قُبل منهم . وإن صولحوا على ضيافة ثلاثة أيام جاز ، إذا كانت الضيافة معلومة فى الخبز والشعير والتّبن[(١)] والإدام ، وذَكر ما على الوسط من ذلك وما على المُوسر ، وذكر موضع النزول والكِنّ من البرد والحَرّ . وقال مالك فيما رواه عنه ابن القاسم وأشهب ومحمد بن الحارث بن زَنْجَويه : إنها أربعة دنانير على أهل الذهب وأربعون درهما على أهل الورِق ، الغنى والفقير سواء ولو كان مجوسيا . لا يزاد ولا يُنقص على ما فرض عمر ، لا يؤخذ منهم غيره . وقد قيل : إنّ الضعيف يُخَفَّف عنـه بقدر ما يراه الإمام . وقال ابن القاسم : لا يُنقص من فرض عمر لعسر ولا يزاد عليه لغنًى . قال أبو عمر : و يؤخذ من فقرائهم بقدر ما يحتملون ولو درهما . وإلى هذا رجع مالك . وقال أبو حنيفة وأصحابه ومحمد بن الحسن وأحمـد بن حنبل : اثنـا عشر ، وأربعة وعشرون ، وأربعون . قال الثّورىّ : جاء عن عمـر بن الخطاب فى ذلك ضرائب مختلفة ، فللوالى أن يأخذ بأيها شاء ، إذا كانوا أهل ذِمّة . وأما أهل الصلح فـما صُولحوا عليه لا غير .

الخامســة ــ قال علماؤنا رحمة الله عليهم : والذى دلّ عليـه القرآن أن الجزية تؤخذ من الرجال المقاتلين ؛ لأنه تعالى قال : « قَاتِلُوا الَّذِينَ » إلى قوله ــ « حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ » فيقتضى ذلك وجوبها على من يقاتل . و يدلّ على أنه ليس على العبد و إن كان مقاتلا ؛ لأنه لا مال له ، ولأنه تعالى قال : « حَتَّى يُعْطُوا » . ولا يقال لمن لا يملك حتى يُعطى . وهذا إجماع من العلماء على أن الجزية إنمـا توضع على جماجم الرجال الأحرار البالغين ، وهم الذين يقاتلون دون النساء والذرّية والعبيد والمجانين المغلوبين على عقولهم والشيخ الفانى . واختُلف فى الرهبان ؛ فروى ابن وهب عن مالك أنها لا تؤخذ منهم . قال مُطَرِّف وابن المـاجِشُون : هذا إذا لم يترهّب بعد فرضها ، فإن فرضت ثم ترهّب لم يسقطها ترهّبه .

السادســة ــ إذا أعطى أهلُ الجزية الجزية لم يؤخذ منهم شىء من ثمـارهم ولا تجارتهم ولا زروعهم ، إلا أن يتّجروا فى بلاد غير بلادهم التى أُقرّوا فيها وصُولحوا عليها . فإن خرجوا

(١) كذا فى ب ، ج ، ه ، ى . وفى ك : التين .

Marfat.com

تجارا عن بلادهم التي أقروا فيها إلى غيرها أخذ منهم العشر إذا باعوا ونض[1] ثمن ذلك بأيديهم، ولو كان ذلك في السنة مرارا؛ إلا في حملهم الطعام الحنطة والزيت إلى المدينة ومكة خاصة، فإنه يؤخذ منهم نصف العُشْر على ما فعل عمر . ومن أهل المدينة من لا يرى أن يؤخذ من أهل الذمة العشر في تجارتهم إلّا مرّة في الحوْل، مثل ما يؤخذ من المسلمين . وهو مذهب عمر بن عبد العزيز وجماعةٍ من أئمة الفقهاء . والأوّل قول مالك وأصحابه .

السابعـــة — إذا أدّى أهل الجزية جزيتهم التي ضُربت عليهم أو صُولحوا عليها خُلِّيَ بينهم وبين أموالهم كلها، وبين كرومهم وعصرها ما ستروا خمورهم ولم يُعلنوا بيعها من مسلم، ومُنعوا من إظهار الخمر والخنزير في أسواق المسلمين؛ فإن أظهروا شيئا من ذلك أريقت الخمر عليهم، وأدّب من أظهر الخنزير. وإن أراقها مسلم من غير إظهارها فقد تعدّى، ويجب عليه الضمان . وقيـل : لا يجب، ولو غصبها وجب عليـه ردّها . ولا يُعترَض لهم في أحكامهم ولا متاجرتهم فيما بينهم بالربا . فإن تحاكموا إلينا فالحاكم مخيّر، إن شاء حكم بينهم بمـا أنزل الله وإن شاء أعرض . وقيل : يحكم بينهم في المظالم على كل حال، ويؤخذ من قويهم لضعيفهم؛ لأنه من باب الدفع عنهم . وعلى الإمام أن يقاتل عنهم عدوّهم ويستعين بهم في قتالهم . ولا حظّ لهم في الفَيْء، وما صُولحوا عليه من الكنائس لم يزيدوا عليها، ولم يمنعوا من إصلاح ما وهَى منها، ولا سبيل لهم إلى إحداث غيرها . ويأخذون من اللباس والهيئة بمـا يبينون[2] به من المسلمين، ويُمنعون من التشبه بأهل الإسلام . ولا بأس باشتراء أولاد العدوّ منهم إذا لم تكن لهم ذمّة . ومن لَدّ في أداء جزيته أدِّب على لَدَده[3] وأخذت منه صاغرا .

الثامنـــة — اختلف العلماء فيما وجبت الجزية عنه؛ فقال علماء المـالكية : وجبت بدلا عن القتل بسبب الكفر . وقال الشافعيّ : وجبت بدلا عن الدم وسكنى الدار . وفائدة الخلاف أنا إذا قلنا وجبت بدلا عن القتل فأسلم سقطت عنـه الجزية لمـا مضى، ولو أسلم قبل تمـام الحول بيوم أو بعده عند مالك . وعند الشافعيّ أنها دَين مستقرّ في الذمة فلا يسقطه

(١) نض المـال : صار عينا بعد أن كان متاعا . (٢) في جـ : مايتبينون . (٣) اللدد : الخصومة الشديدة .

Marfat.com

الإسلام كأجرة الدار . وقال بعض الحنفية بقولنا . وقال بعضهم : إنمـا وجبت بدلا عن النصر والجهاد . واختاره القـاضى أبو زيد وزعم أنه سرّ الله فى المسألة . وقول مالك أصح؛ لقوله صلى الله عليـه وسلم : "ليس على مسلم جزية" . قال سفيان : معناه إذا أسلم الذمىّ بعـد ما وجبت الجزية عليه بطلت عنه . أخرجه الترمذىّ وأبو داود . قال علماؤنا : وعليه يدلّ قوله تعالى : « حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ » لأن بالإسلام يزول هذا المعنى . ولا خلاف أنهـم إذا أسلموا فلا يؤدّون الجزية عن يَد وهم صاغرون . والشافعىّ لا يأخذ بعد الإسلام على الوجه الذى قاله الله تعالى . و إنمـا يقول : إن الجزية دَين ، وجبت عليه بسبب سابق وهو السكنى أو توقّى شر القتل ، فصارت كالديون كلها .

التاســعة — لو عاهد الإمام أهـل بلد أو حصن ثم نقضوا عهدهم وآمتنعوا من أداء ما يلزمهم من الجزية وغيرها ، وامتنعوا من حكم الإســلام من غير أن يظلموا ، وكان الإمام غير جائر عليهم ؛ وجب على المسلمين غَزْوُهم وقتالهم مع إمامهم . فإن قاتلوا وغلبوا حكم فيهم بالحكم فى دار الحرب سواء . وقد قيل : هم ونساؤهم فَىْء ولا خُمُس فيهم؛ وهو مذهب .

العاشـــرة — فإن خرجوا متلصّصين قاطعين الطريق فهم بمنزلة المحارب بين المسلمين إذا لم يمنعوا الجزية . ولو خرجوا متظلّمين نُظر فى أمرهم ورُدّوا إلى الذمّة وأنصفوا من ظالمهم، ولا يُسترقّ منهـم أحد وهم أحرار . فإن نقض بعضهم دون بعض فمن لم ينقض على عهده ، ولا يؤخذ بنقض غيره ، وتُعرف إقامتهم على العهد بإنكارهم على الناقضين .

الحـادية عشرة — الجزية وزنهـا فِعلة ؛ من جزى يَجْزِى إذا كافأ عما أسدى إليه ؛ فكأنهـم أعطَوْها جزاءَ ما منحوا من الأمن ، وهى كالقعدة والجلسـة . ومن هـذا المعنى قول الشاعر :

يَجزيك أو يُثنى عليـك وإنّ مَن * أثنى عليك بمـا فعلتَ كمن جَزَى

Marfat.com

الثـانية عشرة — روى مسلم عن هشام بن حكيم بن حزام ومر على ناس من الأنباط(١) بالشأم قد أقيموا فى الشمس — فى رواية : وصُب على رءوسهم الزيت — فقال : ما شأنهم؟ فقال يحبسون فى الجزية . فقال هشام : أشهدُ لسمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا" . فى رواية : وأميرهم يومئذ عمير بن سعد على فلسطين، فدخل عليه فحدّثه فأمر بهم فخُلّوا . قال علماؤنا : أما عقوبتهم إذا امتنعوا من أدائها مع التمكين فجائز، فأما مع تبيّن عجزهم فلا تحلّ عقوبتهم؛ لأن من عجز عن الجـزية سقطت عنه . ولا يكلف الأغنياء أداءها عن الفقراء . وروى أبو داود عن صفوان بن سليم عن عدّة من أبنـاء أصحاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم عن آبائهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : "من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلّفه فوق طاقته أو أخذ شيئا منـه بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة" .

الثالثة عشرة — قوله تعـالى : ﴿عَنْ يَدٍ﴾ قال ابن عباس : يدفعها بنفسه غير مستنيب فيهـا أحدا . روى أبو البَختريّ عن سَلْمان قال : مذمومين . وروى مَعْمَر عن قتادة قال : عن قهر . وقيل : « عن يد » عن إنعام منكم عليهم ؛ لأنهم إذا أخذت منهـم الجزية فقد أنعم عليهـم بذلك . عِكرمة : يدفعها وهو قائم والآخذ جالس ؛ وقاله سـعيد بن جبير . ابن العربيّ : وهذا ليس من قوله : « عَنْ يَدٍ » وإنمـا هو من قوله : « وَهُمْ صَاغِرُونَ » .

الرابعة عشرة — روى الأئمة عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "اليـد العليا خير من اليد السفلى واليـد العليا المنفقة والسفلى السائلة" وروى "واليد العُلْيا هى المعطية" . فجعل يد المعطِى فى الصدقة عليا ، وجعل يد المعطِى فى الجزية سفلى . ويد الآخذ عليا ؛ ذلك بأنه الرافع الخافض ، يرفع من يشاء و يخفض من يشاء ، لا إله غيره .

الخـامسة عشرة — عن حبيب بن أبى ثابت قال : جاء رجل إلى ابن عبـاس فقال : إن أرض الخراج يعجز عنها أهلها أفأعمّرها وأزرعها وأؤدّى خراجها ؟ فقال لا . وجاءه آخر

(١) الأنباط : فلاحو العجم .

Marfat.com

فقال له ذلك ، فقال لا ، وتلا قوله تعالى : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ » إلى قوله «وَهُمْ صَاغِرُونَ» أيعمد أحدكم إلى الصَّغار فى عنق أحدهم فينتزعه فيجعله فى عنقه! وقال كليب بن وائل : قلت لابن عمـر اشتريت أرضـا ، قال الشراء حسن . قلت : فإنى أعطى عن كل جريب(1) أرض درهما وقفيزَ طعام . قال : لا تجعل فى عنقك صغارا . وروى ميمون بن مِهْران عن ابن عمـر رضى الله عنهما قال : ما يسرّنى أن لى الأرض كلّهـا بجزية خمسة دراهم أقِرّ فيها بالصَّغار على نفسى .

قوله تعـالى : وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠)

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قرأ عاصم والكسائى « عزيرٌ ابنُ الله » بتنوين عزير . والمعنى أن « ابنـا » على هـذا خبر ابتداء عن عزير ، و « عزير » ينصرف عجميا كان أو عربيا . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر « عُزَيْرُ ابْنُ » بترك التنوين لاجتماع الساكنين ، ومنه قراءة من قرأ « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ اللَّهُ الصَّمَدُ »(2) . قال أبو علىّ : وهو كثير فى الشعر . وأنشد الطبرىّ فى ذلك :

لَتَجِدَنِّى بالأمـير بَرًّا * وبالقناة مِدْعَسا(3) مِكَرًّا
* إذَا غُطَيْفُ السُّلَمِىُّ فـرَّا *

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ هـذا لفظ خرج على العموم ومعنـاه الخصوص ، لأن ليس كل اليهود قالوا ذلك . وهـذا مثلُ قوله تعـالى : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ

(1) الجريب من الأرض : قال بعضهم عشرة آلاف ذراع . راجع المصباح ففيه الخلاف . والقفيز : مكيال ، وهو ثمـانية مكاكيك . (2) راجع جـ ٢٠ ص ٢٤٤ . (3) رجل مدعس (بالسين والصاد) : طعان .

Marfat.com

النّـاس »[1] ولم يقل ذلك كل الناس . وقيل : إن قائل ما حكى عن اليهود سـلّام بن مِشْكَم ونعمان بن أبى أَوْفَى وشاس بن قيس ومالك بن الصّيف؛ قالوه للنبيّ صلى الله عليه وسلم . قال النقاش : لم يبق يهودى يقولها، بل انقرضوا ؛ فإذا قالها واحد فيتوجّه أن تلزم الجماعة شُنْعَةُ المقالة؛ لأجل نباهـة القائل فيهم . وأقوال النُّبَهَاء أبدا مشهورة فى الناس يُحتَجّ بهـا . فمن هاهنا صح أن تقول الجماعة قول نَبِيهها . والله أعلم . وقد رُوى أن سبب ذلك القول أن اليهود قتلوا الأنبياء بعـد موسى عليه السلام، فرفع الله عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم، فخرج عُزَير يسيح فى الأرض؛ فأتاه جبريل فقال : " أين تذهب "؟ قال : أطلب العلم؛ فعلمه التوراة كلها فجاء عزير بالتوراة إلى بنى إسرائيل فعلمهم . وقيل : بل حفّظها الله عزيرا كرامة منه له ؛ فقال لبنى إسرائيل : إن الله قـد حفّظنى التوراة، فجعلوا يدرسونها من عنـده . وكانت التوراة مدفونة، كان دفنها علماؤهم حين أصابهم من الفتن والجلاء والمرض ما أصاب، وقتْل بُخْتَنَصَّر إياهم . ثم إن التـوراة المدفونة وُجدت فإذا هى متساوية لمـا كان عُزَير يدرس ؛ فضلّوا عند ذلك وقالوا : إن هـذا لم يتهيأ لعزير إلا وهو آبن الله؛ حكاه الطبرىّ . وظاهر قول النصارى أن المسيح آبن الله؛ إنمـا أرادوا بنوّة النّسل؛ كما قالت العرب فى الملائكة . وكذلك يقتضى قول الضحاك والطّبرىّ وغيرهما . وهـذا أشنع الكفر . قال أبو المعـالى : أطبقت النصارى على أن المسيح إله وأنه ابن إله . قال ابن عطية . ويقال إن بعضهم يعتقدها بنوّة حنو ورحمة . وهذا المعنى أيضا لا يحل أن تطلق البنوّة عليه، وهو كفر .

الثالثـــة ــ قال ابن العربىّ : فى هذا دليل من قول ربّنـا تبارك وتعالى على أن من أخبر عن كفر غيره الذى لا يجوز لأحد أن يبتدئ به لاحرج عليه؛ لأنه إنما ينطق به على معنى الآستعظام له والردّ عليه، ولو شاء ربّنا ما تكلّم به أحد، فإذا مكّن من إطلاق الألسن به فقد أذن بالإخبار عنه؛ على معنى إنكاره بالقلب واللسان، والرد عليه بالحجة والبرهان .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٧٩ .

Marfat.com

الرابعـــة ــ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ قيل : معناه التأكيد، كما قال تعالى: « يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ »[١] وقوله : « وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ »[٢] وقوله : « فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ »[٣] ومثله كثير. وقيل : المعنى أنه لما كان قولٌ ساذَج ليس فيه بيان ولا برهان، وإنما هو قول بالفم مجرد نَفَس دعوى لا معنى تحته صحيح؛ لأنهم معترفون بأن الله سبحانه لم يتخذ صاحبة فكيف يزعمون أن له ولدا؛ فهو كذب وقولٌ لسانيٌّ فقط، بخلاف الأقوال الصحيحة التي تَعْضُدها الأدلة ويقوم عليها البرهان . قال أهل المعاني : إن الله سبحانه لم يذكر قولا مقرونا بذكر الأفواه والألسن إلا وكان قولا زورا، كقوله : « يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ »[٤] و « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا »[٥] و « يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ »[٦] .

الخامســـة ــ قوله تعـالى : ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ « يضاهئون» يشابهون، ومنه قول العرب : امرأةٌ ضَهْيَا للتي لا تحيض أو التي لا ثَدْيَ لها، كأنها أشبهت الرجال . وللعلماء في « قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا» ثلاثة أقوال : الأول ــ قولُ عَبَدة الأوثان : اللات والعُزّى ومَناة الثالثة الأخرى . الثـاني ــ قول الكفرة : الملائكة بنات الله . الثـالث ــ قول أسلافهم ، فقلدوهم في البـاطل واتبعوهم على الكفر، كما أخبر عنهم بقوله تعـالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ »[٧] .

السادســـة ــ اختلف العلماء في «ضهيا»[٨] هل يمدّ أو لا ، فقال ابن وَلّاد : امرأة ضَهْيَأ، وهي التي لا تحيض، مهموز غير ممدود . ومنهم من يمدّ وهو سيبويه فيجعلها على فعلاء بالمدّ، والهمزة فيها زائدة؛ لأنهم يقولون نساء ضُهْي ، فيحذفون الهمـزة . قال أبو الحسن قال لي

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٧ . (٢) راجع جـ ٦ ص ٤١٩ . (٣) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٤ .
(٤) راجع جـ ٤ ص ٢٦٥ فما بعد . (٥) راجع جـ ١٠ ص ٣٥٣ . (٦) راجع جـ ١٦ ص ٢٦٨ وص ٧٤ . (٧) راجع جـ ١٦ ص ٧٤ . (٨) في جـ : النحاة .

Marfat.com

النجِيرِمَى : ضهيأة بالمد والهاء . جمع بين علامتى تأنيث ؛ حكاه عن أبى عمرو الشَّيبانى فى النوادر . وأنشد :

* ضهيأة أو عاقر جماد (١) *

ابن عطية : من قال «يُضَاهِئُونَ» مأخوذ من قولهم : امرأة ضهياء فقوله خطأ؛ قاله أبو علىّ؛ لأن الهمزة فى «ضاهأ» أصلية، وفى «ضهياء» زائدة كحمراء .

السابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أى لعنهم الله ، يعنى اليهود والنصارى، لأن الملعون كالمقتول . قال ابن جريج : « قَاتَلَهُـمُ اللهُ » هو بمعنى التعجب . وقال ابن عباس : كل شىء فى القرآن قَتْل فهو لعن؛ ومنه قول أبَان بن تَغْلب :

قاتلهـا الله تَلْحانِى وقـــد علمَتْ * أنّى لنفسى إفسادى و إصـــلاحى

وحكى النقاش أن أصل «قاتل الله» الدعاء، ثم كثر فى استعمالهم حتى قالوه على التعجب فى الخير والشر، وهم لا يريدون الدعاء . وأنشد الأصمعىّ :

يا قاتل الله لَيْـلَى كيف تعجبنى * وأخبر النـاس أنى لا أباليهـا

قوله تعـالى : ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

قوله تعـالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَـارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِن دُونِ اللهِ وَالْمَسِـيحَ بْنَ مَرْيَمَ ﴾ الأحبـار جمع حبر، وهو الذى يحسن القول وينظِّمه ويتقنه بحسن البيان عنه . ومنه ثوب محبّر أى جمع الزينة . وقد قيل فى واحد الأحبار : حِبر بكسر الحاء . والمفسرون على فتحها . وأهل اللغة على كسرها . قال يونس : لم أسمعه إلا بكسر الحاء، والدليل على ذلك أنهم قالوا : [مداد (٢)] حِبر يريدون مداد عالم، ثم كثر الاستعمال حتى قالوا للمداد حبر . قال الفرّاء : الكسر

(١) فى الأصول «جناد» بالنون، وهو تحريف. والجماد : الناقة التى لا لبن بها .	(٢) من ج و ك و هـ و ى .

Marfat.com

والفتح لغتان . وقال ابن السِّكيت : الحِبر بالكسر المداد ، والحبر بالفتح العالِم . والرهبان جمع راهب مأخوذ من الرهبة، وهو الذى حمله خوف الله تعـالى على أن يخلص له النية دون الناس، و يجعل زمانه له وعمله معه وأنسه به .

قوله تعـالى : ﴿ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قال أهل المعـانى : جعلوا أحبارهم ورُهْبانهـم كالأرباب حيث أطاعوهم فى كل شيء؛ ومنه قوله تعالى: «قَالَ ٱنْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا»[١] أى كالنار . قال عبد الله بن المبارك :

وهل أفسـد الدِّينَ إلا الملوكُ * وأحبـارُ سـوء ورُهبـانها

روى الأعمش وسفيان عن حبيب بن أبى ثابت عن أبى البَخْتَرِيّ قال : سئل حذيفة عن قول الله عز وجل : «ٱتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ» هل عبدوهم ؟ فقال لا ، ولكن أحلّوا لهم الحرام فاستحلّوه، وحرّموا عليهم الحلال فحرّموه . وروى الترمذيّ عن عدِيّ بن حاتم قال : أتيت النبيّ صلى الله عليـه وسلم وفى عنق صليب من ذهب . فقال : "ما هذا يا عديّ اطرح عنك هذا الوثن" وسمعته يقرأ فى سورة «براءة» «ٱتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ» ثم قال : "أما إنهـم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئا استحلّوه وإذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه". قال : هذا حديث غريب لا يُعرف إلا من حديث عبد السلام بن حرب . وغُطيف بن أعْيَن ليس بمعروف فى الحديث .

قوله تعـالى : ﴿ وَالْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ مضى الكلام فى اشتقاقه فى «آل عمـران»[٢] . والمسيح : العَرق يسيل من الجبين . ولقد أحسن بعض المتأخرين فقال :

افرح فسوف تألف الأحزانا * إذا شهدت الحشر والميزانا
وسال من جبينك المسـيح * كأنه جـداول تسـيح

ومضى فى « النساء »[٣] معنى إضافته إلى مريم أمه .

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٥٥ فما بعد . (٢) راجع جـ ٤ ص ٨٨ . (٣) راجع جـ ٦ ص ٢١ .

Marfat.com

قوله تعالى : يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ ﴾ أى دلالته وحججه على توحيده . جعل البراهين بمنزلة النور لما فيها من البيان . وقيل : المعنى نور الإسلام ؛ أى أن يُخمِدوا دين الله بتكذيبهم . ﴿ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ جمع فوه على الأصل ؛ لأن الأصل فى فم فَوْهٌ ، مثل حوض وأحواض . ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ﴾ يقال : كيف دخلت « إلا » وليس فى الكلام حرف نفى ، ولا يجوز ضربت إلا زيدا . فزعم الفراء أن « إلا » إنما دخلت لأن فى الكلام طَرَفا من الجَحْد . قال الزجاج : الجحد والتحقيق ليسا بذوى أطراف . وأدوات الجحد : ما ، ولا ، وإنْ ، وليس : وهذه لا أطراف لها يُنطق بها ، ولو كان الأمر كما أراد لجاز كرهت إلا زيدا ؛ ولكن الجواب أن العرب تحذف مع أبَى . والتقدير : ويأبى الله كل شىء إلا أن يتم نوره . وقال علىّ بن سليمان : إنما جاز هذا فى « أبَى » لأنها منع أو امتناع ، فضارعت النفى . قال النحاس : فهذا حسن ؛ كما قال الشاعر :

وهل لِىَ أمٌّ غيرُها إن تركتها * أبى الله إلا أن أكون لها ٱبْنَما

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾ يريد محمدا صلى الله عليه وسلم . ﴿ بِالْهُدَى ﴾ أى بالفرقان . ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أى بالحجة والبراهين . وقد أظهره على شرائع الدين حتى لا يخفى عليه شىء منها ؛ عن ٱبن عباس وغيره . وقيل : « ليظهره » أى ليظهر الدّين دين الإسلام على كل دين . قال أبو هريرة والضحّاك : هذا عند نزول عيسى عليه السلام . وقال السُّدّى : ذاك عند خروج المهدِىّ ؛ لا يبقى أحد إلا دخل فى الإسلام أو أدّى الجزية . وقيل : المهدِىّ هو عيسى فقط ، وهو غير صحيح ؛ لأن الأخبار الصحاح قد

Marfat.com

تواترت على أن المهدىّ من عِترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلا يجوز حمله على عيسى . والحديث الذى ورد فى أنه " لا مهدىّ إلا عيسى " غير صحيح . قال البَيْهَقِى فى كتاب البعث والنشور : لأن راويه محمد بن خالد الجَنَدِىّ وهو مجهول ، يروى عن أبان بن أبى عيّاش — وهو متروك — عن الحسن عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وهو منقطع . والأحاديث التى قبله فى التنصيص على خروج المهدىّ ، وفيها بيان كون المهدىّ من عِترة رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحّ إسنادا .

لا مهدى الا عيسى
پر بحث

قلت : قد ذكرنا هـذا وزدناه بيانا فى كتابنا (كتاب التذكرة) وذكرنا أخبار المهدىّ مستوفاة والحمد لله . وقيل : أراد « لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ » فى جزيرة العرب ، وقد فعل .

قوله تعـالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ دخلت اللام على يفعل، ولا تدخل على فَعَل؛ لمضارعة يَفعل الأسماء . والأحبار علماء اليهود . والرُّهبان مجتهدو النصارى فى العبادة . « بِالْبَاطِلِ » قيل : إنهم كانوا يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب وفروضا باسم الكنائس والبيع وغير ذلك ؛ مما يوهمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلّف إلى الله تعالى ، وهم خلال ذلك يحجبون تلك الأموال ؛ كالذى ذكره سَلْمـان الفارسىّ عن الراهب الذى استخرج كنزه ؛ ذكره ابن إسحاق فى السـير . وقيل : كانوا يأخذون من غَلّاتهم وأموالهم ضرائب باسم حماية الدِّين والقيام بالشرع . وقيل : كانوا يرتشون فى الأحكام ؛ كما يفعله اليوم

Marfat.com

كثير من الولاة والحُـكّام . وقوله : « بِالْبَاطِلِ » يجمع ذلك كله . ﴿ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أى يمنعون أهل دينهم عن الدخول فى دين الإسلام ، واتباع محمد صلى الله عليه وسلم .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ﴾ الكنز أصله فى اللغة الضم والجمع ، ولا يختص ذلك بالذهب والفضة . ألا ترى قوله عليه السلام : " ألَا أخبركم بخير ما يكنز المرءُ المرأة الصالحة " . أى يضمه لنفسه ويجمعه . قال :

ولم تزوّد من جميع الكنز　*　غير خـيوط ورَثِيث بَزّ (١)

وقال آخر :

لا دَرَّ درّىَ إن أطعمتُ جائعهم　*　قِـرْفَ الحَـتِيّ وعندى الـبُرُّ مكنوز

قرف الحَـتِيّ هو سَوِيق المُقْل (٢) . يقول : إنه نزل بقوم فكان قِراه عنـدهم سويق المقل ، وهو الحَتِيّ ، فلمـا نزلوا به قال هو : لا دَرّ دَرّى ... البيت . وخص الذهب والفضة بالذكر لأنه ممـا لا يُطّلَع عليه ، بخلاف سائر الأموال . قال الطبرى : الكنز كل شىء مجموع بعضه إلى بعض ، فى بطن الأرض كان أو على ظهرها . وسمى الذهب ذهبا لأنه يذهب ، والفضة لأنها تنفض فتتفرق ، ومنه قوله تعالى : « انْفَضُّوا إِلَيْهَا (٣) — لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ (٤) » وقد مضى هذا المعنى فى « آل عمران » .

الثالثـــة — واختلفت الصحابة فى (٥) المراد بهذه الآية ؛ فذهب معاوية إلى أن المراد بها أهل الكتاب ، وإليه ذهب الأَصَم ؛ لأن قوله : « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ » مذكور بعد قوله : « إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ » . وقال أبو ذر وغيره : المراد بها أهل الكتاب وغيرهم من المسـلمين . وهو الصحيح ؛ لأنه لو أراد أهل الكتاب خاصـة لقال : ويكنزون ، بغير والذين . فلما قال : « والذين » فقـد استأنف معنىً آخر يبيّن أنه عطف جملة على جملة . فالذين يكنزون كلام مستأنف ، وهو رفع على الابتداء . قال السُّدّى : عنى أهل القبلة . فهذه ثلاثة أقوال . وعلى قول الصحابة فيه دليـل على أن الكفار عندهم

(١) الرثيث : البالى ، والبز : نوع من الثياب　(٢) المقل ثمر شجر الدوم ينضج و يؤكل

(٣) راجع جـ ١٨ ص ...　(٤) راجع جـ ٤ ص ٢٤٩ .　(٥) فى جـ و ز : من ؟ .

مخاطبون بفروع الشريعـة . روى البخاري عن زيد بن وهب قال : مررت بالربذة [١] فإذا أنا بأبي ذرّ فقلت له : ما أنزلك منزلك هـذا ؟ قال : كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في « الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ؛ فقال معاوية : نزلت في أهل الكتاب . فقلت : نزلت فينا وفيهم ؛ وكان بيني و بينه في ذلك . فكتب إلى عثمان يشكوني ، فكتب إليّ عثمان أن أقدم المدينة ، فقدمتها فكثر عليّ الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك ؛ فذكرت ذلك لعثمان فقال : إن شئت تنحيت فكنتَ قريبا ؛ فذاك الذي أنزلني هذا المنزل ، ولو أمّروا عليّ حبشيًّا لسمعت وأطعت .

الرابعـــة — قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد : تضمنت هذه الآية زكاة العين ، وهي تجب بأربعة شروط : حرية ، وإسلام ، وحول ، ونصاب سليم من الدين . والنصاب مائتا درهم أو عشرون دينارا . أو يكمل نصاب أحدهما من الآخر وأخرج ربع العشر من هذا وربع العشر من هذا . وإنمـا قلنا إن الحرية شرط ؛ فلأن العبد ناقص الملك . وإنمـا قلنا إن الإسلام شرط ؛ فلأن الزكاة طهرة والكافر لا تلحقه طهرة ؛ ولأن الله تعالى قال : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ » [٢] فخوطب بالزكاة من خوطب بالصلاة . وإنمـا قلنا إن الحول شرط ؛ فلأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ليس في مالٍ زكاةٌ حتى يَحُول عليه الحول " . وإنمـا قلنا إن النصاب شرط ؛ فلأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ليس في أقلّ من مائتي درهم زكاة وليس في أقل من عشرين دينارا زكاة " . ولا يُراعَى كمال النصاب في أول الحَوْل ، وإنمـا يراعى عند آخر الحول ، لاتفاقهم أن الربح في حكم الأصل . يدلّ على هـذا أن من كانت معه مائتا درهم فتّجر فيها فصارت آخر الحول ألفا أنه يؤدّي زكاة الألف ، ولا يستأنف للربح حولا . فإذا كان كذلك لم يختلف حكم الربح ، كان صادرا عن نصاب أو دونه . وكذلك اتفقوا أنه لو كان له أربعون من الغنم ، فتوالدت له رأس الحول ثم ماتت الأمهات إلّا واحدة منها ، وكانت السّخال تتمـة النصاب فإن الزكاة تخرج عنها .

---

(١) الربذة : موضع قريب من المدينة .

(٢) راجع جـ ١ ص ٣٤٢ فما بعد .

Marfat.com

الخامســـة — وٱختلف العلماء في المـال الذي أُدّيت زكاتُه هل يسمى كنزا أم لا ؟ فقال قوم : نعم . ورواه أبو الضُّحَا عن جعْدة بن هُبيرة عن عليّ رضي الله عنه ، قال عليّ : أربعة آلاف فما دونها نفقة ، وما كثر فهو كنز وإن أدّيت زكاته ، ولا يصح . وقال قوم : ما أدّيت زكاته منه أو من غيره عنه فليس بكنز . قال ابن عمر : ما أدّى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين ، وكل ما لم تؤدّ زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض . ومثله عن جابر ، وهو الصحيح . وروى البخاريّ عن أبي هريرة قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : "من آتاه الله مالًا فلم يؤدّ زكاته مُثِّل له يوم القيامة شُجاعا أقْرَعَ له زَبيبتان يُطَوَّقه يوم القيامة ثم يأخذ بِلِهْزِمَتَيْه — يعني شِدْقَيْه — ثم يقول أنا مالُك أنا كنزك — ثم تلا — «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ»[(1)] الآية . وفيه أيضا عن أبي ذرّ ، قال : انتهيت إليه — يعني النبيّ صلى الله عليه وسلم — قال : "والذي نفسي بيـده — أو والذي لا إله غيره أو كما حلف — ما من رجل تكون له إبل أو بقر أو غنم لا يؤدّي حقها إلّا أُتِي بها يوم القيامة أعظمَ ما تكون وأسْمَنَه تَطَؤُه بأخفافها وتنطحه بقرونها كلما جازت أخراها رُدّت عليه أُولاها حتى يُقْضَى بين الناس". فدلّ دليل خطاب هذين الحديثين على صحة ما ذكرنا . وقـد بيّن ابن عمر في صحيح البخاريّ هـذا المعنى ، قال له أعرابيّ : أخبرني عن قول الله تعـالى : «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ» قال ابن عمر : من كنزها فلم يؤدّ زكاتها فوَيْل له ، إنما كان هـذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما أنزلت جعلها الله طُهرا للأموال . وقيل : الكنز ما فضل عن الحاجة . رُوي عن أبي ذرّ ، وهو مما نقل من مذهبه ، وهو من شدائده ومما ٱنفرد به رضي الله عنه .

قلت : ويحتمل أن يكون مجمل ما رُوي عن أبي ذرّ في هـذا ، ما روي أن الآية نزلت في وقت شدّة الحاجة وضعف المهاجرين وقِصَر يد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كفايتهم ، ولم يكن في بيت المـال ما يسعهم ، وكانت السِّنون الجوائح هاجمة عليهم ، فنُهُوا عن إمساك شيء من المـال إلا على قدر الحاجة ، ولا يجوز ٱدّخار الذهب والفضة في مثل ذلك الوقت .

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٩٠ .

Marfat.com

فلما فتح الله على المسلمين ووسّع عليهم أوجب صلى الله عليه وسلم فى مائتى درهم خمسةَ دراهم، وفى عشرين دينارا نصفَ دينار؛ ولم يوجب الكل، واعتبر مدّة الاستنماء؛ فكان ذلك منه بيانا صلى الله عليه وسلم. وقيل: الكنز ما لم تؤدّ منه الحقوق العارضة؛ كفكّ الأسير وإطعام الجائع وغير ذلك. وقيل: الكنز لغةً المجموع من النقدين، وغيرهما من المال محمول عليهما بالقياس. وقيل: المجموع منهما ما لم يكن حليًّا؛ لأن الحليّ مأذون فى اتخاذه ولا حقّ فيه. والصحيح ما بدأنا بذكره، وأن ذلك كله يسمّى كنزا لغةً وشرعا. والله أعلم.

السادسـة — واختلف العلماء فى زكاة الحليّ؛ فذهب مالك وأصحابه وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد إلى أن لا زكاة فيه. وهو قول الشافعىّ بالعراق، ووقف فيه بعد ذلك بمصر وقال: أستخير الله فيه. وقال الثورىّ وأبو حنيفة وأصحابه والأوزاعىّ: فى ذلك كله الزكاة. احتج الأوّلون فقالوا: قصدُ النماء يوجب الزكاة فى العروض وهى ليست بمحل لإيجاب الزكاة، كذلك قطع النماء فى الذهب والفضة باتخاذهما حليًّا للقِنْية[1] يسقط الزكاة. احتجّ أبو حنيفة بعموم الألفاظ فى إيجاب الزكاة فى النقدين، ولم يفرّق بين حليّ وغيره. وفرّق الليث بن سعد فأوجب الزكاة فيما صُنع حليًّا ليفرّ به من الزكاة، وأسقطها فيما كان منه يلبس ويُعار. وفى المذهب فى الحليّ تفصيل، بيانه فى كتب الفروع.

السابعـة — روى أبو داود عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ» قال: كَبُرَ ذلك على المسلمين، فقال عمر: أنا أفرّج عنكم؛ فانطلق فقال: يا نبيّ الله، إنه كَبُرَ على أصحابك هذه الآية. فقال: "إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب ما بقى من أموالكم وإنما فرض المواريث — وذكر[2] كلمة — لتكون لمن بعدكم" قال: فكبّر عمر. ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء المرأةُ الصالحة إذا نظر إليها سرّته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته". وروى

(١) القنية: ما يقتنيه المرء لنفسه لا للتجارة. (٢) ما بين الخطين موجود فى نسخ الأصل، غير موجود فى سنن أبى داود. والذى فى كتاب الدر المنثور للسيوطى: «... وإنما فرض المواريث من أموال تبق بعدكم».

Marfat.com

الترمذي وغيره عن ثوبان أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : قد ذمّ الله سبحانه الذهب والفضة، فلو علمنا أيّ المال خير حتى نكسبه . فقال عمر : أنا أسأل لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فسأله فقال : "لسانٌ ذاكر وقلب شاكر وزوجة تعين المرء على دينه" . قال حديث حسن .

الثامنـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ولم يقل ينفقونهما ؛ ففيه أجوبة ستة : الأول — قال ابن الأنباري : قصد الأغلب والأعمّ وهي الفضة ؛ ومثله قوله : « وَٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ »[1] ردّ الكناية إلى الصلاة لأنها أعمّ . ومثله « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا ٱنْفَضُّوا إِلَيْهَا »[2] فأعاد الهاء إلى التجارة لأنها الأهم، وترك اللهو؛ قاله كثير من المفسرين . وأباه بعضهم وقال : لا يشبهها؛ لأن « أو » قد فصلت التجارة من اللهو فحَسُن عَوْد الضمير على أحدهما . الثاني — العكس ، وهو أن يكون « ينفقونها » للذهب والثاني معطوفا عليه . والذهب تؤنّثه العرب تقول : هي الذهب الحمراء . وقد تذكّر والتأنيث أشهر . الثالث — أن يكون الضمير للكنوز . الرابع — للأموال المكنوزة . الخامس — للزكاة ؛ التقدير ولا ينفقون زكاة الأموال المكنوزة . السادس — الاكتفاء بضمير الواحد عن ضمير الآخر إذا فُهم المعنى، وهذا كثير في كلام العرب . أنشد سيبويه :

نحن بمـا عندنا وأنت بمـا * عندك راضٍ والرأي مختلفُ[3]

ولم يقل راضون .

وقال آخر[4] :

رَماني بأمرٍ كنتُ منه ووالدي * بريئا ومن أجْل الطَّوِيّ رماني

ولم يقل بريئين . ونحوه قول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧١ .	(٢) راجع جـ ١٨ ص ١٠٩ .	(٣) البيت لقيس بن الخطيم .

(٤) هو ابن أحمر ، واسمه عمرو ، وصف في البيت رجلا كان بينه و بينــه مشاجرة في بئر — وهو الطوى — فذكر أنه رماه بأمر يكرهه ورمى أباه بمثله على براءتهما منه من أجل المشاجرة التي كانت بينهما . (عن شرح الشواهد) .

Marfat.com

إن شرخ الشباب والشّعر الأسـ * ـود ما لم يُعـاص كان جنونًا

ولم يقل يعاصيا .

التاســـعة — إن قيـل : من لم يكنز ولم ينفق فى سبيل الله وأنفق فى المعـاصى، هل يكون حكمه فى الوعيد حكم من كنز ولم ينفق فى سبيل الله . قيل له : إن ذلك أشدّ ؛ فإن من بذّر ماله فى المعاصى عصى من جهتين : بالإنفاق والتناول ؛ كشراء الخمر وشربها . بل من جهات إذا كانت المعصية ممـا تتعدّى؛ كمن أعان على ظلم مسلم من قتـله أو أخذ ماله إلى غير ذلك . والكانز عصى من جهتين ، وهمـا منع الزكاة وحبس المـال لا غير . وقـد لا يراعى حبس المـال ، والله أعلم .

العاشـــرة — قوله تعـالى : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قد تقدّم معناه . وقد فسّر النبيّ صلى الله عليه وسلم هذا العذاب بقوله : " بَشّر الكاّزين بكَيّ فى ظهورهم يخرج من جنوبهم وبكَيّ من قِبل أقفائهم يخرج من جباههم " الحديث . أخرجه مسلم . رواه أبو ذرّ فى رواية : " بشر الكاّزين بِرَضْفٍ[(١)] يُحْمَى عليه فى نار جهنم فيوضع على حَلَمَة ثَدْيِ أحدهم حتى يخرج من نُغْضِ[(٢)] كتفيه و يوضع على نُغْض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثُدْييه فيتزلزل " الحديث . قال علماؤنا : فخروج الرَّضْف من حلمة ثَدْيه إلى نُغْض كتفه لتعذيب قلبـه وباطنه حين آمتـلأ بالفرح بالكثرة فى المـال والسرور فى الدنيا ؛ فعوقب فى الآخرة بالهمّ والعذاب .

الحادية عشرة — قال علمـاؤنا : ظاهر الآية تعليق الوعيد على من كنز ولا ينفق فى سبيل الله ، و يتعرض للواجب وغيره ؛ غير أن صـفة الكنز لا ينبغى أن تكون معتبرة ؛ فإن من لم يكنز ومنع الإنفاق فى سبيل الله فلا بدّ وأن يكون كذلك ؛ إلا أن الذى يخبأ تحت الأرض هو الذى يمنع إنفاقه فى الواجبات عُرْفًا ، فلذلك خُص الوعيد به . والله أعلم .

---

(١) الرضف : الحجارة المحماة .

(٢) النغض (بالضم والفتح) : أعلى الكتف ، وقيل : هو العظم الرقيق الذى على طرفه .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ « يوم » ظرف ، والتقدير يعذبون يوم يُحْمَى . ولا يصح أن يكون على تقدير : فبشّرهم يوم يحمى عليها ؛ لأن البشارة لا تكون حينئذ . يقال : أحميت الحديدة فى النار ؛ أى أوقدت عليها . ويقال : أحميته ؛ ولا يقال : أحميت عليه . وهاهنا قال عليها ؛ لأنه جعل « على » من صلة معنى الإحماء ، ومعنى الإحماء الإيقاد . أى يوقد عليها فتكوى . الكيّ : إلصاق الحارّ من الحديد والنار بالعضو حتى يحترق الجلد . والجباه جمع الجبهة ، وهو مستوى ما بين الحاجب إلى الناصية . وجَبهت فلانا بكذا ؛ أى استقبلته به وضربت جبهته . والجُنوب جمع الجنب . والكيّ فى الوجه أشهر وأشنع ، وفى الجنب والظهر آلم وأوجع ؛ فلذلك خصها بالذكر من بين سائر الأعضاء . وقال علماء الصوفية : لما طلبوا المال والجاه شان الله وجوههم ، ولما طوَوْا كشحا(١) عن الفقير إذا جالسهم كُوِيت جنوبهم ، ولما أسندوا ظهورهم إلى أموالهم ثقةً بها واعتمادا عليها كُوِيت ظهورهم . وقال علماء الظاهر : إنما خصّ هذه الأعضاء لأن الغنيّ إذا رأى الفقير زوى ما بين عينيه(٢) وقبض وجهه . كما قال(٣) :

يَزِيد يَغُضّ الطرف عنى(٤) كأنما * زوى بين عينيه علىّ المحاجِمُ
فلا ينبسطْ من بين عينيك ما انْزَوى * ولا تَلْقَنى إلا وأنفُك راغِمُ

وإذا سأله طَوَى كشحه ، وإذا زاده فى السؤال وأكثر عليه ولّاه ظهره . فرتّب الله العقوبة على حال المعصية .

(١) طوى كشحه عنه : إذا أعرض عنه .
(٢) جمعه وقبضه .
(٣) القائل هو الأعشى ؛ كما فى ديوانه .
(٤) وفيه : يغض الطرف دونى .

Marfat.com

الثانيـــة — واختلفت الآثار فى كيفيـة الكىّ بذلك ؛ ففى صحيح مسـلم من حديث أبى ذرّ ما ذكرنا من ذكر الرَّضْف . وفيه من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم "ما مِن صاحب ذهبٍ ولا فِضة لا يؤدّى منهـا حقّها إلا إذا كان يومُ القيامة صُفِّحت له صفائح من نارٍ فأُحمى عليها فى نار جهنم فيُكْوَى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بَرَدَت أعيدت له فى يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقْضى بين العباد فيرى سبيله إمّا إلى الجنة و إمّا إلى النـار" . الحديث . وفى البخارىّ : أنه يُمثّل له كنزه شجاعا أقرع . وقـد تقدّم فى غير الصحيح عن عبد الله بن مسعود أنه قال : من كان له مال فلم يؤدّ زكاته طُوِّقه يوم القيامة شجاعا أقرع ينقُر رأسه .

قلت : ولعلّ هـذا يكون فى مواطن : موطن يمثّل المـال فيـه ثعبانا ، وموطن يكون صفائح ، وموطن يكون رَضْفا . فتتغيّر الصفات والجسمية واحدة ؛ فالشجاع جسم والمـال جسم . وهذا التمثيل حقيقة ؛ بخلاف قوله : "يؤتى بالموت كأنه كبش أملح" فإن تلك طريقة أخرى ، ولله سبحانه وتعالى أن يفعل ما يشاء . وخُصّ الشجاع بالذكر لأنه العدوّ الثانى للخلق . والشجاع من الحيات هو الحية الذكر الذى يواثب الفارس والراجل ، و يقوم على ذنَبه وربمـا بلغ الفارس ، و يكون فى الصّحارى . وقيل : هو الثعبان . قال اللِّحيانىّ : يقال للحية شجاع ، وثلاثة أشجعة ، ثم شجعان . والأقرع من الحيات هو الذى تمعّط رأسه وابيض من السمّ . فى الموطّأ : له زبيبتان ؛ أى نقطتان منتفختان فى شِدْقيه كالزغوتين . و يكون ذلك فى شِدق الإنسـان إذا غضب وأكثر من الكلام . قالت [أم] غَيْلان بنت جرير ربّمـا أنشدت أبى حتى يتربّب شدقاى . ضُرب مثلا للشجاع الذى كثر سمّه فيُمثّل المـالُ بهذا الحيوان فيلق صاحبه غضبان . وقال ابن دُريد : نقطتان سَوْداوان فوق عينيه . فى رواية : مُثّـل له شجاع يتبعه فيضطره فيُعطيه يده فيقضمها كما يقضم الفحل . وقال ابن مسعود : والله لا يعـذّب الله أحدا بكنز فيمسّ درهم درهمـا ولا دينار دينارا ، ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل درهم ودينار على حدته . وهذا إنمـا يصح فى الكافر — كما ورد فى الحديث — لا فى المؤمن . والله أعلم .

Marfat.com

الثالثـــة — أسند الطبري إلى أبي أمامة الباهلي قال : مات رجل من أهل الصُّـفَّة فوُجِد في بردته دينار . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كَيَّة" . ثم مات آخر فوجد له ديناران . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كيَّتان" . وهذا إمّا لأنهما كانا يعيشان من الصدقة وعندهما التِّبر ، وإمّا لأن هـذا كان في صدر الإسلام ، ثم قـرر الشرع ضبط المـال وأداء حقه . ولو كان ضبط المـال ممنوعا لكان حقه أن يُخرج كلّه ، وليس في الأمة من يلزم هذا . وحسبك حال الصحابة وأموالهم رضوان الله عليهم . وأما ما ذكر عن أبي ذرّ فهو مذهب له ؛ رضي الله عنـه . وقد روى موسى بن عُبيـدة عن عمران بن أبي أنس عن مالك بن أوس بن الحدَثان عن أبي ذرّ عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : "من جمع دينـارا أو درهما أو تبرا أو فضة ولا يعُـدّه لغريم ولا ينفقه في سبيل الله فهو كنز يُكْوَى به يوم القيـامة" .

قلت : هذا الذي يليق بأبي ذرّ رضي الله عنـه أن يقول به ، وأن ما فضل عن الحاجة فليس بكنز إذا كان معدّا لسبيل الله . وقال أبو أمامة : من خلّف بيضا أو صُفراً كُوِي بها مغفورا له أو غير مغفور له ؛ ألَا إن حلية السيف من ذلك . وروى ثَوْبان أن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم قال : "ما من رجل يموت وعنده أحمرُ أو أبيض إلا جعل الله له بكل قيراط صفيحة يكوَى بها من فَرْقه(١) إلى قدمه مغفورًا له بعد ذلك أو معذّبا" .

قلت : وهـذا محمول على ما لم تؤدّ زكاته بدليل ما ذكرنا في الآية قبل هـذا . فيكون التقدير : وعنـده أحمر أو أبيض لم يؤدّ زكاته . وكذلك ما رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه : من ترك عشرة آلاف جُعلت صفائح يعذّب بهـا صاحبها يوم القيامة . أي إن لم يؤد زكاتها ، لئلا تتناقض الأحاديث . والله أعلم .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ أي يقال لهم هـذا ما كنزتم ؛ فحذف . ﴿ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ أي عذاب ما كنتم تكنزون .

---

(١) الفرق : الطريق في شعر الرأس .

Marfat.com

قوله تعالى : إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (٣٦)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ .

فيه ثمان مسائل[1] :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ ﴾ جمع شهر . فإذا قال الرجل لأخيه : لا أكلمك الشهور ؛ وحلف على ذلك فلا يكلمه حولا ؛ قاله بعض العلماء . وقيل : لا يكلمه أبدا . ابن العربي : وأرى إن لم تكن له نية أن يقتضى ذلك ثلاثة أشهر ؛ لأنه أقل الجمع الذى يقتضيه صيغة فُعول فى جمع فَعْل . ومعنى ﴿ عِندَ اللَّهِ ﴾ أى فى حكم الله وفيما كتب فى اللوح المحفوظ . ﴿ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ أعربت « اثنا عشر شهرا » دون نظائرها ؛ لأن فيها حرف الإعراب ودليله . وقرأ العامة «عَشَر» بفتح العين والشين . وقرأ أبو جعفر «عَشْر» بجزم الشين . ﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ يريد اللوح المحفوظ . وأعاده بعد أن قال « عِندَ اللَّهِ » لأن كثيرا من الأشياء يوصف بأنه عند الله ، ولا يقال إنه مكتوب فى كتاب الله ؛ كقوله : « إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ[2] » .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ إنما قال « يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » ليبيّن أن قضاءه وقدره كان قبل ذلك ، وأنه سبحانه وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على ما رتّبها عليه يوم خلق السموات والأرض ، وأنزل ذلك على أنبيائه فى كتبه المنزلة . وهو معنى قوله تعالى : « إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا » . وحكمها باقٍ

(١) يلاحظ أن فى الأصول سبع مسائل وهو خطأ . (٢) راجع جـ ١٤ ص ٨٢ .

Marfat.com

على ما كانت عليه لم يُزِلها عن ترتيبها تغييرُ المشركين لأسمائها، وتقديمُ المقدّم فى الاسم منها . والمقصود من ذلك اتباعُ أمر الله فيها ورفضُ ما كان عليه أهل الجاهلية من تأخير أسماء الشهور وتقديمها، وتعليق الأحكام على الأسماء التى رتّبوها عليه ؛ ولذلك قال عليه السلام فى خطبته فى حَجّة الوداع : "أيها الناس إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض" على ما يأتى بيانه . وأن الذى فعل أهل الجاهلية من جعل المحرّم صفرًا وصفرٍ محرّما ليس يتغيّر به ما وصفه الله تعالى . والعامل فى « يوم » المصدر الذى هو « فى كتاب الله » ، وليس يعنى به واحد الكُتُب ؛ لأن الأعيان لا تعمل فى الظروف . والتقدير : فيما كتب الله يوم خلق السموات والأرض . و «عند» متعلق بالمصدر الذى هو العِدّة، وهو العامل فيه . و « فى » من قوله : « فِى كِتَابِ اللَّه » متعلقة بمحذوف ، هو صفة لقوله : « ٱثْنَا عَشَرَ » . والتقدير : اثنا عشر شهرا معدودةً أو مكتوبة فى كتاب الله . ولا يجوز أن تتعلق بعِدّة لما فيه من التفرقة بين الصلة والموصول بخبر إنّ .

الثالثة — هذه الآية تدلّ على أن الواجب تعليق الأحكام من العبادات وغيرها إنما يكون بالشهور والسنين التى تعرفها العرب ، دون الشهور التى تعتبرها العجم والروم والقِبط وإن لم تزد على اثنى عشر شهرا ؛ لأنها مختلفة الأعداد ، منها ما يزيد على ثلاثين ومنها ما ينقص ، وشهور العرب لا تزيد على ثلاثين وإن كان منها ما ينقص ، والذى ينقص ليس يتعيّن له شهر ، وإنما تفاوتها فى النقصان والتمام على حسب اختلاف سير القمر فى البروج .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ الأشهر الحُرُم المذكورة فى هذه الآية ذو القعدة وذو الحِجة والمحرّم ورجب الذى بين جمادى الآخرة وشعبان، وهو رجب مُضَر ، وقيل له رجب مضر لأن ربيعة بن نزار كانوا يحرمون شهر رمضان ويسمّونه رجبًا . وكانت مضر تحرّم رجبًا نفسَه ؛ فلذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم فيه : "الذى بين جمادى وشعبان" ورفع ما وقع فى آسمه من الاختلال بالبيان . وكانت العرب أيضا تسميه مُنْصِل الأسِنّة[(١)] ؛

(١) منصل الأسنة : مخرجها من أماكنها . كانوا إذا دخل رجب نزعوا أسنة الرماح ونصال السهام إبطالا للقتال فيه ، وقطعا لأسباب الفتن لحرمته .

Marfat.com

روى البخاريّ عن أبى رَجاء العُطارِدىّ — واسمه عمران بن مِلْحان وقيل عمران بن تَيْم — قال : كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا هو خير منـه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرا جمعنا حثوة من تراب ثم جئنا بالشاء فحلبنا عليه ثم طُفنا به، فإذا دخل شهر رجب قلنا مُنْصِل الأسنّة ؛ فلم نَدَعْ رُمحًا فيه حديدة ولا سهما فيه حديدة إلا نزعناها فألقيناه .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أى الحساب الصحيح والعـدد المستوفَى . وروى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس : « ذلك الدِّين » أى ذلك القضـاء . مُقاتل : الحق . ابن عطية : والأصوب عندى أن يكون الدِّين هاهنا على أشهر وجوهه ؛ أى ذلك الشرع والطاعة . « القَيِّمُ » أى القائم المستقيم ؛ من قام يقوم . بمنزلة سـيد ؛ من ساد يسود . أصله قَيْوِم .

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ على قول ابن عباس راجع إلى جميع الشهور . وعلى قول بعضهم إلى الأشهر الحُرُم خاصّة؛ لأنه إليها أقرب ولهـا مزية فى تعظيم الظلم؛ لقوله تعالى : «فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ»(١) لا أن الظلم فى غير هـذه الأيام جائز على ما نبيّنه . ثم قيـل : فى الظلم قولان : أحدهما لا تظلموا فيهن أنفسكم بالقتال، ثم نسـخ بإباحة القتال فى جميـع الشهور؛ قاله قتادة وعطاء الخُرسانى والزُّهرىّ وسفيان الثَّورىّ . وقال ابن جُريج : حلف بالله عطاء بن أبى رَباح أنه ما يحل للناس أن يغزوا فى الحَرَم ولا فى الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا فيهـا ، وما نُسخت . والصحيح الأول ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم غزا هوازن بحُنَين وثقيفًا بالطائف ، وحاصرهم فى شـوّال وبعض ذى القَعدة . وقد تقدّم هـذا المعنى فى البقرة(٢) . الثانى — لا تظلموا فيهنّ أنفسكم بارتكاب الذنوب ؛ لأن الله سبحانه إذا عظّم شيئا من جهـة واحدة صارت له حُرمة واحدة ، وإذا عظّمه من جهتين أو جهات صارت حرمته متعدّدة ؛ فيضاعف فيـه العقاب بالعمل السيّئ كما يضاعف الثواب بالعمل الصالح . فإن من أطاع الله فى الشهر الحرام فى البلد الحرام ليس

(١) راجع جـ ٢ ص ٤٠٤ فما بعد . (٢) راجع جـ ٣ ص ٤٣ .

Marfat.com

ثوابه ثوابَ من أطاعه فى الشهر الحلال فى البلد الحرام . ومن أطاعه فى الشهر الحلال فى البلد الحرام ليس ثوابه ثوابَ من أطاعه فى شهر حلال فى بلد حلال . وقد أشار تعالى إلى هـذا بقوله تعالى : « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ »(١) .

السابعـة — وقد ٱختلف العلماء من هـذا المعنى فيمن قتَل فى الشهر الحـرام خطأً ، هل تغلظ عليه الدِّية أم لا ؛ فقال الأوزاعيّ : القتل فى الشهر الحرام تُغلّظ فيه الدية فيما بلغنا وفى الحَرَم ، فتجعل دِية وثلثا . ويزاد فى شبه العمد فى أسنان الإبل . قال الشافعيّ : تغلّظ الدية فى النفس وفى الجراح فى الشهر الحرام وفى البلد الحرام وذوى الرحم . ورُوى عن القاسم ٱبن محمد وسالم بن عبد الله وٱبن شهاب وأبَان بن عثمان : من قتل فى الشهر الحرام أو فى الحرم زيد على دِيتـه مثلُ ثلثها . وروى ذلك عن عثمان بن عفان أيضـا . وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما وٱبن أبى لَيْـلَى : القتل فى الحِلّ والحَرَم سواء ، وفى الشهر الحرام وغيره سواء ، وهو قول جماعة من التابعين . وهو الصحيح ؛ لأن النبيّ صلى ٱلله عليـه وسلم سنّ الديات ولم يذكر فيها الحرم ولا الشهر الحرام . وأجمعوا أن الكفارة على من قتل خطأ فى الشهر الحرام وغيره سواء . فالقياس أن تكون الدية كذلك . والله أعلم .

الثامنـة — خصّ الله تعـالى الأربعة الأشهر الحُـرُم بالذكر ، ونهى عن الظلم فيهـا تشريفا لهـا ، وإن كان منهيًّا عنه فى كل الزمان . كما قال : « فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ » على هذا أكثر أهـل التأويل . أى لا تظلموا فى الأربعة الأشهر أنفسكم . وروى حماد بن سلمة عن علىّ بن زيد عن يوسف بن مِهْران عن ابن عبـاس قال : « فلا تظلموا فِيهن أنفسكم » فى الآثنى عشر . وروى قيس بن مسلم عن الحسن عن محمد بن الحنفية قال : فيهنّ كلهن . فإن قيل على القول الأوّل : لِمَ قال فيهنّ ولم يقل فيها؟ وذلك أن العرب يقولون لمـا بين الثلاثة إلى العشرة : هنّ وهؤلاء ، فإذا جاوزوا العشرة قالوا : هى وهذه ، إرادةَ أن تعرف تسـمية القليل من الكثير . وروى عن الكِسائى أنه قال : إنى لأتعجب من فعـل

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٧٣ فما بعد .

Marfat.com

العرب هـذا . وكذلك يقولون فيا دون العشرة من الليـالى : خَلَوْن . وفيا فوقها خَلَت .

لا يقال : كيف جُعل بعض الأزمنـة أعظم حُرْمة من بعض ؛ فإنا نقول : للبارئ تعالى أن يفعل ما يشاء ، ويخص بالفضيلة ما يشاء ، ليس لعمله عِلّة ولا عليه حجر ، بل يفعل ما يريد بحكمته ، وقد تظهر فيه الحكمة وقد تخفى .

قوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ فيه مسألة واحدة :

قوله تعالى : « قَاتِلُوا » أمر بالقتال . و « كَافَّةً » معناه جميعا ، وهو مصدر فى موضع الحال . أى محيطين بهم ومجتمعين . قال الزجاج : مثل هذا من المصادر عافاه الله عافية وعاقبه عاقبة . ولا يثنّى ولا يجمع ، وكذا عامّة وخاصّة . قال بعض العلماء : كان الغرض بهذه الآية قد توجّه على الأعيان ثم نسخ ذلك وجعل فرض كفاية . قال ابن عطية : وهذا الذى قاله لم يُعلم قطُّ من شرع النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه ألزم الأمة جميعا النَّفْر ، و إنمـا معنى هـذه الآية الحض على قتالهم والتحزب عليهم و جمـع الكلمة . ثم قيدها بقـوله : ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ فبحسب قتالهم واجتماعهم لنا يكون فرض اجتماعنا لهم . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ هكذا يقرأ أكثر الأئمة . قال النحاس : ولم يَرو أحد عن نافع فيما علمناه « إِنَّمَا النَّسِيُّ » بلا همز إلا وَرْشٌ وحده . وهو مشتق من نسأه وأنسأه إذا أخره ، حكى اللغتين الكسائى . الجوهرى : النَّسِىء فعيل بمعـنى مفعول ؛ من قولك : نسأت الشىء فهو منسوء إذا أخرته . ثم يحوّل منسوء إلى نسىء كما يحوّل مقتول إلى قتيل . ورجل ناسئ وقوم نَسَأة ، مثل فاسق وفسقة . قال الطبرى : النسىء بالهمزة معناه الزيادة ؛ يقال : نسأ ينسأ إذا زاد . قال : ولا يكون بترك الهمز إلا من النسيان ، كما قال تعالى :

Marfat.com

« نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ »[(١)] ، وردّ على نافع قراءته ، واحتجّ بأن قال : إنه يتعدّى بحرف الجر ؛ يقال : نسأ الله فى أجلك كما تقول زاد الله فى أجلك ؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : " من سرّه أن يُبسَط له فى رزقه ويُنسأ له فى أَثَره[(٢)] فليَصِل رَحِمه " . قال الأزهريّ : أنسأت الشيء إنساء ونسيئا ؛ اسم وضع موضع المصدر الحقيقيّ . وكانوا يحرّمون القتال فى المحرّم ، فإذا احتاجوا إلى ذلك حرّموا صَفَرًا بدله وقاتلوا فى المحرّم . وسبب ذلك أن العرب كانت أصحابَ حروب وغارات ، فكان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغيرون فيها ؛ وقالوا : لئن توالت علينا ثلاثة أشهر لا نُصيب فيها شيئا لنهلكنّ . فكانوا إذا صدروا عن مِنًى يقوم من بنى كنانة ، ثم من بنى فُقَيم منهم رجل يقال له القَلَمّس ؛ فيقول أنا الذى لا يُردّ لى قضاء . فيقولون : أنسئنا شهرا ، أى أخّر عنا حُرمة المحرّم واجعلها فى صفر ؛ فيحلّ لهم المحرّم . فكانوا كذلك شهرا فشهرا حتى آستدار التحريم على السَّنة كلها . فقام الإسلام وقد رجع المحرّم إلى موضعه الذى وضعه الله فيه . وهذا معنى قوله عليه السلام : " إن الزمان قد آستدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض " . وقال مجاهد : كان المشركون يحجّون فى كل شهر عامين ؛ فحجّوا فى ذى الحجة عامين ، ثم حجوا فى المحرّم عامين ، ثم حجوا فى صفر عامين ، وكذلك فى الشهور كلها حتى وافقت حجّة أبى بكر التى حجها قبل حجّة الوداع ذا القَعدة من السنة التاسعة . ثم حج النبيّ صلى الله عليه وسلم فى العام المقبل حجة الوداع فوافقت ذا الحجة ؛ فذلك قوله فى خطبته : " إن الزمان قد آستدار " الحديث . أراد بذلك أن أشهر الحج رجعت إلى مواضعها ، وعاد الحج إلى ذى الحِجة وبطل النسيء . وقول ثالث . قال إياس بن معاوية : كان المشركون يحسُبون السنة اثنى عشر شهرا وخمسة عشر يوما ؛ فكان الحج يكون فى رمضان وفى ذى القَعدة ، وفى كل شهر من السنة بحكم استدارة الشهر بزيادة الخمسة عشر يوما ، فحج أبو بكر سنة تسع فى ذى القَعدة بحكم الآستدارة ، ولم يحج النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فلما كان فى العام المقبل وافق الحج ذا الحجة

(١) راجع ص ١٩٩ من هذا الجزء .

(٢) الأثر : الأجل ؛ وسمى به لأنه يتبع العمر ، وأصله من أثر مشيه فى الأرض ، فإن من مات لا تبق له حركة فلا يبق لأقدامه فى الأرض أثر . (عن شرح القسطلانى) .

Marfat.com

فى العشر، و وافق ذلك الأهلة . وهــذا القول أشبه بقول النبيّ صـلى الله عليـه وسلم : " إن الزمان قد استدار " . أى زمان الحج داد إلى وقته الأصلىّ الذى عينه الله يوم خلق السموات والأرض بأصل المشروعية التى سبق بهـا علمه ، ونفذ بها حكمه . ثم قال : السنة اثنـا عشر شهرا . يَنْفى بذلك الزيادة التى زادوها فى السـنة — وهى الخمسـة عشر يوما — بتحكمهم؛ فتعيّن الوقت الأصلى و بطل التحكمّ الجهلىّ . وحكى الإمام المـازَرى عن الخَوَارَزمىّ أنه قال : أوّل ما خلق الله الشمس أجراها فى بُرْج الحمَـل، وكان الزمان الذى أشار به النبىّ صلى الله عليه وسلم صادف حلول الشمس برج الحمل . وهذا يحتاج إلى توقيف؛ فإنه لا يُتوصّل إليه إلا بالنقل عن الأنبياء، ولا نقل صحيحا عنهم بذلك، ومن ادّعاه فلْيُسنده . ثم إن العقل يجوّز خلاف ما قال، وهو أن يخلق الله الشمس قبل البروج، و يجوز أن يخلق ذلك كلّه دَفعة واحدة . ثم إن علماء التعديل قد اختبروا ذلك فوجدوا الشمس فى برج الحوت وقت قوله عليه السلام : " إن الزمان قـد استدار " بينها و بين الحمَل عشرون درجة . ومنهم من قال عشر درجات . والله أعلم . واختلف أهل التأويل فى أوّل من نسأ ؛ فقال ابن عباس وقَتادة والضحاك : بنو مالك بن كِنانة، وكانوا ثلاثة . و روى جُوَيبر[1] عن الضحاك عن ابن عباس أن أوّل من فعل ذلك عمرو بن لُحَىّ بن قَمَعة بن خِنْدِف . وقال الكلبىّ : أوّل من فعل ذلك رجل من بنى كِنانة يقال له نعيم بن ثعلبة، ثم كان بعده رجل يقـال له : جُنادة بن عوف، وهو الذى أدركه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الزُّهرىّ : حىّ من بنى كِنانة ثم من بنى فُقَيم منهم رجل يقال له القَلَمّس، واسمه حذيفة بن عبيد . وفى رواية : مالك بن كنانة . وكان الذى يلى النّسىء يظفر بالرياسة لترئّس العرب إياه . وفى ذلك يقول شاعرهم :

* ومنّا ناسئُ الشهرِ القَلَمّسْ *

وقال الكُمَيْت[2] :

ألسنا الناسئين على مَعَــدٍّ * شهورَ الحِلّ نجعلها حرامَا

---

(١) فى نسخ الأصل : « جرير » وهو تحريف .

(٢) فى اللسان لعمير بن قيس بن جذل الطعان .

قوله تعالى : ﴿ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ بيان لما فعلته العرب من جمعها من أنواع الكفر ؛ فإنها أنكرت وجود البارئ تعالى فقالت : « وَمَا الرَّحْمٰن »(١) فى أصح الوجوه . وأنكرت البعث فقالت : « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ »(٢) . وأنكرت بعثة الرسل فقالوا : « أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ »(٣) . وزعمت أن التحليل والتحريم إليها ، فابتدعته من ذاتها مقتفية لشهواتها ؛ فأحلّت ما حرّم الله . ولا مبدّل لكلماته ولو كره المشركون .

قوله تعالى : ﴿ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ فيه ثلاث قراءات . قرأ أهل الحرمين وأبو عمرو « يَضِل » وقرأ الكوفيون « يُضَل » على الفعل المجهول . وقرأ الحسن وأبو رجاء « يُضِل » . والقراءات الثلاث كل واحدة منها تؤدّى عن معنى ؛ إلا أن القراءة الثالثة حذف منها المفعول . والتقدير : ويضل به الذين كفروا مَن يقبل منهم . و ﴿ الَّذِينَ ﴾ فى محل رفع . ويجوز أن يكون الضمير راجعا إلى الله عز وجل . التقدير : يضل الله به الذين كفروا ؛ كقوله تعالى : « يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ »(٤) ، وكقوله فى آخر الآية : « وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » . والقراءة الثانية « يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا » يعنى المحسوب لهم ؛ واختار هذه القراءة أبو عبيد ؛ لقوله تعالى : « زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ » . والقراءة الأولى اختارها أبو حاتم ؛ لأنهم كانوا ضالين به ، أى بالنسيء ؛ لأنهم كانوا يحسبونه فيضلون به . والهاء فى « يحلّونه » ترجع إلى النسيء . وروى عن أبى رجاء « يَضَل » بفتح الياء والضاد . وهى لغة ؛ يقال : ضَلِلت أضَل ، وضَلَلت أضِل . ﴿ لِيُوَاطِئُوا ﴾ نصب بلام كَىْ ؛ أى ليوافقوا . تواطأ القوم على كذا أى آجتمعوا عليه ؛ أى لم يُحلّوا شهرا إلا حرموا شهرا لتبقى الأشهر الحرم أربعة . وهذا هو الصحيح ، لا ما يذكر أنهم جعلوا الأشهر خمسة . قال قتادة : إنهم عمدوا إلى صفر فزادوه فى الأشهر الحُرُم ، وقرنوه بالمحرّم فى التحريم ؛ وقاله عنه قُطْرُب والطبرى . وعليه يكون النسيء بمعنى الزيادة . والله أعلم .

(١) راجع جـ ١٣ ص ٦٤ . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٥٨ . (٣) راجع جـ ١٧ ص ١٣٧ فما بعد .
(٤) راجع جـ ١٤ ص ٣٢٤ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾

فيه مسألتان :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ « ما » حرف ٱستفهام معناه التقرير والتوبيخ ؛ التقدير : أيّ شيء يمنعكم عن كذا ؛ كما تقول : مالك عن فلان مُعْرِضًا . ولا خلاف أن هذه الآية نزلت عتابا على تخلُّف من تخلّف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تَبُوك ، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام ، وسيأتى ذكرها فى آخر السورة إن شاء الله . والنَّفر : هو التنقل بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث ؛ يقال فى ابن آدم : نَفَر إلى الأمر يَنْفِر نفورا . وقوم نفور ؛ ومنه قوله تعالى : « وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا »(١) . ويقال فى الدابة : نَفَرت تَنْفُر (بضم الفاء وكسرها) نفارا ونفورا . يقال : فى الدابة نِفار ، وهو اسم مثل الحِران . ونفر الحاج من مِنًى نَفْرًا .

الثانيـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ قال المفسرون : معناه ٱثاقلتم إلى نعيم الأرض ، أو إلى الإقامة بالأرض . وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتابٌ على التقاعد عن المبادرة إلى الخروج ، وهو نحو من أخلد إلى الأرض . وأصله تثاقلتم ، أدغمت التاء فى الثاء لقربها منها ، واحتاجت إلى ألف الوصل لتصل إلى النطق بالساكن ؛ ومثله « ٱدَّارَكُوا »(٢) و « ٱدَّارَأْتُمْ »(٣) و « ٱطَّيَّرْنَا »(٤) و « ٱزَّيَّنَتْ »(٥) . وأنشد الكسائى :

تُولِى الضَّجِيعَ إذا ما ٱستافها(٦) خَصِرًا ٭ عَذْبَ المَـــذاق إذا ما ٱتَّابع القُبَــلُ

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٧١ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٠٤ . (٣) راجع جـ ١ ص ٤٥٥ .
(٤) راجع جـ ١٣ ص ٢١٤ . (٥) راجع جـ ٨ ص ٣٢٦ .
(٦) ساف الشيء يسوفه ويسافه سوفا وساوفه واستافه ، كله شمّه . والخصر : البارد من كل شيء .

Marfat.com

وقرأ الأعمش «تَثَاقَلْتُمْ» على الأصل . حكاه المهدوي . وكانت تبوك – ودعا الناس إليها[1] – في حرارة القَيْظ وطيب الثمار وبرد الظلال – كما جاء في الحديث الصحيح على ما يأتي – فاستولى على الناس الكسل، فتقاعدوا وتثاقلوا، فوبخهم الله بقوله هذا، وعاب عليهم الإيثار للدنيا على الآخرة . ومعنى ﴿ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ﴾ أي بدلا؛ التقدير : أرضيتم بنعيم الدنيا بدلا من نعيم الآخرة . ف«من» تتضمن معنى البدل؛ كقوله تعالى : «وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ[2]» أي بدلا منكم .

وقال الشاعر[3] :

فليت لنا من ماء زمزم شربةً * مُبرّدة باتت على طَهَيَانِ

ويروى من ماء حَمْنَانَ[4] . أراد : ليت لنا بدلا من ماء زمزم شربة مبرّدة . والطَّهَيَان : عود ينصب في ناحية الدار للهواء، يعلّق عليه الماء حتى يَبْرُد . عاتبهم الله على إيثار الراحة في الدنيا على الراحة في الآخرة؛ إذ لا تنال راحة الآخرة إلا بنصَب الدنيا . قال صلى الله عليه وسلم لعائشة وقد طافت راكبة : "أجرُك على قدر نَصَبِك" . خرجه البخاري .

قوله تعالى : إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

فيه مسألة واحدة – وهو أن قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْفِرُوا ﴾ شرط؛ فلذلك حذفت منه النون . والجواب « يُعَذِّبْكُمْ »، « وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » وهذا تهديد شديد ووعيد مؤكد في ترك النفير . قال ابن العربي : ومن محققات الأصول أن الأمر إذا ورد فليس في وروده أكثر من اقتضاء الفعل . فأما العقاب عند الترك فلا يؤخذ من نفس الأمر ولا يقتضيه

---

(١) قوله : « ودعا الناس إليها » قال ابن إسحاق : ... وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له ، إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان ... الخ .

(٢) راجع ج ١٦ ص ١٩٤ .

(٣) هو يعلى بن مسلم بن قيس الشكري؛ كما في اللسان . وقيل أنه الأحول الكندي .

(٤) حمنان : مكة .

Marfat.com

الاقتضاء، وإنما يكون العقاب بالخبر عنه؛ كقوله : إن لم تفعل كذا عذبتك بكذا ؛ كما ورد في هـذه الآية . فوجب بمقتضاها النفير للجهاد والخروج إلى الكفار لمقاتلتهم على أن تكون كلمة الله هي العليا . روى أبو داود عن ابن عباس قال : « إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » وَ « مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ ــ إلى قوله ــ يَعْمَلُونَ »(1) نسختها الآية التي تليها : « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً » . وهو قول الضحاك والحسن وعكرمة.(يُعَذِّبْكُمْ) قال ابن عباس: هو حبس المطر عنهم . قال ابن العربي : فإن صح ذلك عنه فهو أعلم من أين قاله ، وإلا فالعذاب الأليم هو في الدنيا باستيلاء العدو وبالنار في الآخرة .

قلت : قول ابن عباس خرّجه الإمام أبو داود في سننه عن ابن نُفَيع قال : سألت ابن عباس عن هـذه الآية « إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » قال : فأمسك عنهم المطر فكان عذابهم .وذكره الإمام أبو محمد بن عطية مرفوعا عن ابن عباس قال : استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبيلة من القبائل فقعدت، فأمسك الله عنهم المطر وعذبها به . و «أليم» بمعنى مؤلم، أي موجع .وقد تقدم.(2) (وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ) توعَّد بأن يبدّل لرسوله قوما لا يقعدون عند استنفاره إياهم . قيل : أبناء فارس . وقيل : أهل اليمن . (وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا) عطف. والهاء قيل لله تعالى ،وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم .والتثاقل عن الجهاد مع إظهار الكراهة حرام على كل أحد . فأما من غير كراهة فمن عيّنه النبي صلى الله عليه وسلم حَرُم عليه التثاقل وإن أمن منهما فالفرض فرض كفاية، ذكره القشيري . وقد قيـل : إن المراد بهـذه الآية وجوب النفير عند الحاجة وظهور الكفرة واشتداد شوكتهم . وظاهر الآية يدل على أن ذلك على وجه الاستدعاء فعلى هـذا لا يتجه الحمل على وقت ظهور المشركين؛ فإن وجوب ذلك لا يختص بالاستدعاء ، لأنه متعيّن . وإذا ثبت ذلك فالاستدعاء والاستنفار يبعد أن يكون موجبا شيئا لم يجب من قبل ؛ إلا أن الإمام إذا عيّن قوما وندبهم إلى الجهاد لم يكن لهم أن يتثاقلوا عند التعيين، ويصير بتعيينه فرضا على من عيّنه لا لمكان الجهاد ولكن لطاعة الإمام . والله أعلم.

(1) راجع ص ٢٩٠ من هذا الجزء . (2) راجع جـ ١ ص ١٩٨ .

Marfat.com

قوله تعالى : إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى قوله تعالى : ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ يقول: تُعينوه بالنَّفْر معه فى غزوة تبوك. عاتبهم الله بعد انصراف نبيه عليه السلام من تبوك . قال النقاش : هذه أول آية نزلت من سورة « براءة » . والمعنى : إن تركتم نَصْره فالله يتكفّل به؛ إذ قد نصره الله فى مواطن القلّة وأظهره على عدوه بالغلبة والعزة . وقيل : فقد نصره الله بصاحبه فى الغار بتأنيسه له وحمله على عنقه، وبوفائه ووقايته له بنفسه ومواساته له بماله . قال الليث بن سعد : ما صحب الأنبياء عليهم السلام مثل أبى بكر الصديق . وقال سفيان بن عُيينة . خرج أبو بكر بهذه الآية من المعاتبة التى فى قوله : « إِلَّا تَنصُرُوهُ » .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهو خرج بنفسه فارًا ، لكن بإلجائهم إلى ذلك حتى فعله، فنسب الفعل إليهم ورتّب الحكم فيه عليهم؛ فلهذا يقتل المكرِه على القتل و يضمن المال المتلَف بالإكراه؛ لإلجائه القاتل والمتلِف إلى القتل والإتلاف .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ أى أحد اثنين . وهذا كثالث ثلاثة ورابع أربعة . فإذا اختلف اللفظ فقلت رابع ثلاثة وخامس أربعة؛ فالمعنى صير الثلاثة أربعة بنفسه والأربعة خمسة . وهو منصوب على الحال؛ أى أخرجوه منفردا من جميع الناس إلا من أبى بكر . والعامل فيها « نصره الله » أى نصره منفردا ونصره أحد اثنين . وقال علىّ بن سليمان : التقدير فخرج ثانى اثنين؛ مثل «وَٱللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا»[(١)] . وقرأ جمهور الناس

(١) راجع جـ ١٨ ص ٣٠٥ .

Marfat.com

« ثانِيَ » بنصب الياء . قال أبو حاتم : لا يعرف غير هذا . وقرأت فرقة «ثانِي» بسكون الياء.
قال ٱبن جنّي : حكاها أبو عمرو بن العلاء ، ووجهه أنه سكن اليـاء تشبيها لهـا بالألف .
قال ٱبن عطية : فهى كقراءة الحسن « مَا بَقِيْ مِنَ الرِّبَا » وكقول جرير :

هـو الخليفة فَارْضَـوْا ما رَضِى لكُمُ * ماضِى العـزيمةِ ما فى حُكْمِـه جَنَفُ (١)

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَـارِ﴾ الغار : ثقب فى الجبل، يعنى غار ثَوْر.
ولمـا رأت قريش أن المسلمين قـد صاروا إلى المدينة قالوا : هـذا شر شاغل لا يطاق ؛ فأجمعوا أمرهم على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبيّتوه ورصدوه على باب منزله طول ليلتهم ليقتلوه إذا خرج؛ فأمر النبي صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب أن ينام على فراشه، ودعا الله أن يعمّى عليهم أثره، فطمس الله على أبصارهم فخرج وقد غشيهم النوم، فوضع على رءوسهم ترابا ونهض، فلما أصبحوا خرج عليهم على رضى الله عنه وأخبرهم أن ليس فى الدار أحد، فعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قد فات ونجا . وتواعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر الصديق للهجرة ، فدفعا راحلتيهما إلى عبد الله بن أُرَيْقط . ويقال ابن أريقط، وكان كافرا لكنهما وثقا به ، وكان دليلا بالطرق فاستأجراه ليدل بهما إلى المدينة . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسـلم من خَوْخة فى ظهر دار أبى بكر التى فى بنى جُمَح ونهضا نحو الغـار فى جبل ثَوْر، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يستمع ما يقول الناس ، وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه و يريحها (٢) عليهما ليلا فيأخذ منها حاجتهما . ثم نهضا فدخلا الغار. وكانت أسماء بنت أبى بكر الصديق تأتيهما بالطعام و يأتيهما عبـد الله بن أبى بكر بالأخبار، ثم يتلوهما عامر بن فهيرة بالغنم فيُعَفّى آثارهما . فلما فقدته قريش جعلت تطلبه بقائف معروف بقفاء الأثر، حتى وقف على الغار فقال : هنا انقطع الأثر. فنظروا فإذا بالعنكبوت قد نسج على فم الغار من ساعته ؛ ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتله . فلما رأوا نسج العنكبوت أيقنوا أن لا أحد فيه، فرجعوا وجعلوا فى النبي صلى الله عليه وسلم مائة ناقة لمن ردّه عليهم .

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٦٩ . (٢) يريحها : يردّها .

Marfat.com

الخــبر مشهور ، وقصة سراقة بن مالك بن جُعْشُم فى ذلك مذكورة . وقد رُوى من حديث أبى الدرداء وثَوْبان [رضى الله عنهما](١) : أن الله عز وجل أمر حمامة فباضت على نسج العنكبوت ، وجعلت ترقد على بيضها ، فلما نظر الكفار إليها ردّهم ذلك عن الغار .

الخامســة — روى البخارىّ عن عائشة قالت : استأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلا من بنى الدِّيل هاديا خِرِّيتًا(٢) ، وهو على دين كفار قريش ، فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غارَ ثَوْر(٣) بعد ثلاث ليال ، فأتاهما براحلتيهما صبيحة ثلاث ، فارتحلا وارتحل معهما عامر بن فُهيرة والدليلُ الدِّيلى ، فأخذ بهم طريق الساحل(٤) .

قال المهلب : فيه من الفقه ائتمان أهل الشرك(٥) على السر والمـال إذا عُلم منهم وفاء ومروءة كما ائتمن النبىّ صلى الله عليه وسلم هـذا المشرك على سِرّه فى الخروج من مكة وعلى الناقتين . وقال ابن المنـذر : فيـه استئجار المسـلمين الكفار على هـداية الطريق . وقال البخارىّ فى ترجمته : (باب استئجار المشركين عنـد الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإسلام) . قال ابن بطّال : إنما قال البخارىّ فى ترجمته (أو إذا لم يوجد أهل الإسلام) من أجل أن النبىّ صلى الله عليه وسلم إنمـا عامل أهل خيبر على العمل فى أرضها إذ لم يوجد من المسـلمين من ينوب منابهم فى عمل الأرض ، حتى قوِى الإسلام واستُغْنى عنهم أجلاهم عمر . وعامة الفقهاء يجيزون استئجارهم عند الضرورة وغيرها . وفيــه : استئجار الرجلين الرجل الواحد على عمل واحد لهما . وفيه : دليـل على جواز الفِرار بالدِّين خوفا من العـدو ، والاستخفاء فى الغِيران وغيرها ، ألّا يُلقِى الإنسان بيده إلى العدوّ توكلا على الله واستسلاما له . ولو شاء ربكم لعصمه مع كونه معهم ، ولكنها سنة الله فى الأنبياء وغيرهم ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . وهذا أدل دليل على فساد من منع ذلك وقال : من خاف مع الله سواه كان ذلك نقصا فى توكّله ، ولم يؤمن بالقدر . وهذا كله فى معنى الآية ، ولله الحمد والهداية .

---

(١) من هـ .   (٢) الخريت : الدليل الحاذق والمـاهر بطرق المفاوز .   (٣) فى جـ وك و هـ و ز : وانطلق .   (٤) الساحل : موضع بعينه ؛ ولم يرد به ساحل البحر .   (٥) فى جـ : الكفر .

السادسـة – قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ هـذه الآية تضمنت فضائل الصديق رضى الله عنـه . روى أصْبغ وأبو زيد عن ابن القاسم عن مالك « ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » هو الصدّيق . فحقق الله تعالى قوله له بكلامه ووصف الصحبة فى كتابه . قال بعض العلماء : من أنكر أن يكون عمر وعثمان أو أحد من الصحابة صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كذاب مبتدع . ومن أنكر أن يكون أبو بكر رضى الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليـه وسلم فهو كافر ؛ لأنه ردّ نص القرآن . ومعنى ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ أى بالنصر والرعاية والحفظ والكلاءة . روى الترمذيّ والحارث بن أبى أسامة قالا : حدّثنا عفان قال حدّثنا همـام قال أخبرنا ثابت عن أنس أن أبا بكر حدثه قال : قلت للنبيّ صلى الله عليه وسلم ونحن فى الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميـه لأبصرنا تحت قدميه ؛ فقـال : " يا أبا بكر ما ظنّك باثنين الله ثالثهما " . قال المحاسبيّ : يعنى معهما بالنصر والدفاع ؛ لا على معنى ما عمّ به الخلائق ؛ فقال : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ »(١) . فمعناه العموم أنه يسمع و يرى من الكفار والمؤمنين .

السابعـة – قال ابن العربىّ : قالت الإمامية قبّحها الله : حزنُ أبى بكر فى الغار دليل على جهله ونقصه ، وضعف قلبـه وخُرْقه(٢) . وأجاب علماؤنا عن ذلك بأن إضافة الحزن إليه ليس بنقص ؛ كما لم ينقص إبراهيم حين قال عنـه : « نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ »(٣) . ولم ينقص موسى قوله : « فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى . قُلْنَا لَا تَخَفْ »(٤) . وفى لوط : « وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ »(٥) . فهؤلاء العظماء صلوات الله عليهم قد وجدت عنـدهم التَّقِيّة نصًّا ، ولم يكن ذلك طعنا عليهم و وصفا لهم بالنقص ؛ وكذلك فى أبى بكر . ثم هى عند الصدّيق احتمال؛ فإنه قال : لو أن أحدهم نظر تحت قدميـه لأبصرنا . جواب ثان – إن حزن الصدّيق إنمـا كان خوفا على النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يصل إليه ضرر ،

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٨٩ . (٢) الخرق (بالضم) : الحمق وضعف الرأى .
(٣) راجع جـ ٩ ص ٦٢ . (٤) راجع جـ ١١ ص ٢٢١ فابعد . (٥) راجع جـ ١٣ ص ٣٤١ فابعد .

ولم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى ذلك الوقت معصوما ، وإنما نزل عليه « وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ »[(١)] [بالمدينة][(٢)] .

الثامنــة ــ قال ابن العربيّ : قال لنا أبو الفضائل العدل[(٣)] قال لنا جمال الإسلام أبو القاسم قال موسى صلى الله عليه وسلم : « كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ »[(٤)] وقال فى محمد صلى الله عليه وسلم : « لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا » لا جَرَم لما كان الله مع موسى وحده ارتدّ أصحابه بعده ، فرجع من عند ربه ووجدهم يعبدون العجل . ولما قال فى محمد صلى الله عليه وسلم « لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا » بقى أبو بكر مهتديا موحّدا عالما جازما قائما بالأمر ولم يتطرق إليه اختلال .

التاسـعة ــ خرّج الترمذى من حديث نُبيط بن شُريط عن سالم بن عبيد ــ له صحبة ــ قال : أغمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ؛ الحديث . وفيه : واجتمع المهاجرون يتشاورون فقالوا : انطلقوا بنا إلى إخواننا من الأنصار ندخلهم معنا فى هذا الأمر . فقالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير . فقال عمر رضى الله عنه : من له مثل هذه الثلاث « ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا » من « هما » ؟ قال : ثم بسط يده فبايعه وبايعه الناس بيعة حسنة جميلة .

قلت : ولهذا قال بعض العلماء : فى قوله تعالى : « ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ » ما يدلّ على أن الخليفة بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق [رضى الله عنه][(٥)] ؛ لأن الخليفة لا يكون أبدا إلا ثانيا . وسمعتُ شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر يقول : إنما استحق الصديق أن يقال له ثانى ٱثنين لقيامه بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم بالأمر ، كقيام النبيّ صلى الله عليه وسلم به أوّلا . وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما مات ارتدّت العرب كلها ، ولم يبق الإسلام إلا بالمدينة ومكة وجُوَاثا[(٦)] ؛ فقام أبو بكر يدعو الناس إلى الإسلام ويقاتلهم على

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٤٢ .   (٢) من ب وجـ وز وك وى .   (٣) من ب وك وى . واضطربت الأصول فى هذا الاسم . والذى فى أحكام القرآن لابن العربى المطبوع : « أبو الفضائل بن المعدل » وفى المخطوطة منه « أبو الفضائل المعدل » .   (٤) راجع جـ ١٣ ص ١٠٠ فما بعد .   (٥) من جـ وهـ .

(٦) موضع بالبحرين .

Marfat.com

الدخول فى الدين كما فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فآستحق من هذه الجهة أن يقال فى حقه ثانى آثنين .

قلت — وقد جاء فى السنة أحاديث صحيحة ، يدلّ ظاهرها على أنه الخليفة بعده، وقد انعقد الإجماع على ذلك ولم يبق منهم مخالف . والقادح فى خلافته مقطوع بخطئه وتفسيقه. وهل يكفر أم لا ؛ يُختلف فيه ، والأظهر تكفيره . وسيأتى لهذا المعنى مزيد بيان فى سورة « الفتح »(١) إن شاء الله . والذى يقطع به من الكتاب والسنة وأقوالِ علماء الأمة ويجب أن تؤمن به القلوب والأفئدة فضل الصديق على جميع الصحابة . ولا مبالاة بأقوال أهل الشّيع ولا أهل البدع؛ فإنهم بين مكفر تضرب رقبته، وبين مبتدع مفسّق لا تقبل كلمته . ثم بعد الصديق عمر الفاروق، ثم بعده عثمان . روى البخاريّ عن ابن عمر قال : كنا نخيّر بين الناس فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخير أبا بكر ثم عمر ثم عثمان .وآختلف أئمة أهل السلف(٢) فى عثمان وعلىّ؛ فالجمهور منهم على تقديم عثمان . ورُوى عن مالك أنه توقف فى ذلك. وروى عنه [أيضاً](٣) أنه رجع إلى ما عليه الجمهور . وهو الأصح إن شاء الله .

العاشـــرة — قوله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ فيـه قولان : أحدهما — على النبيّ صلى الله عليه وسلم . والثانى — على أبى بكر. آبن العربىّ : قال علماؤنا وهو الأقوى؛ لأنه خاف على النبيّ صلى الله عليه وسلم من القوم؛ فأنزل الله سكينته عليـه بتأمين النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فسكن جأشه وذهب رَوْعه وحصل الأمن ، وأنبت الله سبحانه ثُمامة(٤)، وألهم الوَكْرَ(٥) هناك حمامةً ، وأرسل العنكبوت فنسجت بيتـا عليه . فما أضعف هذه الجنود فى ظاهر الحس وما أقواها فى باطن المعنى ! ولهذا المعنى قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لعمر حين تغامر(٦) مع الصـديق : " هل أنتم تاركو لى صاحبي إن الناس كلّهـم قالوا كذبت وقال أبو بكر صدقت " رواه أبو الدرداء .

---

(١) راجع جـ ١٦ ص٢٩٧ . (٢) فى جـ : أهل السنة . وفى ز : التفسير . (٣) من هـ .
(٤) الثمام : نبت معروف فى البادية . (٥) فى هـ : وألهم . (٦) المغامرة : المخاصمة .
راجع الحديث بطوله فى صحيح البخارى فى باب مناقب أبى بكر رضى الله عنه .

Marfat.com

الحادية عشرة — قوله تعـالى : ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ أى من الملائكة . والكناية فى قوله « وَأَيَّدَهُ » ترجع إلى النبيّ صلى الله عليـه وسلم . والضميران يختلفان ، وهـذا كثير فى القرآن وفى كلام العرب . ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ﴾ أى كلمة الشرك . ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ قيل : لا إله إلا الله . وقيل : وعْد النصر . وقرأ الأعمش ويعقوب « وكلمةَ الله » بالنصب حملا على « جعل » . والباقون بالرفع على الاستئناف . وزعم الفراء أن قراءة النصب بعيدة ؛ قال : لأنك تقول أعتق فلان غلام أبيه، ولا تقول غلام أبى فلان . وقال أبو حاتم : نحوًا من هـذا . قال : كان يجب أن يقال وكلمته هى العليـا . قال النحاس : الذى ذكره الفرّاء لا يشبه الآية ، ولكن يشبهها ما أنشد سيبويه :

لا أرى الموتَ يسبِق الموتَ شىءٌ ❊ نغّص المـوت ذا الغِنَى والفقـيرا

فهذا حسن جيّد لا إشكال فيه ، بل يقول النحويون الحذاق : فى إعادة الذكر فى مثل هذا فائدة ، وهى أن فيه معنى التعظيم ؛ قال الله تعالى : « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا »(١) فهذا لا إشكال فيه . وجمع الكلمة كَلِم . وتمـيم تقول : هى كِلمة بكسر الكاف . وحكى الفراء فيها ثلاث لغات : كَلِمة وكِلْمة وكَلْمة مثل كَبِد وكِبْد وكَبْد، ووَرِق ووِرْق ووَرْق . والكَلِمة أيضا القصيدة بطولها؛ قاله الجوهرىّ .

قوله تعـالى : ﴿ ٱنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

فيـــه سبع مسائل :

الأولى — روى سفيان عن حُصين بن عبد الرحمن عن أبى مالك الغفارىّ قال : أول ما نزل من سورة براءة « ٱنفِرُوا خِفَافًا وثِقَالًا » . وقال أبو الضُّحا كذلك أيضا . قال : ثم نزل أوّلها وآخرها .

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٤٧ .

Marfat.com

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ ٱنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ نصب على الحال، وفيـه عشرة أقوال : الأوّل — يذكر عن ابن عباس « انفِرُوا ثُبَاتٍ »[١] : سَرَايَا متفرّقين . الثانى — روى عن ابن عباس أيضا وقتادة : نشاطا وغير نشاط . الثالث — الخفيفُ : الغنىّ، والثقيلُ : الفقير؛ قاله مجاهد . الرابع — الخفيف : الشاب، والثقيل : الشيخ؛ قاله الحسن . الخامس — مشاغيل وغير مشاغيل؛ قاله زيد بن علىّ والحكم بن عتيبة . السادس — الثقيل : الذى له عيال، والخفيف : الذى لا عيال له؛ قاله زيد بن أسلم . السابع — الثقيل : الذى له ضَيْعة يكره أن يدعها، والخفيف : الذى لا ضيعة له؛ قاله ابن زيد . الثامن — الخفاف : الرجال، والثقال : الفرسان؛ قاله الأوزاعىّ . التاسع — الخفاف : الذين يسبقون إلى الحرب كالطليعة وهو مقدّم الجيش، والثقال : الجيش بأسْره . العاشر — الخفيف : الشـجاع، والثقيل : الجبان؛ حكاه النقاش . والصحيح فى معنى الآية أن الناس أمِروا جُملةً؛ أى انفروا خفّت عليكم الحركة أو ثقلت . ورُوى أن ابن أمّ مكتوم جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : أعلىّ أن أنفر؟ فقال : " نعم " حتى أنزل الله تعالى « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ »[٢] . وهذه الأقوال إنمـا هى على معنى المثال فى الثقل والخفة .

الثالثـــة — واختلف فى هذه الآية؛ فقيل إنهـا منسوخة بقوله تعـالى : « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى »[٣] . وقيل : الناسخ لها قوله : « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ »[٣] . والصحيح أنهـا ليست بمنسوخة . روى ابن عباس عن أبى طلحة فى قوله تعالى : « ٱنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا » قال شبانا وكهولا، ما سمع الله عُذر أحد . فخرج إلى الشام فجاهد حتى مات رضى الله عنه . وروى حماد عن ثابت وعلىّ بن زيد عن أنس أن أبا طلحة قرأ سورة « براءة » فأتى على هـذه الآية « ٱنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا » فقال : أى بَنِىّ، جَهِّزُونى جهزونى . فقال بنوه : يرحمك الله ! لقد غزوتَ مع النبىّ صلى الله عليه وسلم حتى مات ، ومع أبى بكر حتى

(١) كذا فى جميع الأصول . و يلاحظ أن المؤلف رحمه الله عرض لآية النساء، وهى قوله تعـالى : « انفروا ثبات أو انفروا جميعا » راجع جـ ٥ ص ٢٧٣ . وثبات : جمع ثبة؛ وهى الجماعة من الناس .

(٢) راجع جـ ١٢ ص ٣١١ فـا بعد .

(٣) ص ٢٢٥ وص ٢٩٣ من هذا الجزء .

Marfat.com

مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك . قال : لا ، جهّزونى . فغزا فى البحر فمات فى البحر، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام فدفنوه فيها ، ولم يتغيّر رضى الله عنه . وأسند الطبرىّ عمن رأى المِقداد بن الأسود بحِمص على تابوت صَرّاف ، وقد فضل على التابوت من سِمَنه وهو يتجهّز للغَزْو . فقيل له : لقد عذرك الله . فقال : أتت علينا سورة البعوث « انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً » . وقال الزُّهرىّ : خرج سعيد بن المسيِّب إلى الغَزْوِ وقد ذهبت إحدى عينيه . فقيل له : إنك عليل . فقال : استنفر الله الخفيف والثقيل ، فإن لم يمكنى الحرب كثّرت السواد وحفظت المتاع . ورُوى أن بعض الناس رأى فى غزوات الشأم رجلا قد سقط حاجباه على عينيه من الكِبَر ؛ فقال له : يا عمّ ، إن الله قد عذرك . فقال : يابن أخى ، قد أُمِرنا بالنّفر خِفَافا وثِقالا . ولقد قال ابن أمّ مكتوم رضى الله عنه — واسمه عمرو — يوم أُحُد : أنا رجل أعمى ، فسلّموا لى اللواء ؛ فإنه إذا انهزم حامل اللواء انهزم الجيش ، وأنا ما أدرى من يقصدنى بسيفه فما أبرح . فأخذ اللواء يومئذ مصعبُ ابن عُمير على ما تقدّم فى « آل عمران » بيانه (١) . فلهذا وما كان مثله مما رُوى عن الصحابة والتابعين . قلنا : إن النسخ لا يصح . وقد تكون حالة يجب فيها نفير الكل ، وهى :

الرابعة — وذلك إذا تعيّن الجهاد بغَلبة العدوّ على قطر من الأقطار، أو بحلوله بالعُقْر، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خِفافا وثقالا ، شبابا وشيوخا ، كلٌّ على قدر طاقته ، من كان له أب بغير إذنه ومن لا أب له ، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج، من مقاتل أو مكثر . فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوّهم كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة ؛ حتى يعلموا أن فيهم طاقة على القيام بهم ومدافعتهم . وكذلك كل من علم بضعفهم عن عدوهم وعلم أنه يدركهم ويمكنه غياثهم لزمه أيضا الخروج إليهم ؛ فالمسلمون كلّهم يدٌ على من سواهم ، حتى إذا قام بدفع العدو أهل الناحية التى نزل العدو عليها واحتلّ بها سقط الفرض عن الآخرين . ولو قارب العدو

(١) راجع ج ٤ ص ٢٣٤ فما بعد .

Marfat.com

دار الإسلام ولم يدخلوها لزمهم أيضا الخروج إليه؛ حتى يظهر دين الله وتُحمَى البَيْضة وتُحفظ الحَوْزة ويُخْزَى العدو . ولا خلاف فى هذا .

وقسم ثان من واجب الجهاد — فرض أيضا على الإمام إغزاء طائفة إلى العدو كل سنة مرّة ، يخرج معهم بنفسه ، أو يُخرج مَن يثق به ليدعوهم إلى الإسلام ويرغّبهم [1] ، ويكف أذاهم ويظهر دين الله عليهم ، حتى يدخلوا فى الإسلام أو يُعطوا الجزية عن يَدٍ .

ومن الجهاد أيضا ما هو نافلة ، وهو إخراج الإمام طائفة بعـد طائفة ، وبَعْثُ السّرايا فى أوقات الغِـرّة وعند إمكان الفرصة ، والإرصاد لهم بالرِّباط فى موضع الخوف ، وإظهار القوّة . فإن قيل : كيف يصنع الواحد إذا قصّر الجميع ، وهى :

الخامســـة — قيل له : يعمِد إلى أسير واحد فيفديه؛ فإنه إذا فدى الواحدَ فقد أدّى فى الواحد أكثر ممـا كان يلزمه فى الجماعة ؛ فإن الأغنياء لو آقتسموا فداء الأسارى ما أدّى كل واحد منهم إلا أقلّ من درهم . ويغزو بنفسه إن قدر وإلّا جهّز غازيا . قال صلى الله عليه وسلم : " من جهّز غازيا فقـد غزا ومن خَلَفه فى أهله بخير فقـد غزا " أخرجه الصحيح . وذلك لأن مكانه لا يغنى وماله لا يكفى .

السادســة — روى أن بعض الملوك عاهد كفارا على ألا يحبسوا أسيرا، فدخل رجل من المسلمين جهة بلادهم فمرّ على بيت مغلق، فنادته آمرأة أنى أسيرة، فأبلغ صاحبك خبرى، فلما اجتمع به واستطعمه عنده وتجاذبا ذيل الحديث، انتهى الخبر إلى هذه المعذَّبة، فما أكمل حديثه حتى قام الأمير على قدميه وخرج غازيا من فوره، ومشى إلى الثّغر حتى أخرج الأسيرة واستولى على الموضع ، رضى الله عنـه . ذكره ابن العـربى وقال : « ولقد نزل بنـا العدو — قصمه الله — سـنة سبع وعشرين وخمسمائة ، فجاس ديارنا وأسر خيرتنا وتوسط بلادنا فى عدد هال النّاس عدده ، وكان كثيرا وإن لم يبلغ ما حدّدوه . فقلت للوالى والمولى عليه : هذا عدو الله قد حصل فى الشَّرك والشبكة، فلتكن عندكم بركة، ولتظهر منكم إلى نُصرة الدين المتعيّنة عليكم حركة، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد فى جميع الأقطار فيحاط

(١) ب و جـ و ى : يرغبهم وفى ز و ك : يردعهم .

به ؛ فإنه هالك لا محـالة إن يسركم الله له . فغلبت الذنوب ورجفت القـلوب بالمعاصى ، وصار كل أحد من الناس ثعلبا يأوى إلى وِجاره (١) و إن رأى المكيدة بجاره . فإنا لله و إنا إليه راجعون . وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وجاهِدُوا ﴾ أمر بالجهاد، وهو مشتق من الجهد ﴿ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ روى أبو داود عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم" . وهذا وصف لأكمل ما يكون من الجهاد وأنفعه عند الله تعالى . فحضّ على كمال الأوصاف، وقـدّم الأموال فى الذكر إذ هى أوّل مصرف وقت التجهـيز . فرتّب الأمر كما هو فى نفسه .

قوله تعـالى : لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًـا وَسَفَرًا قَاصِـدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِن بَعُـدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّـقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْـتَطَعْنَا لَخَـرَجْنَـا مَعَـكُمْ يُهْـلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُـمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾

لمّا رجع النبيّ صلى الله عليه وسـلم من غزوة تبوك أظهر الله نفاق قوم . والعَرَض : ما يعرض من منافع الدنيـا . والمعنى : غنيمة قريبة . أخبر عنهـم أنهم لو دُعُوا إلى غنيمة لاتبعوه . ﴿ عَرَضًا ﴾ خبر كان . ﴿ قَرِيبًا ﴾ نعته . ﴿ وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾ عطف عليه . وحذف آسم كان لدلالة الكلام عليه . التقـدير : لو كان المدعو إليه عَرَضًا قريبا وسفرا قاصـدا — أى سهلا معلوم الطُّرُق — لاتبعوك . وهـذه الكناية للنافقين كما ذكرنا ؛ لأنهم داخلون فى جملة من خوطب بالنفير . وهذا موجود فى كلام العرب ، يذكرون الجملة ثم يأتون بالإضمار عائدا على بعضها ؛ كما قيل فى قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا »(٢) أنهـا القيامة . ثم قال جل وعز : « ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ آتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا »(٢) يعنى جل وعز جهنّم . ونظير هذه الآية من السُّـنة فى المعنى قوله عليه السـلام : " لو يعلم أحدهم أنه يجـد عَظْمًا سمينا

(١) الوجار (بكسر وفتح) جحر الضبع وغيره .　　(٢) راجع جـ ١١ ص ١٣١ فما بعد .

Marfat.com

أو مِرْماتين[١] حسنتين لشهد العِشاء" . يقول : لو علم أحدهم أنه يجـد شيئا حاضرا معجّلا يأخذه لأتى المسجد من أجله . ﴿ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ حكى أبو عبيدة وغيره أن الشقة السفر إلى أرض بعيدة . يقال : منه شُـقّة شاقة . والمراد بذلك كلّه غزوة تبوك . وحكى الكسائى أنه يقال : شُقة وشِقة . قال الجوهرى : الشّقة بالضم من الثياب، والشّقة أيضا السـفر البعيد وربما قالوه بالكسر . والشّقة شَظِيّة تُشْظَى من لوح أو خشبة . يقال للغضبان : احتدّ فطارت منه شِقة ، بالكسر . ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا ﴾ أى لو كان لنا سَعة فى الظَّهر والمـال . ﴿ لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ نظيره « وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » فسّرها النبى صلى الله عليه وسلم فقال : " زادٌ وراحلة "[٢] وقد تقدّم . ﴿ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ أى بالكذب والنفاق . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فى الاعتلال .

قوله تعالى : عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ قيـل : هو افتتاح كلام ، كما تقول : أصلحك الله وأعزك ورحمك ! كان كذا وكذا . وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على قوله : « عَفَا اللَّهُ عَنكَ » ؛ حكاه مكىّ والمهـدوىّ والنحاس . وأخبره بالعفو قبل الذنب لئلا يطير قلبه فَرَقا[٣] . وقيل : المعنى عفا الله عنك ما كان من ذنبك فى أن أذنت لهم ؛ فلا يحسن الوقف على قوله : « عَفَا اللَّهُ عَنكَ » على هذا التقدير ؛ حكاه المهدوىّ واختاره النحاس . ثم قيل : فى الإذن قولان : الأوّل — « لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ » فى الخروج معك، وفى خروجهم بلا عُدّة ونية صادقة فسادٌ . الثانى — « لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ » فى القعود لمـا اعتلّوا بأعذار؛ ذكرهما القشيرىّ قال : وهذا عتاب تلطف ؛ إذ قال : « عَفَا اللَّهُ عَنكَ » . وكان عليه السلام أذن من غير وحى[٤] نزل فيه . قال قتادة وعمرو بن ميمون : ثنتان فعلهما النبىّ صلى الله عليه وسلم [و] لم يؤمر

(١) مرماتين (بكسر الميم) وقد تفتح . تثنية مرماة ؛ وهى ظلف الشاة ؛ أو ما بين ظلفيها من اللحم .
(٢) راجع جـ ٤ ص ١٥٣ . (٣) الفرق بالتحريك : الخوف والجزع . (٤) من جـ .

بهما : إذنُه لطائفة من المنافقين فى التخلف عنه ولم يكن له أن يمضِىَ شيئا إلا بوحى، وأخذُه من الأسارى الفِدية؛ فعاتبه الله كما تسمعون . قال بعض العلماء : إنما بدر منه تركُ الأَوْلى ، فقدّم الله له العفو على الخطاب الذى هو فى صورة العتاب .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ ٱلْكَاذِبِينَ ﴾ أى ليتبيّن لك مَن صَدق ممن نافق . قال ابن عباس : وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يومئذ يعرف المنافقين، وإنما عرفهم بعد نزول سورة «التوبة» . وقال مجاهد : هؤلاء قوم قالوا : نستأذن فى الجلوس، فإن أذن لنا جلسنا ، وإن لم يؤذن لنا جلسنا . وقال قتادة : نسخ هذه الآية بقوله فى سورة « النور » : « فَإِذَا ٱسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ (١) » . ذكره النحاس فى معانى القرآن له .

قوله تعالى : لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ أى فى القعود ولا فى الخروج ، بل إذا أمرت بشىء ابتدروه ؛ فكان الاستئذان فى ذلك الوقت من علامات النفاق لغير عذر؛ ولذلك قال : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ . روى أبو داود عن ابن عباس قال : « لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ » نسختها التى فى «النور» « إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ — إلى قوله — غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) » ﴿ أَن يُجَاهِدُوا ﴾ فى موضع نصب بإضمار فى؛ عن الزجاج . وقيل : التقدير

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٣٢٠ فما بعد .

Marfat.com

كراهية أن يجاهدوا ؛ كقوله : « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا »[١] . ﴿ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ شكّت في الدِّين . ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أي في شكهم يذهبون و يرجعون .

قوله تعـالى : وَلَوْ أَرَادُوا ٱلْخُـرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُـدُوا مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾ أي لو أرادوا الجهـاد لتأهبوا أُهْبــة السفر . فتركُهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلف . ﴿ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ ﴾ أي خروجهم معك . ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ أي حبسهم عنك وخذلهم ؛ لأنهم قالوا : إن لم يؤذن لنـا في الجلوس أفسدنا وحرّضنا على المؤمنين . و يدلّ على هذا أن بعده « لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا » . ﴿ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ قيل : هو من قول بعضهم لبعض . وقيل : هو من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم ، و يكون هذا هو الإذن الذى تقدّم ذكره . قيـل : قاله النبيّ صلى الله عليه وسـلم غضبا ، فأخذوا بظاهر لفظه وقالوا . قد أذن لنـا . وقيل : هو عبارة عن الخذلان ؛ أي أوقع الله في قلوبهم القعود . ومعنى ﴿ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ أي مع أُولي الضرر والعِميان والزَّمْنَى والنسوان والصبيان .

قوله تعـالى : لَوْ خَرَجُوا فِيـكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَـالًا وَلَأَوْضَـعُوا خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَـكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُـمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيـكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ هو تسـلية للمؤمنين في تخلف المنافقين عنهم . والخبال : الفساد والنميمة و إيقاع الاختلاف والأراجيف . وهذا استثناء منقطع ؛ أي ما زادوكم قوة ولكن طلبوا الخبال . وقيـل : المعنى لا يزيدونكم فيما يترددون [فيه][٢] من الرأى إلا خبالا ؛ فلا يكون الاستثناء منقطعا .

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٨ . (٢) من جـ وزى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ ﴾ المعنى لأسرعوا فيما بينكم بالإفساد . والإيضاع ، سرعة السير . وقال الراجز[(١)] :

يا ليتنى فيها جَذَعْ * أَخُبُّ فيها وَأَضَعْ

يقال : وَضع البعيرُ إذا عدا ، يضع وضعا ووضوعا[(٢)] إذا أسرع السير . وأوضعته حملته على العَدْوِ . وقيل : الإيضاع سير مثلُ الخَبَب . والخلل الفرجة بين الشيئين ؛ والجمع الخلال ، أى الفُرَج التى تكون بين الصفوف . أى لأوضعوا خلالكم بالنميمة و إفساد ذات البين . ﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ مفعول ثان . والمعنى يطلبون لكم الفتنة ؛ أى الإفساد والتحريض . ويقال : أبغيته كذا أعنته على طلبه ، وبَغَيته كذا طلبته له . وقيل : الفتنة هنا الشرك . ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ أى عيون لهم ينقلون إليهم الأخبار منكم . قتادة : وفيكم من يقبل منهم قولهم ويطيعهم . النحاس : القول الأوّل أولى ؛ لأنه الأغلب من معنييه أن معنى سَمّاع يسمع الكلام : ومثله « سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ[(٣)] » . والقول الثانى — لا يكاد يقال فيه إلا سامع ؛ مثل قائل .

قوله تعالى : لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى لقد طلبوا الإفساد والخبال من قبل أن يظهر أمرهم ، و ينزل الوحىُ بما أسرّوه و بما سيفعلونه . وقال ابن جريج : أراد اثنى عشر رجلا من المنافقين ، وقفوا على ثَنِية الوداع[(٤)] ليلة العقبة ليفتِكوا بالنبىّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ ﴾ أى صرفوها وأجالوا الرأى فى إبطال ما جئت به . ﴿ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أى دينه ﴿ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ .

(١) هو دريد بن الصمة ؛ كما فى اللسان . (٢) الذى فى كتب اللغة أنه يقال : وضع البعير وضعا وموضوعا . أما الوضوع فهو من مصادر قولهم : وضع الرجل نفسه وضعا ووضوعا وضعة (بفتح الضاد وكسرها) إذا أذلها . (٣) راجع جـ ٦ ص ١٨٢ . (٤) الثنية : الطريقة فى الجبل كالنقب ، وقيل : الطريق العالى فيه . والوداع ؛ واد بمكة ؛ وثنية الوداع منسوبة إليه .

Marfat.com

قوله تعالى : وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي ﴾ من أذِنَ يأذَن . وإذا أمرت زدت همزة مكسورة وبعدها همزة هي فاء الفعل، ولا يجتمع همزتان؛ فأبدلت من الثانية ياء لكسرة ما قبلها فقلت إيذن . فإذا وصلت زالت العلة في الجمع بين همزتين ، ثم همزت فقلت : « ومنهم من يقول ائذن لي » . وروى وَرْش عن نافع « وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ اوذَنْ لِي » خفف الهمزة[1] . قال النحاس : يقال إيذن لفلان ثم إيذن له، هجاء الأولى والثانية واحد بألف وياء قبل الذال في الخط . فإن قلت : إيذن لفلان وأذنْ لغيره كان الثاني بغير ياء ؛ وكذا الفاء . والفرق بين ثُمّ والواو أن ثم يوقف عليها وتنفصل ، والواو والفاء لا يوقف عليهما ولا ينفصلان . قال محمد بن إسحاق : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للجدّ بن قيس أخي بني سلمة لما أراد الخروج إلى تبوك : " ياجدّ ، هل لك في جِلاد بني الأصفر تتخذ منهم سراري ووُصَفاء " فقال الجدّ : قد عرف قومي أني مغرم بالنساء، وإني أخشى إن رأيت بني الأصفر ألّا أصبر عنهن ، فلا تَفْتِنِّي وأذن لي في القعود وأعينك بمالي ؛ فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " قد أذنت لك " فنزلت هذه الآية . أي لا تفتني بصباحة وجوههم، ولم يكن به علة إلا النفاق . قال المهدوي : والأصفر رجل من الحبشة كانت له بنات لم يكن في وقتهن أجمل منهن ، وكان ببلاد الروم . وقيل : سُمُّوا بذلك لأن الحبشة غلبت على الروم ، وولدت لهم بنات فأخذن من بياض الروم وسواد الحبشة ، فكنّ صُفْرًا لُعْسًا[2] . قال ابن عطية : في قول ابن إسحاق فتور . وأسند الطبري أن رسول الله

---

(١) أي أبدلها واوا لضمه اللام قبلها ؛ فينطق باللام كأنها متصلة بواو الجماعة . (٢) اللعس : سواد اللثة والشفة . وقيل : اللمس واللعسة : سواد يعلو شفة المرأة البيضاء . وقيل : هو سواد في حمرة .

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم قال : "اغزوا تغنموا بنات الأصفر" فقال له الجد : إيذن لنا ولا تفتنّا بالنساء . وهذا منزع غير الأول، وهو أشبه بالنفاق والمحادّة . ولمـا نزلت قال النبي صلى الله عليه وسـلم لبني سلمة — وكان الجدّ بن قيس منهم : "من سيدكم يا بني سلمة" ؟ قالوا : جدّ بن قيس، غير أنه بخيل جبـان . فقال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : "وأيّ داء أدوى[(1)] من البخل بل سـيدكم الفتى الأبيض بشر بن البراء بن مَعْرُور" . فقـال حسان بن ثابت الأنصاريّ فيه :

وسُـوّد بشر بن البراء لجـوده * وحقّ لبشر بن البرا أن يُسَـوَّدَا

إذا ما أتاه الوفد أذهب ماله * وقال خـــذوه إنني عائد غدا

﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَـقَطُوا ﴾ أي في الإثم والمعصـية وقعوا . وهي النفـاق والتخلف عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم . ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أي مسيرهم إلى النار، فهي تحدق بهم .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ تُصِـبْكَ حَسَنَةٌ تَسُـؤْهُمْ ﴾ شرط ومجازاة ؛ وكذا ﴿ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا ﴾ عطف عليه . والحسنة : الغنيمة والظفر . والمصيبة الانهـزام . ومعنى قولهم : « أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ » أي احتطنا لأنفسـنا ، وأخذنا بالحـزم فلم نخرج إلى القتـال . « وَيَتَوَلَّوْا » أي عن الإيمـان . ﴿ وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ أي معجبون بذلك .

ج

قوله تعـالى : قُـل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ قيـل : في اللوح المحفوظ . وقيـل : ما أخبرنا به في كتابه من أنا إمّا أن نظفر فيكون الظفر حسنى لنـا ، وإما أن نقتل

---

(١) أي أي عيب أقبح منه . قال ابن الأثير : « والصواب أدوأ بالهمز، وموضوعه أول الباب ؛ ولكن هكذا يروى، إلا أن يجعل من باب دوى يدوى دوا فهو دو إذا هلك بمرض باطن » .

Marfat.com

تكون الشهادة أعظم حسنى لنا . والمعنى كل شيء بقضاء وقدر . وقد تقدّم فى «الأعراف» أن العلم والقدر والكتاب سواء . ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ (١) أى ناصرنا . والتوكل تفويض الأمر إليه . وقراءة الجمهور « يصيبنا » نصب بلن . وحكى أبو عبيدة أن من العرب من يجزم بها . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « هل يصيبنا » . وحُكى عن أَعْيَن قاضى الرَّى أنه قرأ « قل لن يصيبنّا » بنون مشدّدة . وهـذا لحن ؛ لا يؤكّد بالنون ما كان خبرا ، ولو كان هـذا فى قراءة طلحة لجاز . قال الله تعالى : « هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ » (٢)

قوله تعـالى : قُـلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَـآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِـكُمْ أَن يُصِيبَـكُمُ ٱللَّهُ بِعَـذَابٍ مِّنْ عِنـدِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا إِنَّا مَعَـكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعـالى : ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَـا﴾ والكوفيون يدغمون اللام فى التاء . فأما لام المعرفة فلا يجوز إلا الإدغام؛ كما قال جل وعز : «التَّائِبُونَ» لكثرة لام المعرفة فى كلامهم . ولا يجوز الإدغام فى قوله : « قُلْ تَعَـالَوْا » لأن « قـل » معتل ، فلم يجمعوا عليه علتين . والتربص الانتظار . يقال : تربص بالطعام أى انتظر به إلى حين الغلاء . والحسنى تأنيث الأحسن . وواحد الحسنيين حسنى ، والجمـع الحسنى . ولا يجوز أن ينطق به إلا معرّفا . لا يقال : رأيت امرأة حسنى . والمراد بالحُسْنَيين الغنيمة والشهادة؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . واللفظ استفهام والمعـنى توبيخ . ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَـكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْـدِهِ﴾ أى عقوبة تهلككم ؛ كما أصاب الأمم الخالية من قبلكم . ﴿أَوْ بِأَيْدِينَـا﴾ أى يؤذن لنـا فى قتالكم . ﴿فَتَرَبَّصُـوا﴾ تهـديد ووعيد . أى انتظروا مواعد الشيطان إنا منتظرون مواعد الله .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠٣ . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢١ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قال ابن عباس : نزلت في الجدّ بن قيس إذ قال ائذن لي في القعود وهذا مالي أعينك به . ولفظ ﴿ أَنْفِقُوا ﴾ أمرٌ ، ومعناه الشرط والجزاء . وهكذا تستعمل العرب في مثل هذا ، تأتي بأو ؛ كما قال الشاعر[1] :

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومةً ✱ لدينا ولا مَقْلِيّةً إن تَقَلّتِ

والمعنى إن أسأتِ أو أحسنتِ فنحن على ما تعرفين . ومعنى الآية : إن أنفقتم طائعين أو مكرهين فلن يقبل منكم . ثم بيّن جل وعز لم لا يقبل منهم فقال : « وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ » فكان في هذا أدلّ دليل وهي :

الثانيــة — على أن أفعال الكافر إذا كانت برًّا كصلة القرابة وجبر الكسير وإغاثة الملهوف لا يثاب عليها ولا ينتفع بها في الآخرة ؛ بَيْدَ أنه يُطْعَم بها في الدنيا . دليلُه ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله ، ابن جُدعان كان في الجاهلية يَصل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه ؟ قال : "لا ينفعه ، إنه لم يقل يوما رَبِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين" . وروى عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يُعْطَى بها في الدنيا ويُجْزَى بها في الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل لله بها في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها" . وهذا نصٌّ . ثم قيل : هل بحكم هذا الوعد الصادق لا بدّ أن يطعم الكافر ويعطى بحسناته في الدنيا، أو ذلك مقيّد بمشيئة الله المذكورة في قوله : « عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ[2] » وهذا هو الصحيح من القولين، والله أعلم . وتسمية ما يصدر عن الكافر حسنة إنما هو بحسب

(١) هو كثير عزة ، كما في كتاب الأمالي لأبي علي القالي .	(٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٥ .

Marfat.com

ظنّ الكافر ، وإلا فلا يصح منه قُرْبة ، لعدم شرطها المصحِّح لها وهو الإيمان . أو سُمّيت حسنة لأنها تشبه صورة حسنة المؤمن ظاهرا . قولان أيضا .

الثالثـــة — فإن قيل : فقد روى مسلم عن حكيم بن حِزام أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أىْ رسولَ الله ، أرأيت أمورا كنتُ أتحنّث(١) بها فى الجاهلية من صدقة أو عتاقة أو صلةِ رحِم أفيها أجر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أسلمتَ على ما أسلفتَ من خير" . قلنـا قوله : "أسلمت على ما أسلفت من خير" مخالف ظاهره للأصول ، لأن الكافر لا يصح منـه التقرّب لله تعالى فيكون مثـابا على طاعته ؛ لأن من شرط المتقرِّب أن يكون عارفا بالمتقرَّب إليه ، فإذا عدم الشرط انتفى صحة المشروط . فكان المعنى فى الحديث: إنك ٱكتسبت طباعا جميلة فى الجاهلية أكسبتك عادة جميلة فى الإسلام . وذلك أن حكيما رضى الله عنـه عاش مائة وعشرين سـنة ؛ ستّين فى الإسلام وستّيـن فى الجاهلية، فأعتق فى الجاهلية مائة رقبـة وحمل على مائة بعير؟ وكذلك فعل فى الإسلام . وهذا واضح . وقـد قيل : لا يبعد فى كرم الله أن يثيبه على فعله ذلك بالإسلام، كما يسقط عنه ما ارتكبه فى حال كفره من الآثام . وإنما لا يثاب من لم يسلم ولا تاب، ومات كافرا . وهذا ظاهر الحديث . وهو الصحيح إن شاء الله . وليس عدم شرط الإيمـان فى عدم ثواب ما يفعله من الخير ثم أسلم ومات مسلما بشرط عقلى لا يتبدّل، والله أكرم من أن يضيع عمله إذا حسن إسلامه . وقد تأوّل الحربى الحديث على هذا المعنى فقال : "أسلمتَ على ما أسلفتَ"؛ أى ما تقدّم لك من خير عملتـه فذلك لك . كما تقول : أسلمت على ألف درهم ؛ أى على أن أحرَزَها لنفسه . والله أعلم .

الرابعـــة — فإن قيـل : فقد روى مسلم عن العباس قال : قلت يا رسول الله [إن] أبا طالب كان يحوطك وينصرك، فهل نفعه ذلك ؟ قال : "نعم ، وجدته فى غمرات من النـار فأخرجته إلى ضحْضاح(٢)" . قيـل له : لا يبعد أن يخفف عن الكافر بعض العـذاب

(١) التحنث : التعبد .
(٢) الضحضاح فى الأصل : ما رق من الماء على وجه الأرض ، ما يبلغ الكعبين . فاستعاره للنار .

Marfat.com

بما عمل من الخير، لكن مع انضمام شفاعة ، كما جاء في أبي طالب . فأما غيره فقد أخبر التنزيل بقوله : « فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » (١) . وقال مخبرا عن الكافرين : « فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ » (٢) . وقد روى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذُكر عنده عمه أبو طالب فقال : "لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيُجعل في ضَحْضاح من النار يبلغ كعبيه يَغلي منه دماغه" . من حديث العباس (٣) [رضي الله عنه] : "ولولا أنا لكان في الدّرك الأسفل من النار" .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ أي كافرين .

قوله تعالى : وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — [قوله تعالى] (٤) : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ ﴾ « أنْ » الأولى في موضع نصب ، والثانية في موضع رفع . والمعنى : وما منعهم من أن تقبل منهم نفقاتهم إلا كفرهم وقرأ الكوفيون « أن يُقبل منهم » بالياء؛ لأن النفقات والإنفاق واحد .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى ﴾ قال ابن عباس : إن كان في جماعة صلى وإن انفرد لم يصلّ، وهو الذي لا يرجو على الصلاة ثوابا ولا يخشى في تركها عقابا . فالنفاق يورث الكسل في العبادة لا محالة . وقد تقدّم في « النساء » (٥) القول في هذا كله . وقد ذكرنا هناك حديث العلاء (٦) مُوعَبا . والحمد لله .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ لأنهم يعدونها مَغْرَمًا ومنعها مَغْنَما . وإذا كان الأمر كذلك فهي غير متقبَّلة ولا مثاب عليها حسب ما تقدّم .

(١) راجع جـ ١٩ ص ٨٢ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٤ ص (٣) من ب وجـ وهـ وى .
(٤) من ك وجـ . (٥) راجع جـ ٥ ص ٤٢٢ . (٦) لعل صوابه : حديث الأعرابي .

Marfat.com

قوله تعـالى : فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾

أى لا تستحسن ما أعطيناهم ولا تَمِل إليه فإنه استدراج . ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ قال الحسن : المعنى بإخراج الزكاة والإنفاق فى سبيل الله . وهـذا اختيار الطبرى . وقال ابن عباس وقتـادة : فى الكلام تقـديم وتأخير ؛ والمعـنى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا إنمـا يريد الله ليعذبهم بهـا فى الآخرة . وهذا قول أكثر أهل العربية ؛ ذكره النحاس . وقيل : يعذبهم بالتعب فى الجمع . وعلى هـذا التأويل وقول الحسن لا تقديم فيه ولا تأخير ؛ وهو حسنٌ . وقيـل : المعنى فلا تعجبـك أموالهم ولا أولادهم إنمـا يريد الله ليعذبهم بها فى الدنيا لأنهم منافقون ، فهم ينفقون كارهين فيعذّبون بما ينفقون . ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ نصٌّ فى أنـ الله يريد أن يموتوا كافرين ؛ سـبق بذلك القضاء . ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُـمْ لَمِنْكُمْ﴾ بيّن أن من أخلاق المنافقين الحلفَ بأنهم مؤمنون . نظيره « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ »(1) الآية . والفَـرَق الخوف ؛ أى يخافون أن يظهروا ما هم عليه فيُقتلوا .

قوله تعـالى : لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعـالى : ﴿لَوْ يَجِـدُونَ مَلْجَأً﴾ كذا الوقف عليـه . وفى الخـط بألفين : الأولى همزة ، والثانية عوض من التنوين ؛ وكذا [رأيت] جزءا . والملجأ الحصن ؛ عن قتادة وغيره . ابن عباس : الحرز ؛ وهما سواء . يقال : لجأت إليه لجأ (بالتحريك)(2) وملجأ والتجأت إليه

(1) راجع جـ ١٨ ص ١٢٠ . (2) هذه عبارة الجوهرى فى صحاحه . والذى فى اللسان والقاموس أنه يقال لجأ لجأ ، مثل منع منعا . ولجىء لجأ مثل فرح فرحا .

Marfat.com

بمعنًى . والموضع أيضا لَجأً ومَلْجأً . والتلجئة الإكراه . وألجأته إلى الشيء اضطررته إليه . وألجأت أمرى إلى الله أسندته . وعمرو بن لجأ التيمي[(١)] الشاعر؛ عن الجوهري . ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ جمع مَغارة؛ من غار يغير . قال الأخفش : ويجوز أن يكون من أغار يُغير؛ كما قال الشاعر:

* الحمد لله مُمسانا ومُصبحنا[(٢)] *

قال ابن عباس : المغارات الغيران والسراديب، وهي المواضع التي يستتر فيها؛ ومنه غار الماء وغارت العين . ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ مفتعل من الدخول؛ أي مسلكا نختفي بالدخول فيه، وأعاده لاختلاف اللفظ . قال النحاس : الأصل فيه مدتخل، قلبت التاء دالا ؛ لأن الدال مجهورة والتاء مهموسة وهما من مخرج واحد . وقيل : الأصل فيه مُتَدَخَّل على مُتَفَعَّل ؛ كما في قراءة أُبيّ : «أو مُتَدَخَّلا» ومعناه دخول بعد دخول، أي قوما يدخلون معهم . المهدوي : متدخَّلا من تدخّل مثل تفعّل إذا تكلّف الدخول . وعن أُبيّ أيضا : مُنْدَخَلا من اندخل ، وهو شاذ ، لأن ثلاثيه غير متعدّ عند سيبويه وأصحابه . وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وابن مُحَيصن : « أو مَدْخلا » بفتح الميم وإسكان الدال . قال الزجاج : ويقرأ « أو مُدْخلا » بضم الميم وإسكان الدال . الأول من دخل يدخل . والثاني من أدخل يدخل . كذا المصدر والمكان والزمان كما أنشد سيبويه :

* مُغارَ ابنِ همّامٍ على حيّ خَثْعَما[(٣)] *

ورُوي عن قتادة وعيسى والأعمش « أو مدّخّلا » بتشديد الدال والخاء . والجمهور بتشديد الدال وحدها ؛ أي مكانا يدخلون فيه أنفسهم . فهذه ست قراءات . ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾

---

(١) كذا في الصحاح للجوهري «التميمي» . والصواب أنه «التيمي» . لأنه من تيم بن عبد مناة بن أدّ بن طابخة . ومات عمر بن لجأ بالأهواز ، وكان يهاجي جريرا . (عن الشعر والشعراء) .

(٢) هذا صدر بيت لأمية ابن أبي الصلت . وعجزه : * بالخير صبحنا ربي ومسانا *

(٣) هذا عجز بيت لحميد بن ثور . وصدره : * وما هي إلا في إزار وعلقة *
وصف امرأة كانت صغيرة السن كانت تلبس العلقة وهي من لباس الجواري ، وهي ثوب قصير بلا كمين تلبسه الصبية تلعب فيه ، ويقال له الأتب والبقيرة ، وكانت تلبسه وقت إغارة ابن همام على هذا الحي . وخثعم قبيلة من اليمن . (عن شرح الشواهد) .

Marfat.com

أى لرجعوا إليه . ﴿ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أى يسرعون ، لا يردّ وجوههم شىء . من جمح الفرس إذا لم يرده اللجام . قال الشاعر :

سَبُوحًا جَمُوحا وإحضارها * كَمَعْمعة السَّعَف المُوقَدِ (١)

والمعنى: لو وجدوا شيئا من هذه الأشياء المذكورة لولّوا إليه مسرعين هربا من المسلمين.

قوله تعـالى : وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ أى يطعن عليك ؛ عن قتـادة . الحسن : يعيبك . وقال مجاهد : أى يَرُوزك (٢) ويسألك . النحاس : والقول عند أهل اللغة قول قتـادة والحسن . يقـال : لَمَزه يلمِزه إذا عابه . واللَّمْز فى اللغة العيب فى السر . قال الجوهرى : اللز العيب، وأصله الإشارة بالعين ونحوها، وقد لمزه يلمِزه ويلمُزه وقرئ بهما « وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ » . ورجل لمـاز ولُمَزَة أى عيّاب . ويقال أيضا : لمزه يلمزه إذا دفعه وضربه . والهَمْز مثل اللز . والهامز والهماز العيّاب ، والهُمَزة مثله . يقال : رجل هُمَزة وآمرأة هُمَزة أيضا . وهَمَزه أى دفعه وضربه . ثم قيل : اللز فى الوجه ، والهمز بظَهْر الغَيْب . وصف الله قوما من المنافقين بأنهم عابوا النبىّ صلى الله عليـه وسلم فى تفريق الصدقات ، وزعموا أنهم فقراء ليعطيهم . قال أبو سعيد الخُدْرىّ : بينا رسول الله صلى الله عليـه وسلم يُقسم مالا إذ جاءه حُرْقُوص بن زهـير أصلُ الخوارج، ويقال له ذو الخُوَيصرة التميمىّ ؛ فقال : اعدل يارسول الله . فقال : " وَيْلَك ومَن يعدل إذا لم أعدل " فنزلت الآية . حديث صحيح أخرجه مسلم بمعناه . وعندها قال عمر بن الخطاب رضى الله عنـه : دعنى يارسول الله فأقتلَ هذا المنافق . فقال : "معاذ الله أن يتحدّث الناس أنى أقتل أصحابى إنّ هذا وأصحابَه يقرءون القرآن لا يُجاوز حناجرهم يَمْرُقون منه كما يَمْرُق السهم من الرّمِيّة " .

(١) البيت لامرئ القيس . والإحضار : العدو .

(٢) الروز : الامتحان والتقدير .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَآ ءَاتَنٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ جواب « لو » محذوف ، التقدير لكان خيرا لهـم .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

فيه ثلاثون مسألة :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ خص الله سبحانه بعض الناس بالأموال دون بعض نعمـة منه عليهم ، وجعل شكر ذلك منهـم إخراج سهم يؤدّونه إلى من لا مال له ، نيابة عنه سبحانه فيما ضمِنه بقوله : «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا»(١) .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ تبيين لمصارف الصدقات والمحلّ؛ حتى لاتخرج عنهم . ثم الاختيار إلى مَن يقسم؛ هذا قول مالك وأبى حنيفة وأصحابهما . كما يقال : السّرج للدابة والباب للدار . وقال الشافعيّ : اللام لام التمليك؛ كقولك : المـال لزيد وعمرو و بكر، فلا بدّ من التسوية بين المذكورين . قال الشافعيّ وأصحابه : وهـذا كما لو أوْصَى لأصناف معينين أو لقوم معيّنين . واحتجوا بلفظة «إنمـا» وأنها تقتضى الحصر فى وقوف الصدقات على الثمانية الأصناف، وعَضَدُوا هذا بحديث زياد بن الحارث الصُّدائى قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبعث إلى قومى جيشا فقلت : يا رسول الله، آحبس جيشك فأنا لك بإسلامهم وطاعتهم، وكتبتُ إلى قومي فجاء إسلامهم وطاعتهم. فقال رسول الله صلى الله عليه

(١) راجع جـ ٩ ص ٦ .

وسلم : " يا أخا صُداء المطاعُ فى قومه " . قال : قلت بل مَنّ الله عليهم وهداهم ؛ قال : ثم جاءه رجل يسأله عن الصدقات ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله لم يرض فى الصـدقات بحكم نبىّ ولا غيره حتى جزّأها ثمـانية أجزاء فإن كنت من أهل تلك الأجزاء أعطيتك " رواه أبو داود والدَّارَقُطْنى . واللفـظ للدارقطنى . وحكى عن زين العابدين أنه قال : إنه تعالى علِم قدر ما يدفع من الزكاة وما تقع به الكفاية لهذه الأصناف ، وجعله حقا لجميعهم ، فمن منعهم ذلك فهو الظالم لهم رزقهم . وتمسك علماؤنا بقوله تعالى : « إِنْ تُبْدُوا الصَّـدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ »(1) . والصـدقة متى أطلقت فى القرآن فهى صدقة الفرض . وقال صلى الله عليه وسلم : "أُمرت أن آخذ الصـدقة من أغنيائكم وأردّها على فقرائكم" . وهذا نص فى ذكر أحد الأصناف الثمانية قرآنا وسنة ؛ وهو قول عمـر بن الخطاب وعلىّ وآبن عباس وحُذيفة . وقال به من التابعين جمـاعة . قالوا : جائز أن يدفعها إلى الأصناف الثمانية ، و إلى أى صنف منها دفعتَ جاز . روى المِنْهال بن عمرو عن زِرّ بن حُبيش عن حُذيفة فى قوله : « إِنَّمَـا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ» قال: إنمـا ذكر الله هذه الصدقات لتُعرف ، وأىّ صنف منها أعطيتَ أجزأك . وروى سـعيد آبن جُبير عن آبن عباس « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ » قال : فى أيها وضعت أجزأ عنك . وهو قول الحسن و إبراهيم وغيرهما . قال الكِيَا الطبرىّ : حتى آدعى مالك الإجماع على ذلك .

قلت : يريد إجمـاع الصحابة ؛ فإنه لا يُعلم لهم مخالف منهـم على ما قال أبو عمـر ، والله أعلم . آبن العربىّ : والذى جعلناه فَيْصلا بيننا و بينهم أن الامة آتفقت على أنه لو أُعطِى كلُّ صنف حظّه لم يجب تعميمه ، فكذلك تعميم الأصناف مثله . والله أعلم .

الثالثـــة — وآختلف علماء اللغة وأهل الفقه فى الفرق بين الفقير والمسكين على تسعة أقوال : فذهب يعقوب بن السِّكِّيت والقُتَبى و يونس بن حبيب إلى أن الفقير أحسن حالا من

(1) راجع جـ ٣ ص ٣٣٢ .

المسكين . قالوا : الفقير هو الذى له بعض ما يكفيه و يقيمه ، والمسكين الذى لا شيء له ؛ واحتجّوا بقول الراعى :

أما الفقــير الذى كانت حَلُوبَتُه * وَفْقَ العيَــال فلم يُترك له سَــبَدُ (١)

وذهب إلى هذا قوم من أهل اللغة والحديث منهم أبو حنيفة والقاضى عبــد الوهاب ، والوفق من الموافقة بين الشيئين كالالتحام ؛ يقال : حلوبته وفق عياله أى لها لبن قدر كفايتهم لا فضل فيه ؛ عن الجوهرى . وقال آخرون بالعكس ؛ فجعلوا المسكين أحسنَ حالا من الفقير. واحتجوا بقوله تعــالى : « أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِى الْبَحْرِ (٢) » . فأخبر أن لهم سفينة من سفن البحر . وربمــا ساوت جملةً من المــال . وعَضَدوه بما رُوى عن النــبى صلى الله عليه وســلم أنه تعوّذ من الفقرِ . وروى عنــه أنه قال : " اللّهم أحْيِنى مســكينا وأمتنى مسكينا " . فلوكان المسكين أسوأ حالا من الفقير لتناقض الخــبران ؛ إذ يستحيل أن يتعوّذ من الفقر ثم يسأل ما هو أسوأ حالا منــه ، وقد استجاب الله دعاءه وقبَضه وله مال مما أفاء الله عليه ، ولكن لم يكن معه تمــام الكفاية ؛ ولذلك رَهن دِرعه . قالوا : وأما بيت الراعى فلا حجة فيه ؛ لأنه إنما ذكر أن الفقير كانت له حَلُوبة فى حال . قالوا : والفقير معناه فى كلام العرب المفقور الذى نُزعت فِقَرُه (٣) من ظهره من شدّة الفقر فلا حال أشدّ من هــذه . وقد أخبر الله عنهم بقوله « لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى الْأَرْضِ (٤) » . وآستشهدوا بقول الشاعر :

لمــا رأى لُبَدُ النُّسورِ تطايرت * رفعَ القــوادمَ كالفقيرِ الأعزلِ (٥)

أى لم يطق الطيران فصار بمنزلة من آنقطع صلبه ولِصق بالأرض . ذهب إلى هذا الأصمعىّ وغيره ، وحكاه الطحاوىّ عن الكوفيين . وهو أحد قولى الشافعىّ وأكثر أصحابه . وللشافعىّ

---

(١) السبد : الوبر . وقيــل الشعر . والعرب تقول : ما له سبد ولا لبــد ؛ أى ماله ذو وبر ولا صوف متلبد ويكنى بهما عن الإبل والغنم . (٢) راجع جـ ١١ ص ٣٣ فما بعده . (٣) الفقرة (بالكسر) والفقرة والفقارة (بفتحهما) : ما انتضد من عظام الصلب من لدن الكاهل إلى العجب . (٤) راجع جـ ٣ ص ٣٣٩ . (٥) البيت للبيد . ولبد : اسم آخر نســور لقمان بن عاد ؛ سمــاه بذلك لأنه لبد فبق لا يذهب ولا يموت . والقوادم : أربع أو عشر ريشات فى مقدّم الجناح ؛ الواحدة قادمة .

Marfat.com

قول آخر : أن الفقير والمسكين سواء، لا فرق بينهما فى المعنى وإن آفترقا فى الآسم؛ وهو القول الثالث . و إلى هذا ذهب ابن القاسم وسائرأصحاب مالك، و به قال أبو يوسف .

قلت : ظاهر اللفظ يدل على أن المسكين غير الفقير، وأنهما صنفان، إلا أن أحد الصّنفين أشدّ حاجة من الآخر؛ فمن هذا الوجه يقرب قول من جعلهما صنفا واحدا ، والله أعلم . ولا حجــة فى قول من احتج بقوله تعـالى : « أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ » . لأنه يحتمل أن تكون مستأجرة لهم؛ كما يقال : هــذه دار فلان إذا كان ساكنها وإن كانت لغيره . وقد قال تعالى فى وصف أهل النار : « وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ »(١) فأضافها إليهم . وقال تعالى : «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ»(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم : "من باع عبدا وله مال" وهو كثير جدا يضاف الشيء إليه وليس له . ومنه قولهم : باب الدار . وجُلّ الدابة، وسرج الفرس، وشبهه . ويجوز أن يُسمّوا مساكين على جهة الرحمــة والاستعطاف ؛ كما يقال لمن آمتُحن بنكبة أودفع إلى بلية مسكين . وفى الحديث "مساكين أهل النار" وقال الشاعر :

مساكين أهل الحب حتى قبورهم * عليها تراب الذل بين المقابر

وأمّا ما تأولوه من قوله عليه السلام : " اللهم أحيِني مسكينا " الحديث . رواه أنس، فليس كذلك؛ و إنمـا المعنى ها هنا : التواضع لله الذى لا جبروت فيه ولا نخوة، ولا كبر ولا بطر، ولا تكبّر ولا أشر . ولقد أحسن أبو العتاهية حيث قال :

إذا أردت شريف القوم كلّهم * فآنظر إلى ملك فى زى مسكين

ذاك الذى عظُمت فى الله رغبته * وذاك يصلح للدنيـا وللدين

وليس بالسائل ، لأن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قد كره السؤال ونهى عنــه ، وقال فى آمرأة سوداء أبت أن تزول [له](٣) عن الطريق : "دَعُوها فإنها جبّارة(٤) " . وأما قوله تعالى : « لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ » فلا يمتنع أن يكون لهم شيء . والله أعلم . وما ذهب إليــه أصحاب مالك والشافعيّ فى أنهما ســواء حسن . ويقرب منه

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٥ . (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٧ فابعد . (٣) من جـ و ز و ك .
(٤) أى مستكبرة عاتية .

ما قاله مالك فى كتاب ابن سُحْنون، قال : الفقير المحتاج المتعفف، والمسكين السائل؛ وروى عن ابن عباس وقاله الزُّهْرِىّ[(١)] ، واختاره ابن شعبان وهو القـول الرابع . وقول خامس — قال محمد بن مسلمة : الفقير الذى له المسكن والخادم إلى من هو أسفل من ذلك . والمسكين الذى لا مال له .

قلت : وهـذا القول عكس ما ثبت فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو، وسأله رجل فقال : ألسنا من فقراء المهاجرين ؟ فقال له عبـد الله : ألك آمرأة تأوى إليها ؟ قال نعم . قال : ألك مسكن تسـكنه ؟ قال نعم . قال : فأنت من الأغنيـاء . قال : فإن لى خادما قال : فأنت من الملوك . وقول سادس — روى عن ابن عباس قال : الفقراء من المهاجرين، والمسـاكين من الأعراب الذين لم يهـاجروا؛ وقاله الضحاك . وقول سـابع — وهو أن المسكين الذى يخشع و يستكنّ وإن لم يسأل . والفقـير الذى يتحمل و يقبل الشىء سرًّا ولا يخشع؛ قاله عبيد الله بن الحسن . وقول ثامن قاله مجاهد وعِكْرِمة والزُّهرِىّ — المساكين الطوّافون ، والفقراء فقـراء المسلمين . وقول تاسع قاله عكرمة أيضا — أن الفقراء فقراء المسلمين ، والمساكين فقراء أهل الكتاب . وسيأتى .

الرابعـــة — وهى فائدة الخلاف فى الفقراء والمساكين، هل هما صنف واحد أو أكثر تظهر فيمن أوصى بثلث ماله لفلان وللفقراء والمساكين ؛ فمن قال هما صنف واحد قال : يكون لفلان نصف الثلث وللفقراء والمساكين نصفُ الثلث الثـانى . ومن قال هما صنفان يقسم الثلث بينهم أثلاثا .

الخامســـة — وقد اختلف العلماء فى حدّ الفقر الذى يجوز معه الأخذ — بعد إجماع أكثر من يحفظ عنه من أهل العلم — أن من له دارا وخادما لا يستغنى عنهما أن له أن يأخذ من الزكاة ، وللمعطِى أن يعطيه . وكان مالك يقول : إن لم يكن فى ثمن الدار والخادم فضلة عما يحتاج إليه منهما جاز له الأخذ وإلا لم يجز؛ ذكره ابن المنذر . و بقول مالك قال النَّخَعِى والثورىّ . وقال أبو حنيفة : من معه عشرون دينارا أو مائتا درهم فلا يأخذ من الزكاة .

(١) كذا فى كل الأصول ، هو محمـد بن القاسم بن شعبان إليه انتهت رئاسة المالكية بمصر توفى عام ٣٥٥ . وفى جـ : ابن سفيان . وهو خطأ .

Marfat.com

فاعتبر النصاب لقوله عليـه السلام : " أُمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردّها في فقرائكم" . وهذا واضح، ورواه المغيرة عن مالك . وقال الثوري وأحمد وإسحاق وغيرهم : لا يأخذ مَن له خمسون درهما أو قدرها من الذهب، ولا يعطَى منها أكثر من خمسين درهما إلا أن يكون غارما؛ قاله أحمد وإسحاق . وحجة هذا القول ما رواه الدَّارَقُطْنِيّ عن عبد الله ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا تحلّ الصدقة لرجل له خمسون درهما" . في إسناده عبد الرحمن بن إسحاق ضعيف ، وعنه بكر بن خنيس ضعيف أيضا . ورواه حكيم ابن جبير عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد عن أبيـه عن عبد الله عن النبيّ صلى الله عليه وسلم نحوه ، وقال : خمسون درهما . وحكيم بن جبير ضعيف تركه شعبة وغيره ؛ قاله الدَّارَقُطْنِيّ رحمه الله . وقال أبو عمر : هـذا الحديث يدور على حكيم بن جبير وهو متروك . وعن عليّ وعبدالله قالا : لا تحلّ الصدقة لمن له خمسون درهما أو قيمتها من الذهب؛ ذكره الدَّارَقُطْنِي وقال الحسن البصريّ : لا يأخذ مَن له أربعون درهما . ورواه الواقديّ عن مالك . وحجة هذا القول ما رواه الدَّارَقُطْنِيّ عن عبد الله بن مسعود قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " من سأل الناس وهو غَنِيّ جاء يوم القيامة وفي وجهه كدوح وخدوش" . فقيل : يا رسول الله وما غناؤه ؟ قال :" أربعون درهما " . وفي حديث مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يَسار عن رجل من بني أسد فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم :"من سأل منكم وله أوقية أو عدلها فقد سأل إلحافا والأوقية أربعون درهما " . والمشهور عن مالك ما رواه ابن القاسم عنه أنه سئل : هل يعطَى من الزكاة مَن له أربعون درهما ؟ قال نعم . قال أبو عمر : يحتمل أن يكون الأول قويّا على الاكتساب حَسن التصرف . والثـاني ضعيفا عن الاكتساب ، أو من له عيال . والله أعلم . وقال الشافعيّ وأبو ثَوْر . من كان قوِيا على الكسب والتحرّف مع قوّة البدن وحسن التصرف حتى يغنيه ذلك عن الناس فالصدقة عليه حرام . واحتج بحديث النبيّ صلى الله عليه وسلم " لا تحلّ الصدقة لغنيّ ولا لذي مِرّة سَويّ" [1] رواه عبد الله بن عمرو .

(١) المِرّة (بالكسر) : القوة والشدّة . والسويّ : الصحيح الأعضاء .

وأخرجه أبو داود والترمذيّ والدّارَقُطْنِيّ . وروى جابر قال : جاءت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم صدقة فركبه النـاس ؛ فقال : " إنهـا لا تصلح لغنيّ ولا لصحيح ولا لعامل " أخرجه الدّارقطنيّ . وروى أبو داود عن عبيد الله بن عَديّ بن الخيار قال : أخبرني رجلان أنهما أتيا النبيّ صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وهو يَقسم الصدقة فسألاه منها ، فرفع فينا النظر وخفضه ، فرآنا جَلْدَين فقال : " إن شـئتما أعطيتكما ولا حظّ فيها لغنيّ ولا لقـويّ مكتسب " . ولأنه قد صار غنيًّا بكسبه كغِنى غيره بمـاله فصار كل واحد منهما غنيّـا عن المسئلة . وقاله ابن خُوَيْزِمَنْدَاد ، وحكاه عن المذهب . وهذا لا ينبغي أن يعوّل عليه ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يعطيها الفقراء ووقوفها على الزَّمِن باطل . قال أبو عيسى الترمذيّ في جامعه : إذا كان الرجل قويا محتاجا ولم يكن عنده شيء فتُصدِّق عليه أجزأ عن المتصدّق عند أهل العلم . ووجه الحديث عند بعض أهل العلم على المسئلة . وقال الكِيَا الطبريّ : والظاهر يقتضي جواز ذلك ؛ لأنه فقـير مع قوّته وصحةِ بدنه . وبه قال أبو حنيفة وأصحابه . وقال عبيد الله بن الحسن : من لا يكون له ما يكفيه ويقيمه سَـنةً فإنه يعطى الزكاة . وحجتـه ما رواه ابن شهاب عن مالك بن أوس بن الحَدَثان عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدّخر مما أفاء الله عليه قوت سنة ، ثم يجعل ما سوى ذلك في الكُراع[(١)] والسلاح مع قوله تعـالى : « وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى »[(٢)] . وقال بعض أهل العلم : لكل واحد أن يأخذ من الصدقة فيما لا بدّ له منه . وقال قوم : من عنده عشاء ليلة فهو غنيّ ؛ وروى عن عليّ . واحتجوا بحديث عليّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من سأل مسألة عن ظَهر غنىً آستكثر بها من رَضْف[(٣)] جهنم " قالوا : يا رسول الله ، وما ظهر الغنى ؟ قال : " عشاء ليلة " . أخرجه الدّارَقُطْني وقال : في إسناده عمرو بن خالد وهو متروك . وأخرجه أبو داود عن سهل ابن الحَنْظَلية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وفيه : " من سأل وعنده ما يُغنيه فإنمـا يستكثر من النار " . وقال النُّفَيْلي في موضع آخر " من جمر جهنم " . فقالوا : يا رسول الله وما يغنيه؟

(١) الكراع (بالضم) : اسم يجمع الخيل . وقيل : هو اسم يجمع الخيل والسلاح .
(٢) راجع جـ ٢٠ ص ٩٩ .	(٣) الرضف : الحجارة المحماة على النار .

Marfat.com

وقال النُّفَيْلي في موضع آخر : وما الغنى الذى لا تنبغى معه المسئلة ؟ قال : " قدر ما يغـدّيه و يعشّيه " . وقال النّفيلي في موضع آخر : " أن يكون له شبع يوم وليلة أو ليلة و يوم " .

قلت : فهذا ما جاء في بيان الفقر الذى يجوز معه الأخذ . ومطلق لفظ الفقراء لا يقتضى الاختصاص بالمسلمين دون أهل الذمة ، ولكن تظاهرت الأخبار فى أن الصـدقات تؤخذ من أغنياء المسلمين فتُرد فى فقرائهم . وقال عكرمة : الفقراء فقراء المسلمين، والمساكين فقراء أهل الكتاب . وقال أبو بكر العبسى : رأى عمر بن الخطاب ذِمّيًا مكفوفا مطروحا على باب المدينة فقال له عمر: مالك ؟ قال : استكرونى فى هذه الجزية ، حتى إذا كُفَّ بصرى تركونى وليس لى أحد يعود علىّ بشىء . فقال عمر : ما أنصفتَ إذًا ؛ فأمر له بقُوته وما يصـلحه . ثم قال : هذا من الذين قال الله تعالى [فيهم] (١) : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ » الآية. وهم زَمْنَى أهل الكتاب . ولمـا قال تعالى : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ » الآية ، وقابل الجملة بالجملة وهى جملة الصدقة بجملة المصرف بيّن النبىّ صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال لمعـاذ حين أرسله إلى اليمن : " أخبرهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ فى فقرائهم " . فآختص أهل كل بلد بزكاة بلده . وروى أبو داود أن زيادا أو بعض الأمراء بعث عمران بن حُصين على الصدقة ، فلما رجع قال لعمران : أين المـال ؟ قال : وللمـال أرسلتنى ! أخذناها من حيث كنا نأخذها على عهد رسـول الله صلى الله عليه وسلم ووضعناها حيث كنا نضعها على عهد رسـول الله صلى الله عليه وسـلم . وروى الدَّارَقُطْنِي والترمذىّ عن عَوْن بن أبى جُحيفة [عن أبيـه] (٢) قال : قدم علينا مصدّق النبىّ صلى الله عليه وسلم فأخذ الصدقة من أغنيائنا فجعلها فى فقرائنا فكنت غلاما يتيما فأعطانى منها قَلُوصا . قال الترمذىّ: وفى الباب عن ابن عباس حديث آبن أبى جحيفة حديث حسن .

---

(١) من ى . (٢) زيادة عن سنن الدارقطنى والترمذى .

Marfat.com

السادســـة — وقد اختلفت العلمـاء في نقل الزكاة عن موضـعها على ثلاثة أقوال : لا تنقل ؛ قاله سُحْنون وآبن القاسم ، وهو الصحيح لمـا ذكرناه . قال ابن القاسم أيضا : وإن نُقل بعضها لضرورة رأيته صوابا . ورُوى عن سُحْنون أنه قال : ولو بلغ الإمام أن ببعض البلاد حاجة شديدة جاز له نقل بعض الصدقة المستحقة لغيره إليه ؛ فإن الحاجة إذا نزلت وجب تقديمها على من ليس بمحتاج "والمسلم أخو المسلم لا يُسْلِمه ولا يَظْلمه"[(١)] . والقول الثاني تنقل . وقاله مالك أيضا . وحجة هذا القول ما رُوى أن معاذا قال لأهل اليمن : ايتوني بخَمِيس أو لَبِيس آخذه منكم مكان الذرة والشعير في الصـدقة فإنه أيسر عليكم وأنفع للمهاجرين بالمدينـة . أخرجه الدَّارَقُطْنِيّ وغيره . والخميس لفظ مشـترك ، وهو هنا الثوب طوله خمس أذرع . ويقال : سُمِّيَ بذلك لأن أول من عمِله الخِمْس مَلِك من ملوك اليمن ؛ ذكره ابن فارس في المُجْمَل والجوهريّ أيضا . وفي هذا الحديث دليلان : أحدهما — ما ذكرناه من نقل الزكاة من اليمن إلى المدينة ؛ فيتولّى النبيّ صلى الله عليه وسلم قسمتها . ويَعْضُد هذا قوله تعالى : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ » ولم يفصّل بين فقير بلد وفقير آخر . والله أعلم . الثاني — أخذ القيمة في الزكاة . وقد اختلفت الرواية عن مالك في إخراج القِيَم في الزكاة[(٢)] ؛ فأجاز ذلك مرّةً ومنع منه أخرى ، فوجهُ الجواز — وهو قول أبي[(٣)] حنيفة — هذا الحديث . وثبت في صحيح البخاريّ من حديث أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "من بلغت عنده [من الإبل][(٤)] صدقة الجَذَعة وليست عنده [جذعة][(٤)] وعنده حِقّة فإنه تؤخذ[(٥)] منه وما آستيسرتا من شاتين أو عشرين درهما" . الحديث . وقال صلى الله عليه وسلم : "أغنوهم عن سؤال هذا اليوم" يعني يوم الفِطْر . وإنمـا أراد أن يُغنوا بمـا يسدّ حاجتهم ، فأيّ شيء سدّ حاجتهم جاز . وقد قال تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً »[(٦)] ولم يخص شيئا من شيء . ولا يُدفع عنـد أبي حنيفة سُكْنَى دار بدل الزكاة ؛ مثـل أن يجب عليه خمسة دراهم فأسكن فيها فقيرا شهرا فإنه لا يجوز . قال : لأن السكنى ليس بمـال .

---

(١) أي لا يتركه مع من يؤذيه بل يحميه .　(٢) في ب وجوى وز : الزكوات .

(٣) من هـ .　(٤) الزيادة عن صحيح البخاريّ .　(٥) في البخاريّ : « فإنها تقبل من الحقة ويجعل معها شاتين إن استيسرتا له أو عشرين درهما » .　(٦) راجع ص ٢٤٤ من هذا الجزء .

Marfat.com

ووجه قوله : « لا تجزى القيم » — وهو ظاهر المذهب — فلأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " في خمس من الإبل شاةٌ وفي أربعين شاةً شاةٌ " فنص على الشاة ، فإذا لم يأت بها لم يأت بمأمور به ، وإذا لم يأت بالمأمور به فالأمر باقٍ عليه .

القول الثالث — وهو أن سهم الفقراء والمساكين يقسم في الموضع ، وسائر السهام تنقل باجتهاد الإمام . والقول الأوّل أصح . والله أعلم .

السابعة — وهل المعتبر مكان المال وقت تمام الحول فتفرق الصدقة فيه ، أو مكان المالك إذ هو المخاطب ؛ قولان . واختار الثاني أبو عبد الله محمد بن خُوَيْزِمَنْدَاد في أحكامه قال : لأن الإنسان هو المخاطب بإخراجها فصار المال تبعا له ؛ فيجب أن يكون الحكم فيه بحيث المخاطب . كابن السبيل فإنه يكون غنيًا في بلده فقيرا في بلد آخر ؛ فيكون الحكم له حيث هو .

مسألة — واختلفت الرواية عن مالك فيمن أعطى فقيرا مسلما فآنكشف في ثاني حال أنه أعطى عبدا أو كافرا أو غنيًّا ؛ فقال مرة : تجزيه ومرّة لا تجزيه . وجه الجواز — وهو الأصح — ما رواه مسلم عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " قال رجل لأتصدّقنّ الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية فأصبحوا يتحدّثون تُصدِّق الليلة على زانية قال اللّهُم لك الحمد على زانية لأتصدّقنّ بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد غنيّ فأصبحوا يتحدّثون تُصدِّق على غنيّ قال اللّهُم لك الحمد على غنيّ لأتصدقنّ بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدّثون تُصدّق على سارق فقال اللّهُم لك الحمد على زانية وعلى غنيّ وعلى سارق فأُتِي فقيل له أمّا صدقتك فقد قُبلت أما الزانية فلعلّها تستعفّ بها عن زناها ولعلّ الغنيّ يعتبر فينفق ممّا أعطاه الله ولعل السارق يستعف بها عن سرقته " . وروى أن رجلا أخرج زكاة ماله فأعطاها أباه ، فلما أصبح علم بذلك ؛ فسأل النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال له : " قد كُتب لك أجر زكاتك وأجر صلة الرحم فلك أجران " . ومن جهة المعنى أنه سوّغ له الاجتهاد في المعطى ، فإذا اجتهد وأعطى من يظنه من أهلها فقد أتى بالواجب عليه .

Marfat.com

ووجه قوله : لا يَجْزِى . أنه لم يضعها فى مستحقّها ؛ فأشبه العمد ، ولأن العمد والخطأ فى ضمان الأموال واحد فوجب أن يضمن ما أتلف على المساكين حتى يُوصِله إليهم .

الثامنة — فإن أخرج الزكاة عند محلّها فهلكت من غير تفريط لم يضمن ؛ لأنه وكيل للفقراء . فإن أخرجها بعد ذلك بمدة فهلكت ضمِن ؛ لتأخيرها عن محلها فتعلّقت بذمته فلذلك ضمن . والله أعلم .

التاسعة — وإذا كان الإمام يعدل فى الأخذ والصرف لم يَسُغ للمالك أن يتولّى الصرف بنفسه فى النَّاضّ (١) ولا فى غيره . وقد قيل : إن زكاة النَّاضّ على أربابه (٢) . وقال ابن الماجشون : ذلك إذا كان الصرف للفقراء والمساكين خاصة ؛ فإن احتيج إلى صرفها لغيرهما من الأصناف فلا يفرّق عليهم إلا الإمام . وفروع هذا الباب كثيرة ، هذه أمّهاتها .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ يعنى السُّعاة والجُباة الذين يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة بالتوكيل على ذلك . روى البخارى عن أبى حُميد الساعدى قال : استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الأسْد على صدقات بنى سُليم يُدْعَى ابن اللُّتْبِيَّة (٣) ، فلما جاء حاسبه . وٱختلف العلماء فى المقدار الذى يأخذونه على ثلاثة أقوال : قال مجاهد والشافعى : هو الثُّمن . ابن عمر ومالك : يُعطَوْن قدر عملهم من الأجرة ؛ وهو قول أبى حنيفة وأصحابه . قالوا : لأنه عطّل نفسه لمصلحة الفقراء ، فكانت كفايته وكفاية أعوانه فى مالهم ؛ كالمرأة لما عطّلت نفسها لحقّ الزوج كانت نفقتها ونفقة أتباعها من خادم أو خادمين على زوجها . ولا تقدّر بالثمن ، بل تعتبر الكفايةُ ثُمُنًا كان أو أكثر ؛ كرزق القاضى . ولا تعتبر كفاية الأعوان فى زماننا لأنه إسراف محض . القول الثالث — يُعطون من بيت المال . قال ابن العربى : وهذا قول صحيح عن مالك بن أنس من رواية ابن

(١) الناض من المال : هو الدرهم والدينار ؛ وإنما يسمى ناضا إذا تحوّل نقدا بعد أن كان متاعا .

(٢) فى ب و ى : إلى .   (٣) اختلف فى ضبطه ؛ فقيل بضم اللام وسكون التاء ، وحكى فتحها . وقيل : بفتح اللامَ والمثناة ، واسمه عبد الله ، وكان من بنى تولب حى من الأزد . وقيل : اللتبية أمه .

أبي أُوَيس وداود بن سعيد بن زنبوعة ، وهو ضعيف دليلا ؛ فإن الله سبحانه قد أخبر بسهمهم فيها نصًّا فكيف يخلفون عنه استقراء وسَبْرا . والصحيح الاجتهاد فى قدر الأجرة ؛ لأن البيان فى تعديد الأصناف إنما كان للحل لا للمستحق ، على ما تقدّم .

وآختلفوا فى العامل إذا كان هاشميًّا ؛ فمنعه أبو حنيفة لقوله عليه السلام : " إن الصدقة لا تحلّ لآل محمد إنما هى أوساخ الناس " . وهـذه صدقة من وجه ؛ لأنها جزء من الصدقة فتُلحق بالصدقة من كل وجه كرامة وتنزيها لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن غُسالة الناس . وأجاز عمـله مالك والشافعىّ ، ويُعطى أجر عُمالته ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم بعث علىّ بن أبى طالب مصدّقا ، وبعثه عاملا إلى اليمن على الزكاة ، وولّى جماعة من بنى هاشم وولّى الخلفاء بعـده كذلك . ولأنه أجير على عمل مباح فوجب أن يستوى فيه الهاشمىّ وغيره اعتبارا بسائر الصناعات . قالت الحنفية : حديث علىّ ليس فيه أنه فرض له من الصدقة ، فإن فرض له من غيرها جاز . وروى عن مالك .

الحادية عشرة — ودلّ قوله تعالى : ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ على أن كل ما كان من فروض الكفايات كالساعى والكاتب والقَسّام والعاشر وغيرهم فالقائم به يجوز له أخذ الأجرة عليه . ومن ذلك الإمامة ؛ فإن الصلاة وإن كانت متوجّهة على جميع الخلق فإن تقدّم بعضهم بهم من فروض الكفايات ، فلا جَرَم يجوز أخذ الأجرة عليها . وهذا أصل الباب ، وإليه أشار النبىّ صلى الله عليه وسلم بقوله : " ما تركت بعد نفقة نسائى (١) ومؤنة عاملى فهو صدقة " قاله ابن العربىّ .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ لا ذكر للمؤلفة قلوبهم فى التنزيل فى غير قَسْم الصدقات ؛ وهم قوم كانوا فى صدر الإسلام ممن يظهر الإسلام ، يتألّفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم . قال الزهرىّ : المؤلّفة من أسلم من يهودىّ أو نصرانىّ وإن كان غنيًّا . وقال بعض المتأخرين : آختلف فى صفتهم ؛ فقيل : هم صنف من الكفار

(١) فى ابن العربى : « عيالى » .

يعطون ليتألفوا على الإسـلام ، وكانوا لا يُسلمون بالقهـر والسيف ، ولكن يسلمون بالعطاء والإحسان . وقيل : هم قوم أسلموا فى الظاهر ولم تستيقن قلوبهم ، فيُعطَوْن ليتمكن الإسلام فى صدورهم . وقيـل : هم قوم من عظماء المشركين لهم أتبـاع يُعطون ليتألفوا أتباعهم على الإسلام . قال : وهذه الأقوال متقاربة ، والقصد بجميعها الإعطاءُ لمن لا يتمكن إسلامه حقيقةً إلا بالعطاء ، فكأنه ضربٌ من الجهاد . والمشركون ثلاثة أصناف : صنف يرجع بإقامة البرهان . وصنف بالقهر . وصنف بالإحسان . والإمام الناظر للسلمين يستعمل مع كل صنف ما يراه سببا لنجاته وتخليصه من الكفر . وفى صحيح مسلم من حديث أنس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم — أعنى للأنصار — : "فإنى أُعطى رجالا حديثى عَهْدٍ بكفر أتألفهم" الحديث . قال ابن إسحاق : أعطاهم يتألفهم ويتألف بهم قومهم . وكانوا أشرافا ، فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير ، وأعطى ابنه مائة بعير ، وأعطى حَكيم بن حِزام مائة بعير ، وأعطى الحارث ابن هشام مائة بعير ، وأعطى سُهيل بن عمرو مائة بعير ، وأعطى حُوَيطب بن عبد العُزَّى مائة بعير ، وأعطى صفوان بن أمية مائة بعير . وكذلك أعطى مالك بن عوف والعلاء بن جارية . قال : فهؤلاء أصحاب المئين . وأعطى رجالا من قريش دون المـائة منهـم مخرمة بن نوفل الزهرىّ ، وعمير بن وَهْب الجُمَحىّ ، وهشام بن عمرو العامرىّ . قال ابن إسحاق : فهؤلاء لا أعرف ما أعطاهم . وأعطى سـعيد بن يَرْبُوع خمسين بعيرا ، وأعطى عباس بن مِرداس السُّلَمىّ أباعِرَ قليلةً فسخطها . فقال فى ذلك :

كانت نِهـابًا تلافيْتُهـا * بكَرّى على المُهْرِ فى الأَجْرَع (١)

وإيقاظِىَ القومَ أن يرقدوا * إذا هَجَـع النـاس لم أهجـع

فأصـبحَ نَهْـبِى ونَهْب العُبَيْـدِ بين عُيَيْنـة والأَقْرَع (٢)

وقد كنتُ فى الحرب ذا تُدْرَإٍ (٣) * فـلم أُعْطَ شيئا ولم أُمْنَـع

(١) الأجرع : المكان الواسع الذى فيـه حزونة وخشونة . (٢) العبيد (مصغر) : اسم فرس العباس ابن مرداس . (٣) ذو تدرأ (بضم التاء) : أى ذو هجوم لا يتوقى ولا يهاب ؛ ففيه قوة على دفع أعدائه .

Marfat.com

إلا أفائــل أعطيتهـا[1] • عـــديد قوائمــه الأربــع
وما كان حصنٌ ولا حابسٌ • يفوقان مِرْداس فى المجمــع
وما كنتُ دون آمرئ منهما • ومن تَضـع اليومَ لا يُرْفَـع

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اذهبوا فاقطعوا عنى لسانه " . فأعطوه[2] حتى رَضِىَ ؛ فكان ذلك قَطْع لسانه . قال أبو عمر : وقد ذُكِر فى المؤلفة قلوبهم النُّضير بن الحارث بن علقمة ابن كَلَدة ، أخو النضر بن الحارث المقتول ببــدر صَبْرًا . وذكر آخرون أنه فيمن هاجر إلى الحبشة ؛ فإن كان منهم فمحال أن يكون من المؤلفــة قلوبهم ؛ ومن هاجر إلى أرض الحبشة فهو من المهاجرين الأولين ممن رسخ الإيمان فى قلبه وقاتل دونه ، وليس ممن يؤلّف عليــه . قال أبو عمر : واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن عوف بن سعد [بن يربوع][3] النّصرى على من أسلم من قومه من قبائل قيس ، وأمره بمغاورة ثقيف ففعل وضيّق عليهم ، وحسن إسلامه وإسلام المؤلفة قلوبهم ، حاشا عُيينة بن حِصن فلم يزل مغموزا[4] عليه . وسائر المؤلفة متفاضلون ، منهم الخيِّر الفاضل المجتمَع على فضله ، كالحارث بن هشام ، وحكيم بن حِزام ، وعكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو ، ومنهم دون هؤلاء . وقــد فضل الله النبيين وسائر عباده المؤمنين بعضهم على بعض وهو أعلم بهم . قال مالك : بلغنى أن حكيم بن حِزام أخرج ما كان أعطاه النبىّ صلى الله عليه وسلم فى المؤلفة قلوبهم فتصدّق به بعد ذلك .

قلت : حكيم بن حزام وحُويطب بن عبد العُزّى عاش كل واحد منهما مائة وعشرين سنة ، ستين فى الإسلام وستين فى الجاهلية . وسمعت [الإمام][5] شيخنا الحافظ أبا محمد عبد العظيم يقول : شخصان من الصحابة عاشا فى الجاهلية ستين سنة وفى الإسلام ستين سنة ، وماتا بالمدينة سنة أربع وخمسين ؛ أحدهما حكيم بن حزام ، وكان مولده فى جوف الكعبة قبل عام الفيل بثلاث عشرة سنة . والثانى حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الأنصارىّ . وذكر هذا أيضا أبو عمر وعثمان الشَّهْرُزُورىّ فى كتاب معرفة أنواع علم الحديث له ، ولم يذكرا غيرهما . وحُويطب ذكره

(١) الأفائل : صغار الإبل . (٢) فى ب : فأعطى . (٣) من ج و ز و ك و ى . وفى أسد الغابة : ابن ربيعة بن يربوع . (٤) المغموز : المتهم . (٥) من ج و ز .

أبو الفرج الجوزى فى كتاب الوفا فى شرف المصطفى . وذكره أبو عمر فى كتاب الصحابه أنه أدرك الإسلام وهو ابن ستين سنة، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة . وذكر أيضا حمنن ابن عوف أخو عبد الرحمن بن عوف، أنه عاش فى الإسلام ستين سنة وفى الجاهلية ستين سنة . وقد عُدّ فى المؤلفة قلوبهم معاوية وأبوه أبوسفيان بن حرب. أما معاوية فبعيد أن يكون منهم؛ فكيف يكون منهم وقد ائتمنه النبيّ صلى الله عليه وسلم على وحى الله وقراءته وخلطه بنفسه . وأما حاله فى أيام أبى بكر فأشهر من هـذا وأظهر . وأما أبوه فلا كلام فيه أنه كان منهم . وفى عددهم اختلاف، وبالجملة فكلهم مؤمن ولم يكن فيهم كافر على ما تقدّم، والله أعلم وأحكم .

الثالثة عشرة — واختلف العلماء فى بقائهم؛ فقال عمر والحسن والشّعبيّ وغيرهم : انقطع هذا الصِّنف بعز الإسلام وظهوره . وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأى . قال بعض علماء الحنفية : لمـا أعز الله الإسلام وأهـله وقطع دابر الكافرين — لعنهم الله — اجتمعت الصحابة رضوان الله عنهم أجمعين فى خلافة أبى بكر (١) رضى الله عنه على سقوط سهمهم . وقال جماعة من العلمـاء : هم باقون؛ لأن الإمام ربما احتاج أن يستألف على الإسلام . وإنمـا قطعهم عمر لمـا رأى من إعزاز الدِّين . قال يونس : سألت الزُّهْرِيّ عنهم فقال : لا أعلم نسخا فى ذلك . قال أبو جعفر النحاس : فعلى هذا الحُكم فيهم ثابت، فإن كان أحد يحتاج إلى تألّفه ويخاف أن تلحق المسلمين منه آفة، أو يرجى أن يحسن إسلامه بعدُ دُفع إليه . قال القاضى عبدالوهاب (٢): إن احتيج إليهم فى بعض الأوقات أعطوا من الصدقة. وقال [القاضى] ابن العربى : الذى عندى أنه إن قوى الإسلام زالوا، وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم؛ فإن فى الصحيح : "بدأ (٣) الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ".

الرابعة عشرة — فإذا فرّعنا على أنه لا يُرَدّ إليهـم سهمهم فإنه يرجع إلى سائر الأصناف أو ما يراه الإمام . وقال الزهرىّ : يُعطَى نصفُ سهمهم لعُمّار المساجد . وهذا مما يدلك على أن الأصناف الثمانية محلّ لا مستحقون تسويةً؛ ولو كانوا مستحقين لسقط سهمهم بسقوطهم ولم يرجع إلى غيرهم؛ كما لو أوصى لقوم معينين فمات أحدهم لم يرجع نصيبه إلى من بَقِىَ منهم. والله أعلم.

(١) كذا فى الأصول . وصوابه عمر . (٢) فى ب وجـ وك وز وى . (٣) بدا بمعنى ابتدأ . ويروى : بدا بمعنى ظهر . والروايتان صحيحتان والغربة تكون بمعنى كون الشىء فى غير وطنه . وبمعنى منقطع النظير .

Marfat.com

الخامسة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ أى فى فكّ الرقاب؛ قاله ابن عباس وابن عمر ، وهو مذهب مالك وغيره . فيجوز للإمام أن يشترى رِقاباً من مال الصدقة يعتقها عن المسلمين ؛ ويكون ولاؤهم لجماعة المسلمين . وإن اشتراهم صاحب الزكاة وأعتقهم جاز . هذا تحصيل مذهب مالك، وروى عن ابن عباس والحسن، وبه قال أحمد وإسحاق وأبو عبيد . وقال أبو ثور : لا يبتاع منهـا صاحب الزكاة نَسَمَة يعتقها بجرّ ولاء . وهو قول الشافعي وأصحاب الرأى ورواية عن مالك . والصحيح الأوّل؛ لأن الله عز وجل قال : « وَفِي الرِّقَابِ » فإذا كان للرقاب سهم من الصدقات كان له أن يشترى رقبة فيعتقها . ولا خلاف بين أهل العـلم أن للرجل أن يشترى الفـرس فيحمل عليـه فى سبيل الله . فإذا كان له أن يشترى فرسا بالكمال من الزكاة جاز أن يشترى رقبة بالكمال؛ لا فرق بين ذلك . والله أعلم .

السادسة عشرة — قوله تعـالى : « وَفِي الرِّقَابِ » الأصل فى الولاء؛ قال مالك : هى الرقبة تعتق وولاؤها للسلمين ، وكذلك إن أعتقها الإمام . وقد نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن بيع الولاء وعن هبته . وقال عليه السلام : " الولاء لُحْمَةٌ كلُحْمة النسب لا يبـاع ولا يوهب " . وقال عليه السلام : " الولاء لمن أعتق " . ولا ترث النساء من الولاء شيئا؛ لقوله عليه السلام : " لا ترث النساء من الولاء شيئا إلا ما أعتقن أو أعتق من أعتقن " وقد ورّث النبيّ صلى الله عليه وسلم ٱبنة حمزة من مولًى لهـا النصف ولابنته النصف . فإذا ترك المعتِق أولادا ذكورا و إناثا فالولاء للذكور من ولده دون الإناث . وهو إجماع الصحابة رضى الله عنهم . والولاء إنمـا يورث بالتعصيب المحض ، والنساءُ لا تعصيب فيهن فلم يرثن من الولاء شيئا . فافهم تصِب .

السابعة عشرة — وٱختلف هل يُعان منها المكاتب ؛ فقيل لا . روى ذلك عن مالك؛ لأن الله عز وجل لمـا ذكر الرقبـة دلّ على أنه أراد العتق الكامل ، وأما المكاتب فإنمـا هو داخل فى كلمة الغارمين بمـا عليه من دين الكتابة ، فلا يدخل فى الرّقاب . والله أعلم . وقـد روى عن مالك من رواية المدنيّين وزيادٍ عنه : أنه يُعان منها المكاتَب فى آخر كتابته بما يَعتق.

Marfat.com

وعلى هــذا جمهور العلماء فى تأويل قول الله تعــالى : « وَفِي الرِّقَابِ » . وبه قال ابن وهب والشافعيّ والليث والنخعيّ وغيرهم . وحكى عليّ بن موسى القُمِّيّ الحنفيّ فى أحكامه : أنهم أجمعوا على أن المكاتب مراد . واختلفوا فى عتق الرقاب ، قال الكِيا الطبريّ : « وذكر[1] وجها[2] بيّنه فى منع ذلك فقال : إن العتق إبطال مِلك وليس بتمليك ، وما يدفع إلى المكاتب تمليك ، ومن حق الصدقة ألّا تجزى إلا إذا جرى فيها التمليك . وقوى ذلك بأنه لو دفع من الزكاة عن الغارم فى دينه بغير أمره لم يجزه من حيث لم يملك فَلأن لا يجزى ذلك فى العتق أولى . وذكر أن فى العتق جرّ الولاء إلى نفسه وذلك لا يحصل فى دفعه للمكاتب . وذكر أن ثمن العبد إذا دفعه إلى العبد لم يملكه العبد ، وإن دفعه إلى سيده فقد ملّكه العتق . وإن دفعه بعد الشراء والعتق فهو قاضٍ دينًا ، وذلك لا يجزِى فى الزكاة » .

قلت : قــد ورد حديث ينصّ على معنى ما ذكرنا من جواز عتق الرقبة وإعانة المكاتب معًا ، أخرجه الدّارَقُطْنِيّ عن البَرَاء قال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : دُلّنى على عمل يقرّبنى من الجنة ويباعدنى من النــار . قال : " لئن كنت أقصرتَ الخطبة لقــد أعرضت المسألة[3] أعتق النسمة وفك الرقبــة " . فقــال : يا رسول الله ، أوليستا واحدا ؟ قال : " لا ، عِتق النسمة أن تنفرد بعتقها وفكّ الرقبة أن تُعين فى ثمنها " وذكر الحديث .

الثامنة عشرة ــ واختلفوا فى فكّ الأسارى منهــا ؛ فقال أَصْبَغ : لا يجوز . وهو قول ابن القاسم . وقال ابن حبيب : يجوز ؛ لأنهــا رقبة مُلكت بملك الرِّق فهى تخــرج من رِق إلى عتق ، وكان ذلك أحقّ وأَوْلى من فكاك الرقاب الذى بأيدينا ؛ لأنه إذا كان فكّ المسلم عن رِق المسلم عبــادةً وجائزا من الصدقة ، فأحْرى وأَوْلَى أن يكون ذلك فى فكّ المســلم عن رق الكافر وذُلّه .

التاسعة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ وَالْغَارِمِينَ ﴾ هم الذين ركبهم الدَّين ولا وفاء عندهم به ، ولا خلاف فيه . اللهُمّ إلا من ادّان فى سفاهة فإنه لا يعطى منها ولا من غيرها إلا أن يتوب .

---

(١) أى القمى .
(٢) الذى فى أحكام القرآن للكيا : « وذكروجوها بينــة فى منع ذلك ، منها أنه العتق ... » الخ .
(٣) أى جئت بالخطبة قصيرة وبالمسألة واسعة كثيرة .

Marfat.com

ويُعْطَى منها مَن له مال وعليه دَين محيط به ما يقضى به دينه ، فإن لم يكن له مال وعليه دين فهو فقير وغارم فَيُعْطى بالوصفين . روى مسلم عن أبى سعيد الخُدْرىّ قال : أصيب رجل فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثمـار آبتاعها فكثر دينه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " تصدّقوا عليـه " . فتصدّق النـاس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينـه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لغرمائه : " خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك " .

الموفية عشرين — ويجوز للتحمِّل فى صلاح وبِرٍّ أن يُعطى من الصدقة ما يؤدّى ما تحمّل به إذا وجب عليه وإن كان غنيًّا ، إذا كان ذلك يُجْحف بمـاله كالغريم . وهو قول الشافعىّ وأصحابه وأحمد بن حنبل وغيرهم . واحتج من ذَهب هذا المذهب بحديث قَبِيصة بن مُخارِق قال : تحمّلت حَمَالة (١) فأتيت النبىّ صلى الله عليه وسلم أسأله فيها فقال : " أقم حتى تأتينا الصدقةُ فنأمرَ لك بهـا — ثم قال — يا قَبيصةُ إن المسألة لا تحلّ إلا لأحدِ ثلاثة رجل تحمّل حَمَـالة فحلّت له المسألة حتى يصيبها ثم يُمسك ورجل أصابته جائحة آجتاحت ماله فحلّت له المسألة حتى يصيب قِواما من عيش — أو قال سِدادا من عيش — ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوِى الحِجَا من قومه لقد أصابت فلانا فاقةٌ (٢) فحلّت له المسألة حتى يصيب قِواما من عيش — أو قال سدادا من عيش — فمـا سواهنّ من المسألة يا قَبيصةُ سُحْتًا (٣) يأكلها صاحبها سُحْتًا " . فقوله : " ثم يُمسك " دليل على أنه غنىّ ؛ لأن الفقير ليس عليه أن يمسك . والله أعلم . وروى عنه عليه السلام أنه قال : " إن المسألة لا تحلّ إلا لأحد ثلاثة ذوى فقر مُدقِـع (٤) أو لذى غُرْم مُفظِـع (٥) أو لذى دم مُوجِـع (٦) " . وروى عنه عليـه السلام : " لا تحلّ الصدقة لغنىّ إلا لخمسة " الحديث . وسيأتى .

---

(١) الحمالة (بالفتح) : ما يتحمله الإنسان عن غيره من دية أو غرامة ؛ مثل أن تقع حرب بين فريقين تسفك فيها الدماء، فيدخل بينهم رجل يتحمل ديات القتلى ليصلح ذات البين . والتحمل : أن يحملها عنهم على نفسه . (عن النهاية لابن الأثير) . (٢) أى حتى يقوموا على رءوس الأشهاد قائلين : إن فلانا أصابته فاقة الخ .

(٣) كذا رواية مسلم ؛ أى اعتقده سحتا ، أو يؤكل سحتا . وفى غير مسلم بالرفع . (٤) المدقع : الشديد ، يفضى بصاحبه إلى الدقعاء ، وهى التراب . وقيل : هو سوء احتمال الفقر . (٥) المفظع : الشديد الشنيع .

(٦) هو أن يتحمل دية فيسعى فيها حتى يؤدّيها إلى أولياء المقتول ؛ فإن لم يؤدّها قتل المتحمل عنه فيوجعه قتله .

Marfat.com

الحادية والعشرون — واختلفوا، هل يُقضى منها دينُ الميت أم لا ؛ فقال أبو حنيفة : لا يؤدَّى من الصدقة دين ميتٍ . وهو قول ابن المَوّاز . قال أبو حنيفة : ولا يعطى منها مَن عليه كفارة ونحو ذلك من حقوق الله تعالى ، وإنما الغارم مَن عليه دين يُسجن فيه . وقال علماؤنا وغيرهم : يُقضى منها دين الميت لأنه من الغارمين ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "أنا أولى بكل مؤمن من نفسه مَن ترك مالا فلأهله ومن ترك دَينا أو ضَياعا[(١)] فإلىّ وعلىّ" .

الثانية والعشرون — قوله تعالى : ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم الغُزاة وموضع الرباط ، يُعطون ما ينفقون فى غزوهم كانوا أغنياء أو فقراء . وهذا قول أكثر العلماء ، وهو تحصيل مذهب مالك رحمه الله . وقال ابن عمر : الحجاج والعُمّار . ويُؤثَر عن أحمد وإسحاق رحمهما الله أنهما قالا : سبيل الله الحج . وفى البخارىّ : ويذكر عن أبى لاسٍ[(٢)] : حملنا النبىّ صلى الله عليه وسلم على إبل الصدقة للحج ، ويذكر عن ابن عباس : يُعتِق من [زكاة[(٣)]] ماله ويُعطِى فى الحج . خرّج أبو محمد عبد الغنى الحافظ حدّثنا محمد بن محمد الخياش حدّثنا أبو غسان مالك بن يحيى حدّثنا يزيد بن هارون أخبرنا مهدى بن ميمون عن محمد بن أبى يعقوب عن عبد الرحمن ابن أبى نُعْم ويُكْنَى أبا الحكم قال : كنت جالسا مع عبد الله بن عمر فأتته امرأة فقالت له : يا أبا عبد الرحمن ، إن زوجى أوصى بماله فى سبيل الله . قال ابن عمر : فهو كما قال فى سبيل الله . فقلت له : ما زدتها فيما سألت عنه إلا غَمًّا . قال : فما تأمرنى يابن أبى نُعْم ، آمرها أن تدفعه إلى هؤلاء الجيوش الذين يخرجون فيفسدون فى الأرض ويقطعون السبيل ! قال قلت فما تأمرها . قال : آمرها أن تدفعه إلى قوم صالحين ، إلى حجاج بيت الله الحرام ، أولئك وفد الرحمن ، أولئك وفد الرحمن ، أولئك وفد الرحمن ، ليسوا كوفد الشيطان ؛ ثلاثا يقولها . قلت : يا أبا عبد الرحمن ، وما وفد الشيطان ؟ قال : قوم يدخلون على هؤلاء الأمراء فَيَنُمُّون إليهم الحديث ، ويسعون فى المسلمين بالكذب ؛ فيجازَوْن الجوائز ويعطَوْن عليه العطايا .

---

(١) الضياع (بالفتح) : العيال وأصله مصدر ضاع يضيع ضياعا ، فسمى العيال بالمصدر ؛ كما تقول ؛ من مات وترك فقرا ، أى فقراء . (٢) بالمهملة كما فى التاج : أبو محمد الخزاعى صحابى . (٣) الزيادة عن صحيح البخارى .

Marfat.com

وقال محمد بن عبد الحكم : و يعطى من الصدقة فى الكُراع والسلاح وما يحتاج إليه من آلات الحرب ، وكف العدوّ عن الحَوْزة ؛ لأنه كلّه من سبيل الغزو ومنفعته . وقـد أعطى النبيّ صلى الله عليه وسلم مائة ناقة فى نازلة سهل بن أبى حَثْمة إطفاءً للثائرة .

قلت : أخرج هـذا الحديث أبو داود عن بشير بن يسار ، أن رجلا من الأنصار يقال له سهل بن أبى حَثْمة أخبره أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم وَداه مائة من إبل الصدقة ، يعنى دية الأنصارىّ الذى قُتـل بخَيْبَر ، وقال عيسى بن دينـار : تحِل الصدقة لغاز فى سبيل الله ، قـد احتاج فى غزوته وغاب عنه غَناؤه ووَفْرُه . قال : ولا تحلّ لمن كان معه ماله من الغزاة ، إنما تحلّ لمن كان ماله غائبا عنه منهم . وهذا مذهب الشافعىّ وأحمد و إسحاق و جمهور أهل العلم . وقال أبو حنيفة وصاحباه : لا يُعْطَى الغازى إلا إذا كان فقيرا منقطعًا به . وهذه ز يادة على النص ، والز يادة عنده على النص نسخ ، والنسخ لا يكون إلا بقرآن أو خبر متواتر ، وذلك معدوم هنا ، بل فى صحيح السنّة خلاف ذلك من قوله عليه السلام : " لاتحل الصدقة لغنىّ إلا لخمسة لغازٍ فى سبيل الله أو لعامل عليها أو لغارم أو لرجل اشتراها بماله أو لرجل له جار مسكين فتصدّق على المسكين فأهدى المسكين للغنى " . رواه مالك مرسلا عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار . و رفعه معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخُدْرى عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم . فكان هـذا الحديث مفسِّرا لمعنى الآية ، وأنه يجوز لبعض الأغنياء أخذها ، ومفسِّرا لقوله عليه السلام : " لا تحلّ الصدقة لغنىّ ولا لذى مِرّة سَوِىّ " لأن قوله هـذا مجمل ليس على عمومه بدليل الخمسة الأغنياء المذكورين . وكان ابن القـاسم يقول : لا يجوز لغنىّ أن يأخذ من الصدقة ما يستعين به على الجهاد و ينفقـه فى سبيل الله ، و إنما يجوز ذلك لفقير . قال : وكذلك الغارم لا يجوز له أن يأخذ من الصدقة ما يقى به ماله و يؤدّى منها دينه وهو عنها غنىّ . قال : و إذا احتاج الغازى فى غزوته وهو غنىّ له مال غاب عنه لم يأخذ من الصدقة شيئا و يستقرض ، فإذا بلغ بلده أدّى ذلك من ماله . هذا كله ذكره ابن حبيب عن ابن القاسم ، و زعم أن ابن نافع وغيره خالفوه فى ذلك . وروى أبو زيد وغيره

Marfat.com

عن ابن القاسم أنه قال : يُعطَى من الزكاة الغازى وإن كان معه فى غَزاته ما يكفيه من ماله وهو غنيّ فى بلده . وهذا هو الصحيح ؛ لظاهر الحديث : "لاتحلّ الصدقة لغنى إلا لخمسة" . وروى ابن وهب عن مالك أنه يعطى منها الغزاة ومواضع الرباط فقراء كانوا أو أغنياء .

الثالثة والعشرون — قوله تعـالى : ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ السبيل الطريق ، ونُسب المسافر إليها لملازمته إياها ومروره عليها ؛ كما قال الشاعر :

إن تسألونى عن الهوى فأنا الهَوَى * وآبن الهَـوَى وأخو الهَـوَى وأبوهُ

والمراد الذى انقطعت به الأسباب فى سفره عن بلده ومستقرّه وماله ؛ فإنه يُعْطَى منهـا وإن كان غنيًّا فى بلده ، ولا يلزمه أن يشغل ذمّتــه بالسّلف . وقال مالك فى كتاب ابن سُحنون : إذا وجد من يسلفه فلا يعطَى . والأوّل أصح ؛ فإنه لا يلزمه أن يدخل تحت مِنّــة أحد وقد وجد مِنّة الله تعالى . فإن كان له ما يغنيه ففى جواز الأخذ له لكونه ابن السبيل روايتان : المشهور أنه لا يعطى ؛ فإن أخذ فلا يلزمه ردّه إذا صار إلى بلده ولا إخراجه .

الرابعة والعشرون — فإن جاء وآدّعى وصفًا من الأوصاف، هل يقبل قوله أم لا ويقال له أثبت ما تقول . فأما الدّين فلا بدّ أن يثبتــه ، وأما سائر الصفات فظاهر الحال يشهد له ويُكتفى به فيها . والدليل على ذلك حديثان صحيحان أخرجهما أهل الصحيح، وهو ظاهر القرآن . روى مسلم عن جرير [عن أبيــه][1] قال : كنا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فى صدر النهار، قال : فجاءه قوم حُفاةٌ عُراةٌ مُجتَابِى النِّمَـار[2] أو العَبَاء متقلّدِى السيوف ، عامّتُهم من مُضَر بل كلهم من مُضَر، فتمعّر[3] وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لمـا رأى بهم من الفاقة ، فدخل ثم خرج فأمر بلالا فأذّن وأقام فصلى ، ثم خطب فقال : «يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ — الآية إلى قوله — رَقِيبًا[4] » والآية التى فى الحشر «وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ[5]» تصدّق رجل من ديناره من درهمه من ثوبه من صاع برّه — حتى قال — ولو بشق تمرة . قال : فجاء رجل

---

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) اجتاب القميص : لبسه . والنمار (بكسر النون) : كل شملة مخططة من مآزر الأعراب ؛ كأنها أخذت من لون النمر لما فيها من السواد والبياض . (٣) تمعر : تغير .
(٤) راجع جـ ٥ ص ١ فما بعد . (٥) راجع جـ ١٨ ص ٤٢ فما بعد .

Marfat.com

من الأنصار بصُرّة كادت كفُّه تَعجِز عنها بل قد عجزت ، قال : ثم تتابع الناس حتى رأيت كَوْمَين من طعام وثياب ، حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلّل كأنه مُذْهَبة[1] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من سَنّ فى الإسلام سُـنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن يُنقص من أجورهم شيء ومن سَنّ فى الإسلام سُنّة سيئة كان عليه وِزْرها و وِزْر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء" . فا كتفى صلى الله عليه وسلم بظاهر حالهم وحَثّ على الصدقة ، ولم يطلب منهم بيّنة ، ولا استقصى هل عندهم مال أم لا . ومثـله حديث أَبْرَص وأقرع وأعمى أخرجه مسلم وغيره . وهـذا لفظه : عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن فى بنى إسرائيل أَبْرَص وأقرع وأعمى فأراد الله أن يبتليهم فبعث إليهـم مَلَكا فأتى الأبرصَ فقال أىُّ شيء أحبُّ إليك فقال لون حَسَن وجلد حَسَن و يذهب عنى الذى قد قَذِرنى النـاسُ قال فمسحه فذهب عنه قذره وأُعطى لونا حسنا وجلدا حسنا قال فأىّ المـال أحبُّ إليك قال الإبل — أو قال البقر، شك إسحاق، إلّا[2] أن الأبرص أو الأقرع قال أحدهما الإبل وقال الآخر البقـر — قال فأعطى ناقة عُشَراء قال بارك الله لك فيهـا قال فأتى الأقرعَ فقال أى شيء أحب إليك قال شَـعر حَسَن و يذهب عنى هذا الذى قد قَذِرَنى الناسُ قال فمسحه فذهب عنه قال فأُعطى شعرا حسنا قال فأىّ المـال أحبُّ إليك قال البقر فأُعطىَ بقرة حاملا قال بارك الله لك فيها قال فأتى الأعمى فقال أىّ شيء أحبّ إليك قال أن يَرُدّ الله إلىّ بصرى فأُبصر به النـاسَ قال فمسحه فردّ الله إليه بصره قال فأىّ المـال أحبُّ إليك قال الغـنم فأعطى شاة والدا فأُنتج هذان[3] وولّد هـذا قال فكان لهذا وادٍ من الإبل ولهذا وادٍ من البقر ولهذا وادٍ من الغنم قال ثم إنه أتى الأبرصَ فى صورته وهيئته فقال رجل مسكين قد انقطعت بى الحِبال[4] فى سفرى فلا بلاغَ لِى اليومَ إلا بالله و بك أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمـال بعيرا أتبلّغ عليه فى سفرى

---

(١) أى فضة مموّهة بذهب فى إشراقه . والرواية : مدهنة . بمهملة ونون . (٢) كذا فى الأصول وصحيح مسلم . و رواية البخارى : «شك إسحاق فى ذلك أن الأبرص» بغير لفظ «إلا» . (٣) أى صاحبا الإبل والبقر . (٤) الحبال : جمع حبل . والمراد الأسباب التى يقطعها فى طلب الرزق .

Marfat.com

فقال له الحقوق كثيرة فقال له كأنى أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناسُ فقيرا فأعطاك الله فقال إنما وَرِثتُ هذا المال كابرًا عن كابر فقال إن كنتَ كاذبا فصيّرك الله إلى ما كنت فقال وأتى الأقرعَ فى صورته فقال له مثلَ ما قال لهذا وردّ عليه مثلَ ما ردّ على هذا فقال إن كنتَ كاذبا فصيّرك الله إلى ما كنت قال وأتى الأعمى فى صورته وهيئته فقال رجل مسكين وابنُ سبيل انقطعت بى الحِبال فى سفرى فلا بلاغ لِىَ اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذى ردّ عليك بصرَك شاةً أتبلّغ بها فى سفرى فقال قد كنتُ أعمى فردّ الله إلىّ بصرى فخذ ما شئتَ ودَعْ ما شئت فوالله لا أَجْهَدُك اليومَ شيئا أخذتَه لله فقال أمسِك مالك فإنما ابتُليتم فقد رُضِىَ عنك وسُخِط على صاحِبيك". وفى هذا أدلّ دليل على أن من ادّعى زيادةً على فقره من عيال أو غيره لا يكشف عنه خلافا لمن قال يُكشف عنه إن قدر ؛ فإنّ فى الحديث "فقال رجل مسكين وابنُ سبيل أسألك شاة" ولم يكلفه إثبات السفر. فأما المكاتَب فإنه يكلَّف إثباتَ الكتابة لأن الرق هو الأصل حتى تثبت الحرّية .

الخامسة والعشرون — ولا يجوز أن يُعطَى من الزكاة مَن تلزمه نفقته وهم الوالدان والولد والزوجة. وإن أعطى الإمامُ صدقةَ الرجل لولده ووالده وزوجته جاز. وأما أن يتناول ذلك هو بنفسه فلا ؛ لأنه يسقط بها عن نفسه فرضا . قال أبو حنيفة : ولا يعطِى منها ولد ابنه ولا ولد ابنته، ولا يعطى منها مكاتَبه ولا مدبَّره ولا أمّ ولده ولا عبدا أعتق نصفه؛ لأنه مأمور بالإيتاء والإخراج إلى الله تعالى بواسطة كَفّ الفقير، ومنافع الأملاك مشتركة بينه وبين هؤلاء ؛ ولهذا لا تقبل شهادة بعضهم لبعض. قال : والمكاتب عبد ما بَقِى عليه درهم وربما يعجز فيصير الكسب له . ومعتَق البعض عند أبى حنيفة بمنزلة المكاتَب . وعند صاحبيه أبى يوسف ومحمد بمنزلة حرّ عليه دَين فيجوز أداؤها إليه .

السادسة والعشرون — فإن أعطاها لمن لا تلزمه نفقتهم فقد اختلف فيه، فمنهم من جوّزه ومنهم من كَرِهه . قال مالك : خوف المحمدة. وحكى مُطَرِّف أنه قال : رأيت مالكا يعطى زكاته لأقاربه . وقال الواقدىّ قال مالك : أفضلُ مَن وَضعتَ فيه زكاتك

قرابتُك الذين لا تَعُول . وقد قال صلى الله عليه وسلم لزوجة عبد الله بن مسعود : " لك أجران أجر القرابة وأجر الصدقة" . وآختلفوا فى إعطاء المرأة زكاتها لزوجها ، فذُكر عن ابن حبيب أنه كان يستعين بالنفقة عليها بما تعطيه . وقال أبو حنيفة : لا يجوز ، وخالفه صاحباه فقالا : يجوز . وهو الأصح لمـا ثبت أن زينب آمرأة عبد الله أتت رسـول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إنى أريد أن أتصدّق على زوجى أيجزينى ؟ فقال عليه السلام : " نعم لك أجران أجر الصدقة وأجر القرابة " . والصدقة المطلقة هى الزكاة ، ولأنه لا نفقــة للزوج عليها ؛ فكان بمنزلة الأجنبى . آعتلّ أبو حنيفة فقال : منافع الأملاك بينهما مشتركة ، حتى لا تقبل شهادة أحدهما لصاحبه . والحـديث محمول على التطوع . وذهب الشـافعىّ وأبو ثَوْر وأشْهَب إلى إجازة ذلك ، إذا لم يصرفه إليها فيما يلزمه لها ، وإنمـا يصرف ما يأخذه منها فى نفقته وكسوته على نفسه وينفق عليها من ماله .

السابعة والعشرون ــ وآختلفوا أيضا فى قدر المُعْطَى ؛ فالغارم يُعْطَى قدر دَيْنه ، والفقير والمسكين يعطيان كفايتهما وكفاية عيالها . وفى جواز إعطاء النصاب أو أقلّ منـه خلافٌ ينبنى على الخلاف المتقدم فى حدّ الفقر الذى يجوز معــه الأخذ . وروى علىّ بن زياد وابن نافع : ليس فى ذلك حدّ ، وإنمـا هو على اجتهاد الوالى . وقد تقِلّ المساكين وتكثر الصدقة فيعطَى الفقير قوت سَـنة . وروى المُغـيرة : يعطَى دون النصاب ولا يبلغــه . وقال بعض المتأخرين : إن كان فى البلد زكاتان نقد وحَرْث أخذ ما يبلّغه إلى الأخرى . قال ابن العربى : الذى أراه أن يعطى نصابا ، وإن كان فى البـلد زكاتان أو أكثر ؛ فإن الغرض إغناء الفقير حتى يصير غنيا . فإذا أخذ ذلك فإن حضرت الزكاة الأخرى وعنده ما يكفيه أخذها غيره .

قلت : هــذا مذهب أصحاب الرأى فى إعطاء النصاب . وقد كره ذلك أبو حنيفــة مع الجواز ، وأجازه أبو يوسـف ؛ قال : لأن بعضه لحاجته مشغول للحال ، فكان الفاضل عن حاجته للحال دون المـائتين ، وإذا أعطاه أكثر من مائتى درهم جملةً كان الفاضل عن حاجته للحال قدر المـائتين فلا يجـوز . ومن متأخّرى الحنفية من قال : هــذا إذا لم يكن له عيال

ولم يكن عليه دَين ، فإن كان عليــه دين فلا بأس أن يعطيَــه مائتى درهم أو أكثر ، مقــدار مالو قضى به دَينه يبق له دون المــائتين . وإن كان مُعيلا لا بأس بأن يعطيَه مقدار مالو وَزّع على عياله أصاب كلّ واحد منهم دون المــائتين؛ لأن التصدّق عليه فى المعنى تصدّق عليه وعلى عياله . وهذا قول حسن .

الثامنة والعشرون — آعلم أن قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ مطلقٌ ليس فيه شرط وتقييد، بل فيه دلالة على جواز الصرف إلى جملة الفقراء كانوا من بنى هاشم أو غيرهم ؛ إلا أن السنة وردت باعتبار شروط : منها ألا يكونوا من بنى هاشم وألا يكونوا ممن تلزم المتصدّق نفقته . وهذا لا خلاف فيه . وشرط ثالث ألا يكون قويًّا على الآكتساب؛ لأنه عليه السلام قال: "لا تحل الصدقة لغنىّ ولا لذى مِرّة سَوِىّ" . وقد تقدم القول فيه . ولا خلاف بين علماء المسلمين أن الصدقة المفروضة لا تحلّ للنبىّ صلى الله عليه وسلم، ولا لبنى هاشم ولا لمواليهم . وقد روى عن أبى يوســف جواز صرف صــدقة الهاشمىّ للهاشمىّ؛ حكاه الكيا الطبرى . وشذ بعض أهل العلم فقال: إن موالى بنى هاشم لا يحرم عليهم شىء من الصدقات . وهذا خلاف الثابت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فإنه قال لأبى رافع مولاه : " وإن مَوْلَى القوم منهم" .

التاسعة والعشرون — واختلفوا فى جواز صدقة التطوع لبنى هاشم ؛ فالذى عليه جمهور أهل العلم — وهو الصحيح — أن صدقة التطوّع لا بأس بها لبنى هاشم ومواليهم؛ لأن عليًّا والعباس وفاطمة رضوان الله عليهم تصدّقوا وأوقفوا أوقافا على جماعة من بنى هاشم ، وصدقاتُهم الموقوفة معــروفة مشهورة . وقال ابن المــاجشون ومُطَرِّف وأَصْبَغ وابن حبيب : لا يعطى بنو هاشم من الصدقة المفروضة ولا من التطوّع . وقال ابن القاسم : يعطى بنــو هاشم من صدقة التطوّع . قال ابن القاسم : والحــديث الذى جاء [عن النبىّ صلى الله عليه وسلم][1] : " لا تحل الصدقة لآل محمد " إنما ذلك فى الزكاة لا فى التطوّع . وآختار هذا القول ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد ، وبه قال أبو يوسف ومحمد . قال ابن القاسم : ويُعْطَى مواليهم من الصدقتين . وقال مالك فى الواضحة : لا يعطى لآل محمد من التطوّع . قال ابن القاسم : — قيل له يعنى مالكا —

(١) من ح و ز .

فهو اليهم ؟ قال : لا أدرى ما الموالى . فاحتججت عليه بقوله عليـه السلام : " مَوْلى القوم منهم ". فقال قد قال : " ابن أخت القوم منهم " . قال أَصْبَغ : وذلك فى البِرّ والحُرْمة .

الموفية ثلاثين — قوله تعالى : ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ بالنصب على المصدر عند سيبويه . أى فرض الله الصدقات فريضةً . ويجوز الرفع على القطع فى قول الكسائى؛ أى هن فريضة . قال الزجاج : ولا أعلم [أنه] قرئ به .

قلت : قرأ بها إبراهيم بن أبى عَبْلة ، جعلها خبرا، كما تقول : إنما زيد خارج .

قوله تعالى : وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

بيّن تعالى أن فى المنافقين من كان يبسط لسانه بالوقيعة فى أذِيّة النبيّ صلى الله عليه وسلم ويقول : إن عاتبنى حلفتُ له بأنى ما قلت هذا فيقبله؛ فإنه أُذُنٌ سامعة . قال الجوهرى : يقال رجل أذن إذا كان يسمع مقال كل أحد؛ يستوى فيه الواحد والجمع . وروى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : «هُوَ أُذُنٌ» قال : مستمع وقابل . وهـذه الآية نزلت فى عَتّاب بن قُشير، قال : إنما محمد أذن يقبل كل ماقيل له . وقيل: هو نَبْتَل بن الحارث؛ قاله ابن إسحاق . وكان نبتـل رجلا جسيما ثائر شعر الرأس واللحية ، آدَم أحمر العينين أسفعَ الخدّين مشوّه الخِلْقة ، وهو الذى قال فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نَبْتَل بن الحارث " . السُّفعة (بالضم) : سواد مُشْرَب بحمرة . والرجل أسفع ؛ عند الجوهرى . وقرئ « أذن » بضم الذال وسكونها . ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أى هو أذن خير لا أذن شرّ ؛ أى يسمع الخير ولا يسمع الشر . وقرأ « قل أذنٌ خيرٌ لكم » بالرفع والتنوين ، الحسنُ وعاصم فى رواية أبى بكر . والباقون بالإضافة؛ وقرأ حمزة « ورحمةٍ » بالخفض . والباقون بالرفع عطف على « أذن » ، والتقدير : قل هو أذن خير وهو رحمـة ؛

أى هو مستمع خير لا مستمع شر، أى هو مستمع ما يحب[1] استماعه، وهو رحمة . ومن خفض فعلى العطف على « خيرٍ » . قال النحاس : وهــذا عند أهل العربية بعيــد ؛ لأنه قد تباعد ما بين الاسمين، وهذا يقبح فى المخفوض . المهدوى : ومن جر الرحمة فعلى العطف على «خير» والمعنى مستمعُ خيرٍ ومستمع رحمــة ؛ لأن الرحمــة من الخير . ولا يصح عطف الرحمــة على المؤمنين؛ لأن المعنى يصدّق بالله و يصدّق المؤمنين ؛ فاللام زائدة فى قول الكوفيين . ومثله « لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ[2] » أى يرهبون ربهم . وقال أبو على : كقوله « رَدِفَ لَكُمْ[3] » وهى عند المبرد متعلقة بمصدر دلّ عليــه الفعل ، التقدير : إيمانه للؤمنين ؛ أى تصديقه للؤمنين لا للكفار . أو يكون محمولا على المعنى ؛ فإن معنى يؤمن يصدّق ، فعُدّى باللام كما عُدّى فى قوله تعالى : « مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ[4] » .

قوله تعالى : يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ روى أن قوما من المنافقين اجتمعوا، فيهــم الجُلَاس بن سُــويد و وديعة ابن ثابت، وفيهم غلام من الأنصار يُدْعَى عامر بن قيس ، فحقّروه فتكلموا وقالوا : إن كان ما يقول محمد حقا لنحن شرّ من الحمير . فغضب الغلام وقال : والله إنّ ما يقول حق وأنتم شر من الحمير ؛ فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بقولهم ، فحلفوا أن عامرا كاذب ؛ فقال عامر : هم الكَذَبة ، وحلف على ذلك وقال : اللّهمّ لا تفرّق بيننا حتى يتبيّن صدقُ الصادق وكَذِب الكاذب . فأنزل الله هذه الآية وفيها ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ ابتداء وخبر. ومذهب سيبويه أن التقدير : والله أحقّ أن يرضوه ورسولُه أحقّ أن يرضوه؛ ثم حذف؛ كما قال [بعضهم][5] :

نحن بمــا عندنا وأنت بمــا * عندك راضٍ والرأيُ مختلفُ

(١) فى ب و ه : يجب . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٩٢ . (٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٠ .
(٤) راجع جـ ٢ ص ٣٦ . (٥) من جـ .

Marfat.com

وقال محمد بن يزيد : ليس فى الكلام محذوف ، والتقدير، والله أحق أن يرضوه و رسوله ، على التقديم والتأخير . وقال الفراء : المعنى و رسـوله أحق أن يرضوه ، والله آفتتاح كلام؛ كما تقول : ما شاء الله وشئتَ . قال النحاس : قول سيبويه أوْلاها ؛ لأنه قد صح عن النبيّ صلى الله عليــه وسلم النهيُ عن أن يقــال : ما شاء الله وشئت ، ولا يقــدّر فى شيء تقــديم ولا تأخير، ومعناه صحيح .

قلت : وقيل إن الله سبحانه جعل رضاه فى رضاه ؛ ألا ترى أنه قال : « مَنْ يُطِــعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ» [1] . وكان الربيع ابن خُثَيْم إذا مرّ بهذه الآية وقف، ثم يقول : حَرْفٌ وأيُّمَا حرف، فوّض إليه فلا يأمرنا إلا بخير .

الثالثـــة ــ قال علماؤنا : تضمّنت هذه الآية قبولَ يمين الحالف و إن لم يلزم المحلوف له الرضا . واليمين حق للدّعى . وتضمّنت أن يكون اليمين بالله عز وجل حَسْب [ما تقدّم] [2] . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "من حلف فليحلف بالله أو لِيَصْمُت ومن حلف له فليصدّق". وقد مضى القول فى الأيمان والآستثناء فيها مستوفًى فى المــائدة [3] .

قوله تعـالى : أَلَمْ يَعْلَمُـوٓا أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ يعنى المنافقين . وقرأ آبن هُرْمُز والحسن «تعلموا» بالتاء على الخطاب . ﴿ أنه ﴾ فى موضع نصب بيعلموا، والهاء كناية عن الحديث . ﴿ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ ﴾ فى موضع رفع بالآبتــداء . والمحادّة : وقوع هذا فى حدّ وذاك فى حدّ ؛ كالمشاقة . يقال : حادّ فلان فلانا أى صار فى حدّ غير حدّه . ﴿ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ يقال: ما بعد الفاء فى الشرط مبتدأ ؛ فكان يجب أن يكون «فإنّ» بكسر الهمزة . وقد أجاز الخليل وسيبويه « فإن له نار جهنم » بالكسر . قال سيبويه : وهو جيّد وأنشد :

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٨٨ . (٢) من هـ . (٣) راجع جـ ٦ ص ٢٦٤ .

وعِلْمِي بأسْدام الميـاه فلم تَزَل * قَلائصُ تَخْدِى فى طريقِ طلائحُ
وأنى إذا مَلّتْ رِكابى مُنـاخَها * فإنى على حَظّى من الأمر جامحُ[1]

إلا أنّ قراءة العامّة « فأن » بفتح الهمزة . فقال الخليل أيضا وسيبويه : إن « أنّ » الثانية مبدلة من الأولى . وزعم المبرّد أن هذا القول مردود، وأن الصحيح ما قاله الجَرْمِيّ، قال : إن الثـانية مكرّرة للتوكيد لمـا طال الكلام ؛ ونظيره « وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ »[2] . وكذا « فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا »[3] . وقال الأخفش : المعنى فوجوب النار له . وأنكره المبرّد وقال : هـذا خطأ من أجل إنّ « أن » المفتوحة المشدّدة لا يبتدأ بهـا ويضمر الخبر . وقال عليّ بن سليمان : المعنى فالواجب أنـ له نار جهنم ؛ فإن الثانية خبر ابتداء محذوف . وقيـل : التقدير فله أن له نار جهنم . فإن مرفوعةً بالاستقرار على إضمـار المجرور بين الفاء وأن .

قوله تعـالى : يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

فيـه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ ﴾ خبر وليس بأمر . ويدلّ على أنه خبر أن ما بعـده « إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ » لأنهم كفروا عِنـادا . وقال السُّدّيّ : قال بعض المنـافقين والله وددت لو أنى قدّمت فجُـلدت مائة ولا ينزل فينـا شيء يفضحنا ؛ فنزلت الآية . « يَحْذَرُ » أى يتحرز . وقال الزجاج : معنـاه ليَحْذَر ؛ فهو أمر ؛ كما يقال : يفعل ذلك .

---

(١) البيتان لابن مقبل . والشاهد فيهما كسر « إن » الثانية . والأسدام : المياه المتغيرة لقلة الوارد، واحدها سدم . وتخدى : تسرع . والطلائح ؛ المعيبة لطول السفر . ومعنى « ملت ركابى مناخها » : توالى سفرها و إناختها فيه وارتحالها . والجامح : المـاضى على وجهه . أى لا يكسرنى طول السفر ولكنى أمضى قدما لمـا أرجوه من الحظ فى أمرى . (عن شرح الشواهد) . (٢) راجع جـ ١٣ ص ١٥٤ فا بعد . (٣) راجع جـ ١٨ ص ٣٧ .

Marfat.com

الثانيـــة قوله تعـالى : ﴿ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ ﴾ « أنْ » فى موضـع نصب ، أى من أن تنزّل . ويجوز على قول سيبويه أن تكون فى موضع خفض على حذف من . ويجوز أن تكون فى موضع نصب مفعولة ليحذر ؛ لأن سيبويه أجاز : حذرت زيدا ؛ وأنشد :

حَذِرٌ أمورا لا تَضِـير وآمِنٌ * ماليس مُنْجِيَه من الأقدار

ولم يُجزه المُبَرّد ؛ لأن الحذر شىء فى الهيئة . ومعنى « عَلَيْهِمْ » أى على المؤمنين ﴿ سُورَةٌ ﴾ فى شأن المنافقين تخبرهم بمخازيهم ومساويهم ومثالبهم ؛ ولهذا سُمِّيت الفاضحة والمثيرة والمبعثرة ، كما تقدّم أول السورة . وقال الحسن : كان المسلمون يسمّون هـذه السورة الحفّارة لأنها حفرت ما فى قلوب المنافقين فأظهرته .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱسْتَهْزِئُوا ﴾ هذا أمرُ وعيدٍ وتهديد . ﴿ إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ ﴾ أى مظهر ﴿ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ ظهوره . قال ابن عباس : أنزل الله أسماء المنافقين وكانوا سبعين رجلا ، ثم نُسخ تلك الأسماء من القرآن رأفة منـه ورحمة ؛ لأن أولادهم كانوا مسلمين والناس يعيّر بعضهم بعضا . فعلى هذا قـد أنجز الله وعده بإظهاره ذلك إذ قال : « إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ » . وقيـل : إخراج الله أنه عرّف نبيّـه عليه السلام أحوالهم وأسماءهم لا أنها نزلت فى القرآن ؛ ولقد قال الله تعالى : « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ »(١) وهو نوع إلهام . وكان من المنافقين من يتردّد ولا يقطع بتكذيب محمد عليـه السلام ولا بصدقه . وكان فيهـم من يعرف صدقه ويعاند .

قوله تعـالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُـمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَـا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى ــ هذه الآية نزلت فى غَزوة تَبُوك . قال الطبرىّ وغيره عن قتادة : بينا النبىّ صلى الله عليه وسلم يسير فى غزوة تبوك ورَكْبٌ من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا :

(١) راجع ج ١٦ ص ٢٥١ فما بعد .

آنظروا ، هـذا يفتح قصور الشام ويأخذ حصون بنى الأصـفر ! فأطلعه الله سبحانه على ما فى قلوبهم وما يتحدّثون به ، فقال : " احبسوا علىّ الركب — ثم أتاهم فقال — قلتم كذا وكذا " فحلفوا : ما كنا إلا نخوض ونلعب؛ يريدون كنا غير مجدّين . وذكر الطبرى عن عبد الله بن عمر قال : رأيت قائل هـذه المقالة وديعةَ بن ثابت متعلقا بحَقَب ناقةِ رسول الله صلى الله عليـه وسلم يماشيها والحجـارة تنكبه وهو يقول : إنمـا كنا نخوض ونلعب . والنبىّ صلى الله عليـه وسلم يقول : « أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ » . وذكر النقاش أن هـذا المتعلّق كان عبـد الله بن أبَىّ بن سَـلُول . وكذا ذكر القُشيرى عن ابن عمـر . قال ابن عطية : وذلك خطأ ؛ لأنه لم يشهد تَبُوك . قال القشيرى : وقيل إنمـا قال عليه السلام هـذا لوديعة بن ثابت وكان من المنافقين وكان فى غزوة تبـوك . والخوض : الدخول فى المـاء ، ثم استعمل فى كل دخول فيه تلويث وأذًى .

الثانيـــة — قال القاضى أبو بكر بن العربىّ : لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جدّا أو هزلا ، وهو كيفما كان كفر ؛ فإن الهـزل بالكفر كفر لا خلاف فيـه بين الأمة . فإن التحقيق أخو العـلم والحق ، والهزل أخو الباطل والجهل . قال علماؤنا : انظر إلى قوله : « أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ »[(١)] .

الثالثـــة — وآختلف العلمـاء فى الهزل فى سائر الأحكام كالبيع والنكاح والطلاق على ثلاثة أقوال : لا يلزم مطلقا . يلزم مطلقا . التفرقة بين البيع وغيره . فيلزم فى النكاح والطلاق ؛ وهو قول الشافعىّ فى الطلاق قولا واحدا . ولا يلزم فى البيع . قال مالك فى كتاب محمد : يلزم نكاح الهازل . وقال أبو زيد عن ابن القاسم فى العتبية : لا يلزم . وقال علىّ بن زياد : يُفسخ قبلُ وبعدُ . وللشافعىّ فى بيع الهازل قولان . وكذلك يخرج من قول علمائنا القولان . وحكى ابن المنذر الإجماع فى أن جدّ الطلاق وهزله سواء . وقال بعض المتأخرين من أصحابنا : إن اتفقا على الهزل فى النكاح والبيع لم يلزم ، وإن آختلفا غلب الجـدّ الهزل . وروى أبو داود والترمذىّ والدّارَقُطْنِىّ عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : " ثلاث

(١) راجع جـ ١ ص ٤٤٤

جِدهنّ جِدّ وهَزْلهنّ جِدّ النكاحُ والطلاق والرجعة » . قال الترمذىّ : حديث حسن غريب ، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم وغيرهم .

قلت : كذا فى الحديث « والرَّجعة » . وفى موطأ مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد ابن المسيِّب قال : ثلاث ليس فيهن لَعِب النكاح والطلاق والعتق . وكذا رُوِى عن علىّ ابن أبى طالب وعبد الله بن مسعود وأبى الدَّرْداء ، كلهم قال : ثلاث لا لعِب فيهن [ولا رجوع فيهن] (١) واللاعب فيهن جادٌّ النكاح والطلاق والعتق . وعن سعيد بن المسيِّب عن عمر قال : أربع جائزات على كل أحد العتق والطلاق والنكاح والنذور . وعن الضحاك قال : ثلاث لا لعب فيهن النكاح والطلاق والنذور .

قوله تعالى : لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ على جهة التوبيخ ، كأنه يقول : لا تفعلوا ما لا ينفع ، ثم حكم عليهم بالكفر وعدم الاعتذار من الذنب . واعتذر بمعنى أعذر ، أى صار ذا عذر . قال لَبِيد :

* ومَنْ يَبْكِ حَوْلًا كاملا فقد اعتذر (٢)

والاعتذار : مَحْوُ أثر المَوْجِدة ؛ يقال : اعتذرتِ المنازلُ دَرَست . والاعتذار الدُّروس . قال الشاعر (٣) :

أم كنتَ تعرِف آياتٍ فقد جعلتْ * أطـلالُ إلْفِك بالوَدْكاءِ تعتـذِرُ

وقال ابن الأعرابىّ : أصله القطع . واعتذرت إليه قطعت ما فى قلبه من المَوْجدة . ومنه عُذرة الغلام وهو ما يُقطع منه عند الختان . ومنه عُذرة الجارية لأنه يقطع خاتم عُذرتها .

(١) من ج و ك و هـ . (٢) هذا عجز بيت ؛ وصدره : * إلى الحول ثم اسم السلام عليكما *
(٣) هو ابن أحمر الباهلى ؛ كما فى اللسان مادة « عذر » .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ قيل : كانوا ثلاثة نفر ؛ هَزِئَ آثنان وضحك واحد ؛ فالمعفوّ عنه هو الذى ضحك ولم يتكلم . والطائفة الجماعة ، ويقال للواحد على معنى نفس طائفة . وقال ابن الأنباري : يطلق لفظ الجمع على الواحد ؛ كقولك : خرج فلان على البغال . قال : ويجوز أن تكون الطائفة إذا أريد بها الواحد طائفا ، والهـاء للبالغة . وآختُلف فى اسم هـذا الرجل الذى عُفِيَ عنـه على أقوال . فقيل : مَخْشِيّ بن حُمَيِّر ؛ قاله آبن إسحاق . وقال آبن هشام : ويقال فيه ابن مخشى . وقال خليفة بن خياط فى تاريخه : اسمـه مخاشن بن حُمَيِّر . وذكر ابن عبـد البر مخاشن الحمـيرى [وذكر السهيلى مَخْشِن بن خُمَيِّر][(1)] . وذكر جميعهم أنه آستُشهد باليمـامة ، وكان تاب وسُمّى عبد الرحمن ، فدعا الله أن يُقتل شهيدا ولا يُعلم بقبره . وآختلف هل كان منافقا أو مسلما . فقيل : كان منافقا ثم تاب توبة نَصُوحا . وقيل : كان مسلما ، إلا أنه سمع المنافقين فضحك لهم ولم يُنكر عليهم .

قوله تعـالى : ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ ﴾ ابتداء . ﴿ بَعْضُهُمْ ﴾ ابتداء ثان . ويجوز أن يكون بدلا ، ويكون الخـبر « من بعض » . ومعنى ﴿ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ أى هم كالشىء الواحد فى الخروج عن الدِّين . وقال الزجاج ، هذا متصل بقوله : « يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ » أى ليسوا من المؤمنين ، ولكن بعضهـم من بعض ، أى متشابهون فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف . وقَبْضُ أيديهم عبـارة عن [ترك] الجهاد ، وفيما يجب عليهم من حق . والنسيان : الترك هنا ؛ أى تركوا ما أمرهم الله به فتركهم فى الشك . وقيل : إنهم تركوا أمره حتى صار كالمَنْسِيّ فصيّرهم بمنزلة المنسيّ من ثوابه . وقال قتادة : « نَسِيَهُمْ » أى من الخير ؛ فأما من الشر فلم يَنْسَهم[(2)] . والفسق : الخروج عن الطاعة والدِّين . وقد تقدّم .

(١) من ب و ج . (٢) راجع ج ١ ص ٢٤٤ .

قوله تعالى : وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ ﴾ يقال : وَعد الله بالخير وَعدًا . ووعد بالشر وعيدا . ﴿ خَالِدِينَ ﴾ نصب على الحال والعامل محذوف؛ أى يصلونها خالدين . ﴿ هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ ابتداء وخبر ، أى هى كفاية ووفاء لجزاء أعمالهم . واللعن : البعد ، أى من رحمة الله، وقد تقدّم (١) . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ أى واصب دائم .

قوله تعالى : كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾

فيـه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ قال الزجاج : الكاف فى موضع نصب ، أى وعد الله الكفار نار جهنم وعدًا كما وَعَدَ الذين من قبلهم . وقيـل : المعنى فعلتم كأفعال الذين من قبلكم فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف (٢) ؛ فحذف المضاف . وقيـل : أى أنتم كالذين من قبلكم ؛ فالكاف فى محل رفع لأنه خبر ابتـداء محذوف . ولم ينصرف « أَشَدَّ » لأنه أفعل صـفة . والأصل فيـه أَشْدَد ، أى كانوا أشـدّ منكم قوة فلم يتهيأ لهم ولا أمكنهم رفع عذاب الله عز وجل .

الثانيــة ــ روى سعيد عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " تأخذون كما أخذت الأمم قبلكم ذراعا بذراع وشبرا بشبر وباعًا بباع حتى لو أن أحدا من أولئك دخل

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٥ (٢) فى ب و جـ : فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

Marfat.com

جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه ". قال أبو هريرة : وإن شئتم فاقرءوا القرآن : « كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ — قال أبو هريرة : والخلاق الدِّين — فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ» حتى فرغ من الآية. قالوا: يا نبيّ الله ، فما صنعت اليهود والنصارى ؟ قال : "وما الناس إلّا هم" . وفى الصحيح عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم لَتَتَّبِعُنّ سَنَن مَن قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضَبّ لدخلتموه " قالوا : يا رسول الله، اليهود والنصارى ؟ قال : "فمن" ؟ وقال ابن عباس : ما أشبه الليلة بالبارحة، هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم . ونحوه عن ابن مسعود .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ ﴾ أى انتفعوا بنصيبهم من الدِّين كما فعل الذين من قبلهم . ﴿ وَخُضْتُمْ ﴾ خروج من الغيبة إلى الخطاب . ﴿ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ أى كخوضهم . فالكاف فى موضع نصب نعت لمصدر محذوف ؛ أى وخضتم خوضا كالذين خاضوا . و « الذى » اسم ناقص مثلُ مَن ، يعبَّر به عن الواحد والجمع . وقد مضى فى «البقرة»(١) . ويقال : خُضْت الماء أخوضه خَوْضا وخِياضا . والموضع مخاضَة ، وهو ماجاز الناسُ فيها مُشاةً ورُكبانا . وجمعها المَخاض والمَخاوِض أيضا ، عن أبى زيد . وأخضت دابتى فى الماء . وأخاض القوم ، أى خاضت خيلهم . وخضت الغَمرات : اقتحمتها . ويقال : خاضه بالسيف ، أى حرّك سيفه فى المضروب . وخَوّض فى نَجِيعه(٢) شدّد للمبالغة . والمِخْوَض للشّراب كالمِجْدَح(٣) للسَّويق ؛ يقال منه : خضت الشراب . وخاض القوم فى الحديث وتخاوضوا أى تفاوضوا فيه ؛ فالمعنى : خضتم فى أسباب الدنيا باللّهو واللعب . وقيل : فى أمر محمد [صلى الله عليه وسلم](٤) بالتكذيب . ﴿ أُولَـٰئِكَ حَبِطَتْ ﴾ بطلت . وقد تقدّم(٥) . ﴿ أَعْمَالُهُمْ ﴾ حسناتهم . ﴿ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وقد تقدّم(٦) أيضا .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٢ . (٢) النجيع : الدم . وقيل دم الجوف خاصة .

(٣) المجدح : خشبة فى رأسها خشبتان معترضتان . (٤) من ب و ك ه .

(٥) راجع جـ ٣ ص ٤٦ . (٦) راجع جـ ١ ص ٢٤٨ .

Marfat.com

قوله تعالى : أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ﴾ أى خبر ﴿ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ . والألف لمعنى التقرير والتحذير ؛ أى ألم يسمعوا إهلاكنا الكفار من قبل . ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ بدل من الذين . ﴿ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أى نُمرود بن كنعان وقومه . ﴿ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ ﴾ [مدين] (١) اسم للبلد الذى كان فيه شعيب ، أهلكوا بعذاب يوم الظُّلَّة . ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قيل : يراد به قوم لوط ؛ لأن أرضهم ائتفكت بهم ، أى انقلبت ؛ قاله قتادة . وقيل : المؤتفكات كل من أهلك ؛ كما يقال : انقلبت عليهم الدنيا . ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ يعنى جميع الأنبياء . وقيـل : أتت أصحاب المؤتفكات رسلُهم ؛ فعلى هذا رسولهم لوط وحده ؛ ولكنه بعث فى كل قرية رسولا ، وكانت ثلاث قَرْيات ، . قيل أربع . وقوله تعالى فى موضع آخر : «والمؤتفكة» (٢) على طريق الجنس . وقيل : أراد بالرسل الواحد ؛ كقوله «يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ» (٣) ولم يكن فى عصره غيره .

قلت — وهذا فيه نظر ؛ للحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : "إن الله خاطب المؤمنين بما أمر به المرسلين" الحديث . وقد تقدّم فى «البقرة» (٤) . والمراد جميع الرسل ، والله أعلم . [قوله تعالى :] (٥) ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أى ليهلكهم حتى يبعث إليهم الأنبياء . ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ولكن ظلموا أنفسهم بعد قيام الحجة عليهم .

قوله تعالى : وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

(١) من جـ و ك و هـ . (٢) راجع جـ ١٧ ص ١١٨ فما بعد فى آية ٥٣ سورة النجم .
(٣) راجع جـ ١٢ ص ١٢٧ آية ٥١ سورة المؤمنون . (٤) راجع جـ ٢ ص ٢١٥ و جـ ١٢ ص ١٢٧ .
(٥) من ب و جـ و ك و هـ .

Marfat.com

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أى قلوبهم متّحدة فى التوادّ والتحابّ والتعاطف . وقال فى المنافقين « بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ » لأن قلوبهم مختلفة ولكن يضم بعضهم إلى بعض فى الحكم .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أى بعبادة الله تعالى وتوحيده ، وكل ما أتبع ذلك . ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ عن عبادة الأوثان وكل ما أتبع ذلك . وذكر الطبرى عن أبى العالية أنه قال : كل ما ذكر [الله](١) فى القرآن من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهو النهى عن عبادة الأوثان والشياطين . وقد مضى القول فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى سورة المائدة(٢) وآل عمران(٣) ، والحمد لله .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ تقدّم فى أول « البقرة » القول فيه(٤) . وقال ابن عباس : هى الصلوات الخمس ، وبحسب هذا تكون الزكاة هنا المفروضة . ابن عطيّة : والمدح عندى بالنوافل أبلغ ؛ إذ من يقيم النوافل أحرى بإقامة الفرائض .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ ﴾ فى الفرائض ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما سنّ لهم . والسين فى قوله : ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ﴾ مُدْخِلةٌ فى الوعد مُهْلةً لتكون النفوس تتنعم برجائه ؛ وفضلُه تعالى زعيمٌ بالإنجاز .

قوله تعالى : وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

(١) من ج و ك و هـ . (٢) راجع ج ٦ ص ٢٤٢ وما بعدها . (٣) راجع ج ٤ ص ٤٧
(٤) راجع ج ١ ص ١٦٤ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ﴾ أى بساتين ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى من تحت أشجارها وغرفها الأنهار . وقد تقدّم فى « البقرة » أنها تجرى منضبطة بالقدرة فى غير أخدود.(١) ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ قصور من الزبرجد والدّر والياقوت يفوح طيبها من مسيرة خمسمائة عام . ﴿ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ أى فى دار إقامة . يقـال : عَدَن بالمكان إذا أقام به ؛ ومنـه المَعْدِن . وقال عطاء الخُرَاسانىّ : « جنات عدن » هى قصبة الجنة ، وسقفُها عرش الرحمن جل وعز . وقال ابن مسعود : هى بُطْنان الجنة ، أى وسطها . وقال الحسن : هى قصر من ذهب لا يدخلها إلا نبىّ أو صـدّيق أو شهيد أو حَكَمٌ عَدْل ؛ ونحوه عن الضحاك . وقال مُقاتل والكلبىّ : عدن أعلى درجة فى الجنة ، وفيها عين التسنيم ، والجنان حولها محفوفة بهـا ، وهى مغطاة من يوم خلقها الله حتى ينزلها الأنبيـاء والصدّيقون والشهداء والصالحون ومن يشاء الله . ﴿ وَرِضْـوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أى أكبر من ذلك . ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

قوله تعـالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ ﴾ الخطاب للنبى صلى الله عليـه وسلم وتدخل فيه أمّته من بعده . قيل : المراد جاهد بالمؤمنين الكفارَ . وقال ابن عباس : أمر بالجهـاد مع الكفار بالسيف ، ومع المنافقين باللسان وشـدّة الزجر والتغليظ . ورُوى عن ابن مسعود أنه قال : جاهد المنافقين بيـدك ، فإن لم تستطع فبلسانك ، فإن لم تستطع فاكْفَهِرّ(٢) فى وجوههم . وقال الحسن : جاهد المنافقين بإقامة الحـدود عليهم وباللسان ـــ واختاره قتادة ـــ وكانوا أكثر من يصيب الحدود . ابن العربىّ : « أما إقامة الحجـة باللسان فكانت دائمة ، وأما بالحدود لأن أكثر إصابة الحدود كانت عندهم فدعوى لا برهان

---

(١) راجع ج ١ ص ٢٣٩ .
(٢) اكفهرّ الرجل : إذا عبس .

Marfat.com

عليها ، وليس العاصى بمنافق ، إنمـا المنافق بما يكون فى قلبه من النفاق كامنًا ، لا بما تتلبس به الجوارح ظاهرا ، وأخبار المحدودين يشهد سياقها أنهم لم يكونوا منافقين .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ الغلظ : نقيض الرأفة ، وهى شدّة القلب على إحلال الأمر بصاحبـه . وليس ذلك فى اللسان ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : " إذا زنت أَمَة أحدكم فليجلدها الحدّ ولا يُثَرِّب عليها [١] " . ومنه قوله تعالى : « وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ [٢] » . ومنه قول النِّسوة لعمر : أنت أفظّ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] . ومعنى الغلظ خشونة الجانب . فهى ضدّ قوله تعالى : وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [٤] » . « وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ [٥] » . وهذه الآية نسخت كل شىء من العفو والصلح والصفح .

قوله تعـالى : يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ج وَمَا نَقَمُوٓا إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ج فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ صلے وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ج وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

(١) أى لا يوبخها ولا يقرعها بالزنى بعـد الضرب . وقيل : أراد لا يقنع فى عقوبتها بالتثريب ، بل يضربها الحد ؛ فإن زنى الإماء لم يكن عند العرب مكروها ولا منكرا ، فأمرهم بحد الإماء كما أمرهم بحد الحرائر . (نهاية ابن الأثير) .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٤٨ . (٣) روى البخارى ومسلم هذا الحديث فى «باب مناقب عمر رضى الله عنه» قالا : «استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته ؛ فلما استأذن عمر قمن فبادرن الحجاب ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ، فقال عمر : أضحك الله سنك يا رسول الله . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "عجبت من هؤلاء اللاتى كن عندى فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب" فقال عمر : أنت أحق أن يهبن يا رسول الله . ثم قال عمر : يا عدوّات أنفسهن ، أتهبننى ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقلن : نعم ! أنت أفظ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إيها يا بن الخطاب والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك" .

(٤) راجع جـ ١٣ ص ١٣٤ . (٥) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٦ .

Marfat.com

فيـــه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ﴾ رُوى أن هذه الآية نزلت فى الجُلَاس ابن سُوَيد بن الصامت، ووديعة بن ثابت ؛ وقعوا فى النبيّ صلى الله عليه وسلم وقالوا : والله لئن كان محمد صادقا على إخواننا الذين هم ساداتنا وخيارنا لنحن شر من الحمير . فقال له عامر ابن قيس : أجل ! والله إن محمدا لصادق مصدَّق ؛ وإنك لشر من حمار . وأخبر عامر بذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم . وجاء الجُلَاس فحلف بالله عند منبر النبيّ صلى الله عليـه وسلم إن عامرا لكاذب . وحلف عامر لقد قال، وقال : اللّهُمّ أنزل على نبيّك الصادق شيئا ، فنزلت . وقيل : إن الذى سمعه عاصم بن عديّ . وقيل حذيفة . وقيل : بل سمعه ولد آمرأته واسمه عمير بن سـعد ؛ فيما قال ابن إسحاق . وقال غيره : اسمه مصعب . فهمّ الجُلَاس بقتله لئلا يخبر بخبره ؛ ففيــه نزل : « وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا » . قال مجاهد : وكان الجُلَاس لمـا قال له صاحبه إنى سأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولك همّ بقتله ، ثم لم يفعل ، عجز عن ذلك . قال ، ذلك هى الإشارة بقوله ، « وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا » . وقيل : إنها نزلت فى عبد الله بن أبيّ ، رأى رجلا من غِفار يتقاتل مع رجل من جُهينة ، وكانت جُهينة حلفاء الأنصار ، فعلا الغِفارىّ الجُهَنِيّ . فقال آبن أبيّ : يا بنى الأوس والخزرج ، انصروا أخاكم ! فوالله ما مَثَلُنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : « سَمِّن كَلْبَك يأكلك » ، ولئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ . فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك ، فجاءه عبد الله بن أبيّ فحلف أنه لم يقله ؛ قاله قتادة . وقول ثالث أنه قول جميع المنافقين ؛ قاله الحسن . آبن العربيّ : وهو الصحيح ؛ لعموم القول ووجود المعنى فيه وفيهم ، وجملة ذلك اعتقادهم فيه أنه ليس بنبيّ .

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾ قال النقاش : تكذيبهم بما وعد الله من الفتح . وقيـل : « كلمة الكفر » قول الجُلَاس : إن كان ما جاء به محمد حقا لنحن أشر من الحمير . وقول عبد الله بن أبيّ : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل . قال القشيريّ : كلمة الكفر سبُّ النبيّ صلى الله عليه وسلم والطعنُ فى الإسلام . ﴿ وَكَفَرُوا

بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ أى بعـد الحكم بإسلامهم . فدلّ هـذا على أن المنافقين كفار ، وفى قوله تعالى : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا »(١) دليل قاطع .

ودلّت الآية أيضا على أن الكفر يكون بكل ما يناقض التصديق والمعرفة ؛ و إن كان الإيمان لا يكون إلا بلا إله إلا الله دون غيره من الأقوال والأفعال إلا فى الصلاة . قال إسحاق ابن رَاهَوَيه : ولقد أجمعوا فى الصلاة على شيء لم يجمعوا عليه فى سائر الشرائع ؛ لأنهم بأجمعهم قالوا : من عُرِف بالكفر ثم رأوه يصلى الصلاة فى وقتها حتى صلى صلوات كثيرةً، ولم يعلموا منه إقرارا باللسان أنه يحكم له بالإيمان ، ولم يحكموا له فى الصوم والزكاة بمثل ذلك .

الثالثــة — قوله تعـالى : ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ يعنى المنافقين من قتـل النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة فى غزوة تبوك ، وكانوا اثنى عشر رجلا . قال حذيفة : سمّاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عدّهم كلهم . فقلت : ألَا تبعثُ إليهم فتقتلَهم ؟ فقال : " أكره أن تقول العرب لمّـا ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم بل يكفيهم الله بالدُّبَيْلة " . قيل : يا رسول الله وما الدُّبيلة ؟ قال : " شهاب من جهنم يجعله على نِياط فؤاد أحدهم حتى تزهق نفسه " . فكان كذلك . خرّجه مسلم بمعناه . وقيل همّوا بعقد التـاج على رأس ابن أُبَيّ ليجتمعوا عليه . وقد تقدّم قول مجاهد فى هذا .

الرابعــة — قوله تعـالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْـلِهِ ﴾ أى ليس ينقمون شيئا ؛ كما قال النابغة :

ولا عَيْبَ فيهم غيرأن سيوفهم * بهــنّ فُلول من قِراع الكتائب

ويقال : نَقَم ينقِم ، ونَقِم ينقَم ؛ قال الشاعر [فى الكسر](٢) :

ما نقِموا من بنى أميّــة إلا * أنهم يحلُمون إن غضبوا

وقال زهــير :

يؤخّر فيوضـع فى كتاب فيدّخَر * ليـوم الحساب أو يُعجّل فينقَم

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٢٤ . (٢) من ب و جـ و ك .

Marfat.com

ينشد بكسر القاف وفتحها . قال الشعبي : كانوا يطلبون دية فيقضى لهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستغنوا . ذكر عكرمة أنها كانت اثنى عشر ألفا . و يقال : إن القتيل كان مولى الجلاس . وقال الكلبي : كانوا قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم فى ضنك من العيش ، لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة ، فلما قدم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم آستغنوا بالغنائم . وهذا المثل مشهور (آتق شر من أحسنت إليه) . قال القشيري أبو نصر : قيل للبجلي أتجد فى كتاب الله تعالى اتق شر من أحسنت إليه ؟ قال نعم ، « وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ » .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾ روى أن الجلاس قام حين نزلت الآية فاستغفر وتاب . فدل هذا على توبة الكافر الذى يسر الكفر و يظهر الإيمان ؛ وهو الذى يسميه الفقهاء الزنديق . وقد آختلف فى ذلك العلماء ؛ فقال الشافعي : تقبل توبته . وقال مالك : توبة الزنديق لا تعرف ؛ لأنه كان يظهر الإيمان و يسر الكفر ، ولا يعلم إيمانه إلا بقوله . وكذلك يفعل الآن فى كل حين ، يقول : أنا مؤمن وهو يضمر خلاف ما يظهر ؛ فإذا عثر عليه وقال : تبت ، لم يتغير حاله عما كان عليه . فإذا جاءنا تائبا من قبل نفسه قبل أن يعثر عليه قبلت توبته ؛ وهو المراد بالآية . والله أعلم .

السادســة — قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾ أى يعرضوا عن الإيمان والتوبة ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فى الدنيا بالقتل، وفى الآخرة بالنـار . ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أى مانع يمنعهم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ أى معين . وقد تقدم[(1)] .

قوله تعـالى : وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا بِهِۦ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٣٨٠ .

Marfat.com

فيــه ثمــان مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾ قال قتادة : هذا رجل من الأنصار قال : لئن رزقنى الله شيئا لأؤدّين فيــه حقّه (١) ولأتصدقنّ ؛ فلمـا آتاه الله ذلك فعـل مانُصّ عليكم ، فاحذروا الكذب فإنه يؤدّى إلى الفجور . وروى على بن يزيد (٢) عن القاسم عن أبى أمامة الباهلى أن ثعلبـة بن حاطب الأنصارى (فسماه) قال للنبيّ صلى الله عليــه وسلم : ادعُ الله أن يرزقنى مالًا . فقال عليه السلام : " وَيْحَك ياثعلبة قليـل تؤدّى شكره خير من كثير لا تطيقــه " . ثم عاود ثانيـا فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أمَا ترضى أن تكون مثل نبيّ الله لو شئتُ أن تسير معى الجبال ذهبا لسارت" . فقال : والذى بعثك بالحق لئن دعوتَ الله فرزقنى مالا لأعطينّ كلّ ذِى حق حقَّه . فدعا له النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فاتخذ غنما فنَمَت كما تَنْمِى الدود ، فضاقت عليه المدينة فتنحّى عنها ونزل واديا من أوديتها حتى جعل يصـلى الظهر والعصر فى جمـاعة ، وترك ما سـواهما . ثم نمت وكثرت حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، وهى تَنْمِى حتى ترك الجمعة أيضا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ياوَيْحَ ثعلبة" ثلاثا . ثم نزل « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً » . فبعث صلى الله عليه وسـلم رجلين على الصدقة ، وقال لهما : " مرَّا بثعلبة وبفلان — رجل من بنى سُليم — فخذا صدقاتهما " . فأتيا ثعلبة وأقرآه كتاب رسولِ الله صلى الله عليه وسـلم ، فقال : ما هـذه إلا أختُ (٣) الجزية ! انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا . الحديث ، وهو مشهور . وقيـل : سبب غناء ثعلبة أنه ورث ابن عم له . قال ابن عبد البر : قيـل إن ثعلبة بن حاطب هو الذى نزل فيه « وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ » الآية ؛ إذ منع الزكاة ، والله أعلم . وما جاء فيمن شاهد بدرا يعارضه قوله تعالى فى الآية : « فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ » الآية .

قلت : وذُكر عن ابن عباس فى سبب نزول الآية أن حاطب بن أبى بَلْتَعة أبطأ عنه ماله بالشام ، فحلف فى مجلس (٤) من مجالس الأنصار : إن سَـلِم ذلك لأتصدقنّ منه ولأصلنّ منه . فلما سَلِم بَخِل بذلك فنزلت .

(١) فى ع : منه وفى ه : لله حقه . (٢) كذا فى ب و جـ و ع و ك وفى ا : زيد . كلاهما روى عن القاسم .
(٣) فى ع : ماهذه إلا جزية — ماهذه إلا أخت الجزية . وفى جـ : أخية الجزية . (٤) فى جـ و ع : مجلسين .

Marfat.com

قلت : وثعلبة بَدْرِى أنصارى وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان ؛ حسب ما يأتى بيانه فى أول الممتحنة[(١)] ؛ فما روى عنه غير صحيح . قال أبو عمر : ولعل قول من قال فى ثعلبة أنه مانع الزكاة الذى نزلت فيــه الآية غير صحيح ، والله أعلم . وقال الضحاك : إن الآية نزلت فى رجال من المنافقين نَبْتَل بن الحارث وجَدّ بن قيس ومُعَتِّب بن قشير

قلت : وهـذا أشبه بنزول الآية فيهم ؛ إلا أن قوله « فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً » يدلّ على أن الذى عاهد الله لم يكن منافقا من قبل ، إلا أن يكون المعنى : زادهم نفاقا ثبتوا عليه إلى المـات ، وهو قوله تعـالى : « إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ » على ما يأتى .

الثانيـــة ـــ قال علماؤنا : لمـا قال الله تعـالى « وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ » احتمل أن يكون عاهد الله بلسانه ولم يعتقده بقلبه . واحتمل أن يكون عاهد الله بهما ثم أدركته سوء الخاتمة ؛ فإن الأعمـال بخواتيمها والأيام بعواقبها . و « من » رفع بالابتداء والخبر فى المجرور . ولفظ اليمين ورد فى الحـديث وليس فى ظاهر القرآن يمين إلا بمجرد الارتبـاط والالتزام ، أما إنه فى صـيغة القسم فى المعنى فإن اللام تدلّ عليه ، وقـد أتى بلامين الأولى للقسم والثانيـة لام الجواب ، وكلاهما للتأكيد . ومنهم من قال : إنهما لاما القسم ؛ والأول أظهر ، والله أعلم .

الثالثـــة ـــ العهد والطلاق وكل حكم ينفرد به المرء ولا يفتقر إلى غيره فيه فإنه يلزمه منــه ما يلتزمه بقصده وإن لم يلفظ به ؛ قاله علمـاؤنا . وقال الشافعيّ وأبو حنيفة : لا يلزم أحدا حكم إلا بعد أن يلفظ به ؛ وهو القول الآخر لعلمائنا . ابن العربيّ : والدليل على صحة ما ذهبنا إليه ما رواه أشهب عن مالك ، وقد سئل : إذا نوى الرجل الطلاق بقلبه ولم يلفظ به بلسانه فقال : يلزمه ؛ كما يكون مؤمنا بقلبه ، وكافرا بقلبه . قال ابن العربيّ : وهذا أصل بديع ، وتحريره أن يقال . عَقْدٌ لا يفتقر فيه المرء إلى غيره فى التزامه فانعقد عليه بنيّة . أصله الإيمـان والكفر .

(١) يلاحظ أن الذى سيذكره المؤلف فى أول سورة الممتحنة إنما هو حاطب بن أبى بلتعة ، لا ثعلبة بن حاطب .

Marfat.com

قلت : وحجة القول الثانى ما رواه مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تجاوز لأمتى عما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به " . ورواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح ، والعمل على هذا عند أهل العلم أن الرجل إذا حدّث نفسه بالطلاق لم يكن شيئا حتى يتكلم به . قال أبو عمر : ومن اعتقد بقلبه الطلاق ولم ينطق به لسانه فليس بشىء . هذا هو الأشهر عن مالك . وقد روى عنه أنه يلزمه الطلاق إذا نواه بقلبه ، كما يكفر بقلبه وإن لم ينطق به لسانه . والأول أصح فى النظر وطريق الأثر ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تجاوز الله لأمتى عما وسوست به نفوسها ما لم ينطق به لسان أو تعمله يد " .

الرابعة — إن كان نذرا فالوفاء بالنذر واجب من غير خلاف وتركه معصية . وإن كانت يمينا فليس الوفاء باليمين واجبا باتفاق . بَيْدَ أن المعنى فيه إن كان الرجل فقيرا لا يتعين عليه فرض الزكاة ؛ فسأل الله مالا تلزمه فيه الزكاة ويؤدّى ما تعيّن عليه من فرضه ، فلما آتاه الله ما شاء من ذلك ترك ما التزم مما كان يلزمه فى أصل الدين لو لم يلتزمه ، لكن التعاطى بطلب المال لأداء الحقوق هو الذى أورطه إذ كان طلبه من الله تعالى بغير نية خالصة ، أو نية لكن سبقت فيه البداية المكتوب عليه فيها الشقاوة . نعوذ بالله من ذلك .

قلت : ومن هذا المعنى قوله عليه السلام : " إذا تمنّى أحدكم فلينظر ما يتمنّى فإنه لا يدرى ما كُتب له فى غيب الله عز وجل من أمنيته " . أى من عاقبتها ، فرُبّ أمنية يفتتن بها أو يطغى فتكون سببا للهلاك دنيا وأخرى ، لأن أمور الدنيا مبهمة عواقبها خطرة غائلتها . وأما تمنى أمور الدّين والأخرى فتمنيها محمود العاقبة محضوض عليها مندوب إليها .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ دليل على أن من قال : إن مَلَكْتُ كذا وكذا فهو صدقة فإنه يلزمه ؛ وبه قال أبو حنيفة : وقال الشافعىّ : لا يلزمه . والخلاف فى الطلاق مثله ، وكذلك فى العتق . وقال أحمد بن حنبل : يلزمه ذلك فى العتق ولا يلزمه فى الطلاق ، لأن العتق قُرْبة وهى تثبت فى الذمة بالنذر ؛ بخلاف الطلاق فإنه

Marfat.com

تصرّف فى محل، وهو لا يثبت فى الذّمة . احتج الشافعىّ بما رواه أبو داود والترمذىّ وغيرهما عن عمرو بن شعيب عن أبيـه عن جدّه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا نَذْرَ لابن آدم فيما لا يملك ولا عتق له فيما لا يملك ولا طلاق له فيما لا يملك " لفظ الترمذىّ . وقال : وفى الباب عن علىّ ومعاذ وجابر وابن عباس وعائشة حديثُ عبد الله بن عمرو حديثٌ حسن ، وهو أحسن شىء رُوى فى هذا الباب . وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم وغيرهم . ابن العربىّ : وسرد أصحاب الشافعىّ فى هـذا الباب أحاديث كثيرة لم يصحّ منها شىء فلا يعوّل عليها ، ولم يبق إلا ظاهر الآية .

السادســة ــ قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّـا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى أعطاهم . ﴿ بَخِلُوا بِهِ ﴾ أى بإعطاء الصدقة وبإنفاق المـال فى الخير، وبالوفاء بما ضمنوا والتزموا . وقد مضى البخل فى « آل عمران »(١) . ﴿ وَتَوَلَّوْا ﴾ أى عن طاعة الله . ﴿ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ أى عن الإسلام ، أى مظهرون للإعراض عنه .

السابعــة ــ قوله تعـالى : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا ﴾ مفعولان؛ أى أعقبهم الله تعالى نفاقا فى قلوبهم . وقيل : أى أعقبهم البخل نفاقا، ولهذا قال : «بَخِلُوا بِهِ» . ﴿ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ فى موضع خفض ؛ أى يلقون بخلهم ، أى جزاء بخلهم ؛ كما يقـال : أنت تلق غدًا عملك . وقيـل : « إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ » أى يلقون الله . وفى هـذا دليل على أنه مات منافقـا . وهو يبعد أن يكون المنزّل فيـه ثعلبة أو حاطب؛ لأن النبىّ صلى الله عليـه وسلم قال لعمر : " وما يدريك لعـلّ الله اطّلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقـد غفرت لكم " . وثعلبة وحاطب ممن حضر بدرا وشهدها . ﴿ بِمَـا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ كذبهم نقضهم العهد وتركهم الوفاء بما التزموه من ذلك .

الثامنــة ــ قوله تعالى : ﴿ نِفَاقًا ﴾ النفاق إذا كان فى القلب فهو الكفر . فأما إذا كان فى الأعمال فهو معصية . قال النبىّ صلى الله عليه وسلم :" أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصا

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٩٠ .

Marfat.com

ومن كانت فيه خَصْلةٌ منهن كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يَدَعَهَا : إذا ٱئتمن خان وإذا حدّث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر " . خرّجه البخاري . وقد مضى في «البقرة» اشتقاق هذه الكلمة (١) ، فلا معنى لإعادتها . واختلف الناس في تأويل هذا الحديث ؛ فقالت طائفة : إنما ذلك لمن يحدّث بحديث يعلم أنه كذب، ويعهد عهدا لا يعتقد الوفاء به، وينتظر الأمانة للخيانة فيها . وتعلقوا بحديث ضعيف الإسناد، وأن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لقي أبا بكر وعمر رضي الله عنهما خارجَيْن من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما ثقيلان (٢) فقال علي: مالي أراكما ثقيلين (٢) ؟ قالا حديثا سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال المنافقين " إذا حدّث كذب وإذا عاهد غدر وإذا ائتمن خان وإذا وعد أخلف " . فقال علي : أفلا سألتماه ؟ فقالا : هبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : لكني سأسأله ؛ فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، خرج أبو بكر وعمر وهما ثقيلان ، ثم ذكر ما قالاه ، فقال : " قد حدثتهما ولم أضعه على الوضع الذي وضعاه ولكن المنافق إذا حدّث وهو يحدث نفسه أنه يكذب وإذا وعد وهو يحدّث نفسه أنه يُخلف وإذا ائتمن وهو يحدث نفسه أنه يخون " . ٱبن العربي : قد قام الدليل الواضح على أن متعمد هذه الخصال لا يكون كافرا ، وإنما يكون كافرا باعتقاد يعود إلى الجهل بالله وصفاته أو التكذيب له [تعالى الله وتقدّس عن ٱعتقاد الجاهلين وعن زيغ الزائغين (٣)] . وقالت طائفة : ذلك مخصوص بالمنافقين زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتعلّقوا بما رواه مقاتل بن حيّان عن سعيد بن جُبير عن ابن عمر وابن عباس قالا : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أناس من أصحابه فقلنا : يا رسول الله ، إنك قلت " ثلاث من كنّ فيه فهو منافق وإن صام وصلّى وزعم أنه مؤمن إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان ومن كانت فيه خَصْلة منهنّ ففيه ثلث النفاق " فظننا أنا لم نَسلم منهن أو من بعضهن ولم يَسلم منهن كثير من الناس ؛ قال : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " مالكم ولهن إنما خصصت بهن المنافقين كما خصهم الله في كتابه أما قولي إذا حدث كذب فذلك قوله عزوجل «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ» — الآية — أفأنتم

(١) راجع جـ ١ ص ١٧٨ ، ١٩٨ . (٢) في ع : يبكيان — تبكيان — يبكيان . (٣) من ع .

Marfat.com

كذلك" ؟قلنا لا . قال : "لا عليكم أنتم من ذلك براء وأما قولى إذا وعد أخلف فذلك فيا أنزل الله على « وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ » ــ الآيات الثلاث ــ "أفأنتم كذلك"؟ قلنـا لا ، والله لو عاهـدنا الله على شيء أوفينا به . قال : " لا عليكم أنتم من ذلك برآء وأما قولى و إذا ائتمن خان فذلك فيا أنزل الله على « إِنَّا عَرَضْـنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَـالِ » ــ الآية ــ فكل إنسان مؤتمن على دينـه فالمؤمن يغتسل من الجنابة فى السر والعلانية [والمنافق لا يفعل ذلك إلا فى العلانية] أفأنتم كذلك" ؟ قلنا لا . قال : " لا عليكم أنتم من ذلك برآء " . و إلى هذا صار كثير من التابعين والأئمة . قالت طائفة : هذا فيمن كان الغالب عليه هذه الخصال . ويظهر من مذهب البخارى وغيره من أهل العلم أن هذه الخلال الذميمة منافق من اتصف بها إلى يوم القيامة . قال ابن العربى : والذى عندى أنه لو غلبت عليه المعاصى ما كان بها كافرا مالم يؤثر فى الاعتقاد . قال علماؤنا : إن إخوة يوسف عليه السلام عاهدوا أباهم فأخلفوه ، وحدثوه فكذبوه ، وائتمنهم على يوسف فخانوه وما كانوا منافقين . قال عطا بن أبى رباح : قد فعل هـذه الخلال إخوة يوسف ولم يكونوا منافقين بل كانوا أنبياء[2] . وقال الحسن بن أبى الحسن البصرى : النفاق نفاقان ، نفاق الكذب ونفاق العمل ؛ فأما نفاق الكذب فكان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، وأما نفاق العمل فلا ينقطع إلى يوم القيامة . وروى البخارى عن حذيفـة أن النفاق كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما اليوم فإنمـا هو الكفر بعد الإيمـان .

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ هذا توبيخ ، وإذا كان عالمـا فإنه سيجازيهم .

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

(١) راجع جـ ١٣ ص (٢) الصحيح أنهم ليسوا أنبياء لأن عملهم مناف للعصمة .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ هذا أيضا من صفات المنافقين . قال قتادة : « يَلْمِزُونَ » يعيبون . قال : وذلك أن عبد الرحمن بن عوف تصدّق بنصف ماله ، وكان ماله ثمانية آلاف فتصدّق منها بأربعة آلاف . فقال قوم : ما أعظم رياءه ؛ فأنزل الله : « الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ » . وجاء رجل من الأنصار بنصف صُبْرة[(١)] من تمره فقالوا : ما أغنى الله عن هذا ؛ فأنزل الله عز وجل ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ الآية . وخرّج مسلم عن أبي مسعود قال : أُمرنا بالصدقة — قال : كنا نحامل[(٢)]، في رواية : على ظهورنا — قال : فتصدّق أبو عقيل بنصف صاع . قال : وجاء إنسان بشيء أكثر منه فقال المنافقون : إنّ الله لغنيّ عن صدقة هذا ، وما فعل هذا الآخر إلا رياء : فنزلت « الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ » . يعني أبا عقيل ، واسمه الحَبْحاب . والجُهْد : شيء قليل يعيش به المُقِلّ . والجُهْد والجَهْد بمعنًى واحد . وقد تقدّم[(٣)] . و « يَلْمِزُونَ » يعيبون . وقد تقدّم . و « الْمُطَّوِّعِينَ » أصله المتطوّعين أدغمت التاء في الطاء ؛ وهم الذين يفعلون الشيء تبرّعا من غير أن يجب عليهم . « وَالَّذِينَ » في موضع خفض عطف على « الْمُؤْمِنِينَ » . ولا يجوز أن يكون عطفا على الاسم قبل تمامه . و ﴿ فَيَسْخَرُونَ ﴾ عطف على « يَلْمِزُونَ » . ﴿ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ خبر الابتداء ، وهو دعاء عليهم . وقال ابن عباس : هو خبر ؛ أي سخر منهم[(٤)] حيث صاروا إلى النار . ومعنى سخر الله مجازاتهم على سخريتهم . وقد تقدّم في « البقرة » .

قوله تعالى : ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

---

(١) الصبرة (بالضم) : ما جمع من الطعام بلا كيل ولا وزن بعضه فوق بعض . (٢) معناه : نحمل الحمل على ظهورنا بالأجرة ونتصدّق من تلك الأجرة أو نتصدّق بها كلها . (٣) راجع جـ ٧ ص ٦٢

(٤) راجع جـ ٣ ص ٢٩ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ يأتى بيانه عند قوله تعالى : « وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا » .

قوله تعـالى : فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا أَن يُجَـٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ ﴾ أى بقعودهم . قعد قعودا ومقعدا ؛ أى جلس . وأقعده غيره ؛ عن الجوهرى . والمخلّف المتروك ؛ أى خلّفهم الله وثبّطهم ، أو خلفهم رسول الله والمؤمنون لمّا علموا تثاقلهم عن الجهاد ؛ قولان ، وكان هذا فى غزوة تبوك . ﴿ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ مفعول من أجله ، وإن شئت كان مصدرا . والخلاف المخالفة . ومن قرأ « خَلْفَ رسولِ الله » أراد التأخر عن الجهاد . ﴿ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ أى قال بعضهم لبعض ذلك . ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ أى قل لهم يا محمد نار جهنم . ﴿ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ ابتداء وخبر . « حرا » نصب على البيان ؛ أى من ترك أمر الله تعرّض لتلك النار .

قوله تعـالى : فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا ﴾ أمرٌ ، معناه معنى التهديد وليس أمرا بالضحك . والأصل أن تكون اللام مكسورة فحذفت الكسرة لثقلها . قال الحسن : « فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا » فى الدُّنيا ﴿ وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾ فى جهنم . وقيل : هو أمر بمعنى الخبر . أى إنهم سيضحكون قليلا و يبكون كثيرا . ﴿ جَزَاءً ﴾ مفعول من أجله ؛ أى للجزاء .

Marfat.com

الثانيــة — من الناس من كان لا يضحك اهتماما بنفسه وفساد حاله فى اعتقاده من شدّة الخوف، و إن كان عبدا صالحا . قال صلى الله عليه وسلم : " والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا و لبكيتم كثيرا ولخرجتم إلى الصُّعُدات(١) تجأرون إلى الله تعالى لوددت(٢) أنى كنت شجرة تُعْضَد" خرجه الترمذى . وكان الحسن البصرى رضى الله عنه ممن قد غلب عليه الحزن فكان لا يضحك . وكان ابن سيرين يضحك و يحتج على الحسن و يقول : الله أضحك وأبكى . وكان الصحابة يضحكون؛ إلا أن الإكثار منه وملازمته حتى يغلب على صاحبه مذموم منهى عنه، وهو من فعل السفهاء والبَطَالة . وفى الخبر : "أن كثرته تميت القلب" . وأما البكاء من خوف الله و [عذابه وشدّة](٣) عقابه فمحمود؛ قال عليه السلام : " ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم فى وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون فلو أن سُفُنًا أجريت فيها لجرت". خرّجه ابن المبارك من حديث أنس، وابن ماجة أيضا .

قوله تعالى : فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ ﴾ أى المنافقين . وإنما قال : « إِلَى طَائِفَةٍ » لأن جميع من أقام بالمدينة ما كانوا منافقين ، بل كان فيهم معذورون ومن لا عذر له، ثم عفا عنهم وتاب عليهم؛ كالثلاثة الذين خُلِّفوا . وسيأتى . ﴿ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا ﴾ أى عاقبهم بألا تصحبهم أبدا . وهو كما قال فى «سورة الفتح» : « قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا »(٤) . و ﴿ الْخَالِفِينَ ﴾ جمع خالف؛ كأنهم خلفوا الخارجين . قال ابن عباس :

(١) الصعدات : هى الطرق، وهى جمع صعد وصعد جمع صعيد؛ كطريق وطرق وطرقات . وقيل : هى جمع صعدة كظلمة، وهى فناء باب الدار وممر الناس بين يديه . (٢) قال الترمذى : ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذر قال : لوددت أنى كنت شجرة تعضد . (٣) من ج و ع و ك و هـ . (٤) راجع جـ ١٦ ص ٢٧٠ فما بعد .

Marfat.com

« الْخَالِفِينَ » من تخلف من المنافقين . وقال الحسن : مع النساء والضعفاء من الرجال ، فغلّب المذكر . وقيل : المعنى فاقعدوا مع الفاسدين ؛ من قولهم فلان خالِفةُ أهل بيته إذا كان فاسدا فيهم ؛ من خُلوف فم الصائم . ومن قولك : خلف اللبن ؛ أى فسد بطول المكث فى السِّقاء ؛ فعلى هـذا يعنى فاقعدوا مع الفاسدين . وهـذا يدلّ على أن استصحاب المخذّل فى الغزوات لا يجوز .

قوله تعالى : وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — روى أن هـذه الآية نزلت فى شأن عبد الله بن أبىّ بن سَلُول وصلاةِ النبىّ صلى الله عليه وسلم عليه . ثبت ذلك فى الصحيحين وغيرهما . وتظاهرت الروايات بأن النبىّ صلى الله عليه وسلم صلّى عليه ، وأن الآية نزلت بعد ذلك . ورُوِى عن أنس بن مالك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لما تقدّم ليصلّى عليه جاءه جبريل فجبذ ثوبه وتلا عليه « وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا » الآية ؛ فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يصلّ عليه . والروايات الثابتة على خلاف هذا ؛ ففى البخارى عن ابن عباس قال : فصلّى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف ، فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من «براءة» « وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا » . ونحوه عن ابن عمر ؛ خرّجه مسلم . قال ابن عمر : لما تُوُفِّى عبد الله بن أبىّ بن سَلُول جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفّن فيه أباه فأعطاه ثم سأله أن يصلّى عليه ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلّى عليه ، فقام عمر وأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أتصلّى عليه وقد نهاك الله أن تصلّى عليه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما خيّرنى الله تعالى فقال : « ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً » وسأزيد على

Marfat.com

سبعين " قال : إنه منافق . فصلّى عليه رسول الله صلى الله عليــه وسلم فأنزل الله عز وجل « وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ » فترك الصلاة عليهم . وقال بعض العلماء : إنمـا صلى النبيّ صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن أبيّ بنـاء على الظاهر من لفظ إسلامه . ثم لم يكن يفعل ذلك لمـّا نُهى عنه .

الثانيـــة ــ إن قال قائل فكيف قال عمر: أتصلّى عليه وقد نهاك الله أن تصلى عليه ، ولم يكن تقدّم نهى عن الصلاة عليهم . قيل له : يحتمل أن يكون ذلك وقع له فى خاطره ، و يكون من قبيل الإلهام والتحدّث الذى شهد له به النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقد كان القرآن ينزل على مراده ، كما قال : وافقتُ ربّى فى ثلاث . وجاء : فى أربع . وقد تقدّم فى البقرة[1] . فيكون هذا من ذلك . ويحتمل أن يكون فَهِم ذلك من قوله تعالى : « آسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ » الآية . لا أنه كان تقدّم نهى على ما دلّ عليه حديث البخارىّ ومسلم . والله أعلم .

قلت : ويحتمل أن يكون فهمه من قوله تعـالى : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ »[2] لأنها نزلت بمكة . وسيأتى القول فيها .

الثالثـــة ــ قوله تعـالى : « آسْتَغْفِرْ لَهُمْ » الآية . بيّن تعالى أنه وإن آستغفر لهم لم ينفعهم ذلك و إن أكثر من الآســتغفار . قال القُشَيرىّ : ولم يثبت ما يروى أنه قال : " لأزيدنّ على السبعين " .

قلت : وهــذا خلاف ما ثبت فى حديث ابن عمر " وسأزيد على سبعين " وفى حديث ابن عبـاس " لو أعلم أنى إن زدت على السبعين يغفر لهم لزدت عليها " . قال : فصلّى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . خرّجه البخارى .

الرابعـــة ــ واختلف العلماء فى تأويل قوله : « آسْتَغْفِرْ لَهُمْ » هل هو إياس أو تخيير؛ فقالت طائفة : المقصود به اليأس بدليل قوله تعالى : « فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ » . وذِكر السبعين وفاقٌ جرى ، أو هو عادتهم فى العبارة عن الكثرة والإغيـاء . فإذا قال قائلهم : لا أكلمــه

(١) راجع جـ ٢ ص ١١٣ . (٢) راجع ص ٢٧٢ من هذا الجزء .

Marfat.com

سبعين ســنة صار عندهم بمنزلة قوله : لا أكلمــه أبدا . ومثـله في الإغياء قوله تعـالى : « في سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِرَاعًا »[1] ، وقوله عليه السلام : " من صام يوما في سبيل الله باعد الله وجهه عن النـار سبعين خريفا " . وقالت طائفـة : هو تخيير — منهم الحسن وقتـادة وعُروة — إن شئت استغفر لهم و إن شئت لا تستغفر . ولهذا لمـا أراد أن يصلّي على ابن أبيّ قال عمر : أتصلّي على عدوّ الله ، القائل يوم كذا كذا وكذا ؟ . فقال : " إني خُيِّرت فاخترت " . قالوا : ثم نسخ هذا لمـا نزل « سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ »[2] . « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا » أي لا يغفر الله لهم لكفرهم .

الخامســـة — قوله تعالى : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ » الآية . وهذه الآية نزلت بمكة عند موت أبي طالب ، على ما يأتي بيـانه . وهذا يفهم منه النهي عن الاستغفار لمن مات كافرا . وهو متقدّم على هذه الآية التي فهم منها التخيير بقوله : " إنمـا خيّرني الله " وهذا مشكل . فقيل : إن استغفاره لعمه إنما كان مقصوده استغفارا مرجوّ الإجابة حتى تحصل له المغفرة . وفي هــذا الاستغفار استأذن عليه السلام ربّه في أن يأذن له فيه لأمّه فلم يأذن له فيه . وأما الاستغفار للمنافقين الذي خُيّر فيه فهو استغفار لسانيّ لا ينفع ، وغايته تطييب قلوب بعض الأحياء من قرابات المستغفر له . والله أعلم .

السادســـة — واختلف في إعطاء النبيّ صلى الله عليه وسلم قميصه لعبد الله ؛ فقيل : إنما أعطاه لأن عبد الله كان قد أعطى العباس عمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قميصه يوم بدر . وذلك أن العباس لمـا أُسر يوم بدر — على ما تقدّم — وسُلب ثوبه رآه النبيّ صلى الله عليه وسلم كذلك فأشفق عليـه ، فطلب له قميصا فمـا وُجد له قميص يقادره إلا قميص عبد الله ، لتقاربهما في طول القامة ؛ فأراد النبيّ صلى الله عليه وسلم بإعطاء القميص أن يرفع اليد عنه في الدنيا ، حتى لا يلقاه في الآخرة وله عليـه يد يكافئه بهـا ، وقيل : إنمـا أعطاه القميص إكراما لابنـه وإسعافا له في طلبته وتطييبا لقلبـه . والأوّل أصح ؛ خرّجه البخاريّ عن جابر

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٨ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٨ ص ١٢٨ .

Marfat.com

ابن عبد الله قال : لما كان يوم بدر أُتي بأُسارى وأُتي بالعباس ولم يكن عليه ثوب؛ فطلب[1] النبيّ صلى الله عليه وسلم له قميصا فوجدوا قميص عبد الله بن أبيّ يقدر عليه ، فكساه النبيّ صلى الله عليه وسلم إياه؛ فلذلك نزع النبيّ صلى الله عليه وسلم قميصه الذى ألبسه . وفى الحديث أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن قميصى لا يغنى عنه من الله شيئا وإنى لأرجو أن يسلم بفعلى هذا ألف رجل من قومى". كذا فى بعض الروايات "من قومى" يريد من منافقى العرب . والصحيح أنه قال : " رجال من قومه " . ووقع فى مغازى ابن إسحاق وفى بعض كتب التفسير : فأسلم وتاب لهذه الفعلة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف رجل من الخزرج .

السابعـــة – لما قال تعالى : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ قال علماؤنا : هذا نص فى الامتناع من الصلاة على الكفار، وليس فيه دليل على الصلاة على المؤمنين . واختلف هل يؤخذ من مفهومه وجوب الصلاة على المؤمنين على قولين . يؤخذ لأنه علّل المنع من الصلاة على الكفار لكفرهم لقوله تعالى : « إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ »؛ فإذا زال الكفر وجبت الصلاة . ويكون هذا نحو قوله تعالى : « كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ »[2] يعنى الكفار؛ فدلّ على أن غير الكفار يرونه وهم المؤمنون؛ فذلك مثله . والله أعلم . أو تؤخذ الصلاة من دليل خارج عن الآية ، وهى الأحاديث الواردة فى الباب ، والإجماع . ومنشأ الخلاف القول بدليل الخطاب وتركه . روى مسلم عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أخًا لكم قد مات فقوموا فصلّوا عليه " قال : فقمنا فصففنا[3] صفين؛ يعنى النجاشى . وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى للناس النجاشىّ فى اليوم الذى مات فيه ، فخرج بهم إلى المصلّى وكبر أربع تكبيرات . وأجمع المسلمون على أنه لا يجوز ترك الصلاة على جنائز المسلمين ، من أهل الكبائر كانوا أو صالحين؛ وراثةً عن نبيّهم صلى الله عليه وسلم قولا وعملا . والحمد لله . واتفق العلماء على ذلك إلا فى الشهيد كما تقدّم؛ وإلا فى أهل البدع والبغاة .

(١) فى نسخ الأصل : « فنظر » . (٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٥٧ . (٣) فى ع : فصلينا .

Marfat.com

الثامنـــة — والجمهور من العلماء على أن التكبير أربع . قال ابن سيرين : كان التكبير ثلاثا فزادوا واحدة . وقالت طائفة : يكبر خمسا؛ ورُوى عن ابن مسعود و زيد بن أرقم . وعن عليّ : ست تكبيرات . وعن ابن عباس وأنس بن مالك وجابر بن زيد : ثلاث تكبيرات والمعوّل عليــه أربع . روى الدَّارَقُطْنِيّ عن أُبَىّ بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الملائكة صلّت على آدم فكبّرت عليه أربعا وقالوا هذه سنتكم يا بنى آدم " .

التاســـعة — ولا قراءة فى هذه الصلاة فى المشهور من مذهب مالك، وكذلك أبو حنيفة والثورىّ ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " إذا صلّيتم على الميت فأخلصوا له الدعاء" رواه أبو داود من حديث أبى هريرة . وذهب الشافعىّ وأحمد و إسحاق ومحمد بن مسلمة وأشهب من علمائنا وداود إلى أنه يقرأ بالفاتحة ؛ لقوله عليه السلام : "لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب" حملا له على عمومه . و بما خرّجه البخارىّ عن ابن عبـاس وصلّى على جنازة فقرأ بفاتحة الكتاب وقال : لتعلموا أنها سنة . وخرّج النّسائىّ من حديث أبى أمامة قال : السنة فى الصلاة على الجنائز أن يقرأ فى التكبيرة الأولى بأمّ القرآن مخافتة، ثم يكبر ثلاثا، والتسليم عند الآخرة . وذكر محمد بن نصر المَرْوَزِىّ عن أبى أمامة أيضا قال : السنة فى الصلاة على الجنائز أن تكبر، ثم تقرأ بأمّ القرآن، ثم تصلّى على النبىّ صلى الله عليه وسلم، ثم تخلص الدعاء للميت . ولا يقرأ إلا فى التكبيرة الأولى ثم يسلم . قال شيخنا أبو العبـاس : وهـذان الحديثان صحيحان ، وهما ملحقان عند الأصوليين بالمسند . والعمل على حديث أبى أمامة أولى؛ إذ فيه جمع بين قوله عليه السلام : "لا صلاة" و بين إخلاص الدعاء للميت . وقراءة الفاتحة فيها إنما هى استفتاح للدعاء . والله أعلم .

العاشـــرة — وسنة الإمام أن يقوم عند رأس الرجل وعجيزة المرأة؛ لمـا رواه أبو داود عن أنس وصلّى على جنازة فقال له العلاء بن زياد : يا أبا حمزة، هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى على الجنائز كصلاتك، يكبر أربعا و يقوم عنـد رأس الرجل وعجيزة المرأة ؟ قال : نعم . ورواه مسلم عن سَمُرة بن جُنْدُب قال : صلّيت خلف النبىّ صلى الله عليه وسلم وصلّى على أمّ كعب ماتت وهى نُفَساء، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليها وسَطها .

Marfat.com

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دُفن الميت وقف على قبره ودعا له بالتثبت، على ما بيناه (فى التذكرة) والحمد لله .

قوله تعالى : وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

كرره تأكيدا . وقد تقدم الكلام فيه .

قوله تعالى : وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُولُوا ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾

انتدب (١) المؤمنون إلى الإجابة وتعلل المنافقون . فالأمر للمؤمنين باستدامة الإيمان وللمنافقين بابتداء الإيمان . و ﴿ أَنْ ﴾ فى موضع نصب؛ أى بأن آمنوا . و ﴿ الطَّوْلِ ﴾ الغنى؛ وقد تقدم (٢) . وخصهم بالذكر لأن من لا طول له لا يحتاج إلى إذن لأنه معذور . ﴿ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ أى العاجزين عن الخروج .

قوله تعالى : رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ جَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ « الخوالف » جمع خالفة؛ أى مع النساء والصبيان وأصحاب الأعذار من الرجال . وقد يقال للرجل : خالفة وخالف أيضا إذا كان غير نجيب؛ على ما تقدم . يقال : فلان خالفة أهله إذا كان دونهم . قال النحاس :

(١) انتدب : أسرع .		(٢) راجع جـ ٥ ص ١٣٦ .

Marfat.com

وأصله من خَلَفَ اللبنُ يخلف إذا حَمُض من طول مكثه . وخَلَف فمُ الصائم إذا تغيّر ريحه؛ ومنه فلان خَلَف سَوء ؛ إلا أن فواعل جمع فاعلة . ولا يجمع « فاعل » صفة على فواعل إلا في الشعر، إلا في حرفين، وهما فارس وهالك. وقوله تعالى في وصف المجاهدين: ﴿ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ﴾ قيل : النساء الحسان؛ عن الحسن . دليله قوله عز وجل : « فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ »[1] . ويقال: هي خَيْرة النساء. والأصل خيّرة فخفّف؛ مثل هَيّنة وهَيْنة. وقيل: جمع خير. فالمعنى لهم منافع الدارين . وقد تقدّم معنى الفلاح[2] . والجنات : البساتين . وقد تقدّم أيضا[2] .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٩٠)

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ قرأ الأعرج والضحّاك « المُعْذِرون » مخففا . ورواها أبو كريب عن أبي بكر عن عاصم، ورواها أصحاب القراءات عن ابن عباس. قال الجوهري : وكان ابن عباس يقرأ « وَجَاءَ الْمُعْذِرُون » مخففة ، من أعذر . ويقول : والله لهكذا أنزلت . قال النحاس: إلا أن مدارها عن الكلبي، وهي من أعذر؛ ومنه قد أعذر من أنذر؛ أي قد بالغ في العذر من تقدّم إليك فأنذرك . وأما « المعذّرون » بالتشديد ففيه قولان: أحدهما أنه يكون المحقّ؛ فهو في المعنى المعتذر، لأن له عذرا . فيكون « المعذرون » على هذه أصله المعتذرون ، ولكن التاء قلبت ذالا فأدغمت فيها وجعلت حركتها على العين ؛ كما قرئ « يَخِصِّمُون »[3] بفتح الخاء . ويجوز « المعِذّرون » بكسر العين لاجتماع الساكنين . ويجوز ضمها اتباعا للميم . ذكره الجوهري والنحاس . إلا أن النحاس حكاه عن الأخفش والفراء وأبي حاتم وأبي عبيد. ويجوز أن يكون الأصل المعتذرون، ثم أدغمت التاء في الذال؛ ويكونون الذين لهم عذر . قال لَبِيد :

إلى الحَوْل ثم آسم السلام عليكما • ومن يَبْك حَوْلا كاملا فقد اعتذر

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٨٦ . (٢) راجع جـ ١ ص ١٨٢ ، ٢٣٩ .
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٣٦ فما بعد .

Marfat.com

والقول الآخر أن المعذِّر قد يكون غير محق، وهو الذى يعتذر ولا عذر له . قال الجوهرى : فهو المَعَذِّر على جهة المُفَعِّل؛ لأنه المُمَرِّض والمقصّر يعتذر بغير عذر . قال غيره : يقال عذّر فلان فى أمر كذا تعذيرا؛ أى قصّر ولم يبالغ فيه . والمعنى أنهم اعتذروا بالكذب . قال الجوهرى : وكان ابن عباس يقول : لعن الله المعذِّرين . كأن الأمر عنده أن المعذّر بالتشديد هو المظهر للعذر، اعتلالا من غير حقيقة له فى العذر . النحاس : قال أبو العباس محمد بن يزيد ولا يجوز أن يكون الأصل فيه المعتذرين، ولا يجوز الإدغام فيقع اللبس . ذكر إسماعيل بن إسحاق أن الإدغام مجتنَب على قول الخليل وسيبويه، [بعد] (١) أن سياق الكلام يدل على أنهم مذمومون لا عذر لهم، قال : لأنهم جاءوا ليؤذن لهم، ولو كانوا من الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون لم يحتاجوا أن يستأذنوا . قال النحاس : وأصل المعذرة والإعذار والتعذير من شىء واحد وهو مما يصعب ويتعذر . وقول العرب : مَن عَذِيرى من فلان، معناه قد أتى أمرا عظيما يستحقّ أن أعاقبه عليه ولم يعلم الناس به؛ [فمن يَعذِرُنى] إن عاقبته . فعلى قراءة التخفيف قال ابن عباس : هم الذين تخلفوا بعذر فأذن لهم النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : هم رهط عامر بن الطُّفَيل قالوا : يا رسول الله، لو غزونا معك أغارت أعراب طَيِّىء على حلائلنا وأولادنا ومواشينا؛ فعذرهم النبىّ صلى الله عليه وسلم . وعلى قراءة التشديد فى القول الثانى، هم قوم من غِفَار اعتذروا فلم يعذِرهم النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ لعلمه أنهم غير محقِّين، والله أعلم . وقعد قوم بغير عذر أظهروه جرأة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم الذين أخبر الله تعالى عنهم فقال : ﴿ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ والمراد بكذبهم قولهم : إنا مؤمنون . و « لِيُؤْذَنَ » نصب بلام كَىْ .

قوله تعالى : لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

(١) من ك وهـ وى .

Marfat.com

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ﴾ الآية . أصل فى سقوط التكليف عن العاجز؛ فكل من عجز عن شىء سقط عنه ، فتارة إلى بدل هو فعل، وتارة إلى بدل هو غرم، ولا فرق بين العجز من جهة القوة أو العجز من جهة المال ؛ ونظير هذه الآية قوله تعالى : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا »(١) وقوله : « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ »(٢) . وروى أبو داود عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لقد تركتم بالمدينة(٣) أقواما ماسرتم مسيرا ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه". قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال :"حبسهم العذر". فبيّنت هذه الآية مع ماذكرنا من نظائرها أنه لا حرج على المعذورين، وهم قوم عرف عذرهم كأرباب الزَّمانة والهرم والعمى والعرج، وأقوام لم يجدوا ما ينفقون؛ فقال : ليس على هؤلاء حرج . ﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ إذا عرفوا الحق وأحبوا أولياءه وأبغضوا أعداءه قال العلماء : فعذر الحق سبحانه أصحاب الأعذار، وما صبرت القلوب؛ فخرج ابن أم مكتوم إلى أُحد وطلب أن يعطى اللواء فأخذه مصعب بن عمير، فجاء رجل من الكفار فضرب يده التى فيها اللواء فقطعها ، فأمسكه باليد الأخرى فضرب اليد الأخرى فأمسكه بصدره وقرأ «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ»(٤) . هذه عزائم القوم . والحق يقول : «لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ » وهو فى الأول . « وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ » وعمرو بن الجموح من نقباء الأنصار أعرج وهو فى أول الجيش . قال له الرسول عليه السلام : " إن الله قد عذرك " فقال : والله لأحفرنّ(٥) بعرجتى هذه فى الجنة ؛ إلى أمثالهم حسب ما تقدّم فى هذه السورة من ذكرهم رضى الله عنهم . وقال عبد الله بن مسعود : ولقد كان الرجل يؤتى به يُهادى(٦) بين الرجلين حتى يقام فى الصف .

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٢٤ فما بعد .
(٢) راجع جـ ١٢ ص ٣١١ فما بعد .
(٣) فى هـ و ك و ى : بعدكم .
(٤) راجع جـ ٤ ص ٢٢١ .
(٥) يقال : حفر الطريق إذا أثرفيها بمشيه عليها .
(٦) أى يمشى بينهما معتمدا عليهما من ضعفه وتمايله .

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : « إِذَا نَصَحُوا » النصح إخلاص العمل من الغش . ومنه التوبة النصوح . قال نَفْطَوَيْه : نصح الشيء إذا خلص . ونصح له القول أى أخلصه له . وفى صحيح مسـلم عن تميم الدّارىّ أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : "الدين النصيحة" ثلاثا . قلنا لمن ؟ قال : "لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم" . قال العلمـاء : النصيحة لله إخلاص الاعتقاد فى الوحدانية ، ووصفُه بصفات الألوهية ، وتنزيهه عن النقائص والرغبة فى مَحابّه والبعد من مساخطه . والنصيحة لرسوله : التصديق بنبوّته ، والتزام طاعته فى أمره ونهيه ، وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه ، وتوقيره ، ومحبته ومحبـة آل بيته ، وتعظيمه وتعظيم سنته ، وإحياؤها بعد موته بالبحث عنها ، والتفقه فيها والذبّ عنها ونشرها والدعاء إليها ، والتخلّق بأخلاقه الكريمة صلى الله عليه وسلم . وكذا النصح لكتاب الله : قراءته والتفقه فيـه ، والذب عنـه وتعليمه وإكرامه والتخلق به . والنصح لأئمـة المسلمين : ترك الخروج عليهم ، وإرشادهم إلى الحق وتنبيههم فيما أغفلوه من أمور المسلمين ، ولزوم طاعتهم والقيـام بواجب حقهم . والنصح للعامة : ترك معاداتهـم ، وإرشادُهم وحب الصالحين منهـم ، والدعاء لجميعهم وإرادة الخير لكافتهم . وفى الحـديث الصحيح "مثـل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهـم وتعاطفهم مثـل الجسد إذا اشتكى منـه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" .

الثالثـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ « مِنْ سَبِيلٍ » فى موضع رفع اسم « ما » أى من طريق إلى العقوبة . وهذه الآية أصل فى رفع العقاب عن كل محسن . ولهذا قال علماؤنا فى الذى يقتص من قاطع يده فيفضى ذلك فى السراية إلى إتلاف نفسه : إنه لا دية له[1]؛ لأنه محسن فى اقتصاصه من المعتدى عليه . وقال أبو حنيفة : تلزمه الدّية . وكذلك إذا صال فحل على رجل فقتله فى دفعه عن نفسه فلا ضمان عليه ؛ وبه قال الشافعىّ . وقال أبو حنيفـة : تلزمه لمـالكه القِيمة . قال ابن العـربىّ : وكذلك القـول فى مسائل الشريعـــة كلها .

(١) فى هـ : عليه .

Marfat.com

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ روى أن الآية نزلت فى عِرباض بن سارِية . وقيل : نزلت فى عائذ بن عمرو . وقيل : نزلت فى بنى مُقَرِّن — وعلى هـذا جمهور المفسرين — وكانوا سـبعة إخوة ، كلهم صحبوا النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وليس فى الصحابة سـبعة إخوة غيرهم ، وهم النعمان ومعقِل وعقيل وسويد وسـنان وسابع لم يُسَمّ[1] . بنو مقرّن المُزنيون سبعة إخوة هاجروا وصحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يشاركهم — فيما ذكره ابن عبد البر وجماعة — فى هذه المكرمة غيرهم . وقد قيل : إنهم شهدوا الخندق كلهم . وقيل : نزلت فى سبعة نفر من بطون شتّى ، وهم البكّاءون أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ليحملهم ، فلم يجد ما يحملهم عليه ؛ فـ « تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ » فسُمّوا البكائين . وهم سالم بن عمير من بنى عمرو بن عوف وعُلْبة بن زيد أخو بنى حارثة . وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب من بنى مازن بن النجّار . وعمرو بن الحُمَام من بنى سلمة . وعبد الله بن المغَفّل المزنىّ ، وقيل : بل هو عبد الله بن عمرو المزنى . وهَرَمىّ بن عبد الله أخو بنى واقف ، وعِرْباض بن سارية الفزارى ، هكذا سماهم أبو عمر فى كتاب الدرر له . وفيهم اختلاف . قال القشيرىّ : معقِل بن يسار وصخر بن خنساء وعبد الله بن كعب الأنصارى ، وسالم بن عمير ، وثعلبة بن غَنَمة ، وعبد الله بن مغفّل وآخر . قالوا : يا نبى الله ، قد ندبتنا للخروج معك ، فاحملنا على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة نغزُ معك . فقال : « لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ » فتولّوا وهم يبكون . وقال ابن عباس : سألوه أن يحملهم على الدواب ، وكان الرجل يحتاج إلى بعـيرين ، بعير يركبه وبعير يحمل ماءه وزاده لبعد الطريق . وقال الحسن : نزلت فى أبى موسى وأصحابه أتوا النبىّ صلى الله عليـه وسلم ليستحملوه ، ووافق ذلك منـه غضبا فقال : « والله لا أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليـه » فتولوا يبكون ؛ فدعاهم رسـول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاهم ذَوْدًا[2] . فقال أبو موسى :

---

(١) لم يذكر المؤلف غير خمسة . والذى فى القاموس (مادة قرن) : « وعبد الله وعبـد الرحمن وعقيل ومعقل والنعمان وسويد وسنان ؛ أولاد مقرن كمحدّث صحابيون » .

(٢) الذود من الإبل : ما بين الثلاث إلى العشر ؛ وهى مؤنثة لا واحد لها من لفظها ، والكثير أذواد .

Marfat.com

ألست حلفت يارسول الله؟ فقال : "إنى إن شاء الله لا أحلف على يمـين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذى هو خير وكفرت عن يمينى" .

قلت : وهذا حديث صحيح أخرجه البخارى ومسلم بلفظه ومعناه . وفى مسلم : فدعا بنا فأمر لنا بخمس ذَوْدٍ غُرِّ الذُّرَى[(١)] ... الحديث . وفى آخره : "فانطلقوا فإنما حملكم الله" . وقال الحسن أيضا وبكر بن عبد الله : نزلت فى عبد الله بن مُغَفَّل المُزَنِى ، أتى النبى صلى الله عليه وسلم يستحمله . قال الجُرْجانى : التقدير أى ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم وقلت لا أجد . فهو مبتدأ معطوف على ما قبله بغـير واو ، والجـواب « تَوَلَّوْا »[(٢)] . ﴿ وَأَعْيُنُهُـمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ الجملة فى موضع نصب على الحال . ﴿ حَزَنًا ﴾ مصدر . ﴿ أَلَّا يَجِدُوا ﴾ نصب بأن . وقال النحاس : قال الفراء يجوز أن لا يجدون ؛ يجعـل لا بمعنى ليس . وهو عند البصريين بمعنى أنهم لا يجدون .

الخامســـة — والجمهور من العلمـاء على أن من لا يجد ما ينفقه فى غزوه أنه لا يجب عليه . وقال علماؤنا : إذا كانت عادته المسألة لزمه كالحج وخرج على العادة لأن حاله إذا لم تتغير يتوجه الفرض عليه كتوجهه على الواجد . والله أعلم .

السادســـة — فى قوله تعالى : « وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ » ما يستدل به على قرائن الأحوال . ثم منها ما يفيد العلم الضرورى ، ومنها ما يحتمل الترديد . فالأول كمن يمر على دار قد علا فيها النعى وخُمشت الخـدود وحُلقت الشعور وسُلِقت[(٣)] الأصـوات وخرقت الجيوب ونادوا على صاحب الدار بالثُّبور ، فيُعلم أنه قد مات . وأما الثانى فكدموع الأيتام على أبواب الحُـكّام ؛ قال الله تعـالى مخبرا عن إخوة يوسف عليه السـلام : « وَجَاءُوا أَبَاهُـمْ عِشَاءً يَبْكُونَ[(٤)] » . وهم الكاذبون ؛ قال الله تعـالى مخبرا عنهم : «وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ» .

---

(١) أى بيض الأسنمة ؛ فإن «الغر» جمع الأغر وهو الأبيض . والذرى : جمع ذروة ، وذروة كل شىء أعلاه .
(٢) فى ج و ك : منسوق .   (٣) السلق : شدة الصوت .   (٤) راجع ج ٩ ص ١٤٤ .

Marfat.com

ومع هذا فإنها قرائن يستدل بها فى الغالب فتبنى عليها الشهادات بنـاء على ظواهر الأحوال وغالبها . وقال الشاعر :

إذا آشـتبكتْ دموع فى خدود * تبـيّن مَن بَكَى ممن تبـاكَى

وسيأتى هذا المعنى فى « يوسف » مستوفى إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ ﴾ أى العقوبة والمـأثم . ﴿ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾ والمراد المنافقون . كرر ذكرهم للتأكيد فى التحذير من سوء أفعالهم .

قوله تعـالى : يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ ﴾ يعنى المنافقين . ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ أى لن نصدقكم . ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ أى أخبرنا بسرائركم . ﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ فيما تستأنفون . ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى يجازيكم بعملكم . وقد مضى هذا كله مستوفى .

قوله تعـالى : سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ أى من تبوك . والمحلوف عليه محذوف ؛ أى يحلفون أنهم ما قدروا على الخروج . ﴿ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ أى لتصفحوا عن

Marfat.com

لومهم . وقال ابن عباس : أى لا تكلموهم . وفى الخبر أنه قال عليه السلام لما قدم من تبوك : " ولا تجالسوهم ولا تكلموهم " . ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ أى عملهم رجس ؛ والتقدير : إنهم ذوو رجس ، أى عملهم قبيح . ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى منزلهم ومكانهم . قال الجوهرى : المأوى كل مكان يأوى إليه شىء ليلا أو نهارا . وقد أوى فلان إلى منزله يأوى أويا ، على فعول ، وإواء . ومنه قوله تعالى : « سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ »[1] . وآويته أنا إيواء ، وأويته إذا أنزلته بك ؛ فعلت وأفعلت ، بمعنى ؛ عن أبى زيد . ومأوِى الإبل (بكسر الواو) لغة فى مأوى الإبل خاصة ، وهو شاذ .

قوله تعالى : يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

حلف عبد الله بن أبىّ ألا يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك وطلب أن يرضى عنه .

قوله تعالى : الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — لما ذكر جل وعز أحوال المنافقين بالمدينة ذكر من كان خارجا منها ونائيا عنها من الأعراب ؛ فقال كفرهم أشد . قال قتادة : لأنهم أبعد عن معرفة السنن . وقيل : لأنهم أقسى قلبا وأجفى قولا وأغلظ طبعا وأبعد عن سماع التنزيل ؛ ولذلك قال الله تعالى فى حقهم : ﴿ وَأَجْدَرُ ﴾ أى أخلق . ﴿ أَلَّا يَعْلَمُوا ﴾ « أن » فى موضع نصب بحذف الباء ؛ تقول : أنت جدير بأن تفعل وأن تفعل ؛ فإذا حذفت الباء لم يصلح إلا بـ « أن » ، وإن أتيت بالباء صلح بـ « أن » وغيره ؛ تقول : أنت جدير أن تقوم ، وجدير بالقيام . ولو قلت :

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٩ .

Marfat.com

أنت جدير القيام كان خطأ . و إنمـا صلح مع « أن » لأن أن يدل على الاستقبال فكأنها عوض من المحذوف . ﴿ حُدودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أى فرائض الشرع . وقيـل : حجج الله فى الربوبية و بعثة الرسل لقلة نظرهم .

الثانيـــة ـــ ولمـا كان ذلك ودل على نقصهم وحطهم عن المرتبة الكاملة عن سواهم ترتبت على ذلك أحكام ثلاثة :

أولهـا ـــ لا حق لهم فى الفىء والغنيمة ؛ كما قال النبىّ صـلى الله عليه وسـلم فى صحيح مسلم من حديث بريدة ، وفيه : "ثم آدعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للهاجرين وعليهم ما على المهاجرين فإن أبوا أن يتحوّلوا عنها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين " .

وثانيهـا ـــ إسقاط شهادة أهل البادية عن الحاضرة ؛ لمـا فى ذلك من تحقق التهمة . وأجازها أبو حنيفة قال : لأنها لا تراعى كل تُهَمَة ، والمسلمون كلهم عنده على العدالة . وأجازها الشافعىّ إذا كان عدلا مرضيا ؛ وهو الصحيح لمـا بيناه فى «البقرة»[1] . وقد وصف الله تعالى الأعراب هنا أوصافا ثلاثة : أحدها ـــ بالكفر والنفاق . والثانى ـــ بأنه يتخذ ما ينفق مغرما و يتربص بكم الدوائر . والثالث ـــ بالإيمان بالله وباليوم الآخر و يتخذ ما ينفق قربات عند الله وصـلوات الرسول ؛ فمن كانت هـذه صفته فبعيد ألا تقبل شهادته فيلحق بالثانى والأوّل ، وذلك باطل . وقد مضى الكلام فى هذا فى « النساء »[2] .

وثالثهـا ـــ أن إمامتهم بأهـل الحاضرة ممنوعة لجهلهم بالسـنة وتركهم الجمعـة . وكره أبو مجـلَز إمامة الأعرابى . وقال مالك : لا يؤم وإن كان أقرأهم . وقال سـفيان الثورىّ والشافعىّ و إسحاق وأصحاب الرأى : الصـلاة خلف الأعرابى جائزة . واختاره ابن المنـذر إذا أقام حدود الصلاة .

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٩٦ .   (٢) راجع جـ ٥ ص ٤١٠ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعــالى : ﴿ أَشَدُّ ﴾ أصله أشْـدَد ؛ وقد تقـدّم . ﴿ كُفْرًا ﴾ نصب على البيان . ﴿ وَنِفَاقًا ﴾ عطفٌ عليه . ﴿ وَأَجْدَرُ ﴾ عطف على أشدّ ، ومعناه أخلق ؛ يقال : فلان جدير بكذا أى خليق به ، وأنت جدير أن تفعل كذا ، والجمـع جدراء وجديرون . وأصله من جدر الحائط وهو رفعه بالبناء . فقوله : هو أجدر بكذا أى أقرب إليه وأحق به . ﴿ أَلَّا يَعْلَمُوا ﴾ أى بألاّ يعلموا . والعرب : جيل من الناس ، والنسبة إليهم عربِىّ بين العروبة ، وهم أهل الأمصار . والأعراب منهم سكان البادِية خاصة . وجاء فى الشعر الفصيح أعاريب . والنسبة إلى الأعْرَاب أعرابىّ لأنه لا واحد له ، وليس الأعراب جمعا للعرب كما كان الأنباط جمعا لنَبَط ؛ وإنمـا العرب اسم جنس . والعـرب العاربة هم الخلص منهـم ، وأخِذ من لفظه وأكّد به ؛ كقولك : لَيْل لائل . وربمـا قالوا : العرب العرْبَاء . وتعرّب أى تشبه بالعرب . وتعرّب بعد هجـرته أى صار أعرابيا . والعرب المستعرِبة هم الذين ليسوا بخلص ، وكذلك المتعربة ، والعربية هى هذه اللغة . ويَعْرُب بن قحطان أوّل من تكلم بالعربية ، وهو أبو اليمن كلهم . والعُرْب والعَرَب واحد ؛ مثل العُجْم والعَجَم . والعُرَيْب تصغير العرب ؛ قال الشاعر :

ومَكْن الضِّباب طعام العرَيْبِ ✽ ولا تشـــتهيه نفـوسُ العـجَم (١)

إنمـا صغرهم تعظيما ؛ كما قال : أنا جُذَيْلُها المحَكَّكُ ، وعُذَيْقُها المرَجَّب (٢) كله عن الجوهرىّ . وحكى القشيرىّ وجمع العَرَبِى العَـرَب ، وجمع الأعرابى أعراب وأعاريب . والأعرابى إذا قيل له ياعَرَبِىّ فرِح ، والعربىّ إذا قيـل له يا أعرابى غضب . والمهاجرون والأنصار عرب لا أعراب . وسميت العرب عَرَبًا لأن ولد إسماعيل نشئوا من عَرَبة وهى من تهامة فنسبوا إليها . وأقامت قريش بعَربة وهى مكة ، وانتشر سائر العرب فى جزيرتها .

---

(١) البيت لعبد المؤمن بن عبدالقدوس . والمكن : بيض الضبة والجرادة ونحوها . (٢) الجذيل تصغير الجذل ، وهو أصل الشـجرة . والمحكك : الذى تحكك به الإبل الجربى ، وهو عود ينصب فى مبارك الإبل لذلك . والعذيق : تصغير العذق ، وهو النخلة . والمرجب : الذى جعل له رجبة ، وهى دعامة تبنى حولها من الحجارة . وهو من قول الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصارى يوم السقيفة عند بيعة أبى بكر رضى الله عنه يريد أنه قد جربته الأمور ، وله رأى وعلم يشتفى بهما كما تشفى الإبل الجربى باحتكاكها بالجذل .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ ﴾ « من » فى موضـع رفع بالابتـداء . ﴿ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا ﴾ مفعولان ؛ والتقدير ينفقه ، فحذفت الهاء لطول الاسم . « مَغْرَمًا » معناه غرما وخسرانا ؛ وأصله لزوم الشيء ؛ ومنـه : « إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا »[١] أى لازما ، أى يرون ماينفقونه فى جهاد وصدقة غرما ولا يرجون عليـه ثوابا . ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ﴾ التربص الانتظار ؛ وقد تقدّم[٢] . والدوائر جمع دائرة ، وهى الحالة المنقلبة عن النعمة إلى البلية ، أى يجمعون إلى الجهل بالإنفاق سـوء الدخلة وخبث القلب . ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّـوْءِ ﴾ قرأه ٱبن كثير وأبو عمرو بضم السين هنـا وفى الفتح ، وفتحها الباقون . وأجمعوا على فتح السين فى قـوله : « مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَـوْءٍ »[٣] . والفرق بينهما أن السُّـوء بالضم المكروه . قال الأخفش : أى عليهم دائرة الهزيمة والشر . وقال الفرّاء : أى عليهم دائرة العذاب والبلاء . قالا : ولا يجوز ٱمرأ سوء بالضم ؛ كما لا يقال : هو ٱمرُؤ عذاب ولا شر . وحكى عن محمد ٱبن يزيد قال : السَّوء بالفتح الرداءة . قال سيبويه : مررت برجل صـدق ، ومعناه برجل صلاح . وليس من صدق اللسان ، ولو كان من صـدق اللسان لمـا قلت : مررت بثوب صدق . ومررت برجل سَوْء ليس هو من سُؤْته ، وإنمـا معناه مررت برجل فساد . وقال الفراء : السَّوء بالفتح مصدر سُؤْته سَوْءا ومساءة وسوائية . قال غيره : والفعل منه ساء يسوء . والسُّوء بالضم ٱسم لا مصدر ؛ وهو كقولك : عليهم دائرة البلاء والمكروه .

قوله تعـالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَاتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾

(١) راجع جـ ١٣ ص (٢) راجع جـ ٣ ص ١٠٨ . (٣) راجع جـ ١١ ص ٩٩ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ أى صدق . والمراد بنو مُقَرِّن من مُزَينة ؛ ذكره المهدوى . ﴿ قُرُبَاتٍ ﴾ جمع قُرْبة ، وهى ما يتقرب به إلى الله تعالى ؛ والجمع قُرَب وقُرُبات وقَرَبات وقُرْبات ؛ حكاه النحاس . والقُرُبات (بالضم) ما تُقترب به إلى الله تعالى ؛ تقول منه : قرّبت لله قربانا . والقِربة بكسر القاف ما يستقى فيه الماء ؛ والجمع فى أدنى العدد قِرْبات وقِرِبات وقِرَبات ، وللكثير قِرَب . وكذلك جمع كل ما كان على فِعْلة ؛ مثل سِدْرة وفقرة ، لك أن تفتح العين وتكسر وتسكّن ؛ حكاها الجوهرى . وقرأ نافع فى رواية وَرْش « قُرُبة » بضم الراء وهى الأصل . والباقون بسكونها تخفيفا ؛ مثل كُتْب ورُسْل ، ولا خلاف فى قربات . وحكى ٱبن سعدان أن يزيد بن القَعْقاع قرأ « أَلَا إِنَّهَا قُرُبَةٌ لَهُمْ » . ومعنى ﴿ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾ ٱستغفاره ودعاؤه . والصلاة تقع على ضروب ؛ فالصلاة من الله جل وعز الرحمة والخير والبركة ؛ قال الله تعالى : « هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ »(١) . والصلاة من الملائكة الدعاء ، وكذلك هى من النبى صلى الله عليه وسلم ؛ كما قال : « وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ » أى دعاؤك تثبيت لهم وطمأنينة . ﴿ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ﴾ أى تقربهم من رحمة الله ، يعنى نفقاتهم .

قوله تعالى : وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٠٠)

فيه سبع مسائل :

الأولى — لما ذكر جل وعز أصناف الأعراب ذكر المهاجرين والأنصار ، وبين أن منهم السابقين إلى الهجرة وأن منهم التابعين ، وأثنى عليهم . وقد ٱختلف فى عدد طبقاتهم وأصنافهم . ونحن نذكر من ذلك طرفا نبيّن الغرض فيه إن شاء الله تعالى . وروى عمر ٱبن الخطاب أنه قرأ « والأنصارُ » رفعا عطفا على السابقين . قال الأخفش : الخفض

(١) راجع جـ ١٤ ص

Marfat.com

فى الأنصار الوجه؛ لأن السابقين منهما . والأنصار آسم إسلامى . قيل لأنس بن مالك : أرأيت قول الناس لكم : الأنصار ، آسم سماكم الله به أم كنتم تُدْعَوْنَ به فى الجاهلية ؟ قال : بل آسم سمانا الله به فى القرآن؛ ذكره أبو عمر فى الاستذكار .

الثانيــة — نص القرآن على تفضيل السابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار وهم الذين صلوا إلى القبلتين ؛ فى قول سعيد بن المسيّب وطائفة . وفى قول أصحاب الشافعيّ هم الذين شهدوا بيعة الرضوان ، وهى بيعة الحُدَيْبِيَة ؛ وقاله الشعبى . وعن محمد بن كعب وعطاء بن يسار : هم أهل بدر . وآتفقوا على أن من هاجر قبل تحويل القبلة فهو من [المهاجرين][1] الأوّلين من غير خلاف بينهم . وأما أفضلهم وهى :

الثالثــة — فقال أبو منصور البغدادىّ التميمى : أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة ، ثم الستة الباقون إلى تمام العشرة ، ثم البدريون ثم أصحاب أُحُد ثم أهل بيعة الرضوان بالحُدَيْبِيَة .

الرابعــة — وأما أوّلهم إسلاما فروى مجالد عن الشعبى قال : سألت آبن عباس مَن أوّل الناس إسلاما ؟ قال أبو بكر؛ أو ماسمعت قول حسان :

إذا تذكّرتَ شَجْوًا من أخى ثقة * فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خيرَ البرية أتقاها وأعدلها * بعد النبيّ وأوفاها بما حملا
الثانِيَ التالِيَ المحمودَ مشهدُه * وأوّلَ الناس منهم صدّق الرسلا

وذكر أبو الفرج الجَوْزى عن يوسف بن يعقوب بن الماجشون [أنه][2] قال : أدركت أبى وشيخنا[3] محمد بن المنكدر وربيعةَ بن أبى عبد الرحمن وصالح بن كَيْسان وسعد بن إبراهيم وعثمان بن محمد الأَخْنَسِىّ وهم لا يشكّون أن أوّل القوم إسلاما أبو بكر؛ وهو قول آبن عباس وحسّان وأسماء بنت أبى بكر، وبه قال إبراهيم النَّخَعِىّ . وقيل : أوّل من أسلم علىّ؛ رُوى ذلك عن زيد آبن أرْقم وأبى ذرّ والمِقْداد وغيرهم . قال الحاكم أبو عبد الله : لا أعلم خلافا بين أصحاب التواريخ أن عليًّا أوّلهم إسلاما . وقيل : أوّل من أسلم زيد بن حارثة . وذكر مَعْمَر نحو

(١) من ج . (٢) من ب وجـ وك وى . (٣) فى ب وجـ وى : مشيختنا .

ذلك عن الزُّهْرِيّ . وهو قول سليمان بن يَسار وعروة بن الزبير وعمران بن أبي أنس . وقيل : أول من أسـلم خديجة أم المؤمنين ؛ روى ذلك من وجوه عن الزهرى ، وهو قول قتادة ومحمد بن إسحاق بن يَسار وجماعة ، وروى أيضا عن ٱبن عباس . وٱدّعى الثَّعلبيّ المفسّر اتفاق العلمـاء على أن أول من أسـلم خديجة ، وأن اختلافهم إنمـا هو فيمن أسلم بعدها . وكان إسحاق بن إبراهيم بن رَاهْوَيْه الحنظَلِيّ يجمع بين هذه الأخبار ، فكان يقول : أول من أسلم من الرجال أبو بكر ، ومن النساء خديجة ، ومن الصبيان علىّ ، ومن الموالى زيد بن حارثة ، ومن العبيد بلال . والله أعلم . وذكر محمد بن سـعد قال : أخبرنى مصعب بن ثابت قال حدثنى أبو الأســود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل قال : كان إســلام الزبير بعد أبى بكر وكان رابعا أو خامسا . قال الليث بن سعد وحدّثنى أبو الأسود قال : أسلم الزبير وهو ٱبن ثمان سنين . وروى أن علياً أسلم ابن سبع سنين . وقيل : ابن عشر .

الخامســـة ــ والمعروف عن طريقة أهل الحديث أن كل مسلم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو من أصحابه . قال البخارى فى صحيحه : من صحب النبيّ صلى الله عليه وسلم أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه (1) . وروى عن سعيد بن المسيّب أنه كان لا يعد الصحابىّ إلا من أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة أو سنتين ، وغزا معه غزوة أو غزوتين . وهـذا القول إن صح عن سـعيد بن المسيّب يوجب ألا يعد من الصحابة جَرِير بن عبـد الله البَجَلِيّ أو من شاركه فى فقد ظاهر ما اشترطه فيهم ممن لا نعرف خلافا فى عدّه من الصحابة .

السادســـة ــ لا خلاف أن أول السابقـين من المهاجرين أبو بكر الصـدّيق . وقال ٱبن العربى : السبق يكون بثلاثة أشياء : الصفة وهو الإيمان ، والزمان ، والمكان . وأفضل هذه الوجوه سبق الصفات ؛ والدليل عليه قوله صلى الله عليه وسلم فى الصحيح : "نحن الآخرون الأوّلون بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب مِن قَبلنا وأوتيناه من بعدهم فهذا يومهم الذى اختلفوا فيه فهدانا الله له فاليهود غدًا والنصارى بعد غد" . فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن من سبقنا من الأمم بالزمان سبقناهم بالإيمان والامتثال لأمر الله تعالى والانقياد إليه ، والاستسلام لأمره والرضا .

(1) فى ب وجوك ى : الصحابة .

Marfat.com

بتكاليفه والاحتمال لوظائفه، لا نعترض عليه ولا نختار معه، ولا نبدّل بالرأى شريعته كما فعل أهل الكتاب؛ وذلك بتوفيق الله لما قضاه، وبتيسيره لما يرضاه؛ وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

السابعة — قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : تضمّنت هذه الآية تفضيل السابقين إلى كل منقبة من مناقب الشريعة، فى علم أو دين أو شجاعة أو غير ذلك، من العطاء فى المال والرتبة فى الإكرام. وفى هذه المسألة خلاف بين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما. واختلف[1] العلماء فى تفضيل السابقين بالعطاء على غيرهم؛ فرُوى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه كان لا يفضل بين الناس فى العطاء بعضهم على بعض بحسب السابقة. وكان عمر يقول له : أتجعل ذا السابقة كمن لا سابقة له ؟ فقال أبو بكر : إنما عملوا لله وأجرهم عليه. وكان عمر يفضل فى خلافته؛ ثم قال عند وفاته : لئن عشت إلى غد لألحقنّ أسفل الناس بأعلاهم ؛ فمات من ليلته. والخلافة[2] إلى يومنا هذا على هذا الخلاف.

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قرأ عمر «والأنصارُ» رفعا. «الذين» بإسقاط الواو نعتا للأنصار؛ فراجعه زيد ابن ثابت، فسأل عمرُ أُبَيّ بن كعب فصدّق زيدا؛ فرجع إليه عمر وقال: ما كنا نرى إلا أنا رفعنا رفعة لا ينالها معنا أحد. فقال أُبَيّ : [إنى أجد][3] مصداق ذلك فى كتاب الله فى أول سورة الجمعة: « وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ »[4] وفى سورة الحشر : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ »[4]. وفى سورة الأنفال بقوله : « وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ »[5]. فثبتت القراءة بالواو. وبيّن تعالى بقوله : « بِإِحْسَانٍ » ما يتبعون فيه من أفعالهم وأقوالهم، لا فيما صدر عنهم من الهفوات والزلات؛ إذ لم يكونوا معصومين رضى الله عنهم.

الثانية — واختلف العلماء فى التابعين ومراتبهم؛ فقال الخطيب الحافظ : التابعىّ من صحب الصحابى؛ ويقال للواحد منهم : تابع وتابعىّ. وكلام الحاكم أبى عبد الله وغيره

(١) فى ع : بعض العلماء. (٢) كذا فى ى. وفى ب وج وك و ا و ه : والخلاف. ولا يبدو له معنى. (٣) من ع. (٤) راجع جـ ١٨ ص ٩٢ وص ٣١. (٥) راجع جـ ٨ ص ٥٦.

مُشعر بأنه يكفى فيه أن يسمع من الصحابى أو يلقاه و إن لم توجد الصحبة العرفية . وقد قيل : إن اسم التابعين ينطلق على من أسلم بعد الحُدَيْبِيَة، كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومن داناهم من مُسْلِمة الفتح؛ لما ثبت أن عبد الرحمن بن عوف شكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخالد : " دَعُوا لى أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أُحُد ذهبًا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه " . ومن العجب عَدّ الحاكم أبو عبد الله النعمانَ وسويدا ابنى مُقَرِّن المزنى فى التابعين عند ما ذكر الإخوة من التابعين، وهما صحابيان معروفان مذكوران فى الصحابة، وقد شهدا الخندق كما تقدم . والله أعلم . وأكبر التابعين الفقهاء السبعة من أهل المدينة، وهم سعيد بن المسيّب، والقاسم بن محمد، وعروة بن الزبير، وخارجة بن زيد، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وعبد الله ابن عتبة بن مسعود، وسليمان بن يسار . وقد نظمهم بعض الأجلة فى بيت واحد فقال :

فخذهم عبيدُ الله[1] عروةُ قاسمٌ　*　سعيدٌ أبو بكر[2] سليمانُ خارجهْ

وقال أحمد بن حنبل : أفضل التابعين سعيد بن المسيّب؛ فقيل له : فعلقمة والأسود . فقال : سعيد بن المسيّب وعلقمة والأسود . وعنه أيضا أنه قال : أفضل التابعين قيس وأبو عثمان وعلقمة ومسروق؛ هؤلاء كانوا فاضلين ومن عِلْية التابعين . وقال أيضا : كان عطاء مفتى مكة والحسن مفتى البصرة، فهذان أكثر الناسُ عنهم؛ وأَبْهَمَ . وروى عن أبى بكر بن أبى داود قال : سيدتا التابعين من النساء حفصة بنت سيرين وعمرة بنت عبد الرحمن، وثالثتهما — وليست كهما — أم الدرداء[3] . وروى عن الحاكم أبى عبد الله قال : طبقة تعدّ فى التابعين ولم يصح سماع أحد منهم من الصحابة؛ منهم إبراهيم بن سويد النَّخَعِى وليس بإبراهيم بن يزيد النخعى الفقيه . وبكير بن أبى السَّميط[4]، وبكير بن عبد الله الأشج . وذكر غيرهم قال : وطبقة عدادهم عند الناس فى أتباع التابعين، وقد لقوا الصحابة منهم أبو الزناد عبد الله بن ذَكْوان، لقِىَ عبد الله بن عمر وأنسًا . وهشامُ بن عروة، وقد أُدخِل على عبد الله بن عمر،

---

(١) هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة .　(٢) هو أبو بكر بن عبد الرحمن . كما فى ح .
(٣) أم الدرداء الصغرى الدمشقية .　(٤) فى التقريب : « السميط بفتح المهملة؛ و يقال بالضم » .

Marfat.com

وجابر بن عبد الله وموسى بن عقبة ، وقد أدرك أنس بن مالك . وأم خالد بنت خالد بن سعيد . وفى التابعين طبقة تسمى بالمخضرمين ، وهم الذين أدركوا الجاهلية وحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلموا ولا صحبة لهم . واحدهم مخضرم (بفتح الراء) كأنه خضرم ، أى قطع عن نظرائه الذين أدركوا الصحبة وغيرها . وذكرهم مسلم فبلغ بهم عشرين نفسا ، منهم أبو عمرو الشيبانيّ ، وسُــويد بن غَفَلة الكِنديّ ، وعمرو بن ميمون الأَوْديّ ، وأبو عثمان النَّهـديّ وعبد خير بن يزيد الخيوانى (بفتح الخاء) ، بطن من هَمْدان ، وعبد الرحمن بن مُلّ . وأبو الحلال العتكى ربيعة بن زُرَارة[1] . وممن لم يذكره مسلم ؛ منهم أبو مسلم الخولانيّ عبد الله بن ثُوَب ، والأحنف بن قيس . فهذه نبـذة من معرفة الصحابة والتابعين الذين نطق بفضلهم القـرآن الكريم ، رضوان الله عليهم أجمعين . وكفانا نحن قوله جل وعز : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ »[2] على ما تقدّم . وقوله عز وجل : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا »[3] الآية . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وددت أنا لو رأينا إخواننا..."[4] . الحديث . فجعلنا إخوانه ؛ إن اتقينا الله واقتفينا آثاره حشرنا الله فى زمرته ولا حاد بنا عن طريقته وملته بحق[5] محمد وآله .

قوله تعالى : وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ﴾ ابتداء وخبر . أى قوم منافقون ؛ يعنى مُزَينة وجُهينة وأسْلَم وغِفَار وأشْجع . ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ أى قوم مردوا على النفاق . وقيل : «مردوا» من نعت المنافقين ؛ فيكون فى الكلام تقديم وتأخير ، المعنى . وممن حولكم من الأعراب منافقون مردوا على النفاق ، ومن أهل المدينة مثل ذلك . ومعنى : « مَرَدُوا » أقامـوا ولم يتوبوا ؛ عن ابن زيد . وقال غيره : لجّوا فيه وأبوا غيره ؛

(١) فى الميزان : ربيعة بن أبى الحلال . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٧٠ . (٣) راجع جـ ٢ ص ١٥٢ .
(٤) رواية أحمد : "وددت أنى لقيت إخوانى..." ويروى : "رأيت..." . (٥) فى ع : بجاه .

والمعنى متقارب . وأصل الكلمة من اللين والملامسة والتجرّد ؛ فكأنهم تجرّدوا للنفاق . ومنه[1] رملة مرداء لا نبت فيها . وغُصن أمْرَد لا ورق عليه . وفرس أمْرَد لا شعر على ثُنّته[2] . وغلام أمرد بيّن المَرَد ؛ ولا يقال : جارية مرداء . وتمريد البناء تمليسه ؛ ومنه قوله : « صَرْحٌ مُمَرَّد »[3] . وتمريد الغصن تجريده من الورق ؛ يقال : مَرَد[4] يَمْرُد مُرودا ومَرَادة .

قوله تعالى : ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ هو مثل قوله : «لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ»[5] على ما تقدّم . وقيل : المعنى لا تعلم يا محمد عاقبة أمورهم وإنما نختص نحن بعلمها ؛ وهذا يمنع أن يحكم على أحد بجنة أو نار .

قوله تعالى : ﴿ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ قال ابن عباس : بالأمراض فى الدنيا وعذاب الآخرة . فمرض المؤمن كفارة ، ومرض الكافر عقوبة . وقيل : العذاب الأوّل الفضيحة باطلاع النبيّ صلى الله عليه وسلم عليهم ؛ على ما يأتى بيانه فى المنافقين . والعذاب الثانى عذاب القبر . الحسن وقتادة : عذاب الدنيا وعذاب القبر . ابن زيد : الأوّل بالمصائب فى أموالهم وأولادهم ، والثانى عذاب القبر . مجاهد : الجوع والقتل . الفراء : القتل وعذاب القبر . وقيل : السباء والقتل . وقيل : الأوّل أخذ الزكاة من أموالهم وإجراء الحدود عليهم ، والثانى عذاب القبر . وقيل : أحد العذابين ما قال تعالى : « فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ — إلى قوله — إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »[5] . والغرض من الآية اتباع العذاب ، أو تضعيف العذاب عليهم .

قوله تعالى : وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

أى ومن أهل المدينة وممن حولكم قوم أقرّوا بذنوبهم ، وآخرون مرجون لأمر الله يحكم فيهم بما يريد . فالصنف الأوّل يحتمل أنهم كانوا منافقين وما مردوا على النفاق ، ويحتمل

(١) فى ج : ومثله . (٢) الثنة : مؤخر الرسغ ، وهى شعرات مدلاة مشرفات من خلف . (٣) راجع جـ ١٣ ص (٤) من باب نصر وكرم . (٥) راجع ص ٣٥ وص ١٦٤ من هذا الجزء .

Marfat.com

أنهم كانوا مؤمنين . وقال ابن عباس : نزلت فى عشرة تخلّفوا عن غزوة تبوك فأوثق سبعة منهم أنفسهم فى سوارى المسجد . وقال بنحوه قتادة وقال : وفيهم نزل « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً » ؛ ذكره المهدوى . وقال زيد بن أسلم : كانوا ثمانية . وقيل : كانوا ستة . وقيل : خمسة . وقال مجاهد : نزلت الآية فى أبى لُبابة الأنصارى خاصة فى شأنه مع بنى قُريظة ؛ وذلك أنهم كلّموه فى النزول على حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فأشار لهم إلى حلقه . يريد أن النبى صلى الله عليه وسلم يذبحهم إن نزلوا، فلما افتضح تاب وندم وربط نفسه فى سارية من سوارى المسجد ، وأقسم ألا يطعم ولا يشرب حتى يعفو الله عنه أو يموت ؛ فمكث كذلك حتى عفا الله عنه ، ونزلت هذه الآية، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلّه ؛ ذكره الطبرى عن مجاهد ، وذكره ابن إسحاق فى السيرة أوْعَب من هـذا . وقال أشهب عن مالك : نزلت « وَآخَرُونَ » فى شأن أبى لبابة وأصحابه ، وقال حين أصاب الذنب : يا رسول الله ، أجاورك وأنخلع من مالى ؟ فقال : "يجزيك من ذلك الثلث وقد قال تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا "» ورواه ابن القاسم وابن وهب عن مالك . والجمهور أن الآية نزلت فى شأن المتخلّفين عن غزوة تبوك ، وكانوا ربطوا أنفسهم كما فعل أبولُبابة ، وعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يطلقهم ويرضى عنهم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أومر بإطلاقهم رَغبوا عنّى وتخلّفوا عن الغـزو مع المسلمين" فأنزل الله هـذه الآية ؛ فلما نزلت أرسل إليهم النبى صلى الله عليه وسلم فأطلقهم وعذرهم . فلما أطلقوا قالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا التى خلّفتنا عنك ، فتصدّق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا . فقال : "ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا" فأنزل الله تعالى « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً » الآية . قال ابن عباس : كانوا عشرة أنفس منهم أبو لبابة ؛ فأخذ ثلث أموالهم وكانت كفارة الذنوب التى أصابوها . فكان عملهم السيء التخلف بإجماع من أهل هذه المقالة . واختلفوا فى الصالح ؛ فقال الطبرى وغيره : الاعتراف والتوبة والندم . وقيل : عملهم الصالح الذى عملوه أنهم لحقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وربطوا

Marfat.com

أنفسهم بسوارى المسجد وقالوا : لا نقرب أهلا ولا ولدا حتى ينزل الله عذرنا . وقالت فرقة : بل العمل الصالح غزْوُهم فيما سلف من غزو النبيّ صلى الله عليه وسلم . وهذه الآية و إن كانت نزلت فى أعراب فهى عامة إلى يوم القيامة فيمن له أعمال صالحة وسيئة ؛ فهى ترجى . ذكر الطبرى عن حجاج بن أبى زينب قال : سمعت أبا عثمان يقول : ما فى القرآن آية أرجى عندى لهذه الأمة من قوله تعالى: «وَآخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا» . وفى البخارى عن سَمُرة بن جُنْدُب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا : " أتانى الليلة آتيان فابتعثانى فانتهينا إلى مدينة مبنية بلَبِنِ ذهبٍ ولبِنِ فضّة فتلقانا رجال شَطْرٌ من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ وشَطْرٌ كأقبح ما أنت راءٍ قالا لهم : آذهبوا فقعوا فى ذلك النهر فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السُّوء عنهم فصاروا فى أحسن صورة قالا لى هذه جنة عَدْن وهذاك منزلك قالا : أمّا القوم الذى كانوا شَطْر منهم حَسَن وشطر منهم قبيح فإنهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم" . وذكر البيهقىّ من حديث الربيع بن أنس عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حديث الإسراء وفيه قال : "ثم صعد بى إلى السماء..." ثم ذكر الحديث إلى أن ذكر صعوده إلى السماء السابعة فقالوا : "حيّاه الله من أخ وخليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجىء جاء فإذا برجل أشْمط (١) جالس على كرسى عند باب الجنة وعنده قوم بيض الوجوه وقوم سود الوجوه وفى ألوانهم شىء فأتوا نهرا فاغتسلوا فيه فخرجوا منه وقد خلَص من ألوانهم شىء ثم إنهم أتوا نهرا آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا منه وقد خلص من ألوانهم شىء ثم دخلوا النهر الثالث فخرجوا منه وقد خلصت ألوانهم مثلَ ألوان أصحابهم فجلسوا إلى أصحابهم فقال ياجبريل مَن هؤلاء بيض الوجوه وهؤلاء الذين فى ألوانهم شىء فدخلوا النهر وقد خلصت ألوانهم فقال هذا أبوك إبراهيم هو أوّل رجل شَمَط على وجه الأرض وهؤلاء بيض الوجوه قوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم — قال — وأما هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فتابوا فتاب الله عليهم . فأما النهر الأوّل فرحمة الله وأما النهر الثانى فنعمة الله .

(١) الشمط : بياض شعر الرأس يخالط سواده .

Marfat.com

وأما النهر الثالث فسقاهم ربهم شرابا طهورا" وذكر الحديث. والواو في [قوله](١): «وَآخَرَ سَيِّئًا» قيل: هي بمعنى الباء، وقيل: بمعنى مع؛ كقولك استوى الماء والخشبة. وأنكر ذلك الكوفيون وقالوا: لأن الخشبة لا يجوز تقديمها على الماء، و «آخَرَ» في الآية يجوز تقديمه على الأول؛ فهو بمنزلة خلطت الماء باللبن.

قوله تعالى: خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣)

فيـه ثمـان مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ اختلف في هذه الصدقة المأمور بها؛ فقيل: هي صدقة الفرض؛ قاله جُويبر عن ابن عباس، وهو قول عكرمة فيما ذكر القشيري. وقيل: هو مخصوص بمن نزلت فيه؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ منهم ثلث أموالهم، وليس هذا من الزكاة المفروضة في شيء؛ ولهذا قال مالك: إذا تصدّق الرجل بجميع ماله أجزأه إخراج الثلث؛ متمسكا بحديث أبي لُبابة. وعلى القول الأول فهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يقتضي بظاهره اقتصاره عليه فلا يأخذ الصدقة سواه، ويلزم على هذا سقوطها بسقوطه وزوالها بموته. وبهذا تعلق مانعو الزكاة على أبي بكر الصدّيق [رضي الله عنه](٢) وقالوا: إنه كان يعطينا عوضا منها التطهير والتزكية والصلاة علينا وقد عدمناها من غيره. ونظم في ذلك شاعرهم فقال: —

أطعنا رسول الله ما كان بيننا * فيا عجبا ما بال مُلْك أبي بكر
وإن الذي سالوكُمُ فمنعتُمُ * لكالتمر أو أحلى لديهم من التمر
سنمنعهم ما دام فينا بقيّة * كرامٌ على الضّراء في العسر واليسر

وهذا صنف من القائمين على أبي بكر أمثلهم طريقة، وفي حقهم قال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة. ابن العربي: أما قولهم إن هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم فلا يلتحق به غيره فهو كلام جاهل بالقرآن غافل عن مأخذ الشريعة متلاعب بالدين؛ فإن الخطاب في القرآن لم يرد بابا واحدا ولكن اختلفت موارده على وجوه، فمنها خطاب توجه إلى

(١) من ع. (٢) من ب و ك و هـ.

Marfat.com

جميع الأمة كقوله : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ »(١) وقوله : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ »(٢) ونحوه . ومنها خطاب خُصَّ به ولم يشركه فيه غيره لفظا ولا معنى كقوله : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ »(٣) وقوله : « خَالِصَةً لَكَ » . ومنها خطاب خُصَّ به لفظا وشَركه جميع الأمة معنًى وفعلا ؛ كقوله : « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ »(٣) الآية . وقوله : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ »(٤) وقوله : « وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ »(٥) فكل من دَلَكَتْ عليه الشمس مخاطب بالصلاة . وكذلك كل من قرأ القرآن مخاطب بالاستعاذة . وكذلك [كلّ](٦) من خاف يقيم الصلاة [بتلك الصفة] . ومن هذا القبيل قوله تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا » . وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ »(٧) و « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ »(٨) .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ ذهب بعض العرب وهم دوسٌ : إلى أن المال الثيابُ والمتاع والعُروض . ولا تسمِّي العين مالا . وقد جاء هذا المعنى في السُّنة الثابتة من رواية مالك عن ثَوْر بن زيد الدِّيلي عن أبي الغيث سالم مولى ابن مطيع عن أبي هريرة قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عامَ خيبر فلم نغنم ذهبا ولا وَرِقا إلا الأموال الثياب والمتاع . الحديث . وذهب غيرهم إلى أن المال الصامت من الذهب والورق . وقيل : الإبل خاصة ؛ ومنه قولهم : المال الإبل . وقيل : جميع الماشية . وذكر ابن الأنباري عن أحمد بن يحيى [ثعلب](٩) النحوي قال : ما قصر عن بلوغ ما تجب فيه الزكاة من الذهب والورق فليس بمال ؛ وأنشد :

والله ما بلغتْ لي قطُّ ماشيةٌ * حدّ الزكاة ولا إبل ولا مال

قال أبو عمر : والمعروف من كلام العرب أن كل ما تُمُوِّل وتُمُلِّك هو مال ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « يقول ابن آدم مالي مالي و إنما له من ماله ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو تصدق

(١) راجع ج ٦ ص ٨٠ . (٢) راجع ج ٢ ص ٢٧٢ . (٣) راجع ج ١٠ ص ٣٠٢ فما بعد .
(٤) راجع ج ١٠ ص ١٧٤ فما بعد . (٥) راجع ج ٥ ص ٣٦٣ فما بعد . (٦) من ه .
(٧) راجع ج ١٤ ص . (٨) راجع ج ١٨ ص ١٤٧ . (٩) من ج و ه .

Marfat.com

فأمضى" . وقال أبو قتادة : فأعطانى الدرع فابتعت به مَخْرَفًا[(١)] فى بنى سَلِمة ؛ فإنه لأول مال تأثّلته[(٢)] فى الإســلام . فمن حلف بصدقة ماله كله فذلك على كل نوع من ماله ، ســواء كان مما تجب فيه الزكاة أو لم يكن ؛ إلا أن ينوى شيئا بعينه فيكون على مانواه . وقد قيل : إن ذلك على أموال الزكاة . والعلم محيط واللسان شاهد بأن ما تملّك يسمّى مالا . والله أعلم .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ مطلق غير مقيّد بشرط فى المأخوذ والمأخوذ منــه ، ولا تبيين مقدار المــأخوذ ولا المأخوذ منــه . وإنمــا بيان ذلك فى السنة والإجماع . حسب ما نذكره . فتؤخذ الزكاة من جميع الأموال . وقد أوجب النبي صلى الله عليه وسلم الزكاة فى المواشى والحبوب والعين، وهــذا ما لا خلاف فيه . واختلفوا فيما سوى ذلك كالخيل وسائر العُروض . وسيأتى ذكر الخيل[(٣)] والعسل[(٣)] فى « النحل » إن شاء الله . روى الأئمة عن أبى سعيد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ليس فيما دون خمسة أوسُق من التمر صدقة وليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة وليس فيما دون خمس ذَوْد من الإبل صدقة" . وقد مضى الكلام فى « الأنعام[(٤)] » فى زكاة الحبوب وما تنبته الأرض مستوفى . وفى المعادن فى « البقرة[(٥)] » وفى الحلى فى هــذه السورة . وأجمع العلماء على أن الأوقية أربعون درهما ؛ فإذا ملك الحر المسلم مائتى درهم من فضة مضروبة — وهى الخمس أواق المنصوصة فى الحديث — حولا كاملا فقــد وجبت عليه صدقتها، وذلك ربع عشرها خمســة دراهم . وإنما اشتُرط الحول لقوله عليه السلام: "ليس فى مال زكاةٌ حتى يحول عليه الحول". أخرجه الترمذى . وما زاد على المــائتى درهم من الورق فبحساب ذلك فى كل شىء منــه رُبُع عُشْره قلّ أو كثر؛ هذا قول مالك والليث والشافعى وأكثر أصحاب أبى حنيفة وابن أبى لَيْلَى والثَّوْرى والأوزاعى وأحمد بن حنبل وأبى ثَوْر و إسحق وأبى عبيد . وروى ذلك عن على وابن عمر . وقالت طائفة : لا شىء فيما زاد على مائتى درهم حتى تبلغ الزيادة أربعين درهما ؛ فإذا بلغتها

---

(١) المخرف (بالفتح) : القطعة الصغيرة من النخل ، ست أو ســبع يشتريها الرجل لخرفة (للجنى) . وقيل : هى جماعة النخل ما بلغت . (٢) تأثل مالا : اكتسبه واتخذه وثمره . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٧٢ — وص ١٣٥ فما بعد . (٤) راجع جـ ٧ ص ٩٨ وما بعدها . (٥) راجع جـ ٣ ص ٣٢١ وما بعدها .

Marfat.com

كان فيها درهم وذلك ربع عشرها . هـذا قول سعيد بن المسيب والحسن وعطاء وطاوس والشعبي والزهري ومكحول وعمرو بن دينار وأبي حنيفة .

الرابعـــة ـــ وأما زكاة الذهب فالجمهور من العلماء على أن الذهب إذا كان عشرين دينارا قيمتها مائتا درهم فما زاد أن الزكاة فيها واجبة؛ على حديث عليّ، أخرجه الترمذى عن ضَمْرة والحارث عن عليّ. قال الترمذى : سألت محمـد بن إسماعيل عن هـذا الحديث فقال كلاهما عندى صحيح عن أبي إسحاق، يحتمل أن يكون عنهما جميعا . وقال الباجى فى المنتقَى : وهذا الحديث ليس إسناده هناك، غير أن اتفاق العلماء على الأخذ به دليل على صحـة حكمه، والله أعلم . وروى عن الحسن والثورى، و إليه مال بعض أصحاب داود بن عليّ على أن الذهب لا زكاة فيه حتى يبلغ أربعين دينارا . وهذا يردّه حديث عليّ وحديث ابن عمر وعائشة أن النبيّ صلى الله عليـه وسلم كان يأخذ من كل عشرين دينارا نصف دينار، ومن الأربعين دينارا دينارا؛ على هذا جماعة أهل العلم إلا من ذُكر .

الخامســـة ـــ اتفقت الأمة على أن ما كان دون خمس ذَودٍ من الإبل فلا زكاة فيه . فإذا بلغت خمسا ففيها شاة . والشاة تقع على واحدة من الغنم، والغنم الضأن والمعـز جميعا . وهذا أيضا اتفاق من العلمـاء أنه ليس فى خمس إلا شاة واحدة ؛ وهى فريضتها . وصدقة المواشى مبيّنة فى الكتاب الذى كتبه الصدّيق لأنس لمـا وجهه إلى البحرين؛ أخرجه البخارى وأبو داود والدَّارَقُطْنى والنّسائى وابن ماجه وغيرهم، وكله متفق عليه . والخلاف فيه فى موضعين أحدهما فى زكاة الإبل، وهى إذا بلغت إحدى وعشرين ومائة فقال مالك : المصدِّق بالخيار إن شاء أخذ ثلاث بنات لَبُون، و إن شاء أخذ حِقّتين[1] . وقال ابن القاسم : وقال ابن شهاب : فيها ثلاث بنات لبون إلى أن تبلغ ثلاثين ومائة فتكون فيها حِقة وآبنتا لبون . قال آبن القاسم : ورأيى على قول ابن شهاب . وذكر ابن حبيب أن عبـد العزيز بن أبى سـلمة وعبد العزيز

(١) ابن لبون : ولد الناقة إذا استكمل السنة الثانية . ودخل فى الثالثة . والحق (بالكسر) : الذى استكمل ثلاث سنين ودخل فى الرابعة .

Marfat.com

ابن أبى حازم وابن دينار يقولون بقول مالك . وأما الموضع الثانى فهو فى صدقة الغنم ، وهى إذا زادت على ثلثمائة شاة وشاة ؛ فإن الحسن بن صالح بن حىّ قال : فيها أربع شياه . وإذا كانت أربعمائة شاة وشاة ففيها خمس شياه ؛ وهكذا كلما زادت ، فى كل مائة شاةٌ . وروى عن إبراهيم النخعى مثله . وقال الجمهور : فى مائتى شاة وشاة ثلاث شياه ، ثم لا شىء فيها إلى أربعمائة فيكون فيها أربع شياه ؛ ثم كلما زادت مائة ففيها شاة ؛ إجماعا واتفاقا . قال ابن عبد البر : وهذه مسألة وهم فيها ابن المنذر ، وحكى فيها عن العلماء الخطأ ، وخلط وأكثر الغلط .

السادسة — لم يذكر البخارى ولا مسلم فى صحيحهما تفصيل زكاة البقر . وخرّجه أبو داود والترمذى والنسائى والدارقطنى ومالك فى موطّئه وهى مرسلة ومقطوعة وموقوفة . قال أبو عمر : وقد رواه قوم عن طاوس عن معاذ ، إلا أن الذين أرسلوه أثبت من الذين أسندوه . وممن أسنده بَقِيّة عن المسعودى عن الحكم عن طاوس . وقد اختلفوا فيما ينفرد به بقيّة عن الثقات . ورواه الحسن بن عُمارة عن الحَكَم كما رواه بقيّة عن المسعودى عن الحكم ، والحسن مجتمَع على ضعفه . وقد روى هذا الخبر بإسناد متّصل صحيح ثابت من غير رواية طاوس ؛ ذكره عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر والثورى عن الأعمش عن أبى وائل عن مسروق عن معاذ بن جبل قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن ؛ فأمره أن يأخذ من كل ثلاثين بقرة تَبِيعا أو تبيعة (١) ، ومن أربعين مُسِنّة [(٢) ، ومن كل حالم دينار] أو عِدْله مَعَافر (٣) ؛ ذكره الدارقطنى وأبو عيسى الترمذى وصحّحه . قال أبو عمر . ولا خلاف بين العلماء أن الزكاة فى زكاة البقر عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما قال معاذ بن جبل : فى ثلاثين بقرة تبيع ، وفى أربعين مُسِنّةٌ ؛ إلا شىء رُوى عن سعيد بن المسيّب وأبى قِلابة والزُّهْرى وقَتادة ؛ فإنهم يوجبون فى كل خمس من البقر شاةً إلى ثلاثين . فهذه جملة من تفصيل الزكاة بأصولها وفروعها فى كتب الفقه . ويأتى ذكر الخُلْطة فى سورة « ص » (٤) إن شاء الله تعالى .

---

(١) التبيع ، ولد البقرة فى أول سنة . والمسن . ما أوفى سنتين ودخل فى الثالثة . (٢) زيادة عن صحيحى الدارقطنى والترمذى . (٣) المعافر : برود باليمن منسوبة إلى معافر ، وهى قبيلة باليمن .

(٤) راجع جـ ١٥ ص ١٦٥ .

Marfat.com

السابعـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ صَدَقَةً ﴾ مأخوذ من الصّدق ؛ إذ هى دليل على صحـة إيمانه وصدق باطنه مع ظاهره، وأنه ليس من المنافقين الذين يَلْمِزون المطّوِّعين من المؤمنين فى الصدقات . ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ حالين للمخاطب؛ التقدير : خذها مطهِّرًا لهم ومُزَكِّيًا لهم بها . ويجوز أن يجعلهما صفتين للصدقة ؛ أى صدقة مطهرةً لهم مُزَكِّية ، ويكون فاعل تزكيهم المخاطب ، ويعود الضـمير الذى فى « بهـا » على الموصوف المنكر . وحكى النحاس ومكّى أنّ « تُطَهِّرُهُمْ » من صفة الصدقة « وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا » حال من الضمير فى « خُذْ » وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم . ويحتمل أن تكون حالا من الصدقة، وذلك ضعيف لأنهـا حال من نكرة . وقال الزجاج : والأجود أن تكون المخاطبة للنبيّ صلى الله عليـه وسلم؛ أى فإنك تطهرهم وتزكيهم بهـا ، على القطع والآستئناف . ويجوز الجزم على جواب الأمر، والمعنى : إن تأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم؛ ومنه قول آمرئ القيس :

* قِفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل *

وقرأ الحسن تُطْهِرهم (بسكون الطاء) وهو منقول بالهمزة من طَهَر وأطهرته، مثل ظهر وأظهرته .

الثامنـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أصلٌ فى فعل كلّ إمام يأخذ الصـدقة أن يدعو للمتصدّق بالبركة . روى مسلم عن عبـد الله بن أبى أوفَى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : " اللّهُم صل عليهم " فأتاه آبن أبى أوْفَى بصدقته فقال : " اللهم صلّ على آل أبى أوْفَى " . ذهب قوم إلى هذا، وذهب آخرون إلى أن هذا منسوخ بقوله تعالى : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا » . قالوا : فلا يجوز أن يصلَّى على أحد إلا على النبيّ صلى الله عليه وسلم وحده خاصّة ؛ لأنه خُصّ بذلك . واستدلوا بقوله تعالى : « لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا[1] » الآية . وبأن عبد الله بن عباس كان يقول : لا يصلّى على أحد إلا على النبيّ صلى الله عليه وسلم . والأوّل أصح؛ فإن الخطاب ليس مقصورا عليه كما تقدّم، ويأتى فى الآية بعد هذا . فيجب الاقتداء برسول الله صلى الله

(١) راجع ج ١٢ ص ٣٢٢ .

Marfat.com

عليه وسلم، والتأسّى به ؛ لأنه كان يمتثل قوله : « وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ » أى إذا دعوت لهم حين يأتون بصدقاتهم سكّن ذلك قلوبهـم وفرحوا به . وقـد روى جابر آبن عبد الله قال : أتانى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقلت لآمرأتى : لا تسألى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا ؛ فقالت : يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندنا ولا نسأله شيئا ! فقالت : يا رسول الله ؛ صلّ على زوجى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلى الله عليكِ وعلى زوجك " . والصلاة هنا الرحمة والترحم . قال النحاس : وحكى أهل اللغة جميعا فيما علمناه أن الصلاة فى كلام العرب الدعاء ؛ ومنه الصلاة على الجنائز . وقرأ حفص وحمزة والكسائيّ « إن صلاتك » بالتوحيد . وجمع البـاقون . وكذلك الاختلاف فى « أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ »(١) وقرئ « سكْن » بسكون الكاف . قال قتادة : معناه وقار لهم . والسَّكَن : ما تسكن به النفوس وتطمئن به القلوب .

قوله تعـالى : أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى ــ قيل : قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين : هؤلاء كانوا معنا بالأمس، لا يُكلّمون ولا يجالسون ، فما لهم الآن ؟ وما هذه الخاصّة التى خُصُّوا بهـا دوننا ؛ فنزلت : « أَلَمْ يَعْلَمُوا » فالضمير فى « يعلموا » عائد إلى الذين لم يتوبوا من المتخلفين . قال معنـاه آبن زيد . ويحتمل أن يعود إلى الذين تابوا وربطوا أنفسهم . وقوله تعالى : « هو » تأكيد لانفراد الله سبحانه وتعالى بهذه الأمور . وتحقيق ذلك أنه لو قال : أن الله يقبل التوبة لاحتمل أن يكون قبولُ رسـوله قبولا منـه ؛ فبينت(٢) الآية أن ذلك ممـا لا يصل إليـه نبيّ ولا ملك .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٨٤ فما بعد . (٢) فى ب و هـ : فثبتت . وما أثبتناه من أ و جـ و ع و ى .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ هذا نصّ صريح فى أن الله تعالى هو الآخذ لها والمثيب عليها وأن الحق له جل وعز، والنبيّ صلى الله عليه وسلم واسطة، فإن تُوُفِّىَ فعامله هو الواسطة بعده، والله عز وجل حيّ لا يموت. وهذا يبيّن أن قوله سبحانه وتعالى: « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً » ليس مقصورا على النبيّ صلى الله عليه وسلم . روى الترمذيّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : " إن الله يقبل الصدقة و يأخذها بيمينه فَيُرَبِّيها لأحدكم كما يربى أحدكم مُهْره حتى أن اللقمة لتصير مثلَ أُحُد وتصديق ذلك فى كتاب الله وهو الذى يقبل التوبة عن عباده و يأخذ الصدقات و يمحق الله الربا و يربى الصدقات". قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى صحيح مسلم : "لا يتصدّق أحد بتمرة من كسب طيّب إلا أخذها الله بيمينه ــ فى رواية ــ فتربُو فى كفّ الرحمن حتى تكون أعظم من الجبــل " الحديث . وروى " إن الصدقة لتقع فى كف الرحمن قبــل أن تقع فى كف السائل فيربيها كما يربى أحدكم فَلُوَّه[(1)] أو فَصيله والله يضاعف لمن يشاء " . قال علماؤنا رحمــة الله عليهم فى تأويل هذه الأحاديث : إن هــذا كناية عن القبول والجزاء عليها؛ كما كنى بنفسه الكريمة المقدسة عن المريض تعطفا عليــه بقوله : " يا بن آدم مَرِضت فلم تَعُدْنِى " الحديث . وقد تقدّم هذا المعــنى فى « البقرة » . وخصّ اليمين والكف [بالذكر[(2)]] إذ كل قابل لشىء إنما يأخذه بكفــه و بيمينه أو يوضع له فيــه ؛ فخرج على ما يعرفــونه ، والله جل وعز منزّه عن الجارحة . وقد جاءت اليمين فى كلام العرب بغير معنى الجارحة ؛ كما قال الشاعر :

إذا ما رايةٌ رفعت لمجْــد ٭ تلقّــاها عَرابة باليمين

أى هو مؤهل للمجد والشرف، ولم يُرِد بهــا يمين الجارحة ، لأن المجد معنًى فاليمين التى تلقى به رايته معنى . وكذلك اليمين فى حق الله تعالى . وقد قيل : إن معنى " تربو فى كف الرحمن " عبارة عن كفة الميزان التى توزن فيها الأعمال، فيكون من باب حذف المضاف؛ كأنه قال : فتربو كفّة ميزان الرحمن . وروى عن مالك والثورى وآبن المبارك أنهم قالوا فى تأويل هذه

---

(١) الفلو : ولد الفرس . (٢) من ج و هـ .

Marfat.com

الأحاديث وما شابهها : أَمِرُّوها بلا كَيْف ؛ قاله الترمذى وغيره . وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا ﴾ خطاب للجميع . ﴿ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أى بإطلاعه إياهم على أعمالكم . وفى الخبر : "لو أن رجلا عمل فى صخرة لا باب لها ولا كُوة لخرج عمله إلى الناس كائنا ما كان" .

قوله تعالى : ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

نزلت فى الثلاثة الذين تِيب عليهم : كعب بن مالك وهلال بن أمية من بنى واقف ومُرارة بن الربيع ؛ وقيل : ابن رِبْعِى العَمْرِى ؛ ذكره المهدوى . كانوا قد تخلفوا عن تبوك وكانوا مياسير ؛ على ما يأتى من ذكرهم . والتقدير : ومنهم آخرون مُرْجَوْن ؛ من أرجأته أى أخرته . ومنه قيل : مُرْجِئة ؛ لأنهم أخّروا العمل . وقرأ حمزة والكسائى « مُرْجَوْن » بغير همز ؛ فقيل : هو من أرجيته أى أخرته . وقال المبرد : لا يقال أرجيته بمعنى أخرته ، ولكن يكون من الرجاء . ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ « إمّا » فى العربية لأحد أمرين ، والله عز وجل عالم بمصير الأشياء ، ولكن المخاطبة للعباد على ما يعرفون ؛ أى ليكن أمرهم عندكم على الرجاء لأنه ليس للعباد أكثر من هذا .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

Marfat.com

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِدًا ﴾ معطوف، أى ومنهم الذين اتخذوا مسجدا ، عطف جملة على جملة . ويجوز أن يكون رفعا بالابتداء والخبر محذوف كأنهم[(1)] « يعذبون » أو نحوه . ومن قرأ « الذين » بغير واو وهى قراءة المدنيين فهى عنده رفع بالابتداء ، والخبر « لَا تَقُمْ » التقدير : الذين اتخذوا مسجدا لا تقم فيه أبدا ؛ أى لا تقم فى مسجدهم؛ قاله الكسائى . وقال النحاس : يكون خبر الابتداء « لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ » . وقيل : الخبر « يعذبون » كما تقدّم . ونزلت الآية فيما روى فى أبى عامر الراهب ؛ لأنه كان خرج إلى قَيْصر وتنصّر ووعدهم قيصر أنه سيأتيهم ، فَبَنَوْا مسجد الضّرار يرصدون مجيئه فيه؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ، وقد تقدّمت قصته فى الأعراف[(2)] وقال أهل التفسير : إن بنى عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قُبَاء وبعثوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فأتاهم فصلّى فيه ، فحسدهم إخوانهم بنو غُنْم بن عوف وقالوا : نبنى مسجدا ونبعث إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم يأتينا فيُصلّى لنا كما صلّى فى مسجد إخواننا ، و يصلّى فيه أبو عامر إذا قدم من الشام؛ فأتوا النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يارسول الله ، قد بنينا مسجدا لذى الحاجة ، والعِلّة والليلة المطِيرة ، ونحب أن تصلّى لنا فيه وتدعو بالبركة ؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إنى على سفر وحالِ شغل فلو قدِمنا لأتيناكم وصلّينا لكم فيه " فلما ٱنصرف النبىّ صلى الله عليه وسلم من تبوك أتوه وقد فرغوا منه وصلّوا فيه الجمعة والسبت والأحد ، فدعا بقميصه ليلبسه و يأتيهم فنزل عليه القرآن بخبر مسجد الضِّرار ؛ فدعا النبىّ صلى الله عليه وسلم مالك بن الدُّخْشُم ومعن بن عَدى وعامر بن السَّكَن ووحْشِيًّا قاتل حمزة ، فقال : " انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه " فخرجوا مسرعين ، وأخرج مالك بن الدُّخْشُم من منزله شعلة نار ، ونهضوا فأحرقوا المسجد وهدموه ، وكان الذين بنوه ٱثنى عشر رجلا : خِذام بن خالد من بنى عبيد بن زيد أحد بنى عمرو بن عوف

(1) من ع و ه . (2) راجع ج ٧ ص ٣٢٠ .

ومن داره أخرج مسجد الضرار ، ومعتّب بن قُشير ، وأبو حبيبة بن الأزعر ، وعبّاد ابن حُنيف أخو سهل بن حنيف من بنى عمرو بن عوف . وجارية بن عامر، وابناه مُجمّع وزيد ابنا جارية، ونَبْتَل بن الحارث، وبَحْزَج، وبِجَاد بن عثمان، ووديعة بن ثابت؛ وثعلبة آبن حاطب مذكور فيهم . قال أبو عمر بن عبد البر : وفيه نظر ؛ لأنه شهد بدرا . وقال عكرمة : سأل عمر بن الخطاب رجلا منهم بماذا أعنت فى هذا المسجد ؟ فقال : أعنت فيه بسارية . فقال : أبشر بها ! سارية فى عنقك من نار جهنم .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ضِرَارًا﴾ مصدر مفعول من أجله . ﴿وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا﴾ عطف كله . وقال أهل التأويل : ضرارا بالمسجد، وليس للمسجد ضرار، إنما هو لأهله . وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا ضَرَر ولا ضِرار مَن ضارّ ضارّ الله به ومن شاقّ شاقّ الله عليه". قال بعض العلماء : الضرر : الذى لك به منفعة وعلى جارك فيه مضرة . والضِّرار : الذى ليس لك فيه منفعة وعلى جارك فيه المضرة . وقد قيل: هما بمعنى واحد، تكلّم بهما جميعا على جهة التأكيد .

الثالثة — قال علماؤنا : لا يجوز أن يُبنى مسجد إلى جنب مسجد ، ويجب هدمه؛ والمنع من بنائه لئلا ينصرف أهل المسجد الأول فيبقى شاغرا، إلا أن تكون المحلّة كبيرة فلا يكفى أهلها مسجدٌ واحد فيبنى حينئذ . وكذلك قالوا . لا ينبغى أن يبنى فى المصر الواحد جامعان وثلاثة، ويجب منع الثانى ؛ ومن صلّى فيه الجمعة لم تُجزه . وقد أحرق النبىّ صلى الله عليه وسلم مسجد الضّرار وهدمه . وأسند الطبرى عن شقيق أنه جاء ليصلّى فى مسجد بنى غاضرة (١) فوجد الصلاة قد فاتته، فقيل له : إن مسجد بنى فلان لم يصلّ فيه بعدُ؛ فقال : لا أحبّ أن أصلى فيه؛ لأنه بُنى على ضرار . قال علماؤنا : وكل مسجد بُنى على ضرار أو رياء وسُمعة فهو فى حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه . وقال النقاش : يلزم من هذا ألّا يصلى فى كنيسة ونحوها ؛ لأنها بنيت على شرّ .

---

(١) كذا فى ب و ج و ك . وفى هـ : « بنى عامرة » . والذى فى الطبرى : « بنى عامر » .

Marfat.com

قلت : هذا لا يلزم؛ لأن الكنيسة لم يقصد ببنائها الضّرر بالغير، و إن كان أصل بنائها على شر، و إنما اتخذ النصارى الكنيسة واليهودُ البيعة موضعا يتعبدون فيه بزعمهم كالمسجد لنا فافترقا . وقد أجمع العلمـاء على أن من صلّى فى كنيسة أو بِيعة على موضع طاهر أن صلاته ماضية جائزة. وقد ذكر البخارى أن ٱبن عباس كان يصلّى فى البيعة إذا لم يكن فيها تماثيل. وذكر أبو داود عن عثمان بن أبى العاص أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغِيتهم .

الرابعـــة ــ قال العلماء : إن من كان إماما لظالم لا يصلَّى وراءه؛ إلا أن يظهر عذره أو يتوب ؛ فإن بنى عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء سألوا عمر بن الخطاب فى خلافته ليأذن لمجمِّع بن جارية أن يصلّى بهـم فى مسجدهم؛ فقال : لا ولا نُعْمَة عين ! أليس بإمام مسـجد الضرار ! فقال له مُجَمِّـع : يا أمير المؤمنين، لا تعجل علىّ، فو الله لقـد صلّيت فيه وأنا لا أعلم ما قد أضمروا عليه ، ولو علمت ما صليت بهم فيه ، كنت غلاما قارئا للقرآن ، وكانوا شيوخا قـد عاشوا(١) على جاهليتهم ، وكانوا لا يقرءون من القرآن شـيئا ، فصليت ولا أحسب ما صنعتُ إثمـا ، ولا أعلم بمـا فى أنفسهم ؛ فعذره عمـر [رضى الله عنهما](٢) وصدّقه وأمره بالصلاة فى مسجد قُبـاء .

الخامســـة ــ قال علمـاؤنا رحمة الله عليهم : و إذا كان المسجد الذى يُتّخذ للعبـادة وحضّ الشرع على بنـائه فقال : "من بنى لله مسـجدا ولو كمَفْحَص(٣) قطاة بنى الله له بيتـا فى الجنة" يُهدَم و ينزع إذا كان فيه ضرر بغيره ، فمـا ظنك بسواه ! بل هو أحْرى أن يُزال ويُهدم حتى لا يدخل ضرر على الأقـدم . وذلك كمن بنى فُرْنًا أو رَحًى أو حفـر بئرا أو غير ذلك ممـا يُدخل به الضرر على الغير . وضابط هـذا الباب : أن من أدخل على أخيه ضررا مُنع . فإن أدخل على أخيه ضررا بفعل ما كان له فعله فى ماله فأضر ذلك بجاره أو غير جاره نُظر إلى ذلك الفعل ؛ فإن كان تركُه أكبر ضررا من الضرر الداخل على الفاعل قُطع أكبر

(١) فى ب وجـ : غشوا . وفى هـ : عشوا . وفى ع : نشوا .		(٢) من ع .
(٣) الموضع الذى يجثم فيه وتبيض .

Marfat.com

الضررين وأعظمهما حرمة فى الأصول . مثال ذلك : رجل فتح كوّة فى منزله يَطّلع منها على دار أخيـه وفيها العيال والأهل، ومن شأن النساء فى بيوتهن إلقـاء بعض ثيابهن والانتشار فى حوائجهن، ومعلوم أن الاطلاع على العورات محرّم وقد ورد النهى فيه[1] ؛ فلحرمة الاطلاع على العورات رأى العلماء أن يغلقوا على فاتح الباب والكوّة ما فتح ممـا له فيه منفعة وراحة وفى غلقه عليه ضرر لأنهم قصدوا إلى قطع أعظم الضررين ، إذ لم يكن بُدٌّ من قطع أحدهما وهكذا الحكم فى هذا الباب، خلافا للشافعىّ ومن قال بقوله . قال أصحاب الشافعىّ : لو حفر رجل فى ملكه بئرا وحفر آخر فى ملكه بئرا يسرق منهـا ماء البئر الأولة جاز؛ لأن كل واحد منهما حفر فى ملكه فلا يُمنع من ذلك . ومثله عنـدهم : لو حفر إلى جنب بئر جاره كنيفا يُفسده عليه لم يكن له منعه؛ لأنه تصرف فى ملكه . والقرآن والسنة يردّان هذا القول . وبالله التوفيق .

ومن هـذا الباب وجه آخر من الضرر منع العلماء منه، كدخان الفرن والحمام وغبارِ الأندر[2] والدودِ المتولّد من الزّبل المبسـوط فى الرِّحاب ، وما كان مثل هـذا فإنه يقطع منه ما بان ضرره وخشى تماديه . وأما ما كان ساعة خفيفـة مثل نفض الثياب والحصر عند الأبواب؛ فإن هذا مما لا غِنًى بالناس عنه، وليس ممـا يستحق به شىء؛ فَنَفْىُ الضرر فى منع مثل هـذا أعظمُ وأكبر من الصبر على ذلك ساعةً خفيفـة . وللجار على جاره فى أدب السنة أن يصبر على أذاه على ما يقدر ، كما عليه ألا يؤذيه وأن يحسن إليه .

السادسـة ــ وممـا يدخل فى هذا البـاب مسألة ذكرها إسماعيل بن أبى أويس عن مالك أنه سـئل عن آمرأة عَرَض لهـا ، يعنى مَسًّا من الجن ، فكانت إذا أ[...]ابها زوجُها وأجنبت أو دنا منها يشتدّ ذلك بها . فقال مالك : لا أرى أن يقربها ، وأرى للسلطان أن يحول بينـه وبينها .

(١) فى ع : عنه . (٢) الأندر : البيدر ، وهو الموضع الذى يداس فيه الطعام ، أى الحبوب .

السابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَكُفْرًا ﴾ لمـا كان اعتقادهم أنه لا حرمة لمسجد قُبـاء ولا لمسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم كفروا بهـذا الاعتقاد ؛ قاله ابن العربى . وقيل : « وَكُفْرًا » أى بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ؛ قاله القشيرىّ وغيره .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى يفرّقون به جماعتهم ليتخلف أقوام عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وهـذا يدلكَ على أن المقصد الأكبر والغرضَ الأظهر من وضع الجمـاعة تأليفُ القلوب والكلمة على الطاعة ، وعقدُ الذّمام والحرمة بفعـل الدّيانة حتى يقع الأنس بالمخالطة ، وتصفو القلوب من وَضَر الأحقاد .

التاســـعة — تفطّن مالك رحمه الله من هذه الآية فقال : لا تصلّى جماعتان فى مسجد واحد بإمامين ؛ خلافا لسائر العلماء . وقد رُوى عن الشافعيّ المنع ؛ حيث كان تشتيتا للكلمة وإبطالا لهذه الحكمة وذريعة إلى أن نقول : من يريد الانفراد عن الجماعة كان له عذر فيقيم جماعته ويقدم إمامته فيقع الخلاف ويبطل النظام ، وخفى ذلك عليهم . قال ابن العربى : وهذا كان شأنه معهم ، وهو أثبت قدما منهم فى الحكمة وأعلم بمقاطع الشريعة .

العـاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يعنى أبا عامر الراهب ؛ وسُمِّىَ بذلك لأنه كان يتعبّد ويلتمس العـلم فمات كافرا بقِنَّسْرِين(١) بدعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه كان قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ؛ فلم يزل يقاتله إلى يوم حُنين . فلما انهزمت هوازن خرج إلى الروم يستنصر ، وأرسل إلى المنافقين وقال : استعدّوا بما استطعتم من قوّة وسلاح ، وآبنوا مسجدا فإنى ذاهب إلى قيصر فآت بجند من الروم لأخرج محمدا من المدينـة ؛ فبنوا مسجد الضرار . وأبو عامر هذا هو والد حنظلة غَسيل(٢) الملائكة . والإرصاد : الانتظار ؛ تقول : أرصدت كذا إذا أعددته مرتقبا له به . قال أبو زيد : يقال رصدته وأرصدته فى الخير ، وأرصدت له فى الشر . وقال ابن الأعرابى : لا يقال إلا أرصدت ، ومعناه ارتقبت . وقوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل بناء مسجد

---

(١) قنسرين (بكسر أوله وفتح ثانيه وتشديده ويكسر) : كورة بالشام . (٢) سمى غسيل الملائكة لأنه استشهد يوم أحد وغسلته الملائكة ؛ وذلك أنه كان قد ألم بأهله فى حين خروجه إلى أحد ، ثم هجم عليه من الخروج فى النفير ما أنساه الغسل وأعجله عنه ؛ فلما قتل شهيدا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الملائكة غسلته . (عن الاستيعاب) .

Marfat.com

الضرار . ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ أى ما أردنا ببنائه إلا الفعلة الحسنى، وهى الرفق بالمسلمين كما ذكروا لذى العلة والحاجة . وهذا يدلّ على أن الأفعال تختلف بالمقصود والإرادات؛ ولذلك قال : « وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى » . ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أى يعلم خُبث ضمائرهم وكذبهم فيما يحلفون عليه .

قوله تعالى : لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ يعنى مسجد الضِّرار ؛ أى لا تقم فيه للصلاة . وقد يعبّر عن الصلاة بالقيام ؛ يقال : فلان يقوم الليل أى يصلّى ؛ ومنه الحديث الصحيح : " من قام رمضان إيمانا وآحتسابا غُفر له ما تقدم من ذنبه " . أخرجه البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ... ؛ فذكره . وقد رُوى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية كان لا يمرّ بالطريق التى فيها المسجد، وأمر بموضعه أن يُتخذ كُناسة[(١)] تلقى فيها الجيف والأقذار والقُمَامات .

الثانيـــة — قوله تعالى : « أَبَدًا » « أبدا » ظرف زمان . وظرف الزمان على قسمين : ظرف مقدّر كاليوم ، وظرف مُبْهم كالحين والوقت ؛ والأبد من هذا القسم ، وكذلك الدهر . وتنشأ هنا مسألة أصولية ، وهى أن « أبدا » وإن كانت ظرفا مبهما لا عموم فيه ولكنه إذا اتصل بلا النافيــة أفاد العموم ، فلو قال : لا تقم ، لكفى فى الانكفاف المطلق . فإذا قال : « أبدا » فكأنه قال فى وقت من الأوقات ولا فى حين من الأحيـان . فأما النكرة فى الإثبـات إذا كانت خبرا عن واقع لم تعمّ ، وقد فَهـم ذلك أهل اللسان وقضى به فقهاء الإسلام فقالوا : لو قال رجل لامرأته أنت طالق أبدا طلُقت طلقة واحدة .

(١) فى ج : مزبلة ، وفى ى : كناسة مزبلة .

Marfat.com

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ أى بُنيت جُدُره ورُفعت قواعده . والأُسّ أصل البناء ، وكذلك الأساس . والأَسَس مقصور منه . وجمع الأُسّ إساس ؛ مثل عُسّ وعِساس . وجمع الأساس أُسُس ؛ مثل قَذال وقُذُل . وجمع الأَسَس آساس ؛ مثل سبب وأسباب . وقد أسّست البناء تأسيسا . وقولهم : كان ذلك على أُسّ الدهر ، وأَسّ الدهر ، وإسّ الدهر ؛ ثلاث لغات ؛ أى على قِدم الدّهر ووجه الدهر . واللام فى قوله « لَمَسْجِدٌ » لام قسم . وقيل لام الابتداء ؛ كما تقول : لزيد أحسن الناس فعلا ؛ وهى مقتضية تأكيدا . « أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى » نعت لمسجد . ﴿ أَحَقُّ ﴾ خبر الابتداء الذى هو « لَمَسْجِدٌ » ومعنى التقوى هنا الخصال التى تُتّقَى بها العقوبة ، وهى فَعلى من وَقيت ، وقد تقدّم[(1)] .

الرابعة — واختلف العلماء فى المسجد الذى أُسّس على التقوى ؛ فقالت طائفة : هو مسجد قباء ؛ يروى عن ابن عباس والضحاك والحسن . وتعلقوا بقوله : « مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ » ، ومسجد قباء كان أسس بالمدينة أول يوم ؛ فإنه بُنى قبل مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن عمر وابن المسيب ، ومالك فيما رواه عنه ابن وهب وأشهب وابن القاسم . وروى الترمذىّ عن أبى سعيد الخُدْرِىّ : قال تَمارَى[(2)] رجلان فى المسجد الذى أُسِّس على التقوى من أوّل يوم ؛ فقال رجل هو مسجد قُبَاء ، وقال آخر هو مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هو مسجدى هذا". [قال][(3)] حديث صحيح . والقول الأوّل أليَق بالقصة ؛ لقوله : « فيه » وضمير الظرف يقتضى الرجال المتطهرين ؛ فهو مسجد قُباء . والدليل على ذلك حديث أبى هريرة قال : نزلت هذه الآية فى أهل قباء « فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ » قال : كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية . قال الشّعبىّ : هم أهل مسجد قُباء ، أنزل الله فيهم هذا . وقال قتادة : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل قباء : " إن الله سبحانه قد أحسن عليكم الثناء

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٦١ .	(٢) المماراة : المجادلة .	(٣) من جـ و هـ . وفى ع : قال هو.

Marfat.com

فى التطهر فما تصنعون "؟ قالوا : إنا نغسل أثر الغائط والبول بالماء ؛ رواه أبو داود . وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن طلحة بن نافع قال : حدّثنى أبو أيوب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك الأنصاريون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية « فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ » فقال : "يامعشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم خيرا فى الطُّهور فما طُهوركم هذا "؟ قالوا : يارسول الله، نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فهل مع ذلك من غيره "؟ فقالوا : لا غير ، إن أحدنا إذا خرج من الغائط أحبّ أن يستنجى بالماء . قال : " هو ذاك فَعَلَيْكُمُوه " . وهذا الحديث يقتضى أن المسجد المذكور فى الآية هو مسجد قباء، إلا أن حديث أبى سعيد الخُدْرِيّ نصّ فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم على أنه مسجده فلا نظر معه . وقد روى أبو كُرَيب قال : حدّثنا أبو أسامة قال حدثنا صالح بن حيان قال حدّثنا عبد الله بن بريدة فى قوله عز وجل : « فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ »[1] قال : إنما هى أربعة مساجد لم يَبْنِهِنّ إلا نبيّ : الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وبيت أريحا بيتُ المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام ، ومسجد المدينة ومسجد قُباء اللذين أُسّسا على التقوى ، بناهما رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الخامسة — ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ « من » عند النحويين مقابلة منذ ؛ فمنذ فى الزمان بمنزلة مِن فى المكان . فقيل : إن معناها هنا معنى منذ ؛ والتقدير : منذ أوّلِ يوم ابْتُدِئَ بُنيانه . وقيل : المعنى من تأسيس أول الأيام ، فدخلت على مصدر الفعل الذى هو أسس ؛ كما قال :

لمن الديار بقُنّة الحِجْرِ * أَقْوَيْنَ من حِجَجٍ ومن دَهْرِ[2]

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٦٤ فما بعد .

(٢) هذا البيت مطلع قصيدة لزهير بن أبى سلمى مدح بها هرم بن سنان . والقنة (بالضم) : أعلى الجبل ، وأراد بها هنا ما أشرف من الأرض . والحجر (بكسر الحاء) : منازل ثمود بناحية الشام عند وادى القرى . وأقوين : خلون وأقفرن . والحجج : السنون . (راجع هذا البيت والكلام عليه فى الشاهد الرابع والسبعين بعد السبعمائة من خزانة الأدب للبغدادى) .

Marfat.com

أى من مَرّ حجج ومن مَرّ دهر . وإنمـا دعا إلى هذا أن من أصول النحويين أن « مِن » لا يُجرّ بها الأزمان ، وإنمـا تُجرّ الأزمان بمنـذ ، تقول ما رأيته منذ شهر أو سـنة أو يوم ، ولا تقول : من شهر ولا من سنة ولا من يوم . فإذا وقعت فى الكلام وهى يليها زمن فيقدّر مضمر يليق أن يُجرّ بمن ؛ كما ذكرنا فى تقدير البيت . ٱبن عطية . ويحسن عندى أن يستغنى فى هذه الآية عن تقدير، وأن تكون « مِن » تجر لفظة « أول » لأنهـا بمعنى البداءة ؛ كأنه قال : من مبتدأ الأيام .

السادســـة ــ قوله تعـالى : ﴿ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيـهِ ﴾ أى بأن تقوم ؛ فهو فى موضع نصب . و« أَحَقُّ » هو أفعل من الحق ، وأفعل لا يدخل إلا بين شيئين مشتركين ، لأحدهما فى المعنى الذى اشتركا فيه مَزِيّة على الآخر ؛ فمسجد الضّرار وإن كان باطلا لا حقّ فيه ، فقد اشتركا فى الحق من جهة اعتقاد بانيه ، أو من جهة اعتقاد من كان يظن أن القيام فيـه جائز للسجدية ؛ لكن أحد الاعتقادين باطل باطنا عند الله ، والآخر حق باطنا وظاهرا ؛ ومثـل هذا قوله تعـالى : « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا »(١) ومعلوم أن الخيرية من النار مبعودة ، ولكنه جرى على اعتقاد كل فرقة أنها على خير وأن مصيرها إليه خير ؛ إذ كل حزب بمـا لديهم فرحون . وليس هذا من قبيل : العسل أحلى من الخل ؛ فإن العسل ! وإن كان حلوا فكل شىء ملائم فهو حلو؛ ألا ترى أن من الناس من يقدّم الخل على العسل(٢) مفردا بمفرد ومضافا إلى غيره بمضاف .

السابعـــة ــ قوله تعالى : (فِيهِ) من قال : إن المسجد يراد به مسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم فالهاء فى « أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ » عائد إليه . و « فِيهِ رِجَالٌ » له أيضا . ومن قال : إنه مسجد قباء ، فالضمير فى « فيه » عائد إليه على الخلاف المتقدّم .

الثامنـــة ــ أثنى الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية على من أحبّ الطهارة وآثر النظافة، وهى مُروءة آدمية ووظيفة شرعية ؛ وفى الترمذىّ عن عائشة رضـوان الله عليها أنها قالت : مُرْنَ أزواجكنّ أن يستطيبوا بالمـاء فإنى أستحييهم . قال : حديث صحيح . وثبت أن

(١) راجع جـ ١٣ ص   (٢) كذا فى الأصول .

النبيّ صـلى الله عليه وسلم كان يحمل المـاء معه فى الاسـتنجاء ؛ فكان يستعمل الحجارة تخفيفا والمـاء تطهيرا . آبن العربى : وقد كان علماء القيروان يتخذون فى متوضآتهم أحجارا فى تراب ينقون بها ثم يستنجون بالمـاء .

التاســعة — اللازم من نجاسة المخرج التخفيف ، وفى نجاسة سائر البـدن والثوب التطهير . وذلك رخصة من الله لعباده فى حالتى وجود المـاء وعدمه ؛ وبه قال عامة العلماء . وشذّ ابن حبيب فقال : لا يستجمر بالأحجار إلا عند عدم المـاء . والأخبار الثابتة فى الاستجمار بالأحجار مع وجود المـاء تردّه .

العاشــرة — واختلف العلماء من هذا الباب فى إزالة النجاسة من الأبدان والثياب ، بعد إجماعهم على التجاوز والعفو عن دم البراغيث ما لم يتفاحش على ثلاثة أقوال : الأول — أنه واجب فرض ، ولا تجوز صلاة من صلّى بثوب نجس عالمـا كان بذلك أو ساهيا ؛ روى عن آبن عباس والحسن وابن سيرين ، وهو قول الشافعيّ وأحمد وأبى ثور ، ورواه آبن وهب عن مالك ، وهو قول أبى الفرج المـالكى والطبرى ؛ إلا أن الطبرى قال : إن كانت النجاسة قدر الدرهم أعاد الصلاة . وهو قول أبى حنيفة وأبى يوسف فى مراعاة قدر الدرهم قياسا على حلقة الدّبر . وقالت طائفة : إزالة النجاسة واجبة بالسنة من الثياب والأبدان ، وجوبَ سنة وليس بفرض . قالوا : ومن صلّى بثوب نجس أعاد الصـلاة فى الوقت فإن خرج الوقت فلا شىء عليه ؛ هذا قول مالك وأصحابه إلا أبا الفرج ، ورواية آبن وهب عنه . وقال مالك فى يسير الدم : لا تعاد منه الصلاة فى الوقت ولا بعده ، وتعاد من يسير البول والغائط ؛ ونحو هذا كله من مذهب مالك قولُ اللّيث . وقال آبن القاسم عنه : تجب إزالتها فى حالة الذكر دون النسيان ؛ وهى من مفرداته . والقول الأول أصح إن شاء الله ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم مَرّ على قبرين فقال : "إنهما ليعذّبان وما يعذبان فى كبير أمّا أحدهما فكان يمشى بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله" . الحديث ، خرّجه البخاريّ ومسلم ، وحسبك . وسيأتى فى ســورة « سبحان »(١) . قالوا : ولا يعذّب الإنسان إلا على ترك واجب ؛ وهـذا ظاهر .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢١٦ .

Marfat.com

وروى أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أكثر عذاب القبر من البول[(١)] " . احتج الآخرون بخلع النبي صلى الله عليه وسلم نعليه في الصلاة لما أعلمه جبريل عليه السلام أن فيهما قذرا وأذى ... الحديث . خرّجه أبو داود وغيره من حديث أبي سعيد الخُدْريّ، وسيأتي في سورة « طه » إن شاء الله تعالى[(٢)] . قالوا : ولمّا لم يُعِد ما صلّى دلّ على أن إزالتها سنة وصلاته صحيحة، ويعيد ما دام في الوقت طلبا للكمال . والله أعلم .

الحادية عشرة — قال القاضي أبو بكر بن العربي : وأما الفرق بين القليل والكثير بقدر الدرهم البغلي[(٣)]؛ [يعني كبار الدراهم التي هي على قدر استدارة الدينار[(٤)]] قياسا على المَسْرُبة[(٥)] ففاسد من وجهين؛ أحدهما — أن المقدرات لا تثبت قياسا فلا يقبل هذا التقدير . الثاني — أن هذا الذي خُفف عنه في المَسْرُبة رخصة للضرورة، والحاجة والرخص لا يقاس عليها؛ لأنها خارجة عن القياس فلا تُرَدّ إليه .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (١٠٩)

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ ﴾ أي أصّل، وهو استفهام معناه التقرير . و « مَن » بمعنى الذي، وهي في موضع رفع بالابتداء، وخبره « خَيْرٌ » . وقرأ نافع وابن عامر وجماعة « أُسِّسَ بُنْيَانُهُ » على بناء أسس للمفعول ورفع بنيان فيهما . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائيّ [وجماعة][(٦)] « أَسّس بنيانه » على بناء الفعل للفاعل ونصب بنيانه فيهما، وهي اختيار أبي عبيد لكثرة من قرأ به، وأن الفاعل سمى فيه . وقرأ نصر بن عاصم بن عليّ

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم . وفي الأصول : في البول . وهو خطأ الناسخ . (٢) راجع جـ ١١ ص ١٧١ فما بعد . (٣) دراهم ضربها رأس البغل لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه . (٤) زيادة عن ابن العربي . (٥) المسربة (بفتح الراء وضمها) : مجرى الحدث من الدبر، يريد أعلى الحلقة . (٦) من جـ و ع و ك و هـ .

Marfat.com

« أفمن أَسَسُ » بالرفع « بُنيـانه » بالخفض . وعنـه أيضا « أساس بنيـانه » وعنه أيضا « أُسُّ بنيانه » بالخفض . والمراد أصول البناء كما تقدّم . وحكى أبو حاتم قراءة سادسة وهى « أَفَمَنْ آسَاسُ بُنْيَانِهِ » قال النحاس : وهذا جمع أُسّ؛ كما يقال : خُفّ وأخْفَاف، والكثير « إِسَاسٌ » مثل خِفاف . قال الشاعر :

أصبح المُلك ثابتَ الآسَاسِ * فى البَهَالِيـل من بنى العبـاس[1]

الثانيـة — قوله تعـالى : ﴿ عَلَى تَقْـوَى مِنَ اللّهِ ﴾ قراءة عيسى بن عمر — فيما حكى سيبويه — بالتنوين، والألف ألف إلحاق كألف تَتْرًى فيما نُوِّن، وقال الشاعر :[2]

* يَسْتَنّ فى عَلْقًى وفى مُكُورِ *[2]

وأنكر سيبويه التنوين، وقال : لا أدرى ما وجهه . ﴿ عَلَى شَفَا ﴾ الشفا : الحرف والحدّ، وقد مضى فى « آل عمران »[3] مستوفى . و ﴿ جُرُفٍ ﴾ قرئ برفع الراء، وأبو بكر وحمزة بإسكانها؛ مثل الشُّغُل والشُّغْل ، والرُّسُل والرُّسْل ، يعنى جُرُفا ليس له أصل . والجُرُف : ما يتجرّف بالسيول من الأودية ، وهو جوانبـه التى تتحفر بالمـاء ، وأصله من الجَـرْف والاجتراف ؛ وهو اقتلاع الشيء من أصله . ﴿ هَارٍ ﴾ ساقط؛ يقال : تهوّر البناء إذا سقط، وأصله هائر، فهو من المقلوب بقلب ويؤخر ياؤها، فيقال : هارٍ وهائر، قاله الزجاج . ومثله لاثَ الشيءَ به إذا دار؛ فهو لاثٍ أى لائث . وكما قالوا : شاكى السلاح وشائك [السلاح][4] . قال العجاج :

* لَاثٍ به الأشَـاء والعُبْرِىّ *

الأشاء النخل ، والعُبْرِىّ السِّدْر الذى على شاطئ الأنهار . ومعنى لَاث به مُطِيف به . وزعم أبو حاتم أن الأصـل فيه هاور ، ثم يقال هائر مثل صائم، ثم يقلب فيقال هارٍ . وزعم الكسائى أنه من ذوات الواو ومن ذوات الياء، وأنه يقال : تهور وتهير .

قلت : ولهذا يمـال ويفتح .

---

(١) راجع هذا البيت وشرحه فى الأغانى جـ ٤ ص ٣٤٤ طبع دار الكتب . فى ع : بالبهاليل . (٢) هو العجاج . وصف ثورا يرتعى فى ضروب من الشجر؛ والعلق والمكور : ضربان من الشجر . ومعنى يستن : يرتعى ، وسنّ الماشية رعيا . (عن شرح الشواهد) . (٣) راجع جـ ٤ ص ١٦٤ . (٤) من جـ و هـ .

Marfat.com

الثالثـــة — قوله تعالى . ﴿ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ فاعل انهار الجُرُف ؛ كأنه قال : فانهار الجرف بالبنيان فى النار ؛ لأن الجرف مذكر . ويجـوز أن يكون الضمير فى به يعود على «مَن» وهو البانى ؛ والتقدير : فانهار مَنْ أسس بنيانه على غير تقوى . وهذه الآية ضربُ مثلٍ لهم ، أى من أسس بنيانه على الإسـلام خير أم من أسس بنيانه على الشرك والنفاق . وبين أن بناء الكافر كبناء على جرف جهنم يتهور بأهله فيها . والشَّفَا : الشفير . وأشفى على كذا أى دنا منه .

الرابعـــة — فى هذه الآية دليل على أن كل شيء ابتدئ بنيّة تقوى الله تعالى والقصد لوجهه الكريم فهو الذى يبقى ويَسْعَد به صاحبه ويصـعد إلى الله ويرفع إليـه ، ويخبر عنه بقوله : «وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَـلَالِ وَالْإِكْرَامِ»[1] على أحد الوجهين . ويخبر عنـه أيضا بقوله : «وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ»[2] على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

الخامســـة — واختلف العلمـاء فى قوله تعالى : « فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ » هل ذلك حقيقة أو مجاز على قولين ؛ الأول — أن ذلك حقيقة وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ أرسل إليه فهُدِم رؤى الدّخان يخرج منه ؛ من رواية سعيد بن جُبير . وقال بعضهم : كان الرجل يُدخل فيه سعفة من سعف النخل فيخرجها سوداء محترقة . وذكر أهل التفسير أنه كان يُحفر ذلك الموضع الذى انهار فيخرج منه دخان . وروى عاصم بن أبى النُّجُود عن زِرّ بن حبيش عن ابن مسعود أنه قال : جهنم فى الأرض ، ثم تلا « فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَـنَّمَ » . وقال جابر ابن عبد الله : أنا رأيت الدخان يخرج منه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . والثانى — أن ذلك مجاز ، والمعنى : صار البنـاء فى نار جهنم ، فكأنه انهـار إليه وهَوَى فيه ؛ وهـذا كقوله تعالى : « فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ »[3] . والظاهر الأول ، إذ لا إحالة فى ذلك . والله أعلم .

قوله تعـالى : لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٦٤ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٤١٣ . (٣) راجع جـ ٢٠ ص ١٦٦ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا ﴾ يعني مسجد الضرار . ﴿ رِيبَةً ﴾ أى شكا في قلوبهم ونفاقا ؛ قاله ابن عباس وقتادة والضحاك . وقال النابغة :

حلفتُ فلم أترك لنفسك رِيبةً ... وليس وراء الله للمرء مَذْهَبُ

وقال الكلبي : حسرة وندامة ؛ لأنهم ندموا على بنيانه . وقال السُّدِّي وحبيب والمبرّد : « رِيبة » أى حزازة وغيظا . ﴿ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ قال ابن عباس : أى تتصدع قلوبهم فيموتوا ؛ كقوله : « لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ »(١) لأن الحياة تنقطع بانقطاع الوتين(٢) ؛ وقاله قتادة والضحاك ومجاهد . وقال سفيان : إلا أن يتوبوا . عكرمة : إلا أن تقطع قلوبهم في قبورهم ، وكان أصحاب عبد الله بن مسعود يقرءونها : ريبة في قلوبهم ولو تقطعت قلوبهم . وقرأ الحسن ويعقوب وأبو حاتم « إلى أن تقطع » على الغاية ، أى لا يزالون في شك منه إلى أن يموتوا فيستيقنوا ويتبينوا . واختلف القراء في قوله « تَقَطَّع » فالجمهور « تُقَطَّع » بضم التاء وفتح القاف وشد الطاء على الفعل المجهول . وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص ويعقوب كذلك إلا أنهم فتحوا التاء . وروى عن يعقوب وأبى عبد الرحمن « تُقْطَع » على الفعل المجهول مخفف القاف . وروى عن شبل وابن كثير « تَقْطع » خفيفة القاف « قُلُوبَهم » نصبا ؛ أى أنت تفعل ذلك بهم . وقد ذكرنا قراءة أصحاب عبد الله . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ تقدم(٣) .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٧٥ فما بعد . (٢) الوتين : عرق يسقى الكبد . الراغب . والوتين عرق في القلب . قاموس . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ .

Marfat.com

فيـه ثمـان مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ﴾ قيل : هذا تمثيل؛ مثل قوله تعالى : « أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَالَةَ بِٱلْهُدَىٰ »(١) . ونزلت الآية فى البيعة الثانية، وهى بيعة العقبة الكبرى ، وهى التى أناف فيها رجال الأنصار على السبعين ، وكان أصغرهم سِنًّا عُقبة بن عمرو؛ وذلك أنهم اجتمعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة، فقال عبد الله بن رواحة للنبيّ صلى الله عليه وسـلم : اشترط لربك ولنفسك ما شئت؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أشترِطُ لربّى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأشترط لنفسى أن تمنعونى ممـا تمنعون منه أنفسكم وأموالكم " . قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لَنـا ؟ قال : " الجنـة " قالوا : رَبِح البيع، لا نُقيل ولا نستقيل ؛ فنزلت : « إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ » الآية . ثم هى بعـد ذلك عامّة فى كل مجاهد فى سبيل الله من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة .

الثانيـة — هذه الآية دليل على جواز معاملة السيد مع عبده ، و إن كان الكل للسيد لكن إذا ملّكه عامله فيما جعل إليه . وجائز بين السيد وعبده ما لا يجـوز بينه وبين غيره ؛ لأن ماله له وله ٱنتزاعه .

الثالثـة — أصل الشراء بين الخلق أن يعوّضوا عمـا خرج من أيديهم ما كان أنفـع لهم أو مثل ما خرج عنهم فى النفع ؛ فاشـترى الله سبحانه من العباد إتلاف أنفسهم وأموالهم فى طاعته، و إهلاكها فى مرضاته، وأعطاهم سبحانه الجنة عوضا عنها إذا فعلوا ذلك . وهو عوض عظـيم لا يدانيه المعوّض ولا يقاس به، فأجرى ذلك على مجاز ما يتعارفونه فى البيـع والشراء [فمـن العبد تسليم النفس والمـال ، ومن الله الثواب والنـوال فسمى هذا شراء(٢)] . وروى الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن فوق كل بِرٍّ بِرٌّ حتى يبذُل العبد دمه فإذا فعل ذلك فلا بِرّ فوق ذلك " . وقال الشاعر [فى معنى البر(٣)] :

الجـود بالمـاء جـود فيـه مكرمة * والجود بالنفس أقصى غاية الجود

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٠ . (٢) من ب وجـ وز وع وك وهـ وى . (٣) من ع .

وأنشد الأصمعي لجعفر الصادق رضي الله عنه :

أُثَامِنُ بالنفس النفيسـة ربَّهـا * وليس لهـا في الخـلق كلِّهـم ثَمَنْ
بها تُشْـترى الجنات، إن أنا بعتها * بشيء سـواها إن ذلكمُ غَبَنْ
لئن ذهبتْ نفسي بدنيـا أصبتُها * لقد ذهبتْ نفسي وقد ذهب الثمن

قال الحسن : ومرّ أعرابيّ على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هـذه الاية : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ » فقال : كلام مَن هذا ؟ قال : "كلام الله" قال : بَيْعٌ والله مُرْبِح لا نُقيله ولا نستقيله . فخرج إلى الغزو واستُشْهِد .

الرابعـــة ــ قال العلماء : كما اشترى من المؤمنين البالغين المكلفين كذلك اشترى من الأطفال فآلمهم وأسقمهم ؛ لمـا في ذلك من المصلحة وما فيـه من الاعتبار للبالغين ، فإنهم لا يكونون عند شيء أكثر صلاحا وأقلّ فسادا منهم عنـد ألم الأطفال، وما يحصل للوالدين الكافلين من الثواب فيما ينالهم من الهمّ ويتعلق بهم من التربية والكفالة . ثم هو عز وجل يعوّض هـؤلاء الأطفال عِوَضا إذا صاروا إليه . ونظير هذا في الشاهد أنك تكترى الأجير ليَبْنِيَ وينقل التراب وفي كل ذلك له ألم وأذّى ، ولكن ذلك جائز لمـا في عمله من المصلحة ولمـا يصل إليه من الأجر .

الخامســـة ــ قوله تعـالى : ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ بيان لمـا يقاتَلُ له وعليه؛ وقد تقـدم . ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ قرأ النَّخعيّ والأعمش وحمزة والكسائي وخَلَف بتقـديم المفعول على الفاعل؛ ومنه قول امرئ القيس :

* فإن تَقْتُـلونا نُقَتِّـلكم ... *

أي إن تقتلوا بعضنا يقتلكم بعضنا . وقرأ الباقون بتقديم الفاعل على المفعول .

السادســـة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ إخبار من الله تعـالى أن هذا كان في هذه الكتب، وأن الجهاد ومقاومة الأعداء أصـله من عهد موسى عليه السلام . و « وعْدًا » و « حقًّا » مصدران مؤكَّدان .

Marfat.com

السابعـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْـدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى لا أحدَ أوفى بعهـده من الله . وهو يتضمن الوفاء بالوعد والوعيد، ولا يتضمن وفاء البـارئ بالكل ؛ فأما وعده فللجميع ، وأما وعيده فمخصوص ببعض المـذنبين و ببعض الذنوب وفى بعض الأحوال . وقد تقدّم هذا المعنى مستوفًى (١) .

الثامنـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ أى أظهروا السرور بذلك . والبشارةُ إظهارُ السرور فى البَشَرة (٢) . وقد تقدّم . وقال الحسن : واللهِ ما على الأرض مؤمن إلا يدخل فى هذه البيعة . ﴿ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى الظفر بالجنة والخلود فيها .

قوله تعـالى : ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ ﴾ التائبون هم الراجعون عن الحالة المذمومة فى معصية الله إلى الحـالة المحمودة فى طاعة الله . والتائب هو الراجع . والراجع إلى الطاعة هو أفضل من الراجع عن المعصية لجمعه بين الأمرين . ﴿ الْعَابِدُونَ ﴾ أى المطيعون الذين قصدوا بطاعتهم الله سبحانه . ﴿ الْحَامِدُونَ ﴾ أى الراضون بقضائه المصرفون نعمته فى طاعته ، الذين يحمدون الله على كل حال . ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ الصائمون ؛ عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما . ومنه قوله تعالى : « عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ (٣) » . وقال سفيان بن عُيينة : إنمـا قيل للصائم سائح لأنه يترك اللذات كلَّها من المطعم والمشرب والمنكح . وقال أبو طالب :

وبالسائحين لا يذوقون قطرة * لربهم والذاكرات العوامِلِ

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٣٣ فما بعد . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٣٨ . (٣) راجع جـ ١٨ ص ١٩٢ .

Marfat.com

وقال آخـــر :

برًّا يصـــلّي ليـــله ونهـارَه * يَظَلّ كثير الذكر لله سائحا

وروى عن عائشة أنها قالت : سياحة هذه الأمة الصيامُ؛ أسنده الطبرى . ورواه أبو هريرة مرفوعا عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم أنه قال : "سياحة أمتى الصـيام" . قال الزجاج : ومذهب الحسن أنهـم الذين يصومون الفرض . وقد قيـل : إنهم الذين يديمون الصيام . وقال عطاء : السائحون المجاهدون . وروى أبو أُمامة أن رجلا آسـتأذن رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى السياحة فقال : "إن سـياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله" . صححه أبو محمد عبد الحق . وقيـل : السـائحون المهاجرون؛ قاله عبد الرحمن بن زيد . وقيـل : هم الذين يسافرون لطلب الحديث والعلم؛ قاله عكرمة . وقيل : هم الجائلون بأفكارهم فى توحيد ربهم وملكوته ، وما خلق من العـبر والعلامات الدالة على توحيـده وتعظيمه؛ حكاه النقاش . وحكى أن بعض العُبّاد أخذ القـدح ليتوضأ لصلاة الليل فأدخل أصبعه فى أذن القدح وقعد يتفكر حتى طلع الفجر؛ فقيـل له فى ذلك فقال : أدخلت أصبعى فى أذن القدح فتذكرت قول الله تعـالى : « إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ »[1] وذكرت كيف أتلقى الغُلّ وبقيت ليلى فى ذلك أجمع .

قلت : لفظ « س ى ح » يدلّ على صحة هذه الأقوال؛ فإن السياحة أصلها الذهاب على وجه الأرض كما يسيح المـاء؛ فالصائم مستمر على الطاعة فى ترك ما يتركه من الطعام وغيره ، فهو بمنزلة السائح . والمتفكرون تجول قلوبهم فيما ذكروا . وفى الحديث : "إن لله ملائكة سياحين مشّائين فى الآفاق يبلغونى صـلاة أمتى" ويروى "صـياحين" بالصاد ، من الصـياح . ﴿ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ ﴾ يعنى فى الصلاة المكتوبة وغيرها . ﴿ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أى بالسنة ، وقيل : بالإيمان . ﴿ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ قيل : عن البدعة ، وقيل : عن الكفر . وقيل : هو عموم فى كل معروف ومنكر . ﴿ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ أى القائمون بمـا أمر به والمنتهون عما نهى عنه .

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٣١ فما بعد .

Marfat.com

الثانيــة ـــ واختلف أهل التأويل فى هذه الآية، هل هى متصلة بما قبلُ أو منفصلة؛ فقال جماعة : الآية الأولى مستقلة بنفسها؛ يقع تحت تلك المبايعة كلُّ موحِّد قاتل فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، وإن لم يتصف بهذه الصفات فى هذه الآية الثانية أو بأكثرها. وقالت فرقة : هذه الأوصاف جاءت على جهــة الشرط ، والآيتان مرتبطتان ؛ فلا يدخل تحت المبايعة إلا المؤمنون الذين هم على هــذه الأوصاف ويبذلون أنفسهم فى سبيل الله؛ قاله الضحاك . قال ابن عطية : وهذا القول تحريج وتضييق ، ومعنى الآية على ما تقتضيه أقوال العلمــاء والشرع أنها أوصاف الكَمَلَة من المؤمنين، ذكرها الله ليستبق إليها أهل التوحيد حتى يكونوا فى أعلى مرتبــة . وقال الزجاج : الذى عندى أن قوله : « التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ » رفع بالابتــداء وخبره مضمر؛ أى التائبون العابدون ـــ إلى آخر الآية ـــ لهم الجنــة أيضا وإن لم يجاهدوا ، إذا لم يكن منهم عناد وقصــد إلى ترك الجهاد ؛ لأن بعض المسلمين يجزى عن بعض فى الجهاد . واختار هذا القول القشيرى وقال : وهذا حسن ؛ إذ لو كان صفة للمؤمنين المذكورين فى قوله : « اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » لكان الوعد خاصا للمجاهدين . وفى مصحف عبــد الله « التائبــين العابدين » إلى آخرها؛ ولذلك وجهان : أحدهما الصــفة للمؤمنين على الإتباع . والثانى النصب على المدح .

الثالثــة ـــ واختلف العلماء فى الواو فى قوله : ﴿ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ فقيل : دخلت فى صفة الناهين كما دخلت فى قوله تعالى : « حــمٓ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ » (١) فذكر بعضها بالواو والبعض بغيرها . وهذا سائغ معتاد فى الكلام ولا يُطلب لمثله حكمة ولا علّة . وقيل : دخلت لمصاحبة الناهى عن المنكر الآمر بالمعروف فــلا يكاد يذكر واحد منهما مفــردا . وكذلك [قــوله] (٢) : « ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا » (٣) . ودخلت فى [قوله] (٤) : « وَالْحَافِظُونَ » لقربه من المعطوف . وقد قيل : إنها زائدة ، وهذا ضعيف لا معنى له . وقيل : هى واو الثمانية لأن السبعة عند العرب عدد كامل صحيح . وكذلك قالوا

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٨٩ . (٢) من جـ و هـ و ز . (٣) راجع جـ ١٨ ص ١٩٣ .
(٤) من جـ .

Marfat.com

فى قوله : « ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا » . وقوله فى أبواب الجنة : « وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا[(1)] » وقوله : « ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم[(2)] » وقد ذكرها ابن خالويه فى مناظرته لأبى على الفارسى فى معنى قوله : « وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » وأنكرها أبو على . قال ابن عطية : وحدثنى أبى رضى الله عنه عن الأستاذ النحوى أبى عبد الله الكفيف المالقى، وكان ممن استوطن غرناطة وأقرأ فيها فى مدة ابن حبوس أنه قال : هى لغة فصيحة لبعض العرب ؛ من شأنهم أن يقولوا إذا عدوا : واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية تسعة عشرة ؛ وهكذا هى لغتهم. ومتى جاء فى كلامهم أمر ثمانية أدخلوا الواو . قلت : هى لغة قريش . وسيأتى بيانه ونقضه فى سورة « الكهف[(2)] » إن شاء الله تعالى وفى الزمر[(1)] [أيضا بحول الله تعالى[(3)]] .

قوله تعالى : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — روى مسلم عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاةُ جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبدَ الله بن أبى أمية ابن المغيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا عَمِّ ، قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله" فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أباطالب، أترغب عن ملة عبدالمطلب. فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه و يعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك " فأنزل الله عز وجل : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ» . وأنزل الله فى أبى طالب فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنك

(1) راجع ج ١٥ ص ٢٨٤ — ٢٨٢ . (2) راجع ج ١٠ ص ٣٨٢ .
(3) من ب و ج و ع و ك و هـ و ز .

لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ»[(١)] . فالآية على هذا ناسخة لاستغفار النبيّ صلى الله عليه وسلم لعمّه ؛ فإنه استغفر له بعد موته على ما رُوى فى غير الصحيح . وقال الحسين بن الفضل : وهــذا بعيد ؛ لأن السورة من آخر ما نزل من القــرآن ، ومات أبو طالب فى عنفوان الإسلام والنبيّ صلى الله عليه وسلم بمكة .

الثانيـــة ـــ هذه الآية تضمّنت قطع موالاة الكفار حيّهم وميتهم ، فإن الله لم يجعـل للؤمنين أن يستغفروا للشركين ؛ فطلبُ الغفران للشرك ممـا لا يجوز . فإن قيل : فقد صح أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال يوم أُحُد حين كسروا رَبَاعِيتَه وشجّوا وجهه : "اللهم آغفر لقومى فإنهم لا يعلمون" فكيف يجتمع هــذا مع منع الله تعالى رسولَه والمؤمنين من طلب المغفرة للشركين . قيل له : إن ذلك القول من النبيّ صلى الله عليه وسلم إنمـا كان على سبيل الحكاية عمّن تقدّمه من الأنبياء ؛ والدليل عليه ما رواه مسلم عن عبد الله قال : كأنى أنظر إلى النبيّ صلى الله عليــه وسلم يحكى نبيًّا من الأنبيــاء ضربه قومُه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : "رب آغفر لقومى فإنهــم لا يعلمون" . وفى البخارىّ أن النبيّ صلى الله عليــه وسلم ذكر نبياً قبله شجّه قومه فجعل النبيّ صلى الله عليــه وسلم يخبر عنه بأنه قال : "اللّهُمّ اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون" .

قلت : وهذا صريح فى الحكاية عمن قبله ، لا أنه قاله ابتداء عن نفسه كما ظنه بعضهم . والله أعلم . والنبيّ الذى حكاه هو نوح عليــه السلام ؛ على ما يأتى بيانه فى ســورة « هود »[(٢)] إن شاء الله . وقيل : إن المراد بالاستغفار فى الآية الصلاة . قال بعضهم : ما كنت لأدَعَ الصلاة على أحد من أهــل القبلة ولو كانت حبشيّة حُبلى من الزنى ؛ لأنى لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين بقوله : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُــوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ » الآية . قال عطاء بن أبى رَبَاح : الآية فى النهى عن الصــلاة على المشركين ، والاستغفارُ هنا يراد به الصــلاة . جواب ثالث ـــ وهو أن الاستغفار للأحياء جائز ؛ لأنه مرجوّ إيمانهم ، ويمكن

(١) راجع جـ ١٣ ص . (٢) راجع جـ ٩ ص ٤٣ .

Marfat.com

تألفهم بالقول الجميل وترغيبهم فى الدّين . وقد قال كثير من العلماء : لا بأس أن يدعُوَ الرجل لأبويه الكافرين ويستغفر لهما ماداما حيين . فأما من مات فقد انقطع عنه الرجاء فلا يُدْعَى له .
قال ٱبن عبـاس : كانوا يستغفرون لموتاهم فنزلت ، فأمسكوا عن الاسـتغفار ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا .

الثالثـــة ــ قال أهل المعانى : « مَا كَانَ » فى القرآن يأتى على وجهين : على النفى نحو قوله : « مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَـرَهَا »[1] ، « وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ »[2] .
والآخر بمعنى النهى كقوله : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ »[3] ، و « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ » .

قوله تعـالى : وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى ــ روى النَّسائىّ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان ، فقلت : أتستغفر لهما وهما مشركان ؟ فقال : أولم يستغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه . فأتيت النبىّ صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك [له[4]] فنزلت : ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ . والمعنى : لاحجة لكم أيها المؤمنون فى ٱستغفار إبراهيم الخليل عليه السلام لأبيه ؛ فإن ذلك لم يكن إلا عن عِدَة . وقال ٱبن عباس : كان أبو إبراهيم وعد إبراهيم الخليلَ أن يؤمن بالله ويخلع الأنداد ، فلما مات على الكفر علم أنه عدوّ الله ، فترك الدعاء له ؛ فالكناية فى قوله : « إياه » ترجع إلى إبراهيم ، والواعد أبوه . وقيل : الواعد إبراهيم ؛ أى وعد إبراهيم أباه أن يستغفر له ، فلما مات مشركا تبرأ منه . ودلّ على هذا الوعد قوله : « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي »[5] . قال القاضى أبو بكر بن العربىّ : تعلق النبىّ صلى الله عليه

(١) راجع جـ ١٣ ص . (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٢٦ . (٣) راجع جـ ١٤ ص .
(٤) من ع . (٥) راجع جـ ١١ ص ١١٠ فما بعد .

وسلم فى الاستغفار لأبى طالب بقوله تعالى : « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى » فأخبره الله تعالى أن استغفار إبراهيم لأبيه كان وعدا قبل أن يتبين الكفر منه، فلما تبين له الكفر منه تبرأ منه فكيف تستغفر أنت لعمك يا محمد وقد شاهدت موته كافرا .

الثانيـــة — ظاهر حالة المرء عند الموت يحكم عليه بها، فإن مات على الإيمان حكم له به ، وإن مات على الكفر حُكم له به ؛ وربّك أعلم بباطن حاله ؛ بَيْدَ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له العباس : يا رسول الله، هل نفعت عمّك بشىء ؟ قال : " نعم ". وهذه شفاعة فى تخفيف العذاب لا فى الخروج من النار ؛ على ما بيناه فى كتاب « التذكرة » .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ اختلف العلماء فى الأوّاه على خمسة عشر قولا : الأول — أنه الدَّعّاء الذى يكثر الدُّعاء ؛ قاله ابن مسعود وعبيد بن عمير . الثانى — أنه الرحيم بعباد الله ؛ قاله الحسن وقتادة ، وروى عن ابن مسعود . والأول أصح إسنادا عن ابن مسعود ؛ قاله النحاس . الثالث — أنه الموقن ؛ قاله عطاء وعكرمة ، ورواه أبو ظَبيان عن ابن عباس . الرابع — أنه المؤمن بلغة الحبشة ؛ قاله ابن عباس أيضا . الخامس — أنه المسبح الذى يذكر الله فى الأرض القفر الموحشة ؛ قاله الكلبيّ وسعيد ابن المسيّب . السادس — أنه الكثير الذكر لله تعالى ؛ قاله عقبة بن عامر ، وذُكر عند النبيّ صلى الله عليه وسلم رجلا يكثر ذكر الله ويسبح فقال : " إنه لأوّاه " . السابع — أنه الذى يكثر تلاوة القرآن . وهذا مروى عن ابن عباس .

قلت : وهذه الأقوال متداخلة وتلاوة القرآن يجمعها . الثامن — أنه المتأوه ؛ قاله أبو ذر وكان إبراهيم عليه السلام يقول : " آه من النار قبل ألّا تنفع آه " . وقال أبو ذر : كان رجل يكثر الطواف بالبيت ويقول فى دعائه : أَوْهِ أَوْه ؛ فشكاه أبو ذر إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " دعه فإنه أوّاه " فخرجت ذات ليلة فإذا النبيّ صلى الله عليه وسلم يدفن ذلك الرجل ليلا ومعه المصباح . التاسع — أنه الفقيه ؛ قاله مجاهد والنَّخَعِيّ . العاشر — أنه المتضرع الخاشع ؛ رواه عبد الله بن شدّاد بن الهاد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال أنس : تكلمت امرأة عند النبيّ صلى الله عليه وسلم بشىء كرهه فنهاها عمر فقال النبيّ صلى الله عليه

Marfat.com

وسلم : " دَعُوها فإنها أوّاهة " قيل : يا رسول الله ، وما الأوّاهة ؟ قال : " الخـاشعة ". الحادى عشر — أنه الذى إذا ذكر خطاياه ٱستغفر منها ، قاله أبو أيوب . الثانى عشر — أنه الكثير التـأوه من الذنوب؛ قاله الفرّاء . الثـالث عشر — أنه المعلِّم(١) للخير؛ قاله سعيد ابن جبير . الرابع عشر — أنه الشفيق ؛ قاله عبـد العزيز بن يحيى . وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يُسمَّى الأوّاه لشفقته ورأفته . الخامس عشر — أنه الراجع عن كل ما يكره الله تعالى؛ قاله عطاء . وأصله من التأوه ، وهو أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصُّعَداء . قال كعب : كان إبراهيم عليه السلام إذا ذكر النار تأوه . قال الجوهرى : قولهم عند الشكاية أَوْهِ من كذا (ساكنة الواو) إنمـا هو توجّع . قال الشاعر :

فأَوْهِ لذكراها إذا ما ذكرتهـا * ومن بُعـد أرض بيننا وسمـاء

وربمـا قلبوا الواو ألفا فقالوا : آهِ من كذا . وربمـا شدّدوا الواو وكسروها وسكنوا الهـاء فقـالوا : أَوِّهْ من كذا . وربمـا حذفوا مع التشديد الهـاء فقالوا : أَوِّ من كذا؛ بلا مد . وبعضهم يقول : آوَّهْ، بالمـد والتشديد وفتح الواو ساكنة الهاء لتطويل الصوت بالشكاية. وربمـا أدخلوا فيها التاء فقالوا : أوّتاه ؛ يمدّ ولا يمدّ . وقد أوّه الرجل تأويها وتأوّه تأوّها إذا قال أَوِّهْ ، والاسم منه الآهة بالمد . قال المُثقِّب العَبْدِىّ :

إذا ما قمتُ أرحَلُها بليـــلٍ * تأوَّهُ آهـةَ الرجلِ الحـزينِ

والحليم : الكثير الحِلم ، وهو الذى يصفح عن الذنوب ويصبر على الأذى . وقيل : الذى لم يعاقب أحدا قطُّ إلا فى الله ولم ينتصر لأحد إلا لله . وكان إبراهيم عليه السلام كذلك ، وكان إذا قام يصلى سُمع وجيب(٢) قلبه على ميلين .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

(١) معلم كل شىء : مظنته . (٢) وجيب القلب : خفقانه واضطرابه .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾ أى ما كان الله ليوقع الضلالة فى قلوبهم بعـد الهُدَى حتى يُبيّن لهم ما يتّقون فلا يتقوه، فعند ذلك يستحقون الإضلال .

قلت : ففى هذا أدلّ دليـل على أن المعاصى إذا ارتكبت وانتهك حجابها كانت سـببا إلى الضلالة والردى، وسُلَّما إلى ترك الرشاد والهدى . نسأل الله السداد والتوفيق والرشاد بمنّه .

وقال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله فى قوله : ﴿ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ : أى حتى يحتج عليهم بأمره؛ كما قال : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا » (١) وقال مجاهـد : « حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ » أى أمر إبراهيم؛ ألا يستغفروا للشركين خاصّة ويبيّن لهم الطاعة والمعصية عامة . وروى أنه لمـا نزل تحريم الخمر وشدّد فيها سألوا النبيّ صلى الله عليه وسـلم عمن مات وهو يشربها، فأنزل الله تعالى : «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ» وهذه الآية رد على المعتزلة وغيرهم الذين يقولون بخلق هداهم وإيمانهم؛ كما تقدّم (٢) .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ تقدّم معناه غير مرة (٣) .

قوله تعـالى : لَقَـد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

روى الترمـذى : حدّثنا عبد بن حميد حدّثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى عن عبـد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيـه قال : لم أتخلف عن النبيّ صـلى الله عليه وسـلم فى غزوة غزاها حتى كانت غزوة تبوك إلا بَدْرا ، ولم يعاتب النبيّ صلى الله عليه وسلم أحدا تخلف عن بدر، إنمـا خرج يريد العِير فخرجت قريش مُغْوِثين لعيرهم، فالتقوا عن غير موعد (٤)؛

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٢ . (٢) راجع جـ ١ ص ١٤٩ ، ١٨٦ . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٤٩ ، ٢٦١ . وجـ ٢ ص ٦٩ . (٤) فى جـ وع وهـ : على غير وعد . وفى ك وى : من غير وعد .

Marfat.com

كما قال الله تعالى ؛ ولعمرى إنّ أشرف مشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس لَبَدْر ، وما أحبُّ(١) أنى كنت شهدتُها مكان بيعتِي ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، ثم لم أتخلف بعدُ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى كانت غزوة تبوك ، وهى آخر غزوة غزاها ، وآذن النبيّ صلى الله عليه وسلم بالرحيل ؛ فذكر الحديث بطوله قال : فآنطلقت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فإذا هو جالس فى المسجد وحوله المسلمون ، وهو يستنير كآستنارة القمر ، وكان إذا سُرّ بالأمر آستنار ، فجئت فجلست بين يديه فقال : "أبشر يا كعب بن مالك بخير يوم أتى عليك منذ ولدتك أمك" فقلت : يا نبيّ الله ، أمن عند الله أم من عندك ؟ قال : "بل من عند الله — ثم تلا هذه الآية — "لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ — حتى بلغ — إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" قال : وفينا أنزلت أيضا « اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » وذكر الحديث . وسيأتى بكماله من صحيح مسلم فى قصة الثلاثة إن شاء الله تعالى .

واختلف العلماء فى هذه التوبة التى تابها الله على النبيّ والمهاجرين والأنصار على أقوال ؛ فقال ابن عباس : كانت التوبة على النبيّ لأجل إذنه للمنافقين فى القعود ؛ دليله قوله : « عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ »(٢) وعلى المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه . وقيل : توبة الله عليهم استنقاذهم من شدّة العسرة . وقيل : خلاصهم من نكاية العدوّ ، وعبّر عن ذلك بالتوبة وإن خرج عن عرفها لوجود معنى التوبة فيه ، وهو الرجوع إلى الحالة الأولى . وقال أهل المعانى : إنما ذُكر النبيّ صلى الله عليه وسلم فى التوبة لأنه لما كان سبب توبتهم ذُكر معهم ؛ كقوله : «فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ»(٢) .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ أى فى وقت العسرة ، والمراد جميع أوقات تلك الغزاة ولم يرد ساعة بعينها . وقيل : ساعة العسرة أشدّ الساعات التى مرت بهم فى تلك الغزاة . والعسرة صعوبة الأمر . قال جابر : اجتمع عليهم عسرة الظَّهْر وعسرة الزاد

(١) فى ع : يا ليتنى كنت شهدتها وكان الخ . (٢) راجع ص ١٥٤ و ص ١ من هذا الجزء .

Marfat.com

وعسرة المـاء . قال الحسن : كانت العسرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم ، وكان زادهم التمر المتسوس والشعير المتغير والإهالة[(١)] المنتنة ، وكان النَّفَر يخرجون ما معهم — إلا التمرات — بينهم ، فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ، ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب عليهـا جُرْعة من ماء كذلك حـتى تأتى على آخرهم ، فلا يبقى من التمـرة إلا النواة ؛ فمَضَوْا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم على صدقهم و يقينهم رضى الله عنهم . وقال عمر رضى الله عنه وقد سئل عن ساعة العسرة : خرجنا فى قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع من العطش ، وحتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فَرْثه[(٢)] فيشربه ويجعل ما بقى على كبده . فقال أبو بكر : يارسول الله ، إن الله قد عوّدك فى الدعاء خيرا فادع لنا . قال : " أتحب ذلك " ؟ قال : نعم ؛ فرفع يديه فلم يرجعهما حتى أظلت السماء ثم سكبت فملئوا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر . وروى أبو هريرة وأبو سعيد قالا : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك فأصاب الناسَ مجاعةٌ وقالوا : يا رسول الله ، لو أذنت لنـا فنحرنا نواضحنا[(٣)] فأكلنا وآدّهنا . [فقـال : رسول الله صـلى الله عليه وسـلم " افعلوا "][(٤)] فجاء عمر وقال : يا رسول الله إن فعلوا قَلّ الظَّهر ، ولكن ٱدْعُهم بفضل أزوادهم فادع الله عليها بالبركة لعل الله أن يجعل فى ذلك [البركة][(٥)] . قال : "نعم" ثم دعا بنطع[(٦)] فبُسط ، ثم دعا بفضـل الأزواد ؛ فجعـل الرجل يجىء بكف ذرة ، و يجىء الآخر بكف تمر ، و يجىء الآخر بكسرة حـتى اجتمع على النطع من ذلك شىء يسـير . قال أبو هريرة : فحَزَرته فإذا هو قدر رُبضة العنز[(٧)] ؛ فدعا رسول الله صـلى الله عليه وسلم بالبركة . ثم قال : " خذوا فى أوعيتكم " فأخذوا فى أوعيتهم حتى — والذى لا إله إلا هو — ما بقى فى العسكر وعاء إلا ملئوه ، وأكل القوم حتى شبعوا ؛ وفضلت فضلة فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسولُ الله لا يَلْقَى اللهَ بهما عبدٌ غير شاكّ فيهما فيُحجب عن الجنة " . خرّجه مسلم فى صحيحه

---

(١) الإهالة : الشحم .　　(٢) الفرث : السرجين (الزبل) مادام فى الكرش .　　(٣) الناضح : البعير يستق عليه ثم استعمل فى كل بعير و إن لم يحمل الماء .　　(٤) زيادة عن صحيح مسلم .　　(٥) من ه .
(٦) النطع : بساط من الأديم .　　(٧) ربضة العنز (بضم الراء وتكسر) : جثتها إذا بركت .

Marfat.com

بلفظه ومعناه، والحمد لله . وقال ابن عرفة : سُمّي جيش تبوك جيشَ العُسرة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نَدَب الناس إلى الغزو في حَمارة القيظ ، فغلُظ عليهم وعَسُر ، وكان إبّان ابتياع الثمرة . قال : وإنما ضُرب المثل بجيش العسرة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يغز قبله في عدد مثله ؛ لأن أصحابه يوم بدر كانوا ثلثمائة وبضعة عشر، ويوم أُحُد سبعمائة ، ويوم خيبر ألفا وخمسمائة ، ويوم الفتح عشرة آلاف ، ويوم حُنين اثني عشر ألفا ؛ وكان جيشه في غزوة تبوك ثلاثين ألفا وزيادة ، وهي آخر مغازيه [صلى الله عليه وسلم](١) . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في رجب وأقام بتبوك شعبان وأياما من رمضان ، وبثّ سراياه وصالح أقواما على الجزية . وفي هذه الغزاة خلّف عليًّا على المدينة فقال المنافقون : خلّفه بُغضا له ؛ فخرج خلف النبيّ صلى الله عليه وسلم وأخبره، فقال عليه السلام : " أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى " وبيّن أن قعوده بأمره عليه السلام يوازي في الأجر خروجه معه ؛ لأن المدار على أمر الشارع . وإنما قيل لها : غزوة تبوك لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى قوما من أصحابه يَبُوكُون حِسْيَ تبوك ، أي يدخلون فيه القدح ويحركونه ليخرج الماء، فقال : " مازلتم تَبُوكُونها بَوْكًا " فسمّيت تلك الغزوة غزوة تبوك . الحسي (بالكسر) ما تنشّفه الأرض من الرمل، فإذا صار إلى صلابة أمسكته ، فتحفر عنه الرملَ فتستخرجه ؛ وهو الاحتساء ؛ قاله الجوهري .

قوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ(٢) قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ « قلوبُ » رفع بـ«تزيغ» عند سيبويه . ويضمر في «كاد» الحديث تشبيها بكان ؛ لأن الخبر يلزمها كما يلزم كان . وإن شئت رفعتها بكاد، ويكون التقدير : من بعد ما كاد قلوب فريق منهم تزيغ . وقرأ الأعمش وحمزة وحفص «يزيغ» بالياء ، وزعم أبو حاتم أن من قرأ «يزيغ» بالياء فلا يجوز له أن يرفع القلوب بكاد . قال النحاس : والذي لم يجزه جائز عند غيره على تذكير الجميع . حكى الفرّاء : رَحُب البلاد وأرحبت ، ورَحُبت لغة أهل الحجاز . واختلف في معنى تزيغ ، فقيل : تتلف بالجهد والمشقة والشدة . وقال ابن عباس : تعدل — أي تميل — عن الحق في الممانعة والنصرة .

(١) من ج و ع و هـ . (٢) قراءة نافع بالتاء .

Marfat.com

وقيـل : من بعد ما همّ فريق منهم بالتخلف والعصيان ثم لحقوا به . وقيـل : هموا بالقفول فتاب الله عليهم وأمرهم به .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ قيل : توبته عليهم أن تدارك قلوبهم حتى لم تزغ ، وكذلك[(1)] سُنّة الحق مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب، ووطّنوا أنفسهم على الهلاك أمطر عليهم سحائب الجود فأحيا قلوبهم . وينشد :

منـك أرجو ولستُ أعرف ربًّا * يُرْتَجَى منـه بعضَ ما منك أرجـو
وإذا اشـتدّت الشـدائد فى الأر * ض على الخلق فاستغاثوا وعجّـوا
وابتليتَ العبـاد بالخوف والجـو * ع وصرّوا[(2)] على الذنوب ولجّـوا
لم يكن لى سـواك ربّى ملاذ * فتيقّنت أننى بـك أنجـو

وقال فى حق الثلاثة : «ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا » فقيل : معنى « ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ » أى وفقهم للتوبة ليتوبوا . وقيل : المعنى تاب عليهم؛ أى فسّح لهم ولم يعجل عقابهم ليتوبوا . وقيل : تاب عليهم ليثبتوا على التوبة . وقيـل : المعنى تاب عليهم ليرجعوا إلى حال الرضـا عنهم . وبالجملة فلولا ماسـبق لهم فى علمه أنه قضى لهم بالتوبة ما تابوا؛ دليله قوله عليه السـلام : " اعملوا فكلٌّ مُيَسَّر لمـا خلق له " .

قوله تعـالى : وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ قيل : عن التوبة؛ عن مجاهد وأبى مالك . وقال قتادة : عن غزوة تبوك . وحُكى عن محمد بن زيد[(3)] معنى « خُلِّفُوا » تُركوا؛ لأن معنى خلّفت فلانا تركته وفارقته قاعدا عما نهضت فيه . وقرأ عكرمة بن خالد « خَلَفوا » أى أقاموا

(1) فى ب : وذلك .　(2) يريد « أصروا » .　(3) فى ع : ابن جرير .

Marfat.com

بعقب رسـول الله صلى الله عليـه وسلم . ورُوى عن جعفر بن محمـد أنه قرأ « خالفوا » .
وقيل : « خُلِّفُوا » أى أرجئوا وأُخِّروا عن المنافقين فلم يُقض فيهم بشىء . وذلك أن المنافقين
لم تقبل توبتهم ، وآعتذر أقوام فقبل عذرهم ، وأخر النبيّ صلى الله عليـه وسلم هؤلاء الثلاثة
حتى نزل فيهم القرآن . وهذا هو الصحيح لمـا رواه مسلم والبخاريّ وغيرهما . واللفظ لمسلم
قال كعب : كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قَبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم
حين حلفوا له فبايعهم وآستغفر لهم، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى اللهُ
فيـه ، فبذلك قال الله عز وجل : « وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا » وليس الذى ذكر الله مما
خُلِّفنا تَخَلُّفنا عن الغزو ، وإنمـا هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له وآعتـذر إليه
فقبِل منه . وهذا الحديث فيه طول، هذا آخره .(1)

والثـلاثة الذين خُلِّفوا هم : كعب بن مالك ، ومُرارة بن ربيعـة العامِرِىّ ، وهـلال
آبن أميّـة الوَاقِفِى ، وكلهم من الأنصار . وقد خرّج البخارىّ ومسلم حديثَهم ، فقـال مسلم
عن كعب بن مالك قال : لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها قطُّ
إلا فى غزوة تبوك ، غير أنى قد تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنه ، إنمـا خرج
رسول الله صلى عليه وسـلم والمسلمون يريدون عِير قريش ؛ حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم
على غير ميعاد ، ولقـد شهدت مع رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ليلة العقبة حين تواثقنا
على الإسلام ، وما أحِبّ أنّ لى بها مشهدَ بدر، وإن كانت بدر أذْكَرَ فى الناس منها، وكان
من خبرى حين تخلّفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك : أنى لم أكن قط
أقوى ولا أيسرَ منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، واللهِ ماجمعتُ قبلها راحلتين قطّ حتى
جمعتهما فى تلك الغزوة؛ فغزاها رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى حر شديد، وآستقبل سفرا
بعيدا ومفازا ، وآستقبل عدوًّا كثيرا ؛ فجـلّا للسلمين أمرهم ليتأهّبوا أهْبَةَ غَزْوِهم(2) فأخبرهم
بوجهه الذى يريد، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير، ولا يجمعهم كتابُ حافظ

(1) راجع صحيح مسلم كتاب التوبة .
(2) فى جـ وع وك و هـ : عدوهم .

Marfat.com

ــ يريد بذلك الدّيوان ــ قال كعب : فقلّ رجل يريد أن يتغيّب، يظن أن ذلك سيَخْفَى له مالم ينزل فيه وحى من الله تعالى، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظّلال، فأنا إليها أَصْعر[1]، فتجهز إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه، وطفِقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقضِ شيئا، وأقول فى نفسى : أنا قادر على ذلك إذا أردت ! فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجِدّ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غازيا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئا، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل كذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهَمَمْت أن أرتحل فأُدرِكَهم، فياليتنى فعلتُ ! ثم لم يقدَّر ذلك لى فطفِقت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزُنُنى أنّى لا أرى لى أسوةً إلا رجلا مغْمُوصا[2] عليه فى النفاق، أو رجلا ممن عَذَر اللهُ من الضعفاء، ولم يذكرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : " ما فعل كعب بن مالك " ؟ فقال رجل من بنى سَلِمة : يا رسول الله، حبسه برداه والنظر فى عطْفيه[3]. فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت ! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فبينما هو على ذلك رأى رجلا مُبيِّضًا[4] يزول به السَّراب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كن أبا خَيْثمة "؛ فإذا هو أبو خيثمة الأنصارى، وهو الذى تصدّق بصاع التمر حتى لمَزَه المنافقون . فقال كعب بن مالك : فلما بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلا من تبوك حضرنى بَثّى، فطفقت أتذكر الكذب وأقول : بم أخرج من سَخطه غدا، وأستعين على ذلك كلّ ذى رأى من أهلى؛ فلما قيل لى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظلّ قادما زاح عنى الباطل حتى عرفت أنى لن أنجو منه بشىء أبدا، فأجمعت صِدْقه، وصبّح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادما، وكان إذا قدِم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه

---

(١) أى أميل . (٢) أى مطعونا عليه فى دينه، متهما بالنفاق . (٣) هذا كناية عن كونه معجبا بنفسه، ذا زهو وتكبر . (٤) المبيض (بكسر الياء) : لابس البياض . والسراب : ما يظهر فى الهواجر فى البرارى كأنه الماء . ويزول أى يتحرك .

Marfat.com

ركعتين ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمـانين رجلا ، فقبل منهم رسول الله صـلى الله عليه وسـلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكّل سرائرهم إلى الله ، حتى جئت فلما سلّمت تبسم تبسّم المُغْضَب ، ثم قال : " تعال " فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لى : " ما خلّفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك " ؟ قال : قلت يا رسول الله ، إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعـذر ، ولقد أُعطيت جدلا(١) ، ولكنى والله لقد علمت لئن حدّثتك اليومَ حديث كذب تَرْضَى به عنى لَيُوشِكَنّ اللهُ أن يسخطك علىّ ، ولئن حدّثتك حديث صدق تجد(٢) علىّ فيه إنّى لأرجو فيه عُقْبَى الله ، والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت قطُّ أقوَى ولا أيسرَ منّى حين تخلّفت عنك . قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " أمّا هـذا فقد صـدق فقُم حتى يقضِيَ اللهُ فيك " . فقمت وثار(٣) رجال من بنى سَلِمة فاتبعونى فقالوا لى : والله ما علمناك أذنبت ذنبا قبل هـذا ! لقد عَجَزْت فى ألا تكون اعتـذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمـا اعتذر به إليه المتخلّفون ، فقد كان كافيك ذنبَك استغفارُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ! . قال : فوالله ما زالوا يؤنّبونى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذّب نفسى . قال : ثم قلت لهم هل لَقِيَ هذا معى من أحد ؟ قالوا : نعم ! لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك . قال قلت : من هما؟ قالوا : مُرارة بن ربيعة العامرىّ وهلال بن أمية الواقفىّ . قال : فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة ؛ قال : فمضيت حين ذكروهما لى . قال : ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيّها الثلاثةُ من بين من تخلّف عنه . قال : فاجتنبَنا الناسُ ، وقال : وتغيّروا لنا ، حتى تنكّرت لى فى نفسى الأرضُ ، فما هى بالأرض التى أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ؛ فأمّا صاحباى فاستكانا وقعـدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشبَّ القومِ وأجلَدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد ، وآتى

---

(١) أى فصاحة وقوة كلام بحيث أخرج من عهدة ما ينسب إلىّ بما يقبل ولا يرد . (٢) تجد : تغضب .
(٣) أى وثبوا علىّ .

Marfat.com

رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلّم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى نفسى : هل حرّك شفتيه برد السلام أم لا ! ثم أصلّى قريبا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلىّ و إذا التفت نحوه أعرض عنى، حتى إذا طال ذلك علىّ من جفوة المسلمين مَشَيْتُ حتى تسوّرت جدار حائط أبى قتادة، وهو ابن عمّى وأحبّ الناس إلىّ فسلمت عليه، فوالله ما ردّ علىّ السلام، فقلت له : يا أبا قتادة أَنْشُدُك بالله ! هل تعلمَنّ أنى أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت ، فعُدت فناشدته فسكت ، فعدت فناشدته فقال : الله ورسوله أعلم ! ففاضت عيناى، وتولّيت حتى تسوّرت الجدار، فبينا أنا أمشى فى سوق المدينة إذا نَبَطِىٌّ من نَبَط أهل الشام ممن قَدِم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدلّ على كعب بن مالك ؟ قال : فطفق الناس يُشيرون له إلى حتى جاءنى فدفع إلىّ كتابا من مَلِك غَسّانَ، وكنت كاتبا فقرأته فإذا فيه : أما بعد ! فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلْك الله بدار هَوَانٍ ولا مَضْيَعَة فَالْحَقْ بنا نُواسك . قال فقلت حين قرأتها : وهذه أيضا من البلاء ! فتياممت بها التنّورَ فسجرته[1] بها، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوَحْىُ إذا رسول[2] رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينى فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل آمرأتك . قال فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال : لا، بل اعتزلها فلا تقربنّها . قال : فأرسل إلى صاحِبَىّ بمثل ذلك.قال فقلت لامرأتى : آلْحَقِى بأهلك، فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر. قال : فجاءت آمرأة هلال بن أمية رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : يا رسول الله ، إن هلال بن أميّة شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخْدُمَه ؟ قال : " لا ولكن لا يقربَنّكِ " فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شىء ! ووالله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . قال : فقال بعض أهلى لو استأذنتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدُمَه . قال فقلت : لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يُدرينى ماذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا

(١) أى أوقدته بالصحيفة . (٢) قال الواقدى : هذا الرسول هو خزيمة بن ثابت .

Marfat.com

استأذنته فيها وأنا رجل شاب! قال: فلبثت بذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نُهِيَ عن كلامنا. قال: ثم صلّيت صلاة الفجر صباحَ خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رَحُبت سمعت صوت صارخ أوْفَى على سَلْع[1] يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر. قال: فخَرَرْتُ ساجدا، وعرفت أن قد جاء فرج. قال: فآذن رسول صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله علينا حين صلّى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، فذهب قِبل صاحبيّ مُبَشِّرون، وركض رجل إليّ فرسا، وسعَى ساعٍ من أسْلَمَ قِبَلي وأوْفَى الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس؛ فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يُبَشِّرني نزعت له ثوبيّ فكسوته إياهما ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، فانطلقت أتأمّم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فتلقاني الناس فوجا فوجا، يُهنّئونني بالتوبة ويقولون: لتَهْنِئْك توبةُ الله عليك، حتى دخلتُ المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحوله الناس، فقام طلحة بن عبيد الله يُهرول حتى صافحني وهنّأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيرُه. قال: فكان كعبٌ لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلما سلّمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يَبْرُق وجهه من السرور ويقول: "أبشِر بخيرِ يومٍ مرّ عليك منذ ولدتك أمك". قال: فقلت أمن عند الله يارسول الله أم من عندك؟ قال: "لابل من عند الله". وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعةُ قمر. قال: وكنا نعرف ذلك. قال: فلما جلست بين يديه قلت: يارسول الله، إن من توبة الله عليّ أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمسِك عليك بعضَ مالك فهو خير لك". قال فقلت: فإني أمسك سَهْمِيَ الذي بخَيْبرَ. قال وقلت: يارسول الله، إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدِّث إلا صدقا ما بقِيت. قال: فوالله ما علمت أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدقِ الحديث منذ ذكرتُ

(١) أي أشرف على جبل سلع. قال الواقدي: هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا أحسنَ ممـا أبلانى الله به ، والله ما تعمّدت كَذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا ، و إنى لأرجو الله أن يحفظنى فيما بَقِىَ ؛ فأنزل الله عز وجل : « لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ — حتى بلغ — إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . وَعَلَى الثَّـلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَـا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ — حتى بلغ — ٱتَّقُوا ٱللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » . قال كعب : والله ما أنعم الله علىّ من نعمة قطُّ بعد إذ هدانى الله للإسلام أعظمَ فى نفسى من صدقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ألّا أكون كَذَبْتُه فأهْلِك كما هلك الذين كذبوا ، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوَحْىَ شرّ ما قال لأحد ، وقال الله تعـالى : « سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا ٱنْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَـا كَانُوا يَكْسِبُونَ . يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِـقِينَ » . قال كعب : كنا خُلِّفنا أيها الثلاثةُ عن أمرِ أولئك الذين قَبِل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حَلَفُوا له فبايَعهم وٱستغفرَ لهم ، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله عز وجل : « وَعَلَى الثَّـلَاثَةِ » ، وليس الذى ذَكر الله مما خُلِّفنا تَخَلُّفَنا عن الغـزو ، و إنمـا هو تخليفه إيانا و إرجاؤه أمرنا عمن حلف له وٱعتذر إليه فقَبِل منه .

قوله تعـالى : ﴿ ضَـاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَـا رَحُبَتْ ﴾ أى بمـا ٱتسعت ؛ يقال : منزل رَحْب ورحِيب ورُحاب . و « ما » مصدرية ؛ أى ضاقت عليهم الأرض برَحْبها ، لأنهـم كانوا مهجورين لا يعامَلون ولا يكلَّمون . وفى هذا دليل على هِجران أهل المعاصى حتى يتو بوا .

قوله تعـالى : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ أى ضاقت صدورهم بالهمّ والوحشة ، و بمـا لقوه من الصحابة من الجفوة . ﴿ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ﴾ أى تيقنوا أن لا ملجأ يلجئون إليه فى الصفح عنهم وقبول التوبة منهم إلا إليه . قال أبو بكر الورّاق : التوبة النصوح أن تضيق على التائب الأرض بمـا رَحُبت ، وتضيق عليه نفسه ؛ كتوبة كعب وصاحبيه .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ فبدأ بالتوبة منه . قال أبو زيد : غلطت فى أربعة أشياء : فى الابتداء مع الله تعالى ، ظننت أنى أحبه فإذا هو أحبّنى ، قال الله تعالى : « يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » . وظننت أنى أرضى عنه فإذا هو قد رضى عنى ، قال الله تعالى : « رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ » . وظننت أنى أذكره فإذا هو يذكرنى ، قال الله تعالى : « وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ » . وظننت أنى أتوب فإذا هو قد تاب علىّ ، قال الله تعالى : « ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا » . وقيل : المعنى ثم تاب عليهم ليثبتوا على التوبة ، كما قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا »[1] وقيل : أى فسح لهم ولم يعجل عقابهم كما فعل بغيرهم ، قال جل وعز : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ »[2] .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾

فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذُهب بهم عن منازل المنافقين . قال مُطرِّف : سمعت مالك بن أنس يقول : قلما كان رجل صادقا لا يكذب إلا مُتّع بعقله ولم يصبه مايصيب غيره من الهرم والخرف .

واختلف فى المراد هنا بالمؤمنين والصادقين على أقوال ؛ فقيل : هو خطاب لمن آمن من أهل الكتاب . وقيل : هو خطاب لجميع المؤمنين ؛ أى اتقوا مخالفة أمر الله . " وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ " أى مع الذين خرجوا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم لا مع المنافقين . أى كونوا على مذهب الصادقين وسبيلهم . وقيل : هم الأنبياء ؛ أى كونوا معهم بالأعمال الصالحة فى الجنة . وقيل : هم المراد بقوله : « لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ »[3] ــ الآية إلى قوله ــ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا » . وقيل : هم الموفون بما عاهدوا ، وذلك لقوله تعالى : « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ »[4] وقيل : هم المهاجرون ، لقول أبى بكر يوم السقيفة : إن الله سمّانا الصادقين

(١) راجع جـ ٥ ص ٤٠٥ . (٢) راجع جـ ٦ ص ١٢ . (٣) راجع جـ ٢ ص ٢٣٧ .
(٤) راجع جـ ١٤ ص .

Marfat.com

فقال : «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ»[1] الآية ،ثم سماكم بالمفلحين فقال : «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ» الآية . وقيل : هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم . قال ابن العربي : وهذا القول هو الحقيقة والغاية التى إليها المنتهى ؛ فإن هذه الصفة يرتفع بها النفاق فى العقيدة والمخالفةُ فى الفعل، وصاحبها يقال له الصديق كأبى بكر وعمر وعثمان ومَن دونهم على منازلهم وأزمانهم . وأما من قال: إنهم المراد بآية البقرة فهو معظم الصدق و يتبعه الأقل وهو معنى آية الأحزاب . وأما تفسير أبى بكر الصديق فهو الذي يعمّ الأقوال كلها ؛ فإن جميع الصفات فيهم موجودة .

الثانيـــة — حقّ مَن فهم عن الله وعَقَل عنه أن يلازم الصّدق فى الأقوال، والإخلاص فى الأعمال ، والصفاء[2] فى الأحوال، فمن كان كذلك لحق بالأبرار و وصل إلى رضا الغفار ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "عليكم بالصّدق فإن الصّدق يَهْدِى إلى البر و إن البر يهدى إلى الجنة وما يزال الرجل يَصْدُق و يتحرّى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقا" . والكذب على الضد من ذلك ؛ قال صلى الله عليه وسلم : إياكم والكذبَ فإن الكذب يَهْدِى إلى الفجور و إن الفجور يهدى إلى النار وما يزال الرجل يكذب و يتحرّى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا" . خرّجه مسلم . فالكذب عار وأهله مسلوبو الشهادة، وقد ردّ صلى الله عليه وسلم شهادة رجل فى كذبة كذبها . قال مَعْمَر : لا أدرى أكذب على الله أو كذب على رسوله أو كذب على أحد من الناس . وسئل شُريك بن عبد الله فقيل له : يا أبا عبد الله، رجل سمعتُه[3] يكذب متعمّدا أأصلّى خلفه ؟ قال لا . وعن ابن مسعود قال : إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ، ولا أن يَعد أحدكم شيئا ثم لا ينجزه، آقرءوا إن شئتم « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » هل ترون فى الكذب رخصة ؟ وقال مالك : لا يُقبل خبر الكاذب فى حديث الناس و إن صدق فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال غيره : يقبل حديثه . والصحيح أن الكاذب لا تقبل شهادته ولا خبره لما ذكرناه ؛ فإن القبول مرتبة عظيمة وولاية شريفة لا تكون إلا لمن كَمُلت خصاله ولا خَصلة هى أشرّ من الكذب فهى تعزل الولايات وتبطل الشهادات .

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٩ . (٢) من ع . وهو الصواب . وفى ب وك وه : الصفات . وهو خطأ . (٣) فى ع : سمعناه .

قوله تعالى : مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ ظاهره خبر ومعناه أمر ، كقوله : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ »(١) وقد تقدم . « أَنْ يَتَخَلَّفُوا » فى موضع رفع اسم كان . وهذه معاتبة للؤمنين من أهل يثرب وقبائل العرب المجاورة لها ، كمُزَيْنة وجُهينة وأشجع وغِفَار وأسْلم على التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تَبُوك . والمعنى : ما كان لهؤلاء المذكورين أن يتخلفوا ؛ فإن النفير كان فيهم ، بخلاف غيرهم فإنهم لم يُستنفَروا ؛ فى قول بعضهم . ويحتمل أن يكون الاستنفار فى كل مسلم ، وخصّ هؤلاء بالعتاب لقربهم وجوارهم ، وأنهم أحقُّ بذلك من غيرهم .

الثانيــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أى لا يرضوا لأنفسهم بالخفض والدَّعة ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى المشقة . يقال : رغِبت عن كذا أى ترفّعت عنه .

الثالثــة ــ قوله تعـالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ أى عطش . وقرأ عبيد ابن عمير « ظماء » بالمد . وهما لغتان مثل خطأ وخطاء . ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ عطف ، أى تعب ، ولا زائدة للتوكيد . وكذا ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ أى مجاعة . وأصله ضمور البطن ؛ ومنه رجل خميص

(١) راجع جـ ١٤ ص .

Marfat.com

وآمرأة حُصانة . وقد تقـدّم[١] . ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أى فى طاعته . ﴿ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا ﴾ أى أرضا . ﴿ يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ أى بوطئهم إياها ، وهو فى موضع نصب لأنه نعت للمَوْطِئ، أى غائظا . ﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا ﴾ أى قتلا وهزيمة . وأصله من نِلْت الشيء أنال أى أصبت . قال الكسائى : هو من قولهم أمرٌ مَنيل منـه ؛ وليس هو من التناول ، إنمـا التناول من نُلْته العطية[٢] . قال غيره : نُلت أنول من العطية، من الواو والنيلُ من الياء، تقول: نِلته فأنا نائل، أى أدركته . ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ العرب تقول: وادٍ وأودية، على غير قياس . قال النحاس : ولا يُعرف فيما علمت فاعل وأفعلة سواه ، والقياس أن يجمع ووادى ؛ فآستثقلوا الجمع بين واوين وهم قد يستثقلون واحدة ،حتى قالوا :أُقِّتَتْ فى وُقِّتَت . وحكى الخليل وسيبويه فى تصغير واصل اسم رجل أُوَيْصل فلا يقولون غيره . وحكى الفرّاء فى جمع واد أوداء .

قلت : وقد جمع أوداه ؛ قال جرير :

عرفت ببُرْقَـة الأوداهِ رَسْمًـا * مُحِيلا طال عَهْـدُك من رُسومِ[٣]

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ قال آبن عباس : بكل روعة تنالهم فى سبيل الله سبعون ألف حسنة . وفى الصحيح :"الخيل ثلاثة... — وفيه — وأما التى هى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله لأهل الإسلام فى مَرْج[٤] أو روضة فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة إلا كُتب له عدد ما أكلت حسـنات وكتب له عدد أرواثها وأبوالهـا حسنات" . الحديث . هـذا وهى فى مواضعها فكيف إذا أُدْرِب[٥] بها .

الرابعـــة — استدلّ بعض[٦] العلماء بهذه الآية على أن الغنيمة تُستحق بالإدراب والكون فى بلاد العدوّ ، فإن مات بعد ذلك فله سهمه ؛ وهو قول أشهب وعبد الملك ، وأحد قولى الشافعى . وقال مالك وآبن القاسم : لا شيء له ؛ لأن الله عز وجل إنمـا ذكر فى هذه الآية الأجر ولم يذكر السهم .

(١) راجع ج ٦ ص ٦٤ . (٢) فى ب و ع و ك و هـ : بالعطية . هما لغتان . (٣) فى ديوانه ومعجم البلدان لياقوت : «ببرقة الوِدّاء» والوداء : واد أعلاه لبنى العدوية والتيم ، وأسفله لبنى كليب وضبة . (٤) المرج : مرعى الدواب . (٥) أدرب القوم : دخلوا أرض العدوّ . (٦) سقط بعض من ب و ع و ك و هـ .

Marfat.com

قلت — الأول أصح لأن الله تعالى جعل وطء ديار الكفار بمثابة النَّيل من أموالهم وإخراجهم من ديارهم ، وهو الذى يغيظهم و يدخل الذّل عليهم ، فهـو بمنزلة نَيْل الغنيمة والقتـل والأسر ؛ و إذا كان كذلك فالغنيمة تُستحق بالإدراب لا بالحيازة ، ولذلك قال علىّ رضى الله عنه : ما وُطئ قوم فى عُقر دارهم إلا ذَلّوا . والله أعلم .

الخامســة — هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً » وأن حكمها كان حين كان المسلمون فى قلّة ، فلما كثروا نُسخت وأباح الله التخلف لمن شاء ؛ قاله آبن زيد . وقال مجاهد : بعث النبىّ صلى الله عليه وسلم قوما إلى البوادى ليعلموا الناس فلما نزلت هذه الآية خافوا ورجعوا؛ فأنزل الله : « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً » . وقال قتادة : كان هذا خاصًا بالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، إذا غزا بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر ؛ فأما غيره من الأئمة والولاة فلمن شاء أن يتخلف خَلْفَه من المسلمين إذا لم يكن بالناس حاجة إليه ولا ضرورة . وقول ثالث — أنها محكمة ؛ قال الوليد بن مسلم : سمعت الأوزاعىّ وابن المبارك والفَزَارىّ والسَّبِيعى وسعيد بن عبد العزيز يقولون فى هذه الآية إنها لأوّل هذه الأمة وآخرها .

قلت — قول قتادة حسن ؛ بدليل غَزاة تبوك ، والله أعلم .

السادســة — روى أبو داود عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لقـد تركتم بالمدينة أقواما ما سِرتم مَسيرًا ولا أنفقتم من نفقـة ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيـه " قالوا : يا رسول الله ، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة . ؟ قال : " حبسهم العذر " . خرّجه مسلم من حديث جابر قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة فقال : " إن بالمدينة لرجالا ما سِرتم مسيرا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم حبسهم المرض " . فأعطى صلى الله عليه وسـلم للمعذور من الأجر مثلَ ما أعطى للقوىّ العامل . وقد قال بعض النـاس : إنما يكون الأجر للمعـذور غير مضاعف ، و يضاعف للعامل المبـاشر . قال آبن العربىّ : وهذا تحكّم على الله تعالى وتضييق لسعَة رحمته ، وقد عاب بعض الناس فقال :

إنهم يُعطون الثواب مضاعفا قطعا، ونحن لا نقطع بالتضعيف فى موضع فإنه مبنىّ على مقدار النيات، وهذا أمر مُغَيَّب، والذى يُقطع به أن هناك تضعيفا وربّك أعلم بمن يستحقه .

قلت : الظاهر من الأحاديث والآى المساواة فى الأجر؛ منها قوله عليه السلام : " من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله " وقوله : " من توضأ وخرج إلى الصلاة فوجد الناس قد صلّوا أعطاه الله مثل أجر من صلاها وحضرها " . وهو ظاهر قوله تعالى : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » . وبدليل أن النية الصادقة هى أصل الأعمال، فإذا صحت فى فعل طاعة فعجز عنها صاحبها لمانع منع منها فلا بُعد فى مساواة أجر ذلك العاجز لأجر القادر الفاعل ويزيد عليه؛ لقوله عليه السلام : " نية المؤمن خير من عمله " . والله أعلم .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وهى أن الجهاد ليس على الأعيان وأنه فرض كفاية كما تقدّم؛ إذ لو نفر الكل لضاع مَن وراءهم من العيال، فليخرج فريق منهم للجهاد ولْيُقِم فريق يتفقّهون فى الدين ويحفظون الحريم، حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلّموه من أحكام الشرع، وما تجدّد نزوله على النبىّ صلى الله عليه وسلم . وهذه الآية ناسخة لقوله تعالى : « إِلَّا تَنْفِرُوا » وللآية التى قبلها؛ على قول مجاهد وابن زيد .

الثانيـــة — هذه الآية أصل فى وجوب طلب العلم؛ لأن المعنى : وما كان المؤمنون لينفروا كافّةً والنبىُّ صلى الله عليه وسلم مقيم لا ينفر فيتركوه وحده . ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ ﴾ بعد ما علموا أن النفير لا يسع جميعهم . ﴿ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ وتبقى بقيّتها مع النبىّ صلى الله

Marfat.com

عليه وسلم ليتحملوا عنه الدين ويتفقهوا ؛ فإذا رجع النافرون إليهم أخبروهم بما سمعوا وعلموه . وفى هذا إيجاب التفقه فى الكتاب والسنة، وأنه على الكفاية دون الأعيان . ويدلّ عليه أيضا قوله تعالى : « فَآسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »(١) . فدخل فى هذا من لا يعلم الكتاب والسنن .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ ﴾ قال الأخفش : أى فهلّا نفر . ﴿ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ الطائفة فى اللغة الجماعة ، وقد تقع على أقل من ذلك حتى تبلغ الرجلين ، وللواحد على معنى نفس طائفة . وقد تقدّم أن المراد بقوله تعالى : « إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً »(٢) رجل واحد . ولا شك أن المراد هنا جماعةٌ لوجهين؛ أحدهما عقلا، والآخر لغة . أما العقل فلأن العلم لا يتحصّل بواحد فى الغالب، وأما اللغة فقوله : « لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ » فجاء بضمير الجماعة . قال آبن العربى : والقاضى أبو بكر والشيخ أبو الحسن قبله يرون أن الطائفة هاهنا واحد ، ويَعْتضِدون(٣) فيه بالدليل على وجوب العمل بخبر الواحد ، وهو صحيح لا من جهة أن الطائفة تنطلق على الواحد ولكن من جهة أن خبر الشخص الواحد أو الأشخاص خبر واحد، وأن مقابله وهو التواتر لا ينحصر .

قلت : أنصّ ما يُستدلّ به على أن الواحد يقال له طائفة قوله تعالى : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا »(٤) يعنى نفسين . دليله قوله تعالى : « فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ »(٤) فجاء بلفظ التثنية، والضمير فى « اقتتلوا » وإن كان ضمير جماعة فأقلّ الجماعة آثنان فى أحد القولين للعلماء .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا ﴾ الضمير فى « لِيَتَفَقَّهُوا، وَلِيُنْذِرُوا » للقيمين مع النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ قاله قتادة ومجاهد . وقال الحسن : هما للفرقة النافرة؛ وآختاره الطبرى . ومعنى ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ أى يتبصّروا ويتيقّنوا بما يُريهم الله من الظهور على

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠٨ . (٢) راجع ص ١٩٨ من هذا الجزء . (٣) فى الأصول : « ويقضون به على وجوب العمل » الخ . والتصويب عن ابن العربى . (٤) راجع جـ ١٧ ص ٣١٥، ٣٢٢ .

المشركين ونُصرة الدين . ﴿ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ ﴾ من الكفار . ﴿ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ من الجهاد فيخبرونهــم بنصرة الله تعـالى نبيّه صلى الله عليه وسـلم والمؤمنين، وأنهم لا يَدانِ (١) لهم بقتالهم وقتال النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فينزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفار .

قلت : قول مجاهد وقتادة أبْيَن، أى لتتفقّه الطائفة المتأخّرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النفور فى السّرايا . وهذا يقتضى الحثّ على طلب العلم والندب إليه دون الوجوب والإلزام؛ إذ ليس ذلك فى قوة الكلام، وإنمـا لزم طلب العلم بأدلّته؛ قاله أبو بكر بن العربى .

الخامســـة ــ طلب العلم ينقسم قسمين : فرضٌ على الأعيان؛ كالصلاة والزكاة والصيام .

قلت ــ وفى هــذا المعنى جاء الحــديث المروِىّ " إن طلب العــلم فريضة " . روى عبد القدوس بن حبيب : أبو سـعيد الوُحَاظىّ (٢) عن حماد بن أبى سليمان عن إبراهيم النَّخَعِىّ قال سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " طلب العلم فريضة على كل مسلم " . قال إبراهيم : لم أسمع من أنس بن مالك إلا هذا الحديث .

وفرضٌ على الكفاية ؛ كتحصيل الحقوق (٣) وإقامة الحدود والفصل بين الخصوم ونحوه؛ إذ لا يصـلح (٤) أن يتعلّمه جميع النـاس فتضيع أحوالهم وأحوال سراياهم (٥) وتنقص أو تبطل معايشهم ؛ فتعيّن بين الحالين أن يقوم به البعض من غير تعيين، وذلك بحسب ما يسّره الله لعباده وقسّمه بينهم من رحمته وحكمته بسابق قدرته وكلمته .

السادســـة ــ طلب العلم فضيلة عظيمة ومرتبة شريفة لا يوازيها عمل؛ روى الترمذىّ من حديث أبى الدَّرْدَاء قال : سمعت رسول الله صــلى الله عليه وسـلم يقول : " من سلك طريقا يلتمس فيــه علما سـلك الله به طريقا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض والحيتان فى جوف المـاء وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليـلة البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثةُ الأنبيـاء وإن الأنبياء لم يُوَرِّثوا دينارا ولا درهما إنمـا ورّثوا العـلم فمن أخذ به أخذ بحـظ

(١) يقال : مالى بفلان يدان، أى طاقة .	(٢) عبد القدوس روى عن أبى سعيد كما فى الميزان .
(٣) كذا فى الأصول : جميعا .	(٤) فى هـ : يصح .	(٥) كذا فى ع . وفى ب و هـ و ك : سواهم .

Marfat.com

وافر". وروى الدارمى أبو محمد فى مسنده قال: حدثنا أبو المغيرة حدثنا الأوزاعى عن الحسن قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين كانا فى بنى إسرائيل، أحدهما كان عالما يصلّى المكتوبة ثم يجلس فيعلم الناس الخير. والآخر يصوم النهار ويقوم الليل، أيهما أفضل؟ قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: "فضل هذا العالم الذى يصلّى المكتوبة ثم يجلس فيعلم الناس الخير على العابد الذى يصوم النهار ويقوم الليل كفضلى على أدناكم". أسنده أبو عمر فى كتاب (بيان العلم) عن أبى سـعيد الخُدْرِى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: " فضـل العالم على العابد كفضلى على أمّتى". وقال ابن عباس: أفضـل الجهاد مَن بنَى مسجدا يعلَّم فيه القرآن والفقه والسـنة. رواه شُريك عن ليث بن أبى سليم عن يحيى بن أبى كثير عن علىّ الأزدى قال: أردت الجهاد فقال لى ابن عباس ألا أدلّك على ما هو خير لك من الجهاد، تأتى مسجدا فتقرئ فيه القرآن وتعلم فيه الفقه[1]. وقال الربيع سمعت الشافعى يقول: طلب العلم أوجب من الصلاة النافلة. وقوله عليه السلام: " إن الملائكة لتضع أجنحتها " الحديثَ يحتمل وجهين: أحدهما — أنها تعطف عليه وترحمه؛ كما قال الله تعالى فيما وصّى به الأولاد من الإحسان إلى الوالدين بقوله: «وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ»[2] أى تواضع لهما. والوجه الآخر — أن يكون المراد بوضع الأجنحة فرشها؛ لأن فى بعض الروايات " وإن الملائكة تفرش أجنحتها " أى إن الملائكة إذا رأت طالب العـلم يطلبه من وجهه ابتغاء مرضات الله وكانت سائر أحواله مشاكلة لطلب العـلم فرشت له أجنحتها فى رحلتـه وحملته عليها؛ فمن هناك يَسْلَم فلا يحفَى إن كان ماشيا ولا يَعْيَا، وتقرُب عليه الطريق البعيدة ولا يصـيبه ما يصيب المسافر من أنواع الضرر كالمرض وذهاب المـال وضلال الطريق. وقد مضى شىء من هـذا المعنى فى «آل عمران» عند قوله تعـالى: «شَهِدَ اللَّهُ» الآية[3]. روى عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحـق حتى تقوم السـاعة". قال يزيد بن هارون: إن لم يكونوا أصحـاب الحديث فلا أدرى من هم؟.

(١) فى ب: السنة (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٦ فما بعد. (٣) راجع جـ ٤ ص ٤٠.

قلت : وهذا قول عبد الرزاق فى تأويل الآية ، إنهم أصحاب الحديث ؛ ذكره الثعلبي .
سمعت شيخنا الأستاذ المقرئ النحوى المحدّث أبا جعفر أحمد بن محمد بن محمد القيسى القرطبي المعروف بابن أبي حجة رحمه الله يقول فى تأويل قوله عليه السـلام : "لا يزال أهل الغَرْب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة" إنهم العلماء؛ قال : وذلك أن الغرب لفظ مشترك يطلق على الدّلو الكبيرة وعلى مغـرب الشمس ، ويطـلق على فَيْضة من الدمع . فمعنى "لا يزال أهل الغَرب" أى لا يزال أهل فيض الدمع من خشية الله عن علم به وبأحكامه ظاهرين ؛ الحديث . قال الله تعـالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »(1) .

قلت : وهذا التأويل يَعْضُده قولُه عليه السلام فى صحيح مسلم : "من يُرِد الله به خيرا يفقهـه فى الدين ولا تزال عصابة من المسـلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة" . وظاهر هذا المساق أن أوله مرتبط بآخره . والله أعلم .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَـٰتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

فيـه مسألة واحدة ـــ وهو أنه سـبحانه عرّفهم كيفية الجهاد وأن الابتـداء بالأقرب فالأقرب من العدو ؛ ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرب ، فلما فرغ قصد الروم وكانوا بالشام . وقال الحسن : نزلت قبل أن يؤمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين ؛ فهى من التدريج الذى كان قبل الإسلام . وقال ابن زيد : المراد بهذه الآية وقتَ نزولها العربُ ، فلما فرغ منهم نزلت فى الروم وغيرهم : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ »(2) . وقد رُوى عن ابن عمر أن المراد بذلك الدَّيْلم . ورُوى عنـه أنه سئل بمن يبـدأ بالروم أو بالديلم ؟ فقال بالروم . وقال الحسن : هو قتال الدّيلم والترك والروم . وقال قتادة : الآية على العموم فى قتال الأقرب فالأقرب ، والأدنى فالأدنى .

(1) راجع جـ ١٤ ص . (2) راجع ص ١٠٩ من هذا الجزء .

Marfat.com

قلت : قول قتادة هو ظاهر الآية ، واختار ابن العربي أن يبدأ بالروم قبـل الديلم ؛ على ما قاله ابن عمر لثلاثة أوجه . أحدها — أنهم أهل كتاب ، فالحجة عليهم أكثر وآكد . الثاني — أنهم إلينا أقرب، أعني أهل المدينة . الثالث — أن بلاد الأنبياء في بلادهم أكثر فاستنقاذها منهم أوجب . والله أعلم .

﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ أي شـدّة وقوة وحمية . وروى الفضل عن الأعمش وعاصم « غَلْظة » بفتح الغين وإسكان اللام . قال الفرّاء : لغة أهل الحجاز وبني أسد بكسر الغين ؛ ولغة بني تميم « غُلظة » بضم الغين .

قوله تعالى : وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾

« ما » صلة، والمراد المنافقون . ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ﴾ قد تقدّم القول في زيادة الإيمـان ونقصانه في سورة « آل عمران » (١) . وقد تقـدّم معنى السورة في مقدّمة الكتاب (٢) ، فلا معنى للإعادة . وكتب الحسن إلى عمر بن عبـد العزيز (٣) « إن للإيمـان سننا وفرائض من استكملها فقد استكمل الإيمـان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان » قال عمر بن عبد العزيز : «فإن أعش فسأبيّنها لكم ، وإن أمت فما أنا على صُحبتكم بحريص» . ذكره البخاري . وقال ابن المبارك : لم أجد بُدًّا من أن أقول بزيادة الإيمـان ، وإلا رددت القرآن .

قوله تعالى : وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٨٠ . (٢) راجع جـ ١ ص ٦٥ .

(٣) الذي في البخاري : « وكتب عمر بن العزيز إلى عدي بن عدي ... » الخ ؛ فراجعه في كتاب الإيمـان .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾(١) أى شك وريب ونفاق . وقد تقدم . ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ أى شـكاً إلى شكهم وكفرا إلى كفرهم . وقال مقاتل : إثمـا إلى إثمهم ؛ والمعنى متقارب .

قوله تعـالى : أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ قراءة العامة بالياء، خبرا عن المنافقين . وقـرأ حمزة ويعقوب بالتـاء خبرا عنهم وخطابا للؤمنين . وقرأ الأعمش « أولم يروا » . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « أَوَلَا تَرَى » وهى قراءة ابن مسعود، خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم . و﴿ يُفْتَنُونَ ﴾ قال الطبرى : يختبرون . قال مجاهد : بالقحط والشدة . وقال عطيـة : بالأمراض والأوجاع ؛ وهى روائد الموت . وقال قتادة والحسن ومجاهد : بالغزو والجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم، ويرون ما وعد الله من النصر ﴿ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ ﴾ لذلك ﴿ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعـالى : وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ « ما » صلة ، والمراد المنافقون؛ أى إذا حضروا الرســول وهو يتلو قرآنا أنزل فيه فضيحتهم أو فضيحة أحد منهم جعـل ينظر بعضهم إلى بعض نظر الرّعْب على جهة التقرير؛ يقول : هـل يراكم من أحد إذا تكلمتم بهذا فينقله إلى محمد ؛ وذلك جهل منهم بنبوّته عليه السلام ، وأن الله يطلعه على ما يشاء من غيبه . وقيل : إن « نَظَرَ » فى هذه الآية بمعنى أنبأ . وحكى الطبرى عن بعضهم أنه قال : « نظر » فى هذه الآية موضع قال .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ انصَرَفُوا ﴾ أى انصرفوا عن طريق الاهتداء . وذلك أنهم حينما بيّن لهم كشف أسرارهم والإعـلام بمغيّبات أمورهم يقـع لهم لا محالة تعجّبٌ وتوقّف ونظر ،

(١) راجع جـ ١ ص ١٩٧ .

Marfat.com

فلو اهتدوا لكان ذلك الوقت مَظِنة لإيمانهم (١) ؛ فهم إذ يصممون على الكفر و يرتبكون فيه كأنهم آنصرفوا عن تلك الحال التي كانت مظنة النظر الصحيح والاهتداء، ولم يسمعوا قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم سَماعَ من يتدبره و ينظر في آياته ؛ « إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢) » . « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٣) » .

قوله تعالى : ﴿ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ دعاء عليهم ؛ أي قولوا لهم هذا . و يجوز أن يكون خبرا عن صرفها عن الخير مجازاةً على فعلهم . وهي كلمة يدعى بها ؛ كقوله : « قَاتَلَهُمُ اللهُ » والباء في قوله : « بِأَنَّهُمْ » صلة لـ « صرف » .

الثانيـة — قال آبن عباس : يكره أن يقال آنصرفنا من الصلاة؛ لأن قوما انصرفوا فصرف الله قلوبهم، ولكن قولوا قضينا الصلاة؛ أسنده الطبري عنه . قال ابن العربي : وهذا فيه نظر وما أظنه بصحيح ؛ فإن نظام الكلام أن يقال : لا يقل أحد انصرفنا من الصلاة؛ فإن قوما قيل فيهم : « ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ » . أخبرنا محمد بن عبد الملك القيسيّ الواعظ حدثنا أبو الفضل الجوهري سَماعا منه يقول : كنا في جنازة فقال المنذر بها : انصرفوا رحمكم الله ! فقال : لا يقل أحد انصرفوا فإن الله تعالى قال في قوم ذمّهم : « ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ » ولكن قولوا : انقلبوا رحمكم الله؛ فإن الله تعالى قال في قوم مدحهم : « فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ (٤) » .

الثالثـة — أخبر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أنه صارف القلوب ومصرفها وقالبها ومقلّبها ؛ ردّا على القدرية في اعتقادهم أن قلوب الخلق بأيديهم وجوارحهم بحكمهم، يتصرّفون بمشيئتهم و يحكمون بإرادتهم واختيارهم ؛ ولذلك قال مالك فيما رواه عنه أشهب : ما أبين هذا في الردّ على القدرية «لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ». وقوله عز وجل لنوح : « إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ (٥) » فهذا لا يكون أبدا ولا يرجع ولا يزول .

(١) ارتبك في الأمر إذا وقع فيه ونشب ولم يتخلص . (٢) راجع ٧ ص ٣٨٨ .
(٣) راجع جـ ١٦ ص ٢٤٥ . (٤) راجع جـ ٤ ص ٢٨٢ . (٥) راجع جـ ٩ ص ٢٩ .

Marfat.com

قوله تعـالى : لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

هاتان الآيتان فى قول أُبَىّ أقرب القرآن بالسماء عهدا . وفى قول سعيد بن جبير : آخر ما نزل من القرآن « وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ »(١) على ما تقدّم . فيحتمل أن يكون قول أبىّ : أقرب القرآن بالسماء عهدا بعد قوله : «وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ» . والله أعلم . والخطاب للعـرب فى قول الجمهور، وهـذا على جهة تعـديد النعمة عليهم فى ذلك؛ إذ جاء بلسانهم وبمـا يفهمونه ، وشُرِّفوا به غابر الأيام . وقال الزجاج : هى مخاطبة لجميع العـالم ؛ والمعنى : لقد جاءكم رسول من البشر، والأول أصوب . قال ابن عباس : ما من قبيلة من العرب إلا ولدت النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فكأنه قال : يامعشر العرب، لقد جاءكم رسول من بنى إسماعيل . والقول الثانى أوكد للحجة؛ أى هو بشر مثلكم لتفهموا عنه وتأتمّوا به .

قوله تعـالى : ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ يقتضى مدحا لنسب النبيّ صلى الله عليه وسلم وأنه من صميم العرب وخالصها . وفى صحيح مسلم عن واثلة بن الأسْقع قال : سمعت رســول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله ٱصطفى كِنانة من ولد إسماعيل وٱصطفى قريشا من كنانة وٱصطفى من قريش بنى هاشم وٱصطفانى من بنى هاشم " . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنى من نكاح ولست من سفاح " . معناه أن نسبه صلى الله عليه وسلم إلى آدم عليه السلام لم يكن النّسل فيه إلا من نكاح ، ولم يكن فيــه زِنًى . وقرأ عبــد الله بن قُسيط المـكى من « أنْفَسِكم » بفتح الفاء من النفاســة؛ ورويت عن النبيّ صــلى الله عليه وســلم وعن فاطمة رضى الله عنها ؛ أى جاءكم رسول من أشرفكم وأفضلكم ؛ من قولك : شىء نفيس إذا كان مرغوبا فيه . وقيل : من أنفسكم ؛ أى أكثركم طاعة .

(١) راجع جـ٣ ص ٣٥٠ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أى يعزُّ عليه مشقتكم . والعَنَت : المشقة، من قولهم : أَكَمَة عَنُوت إذا كانت شاقة مهلكة . وقال ابن الأنبارى : أصل التعنت التشديد، فإذا قالت العرب : فلان يتعنّت فلانا و يُعنته فمرادهم يشدّد عليه و يلزمه بما يصعب عليه أداؤه . وقد تقدّم فى « البقرة » (١) . « وما » فى « ماعَنِتُّمْ » مصدرية ، وهى آبتداء و « عَزِيزٌ » خبر مقدّم . ويجوز أن يكون « ما عنتم » فاعلا بعزيز ، و « عزيز » صفة للرسول ، وهو أصوب . وكذا « حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ » وكذا « رَءُوفٌ رَحِيمٌ » رفع على الصفة . قال الفراء : ولو قرئ عزيزا عليه ماعنتم حريصا رءوفا رحيما ، نصبا على الحال جاز . قال أبو جعفر النحاس : وأحسن ماقيل فى معناه مما يوافق كلام العرب ماحدّثنا أحمد بن محمد الأزدى قال حدّثنا عبد الله بن محمد الخزاعى قال سمعت عمرو بن علىّ يقول : سمعت عبد الله بن داود الخُرَيْبِى يقول فى قوله عز وجل : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ » قال : أن تدخلوا النار ، « حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ » قال : أن تدخلوا الجنة . وقيل : حريص عليكم أن تؤمنوا . وقال الفراء : شحيح بأن تدخلوا النار . والحرص على الشيء : الشُّحّ عليه أن يضيع و يتلف . ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ الرءوف : المبالغ فى الرأفة والشفقة . وقد تقدّم فى «البقرة» معنى « رَءُوفٌ رَحِيمٌ » مستوفًى (٢) . وقال الحسين بن الفضل : لم يجمع الله لأحد من الأنبياء آسمين من أسمائه إلا للنبىّ محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإنه قال : « بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » وقال : « إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » . وقال عبد العزيز بن يحيى : نظم الآية لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز حريص بالمؤمنين رءوف رحيم ، عزيز عليه ماعنتم لا يهمّه إلا شأنكم ، وهو القائم بالشفاعة لكم فلا تهتموا بما عَنِتم ما أقمتم على سنته؛ فإنه لا يرضيه إلا دخولكم الجنة .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ أى إن أعرض الكفار يا محمد بعد هذه النعم التى منّ الله عليهم بها فقل حسبى الله ؛ أى كافىّ الله تعالى ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى اعتمدت ، و إليه فوّضت جميع أمورى . ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ خصّ العرش

(١) راجع جـ ٣ ص ٦٦ . (٢) راجع جـ ١ ص ١٠٣ ، وجـ ٢ ص ١٥٣ ، ١٥٨

لأنه أعظم المخلوقات فيدخل فيــه ما دونه إذا ذكره . وقراءة العامة بخفض « العظيم » نعتا للعرش . وقرئ بالرفع صفة للرب، رُويت عن ابن كثير، وهى قراءة ابن مُحَيْصِن . وفى كتاب أبى داود عن أبى الدَّرْداء قال : من قال إذا أصبح وإذا أمسى حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات ، كفاه الله ما أهمه صادقا كان بها أو كاذبا . وفى نوادر الأصول عن بُريدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قال عشر كلمات عند دبر كل صلاة وجد الله عندهن مَكْفِيًّا مجْزِيًّا خمسٌ للدنيا وخمس للآخرة حسبى الله لدينى حسبى الله لدنياى حسبى الله لما أهمنى حسبى الله لمن بغى علىّ حسبى الله لمن حسدنى حسبى الله لمن كادنى بسوء حسبى الله عند الموت حسبى الله عنــد المساءلة فى القبر حسبى الله عند الميزان حسبى الله عنــد الصراط حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه أنيب" . وحكى النقاش عن أبىّ بن كعب أنه قال: أقرب القرآن عهدا بالله تعالى هاتان الآيتــان « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُــولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » إلى آخر السورة، وقد بينــاه . وروى يوسف ابن مِهران عن ابن عباس أن آخر ما نزل من القرآن « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » وهذه الآية، ذكره المــاوردى . وقد ذكرنا عن ابن عباس خلافه، على ما ذكرناه فى البقرة ، وهو أصح . وقال مقاتل : تقدّم نزولها بمكة . وهذا فيه بُعد؛ لأن السورة مدنيــة، والله أعلم . وقال يحيى بن جعدة : كان عمر بن الخطاب رضى الله عنــه لا يثبت آية فى المصحف حتى يشهد عليها رجلان؛ فجاءه رجل من الأنصار بالآيتين من آخر سورة براءة « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » فقال عمر : والله لا أسألك عليهما بينة ، كذلك كان النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ فأثبتهما . قال علمــاؤنا : الرجل هو خزيمة بن ثابت ، وإنمــا أثبتهما عمر رضى الله عنــه بشهادته وحده لقيام الدليل على صحتها فى صفة النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ فهى قرينة تغنى عن طلب شاهد آخر، بخلاف آية الأحزاب « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ » (١) فإن تلك ثبتت بشهادة زيد وخزيمة لسماعهما إياها من النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقد تقدم هــذا المعنى فى مقدّمة الكتاب . والحمد لله .

---

(١) راجع جـ ١٤ ص آية ٢٣ .

Marfat.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير ســورة يونس عليــه الســلام

سورة يونس عليه السلام مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ٱبن عباس : إلا ثلاث آيات من قوله تعالى : « فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ »(1) إلى آخرهن . وقال مقاتل : إلا آيتين وهى قوله : « فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ » نزلت بالمدينـة . وقال الكلبي : مكية إلا قوله : « وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ »(2) نزلت بالمدينة فى اليهود . وقالت فرقة : نزل من أولها نحوٌ من أربعين آية بمكة وباقيها بالمدينة .

قوله تعـالى : ٱلٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾

قوله تعـالى : ﴿ الٓر ﴾ قال النحاس : قرئ على أبى جعفر أحمـد بن شعيب بن على ابن الحسين بن حريث قال : أخبرنا على بن الحسين عن أبيه عن يزيد أن عكرمة حدّثه عن ٱبن عباس : الٓر ، وحمٓ ، ونون [حروف] الرحمن مفرّقة؛ فحدّثت به الأعمش فقال : عندك أشباه هذا ولا تخبرنى به ؟ . وعن ٱبن عبـاس أيضا قال : معنى « الٓر » أنا الله أرى . قال النحاس : ورأيت أبا إسحاق يميل إلى هذا القول؛لأن سيبويه قد حكى مثله عن العرب وأنشد:

بالخيـر خيراتٍ وإن شَرًّا فَا * ولا أريد الشـــرّ(3) إلا أنْ تَا

وقال الحسن وعكرمة : « الٓر » قَسَم . وقال سـعيد عن قتادة : « الٓر » اسم السورة ؛ قال : وكذلك كل هجاء فى القرآن . وقال مجاهد : هى فواتح السُّوَر . وقال محمد بن يزيد : هى تنبيه ، وكذا حروف التهجى . وقرئ « الر » من غير إمالة . وقرئ بالإمالة لئـلا تُشبه ما ولا من الحروف .

---

(1) راجع ص ٣٨٢ وص ٣٤٥ من هذا الجزء . (2) كذا فى نسخ الأصل وتفسير ابن عطية .

(3) أجزيك بالخير خيرات وإن كان منك شر كان منى مثله ولا أريد الشر إلا أن تشاء . (عن شرح الشواهد) .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ ابتداء وخبر ؛ أى تلك التى جرى ذكرها آيات الكتاب الحكيم . قال مجاهد وقتادة : أراد التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة ؛ فإن « تلك » إشارة إلى غائب مؤنث . وقيل : « تلك » بمعنى هذه ؛ أى هذه آيات الكتاب الحكيم . ومنه قول الأعشى :

تلك خَيْلِى منه وتلك رِكابى * هنّ صُفْرٌ أولادها كالزَّبيب

أى هذه خيلى . والمراد القرآن وهو أولى بالصواب ؛ لأنه لم يجر للكتب المتقدمة ذكر ، ولأن « الحكيم » من نعت القرآن . دليله قوله تعالى : « الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ »(١) وقد تقدم هذا المعنى فى أول سورة «البقرة»(٢). والحكيم : المُحْكَم بالحلال والحرام والحدود والأحكام ؛ قاله أبو عبيدة وغيره . وقيل : الحكيم بمعنى الحاكم ؛ أى إنه حاكم بالحلال والحرام ، وحاكم بين الناس بالحق ؛ فعيل بمعنى فاعل . دليله قوله : « وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ »(٣) . وقيل : الحكيم بمعنى المحكوم فيه ؛ أى حكم الله فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وحكم فيه بالنهى عن الفحشاء والمنكر ، وبالجنة لمن أطاعه وبالنار لمن عصاه ؛ فهو فعيل بمعنى المفعول ؛ قاله الحسن وغيره . وقال مقاتل : الحكيم بمعنى المُحْكَم من الباطل لا كذب فيه ولا اختلاف ؛ فعيل بمعنى مفعَل ، كقول الأعشى يذكر قصيدته التى قالها :

وغريبةٍ تأتى الملوكَ حكيمةٍ * قد قلتها ليقال من ذا قالها

قوله تعالى : أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

(١) راجع جـ ٩ ص ٢ .	(٢) راجع جـ ١ ص ١٥٧ وما بعدها .
(٣) راجع جـ ٣ ص ٣٠ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ استفهام معناه التقرير والتوبيخ . و « عَجَبًا » خبر كان ، واسمها ﴿ أَنْ أَوْحَيْنَا ﴾ وهو فى موضع رفع ؛ أى كان إيحاؤنا عجبا للناس . وفى قراءة عبد الله « عجب » على أنه آسم كان . والخبر « أَنْ أَوْحَيْنَا » . ﴿ إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ ﴾ قرئ «رَجْل» بإسكان الجيم . وسبب النزول فيما رُوى عن ابن عباس أن الكفار قالوا لما بُعث محمد : إن الله أعظمُ من أن يكون رسوله بشرا . وقالوا : ما وجد الله من يرسله إلا يتيمَ أبى طالب ؛ ونزلت : « أَكَانَ لِلنَّاسِ » يعنى أهل مكة « عَجَبًا » . وقيل : إنما تعجبوا من ذكر البعث .

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فى موضع نصب بإسقاط الخافض ؛ أى بأن أنذر الناس ، وكذا ﴿ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ . وقد تقدّم معنى النّذارة والبشارة[(1)] وغير ذلك من ألفاظ الآية . واختلف فى معنى « قَدَمَ صِدْقٍ » فقال آبن عباس : قدم صدق منزلَ صدق ؛ دليله قوله تعالى : «وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ»[(2)] . وعنه أيضا : أجرا حسنا بما قدّموا من أعمالهم . وعنه أيضا « قَدَمَ صِدْقٍ » سَبْق السعادة فى الذكر الأوّل ، وقاله مجاهد . الزجاج : درجة عالية . قال ذوالرُّمّة :

لكم قَدَمٌ لا ينكر الناس أنها ❊ مع الحسب العالى طَمّت[(3)] على البحر

قتادة : سلف صدق . الربيع : ثواب صدق . عطاء : مقام صدق . يَمَان : إيمان صدق . وقيل : دعوة الملائكة . وقيل : وَلَدٌ صالح قدّموه . الماوردىّ : أن يوافق صدق الطاعة صدق الجزاء . وقال الحسن وقتادة أيضا : هو محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه شفيع مطاع يتقدّمهم ؛ كما قال : "أنا فَرَطُكم[(4)] على الحوض" . وقد سئل صلى الله عليه وسلم فقال : "هى شفاعتى توسّلون بى إلى ربكم" . وقال الترمذىّ الحكيم : قدّمه صلى الله عليه وسلم فى المقام المحمود . وعن الحسن أيضا : مصيبتهم فى النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقال

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٨٤ وص ٢٣٨ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣١٢ .
(٣) فى ديوانه وتفسير الطبرى « العادى » . (٤) أى متقدّمكم إليه .

عبد العزيز بن يحيي: «قَدَمَ صِدْقٍ » قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ »(١) . وقال مقاتل : أعمالا قدّموها ؛ واختاره الطبري . قال الوضّاح :

صلِّ لذى العرش واتَّخـذ قَدَمًا * تُنْجيـك يوم العِثار والزّلل

وقيل : هو تقديم الله هذه الأمة فى الحشر من القبر وفى إدخال الجنـة . كما قال : " نحن الآخرون السابقون يوم القيامة المقضىّ لهم قبل الخلائق ". وحقيقته أنه كناية عن السعى فى العمل الصالح ؛ فكنّى عنه بالقَدَم كما يُكنّى عن الإنعام باليد وعن الثناء باللسان . وأنشد حسان :

لنـا القَدم العليـا إليك وخَلْفُنا * لأوّلنـا فى طاعـة الله تابـع

يريد السابقة بإخلاص الطاعة ، والله أعلم . وقال أبو عبيدة والكسائى : كل سابق من خير أو شر فهو عند العرب قَدَم ؛ يقال : لفلان قَدَم فى الإسـلام ، له عندى قَدَم صدقٍ وقَدَم شر وقَـدَم خير . وهو مؤنث وقد يذكر ؛ يقال : قَـدَم حَسَن وقدم صالحة . وقال ابن الأعرابى : القدم التقدّم فى الشرف ؛ قال العجّاج :

زلّ بنو العَوّام عن آل الحَـكَمْ * وتركوا المُلْك لملْك ذى قَـدَم

وفى الصحاح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لى خمسة أسماء . أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر وأنا الحاشر الذى يُحشر الناسُ على قدمى وأنا العاقب " يريد آخر الأنبياء ؛ كما قال تعالى : « وخَاتَمَ النَّبِيِّينَ »(٢) .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴾ قرأ ابن مُحَيْصِن وابن كثير والكوفيون عاصم وحمزة والكسائى وخلف والأعمش « لساحر » نعتا لرسول الله صلى الله عليـه وسـلم . وقرأ الباقون « لَسِحْرٌ » نعتا للقرآن وقد تقدّم معنى السحر فى « البقرة »(٣) .

قوله تعـالى : إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٤٥ . (٢) راجع جـ ١٤ ص (٣) راجع جـ ٢ ص ٤٣ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ تقدم فى الأعراف (١) . ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ قال مجاهد : يقضيه ويقدره وحده . ابن عباس : لايشركه فى تدبير خلقه أحد . وقيل : يبعث بالأمر . وقيل : ينزل به . وقيل : يأمر به ويمضيه؛ والمعنى متقارب . فجبريل للوحى ، وميكائيل للقطر، وإسرافيل للصور، وعزرائيل للقبض . وحقيقته تنزيل الأمور فى مراتبها على أحكام عواقبها ، واشتقاقه من الدُّبُر . والأمر اسم لجنس الأمور . ﴿ مَا مِنْ شَفِيعٍ ﴾ فى موضع رفع ، والمعنى ما شفيع ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ وقد تقدم فى « البقرة » (٢) معنى الشفاعة . فلا يشفع أحدٌ نبيٌّ ولا غيره إلا بإذنه سبحانه؛ وهذا ردّ على الكفار فى قولهم فيما عبدوه من دون الله : « هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ » (٣) فأعلمهم الله أن أحدا لا يشفع لأحد إلا بإذنه، فكيف بشفاعة أصنام لا تعقل .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ أى ذلكم الذى فعل هذه الأشياء من خلق السموات والأرض هو ربكم لا رب لكم غيره . ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴾ أى وحدوه وأخلصوا له العبادة . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى أنها مخلوقاته فتستدلوا بها عليه .

قوله تعالى : إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ رفع بالابتداء . ﴿ جَمِيعًا ﴾ نصب على الحال . ومعنى الرجوع إلى الله الرجوع إلى جزائه . ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾ مصدران ؛ أى وعد الله ذلك وعدا وحققه « حقا » صدقا لا خلف فيه . وقرأ إبراهيم بن أبى عبلة « وَعْدُ اللَّهِ حَقٌّ » على الاستئناف .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٨ . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٧٣ .
(٣) راجع ص ٣٢١ من هذا الجزء .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ﴾ أى من التراب . ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ إليه . مجاهد : ينشئه ثم يميته ثم يحييه للبعث ؛ أو ينشئه من المـاء ثم يعيده من حال إلى حال . وقرأ يزيد بن القعقاع « أَنَّهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ » تكون « أن » فى موضع نصب ؛ أى وعدكم أنه يبدأ الخلق . ويجوز أن يكون التقدير لأنه يبـدأ الخلق ؛ كما يقال : لَبَّيْكَ أنّ الحمـد والنعمة لك ؛ والكسر أجود . وأجاز الفرّاء أن تكون « أن » فى موضع رفع فتكون آسمـا . قال أحمد بن يحيى : يكون التقدير حقا إبداؤه الخلق .

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ﴾ أى بالعدل . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أى ماء حار قد انتهى حرّه ، والحميمة مثله . يقال : حَمَمْت المـاء أُحُمّه فهو حميم ، أى محموم ؛ فعيل بمعنى مفعول . وكلّ مُسَخَّن عند العرب فهو حميم . ﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى موجع ، يخلص وجعه إلى قلوبهم . ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أى بكفرهم ، وكان معظم قريش يعترفون بأن الله خالقهم ؛ فاحتج عليهم بهذا فقال : من قدر على الابتداء قدر على الإعادة بعد الإفناء أو بعد تفريق الأجزاء .

قوله تعـالى : هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِـيَاءً ﴾ مفعولان ، أى مضيئة ، ولم يؤنّث لأنه مصـدر ؛ أو ذات ضـياء ﴿ وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ عطف ، أى منـيرا ، أو ذا نور ، فالضياء ما يضىء الأشياء ، والنور ما يبين فيخفى ، لأنه من النار من أصل واحد . والضياء جمع ضوء ؛ كالسياط والحيـاض جمع سَوط وحَوض . وقرأ قُنْبُـل عن ابن كثير « ضِئَاءً » بهمز اليـاء ولا وجه له ؛ لأن ياءه كانت واوا مفتوحة وهى عين الفعل ، أصلها ضواء فقلبت وجعلت ياء كما جعلت فى الصيام والقيام . قال المهدوىّ : ومن قرأ ضئاء بالهمز فهو مقلوب ، قدّمت

Marfat.com

الهمزة التي بعد الألف فصارت قبل الألف فصار ضئايا ، ثم قلبت الياء همزة لوقوعها بعد ألف زائدة . وكذلك إن قدرت أن اليـاء حين تأخرت رجعت إلى الواو التي انقلبت عنها فإنها تقلب همزة أيضـا فوزنه فلاع مقلوب من فعال . ويقال : إن الشمس والقمر تضئ وجوههما لأهل السموات السبع وظهورهما لأهل الأرضين السبع .

قوله تعـالى : ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴾ أى ذا منازل، أو قدر له منازل . ثم قيـل : المعنى وقدرهما، فوحّد إيجازا واختصارا؛ كما قال : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا »(١) . وكما قال :

نحن بمـا عندنا وأنت بمـا ... عندك راضٍ والرأى مختلفُ

وقيـل : إن الإخبار عن القمر وحده ؛ إذ به تحصى الشهور التي عليهـا العمل في المعاملات ونحوها، كما تقدّم في « البقرة »(٢) . وفي سورة يس . « وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَـازِلَ »(٣) أى على عدد الشهر، وهو ثمانية وعشرون منزلا . ويومان للنقصان والمحاق(٤)، وهناك يأتى بيانه .

قوله تعـالى : ﴿ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ قال ابن عباس : لو جعل شمسين، شمسا بالنهار وشمسا بالليل ليس فيهما ظلمة ولا ليل، لم يُعلم عدد السنين وحسابُ الشهور . وواحد « السِّنين » سـنة، ومن العرب من يقول : سنوات في الجمع . ومنهم من يقول : سنهات . والتصغير سُنَيّة وسُنَيْهة .

قوله تعـالى : ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى ما أراد الله عز وجل بخـلق ذلك إلا الحكمةَ والصواب ، و إظهارا لصنعته وحكمته ، ودلالةً على قدرته وعلمه ، ولتجزى كل نفس بما كسبت؛ فهذا هو الحق .

قوله تعـالى : ﴿ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ تفصيل الآيات تبينها ليُستدلّ بها على قدرته تعالى ، لاختصاص الليل بظلامه والنهـار بضيائه من غير استحقاق لهما ولا إيجاب ؛

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٠٩ .
(٢) راجع جـ ٢ ص ٣٤١ وما بعدها .
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٩ .
(٤) المحاق (مثلثة) : آخر الشهر إذا امحق فلم ير .

Marfat.com

فيكون هذا لهم دليلا على أن ذلك بإرادة مريد . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب « يفصل » بالياء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لقوله من قبله : « مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ » وبعده « وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » فيكون متبعا له . وقرأ ابن السَّمَيْقع « تفصل » بضم التاء وفتح الصاد على الفعل المجهول، و « الآيات » رفعا . الباقون « نفصل » بالنون على التعظيم .

قوله تعالى : إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

تقدّم في « البقرة » وغيرها معناه[1]، والحمد لله . وقد قيل : إن سبب نزولها أن أهل مكة سألوا آية فردّهم إلى تأمل مصنوعاته والنظر فيها ؛ قاله ابن عباس . ﴿ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ أى الشرك؛ فأما من أشرك ولم يستدلّ فليست الآية له آية .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ « يرجون » يخافون؛ ومنه قول الشاعر[2]:

إذا لسعتْه النحل لم يَرْجُ لَسْعَها * وخالفها في بَيْت نُوبٍ عواسل

وقيل يرجون يطمعون؛ ومنه قول الآخر :

أيرجو بنو مروان سمعى وطاعتى * وقومى تميمٌ والفلاةُ ورائيا

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩١ . (٢) البيت لأبي ذؤيب . وقوله : « وخالفها » بالخاء المعجمة : جاء إلى عسلها وهى غائبة ترعى . ويروى « وحالفها » بالمهملة ، أى لازمها . والنوب : النحل : لأنها ترعى ثم تنوب إلى موضعها . ويروى : « عوامل » بدل « عواسل » وهى التى تعمل العسل والشمع . (عن شرح ديوان أبي ذؤيب) .

Marfat.com

فالرجاء يكون بمعنى الخوف والطمع ؛ أى لا يخافون عقابا ولا يرجون ثوابا . وجعل لقاء العذاب والثواب لقاء لله تفخيما لها . وقيل : يجرى اللقاء على ظاهره، وهو الرؤية؛ أى لا يطمعون فى رؤيتنا . وقال بعض العلماء : لا يقع الرجاء بمعنى الخوف إلا مع الجَحْد؛ كقوله تعالى : « مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا » (١) . وقال بعضهم : بل يقع بمعناه فى كل موضع دلّ عليه المعنى .

قوله تعـالى : ﴿ وَرَضُوا بِالْحَيَـاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى رَضُوا بها عوضا من الآخرة فعملوا لها . ﴿ وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ﴾ أى فرحوا بها وسكنوا إليها، وأصل اطمأن طأمن طُمأنينة، فقدّمت ميمه وزيدت نون وألف وصـل ؛ ذكره الغزنوى . ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا ﴾ أى عن أدلتنـا ﴿ غَافِلُونَ ﴾ لا يعتبرون ولا يتفكرون . ﴿ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ ﴾ أى مثواهم ومقامهم . ﴿ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى من الكفر والتكذيب .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا ﴾ أى صدّقوا . ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَـاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَـانِهِمْ ﴾ أى يزيدهم هداية ؛ كقـوله : « وَالَّذِينَ اهْتَـدَوْا زَادَهُمْ هُدًى » (٢) (٣) . وقيل : « يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ » إلى مكان تجرى من تحتهم الأنهار . وقال أبو رَوْق : يهديهم ربهم بإيمـانهم إلى الجنة . وقال عطية : « يَهْدِيهِمْ » يثيبهم ويجزيهم . وقال مجاهد : « يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ » بالنور على الصراط إلى الجنة، يجعل لهم نورا يمشون به . ويُروى عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم مايقوّى هذا أنه قال : " يتلقّى المؤمنَ عملُه فى أحسن صورة فيؤنسه ويهـديه ويتلقّ الكافرَ عملُه فى أقبح صورة فيوحشه ويضله " . هذا معنى الحديث . وقال آبن جريج : يجعل عملهم هاديا لهم . الحسن : « يهديهم » يرحمهم .

قوله تعـالى : ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ قيل : فى الكلام واو محذوفة، أى وتجرى من تحتهم، أى من تحت بساتينهم . وقيل : بين تحت أسِرّتهم؛ وهذا أحسن فى النزهة والفرجة .

(١) راجع جـ ١٩ ص ٣٠٣ . (٢) فى ب : يرزقهم . (٣) راجع جـ ١٦ ص ٢٣٨ .

Marfat.com

قوله تعالى : دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)

قوله تعالى : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ دعواهم : أى دعاؤهم ؛ والدعوى مصدر دعا يدعو ، كالشكوى مصدر شكا يشكو ؛ أى دعاؤهم فى الجنة أن يقولوا سبحانك اللهم وقيل : إذا أرادوا أن يسألوا شيئا أخرجوا السؤال بلفظ التسبيح و يختمون بالحمد . وقيل : نداؤهم الخدم ليأتوهم بما شاءوا ثم سبّحوا . وقيل : إن الدعاء هنا بمعنى التمنّى قال الله تعالى « وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ »(١) أى ماتتمنون . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ أى تحيّة الله لهم أو تحيّة الملَك أو تحيّة بعضهم لبعض : سلام . وقد مضى فى « النساء » معنى التحية مستوفى(٢) . والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قيل : إن أهل الجنة إذا مرّ بهم الطير واشتهوه قالوا : سبحانك اللهم ؛ فيأتيهم الملك بما اشتهوا ، فإذا أكلوا حمدوا الله فسؤالهم بلفظ التسبيح والختم بلفظ الحمد . ولم يحك أبو عبيد إلا تخفيف « أن » ورفع ما بعدها ؛ قال : وإنما نراهم آختاروا هذا وفرقوا بينها و بين قوله عز وجل : « أنّ لعنة الله » و « أنّ غضب الله » لأنهم أرادوا الحكاية حين يقال الحمد لله . قال النحاس : مذهب الخليل وسيبويه أن « أنْ » هذه مخففة من الثقيلة ، والمعنى أنه الحمد لله . قال محمد بن يزيد : و يجوز « أن الحمدَ لله » يعملها خفيفة عملها ثقيلة ؛ والرفع أقيس . قال النحاس : وحكى أبو حاتم أن بلال بن أبى بردة قرأ « وآخر دعواهم أنّ الحمدَ لله رب العالمين » .

قلت : وهى قراءة ابن مُحَيْصِن ، حكاها الغَزْنَوِىّ لأنه يحكى عنه .

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٤٣ .		(٢) راجع جـ ٥ ص ٢٩٧ .

Marfat.com

الثانيــة — التسبيح والحمـد والتهليل قد يُسمَّى دعاء ؛ روى مسلم والبخاري عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب : " لا إله إلا الله العظيم الحليم . لا إله إلا اللهُ ربُّ العرش العظيم . لا إله إلا الله ربّ السموات و ربُّ الأرض وربّ العرش الكريم " . قال الطبري : كان السلف يدعون بهذا الدعاء و يسمُّونه دعاء الكرب . وقال ابن عيينة وقد سئل عن هـذا فقال : أما علمت أن الله تعالى يقول " إذا شَغل عبدى ثناؤه عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين " . والذى يقطع النزاع وأن هذا يسمَّى دعاء و إن لم يكن فيه من معنى الدعاء شىء و إنما هو تعظيم لله تعالى وثناءٌ عليه ما رواه النَّسائى عن سعد ابن أبى وَقَّاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "دعوة ذى النُّون إذ دعا بها فى بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فإنه لن يدعُوَ بهـا مسلم فى شىء إلا آستجيب له " .

الثالثــة — من السُّنَّة لمن بدأ بالأكل أن يسمّىَ الله عنـد أكله وشربه ويحمَده عند فراغه اقتداء بأهل الجنـة ؛ وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : " إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمَده عليهـا أو يشرب الشَّربة فيحمده عليها " .

الرابعــة — يستحبّ للداعى أن يقول فى آخر دعائه كما قال أهل الجنة : وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ؛ وحَسُن أن يقرأ آخر «والصافات»(1) فإنها جمعت تنزيه البارئ تعـالى عما نسب إليه ، والتسليم على المرسلين، والختم بالحمد لله رب العالمين .

قوله تعـالى : وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

(1) راجع جـ ١٥ ص ١٤٠ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ ﴾ قيل : معناه ولو عجل الله للناس العقوبة كما يستعجلون الثواب والخير لماتوا ، لأنهم خلقوا في الدنيا خلقا ضعيفا ، وليس هم كذا يوم القيامة ؛ لأنهم يوم القيامة يخلقون للبقاء . وقيل : المعنى لو فعل الله مع الناس في إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم في إجابته إلى الخير لأهلكهم ؛ وهو معنى « لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ » . وقيل : إنه خاص بالكافر ؛ أي ولو يعجل الله للكافر العذاب على كفره كما عجّل له خير الدنيا من المال والولد لعجّل له قضاء أجله ليتعجل عذاب الآخرة ؛ قاله ابن إسحاق . مقاتل : هو قول النّضر بن الحارث : اللّهُمّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ؛ فلو عجّل لهم هذا لهلكوا . وقال مجاهد : نزلت في الرجل يدعو على نفسه أو ماله أو ولده إذا غضب : اللهم أهلكه ، اللهم لا تبارك له فيه والعنه ، أو نحو هذا ؛ فلو استجيب ذلك منه كما يستجاب الخير لقضى إليهم أجلهم . فالآية نزلت ذامّة لخُلُق ذميم هو في بعض الناس يدعون في الخير فيريدون تعجيل الإجابة ثم يحملهم أحيانا سوء الخلق على الدعاء في الشر ؛ فلو عجّل لهم لهلكوا .

الثانية — واختُلف في إجابة هذا الدعاء ؛ فروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إني سألت الله عز وجل ألّا يستجيب دعاء حبيب على حبيبه " . وقال شَهْر ابن حَوْشَب : قرأت في بعض الكتب أن الله تعالى يقول للملائكة الموكّلين بالعبد : لا تكتبوا على عبدي في حال ضجره شيئا ؛ لطفا من الله تعالى عليه . قال بعضهم : وقد يستجاب ذلك الدعاء ؛ واحتج بحديث جابر الذي رواه مسلم في صحيحه آخر الكتاب ، قال جابر : سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غَزْوَةِ بَطْنِ بُوَاطٍ (١) وهو يطلب المَجْدِيّ بن عمرو الجُهَنِيّ

---

(١) بواط (بضم أوله) : جبل من جبال جهينة بناحية رضوى (جبل بالمدينة عند ينبع) ، غزاه النبيّ صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأوّل في السنة الثانية من الهجرة يريد قريشا .

Marfat.com

وكان الناضح يَعْتَقِبه(١) منا الخمسة والستة والسبعة ، فدارت عُقبة رجلٍ من الأنصار على ناضح له فأناخه فركب ، ثم بعثه فتلدّن(٢) عليه بعض التلدن ؛ فقال له : شَأْ ؛ لعنك الله ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن هذا اللاعنُ بعيرَه" ؟ قال : أنا يا رسول الله ؛ قال : "انزل عنه ولا تصحبنا بملعون لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم ولا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعةً يُسأل فيها عطاءٌ فيستجيب لكم" .

في غير [كتاب(٣)] مسلم أن النبي صلى الله عليـه وسلم كان في سفر فلعن رجل ناقته فقال : "أين الذي لعن ناقته" ؟ فقال الرجل : أنا هذا يا رسول الله ؛ فقال : "أخّرها عنك فقد أُجبت فيهـا" ذكره الحُلَيمي في منهاج الدين . « شأ » يروى بالسين والشين ، وهو زجر للبعير بمعنى سِر .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ ﴾ قال العلمـاء : التعجيل من الله ، والاستعجال من العبد . وقال أبو عليّ : هما من الله ؛ وفي الكلام حذف ؛ أي ولو يعجل الله للنـاس الشر تعجيلا مثل استعجالهم بالخير ، ثم حذف تعجيلا وأقام صفته مقامه ، ثم حذف صفته وأقام المضاف إليه مقامه ؛ هذا مذهب الخليل وسيبويه . وعلى قول الأخفش والفراء كاستعجالهم ، ثم حذف الكاف ونصب . قال الفراء : كما تقول ضربت زيدا ضربك ، أي كضربك . وقرأ ابن عامر « لَقَضَى إليهم أجلهم » . وهي قراءة حسنة ؛ لأنه متصـل بقوله « وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ » .

قوله تعالى : ﴿ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ أي لا يعجل لهم الشر فربمـا يتوب منهم تائب ، أو يخرج من أصلابهم مؤمن . ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي يتحيرون . والطغيان : العلو والارتفاع ؛ وقد تقدم في « البقرة(٤) » . وقد قيل : إن المراد بهذه الآية أهل مكة ، وإنها نزلت حين قالوا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ(٥) » الآية ، على ما تقدم والله أعلم .

---

(١) أي يتعاقبونه في الركوب واحد بعد واحد . والعقبة : النوبة . (٢) تلدن : تلكأ وتوقف ولم ينبعث .
(٣) من ع وه . (٤) راجع جـ ١ ص ٢٠٩ . (٥) جـ ٧ ص ٣٩٨ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ﴾ قيل : المراد بالإنسان هنا الكافر، قيل : هو أبو حذيفة بن المغيرة المشرك، تصيبه البأساء والشدّة والجهد(١) . ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ﴾ أى على جنبه مضطجعا . ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ وإنما أراد جميع حالاته ؛ لأن الإنسان لا يعدو إحدى هذه الحالات الثلاثة . قال بعضهم : إنما بدأ بالمضطجع لأنه بالضر أشدّ فى غالب الأمر، فهو يدعو أكثر، واجتهاده أشدّ، ثم القاعد ثم القائم . ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ﴾ أى استمر على كفره ولم يشكر ولم يتعظ .

قلت : وهذه صفة كثير من المخلطين الموحدين ، إذا أصابته العافية مرّ على ما كان عليه من المعاصى؛ فالآية تعمّ الكافر وغيره . ﴿كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا﴾ قال الأخفش : هى « كأنّ » الثقيلة خُفّفت، والمعنى كأنه؛ وأنشد :

وَىْ كأنْ مَن يكن له نَشَبٌ يُحْـ * ـبَبْ ومن يفتقر يعش عيش ضُرِّ(٢)

﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ﴾ أى كما زين لهذا الدعاءُ عند البلاء والإعراض عند الرخاء. ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أى للمشركين أعمالهم من الكفر والمعاصى . وهذا التزيين يجوز أن يكون من الله ، ويجوز أن يكون من الشيطان، وإضلاله دعاؤه إلى الكفر .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ يعنى الأمم الماضية من قبل أهل مكة أهلكناهم . ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أى كفروا وأشركوا . ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾

(١) فى ع : الضراء . (٢) البيت لزيد بن عمرو بن نفيل ؛ فراجعه فى خزانة الأدب فى الشاهد الثامن والسبعين بعد الأربعمائة .

Marfat.com

أى بالمعجزات الواضحات والبراهين النيرات . ﴿ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ أى أهلكناهم لعلمنا أنهم لا يؤمنون . يخوّف كفار مكة عذاب الأمم المـاضية ؛ أى نحن قادرون على إهلاك هؤلاء بتكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسـلم ، ولكن نمهلهم لعلمنا بأن فيهم مَن يؤمن ، أو يخرج من أصلابهم من يؤمن . وهـذه الآية تردّ على أهل الضلال القائلين بخلق الهُدَى والإيمـان . وقيل : معـنى « مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا » أى جازاهم على كفرهم بأن طبـع على قلوبهم ؛ ويدلّ على هذا أنه قال : ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

قوله تعـالى : ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْـدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ ﴾ مفعولان . والخلائف جمع خليفة، وقد تقدّم آخر «الأنعام» (١) أى جعلناكم سكانا فى الأرض. ﴿ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى من بعد القرون المهلكة . ﴿ لِنَنْظُرَ ﴾ نصب بلام كَىْ، وقد تقدّم نظائره وأمثاله؛ أى ليقع منكم ما تستحقون به الثواب والعقاب، ولم يزل يعلمه غيبا . وقيل : يعاملكم معاملة المختبر إظهارا للعدل . وقيل : النظر راجع إلى الرسـل ؛ أى لينظر رسلنا وأولياؤنا كيف أعمالكم . و« كيف » نصب بقوله : تعملون : لأن الاستفهام له صدر الكلام فلا يعمل فيه ما قبله .

قوله تعـالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٨ .

Marfat.com

فيــه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ « تتلى » تقرأ ، و ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ نصب على الحال ؛ أى واضحات لا لبس فيها ولا إشـكال . ﴿ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ يعـنى لا يخافون يوم البعث والحساب ولا يرجون الثواب . قال قتادة : يعنى مشركى أهل مكة . ﴿ ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ والفرق بين تبديله والإتيان بغيره أن تبديله لا يجـوز أن يكون معه ، والإتيان بغيره قد يجوز أن يكون معه ؛ وفى قولهم ذلك ثلاثة أوجه :

أحدها ــ أنهم سألوه أن يحـوّل الوعد وعيدا والوعيد وعدا ، والحلال حراما والحرام حلالا ؛ قاله ابن جرير الطبرى .

الثـانى ــ سألوه أن يسقط ما فى القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم ؛ قاله ابن عيسى .

الثـالث ــ أنهم سألوه إسقاط مافيه من ذكر البعث والنشور؛ قاله الزجاج .

الثانيــة ــ قوله تعـالى : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي ﴾ أى قل يا محمد ما كان لى . ﴿ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ﴾ ومن عندى ، كما ليس لى أن ألقاه بالردّ والتكذيب . ﴿ إِنْ أَتَّبِـعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ أى لا أتبـع إلا ما أتلوه عليكم من وعد ووعيد ، وتحريم وتحليل ، وأمر ونهى . وقد يستدلّ بهذا من يمنـع نسخ الكتاب بالسنة ؛ لأنه تعـالى قال : « قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي » وهذا فيه بعد؛ فإن الآية وردت فى طلب المشركين مثل القرآن نظما، ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسـلم قادرا على ذلك ، ولم يسألوه تبديل الحكم دون اللفظ ؛ ولأن الذى يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم إذا كان وحيًا لم يكن من تلقاء نفسه، بل كان من عند الله تعـالى .

الثالثــة ــ قوله تعـالى : ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ أى إن خالفت فى تبديله وتغييره أو فى ترك العمل به . ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يعنى يوم القيامة .

Marfat.com

قوله تعالى : قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ أى لو شاء الله ما أرسلنى إليكم فتلوت عليكم القرآن، ولا أعلمكم الله ولا أخبركم به؛ يقال : دَرَيْتُ الشيءَ وأدرانى الله به، ودرّيته ودريت به . وفى الدارية معنى الختل ؛ ومنه دريت الرجل أى ختلته، ولهذا لا يطلق الدارى فى حق الله تعالى وأيضا عدم فيه التوقيف . وقرأ ابن كثير : « ولأدراكم به » بغير ألف بين اللام والهمزة؛ والمعنى : لو شاء الله لأعلمكم به من غير أن أتلوه عليكم؛ فهى لام التأكيد دخلت على ألف أفعل . وقرأ ابن عباس والحسن « ولا أدراتكم به » بتحويل الياء ألفا[1]، على لغة بنى عقيل؛ قال الشاعر :

لعمرك ما أخشى التّصعلك ما بقى * على الأرض قيْسِىٌّ يسوق الأباعرا

وقال آخر :

ألا آذنتْ أهلَ اليمامة طيّئٌ * بحرب كاصات الأغرّ المشهّر

قال أبو حاتم : سمعت الأصمعىّ يقول سألت أبا عمرو بن العلاء : هل لقراءة الحسن « ولا أدراتكم به » وجه؟ فقال لا . وقال أبو عبيد : لا وجه لقراءة الحسن « ولا أدراتكم به » إلا الغلط . قال النحاس : معنى قول أبى عبيد : لا وجه، إن شاء الله على الغلط ؛ لأنه يقال : دريت أى علمت، وأدريت غيرى، ويقال : درأت أى دفعت؛ فيقع الغلط بين دريت ودرأت . قال أبو حاتم : يريد الحسن فيما أحسب «ولا أدريتكم به» فأبدل من الياء ألفا على لغة بنى الحارث بن كعب، يبدلون من الياء ألفا إذا انفتح ما قبلها ؛ مثل : « إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ »[2] . قال المهدوىّ : ومن قرأ « أدرأتكم » فوجهه أن أصل الهمزة ياء، فأصله « أدريتكم » فقلبت الياء ألفا وإن كانت ساكنة؛ كما قال : يابس فى يَيْس وطايىء فى طيىء، ثم قلبت الألف

(١) أى أن الأصل : « أدريتكم » .

(٢) راجع جـ ١١ ص ٢١٥ فما بعد .

Marfat.com

همزة على لغة من قال فى العالم العألم وفى الخاتم الخأتم . قال النحاس : وهذا غلط ، والرواية عن الحسن « ولا أدرأتكم » بالهمزة ، وأبو حاتم وغيره تكلّم أنه بغير همز ، ويجوز أن يكون من درأت أى دفعت ؛ أى ولا أمرتكم أن تدفعوا فتتركوا الكفر بالقرآن .

قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا ﴾ ظرف، أى مقدارا من الزمان وهو أربعون سنة . ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل القرآن ، تعرفوننى بالصدق والأمانة ، لا أقرأ ولا أكتب ، ثم جئتكم بالمعجزات . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أن هذا لا يكون إلا من عند الله لا من قِبلى . وقيل : معنى « لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرا » أى لبثت فيكم مدّة شبابى لم أعص الله ، أفتريدون منى الآن وقد بلغت أربعين سنة أن أخالف أمر الله ، وأغيّر ما ينزله علىّ . قال قتادة : لبث فيهم أربعين سنة ، وأقام سنتين يرى رؤيا الأنبياء ، وتُوفّى صلى الله عليه وسلم وهو ابن اثنتين وستين سنة .

قوله تعالى : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

هذا استفهام بمعنى الجَحْد ؛ أى لا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب ، وبدّل كلامه وأضاف شيئا إليه مما لم ينزله . وكذلك لا أحد أظلمُ منكم إذا أنكرتم القرآن وافتريتم على الله الكذب ، وقلتم ليس هذا كلامه . وهذا مما أُمر به الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم . وقيل : هو من قول الله ابتداء. وقيل : المُفْتَرِى المشركُ ، والمكذِّب بالآيات أهلُ الكتاب . ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَيَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ يريد الأصـنام . ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُـفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ﴾ وهذه غاية الجهالة منهم ؛ حيث ينتظرون الشـفاعة فى المـآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضر فى الحال . وقيل : « شُفَعَاؤُنَا » أى تشفع لنا عند الله فى إصلاح معائشنا فى الدنيا . ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَـا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ قراءة العامة « تنبئون » بالتشديد . وقرأ أبو السَّمَّال العَدَوِىّ « أتنبئون الله » مخففا ، من أنبأ ينبئ . وقراءة العامة من نبّأ ينبّئ تنبئة ؛ وهما بمعنًى واحد ، جمعهما قوله تعالى : « مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ »[١] أى أتخبرون الله أن له شريكا فى ملكه أو شفيعا بغير إذنه ، والله لا يعلم لنفسه شريكا فى السموات ولا فى الأرض ؛ لأنه لا شريك له فلذلك لا يعلمه . نظيره قوله : « أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ »[٢] ثم نزّه نفسه وقدّسها عن الشرك فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّـا يُشْرِكُونَ ﴾ أى هو أعظم من أن يكون له شريك . وقيل : المعنى أى يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يميّز[٣] « وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ » فيكذبون ؛ وهل يتهيأ لكم أن تنبئوه بمـا لا يعـلم ، سبحانه وتعالى عما يشركون ! . وقرأ حمزة والكسائى « تشركون » بالتاء ، وهو اختيار أبى عبيد . الباقون بالياء .

قوله تعـالى : وَمَا كَانَ النَّـاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

تقدّم فى « البقرة »[٤] معناه فلا معنى للإعادة . وقال الزجاج : هم العرب كانوا على الشرك . وقيل : كل مولود يولد على الفطرة ، فاختلفوا عند البلوغ . ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ إشارة إلى القضاء والقدر ؛ أى لولا ما سبق فى حكمه أنه لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون القيامة لقضى بينهم فى الدنيـا ، فأدخل المؤمنين الجنة بأعمالهم والكافرين النار بكفرهم ، ولكنه سبق من الله الأجل مع علمه بصنيعهم فجعل

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٨٦ فما بعد .
(٢) راجع جـ ٩ ص ٣٢٢ فما بعد .
(٣) فى ب و ع و هـ : ما لا يشفع ولا ينصر .
(٤) راجع جـ ٣ ص ٣٠ .

Marfat.com

موعدهم القيامة؛ قاله الحسن . وقال أبو رَوْق : «لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ» لأقام عليهم الساعة . وقيل : لفرغ من هلاكهم . وقال الكلبي : « الكلمة » أن الله أخّر هذه الأمة فلا يهلكهم بالعذاب في الدنيا إلى يوم القيامة ، فلولا هــذا التأخير لقضى بينهم بنزول العذاب أو بإقامة الساعة . والآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم في تأخير العذاب عمن كفر به . وقيل : الكلمة السابقة أنه لا يأخذ أحدا إلا بحجة وهو إرسال الرســل ؛ كما قال : « وَمَا كُنَّا مُعَــذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١) » وقيل : الكلمة قوله : " سبقت رحمتي غضبي " ولولا ذلك لمــا أخر العصاة إلى التوبة . وقرأ عيسى « لقضى » بالفتح .

قوله تعــالى : وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

يريد أهل مكة ؛ أي هلّا أنزل عليه آية ، أي معجزة غير هذه المعجزة ، فيجعل لنا الجبال ذهبا و يكون له بيت من زُخرف ، ويُحيي لنا من مات من آبائنا . وقال الضحاك : عصا كعصا موسى . ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ أي قل يا محمد إن نزول الآية غيب . ﴿ فَانْتَظِـرُوا ﴾ أي تربصوا . ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ لنزولها . وقيل : انتظروا قضاء الله بيننا بإظهار المحق على المبطل .

قوله تعــالى : وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّــاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُــمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَــا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُــرُونَ ﴿٢١﴾

يريد كفار مكة . ﴿ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ ﴾ قيل : رخاء بعد شدّة ، وخصب بعد جدب . ﴿ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾ أي استهزاء وتكذيب . وجواب قوله : «وَإِذَا أَذَقْنَا » : « إِذَا لَهُمْ » على قول الخليل وسيبويه . ﴿ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ مَكْرًا ﴾ على البيان ،

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٠ .

Marfat.com

أى أعجل عقوبة على جزاء مكرهم، أى أن ما يأتيهم من العذاب أسرع فى إهلاكهم مما أتوه من المكر . ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ يعنى بالرسل الحفظة . وقراءة العامة « تمكرون » بالتاء خطابا . وقرأ يعقوب فى رواية رُوَيْس وأبو عمرو فى رواية هارون العَتَكي « يمكرون » بالياء؛ لقوله : « إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا » قيل : قال أبو سفيان قُحِطنا بدعائك فإن سقيتنا صدقناك ؛ فسُقُوا باستسقائه صلى الله عليه وسلم فلم يؤمنوا ، فهذا مكرهم .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ أى يحملكم فى البر على الدواب وفى البحر على الفُلْك . وقال الكلبي : يحفظكم فى السير . والآية تتضمن تعديد النّعم فيما هى الحال بسبيله من ركوب الناس الدوابّ والبحر . وقد مضى الكلام فى ركوب البحر فى « البقرة »(١) . و﴿ يُسَيِّرُكُمْ ﴾ قراءة العامة . ابن عامر « ينشركم » بالنون والشين، أى يبثّكم ويفرّقكم . والفُلْك يقع على الواحد والجمع، ويذكر ويؤنث، وقد تقدّم القول فيه(١) . وقوله : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ خروج من الخطاب إلى الغيبة، وهو فى القرآن وأشعار العرب كثير؛ قال النابغة :

يا دار ميّة بالعَلْياء فالسّند ٭ أقوَت وطال عليها سالف الأمَد

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ .

قال ابن الأنبارى : وجائز فى اللغة أن يرجع من خطاب الغيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب ؛ قال الله تعالى : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً »(١) فأبدل الكاف من الهاء .

قوله تعالى : ﴿ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا ﴾ تقدّم الكلام فيها فى البقرة(٢) . ﴿ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ الضمير فى «جاءتها» للسفينة . وقيل للريح الطيبة . والعاصف الشديدة؛ يقال: عصفت الريح وأعصفت، فهى عاصف ومُعْصِف ومُعْصِفة أى شديدة، قال الشاعر :

حتى إذا أعصفت ريح مُزَعزِعة * فيها قطار ورعد صوته زَجِل

وقال «عاصف» بالتذكير لأن لفظ الريح مذكر، وهى القاصف أيضا . والطيبة غير عاصف ولا بطيئة . ﴿ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ والموج ما ارتفع من الماء ﴿ وَظَنُّوا ﴾ أى أيقنوا ﴿ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ أى أحاط بهم البلاء؛ يقال لمن وقع فى بلية : قد أحيط به، كأن البلاء قد أحاط به ؛ وأصل هذا أن العدوّ إذا أحاط بموضع فقد هلك أهله . ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أى دعوه وحده وتركوا ما كانوا يعبدون . وفى هذا دليل على أن الخلق جُبِلوا على الرجوع إلى الله فى الشدائد، وأن المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافرا؛ لانقطاع الأسباب ورجوعه إلى الواحد رب الأرباب ؛ على ما يأتى بيانه فى « النمل » إن شاء الله تعالى(٣) . وقال بعض المفسرين : إنهم قالوا فى دعائهم أهيا شراهيا ؛ أى يا حى يا قيوم . وهى لغة العجم .

مسألة — هذه الآية تدلّ على ركوب البحر مطلقا ، ومن السّنة حديثُ أبى هريرة وفيه : إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء ... الحديث . وحديث أنس فى قصة أم حرام يدلّ على جواز ركوبه فى الغَزْوِ، وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة »(٢) مستوفى والحمد لله . وقد تقدّم فى آخر « الأعراف » حكم راكب البحر فى حال ارتجاجه وغليانه ، هل حكمه حكم الصحيح أو المريض المحجور عليه؛ فتأمله هناك(٤) .

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ١٤١ فما بعد . (٢) راجع جـ ٢ ص ٢٩٧ وص ١٩٥ .
(٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٢٣ . (٤) راجع جـ ٧ ص ٣٤١ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِ ﴾ أى من هذه الشدائد والأهوال . وقال الكلبي: من هـذه الريح . ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أى من العاملين بطاعتك على نعمة الخلاص . ﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ ﴾ أى خلّصهم وأنقذهم . ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى يعملون فى الأرض بالفساد و بالمعاصى . والبغى : الفساد والشرك ؛ من بَغَى الجرحُ إذا فسد ؛ وأصله الطلب ، أى يطلبون الاستعلاء بالفساد. «بِغَيْرِ الْحَقِّ» أى بالتكذيب ؛ ومنه بَغَت المرأةُ طلبت غير زوجها .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى وَبَالُه عائد عليكم ؛ وتمّ الكلام ، ثم ابتـدأ فقال : ﴿ مَتَاعُ[(١)] الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى هو متاع الحيـاة الدنيا ؛ ولا بقاء له . قال النحاس : « بَغْيُكُمْ » رفع بالابتداء وخبره « مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » . و « على أنفسكم » مفعول معنى فعـل البَغْى . و يجوز أن يكون خبره « عَلَى أَنْفُسِكُمْ » وتضمر مبتـدأ ، أى ذلك متاع الحياة الدنيا ، أو هو متاع الحياة الدنيا ؛ و بين المعنيين حرف[(٢)] لطيف ، إذا رفعت متاعا على أنه خبر « بغيكم » فالمعنى إنما بغى بعضكم على بعض ؛ مثل : « فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ » وكذا «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » . و إذا كان الخبر «عَلَى أَنْفُسِكُمْ» فالمعنى إنما فسادكم راجع عليكم ؛ مثل « وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا » . وروى عن سفيان بن عيينة أنه قال : أراد أن البغى متاع الحياة الدنيا ، أى عقوبته تعجل لصاحبه فى الدنيا ؛ كما يقال : البَغْيُ مَصْرعةٌ . وقرأ ابن أبى إسحاق « مَتَاعَ » بالنصب على أنه مصدر ؛ أى تُمتَّعون متاعَ الحياة الدنيا . أو بنزع الخافض ، أى لمتاع ، أو مصدر ، بمعنى المفعول على الحال ، أى متمتعين . أوهو نصب على الظرف ، أى فى متاع الحياة الدنيا ، ومتعلق الظرف والجار والحال معنى الفعل فى البغى . و «عَلَى أَنْفُسِكُمْ» مفعول ذلك المعنى .

قوله تعالى : إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

(١) قراءة الجمهور الضم ، والفتح قراءة حفص و بعض . (٢) حرف : كذا فى الأصول أى ميل قليل أو تغير قليل .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ معنى الآية التشبيه والتمثيل ، أى صفة الحياة الدنيـا فى فنائها وزوالها وقلة خطرها والملاذ بها كماء ؛ أى مثل ماء ، فالكاف فى موضع رفع . وسيأتى لهذا التشبيه مزيد بيان فى «الكهف»(١) إن شاء الله تعالى . « أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ » نعت لـ « ماء » . ﴿ فَاخْتَلَطَ ﴾ روى عن نافع أنه وقف على « فَاخْتَلَطَ » أى فاختلط المـاء بالأرض ، ثم ابتدأ « بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ » أى بالمـاء نبات الأرض ، فأخرجت ألوانا من النبات ، فنبات على هـذا ابتداء ، وعلى مذهب من لم يقف على « فَاخْتَلَطَ » مرفوع باختلط ؛ أى اختلط النبات بالمطر ، أى شرب منـه فتندّى وحَسُن واخضرّ . والاختلاط تداخل الشيء بعضه فى بعض .

قوله تعـالى : ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ ﴾ من الحبوب والثمـار والبقول . ﴿ وَالْأَنْعَامُ ﴾ من الكلإ والتبن والشـعير . ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ أى حسنها وزينتها . والزخرف كمال حسن الشيء ، ومنه قيل للذهب : زخرف . ﴿ وَازَّيَّنَتْ ﴾ أى بالحبوب والثمار والأزهار ؛ والأصل تزينت أدغمت التاء فى الزاى وجيء بألف الوصـل ؛ لأن الحرف المدغم مقام حرفين الأول منهما ساكن والساكن لا يمكن الابتـداء به . وقرأ ابن مسعود وأبىّ ابن كعب « وتزينت » على الأصل . وقرأ الحسن والأعرج وأبو العالية « وأَزْيَنَت » أى أتت بالزينة عليها ، أى الغَلّة والزرع ؛ وجاء بالفعل على أصله ولو أعلّه لقال وازانت . وقال عوف ابن أبى جميـلة الأعرابى : قرأ أشياخنا « وازْيانّت » وزنه اسوادّت . وفى رواية المُقَدّمى « وازّاينت » والأصل فيه تزاينت ، وزنه تقاعست ثم أدغم . وقرأ الشعبىّ وقتادة « وأزْينت » مثل أفعلت . وقرأ أبو عثمان النَّهدِىّ « وازْيَنّت » مثل افعلت ، وعنه أيضا « وازيانت » مثل افعالت ، وروى عنه « ازيانت » بالهمزة ؛ ثلاث قراءات .

قوله تعـالى : ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا ﴾ أى أيقن . ﴿ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴾ أى على حصادها والانتفاع بهـا ؛ أخبر عن الأرض والمعنِيّ النبات إذ كان مفهوما وهو منهـا . وقيل : ردّ

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤١٢ .

Marfat.com

إلى الغلة، وقيل: إلى الزينة. ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا، أو أمرنا بهلاكها. ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ ظرفان. ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ مفعولان، أي محصودة مقطوعة لا شيء فيها. وقال «حصيدًا» ولم يؤنّث لأنه فعيل بمعنى مفعول. قال أبوعبيد: الحصيد المستأصَل. ﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ أي لم تكن عامرة؛ من غَنِيَ إذا أقام فيه وعمره. والمغاني في اللغة: المنازل التي يعمرها الناس. وقال قتادة: كأن لم تنعم. قال لبيد:

وغَنِيتُ سَبْتًا قبل مَجْرَى داحِسٍ * لو كان للنفس اللَّجُوجِ خلودُ[1]

وقراءة العامة «تَغْنَ» بالتاء لتأنيث الأرض. وقرأ قتادة «يغن» بالياء، يذهب به إلى الزخرف؛ يعني فكما يهلك هذا الزرع هكذا كذلك الدنيا. ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي نبيّنها. ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في آيات الله.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢٥)

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ لما ذكر وصف هذه الدار وهي دار الدنيا وصف الآخرة فقال: إن الله لا يدعوكم إلى جمع الدنيا بل يدعوكم إلى الطاعة لتصيروا إلى دار السلام، أي إلى الجنة. قال قتادة والحسن: السلام هو الله، وداره الجنة؛ وسميت الجنة دار السلام لأن من دخلها سلم من الآفات. ومن أسمائه سبحانه «السلام»، وقد بيناه في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى). ويأتي في سورة «الحشر»[2] إن شاء الله. وقيل: المعنى والله يدعو إلى دار السلامة. والسلام والسلامة بمعنًى كالرضاع والرضاعة؛ قاله الزجاج. قال الشاعر:

تُحَيِّي بالسلامة أمُّ بكرٍ * وهل لكِ بعد قومِك من سلامِ

(١) السبت: البرهة من الدهر. وداحس: اسم الفرس.
(٢) راجع جـ ١٨ ص ٤٥.

وقيل : أراد والله يدعو إلى دار التحية ؛ لأن أهلها ينالون من الله التحية والسلام ، وكذلك من الملائكة . قال الحسن : إن السـلام لا ينقطع عن أهل الجنة ، وهو تحيتهم؛ كما قال : « وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ » . وقال يحيى بن معاذ : يابن آدم ، دعاك الله إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه ، فإن أجبته من دنياك دخلتها ، و إن أجبته من قبرك مُنِعتها . وقال ابن عباس : الجنان سبع : دار الجلال ، ودار السلام ، وجنة عدن ، وجنة المأوى ، وجنة الخلد ، وجنة الفردوس ، وجنة النعيم .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ عمّ بالدعوة إظهارا لحجته ، وخصّ بالهداية استغناء عن خلقه . والصراط المستقيم ، قيل : كتاب الله ؛ رواه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنـه قال : " سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الصراط المستقيم كتاب الله تعالى" . وقيل : الإسلام ؛ رواه النواس بن سمعان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيـل : الحق ؛ قاله قتادة ومجاهـد . وقيل : رسـول الله صلى الله عليه وسـلم وصاحباه من بعـده أبو بكر وعمر رضي الله عنهما . وروى جابر بن عبـد الله قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال " رأيت في المنـام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه اضرب له مثلا فقال له اسمع سمعتْ أذناك واعقِل عَقَل قلبك إنما مَثَلُك ومَثَلُ أمتك كمثل ملِك اتخـذ دارا ثم بنى فيها بيتا ثم جعل فيهـا مأدُبة ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه فاللهُ الملِكُ والدارُ الإسلامُ والبيتُ الجنةُ وأنت يا محمد الرسول فمن أجابك دخل في الإسـلام ومن دخل في الإسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل ممـا فيها " ثم تلا يعني رسـول الله صلى الله عليه وسلم « وَيَهْـدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (١) . ثم تلا قتادة ومجـاهد : « وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّـلَامِ » . وهـذه الآية بينة الحجة في الرّد على القدرية ؛ لأنهم قالوا : هـدى الله الخلق كلّهم إلى صراط مستقيم ، والله قال : وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » فردّوا على الله نصوص القرآن .

(١) هذه الآية والجملة قبلها ليست في ب و ك و هـ و ى .

Marfat.com

قوله تعـالى : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ رُوِى من حديث أنس قال : سـئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى « وَزِيَادَةٌ » قال : " للذين أحسنوا العمل فى الدنيا لهم الحسنى وهى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم " وهو قول أبى بكر الصديق وعلىّ بن أبى طالب فى رواية . وحذيفة وعُبـادة بن الصامت وكعب بن عُجْرة وأبى موسى وصُهيب وابن عباس فى رواية ، وهو قول جماعة من التابعين ، وهو الصحيح فى البـاب . وروى مسلم فى صحيحه عن صُهيب عن النبىّ صـلى الله عليه وسـلم قال : " إذا دخل أهلُ الجنة الجنةَ قال الله تبارك وتعالى تريدون شيئا أزيدكم فيقولون ألم تبيّض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النـار قال فيكشف الحجابَ فمـا أُعْطُوا شيئا أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل — وفى رواية ثم تلا — " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " وخرّجه النسائى أيضا عن صُهيب قال قيـل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هـذه الآية « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ » قال : " إذا دخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهلُ النار النارَ نادى منادٍ يأهل الجنة إن لكم موعدا عنـد الله يريد أن يُنجزكموه قالوا ألم يبيّض وجوهنا ويُثقل موازيننا ويُجرنا من النـار قال فيكشف الحجابَ فينظرون إليـه فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر ولا أقرّ لأعينهم " . وخرّجه ابن المبارك فى دقائقه عن أبى موسى الأشعرى موقوفا ، وقد ذكرناه فى كتاب التـذكرة ، وذكرنا هناك معنى كشف الحجاب ، والحمد لله . وخرّج الترمذى الحكيم أبو عبد الله رحمه الله : حدّثنا على بن حجر حدّثنا الوليد بن مسلم عن زُهير عن أبى العالية عن أُبَىّ بن كعب قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزيادتين فى كتاب الله ؛ فى قوله « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ » قال : " النظر إلى وجه الرحمن " وعن قوله : « وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ »[1] قال :

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٢٧ فما بعد .

" عشرون ألفا " . وقد قيل : إن الزيادة أن تضاعف الحسنة عشر حسنات إلى أكثر من ذلك؛ رُوى عن آبن عباس . ورُوى عن علىّ [بن أبي طالب][1] رضى الله عنه : الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة آلاف باب . وقال مجاهد : الحسنى حسنة مثل حسنة ، والزيادة مغفرة من الله ورضوان . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الحسنى الجنة ، والزيادة ما أعطاهم الله في الدنيا من فضله لا يحاسبهم به يوم القيامة . وقال عبد الرحمن بن سابط : الحسنى البشرى ، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم ؛ قال الله تعالى : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ »[2] . وقال يزيد بن شجرة : الزيادة أن تمرّ السحابة بأهل الجنة فتُمطرهم من كل النوادر التي لم يروها ، وتقول : يأهل الجنة ، ما تريدون أن أمطركم ؟ فلا يريدون شيئا إلا أمطرتهم إياه . وقيل : الزيادة أنه ما يمرّ عليهم مقدار يوم من أيام الدنيا إلا حتى يطيف بمنزل أحدهم سبعون ألف مَلَك ، مع كل ملك هدايا من عند الله ليست مع صاحبه ، ما رأوا مثل تلك الهدايا قطّ ؛ فسبحان [الواسع العليم الغنى الحميد العلى الكبير العزيز القدير البر الرحيم المدبر الحكيم اللطيف الكريم الذى][1] لا تتناهى مقدوراته . وقيل : « أَحْسَنُوا » أى معاملة الناس ، و« الْحُسْنَى » : شفاعتهم ، والزيادة : إذن الله تعالى فيها وقبوله .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَرْهَقُ ﴾ قيل : معناه يلحق ؛ ومنه قيل : غلام مراهق إذا لحق بالرجال . وقيل : يعلو . وقيل : يغشى ؛ والمعنى متقارب . ﴿ قَتَرٌ ﴾ غبار . ﴿ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ أى مذلة ؛ كما يلحق أهل النار ؛ أى لا يلحقهم غبار في محشرهم إلى الله ولا تغشاهم ذِلّة . وأنشد أبو عبيدة للفرزدق :

مُتَوَّجٌ برداء المُلك يتبعه * مَوْج ترى فوقه الراياتِ والقَتَرا

وقرأ الحسن « قَتْرٌ » بإسكان التاء . والقَتَر والقَتَرة والقَتْرة بمعنى واحد ؛ قاله النحاس . وواحد القتر قَتَرة ؛ ومنه قوله تعالى : « تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ »[2] أى تعلوها غَبرة . وقيل : قَتَرٌ كآبةٌ وكسوف . آبن عباس : القتر سواد الوجوه . آبن بحر : دخان النار ؛ ومنه قُتار القِدْر . وقال آبن أبي ليلى : هو بُعْدُ نظرهم إلى ربهم عزّ وجل .

---

(١) من ع و هـ و ى . (٢) راجع جـ ١٩ ص ١١١ ، وص ٢٢١ فما بعد .

Marfat.com

قلت : هذا فيه نظر ؛ فإن الله عزّ وجل يقول : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . — إلى قوله — لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ »(١) وقال فى غير آية : « وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »(٢) وقال : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا »(٣) [الآية](٤) . وهذا عامّ فلا يتغير بفضل الله فى موطن من المواطن لا قبل النظر ولا بعده وجهُ المحسن بسواد من كآبة ولا حزن، ولا يعلوه شىء من دخان جهنم ولا غيره . « وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »(٥) .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أى عملوا المعاصى . وقيل : الشرك . ﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ « جزاء » مرفوع بالابتداء، وخبره « بمثلها » . قال ابن كَيْسان : الباء زائدة؛ والمعنى جزاء سيئة مثلها . وقيل : الباء مع ما بعدها الخبر، وهى متعلقة بمحذوف قامت مقامه، والمعنى : جزاء سيئة كائن بمثلها؛ كقولك : إنما أنا بك؛ أى إنما أنا كائن بك . ويجوز أن تتعلق بجزاء، التقدير : جزاء سيئة بمثلها كائن؛ فحذف خبر المبتدأ . ويجوز أن يكون « جَزَاءُ » مرفوعا على تقدير فلهم جزاء سيئة؛ فيكون مثل قوله : « فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ »(٦) أى فعليه عدّة، وشبهه؛ والباء على هذا التقدير تتعلق بمحذوف، كأنه قال لهم جزاء سيئة ثابت بمثلها، أو تكون مؤكدة أو زائدة .

ومعنى هذه المِثلية أن ذلك الجزاء مما يعدّ مماثلا لذنوبهم، أى هم غير مظلومين، وفعل الرب [جلت قدرته وتعالى شأنه](٤) غير معلَّل بعلة . ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أى يغشاهم هوان وخزى . ﴿ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى من عذاب الله . ﴿ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أى مانع يمنعهم منه .

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٤٥ . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٢٧ فما بعد . (٣) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٧ .
(٤) من ع . (٥) راجع جـ ٤ ص ١٦٦ . (٦) راجع جـ ٢ ص ٢٧٢ فما بعد .

Marfat.com

﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ ﴾ أي ألبست . ﴿ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً ﴾ جمع قطعة ، وعلى هذا يكون ﴿ مُظْلِماً ﴾ حال من « اللَّيْلِ » أي أغشيت وجوههم قطعا من الليل في حال ظلمته . وقرأ الكسائي وابن كثير « قطْعا » بإسكان الطاء ؛ فـ « مُظْلِماً » على هذا نعت ، ويجوز أن يكون حالا من الليل . والقِطْع اسم ما قُطع فسقط . وقال ابن السِّكِّيت : القِطْع طائفة من الليل ؛ وسيأتي في « هود »(1) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ أي نجمعهم ، والحشر الجمع . ﴿ جَمِيعاً ﴾ حال . ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ أي اتخذوا مع الله شريكا . ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ أي الزموا واثبتوا مكانكم ، وقفوا مواضعكم . ﴿ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾ وهذا وعيد . ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ أي فرقنا وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا ؛ يقال : زيّلتـه فتزيّل ، أي فرّقته فتفرق ، وهو فعّلت ؛ لأنك تقول في مصدره تزييلا ، ولو كان فَيْعَلْت لقلت زَيْلَة . والمزايلة المفارقة ؛ يقال : زايله الله مزايلة وزيالا إذا فارقه . والتزايل التباين . قال الفراء : وقرأ بعضهم « فزايلنا بينهم » ؛ يقال : لا أزايل فـلانا ، أي لا أفارقه ؛ فإن قلت : لا أزاوله فهو بمعنى آخر ، معناه لا أخاتله . ﴿ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ عني بالشركاء الملائكة . وقيل : الشياطين ، وقيل : الأصنام ؛ فينطقها الله تعالى فتكون بينهم هـذه المحاورة . وذلك أنهم ادعوا على الشياطين الذين أطاعوهم والأصنام التي عبدوها أنهم أمروهم بعبادتهم ويقولون ما عبدناكم حتى أمرتمونا . قال مجاهد : ينطق الله الأوثان فتقول ما كنا نشعر بأنكم إيانا تعبدون ، وما أمرناكم بعبادتنا . وإن حُمل الشركاء على الشياطين فالمعنى أنهم يقولون ذلك دَهَشا ، أو يقولون كذبا واحتيالا للخلاص ، وقد يجرى مثل هذا غدا ؛ وإن صارت المعارف ضرورية .

قوله تعالى : ﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(1) راجع جـ ٩ ص ٨٣ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ «شَهِيدًا» مفعول، أى كفى الله شهيدا ، أو تمييز، أى اكتف به شهيدا بيننا و بينكم إن كنا امرناكم بهذا أو رضيناه منكم . ﴿ إِنْ كُنَّا ﴾ أى ما كنا ﴿ عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ إلا غافلين لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ؛ لأنا كنا جمادا لا رُوح فينا .

قوله تعالى : هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ﴾ فى موضع نصب على الظرف . ﴿ تَبْلُو ﴾ أى فى ذلك الوقت . « تبلو » أى تذوق . وقال الكَلْبِىّ : تعلم . مجاهد : تختبر . ﴿ كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ﴾ أى جزاء ما عملت وقدّمت . وقيل : تسلم ، أى تسلم ما عليها من الحقوق إلى أر بابها بغير اختيارها . وقرأ حمزة والكسائىّ « تتلو » أى تقرأ كل نفس كتابها الذى كُتب عليها . وقيل : « تتلو » تتبع ؛ أى تتبع كل نفس ما قدّمت فى الدنيا ؛ قاله السُّدّى . ومنه قول الشاعر :

إن المُرِيبَ يتبــع المُرِيبَـا * كما رأيت الذّيب يتلو الذّيبا

قوله تعـالى : ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ بالخفض على البدل أو الصفة . و يجوز نصب الحق من ثلاث جهات ؛ يكون التقدير : وردوا حقا ، ثم جىء بالألف واللام . ويجوز أن يكون التقدير : مولاهم حقا لا ما يعبدون من دونه . والوجه الثالث أن يكون مدحا ؛ أى أعنى الحق . و يجوز أن يرفع « الحق » ، و يكون المعنى مولاهم الحق — على الابتداء والخبر، والقطع مما قبل — لا ما يشركون من دونه . ووصف نفسه سبحانه بالحق لأن الحق منه كما وصف نفسه بالعدل لأن العدل منه ؛ أى كل عدل وحق فمن قِبله ، وقال ابن عباس : «مَوْلَاهُمُ بالْحَقِّ» أى الذى يجازيهم بالحق . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى بطل . ﴿ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ «يفترون» فى موضع رفع وهو بمعنى المصدر ، أى افتراؤهم . فإن قيل : كيف قال «وردوا الى الله مولاهم الحق» وقد أخبر بأن الكافرين لا مولى لهم . قيل : ليس بمولاهم فى النصرة والمعونة ، وهو مولى لهم فى الرزق و إدرار النعم .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٣١)

المراد بمساق هذا الكلام الردّ على المشركين وتقرير الحجة عليهم ؛ فمن اعترف منهم فالحجة ظاهرة عليهم ، ومن لم يعترف فيقرّر عليه أن هذه السموات والأرض لابدّ لها من خالق ؛ ولا يتمارى فى هذا عاقل . وهذا قريب من مرتبة الضرورة . ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى بالمطر . ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ بالنبات . ﴿ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ أى من جعلهما وخلقهما لكم . ﴿ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ أى النباتَ من الأرض ، والإنسان من النطفة ، والسُّنْبُلَةَ من الحبّة ، والطيرَ من البيضة ، والمؤمنَ من الكافر . ﴿ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ أى يقدره و يقضيه . ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ لأنهم كانوا يعتقدون أن الخالق هو الله ؛ أو فسيقولون هو الله إن فكروا وأنصفوا ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم يامحمد . ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى أفلا تخافون عقابه ونِقْمته فى الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (٣٢)

قوله تعالى : ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ فيه ثمانى مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ » أى هذا الذى يفعل هذه الأشياء هو ربكم الحق ، لا ما أشركتم معه . « فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ » « ذا » صلة أى ما بعد عبادة الإله الحق إذا تركت عبادته إلا الضلال . وقال بعض المتقدّمين : ظاهر هذه الآية يدلّ على أن ما بعد الله هو الضلال ؛ لأن أولها « فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ » وآخرها « فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ » فهذا فى الإيمان والكفر ، ليس فى الأعمال . وقال بعضهم : إن الكفر تغطية الحق ، وكل ما كان غير الحق جرى هذا المجرى ؛ فالحرام ضلال والمباح هُدًى ؛ فإن الله هو المبيح والمحرّم . والصحيح الأوّل ؛ لأن قبل « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ »

Marfat.com

ثم قال: «فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ» أى هذا الذى رزقكم، وهذا كله فعله هو . «رَبُّكُمُ الحَقُّ» أى الذى تحق له الألوهيـة ويستوجب العبـادة ، و إذا كان ذلك فتشريك غيره ضـلال وغيرُ حق .

الثانيــة ــ قال علماؤنا : حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والباطل منزلة ثالثة فى هذه المسألة التى هى توحيد الله تعالى، وكذلك هو الأمر فى نظائرها ، وهى مسائل الأصول التى الحق فيها فى طرف واحد ؛ لأن الكلام فيها إنمـا هو فى تعديد وجود ذات كيف هى ، وذلك بخلاف مسائل الفروع التى قال الله تعالى فيها : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً(١)» ، وقوله عليه السـلام : " الحلال بيّن والحـرام بيّن و بينهمـا أمور متشابهات " . والكلام فى الفروع إنمـا هو فى أحكام طارئة على وجـود ذات متقررة لا يُختلَف فيها و إنمـا يختلف فى الأحكام المتعلقة بها .

الثالثـــة ــ ثبت عن عائشة رضى الله عنها أن النبىّ صلى الله عليــه وسلم كان إذا قام إلى الصلاة فى جَوْف الليل قال : " اللهم لك الحمد " الحديثَ . وفيه " أنت الحق ووَعْدُك الحق وقولك الحق ولقاؤك الحق والجنة حق والنار حق والساعة حق والنبيون حق ومحمد حق" الحديثَ . فقوله : " أنت الحق " أى الواجب الوجود ؛ وأصـله من حَقَّ الشيء أى ثبت ووجب . وهذا الوصف لله تعالى بالحقيقة إذ وجوده لنفسه لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم؛ وما عداه ممـا يقال عليه هذا الاسم مسبوق بعدم ، و يجوز عليـه لحاق العدم ، ووجوده من موجِده لا من نفسه . و باعتبار هذا المعنى كان أصدق كلمة قالها الشاعر، كلمة لبيد :

* ألَا كلُّ شيء ما خلا اللهَ باطلُ *

و إليه الإشارة بقوله تعالى : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢) » .

الرابعــة ــ مقابلة الحق بالضلال عرف لغة وشرعا، كما فى هذه الآية . وكذلك أيضا مقابلة الحق بالبـاطل عرف لغة وشرعا؛ قال الله تعـالى : « ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٥٩ . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٢٢ .

Marfat.com

مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ (١) » . والضلال حقيقته الذهاب عن الحق ؛ أخذ من ضلال الطريق ، وهو العدول عن سَمْته . قال ابن عرفة : الضلالة عند العرب سلوك غير سبيل القصد ؛ يقال : ضلّ عن الطريق وأضلّ الشيء إذا أضاعه . وخُصّ في الشرع بالعبارة (٢) [في العدول (٣)] عن السداد في الاعتقاد دون الأعمال ؛ ومن غريب أمره أنه يعبر به عن عدم المعرفة بالحق سبحانه إذا قابله غفلة ولم يقترن بعدمه جهل أوشك ، وعليه حمل العلماء قوله تعالى : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٤) » أي غافلا ، في أحد التأويلات ؛ يحققه قوله تعالى : « مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ (٥) » .

الخامسة — روى عبد الله بن عبد الحكم وأشهب عن مالك في قوله تعالى : « فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ » قال : اللّعِب بالشِّطْرَنْج والنَّرْدِ من الضلال . وروى يونس عن ابن وهب أنه سئل عن الرجل يلعب في بيته مع امرأته بأربع عشرة ؛ فقال مالك : ما يعجبني ! وليس من شأن المؤمنين ، يقول الله تعالى : « فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ » . وروى يونس عن أشهب قال : سئل — يعني مالكا — عن اللّعب بالشطرنج فقال : لا خير فيه ، وليس بشيء وهو من الباطل ، واللعب كله من الباطل ، وإنه لينبغي لذي العقل أن تنهاه اللحية والشيب عن الباطل . وقال الزهري لما سئل عن الشطرنج : هي من الباطل ولا أحبها .

السادسة — اختلف العلماء في جواز اللّعِب بالشطرنج وغيره إذا لم يكن على وجه القِمار ؛ فتحصيل مذهب مالك وجمهورِ الفقهاء في الشطرنج أن من لم يقامر بها ولعب مع أهله في بيته مستترا به مرة في الشهر أو العام ، لا يُطَّلعُ عليه ولا يُعلم به أنه معفوٌّ عنه غير محرم عليه ولا مكروه له ، وأنه إن تَخَلَّع (٦) به واشتهر فيه سقطت مروءته وعدالته ورُدّت شهادته . وأما الشافعي فلا تسقط في مذهب أصحابه شهادةُ اللاعب بالنّرد والشِّطرنج ، إذا كان عدلا في جميع أصحابه ، ولم يظهر منه سفه ولا رِيبة ولا كبيرة إلا أن يلعب به قمارا ،

(١) راجع جـ ١٢ ص ٩١ (٢) في ب وع وهـ وى : بالعبادة . (٣) من ب وع وهـ وى .
(٤) راجع جـ ٢٠ ص ٩٦ (٥) راجع جـ ١٦ ص ٥٤ (٦) تخلع في الشراب : انهمك فيه ولازمه ليلا ونهارا .

Marfat.com

فإن لعب بها قمارا وكان بذلك معروفا سقطت عدالته وسفّه نفسه لأكله المال بالباطل . وقال أبو حنيفة : يكره اللعب بالشطرنج والنرد والأربعة عشر وكلّ اللهو ؛ فإن لم تظهر من اللاعب بها كبيرة وكانت محاسنه أكثر من مساويه قبلت شهادته عندهم . قال ابن العربى : قالت الشافعية إن الشطرنج يخالف النرد لأن فيه إكداد الفهم واستعمال القريحة . والنرد قمار غَرَر لا يعلم ما يخرج له فيه كالاستقسام بالأزلام .

السابعـة — قال علماؤنا : النرد قطع مملوءة من خشب البقس ومن عظم الفيل، وكذا هو الشطرنج إذ هو أخوه غُذّى بلبانه . والنرد هو الذى يعرف بالباطل[1] و يعرف بالكعاب و يعرف فى الجاهلية أيضا بالأرُن[2] و يعرف أيضا بالنَّرْدَشِير. وفى صحيح مسلم عن سليمان بن بُريدة عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "من لعب بالنردشير فكأنما غمس يده فى لحم خنزير ودمه". قال علماؤنا : ومعنى هذا أى هو كمن غمس يده فى لحم الخنزير يهيّئه لأن يأكله، وهذا الفعل فى الخنزير حرام لايجوز ؛ يبيّنه قوله صلى الله عليه وسلم : " من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله " رواه مالك وغيره من حديث أبى موسى الأشعرى وهو حديث صحيح ، وهو يحرّم اللعب بالنرد جملة واحدة ،وكذلك الشطرنج، لم يستثن وقتا من وقت ولا حالا من حال،وأخبر أن فاعل ذلك عاصٍ لله ورسوله ؛ إلا أنه يحتمل أن يكون المراد باللعب بالنرد المنهىّ عنه أن يكون على وجه القمار ؛ لما رُوى من إجازة اللعب بالشطرنج عن التابعين على غير قمار . وحَمْلُ ذلك على العموم قمارا وغير قمار أولى وأحوط إن شاء الله . قال أبو عبد الله الحليمىّ فى كتاب منهاج الدين : ومما جاء فى الشِّطرنج حديث يروى فيه كما يروى فى النرد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من لعب بالشِّطرنج فقد عصى الله ورسوله" . وعن علىّ رضى الله عنه أنه مرّ على مجلس من [مجالس][3] بنى تميم وهم يلعبون بالشطرنج فوقف عليهم فقال : " أمَا والله لغير هذا خلقتم ! أمَا والله لولا أن تكون سُنّة لضربت به وجوهكم" . وعنه رضى الله عنه أنه مرّ بقوم يلعبون بالشطرنج فقال : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون؛ لأن يَمَسّ أحدكم

(١) فى ب وع وه وى : العابل . (٢) هكذا فى ع وى وه . وفى ب : الأرز : لم نجد فى كتب الشطرنج ولا المعاجم ما يكشف النمة . (٣) من ع .

Marfat.com

جمرا حتى يطفأ خير من أن يمسها . وسئل ابن عمر عن الشطرنج فقال : هى شر من النرد . وقال أبو موسى الأشعرى : لا يلعب بالشطرنج إلا خاطئ . وسئل أبو جعفر عن الشطرنج فقال : دعونا من هذه المجوسية . وفى حديث طويل عن النبي صلى الله عليه وسلم : "وأن من لعب بالنرد والشطرنج والجوز والكعاب مقته الله ومن جلس إلى من يلعب بالنرد والشطرنج لينظر إليهم مُحيت عنه حسناته كلها وصار ممن مقته الله" . وهذه الآثار كلها تدلّ على تحريم اللعب بها بلا قمار، والله أعلم . وقد ذكرنا فى «المائدة» بيان تحريمها[1] وأنها كالخمر فى التحريم لاقترانها به، والله أعلم . قال ابن العربى فى قبسه : وقد جوّزه الشافعى، وانتهى حال بعضهم إلى أن يقول : هو مندوب إليه، حتى اتخذوه فى المدرسة؛ فإذا أعيا الطالب من القراءة لعب به فى المسجد . وأسندوا إلى قوم من الصحابة والتابعين أنهم لعبوا بها؛ وما كان ذلك قطّ ! وتالله ما مستها يدُ تقِيّ . ويقولون : إنها تَشْحَذ الذهن، والعيان يكذبهم، ما تبحّر فيها قطُّ رجل له ذهن . سمعت الإمام أبا الفضل عطاء المقدسى يقول بالمسجد الأقصى فى المناظرة : إنها تعلم الحرب . فقال له الطَّرْطُوشيّ : بل تفسد تدبير الحرب؛ لأن الحرب المقصود منها الملك واغتياله، وفى الشِّطرنج تقول : شاهْ إياك : الملك نحِّـه عن طريقى؛ فاستضحك الحاضرين . وتارة شـدّد فيها مالك وحرمها وقال فيها : « فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ » . وتارة استهان بالقليل منها والأهون؛ والقـول الأوّل أصح والله أعلم . فإن قال قائل : روى عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أنه سئل عن الشطرنج فقال : وما الشطرنج ؟ فقيل له : إن امرأة كان لها ابن وكان ملكا فأصيب فى حرب دون أصحابه؛ فقالت : كيف يكون هـذا أَرُونيه عيانا؛ فعُمل لهـا الشطرنج، فلما رأته تسلت بذلك . ووصفوا الشطرنج لعمر رضى الله عنه فقال : لا بأس بمـا كان من آلة الحرب؛ قيـل له : هـذا لا حجة فيه لأنه لم يقل لا بأس بالشطرنج وإنمـا قال لا بأس بمـا كان من آلة الحرب . وإنمـا قال هذا لأنه شُبّه عليه أن اللعب بالشطرنج ممـا يستعان به على معرفة أسباب الحرب، فلما قيل له ذلك ولم يحط به علمه قال :

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٩١ .

Marfat.com

لا بأس بما كان من آلة الحرب، إن كان كما تقولون فلا بأس به، وكذلك من روى عنه من الصحابة أنه لم ينه عنه، فإن ذلك محمول منه على أنه ظنّ أن ذلك ليس يُتَلَهّى به، وإنما يراد به التسبب إلى علم القتال والمضاربة فيه، أو على أن الخبر المسنَد لم يبلغهم. قال الحَلِيمِيّ: وإذا صح الخبر فلا حجة لأحد معه، وإنما الحجة فيه على الكافّة.

الثامنــة — ذكر ابن وهب بإسناده أن عبد الله بن عمر مَرّ بغلمان يلعبون بالكُجّة، وهي حفر فيها حصًى يلعبون بها، قال: فسدّها ابن عمر ونهاهم عنها. وذكر الهرويّ في باب (الكاف مع الجيم) في حديث ابن عباس: في كل شيء قِمار حتى في لعب الصبيان بالكُجّة؛ قال ابن الأعرابي: هو أن يأخذ الصبي خرقة فيدوّرها كأنها كرة، ثم يتقامرون بها. وكج إذا لعب بالكُجّة.

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي كيف تصرفون عقولكم إلى عبادة ما لا يرزق ولا يُحيي ولا يُميت.

قوله تعالى: كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي حكمه وقضاؤه وعلمه السابق. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾ أي خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذبوا. ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون. وفي هذا أوفَى دليل على القدرية. وقرأ نافع وابن عامر هنا وفي آخرها «كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ» وفي سورة غافر بالجمع في الثلاثة. الباقون بالإفراد و«أن» في موضع نصب؛ أي بأنهم أو لأنهم. قال الزجاج: ويجوز أن تكون في موضع رفع على البدل من كلمات. قال الفراء: يجوز «إنهم» بالكسر على الاستئناف.

قوله تعالى: قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ أي آلهتكم ومعبوداتكم . ﴿مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي قل لهم يا محمد ذلك على جهة التوبيخ والتقرير ؛ فإن أجابوك و إلا فـ ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وليس غيره يفعل ذلك . ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تنقلبون وتنصرفون عن الحق إلى الباطل .

قوله تعالى : قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ يقال : هداه للطريق و إلى الطريق بمعنًى واحد ؛ وقد تقدم[1] . أي هل من شركائكم من يُرشد إلى دين الإسلام ؛ فإذا قالوا لا ولا بدّ منه فـ ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ ثم قل لهم موبِّخا ومقررا . ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي﴾ أي يرشد . ﴿إِلَى الْحَقِّ﴾ وهو الله سبحانه وتعالى . ﴿أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ يريد الأصنام التي لا تهـدى أحدا ، ولا تمشي إلا أن تُحمـل ، ولا تنتقل عن مكانها إلا أن تنقل . قال الشاعر[2] :

للفتى عقـلٌ يعيش به * حيث تَهْدِي سـاقَه قَدَمُهْ

وقيل : المراد الرؤساء والمضلون الذين لا يرشدون أنفسهم إلى هُدًى إلا أن يُرْشَدوا .

وفي « يَهِدِّي » قراءات ست :

الأولى — قرأ أهل المدينة إلا وَرْشًا «يَهْدِّي» بفتح الياء و إسكان الهاء وتشديد الدال ؛ فجمعوا في قراءتهم بين ساكنين كما فعلوا في قوله : « لَا تَعْدُّوا[3] » وفي قوله : « يَخْصِّمُونَ » . قال النحاس : والجمع بين الساكنين لا يقدر أحد أن ينطق به . قال محمـد بن يزيد : لا بد لمن رام مثل هذا أن يحرك حركة خفيفة إلى الكسر، وسيبويه يسمى هذا اختلاس الحركة .

(١) راجع جـ ١ ص ١٦٠ (٢) هو طرفة ؛ كما في اللسان . (٣) راجع جـ ٦ ص ٧

Marfat.com

الثانيـــة — قرأ أبو عمرو وقالون فى رواية بين الفتح والإسكان، على مذهبه فى الإخفاء والاختلاس .

الثالثـــة — قرأ ابن عامر وابن كثير وورش وابن مُحَيْصِن « يَهَدِّى » بفتح الياء والهـاء وتشديد الدال . قال النحاس : هذه القراءة بيّنة فى العربية، والأصل فيها يهتدى أدغمت التاء فى الدال وقلبت حركتها على الهاء .

الرابعـــة — قرأ حفص و يعقوب والأعمش عن أبى بكر مثل قراءة ابن كثير، إلا أنهم كسروا الهاء، قالوا : لأن الجزم إذا اضْـطُرَ إلى حركته حُرِّك إلى الكسر . قال أبو حاتم : هى لغة سُفْلَى مضر .

الخامســـة — قرأ أبو بكر عن عاصم « يِهِدِّى » بكسر الياء والهاء وتشديد الدال، كل ذلك لإتباع الكسر الكسر كما تقدم فى البقرة فى « يَخِطِّفُ »(١) . وقيل : هى لغة من قرأ « نِسْتَعِينُ »(٢)، و « لَنْ تِمَسَّنَا النَّـارُ » ونحوه . وسيبويه لا يجـيز « يِهِدِّى » ويجيز « تِهِدِّى » و « نِهِدِّى » و « إهدى » قال : لأن الكسرة فى الياء تثقل .

السادســـة — قرأ حمزة والكسائى وخلف و يحيى بن وَثّاب والأعمش « يَهْدِى » بفتح الياء و إسكان الهاء وتخفيف الدال؛ من هَدَى يهدى . قال النحاس : وهذه القراءة لها وجهان فى العربية و إن كانت بعيدة، وأحد الوجهين أن الكسائى والفراء قالا : « يهدى » بمعنى يهتدى . قال أبو العباس : لا يعرف هـذا، ولكن التقدير أمن لا يهدى غيره، تم الكلام، ثم قال : « إلّا أَنْ يُهْدَى » استـأنف من الأول، أى لكنه يحتاج أن يهدى؛ فهو استثناء منقطع، كما تقول : فلان لا يُسمِع غيره إلا أن يَسمع، أى لكنه يحتاج أن يُسْمَع . وقال أبو إسحاق : ﴿ فَمَا لَكُمْ ﴾ كلام تام ، والمعنى : فأى شىء لكم فى عبادة الأوثان . ثم قيل لهم : ﴿ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أى لأنفسكم وتقضون بهذا الباطل الصراح، تعبدون آلهة لا تغنى عن أنفسها شيئا إلا أن يُفعل بها، والله يفعل ما يشاء فتتركون عبادته؛ فموضع « كيف » نصب بـ« تحكمون » .

(١) راجع جـ ١ ص ٢٢١ . (٢) راجع جـ ١ ص ١٤٦ .

Marfat.com

قوله تعالى : وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ﴾ يريد الرؤساء منهم ؛ أى ما يتبعون إلا حدسا وتخريصا فى أنها آلهة وأنها تشفع ، ولا حجة معهم . وأما أتباعهم فيتبعونهم تقليدا . ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ أى من عذاب الله ؛ فالحق هو الله . وقيل « الحق » هنا اليقين ؛ أى ليس الظن كاليقين . وفى هذه الآية دليل على أنه لا يُكْتَفَى بالظن فى العقائد . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ من الكفر والتكذيب ، خرجت مخرج التهديد .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ « أنْ » مع « يفترى » مصدر ، والمعنى : وما كان هذا القرآن افتراء ؛ كما تقول : فلان يحب أن يركب ، أى يحب الركوب ؛ قاله الكسائى . وقال الفراء : المعنى وما ينبغى لهذا القرآن أن يفترى ؛ كقوله : « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ »(١) « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً »(٢) . وقيل : « أنْ » بمعنى اللام ، تقديره : وما كان هذا القرآن ليفترى . وقيل : بمعنى لا ، أى لا يفترى . وقيل : المعنى ما كان يتهيأ لأحد أن يأتى بمثل هذا القرآن من عند غير الله ثم ينسبُه إلى الله تعالى لإعجازه ؛ لوصفه(٣) ومعانيه وتأليفه . ﴿ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قال الكسائى والفراء ومحمد ابن سعدان : التقدير ولكن كان تصديق ؛ ويجوز عندهم الرفع بمعنى : ولكن هو تصديق . ﴿ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى من التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب ، فإنها قد بشّرت به فجاء

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٥٥ .	(٢) راجع ص ٢٩٣ من هذا الجزء .	(٣) فى ع : لرصفه .

Marfat.com

مصدّقا لها فى تلك البشارة، وفى الدعاء إلى التوحيد والإيمان بالقيامة . وقيل : المعنى ولكن تصديق النبيّ الذى بين يدى القرآن وهو محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم شاهدوه قبل أن سمعوا منه القرآن . « وتفصيلُ » بالنصب والرفع على الوجهين المذكورين فى تصديق . والتفصيل التبيين، أى يبيّن ما فى كتب الله المتقدمة . والكتاب اسم الجنس . وقيل : أراد بتفصيل الكتاب ما بُيّن فى القرآن من الأحكام . ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ الهاء عائدة للقرآن، أى لا شك فيه أى فى نزوله من قِبَل الله تعالى .

قوله تعـالى : أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ ﴾ أم هاهنا فى موضع ألف الاستفهام لأنها اتصلت بمـا قبلها . وقيل : هى أم المنقطعة التى تقدّر بمعنى بل والهمزة؛ كقوله تعالى : « الٓمٓ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيـهِ مِنْ رَبِّ الْعَـالَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ »[1] أى بل أيقولون افتراه . وقال أبو عبيدة : أم بمعنى الواو، مجازه : ويقولون افتراه . وقيل : الميم صلة، والتقدير : أيقولون افتراه ، أى اختـلق محمد القرآن من قِبل نفسـه ، ... استفهام معناه التقريع . ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ ومعنى الكلام الاحتجاج، فإن الآية الأولى دلّت على كون القرآن من عند الله؛ لأنه مصدّق الذى بين يديه من الكتب وموافق لها من غير أن يتعلم[2] محمد عليه السلام عن أحد . وهذه الآية إلزام بأن يأتوا بسورة مثله إن كان مفترًى . وقد مضى القول فى إعجاز القرآن ، وأ.. معجز فى مقدّمة الكتاب[3]، والحمد لله .

قوله تعـالى : بَلْ كَذَّبُوا بِمَـا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾

(١) راجع جـ ١٤ ص (٢) كذا فى ع وهـ وك وا . (٣) راجع جـ ١ ص ٦٩ م

قوله تعـالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَـا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾ أى كذبوا بالقرآن وهم جاهلون بمعانيه وتفسيره، وعليهم أن يعلموا ذلك بالسؤال؛ فهـذا يدلّ على أنه يجب أن يُنظر فى التأويل . وقوله : ﴿ وَلَمَّـا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ أى ولم يأتهم حقيقة عاقبة التكذيب من نزول العذاب بهم . أو كذبوا بمـا فى القرآن من ذكر البعث والجنة والنار، ولم يأتهم تأويله أى حقيقة ما وعدوا فى الكتاب؛ قاله الضحاك . وقيل للحسين بن الفضل : هل تجد فى القرآن (من جهل شيئا عاداه) قال نعم، فى موضعين : « بَلْ كَذَّبُوا بِمَـا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ » وقوله : « وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَـذَا إِفْكٌ قَـدِيمٌ »[(1)] . ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يريد الأمم الخاليـة ، أى كذا كانت سبيلهم . والكاف فى موضع نصب . ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى أخذهم بالهلاك والعذاب .

قوله تعـالى : وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ قيـل : المراد أهل مكة، أى ومنهم من يؤمن به فى المستقبل وإن طال تكذيبه؛ لعلمه تعـالى السابق فيهم أنهم من السعادة . و « مَنْ » رفع بالابتداء والخبر فى المجرور[(2)] . وكذا . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ والمعـنى ومنهم من يُصر على كفره حتى يموت ؛ كأبى طالب وأبى لهب ونحوهما . وقيـل : المراد أهل الكتاب . وقيـل : هو عام فى جميع الكفار ؛ وهو الصحيح . وقيـل : إن الضمير فى « به » يرجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فأعلم الله سبحانه أنه إنمـا أخّر العقوبة لأن منهم من سيؤمن . ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ أى من يُصرّ على كفره؛ وهذا تهديد لهم .

قوله تعـالى : وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾

---

(1) راجع جـ ١٦ ص ١٨٩ فما بعد .　　(2) فى ع : فى الجار والمجرور .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي ﴾ رفع بالابتداء ، والمعنى : لى ثواب عملى فى التبليغ والإنذار والطاعة لله تعالى . ﴿ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ أى جزاؤه من الشرك . ﴿ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ مثـله ؛ أى لا يؤاخذ أحد بذنب الآخر . وهذه الآية منسوخة بآية السيف ؛ فى قول مجاهد والكلبي ومقاتل وآبن زيد .

قوله تعـالى : وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ يريد بظواهرهم ، وقلوبهم لا تعى شيئا مما يقوله من الحق ويتلوه من القرآن ؛ ولهذا قال : ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أى لا تسمع ؛ فظاهره الاستفهام ومعناه النفى ، وجعلهم كالصم للختم على قلوبهم والطبع عليها ، أى لا تقدر على هداية من أصمّه الله عن سماع الهدى . وكذا المعنى فى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ اخبر تعـالى أن أحدا لا يؤمن إلا بتوفيقه وهدايته . وهـذا وما كان مثله يردّ على القدرية قولهم ؛ كما تقـدّم فى غير موضع . وقال : « يستمعون » على معنى « مَن » و « ينظر » على اللفظ ؛ والمراد تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى كما لا تقدر أن تسمع من سُلب السمع ولا تقدر أن تخلُق للأعمى بصرا يهتدى به ، فكذلك لا تقدر أن توفّق هؤلاء للإيمان وقد حكم الله عليهم ألّا يؤمنوا . ومعنى : « يَنْظُرُ إِلَيْكَ » أى يديم النظر إليك ؛ كما قال : « يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ » (١) . قيل : إنها نزلت فى المستهزئين ، والله أعلم .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

(١) راجع جـ ١٤ ص

لما ذكر أهل الشقاء ذكر أنه لم يظلمهم ، وأن تقدير الشقاء عليهم وسلب سمع القلب وبصره ليس ظلما منه ؛ لأنه تصرّف فى ملكه بما شاء ، وهو فى جميع أفعاله عادل . ﴿ وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالكفر والمعصية ومخالفة أمر خالقهم . وقرأ حمزة والكسائى « ولكنْ » مخففا « الناس » رفعا . قال النحاس : زعم جماعة من النحويين منهم الفرّاء أن العرب إذا قالت « ولكن » بالواو آثرت التشديد ، وإذا حذفوا الواو آثرت التخفيف ، واعتلّ فى ذلك فقال : لأنها إذا كانت بغير واو أشبهت بل فخففوها ليكون ما بعدها كما بعد بل ، وإذا جاءوا بالواو خالفت بل فشدّدوها ونصبوا بها ، لأنها « إنّ » زيدت عليها لام وكاف وصُيّرت حرفا واحدا ؛ وأنشد :

* ولكنني من حبّها لعَميد *

فجاء باللام لأنها « إنّ » .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ بمعنى كأنهم نخففت ، أى كأنهم لم يلبثوا فى قبورهم . ﴿ إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ ﴾ أى قدر ساعة ؛ يعنى أنهم استقصروا طول مقامهم فى القبور لهول مايرون من البعث ؛ دليله قولهم : « لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ »(١) . وقيل : إنما قَصُرت مدّة لَبثهم فى الدنيا من هول ما استقبلوا لا مدة كونهم فى القبر . ابن عباس : رأوا أن طول أعمارهم فى مقابلة الخلود كساعة . ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ فى موضع نصب على الحال من الهاء والميم فى « يحشرهم » . ويجوز أن يكون منقطعا ، فكأنه قال فهم يتعارفون . قال الكلبىّ : يعرف بعضهم بعضا كمعرفتهم فى الدنيا إذا خرجوا من قبورهم ؛ وهذا التعارف تعارف توبيخ وافتضاح ؛ يقول بعضهم لبعض : أنت أضللتنى وأغويتنى وحملتنى على الكفر ؛ وليس

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٧٤ .

Marfat.com

تعارف شفقة ورأفة وعطف . ثم تنقطع المعرفة إذا عاينوا أهوال يوم القيامة كما قال : «وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا»(١) . وقيل : يبقى تعارف التوبيخ؛ وهو الصحيح لقوله تعالى : «وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ — إلى قوله — وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا»(٢) وقوله : «كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا»(٣) الآية، وقوله : «رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا»(٤) الآية . فأما قوله : «وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا» وقوله : «فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ»(٥) فمعناه لا يسأله سؤال رحمة وشفقة، والله أعلم . وقيل : القيامة مواطن . وقيل : معنى «يَتَعَارَفُونَ» يتساءلون، أي يتساءلون كم لبثتم؛ كما قال : «وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ»(٦) وهذا حسن . وقال الضحاك : ذلك تعارُف تعاطف المؤمنين؛ والكافرون لا تعاطف عليهم؛ كما قال : «فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ» . والأول أظهر، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ﴾ أي بالعرض على الله . ثم قيل : يجوز أن يكون هذا إخبارا من الله عز وجل بعد أن دلّ على البعث والنشور، أي خسروا ثواب الجنة . وقيل : خسروا في حال لقاء الله؛ لأن الخسران إنما هو في تلك الحالة التي لا يرجى فيها إقالة ولا تنفع توبة . قال النحاس : ويجوز أن يكون المعنى يتعارفون بينهم، يقولون هذا . ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ يريد في علم الله .

قوله تعالى : وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ شرط . ﴿ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ أي من إظهار دينك في حياتك . وقال المفسرون : كان البعض الذي وعدهم قتْلَ من قُتل وأسْر من أُسر ببدر . ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ عطف على « نُرِيَنَّكَ » أي نتوفينك قبل ذلك . ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ جواب

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٨٤ . (٢) راجع جـ ١٤ ص . (٣) راجع جـ ٧ ص ٢٠٤ .
(٤) راجع جـ ١٤ ص . (٥) راجع جـ ١٢ ص ١٥١ . (٦) راجع جـ ١٥ ص ٧٣ .

Marfat.com

« إمّا » . والمقصود إن لم ننتقم منهم عاجلا انتقمنا منهم آجلا . ﴿ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ ﴾ أى شاهد لايحتاج إلى شاهد . ﴿ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴾ من محاربتك وتكذيبك . ولو قيل : « ثَمَّ اللهُ شَهِيدٌ » بمعنى هناك ، جاز .

قوله تعالى : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ يكون المعنى : ولكل أمة رسول شاهد عليهم ، فإذا جاء رسولهم يوم القيامة قضى بينهم ؛ مثل . « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ » (١) . وقال ابن عباس : تُنكر الكفار غدا مجىء الرسل إليهم ، فيؤتى بالرسول فيقول : قد أبلغتكم الرسالة ؛ فحينئذ يقضى عليهم بالعذاب . دليله قوله : « وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » (٢) . ويجوز أن يكون المعنى أنهم لا يعذبون فى الدنيا حتى يرسل إليهم ؛ فمن آمن فاز ونجا ، ومن لم يؤمن هلك وعُذّب . دليله قوله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » (٣) . والقسط : العدل . « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى لا يعذبون بغير ذنب ولا يؤاخذون بغير حجة .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾

يريد كفار مكة لفرط إنكارهم واستعجالهم العذاب ؛ أى متى العقاب أو متى القيامة التى يعدنا محمد . وقيل : هو عام فى كل أمة كذبت رسولها .

قوله تعالى : قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

(١) راجع ج ٥ ص ١٩٧ .	(٢) راجع ج ٢ ص ١٥٣ .
(٣) راجع ج ١٠ ص ٢٣٠ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ لـما استعجلوا النبيّ صلى الله عليه وسلم بالعذاب قال الله له : قل لهم يا محمد لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا ؛ أى ليس ذلك لى ولا لغيرى . ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ أن أملكه وأقدر عليه ، فكيف أقدر أن أملك ما استعجلتم فلا تستعجلوا . ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أى لهلاكهم وعذابهم وقت معلوم فى علمه سبحانه . ﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾ أى وقت انقضاء أجلهم . ﴿ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أى لا يمكنهم أن يستأخروا ساعة باقين فى الدنيا ولا يتقدّمون فيؤخرون .

قوله تعـالى : قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَنكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَـارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْـهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا ﴾ ظرفان، وهو جواب لقولهم : « مَتَى هَذَا الْوَعْدُ » وتسفيهٌ لآرائهم فى استعجالهم العذاب ؛ أى إن أتاكم العذاب فما نفعكم فيـه ، ولا ينفعكم الإيمـان حينئذ . ﴿ مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ استفهام معناه التهويل والتعظيم؛ أى ما أعظم ما يستعجلون به ؛ كما يقال لمن يطلب أمرا يستوخم عاقبتـه : ماذا تجنى على نفسك ! والضمير فى « منه » قيل : يعود على العذاب ، وقيل : يعود على الله سبحانه وتعالى . قال النحاس : إن جعلت الهاء فى « منه » تعود على العذاب كان لك فى « ماذا » تقديران : أحدهما أن يكون « ما » فى موضع رفع بالابتداء، و « ذا » بمعنى الذى، وهو خبر «ما» والعائد محذوف . والتقدير الآخر أن يكون « ماذا » اسما واحدا فى موضع رفع بالابتداء، والخبر فى الجملة ، قاله الزجاج : وإن جعلت الهاء فى « منه » تعود على اسم الله تعالى جعلت « ما »، و « ذا » شيئا واحدا ، وكانت فى موضع نصب بـ « يستعجل »؛ والمعنى : أىّ شىء يستعجل منه المجرمون من الله عز وجل .

قوله تعـالى : أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَـدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْـتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ ﴾ فى الكلام حذف، والتقدير : أتأمنون أن ينزل بكم العذاب ثم يقال لكم إذا حل : آلآن آمنتم به ؟ قيل : هو من قول الملائكة استهزاء بهم . وقيل : هو من قول الله تعالى، ودخلت ألف الاستفهام على « ثم » والمعنى : التقرير والتوبيخ، وليدلّ على أن معنى الجملة الثانية بعد الأولى . وقيل : إن « ثم » هاهنا بمعنى : « ثَمّ » بفتح الثاء، فتكون ظرفا، والمعنى : أهنالك ؛ وهو مذهب الطبرى، وحينئذ لا يكون فيه معنى الاستفهام . و « الآن » قيل : أصله فعل مبنيّ مثل حان، والألف واللام لتحويله إلى الاسم . الخليل : بنيت لالتقاء الساكنين ، والألف واللام للعهد والإشارة إلى الوقت، وهو حدّ الزمانين . ﴿ وَقَدْ كُنتُم بِهِ ﴾ أى بالعذاب ﴿ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى تقول لهم خزنة جهنم . ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ أى الذى لا ينقطع . ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أى جزاء كفركم .

قوله تعالى : وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ ﴾ أى يستخبرونك يا محمد عن كون العذاب وقيام الساعة . ﴿ أَحَقٌّ ﴾ ابتداء . ﴿ هُوَ ﴾ سدّ مسدّ الخبر ؛ وهذا قول سيبويه . ويجوز أن يكون « هو » مبتدأ ، و « أحق » خبره . ﴿ قُلْ إِى ﴾ « إى » كلمة تحقيق وإيجاب وتأكيد بمعنى نعم . ﴿ وَرَبِّى ﴾ قسم . ﴿ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ جوابه ، أى كائن لا شك فيه . ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى فائتين عن عذابه ومجازاته .

Marfat.com

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ﴾ أى أشركت وكفرت . ﴿ مَا فِى الْأَرْضِ ﴾ أى ملكا . ﴿ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾ أى من عذاب الله ، يعنى ولا يقبل منها؛ كما قال : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ » (١) . وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ ﴾ أى أخفوها ؛ يعنى رؤساءهم ، أى أخفوا ندامتهم عن أتباعهم . ﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ وهذا قبـل الإحراق بالنار ، فإذا وقعوا فى النار ألهتهم النار عن التصنع ؛ بدليل قولهم : « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا » (٢) . فبيّن أنهـم لا يكتمون ما بهم . وقيل : « أسَرُّوا » أظهروا ، والكلمة من الأضداد ، ويدلّ عليه أن الآخرة ليست دار تجلد وتصبّر . وقيل : وجدوا ألم الحسرة فى قلوبهم ؛ لأن الندامة لا يمكن إظهارها . قال كثير :

فأسررتُ الندامة يوم نادى * بردّ جمـال غاضرة المنادى

وذكر المبرّد فيه وجها ثالثا — أنه بدت بالنـدامة أسرّة وجوههم ، وهى تكاسير الجبهة ، واحدها سِرار . والندامة : الحسرة لوقوع شىء أو فوت شىء ، وأصلها اللزوم ؛ و منه النديم لأنه يلازم المجالس . وفلان نادم سادم . والسَّدم اللَّهج بالشىء . ونَدِم وتندّم بالشىء أى اهتمّ به . قال الجوهرى (٣) : السَّدَم (بالتحريك) الندم والحزن ؛ وقد سَدِم بالكسر أى اهتمّ وحَزِن ورجل نادمٌ سادمٌ ، وندمانُ سَدْمان ؛ وقيل : هو إتباع . وماله همٌّ ولا سَدَم إلا ذلك . وقيل : الندم مقلوب الدمن ، والدَّمْن اللزوم ؛ ومنه فلان مدمن الخمر . والدِّمْن : ما اجتمع فى الدار وتلبّد من الأبوال والأبعار ؛ سُمِّىَ به للزومه . والدِّمنة : الحقد الملازم للصدر ، والجمع دِمَن . وقد دَمِنت قلوبهم بالكسر ؛ يقال : دَمِنت على فلان أى ضَغِنت . ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ أى بين الرؤساء والسُّفَّل بالعدل . ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ١٣١ . (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٥٣ . (٣) فى ع و هـ : سدم .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

« أَلَا » كلمة تنبيه للسامع تزاد فى أول الكلام ؛ أى انتبهوا لما أقول لكم : « إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ » ، « لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » فلا مانع يمنعه من إنفاذ ما وعده[(١)] . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

بين المعنى ، وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ يعنى قريشا . ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ ﴾ أى وعظ . ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يعنى القرآن ، فيه مواعظ وحِكَم . ﴿ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ أى من الشك والنفاق والخلاف والشقاق . ﴿ وَهُدًى ﴾ أى ورشدا لمن آتبعه . ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ أى نعمة . ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ خصّهم لأنهم المنتفعون بالإيمان ؛ والكل صفات القرآن ، والعطف لتأكيد المدح . قال الشاعر :

إلى المَلِك القَرْم وابنِ الهُمام ❊ وليثِ الكَتِيبة فى المُزْدَحَمْ

قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ قال أبو سعيد الخُدرىّ وابن عباس رضى الله عنهما : فضل الله القرآن ، ورحمته الإسلام . وعنهما أيضا : فضل الله القرآن ، ورحمته أن جعلكم من أهله . وعن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة : فضل الله الإيمان ، ورحمته القرآن ؛ على العكس من القول الأوّل . وقيل : غير هذا . ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ إشارة إلى الفضل والرحمة . والعرب تأتى « بذلك » للواحد والاثنين والجمع . وروى عن النبىّ صلى

(١) فى ع : حكمه .

Marfat.com

الله عليه وسلم أنه قرأ « فَبِذَلِكَ فَلْتَفْرَحُوا » بالتـاء ؛ وهى قراءة يزيد بن القَعْقاع ويعقوب وغيرهما ؛ وفى الحديث "لتأخذوا مصافّكم" . والفرح لذة فى القلب بإدراك المحبوب . وقد ذمّ الفـرح فى مواضع ؛ كقوله : « لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » (١) وقوله : « إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ » (٢) ولكنه مطلق . فإذا قُيّد الفرح لم يكن ذما ؛ لقوله : « فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » (٣) وها هنا قال تبارك وتعالى : « فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا » أى بالقرآن والإسلام فليفرحوا ؛ فقيد . قال هارون : وفى حرف أُبَيّ « فبذلك فافرحوا » . قال النحاس : سبيل الأمر أن يكون باللام ليكون معه حرف جازم كما أن مع النهى حرفا ؛ إلا أنهم يحذفون من الأمر للخاطب استغناء بمخاطبته ، وربما جاءوا به على الأصل ؛ منه « فبذلك فلتفرحوا » . ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ يعنى فى الدنيا . وقراءة العامة بالياء فى الفعلين ؛ ورُوى عن ابن عامر أنه قرأ «فليفرحوا» بالياء «تجمعون» بالتاء ؛ خطابا للكافرين . ورُوى عن الحسن أنه قرأ بالتاء فى الأوّل ؛ و«يجمعون» بالياء على العكس . وروى أبان عن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من هداه الله للإسلام وعلمه القرآن ثم شكا الفاقة كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقـاه — ثم تلا — « قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » " .

قوله تعـالى : قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾ .

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ يخاطب كفار مكة . ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾ « ما » فى موضع نصب « بأرأيتم » . وقال الزجاج : فى موضع نصب بـ « أنزل » . «وأَنْزَلَ» بمعنى خلق ؛ كما قال : «وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ» (٤) . « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣١٣ . (٢) راجع جـ ٩ ص ١٠ . (٣) راجع جـ ٥ ص ٢٣٤ .
(٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٣٤ .

Marfat.com

بَأْسٌ شَدِيدٌ »[(١)] . فيجوز أن يعبر عن الخلق بالإنزال؛ لأن الذى فى الأرض من الرزق إنما هو بما ينزل من السماء من المطر . ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ قال مجاهد : هو ما حكموا به من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام[(٢)] . وقال الضحاك : هو قول الله تعالى : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا »[(٣)] . ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ أى فى التحليل والتحريم . ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ﴾ « أم » بمعنى بل . ﴿تَفْتَرُونَ﴾ هو قولهم إن الله أمرنا بها .

الثانيــة ــ استدلّ بهذه الآية من نفى القياس ، وهـذا بعيد ؛ فإن القياس دليل الله تعالى ، فيكون التحليل والتحريم من الله تعالى عند وجود دلالة نصبها الله تعالى على الحكم ، فإن خالف فى كون القياس دليلا لله تعالى فهو خروج عن هذا الغرض و رجوع إلى غيره .

قوله تعـالى : وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعـالى : ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ «يوم» منصوب على الظرف ، أو بالظن ؛ نحو ماظننك زيدا ؛ والمعنى : أيحسبون أن الله لا يؤاخذهم به . ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أى فى التأخير والإمهال . وقيـل : أراد أهل مكة حين جعلهم فى حَرَم آمن . ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ يعنى الكفار . ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ الله على نعمه ولا فى تأخير العذاب عنهم . وقيل : « لا يشكرون » لا يوحدون .

قوله تعـالى : وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٦٠ .　(٢) راجع جـ ٦ ص ٣٣٥ .　(٣) راجع جـ ٧ ص ٨٩ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ « ما » للجحد ؛ أى لست فى شأن، يعنى من عبادة أو غيرها إلا والربّ مطلع عليك . والشأن الخطب ، والأمر ، وجمعه شؤون . قال الأخفش : تقول العرب ما شأنتُ شأنَه ، أى ما عملت عمله . ﴿ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ﴾ قال الفرّاء والزجاج : الهاء فى « منه » تعود على الشأن، أى تحدث شأنا فيتلى من أجله القرآن فيعلم كيف حكمه ، أو ينزل فيه قرآن فيتلى . وقال الطبرى : « منه » أى من كتاب الله تعالى . « مِنْ قُرْآنٍ » أعاد تفخيما؛ كقوله : « إِنِّي أَنَا اللهُ »[(1)] . ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ يخاطب النبيّ صلى الله عليه وسلم والأمة . وقوله : « وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ » خطاب له والمراد هو وأمته ؛ وقد يخاطَب الرسول والمراد هو وأتباعه . وقيل : المراد كفار قريش . ﴿ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ﴾ أى نعلمه ؛ ونظيره « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ »[(2)] . ﴿ إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أى تأخذون فيه ، والهاء عائدة على العمل ؛ يقال : أفاض فلان فى الحديث والعمل إذا اندفع فيه . قال الراعى :

فأفَضْنَ بعد كُظومهنّ بجِرّة ° من ذى الأباطح[(3)] إذ رَعَيْن حَقيلا

ابن عباس : « تُفِيضُونَ فِيهِ » تفعلونه . الأخفش : تتكلمون . ابن زيد : تخوضون . ابن كيسان : تنشرون القول . وقال الضحاك : الهاء عائدة على القرآن؛ المعنى : إذ تشيعون فى القرآن الكذب . ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ ﴾ قال ابن عباس : يغيب . وقال أبو روق : يبعد . وقال ابن كيسان : يذهب . وقرأ الكسائى « يعزِب » بكسر الزاى حيث وقع ؛ وضم الباقون؛ وهما لغتان فصيحتان؛ نحو يعرِش و يعرُش . ﴿ مِنْ مِثْقَالِ ﴾ « من » صلة ؛ أى وما يعزب عن ربك مثقال ﴿ ذَرَّةٍ ﴾ ؛ أى وزن ذرّة، أى نملة حمراء صغيرة، وقد تقدّم فى « النساء »[(4)] . ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ ﴾ عطف على لفظ مثقال ، وإن شئت على ذرّة . وقرأ يعقوب وحمزة برفع الراء فيهما عطفا على موضع مثقال لأن من زائدة للتأكيد . وقال الزجاج : ويجوز الرفع على الابتداء . وخبره

---

(1) راجع جـ ١٣ ص ٢٨٣ . (2) راجع جـ ١٧ ص ٢٨٩ .
(3) فى اللسان : من ذى الأبارق . (4) راجع جـ ٥ ص ١٩٥ .

Marfat.com

﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ يعني اللوح المحفوظ مع علم الله تعـالى به . قال الجُرْجاني : « إلا » بمعنى واو النسق ، أي وهو في كتاب مبين ؛ كقوله تعالى : « إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ . إِلَّا مَنْ ظَلَمَ » (١) أي ومن ظلم . وقوله : « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ » (٢) أي والذين ظلموا منهـم ؛ فـ « إلا » بمعنى واو النسق ، وأضمر هو بعـده ، كقوله : وَقُولُوا حِطَّةٌ » (٣) أي هي حطّة . وقوله : « وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ » (٤) أي هم ثلاثة . ونظير ما نحن فيـه : « وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّـةٍ فِي ظُلُمَـاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » (٥) وهو في كتاب مبين .

قوله تعـالى : أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَاءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي في الآخرة . ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ لفقد الدنيا . وقيـل : « لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » أي من تولاه الله تعـالى وتولى حفظه وحياطته ورضي عنه فلا يخاف يوم القيامة ولا يحزن ؛ قال الله تعـالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا — أي عن جهنم — مُبْعَدُونَ — إلى قوله — لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ » (٦) . وروى سعيد بن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : مَن أولياء الله ؟ فقال : " الذين يُذكَر الله برؤيتهم " . وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية : سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقول : " إن من عباد الله عبادا ما هم بأنبياء ولا شهداءَ تغبِطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى " . قيل : يارسول الله ، خبّرنا مَن هم وما أعمالهم فلعلّنا نحبهـم . قال : " هم قوم تحابّوا في الله على غير أرحام بينهـم ولا أموالٍ يتعاطَون بها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على منابر من نور لا يخافون إذا خاف النـاس ولا يحزنون إذا حزِن الناس — ثم قرأ — أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِـمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ " . وقال

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٦٠ فما بعد . (٢) راجع جـ ٣ ص ١٦٨ . (٣) راجع جـ ١ ص ٤٠٩ .
(٤) راجع جـ ٦ ص ٢٠ فما بعد . (٥) راجع جـ ٧ ص ١ فما بعد . (٦) راجع جـ ١١ ص ٣٤٥

Marfat.com

علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : أولياء الله قوم صفر الوجوه من السّهر، عُمْش العيون من العِبَر ، خُمص البطون من الجوع ، يُبْس الشفاه من الذَّوِىّ (١) . وقيل : « لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » فى ذريتهم ، لأن الله يتولاهم . « وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » على دنياهم لتعويض الله إياهم فى أولاهم وأخراهم لأنه وليّهم ومولاهم .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

هذه صفة أولياء الله تعالى؛ فيكون: ﴿ الَّذِينَ ﴾ فى موضع نصب على البدل من اسم «إنّ» وهو « أولياء » . وإن شئت على أعنى . وقيل : هو ابتداء، وخبره . « لَهُمُ الْبُشْرَى فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ »؛ فيكون مقطوعا ممـا قبله . أى يتقون الشرك والمعاصى .

قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ عن أبى الدرداء قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال : " ما سألنى أحد عنها غيرك منـذ أنزلت هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرَى له " خرّجه الترمذى فى جامعـه . وقال الزهرىّ وعطاء وقتادة : هى البشارة التى تبشّر بها الملائكةُ المؤمنَ فى الدنيا عنـد الموت . وعن محمـد بن كعب القُرَظىّ قال : إذا استنقعت (٢) نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال : " السلام عليك ولىّ الله الله يقرئك السلام". ثم نزع بهذه الآية : « الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ »(٣) ذكره ابن المبارك . وقال قتادة والضحاك : هى أن يعلم أين هو من قبل أن يموت . وقال الحسن : هى ما يبشرهم الله تعالى فى كتابه من جنته وكريم ثوابه؛ لقوله : « يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم

---

(١) ذوى العود والبقل يذوى ذيا وذويا ، كلاهما ذبل ، فهو ذاو ؛ وهو ألا يصيبه ريه أو يضربه الحر فيذبل ويضعف . (٢) أى إذا اجتمعت فيه تريد الخروج كما يستنقع الماء فى قراره ؛ وأراد بالنفس الروح . (ابن الأثير) . (٣) راجع جـ ١٠ ص ١٠٠ فما بعد .

Marfat.com

برحمة منه ورضوان [1] »، وقوله : « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ [2] » . وقوله : « وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ [3] » ولهذا قال : « لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ » أى لاخلف لمواعيده، وذلك لأن مواعيده بكلماته . ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ قيل: بالجنة إذا خرجوا من قبورهم . وقيل : إذا خرجت الروح بُشِّرت برضوان الله . وذكر أبو إسحاق الثعلبي : سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله الجَوْزَقِيّ [4] يقول : رأيت أبا عبد الله الحافظ في المنام راكبا بِرْذَوْنًا عليه طَيْلسان وعمامة، فسلّمت عليه وقلت له : أهلاً بك، إنا لا نزال نذكرك ونذكر محاسنك ؛ فقال : ونحن لا نزال نذكرك ونذكر محاسنك ، قال الله تعالى : « لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ » الثناء الحسن : وأشار بيده . ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ أى لا خلف لوعده . وقيل : لا تبديل لأخباره، أى لا ينسخها بشيء، ولا تكون إلا كما قال . ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى مايصير إليه أولياؤه فهو الفوز العظيم .

قوله تعالى : **وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾**

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ تمّ الكلام، أى لا يحزنك افتراؤهم وتكذيبهم لك، ثم ابتدأ فقال : ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ ﴾ أى القوّة الكاملة والغلبة الشاملة والقدرة التامة لله وحده؛ فهو ناصرك ومعينك ومانعك . ﴿ جَمِيعًا ﴾ نصب على الحال ، ولا يعارض هذا قوله : « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ [5] » فإن كل عزة بالله فهى كلها لله ؛ قال الله سبحانه : « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ [6] » . ﴿ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ السميع لأقوالهم وأصواتهم، العليم بأعمالهم وأفعالهم وجميع حركاتهم .

---

(١) راجع ص ٩٣ من هذا الجزء .　(٢) راجع جـ ١ ص ٢٣٧ فما بعد .　(٣) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٧ .　(٤) هذه النسبة إلى جوزق (كجعفر) بلدة بنيسابور .　(٥) راجع جـ ١٨ ص ١٢٩ .　(٦) راجع جـ ١٥ ص ١٤٠ .

Marfat.com

قوله تعالى : أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى يحكم فيهم بما يريد، ويفعل فيهم ما يشاء سبحانه ! .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ « ما » للنفى ، أى لا يتبعون شركاء على الحقيقة ، بل يظنون أنها تشفع أو تنفع . وقيل : « ما » استفهام، أى أىّ شىء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء تقبيحا لفعلهم ، ثم أجاب فقال : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أى يحدسون ويكذبون، وقد تقدّم (1) .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ بيّن أن الواجب عبادةُ من يقدر على خلق الليل والنهار لا عبادة من لا يقدر على شىء. «لِتَسْكُنُوا فِيهِ» أى مع أزواجكم وأولادكم ليزول التعب والكَلال بكم . والسكون : الهدوء عن الاضطراب .

قوله تعالى : ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أى مضيئا لتهتدوا به فى حوائجكم . والمبصر : الذى يبصر، والنهار يُبْصَر فيه . وقال : « مُبْصِرًا » تجوّزا وتوسعا على عادة العرب فى قولهم : « ليل قائم، ونهار صائم » . وقال جرير :

لقد لُمْتِنا يا أمّ غَيْلان فى السُّرَى ونمتِ وما ليلُ المَطِىّ بنائم

وقال قُطْرُب : يقال أظلم الليل أى صار ذا ظلمة ، وأضاء النهار وأبصر أى صار ذا ضياء وبصر .

(1) راجع جـ ٧ ص ٧١ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي علامات ودلالات . ﴿ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي سماع اعتبار .

قوله تعالى : قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ يعني الكفار . وقد تقدّم[(١)] . ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ نزّه نفسه عن الصاحبة والأولاد وعن الشركاء والأنداد . ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ثم أخبر بغناه المطلق ، وأن له ما في السموات والأرض ملكا وخلقا وعبدا ؛ « إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا[(٢)] » . ﴿ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ﴾ أي ما عندكم من حجة بهذا . ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من إثبات الولد له ، والولد يقتضي المجانسة والمشابهة والله تعالى لا يجانس شيئا ولا يشابه[(٣)] شيئا .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ ﴾ أي يختلقون . ﴿ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ أي لا يفوزون ولا يأمنون ؛ وتم الكلام . ﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ أي ذلك متاع ، أو هو متاع في الدنيا ؛ قاله الكسائي . وقال الأخفش : لهم متاع في الدنيا . قال أبو إسحاق : ويجوز النصب في غير القرآن على معنى يتمتعون متاعا . ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أي رجوعهم . ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ ﴾ أي الغليظ . ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أي بكفرهم .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٥ . (٢) راجع جـ ١١ ص ١٥٥ . (٣) في ع و ك : لا يشبه شيء .

Marfat.com

قوله تعالى : وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ أمره عليه السلام أن يذكرهم أقاصيص المتقدّمين، ويخوّفهم العذاب الأليم على كفرهم . وحذفت الواو من «آتل» لأنه أمر؛ أى آقرأ عليهم خبر نوح . ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ « إذ » فى موضع نصب . ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ ﴾ أى عظم وثقل عليكم . ﴿ مَقَامِى ﴾ المقام (بفتح الميم) : الموضع الذى يقوم فيه . والمُقام (بالضم) الإقامة . ولم يُقرأ به فيما علمت؛ أى إن طال عليكم لُبْثِى فيكم . ﴿ وَتَذْكِيرِى ﴾ إياكم ، وتخويفى لكم . ﴿ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ وعزمتم على قتلى وطردى . ﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى اعتمدت . وهذا هو جواب الشرط، ولم يزل عليه السلام متوكلا على الله فى كل حال، ولكن بيّن أنه متوكل فى هذا على الخصوص ليعرف قومه أن الله يكفيه أمرهم ؛ أى إن لم تنصرونى فإنى أتوكّل على من ينصرنى .

قوله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ قراءة العامة[(1)] « فَأَجْمِعُوا » بقطع الألف « شُرَكَاءَكُمْ » بالنصب . وقرأ عاصم الجحدرىّ « فَاجْمَعُوا » بوصل الألف وفتح الميم ؛ من جمع يجمع . « شُرَكَاءَكُمْ » بالنصب . وقرأ الحسن وآبن أبى إسحاق ويعقوب « فأجمعوا » بقطع الألف « شركاؤكم » بالرفع . فأما القراءة الأولى من أجمع على الشىء إذا عزم عليه . وقال الفراء : أجمع الشىء أعدّه . وقال المؤرّج : أجمعت الأمر أفصح من أجمعت عليه . وأنشد :

ياليت شعرى والمُنَى لا تنفع • هل أغْدُوَنْ يوما وأمرى مُجْمَعُ

(1) فى ع ر ك و هـ : الأئمة .

قال النحاس : وفى نصب الشركاء على هذه القراءة ثلاثة أوجه ؛ قال الكسائى والفراء : هو بمعنى وآدعوا شركاءكم لنصرتكم؛ وهو منصوب عندهما على إضمار هذا الفعل . وقال محمد بن يزيد : هو معطوف على المعنى؛ كما قال :

يا ليت زوجَك فى الوَغَى * متقـــلّدا سَـــيْفًا ورُمْحًا

والرمح لا يُتقلّد، إلا أنه محمول كالسيف . وقال أبو إسحاق الزجاج : المعنى مع شركائكم على تناصركم ؛ كما يقال : التقى المـاء والخشبةَ . والقراءة الثانية من الجمع، اعتبارا بقوله تعالى : « فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى »[1] . قال أبو معـاذ : ويجوز أن يكون جَمَـعَ وأجْمع بمعنًى واحد ، « وشركاءكم » على هذه القراءة عطف على « أمركم » ، أو على معنى فأجمعوا أمركم وأجمعوا شركاءكم ، وإن شئت بمعنى مع . قال أبو جعفر النحاس : وسمعت أبا إسحاق يجيز قام زيد وعمرا . والقراءة الثالثة على أن يعطف الشركاء على المضمر المرفوع فى أجمعوا، وحسن ذلك لأن الكلام قد طال . قال النحاس وغيره : وهذه القراءة تبعد؛ لأنه لو كان مرفوعا لوجب أن تكتب بالواو ، ولم يُرَ فى المصاحف واو فى قوله « وشركاءكم » ، وأيضـا فإن شركاءهم الأصنام، والأصنام لا تصنع شيئا ولا فعل لها حتى تُجْمِـع . قال المهدوىّ : ويجوز أن يرتفع الشركاء بالابتداء والخبر محذوف ، أى وشركاؤكم ليجمعوا أمرهم، ونسب ذلك إلى الشركاء وهى لا تسمع ولا تبصر ولا تميز على جهة التوبيخ لمن عبدها .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّـةً ﴾ اسم يكن وخبرها . وغُمّة وغَمّ سواء، ومعناه التغطية ؛ من قولهم : غُمّ الهلال إذا استتر؛ أى ليكن أمركم ظاهرا منكشفا تتمكنون فيه ممـا شئتم ؛ لا كمن يخفَى أمرُه فلا يقدر على ما يريد . قال طَرَفة :

لعمرك ما أمرى علىّ بغُمّة * نهـارى ولا ليلى علىّ بسَرْمَد

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٢١١ فا بعدها .

Marfat.com

الزجاج : غمّة ذا غم ، والغم والغُمّة كالكَرْب والكُرْبة . وقيل : إن الغمة ضيق الأمر الذى يوجب الغم فلا يتبيّن صاحبـه لأمره مصدراً لينفرج عنه ما يغُمّه . وفى الصحاح : والغمة الكربة . قال العجاج :

بل لو شهدت الناس إذ تُكُمُّوا(١) * بغُمّـة لو لم تُفَرَّج غُمُّـوا

يقال : أمرٌ غُمّة ، أى مُبْهَم ملتبس ؛ قال تعالى : « ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً » . قال أبو عبيدة : مجازها ظلمة وضيق . والغمة أيضا : قعر النِّحْى(٢) وغيره . قال غيره : وأصل هذا كله مشتق من الغمامة .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ ٱقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ ألف « اقضوا » ألف وصل، من قضى يقضى . قال الأخفش والكسائى : وهو مثل . « وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ(٣) » أى أنهيناه إليه وأبلغناه إياه . وروى عن ابن عباس « ثُمَّ ٱقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ » قال : امضوا إلى ولا تؤخرون . قال النحاس : هـذا قول صحيح فى اللغة، ومنه : قَضَى الميت أى مضى . وأعلمهم بهذا أنهم لا يصلون إليه ، وهذا من دلائل النبوّات . وحكى الفراء عن بعض القراء « ثم أفضوا إلىّ » بالفاء وقطع الألف ، أى توجهوا ؛ يقال : أفضت الخلافة إلى فلان ، وأفضى إلىّ الوجع . وهذا إخبار من الله تعالى عن نبيه نوح عليه السلام أنه كان بنصر الله واثقا ، ومن كيدهم غير خائف ؛ علما منه بأنهم وآلهتهم لا ينفعون ولا يضرون . وهو تعزيةٌ لنبيه صلى الله عليه وسلم وتقويةٌ لقلبه .

قوله تعـالى : فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾

---

(١) تكموا : غطوا بالغم . (٢) النحى (بالكسر) : زق للسمن .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٨ .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى فإن أعرضتم عما جئتكم به فليس ذلك لأنى سألتكم أجرا فيثقل عليكم مكافاتى . ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ فى تبليغ رسالته . ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى الموحدين لله تعـالى . فتح أهل المدينة وأبو عمرو وابن عامر وحفص ياء « أجرِيَ » حيث وقع ، وأسكن الباقون .

قوله تعـالى : فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَاتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ يعنى نوحا . ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ أى من المؤمنين . ﴿ فِي الْفُلْكِ ﴾ أى السفينة ، وسيأتى ذكرها . ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ﴾ أى سكان الأرض وخلفا ممن غرق . ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ يعنى آخر أمر الذين أنذرهم الرسل فلم يؤمنوا .

قوله تعالى : ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى من بعـد نوح . ﴿ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ ﴾ كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وغيرهم . ﴿ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالمعجزات . ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ التقدير : بما كذب به قوم نوح من قبل . وقيل : « بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ » أى من قبل يوم الذَّر ، فإنه كان فيهم من كذّب بقلبه وإن قال الجميع : بلى . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى هذا أنه لقوم بأعيانهم ؛ مثل : « أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ »[1] . ﴿ كَذَلِكَ نَطْبَعُ ﴾ أى نختم . ﴿ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ أى المجاوزين الحدّ فى الكفر والتكذيب فلا يؤمنوا . وهذا يردّ على القدرية قولهم كما تقدّم .

(١) راجع جـ ١ ص ١٨٤ .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى من بعـد الرسل والأمم . ﴿ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ أى أشراف قومه . ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ يريد الآيات التسع، وقد تقدم ذكرها[1] . ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ أى عن الحق . ﴿ وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ ﴾ أى مشركين .

قوله تعـالى : فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ يريد فرعون وقومه . ﴿ قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ حملوا المعجزات على السحر . قال لهم موسى : ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا ﴾ قيل : فى الكلام حذف، المعنى : أتقولون للحق هـذا سحر . فـ « أتقولون » إنكار وقولهم محذوف أى هـذا سحر، ثم آستأنف إنكارا آخر من قِبَله فقال: أسحر هذا! . فحذف قولهم الأوّل اكتفاء بالثـانى من قولهم ، منكرا على فرعون وملئه . وقال الأخفش : هو من قولهم، ودخلت الألف حكايةً لقولهم؛ لأنهم قالوا أسحر هذا . فقيل لهم : أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا؛ وروى عن الحسن . ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ أى لا يفلح من أتى به .

قوله تعـالى : قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٠، وجـ ٧ ص ٢٦٧ .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا ﴾ أى تصرفنا وتلوينا ، يقال : لفته يلفته لَفْتاً إذا لواه وصرفه . قال الشاعر :

تلفّتُ نحـــو الحيِّ حتى رأيتُنى * وجِعْتُ من الإصـغاء لِيتاً وأخدعا(١)

ومن هذا ٱلتفت إنمـا(٢) هو عدل عن الجهة التى بين يديه . ﴿ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ يريد من عبادة الأصنام . ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ ﴾ أى العظمة والملك والسلطان . ﴿ فِى الْأَرْضِ ﴾ يريد أرض مصر . ويقال للملك : الكبرياء لأنه أعظم ما يطلب فى الدنيا . ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وقرأ ٱبن مسعود والحسن وغيرهما « ويكون » باليـاء لأنه تأنيث غير حقيقى وقد فصل بينهما . وحكى سيبويه : حضر القاضى اليوم ٱمرأتان .

قوله تعـالى : وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾

إنمـا قاله لمـا رأى العصا واليد البيضاء واعتقد أنهما سحر . وقرأ حمزة والكسائى وابن وثّاب والأعمش « سحار » . وقد تقدم فى الأعراف القول فيهما(٣) .

قوله تعـالى : فَلَمَّـا جَآءَ ٱلسَّـحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾

أى ٱطرحوا على الأرض ما معكم من حبالكم وعصيكم . وقد تقدم فى الأعراف القول فى هذا مستوفى(٣) .

قوله تعـالى : فَلَمَّـآ أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾

---

(١) البيت للصمة القشيرى . والإصغاء الميل . والليت (بالكسر) . صفحة العنق . والأخدع : عرق فى صفحة العنق .

(٢) فى ع : أى عدل .		(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٥٧ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّـا أَلقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّـحْرُ ﴾ تكون « مَا » فى موضع رفع بالابتداء، والخبر « جئتم بِهِ » والتقدير : أى شىء جِئْتُمْ بِهِ ، على التوبيخ والتصغير لما جاءوا به من السحر . وقراءة أبى عمرو « آلسِّحْرُ » على الاستفهام على إضمار مبتدأ والتقدير أهو السحر . ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف ، التقدير : السحر جئتم به . ولا تكون « ما » على قراءة من استفهم بمعنى الذى، إذ لا خبر لها . وقرأ الباقون «السِّحْرُ» على الخبر، ودليل هذه القراءة قراءة ابن مسعود: «مَا جِئْتُمْ بِهِ سِحْرٌ» . وقراءة أُبَىّ : « ما أتيتم به سحر » ؛ فـ « ما » بمعنى الذى، و « جئتم به » الصلة ، وموضع « ما » رفع بالابتداء، والسحر خبر الابتداء . ولا تكون « ما » إذا جعلتها بمعنى الذى نصبا لأن الصلة لا تعمل فى الموصول . وأجاز الفراء نصب السحر بجئتم، وتكون ما للشرط،وجئتم فى موضع جزم بما والفاء محذوفة؛ التقدير : فإن الله سيبطله . ويجوز أن ينصب السحر على المصـدر، أى ما جئتم به سحرا ، ثم دخلت الألف واللام زائدتين، فلا يحتاج على هـذا التقدير إلى حذف الفاء . واختار هذا القـول النحاس ، وقال : حذف الفاء فى المجازاة لا يجيزه كثير من النحويين إلا فى ضرورة الشعر ؛ كما قال :

* من يفعل الحسنات الله يشكرها *

بل(١) ربما قال بعضهم : إنه لا يجوز ألبتة . وسمعت على بن سـليمان يقول : حدثنى محمد ابن يزيد قال حدثنى المـازنى قال سمعت الأصمعى يقول: غير النحويون هذا البيت، وإنما الرواية :

* من يفعل الخير فالرحمن يشكره *

وسمعت علىّ بن سليمان يقول : حذف الفاء فى المجازاة جائز . قال : والدليـل على ذلك «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ(٢)» . «وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم» قراءتان مشهورتان معروفتان. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ يعنى السحر. قال ابن عباس: من أخذ مضجعه من الليل ثم تلا هذه الآية . « مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّـحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَـيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ» لم يضره كيد ساحر. ولا تكتب على مسحور إلا دفع الله عنه السحر.

(١) فى ع : وربما . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٣٠ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ ﴾ أى يبيّنه و يوضحه . ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى بكلامه وحججه وبراهينه . وقيل : بعداته بالنصر . ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ من آل فرعون .

قوله تعالى : ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ الهاء عائدة على موسى . قال مجاهد : أى لم يؤمن منهم أحد ، و إنما آمن أولاد من أرسل موسى إليهم من بنى إسرائيل ، لطول الزمان هلك الآباء وبقى الأبناء فآمنوا ؛ وهذا اختيار الطبرى . والذرية أعقاب الإنسان ، وقد تكثر . وقيل : أراد بالذرية مؤمنى بنى إسرائيل . قال ابن عباس : كانوا ستمائة ألف ، وذلك أن يعقوب عليه السلام دخل مصر فى آثنين وسبعين إنسانا فتوالدوا بمصر حتى بلغوا ستمائة ألف . وقال ابن عباس أيضا : « مِنْ قَوْمِهِ » يعنى من قوم فرعون ؛ منهم مؤمنُ آل فرعون وخازنُ فرعون وآمرأته وماشطة آبنته وامرأة خازنه . وقيل : هم أقوامٌ آباؤهم من القبط ، وأمهاتهم من بنى إسرائيل فسُمّوا ذرية كما يسمى أولاد الفُرس الذين توالدوا باليمن و بلاد العرب الأبناء ؛ لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم ؛ قاله الفراء : وعلى هذا فالكناية فى « قَوْمِهِ » ترجع إلى موسى للقرابة من جهة الأمهات ، و إلى فرعون إذا كانوا من القبط .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴾ لأنه كان مسلّطا عليهم عاتيا . ﴿ وَمَلَئِهِمْ ﴾ ولم يقل وملئه ؛ وعنه ستة أجوبة : أحدها — أن فرعون لما كان جبارا أخبر عنه بفعل الجميع . الثانى — أن فرعون لما ذكر علم أن معه غيرَه ، فعاد الضمير عليه وعليهم ؛ وهذا أحد قولى الفرّاء . الثالث — أن تكون الجماعة سميت بفرعون مثل ثمود . الرابع — أن يكون التقدير : على خوف من آل فرعون ؛ فيكون من باب حذف المضاف مثل : « وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ »[(١)] ،

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٤٥ فما بعد .

Marfat.com

وهو القول الثانى للفرّاء . وهذا الجواب على مذهب سيبويه والخليل خطأ، لا يجوز عندهما قامت هنـد ، وأنت تريد غلامها . الخامس — مذهب الأخفش سعيد أن يكون الضمير يعود على الذرية ، أى ملأ الذرية ؛ وهو اختيـار الطبرى . السادس — أن يكون الضمير يعود على قومه . قال النحاس : وهذا الجواب كأنه أبلغها . ﴿ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ﴾ وحّد « يَفْتِنَهُمْ » على الإخبار عن فرعون ، أى يصرفهم عن دينهـم بالعقوبات ، وهو فى موضع خفض على أنه بدل اشتمال . ويجوز أن يكون فى موضـع نصب بـ « خَوْفٍ » . ولم ينصرف فرعون لأنه اسم أعجمى وهو معـرفة . ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَـالٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى عاتٍ متكبر . ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أى المجاوزين الحدّ فى الكفر؛ لأنه كان عبدا فادّعى الربوبية .

قوله تعـالى : وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ ﴾ أى صدّقتم . ﴿ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ﴾ أى اعتمدوا . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ كرر الشرط تأكيدا، وبيّن أن كمال الإيمان بتفويض الأمر إلى الله . ﴿ فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أى أسلمنا أمورنا إليه ، ورضينا بقضائه وقدره ، وانتهينا إلى أمره . ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى لا تنصرهم علينا، فيكون ذلك فتنة لنا عن الدين، أو لا تمتحنّا بأن تعذّبنا على أيديهم . وقال مجاهد : المعنى لا تهلكنا بأيدى أعدائنا ، ولا تعذبنا بعذاب من عندك ، فيقول أعداؤنا لو كانوا على حق لم نسلَّط عليهم ؛ فيُفتنوا . وقال أبو مِجْلَز وأبو الضُّحا : يعنى لا تظهرهم علينا فيروْا أنهم خير منا فيزدادوا طغيانا.

قوله تعـالى : وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ ﴾ أى خلّصنا . ﴿ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أى من فرعون وقومه ، لأنهم كانوا يأخذونهم بالأعمال الشاقة .

Marfat.com

قوله تعالى : وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا﴾ أى آتخذا . ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ يقال : بوّأت زيدا مكانا، وبوّأت لزيد مكانا . والمبوّأ المنزل الملزوم؛ ومنه بوّأه الله منزلا ، أى ألزمه إياه وأسكنه ؛ ومنه الحديث : "من كذب علىّ متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار" قال الراجز :

نحن بنو عدنان ليس شك * تبوّأ المجد بنا والملك

ومصر فى هذه الآية هى الإسكندرية ؛ فى قول مجاهد . وقال الضحاك : إنه البلد المسمى مصر، ومصر ما بين البحر إلى أُسوان، والإسكندرية من أرض مصر .

الثانية — قوله تعالى : ﴿وَٱجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال أكثر المفسرين : كان بنو إسرائيل لا يصلّون إلا فى مساجدهم وكنائسهم وكانت ظاهرة ، فلما أُرسل موسى أمر فرعونُ بمساجد بنى إسرائيل فخرّبت كلها ومنعوا من الصلاة ؛ فأوحى الله إلى موسى وهارون أن آتخذا وتخيّرا لبنى إسرائيل بيوتا بمصر ، أى مساجد ، ولم يرد المنازل المسكونة . هذا قول إبراهيم وآبن زيد والربيع وأبى مالك وآبن عباس وغيرهم . وروى عن آبن عباس وسعيد بن جُبَير أن المعنى : وآجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضا . والقول الأول أصح ؛ أى آجعلوا مساجدكم إلى القِبلة ؛ قيل : بيت المقدس ، وهى قبلة اليهود إلى اليوم ؛ قاله ابن بحر . وقيل الكعبة . عن آبن عباس قال : وكانت الكعبة قِبلة موسى ومن معه ، وهذا يدلّ على أن القبلة فى الصلاة كانت شرعا لموسى عليه السلام ، ولم تخل الصلاة عن شرط الطهارة وستر العورة واستقبال القبلة ؛ فإن ذلك أبلغ فى التكليف وأوفر للعبادة . وقيل : المراد صلّوا فى بيوتكم سرّا لتأمنوا ؛ وذلك حين أخافهم فرعون فأمروا بالصبر واتخاذ المساجد فى البيوت ،

Marfat.com

والإقدام على الصلاة، والدعاء إلى أن ينجز الله وعده، وهو المراد بقوله : « قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا » (١) الآية . وكان من دينهم أنهم لا يصلون إلا فى البِيَع والكنائس ما داموا على أمن ، فإذا خافوا فقد أذن لهم أن يصلوا فى بيوتهم . قال ابن العربى : والأول أظهر القولين، لأن الثانى دعوى .

قلت : قوله : « دعوى » صحيح؛ فإن فى الصحيح قوله عليه السلام : "جعلت لى الأرض مسجدا وطَهورا " وهذا ممـا خُصّ به دون الأنبياء؛ فنحن بحمد الله نصلّى فى المساجد والبيوت، وحيث أدركتنا الصلاة؛ إلا أن النافلة فى المنازل أفضل منها فى المساجد، حتى الركوع قبل الجمعـة وبعدها . وقبـل الصلوات المفروضات وبعدها ؛ إذ النوافل يحصـل فيها الرياء ، والفرائض لا يحصل فيها ذلك ، وكلما خلَص العمـل من الرياء كان أوزن وأزلف عند الله سبحانه وتعالى . روى مسلم عن عبد الله بن شقيق قال : سألت عائشة عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تطوعه قالت : "كان يصلّى فى بيتى قبل الظهر أربعا، ثم يخرج فيصلّى بالناس ، ثم يدخل فيصلّى ركعتين ، وكان يصلّى بالناس المغرب، ثم يدخل فيصلى ركعتين، ثم يصلى بالناس العشاء ، ويدخل بيتى فيصلى ركعتين ... " الحديث . وعن ابن عمر قال : صلّيت مع النبىّ صلى الله عليه وسلم قبل الظهر سجدتين وبعدها سجدتين وبعد المغرب سجدتين؛ فأما المغرب والعشاء والجمعة فصليت مع النبىّ صلى الله عليـه وسلم فى بيته . وروى أبو داود عن كعب بن عُجْـرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أتى مسجد بنى الأشهل فصلى فيه المغرب؛ فلما قضَوْا صلاتهم رآهم يسبحون بعدها فقال : " هذه صلاة البيوت " .

الثالثـــة ـــ واختلف العلمـاء من (٢) هذا الباب فى قيام رمضان ، هل إيقاعه فى البيت أفضل أو فى المسجد؟ فذهب مالك إلى أنه فى البيت أفضل لمن قوِى عليه، وبه قال أبو يوسف وبعض أصحـاب الشافعى . وذهب ابن عبد الحكم وأحمد وبعض أصحاب الشافعى إلى أن حضورها فى الجماعة أفضل . وقال الليث : لو قام الناس فى بيوتهم ولم يقم أحد فى المسجد

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٦١ فما بعد . (٢) فى هـ : فى هذا .

Marfat.com

لا ينبغى أن يخرجوا إليه . والحجة لمـالك ومن قال بقوله قولُه صلى الله عليه وسلم فى حديث زيد بن ثابت : " فعليكم بالصلاة فى بيوتكم فإن خير صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة" خرجه البخارى . احتج المخالف بأن النبى صلى الله عليه وسلم قد صلّاها فى الجماعة فى المسجد، ثم أخبر بالمـانع الذى منع منـه على الدوام على ذلك ، وهو خشية أن تفرض عليهم فلذلك قال لهم : " فعليكم بالصـلاة فى بيوتكم " . ثم إن الصحابة كانوا يصلونها فى المسجد أوزاعا متفرقين، إلى أن جمعهم عمر على قارئ واحد فاستقر الأمر على ذلك وثبت سُنّة .

الرابعــة — وإذا تنزلنا على أنه كان أبيح لهم أن يصلوا فى بيوتهم إذا خافوا على أنفسهم فيستدلّ به على أن المعذور بالخوف وغيره يجوز له ترك الجماعة والجمعة . والعذر الذى يبيح له ذلك كالمرض الحابس، أو خوف زيادته، أو خوف جور السلطان فى مال أو بدن دون القضاء عليه بحق . والمطرُ الوابل مع الوحل عذر إن لم ينقطع ، ومن له ولىّ حميم قد حضرته الوفاة ولم يكن عنده من يمرّضه؛ وقد فعل ذلك ابن عمر .

الخامســة — قوله تعـالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم . وقيل لموسى عليـه السلام ، وهو أظهر، أى بشر بنى إسرائيل بأن الله سيظهرهم على عـدوّهم .

قوله تعـالى : وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

قوله تعـالى : ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ﴾ « آتَيْتَ » أى أعطيت . ﴿ زِينَـةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى مال الدنيا ، وكان لهم من فُسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن الذهب والفضة والزبرجد والزّمرد والياقوت .

Marfat.com

قوله تعـالى : ﴿ رَبَّنَا لِيَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾ اختلف فى هـذه اللام، وأصح ما قيل فيها — وهو قول الخليل وسيبويه — أنها لام العاقبة والصيرورة؛ وفى الخبر " إن لله تعالى مَلَكا ينـادى كلّ يوم لِدُوا للموت وابنوا للخراب ". أى لمـا كان عاقبة أمرهم إلى الضـلال صار كأنه أعطاهم ليَضِلّوا . وقيل : هى لام كَىْ، أى أعطيتهم لكى يضلوا ويَبْطَروا ويتكبروا . وقيل : هى لام أَجْل، أى أعطيتهم لأجل إعراضهم عنك فلم يخافوا أن تعرض عنهم. وزعم قوم أن المعنى : أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا، فحذفت لا كما قال عز وجل : «يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا» [١] . والمعنى: لأن لا تضلوا . قال النحاس : ظاهر هذا الجواب حسن، إلا أن العرب لا تحذف « لا » إلا مع أن؛ فمّوه صاحب هذا الجواب بقوله عز وجل : « أَنْ تَضِلُّوا » . وقيـل : اللام للدعاء، أى ٱبتلهم بالضلال عن سبيلك؛ لأن بعده : «ٱطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَٱشْدُدْ» . وقيل : الفعل معنى المصدر أى إضلالهم؛ كقوله عز وجل: «لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ» . قرأ الكوفيون : « لِيُضِلُّوا » بضم الياء من الإضلال، وفتحها الباقون .

قوله تعـالى : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ﴾ أى عاقبهم على كفرهم بإهـلاك أموالهم. قال الزجاج : طَمْسُ الشىء إذهابه عن صورته . قال ابن عباس ومحمد بن كعب : صارت أموالهم ودراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأثلاثا وأنصافا، ولم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليـه فلم ينتفع به أحد بعد . وقال قتادة : بلغنا أن أموالهم وزروعهم صارت حجارة . وقال مجاهد وعطيـة : أهلكها حتى لا تُرَى؛ يقال : عين مطموسـة، وطُمس الموضع إذا عفا ودَرَس . وقال ابن زيد: صارت دنانيرهم ودراهمهم وفرشهم وكل شىء لهم حجارة . محمد آبن كعب: وكان الرجل منهم يكون مع أهله فى فراشه وقد صارا حجرين؛ قال: وسألنى عمر بن عبد العزيز فذكرت ذلك له فدعا بخريطة [٢] أصيبت بمصر فأخرج منها الفواكه والدراهم والدنانير وإنها لحجارة . وقال السدّى : وكانت إحدى الآيات التسع . ﴿ وَٱشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ . قال آبن عباس : أى امنعهم الإيمان . وقيل : قسّها وٱطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان؛ والمعنى

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٨ فا بعد .

(٢) الخريطة : هنة مثل الكيس تكون من الخرق والأدم تشرج على ما فيها . اللسان .

Marfat.com

واحد. ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا ﴾ قيل: هو عطف على قوله: «لِيَضِلُّوا» أى آتيتهم النعم ليضلوا ولا يؤمنوا؛ قاله الزجاج والمبرد. وعلى هذا لا يكون فيه من معنى الدعاء شيء. وقوله: « رَبَّنَا اطْمِسْ، وَاشْدُدْ » كلام معترض. وقال الفراء والكسائى وأبو عبيدة: هو دعاء، فهو فى موضع جزم عندهم؛ أى اللهم فلا يؤمنوا، أى فلا آمنوا. ومنه قول الأعشى:

فلا ينبسطْ من بين عينَيْك ما ٱنْزَوى * ولا تَلْقَنى إلا وأنفُك راغِمُ

أى لا ٱنبسط. ومن قال « لِيَضِلّوا » دعاء — أى ابتلهم بالضلال — قال: عطف عليه « فَلَا يُؤْمِنُوا ». وقيل: هو فى موضع نصب لأنه جواب الأمر؛ أى واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا. وهذا قول الأخفش والفراء أيضا، وأنشد الفراء:

يا ناق سيرى عَنَقًا فسيحا * إلى سليمان فنستريحا

فعلى هذا حذفت النون لأنه منصوب. ﴿ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ قال ابن عباس: هو الغرق. وقد ٱستشكل بعض الناس هذه الآية فقال: كيف دعا عليهم وحكم الرسل استدعاء إيمان قومهم؛ فالجواب أنه لا يجوز أن يدعو نبىّ على قومه إلا بإذن من الله، و إعلام أنه ليس فيهم من يؤمن ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن؛ دليله قوله لنوح عليه السلام: « أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ »(1) وعند ذلك قال: « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا »(2) [الآية](3). والله أعلم.

قوله تعالى: قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ قال أبو العالية: دعا موسى وأمّن هارون؛ [فسمى(4) هارون] وقد أمّن على الدعاء داعيا. والتأمين على الدعاء أن يقول آمين؛ فقولك آمين

(1) راجع جـ ٩ ص ٢٩.
(2) راجع جـ ١٨ ص ٣١٢.
(3) من ع.
(4) من ع وك وه.

Marfat.com

دعاء ، أى يا رب استجب لى . وقيل : دعا هارون مع موسى أيضا . وقال أهل المعانى : ربما خاطبت العرب الواحد بخطاب الاثنين ؛ قال الشاعر :

فقلت لصاحبي لا تُعجلانا * بنزع أصوله فاجتز شيحا

وهذا على أن آمين ليس بدعاء ، وأن هارون لم يدع . قال النحاس : سمعت علىّ بن سليمان يقول : الدليل على أن الدعاء لهما قول موسى عليه السلام « ربنا » ولم يقل رب . وقرأ علىّ والسُّلَمِىّ «دعواتكما» بالجمع . وقرأ ابن السَّمَيْقَع «أجبتُ دعوتكما» خبرا عن الله تعالى، ونصب دعوة بعده . وتقدم القول فى « آمين » فى آخر الفاتحة مستوفى(1) . وهو مما خص به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهارون وموسى عليهما السلام . روى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله قد أعطى أمّتى ثلاثا لم تُعْط أحدا قبلهم السلام وهى تحية أهل الجنة وصفوف الملائكة وآمين إلا ما كان من موسى وهارون" ذكره الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول . وقد تقدم فى الفاتحة(1) .

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَقِيمَا ﴾ قال الفراء وغيره : أمر بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه من دعاء فرعون وقومه إلى الإيمان، إلى أن يأتيهما تأويل الإجابة . قال محمد بن علىّ وابن جريج : مكث فرعون وقومه بعد هذه الإجابة أربعين سنة ثم أهلكوا . وقيل : « استقيما » أى على الدعاء ؛ والاستقامة فى الدعاء ترك الاستعجال فى حصول المقصود ، ولا يسقط الاستعجال من القلب إلا باستقامة السكينة فيه، ولا تكون تلك السكينة إلا بالرضا الحسن لجميع ما يبدو من الغيب . ﴿ وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ بتشديد النون فى موضع جزم على النهى ، والنون للتوكيد وحركت لالتقاء الساكنين واختير لها الكسر لأنها أشبهت نون الاثنين . وقرأ ابن ذَكْوَان بتخفيف النون على النفى . وقيل : هو حال من استقيما ؛ أى استقيما غير متَّبعين ، والمعنى : لا تسلكا طريق من لا يعلم حقيقة وعدى ووعيدى .

(1) راجع جـ ١ ص ١٢٧ .

قوله تعالى : وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ تقدّم القول فيه في «البقرة» في قوله : « وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ » (١) . وقرأ الحسن «وجوّزنا» وهما لغتان . ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ﴾ يقال : تبِع وأتبع بمعنًى واحد، إذا لحقه وأدركه . واتّبع (بالتشديد) إذا سار خلفه . وقال الأصمعي : أتبعه (بقطع الألف) إذا لحقه وأدركه، واتّبعه (بوصل الألف) إذا اتّبع أثره، أدركه أو لم يدركه . وكذلك قال أبو زيد . وقرأ قتادة « فاتّبعهم » بوصل الألف . وقيل : « اتّبعه » (بوصل الألف) في الأمر اقتدى به . وأتبعه (بقطع الألف) خيرا أو شرا؛ هذا قول أبي عمرو. وقد قيل هما بمعنًى واحد . فخرج موسى ببني إسرائيل وهم ستمائة ألف وعشرون ألفا، وتبعه فرعون مُصْبِحًا في ألفي ألف وستمائة ألف . وقد تقدّم (٢) . ﴿ بَغْيًا ﴾ نصب على الحال . ﴿ وَعَدْوًا ﴾ معطوف عليه؛ أي في حال بَغْيٍ واعتداء وظلم؛ يقال: عدا يعدو عَدْوًا؛ مثل غزا يغزو غَزْوًا . وقرأ الحسن « وعُدوّا » بضم العين والدال وتشديد الواو؛ مثل علا يعلو عُلُوًّا . وقال المفسرون : « بغيا » طلبا للاستعلاء بغير حق في القول، « وعدوًا » في الفعل؛ فهما نصب على المفعول له . ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ﴾ أي ناله ووصله . ﴿ قَالَ آمَنْتُ ﴾ أي صدّقت . ﴿ أَنَّهُ ﴾ أي بأنه . ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ فلما حذف الخافض تعدّى الفعل فنصب . وقرئ بالكسر، أي صرت مؤمنا ثم استأنف . وزعم أبو حاتم أن القول محذوف، أي آمنت فقلت إنه ، والإيمان لا ينفع حينئذ؛ والتوبة مقبولة قبل رؤية البأس ، وأما بعدها وبعد المخالطة فلا تقبل ، حسب ما تقدّم في « النساء » (٣) بيانه . ويقال : إن فرعون هاب دخول البحر وكان على حصان أدهم ولم يكن في خيل فرعون فرس أنثى ؛ فجاء جبريل على فرس وَدِيق

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٨٧ . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٨٩ . (٣) راجع جـ ٥ ص ٩٠ .

Marfat.com

— أى شَهِيّ[1] — فى صورة هامان وقال له : تقدّم، ثم خاض البحر فتبعها حصان فرعون، وميكائيل يسوقهم لا يشذّ منهم أحد ، فلما صار آخرهم فى البحر وهَمّ أولهم أن يخرج آنطبق عليهم البحر ، وألجم فرعونَ الغرقُ فقال : آمنت بالذى آمنت به بنو إسرائيل ؛ فدس جبريل فى فمه حال البحر . وروى الترمذى عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لما أغرق الله فرعون قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل قال جبريل يا محمد فلو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأدسّه فى فيـه مخافة أن تدركه الرحمة " . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن . حال البحر : الطين الأسود الذى يكون فى أرضه ؛ قاله أهل اللغـة . وعن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه ذكر: " أن جبريل جعل يدسّ فى فى فرعون الطين خشية أن يقول لا إله إلا الله فيرحمه الله أو خشية أن يرحمه " . قال : هذا حديث حسن غريب صحيح . وقال عَون بن عبد الله : بلغنى أن جبريل قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ما ولد إبليس أبغَض إلىّ من فرعون، فإنه لمـا أدركه الغرق قال : « آمنت » الآية ، فخشيت أن يقولها فيرحم ، فأخذت تربة أو طينة فحشوتها فى فيه . وقيل : إنما فُعل هذا به عقوبةً له على عظيم ما كان يأتى . وقال كعب الأحبار : أمسك الله نيل مصر عن الجَرْى فى زمانه ، فقالت له القبط : إن كنت ربنا فأجْرِ لنا المـاء، فركب وأمر بجنوده قائدا قائدا وجعلوا يقفون على درجاتهم وقفز[2] حيث لا يرونه ونزل عن دابته ولبس ثيابا له أخرى وسجد وتضرّع لله تعـالى فأجرى الله له المـاء ، فأتاه جبريل وهـو وحده فى هيئـة مُسْتَفْتٍ وقال : ما يقول الأمـير فى رجل له عبد قـد نشأ فى نعمته لاسند[3] له غيره، فكفر نعمه وجحد حقّـه وآدّعى السيادة دونه ؛ فكتب فرعون : يقول أبو العبـاس الوليد بن مصعب بن الرّيان جزاؤه أن يغـرّق فى البحر؛ فأخذه جبريل ومرّ فلما أدركه الغرق ناوله جبريل عليه السلام خطّه . وقد مضى هذا فى « البقرة[4] » عن عبد الله بن عمرو بن العاص وابن عباس مسندا ؛ وكان هـذا فى يوم عاشوراء على ما تقدّم بيانه فى « البقرة » أيضا فلا معنى للإعادة .

(١) أى تشتهى الفحل . (٢) فى ع وك وه : قعد . (٣) فى ع : لا سيد له .
(٤) راجع جـ ١ ص ٣٨١ فما بعد .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى من الموحدين المستسلمين بالانقياد والطاعة .

قوله تعالى : ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾

قيل : هو من قول الله تعالى . وقيل : هو من قول جبريل . وقيل : ميكائيل ، صلوات الله عليهما ، أو غيرهما من الملائكة [له][1] صلوات الله عليهم . وقيل : هو من قول فرعون فى نفسه ، ولم يكن ثم قول باللسان بل وقع ذلك فى قلبه فقال فى نفسه ما قال : حيث لم تنفعه الندامة ؛ ونظيره . « إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ »[2] أثنى عليهم الرب بما فى ضميرهم لا أنهم قالوا ذلك بلفظهم ، والكلام الحقيق كلام القلب .

قوله تعالى : فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أى نلقيك على نجوة من الأرض . وذلك أن بنى إسرائيل لم يصدقوا أن فرعون غرق ، وقالوا : هو أعظم شأنا من ذلك ، فألقاه الله على نجوة من الأرض ، أى مكان مرتفع من البحر حتى شاهدوه . قال أوس بن حجر يصف مطرا :

فمن بعقوته كمن بنجوته * والمستكن كمن يمشى بقرواح[3]

وقرأ اليزيدى وابن السميقع « ننحيك » بالحاء من التنحية ، وحكاها علقمة عن ابن مسعود ؛ أى تكون على ناحية من البحر . قال ابن جريج : فرمى به على ساحل البحر حتى رآه بنو إسرائيل ، وكان قصيرا أحمر كأنه ثور . وحكى علقمة عن عبد الله أنه قرأ « بندائك » من النداء . قال أبو بكر الأنبارى : وليس بمخالف لهجاء مصحفنا ، إذ سبيله أن يكتب بياء وكاف بعد الدال ؛ لأن الألف تسقط من ندائك فى ترتيب خط المصحف كما سقط من الظلمات والسموات ، فإذا وقع بها الحذف استوى هجاء بدنك وندائك ، على أن هذه القراءة مرغوب عنها لشذوذها وخلافها ما عليه عامة المسلمين ؛ والقراءة سنة يأخذها آخر عن أول ، وفى معناها نقص عن

---

(١) من ع و هـ .   (٢) راجع جـ ١٩ ص ١٢٥ فما بعد .

(٣) العقوة والعقاة : الساحة وما حول الدار والمحلة وجمعها عقاء . والقرواح : الأرض البارزة للشمس .

Marfat.com

تأويل قراءتنا ، إذ ليس فيها للدرع ذكر ، الذى تتابعت الآثار بأن بنى إسرائيل اختلفوا فى غرق فرعون ، وسألوا الله تعالى أن يريهم إياه غريقا فألقوه على نجوة من الأرض ببدنه وهو درعه التى يلبسها فى الحروب . قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظى : وكانت درعه من لؤلؤ منظوم . وقيل : من الذهب وكان يعرف بها . وقيل : من حديد؛ قاله أبو صخر : والبدن الدرع القصيرة . وأنشد أبو عبيدة للأعشى :

وبيضاء كالنِّهْى مَوْضُونة * لها قَوْنَسٌ فوق جَيْب البَدَنْ (١)

وأنشد أيضا لعمرو بن معديكرب :

ومضى نساؤهمُ بكل مُفاضةٍ * جَدْلَاء سابغةٍ وبالأبدانِ (٢)

وقال كعب بن مالك :

ترى الأبدان فيها مسبَّغات * على الأبطال واليَلَب الحصينا

أراد بالأبدان الدروع ، واليلب الدروع اليمانية ، كانت تتخذ من الجلود يخرز بعضها إلى بعض؛ وهو اسم جنس، الواحد يلبة . قال عمرو بن كلثوم :

علينا البيضُ واليَلَبُ اليمانِى * وأسيافٌ يَقُمن ويَنْحنِينا

وقيل : « ببدنك » بجسد لا روح فيه؛ قاله مجاهد : قال الأخفش : وأما قول من قال بدرعك فليس بشىء . قال أبو بكر : لأنهم لما ضرعوا إلى الله يسألونه مشاهدة فرعون غريقا أبرزه لهم فرأوا جسدا لا روح فيه ، فلما رأته بنو إسرائيل قالوا نعم ! ياموسى هذا فرعون وقد غرق؛ فخرج الشك من قلوبهم وآبتلع البحر فرعون كما كان . فعلى هذا « نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ » آحتمل معنيين : أحدهما — نلقيك على نجوة من الأرض . والثانى — نظهر جسدك الذى لا روح فيه . والقراءة الشاذة « بندائك » يرجع معناها إلى معنى قراءة الجماعة؛ لأن النداء يفسر تفسيرين، أحدهما — نلقيك بصياحك بكلمة التوبة، وقولك بعد أن أغلق بابها ومضى

---

(١) البيضاء : الدرع ؛ والنهى (بالفتح والكسر) : الغدير وكل موضع يجتمع فيه الماء . والموضونة : الدرع المنسوجة . والقونس : أعلى بيضة فى الحديد .

(٢) فى ع و هـ : مشى ؛ والمفاضة (بضم أوله) : الدرع الواسعة . والجدلاء : الدرع المحكمة النسج .

Marfat.com

وقت قبولها : « آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » على موضع رفيع . والآخر — فاليوم نعزلك عن غامض البحر بندائك لمّا قلت أنا ربكم الأعلى ؛ فكانت تنجيته بالبدن معاقبةً من رب العالمين له على مافَرَط من كفره الذى منه نداؤه الذى افترى فيه وبُهت ، وادّعى القدرة والأمر الذى يعلم أنه كاذب فيه وعاجز عنه وغير مستحق له .

قال أبو بكر الأنبارىّ : فقراءتنا تتضمن ما فى القراءة الشاذة من المعانى وتزيد عليها .

قوله تعالى : ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ أى لبنى إسرائيل ولمن بقى من قوم فرعون ممن لم يدركه الغرق ولم ينتـه إليه هذا الخبر . ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ أى معرضون عن تأمل آياتنـا والتفكر فيها . وقرئ « لمن خَلَفك » (بفتح اللام) ؛ أى لمن بقى بعدك يخلفك فى أرضك . وقرأ علىّ بن أبى طالب « لمن خالقك » بالقاف ؛ أى تكون آية لخالقـك .

قوله تعالى : وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ أى منزل صـدق محمود مختار ، يعنى مصر . وقيل : الأُرْدُنّ وفلسطين . وقال الضحاك : هى مصر والشام . ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أى من الثمـار وغيرها . وقال ابن عباس : يعنى قُرَيظة والنَّضير وأهل عصر النبىّ صلى الله عليه وسلم من بنى إسرائيل ؛ فإنهم كانوا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم وينتظرون خروجه ، ثم لمـا خرج حسدوه ؛ ولهذا قال : ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا ﴾ أى فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ أى القرآن ومحمد صلى الله عليه وسلم . والعلم بمعنى المعلوم ؛ لأنهم كانوا يعلمونه قبل خروجه ؛ قاله ابن جرير الطبرى . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ ﴾ أى يحكم بينهم ويفصل . ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فى الدنيا ، فيثيب الطائع ويعاقب العاصى .

Marfat.com

قوله تعالى : فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد غيره، أى لست فى شكّ ولكنّ غيرك شك . قال أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد: سمعت الإمامين ثعلبًا والمبرد يقولان : معنى « فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ » أى قل يا محمد للكافر فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك . ﴿ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أى ياعابد الوثن إن كنت فى شك من القرآن فآسأل من أسلم من اليهود، يعنى عبد الله بن سلّام وأمثالَه ؛ لأن عبدة الأوثان كانوا يقرّون لليهود أنهم أعلم منهم من أجل أنهم أصحاب كتاب ؛ فدعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن يسألوا من يقرّون بأنهم أعلم منهم، هل يبعث الله برسول من بعد موسى . وقال القُتَبيّ : هـذا خطاب لمن كان لا يقطع بتكذيب محمد ولا بتصديقه صلى الله عليه وسلم، بل كان فى شك . وقيل : المراد بالخطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم لا غيره، والمعنى : لو كنت يلحقك الشك فيما أخبرناك به فسألت أهل الكتاب لأزالوا عنك الشك . وقيـل : الشك ضيق الصـدر ؛ أى إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصـبر ، وآسأل الذين يقرءون الكتاب من قبـلك يخبروك صَبْرَ الأنبيـاء من قبلك على أذى قومهم وكيف عاقبـة أمرهم . والشك فى اللغـة أصله الضيق ؛ يقال : شـكّ الثوب أى ضمه بخِلال حتى يصير كالوعاء . وكذلك السّفرة تُمـدّ [1] علائقها حتى تنقبض ؛ فالشك يقبض الصدر و يضمه حتى يضيق . وقال الحسين بن الفضل : الفاء مع حروف الشرط لا توجب الفعل ولا تثبتـه ، والدليل عليـه ما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم أنه قال لمـا نزلت هذه الآية : "والله

---

(١) كذا فى الأصول . والظاهر أنها « تشك » .

Marfat.com

لا أشك — ثم استأنف الكلام فقال — لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ" أى الشاكين المرتابين . ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ والخطاب فى هاتين الآيتين للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد غيره .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ تقدّم القول فيه فى هذه السورة (1) . قال قتادة : أى الذين حق عليهم غضبُ الله وسخطُه بمعصيتهم لا يؤمنون . ﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ أنّث « كلّا » على المعنى؛ أى ولو جاءتهم الآيات . ﴿ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ فحينئذ يؤمنون ولا ينفعهم .

قوله تعالى : فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ﴾ قال الأخفش والكسائى : أى فهلّا . وفى مصحف أُبَىّ وابن مسعود « فهلا » وأصل لولا فى الكلام التحضيض أو الدلالة على منع أمر لوجود غيره . ومفهومٌ من معنى الآية نفى إيمان أهل القرى ثم استثنى قوم يونس؛ فهو بحسب اللفظ استثناء منقطع، وهو بحسب المعنى متصل؛ لأن تقديره ما آمن أهل قرية إلا قوم يونس . والنصب فى « قوم » هو الوجه، وكذلك أدخله سيبويه فى (باب ما لا يكون إلّا منصوبا) . قال النحاس : « إلا قوم يونس » نصب لأنه استثناء ليس من الأوّل، أى لكن قوم يونس؛ هذا قول الكسائى والأخفش والفرّاء . ويجوز . « إلا قومُ يونس »

(1) راجع ص ٣٤٠ من هذا الجزء .

بالرفع ، ومن أحسن ما قيـل فى الرفع ما قاله أبو إسحـاق الزجاج قال : يكون المعنى غيرُ قومِ يونس ، فلما جاء بإلّا أعرب الاسم الذى بعدها بإعراب غير ؛ كما قال :

وكلُّ أخٍ مفارِقه أخـوه * لَعَمْرُ أبيك إلا الفرْقدانِ

وروى فى قصة قوم يونس عن جماعة من المفسرين : أن قوم يونس كانوا بنِينَوى من أرض المَوْصل وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام وترك ما هم عليه فأبَوْا ؛ فقيل : إنه أقام يدعوهم تسع سنين فيئس من إيمانهم ؛ فقيـل له : أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاثٍ ففعـل ، وقالوا : هو رجل لا يكذب فارقبوه فإن أقام معكم و بين أظهركم فلا عليكم ، و إن آرتحل عنكم فهو نزول العذاب لاشك ؛ فلمـا كان الليل تزوّد يونس وخرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتـابوا ودعوا الله ولبسوا المُسوح وفرّقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم ، وردّوا المظالم فى تلك الحالة . وقال ابن مسعود : وكان الرجل يأتى الحجر قد وضع عليه أساس بنيانه فيقتلعه فيردّه ؛ والعذاب منهم فيما روى عن ابن عباس على ثلثى ميل . ورُوى على ميل . وعن ابن عباس أنهم غشيتهم ظُلّة وفيهـا حمرة فلم تزل تدنو حتى وجدوا حرّها بين أكتافهم . وقال ابن جبير : غشيهم العـذاب كما يغشى الثوب القبر ، فلما صحت توبتهم رفع الله عنهم العذاب . وقال الطبرى : خص قوم يونس من بين سائر الأمم بأن تِيب عليهم بعد معاينة العذاب ؛ وذكر ذلك عن جماعة من المفسرين . وقال الزجاج : إنهـم لم يقع بهم العذاب ، و إنمـا رأوا العـلامة التى تدلّ على العـذاب ، ولو رأوا عين العذاب لمـا نفعهم الإيمان .

قلت : قول الزجاج حسن ؛ فإن المعاينة التى لا تنفع التوبة معهـا هى التلبس بالعذاب كقصة فرعون ، ولهذا جاء بقصة قوم يونس على أثر قصة فرعون لأنه آمن حين رأى العذاب فلم ينفعه ذلك ، وقوم يونس تابوا قبل ذلك . ويَعْضُد هذا قوله عليه السلام : " إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر " . والغرغرة الحشرجة ، وذلك هو حال التلبس بالموت ، وأما قبل ذلك فلا . والله أعلم . وقد روى معنى ما قلناه عن ابن مسعود ، أن يونس لمـا وعدهم العذاب إلى ثلاثة

Marfat.com

أيام خرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتابوا وفرقوا بين الأمهات والأولاد ؛ وهذا يدلّ على أن توبتهم قبل رؤية علامة العذاب . وسيأتى مسندا مبيّنا فى سورة « والصافات »(١) إن شاء الله تعالى . ويكون معنى ﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ ﴾ أى العذاب الذى وعدهم به يونس أنه ينزل بهم ، لا أنهم رأوه عيانا ولا مخايلة ؛ وعلى هذا لا إشكال ولا تعارض ولا خصوص ، والله أعلم . وبالجملة فكان أهل نينوى فى سابق العلم من السعداء . ورُوى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : إن الحذر لا يردّ القدر ، وإن الدعاء ليرد القدر . وذلك أن الله تعالى يقول : « إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » . قال على رضى الله عنه : وذلك يوم عاشوراء .

قوله تعالى : ﴿ وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ قيل : إلى أجلهم ؛ قاله السُّدّى . وقيل : إلى أن يصيروا إلى الجنة أو إلى النار ؛ قاله ابن عباس .

قوله تعالى : وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ﴾ أى لاضطرهم إليه . « كُلُّهُمْ » تأكيد لـ « من » . « جَمِيعًا » عند سيبويه نصب على الحال . وقال الأخفش : جاء بقوله جميعا بعد كل تأكيدا ؛ كقوله : « لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ »(٢) .

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن عباس : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم حريصا على إيمان جميع الناس ، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة فى الذّكر الأول ، ولا يضلّ إلا من سبقت له الشقاوة فى الذكر الأول . وقيل : المراد بالناس هنا أبو طالب ؛ وهو عن ابن عباس أيضا .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٢١ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ١١٣ .

Marfat.com

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ « ما » نفى ؛ أى ما ينبغى أن تؤمن نفس إلا بقضائه وقدره ومشيئته و إرادته . ﴿ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ ﴾ وقرأ الحسن وأبو بكر والمفضل « ونجعل » بالنون على التعظيم . والرِّجس : العذاب ؛ بضم الراء وكسرها لغتان . ﴿ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أمر الله عز وجل ونهيه .

قوله تعالى : قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١)

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱنْظُرُوا مَا ذَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أمرٌ للكفار بالاعتبار والنظر فى المصنوعات الدّالة على الصانع والقادر على الكمال . وقد تقدّم القول فى هذا المعنى فى غير موضع مستوفى[(١)] . ﴿ وَمَا تُغْنِى ﴾ « ما » نفى ؛ أى ولن تغنى . وقيل : استفهامية ؛ التقدير أى شىء تغنى . ﴿ الْآيَاتُ ﴾ أى الدّلالات . ﴿ وَالنُّذُرُ ﴾ أى الرسل ، جمع نذير ، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم . ﴿ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى عمن سبق له فى علم الله أنه لا يؤمن .

قوله تعالى : فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ (١٠٢)

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ الأيام هنا بمعنى الوقائع ؛ يقال : فلان عالم بأيام العرب أى بوقائعهم . قال قتادة : يعنى وقائع الله فى قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم . والعرب تسمى العذاب أياما والنِّعم أياما ؛ كقوله تعالى : « وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ[(٢)] » . وكل ما مضى لك من خير أو شر فهو أيام . ﴿ فَانْتَظِرُوا ﴾ أى تربصوا ؛ وهذا تهديد ووعيد . ﴿ إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ أى المتربصين لموعد ربى .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٣٠ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٤١ .

Marfat.com

قوله تعالى : ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى من سنتنا إذا أنزلنا بقوم عذابا أخرجنا من بينهم الرسل والمؤمنين ، و « ثُمَّ » معناه ثم اعلموا أنا ننجى رسلنا . ﴿ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا ﴾ أى واجبا علينا ؛ لأنه أخبر ولا خُلف فى خبره . وقرأ يعقوب . « ثم نُنْجى » مخففا . وقرأ الكسائى وحفص ويعقوب . « ننجى المؤمنين » مخففا، وشدّد الباقون ؛ وهما لغتان فصيحتان : أنجى يُنْجِى إنجاء ، ونَجَّى يُنَجِّى تنجية بمعنًى واحد .

قوله تعالى : قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ يريد كفار مكة . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فِى شَكٍّ مِنْ دِينِى ﴾ أى فى ريب من دين الإسلام الذى أدعوكم إليه . ﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ من الأوثان التى لا تعقل . ﴿ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ أى يميتكم ويقبض أرواحكم . ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى المصدقين بآيات ربهم .

قوله تعالى : وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ « أن » عطف على « أَنْ أَكُونَ » أى قيل لى كن من المؤمنين وأقم وجهك . قال ابن عباس : عملك، وقيل : نفسك؛ أى استقم بإقبالك على

Marfat.com

ما أمرت به من الدين . ﴿ حَنِيفًا ﴾ أى قويما به مائلا عن كل دين . قال حمزة بن عبد المطلب [رضى الله عنه](١) :

حمدت الله حين هدى فؤادى * من الإشراك للدين الحنيف

وقد مضى فى « الأنعام »(٢) اشتقاقه والحمد لله . ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى وقيل لى ولا تشرك ؛ والخطاب له والمراد غيره ؛ وكذلك قوله : ﴿ وَلَا تَدْعُ ﴾ أى لا تعبد . ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ ﴾ إن عبدته . ﴿ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ إن عصيته . ﴿ فَإِنْ فَعَلْتَ ﴾ أى عبدت غير الله . ﴿ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أى الواضعين العبادة فى غير موضعها .

قوله تعالى : وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ أى يصبك به . ﴿ فَلَا كَاشِفَ ﴾ أى لا دافع ﴿ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ أى يصبك برخاء ونعمة : ﴿ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ ﴾ أى بكل ما أراد من الخير والشر . ﴿ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ ﴾ لذنوب عباده وخطاياهم ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بأوليائه فى الآخرة .

قوله تعالى : قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ ﴾ أى القرآن . وقيل : الرسول صلى الله عليه وسلم . ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى ﴾ أى صدق محمدا وآمن بما جاء به . ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾

(١) من ع . (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٨ ، وقد تكلم عنه المؤلف فى البقرة مستوفى راجع جـ ٢ ص ١٢٩ .

Marfat.com

أى الخلاص نفسه . ﴿ وَمَنْ ضَلَّ ﴾ أى ترك الرسـول والقرآن واتبع الأصـنام والأوثان . ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أى وبال ذلك على نفســه . ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أى بحفيظ أحفظ أعمالكم إنمـا أنا رسول . قال ابن عباس : نسختها آية السيف .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (١٠٩)

قوله تعـالى : ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ ﴾ قيـل : نسخ بآية القتال . وقيـل : ليس منسوخا ؛ ومعناه اصبر على الطاعة وعن المعصية . وقال ابن عباس : لمـا نزلت جمع النبيّ صلى الله عليه وسـلم الأنصار ولم يجمع معهم غيرهم فقال : " إنكم ستجدون بعدى أَثَرَةً[(١)] فاصبروا حتى تلقونى على الحوض " . وعن أنس بمثـل ذلك ؛ ثم قال أنس : فـلم يصبروا فأمرهم بالصبر كما أمره الله تعالى ؛ وفى ذلك يقول عبد الرحمن بن حسان :

ألا أبلغ معـاوية بن حرب　＊　أمـير المؤمنين نَثَا[(٢)] كلامى

بأنا صابرون ومنظروكم　＊　إلى يوم التغـابن والخصام

﴿ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ابتداء وخبر ؛ لأنه عز وجل لا يحكم إلا بالحق .

تمت سورة يونس ، والحمد لله وحده

---

(١) أى يستأثر عليكم فيفضل غيركم فى نصيبه من الفىء .　　(٢) النثا فى الكلام يطلق على القبيح والحسن .

محققـــه

أبو إسحاق إبراهيم أطفيش

تم الجزء الثـامن من تفسير القرطبي

يتـلوه إن شاء الله تعـالى الجزء التـاسع ، وأوله :

« ســـورة هود »

Marfat.com

Marfat.com